

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم العقيدة

جلال الدين السيوطي وآراؤه الاعتقادية

عرض ونقد

على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب

سعيد إبراهيم مرعي خليفة

إشراف الأستاذ الدكتور

محمود محمد مزروعة

الجزء الأول

١٤٢٠هـ — ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) سعيد إبراهيم مرعي خليفة كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراة في تخصص : العقيدة

عنوان الأطروحة : ((جلال الدين السيوطي وآراؤه الاعتقادية عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٦/٦/١٤٢١هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ محمود محمد مزروعة	الاسم : د/ عبد العزيز عبد اللطيف المرشدي	الاسم : د/ سعود عبد العزيز الخلف
التوقيع :	التوقيع :	التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم العقيدة

الاسم : د/ عبد الله بن محمد القرني

التوقيع :

- يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

ملخص الرسالة

تتضمن هذه الرسالة مقدمة وستة أبواب وخاتمة .

في المقدمة بيان سبب اختيار الموضوع ، ومنهجه ، وخطته .

الباب الأول : السيوطي وعصره ، في أربعة فصول ، أولها عصره من الناحية السياسية والدينية والعلمية ، وثانيها : نشأته وحياته وفي الثالث : شيوخه وتلاميذه وفي الرابع : مؤلفاته وآثاره .

والباب الثاني : منهج السيوطي في البحث و الاستدلال ، وهو ثلاثة فصول : الأول : منهجه في الاستدلال لمسائل العقيدة ، والثاني :موقفه من التأويل ، والثالث : نقده المنطق وعلم الكلام .

والباب الثالث : آراؤه العقدية ، وهو أربعة فصول : الأول : رأيه في معرفة الله عزوجل ، والثاني : توحيد الربوبية ، والثالث : توحيد الألوهية ، والرابع : توحيد الأسماء والصفات ،

والباب الرابع : عن النبوات وهي ستة فصول : الأول : مفهوم النبوة والرسالة ، والثاني : عن المسائل المتعلقة بالأنبياء والرسل عليهم السلام ، الثالث : الوحي وطرقه ، والرابع : طرق اثبات النبوة ، والخامس : صفات الرسل عليهم السلام ، والسادس : نبوة سيدنا محمد ﷺ وخصائصه .

الباب الخامس : اليوم الآخر ومقدماته .

وهو ثلاثة فصول : الأول : بعض أشراط الساعة ، والثاني :الحياة البرزخية ، والثالث : يوم القيامة ــ البعث والشفاعة والحساب والصراط والميزان والجنة والنار ورؤية الله تعالى يوم القيامة .

والباب السادس : موقفه من البدع والتصوف وفيه فصلان.

الأول : موقفه من البدع ، والثاني : موقفه من التصوف .

ثم الخاتمة ومن أهم نتائجها :

١ ــ السيوطي مكثر من التصنيف ،ولهذا الإكثار أسباب كثيرة معقولة ذكرتها .

٢ ــ شهد المترجمون للسيوطي بالإمامة في العلم وهذا دليل صحة ادعائه بلوغ مرتبة الاجتهاد

٣ ــ ومع بلوغ السيوطي هذه المنزلة والمكانة فإنه ليس بمعصوم من الخطأ والزلل كبقية البشر ، ودون الأنبياء والمرسلين ــ عليهم السلام ــ .

٤ ــ أحسن السيوطي في نقد المنطق وعلم الكلام ، والدعوة للتمسك بالسنة والتحذير من البدع ،وأحسن في توحيد الألوهية والربوبية وأحسن كلامه عن النبوات وكذلك الكلام عن اليوم الآخر ، وترجيحه نبوة سيدنا الخضر ــ عليه السلام ــ .

٥ ــ ولكنه ــ رحمه الله ــ جانب الصواب عند كلامه عن توحيد الأسماء والصفات ، وعن طريقته في التأويل ، وعن الأبدال والأوتاد والأقطاب والنجباء ، وأخطأ في قوله بتطور الولي بمعنى أن الولي يظهر ويرى بالعيان في أكثر من مكان واحد وفي لحظة أو في وقت واحد بعينه ، كما أنه لم يوفق في ترجيحة حياة الخضر عليه السلام .

الطالب	المشرف	عميد كلية الدعوة
سعيد إبراهيم مرعي خليفة	أ.د/ محمود محمد مزروعة	د/ عبدالله بن عمر الدميجي

شكر وتقدير ودعاء

الحمد لله المبتدي بالنعم ، بارئ النسم ، ورازق الأمم ، الذي علمنا ما لم نكن نعلم ، وكان فضله علينا عظيماً .

والصلاة والسلام على الرسول العلم ، محمد سيد العُرْبِ والعجم ، وعلى آله وأصحابه منارات الظُلَم ، وعلى أزواجه وأتباعه إلى يــوم أن يحشر الناس على قدم . وبعد :

فإنني أشكر لهذه البلاد المباركة حســن اســتضافتي ، وإكرامــها وفادتي ، حيث عوضني الله تعالى فيها – عن غربتي أحباباً وإخوانـــاً ، ورزقني فيها على الخير والعلم أبراراً وأعواناً .

أشكرها حكومة راشدة ، وشعباً وفياً كريماً مؤمناً ، داعياً للجميــع بالتوفيق والعافية والسداد ، والأجر الجزيل ، وأخص بالشكر منهم جامعة أم القرى الموقرة ، والقائمين عليها ، وخصوصاً كلية الدعــوة وأصــول الدين ، عميداً ، ووكيلاً ، وأعضاء هيئة تدريس ، وجميع المنسوبين إليها ، وكذا مكتبات الجامعة ومراكزها والقوامين عليها .

وإني إذ أشكر هؤلاء جميعاً لأتوجه بالشكر الخالص ، إلى استاذي وشيخي الأستاذ الدكتور/ محمود أحمد خفاجي / المشــرف الأول الــذي عايش معي هذه الرسالة حينما كانت مجرد فكرة ســاذجة ثـم تبلـورت موضوعاً جاداً ، أشرف عليه فترة من الزمن مباركة ، أفدت منه خلالــها الكثير والجميل ، فجزاه الله عني خير الجزاء وحفظه ومتعـــه بموفــور الصحة والعافية كما أتوجه بشكري وتقديري وإجلالــي إلــى أســتاذي وشيخي فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور/ محمود محمد مزروعــة / الــذي تولى الإشراف على هذا البحث من بعد أخيه وحبيبه الأسبق ، فتعهدني ،

وتعهد بحثي صغيراً وتولاه بالعناية والرعاية أستاذاً ومشرفاً وموجهاً ، وأباً حانياً ، ولم يضن عليّ بوقت أو بجهد أو بمال ، حتى نما هذا البحث وازدهى ، وتم واستوى على سوقه ، فله مني الشكر الجزيل ، والإعتراف بالجميل ، والدعاء الخالص بدوام السداد والتوفيق ، وأن يغمره ربه – جل وعلا – بموفور الصحة والعافية وأن يلبسه تاج السعادة في الدنيا والآخرة ، فجزاه الله عني خيراً من عالم عامل ، يشجعني عند الكسل ، ويثبتني عند الوجل ، ويحفزني لبلوغ الأمل .

كما يمتد شكري إلى جميع إخواني وزملائي ، وجيراني ، وإلى كل من قدم لي جهداً ، أو بذل لي دعوة ، أو أعانني بعرية كتاب أو دلني على مقال ، أو قدم لي دعماً مادياً أو معنوياً ، فللجميع شكري وتقديري ، وأسأل الله تعالى أن يتقبل مني لهم خالص دعائي .

الباحث

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلامضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ،ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ، وإنه لايضر إلا نفسه ولايضر الله شيئاً ، نسأل الله أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله ويتبع رضوانه ويجتنب سخطه ، فإنما نحن به وله ٠

وبعـــد فهـــذه مقدمة أبين فيها أسباب اختيار هذا الموضوع واستعرض فيها خطة بحثه ، وأوضح المنهج الذي سرت عليه فيه ٠

أ ـ أسباب اختيار الموضوع :

لقد قيض الله تعالى لهذا الدين علماء أفذاذاً ، قاموا بخدمته ونشر علومه وأحكامه ، ودعوا إلى مبادئه وأصوله ،وكان لكـــل مـــنهم مـــنهجه فـــي الدعوة إلى الله ومجادلة الخصوم ، وتثبيت عقائد الإسلام ، والدفاع عنها ضد الأفكار الغربية ، والمناهج المريبة ٠

كان جلال الدين السيوطي واحداً من هؤلاء الأعلام ، ولقد حظي السيوطي بدراسات عديدة من قبل كثير من الباحثين ، فمـــنهم مـــن درس جهـــوده العـــلمية من جهة تفسير القرآن الكريم وعلومه ،ومنهم من قام بإبراز أعماله كمحدث حافظ لأحـــاديث المصـــطفى محمد ﷺ ومنهم من جد واجتهد في بيان براعته اللغوية وأعماله الأدبية٠ وغيره من حاول توضيح ملكته الفقهية والأصولية ٠

غيـــر أنـــني لـــم أجد بين هؤلاء ـــ على حد علمي القاصر ـــ من عمد إلى آرائه العقدية فتناولها بالتوضيح والبيان ،وترســـخ فـــي نفسي أن علماً كالإمام جلال الدين أبي الفضل عبد الرحمن السيوطي لابد وأن يكون له مساهمة أكيدة في جانب البحوث العقدية والكلامية ٠

لذلـــك آثـــرت أن أدنو ـــ على وجل ـــ من هذا الباب فأطرقه ، لأقف على حقيقة ماتركه من آراء وجهود في مجال الاعتقاد ٠

كما أن دراسة الآراء الاعتقادية لأحد الأئمة البارزين ، من أعظم الوسائل لأن ينال الباحث فيها قسطاً كبيراً من الفائدة العلمية التي تضاف إلى مداركه فتزيدها وتنميها نظراً لما تتيحه هذه الدراسات من الاطلاع الواسع على اكثر قضايا العقيدة ومســـائلها كمـــا انها تلزمه ببيان عقيدة السلف أهل السنة ، وآرائهم مما يحفزه على البحث عن الأدلة ومناقشتها والموازنة بينها ، وبيان الحق ورد الباطل ، ووزن ذلك كله بميزان الكتاب والسنة ٠

ولذلـــك وقع اختياري على هذا الموضوع ، وتوجهت النية إلى الكتابة فيه ، رغبة في تسليط شيء من الضوء لإنارة جـــانب من جوانب السيوطي التي قد تخفى على كثير من طلاب العلم ، فعقدت العزم ، وشددت الحزم مستعيناً بالله ـــ جل وعلا ـــ ، ثم خضت بسفينتي الضعيفة ذلك البحر الخضم ، وأول مافعلته حينئذ اختيار الاسم لهذا المولود الجديد ، فسميته " جلال الدين السيوطي وآراؤه الإعتقادية ، عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة " ٠

ب ـ أما منهجي الذي سرت عليه خلال البحث :

١ـــ أبدأ كل مسألة بالتعريف بها في اللغة والاصطلاح حتى يكتمل لدى القارىء تصورها ومعرفتها ٠

٢ـــ ثم أورد كلام السيوطي في نفس المسألة مع أدلته ٠

٣ـــ أورد أقوال العلماء الأخرى في المسألة إن وجد ، كل قول بدليله ٠

٤ـــ أورد كلام علماء أهل السنة وما استدلوا به من أدلة ثم أناقش أدلة المخالفين لأهل السنة ٠

٥ـــ أوضح وجه التوافق أو الاختلاف بين رأي السيوطي وبين عقيدة أهل السنة

٦ـــ الاعتماد على مؤلفات السيوطي المقطوع بنسبتها إليه في عرض أقواله وآرائه ٠

٧ـــ عرض عقيدة أهل السنة من خلال المصادر الأصلية ٠

٨ـــ الاستشهاد في الاستدلال على الرأي الصحيح بالآيات القرآنية وأحاديث الصحيحين أو أحدهما ، مع عزوها إلى أماكنها وأرقامها ٠

٩ــ الــرجوع إلى كتب السنة الأخرى إن لم أجد بغيتي في الصحيحين أو في أحدهما مع بيان درجة الحديث وأقوال الأئمة فيه ٠

١٠ــ حــاولت قــدر طاقتي أن أشرح المصطلحات التي يبعد فهمها على القارىء ، وأبين معانيها ، وكذلك المفردات الغريبة من قواميس اللغة ٠

١١ــ التعريف بالفرق التي وردت خلال البحث ، وكذلك المذاهب والطوائف المختلفة ٠

١٢ــ ترجمت للأعلام الذين ذكروا في البحث ، إلا مالم يسعفني الوقت او المصادر في ترجمتهم ٠

١٣ــ وضعت فهارس الرسالة المطلوبة ٠

خطة البحث :

وجاءت خطة البحث في مقدمة وستة أبواب ، وخاتمة ٠

ــ أمــا المقدمــة فجعلتها متضمنة أسباب اختيار الموضوع ، وخطة البحث ومنهجي العلمي الذي سرت عليه أثناء البحث ٠

الباب الاول : السيوطي عصره وحياته ٠

وفيه ثلاثة فصول :

الفصل الأول : عصر السيوطي : وفي ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : الحالة السياسية ٠

المبحث الثاني : الحالة الدينية ٠

المبحث الثالث : الحالة العلمية ٠

الفصل الثاني : نشأته وحياته : وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول :اسمه ونسبه ٠

المبحث الثاني : ولادته ونشأته وحياته ٠

المبحث الثالث : طلبه العلم ورحلاته ٠

المبحث الرابع : مكانته العلمية ٠

المبحث الخامس : السيوطي بين أنصاره وخصومه ٠

الفصل الثالث : شيوخه وتلاميذه : وفيه مبحثان :

المبحث الأول : شيوخه ٠

المبحث الثاني : تلاميذه ٠

الفصل الرابع : مؤلفاته وآثاره : وفيه مبحثان :

المبحث الأول : بيان الأقوال في عدد مصنفاته وأسباب كثرتها

المبحث الثاني : بيان أشهر مصنفاته في مختلف الفنون ٠

الباب الثاني : منهج السيوطي في البحث والاستدلال : ***فيه ثلاثة فصول :***

الفصل الأول : منهجه في الاستدلال لمسائل العقيدة ٠

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : سمات منهج السيوطي

المبحث الثاني : منزلة العقل عند السيوطي

المبحث الثالث: القياس وأهميته

الفصل الثاني : موقفه من التأويل : فيه ستة مباحث :

المبحث الأول : في بيان المحكم والمتشابه

المبحث الثاني : هل المتشابه ممايمكن الاطلاع عليه؟

المبحث الثالث:هل تعتبرآيات الصفات من المتشابه؟

المبحث الرابع : معنى التأويل ٠

المبحث الخامس : التأويل عند السيوطي ٠

المبحث السادس:اتهام السيوطي الإمام احمد بالتأويل والرد عليه ٠

الفصل الثالث : موقفه من المنطق وعلم الكلام :فيه مبحثان :

المبحث الأول : موقف السيوطي من المنطق ٠

المبحث الثاني : موقف السيوطي من علم الكلام٠

الباب الثالث :آراء السيوطي العقدية : *فيه ثلاثة فصول :*

الفصل الأول : معرفة الله عزوجل وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : هل معرفة الله عزوجل فطرية أم نظرية؟

المبحث الثاني : أول واجب على المكلف ٠

المبحث الثالث : إيمان المقلد ٠

الفصل الثاني : توحيد الربوبية ٠

الفصل الثالث: توحيد الألوهية : وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف توحيد الألوهية ٠

المبحث الثاني : أساليب القرآن في تقرير توحيد الألوهية

المبحث الثالث : ماذكره السيوطي من نواقض التوحيد أو نواقصه ٠

الفصل الرابع : توحيد الأسماء والصفات : وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تعريف توحيد الأسماء والصفات

المبحث الثاني : منهج السيوطي في توحيد الأسماء والصفات ٠

الباب الرابع : النبوات ٠ *وفيه ستة فصول :*

الفصل الأول : مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما ٠ وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : النبوة والنبي في اللغة ٠

المبحث الثاني : الرسالة والرسول في اللغة ٠

المبحث الثالث : النبي والرسول في الاصطلاح ٠

الفصل الثاني : الأنبياء والرسل ٠ وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : وجوب الإيمان بهم جميعاً ٠

المبحث الثاني : لب دعوتهم ٠

المبحث الثالث : عددهم ٠

المبحث الرابع : المفاضلة بينهم ٠

الفصل الثالث : الوحي وطرقه ٠ وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الوحي ٠

المبحث الثاني : طرقه ٠

الفصل الرابع : طرق إثبات النبوة ٠ وفيه مبحثان :

المبحث السابع : تطور الولي ٠

وأخيراً : الخاتمة التي سجلت فيها أهم نتائج البحث ٠

وبعد : فهذا جهدي القاصر ، الذي لايحق لي أن أدعى له الكمال — قطعاً — وحسبي أنني قد بذلت جهدي ،واستفرغت وسعي ، وأضنيت نفسي ، ولكن تقاصرت همتي ، وضعف عزمي ، وعجزت قواي عن بلوغ ماكان ينبغي ٠

وإنني لابرأ إلى الله — عزت قدرته — من كل رأي ، ومن كل قول وفكر ، ومن كل مذهب وفهم خالف الحق المنزل في كتاب الله تبارك وتعالى أوسنة رسوله ﷺ الصحيحة ، على مراد الله — عزوجل — وعلى مراد رسوله ﷺ — وعلى فهم سلف هذه الأمة الصالحين ،من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان من أئمة أهل السنة والجماعة ٠

وصلى الله تعالى وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠



الباب الأول

{ السيوطي عصره وحياته }

الفصل الأول

عصر السيوطي

تمهيد :

إذا نظرنا إلى العصر في حقبة تاريخية محددة ، وجدناها عبارة عن مجموعة من العناصر المتفاعلة ، التي يؤثر كــل عنصر في الآخر ويتأثر به تأثُّراً واضحاً وهكذا كان عصر السيوطي ، كبقية الأعصار على امتداد الزمن ، فجلال الدين السيوطي باعتباره واحداً من أفراد عصره كان واحداً من نتاج ذلك العصر ، وشجرة باسقة نمت فيه ، وهو باعتباره واحداً من العلماء المعدودين الكبار ، فقد ترك بصماته الواضحة هو الآخر على صفحة عصره الذي عاش فيه .

ولا تكــتمل المعرفة التامة بعالم من العلماء إلا بمعرفة عصره من جوانبه المختلفة ، وسوف نركز ـــ إن شاء الله ـــ على عصر السيوطي من نواح ثلاث :

١- الناحية السياسية .

٢- الناحية الدينية .

٣- الناحية العلمية .

المبحث الأول : الحالة السياسية

لم يشتغل السيوطي بالسياسة ، وإن كان قد تقلد بعض الوظائف إلا أنها كلها لا تعدو كونها وظائف علمية دينية لا صلة لها بسياسة الدولة .

وقد عاصر السيوطي ثلاثة عشر سلطاناً من السلاطين الجراكسة (أو الشراكسة)[١] وهم كلهم من المماليك الذين حكموا مصر في تلك الفترة[٢] .

---

(١) قــال بعضهم : انهم من جنس الترك ـــ انظر سمط النجوم العوالي بأنباء الأوائل والتوالي ـــ عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصاص المكي (١٠٤٩هـــ = ١١١١هـــ) المطبعة السلفية (جـــ٤/٣٠) .

وقال بعضهم " بل هم جنس آخر لا صلة له بالجنس التركي المغولي التوراني لا باللغة ولا بالنسب ـــ انظر نفس المصدر والصفحة

(٢) وهم على الترتيب الآتي :

١- الملك الظاهر سيف الدين جقمق العلائي (٨٤٢هـــ = ١٤٣٨م) إلى (٨٥٧هـــ= ١٤٥٣م) .

٢- الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان بن جقمق وكانت مدة ولايته أربعين يوماً من عام (٨٥٧هـــ = ١٤٥٣م) .

٣- الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر أينال الاشقر العلائي وكانت ولايته من (٨٥٧هـــ = ١٤٥٣م) إلى (٨٦٥هـــ = ١٤٦١م) نحو من ثمان سنين .

٤- المــلك المؤيــد أحمــد بن الملك الأشرف أينال العلائي ، وكانت ولاتيه نحواً من خمسة أشهر تبدأ من ١٤ من جمادي الأولى عام (٨٦٥هـــ = ١٤٦١م) إلى ١١ من رمضان من نفس السنة .

٥- الملك العادل سيف الدين خشقدم الناصري ، وكانت ولايته نحواً من ست سنين وخمسة أشهر (٨٦٥هـــ ١٤٦١م) إلى (٨٧٢هـــ = ١٤٦م)

٦- الملك الظاهر أبو النصر بلباي المؤيد ، وكانت مدة ولايته شهرين إلا أربعة أيام من عام (٨٧٢هـــ = ١٤٦٧م) .

٧- الملك الظاهر أبو سعيد تمر بغا الظاهري (٨٧٢هـــ= ١٤٦٧م) إلى (٨٧٣هـــ= ١٤٦٨م).

٨- السلطان الأشرف قايتباي ، وكان أشرفهم وأفضلهم وأحمدهم سيرة ، من (٨٧٣ هـــ = ١٤٦٨م) إلى (٩٠١هـــ = ١٤٩٦م) .

٩- الملك الناصر أبو السعادات محمد ابن السلطان الأشرف قايتباي ، وكان يغلب عليه الجنون والسفه من (٩٠١هـــ = ١٤٩٦م) إلى (٩٠٤هـــ = ١٤٩٨م) .

وكانت السمة البارزة في تولي هؤلاء الملوك زمام الحكم هي سمة الغلبة والقهر ، فكان أحدهم يتولى سلطان المملكة فإذا غُضب عليه وثب عليه آخر ، فقهره قتلاً أو سجناً ، وانتزع منه الملك ثم يؤول الملك لمن بعده بنفس الطريقة والكيفية التي آل بها إلى من قبله .

ومن الطبيعي أن يصطبغ الحكم في هذه الدول بالصبغة القهرية العنيفة المتعسفة(١) ، لأنها دول عسكرية تملكت بالقوة والقهر بطريقة ما يشبه الانقلابات العسكرية في العصر الحاضر ، فإذا أضيف إلى هذا أن هؤلاء الملوك والسلاطين كانوا من المماليك الذين اشتروا بالمال كعبيد وخدم زاد الأمر في نفوسهم حدة وقسوة وبطشاً في أساليب الحكم والإدارة ، مع ما يحيط بذلك من عقدة الرق(٢) .

" ولعله بسبب أن المماليك كان ينقصهم نبل الأصل ، فإنهم حرصوا منذ قيام دولتهم على إسباغ الشرعية على حكمهم ، عن طريق نقل الخلافة إلى مصر ، وقد ساعدتهم الظروف على ذلك ، حينما قتل المغول بقيادة هولاكو ، المستعصم آخر خليفة عباسي في بغداد(٣) ، فلجأ إلى مصر عم له هو المستنصر بالله ومن ثم أسرع بيبرس بإعلان خلافته في عام (٦٥٩هـ = ١٢٦١م) وذلك قبل مولد السيوطي بنحو ١٩٠ سنة حيث بقيت الخلافة العباسية في مصر إلى وقت مجئ العثمانيين ، واستيلائهم على مصر وغيرها من البلاد العربية الاسلامية ولكن نظام الخلافة العباسي هذا ، نشأ ضعيفاً في مصر فكان الخليفة بمثابة أمير في حاشية السلطان(٤) ، يقول المقريزي(٥) : " حسبه أن يقال له أمير المؤمنين ، فكان عملهم الأول والأخير اسباغ الشرعية على حكم السلاطين والأمراء التابعين لهم ، أو حتى ملوك الإسلام من أصدقاء

١٠- الملك الظاهر قانصوه ، خال الملك الناصر محمد بن قايتباي ، وكانت مدة ولايته نحواً من ستة أوسبعة أشهر (٩٠٤هـ = ١٤٩٨م) إلى (٩٠٥هـ = ١٥٠٠م) .

١١- الملك الأشرف جان بلاط ، خلع بعد ستة أشهر من ولايته (٩٠٥هـ = ١٥٠٠م) إلى (٩٠٦هـ = ١٥٠١م) .

١٢- الملك العادل طومان باي ، وما استكمل يوماً واحداً ، بل هجم عليه العسكر وقتلوه (٩٠٦هـ = ١٥٠١م) .

١٣- الملك الأشرف قانصوه الغوري وكانت ولايته من (٩٠٦هـ=١٥٠١م) وحتى (٩٢٢هـ=١٥١٦م) وكان ذا دهاء ورأى استخدمهما حتى تمكن من الملك ثم شاع في آخر أيامه الظلم والفساد فقتل في مرج دابق أثناء حربه مع السلطان سليم الأول العثماني . =

= انظر في كل ما تقدم : " سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي " تأليف عبدالملك ابن حسين بن عبدالملك العصاص المكي (٣٩/٤-٥٧) وكذلك : " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " (٢٥٦/١٥) وما بعدها من أحداث عام (٨٤٢هـ إلى آخر الجزء . ت:د. إبراهيم علي طرخان ، مراجعة د.مصطفى زيادة ، ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (١٣٩١هـ=١٩٧١م) .

(١) انظر د/ عبدالمنعم ماجد : عصر السيوطي ص/٢٤ - بحث ضمن البحوث التي القيت في الندوة التي أقامها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (١٩٧٦/١٠/٦م) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) انظر : نفس المصدر .

(٣) كان سقوط بغداد في أيدي المغول (التتار) على يد هولاكوخان في عام ٦٥٦هـ ، انظر ابن كثير : البداية والنهاية حوادث سنة ٦٥٦هـ = وابن الأثير : الكامل ، وانظر : سعيد ابراهيم مرعي خليفة : النبوة عند ابن تيمية ورده على المخالفين جـ١٢/١ رسالة ماجستير بجامعة أم القرى عام (١٤١٠هـ = ١٩٩٠م) . كلية أصول الدين .

(٤) د/ عبد المنعم ماجد : عصر السيوطي ص/٢٤ .

(٥) هو : أحمد بن علي بن عبدالقادر ، أبو العباس الحسيني العبيدي ، تقي الدين المقريزي مؤرخ الديار المصرية ، أصله من بعلبك ، ونسبته إلى حارة المقارزة (من حارات بعلبك في أيامه) ولد بالقاهرة عام (٧٦٦هـ= ١٣٦٥م) ونشأ بها وتوفي بها عام (٨٤٥هـ=١٤٤١م) وولي فيها الحسبة والخطابة والامامة مرات ، عرض عليه قضاء دمشق فأبى ، من تآليفه : " المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار " ط ويعرف بخطط المقريزي ، و " السلوك بمعرفة دول الملوك " خ ، و " تاريخ الاقباط " ط وغيرها انظر : البدر الطالع ٧٩/١ - التبر المسبوك ٢١/ ، وخطط مبارك ٦٩/٩ ، والضوء اللامع والاعلام ١٧٧/١ .

دولـــتهم "[١] ويتضح من هذا أن الخليفة العباسي في مصر كـــان يعتبر رأس التنظيم السياسي في الدولة ، ولكن فقط لإضـــفاء الصفة الشرعية على الملوك والسلاطين ، بمعنى أنه ليس له أمر ولا نهي ولا مشاركة فعالة في أمور الإدارة أما الملوك المتغلبة فهم أصحاب الكلمة والأمر والنهيّ .

وإنـــنا لنرى ــ فيما ينقله السيوطي ــ أن الخليفة كان إذا بويع بالخلافة وتقلد أمورها ، فإنه يخطب خطبة يفوض فيهـــا السلطان أو الملك تفويضاً كاملاً في إدارة البلاد ، وتسيير دفة الحكم ، ولا يبقى له سوى ذكر اسمه في خطب الجمع والأعياد .

ومـــن أمثلة ذلك أنه لما أقيم قلاوون الصـالحي ، فوض إليه الخليفة ، و لقبه بالملك المنصور[٢] وكان مما جاء في التفويض من الخليفة للصالحي أنه :

" يفـــوض له مـــا فوض الله إليه من أمر الخلق ، ليقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحق وأن يوليه ولاية شرعية تصح بها الأحكام وتنضبط أمور الإسلام "[٣] .

ومـــن أمثـــلة ذلـــك أيضاً ما كتبه الخليفة أبو الربيع سليمان العباسي في تفويض الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشـــنكير المنصـــوري حيث يقول : " وإني رضيت لكم بعبد الله تعالى الملك المظفر ركن الدين بيبرس نائباً عني لملك الديـــار المصرية والبلاد الشامية ، واقمته مقام نفسي... فمن أطاعه فقد أطاعني ، ومن عصاه فقد عصاني ، ومن عصاني فقد عصى أبا القاسم ابن عمي ــ صلى الله عليه وسلم ــ "[٤] .

وكان بعضهم يخاطب السلطان بقوله : " فوضت إليك جميع أمر المسلمين ، وقلدتك ما تقلدته من أمور الدين "[٥] .

وإذا كان أغلب ملوك المماليك قد تولوا السلطان بالغلبة والقهر فإن آخرهم وهو السلطان قانصوه الغوري[٦] ، قد تـــولى الســـلطنة عن طريق الاختيار من قبل رجال العلم في مصر الذين كانوا بمثابة الزعماء للمصريين فقد كان الغوري محـــباً لهم ، ولذا اجتمعت كلمتهم على اختياره ملكاً عليهم[٧] . ولعل السبب في هذا الاختيار هو ما لمسوه في الغوري من جديته وتواضعه في بداية عهده ، فقد كانت له " آثار جميلة في طريق الحاج من عقبة أيلة ، ومآثر بمكة المشرفة وغيرها ، وكـــان يتنزل مع الأمراء من غير تشديد عليهم ولا إظهار عظمة وأمر ونهي ، وذلك في ابتداء أمره إلى أن تمكن من قوته وبأسه "[٨] .

---

(١) انظر : د/ عبد المنعم ماجد : عصر السيوطي (ص٢٤) .
(٢) حسن المحاضرة ١٠٦/٢ .
(٣) نفس المصدر ١٠٨/٢ .
(٤) حسن المحاضرة ١١٣/٢ ، وانظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة (٢٦٣/٨) .
(٥) صبح الأعشى ٢٨٠/٣ للقلقشندي .
(٦) سبقت الإشارة إليه قبل قليل .
(٧) انظر : د. عبدالمنعم ماجد : عصر السيوطي ص/٢٥ .
(٨) عبدالملك بن حسين بن عبدالملك العصاص المكي : سمط النجوم العوالي في أبناء الأوائل التوالي ٥٠/٤ .

ثم بعد ذلك لما استتب له الأمر ، واجتمعت في يده مقاليد الحكم ، اتخذ لنفسه مماليك جدداً كأعوان وحاشية ، " صاروا يظلمون الناس ، ويعاملون الخلق عسفاً وغشماً ، وهو يغضي عنهم ويتغافل ، فأظهروا الفساد ، وأهلكوا العباد وأكثروا الفساد وطغوا في البلاد ، وصار يصادر الناس ويأخذ أموالهم بالقهر والبأس ، وكثرت العوانية[١] من أيامه لكثرة ما يصغي إليهم ، وصاروا إذا شاهدوا أحداً توسع في دنياه ، وأظهر التجمل في ملبسه و مثواه ، وشوا به إلى السلطان ، فيرسل إليه بطلب الفرض ، ويصفي أمواله ، ويسلمه إلى الصوباشي[٢] ليأخذ ماله ويهلك أهله وعياله ، وجمع من هذا الباب أموالاً عظيمة ، وخزائن واسعة ذهبت في آخر الأمر سدى وتفرقت بيد العدى ، وتمزقت بدداً ، وأما الميراث فبطل في أيامه ، وصار إذا مات أحد يأخذ ماله جميعه ، للسلطنة ، ويترك أولاده فقراء... وكثر ظلمه في آخر أيامه ، فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمدلله رب العالمين "[٣] وكانت نهاية " الغوري " في موقعة " مرج دابق "[٤] على يد السلطان " سليم الأول العثماني "[٥] بين الظهر والعصر يوم الأحد خامس عشر رجب سنة (٩٢٢هـ = ١٥١٦م)[٦] .

وفي هذه الآونة نرى " جماعة العربان " الذين كانوا يقيمون في مصر ، وكانوا قد قدموا من قبائلهم في أيام الفتوح وبعدها ، وأصبح لهم سطوة وشوكة ، و لشيوخهم شهرة السلاطين ، وكانوا يرون أنفسهم أحق بحكم مصر من طبقة الرقيق (المماليك) لذلك كثيراً ما وقع التصادم بينهم وبين المماليك ، وكان في قلب المماليك الشئ الكثير ضدهم[٧] .

كما نرى كذلك فئة العلماء الذين كانت لهم مكانة عليا ، ومنزلة عظيمة في نفوس الناس بعامة ، والسلاطين بخاصة . وسنتناولها بالتفصيل ـ إن شاء الله عند كلامنا عن الحالة الدينية .

ويتلخص التنظيم السياسي في مصر في عصر جلال الدين السيوطي كما يلي :

<u>أولاً :</u> الخليفة العباسي ، يبايعه السلطان والعلماء والقضاة ثم يفوض الأمور العامة إلى السلطان ـ كما قدمنا ـ وليس له من الأمر شئ سوى أنه يؤتى به في المواقف الرسمية لتنمية الحاشية ويدعى له قبل السلطان على المنابر ، إلا في مصلى السلطان ، خاصة في مصلاه بقلعة الجبل ، والسلطان يستبد بما عدا هذا من أمور الدولة .

<u>ثانياً :</u> السلطان المملوكي ، فالسلطنة ـ هي الطبقة الثانية ـ من طبقات الولايات ، وكان يتولاها الشخص بإحدى طرق ثلاث :

---

(١) يعني العيون والجواسيس .

(٢) لعله خازن الأموال أو المسئول عن جمع الضرائب .

(٣) عبدالملك بن حسين : سمط النجوم العوالي ٥١/٤ .

(٤) موضع قرب " حلب " ببلاد الشام .

(٥) هو : السلطان سليم ابن السلطان با يزيد ابن السلطان محمد خان الفاتح " فاتح القسطنطينية " ابن السلطان مراد الثاني ابن السلطان محمد ابن يلدرم : من سلاطين آل عثمان ، مولده سنة (٨٧٢هـ = ١٤٦٧م) وهو أول من ملك مصر من آل عثمان سنة (٩٢٢هـ = ١٥١٦م) و كانت مدته ثمان سنين وأياماً ، وتوفي سنة (٩٢٦هـ = ١٥٢٠م) تولى مصر منها أربعة سنوات ، وتولى بعده ابنه السلطان سليمان . انظر : سمط النجوم العوالي ٧٠/٤-٧٣ .

(٦) انظر : سمط النجوم العوالي ٥٢/٤ .

(٧) انظر : د. عبدالمنعم ماجد : عصر السيوطي (ص/٢٥) ، وسمط النجوم العوالي (ص/٥٣)

ـ **أحدها** : العهد من الخليفة .

ـ **ثانيها** : العهد من السلطان الذي قبله[١] .

ـ **ثالـثها** : وكان هو الغالب أن يتولاها عن طريق القهر والتغلب ، بقتل من سبقه أو عزله أو نفيه ، وكان السلطان يجمع بيـن لقب الملك ، ولقب السلطان وهو ما ذكره صاحب النجوم الزاهرة في تأريخه لهؤلاء السلاطين ، فإن الباحث يجد أنه كثيراً ما يجمع بين الملك والسلطان عند الحديث عنهم[٢] .

ثالثاً : الأمراء ، وهم طبقات :

ـ **الطبقة الأولى** : أمراء المئين ، مقدموا الألوف ، وعدة كل منهم مائة فارس ، وكل منهم مقدم على ألف فارس ممن دون الأمراء ، وهذه الطبقة أعلى مراتب الأمراء ، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف[٣] ، ويظل الأمير يلقب بلقب الأمير حتى يعتلي منصب الولاية العامة على البلاد ، فيلقب بلقبي السلطان والملك[٤] .

.**الطبقة الثانية** : أمراء الطبلخاناة ، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارساً ، وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارساً وقد تصل إلى ثمانين ولا يقلون عن الأربعين[٥] .

.**الطبقة الثالثة** : أمـراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فوارس ومنهم من يكون له عشرون فارساً ، ولا يعد إلا في أمراء العشرات ، وهذه الطبقة لا ضابط لعددها ، ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاة ونحوهم من أرباب الوظائف[٦] .

.**الطبقة الرابعة** : أمـراء الخمسات ، وهم أقل من القليل خصوصاً بالديار المصرية ، وهم أكابر الأجناد ، وأكثرهم من أولاد الأمراء رعاية لسلفهم .

رابعاً : جماعات العربان ، الذين كانوا يتهددون المماليك بين آونة وأخرى ، ويرون أنفسهم أشرف من المماليك .

خامسـاً : طبقة العلماء والقضاة والأئمة الذين كانوا بمثابة الزعماء الدينيين لعامة الناس ، وعن طريقهم تتم مبايعة الخليفة وفي بعض الأحيان مبايعة السلطان وتنصيبه هذه هي حالة التنظيم السياسي في مصر باختصار في هذه الفترة .

وإن ممـا يلحظه الباحث في هذه الفترة أن الحالة السياسية في مصر لم تكن مستقرة بل كانت مليئة بالاضطرابات والقلق وتولية سلطان وعزل آخر ، بل قتله ، أو سجنه ، وفي بعض الأحيان سجن الخليفة نفسه أو نفيه ، وكان الأمير الذي يقهر ويغلب ويتسلطن هو الذي يحظى بالشرعية من الخليفة ، وهكذا .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ٢٥٢/٩ .

(٢) ابـن تغـري بـردي : الـنجوم الزاهـرة جـ٦ صـفحات (٣١٩،٣٦١،٣٦٤ ،٣٠،١٢٠،١٦٠،٢٢٧،٣٠٣) جـ٧ / صـفحات (٣،٤١،٧٢،٩٤،٢٥٩،٢٩٢) جـ٨ / (٣،٤١،٥٥،٨٥، ١١٥، ٢٣٢) ففـي كـل هـذه الصـفحات يسمى صاحب الولاية العامة ، السلطان والملك...

(٣) القلقشندي : صبح الاعشى ١٤/٤ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ١٥/٤ .

(٦) نفسه .

المبحث الثاني : الحالة الدينية

تعتبر مصر من أكثر الأقاليم الاسلامية تأثراً بالعاطفة الدينية حيث روح التدين تسيطر على نفوس أفرادها ، ويشتد إلــتزامهم بما يرون في اعتقادهم أنه من الدين ، لذلك فإنه ليس من الغرابة أن يظهر كثير من العلماء المبرزين في عصر جــلال الديــن الســيوطي ، وكذلــك ليس من الغرابة أن تكثر دور العلم ومكاتب القرآن وحفظته ، وأن يزداد عدد القراء والمعــلمين ، وأن تســري روح التدين بين أفراد المجتمع على اختلاف طبقاته بدءاً من الملوك والسلاطين ، وحتى العامة والسوقة .

أما عن السلاطين فقد ظهروا بمظهر حماة الإسلام الذائدين عن حياضه ، والقاهرين لأعدائه .

فقد أسرعوا ــ كما قدمنا في الحالة السياسية ــ إلى إقامة الخلافة وتنصيب الخليفة في القاهرة بدلاً من بغداد وهذا مطــلب شــرعي ديني هام في حياة الأمة الإسلامية ، إذ كيف يعيش المسلمون وهم أعظم الأمم بغير خليفة ينهض بأعباء الأمــة نيابــة عــن الرســول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد وفاته(١) يتكلم السيوطي عن حالة المسلمين عندما قتل الخليفة المستعصــم العباسي ببغداد على يد التتر ، فيصفها بعبارة تبعث في نفس المسلم الحزن والحسرة فيقول : " ولما أخذ التتار بغــداد ، وقــتل الخليفة ، وجرى ما جرى ، أقامت الدنيا بلا خليفة ثلاث سنين ونصف سنة ، وذلك من يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة ست وخمسين (٦٥٦هــ) وهو يوم قتل الخليفة المستعصم ــ رحمه الله ــ إلى أثناء سنة تسع وخمسين(٢) (يعــني ٦٥٩هــــ) " وهكذا بغير خليفة ثلاث سنوات ونصف حتى أذن الله تعالى بقيام الخلافة مرة أخرى ظلت الأمة في القاهــرة وهــذا الشــعور نابع عن عاطفة دينية إسلامية ومما لا شك فيه أنه كان شعوراً عاماً لدى أفراد الأمة لذا كان من الضروري أن يسارع السلاطين إلى إقامة الخلافة في القاهرة وذلك لأسباب منها :

١- إضفاء الصفة الشرعية الإسلامية على حكمهم .

٢- تلبية وتنفيذ هذا المطلب الديني الإسلامي لأن اهماله يعتبر نقصاً كبيراً في الأمة .

٣- الظهور بمظهر الحكام الدينيين الذين يذودون عن الإسلام ويحمون المسلمين من غارات أعاديهم .

٤- كسب ود المسلمين المحكومين وحبهم لهم وهذا مطلب أساسي لكل حاكم ، فكل سلطان يريد من شعبه ورعيته أن تنقاد له بالحب والاحترام أكثر مما تنقاد له بالخوف والرهبة .

ثــم لــم يقتصر السلاطين على هذا ، بل كانوا على جانب كبير من احترام العلم والعلماء وطاعتهم في كثير من الأمور والنزول عند فتاواهم ، وعدم اهمال آرائهم وتوجيهاتهم .

---

(١) القلقشندي : صبح الاعشى ٢٥٤/٣ .

(٢) حسن المحاضرة ٥٢/٢ .

ثـم اهــتمامهم كذلــك ببــناء المدارس الدينية وتجهيــزها بما تحتاجه من مدرسين وكتب ومرافق يدل عــلى حاسة دينية قوية لديهم فهم في الجملة كانوا حريصنين علىأن يظهروا في زي القائمين على مصالح الرعية ، وحكم الناس بالعدل ، فأنصفوا المظلوم ، وخلصوا الحقوق إلى حد ما[١].

وإذا أردنا أن نورد بعض الأمثلة على ذلك فإننا نجد الظاهر بيبرس قد تمكن من قلوب الرعية بإحسانه إليهم وبذله وســخائه[٢] قــال صــاحب النجوم الزاهرة : " وأما صدقاته فكان يتصدق في كل سنة بعشرة آلاف أردب قمح في الفقراء والمســاكين وأربــاب الزوايا ، وكان يرتب لأيتام الأجناد ما يقوم بهم على كثرتهم ، ووقف وقفاً على تكفين أموات الغرباء بالقاهرة ومصر ، ووقفاً ليشترى به خبز ويفرق في فقراء المسلمين "[٣] .

إذن فلا يبعد أن يلتف الناس حوله ، ويكادون يجمعون على محبته لعدله وإحسانه .

غيــر أنــه على الرغم مما كان يتمتع به من نفوذ الكلمة وقوة الشكيمة وحب الناس له ، فإن العلماء كانوا يقفون أمامــه وقفة دينية تمليها عليهم أمانتهم الاسلامية إذا وجدوا ثمة انحراف أو عدول عن الجادة . فقد أفتاه جماعة في أمر بما يوافق هواه ، فهب الشيخ الامام محيي الدين النووي في وجهه قائلاً : " أفتوك بالباطل "[٤] .

ولما خرج إلى قتال التتار بالشام أخذ فتاوي العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو ، فكــتب له فقهــاء الشام بذلك " فقال : هل بقي أحد ؟ فقيل : نعم ، بقي الشيخ محيي الدين النووي فطلبه فحضر ، فقال : اكتب خطك مع الفقهاء ، فامتنع ، فقال : ما سبب امتناعك ؟ فقال : أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار ، وليس لك مــال ، ثــم من الله عليك وجعلك ملكاً ، وسمعت أن عندك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جاريــة لكــل جارية حق من الحلي ، فإذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف ، بدلاً عن الحوائص ، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي أفتيتك بأخذ المال من الرعية ، فغضب الظاهر من كلامه وقال : أخرج من بلدي يعني دمشق ، فقــال : السمع والطاعة ، وخرج إلى نوى ، فقال الفقهاء : إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا ، وممن يقتدى به ، فأعده إلى دمشــق ، فرســم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر "[٥] وللشيخ جلال الدين السيوطي موقف مشابه مع السلطان قايتباي عندما صعد إليه بالطيلسان ، ولم يستحسن السلطان ذلك منه ، وتمسك السيوطي بموقفــه ، وكادت الأمور تسير سيراً حسناً ، لولا أن ابن الكركي[٦] خصم السيوطي أو غر صدر السلطان وزين له البطش بالسيوطي ، مما جعل السيوطي يحجم بعد هذه الحادثة عن الصعود إلى السلطان ، وألف رسالة سماها " ما رواه الاساطين

---

(١) النجوم الزاهرة ١٦٨/٧ .

(٢) انظر : د. عبدالعظيم عبدالسلام شرف الدين : ابن قيم الجوزية ــ عصر ومنهجه وآراؤه (ص/٢٦) مكتبة الكليات الازهرية ط١٣٨٧/٢هــ = ١٩٦٧م – القاهرة .

(٣) النجوم الزاهرة ١٨٠/٧ .

(٤) حسن المحاضرة (٩٥/٢) .

(٥) حسن المحاضرة ١٠٥/٢ ، وانظر : النجوم الزاهرة (٤٢/٨) .

(٦) ستأتي ترجمته إن شاء الله وخصومته مع السيوطي في الفصل الثاني .

فـي عـدم المجئ إلى السلاطين "[١] وقد ألف رسالة في لـبس الطيلسـان قـبل هذه سماها " طي اللسان عن ذم الطيلسـان "[٢] وأيضاً له رسالة سماها : " الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان "[٣] فإذا ما تجاوزنا طبقة السلاطين إلى عامـة المجـتمع وجدنا السيوطي يصور جانباً منه فيصفه بالفساد والزور والابتداع كما في مقامته اللؤلؤية فيقول : " ...وإن تشـوفتم إلى سماع الأعذار ، وتشوقتم إلى جماع الأمر الذي هو سبب لقولي حذار حذار ، فألقوا السمع لما أقول ، وتدبـروا ما أورده من الشواهد والنقول ، أليس هذا زمان الصبر ، الصابر فيه كالقابض على الجمر ، رأينا فيه ما أنذر به الرسول ، وصحت به الأحاديث والنقول ، من آيات وعلامات ما كانت تقع فيما مضى منامات ، ويود كل لبيب لو أنه عند المـني مات ، وما من آية منها إلا وقد أمر النبي ــ صلى الله عليه وسلم بأن يلزم العالم عندها خاصة نفسه ، ويجلس في بيته ، ويسكت ويدع أمر العوام ، من ذلك الشح المطاع ، ودنيا مؤثرة ، وهوى له ذو أتباع ، واعجاب كل ذي رأي برأيه ، وذلـك عيـن الابتداع ، قد مرجت الأمانات والعهود ، وكثر القائلون بالزور والشهود ، وجم الاختلاف ، وقل الائتلاف ، وكذب الصادق ، وصدق الكاذب المائق ، وخون الأمين ، وأئتمن الخائن ومَنْ يَمين ، ونطق الرويبضة وتلك هي الطامة ، وتكلم الرجل التافه في أمر العامة ، وتعلم المتعلم لغير العمل ، وكان التفقه للدنيا وليس له في الآخرة أمل ، وأهين الكبير ، وقـدم عـليه الصـغير ، ورفعت الأشرار ووضعت الأخيار ، ... واتخذت البدعة سنة فلا يغيرها حتى عمر ، وصار الموت أحب إلى العلماء من الذهب الأحمر ، واستعلى الجهال على العلماء ، وقهر السفهاء الحلماء ، وولي الدين غير أهله ، وظهر الفحش من كل جاهل على قدر جهله... فلنجلس في البيوت ، ولنلزم السكوت ، ولنتق الله في خاصة أنفسنا ولندع عامـة الأمـور إلى أن نحل بر مسنا ، وكم من عالم قبلي قد قبل هذه الوصية ، إذ رأى ما ليس له به قِبَل ، وترك الافتاء والاقـراء وأقـبل على خاصة نفسه والعمل ، وقد اقتديت بهم ونعم القدوة ، وتأسيت بالحديث الذي هو لكل مؤمن أسوة ، طالمـا قطعت نهاري في التدريس والافتا ، واستغرقت أوقاتي في نفع الناس وقتاً وقتاً ، ولم أسلم مع ذلك ممن يولني أذىً ومقتاً[٤] ، ويرميني كذباً وبُهتاً "[٥] .

<u>* ظهـور التصوف في المجتمع :</u> عرفت البيئة المصرية التصوف منذ عصر مبكر في الإسلام ، ولكنه لم ينتشر بصورة كـبيرة ، ويـأخذ مساراً واضحاً إلا في عصر المماليك ، وكان من الأسباب التي ساعدت على ازدهار التصوف ، وظهور بصماته على المجتمع المصري ما يلي :

<u>أولاً :</u> حب الشعب المصري لآل البيت وما بثته الدولة الفاطمية بشأنهم .

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٦،١٦٥١،١٣٢٤،١٣٢٣،١٣٢٢م وذكره في كشف الظنون ١٥٧٤ ، وفي هدية العارفين ٥٤٢/١ ، وانظر : دليل مخطوطات السيوطي ص/٨٥ .

(٢) كشف الظنون ١١١٩ ، حسن المحاضرة ٣٤٣/١ ، هدية العارفين ، وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية ــ القاهرة ــ ٢٢٥٣٥ب ، وخطوطات جامعة الكويت ٣٩٩٧ ، وطبع بالهند مرتين ولم أقف على المطبوع ، وانظر دليل مخطوطات السيوطي ص/٢٧٣ .

(٣) انظـر : كشـف الظـنون ١٤ ، هديـة العـارفين ٥٣٥/١ ، جامعة الرياض فيلم ٣ ، مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ٤ مجاميع ، دليل مخطوطات السيوطي ص/٤٧ .

(٤) مقتاً : المقت : أشد الغضب .

(٥) المقامة اللؤلؤية : مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١١٧٤ب ، وحققها د.الشكعة في كتابه " جلال الدين السيوطي " ص/٦٧ .

ثانياً : ظروف الفترة والبيئة التي أصابت المسلمين بصفة عامة كسقوط بغداد ، وحروب التتر ، وحروب الصليبيين ، والكوارث والمصائب والطواعين التي أصابت المصريين بصفة خاصة ، جعلت الكثير من الناس مهيأ لقبول التصوف الذي يخاطب الوجدان من السذج أملاً في المغفرة والنجاة من العذاب الدنيوي والأخروي ، وغالباً ما يكون هؤلاء من المنحرفين العصاة والزناه وشاربي الخمر ، فإذا ما أفاقوا وسمعوا صيحات المذكرين والوعاظ ، تركوا حياة السكر والعربدة والفجور ، وانحازوا إلى الخلوة وكثرة الذكر وكثرة الاستغفار ، وتجويع النفس طمعاً في المغفرة والرحمة ، فينخرطون في مسالك الصوفية ويبالغون في تعذيب نفوسهم .

ثالثاً : مكابدة الكثيرين لصعوبة الحياة الاجتماعية القاسية ، ومعاناتهم من شدة الأحوال الاقتصادية ، وانحصارهم في بوتقة الفقر ، وشظف العيش ، وتوارد الأزمات والأوبئة وكثرة الراحلين خلالها من الموتى ، كل ذلك جعل الكثيرين من هؤلاء تتوجه انظارهم إلى التصوف والانقطاع للعبادة التماساً لفضل الله بأن يعوضهم عند ذلك فوزا بالنعيم المقيم في الآخرة ، حيث افتقدوا ذلك في حياتهم الأولى في الدنيا .

لهذه الأسباب وغيرها ظهر التصوف ، وانتشرت المتصوفة ، انقسمت بعد ذلك إلى فرق وطرق عديدة ، لكل شيخ فرقة وطائفة ، وله معها طريقة ومنهج ، ولكل طريقة أورادها وأذكارها الخاصة بها ، كما أن لكل طريقة شعارها ، فالأحمدية مثلاً ، نسبة إلى أحمد البدوي[١] وشعارها اللون الأحمر[٢] .

ولقد كان للصوفية آداب وتقاليد مرعية ، وضعوها من عند أنفسهم غير متقيدين بالسنة النبوية الشريفة ، وعلى أية حال فقد كانت الصوفية بصفة عامة تحظى بكثير من الاحترام والاجلال في أعين الناس وذلك لأنهم يتحركون باسم الدين ، ويتخذون من حب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وآله شعاراً ودثاراً[٣] لكن السيوطي حينما تولى مشيخة البيبرسية ووجد ما آل إليه حال الصوفية من الانحراف والفساد والابتداع قطع عنهم بعض العطايا التي رأى أنه لاحق لهم فيها ، فثاروا عليه وكادوا يقتلونه ثم حملوه بأثوابه ورموه في الفسقية ، وشكوه إلى الأمير طومان باي الذي كان مبغضاً له[٤] . فكان ذلك سبباً في عزله .

وبسبب كثرة الصوفية وطغيان تأثيرهم فقد تأثر السيوطي بهذا الوسط الصوفي تأثراً بالغاً ، فقد وجدناه يتبنى آراء صوفية محضة لا يعضدها دليل شرعي لا من الكتاب ولا من السنة ، ولا أحياناً من العقل ، يروي في الاستدلال عليها – أعني تلك الآراء الصوفية – حكايات عن المتصوفة هي إلى الخرافات أقرب منها إلى الحقائق[٥] ، ويعظم كلاً من الشيخين

---

(١) انظر : ترجمته عند السيوطي في حسن المحاضرة (٥٢١/١) .

(٢) انظر : د. طاهر حمودة : السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٥٠ .

(٣) انظر : د. طاهر سليمان حمودة : السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٥١ .

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور ٣٣٩/٢ ــ حوادث شعبان عام ٩٠٣هــ .

(٥) انظر مثلاً : كلامه عن تطور الولي في " الحاوي للفتاوي " (٢١٧/١) .والرد عليه في الفصل الأخير من هذا البحث .

الاكفــرين ابن عربي[1] وابن الفارض[2] ، ويدافع عنهما ويناضــل[3] . ولسوف نتعرض لنقد ذلك إن شاء الله في فصل التصوف وهو آخر فصل في هذا البحث .

هذه لمحة موجزة عن عصر جلال الدين السيوطي ولعلنا نكون قد رسمنا له صورة تخدمنا عند الكلام على نشأته وحياته وثقافته وذلك في الفصل القادم .

المبحث الثالث : الحالة العلمية

يصف الباحثون عصر السيوطي من الناحية العلمية ، بأنه يمتاز بالخصوبة والغزارة والازدهار في مختلف العلوم وشتى الفنون[4] ، وذلك باعتبار أن عصر المماليك في مصر امتداد للعصور الإسلامية السابقة عليه ، كما كان الحال في بغــداد قــبل ســقوطها على أيدي التتار عام (٦٥٦هــ) فلما سقطت بغداد ، ودمرت العراق والشام ورثت القاهرة عصــر الازدهــار ، فمــع انتقال الخلافة وقيامها بالقاهرة عام (٦٥٩هــ) ، انتقلت الحضارة ، وأصبحت القاهرة مأوى العلماء والفقهاء ، ومنزل أرباب الفكر والأدب[5] .

صــحيح أن أصول المماليك غير عربية إلا أنه بسبب إقامتهم في أرض العروبة ، التي جُلبوا إليها فنشأوا وتربوا فيهــا ، اعتــبروا أنفســهم عــرباً ، بل حماة للعرب ضد أعدائهم ، حتى إن كانت من ألقاب بعض سلاطينهم " سيد ملوك العرب"[6] .

ويظهــر أن الممــاليك كانوا يفخرون بأنهم حكام العرب وقتذاك ، كما أن اعتناقهم للإسلام ، وتوفيرهم للخلفاء ، جعلهم يتجهون إلى تعلم اللغة العربية ، باعتبارها لغة الإسلام والقرآن ، وتشجيع العلم ومدارسه وتوقير العلماء والقضاة .

ثــم إن كثيراً من كبار المماليك ــ كما يلاحظ ذلك المؤرخون ــ قد أتقنوا اللغة العربية تحدثاً وكتابةً ، حتى أصبح أكــثرهم فصيح اللسان بها ، وله مسائل في الفقه يُرجَع إليه فيها ، ويؤيد ذلك أن قانصوه الغوري ، كان يملك ناصية اللغة العربية وكان شديد الولع بالآداب والعلوم ، وله فيها خوض ونظر ، كما كان يفهم في الشعر[7] .

---

(١) محمد بن علي بن محمد بن عربي ، أبو بكر ، الحاتمي ، الطائي ، فيلسوف ، متصوف ، قدوة القائلين بوحدة الوجود ، ولد في مرسيه بالأندلس (٥٦٠ هــ) ، وتوفي بدمشق (٦٣٨ هــ) انظر ميزان الاعتدال (١٠٨/٣) ، الأعلام (٦ / ٢٨١) .

(٢) عمر بن علي بن مرشد بن علي ، الحموي الأصل ، المصري المولد والدار والوفاة ، ولد (٥٧٦هــ) وت (٦٣٢هــ) في شعره فلسفة تتصل بمايسمى وحدة الوجود . انظر : وفيات الأعيان (٣٨٣/١) ميزان الاعتدال (٢٦٦/٢) شذرات الذهب (١٤٩/٥) الأعلام (٥٦/٥) .

(٣) انظر : شرح مقامات السيوطي (٩٠١/٢) مقامة تسمى " قمع المعارض في نصرة ابن الفارض " .

(٤) انظــر فــي ذلــك : د. عبدالمنعم ماجد . " عصر السيوطي ص/٢٩ " . وانظر كذلك : مقدمة تحقيق كتاب " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " لمحققه / البسيوني مصطفى ابراهيم الكومي ص/٢١ ، ومحمد الصباغ في مقدمته لتحقيق كتاب : " تحذير الخواص " ص/٢٦ .

(٥) انظر : د. طاهر حمودة : جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٢١ ــ المكتب الإسلامي ط١٤١٠/١هــ ١٩٨٩م ــ بيروت .

(٦) انظر : ابن اياس ١٢٩/٣ ،

وانظر : د. عبدالمنعم ماجد : نظم المماليك ٦١/٢-٦٢ .

(٧) ابن اياس : ٩٠/٢ .

وكـــان أيضـــاً مغرماً بقراءة السير والتواريخ ، فاشـــتهرت له مجالس عرفت بمجالس الغوري[١] عبارة عن مناظرات جرت بين العلماء في حضرته[٢] .

لقــد كانت مصر وقتئذ ــ كما قدمنا ــ مهبط العلماء ، ومحط رحال طلبة العلم ورواد المعرفة ، ولعلنا نلاحظ أن من الأسباب التي ساعدت على ازدهار الثقافة الإسلامية في تلك الآونة ما يلي :

١- الاســترخاء الحربي ، فلم يكن سلاطين الجراكسة قد أعلنوا عداءهم المكشوف ضد العثمانيين ، كما أن علاقتهم كانت سليمة مع جميع المماليك الأخرى[٣] .

٢- كون مصر عاصمة لأهم بلاد الإسلام في ذلك الحين ، فهي حاملة لمشعل الثقافة الإسلامية ، بعد أفول مراكزها الكثيرة في الشرق ، ولاسيما بغداد[٤] .

٣- وجــود الجامع الأزهر في مصر ، وكثرة الأوقاف التي وقفها أصحابها على طلبة العلم ، فكان منهم من يخص طلاب الحنفية ، ومنهم من يخصص طلاب الشافعية ، وغيرهم يوقف على المالكية أو الحنابلة ، كما كان لكل مذهب قضاته وأئمته ، مما جعل المدارس تبلغ المئات في مصر والشام[٥] .

٤- حب الملوك والسلاطين للعلم والعلماء ــ كما قدمنا ــ جعلهم يشجعون العلماء دائماً على البحث والتصنيف والمناظرات ، بــل كان البعض من الملوك يطلبون أن تؤلف لهم الكتب[٦] التي ظلت معظمها إلى الآن مراجع مهمة من دواوين الإسلام العلمية .

ولهــذه الأســباب أصبحت الثقافات والعلوم منتشرة مزدهرة ، لا يبذل في نيلها الجهود الشخصية فحسب ، وإنما أصــبحت العلوم تُنال بالدرجة الأولى بناء على الدراسة المنهجية في أروقة المدارس ، وعلى أيدي مشايخ وعلماء أكفاء ، يصلون الليل بالنهار خدمة للعلم ، ونشراً لفضائل الدين وتعاليمه .

وقد بدا اهتمام السلاطين بالعلم ومدارسه ، والعلماء ودروسهم ومصنفاتهم ، منذ وقت مبكر قبل ميلاد السيوطي ، فقــد كـــان " صـــلاح الدين الأيوبي "[٧] ت (٥٨٩هـ) شديد الكلف بعلوم الدين ، وكان يحضر مع ولديه دروس الحافظ

---

(١) السابق ٥٩/٣ .

(٢) عصر السيوطي ــ ماجد ص/٣٠ .

(٣) انظر : المصدر السابق نفسه ، وانظر : تحذير الخواص ، مقدمة المحقق محمد الصباغ ص/٢٦ .

(٤) انظر : د. عبدالمنعم ماجد : عصر السيوطي ص/٣٠ ، وانظر : محمد الصباغ ، في مقدمة تحقيقه " لتحذير الخواص " ص/٢٦ .

(٥) انظر : محمد الصباغ : " تحذير الخواص " ص/٢٦ .

(٦) انظر : السابق نفسه .

و انظر أيضاً : د. عبداللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ص/١٤٩ .

(٧) هــو : المــلك الناصر ، صلاح الدين الأيوبي ، يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان ، كردي الأصل ، اشتهر بالفروسية ، والشجاعة ، والاقدام كــبقية قومه ، غلب لقبه " صلاح الدين " على اسمه يوسف ، أبوه : " نجم الدين أيوب الملك الصالح ، ولد " صلاح الدين " في قلعة تكريت على الحــدود العراقية الفارسية التركية عام (٥٣٢هـ) وقدم إلى مصر مع عمه " شيركوه " وهو قائد أعلى للقوات ، فلما توفي " أسد الدين شــيركوه " نصب صلاح الدين ملكاً على مصر والشام ، فقضى على بدع الشيعة التي أسسها الفاطميون في مصر ، وقاد الجيوش ضد الصليبيين فهزمهم في " حطين " الشهيرة عام (٥٨٣هـ) بعد توحيده لمصر والشام توفي عام (٥٨٩هـ) وقد بلغ من العمر سبعة وخمسين عاماً .

انظر : وفيات الاعيان جـ٣٧٦/٢ ، طبقات السبكي جـ٣٢٥/٤ ، النجوم الزاهرة ٣/٦ ، شذرات الذهب ٢٩٨/٤ ، محمد علي قطب : صلاح الدين الأيوبي ــ المكتبي الإسلامي .

السِّلفي[١] بالاسكندرية كما سمع من غيره ، وحضر كثيراً من مجالس العلماء المشاهير[٢] ، وبنى كثيراً من المدارس والخوانق[٣] .

فبنى بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعي ، وتسمى المدرسة الصلاحية .

وبنى مدرسة مجاورة للمسجد الحسيني بالقاهرة ، وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه[٤] ، وجعل دار عباس الوزير العبيدي ، مدرسة للحنفية ، وهي المعروفة في عصر السيوطي بالسيوفية ، وبنى المدرسة المعروفة بزين التجار للشافعية ، وهي المعروفة في عصر السيوطي بالشريفية ، وبنى مدرسة أخرى للمالكية وهي المعروفة في عصر السيوطي بالقمحية[٥] .

وقد استمر بنو أيوب على هذه السنة الحسنة ، وحين خلف المماليك بني أيوب في حكم مصر ، واصلوا ما كان الأيوبيون قد ساروا عليه ، فقد تحمسوا مثلهم لإنشاء المساجد ، والمدارس ووقفوا عليها الأوقاف السخية التي ينفق عليها منها .

لذلك كان من الطبيعي أن تزداد المدارس ، ويكثر عددها جداً حتى قال ابن بطوطة عن عدد المدارس في مصر في القرن الثامن ــ وهو القرن السابق للقرن الذي عاش فيه السيوطي ــ قال إنها : " لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها "[٦] .

لقد كانت هذه المدارس بمثابة الجامعات العظيمة التي تعتبر منارات علمية تنشر العلم وتخرج العلماء والفقهاء والدعاة ، والمؤرخين والقراء ، وكان يلحق بتلك المدارس مكاتب صغيرة تعني بتعليم الصبيان مبادئ القراءة والكتابة ، وتحفيظهم القرآن وبعض المتون في النحو والصرف والفقه والفرائض وغيرها ، فكانت هذه المكاتب بمثابة التعليم الأول الابتدائي الذي يمهد للإلتحاق بالمدارس الكبيرة التي يتولى التدريس فيها الأئمة الكبار والقضاة والفقهاء .

وكان يراعى في تصميم بناء المدارس أربعة أمور هي :

١- أن تكون مستوعبة للمذاهب الأربعة ، فيكون لكل مذهب فيها جانب ونصيب ، يترأسه أحد الشيوخ ، فيقال عن أحدهم مثلاً تولى مشيخة الحنفية في مدرسة كذا وكذا ، أو تولى مشيخة الشافعية ، وهكذا كان المذهب في المدرسة بمثابة قسم من أقسام المعاهد العلمية يشرف عليه رئيس القسم وشيخه[٧] .

---

(١) هكذا ضبطها محمد أبو الفضل ابراهيم محقق كتاب حسن المحاضرة (١٩/٢) ،والحافظ السلفي هو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم ، السِلفي الحافظ أبو طاهر صدر الدين الأصبهاني الشافعي (ت ٥٧٦هـ) انظر: هدية العارفين (٨٧/٥) .

(٢) انظر : حسن المحاضرة ١٩/٢ ، د. عبداللطيف حمزة : الحركة الفكرية في مصر ص/١٤٩ .

(٣) انظر : حسن المحاضرة ١٨/٢ .

(٤) الخانقاه جمعها خوانق ، وكذلك الرباطات والزوايا : معاهد دينية اسلامية للرجال والنساء انشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعباد ، ولفظ الرباط والزاوية عربيان ، أما الخانقاه ففارسية ومعناها البيت ، وهي محدثة في الإسلام في حدود الأربعمائة ، وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة ــ هامش ص/٢٥٦ ج٢ من حسن المحاضرة .

(٥) حسن المحاضرة جـ٢/٢٥٦ .

(٦) رحلة ابن بطوطة ٢٠/١ .

(٧) انظر : ابن دقماق : الانتصار ٩٦/٤ عند الكلام عن المدرسة البيبرسية .

٢- أن يبنى في كل مدرسة ــ في وسطها أو جانب منها ــ مسجد يكون له عدد من المؤذنين ، وكان يؤم المصلين به أحد القائمين على التدريس[١] .

٣- أن يلحق بها مساكن لطلبة العلم ، يقيمون فيها ، وتجرى عليهم نفقات الاعاشة من الأوقاف التي توقف عليهم .

٤- كما كانت تعتبر خزانة الكتب والمصاحف من الأمور الأساسية في تصميم المدرسة ، فتلحق بها ، ويوفر بها ما يستطاع توفيره من الكتب والمصنفات[٢] .

وقد كانت هناك في ذاك الوقت عادة جرى عليها العرف ، وهي أنه عندما يتم الفراغ من بناء المدرسة وما يتبعها ، يقام احتفال كبير بافتتاحها يحضره الأمراء والفقهاء والقضاة والأعيان ويجلسون للأكل على سماط كبير يزخر بألوان الأطعمة ، ثم يخلع السلطان على كل من أسهم في بناء المدرسة ، ثم يعين لها موظفيها من المدرسين والمؤذنين والقراء وغيرهم[٣] .

أما من جهة الطلاب ، " فكان الواحد منهم يحضر دروس أحد المدرسين حتى يأخذ منه كفايته ، ثم ينقل إلى الآخر حتى كان الواحد منهم يصل عدد الشيوخ الذين يأخذ عنهم إلى بضع مئات "[٤] .

فإذا أتم الطالب دراسته وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه ذلك ، وكتب له إجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الإجازة[٥] .

وأما من جهة المناهج العلمية التي تدرس في تلك المدارس ، فإنها لم تكن مناهج محددة بحيث يلتزم بتدريسها الشيوخ ، بل ثمة كتب في الفقه أو الحديث أو النحو أو غير ذلك يدرسها الشيوخ حسب اختياراتهم ، ويسمعها من شاء سواء كان من الطلاب أو من عامة الناس ، إلا أن من أراد الحصول على إجازة ، فإنه يلزمه الحضور والمواظبة على السماع المستمر[٦] .

وبسبب هذا الاهتمام البالغ بالمدارس ودور العلم ، وتهيئتها للطلاب ، وتشجيع الملوك والسلاطين للنشاط العلمي والثقافي ، نشطت حركة التأليف وازدهرت ، وانتجت آلافاً مؤلفة من الكتب في شتى أنواع المعرفة .

ولقد كان للتأليف في عصر السيوطي سمتان بارزتان هما : الموسوعات العلمية ، وكثرة المتون والشروح .

أولاً : الموسوعات العلمية :

---

(١) نفسه .

(٢) انظر : ابن اياس : بدائع الزهور ٢٠٤/١ عند كلامه عن افتتاح مدرسة السلطان حسن .

(٣) ألحقت بإحدى المدارس مكتبة بها مائة ألف مجلد ــ الخطط ١٩٧/٤ س ٩ .

(٤) د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٥٨ المكتب الاسلامي ط١/ ١٤١٠هـ = ١٩٨٩م .

(٥) انظر : عبدالوهاب حمودة : صفحات من تاريخ مصر ص/٤٤ .

(٦) انظر : د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٥٩ .

اتسم عصر السيوطي بوضع الموسوعات العلمية التي تجمع أشتاتاً من علوم مختلفة ، ويتطرق فيها المصنف إلى كثير من الميادين حسب المناسبات[١] . وهي في الجملة تفي بجمع المعلومات المختلفة ، والحقائق المتفرقة التي يبدو أن بينها رباطاً ولكنه رباط واهٍ ، ويغلب عليها الاستطراد والتسلسل من موضوع إلى موضوع[٢] .

وقد يروق لبعض الباحثين أن يتهموا أصحاب الموسوعات بالكلل الفكري ، وأن أعمالهم آلية ، خالية من الجهد العقلي ، وليس الأمر كما زعموا ، فإن هذه الموسوعات تدل دلالة واضحة على سعة علم واضعيها ، ومقدار اطلاعهم الواسع ، وحفظهم الدقيق ، وصبرهم الشديد على تدوين كل دقيقة تتصل بموسوعاتهم ، والربط بين الجزئيات ، وتبويبها وتنسيقها[٣] .

ولقد كان من أعظم الفوائد لهذه الموسوعات أنها حفظت كثيراً من العلوم من الضياع ، ولقد عمد العلماء إلى هذه الطريقة نظراً لما كانوا يشعرون به من خسارة فادحة ألمت بالمسلمين عقب سقوط بغداد في أيدي التتر وضياع الكنز الثمين الذي كان مدوناً في مكتبات بغداد أيام نهضتها العظيمة .

وإذا أردنا أن نورد بعض الأمثلة على هذه الموسوعات العلمية فإننا نجد من أشهرها :

١- " لسان العرب " : وهو أكبر موسوعة في اللغة[٤] بين أيدينا اليوم ، وهو مصدر أساسي من مصادرها ولا نكاد نجد باحثاً من الباحثين إلا ويرجع لهذه الموسوعة الضخمة ، ولا أكون مبالغاً إذا قلت بأن جميع الباحثين عن المعاني اللغوية عيال على " لسان العرب " واضعه هو الإمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري[٥] (ت ٧١١هـ) إنه جهد عظيم مدهش ينظر إليه أهل العلم بعين الاكبار والاجلال نظراً لما يخزنه من العلوم المختلفة ، قال صاحب الاعلام : " أشهر كتبه لسان العرب ط[٦] ، عشرون مجلداً ، جمع فيه أمهات كتب اللغة فكان يغني عنها جميعاً "[٧]

" ومن الغريب أن ابن منظور على الرغم من كونه صاحب أكبر موسوعة لغوية عربية فإنه كان صاحب رغبة معاكسة إذ توفر على بعض الكتب المطولة مثل : الحيوان للجاحظ[٨] ، وتاريخ دمشق لابن عساكر[١] ، والذخيرة لابن بسام[٢] فاختصرها جميعاً " .

---

(١) انظر : د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره ص/٧٥ ، د. مصطفى الشكعة : جلال الدين السيوطي مسيرته العلمية ص/٤٥ .

(٢) انظر : د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي ـ عصره ص/٧٥ .

(٣) انظر المصدر السابق .

(٤) انظر : د. الشكعة : جلال الدين السيوطي ـ مسيرته ص/٤٥ .

(٥) انظر ترجمته كاملة في : الدرر الكامنة في حرف الميم ٢٦٢/٤ ، والسيوطي في بغية الوعاة ١٠٦ ، والفهرس التمهيدي ٤٢٥ ، فوات الوفيات ٢٦٥/٢ ، روضات الجنات ط٢ ص/٧١٢ ، وآداب اللغة ٤٠٣/٣ وانظر الاعلام جـ١٠٨/٧ .

(٦) " ط " تعني مطبوع .

(٧) خير الدين الزركلي : الأعلام ١٠٨/٧ .

(٨) هو : عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء ، الليثي ، أبو عثمان الشهير بالجاحظ ، كبير أئمة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة ، مولده (١٦٣هـ = ٧٨٠م) بالبصرة ، ووفاته بها (٢٥٥هـ = ٨٦٩م) كان مشوه الخلقة ، مات و الكتاب على صدره ، قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه . من تصانيفه : الحيوان ، البيان والتبين ، سحر البيان ، البخلاء ، وغيرها كثير ، انظر : وفيات الاعيان ٣٨٨/١ ، أمراء البيان ٣١١ - ٤٨٧ ، آداب اللغة ١٦٧/٢ ، لسان الميزان ٣٥٥/٤ ، دائرة المعارف الاسلامية ٢٣٥/٦ .

٢- " نهاية الأرب في معرفة العرب " : لأحمد بن عبدالوهاب النويري المصري[٣] (ت ٧٣٣هـ) ، ويقع في ثلاثين مجلداً كبيراً . قال ابن كثير ــ رحمه الله ــ : " جمع تاريخاً في ثلاثين مجلداً كان ينسخه ويبيعه ، وهو غير نهاية الأرب"[٤] .

٣- وكان من العلماء الموسوعيين أيضاً : العلامة محب الدين الفيروز آبادي[٥] (ت ٨١٦هـ) ، وأشهر مصنفاته " القاموس المحيط " ، وهو كتاب موسوعي نفيس ، وله مصنفات أخرى مثل : " الوجيز في لطائف الكتاب العزيز " و " الاصعاد إلى رتبة الاجتهاد " وغيرها .

٤- أبو العباس القلقشندي[٦] (ت ٨٢١هـ) وموسوعته العربية في الأدب والتاريخ والسياسة والآثار هي المعروفة بـ " صبح الأعشى في صناعة الانشاء " تقع في أربعة عشر مجلداً وعليه تتلمذ كل صاحب نباهة في الكتابة والأدب[٧] .

٥- شهاب الدين ابن حجر العسقلاني[٨] (ت٨٥٢هـ) ، وأشهر مؤلفاته " تهذيب التهذيب " وهو اثنا عشر مجلداً ، و" لسان الميزان " و" الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة " وهو خمسة مجلدات ، و" الإصابة في تمييز الصحابة " وهو أربعة مجلدات ، وله المصنف الحديثي الفقهي العظيم المسمى بـ " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " وغيرها من المصنفات القيمة . وكانت وفاة ابن حجر عام (٨٥٢هـ) أي بعد ميلاد السيوطي بحوالي ثلاث سنوات ، وكان واحداً من شيوخ أبيه كما أنه سيأتي في فصل نشأته أن والده أحضره إلى مجلس ابن حجر وعمره ثلاث سنوات .

---

(١) هو : علي بن الحسن بن هبة الله : أبو القاسم ، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي ، المؤرخ الحافظ الرحالة ، محدث الديار الشامية ورفيق السمعاني صاحب الانساب في رحلاته ، مولده بدمشق (٤٩٩هـ = ١١٠٥م) ووفاته بها (٥٧١هـ = ١١٧٦م) له تاريخ دمشق الكبير ، تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبي الحسن الاشعري ، وغيرها ، انظر : ابن خلكان وفيات الاعيان ٣٣٥/١ ، مفتاح السعادة ٢١٦/١ ، البداية والنهاية ٢٩٤/١٢ ، طبقات الشافعية ٢٧٣/٤ ، دائرة المعارف الاسلامية ٢٣٧/١ ، الاعلام ٢٧٤/٤ .

(٢) هو : علي بن بسام الشنتريني الاندلسي ، أبو الحسن ، أديب من الكتاب الوزراء ، اشتهر بكتابه " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " طبع منه ثلاثة مجلدات انظر : المغرب في حلي المغرب طبعة المعارف ٤١٧/١ . والاعلام ٢٦٦/٤ .

(٣) هو : أحمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدايم القرشي التيمي البكري ، شهاب الدين النويري عالم بحاث غزير الاطلاع نسبته إلى نويرة (من قرى بني سويف بمصر) ومولده ومنشأه بقوص ، ولد عام (٦٧٧هـ = ١٢٧٨م) له هذه الموسوعة العظيمة ونهاية الأرب ، وهو دائرة معارف ، انظر : الدرر الكامنة ١٩٧/١ ، النجوم الزاهرة ٢٩٩/٩ ، البداية والنهاية ١٦٤/١٤ ، الاعلام ١٦٥/١ .

(٤) البداية والنهاية ١٦٤/١٤ .

(٥) هو : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر ، أبو طاهر ، مجد الدين الشيرازي ، الفيروز آبادي ، من أئمة اللغة والأدب ولد بكارزين (٧٢٩هـ = ١٣٢٩م) شيراز ، وانتقل إلى العراق ، وجال في مصر والشام ، ودخل بلاد الروم والهند ، وكان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير ، توفي في زبيد (٨١٧هـ = ١٤١٥م) . انظر : البدر الطالع ٢٨٠/٢ ، الضوء اللامع ٧٩/١٠ ، بغية الوعاه ١١٧ ، كشف الظنون ١٦٥٧ ، الاعلام ١٤٦/٧ .

(٦) هو : أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري ، المؤرخ الاديب الباحث ولد في قلقشنده (من قرى القليوبية ، بقرب القاهرة (٧٥٦ هـ = ١٣٥٥م) وله غير ما ذكرنا في الأصل : " قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان " انظر : الضوء اللامع ٨/٢ آداب اللغة ٣/ ١٣٣ ، الاعلام ١٧٧/١ .

(٧) د. الشكعة : السيوطي ــ مسيرته العلمية ص/٤٨ .

(٨) هو : أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، أبو الفضل شهاب الدين ، ابن حجر ، من أئمة العلم والتاريخ ، ولد بالقاهرة عام (٧٧٣هـ = ١٣٧٢م) وتوفي بها عام (٨٥٢هـ = ١٤٤٩م) ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث ، انتشر ت مصنفاته في حياته وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر ، انظر : الضوء اللامع ٣٦/٢ ، البدر الطالع ٨٧/١ ، خطط مبارك ٣٧/٦ ، الدرر الكامنة ٤/خاتمته للناشر ، الاعلام ١/ ١٧٨ .

٦- وكـان معاصـراً لابن حجر العسقلاني عالم آخر يضاهيه هو العلامة بدر الدين العيني[1] (ت ٨٥٥هـ) الـذي تـرك لنا تركة قيمة على غرار تركة ابن حجر في شرح صحيح البخاري سماها العيني " عمدة القاري في شرح صحيح البخاري " أحد عشر مجلداً ضخماً ، كما خلف غيرها من المصنفات القيمة .

٧- ثم نجد مع ذلك العلامة أبو المحاسن ابن تغري بردي[2] (ت ٨٧٤هـ) وأهم موسوعاته " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " وهو اثنا عشر مجلداً ، وغيرها .

٨- ولا ننسى العلامة شمس الدين السخاوي[3] (ت ٩٠٢هـ) كان السخاوي مؤلفاً موسوعياً أيضاً له في ذلك باع طويل ، فقد صنف نحواً من مائتي مصنف ، غير أن أشهر تصانيفه هو : " الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع " .

وهكـذا كانت هذه المصنفات الموسوعية سمة من سمات ذلك العصر الذي عاش ونشأ فيه السيوطي فلا غرابة أن يكون واحداً من هؤلاء المشاهير الموسوعيين .

ثانياً : كثرة المتون والشروح :

يلحظ الباحث هذه الظاهرة واضحة في العصر الذي نشأ وعاش فيه السيوطي ، فنظراً لنشاط الحركة العلمية في تلك الآونة وتفاعلها الكبير فيما بين العلماء والأمراء والطلاب ، احتاج الشيوخ إلى تيسير المعرفة على طلابهم ، فوضعوا المتون التي تجمع مسائل الموضوعات في قليل من اللفظ حتى يتسنى لطالب العلم أن يستوعبها بأيسر طريقة وبأقل جهد وفي أقصر مدة ممكنة .

" وقـد غلا بعضهم في الايجاز وفي ضغط العبارة في هذه المتون حتى بلغت حد الرموز ، فاستغلق بذلك فهمها على الطلاب واحتاجت إلى شروح فوضعت لها كتب شارحة ثم وضعت كتب أخرى أكثر تفصيلاً تشرح الكتب الشارحة ، ومن ثم تعددت الشروح التي تتناول المتن الواحد ما بين شرح مطول ، وآخر يميل إلى الإيجاز كما نظمت كثير من العلوم في منظومات تعليمية احتاجت أيضاً إلى وضع الشروح لها "[4] .

---

(١) هو : محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد ، أبو محمد ، بدر الدين العيني الحنفي ، مؤرخ علامة ، من كبار المحدثين أصله من حلب ومولده في عينـتاب وإليها نسبته ، (٧٦٢هـ = ١٣٦١م) أقام في حلب ودمشق و مصر والقدس ثم توفى بالقاهرة عام (٨٥٥هـ= ١٤٥١م) له غير ما ذكرنا بالأصل : البناية في شرح الهداية ، رمز الحقائق في الفقه والمقاصد النحوية ، وغيرها انظر : التبر المسبوك ٣٧٥ ، الضوء اللامع ١٠ /١٣١- ١٣٥ ، خطط مبارك ١٠/٦، شذرات الذهب ٢٨٦/٧ ، الاعلام ١٦٣/٧ .

(٢) هـو : يوسف بن تغري بردي بن عبدالله الظاهري الحنفي أبو المحاسن ، جمال الدين ، مؤرخ بحاثة ، من أهل القاهرة مولداً عام (٨١٣هـ = ١٤١٠م) ووفـاةً عام (٨٧٤هـ = ١٤٧٠م) كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق ، ومن أمراء جيشه المقدمين ، نشأ يوسف في حجر قاضي القضـاة جـلال الديـن البلقيني وتأدب وتفقه وأولع بالتاريخ ، وصنف كتباً نفيسة منها : " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " والمنهل الصافي ، وغيرها انظر : النجوم الزاهرة ٩/١-٢٨ ، الضوء اللامع ٣٠٥/١ شذرات الذهب ٣١٧/٧ ، ابن اياس ١١٨/٢ - الاعلام ٢٢٣/٨ .

(٣) ستأتي ترجمته مفصلة في فصل نشأته وحياته ، وسنذكر ــ إن شاء الله ــ فيه خصومته مع السيوطي .

(٤) د. طاهر سليمان حمودة : جلال الدين السيوطي ــ عصره وحياته ص/٧٧ .

وبهـذه الطـريقة وجدنا امتلاء العصر بالمتون والشـروح ، والاختصـارات ثم التعليقات والحواشي ، والمـنظومات والأراجيـز الملغزة ثم حلها وبسطها ثم التذييل عليها... وهكذا ، حتى يتبادر إلى الذهن أن هذه المؤلفات قد وضعت كلها أو معظمها للتمرين العقلي لإثبات المقدرة على التأليف وزيادة عدة المصنفات وتعدادها .

وإذا كـنا نعتـبر أن هذه الطريقة التي اتبعها العلماء الذين عاشوا في عصر السيوطي وهو واحد منهم ـ إن كنا نعتـبر أنها أضاعت جهداً كبيراً من جهودهم ، واستنزفت ثمرة عقولهم في نظم المنظومات والشروحات والاختصارات ، والاهتمام بالنواحي الشكلية ، وانتقاء العبارات والألفاظ إلا أننا نجد من الصعب علينا أن نجزم بأن ذلك قد قضى قضاءً تاماً عـلى الاهـتمام بالقيمة العلمية للمؤلفات ، أو أنه ألغى التجديد والابتكار ، بل وجدنا فيها شيئاً لا يستهان به من التجديد في التصـنيف والتبويب ، وأنه عمل تمليه عقلية علمية واعية ومنظمة ، لها صفاتها التي تميزها عن غيرها ، وتتجه بها وجهة فـريدة مـن نوعهـا . كما كان لهؤلاء العلماء شخصية وقوة في بحوثهم تشعر بعمق الفهم وكمال الادراك وحسن التوجيه والتعليل .

الفصل الثاني

نشأته وحياته

المبحث الأول

اسمه ، ونسبه ، ولقبه ، وكنيته :

اسمه ونسبه :

عبدالرحمن ، بن الكمال أبي بكر ، بن محمد ، ابن سابق الدين ، بن الفخر عثمان ، بن ناظر الدين محمد ، ابن سيف الدين خضر ، بن نجم الدين أبي الفلاح أيوب ، ابن ناصر الدين محمد ، بن الشيخ همام الدين الخضيري[١] .

كنيته : أبو الفضل[٢] .

لقبه : جلال الدين .

نسبته : السيوطي[٣] ، إلى أسيوط . بصعيد مصر .

المبحث الثاني : ولادته ، ونشأته ، وحياته :

ولد جلال الدين السيوطي ، مساء يوم الأحد بعد المغرب ، مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة (٨٤٩هـ = اكتوبر ١٤٤٥م) ، ويذكر ابن إياس[٤] أن ولادة السيوطي كانت في جمادي الآخرة ، وليس هناك فرق كبير بين التاريخين ، إذ قد لا يتعدى الفارق بضعة أيام بين أواخر جمادي الآخرة ومستهل رجب ، والظاهر أن الصواب هو ما حكاه السيوطي عن نفسه[٥] ، وفي ولادته طرفة فقد ذكر العيدروس[٦] أن والده احتاج كتاباً من كتب العلم فأرسل زوجته وهي والدة السيوطي لتحضره له من بين الكتب ، فجاءها المخاض بين كتب العلم فوضعته ، ولذلك أطلق عليه : " ابن الكتب "[٧] .

---

(١) السيوطي : حسن المحاضرة جـ١/٣٣٦ ت : محمد أبو الفضل ابراهيم ط١/١٩٦٧م ١٣٨٧هـ ـ عيسى الحلبي وشركاه والخضيري : نسبة إلى ((الخضيرية)) محلة ببغداد .

(٢) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أعيان من ذهب جـ١/٥١- دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ بدون تاريخ .

(٣) حسن المحاضرة جـ١/٣٣٥ ، ابن العماد : الشذرات جـ٨/٥١ ، السخاوي : الضوء اللامع في أعيان من بعد القرن السابع .

(٤) هو : محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، ابو البركات ، مؤرخ وبحاث مصري ، من المماليك ، كان أبوه أحمد متصلاً بالأمراء ورجال الدولة ، وجده الأمير " إياس الفخري الظاهري " من مماليك الظاهر برقوق ، وكان محمد من تلاميذ السيوطي ولد عام (٨٥٢هـ = ١٤٤٨م) له " بدائع الزهور في وقائع الدهور " مطبوع وبه ترجمة السيوطي ، و " تاريخ مصر " وغيرها ، انظر بدائع الزهور ٤/٤٧ ، آداب اللغة ٣/٢٩٨ والاعلام ٦/٥ .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ١/٢٥٦ .

(٦) النور السافر من أخبار القرن العاشر ص/٥٤ .

(٧) محي الدين عبدالقادر العيدروس : النور السافر عن أخبار القرن العاشر ص/٥٤ .

أما نشأته :

فكــانت فــي بيت علم وأدب ، كان والده من المشتغلين بالعلوم الإسلامية ، حتى تولى قضاء أسيوط موطنه ، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة .

ولقد اهتم به والده فأحضره إلى مجلس الحافظ ابن حجر العسقلاني(١) وهو في الثالثة من عمره ، لكن المنية وافت والــده ، وكان عمر السيوطي حينئذ خمس سنوات وسبعة أشهر ، فاصبح بذلك يتيماً ، مما كان لذلك أثر بالغ من أن تكون نشــأته نشأة جادة(٢) ، بعيدة عن عبث الصبيان ولهوهم ، سيما وقد اسندت وصايته إلى جماعة من أهل العلم ، منهم كمال الديــن ابن الهمام(٣) ، فقرره في وظيفة " الشيخونية "(٤) ، وكان قد وصل في القراءة إلى سورة التحريم ، فهيأ الله له بذلك من أسباب النجاح في الحياة ، ما جعله آية في العلم والحفظ ، نبغ فيه وأعزم به ، وحباه الله تعالى بمزيد من النبوغ المبكر في وسط علمي مهيأ للدراسة والتحصيل .

حياته :

وأما عن حياة السيوطي فالكلام عنها يطول بطولها وبركتها ، وحركتها العلمية ، فهي حياة حافلة بالعلم والعمل ، والتدريس والافتاء ، والتأليف والتأييد والمعارضة ، والأخذ والرد ، والدعوة إلى الله ، لقد حبب إليه العلم فملأ عليه أقطار نفســه فقــام به وقعد ، وتكلم به وجادل ، حتى قال عن نفسه : " إني رجل حبب إليّ العلم ، والنظر فيه ، دقيقة وجليلة ، والغــوص عــلى حقائقه ، والتطلع إلى دقائقه ، والفحص عن أصوله ، وجبلت على ذلك ، فليس فيّ منبت شعرة إلا وهي ممحونة(٥) بذلك ، وقد أوذيت على ذلك أذىً كثيراً ، من الجاهلين والقاصرين ، وذلك سنة الله في العلماء السالفين "(٦) .

---

(١) هــو : أحمــد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر ، من أئمة العلم والتاريخ أصله من عسقلان بفلسطين ، ومولده (٧٣٣هــ) ووفاته (٨٥٢هــ) بالقاهرة ، حافظ الإسلام في عصره ، وأمير المؤمنين في الحديث ، كان فصيح اللسان راوية للشعر ، عارفــاً بأيام العرب والمتقدمين وأخبار المتأخرين صبح الوجه ولي قضاء مصر عدة مرات ثم اعتزل له مصنفات عديدة وشهيرة " انظر : التبر المسبوك /٢٣٠ ، والضوء اللامع ٣٦/٢ ، والبدر الطالع ٨٧/١ ، خطط مبارك ٣٧/٦ ، و بدائع الزهور ٣٢/٢ ، والاعلام ١٧٩/١،١٧٨ – وانظر ترجمته لنفسه في " دفع الأصر عن قضاء مصر " ١: ٨٥ .

(٢) هذا ليس على اطلاقه ، فقد يضيع اليتيم بسبب اليتم ، وكذلك الفقر ، لولا مايهيئه الله تعالى لبعض عباده من أسباب الحفظ الرعاية ،وكذلك ليس كل من نشأ في كنف والديه يسلم من الضياع فقد يضيع أيضاً بسبب إهمال الوالدين أو جهلهما ، أو تدليلهما الزائد للولد ، فإذا صاحب ذلك يسار وغنى زادت أسباب الفساد كما قال القائل :

إن الشباب والفراغ والجدة   مفسدة للمرء أي مفسدة .

(٣) هــو محمد بن عبدالواحد بن عبدالحميد بن مسعود ، السيواسي ، ثم الاسكندري ، كمال الدين المعروف بابن الهمام ، إمام من علماء الحنفية ، أصــله مــن سيواس ، ولد بالاسكندرية (٧٩٠هــ = ١٣٨٨م) ونبغ في القاهرة ، وتوفي بها (٨٦١هــ ١٤٥٧م) وكان السيوطي آنذاك في الــثانية عشرة من عمره وكان وصياً عليه انظر : الضوء اللامع ١٢٧/٨-١٣٢ – شذرات الذهب ٢٨٩/٧ ، بغية الوعاة ١٦٧/١ – الاعلام ٦/ ٢٥٥ ، حسن المحاضرة ٤٧٤/١

(٤) نســبة إلى الأمير شيخو ، وهي مدرسة أنشأها الأمير سيف الدين شيخو العمري سنة ٧٥٧هــ = وهي المعروفة الآن بجامع شيخون بحي القلعة ــ انظر : الذيل على رفع الإصر للسخاوي ص/٤٩٢ . وانظر أيضاً حسن المحاضرة جــ٢٦٦/٢ .

(٥) أي ممتحنة مجربة ومختبرة بذلك .

(٦) الســيوطي : تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة ــ ضمن الحاوي للفتاوي جــ٣٠٠/٢ عنى بنشره جماعة من طلاب العلم سنة ١٣٥٢هــ ــ ط دار الكتب العلمية ١٤٠٨هــ = ١٩٨٨م بيروت – لبنان .

نعـم إن حـب السيوطي للعلم ، وتفرغه له ، واغراقه فيه أمر معروف ومشهود له به ، مسلم له فيه ، وكلامه السابق يعكس صورة معاناته من الأذى والصراع الذي عاشه فترة من حياته بينه وبين منافسيه من علماء عصره ، وهو حقيقة أيضاً لا تنكر . وسيأتي لذلك مزيد بيان تحت عنوان: " السيوطي بين أنصاره وخصومه " .

المبحث الثالث : طلبه العلم ورحلاته :

لقد بدأ السيوطي في طلب العلم في مرحلة مبكرة من عمره ، وذلك بتوجيه من والده ومن وصاهم به ، ولذلك أتم حفـظ القرآن الكريم وعمره ثمان سنوات ، واستطاع في باكورة حياته أن يحفظ بعض متون كتب العلم ، مثل كتاب " التنبيه "(١) وكـتاب " الحـاوي "(٢) و " كـتاب الـتهذيب "(٣) و كتاب " روضة الطالبين "(٤) و " عمدة المتقين "(٥) وكلها في فروع الشافعية .

ثـم شرع في الاشتغال الجاد بتحصيل العلم إبتداءً من ربيع الأول سنة اربع وستين وثمانمائة (٨٦٤هـ) ، فقرأ عـلى الشمس السيرامي(٦) صحيح مسلم إلا قليلاً منه ، ومنهاج النووي(٧) ومنهاج الوصول للبيضاوي في أصول الفقه(٨) ، والشـفاء(٩) وألفيـة ابن مالك(١٠) فما أتمها إلا وقد بدأ في التصنيف ، وكان أول شئ صنفه " شرح الاستعاذة والبسملة " يقـول السيوطي " ووقفت عليه شيخنا شيخ الإسلام علم الدين البلقيني(١١) ، فكتب عليه تقريظاً ، ولا زمته في الفقه إلى أن مـات ، فلازمت ولده ، فقرأت عليه من أول " التدريب لوالده ، إلى الوكالة ، وسمعت عليه من أول " الحاوي الصغير " إلى العـدد ، ومن أول " المنهاج " إلى الزكاة ، ومن أول " التنبيه " إلى بقريب من باب الزكاة ، وقطعة من " الروضة " مـن باب القضاء ، وقطعة من تكملة " شرح المنهاج " للزركشي(١٢) ومن إحياء الموات إلى الوصايا أو نحوها ، وأجازني بالـتدريس والإفـتاء من سنة ست وسبعين(١٣) (٨٧٦هـ) ويبين من هذا أن أول جلوس السيوطي للتدريس والافتاء كان

---

(١) التنبيه في فروع الشافعية ـــ لأبي اسحاق ابراهيم بن علي الفقيه الشيرازي الشافعي (ت ٤٧٦هـ) كشف الظنون جـ١/٤٨٩ .

(٢) الحاوي الصغير من الفروع ـــ لنجم الدين عبدالغفار بن عبدالكريم القزوين الشافعي (ت ٦٦٥هـ) كشف الظنون ١/٦٢٥ .

(٣) التهذيب في الفروع ـــ للإمام محي السنة حسين بن مسعود البغوي الشافعي (ت ٥١٦هـ) ـــ كشف الظنون ١/٥١٧ .

(٤) " روضة الطالبين وعمدة المتقين " للإمام محيي الدين ابي زكريا يحيي بن شرف النووي الشافعي (ت ٦٧٦هـ) كشف الظنون ١/٩٢٩ .

(٥) " عمدة المتقين " في فروع الشافعية ـــ لتقي الدين المقدسي .

(٦) هو : محمد بن موسى بن محمود بن قريش بن عبدالله السيرامي الحنفي ، الشيخ شمس الدين ، الإمام بالشيخونية ، ولد تقريباً (٨٠٠هـ) وسمع على المغوي والزركشي ، والسراج قارئ الهداية وغيرهم ، مات سنة احدى وتسعين وثمانمائة (٨٩١هـ) .
انظر : المنجم في المعجم للسيوطي ـــ ت ابراهيم باجسن عبدالمجيد ص/٢٢١ .

(٧) " منهاج الطالبين " للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيي بن شرف النووي .

(٨) " منهاج الوصول إلى علم الأصول " للقاضي أبي سعيد ، أو أبي الخير ، ناصر الدين عبدالله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي البيضاوي ـــ (ت ٦٨٥هـ) انظر الاعلام جـ٤/١١٠ .

(٩) " الشفا بتعريف حقوق المصطفى " ـــ للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) مطبوع .

(١٠) " الألفية " في النحو ـــ مؤلفها محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجيّاني أبو عبدالله ، جمال الدين (ت ٦٧٢هـ) بدمشق .

(١١) ستأتي ترجمته ، ـــ إن شاء الله ـــ في فصل : شيوخه وتلاميذه ، الفصل الثالث .

(١٢) اسم الكتاب : " الديباج في توضيح المنهاج " في الفقه ، مؤلفه : محمد بن بهادُر بن عبدالله الزركشي ، أبو عبدالله ، بدر الدين ، كان عالماً بفقه الشافعية والأصول ، تركي الأصل ، مصري المولد والوفاة (٧٤٥هـ = ٧٩٤هـ) .

(١٣) حسن المحاضرة جـ١/٣٣٧ ، والمنجم في المعجم ص/١٠ .

وســنه ســبع وعشرون سنة .ولازم تقي الدين أحمد بن محمد الشمني[١] اربع سنين ، بدءاً من مطلع سنة (٨٦٨ هـــ) فــأخذ عنه الحديث واللغة وعلم المعاني ، وهو أعظم شيوخه في اللغة ، وكان كل منهما معجباً بالآخر ، وقد شهد الشيخ لتلميذه بالتقدم والتفوق ، وكتب له تقريظاً على " شرح ألفية ابن مالك " وعلى كتاب " جمع الجوامع " .

وقرأ على الشيخ محيي الدين الكافيجي مدة أربع عشرة سنة[٢] وهي أطول مدة لازم فيها شيخاً معيناً ، وأخذ عنه التفسير ، والأصول والنحو وسائر علوم العربية ، وكتب له بذلك إجازة عظيمة . ويحدثنا السيوطي عن الجدول الذي نظمه لتلقي دروسه وعلمه فيقول : " كنت أذهب من الفجر إلى دروس البلقيني ، فأحضر مجلسه إلى قرب الظهر ، ثم أرجع إلى الشــمُني فأحضر مجلسه إلى قرب العصر ، هكذا ثلاثة ايام في الجمعة " : السبت والاثنين والخميس ، وكنت أحضر الأحد والــثلاثاء عــند الشيخ سيف الدين الحنفي بكرة ، ومن بعد الظهر في هذين اليومين ويوم الأربعاء عند الشيخ محيي الدين الكافيجي "[٣] .

رحلاته :

جــرت عادة العلماء على أن الواحد منهم تكون له رحلة في طلب العلم ، يطوف بها بعض البلدان ، بحثاً عن كنز علمي ، أو تحصيلاً لرواية حديث ، أو تفجيراً لمنبع معرفة ، أو ثقافة جديدة تضاف إلى رصيد العلم والمعرفة ، هكذا جرت عادتهم على الرغم من تنائي الديار ، ووعثاء السفر ، ومخاطر الطريق ، وقد سار السيوطي على هذا المنهج السالف لعلماء الأمة . فرحل رحلات عدة في خارج الديار المصرية وداخلها .

ففي سنة ٨٦٩هـــ توجه إلى بلاد الشام والحجاز للحج ، فحج وجاور سنة كاملة ، والتقى بالعلماء ، فأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، وفي الشام ذهب إلى حلب وأجاز له جماعة من العلماء منهم : ابن مقبل ، والتقى في الحجاز بعالم مكة وقتئذ الرضـــى محمد بن حسين ، والحافظ محمد بن محمد الهاشمي العلوي ، وقرأ على أحمد بن اسماعيل ابن أبي بكر بن عمر الأبشيطي[٤] . كما رحل السيوطي إلى اليمن والهند والمغرب وبلاد التكرور[٥] (منطقة تشاد) .

كمــا كــانت له رحلات داخلية في وطنه فسافر إلى " الفيوم " و " دمياط " و " المحلة " وغيرها وكتب عن جماعة من أهل العلم ، وقرأ عليهم ، من هؤلاء : جعفر بن إبراهيم في سنهور ، وعلى عز الدين عبدالعزيز بن عبدالواحد التكروي الشافعي في " منية سمنود " .

المبحث الرابع : مكانته العلمية :

لقــد اســتطاع الســيوطي بما آتاه الله تعالى وحباه من جد واجتهاد ، وشغف بالعلم أن يبلغ درجة رفيعة فيه ، لقد جمعــت لديــه نفائس المراجع ، والمصنفات التي تركها له والده في مكتبة زاخرة ، فتلقى ثقافته من موارد متنوعة ، تردد

---

(١) تأتي ترجمته في فصل شيوخه وتلاميذه الفصل الثالث ــ إن شاء الله ــ .

(٢) حسن المحاضرة جـ١/٣٣٨ . وستأتي ترجمته ــ إن شاء الله ــ في فصل شيوخه وتلاميذه ، الفصل الثالث .

(٣) سعدي أبو حبيب : حياة جلال الدين السيوطي مع العلم من المهد إلى اللحد ص/٢٨ ، دار المناهل ، ط١/١٩٩٣ - ١٤١٣هـ = دمشق .

(٤) ستأتي ترجمته ــ إن شاء الله ــ في فصل شيوخه وتلاميذه - الفصل الثالث .

(٥) حسن المحاضرة جـ١/٣٣٨ .

على المكتبة المحمودية التي كانت آنذاك أضخم مكتبة في القاهــرة . تضم نوادر المؤلفات وأفضلها وأهمها ، هذا التنوع والتعدد في روافد العلم الذي كان يتلقاه السيوطي ، وتردده على المكتبات الكبرى ، واطلاعه على نوادر مصنفاتها ، جعــل أقــرانه و شــيوخه يشهدون له بالسبق والتقدم ويقرون بما له من فضل ومكانة علمية رفيعة ، سبقهم إلى بيان تلك المكانــة والمنزلة السيوطي نفسه فشهد لنفسه بذلك ، لقد تيقن أنه قد بلغ منزلة عالية بين أهل العلم ، فأقر لنفسه بذلك وهو يقول : " رزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع... "[١] ولما كان السيوطي يتحدث بحاسة العالم العادل في حكمه ، لم يشأ أن يبالغ في تمجيد نفسه ومدحها واعطائها أكثر مما تستحق ، ولذلــك نجــده يعترف أنه في علوم أخرى غير هذه السبعة ، لم تصل منزلته فيها إلى ما وصلت إليه في العلوم السبعة فيقــول: " ...ودون هــذه العــلوم الــتي اطلعت عليها في المعرفة ، أصول الفقه والجدل ، والصرف ، ودونها الانشاء والترسل ، والفرائض ، ودونها القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب "[٢] .

ويقرالسيوطي بأن علم الحساب هو أعسر شئ عليه ، وأبعده عن ذهنه ، وأنه إذا نظر في مسألة فإنه يجد في حلها صعوبة كبيرة ، أو كأنما يحاول جبلاً يحمله[٣] .

كمــا يخــبرنا السيوطي بأنه قد بلغ مرتبة الاجتهاد ، وأنه كملت لديه أدواته وحصل علومه فيقول : " وقد كملت عــندي الآن آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً... ولو شئت أن اكتب في كل مسألة مصــنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله ، لا بحولي ولا بقوتي "[٤] .

ولهــذه المكانــة من تحصيل العلم وحفظ مسائله ودلائله قل أن تجد فنا من فنون العلم إلا وله فيه كتاب ضخم أو رسالة أو جزء ، جمعاً وتبوبياً وترتيباً وتفصيلاً .

كما أننا نلحظ أنه بدأ بالتدريس وباشر التأليف في سن مبكرة سنة (٨٦٦هــ) وعمره حينئذ سبع عشرة سنة .

يقول السيوطي : " وشرعت في التصنيف في سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه "[٥] .

وإذا كــنا بصــدد الحديــث عن مكانة السيوطي العلمية ومنزلته بين العلماء ، فإن هذا يجعلنا نتطرق إلى ما كان يحــظى به السيوطي من ألقاب التكريم والثناء التي كان يلقبه به أقرانه وتلاميذه ومن اطلع على مؤلفاته ومصنفاته ، ولعله من الأوفق أن نبدأ ذلك بثناء السيوطي على نفسه فقد قال فيما سبق ونقلنا قبل قليل : " وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد ــ بحمد الله تعالى ــ أقول ذلك تحدثاً بنعمة الله تعالى لا فخراً... "[٦] .

---

(١) حسن المحاضرة جــ٣٣٨/١ .
(٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر ٣٣٩/١ .
(٤) نفس المصدر ٣٣٩/١ ، وانظر : تدريب الراوي ص١٢/أ .
(٥) حسن المحاضرة ٣٣٨/١ .
(٦) حسن المحاضرة ٣٣٩/١ .

ويقـول : " ...وليـس على وجه الأرض من مشرقها إلى مغربها أعلم بالحديث والعربية مني "[١] .

ويقـول : " ورزقت التبحر في سبعة علوم " وعددها . ثم قال : " والذي اعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة لم يصل إليه ، ولا وقف عليه أحد من اشياخي فضلاً عمن دونهم... "[٢] .

ويتضح من كلام السيوطي عن نفسه أنه قد أصيب بشئ ليس قليلاً من الميل إلى الاعتداد بالنفس . وذلك بسبب ما حصـله من علوم ، وأنه بذلك قد تخطى ما كان يتسم به سلفنا من العلماء من تواضع جم مهما بلغوا من العلم ، ولعل الذي دفع السيوطي إلى ذلك بعض ما اتسمت به تلك الحقبة من مشاحنات وصراعات بين العلماء ، كل يحدث عن نفسه ، ويفاخر بما عنده ، وهذا الذي يسوغ ما نقل إلينا مما وقع للسيوطي من أذى من معاصريه في كثير من الأحيان .

وقـد ذهـب السيوطي إلى أنه تمنى لنفسه أن يكون هو المبعوث لتجديد الدين على رأس المائة التاسعة فقال : " وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر "[٣] . وهو يقصد بذلك نفسه[٤] وقال أيضاً مؤيداً ذلك : " ...جولـوا في الناس جولة ، فإنه ثم من ينفخ أشداقه ويدعي مناظرتي ، وينكر عليّ دعواي الاجتهاد ، والتفرد بالعلم على رأس هـذه المائـة ، ويزعم أنه يعارضني ، ويستجيش على من لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، ونفخت عليهم نفخة صـاروا هباءً منثوراً ، فدار السائل المذكور على الناس ، وأتى كل ذاكر وناس ، وقصد أهل النجدة والباس ، فلم يجد من يزيل عنه الالتباس ، ومضى على ذلك بقية العام ، والسؤال بكر لم يفض أحد ختامها ، بل ولا جسر جاسر أن يحسر لثامها ، وكل من طرق سمعه هذا السؤال لم يجد له باباً يطرقه غير بابي ، وسلم الناس ، أنه لا كاشف له بعد لساني سوى واحد وهو كتابي ، فقصدني القاصدون في كشفه... "[٥] .

وهكـذا كـان السـيوطي مقتـنعاً بإمامته في العلم ، مثنياً على نفسه بما يراه أنها أهلٌ له ، من الإمامة والتجديد وللسيوطي في هذا الصدد أنصار وخصوم ، فأنصاره يحيطونه بهالات المدح والثناء ، وخصومه يعارضونه بعبارات القدح والازدراء ، لذا رأينا أن نقترب من هؤلاء وأولئك فنسلط عليهم شيئاً من الضوء ، لنتبين المحق من المبطل .

المبحث الخامس : السيوطي بين أنصاره وخصومه :

ظهر في عصر السيوطي وفي مجتمعه خاصـة ، فريقان متقابلان أحدهما يؤيده ويناصره ويصحح فتاويه وآراءه ، والفريق الآخر يناوئه ويطعن عليه ولا يراه أهلاً للإجتهاد والتجديد .

وكان من أنصار السيوطي أمين الدين الأقصرائي[٦] وفخر الدين الديمي[١] .

---

(١) عبدالوهاب عبداللطيف محقق كتاب تدريب الراوي ، نقلا عن رسالة " الرد على من أخلد إلى الأرض " للسيوطي وهذا الكلام من التزكية التى لاتجوز وقصة موسى -- عليه السلام -- مع الخضر -- عليه السلام -- معلومة .

(٢) حسن المحاضرة ٣٣٩/١ .

(٣) نفس المصدر ٣٢٩/١

(٤) تحذير الخواص من أكاذيب القصاص . للسيوطي ـ مقدمة المحقق محمد الصباغ ص/٣٠.

(٥) الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف ضمن الحاوي للفتاوي للسيوطي جـ٨٦/٢ . وانظر تحذير الخواص ـ مقدمة المحقق محمد الصباغ ٣١ .

(٦) هـو شـيخ الإسـلام أمين الدين أبو زكريا يحيي بن محمد بن إبراهيم الأقصرائي ، فاضل من الحنفية ، تركي الأصل ، من بلدة " أقصرا " (آق سـراي) مولـده بالقاهـرة (٧٩٧هـ=١٣٩٧م) ووفاتـه بها (٨٨٠هـ = ١٤٧٥م) والغريب أنه كان من تلاميذ السخاوي ولكنه كان من

وشـمس الدين القـادري[٢] (ت ٩٠٣هـ) وغيـرهم ، فضـلاً عن شيوخه الذين شهدوا له بالتقدم وأثـنوا عليه وكتبوا له التقاريظ على بعض مؤلفاته ورسائله ، كالشيخ الإمام العلامة تقي الدين الشبلي الحنفي الذي كتب له تقريظاً على شرح ألفية ابن مالك وعلى جمع الجوامع في العربية ، وشهد له غير مرة بالتقدم في العلوم بلسانه وبنانه ، ورجع إلى قوله في بعض الأحاديث[٣] .

وكذلـك من العلماء الذين اثنوا عليه علم الدين البلقيني[٤] فقد كتب له تقريظاً على شرح الاستعاذة والبسملة ، مما شجعه على الاستمرار في الكتابة والتأليف .

ونـرى كذلك شيخه تقي الدين الشمني يكتب له تقريظاً على شرح الالفية وجمع الجوامع في العربية[٥] ، كما كتب لـه الشبلي والمنصوري من قبل ، ورأى التقريظ الذي كتبه عليه الشهاب المنصوري فأعجبه ، فكتبه بخطه في " تذكرته " يقول السيوطي : " وتلك منقبة لي وللمنصوري معاً "[٦] .

ومن هؤلاء المؤيدين للسيوطي والمثنين عليه سراج الدين العُبَادي[٧] .

ومـن المعجبين بالسيوطي المنافحين عنه تلميذه الداودي[٨] كتب له ترجمة ضخمة جمع فيها كثيراً من مناقبه التي يحمد عليها ويثني عليه بها .

وكان ابن طولون[٩] كذلك من تلاميذه المحبين له ، وكان يتباهى عندما يتحدث عنه فيقول " شيخنا "[١٠] ويقول عنه : " كـان بارعـاً فـي الحديث وغيره من العلوم ، بلغت عدة مصنفاته نحو الستمائة ، وكان في درجة المجتهدين في العلم والعمل "[١١] .

المناصرين للسيوطي ضد السخاوي ـ الضوء اللامع ٢٤٠/١٠ ، حسن المحاضرة ٤٧٨/١ ونظم العقيان للسيوطي ص/١٧٧ ، ١٧٨ ، الاعلام ١٦٨/٨ ، المنجم في المعجم ٢٣٨ .

(١) هو عثمان بن محمد بن عثمان بن ناصر ، أبو عمرو ، فخر الدين الديمي ، مصري من حفاظ الحديث ولد في طَبَنَا من أعمال سخا (٨٢١هـ) ونشـأ فـي ديمـة قرب طَبَنَا وتعلم في الأزهر فكان يحفظ عشرين ألف حديث ، سماه السيوطي بالحافظ ، الضوء اللامع ١٤٠/٥ ، والكواكب السائرة ٢٥٩/١ ، النور السافر ٤٩ ، الاعلام ٢١٤/٤ .

(٢) هو : محمد بن أبي بكر بن عمر بن عمران بن نجيب الانصاري السعدي الدنجاوي القادري شاعر العصر قال عنه السيوطي : إنه الآن شاعر الدنيا على الاطلاق " ، وهو أي القادري اثنى على السيوطي ولقبه بالإمام المجتهد عالم العصر العامل في قصيدة طويلة يمدحه فيها ، انظر حسن المحاضرة جـ٥٧٤/١ - ٥٧٧ .

(٣) حسن المحاضرة ٣٣٧/١ .

(٤) ستأتي ترجمته ـ إن شاء الله في فصل شيوخه وتلاميذه ، الفصل الثالث .

(٥) المنجم في المعجم ٨٧ .

(٦) نفس المصدر .

(٧) هو : عمر بن حسين بن حسن بن أحمد العبادي الشافعي ، ولد سنة (٨١٠هـ) وتوفي (٨٨٥هـ) . انظر : المنجم في المعجم ص/١٥٧

(٨) هـو : محمد بن علي بن أحمد الداودي ، شمس الدين ، المالكي وقيل الشافعي (ت٩٤٥هـ) وستأتي ترجمته ـ إن شاء الله ـ مفصلة في الفصل الثالث .

(٩) هـو : محمـد بن علي بن محمد ، شمس الدين ، أبو عبدالله ، الشهير بابن طولون الدمشقي الصالحي ، الحنفي ، (ت ٩٥٣هـ) وستأتي ترجمته مفصلة ـ إن شاء الله ـ في فصل تلاميذه .

(١٠) انظر الفلك المشحون في ترجمة ابن طولون ص/٣٥،٣٨ .

(١١) مفاكهـة الخـلان فـي حـوادث الزمان (تاريخ مصر والشام) جـ٣٠٢/١ ط١٣٨١هـ = ١٩٦٢م ـ عيسى الحلبي وشركاه ـ ت/ محمد مصطفى .

ومـــن الذيـــن أثنوا عليه في كتبهم وترجموا له ودافعـــوا عـــنه ضـــد مناوئيه ابن العماد الحنبلي[١] (ت ١٠٨٩هـــ) في كتابه العظيم " شذرات الذهب " ، والإمام الشوكاني[٢] (ت ١٢٥٠هـــ) وغيرها .

وصـــف ابن العماد السيوطي فقال عنه : " المسند ، المحقق ، المدقق ، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة "[٣] وقال أيضاً : " واستقصى الداودي مؤلفاته الحافلة الكثيرة الكاملة الجامعة النافعة ، المتقنة المحررة ، المعتمدة المعتبرة ، فنافت على خمسمائة مؤلف ، وشهرتها تغني عن ذكرها وقد اشتهر أكثر مصنفاته في حياته في أقطار الأرض شرقاً وغرباً "[٤] .

ويقول أيضاً : " ...ولو لم يكن له من الكرامات إلا كثرة المؤلفات مع تحريرها وتدقيقها لكفى ذلك شاهداً "[٥] هذا الكـــم الكـــبير من العلماء من أقران السيوطي وشيوخه وتلاميذه ومن جاء من بعده في صفه يثنون عليه ويؤيدون آراءه ، ويعـــترفون له بفضـــله وعلمه ، مع هذا كله لم يسلم السيوطي من الخصومات والقدح من بعض أقرانه ـــ كما قلنا ـــ قال الشـــوكاني : " تصانيفه في كل فن من الفنون مقبولة قد سارت في الأقطار سير النهار ، ولكنه لم يسلم من حاسد لفضله ، وجاحد لمناقبه "[٦] .

وتنحصر خصومة السيوطي في ثلاثة من علماء عصره هم السخاوي[٧] ، والقسطلاني[٨] ، وابن الكركي[٩] .

أما شمس الدين السخاوي ، فقد كان يكبر السيوطي بنحو ثماني عشرة سنة ، وبلغ من العلم مرتبة عالية ، يشهد له بذلـــك مؤلفاتـــه المطبوعة والمخطوطة ، ولقد اجتهد السيوطي في طلب العلم وتحصيله ، حتى صار نداً للسخاوي ، وتبوأ منزلة مثل منزلته ، وقد اعترف السخاوي نفسه بذلك وأثنى على السيوطي في بعض مؤلفاته ، يقول " محمد الصباغ "

---

(١) هـــو : عـــبدالحي بـــن أحمد بن محمد بن العماد العكري الحنبلي ، أبو الفلاح ، مؤرخ فقيه ، عالم بالأدب ، ولد في صالحية دمشق ، وأقام في القاهـــرة مـــدة طويـــلة ومات بمكة حاجاً سنة (١٠٨٩هـــ) من مؤلفاته شذرات الذهب في أخبار من ذهب " وشرح متن المنتهى " في فقه الحنابلة ـــ انظر السحب الوابلة مخطوط ـــ وخلاصة الاثر ٣٤٠/٢ .

(٢) هـــو : محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء ، ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان بـــاليمن) سنة (١١٧٣هـــ = ١٧٦٠م) نشأ بصنعاء وتوفي بها سنة (١٢٥٠هـــ=١٣٨٤م) وكان يرى تحريم التقليد له ١١٤ مؤلفاً منها " نيل الأوطـــار شـــرح منتقى الأخبار " و " البدر الطالع من بعد القرن السابع " وغيرها . انظر : البدر الطالع ٢/٢١٤-٢٢٥ و أبجد العلوم ٨٧٧ ، معجم المطبوعات ١١٦٠ ، ونيل الوطر ٣/١ ثم ٢٩٧/٢ .

(٣) شذرات الذهب ٥١/٨ .

(٤) نفس المصدر ٥٣/٨ .

(٥) نفس المصدر ٥٤/٨ .

(٦) الشوكاني : البدر الطالع ٣٣٣/١ .

(٧) هـــو : محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي ، نسبته إلى بلدة " سخا " المجاورة لمدينة ـــ كفر الشيخ ، بشمال دلتا النيل ، ولد بالقاهرة عام (٨٣١هـــ) وهو بذلك يكبر السيوطي بنحو ثماني عشرة سنة ، انظر : الضوء اللامع ٢/٨ إلى ٣٢ ، الكواكب السائرة ٥٣/١ شذرات الذهب ١٥/٨ ، النور السافر ١٦ ، وابن إياس ٣٢١/٢ ، الإعلام /١٩٤/٦ .

(٨) هو : أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني ، المصري الشافعي ، أبو العباس شهاب الدين ، من علماء الحديث ولد بالقاهرة عام (٨٥١هـــ = ١٤٤٨م) وتوفي بها عام (٩٢٣هـــ = ١٥١٧م) وكان تلميذاً للسخاوي . انظر : " البدر الطالع ١٠٢/١ ، الضوء اللامع ١٠٣/٢ ، النور السافر ١١٣ ، والكواكب السائرة ١٢٦/١ . الاعلام ٢٣٢/١ .

(٩) هو : إبراهيم بن عبدالرحمن بن إسماعيل الكركي ، أبو الوفاء ، برهان الدين ، قاض من فقهاء الحنفية ، أصله من الكرك (في شرق الأردن) وإليهـــا نسبته ، ولد بالقاهرة عام (٨٣٥هـــ = ١٤٣٢م) وتوفي بها غريقاً في بركة الفيل عام (٩٢٢هـــ = ١٥١٦م) ، انظر : النور السافر ١٠٨ ، شذرات الذهب ١٠٢/٨ ، الكواكب السائرة ١١٢/١ ، الضوء اللامع ٦٠/١ ، الإعلام ٤٦/١ .

فـــي مقدمـــته لتحقيق كتاب " تحذير الخواص " : (كان السـيوطي تـلميذاً مـن تلامـذة السخاوي ، ولم يتنكر السـخاوي له إلا بعد أن صار من أقرانه في العلم ، فوقع بينهما ما وقع من الخلاف ، أما قبل ذلك فقد كان السخاوي حسن الرأي فيه وإليك ثناءه عليه في كتابه " التبر المسبوك في ذيل السلوك " في ترجمة والد السيوطي قال : " وهو والد الفاضل جلال الدين عبدالرحمن أحد من أكثر التردد علي ومدحني نظماً ونثراً نفع الله به "[١] .

ويبدو أن الخلاف بينهما بدأ كخلاف في الرأي في بعض المسائل العلمية تمسك فيها كل واحد برأيه ، ويبدو كذلك أن الأمـر لـم يقف عند هذا الحد من الخلاف بل تطور إلى أن رد كل واحد رأي الآخر وأبطله ، مما أثار حفيظة الإمام السـخاوي ضد السيوطي الذي كان يصغره يوماً من الأيام سناً ومكانة ، ثم إن السيوطي كذلك رأى نفسه أنه قد بلغ ما بلغه السـخاوي ولا يستبعد أيضاً أنه كان يرى في نفسه تقدماً في العلم على السخاوي وغيره ، وقد تقدم ما نقلناه عن السيوطي في اعتداده بنفسه وأنه كان لا يرى على وجه الأرض من مشرقها إلى مغربها أعلم بالعربية والحديث منه[٢] .

وهـذا الكـلام من السيوطي قد يحط من منزلة السخاوي سيما وهو الكبير سناً ، ولم يكن يتوقع من السيوطي هذه الإسـتطالة ، ثم لم يكتف السيوطي بذلك بل ادعى الإجتهاد ، وأنه مجدد الدين على رأس المائة التاسعة مما جعل السخاوي يشتد حنقاً عليه فيلج في الخصومة ويتهمه بالأباطيل ، حيث قال :

" أخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من العصريين بها ، فغير فيها يسيراً وقدم وأخر ، ونسبها لنفسه وهوّل في مقدماتها "[٣] واتهمه بالهوس حين ترجم لتلميذه عبدالجبار أحمد الأخطابي فقال : " تردد لجلال الدين السيوطي ، وهو ساكن جامد جاور بمكة... ولا يخلو من هوسٍ كشيخه "[٤] .

ووصـفه بصفات ذميمة كالكذب وسوء العشرة ، ذكر ذلك في ترجمة تلميذه عبدالقادر بن حسين بن علي فقال : " واختص بجلال الدين السيوطي ، وبالغ في المناضلة عنه ، والتنويه به ، وقصر نفسه عليه ، ثم تنافرا وتشاققا لسوء عشرة ذلك وظهور مقدمات كذبه "[٥] .

ووصـفه كذلك بالحمق عندما ترجم لعلي بن محمد الأشموني فقال : " ...وراج أمره هناك ، ورجح على الجلال السيوطي مع اشتراكهما في الحمق غير أن ذلك أرجح "[٦] ووصمه بأنه حسود ومسكين حين ترجم لأبي النجا بن خلف بن محمـد : قال : " ...وتزايد الاقبال عليه بحيث حسده الجلال السيوطي لإقبال أهل خطبته بجامع طولون عليه ، ولم يلتفت

---

(١) انظر : تحذير الخواص من أكاذيب القصاص ـــ مقدمة المحقق ص/٣٦ ، والعبارة التي نقلها المحقق من " التبر المسبوك " للسخاوي ص/٣٥٧ .

(٢) انظـر : عـبدالوهاب عبدالـلطيف في مقدمة تحقيقه لكتاب " تدريب الراوي " ونقل هذا عن رسالة السيوطي المسماة " الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الإجتهاد في كل عصر فرض " .

(٣) الضوء اللامع ٣٦/٤ .

(٤) نفس المصدر .

(٥) نفس المصدر ٢٦٦/٤ .

(٦) نفسه ٥/٦ .

الناس إليه ، بل أشبعوه كلاماً ، وملاماً ، وحملوا صاحب الترجمة على عقد المجلس بالبيبرسية محل جلوس هذا المسكين"[١] .

ولا شك أن هذا يعتبر غلواً من السخاوي في الحملة على السيوطي ، وهو غلو وشطط في غير موضعه ، لأن السيوطي لو سلمنا — جدلاً — بأنه قد أخطأ في بعض الآراء أو الإجتهادات فإن هذا الخطأ كان لا يستوجب هذه الحملة الشرسة من السخاوي ، لأنه — كما قيل — " لكل جواد كبوة " ، وإن كان السيوطي قد كبا كبوة أو كبوات — في نظر السخاوي — فإنه كان من الأفضل والأوفق أن تقابل بالنقاش العلمي الهادئ البعيد عن التجريح والخوض في الأعراض وتضخيم الزلات .

وإذا كان السيوطي قد نيل منه ، فلا غرابة أن ينتصب للدفاع عن عرضه ، وأن ينشط لرد اتهامات باطلة قد تلوث السُّمعة ، وتنشر الشُّنعة . فمن ناحية السطو على كتب السابقين ، فإن السيوطي لم يفعل ذلك ولم ينسب لنفسه عملاً لم يعمله أو مصنفاً لم يكتبه ، بل كان ينسب كل نقل إلى قائله ، ويرد كل معلومة استفادها إلى مصدرها ، والأدلة على ذلك كثيرة منها :

١- ما ذكره في كتابه " الاتقان في علوم القرآن " أنه كتب عن شيخه محيي الدين الكافيجي كتاباً في علوم القرآن ولكنه لم يكن كتاباً وافياً شافياً فاستفاد منه في تأليف كتابه " الاتقان "[٢] وذكر كذلك عن شيخه علم الدين البلقيني أنه أطلعه على كتاب لأخيه جلال الدين البلقيني سماه " مواقع العلوم من مواقع النجوم " أيضاً في علوم القرآن .

ويذكر أن كتاب القاضي جلال الدين البلقيني هذا كلامه مختصر يحتاج إلى تحرير وتتمات ، وزوائد مهمات ، قال : " فصنفت في ذلك كتاباً سميته " التحبير في علوم التفسير "[٣] ضمنته ما ذكره البلقيني من الأنواع مع زيادة مثلها ، وأضفت إليه فوائد سمحت القريحة بنقلها "[٤] .

ويقول السيوطي أيضاً : " فبينا أنا أجيل في ذلك فكري أقدم رجلاً وأؤخر أخرى إذ بلغني أن الشيخ الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي أحد متأخري أصحابنا الشافعيين الف كتاباً في ذلك حافلاً يسمى " البرهان في علوم القرآن " فتطلبته حتى وقفت عليه... ولما وقفت على هذا الكتاب أزددت به سروراً ، وحمدت الله كثيراً ، وقوى العزم على إبراز ما أضمرته ، وشددت الحزم في إنشاء التصنيف الذي قصدته ، فوضعت هذا الكتاب ، العلي الشأن ، الجلي البرهان... وسميته بالاتقان في علوم القرآن "[٥] .

وفي مقدمة هذا الكتاب " الاتقان " يذكر المراجع التي استفاد منها بحثه ، وعول عليها في استقاء معلوماته فيقول : " وهذه أسماء الكتب التي نظرتها على هذا الكتاب ، ولخصته منها فمن الكتب النقلية تفسير ابن جرير " وعددها فبلغت نحو

---

(١) نفسه ١٤٤/١١ .

(٢) انظر : الاتقان جـ١/٣ . وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني .

(٣) مجلد متوسط الحجم رأيته مطبوعاً بالمكتبة المركزية بجامعة أم القرى .

(٤) الاتقان جـ١/٣ . بهامشه إعجاز القرآن للباقلاني .

(٥) نفس المصدر ٥/١ .

عشرين كتاباً[١] ، ثم ذكر كتب جوامع الحديث والمسانيد وقال بأنها لا تحصى[٢] ، ثم ذكر كتب القراءات فبلغت تسعة عشر كتاباً ، ثم ذكر كتب اللغات والغريب والعربية والاعراب فبلغت ثلاثة وعشرين كتاباً ، وذكر كتب الأحكام وتعلقاتها فبلغت ستة عشر كتاباً ، ومن الكتب المتعلقة بالإعجاز وفنون البلاغة ثمانية وثلاثين كتاباً ، ومن الكتب فيما سوى ذلك من الأنواع أربعة عشر كتاباً ، ومن كتب الرسم ثلاثة كتب ، ومن الكتب الجامعة سبعة كتب ، ومن تفاسير غير المحدثين اثنين وعشرين كتاباً ، فهذه نحو اثنين وستين ومائة كتاب سوى ما لم يذكره من كتب جوامع الحديث والمسانيد .

٢- ومن النماذج التي تدل على أن السيوطي كان لا ينقل شيئاً من كتب غيره إلا عزاه إليه ، ما ذكره في كتاب " حسن المحاضرة " ، قال : " وقد طالعت على هذا الكتاب كتباً شتى "[٣] وعددها فبلغت ثلاثين كتاباً[٤] .

٣- وفي كتاب " صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام " يقول : " ...فتطلبت كتاب ابن تيمية ، حتى وقفت عليه فرأيته سماه (نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان)[٥] وأحسن فيه القول ، ما شاء من نقض قواعده قاعدة قاعدة ، وبيان فساد أصولها فلخصته في تأليف لطيف سميته " جهد القريحة في تجريد النصيحة "[٦] فهو بذلك لم ينسب أصل الكتاب إلى نفسه بل عزاه إلى ابن تيمية مؤلفه ، وصرح بأنه لخصه ، وهذا لا يعيبه .

٤- وفي آخر القسم الأول من تفسير الجلالين الذي وضعه السيوطي على غرار تفسير جلال الدين المحلي : " إن غالب ما وضعته هنا مقتبس من وضعه "[٧] أي من وضع جلال الدين المحلي .

٥- وفي " معترك الاقران في اعجاز القرآن " يصرح بالنقل عن كثير من الكتب والمؤلفات المعروفة فينقل عن ابن جنى في " الخاطريات " ، وعن أبي حيان التوحيدي[٨] ، وعن تفسير ابن عطية[٩] ، وعن الرماني في " اعجاز القرآن "[١٠] ، وعن الخفاجي في " سر الفصاحة "[١١] وعن ابن قتيبة[١٢] ، وعن ابن الصائغ والفراء[١٣] ، وعن عبدالرزاق في " تفسيره "[١٤] ، وعن الشافعي في الرسالة[١٥] ، وعن أبي عبيد القاسم بن سلام[١] ، وعن ابن أبي الأصبع[٢] ، وعن ابن

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر ٣،٤/١ .

(٤) حسن المحاضرة جـ١/٥٧٨،٥١٥،٣٠٤،٢٤،٢٣،١١،١٠،٥، جـ٢/٥٠،٣٣،٢٢،٢١،١٧، ٤٢٩،٣٥٠،٢٣٠،١٣٥،١٣٠،١٢٩ .

(٥) عند حاجى خليفة (نصيحة ذوي الايمان) بدلاً من نصيحة أهل الايمان انظر كشف الظنون ١٩٥٧/٢ وهدية العارفين ٥٣٨/٥ .

(٦) لم يرد ذكر هذا الكتاب في " حسن المحاضرة " ولكن حاجى خليفة ذكره فقال : " نصيحة ذوي الايمان في الرد على منطق اليونان " لابن تيمية ، اختصره السيوطي ، وسماه " جهد القريحة في تجريد النصيحة " انظر : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون جـ١٩٥٧/٢ ، وهدية العارفين جـ٥٣٨/٥ .

(٧) تفسير الجلالين ٣٥١/١ .

(٨) انظر : ١٠/١ .

(٩) انظر : جـ٢٣/١ ، جـ٤٩٧/٣،٤٢٨،٣٣٥،٣٢٨،٢٩٩ .

(١٠) انظر : ٢٥/١ .

(١١) نفسه .

(١٢) انظر : ٢٩/١ ، ٤/٢ .

(١٣) نفسه .

(١٤) انظر : ٧٣/١ .

(١٥) انظر : ١٤٨/١ .

القيم في " التبيان "[٣] ، وعن أبي الحسن الماوردي[٤] ، وعن الراغب الأصبهاني[٥] ، وعن الكرماني في " العجائب "[٦] ، وعن السخاوي في " جمال القراء "[٧] ، وعن ابن حجر في " شرح البخاري "[٨] ، وعن البخاري في " صحيحه "[٩] ، وعن القرافي في " فروقه "[١٠] ، وعن ابن فارس في " كتاب الأفراد "[١١] وهكذا دأبه في مقدمات كتبه يذكر مراجعه على سبيل الإجمال ، ثم في اثناء الكتاب يذكر عن كل مرجع ما نقله منه في حينه ، والأمثلة على ذلك كثيرة سوى ما ذكرناه منها سابقاً وما ذكرنا هنا فيه غنية فهل بعد ذلك يبقى قول لقائل بأنه كان يسرق ولا يعزو ؟ .

أما اتهام السخاوي للسيوطي بالهوس ، وبالكذب وبالحمق ، فهذا ما لا يرضى به عاقل فضلاً عن عالم يُقتدى به ، وهو عند الناس ملء السمع والبصر . غير أن المتتبع لأكثر تراجم السخاوي في " التبر المسبوك " وفي " الضوء اللامع " يجد أن عادته وصم الناس بالنقص والعيب ، ووصفهم بألقاب سيئة شنيعة ، وهي في ذات الوقت لا تؤدي غرضاً ، ولا تخدم هدفاً علمياً يفيد القارئ .

وهذا هو ما لاحظه الإمام الشوكاني وسجله عليه في " البدر الطالع " حيث قال عن السخاوي : " قال السخاوي في " الضوء اللامع " ترجمة مظلمة ، غالبها ثلب فظيع ، وسب شنيع ، وانتقاص وغمط لمناقبه (يعني السيوطي) ــ تصريحاً وتلويحاً ــ ولا جرم فذلك دأبه "[١٢] أي دأب السخاوي " في جميع الفضلاء من أقرانه ، وقد تنافس هو وصاحب الترجمة لرسالة سماها (الكاوي لدماغ السخاوي) فليعرف المطلع على ترجمة هذا الفاضل (يقصد السيوطي) في الضوء اللامع أنها صدرت من خصم غير مقبول عليه "[١٣] وهذا من الشوكاني حكم في غاية العدل والإنصاف إذ أنه قد برأ جميع العلماء الذين نالهم قلم السخاوي ، وهكذا تكون أخلاق العلماء .

بيد أن السيوطي قد سبق الشوكاني في الدفاع عن نفسه ضد السخاوي وغيره ، وكان دفاعه عن نفسه يحمل في ثناياه حرارة المظلوم الذي يدفع عن عرضه سهاماً ظالمه ، واتهاماً هو منه براء ، لقد سلم له المنصفون بالأمانة العلمية ، ونزاهة يده مما نسب إليه ، فما أخذ نصاً أو استقى رأياً إلا رده إلى مصدره ، أو استند فيه إلى الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة والإجماع ، وغيرها من دلائل الشريعة ، أو إلى أقوال من سبقه من العلماء ، صحيح قد يروي السيوطي بعض

---

(١) انظر : ١/١٥٠ .
(٢) انظر : ١/٢٨١،٢٠٨
(٣) انظر : ١/٣٤٦،٣٤٤ .
(٤) انظر : ١/٣٥١ .
(٥) انظر : ١/١٩ ، ٣٥٣ ، ٢/٥٣٠ ، ٦٣٦ .
(٦) انظر : ٢/١٧٩ .
(٧) انظر : ٢/٢٥٧ ، ٣/٢٠٠ .
(٨) انظر : ٢/٢٥٨ .
(٩) انظر : ٢/٥٧٨ .
(١٠) انظر ٣/٢١٨ .
(١١) انظر : ٣/٤٥٢ .
(١٢) البدر الطالع ١/٣٣٣ .
(١٣) نفسه .

الأحاديث الضعيفة في المسألة ولكنه كان جارياً على منوال المحدثين أو الرواة الذين يجمعون كل الروايات الواردة في المسألة الواحدة من صحيح وضعيف مما قد يظهر للناظر فيها أنها تجمع المتناقضات ، فمن أسند فقد برئ ، وعلى المحققين أن يقبلوا ما يستحق القبول ، وأن يردوا ما واجبه الرد ، وطريقة العلماء معلومة في الجمع بين الروايات للخروج منها بفتوى أو حكم واحد حول المسألة المتنازع فيها ، فهي إما أن تصحح بعض الروايات وتضعف الأخرى ، فالحكم إذن للصحيح ، وإما أن تضعف جميعها فتسقط ، وإما أن تصح جميعها فيجمع بينها ويوفق في الأخذ بها بعد النظر في الناسخ والمنسوخ منها ، وفيما استقر عليه العمل بين العلماء وهم بذلك على طريق سالكة ماداموا يطبقون في ذلك قواعد العلوم المتبعة ، كعلم الحديث وعلم الرجال من الجرح والتعديل ، والسيوطي بذلك ليس بدعاً من العلماء ، إذ قد سبقه من هو أفضل قدراً وجلالاً ، وجمعوا في كتبهم ومسانيدهم من الأحاديث ما يقبل التضعيف أو يكون موضوعاً ولم يقطعوا ، أو يشترطوا على أنفسهم أنهم لا يثبتون إلا ما كان صحيحاً ، وهذا سائغ ومقبول لدى أهل العلم بالرواية ، ما دام أن المصنف قد أسند ما يرويه أو رده إلى من يرويه بسنده ، ثم بعد ذلك لأهل التخصص والتحقيق رأيهم وكلمتهم في الترجيح . ومهما يكن فقد انتصر السيوطي لنفسه وما كان متجنياً ولا متحاملاً ، بل امتثالاً لقول الله تعالى : (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون)[١] وقوله تعالى : (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل)[٢] إلا أن السيوطي يجد فيما ابتلى به من الإعتداء والتجني نعمة من الله عليه ، أسوة بأنبياء الله وأوليائه وما لحقهم من أذى أقوامهم يقول دفاعاً عن نفسه : " ولقد تعبت قديماً في جمع مؤلف في الخصال الموجبة للضلال ، بذلت فيه جهدي ، وتتبعته من كتب الحديث الحاضرة عندي ، فجمعت منها جملة ، بحيث انتهت إلى سبعين خصلة ، فزعم (أي السخاوي) أنه وصلها إلى الثمانين في كتاب ألفه ، وتأليف رصفه ، ثم ادعى أني أغرت على كتابه ، وأخذت ما فيه من المتشابه ، والله يعلم ويشهد أنه مبطل فيما ادعاه عليّ ، وكاذب فيما نسبه من الاغارة إليّ وأني لم أقف على كتابه هذا إلى الآن ، ولا نظرته عيني في سر ولا إعلان ، وقد علم الله ، والناس من عادتي في التأليف أني لا أنقل حرفاً من كتاب أحد إلا مقروناً بعزوه إلى قائله ، ونسبته إلى ناقله... "[٢] ولكن مع هذا كان يوجد من هؤلاء المتحاملين على السيوطي من يعرف له قدره ، ويعلم له منزلة فاستيقظ ضميره ، وذهب إليه معتذراً ، آسفاً يترضاه ، ويطيب خاطره ، ومن هؤلاء الشيخ القسطلاني[٣] فإن خصومته للسيوطي لم تدم طويلاً فتنبه من قريب وعدل عن الخصومة وأراد أن يسترضي العالم الكبير الذي كان قد لزم بيته ، وعزف عن لقاء الناس ، فتوجه حافياً إلى مسكن الشيخ في جزيرة الروضة ، قاطعاً المسافة الطويلة بين القاهرة وجزيرة المقياس وهو على هذه الحال ، ودق على السيوطي بابه ، فقال للطارق : من أنت ؟ فقال : أنا القسطلاني جئت إليك حافياً ليطيب خاطرك ،

---

(١) سورة الشورى الآية /٣٩

(٢) سورة الشورى الآية /٤١ .

(٣) مقامة الكاوي للإمام السخاوي / مخطوطة رقم ١٥١٠ أدب دار الكتب المصرية ، وانظر ما نقلناه سابقاً عن مقدمات كتبه وذكره المراجع التي نقل عنها بصراحة .

(٤) هو : أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبدالملك القسطلاني المصري الشافعي ، أبو العباس ، شهاب الدين : من علماء الحديث ، ولد وتوفي بالقاهرة ، ولد عام (٨٥١هـ = ١٤٤٨م) وتوفي عام (٩٢٣هـ = ١٥١٧م) . انظر : البدر الطالع جـ١/١٠٢ ، الضوء اللامع جـ٢/١٠٣ ، النور السافر ١١٣ ، والكواكب السائرة جـ١/١٢٦

ولكن السيوطي الذي كان انقطع عن الناس جميعاً ، وتفرغ للكتابة والتأليف لم يفتح له الباب ، واكتفى بالرد عليه قائلاً : قد طاب "[1] ولكننا نأخذ على السيوطي ذلك الانقطاع عن الناس ، وترك الفتيا والتدريس ، وإن كان ذلك من فروض الكفايات ، إلا أن الاستمرار في الفتيا والدعوة والتدريس ، كان الأليق بحاله ومكانته ، وما كان هذا الاستمرار إلا زيادة له في الأجر والثواب ، ورفع الدرجات عند الله ، ولكن كل انسان مهما بلغت مكانته وعلمه فإنه يؤخذ من كلامه وفعله ويرد إلا المعصوم محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

ولعلنا نقول : إن خصومة القسطلاني للسيوطي لم تكن نابعة من صميم نفسه ، واستقلال رأيه " وإنما كانت تأثراً بشيخه السخاوي ، لقد كان القسطلاني تلميذاً للسخاوي والمرء يتأثر في فترة تلقي العلم بأستاذه ، فإذا شب عن الطوق ، اتخذ لنفسه طريقاً أقرب إلى الاستقلال ، وهذا ما فعله القسطلاني حين ذهب إلى دار السيوطي في جزيرة الروضة ماشياً على قدميه حافياً لكي يسترضيه ويطلب عفوه ، وتلك أخلاق العلماء "[2] .

أما ابن الكركي[3] فقد كانت خصومته للسيوطي بسبب الغيرة والمنافسة بين الندين أو بين أصحاب الفن الواحد ، ويدل لذلك ان ابن الكركي كان يتهم السيوطي بأمور تافهة ، لا تكون في العادة مسوغاً للنقد أو التجريح ، فهو يعيب السيوطي بكونه ولد فقيراً ، ونشأ فقيراً ، أو بكونه مترفعاً عن الناس ، وأنه كان بليداً لعدم معرفته الحساب وغير ذلك من الدعاوي التي لا تليق أن تصدر من عالم في آخر ند له أو مثيل له[4] .

ولأجل هذا لم ينس السيوطي أن يخصه بأكثر من رسالة ، يرد عن نفسه أذاه ، ويسفه فيه دعواه .

قال السيوطي في " طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة " : " وأما ازدراؤك لي بالفقر ، فإنه عند الله من المكرمات وقد قالت العلماء : المال لا يتفاخر به ذوو المروءات "[5] .

وأما ما ادعاه ابن الكركي أنه أحسن إلى السيوطي وسعى لزيادة راتبه ، فإن هذا من قبيل المنّ الذي كان من الواجب أن يترفع عن عالم كابن الكركي ، ولكن السيوطي يرد عليه قائلاً : (وأما قضية التوسعة ، فما أنعم علي بها إلا مولانا السلطان ، أعلى الله ببقائه كلمة الإيمان ، ومازال له الفضل عليّ والإمتنان ، وكان المتكلم لي فيها معه القاضي قطب الدين الخضيري رحمه الله ومنّ عليه بالغفران ، ووضعها القاضي تاج الدين بن الجيعان في الديوان "[6] ومن هنا يظهر مدى سقوط الدعاوي التي ادعاها ابن الكركي ضد السيوطي .

وبعد هذا الجدل الطويل بين جماعة من العلماء الواجب فيهم أن يكونوا قدوة حسنة للأمة نتساءل هذا التساؤل الذي سجله د/ مصطفى الشكعة في كتابه عن السيوطي قال : " فيم كانت هذه الخصومات ؟ وهل كانت ذات أثر وفائدة ؟ أغلب

---

(١) د. مصطفى الشكعة ، جلال الدين السيوطي ، مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية ص/٨٣ ، ط الحلبي (١٤٠١هـ = ١٩٨١م) . وهذا التصرف من السيوطي يؤخذ عليه لأنه تصرف لا يليق بحال العلماء .

(٢) نفس المصدر ص/٩٦ .

(٣) مضت ترجمته .

(٤) انظر : د. مصطفى الشكعة : جلال الدين السيوطي (ص١٠٠) .

(٥) مقدمة الشيخ عبدالوهاب عبداللطيف لتدريب الراوي ص/١٩،٢٠ .

(٦) نفس المصدر السابق والصفحة .

الظـــن أنها لم تكن كذلك ، وإلا لما ذهب في نهايتها عالم فاضـــل كالقســـطلاني ليطلب العفو من السيوطي ، ولما كـــتب الســـيوطي مـــا كتبه في حق السخاوي ولما خطت أقلام السخاوي في حق السيوطي ، ما كان ينبغي أن تتعفف عن تســـطيره تلك الأقلام ، ولكن الحقيقة كامنة في أنهم إذا كانوا أمام الناس علماء أبراراً ، فهم في حقيقتهم بشر ، والبشر غير معصومين ، ومن ثم فإنهم يخطئون ويصيبون "[١] .

---

(١) جلال الدين السيوطي سيرته العلمية ومباحثه اللغوية ص/١٠١ .

الفصل الثالث

شـيوخه وتلاميذه

المبحث الأول : شيوخه

تلقى السيوطي العلم على يد عدد كبير من العلماء ذكر في " حسن المحاضرة " أنهم نحو مائة وخمسين شيخاً[١] ، وفي المنجم الذي وضعه معجماً لشيوخه وترجم لهم فيه بلغ عددهم خمسة وتسعين ومائة[٢] . وله مصنفات أخرى في معاجم شيوخه منها : " حاطب ليل وجارف سيل " و " معجم صغير " يسمى " المنتقى " ومعجم في مروياته يسمى " زاد المسير في الفهرست الصغير " ومن أشهر شيوخه :

١- علم الدين البلقيني[٣] وعليه أخذ السيوطي الفقه ، ولازمه ملازمة تامة[٤] وإلى مذهب الشافعي ينتمي كل من السيوطي وشيخه البلقيني ، وهو الذي أجازه التدريس والافتاء ، سنة (٨٦٧هـ) ، وكان له فضل على السيوطي في مجال التأليف ، فعندما كتب السيوطي شرح الاستعاذة والبسملة سنة (٨٦٦هـ) كتب عليه الشيخ علم الدين تقريظاً[٥] ، شجعه فيه على الاستمرار في الكتابة والتأليف .

ولما توفى العلم البلقيني لزم السيوطي الشيخ شرف الدين المناوي[٦] . وكان السيوطي يمدح شيخه البلقيني ويضفي عليه ألقاب التعظيم والثناء فيقول عنه : " شيخ مشايخ الإسلام ، قاضي القضاة ، خلاصة الانام ، حامل لواء المذهب المطلبي... "[٧] .

٢- ومن شيوخه / جلال الدين المحلي[٨] (ت ٨٦٤هـ) وهو أشهر الاسماء التي اقترنت باسم السيوطي ، فأطلق عليهما اسم " الجلالين " وذلك بسبب التفسير الذي يحمل اسميهما معاً ، وهو المسمى " بتفسير الجلالين " وتفسير الجلال المحلي من أول سورة الكهف إلى آخر القرآن الكريم ، وتفسير الجلال السيوطي من أول الفاتحة إلى آخر سورة الإسراء[٩] ، وقد نسج

---

(١) حسن المحاضرة ص/٣٣٩ .

(٢) المنجم في المعجم (معجم شيوخ السيوطي) تأليف السيوطي ـــ ت إبراهيم باجس عبدالمجيد ـــ دار ابن حزم ط١/١٤١٥هـ = ١٩١٥م بيروت لبنان .

(٣) هو : صالح بن سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني الشافعي ، علم الدين ، وهو من أسرة عرفت بالعلم ، كان حجة في الفقه والنحو والأصول والتفسير والحديث ، ولي منصب قاضي القضاة ، وعزل عنه ست مرات ، انظر : حسن المحاضرة ٣٣٧،٤٤٤/١ ، د/ عدنان محمد سلمان : السيوطي النحوي ص/٧٤ .

(٤) د/ عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/٧٤ .

(٥) انظر : حسن المحاضرة ٣٣٧،٤٤٤/١ .

(٦) ستأتي ترجمته قريباً ـــ إن شاء الله ـــ .

(٧) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ٣/١ ، وبهامشه إعجاز القرآن للباقلاني ـــ المكتبة الثقافية ـــ بيروت ، لبنان ـــ بدون تاريخ .

(٨) هو : محمد بن إبراهيم بن أحمد ، ولد بالقاهرة سنة (٧٩١هـ) ، انظر : حسن المحاضرة ٤٤٣،٤٤٤/١ ، المنجم في المعجم ص/١٧٧ .

(٩) انظر : المنجم في المعجم ص/١٧٧ ، حسن المحاضرة ٢٥٢/١ .

السيوطي على منوال شيخه في تفسيره ، حضر السيوطي مجالس جلال الدين المحلي سنة كاملة ، كان يحضرها في كل أسبوع مرتين[١] .

٣- ومن شيوخه / تقي الدين الشُمني[٢] (ت ٨٧٢هـ) ، أخذ السيوطي عنه قطعة كبيرة من " المطول " للشيخ سعد الدين ، ومن " التوضيح " لابن هشام[٣] ، وقرأ عليه من الحديث عدة أجزاء ، وكتب له تقريظاً على " شرح الألفية " ، و " جمع الجوامع "[٤] .

وصفه السيوطي في حسن المحاضرة فقال " قدوة عين الزمان ، وأسنانها ، وواحد عصره في العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها ، وشجرة المعارف التي طاب أصلها فزكت فروعها وأغصانها... "[٥] .

٤- ومن شيوخه / محيي الدين الكافيجي[٦] (ت ٨٧٩هـ) وقد لازمه السيوطي أربع عشرة سنة وهي أطول مدة لازم فيها السيوطي شيخاً من شيوخه ، وظل ينهل من معين علمه طوال هذه المدة وبجانب ذلك كان يرتبط الكافيجي بوالد السيوطي برابطة صداقة تامة[٧] ، كما كان جلال الدين السيوطي يعتبر الكافيجي في مقام والده ، قال في البغية[٨] : " وما كنت أعد الشيخ (أي الكافيجي) إلا والداً لي بعد والدي ، لكثرة ما له عليّ من الشفقة والإفادة " ولهذه المكانة الرفيعة عند السيوطي نجده يلقب استاذه بقوله : " استاذ الوجود "[٩] ويلقبه بقوله : " استاذ الاستاذين "[١٠] ويقول عنه : " انسان عين الناظرين " " خلاصة الوجود " " علامة الزمان " فخر العصر والأوان[١١] وكان يعظمه كثيراً[١٢] ومن هذا الثناء يظهر أن السيوطي كان شديد الإعجاب بشيخه الكافيجي ، ولقد كتب له اجازة عظيمة قال عنه السيوطي : " ما جئته مرة إلا وسمعت منه من التحقيقات والعجائب ما لم اسمعه قبل ذلك ، قال لي يوماً : اعرب (زيد قائم) فقلت : صرنا في مقام الصغار

---

(١) انظر : ابن العماد : الشذرات ٥٢/٨ ، الكواكب السائرة ٢٢٦/١ ، د/عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/٧٣ ، وشذرات الذهب ٧/ ٣٠٣ ، الضوء اللامع ٣٩/٧ ، الاعلام ٣٣٣/٢ .

(٢) هو : أحمد بن محمد الشُمني ، الاسكندري ، القسنطيني ، الحنفي ، تقي الدين ، أبو العباس ، ولد بالاسكندرية (٨٠١هـ) ، " انظر : حسن المحاضرة ٤٧٤/١ ، شذرات الذهب ٣١٣/٧ ، البدر الطالع ١١٩/١ والضوء اللامع ١٧٤/٢ ، والاعلام ٢٣٠/١ .

(٣) هو : أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله بن يوسف ، شهاب الدين الانصاري ، المعروف بابن هشام النحوي ، ولد (٧٨٨هـ = ١٣٨٦م) من أهل القاهرة وسكن دمشق وتوفي بها عام (٨٣٥هـ = ١٤٣٢م) كتب " حواشي على توضيح الألفية " انظر : الضوء اللامع ٣٢٩/١ ، والإعلام ١/ ١٤٧ .

(٤) انظر : حسن المحاضرة ٤٧٤/١ ، بغية الدعاة ٣٧٥/١ ترجمة رقم ٧٣٩ ، والمنجم من المعجم ص/٨٢ ، زاد المسير في الفهرست الصغير ص/٤٨ ، تاريخ مصر لابن اياس ٩٩/٢ .

(٥) حسن المحاضرة ٤٧٤/١ .

(٦) هو : محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود ، محيي الدين ، أبو عبدالله الكافيجي ، الحنفي ولد قبل عام (٨٠٠هـ) تقريباً كما في حسن المحاضرة جـ٥٤٩/١ ، وفي المنجم أنه ولد عام (٧٨٨هـ) رومي الأصل واشتهر بمصر ، انظر : الشقائق النعمانية بهامش ابن خلكان ١/ ٦٨ ، والضوء اللامع ٢٥٩/٧ ، مفتاح السعادة ٤٥٤/١ ، بغية الوعاة ١١٧/١ ، وابن اياس ١٥٢/٢ ، وشذرات الذهب ٣٢٦/٧ وحسن المحاضرة ٥٤٩/١ ، الإعلام ١٥١/٦ .

(٧) بغية الوعاة ١١٧/١ ترجمة رقم ١٩٨ .

(٨) جـ١١٧/١-١١٩ .

(٩) حسن المحاضرة ٣٣٨/١ .

(١٠) بغية الوعاة ١١٧/١-١١٩ ، المنجم في المعجم ص/١٨٣ .

(١١) نفس المصدرين السابقين . وانظر البدر الطالع ١٧١/٢ ، وتاريخ مصر لابن اياس ١٥١/٢ .

(١٢) المنجم في المعجم ١٨٣ ، حسن المحاضرة ٣٣٨/١ ، ٥٤٩ .

نُسأل عن هذا ، فقال لي : في (زيد قائم) مائة وثلاثة عشر بحثاً ، فقلت لا أقوم من هذا المجلس حتى استفيدها ، فأخرج لي تذكرته فكتبتها منها "[١] .

وقد نقل السيوطي هذه المسألة في كتابه " الاشباه والنظائر " تحت عنوان : " فائدة من مولدات شيخنا العلامة الكافيجي "[٢] والبحث في هذه المسألة أقرب إلى الفلسفة والمنطق منه إلى النحو ، وسبب ذلك تعمق الكافيجي في العلوم العقلية[٣] .

٥- ومن شيوخه أيضاً / شهاب الدين الابشيطي[٤] (ت ٨٨٨هـ) اجتمع به السيوطي لما حج وجاور وأخذ عنه سماعاً وكتابة[٥] .

٦- ومنهم / شرف الدين المناوي[٦] (ت ٨٧١هـ) ، لزمه السيوطي بعد وفاة علم الدين البلقيني ، ويعتبر المُناوي استاذه الثاني بعد علم الدين البلقيني[٧] فقرأ عليه قطعة من " المنهاج " وسمعه عليه كاملاً ، وسمع عليه الكثير من " شرح البهجة " للعراقي ، ومن تفسير البيضاوي وغيرها .

٧- ومنهم / برهان الدين البقاعي[٨] (ت ٨٥٥هـ) الذي قرأ السيوطي عليه " صحيح مسلم " ، و " الشفا " و " ألفية ابن مالك " و " التسهيل " و " التوضيح " .

٨- ومنهم : سيف الدين الحنفي[٩](ت ٨٨١هـ) ، فقد أخذ عنه السيوطي دروساً عديدة في الكشاف ، والتوضيح وتلخيص المفتاح[١٠] ، وكان السيوطي يلقبه بـ " عالم الدنيا " وبـ " الحبر " قال السيوطي وهو آخر شيوخي موتاً ، لم يتأخر بعده أحد ممن أخذت عنه العلم ، إلا رجل قرأت عليه ورقات من المنهاج "[١١] وللسيوطي قصيدة يرثيه فيها بعد موته[١٢] .

---

(١) حسن المحاضرة ٣٣٨/١ .

(٢) انظر البحث في كتاب : الاشباه والنظائر للسيوطي في النحو ٢٣١/٤ ، ط٢ دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن عام ١٣٥٩هـ .

(٣) د/ عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/٧٧ .

(٤) هو : العلامة أحمد بن إسماعيل بن أبي بكر بن عمر الإبشيطي (بكسر الهمزة) شهاب الدين ، فقيه شافعي فرضي عارف بالحديث ، ولد بابشيط من قرى المحلة بمصر عام (٨٠٢هـ = ١٤٠٠م) وتوفي بالمدينة المنورة عام (٨٨٨هـ = ١٤٧٨م) له من الكتب : " ناسخ القرآن ومنسوخه " و " شرح الرجبية " و " شرح قواعد ابن هشام " انظر : حسن المحاضرة ٥٣٠/١ ، الذيل على رفع الاصر للسخاوي هامش المحقق ص/٧٦ ، البدر الطالع ٣٧/١ ، الضوء اللامع ٢٣٥/١ ، ١٨٢/١١ ، شذرات الذهب لابن العماد ٣٣٦/٧ ، الاعلام ٩٧/١ .

(٥) حسن المحاضرة ٥٣٠/١ .

(٦) هو : يحيى بن محمد بن محمد بن أحمد ، الحدادي ، المناوي من فقهاء الشافعية ، أصله من منية بني خصيب بصعيد مصر ونسبته إليها ولد عام (٧٩٨هـ = ١٣٩٦م) ونشأ في القاهرة ، توفي عام (٨٧١هـ = ١٤٦٧م) انظر : حسن المحاضرة ٤٤٥/١ شذرات الذهب ٧/ ٣٦٢ ، الضوء اللامع ٢٥٤/١٠ ، الاعلام ١٦٧/٨ ، والذيل على رفع الاصر للسخاوي ص/٤٤ .

(٧) انظر : د/ عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/٧٥ .

(٨) هو : إبراهيم بن عمر بن حسن الرُباط ـ بضم الراء وتخفيف الباء ـ ابن علي بن أبي بكر ، أبو الحسن ، برهان الدين البقاعي ، مؤرخ أديب أصله من البقاع بسورية ، سكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس ، والقاهرة ، ولد عام (٨٠٩هـ = ١٤٠٦م) ، انظر : نظم العقيان ٢٤ ، البدر الطالع ١٩/١ ، الضوء اللامع ١٠١/١-١١١ ، آداب اللغة ١٦٨/٣ ، المكتبة الازهرية ٢٧٩/١ ، شذرات الذهب ٣٣٩/٧ ، الاعلام ٥٦/١ .

(٩) هو : محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا البكتمري ، الحنفي ، سيف الدين ، عالم بفقه الحنفية ، مصري ، تركي الأصل ، ولد عام (٨٠٣هـ) وتوفي عام (٨٨١هـ) انظر : الضوء اللامع ١٧٣/٩-١٧٥ ، بغية الوعاة ٩٩ ، وابن اياس ١٦٨/٢ ، حسن المحاضرة ٤٧٨/١ .

(١٠) حسن المحاضرة ٣٣٨/١ .

(١١) نفسه ٤٧٨/١ .

(١٢) شذرات الذهب ٣٣٢/٧ ، حسن المحاضرة ٤٧٨/١ .

وشـيوخ السيوطي كثيرون ، وقد اقتصرنا في هذه العجالة على أهم شيوخه البارزين الذين يحتلون في نفسه مكانة خاصة .

المبحث الثاني : تلاميذه :

أخذ عن السيوطي جمع كبير من الأئمة الذين تتلمذوا على يديه ، ونهلوا من معينه ومن أشهر تلاميذه :

١- شمس الدين الداوودي[١] ، فهو أكثر تلاميذه اتصالاً به ، وكان شديد الاعجاب بشيخه السيوطي ، وقد قام بنسخ كثير من مؤلفـات شـيخه بخطـه ومـن الخزانة التيمورية مجموع برقم (٢٠٢ مجاميع) فيه عشر رسائل للسيوطي معظمها بخط الداوودي ، كتب ترجمة مفصلة لشيخه السيوطي ، وهو واحد من ضمن مؤلفاته التي ذكرناها في الحاشية .

٢- ومن تلاميذه / ابن طولون[٢] (ت ٩٥٣هـ) فقد أخذ عن السيوطي إجازة مكاتبة في جماعة المصريين ، وآخرين من أهـل الحجـاز ، وكان ابن طولون يصرح بتتلمذه على السيوطي فيقول عنه " شيخنا " ولكنه لم يفصح عما أخذه عنه من العلوم[٣] .

٣- ومـن تلاميـذه / ابـن اياس[٤](ت ٩٣٠هـ) ، وقد عده أكثر الباحثين المعاصرين من جملة تلاميذه ، لأنه كان يذكر السيوطي بقوله : " شيخنا " ذكر ذلك في عدة حوادث تاريخية[٥] .

٤- ومـن تلاميـذه / عبدالقادر الشاذلي المؤذن[٦] (ت ٩٣٥هـ ، وقد أخذ عن السيوطي كثيراً من العلوم ، ولازمه فترة طويلة ، وكتب له ترجمة سماها : " بهجة العابدين بترجمة الحافظ جلال الدين "[٧] وقد لخصها الشعراني في ذيل طبقاته[٨]

٥- ومـن تلاميـذه شمس الدين العلقمي[١] (ت ٩٦١هـ) ترجم له الشهاب الخفاجي[٢] في " ريحانة الألبا " فقال عنه : " شيخ الحديث في القديم والحديث ، لم تزل سحب إفادته في رياض الفضل ذوارف ، حتى صار وهو العلم المفرد من أعرف

---

(١) هو : محمد بن علي بن أحمد ، شمس الدين ، الداوودي ، المالكي ، شيخ أهل الحديث في عصره ، مصري من تلاميذ السيوطي ، غير معروف تـاريخ ولادتـه ــ كمـا في الاعلام٦/٢٩١ ــ ووفاته بالقاهرة عام (٩٤٥هـ = ١٥٣٨م) ، له : ترجمة لشيخه السيوطي ، في مجلد ضخم ، " طبقات المفسرين " ، " ذيل طبقات الشافعية للسبكي " انظر : شذرات الذهب ٨/٢٦٤ ، والكواكب السائرة ٢/٧١ .

(٢) هو : محمد بن علي بن محمد ، شمس الدين أبو عبدالله الشهير بابن طولون ، الدمشقي ، الصالحي ، الحنفي ، ولد عام (٨٨٠هـ = ١٤٧٢م) ولم يتزوج ، (ت ٩٥٣هـ) . انظر : الكواكب السائرة ٢/٥٢ ، شذرات الذهب ٨/٢٩٨ ، آداب اللغة ٣/٢٩٢ الاعلام ٦/٢٩١ .

(٣) انظـر : محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشرة الميلادي ص/٧٨ ، د/ عدنان محمد سليمان : السيوطي النحوي ص/١١٢ .

(٤) هو : محمد بن أحمد بن إياس الحنفي ، أبو البركات ، مؤرخ بحاث مصري ، من المماليك ، ولد عام (٨٥٢هـ = ١٤٤٨م) ، انظر : بدائع الزهور ٤/٤٧ وفيه ترجمته لنفسه ، آداب اللغة ٣/٢٩٨ ، الإعلام ٦/٥ .

(٥) نشر مكتبة الأدب ، وطبع مطبعة التوكل بمصر ، سنة ١٣٦٦هـ = ١٩٤٧م .

انظـر : محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك جـ٢/٣٥٩ ، محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ص/٤٨-٤٩ ، مطبعة لجنة التأليف والنشر / القاهرة سنة ١٩٤٩م .

(٦) هـو : عـبدالقادر بـن محمـد بـن أحمـد الشـاذلي ، الشـافعي ، المـؤذن ، توفـي نحـو سـنة (٩٣٥هـ) ، انظر : هدية العارفين ١/٥٩٨ ، السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، لجمال الدين محمد بن أبي بكر الشبلي اليمني ص/٧٧٧ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٦ تاريخ .

(٧) انظر : ذيل طبقات الشعراني ق٣ .

(٨) نفسه .

المعـــارف ، قـــد تحلى بخدمة الجلال السيوطي كمالا ، ورقى ســـماء المعـــالي فزاد جمالاً "[٣] . وهذا هو الذي يثبت تلمذة شمس الدين العلقمي على يدي جلال الدين السيوطي .

وتلاميذه أيضاً كثيرون ككثرة شيوخه ، وقد اقتصرنا على أشهرهم هنا وهناك .

---

(١) هو : محمد بن عبدالرحمن بن علي بن أبي بكر العلقمي ، شمس الدين ، فقيه شافعي ، عارف بالحديث ، انظر : كشف الظنون ٥٦٠ ، ١٨١٦ ، مخطوطات الرياض عن المدينة القسم الأول ٣٣ .

(٢) هو : أحمد بن محمد بن عمر ، شهاب الدين الخفاجي ، المصري ، قاضي القضاة وصاحب التصانيف في الأدب واللغة ، نسبته إلى قبيلة خفاجة ، ولـد ونشأ بمصر ، توفي – رحمه الله – عام (١٠٦٩هـ = ١٦٥٩م) ، انظر : خلاصة الأثر ٣٣١/١ ، الفهرس التمهيدي ٣٨٣ ، وآداب اللغة ٢٨٦/٣ ، الاعلام ٢٣٨/١ ، وكتب عن نفسه في الريحانه ٣٦١ .

(٣) شـهاب الديـن أحمد بن عمر الخفاجي : ريحانة الالبا وزهرة الحياة الدنيا ٧٧/٢ ، ٧٨ ، تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو – مطبعة الحلبي القاهرة ١٩٦٧م .

الفصل الرابع

مؤلفـــــاته وآثـــــاره

المبحث الأول

بيان الأقوال في عدد مصنفاته وأسباب كثرتها

قدمنا أن جلال الدين السيوطي يعتبر من أغزر الكتاب إنتاجاً علمياً في العصر المملوكي ، وإنه مع غزارة انتاجه ، فهو إنتاج متنوع في شتى صنوف المعرفة .

إذ يـــتميز إنـــتاجه بأمرين : الغزارة ، والتنوع ، وكما كانت آثاره متنوعة بين شتى العلوم فهي متنوعة أيضاً من حيــث كــبر المصـــنفات وصـــغرها ، فكـــان منها المطولات ، ومنها ما هو متوسط ، ومنها الرسائل والمقامات ، ومنها مختصرات لكتب الذين سبقوه من العلماء .

ومما يذكر فيشكر للسيوطي أن هذا الكم الهائل من الآثار العلمية قد حفظت كثيراً من العلوم التي فقدها المسلمون في الحروب والإضطرابات والنكبات الهمجية التي كان يتعرض لها المجتمع الإسلامي .

لذا فقد اسهمت جهوده العلمية ــ بلاشك ــ في حفظ العلم للخلف ، وتيسير سبل المعرفة عن السلف .

والباحثون متفقون على أن مؤلفات السيوطي قد بلغت المئين ، ولكنهم اختلفوا في تحديد عدد هذه المئين على أقوال :

الأول : أنها ثلاثمائة .

ذكر ذلك السيوطي نفسه في " حسن المحاضرة "[١] الذي ألفه بين سنتي (٩٠١-٩٠٤هـ)[٢] .

الثاني : أنها تزيد على الأربعمائة .

ذكرها السيوطي في : " التحدث بنعمة الله " حين سرد مؤلفاته فبلغ مجموعها واحداً وأربعين وأربعمائة كتاب[٣] .

وذكـــر الشعراني نحو هذا العدد أو يزيد في ذيل طبقاته[٤] ، والشبلي اليمني في " السنا الباهرة "[٥] ، والأسدي في " طبقات الشافعية "[٦] وحاجي خليفة في كشف الظنون مثبوتة في ثنايا الكتاب .

الثالث : أنها خمسمائة .

ذكر ذلك السيوطي في " التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة "[٧] .

---

(١) انظـــر : (٣٣٨/١) قـــال الســـيوطي : " وبلغت مؤلفاتي إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه " وقوله " إلى الآن " يقصد تاريخ تأليف الكتاب .

(٢) ذلك لأن آخر سلاطين المماليك الذي ترجم له ونص علىوفاته هو الملك الأشرف قايتباي المحمودي (ت٩٠١هـ) ثم ذكر من خلفه من بعده وهو ولده محمد الملقب بالملك الناصر ولم يذكر وفاته (حسن المحاضرة ١٢٢/٢) .

(٣) التحدث بالنعمة (ص١٠٥-١٣٦) وهذا الكتاب ألفه سنة (٨٩٠هـ) .

(٤) انظر : ذيل طبقات الشعراني – مخطوط (ق٥) .

(٥) انظر : (ص٨١-٩٢) .

(٦) طبقات الشافعية – مخطوط (ق١٣٥) .

(٧) انظر : (ص٤٥) .

الرابع : أنها تزيد على خمسمائة .

جاء ذلك على لسان السيوطي فيما ذكره الكتاني أنه ظفر بمصر بكراسة من تأليف السيوطي عدد فيها تآليفه سنة (٩٠٤هـ) أي قبل وفاته بسبع سنين فبلغت خمسمائة وثمان وثلاثين مؤلفاً مرتبة حسب الفنون العلمية[١] .

وللسيوطي فهرس مؤلفاته من وضعه ، يحتوي على خمسمائة وأربعة كتب ، طبع هذا الفهرس في آخر الجزء السادس من كتاب كشف الظنون المطبوع بأوربا[٢] .

ونقل ابن العماد الحنبلي عن الداودي تلميذ السيوطي أنه استقصى مؤلفات شيخه فزادت على خمسمائة [٣] .

وأثبت له " فلوجل " [٤] واحداً وستين كتاباً وخمسمائة كتاب[٥] .

الخامس : أنها ستمائة أو ما يقرب منها .

ذكره ابن إياس في بدائعه[٦] ، وابن طولون في " مفاكهة الخلان "[٧] ، واسماعيل البغدادي في هدية العارفين[٨] ، وجميل العظم[٩] في " عقود الجوهر "[١٠] .

السادس : أنها سبعمائة أو تزيد .

تتبعها الباحث عدنان محمد سلمان في كتابه " السيوطي النحوي "[١١] .

السابع : أنها بين تسعمائة وألف .

ذكر ذلك أحمد الشرقاوي في كتابه " مكتبة جلال الدين السيوطي " وكذلك أحمد الخازندار مع الشيباني في كتابهما : " دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها "[١٢] هذا ما وقفت عليه من الأقوال في بيان عدد مؤلفات السيوطي ، وأرى أرجحها القولين : الرابع والخامس ، أي أنها بين الخمسمائة والستمائة مصنف وذلك لأمور منها :

١- أن هذا هو آخر ما توصلنا إليه عن طريق السيوطي وتلاميذه وهم الأدرى بذلك .

٢- أن العدد الأقل من ذلك إنما ذكره السيوطي في ما ألفه قبل سنة (٩٠٤هـ) بخلاف هذا الذي رجحته فإنه كتبه فيما بعد سنة (٩٠٤هـ) وعن ثلاثة من أخص تلاميذه .

---

(١) فهرس الفهارس (٣٥٩/٢) ، ومقدمة ألفية السيوطي – دار البصائر ، دمشق .

(٢) كشف الظنون – طبعة أوربا (٦/٦٦٥-٦٧٩) ومن هذا الفهرس نسخة في دار الكتب المصرية ضمن مجموع تحت رقم (٣٢) مجاميع ، ذكر ذلك مؤلف كتاب " السيوطي النحوي " (ص١٣٨) .

(٣) انظر : شذرات الذهب (٥٣/٨،٥٢) .

(٤) مستشرق ألماني ت (١٨٧٠م) واسمه الكامل : جوستاف ليبرشت فلوجل ، انظر : الأعلام (١١٨/٢) .

(٥) انظر : مقدمة نظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي ، ت : فيليب حتى ، صفحة (ح) .

(٦) انظر : بدائع الزهور (٥٨٣/٤) (٦٣/٣) .

(٧) مفاكهة الخلان (٣٠٢/١) .

(٨) (٥٣٤/١-٥٤٤) .

(٩) جميل بن مصطفى بن محمد باشا العظم أديب دمشقي من أعضاء المجمع العلمي العربي ت (١٩٣٣م) له اعتناء بالتاريخ من كتبه عقود الجوهر ، انظر الاعلام (١٣٨/٢) .

(١٠) انظر (ص١٩٤-٢١٦) .

(١١) انظر : (ص١٤٠) .

(١٢) آخر رقم مسجل في كتابهما واحد وثمانون وتسعمائة مؤلف .

٣- أن العدد الزائد عن هذا القدر لم يثبت عن السيوطي ولا عن أحد تلاميذه ، ولا ممن أرخواله من القرون التي بعد القرن العاشر ، وإنما ذكره بعض المعاصرين .

وبتتبع كتابي " مكتبة جلال الدين السيوطي " و " دليل مخطوطات السيوطي " وجد عدد كبير من الكتب التي نسبت إليه إنما هي بين مكرر ومنحول عليه ، وإذا أسقطنا هذا المكرر والمنحول ، بقى لنا العدد قريباً مما رجحناه . ومن الغريب أن يشكك بعض الباحثين في مقدرة السيوطي على تأليف هذا العدد الكبير من المصنفات ، وكان مما قوى عندهم هذا الشك أمران :

١- مـــا ردده بعض خصومه كالسخاوي من أنه أخذ كتباً من المحمودية فقدم فيها وأخر ونسبها لنفسه[١] ، وقد رددت على هذا الزعم الذي زعمه السخاوي – عفا الله عنه – فيما تقدم عند الكلام على خصومته معه ، كما ذكرت دفاع الشوكاني عنه

٢- ما اشتهر أن بعض الكتب للسيوطي ، ثم تبين أنها منحوله وهذا قد يقع لكثير من العلماء ، من أنه قد ينسب إليه بعض المصنفات وهي ليست كذلك ، وليس ذلك مما ينفرد به السيوطي وحده ، كما أن القدرة على التصنيف من المواهب الإلهية الـــتي يمن الله بها على بعض عباده ، وقد عرف في التاريخ عدد كبير من العلماء ممن نافت مصنفاته عن هذا العدد كابن الجوزي وابن تيمية وغيرهما ، خصوصاً وأن السيوطي قد هيئت له أسباب ساعدته على التأليف منها :

١- توفيق الله تعالى له ، فقد حدثنا تلميذه الداودي أنه رأى شيخه " وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس ، تأليفاً وتحريراً ، وكان مع ذلك يملي الحديث ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة "[٢] .

٢- ابـــتداؤه الـــتأليف في سن متقدمة من عمره ، مما جعل مدة التأليف أطول إذ ظل يشتغل بالكتابة والتصنيف من سنة (٨٦٦هـــ) وحـــتى وفاته عام (٩١١هـــ) وهي مدة خمساً وأربعين سنة ، وهذا وقت طويل نسبياً يجعل صاحبه الدؤوب على التأليف ينتج هذا الكم الهائل من المصنفات .

٣- عـــدم التشاغل بمنصب أو وظيفة[٣] ، مما جعله متفرغاً تماماً للتأليف خصوصاً بعد أن اعتزل التدريس والفتيا وانقطع عـــن الـــناس مـــنذ بـــلغ الأربعين من عمره ، وإن إحدى وعشرين سنة خلوة في حياة شخص كالسيوطي لكافية لأن تغمر الأرض بالمئات من الكتب .

٤- اطلاعه الواسع الذي مكنه أن يكتب العديد من حافظته دون الرجوع إلى الكتب ، يؤيد ذلك ما قاله عن نفسه حين قال : " وكنت استحضر غرائب المنقولات ، ودقائق الفنون الخفية معزوة إلى قائلها من الكتب المشهورة والغريبة "[٤] ، وقال : " ولـــو شـــئت أن أكتب في كل مسألة مصنفاً بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله "[٥] .

٥- يضـــاف إلى ذلك ما أنعم الله تعالى عليه بنفائس كتب الإسلام التي ورثها عن والده الكمال ، مع ما اطلع عليه من كتب

---

(١) الضوء اللامع (٦٦/٤) وقد بينت بطلان هذه التهمة كما ذكرت .

(٢) شذرات الذهب (٥٣/٨) .

(٣) تقلد السيوطي بعض الوظائف المتعلقة بالعلم والتعليم ولم يمكث فيها طويلاً .

(٤) التحدث بالنعمة (ص١٨٤) وكان هذا سنة (٨٦٩هـ) وعمره يومئذ (٢٠) سنة .

(٥) حسن المحاضرة (٣٣٩/١) .

المحمودية[١] التي كانت في أمانته فترة من الزمن ووضع لها فهرساً سماه : " بذل المجهود في خزانة محمود "[٢] .

٦- اشتغاله بالإفتاء والتدريس اللذان كانا يساعدانه عادة على التأليف تحقيقاً لمسألة أو إجابة لفتوى[٣] .

٧- كثرة تلاميذه وطلابه الذين يكتبون عنه كل ما يمليه أو يلقيه في محاضراته ودروسه ، أو يفتي به ، ثم يعرضون عليه ما يكتبونه فيجيزه أو يأمر بتبيضه ، وهذا من شأنه أن يحفظ كل كلام تكلم به مما له تعلق بالعلوم والفنون المختلفة مما كان له الأثر البالغ في كثرة مصنفاته وسرعة انتشارها .

٨- حدة طبعه ، وسرعة غضبه وعدم صبره على تطاول خصومه وأقرانه ، فكانت كل غضبة تكلفه مصنفاً يرد به على مخالفيه ، ومعارضيه وهذا من شأنه أيضاً أن يساهم في كثرة كتبه ورسائله .

٩- شعوره بالقدرة على الاجتهاد ، وهذا دفعه إلى أن يؤلف في كل فن[٤] ، ليثبت تمكنه فيه ، ولهذا نجده قد صنف في أغلب معارف عصره إلا الحساب والمنطق [٥] .

أما الأول : فلأنه لا يتلاءم مع طبعه ، فيجده عسيراً عليه .

وأما الثاني : فلأنه حرام ، وسيأتي معنا موقفه من المنطق في الباب الثاني إن شاء الله تعالى .

والآن يمكننا أن نذكر أهم مصنفات التركة العلمية التي خلفها السيوطي للأمة من بعده .

---

(١) هي المكتبة التابعة للمدرسة المحمودية التي تنسب إلى محمود بن علي الاسنادار الذي أنشأها سنة (٧٩٧هـ) قال المقريزي : وبهذه الخزانة كتب الاسلام من كل فن ، (تدريب الراوي ١٤،١٣) .

(٢) نشر بتحقيق فؤاد السيد بمجلة معهد المخطوطات المجلد الرابع ط/مايو/١٩٥٨م .

(٣) انظر : التحدث بالنعمة (ص١٢١) فقد سرد نحو ثمانين مؤلفاً كلها في واقعات الفتاوى ، وكذلك أغلب ما يحويه الحاوي من أسماء مصنفات وعناوين رسائل هي في حقيقتها فتاوى ، فيجعل لكل فتوى عنواناً كعنوان المصنف أو الكتاب .

(٤) انظر : مكتبة الجلال السيوطي للشرقاوي .

(٥) إلا ما ألفه في الرد على المنطق وهدمه .

المبحث الثاني

بيان أشهر مصنفاته في مختلف الفنون

أولاً : العقيدة والتصوف والمنطق :

١- " علم التوحيد "[١] .

٢- " خلق الأعمال "[٢] .

٣- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة[٣] .

٤- تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد[٤] .

٥- تعريف الايمان وركنه ، وشرطه[٥] .

٦- تحفة الجلساء برؤية الله - تعالى - للنساء[٦] .

٧- الدر المنظم في بيان الاسم الأعظم[٧] .

٨- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام[٨] .

٩- القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق[٩] .

١٠- فصل الكلام في ذم الكلام[١٠] .

١١- إلقام الحجر لمن زكى ساب أبي بكر وعمر[١] .

---

(١) مخطوطة ، بمكتبة المسجد الأحمدي ، بطنطا - مصر ، رقم خاص (٦٣) عام (٦٦٩) ، كتب في بدايتها : علم التوحيد من دراية الجلال السيوطي - تناول فيها معظم أبواب الاعتقاد باختصار على طريقة الأشاعرة .
لديَّ منها نسخة مصورة عن المخطوطة الأحمدية ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٦٠) .

(٢) مخطوطة ، بمكتبة المسجد الأحمدي ، بطنطا - مصر ، رقم خاص (٢٧٧) ، عام (٢٤٥٨) . ولديَّ منها نسخة مصورة . دليل مخطوطات السيوطي (ص١٥٨) .

(٣) حسن المحاضرة (٣٤٠/١) ، وقد صنفه السيوطي ضمن مؤلفاته في الحديث ، وهو مطبوع ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١٣٤٧هـ) ، المجلد الثاني ، دار إحياء التراث العربي - بيروت حسن المحاضرة (٣٤١/١) كشف الظنون (١٧٦٠) ، وهدية العارفين (٥٤٣/١) ، وطبع أيضاً بدار المطبعة السلفية بالقاهرة سنة (١٣٩٤هـ) ت . قصي محب الدين الخطيب ، وطبع بسوريا - مكتبة دار السلام - حلب سنة (١٣٩٩ هـ) - وطبع بالكويت - مكتبة ابن تيمية سنة (١٤٠٢هـ) تحقيق بدر البدر .

(٤) كشف الظنون (٤٩٤) ، هدية العارفين (٥٣٧/١) ، فهرس الخزانة التيمورية (٢٦/٤) رقم (٤٠١) مجاميع ، دار الكتب المصرية (٣٢) مجاميع ، شيستربيتي (٥١١٢) وطبع ضمن الحاوي (١٢٩/٢) .

(٥) طبع ضمن الحاوي (١٩٧/٢) ، (٣٣٠) .

(٦) كشف الظنون (٣٦٤) ، عقود الجوهر ، هدية العارفين (٥٣٧/١) ، جامعة كمبردج (١٣٤٧) طبع ضمن الحاوي (١٩٨/٢) .

(٧) كشف الظنون (٣٧٤) هدية العارفين (٥٣٨/١) برلين (٢٢٤١) فهرس التيمورية (٤١/٤) مجاميع (٤٠٠) طبع بمطبعة الارشاد القاهرة .

(٨) مطبوع بتحقيق د/علي سامي النشار ، وهو يحتوي على عدة كتب : أولها المذكور من تأليف السيوطي ، وثانيها : تلخيص كتبا ذم الكلام وأهله - للهروي ، وثالثها : كتاب : جهد القريحة في تجريد النصيحة ، وهو تلخيص السيوطي لكتاب ابن تيمية في نقص المنطق ، المسمى : " نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان " .

(٩) كشف الظنون (١٣٦٥) ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، هدية العارفين (٥٤١/١) برلين (٤٥/٥٢٢٧) طبع ضمن الحاوي للفتاوي (٢٥٥/١) .

(١٠) كشف الظنون (١٢٦١) ، عقود الجوهر ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، وأشار د.علي سامي النشار إلى أن هذا المصنف هو جزء من كتاب صون المنطق ، وهو الجزء الذي أورد فيه نصوص الأئمة في تحريم علم الكلام ، انظر صون المنطق (ص٣) حاشية (٤) .

١٢- الكوكب الساطع في شرح نظم جمع الجوامع[٢] .

١٣- شرح الكوكب الوقاد في الاعتقاد[٣]

١٤- تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية[٤] .

١٥- الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال[٥] .

١٦- تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك[٦] .

١٧- العرف الوردي في أخبار المهدي[٧] .

١٨- الدر الحسان في البعث ونعيم الجنان[٨] .

١٩- الدرة الفاخرة في علوم الدنيا والآخرة[٩] .

٢٠- رفع الصوت بذبح الموت[١٠] .

٢١- طلوع الثريا بإظهار ما كان خفياً[١١] .

٢٢- الحبل الوثيق في نصرة الصديق[١٢] .

٢٣- حسن المقصد في عمل المولد[١] .

---

(١) حسن المحاضرة (١/٣٤٣) ، كشف الظنون (١٥٨) ، هدية العارفين (١/٥٥٣٥) برلين (٤٩٥٧) مكتبة البلدية بالاسكندرية – مصر (٢٢٧٩/ ٢٣) والكتاب لم أقف عليه وربما لا يزال مخطوطاً .

(٢) كشف الظنون (١٥٢٣) ، هدية العارفين ، (١/٥٤٢) حسن المحاضرة (١/٣٤٣) ، مكتبة سوهاج – مصر (١٢٣) أصول ، برلين (١٤/٤٤٠٨) جامعة الرياض نشرة مخطوطات السيوطي رقم (١٢٧) ص (٣٥) ، طبع : البسفور سنة (١٣٣٢هـ) والكتاب موضوعه في أصول الفقه ، وبآخره جزء كبير في العقيدة والسلوك ، قام بتحقيق الكتاب الطالب حسان فلمبان ، جامعة أم القرى .

(٣) كشف الظنون (١٥٢٣) ، حسن المحاضرة (١/٣٤٢) ، دار الكتب المصرية (١١٨١،٩٥م) مجاميع وهو منظومة لعلم الدين علي بن عبدالصمد السخاوي ت (٦٤٣هـ) ولم أر الكتاب مطبوعاً ، انظر : (دليل مخطوطات السيوطي (ص١٥٩)) .

(٤) حسن المحاضرة (١/٣٤٤) ، كشف الظنون (٣٣٦) ، هدية العارفين (١/٥٣٦) برلين (٣٠٣٢) عارف حكمت بالمدينة المنورة (١٢) تصوف ، دار الكتب المصرية (٣٠١٤) طبع : المطبعة الاسلامية بالقاهرة – مصر – سنة (١٩٣٤م) ، دليل مخطوطات السيوطي (١٥٥) .

(٥) كشف الظنون (٥٢١) حسن المحاضرة (١/٣٤٣) ، هدية العارفين (١/٥٣٨) برلين (٤/٣٣٨١) دار الكتب المصرية (٣٦٢) مجاميع ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٣٦٢،٣٩٢٧) وطبع ضمن الحاوي (٢/٢٤١) .

(٦) كشف الظنون (٥٠١) ، حسن المحاضرة (١/٣٤٢) بروكلمان – الذيل (٢/١٩٢) هدية العارفين (١/٥٣٦) طبع ضمن الحاوي (٢/٢٥٥) .

(٧) كشف الظنون (١١٣٢) ، هدية العارفين (١/٥٤٠) ، دار الكتب المصرية (٣٢) مجاميع ، طبع : ضمن الحاوي (٢/٥٧) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٢٢٧) .

(٨) عقود الجوهر ، هدية العارفين (١/٥٣٩) ، دار الكتب المصرية (١٥٥٠) ، طبع حجر في مصر سنة (١٢٧٦هـ) – مطبعة شرف بالقاهرة سنة (١٣٠٤هـ) .

(٩) كشف الظنون (٧٤٦) ، حسن المحاضرة (١/٣٤٢) ، مخطوطات البحرين بطنطا (٣٠) خاص ، (١٣٥٢) عام ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٦٩) .

(١٠) هدية العارفين (١/٥٣٩) ، عقود الجوهر ، حسن المحاضرة (١/٣٤٢) ، برلين (٢٦٨٥) ، (١٥٩٤) ، دار الكتب المصرية (٢٦٢) مجاميع ، (١٢٣) مجاميع ، الظاهرية (٥٨٩٦) شيستربيتي (٥١١٢) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٦٠٩) ، طبع ضمن الحاوي (٢/٩٥) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٨٠) .

(١١) هي رسالة في بيان فتنة الموتى في قبورهم ، كشف الظنون (١١١٥) ، هدية العارفين (١/٥٤٠) برلين (٢٦٧١) ، دار الكتب المصرية (١٤٣٩) شيستربيتي (٥١١٢) ، - - مخطوطات جامعة الكويت (٣٦٠٩) ، طبع ضمن الحاوي (٢/١٧٨) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٨١) .

(١٢) كشف الظنون (٦٢٩) هدية العارفين (١/٥٣٨) لم أره مطبوعاً ، فلعله لم يزل مخطوطاً ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١١٠) .

٢٤- تزيين الأرائك في إرسال نبينا إلى الملائك[٢] .

٢٥- الوجه النضر في ترجيح نبوة الخضر[٣] .

٢٦- الاعلام بحكم عيسى – عليه السلام –[٤] .

٢٧- البرهان في علامات مهدي آخر الزمان[٥] .

٢٨- الأقوال والبحث في أحوال البعث[٦]

٢٩- البدور السافرة عن أمور الآخرة[٧] .

٣٠- بشرى الكتيب بلقاء الحبيب[٨] .

٣١- التثبيت عند التبييت[٩] .

٣٢- الحصر والإشاعة لأشراط الساعة[١٠] .

٣٣- منظومة في سؤال القبر[١١]..

٣٤- المنجلي في تطور الولي[١٢] .

ثانياً : التفسير وعلوم القرآن الكريم والقراءات :

٣٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور[١٣] .

---

(١) كشف الظنون (٦٦٧) ، هدية العارفين (٥٣٨/١) ، الظاهرية مجموع (١٤٧) عام (٣٨٨٠) مخطوطات جامعة الكويت (٧٤٦) مجموع (٢) برلين (٩٥٤٤) دار الكتب المصرية (٢٤٢٣) طبع ضمن الحاوي (١٨٩/١) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٥٠) .

(٢) مطبوع ضمن الحاوي (١٣٩/٢).

(٣) كشف الظنون (٢٠٠١) ، عقود الجوهر ، برلين (٩/٢٥٥٨) ، هدية العارفين (٥٤٤/١) ، لم أقف عليه مطبوعاً . دليل مخطوطات السيوطي (ص ١٤٩) .

(٤) كشف الظنون (١٢٧) ، هدية العارفين (٥٣٥/١) مخطوطات الموصل – العراق (٣١) مجموع (٢٢/٤ج٣) ، المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء – اليمن (١٨٧) مجموع ، مكتبة صوفيا الوطنية – بلغاريا (١٦١٨) مجموع ، مكتبة سعد أفندي في استانبول – تركيا (٢٦٠) مجموع ، دار الكتب المصرية (٢٨١٩) ، (٢٤٦٧) ، (٢٤٦٨) شيستربيتي (٥١١٢) ، (٥٥٠٠) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٦٠٩) ، (٣٩٩٧) دليل مخطوطات السيوطي (ص٢٢٠) ، ولم أره مطبوعاً .

(٥) هدية العارفين (٥٣٦/١) ، ولم أقف عليه مطبوعاً ، دليل مخطوطات السيوطي(ص٢٢).

(٦) الخزانة التيمورية ، كتب سنة (١١٦٧هـ) ، ولم أقف عليه مطبوعاً ، وله كتاب البعث – دار الكتب المصرية (٤١٦) مجاميع ، طبع ضمن الحاي (٩٤/٢) . دليل مخطوطات السيوطي (ص١٨٢) ، (١٧٦) .

(٧) كشف الظنون (٢٣١) ، حسن المحاضرة (٣٤٠/١) ، بروكلمان (١٤٦/٢) ، هدية العارفين (٥٣٦/١) فهرس مخطوطات اليمنية – حضرموت (٣٤٠) دار الكتب المصرية (٨٧٩) ، (٣١٥) ، طبع بمطبعة كرويد – لاهور – باكستان سنة (١٣٣٧هـ) ، الهند (سنة ١٣١١هـ) المورد مجلد (٧) عدد (٢) (١٣٩٨هـ) دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٦) .

(٨) طبع على هامش " شرح الصدور بشرح حال الموتى في القبور " بالمطبعة الميمنية سنة (١٣٠٩هـ) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٨) .

(٩) طبع بالمطبعة الحسينية بالقاهرة – مصر ، وفي فاس – المغرب سنة (١٣٢٧هـ) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٨) ، (١٧٩) .

(١٠) كشف الظنون (٦٦٨) ، حسن المحاضرة (٣٤٣/١) ، عقود الجوهر ، هدية العارفين (٥٣٨/١) ، وتوجد رسالة بعنوان : " رسالة في أمر الساعة " بدار الكتب المصرية (١٤٠٦) . دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٩) .

(١١) طبع بجاوة – اندونيسيا سنة (١٣١٨هـ) ومنها نسخة موجودة بدار الكتب المصرية برقم (٥١٨) مجاميع ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٧٩) .

(١٢) طبع ضمن الحاوي (٢١٧/١) .

(١٣) مطبوع ومشهور ومتداول ، وقد تفرد السيوطي بهذا الكتاب تفرداً فذاً حيث جمع فيه كل الآحايث والآثار التي لها صلة بتفسير القرآن الكريم دون أن يخلط بها غيرها من كلامه أو كلام المفسرين ، وبهذا يكون هذا الكتاب وحده المستحق لأن يسمى " التفسير بالمأثور " .

٣٦- تفسير الجلالين[١] .

٣٧- معترك الأقران في إعجاز القرآن[٢] .

٣٨- التحبير لعلم التفسير[٣] .

٣٩- ترجمان القرآن[٤] .

٤٠- الإكليل في استنباط التنزيل[٥] .

٤١- مفحمات الأقران في مبهمات القرآن[٦] .

٤٢- حاشية على تفسير البيضاوي[٧] .

٤٣- الأزهار الفائحة على الفاتحة[٨] .

٤٤- مجمع البحرين ومطلع البدرين[٩] .

٤٥- شرح الاستعاذة والبسملة[١٠] .

٤٦- لباب النقول في أسباب النزول[١١] .

٤٧- الاتقان في علوم القرآن[١٢] .

٤٨- تناسق الدرر في تناسب السور[١٣] .

٤٩- الألفية في القراءات العشر[١٤] .

---

(١) مطبوع ومشهور ومتداول ، فسر شيخه جلال الدين المحلي سورة الفاتحة ، والنصف الثاني من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس ، وفسر السيوطي من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، كما ذكر هو نفسه في آخرها ، انظر الجلالين (ص٣٥٠) .

(٢) مطبوع في ثلاثة مجلدات كبار ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط١/١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م

(٣) كشف الظنون (٣٥٤) ، إيضاح المكنون (١/٢٣٠) ، حسن المحاضرة (١/٣٣٩) ، هدية العارفين (١/٥٣٦) ، مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة (١٩٦) تفسير ، شيستربيتي (٤٦٥٥) ، (٥١١٢) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣١٥٢) ، (٣٦٠٩) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص ٣١) .

(٤) طبع بمصر سنة (١٣١٤هـ) ، وقيل : اختصره في " الدر المنثور " دليل مخطوطات السيوطي (ص٣٢) .

(٥) حققة الطالب عامر العرابي - بجامعة أم القرى (١٤١٦هـ-١٤١٧هـ) ، وطبع بدلهي عام (١٢٩٦هـ) .

(٦) مطبوع بتحقيق : إياد خالد الطباع - مؤسسة الرسالة ، ط٢/١٤٠٩هـ-١٩٨٨م .

(٧) حسن المحاضرة (١/٣٣٩) برلين (٨٣٤) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٣٥) .

(٨) كشف الظنون (٤٥٦) .

(٩) كشف الظنون (١٥٩٩) ، حسن المحاضرة (١/٣٣٩) .

(١٠) عنوانها : " رياض الطالبين في شرح الاستعاذة والبسملة " هدية العارفين (١/٥٣٩) ، برلين (٢٢٥٨) ، دار الكتب المصرية (٤٧٤) مجاميع ، حسن المحاضرة (١/٣٣٩) ، لم أقف عليها مطبوعة .

(١١) مطبوع ، ومشهور ، ومتداول طبع بحاشية تفسير الجلاين ، وبحاشية كلمات القرآن تفسير وبيان للشيخ حسنين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية ، وطبع مستقلاً البابي الحلبي بمصر سنة (١٩٥١م،١٩٥٤٤م) وطبعات أخرى .

(١٢) مطبوع ، ومشهور ومتداول ، البابي الحلبي - بمصر سنة (١٩٥١) ، مطبعة عبدالرزاق سنة (١٣٠٦هـ) ، الميمنية سنة (١٣١٧هـ) سركيس (ص١٠٧٣) .

(١٣) مطبوع بعنوان : " أسرار ترتيب القرآن " دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، دار الاعتصام - القاهرة - بدون تاريخ وهي طبعة حديثة .

(١٤) حسن المحاضرة (١/٣٣٩) ، ولم أقف عليها مطبوعة .

ثالثاً : الحديث النبوي الشريف وعلومه وما يتعلق به :

أخبر السيوطي عن نفسه أنه يحفظ مائتي ألف حديث ، قال : " ولو وجدت أكثر لحفظته "[١] مما يدل على تضلعه من الأحاديث النبوية ، وكلفه بها ، وجمعها والتصنيف في علومها ، وله في ذلك مصنفات ضخمة نذكر منها :

٥٠- التوشيح على الجامع الصحيح[٢] .

٥١- الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج[٣] .

٥٢- أحاديث التسبيح الواردة في الحديث الصحيح[٤] .

٥٣- جمع الجوامع ، أو الجامع الكبير[٥] .

٥٤- الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير[٦] .

٥٥- مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود[٧] .

٥٦- قوت المغتذي على جامع الترمذي[٨] .

٥٧- زهر الربى على المجتبى في شرح سنن النسائي[٩] .

٥٨- عقود الزبرجد على مسند الإمام أحمد[١٠] .

٥٩- تنوير الحوالك في شرح موطأ مالك[١١] .

٦٠- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة[١٢] .

٦١- مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة[١] .

---

(١) ابن العماد : شذرات الذهب (٥٣/٨) .

(٢) حسن المحاضرة (٣٤٠/١) وهو شرح على صحيح البخاري ، ذكره صاحب كشف الظنون باسم : " التوشيح على مشكلات الجامع الصحيح " (٥٤٧) ، هدية العارفين (٥٣٧/١)- = برلين (٣٥/١٢٢٥) ، المكتبة الوطنية باستانبول - فيض الله (٣٢٠) ، مكتبة حسن حني عبدالوهاب بتونس (١٨٢٠٩) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٦١) ولم أره مطبوعاً .

(٣) ذكر بعضهم أنه مطبوع ، ولم أقف عليه ، ذكره في كشف الظنون (٧٦٢) ، حسن المحاضرة (٣٤٠/١) ، دار الكتب المصرية (٢١٩) ، مخطوطات الأوقاف العراقية (٧٠١) عبدالله الجبوري (٢٣٣/١) ، المكتبة الوطنية باستانبول - فيض الله (٣٢١) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٧٠) .

(٤) شيستربيتي (٥٤٩١) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٩٨٨) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٤٧) .

(٥) مطبوع ، دار النصر للطباعة - مصر سنة (١٩٨١م) ، مجمع البحوث الإسلامية القاهرة ١٩٧١-١٩٧٥م .

(٦) مشهور ومطبوع ومتداول ، مرسيليا ، بولاق سنة (١٣٨٦هـ) والخيرية سنة (١٣٢٣هـ) وباكستان سنة (١٣٩٤هـ) ، بيروت سنة (١٩٦٩م) ت. محمد ناصر الدين الألباني - دار إحياء الكتب العربية - ت مصطفى محمد عمارة سنة (١٩٥٤م) .

(٧) مطبوع ، المطبعة الوهبية سنة (١٢٩٨هـ) .

(٨) كشف الظنون (١٣٦١) ، هدية العارفين (٥٤١/١) ، جامعة الرياض (٣٩٧) ، عارف حكمت بالمدينة المنورة (١٥٧) حديث ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٨٠-٨١) وقيل : إنه مطبوع ولم أقف عليه .

(٩) مطبوع ، البابي الحلبي - بالقاهرة (١٩٦٤م) ، الميمنية سنة (١٢٩٩هـ) ، وعندي طبعة دار الكتب العلمية مع حاشة الإمام السندي .

(١٠) كشف الظنون (١١٥٦) ، هدية العارفين (٥٤٠/١) ، دار الكتب المصرية (١٢٥٤ب) ، (٩٢)، دار الكتب القطرية (١٠٤٦) ، (١٠٤٧) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٧٧) .

(١١) مطبوع ، البابي الحلبي بالقاهرة سنة (١٣٠٣هـ) ، المكتبة الثقافية / لبنان سنة (١٩٧٣م) دار احياء الكتب العربية - مصر سنة (١٣٤٣هـ) ، دار الكتب العلمية - بيروت .

(١٢) وهو تلخيص كتاب الموضوعات لابن الجوزي ، مطبوع ، المطبعة التجارية الكبرى بالقاهرة سنة (١٣١٧هـ) ، الهند (سنة ١٣٠٣هـ) .

٦٢- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة[٢] .

٦٣- تخريج أحاديث شرح العقائد النسفية[٣] .

٦٤- تخريج أحاديث شرح المواقف في علم الكلام[٤] .

٦٥- تدريب الراوي شرح تقريب النواوي[٥] .

٦٦- الخصائص الكبرى[٦] .

٦٧- لقط المرجان في أحكام الجان[٧] .

٦٨- شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور[٨] .

٦٩- نتيجة الفكر في الجهر بالذكر[٩] .

٧٠- زهر الخمائل على الشمائل[١٠] .

٧١- مناهل الصفافي تخريج أحاديث الشفا[١١] .

٧٢- نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير[١٢] .

٧٣- كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة[١٣] .

٧٤- مطلع البدرين فيمن يؤتي أجره مرتين[١] .

---

(١) طبع بها حسن ابن ماجة بالمطبعة الوهبية سنة (١٢٩٩هـ) .

(٢) طبع بمطبعة الحلبي - بمصر سنة (١٩٣٧م) ضمن حاشية كتبا الفتاوي الحديثية لابن حجر بالمطبعة الميمنية سنة (١٣٠٧هـ) ، وطبع مستقلا ، ولا أذكر أين طبع . وذكره في هدية العارفين بعنوان : " اللآلئ المنتثرة في الأحاديث المشتهرة " (٥٤٢/١) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص ٨٤) .

(٣) كشف الظنون (١١٤٩) ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، الظاهرية (١١٢٥) حديث مكتبة الرباط - مصورات مكتبة الشيخ صبحي السامرائي رقم (٢٩) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٥٧) .

(٤) مطبوع ، دار المعرفة - بيروت - لبنان - ، ط١٤٠٦/١هـ-١٩٨٦م ، تحقيق : د.يوسف عبدالرحمن المرعشلي .

(٥) مطبوع ، ومشهور ومتداول ، ت.عبدالوهاب عبداللطيف ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط١٣٩٩/٢هـ-١٩٧٩م .

(٦) ويسمى : " كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب " مطبوع أكثر من طبعة أفضلها ما قام بتحقيقها د.محمد خليل هراس - دار الكتب الحديثة - مصر - بدون تاريخ .

(٧) مطبوع ، بتحقيق : خالد عبدالفتاح شبل ، مكتبة التراث الاسلامي - القاهرة بدون تاريخ ، وهو تلخيص لكتاب : " آكام المرجان في أحكام الجان " للشيخ الإمام القاضي بدر الدين الشبلي (ت٧٦٩هـ) وله طبعة أخرى بتحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ، ط١٤٠٦/١هـ-١٩٨٦م .

(٨) مطبوع ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط١٤١١/١هـ-١٩٩٠م ، قدم له وفهرسه زهير شفيق الكبي ، وطبعة أخرى بتحقيق وتعليق يوسف علي بديوي ، دار ابن كثير - دار التراث المدينة المنورة ط١٩٩٢/٢م-١٤١٣هـ ، وهذه أفضل من سابقتها .

(٩) مطبوع ، ضمن الحاوي (٣٨٩/١) ، وأفرد في طبعة مستقلة بتحقيق : يوسف بديوي ، وعلي الكردي - دار الكتاب العربي - بيروت ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م .

(١٠) وهو تلخيص " لكتاب الشمائل المحمدية " للترمذي ، ولم أعثر عليه مطبوعاً ، كشف الظنون (٩٥٩) ، هدية العارفين (٥٣٩/١) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٩٨٨) ، برلين (١٤/٩٦٤٧) شيستربيتي (٥٤٩١) دليل مخطوطات السيوطي (ص١٤٦) .

(١١) طبع بمصر مع الشفا سنة (١٢٧٦هـ) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٨٩) .

(١٢) حسن المحاضرة (٣٤١/١) ، هدية العارفين (٥٤٣/١) ، برلين (٥٠/١٣٨٣) ، (١٢/٤٤٧١) ، وذكر أنه طبع ولم أقف عليه . دليل مخطوطات السيوطي (ص٩٢) .

(١٣) مطبوع ، بتحقيق د.محمد كمال الدين عز الدين ، عالم الكتب ، بيروت ، ط١٤٠٧/١هـ-١٩٨٧م .

٧٥- بشرى الكئيب بلقاء الحبيب[٢] .

٧٦- نزهة المتأمل ومرشد المتأهل[٣] .

٧٧- وصول الأماني أصول التهاني[٤] .

٧٨- المَدْرج إلى المُدرَج[٥] .

رابعاً : الفقه وأصوله :

مـن ينظر إلى مؤلفات السيوطي التي دوناها سابقاً في الحديث وعلومه ، يظن أن الرجل قد أفنى سنين عمره كله فـي دراسة الحديث وحفظه والتصنيف فيه ولم يتعرض لأي فن آخر ، إلا أننا نجد أن السيوطي المتكلم صاحب المصنفات فـي العقيـدة ، والمفسر صاحب التفاسير الجليلة ، والمحدث الحافظ الذي شهد له بالإمامة في الحديث نجده أيضاً إماماً في الفقه وأصوله ، وهذه أشهر مؤلفاته الفقهية والأصولية :

٧٩- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية[٦] .

٨٠- الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض[٧] .

٨١- جزيل المواهب في اختلاف المذاهب[٨] .

٨٢- تشغيف الاسماع بمسائل الاجماع[٩] .

٨٣- مختصر الأحكام السلطانية[١٠] .

٨٤- مطالب أولى النهي في شرح غاية المنتهى[١١] .

٨٥- نزول الرحمة بالتحدث بالنعمة[١٢] .

٨٦- الحاوي للفتاوي[١٣] .

---

(١) رأيـته فـي طبعتين : الأولى بتحقيق : سليم بن عيد الهلالي ، دار الهجرة للنشر والتوزيع - الدمام - السعودية ط١/١٤١٠هـ-١٩٨٩م ، والثانية بتحقيق : مجدي فتحي السيد ، دار الصحابة للتراث بطنطا ط١/١٤١١هـ-١٩٩١م .

(٢) تلخيص لكتاب " شرح الصدور " في أحوال البرزخ ، طبع بتحقيق مجدي السيد إبراهيم ، مكتبة الساعي - بالرياض - السعودية - بدون تاريخ

(٣) في آداب الخطبة والزواج ، طبع بتحقيق : محمود نصار ، مكتبة التراث الاسلامي - القاهرة - بدون تاريخ .

(٤) طبع ضمن الحاوي (٧٩/١) .

(٥) طبع بالدار السلفية بالكويت سنة (١٩٧٩م) .

(٦) مطـبوع ، بمطبعة البابي الحلبي - القاهرة سنة (١٩٥٩م) ، حيدر آباد سنة (١٣١٦هـ) مكة سنة (١٣٣١هـ) ، مطبعة المكتبة التجارية بمصر سنة (١٣٥٩هـ) .

(٧) طبع بالجزائر سنة (١٣٢٥هـ) .

(٨) كشـف الظنون (٥٩٠) ، حسن المحاضرة (٣٤٣/١) ، هدية العارفين (٥٣٨/١) ، برلين (٢٨٩) المكتبة المحمودية (٦٥) مجاميع ، دار الكتب المصرية (٣٠) أصول ، (٣٥) مجاميع (٤١٦) مجاميع ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٠٨) .

(٩) كشف الظنون (٤٢١) هدية العارفين (٥٤٢/١) ، كشف الظنون (١٩) .

(١٠) حسن المحاضرة (٣٤٠/١) ، هدية العارفين (٥٤٢/١) ، كشف الظنون (١٩) .

(١١) طبع : المكتب الاسلامي - دمشق سنة (١٩٦١) .

(١٢) طبع بالهند ، بدون تاريخ .

(١٣) مطبوع ومشهور ومتداول - دار الكتب العلمية - بيروت سنة (١٩٧٥م) ، (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م) ، المنيرية سنة (١٣٥٣هـ) .

٨٧- إفادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه[١] .

٨٨- التعريف بآداب التأليف[٢] .

٨٩- الرحمة في الطب والحكمة[٣] .

٩٠- آداب الفتيا[٤] .

٩١- فتح المغالق من أنت طالق[٥] .

٩٢- الجامع في الفرائض[٦] .

٩٣- الروض الأريض في طهر المحيض[٧] .

٩٤- بلغة المحتاج في مناسب الحاج[٨] .

وغيرها .

خامساً : اللغة وعلومها :

علـــماء اللغة وباحثوها يعتبرون السيوطي واحداً من المبرزين في علوم العربية ، فرض شخصيته على الدراسات الـــلغوية بجـــدارة ، وذلـــك لأن العلوم اللغوية هي أداة الفهم الصحيح للقرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، كما أنها الوســـيلة الوحيـــدة في حفظ الشريعة وأصول الدين - بعد حفظ الله تعالى - ، ومن هنا كانت انجازات السيوطي في اللغة العربية وعلومها قمة في موضوعها وبابها وأما أهم مؤلفاته في اللغة العربية فنذكر منها :

٩٥- المزهر في علوم اللغة[٩] .

٩٦- الأشباه والنظائر في النحو[١٠] .

٩٧- البهجة المرضية في شرح الألفية[١١] .

٩٨- التذييل والتذنيب على نهاية الغريب[١٢] .

٩٩- الأخبار المروية في سبب وضع العربية[١٣] .

---

(١) طبع بالهند ، ولم أقف عليه ، دليل مخطوطات السيوطي (ص٢٦١-٢٦٢) .

(٢) طبع بالقاهرة سنة (١٩٧٠م) ت.د. عبدالصبور مرزوق .

(٣) وفي نسبته إليه شك ، طبع بمصر البابي الحلبي سنة (١٩٣٨م) ، دار الكتب العربية الكبرى سنة (١٣٢٩هـ) - بالقاهرة .

(٤) حسن المحاضرة (٣٤٣/١) ، ولم أقف عليه .

(٥) نفسه .

(٦) كشف الظنون (٥٧٧) ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، هدية العارفين (٥٣٨/١) برلين (٣٨/٤٧٦٠) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٠٨) .

(٧) كشف الظنون (٩١٦) حسن المحاضرة (٣٤٢/١) ، هدية العارفين (٥٣٩/١) ، دليل مخطوطات السيوطي (ص١٣٦) .

(٨) هدية العارفين (٥٣٦/١) ، كشف الظنون (٣٧٥) ، حسن المحاضرة (٣٤٢/١) .

(٩) مطبوع ومشهور ومتداول ، دار إحياء الكتب العربية سنة (١٣٨٢هـ) ت. محمد أحمد جاد المولى ، مطبعة السعادة ، مطبعة صبيح بالقاهرة .

(١٠) مطبوع ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية سنة (١٣٥٩هـ) حيدر آباد - الدكن ، وسنة (١٣١٠هـ) ، سنة (١٣١٦هـ) ، سنة (١٣١٧هـ) ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - سنة (١٩٧٥م) تحقيق : عبدالرؤوف سعد .

(١١) مطبوع ، مطبعة المدارس بمصر سنة (١٢٩١هـ) المطبعة الخيرية (١٣١٠) الهند (١٢٧٤) هـ .

(١٢) إيضاح المكنون (٢٧٨/١) هدية العارفين (٥٣٧/١) ، دليل مخطوطات السيوطي (١٩١)

(١٣) طبع ضمن مجموعة التحفة البهية والطرفة الشهية ، بمطبعة الجوائب سنة (١٣٠٢هـ) .

١٠٠- عقود الجمان في المعاني والبيان[١] .

١٠١- شرح عقود الجمان في المعاني والبيان[٢] .

١٠٢- شرح شواهد المغني[٣] .

١٠٣- فجر الثمد في إعراب أكمل الحمد[٤] .

١٠٤- جمع الجوامع في النحو[٥] .

١٠٥- الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير[٦] .

١٠٦- السيف الصقيل في حواشي ابن عقيل[٧] .

١٠٧- الاقتراح في أصول النحو وجدله[٨] .

١٠٨- ألوية النصر في خصيصي بالقصر[٩] .

١٠٩- مقامات السيوطي[١٠] .

وغيرها .

سادساً : التراجم والسير والتاريخ والطبقات :

للسيوطي باع طويل في علم التاريخ والتراجم لشيوخه وأقرانه ، وعلماء عصره ، وممن تقدمهم ، ويمكننا القول بأن علم التاريخ قد ازدهر كثيراً في عصر السيوطي ، وعلى يده ، ويد السخاوي وأمثالهما ، وله في ذلك عدد من الكتب الهامة ، نذكر منها :

١١٠- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة[١١] .

١١١- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين[١٢] .

١١٢- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة[١] .

---

(١) طبع ، بولاق سنة (١٢٩٣هـ) .

(٢) طبع ، بمطبعة شرف بالقاهرة سنة (١٣٠٢هـ) ، وبولاق (١٢٩٣هـ) ، البابي الحلبي سنة (١٩٣٩م) ، مطبعة التقدم العلمية سنة (١٣٢١هـ) .

(٣) طبع ، مكتبة الحياة - بيروت لجنة التراث العربي - دمشق فارس سنة (١٢٧١هـ) ، المطبعة البهية بالقاهرة سنة (١٣٢٢هـ) .

(٤) طبع ، ضمن الحاوي للفتاوي (٢/٢٧٩) .

(٥) طبع ، مصر مطبعة السعادة سنة (١٣٢٧هـ) مجمع البحوث الإسلامية القاهرة (سنة ١٩٨١م) ، دار المعارف بيروت سنة (١٩٧٣م) - أتم شواهده وذيله أحمد بن الأمين الشنقيطي ، وسماه الدرر " اللوامع على همع الهوامع شرح الجوامع " .

(٦) طبع ، المطبعة الخيرية بمصر سنة (١٣٢٣هـ) .

(٧) كشف الظنون (١٥٢) ، (١٠١٧)، حسن المحاضرة (١/٣٤٤) ، هدية العارفين (١/٥٣٩) .

(٨) طبع ، حيدر أباد ، مطبعة دائرة المعارف النظامية سنة (١٣١٠هـ) دلهي بالهند (١٣١٣هـ) بيروت - لبنان .

(٩) طبع ، ضمن الحاوي (٢/٢٨٠) .

(١٠) طبع ، في مجلدين ضخمين بشرح وتحقيق : سمير محمود الدروبي ، مؤسسة الرسالة ط١/ ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م .

(١١) مطبوع ومشهور ومتداول ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة (١٩٦٧م) ومطبعة دار الوطن بالقاهرة سنة (١٢٩٩هـ) وطبع حجر بمصر سنة (١٨٦٠م) المطبعة الشرقية بالقاهرة سنة (١٣٢٧هـ) مطبعة السعادة سنة (١٣٢٤هـ) .

(١٢) مطبوع مشهور ومتداول ، دار الفكر سنة (١٣٩٤هـ) ، لاهور سنة (١٨٧٠م) كلكتا (١٨٥٦م) مطبعة المنيرة بالقاهرة سنة (١٣٥١هـ) ، دار الكتب العلمية ط١/١٤٠٨هـ-١٩٨٨م .

١١٣- طبقات المفسرين[٢] .

١١٤- طبقات الحفاظ[٣] .

١١٥- ذيل طبقات الحفاظ[٤] .

١١٦- طبقات الأصوليين[٥] .

١١٧- طبقات الأولياء[٦] .

١١٨- طبقات الشعراء[٧] .

١١٩- طبقات البيانيين[٨] .

١٢٠- نظم العقيان في أعيان الأعيان[٩] .

١٢١- الشماريخ في علم التاريخ[١٠] .

١٢٢- ريح النسرين فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين[١١] .

وغيرها .

ومع اهتمام السيوطي بالعقيدة ، والتفسير ، والفقه واللغة والتاريخ فإنه لم يغفل جانب الأدب ، ما بين شعر ونثر ، فكثيراً ما كانت تأتي مقدمات كتبه ومصنفاته كمقطوعات أدبية رفيعة المستوى ، ومع ذلك فله في هذا الجانب مصنفات عديدة منفردة في بابها ، ذكرها أصحاب التراجم ولكن أغلبها مخطوط لم ير طريقه إلى النشر .

لقد انتشرت مؤلفات السيوطي في سائر أنحاء العالم الاسلامي ، وأقبل الطلاب والدارسون على دراستها ، واشتهرت مؤلفاته في الحجاز واليمن والشام والهند والتكرور وبعض كتبه مفقود ، والبعض الآخر لايزال مخطوطاً ، وكثير من مؤلفاته طبع ونشر في معظم البلدان الاسلامية ، وقد سدت مصنفات السيوطي فراغاً كبيراً في المكتبة العربية والاسلامية ، خصوصاً في العصر الذي أعقب وفاته ، وفي أغلب الجامعات الاسلامية الآن يتناول طلاب الدراسات الدينية واللغوية والأدبية مؤلفات السيوطي بالدراسة والبحث ، لما لها من أهمية وأصالة علمية .

---

(١) مطبوع مشهور ، مطبعة السعادة سنة (١٣٢٦هـ) ، عيسى البابي الحلبي سنة (١٩٦٤م) ت. محمد أبو الفضل إبراهيم .

(٢) لم يتم ، طبع ، مرسنج - ليدن سنة (١٨٣٩م) ، مطبعة الحضارة العربية - مصر سنة (١٩٧٦م) ، طهران سنة (١٩٦٠م) طبعة مصورة .

(٣) طبع ، مكتبة وهبة بالقاهرة سنة (١٣٩٣هـ) ت.علي محمد عمر ، وكوتناج بفرنسا (١٨٣٣م) .

(٤) طبع ، مطبعة التوفيق - دمشق (١٣٤٧هـ) .

(٥) لم أقف عله مطبوعاً ، كشف الظنون (١٠٩٦) ، حسن المحاضرة (٣٤٤/١) .هدية العارفين (٥٤٠/١) .

(٦) لم يطبع ، كشف الظنون (١٠٩٦) .

(٧) كشف الظنون (١١٠٢) ، حسن المحاضرة (٣٤٤/١) ، هدية العارفين (٥٤٠/١) وأغلب ظني أنه لم يطبع .

(٨) مخطوط ، كشف الظنون (١٠٩٦) ، هدية العارفين (٥٤٠/١) ، برلين (٢٩/١٠٠٦٣) .

(٩) مطبوع ، بتحقيق : فيليب حتى ، سنة (١٩٢٧م) المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك - لصاحبها سلوم مكرزل - نشر دار الباز - مكة المكرمة ، والمكتبة العلمية بيروت - لبنان

(١٠) مطبوع ، ليدن سنة (١٨٩٤م) ، العراق سنة (١٩٧١م) ، الكويت سنة (١٩٧٩م) تحقيق محمد الشيباني . طبعة الدار السلفية .

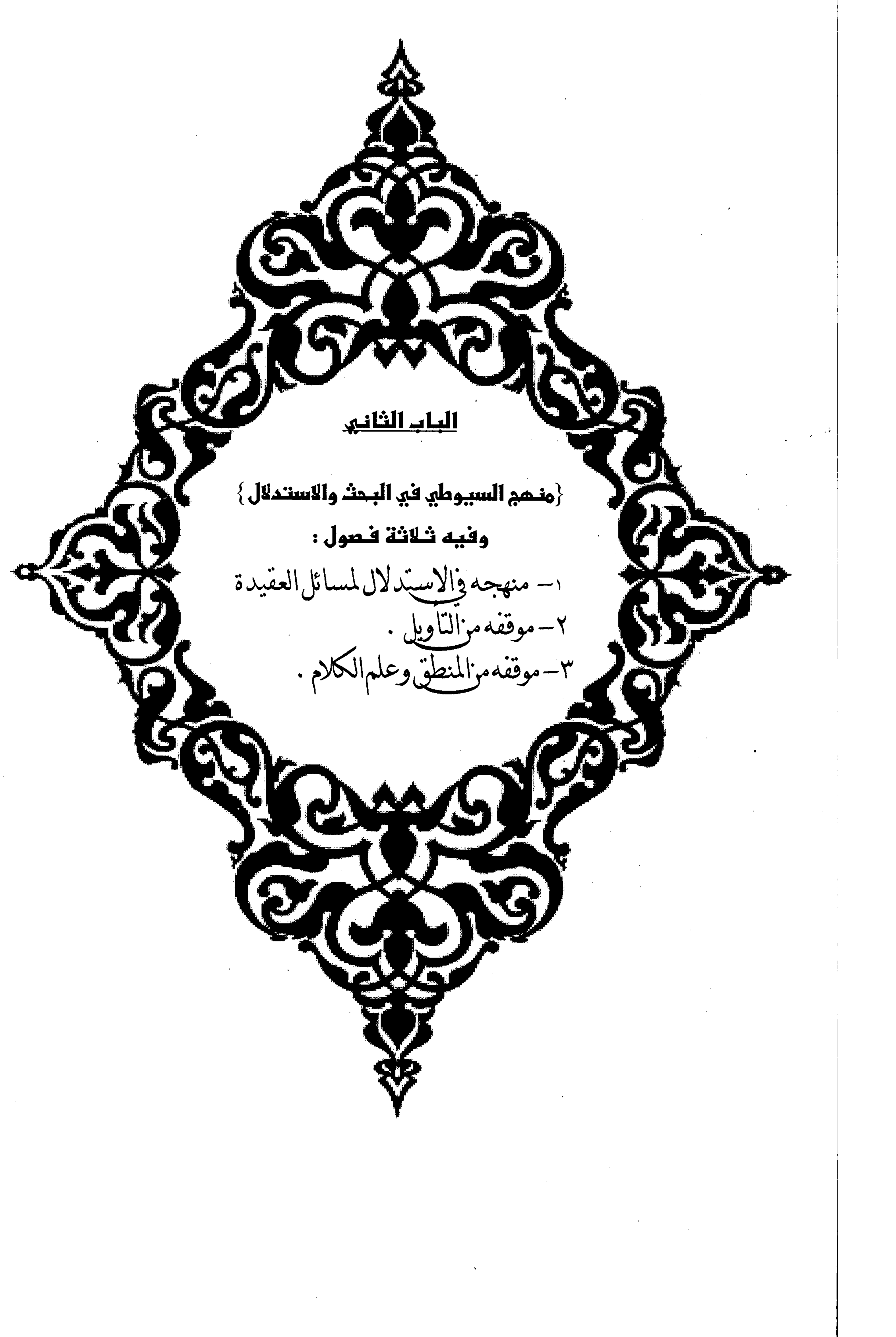
(١١) لم أقف عليه مطبوعاً ، كشف الظنون (٩٣٩) ، هدية العارفين (٥٣٩/١) الظاهرية (١١٤٥) حديث ، دار الكتب المصرية (٥٢١) مجاميع ، (٥٣٠) مجاميع ، شيستربيتي (٥١١٢) ، (٥٤٩١) ، مخطوطات جامعة الكويت (٣٦٠٩) ، (٣٩٨٨) .

وفاته :

إنهـــا نهاية كل حيّ ، أصيب السيوطي في آخر عمره بمرض شديد ، وهو ورم في ذراعه الأيسر ، توفي على إثره ، وكانت وفاته – رحمه الله – في سحر ليلة الجمعة [١] ، تاسع عشر جمادى الأولى ، سنة إحدى عشر وتسعمائة [٢] ، فـــي منزلـــه بروضـــة المقياس ، وقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة ، وعشرة أشهر ، وثمانية عشر يوماً ، وحضر جنازته خلق عظيم ، ودفن في قبر والده [٣] ، في حوش قوصون ، خارج باب القرافة [٤] ، المعروف اليوم عند العامة بـــ : بوابة السيدة عائشة . رحم الله السيوطي وغفر له .

---

(١) ذيل طبقات للشعراني (ق٢٢) ، والكواكب السائرة (٢٣١/١) .
(٢) تاريخ مصر : لابن إياس (٦٣،٤/٣/٧٩) .
(٣) السيوطي النحوي : د/ السلمان (ص١١٦) .
(٤) شذرات الذهب (٥٥/٨) .



الباب الثاني

{منهج السيوطي في البحث والاستدلال}

وفيه ثلاثة فصول :

١- منهجه في الاستدلال لمسائل العقيدة

٢- موقفه من التأويل .

٣- موقفه من المنطق وعلم الكلام .

الفصل الأول

منهجه في الاستدلال لمسائل العقيدة

المبحث الأول

سمات منهج السيوطي في تقرير العقيدة

بعد جولة في مصنفات السيوطي قد اتضحت لنا ملامح منهجه والتي تمثلت في السمات الآتية :

أولاً : القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة :

يقرر السيوطي أن القرآن معجزة[1] خالدة ، ودليل باق مدى الدهر على صدق نبوة نبينا محمد ﷺ بينما كانت معجزات الامم الغابرة معجزات حسية ،وقد فنيت هذه المعجزات بفنائهم [2] ، فهو الكتاب الذي أنزله الله ــ تعالى ــ على رسوله ــ ﷺ ــ تبياناً لكل شيء ، لاتفنى جدته ،ولايذهب رواؤه ، ينطق بالحق ، ويبين عن الصدق ، تحدى أفصح الفصحاء ، وأبلغ البلغاء ، فعجزوا عن الاتيان بمثله [3] أوجب الله على العباد اتباعه ، وجعله أساس الدين .

ومــع إقـــرار السيوطي بذلك ويقينه بماقال ، فإنه قد تعامل مع نصوص القرآن الكريم بما يخالف ذلك ، فقد أتى في تفســيره " الجلالين " على جميع صفات[4] الله جل وعلا ــ فأولها تأويلاً خلفياً ، وهو التأويل الذي هو في حقيقته تعطيل ،

ومن أمثلة ذلك :

١ــ أنــه أول الاســتواء بالاســتيلاء [5] وســيأتي الــرد عــليه إن شــاء الله تعــالى فــي فصــل توحيد الأسماء والصفات .

٢ــ أول الرحمة فقال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ [6] أي :" ذي الرحمة وهي إرادة الخير لأهله " [7]

٣ــ وعند قوله تعالى : ﴿ الله يستهزيء بهم ﴾ [8] . قال : يجازيهم باستهزائهم [9].

٤ــ وعند قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهة ﴾ [10] قال : " إلا إياه " [11] .

٥ــ وعند قوله تعالى : ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ [12] قال : " ذاته " [13].

٦ــ وقال عند قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ... ﴾ [14] قال : "أمره"[15] .

٧ــ وعند قوله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ [16] قال : " أن يغضب عليكم "[1]

---

(١) الأولى أن تســمى (آيــة) بدل معجزة ، فقد قال النبي ﷺ : " مامن نبي إلا أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر " ص البخاري ، ح رقم (٧٢٧٤) ، ص مسلم ح رقم (١٥٢) .

(٢) انظر السيوطي : معترك الأقران (٣/١) .

(٣) انظر السابق نفسه .

(٤) عدا الصفات السبع التي يثبتها الأشاعرة .

(٥) انظر : الكوكب الساطع ــ مخ ــ لوحة رقم (٤٢١) ، رسالة في علم التوحيد ــ مخ ــ (ص٤ ، ٥).

(٦) سورة الفاتحة ، الآية (٢) .

(٧) الجلالين (ص٢) .

(٨) سورة البقرة ، بعض الآية (١٥) .

(٩) الجلالين (ص٢) .

(١٠) سورة القصص ، بعض الآية (٨٨) .

(١١) الجلالين (ص ٤٧٩) .

(١٢) سورة الرحمن ، بعض الآية (٢٧) .

(١٣) الجلالين (ص٦٥٣) .

(١٤) سورة البقرة ، بعض الآية (٢١٠) .

(١٥) الجلالين (ص٣٨) .

(١٦) سورة آل عمران ، بعض الآية (٢٨) .

٨ـــ وعـــند قوـــله تعـــالى : ﴿ ٠٠ فـــإن تولـــوا فـــإن الله لايحـــب الكافـــرين ﴾ [٢] قال :" لايحبهم بمعنى أنه يعاقبهم "[٣] .

٩ـــ وعـــند قوـــله تعـــالى : ﴿قـــل إن كنـــتم تحـــبون الله فاتـــبعوني يحبـــبكم الله ٠٠٠﴾ [٤] قـــال : " بمعنى أنه يثيبكم "[٥]

١٠ـــ **وعـــند قوـــله تعـــالى** : ﴿ يخـــافون ربهـــم مـــن فوقكـــم ٠٠٠ ﴾ [٦] قـــال :" يخـــافون أي الملائكـــة حـــال مـــن ضـــمير يســـتكبرون ، ربهـــم مـــن فوقهـــم حـــال مـــن (هـــم)، أي عالياً عليهم بالقهر " [٧] .

١١ـــ وعند قوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة ﴾ [٨] قال : " مقبوضة عن إدرار الرزق علينا ، كناية عن البخل ، تعالى الله عن ذلك "[٩]

١٢ـــ وعـــند قوله تعالى : ﴿ بل يداه مبسوطتان ﴾ [١٠] قال : " مبالغ في الوصف بالجود ، وثنى اليد لإفادة الكثرة ؛ إذ غاية مايبذله السخي من ماله أن يعطي بيديه " [١١]

١٣ـــ وعـــند قوـــله تعالى : ﴿ قال ياإبليس مامنعك إن تسجد لما خلقت بيدي ٠٠٠﴾[١٢] . " أي توليت خلقه ، وهذا تشريف لآدم فإن كل مخلوق تولى الله خلقه "[١٣] .

وكذلك أوّل صفة العين[١٤] ، والقبضة [١٥]، وهكذا ٠٠٠ وهذا تأويل مذموم لم يقله النبي ﷺ ولا أصحابه ﷺ ولا أحد من الأئمة المتبعين لهم ٠

ثانياً : السنة النبوية الشريفة :

هـــي الوحـــي الثاني الذي يضاهي القرآن الكريم في الحجية والاستدلال ، إذ هي مفسرة لنصوصه ، مبينة لمعانيه ، بتخصيص عامه ، وتقييد مطلقة ، وتعيين مبهمة ولذلك كان اتباعها واجباً كالكتاب بنص الكتب ، قال تعالى : ﴿ وماآتاكم الرســول فخـــذوه ومانهـــاكم عنه فانتهوا ٠٠٠ ﴾ [١٦] . ومن هنا كانت عناية السيوطي بالسنة النبوية ، واهتمامه البالغ بعـــلومها فقـــد شرح بعض كتب السنة ، كصحيح البخاري الذي سماه : بـــ " التوشيح على الجامع الصحيح "[١٧] ، وشرح

---

[١] الجلالين (ص٦٢) ٠
[٢] سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٢) ٠
[٣] الجلالين (ص٦٢) ٠
[٤] سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٢) ٠
[٥] الجلالين (ص٦٣) ٠
[٦] سورة النحل ، بعض الآية (٣١) ٠
[٧] الجلالين (ص٣٢٤) ٠
[٨] سورة المائدة ، بعض الآية (٦٤) ٠
[٩] الجلالين (ص١٣٨) ٠
[١٠] سورة المائدة ، بعض الآية (٦٤) ٠
[١١] الجلالين (١٣٨) ٠
[١٢] سورة ص ، بعض الآية (٧٥) ٠
[١٣] الجلالين (ص٥٥٦) ٠
[١٤] نفس المصدر ، (ص٢٦٧) ، (ص٣٧٧) ، (ص٤١٣) ٠
[١٥] انظر : نفس المصدر السابق (ص ٥٦٦) ٠
[١٦] سورة الحشر ، بعض الآية (٧)
[١٧] انظر : حسن المحاضرة (١/٣٤٠) ، ومقدمة تنوير الحوالك (١/٢) ٠

عـلى صحيح الإمام مسلم الذي سماه " الديباج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج "[١]، وشرح سنن النسائي "[٢] ، وشرح موطأ الإمام مالك "[٣] .

ومـع ذلك أيضاً فقد أول صفات الله الواردة في الأحاديث النبوية ، وصنف كتاباً جمع فيه ، أحاديث الصفات النبوية ، وقام بتأويلها وسماه : " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه" [٤] .

*فـأول النزول [٥] والاستواء [٦] كما أوله في التفسير ــ وأوّل قوله ﷺ :" يمشي هرولة " [٧] وقوله " يضحك الله إلى رجلين ... " الحديث[٨] وقوله :" إن الله يرضى ... " [٩] وغيرها من الأحاديث .

وهكـذا السيوطي يعظم القرآن ويؤوله ، ويعظم السنة ويؤول أحاديث الصفات بما يتفق والعقيدة الأشعرية ذلك لأنه جعل التأويل هو الركن الأساسي في معرفة التوحيد ، حينما قال : " والتأويل مندرج في التوحيد اندراج المقدمة في البرهان "[١٠] والـتأويل كمـا هو معلوم منهج محدث لم يكن ينتهجه السلف الكرام ، بل كانوا يحذرون منه أشد التحذير ويعتبرونه بدعة نكـراء أدت ببعض أصحاب المذاهب المخالفة لأهل السنة إلى نفي صفات الله جل وعلا بل ذهب بعضهم إلى نفي الأسماء والصـفات[١١] وقد اعترف السيوطي نفسه ، بأن التأويل ليس منهجاً سلفياً ، فقال : " غير أن في السلف من أقرها على ما وردت وأمر بالكف عن التأويل حذاراً عن القلب من الزيغ وعلى اللسان من الطغيان "[١٢] وهذا اعتراف بأن التأويل ذريعة قويـة للزيغ والطغيان فلأجل ذلك حذر منه السلف الكرام . وسيأتي لبيان ذلك مزيد تفصيل في الفصل القادم – إن شاء الله – ولا يفوتـنا هـنا أن نؤكـد على أن انتهاج التأويل غير سديد ، وأنه ابتعاد عن منهج الكتاب والسنة وجنوح نحو العقل وطـرح لنصـوص الوحي . ومن المعلوم يقيناً " أن طريقة سلف الأمة وأئمتها : إثبات ما أثبته الله تعالى من الصفات من غيـر تكييـف ولا تمـثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عن الله تعالى ما نفاه عن نفسه مع ما أثبته من الصـفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته ، فإن الله ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته "[١٣] كما أننا سوف نرى ذلك النهج الأشعري واضحاً عند السيوطي كذلك في فصل معرفة الله تعالى ، حيث تعرض السيوطي لمبحث أول الواجبات عـلى المكلف ، وجمع أقوال المتكلمين فيها وهذا يدل على أن السيوطي يرى أن معرفة الله تعالى نظرية وليست فطرية ، خاصة وأنه لم يتعرض لفطرية المعرفة التي يعتمدها أهل السنة والجماعة خلافاً للمتكلمين ، كما سيتضح ذلك لنا – إن شاء الله – في محله من البحث .

---

[١] انظر : نفس المصدرين السابقين .

[٢] مطبوع في أربعة مجلدات ، مع حاشية الإمام السندي . دار الكتب العلمية ــ بيروت .

[٣] مطبوع في مجلد ، دار الكتب العلمية

[٤] مطبوع ،ط أولى ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م ضبط وتحقيق البسيوني مصطفي إبراهيم الكومي ــ دار الشروق ــ جده .

[٥] تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١١٥) .

[٦] السابق نفسه (١١٤) .

[٧] السابق نفسه (ص١١٦) والحديث في صحيح البخاري (١٢٠/٩) ومسلم (٤٦٦/٢)

[٨] السابق نفسه (ص١١٨) والحديث في صحيح مسلم (١٥١/٢) .

[٩] صحيح مسلم (٦١/٢) ، وانظر : الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٢١) .

[١٠] تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٠٦) .

[١١] انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص٣٦) والتحفة المهدية (ص٨٩) .

[١٢] تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٠٦) .

[١٣] ابن تيمية : التدمرية (ص٧) .

ثــم يختفي ذلك المنهج الأشعري في آراء السيوطي عندما ينقد الفلسفة وعلم المنطق والكلام ، ليظهر مرة أخرى بصـــورة أكــثر وضــوحاً فــي الفصل الرابع من الباب الثالث وهو فصل توحيد الأسماء والصفات ، وهو الفصل العملي التطــبيقي لمــنهج الــتأويل النظري الذي وضحناه كمذهب للسيوطي في الفصل الثاني من الباب الثاني ، أما فصل توحيد الأسماء والصفات فلسوف أبين فيه – إن شاء الله تعالى – جناية السيوطي في تأويله لصفات الله عز وجل ، ولسوف نرى أيضـــاً أنـــه لم يمل من محاولة الاستقصاء للصفات الخبرية حتى أولها جميعاً أو كاد ، وكذلك لبعض الصفات الذاتية التي توهــم فيها تشبيه الباري عز وجل وليس الأمر كما توهم ، كصفة اليد والقدم ونحوهما ، ولسوف أوضح بمشيئة الله تعالى بطــلان ما ذهب إليه من تأويل وإثبات المنهج الحق الصحيح الذي يعتصم بالكتاب والسنة ، وهو منهج السلف والأئمة من أهل السنة .

<u>ثالــثاً : موقفـــه من حركة الترجمة :</u> تعرض السيوطي لحركة ترجمة التراث اليوناني التي بدت بواكيرها في الأمة أواخر الدولة الأموية ، والتي استفحل أمرها في عهد الدولة العباسية وخاصة أيام المأمون ، ولم يكن غرض السيوطي من تعرضه لموضـــوع الترجمة في الفكر الإسلامي هو مجرد التأريخ لها ، بل كان جل همه منصباً على التعريض بها ، وتوجيه سهام الــنقد إليها سواء من ناحية إفسادها للعقول أم قضائها على أصول الإسلام ، وكذلك عدم الاتفاق بين طبيعة وخصائص كل من اللغة العربية واللغة اليونانية ، ولهذا نجد السيوطي يشيد بالحكم الأموي ويهاجم الخلافة العباسية من هذا المنطلق فيقول : " رحــم الله بني أمية لم يكن فيهم قط خليفة ابتدع في الإسلام بدعة ، وكان أكثر عمالهم وأصحاب ولايتهم العرب ، فلما زالــت الخلافة عنهم ودارت إلى بني العباس ، قامت دولتهم بالفرس ، وكانت الرياسة فيهم وفي قلوب أكثر الرؤساء منهم الكفر والبغض للعرب ودولة الإسلام ، فأحدثوا في الإسلام الحوادث التي تؤذن بهلاك الإسلام ، ولولا أن الله تبارك وتعالى وعــد نــبيه – صــلى الله عليه وسلم – أن ملته وأهلها هم الظاهرون إلى يوم القيامة لأبطلوا الإسلام ، ولكنهم قد ثلموه ، وعــوروا أركانـــه ، والله منجز وعده إن شاء الله ، فأول الحوادث التي أحدثوها إخراج الكتب اليونانية إلى أرض الإسلام فترجمت بالعربية وشاعت في أيدي المسلمين "(١) فهذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى : فإن هذه الترجمة اتخذت طريقين لا يخلو أحدها من الخلل لوجود خلاف في خواص التراكيب والنسب الإسنادية

<u>١ – **الطـريقة الأولى :**</u> طــريقة يوحــنا بن البطريق(٢) وابن ناعمة(٣) الحمصي وغيرهما ، وهي أن ينظر إلى كل كلمة مفــردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتي بكلمة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى ، ثم ينتقل إلى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه ، وهذه طريقة رديئة لوجهين :

أ- أحدهما : أنه لا يوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية ، ولهذا وقع في خلال هذا التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها

---

(١) السيوطي : صون المنطق (ص٦-٧) .

(٢) ويقال له : يحيى ، ويدعى الترجمان عاصر المأمون وترجم له نحو (٢٠٠هـــ) أخبار الحكماء للقفطي (٢٤٨) الاعلام (٨/ ٢١٠) .

(٣) اسمه عبدالمسيح من التراجمة المشهورين في العصر العباسي ت (٢٢٠هـ–٨٣٥م) .

ب- والثاني : أن خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً ، وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثير في جميع اللغات .

٢- أما الطريقة الثانية : فهي طريقة حنين بن اسحاق[١] والجوهري[٢] وغيرهما ، وهي أن يأتي إلى الجملة فيحصل معناها في ذهنه ثم يعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ أم خالفتها ، ويؤكد السيوطي أن هذه الطريقة أجود من سابقتها ، ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحاق إلى تهذيب إلا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيماً بها بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعي والإلهي فإن ما عربه بها لم يحتج إلى اصلاح[٣] وأياً ما كانت نوع الترجمة التي ذكرها السيوطي فقد كان كلاهما شراً وبلاءً على أمة الإسلام حيث تسببت في تفرقها وتخربها وأبعدت الكثر من المسلمين ع منهج الحق والصواب .

رابعاً : موقفه من المنطق الصوري : وجهت إلى الجلال السيوطي تهمة جهله بالمنطق ، ومن ثم فلا يحق له ادعاء وصوله إلى رتبة الاجتهاد لأنه - كما كان يُعتقد في عصره أن من شروط الاجتهاد معرفة فن المنطق[٤] وهنا يؤكد السيوطي أنه يعرف أصول المنطق وقواعده ، وما بنيت عليه ، وما يتولد منها معرفة ما وصل إليها شيوخ المناطقة في عصره إلا شيخه العلامة محي الدين الكافيجي فقط[٥] . وأنه لم يشتغل بالمنطق إلا لإعتقاده بحرمته التي نص عليها الأئمة من قبله كالشافعي وابن الصلاح والنووي وابن تيمية وغيرهم ، ولذلك لم يشتغل به بل اشتغل بهدمه وذمه ، ومن ثم وضع السيوطي كتاباً في تحريم الاشتغال بالمنطق منذ عام (٨٦٨هـ) سماه " القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق "[٦] .

ويؤكد السيوطي انه علم مبتدع وضعه ارسطا طاليس الذي قرر فيه أن في كل نوع حصة من جنسه ، وأن الإنسان يشاركه الكلب وغيره من الحيوانات في الحيوانية كما يؤكد السيوطي - متفقاً في ذلك مع غيره من أئمة السلف - أن أول من خلط المنطق بأصول المسلمين هو أبو حامد الغزالي ، وقد تكلم فيه- أي الغزالي - علماء المسلمين بما يطول ذكره ، ولم يكن أحد من نظار المسلمين قبل الغزالي يلتفتون إلى طريقة المنطقيين بل الأشعرية والمعتزلة والكرامية والشيعة وسائر طوائف المسلمين كانوا يعيبونها ويثبتون فسادها .

وكذلك الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعون واتباعهم لم يرد عنهم فيه التصريح بشئ لكونه لم يكن موجوداً في زمنهم ، وإنما حدث في أواخر القرن الثاني ، وكان الإمام الشافعي - رحمه الله - حياً إذ ذاك فتكلم فيه حيث قال : ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان ارسطا طاليس "[٧] ويفهم من كلام الشافعي - على حد

---

(١) أبو زيد ، حنين بن اسحاق ت (٢٦٠هـ-٨٧٣م) ، وقيل (٢٦٤هـ-٨٧٧م) وهو رأس مدرسة الترجمة المشهورة ، ولبرجستر آسر بحث طريف عنه وعن مدرسته .

(٢) العباس بن سعيد الجوهري ، فلكي منجم عالم بالأرصاد وآلاتها ، وكان في صحبة المأمون وهو مولاه ، وكان من أكابر المهندسين والحساب (أدب الجاحظ ص٧٤ تعليق رقم (٢)) .

(٣) انظر : صون المنطق (٩-١٠) .

(٤) أول من نادى بهذا - فيما يرجح - أبو حامد الغزالي - مقدمة المستصفى في أصول الفقه (١/١٠) .

(٥) انظر : صون المنطق (ص٢) . وقد مضت ترجمته في فصل شيوخه .

(٦) انظر : السابق نفسه ، حسن المحاضرة (١/٣٤٠) . وهو مطبوع ضمن الحاوي للفتاوى (٢/٢٥٥) .

(٧) صون المنطق (ص١٤-١٦) .

قــول السيوطي – أن من أراد تخريج القرآن والسنة والشريعة على مقتضى قواعد المنطق لم يصب غرض الشرع ألبته ، فــإن كان في الفروع نُسب إلى الخطأ ، وإن كان في الأصول نسب إلى البدعة ، وهذا أعظم دليل على تحريم فن المنطق لأنه كان سبباً في الإحداث والابتداع ومخالفة السنة ومخالفة غرض الشارع[١] . وسيأتي إن شاء الله مزيد من التفصيل في هذا عند بيان موقف السيوطي من المنطق وعلم الكلام في الفصل الثالث من هذا الباب .

المبحث الثاني منزلة العقل عند السيوطي:

تســتخدم كلمة " عَقَلَ " ومشتقاتها في اللغة العربية بمعان متعددة أصلها واحد وهو : حُبْسَة في الشئ أو ما يقارب الحُبسـة أو الإمسـاك أو الاستمسـاك[٢] . وهـو ملكة معنوية وليست شيئاً حسياً ، بها يتميز الانسان عن غيره من سائر المخـلوقات ، هذه المملكة تمنع صاحبها عما لا يليق فعله وتزجره عنه ، تكشف لصاحبها عواقب الأمور فبها جماع الأمر والرأي ، وتدعوه للتثبت في أموره .

وقد عنى علماء الشريعة عند حديثهم عن التكليف ومقاصد الشريعة ومكارمها بالحديث عن العقل وأنواعه وأسمائه ، ومن هنا كان اهتمام السيوطي بالحديث عن العقل .

لكــن أول ما يبدأ السيوطي تأكيده فيما ينقله من كلام أهل السنة أن الله تعالى أسس دينه وبناه على الإتباع وقبوله بــالعقل . فمن الدين معقول وغير معقول[٣] ، والاتباع في جميعه واجب[٤] ، ويقرر فيما ينقله أيضاً عن بعض أهل السنة : أن الله تعــالى لا يعرف بالعقل ، ولا يعرف أيضاً مع عدم العقل[٥] ، ومعنى هذا أن الله تعالى هو الذي يعرف العبد ذاته ، فيعرف الله تعالى بالله لا بغيره فالمعرفة الصحيحة التامة إنما تكون بالوحي .أما المعرفة بمجرد العقل فلاتكون معرفة تامة .

ونظيــر هــذا أن الولد لا يكون مع فقد الوطء ، ولا يكون بالوطء بل يكون بإنشاء الله تعالى ، وخلقه ، وكذلك لا يكــون الــزرع إلا في أرض وببذر وماء ، ولا يكون بذلك بل يكون بقدرة الله تعالى وإنباته ومشيئته جل وعلا . فالله جل وعــلا هو المعرف ذاته لعباده ، إلا أنه إنما يفهم العبد تلك المعرفة ويتلقاها بعقله إذ العقل مناط التكليف وهو سبب الإدراك والــتمييز والله تعــالى يعطي العبد المعرفة بهدايته وتوفيقه إلا أنه لا يحصل ذلك للعبد مع فقد العقل . وإنما أعطيناه لإقامة

---

(١) نفسه .

(٢) انظــر : الجوهــري : الصحاح (١٧٦٩/٥) ، معجم مقاييس اللغة (٦٩/٤-٧٤) ، لسان العرب (٤٥٨/١١-٤٦٦) ، الجرجاني : التعريفات (ص١٩٦-١٩٨) ، الكليات للكفوي (٢١٦/٣- ٢٢٠) .

(٣) قوله : " معقول وغير معقول " يعني بالمعقول : أي المفهوم المعنى والمغزي ، والذي يمكن معرفة الحكمة من شرعيته ، ومثاله قول النبي – صلى الله عــليه وسلم – لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه " ، البخاري رقم (٢٣٩) والحكمة من ذلك مفهومة وهي أن البول في المــاء الدائم ينجسه سيما إذا كان قليلاً ولا فرق في حصول النجاسة للماء بين أن يبول فيه مباشرة وبين أن يبول في إناء ثم يصبه فيه ، فالعلة واحدة فــي الحالــتين وهي مفهومة ومعقولة ، أما الأشياء غير المعقولة المعنى كجعل صلاة الصبح ركعتين ، والظهر أربعاً ، والمغرب ثلاثاً ، فهو أمر لا تفهم الحكمة من شرعيته ، ومثله الطواف حول الكعبة ، وجعل الطواف سبعاً ، وكذلك السعي ، ورمي الجمار كلها من هذا الباب وهو الذي يعبر عنه الفقهــاء بقولهم هو أمر تعبدي بمعنى يجب الخضوع له وامتثاله من المؤمن وإن لم يدرك المعنى منه ، ولذلك قال السيوطي : " والاتباع في جميعه واجب " صون المنطق (ص١٧٩) .

(٤) انظر : صون المنطق (ص١٧٩) .

(٥) انظر : نفسه (ص١٨٠) ، نقله عن أبي المظفر السمعاني .

العـــبودية لا لإدراك الـــربوبية ، فمن شَغَل ما أعطى لإقامة العبودية بإدراك الربوبية فاتته العبودية ولم يدرك الربوبية[١] . ومعـــنى هذا أن العقل هو آلة التمييز بين القبيح والحسن ، والسنة والبدعة ، والرياء والإخلاص ، فهو وسيلة الاجتهاد في معـــرفة وفهم معاني نصوص الوحي (الكتاب والسنة) وتطبيق أحكامه ، ولولاه أي : العقل لم يكن تكليف ولا توجه أمر ولا نهـــي ، فـــإذا استعمله على قدره ، ولم يجاوز به حده أداه ذلك إلى العبادة الخالصة ، والثبات على السنة ولذلك قيل : العقـــل مدبر يدبر لصاحبه أمر دنياه وعقباه ، فأول تدبيره الإشارة إلى المدبر الصانع جل وعلا ، ثم إلى معرفة النفس ، ثم يشـــير إلى صـــاحبه بالخضوع والطاعة لله والتسليم لأمره والموافقة له . فالعاقل إذاً من عقل عن الله تعالى أمره ونهيه ، والعـــاقل يحـــتاج كل وقت إلى توفيق من الله تعالى تفضلاً منه جل وعلا ، ولو لم يكن كذلك لكان العقلاء مستغنين عن الله تعـــالى بـــالعقل فيـــرتفع عنهم الخوف والرجاء ، ويصيرون آمنين من الخذلان وهذا تجاوز عن درجة العبودية وتعد عنها ومحـــال من الأمر . إذ ليس من الحكمة أن ينزل الله تعالى أحداً غير منزلته ، فإذا أغنى عبيده عن نفسه ، فقد أنزلهم غير منزلـــتهم ، ولو كان هذا هكذا لاستوى الخلق والخالق في معنى من معاني الربوبية ، والله تعالى ليس كمثله شئ في جميع المعاني[٢] .

ولعـــل فـــي تقريـــر السيوطي لمنزلة العقل عنده ، رداً على المعتزلة الذين رفعوا العقل إلى منزلة غير صحيحة فقدموه على الشرع ، وقد وصمهم أهل السنة لذلك بالابتداع ، وجعلوا فصل ما بينهم وبين المبتدعة هو مسألة العقل [٣] ، إذ أسسوا دينهم على المعقول ، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعاً للمعقول أما أهل السنة فأصل الدين عندهم الاتباع والعقول تبع ، ولو كان أساس الدين على المعقول لاستغنى الخلق عن الوحي وعن الأنبياء – صلوات الله وسلامه عليهم – ، ولبطل معنى الأمر والنهي .

ومن هنا يتضح لنا ما تبناه السيوطي ناقلاً ومؤكداً من أن العقل له حدود مرسومة لا ينبغي أن يتخطاها أو يتعداها " فديـــن المســـلمين مبني على اتباع كتاب الله وسنة رسوله وما اتفقت عليه الأمة ، فهذه الثلاثة هي أصول معصومة ، وما تـــنازعت فيه الأمة ردوه إلى الله والرسول "[٤] فدور العقل أن يتلقى عن الرسالة الوحي ، ووظفيته أن يفهم ما يتلقاه عن الرســـول – صـــلى الله عليه وسلم – ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام ، وينـــبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموجبات الإيمان في الأنفس والآفاق ، وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الديـــن ومقـــرراته من حيث الصحة والبطلان ، والقبول أو الرفض بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله تعالى أو عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – وبعد أن يفهم المقصود بها : أي المدلولات اللغوية والاصطلاحية للنص[٥] .

المبحث الثالث : الأدلة العقلية

---

(١) انظر : صون المنطق (ص١٨٠) .

(٢) أنظر : نفسه (ص١٨١) .

(٣) تجدر الإشارة إلى أنه ليس فصل ما بين أهل السنة والمبتدعة العقل فقط : فتقديم العقل على النقل بالنسبة للمتكلمين ، وتقديم الكشف والذوق والأهواء بالنسبة للصوفية ، وتقديم الغلو في آل البيت بالنسبة للرافضة ، والغلو في مرتكب الكبيرة بالنسبة للخوارج .

(٤) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٢٧٢/١) .

(٥) انظر : سيد قطب : في ظلال القرآن (٨٠٦/٢-٨٠٧) .

يؤكد السيوطي أن الأصوليين قد اعتنوا بما في القرآن من الأدلة العقلية ، مثل قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا...)[١] وقوله تعالى : (أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون)[٢] إلى غيـر ذلـك مـن الآيات الكثيرة ، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله تعالى ووجوده ، وأوليته ، وبقائه ، وقدرته ، وعلمه ، وتـنزيهه عما لا يليق به ، وسموا هذا العلم بأصول الدين[٣] ، وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقـول بالموجب والمعارضة ، وغير ذلك شيئاً كثيراً ، ومناظرة إبراهيم – عليه السلام – نمرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم[٤] .

كمـا يقرر السيوطي أنه ما من برهان أو دلالة أو تقسيم أو تحديد يبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به ، لكن أورده على عادة العرب دون تفاصيل وتفريعات طرق المتكلمين ، وذلك لأمرين :

<u>أحدهما :</u> بسبب ما قاله الله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم...)[٥] .

<u>الـثاني :</u> أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام ، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الـذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ، ولم يكن ملغزاً ، فأخرج تعالى خطابه للعقول في محاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة ، وتفهم الخواص من أثنائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء[٦] .

وكـثيراً مـا يوجـد في كتاب الله تعالى من القضايا القياسية التي تحتوي على مقدمات صادقة يستنتج منها نتائج صحيحة .

فقد ذكر أهل العلم – على سبيل المثال لا الحصر – أن من أول سورة الحج إلى قوله تعالى : (وأن الله يبعث من في القبور)[٧] أربع نتائج تستنتج من ثمان مقدمات . وتطبيق ذلك على النحو التالي :

١- قولـه تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق...)[٨] لأنه قد ثبت عندنا بالخبر المتواتر أنه تعالى أخبر بزلزلة الساعة معظماً لها ، وذلك مقطوع بصحته ، لأنه خبر أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته جل وعلا ، منقول إلينا بالتواتر ، فهو حق ولا يخبر بالحق عما سيكون إلا الحق ، فالله هو الولي وهو الحق[٩] .

---

(١) سورة الأنبياء ، بعض الآية (٢٢) .
(٢) سورة الطور الآيتان (٣٥،٣٦) .
(٣) انظر : معترك الأقران (١٥/١) .
(٤) انظر : نفسه (١٧/١-١٨) .
(٥) سورة إبراهيم – عليه السلام – ، بعض الآية (٤٠) .
(٦) انظر : السيوطي : معترك الأقران (٣٤٦/١) .
(٧) سورة الحج ، بعض الآية (٧) .
(٨) سورة الحج ، بعض الآية (٦) .
(٩) انظر : معترك الأقران (٣٤٦-٣٤٧) .

٢- أخبر الله تعالى أنه يحي الموتي ، لأنه تعالى أخبر عن أهوال الساعة بما أخبر ، وحصول فائدة هذا الخبر موقوفة على إحيـاء الموتى ليشاهدوا تلك الأهوال التي يعلمها الله من أجلهم وقد ثبت أنه تعالى قادر على كل شئ ، ومن الأشياء إحياء الموتى ، فهو تعالى يحي الموتى .

٣- وأخـبر تعالى أنه على كل شئ قدير ، لأنه أخبر أنه من يتبع الشيطان ، ومن يجادل في الله بغير علم يذقه من عذاب السعير ، ولا يقدر على ذلك إلا من هو على كل شئ قدير ، فهو على كل شئ قدير .

٤- وأخبر تعالى أن الساعة آتية لا ريب فيها ، لأنه أخبر بالخبر الصادق أنه خلق الإنسان من تراب إلى قوله : (...لكيلا يعـلم مـن بعد علم شيئاً...)[١] وضرب لذلك مثلاً بالأرض الهامدة التي ينزل عليها الماء ، فتهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج ، ومن خلق الإنسان على ما أخبر به ، فأوجده بالخلق ثم أعدمه بالموت ، ثم يعيده بالبعث ، وأوجد الأرض بعد العدم فأحياها بالخلق ، ثم أماتها بالمحل ، ثم أحياها بالخصب ، وصدق خبره في هذا كله بدلالة الواقع المشاهد على المتوقع الغـائب حتى انقلب الخبر عياناً ، هذا يسمى عند الأصوليين قياس الغائب على الشاهد . وقد صدق بذلك خبره في الإتيان بالساعة ولا يأتي بالساعة إلا من يبعث من في القبور ، لأنها عبارة عن مدة تقوم فيها الأموات للمجازاة ، فهي آتية لا ريب فيها ، وهو سبحانه يبعث من في القبور[٢] .

ولا يقـف الأمـر عند هذا الحد ، بل هناك ضروب من الأقيسة ذكرت في القرآن الكريم يستدل منها على أمور كـثيرة مـنها المعاد الجسماني ، ليتأكد بها أن القرآن الكريم معجزة عقلية كما قال السيوطي ، وهذه الأقيسة التي تدل على صدق وصحة المعاد الجسماني هي على النحو التالي :

<u>أولاً :</u> قيـاس الإعـادة عـلى الابتداء ، ودليله قوله تعالى : (...كما بدأكم تعودون)[٣] قال ابن ابي نجيح عن مجاهد : " يحييكـم بعد موتكم "[٤] وقال الحسن البصري : " كما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء)[٥] وقال قتادة : " بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ، ثم ذهبوا ، ثم يعيدهم "[٦] وقال عبدالرحمن ابن زيد بن أسلم : " كما بدأكم أولاً كذلك يعيدكم آخراً "[٧] واختار هذا القول في معنى الآية ابن جرير – رحمه الله – وأيده بما رواه من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج كلاهما عن المغيرة بن النعمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قام فينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بموعظة فقال : " يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا[٨] ، كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً

---

(١) سورة الحج ، بعض الآية (٥) .
(٢) معترك الأقران (٣٤٦/١-٣٤٧) .
(٣) سورة الأعراف ، بعض الآية (٢٩) .
(٤) ابن جرير : جامع البيان (١٥٨/٨) وابن كثير (٣٩٨/٣) .
(٥) ابن جرير : جامع البيان (١٥٧/٨) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٩٩/٣) .
(٦) نفس المصدرين السابقين .
(٧) جامع البيان (١٥٨/٨) ، وتفسير القرآن العظيم (٣٩٩/٣) .
(٨) جمع أغرل وهو الذي لم يختن .

علينا إنا كنا فاعلين "[١] وفي قوله تعالى : (كما بدأنا أول خلق نعيده...)[٢] أي نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيهاً للإعادة بالابتداء[٣] ، فالله سبحانه وتعالى يعدم الأجسام بالكلية ثم إنه يوجدها بعينها مرة أخرى ، وهذه الآية دلالة عليه لأنه سبحانه شبه الإعادة بالابتداء ، ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الأجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم وجب أن يكون الحال في الإعادة كذلك[٤] .

__ثانياً :__ قياس الإعادة على خلق السموات والأرض ويسمى قياس الأولى ، وذلك في مثل قوله تعالى : (أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم)[٥] فالآية الكريمة تنبيه على قدرة الله تعالى العظيمة في خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال ، وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، مرشدة إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كما قال جل وعلا : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[٦] ، وقوله تعالى : (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم...)[٢] أي مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم[٧] .

__ثالثاً :__ قياس الإعادة على احياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات "[٨] قال تعالى : (...وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج)[٩] يقول ابن كثير : " هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحي الأرض الميتة الهامدة وهي القحلة التي لا نبت فيها ولا شئ ... فإذا أنزل الله عليها المطر (اهتزت) أي تحركت بالنبات وحييت بعد موتها "[١٠] .

__رابعاً :__ قياس الاعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر قال تعالى : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون)[١١] .

---

(١) متفق عليه – رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٨) رقم (٣٣٤٩)، الفتح (٣٨٦/٦) ، باب (٤٨) رقم (٣٤٤٧) الفتح (٤٧٨/٦) ، ورواه البخاري أيضاً في "صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة المائدة (٥) باب (١٤) رقم (٤٦٢٥) ، الفتح (٢٨٦/٨) . ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الجنة (٥١) باب (١٤) رقم {٥٦-(٢٨٥٩)} ، ورقم {٥٨-(...)} . صحيح مسلم (٢١٩٤/٤) ، ورواه الترمذي – كتاب القيامة (٣) ، والنسائي – كتاب الجنائز (١١٨-١١٩) ، ابن ماجة – كتاب الزهد (٣٣) والدارمي – كتاب الرقاق (٨٠،٨٣) وأحمد في " المسند " (٢٢٠،٢٢٣،٢٣٥،٢٥٣،٣٩٨/٨) ، (٥٣،٩٠/٦) .

(٢) سورة الأنبياء – عليهم السلام – بعض الآية (١٠٤) .

(٣) انظر : الرازي : التفسير الكبير (٢٢٨/٢٢) .

(٤) انظر : نفسه (٢٢٩/٢٢) .

(٥) سورة يس ، الآية (٨١) .

(٦) سورة غافر ، الآية (٥٧) .

(٧) انظر : ابن جرير (٣٢/٢٣) وابن كثير (٥٨٢/٦) ، معترك الأقران (٣٤٨/١) .

(٨) معترك الأقران (٣٤٨/١) .

(٩) سورة الحج بعض الآية (٥) .

(١٠) تفسير القرآن العظيم (٣٩٣/٥) .

(١١) سورة يس الآية (٧٨) .

فذكــر سبحانه الاستدلال برد النشأة الأخرى إلى الأولى والجمع بينهما بعلة الحدوث[١] ، ثم زاد في الحجاج بقوله تعــالى : (الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً) وهذه في غاية البيان في رد الشئ إلى نظيره والجمع بينهما من حيث تبديل الأعراض عليها[٢] .

خامســاً : فــي قولــه تعالى : (واقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعــلمون . ليــبين لهــم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين)[٣] وتقرير هاتين الآيتين هو أن اختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه ، وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه ، والحق في نفسه واحد ، فلما ثبت أن هاهــنا حقيقــة موجــودة لا محالــة ، وكان لا سبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاخــتلاف ، إذ كــان الاخــتلاف مركوزاً في فطرنا ، وكان لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة ، ونقلها إلى صــورة غيرها، صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يرتفع الخلاف والعناد ، وهذه هي الحالة التي وعد الله تعــالى بالمصير إليها[٤] ، فقال جل وعلا : (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين)[٥] فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث الذي ينكره المنكرون[٦] .

وهناك أنواع أخرى من الأقيسة العقلية ، وهي طرق شرعية أيضاً وردت في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، قد تكون من المصطلح عليه في علم البحث والمناظرة . ذكر السيوطي منها ما يلي :

١- مجاراة الخصم : والغرض من مجاراة الخصم هو تبكيته وإلزامه عن طريق التسليم ببعض مقدماته وأقواله ، ثم إيراد أقوال أخرى ثبت صحتها وهي على خلاف ما يقوله الخصم فيعثر[٧] .

أورد الســيوطي عليه مثالاً فذكر قوله تعالى : (...قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد ءاباؤنــا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده...)[٨] فقوله تعالى : (...إن نحن إلا بشر مثلكم...) فيه اعتراف الرسل بكونهم مقصورين على البشرية ، فكأنهم سلموا انتفاء الرسالة عــنهم ، وليس مراداً ، بل هو من مجاراة الخصم ليعثر ، فكأنهم قالوا : ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا ننكره ، ولكن هذا لا ينافي أن يمن الله علينا بالرسالة[٩] .

---

(١) انظر : معترك الأقران (٣٤٨/١) .
(٢) نفسه .
(٣) سورة النحل الأيتان (٣٨،٣٩) .
(٤) انظر : معترك الأقران (٣٤٨/١) .
(٥) سورة الحجر الآية (٤٧) .
(٦) انظر : معترك الأقران (٣٤٨/١) .
(٧) انظر : معترك الأقران (٣٤٩/١) .
(٨) سورة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – بعض الآية (١٠) وبعض الآية (١١) .
(٩) انظر : معترك الأقران (٣٤٩/١) .

وقد استخدم جلال الدين السيوطي هذا النوع من الجدل في ميدان الفقه أكثر من غيره من الفنون ، وحاول به أن ينصر رأيه ومذهبه الفقهي في بعض مسائل الصلاة والوضوء والصيام ، ويناقش فيها أصحاب المذاهب الفقهية المخالفة لمذهبه فيقول تحت عنوان " منصب ميدان جدلي " :

" المجادلون في هذا الزمان كثير خصوصاً في هذه المسألة - أي مسألة قراءة البسملة في الصلاة - وأكثرهم ليس لهم معرفة بطرق الاستدلال ، فالكلام معهم ضائع ، غير أني أنظر الذي يجادل وأكلمه بطريق يقرب من ذهنه ، فإنه اكثر ما عنده أن يقول : الذي ثبت في صحيح مسلم يدل على خلاف ما تقول ، فإن كان المجادل من أهل مذهبنا شافعي المذهب أقول له قد ثبت في صحيح مسلم أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقرأ في الصلاة (بسم الله الرحمن الرحيم)[١] وأنت لا تصحح الصلاة بدون البسملة وثبت في الصحيح أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : " إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه فإذا ركع فاركعوا ، وإذا رفع فارفعوا ، وإذا قال : سمع الله لمن حمده فقولوا : ربنا لك الحمد ، وإذا صلى جالساً فصلوا جلوساً "[٢] وفي رواية : " ...وإن صلى قاعداً فصلوا قعوداً "[٣] وأنت إذا قال : سمع الله لمن حمده ، تقول : سمع الله لمن حمده مثله ، وإذا صلى جالساً بعذر ، وأنت قادر تصلي خلفه قائماً لا جالساً ، وثبت في الصحيحين في حديث التيمم : إنما يكفيك أن تقول بيدك هكذا ثم ضرب بيده ضربة واحدة ومسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه ، وأنت (أي المتمذهب بالمذهب الشافعي) لا تكتفي في التيمم بضربة واحدة ولا بالمسح إلى الكوعين ، فكيف خالفت الأحاديث التي ثبتت في الصحيحين أو أحدهما ؟ فلا بد إن كان عنده رائحة من العلم أن يقول : قامت أدلة أخرى معارضة لهذه فقدمت عليها ، فأقول له : وهذا مثله لا يحتج عليه إلا بهذه الطريقة فإنها ملزمة له ولأمثاله "[٤] وقد استخدم السيوطي هذه الطريقة في الجدال الفقهي مع بعض المنتسبين إلى المذاهب الفقهية الأربعة الشافعي ، والمالكي والحنفي ، والحنبلي ، وغيرهم وصولاً بهم إلى ما يراه حقاً وصواباً .

<u>٢- السبر والتقسيم :</u> وهذا النوع من القياس من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل ، وذكر السيوطي له مثالاً من القرآن الكريم وهو قوله تعالى : (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئوني بعلم إن كنتم صادقين . ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين قل ءالذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين)[٥] فإن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة ، وإناثها تارة أخرى رد الله تعالى عليهم ذلك

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٩/١) كتاب الصلاة (٤) باب (١٣) رقم (٥٢) ونصبه : عن أنس - رضي الله عنه - قال : " صليت خلف النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العلمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها " ورواه النسائي - في " سننه " كتاب الافتتاح (٢٠) وأحمد (٢٨٩/٣،٢٨٦،٢٧٨،٢٧٣،٢٥٥،٢٢٣،٢٠٥،٢٠٣) .

(٢) صحيح مسلم (٣٠٩/١) كتاب الصلاة (٤) باب (١٩) رقم {٨٤-(٤١٣)} . ورواه البخاري في " صحيحه " كتاب المرضى (٧٥) باب (١٢) رقم (٥٦٥٨) الفتح (١٢٠/١٠) ، وفي كتاب الأذان (١٠) باب (٥١) رقم (٦٨٨) فتح (١٧٣/٢) ، رقم (٧٢٢) ، رقم (٧٣٤) .

(٣) السابق نفسه .

(٤) السيوطي مسالك الحنفا (ص٦١-٦٣) .

(٥) سورة الأنعام ، الآيتان (١٤٤،١٤٣) .

بطريق السبر والتقسيم ، وهو حصر الشئ في أمرين أو أكثر ، فإذا صح أحدهما بطل الآخر ، ومعنى الآيتين الكريمتين أن الله تعـالى يقول : إن الخلق لله عز وجل خلق من كل زوج مما ذكره الله تعالى ذكراً وأنثى ، فمم جاء تحريم ما ذكرتم ؟ ومـا علـته ؟ لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة أو الأنوثة ، أو اشتمال الرحم الشامل لهما ، أو لا يدري له علة وهو التعبدي ، بأن أُخذ ذلك عن الله تعالى ، والأخذ عن الله إما بوحي أو إرسال رسول أو سماع كلامه ومشاهدة تلقي ذلك عنه وهو في معنى قوله تعالى : (...أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا...)[1] فهذه وجوه التحريم لا تخرج عن وجه منها

الأول : يلزم عليه أن تكون جميع الذكور حراماً .

الثاني : يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حراماً .

الـثالث : يـلزم عليه تحريم الصنفين معاً ، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة ، وبعض آخر في حالة أخرى ، لأن العـلة عـلى ما ذكر تقتضي اطلاق التحريم ، والأخذ عن الله بلا واسطة باطل ولم يدعوه ، وبواسطة رسول كذلك لأنه لم يـأت إليهـم رسول قبل النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدَّعَى ، وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال[2] .

٣– دليل التمانع : والغرض من هذا التمانع هو الاستدلال على أن صانع العالم وخالقه واحد لا شريك له ويقرر السيوطي هـذا الدليـل بقوله : " لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام ، ولا يتسق على إحكام ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما ، وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم ، وأراد الآخر إماتته :

– فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض ، لاستحالة تجزئ الفعل إن فرض الاتفاق أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف .

– وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما .

– أولا تـنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه والإله لا يكون عاجزاً "[3] وهذا الدليل لا ريب أنه دليل صحيح ، وبرهان تام على إثبات امتناع صدور العالم عن اثنين[4] ، ومن قال بعدم صحته فلا شك أنه قد أخطأ وجانب الصواب[5] .

إلا أن السيوطي ينتزع هذا الدليل من قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا...)[6] وهذا الاستدلال غير صحيح والآية الكريمة لا تدل عليه ، لأن الله تعالى قال : (لو كان فيهما آلهة...) ولم يقل : لو كان فيهما صانعان أو أكثر

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٤٣) .

(٢) معترك الأقران (٣٤٩/١) ، وانظر : الرازي : التفسير الكبير (٢٢٧/١٣) .

(٣) معـترك الأقـران (٣٤٨،٣٤٩/١) وانظـر : الرازي : التفسير الكبير (١٤٩/٢٢–١٥٤) ، اللمح الأشعري (ص٨) والإنصاف للباقلاني (ص٣٠) ، والتمهيد له أيضاً (ص٤٦) ، الجويني : الارشاد (ص٥٣) ، الشهرستاني (نهاية الاقدام (٩١) .

(٤) انظر : ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٣٥٤،٣٥٥/٩) .

(٥) كابن رشد في " مناهج الأدلة " (ص١٥٧–١٥٨) ت.د.محمود قاسم .

(٦) سورة الأنبياء ، بعض الآية (٢٢) .

، و " آلهـــة " جمع " إله " والإله هو المعبود والتأله التعبد ... ولا يكون إلهاً حتى يكون معبوداً ، وحتى يكون لعابده خالقاً ورازقاً ومدبراً وعليه مقتدراً ، فمن لم يكن كذلك فليس بإله ، وإن عُبد ظلماً ، بل هو مخلوق ومتعبد[1] .

وألِـــهَ إلهـــة : عَبَد عبادة ، والمتألِه المتعبِّد ، وبذلك سمي الإله ، وكان ابن عباس – رضي الله عنهما – يقرأ : (ويـــذرك وإلاهتك)[2] أي عبادتك[3] . فالإله : الله تعالى ، وسمى بذلك لأنه معبود ، ويقال تأله الرجل ، إذا تعبد[4] . وفي معـــنى الآيـــة الكريمة يقول ابن كثير : " ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال : بل (اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشـــرون)[5] أي : أهـــم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ؟ أي : لا يقدرون على شئ من ذلك فكيف جعلوها لله نداً وعـــبدوها معه ؟ ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض فقال : (لو كان فيهما آلهة) أي : فـــي السماء والأرض (لفسدتا) كقوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعـــلا بعضـــهم على بعض سبحان الله عما يصفون)[6] وقال هاهنا : (فسبحان الله رب العرش عما يصفون) أي : عما يقولون أن له ولداً أو شريكاً ، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون علواً كبيراً "[7] .

فهـــذا هـــو معـــنى الآية ، ولكن السيوطي قرر ما درج عليه المتكلمون أو أغلبهم من أن الآية تقرر دليل التمانع لاعـــتقادهم أن الإله هو القادر على الاختراع[8] ، وقد صرح السيوطي بذلك فقال : " الإلهية : القدرة على اختراع الأعيان "[9] وهذا ظاهر الخطأ كما قد قدمنا من معنى الإله ، والتأله هو الإلهية آنفاً من مصادر اللغة .

فالإله عند المتكلمين هو بمعنى الرب ، والآية على فهمهم يدل على انتفاء ربين فقط وذلك بتقدير امتناع الفعل من ربيـــن على ما تقدم ذكره . فالآية تكون عندهم دلت على نفي الشرك في الربوبية فقط وهو مطلوب دليل التمانع بينما الآية قـــد " دلت على ما هو أكمل وأعظم من هذا وأن اثبات ربين للعالم لم يذهب إليه أحد من بني آدم ... ولكن الاشراك الذي وقع في العالم إنما وقع في الإلهية بعبادة غير الله تعالى واتخاذ الوسائط ودعائها والتقرب إليها ... فأما اثبات خالقين للعالم متماثـــلين فـــلم يذهب إليه أحد من الآدميين ، وقد قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)[10] والرسل دعو الخلق إلى توحيد الإلهية ، وذلك متضمن لتوحيد الربوبية كما قال كل منهم لقومه : (اعبدوا الله ما لكم من إله غيـــره...)[11] وإلا فمجرد توحيد الربوبية قد كان المشركون يقرون به ، وذلك وحده لا ينفع ، وهؤلاء الذين يريدون تقرير

---

(١) انظر : الأزهري : تهذيب اللغة (٤٢٢،٤٢٣،٤٢٤/٦) .

(٢) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٢٧) .

(٣) انظر : ابن فارس : مجمل اللغة (١٠١/١) ط١ مؤسسة الرسالة .

(٤) انظر : ابن فارس : معجم مقاييس اللغة (١٢٧/١) ، وانظر : اشتقاق اسماء الله ، لأبي القاسم الزجاجي ت.د.المبارك (ص٢٣) ، تفسير أسماء الله الحسنى لأبي اسحاق الزجاج (ص٢٥،٢٦) ت. أحمد الدقاق .

(٥) سورة الأنبياء الآية (٢١) .

(٦) سورة المؤمنون الآية (٩١) .

(٧) تفسير القرآن العظيم (٣٣٠/٥) .

(٨) انظر : شرح الطحاوية (ص٧٨،٧٩) ، التوحيد لأبي منصور الماتريدي (ص٢٠،٢١) .

(٩) الكنز المدفون والفلك المشحون (ص٩٣) .

(١٠) سورة لقمان الآية (٢٥) .

(١١) سورة الاعراف ، بعض الآية (٥٩) .

الــربوبية ... يظنون أن هذا هو غاية التوحيد ... وهذا من أعظم ما وقع فيه هؤلاء ... من الجهل بالتوحيد الذي بعث الله بــه الرســل وأنــزل به الكتب "[١] فأدلتهم " وإن كانت صحيحة فلم تنازع في هذا التوحيد أمة من الأمم ، وليست الطرق المذكورة في القرآن هي طرقهم ، كما أنه ليس مقصود القرآن هو مجرد ما عرفوه من التوحيد "[٢] وعلى هذا فالفرق كبير بين مطلوب الآية ، ومطلوب دليل التمانع ، فمطلوب الآية الكريمة : هو إثبات توحيد الإلهية بفساد العالم لو وجد من يستحق العــبادة مــع الله أحــد غير الله تعالى . بينما مطلوب دليل التمانع : هو إثبات توحيد الربوبية بفساد العالم لو وجد خالق آخر لــلعالم[٣] ، فالفرق بين المطلوبين فرق شاسع ، فكيف يصح القول بأن مطلوب الآية هو مطلوب دليل التمانع ؟ وهذا مأخذ على السيوطي .

٤- التســليم : وهــذا أيضاً من الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل كما يقول السيوطي ، وقد يسمى التسليم الجدلي ، وعــرفه الســيوطي بقولــه : " وهو أن يفرض المحال ، إما منفياً أو مشروطاً بحرف الامتناع ، ليكون المذكور ممتنع الوقــوع لامتــناع وقوع شرطه ، ثم يسلّم وقوع ذلك تسليماً جدلياً ، ويدل على عدم فائدة ذلك على تقدير وقوعه "[٤] ويأتي الســيوطي بمــثال على ذلك وهو قوله تعالى : (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)[٥] والمعنى كما يقرره السيوطي : أنه ليس مع الله من إله ، ولو سُلِّم أن مع الله إلهاً لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق ، وعلو بعضهم على بعض فلا يتم في العالم أمر ، ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله ، والواقع خلاف ذلك ، ففرض إلهين فصاعداً محال ، لما يلزم عليه من المحال[٦] .

وممــا يجــدر ذكره أن العلامة ابن كثير يعتبر معنى الآية دليلاً على التمانع الذي ذكره السيوطي تحت آية سورة الأنــبياء الــتي ذكرنا أنها الآية لا تدل عليه ، بيد أن الدلالة هنا في هذه الآية أظهر من دلالة آية سورة الأنبياء ، يقول ابن كــثير - رحمه الله - في ذلك : " ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك ، فقال : (ما اتخذ الله من ولد ومــا كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض...)[٧] أي : لو قدر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بمــا خــلق ، فمــا كــان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم منسق ، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه بــبعض فــي غايــة الكمال (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)[٨] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض ، والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع ، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعداً ، فأراد واحــد تحــريك جســم ، وأراد الآخر سكونه ، فإن لم يحصل مراد واحد منهما كانا عاجزين ، والواجب لا يكون عاجزاً ،

---

(١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٣٧٨/٩،٣٧٧،٣٤٨،٣٤٥،٣٤٤) .
(٢) السابق نفسه .
(٣) انظر : شرح الطحاوية (ص٧٦-٧٩) .
(٤) معترك الأقران (٣٥٠/١) .
(٥) سورة المؤمنون الآية (٩١) .
(٦) انظر : معترك الأقران (٣٥٠/١) .
(٧) سورة المؤمنون ، بعض الآية (٩١) .
(٨) سورة الملك ، بعض الآية (٣) .

ويمتـــنع اجتماع مراديهما للتضاد ، وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد ، فيكون محالاً ، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر ، كان الغالب هو الواجب ، والآخر المغلوب ممكناً ، لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهوراً "[١] وذكر ابن جرير معنى الآية الكريمة نحو الذي ذكره ابن كثير ، ولكنه لم يذكر لفظ التمانع حيث قال : " إذاً لاعتزل كل إله منهم (بما خـلق) من شئ فانفرد به ، ولتغالبوا فلعلا بعضهم على بعض وغلب القوي منهم الضعيف لأن القوي لا يرضى أن يعلُوَه ضعيف ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها لمن عقل وتدبر "[٢] .

٥- القول بالموجب : وحقيقــته رد كلام الخصم من فحوى كلامه ، وهو قسمان :

أحدهمـــا : أن تقـــع صـــفة في كلام الغير كناية عن شئ أثبت له حكم ، فيثبتها ولكن لغير ذلك الشئ[٣] ، ومثاله الذي ذكره الســـيوطي قوـــله تعـــالى : (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المـــنافقين لا يعـــلمون)[٤] فالأعـــز وقعـــت في كلام المنافقين كناية عن فريق المؤمنين ، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة ، فأثبت الله تعالى في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم ، وهو الله ورسوله والمؤمنون ، وكأنه قيل : صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل لكن المنافقين هم الأذل المخرَج ، والله ورسوله والمؤمنون هم الأعز المخرِج[٥] .

والثاني : حمل لفظ واقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ، يقول السيوطي : " ولم أر من أورد له مـــثالاً مـــن القرآن ، وقد ظفرت بآية منه وهي قوله تعالى : (ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمـــن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم)[٦] "[٧] . فلقد ذكر الله تعالى كلام المنافقين في رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهم يؤذونه ويعيبونه فيخبرون عنه بأنه أذن سماعة لكل ما يقال لها ، فيصدقه ويقبله ، لكن الله تعالى دافع عن رسوله – صلى الله عليه وسلم – فقال : إنما هو أذن خير لا أذن شر (يؤمن بالله) يصدق بالله وحده لا شريك له ، (ويؤمن للمؤمنين) يقول : ويصدق المؤمنين لا الكافرين ولا المنافقين وهذا تكذيب من الله تعـــالى للمـــنافقين الذين قالوا : محمد أذن ، فقال الله تعالى : إنما محمد – صلى الله عليه وسلم – مستمع خير يصدق بالله وبمـــا جاءه من عنده ويصدق المؤمنين لا أهل النفاق والكفر بالله وهو رحمة للذين آمنوا منكم ، جعله الله تعالى رحمة لمن اتـــبعه واهتدى بهداه وصدق بما جاء به من عند ربه لأن الله تعالى استنقذهم به من الضلالة ، وأورثهم باتباعه جناته . أما الذين يؤذون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بمثل هذا القول بالهجر والباطل فلهم عذاب من الله موجع لهم في نار جهنم[٨] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/٤٨٤) .
(٢) جامع البيان (١٨/٤٩) .
(٣) معترك الأقران (١/٣٥٠) .
(٤) سورة المنافقون الآية (٨) .
(٥) أنظر : معترك الأقران (١/٣٥٠) .
(٦) سورة التوبة الآية (٦١) .
(٧) معترك الأقران (١/٣٥٠) .
(٨) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٠/١٦٨-١٦٩) . وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤/١١٠) .

٦- الانتقال : والمقصود به أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذاً فيه ، لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول[١] ، ومثل له السيوطي بقوله تعالى : (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين)[٢] فإن إبراهيم – عليه السلام لما قال في مناظرته الجبار (ربي الذي يحيي ويميت) فقال الجبار أنا أحيي وأميت ، ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه ، ومن لا يجب عليه القتل فقتله ، فعلم الخليل – عليه السلام – أنه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة لبلاهته وبلادة ذهنه ، أو أنه علم وغالط بهذا الفعل ، فانتقل الخليل – عليه السلام – إلى استدلال لا يجد له الجبار وجهاً يتخلص به منه فقال – عليه السلام – (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) فانقطع الجبار وبهت ، ولم يمكنه أن يقول : أنا الآتي بها من المشرق لأن من هو أكبر منه سناً يكذبه[٣] . فإن من هو أسن منه يقول له : فمن كان يأتي بالشمس من المشرق قبل أن تولد ؟ وقد يقال : إن خليل الله إبراهيم – عليه السلام – انتقل إلى الدليل الثاني وهو الإتيان بالشمس من المغرب لكونه أوضح من الأول مع أن هذا الانتقال قد اعترض عليه العلامة ابن كثير – رحمه الله – ورجح أن اعتراض الجبار على دليل الخليل إبراهيم – عليه السلام – كان جحوداً وعناداً وليس لكون الدليل غامضاً ، يقول ابن كثير : " ...فقال إبراهيم : (ربي الذي يحي ويميت) أي : الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة ، لأنها لم تحدث بنفسها ، فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له ، فعند ذلك قال المحاج – وهو النمرود – (أنا أحيي وأميت) قاله قتادة ومحمد بن اسحاق والسدي ، وغير واحد وذلك أنه أتي بالرجلين قد استحقا القتل فأمر بقتل أحدهما فقتل وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل فذلك معنى الإحياء والإماتة[٤] .

والظاهر – والله أعلم – أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ولا في معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت ... ولهذا قال له إبراهيم لما أدعى هذه المكابرة (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أي إذا كنت كما تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلهاً كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب فلما علم عجزه وانقطاعه ، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت ، أي أخرس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة قال الله تعالى : (والله لا يهدي القوم الظالمين) أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً ، بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد "[٥]

ثم يقول ابن كثير : " وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول

---

(١) انظر : معترك الأقران (١/٣٥١) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٨) .

(٣) انظر : معترك الأقران (١/٣٥٠) .

(٤) يعني : أن المحاج المعاند أراد أن يغالط فأوهم أن هذا هو معنى الإحياء والإماتة .

(٥) تفسير القرآن العظيم (١/٤٦٣) .

إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه ، ومنهم قد يطلق عبارة رديّة[١] ، وليس كما قالوه ، بل المقام الأول يكون كالمقدمـــة للـــثاني ويبين بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني "[٢] هذه هي أنواع الأقيسة التي ذكرها السيوطي ضمن منهجه العلمي بجانبيه :

أولهمـــا : بجانـــبه الســـلبي المتمثل في هدمه المنطق الأرسطي والذي بين فيه أنه علم لا ينتفع به البليد ولا يحتاجه الذكي ووضح بجلاء أنه مقدمة الفلسفة وأساسها التي جرت على الأمة كثيراً من مبادئ الفساد والالحاد .

والثاني : جانبه الإيجابي المشتمل على أنوع متعددة من الأقيسة العقلية المنتزعة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – والتي تدور في فلك الشرع ومحيط الدين ، بعيداً عن سفسطة الفلاسفة ، وغلو المتكلمين .

---

(١) أي : رديئة .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٦٣/١) .

الفصل الثاني

موقفه من التأويل

المبحث الأول :

في بيان المحكم والمتشابه

قبل الكلام عن التأويل وبيان رأي السيوطي فيه ، يجدر بنا أن نتكلم عن قضية المحكم والمتشابه ، لتعلقها الوثيق بموضـوع الـتأويل ، فلقد كانت هي المدخل الأساسي ، والذريعة الكبرى لتأويل نصوص الكتاب العزيز ، والسنة النبوية الشـريفة ، ثـم أصـبح هذا التأويل بدوره قضية عظمى أسهمت بنصيب وافر في توسيع دائرة الخلاف بين مختلف الفرق والطوائـف الإسـلامية ، وسارت به قدماً إلى أبعد نتائجه خطورة ، ولم يكن وراء ذلك من دافع وغاية سوى انتصار كل فريق لمذهبه ، وتعصبه لرأيه ، ودفعه لخصمه عن الاحتجاج بالآية والحديث بدعوى أنهما من قبيل المتشابه الذي يجب — في زعم البعض — أن يصرف عن ظاهره بالتأويل .

فالإحكـام والتشـابه في الأساس وصفان يتعلقان بآيات القرآن الكريم ، لأنه تضمن آيات كريمة تصفه بأنه كله محكم ، وتضمن آيات أخرى وصفته بأنه كله متشابه وتضمن كذلك نوعاً ثالثاً من الآيات تصفه بأن بعضه محكم ، وبعضه متشابه[١] .

قال الله تعالى : (آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)[٢] . وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)[٣] فقد أخبر الله عز وجل أن هذا الكتاب العزيز قد أُحكمت آياته ، وأنه تعالى هو الذي أحكمها وهو العليم الحكيم جل وعلا . كمـا وصـفه تعالى بأنه الذكر الحكيم فقال سبحان وتعالى : (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم)[٤] ووصفه أيضاً بأنه الكتاب الحكيم فقال جل شأنه : (آلر ، تلك آيات الكتاب الحكيم)[٥] ووصفه أيضاً بأنه القرآن الحكيم فقال عز وتقدس : (يس {١} والقرآن الحكيم {٢})[٦] فهذا إحكام يعم القرآن الكريم كله بجميع آياته[٧] كما هو واضح وظاهر لا اشكال فيه .

(١) انظـر : ابـن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) ، محمد الأمين الشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٣) ، محمد السيد الجليند ، الإمام ابن تيمية و موقفه من قضية التأويل (ص٥٢) .

(٢) سورة هود — عليه السلام — الآية (١) .

(٣) سورة الحج ، الآية (٥٢) .

(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٥٨) .

(٥) سورة يونس — عليه السلام ، الآية (١) .

(٦) سورة يس ، الآيتان (١، ٢) .

(٧) انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) .

أما وصفه كله بأنه متشابه فقد ورد في قوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم...)[(١)] وقوله تعالى : (كتاباً) هو القرآن الكريم[(٢)] ، ففي هذه الآية الكريمة دليل على أن القرآن الكريم كله متشابه ، فالتشابه هنا يعمه[(٣)] ، قال مجاهد : " يعني القرآن كله متشابه مثاني[(٤)] "[(٥)] .

و أما الآية التي تقسم القرآن الكريم إلى قسمين ، فتجعل بعضه محكماً ، والبعض الآخر متشابهاً فهي قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات...)[(٦)] أي أن بعض آياته محكمات ، وبعضها متشابهات[(٧)] ، فقد دلت الآية على أن المتشابه قسيم المحكم ، لأن أسلوبها هو الجمع مع التقسيم[(٨)] ، وقد فرق الله تعالى ما جمع في معنى الكتاب بأن قال : (منه آيات محكمات) (وأخر متشابهات) فأراد أن يضيف إلى كل منهما ما شاء منهما من الحكم ، فقال أولاً : (فأما الذين في قلوبهم زيغ) ثم قال : (والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) فأضاف الزيغ لمن يتبع المتشابه ، وأضاف الرضى والتسليم للراسخين في العلم[(٩)] .

كما أن الآية الكريمة دلت على أن اتباع هذا المتشابه زيغ وضلال وميل عن الحق ، قال تعالى : (...فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله...)[(١٠)] وإذا كانت الآية قد دلت بمنطوقها على أن اتباع هذا النوع من المتشابه هو ميل عن الحق وانحراف عنه ، فهي تتضمن إذاً تحذيراً للمؤمنين من هذا الاتباع الباطل الذي يبتغي به أصحابه الفتنة ، كما يبتغون تأويله ، أي تفسيره بما يوافق أهواءهم[(١١)] ، فهم إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة وينزلوه عليها[(١٢)] .

يدل على ذلك التحذير ما ورد عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه تلا هذه الآية ثم قال : " فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله ، فاحذروهم "[(١٣)] قال ابن حجر : " إن الآية دلت على ذم متبعي المتشابه لوصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة وصرح بوفق ذلك حديث الباب "[(١)] يقصد هذا الحديث المتقدم .

---

(١) سورة الزمر ، بعض الآية (٢٣) .
(٢) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨٤/٧) .
(٣) انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) ، والشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٣) .
(٤) قال الضحاك : " مثاني : ترديد القول ليفهموه عن ربهم عز وجل " ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨٤/٧) وقال ابن جرير : " تُثَنَّىٰ فيه الأنباء والأخبار ، والقضاء والأحكام والحج " جامع البيان (٢١٠/٢٣) .
(٥) ابن كثير تفسير القرآن العظيم (٨٤/٧) ، وانظر ابن جرير : جامع البيان (٢١٠/٢٣) .
(٦) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(٧) انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) ، ابن كثير تفسير القرآن العظيم (٤/٢) ، الشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٣) ، الجليند : الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل (ص٥)
(٨) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٢١١/٨) .
(٩) انظر : نفس المرجع السابق .
(١٠) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(١١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٦/٣) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٢) ، الشيخ حسين محمد مخلوف : كلمات القرآن تفسير وبيان (ص٤٣) ، بهامش المصحف ، تفسير القرآن : لأبي المظفر السمعاني (٢٩٥/١) .
(١٢) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٢) .
(١٣) متفق عليه :
– رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) باب (١) ح رقم (٤٥٤٧) انظر فتح الباري (٢٠٩/٨) .

وقـد يظهر للناظر في هذه الآيات – لأول وهلة – أن هناك تعارضاً بينها وبين الآيات السابقة ، والحقيقة أنه لا تعـارض بينها ألبتة ، لأن معنى كون القرآن الكريم كله محكماً هو اتصاف جميعه بالإحكام الذي هو الاتقان ، فجميعه في غايـة الإتقان في ألفاظه ومعانيه ، أحكامه عدل ، وأخباره صدق ، وهو في غاية الفصاحة والإعجاز ، والسلامة من جميع العيوب .

" والحكـم : هو الفصل بين الشيئين ، والحاكم يفصل بين الخصمين والحكمة فصل بين المشتبهات علماً وعملاً إذا مُيز بين الحـق والـباطل ، والصـدق والكذب ، والنافع والضار ، وذلك يتضمن فعل النافع وترك الضار ، فيقال : حكمت السفيه وأحكمته إذا أخذت على يده ، وحكمت الدابة وأحكمتها إذا جعلت لها حَكَمة وهو ما أحاط بالحنك من اللجام ، وإحكام الشئ اتقانـه ، فإحكام الكلام اتقانه ، بتمييز الصدق من الكذب في أخباره ، وتمييز الرشد من الغي في أوامره "[2] فالقرآن الكريم كله محكم بمعنى الاتقان في مبناه ، وفي معناه ، فهو الكتاب الحكيم ، والذكر الحكيم ، والقرآن الحكيم ، وهو الفرقان الذي يفرق ويميـز بيـن الحق والباطل قال تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدفغه فإذا هو زاهق...)[3] فهو كتاب قد أُحكمت آياته من الدَّخَل والخلل والباطل ، بإصلاحه واتقانه[4] ، بعجيب النظم وبديع المعاني[5] ، فهو كامل صورة ومعنى[6] ، فهذا معنى كون القرآن الكريم محكماً كله .

أما معنى كونه متشابهاً : أن آياته يشبه بعضها بعضاً في الإعجاز والصدق والعدل والسلامة من جميع العيوب[7] ، كما أن هذا التشابه الذي يعم القرآن ، هو ضد الاختلاف المنفي عنه[8] في قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان مـن عـند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[9] وهو الاختلاف المذكور أيضاً[10] في قوله تعالى : (إنكم لفي قول مختـلف ، يؤفـك عـنه مـن أفك)[11] فالتشابه هنا هو تماثل الكلام وتناسبه بحيث يصدق بعضه بعضاً ، لا اختلاف فيه ولاتضـاد ، ويـدل بعضـه على بعض[12] ، فإذا أمر بأمر لم يأمر بنقيضه في موضع آخر ، بل يأمر به أو بنظيره ، أو

– ورواه مسلم في " صحيحه كتاب العلم (٤٧) باب (١) ح رقم {١-(٢٦٦٥)} صحيح مسلم (٢٠٥٣/٤) ، وأبو داود في " سننه " (٤/ ١٩٨) ح رقم (٤٥٩٨) .

– والدارمي في " سننه " المقدمة ، باب (١٩) ح رقم (١٤٧) سنن الدارمي (٥١/١) ، أحمد في " المسند " (٤٨/٦) .

وابن جرير : جامع البيان (١٧٨/٣-١٨٠) .

(١) فتح الباري (٢١٠/٨) .

(٢) ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٢) ، وانظر : الاكليل في المتشابه والتأويل (ص٧) .

(٣) سورة الأنبياء – عليهم السلام – بعض الآية (١٨) .

(٤) انظر : ابن جرير جامع البيان (١٨٠/١١) ، (١٩٠/١٧) .

(٥) انظر : تفسير الجلالين (ص٢٦٢) بحاشية المصحف الشريف .

(٦) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظم (٢٣٧/٤) .

(٧) انظر : الشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٣) .

(٨) انظر : ابن تيمية : التدمرية (ص١٠٤) .

(٩) سورة النساء ، الآية (٨٢) .

(١٠) انظر : التدمرية (١٠٤) .

(١١) سورة الذاريات ، الآيتان (٨،٩) .

(١٢) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٢١٠/٢٣) .

بمـــلزوماته ، وإذا نهى عن شئ لم يأمر به في موضع آخر ، بل ينهي عنه ، أو عن نظيره ، أو عن لوازمه ، إذا لم يكن هـــناك نسخ ، وكذلك إذا أخبر بثبوت شئ لم يخبر بنقيضه بل يخبر بثبوته ، أو بثبوت ملزوماته ، وإذا أخبر بنفي شئ ، لم يثبته ، بل ينفيه ، أو ينفي لوازمه ، بخلاف القول المختلف الذي ينقض بعضه بعضاً ، فيثبت الشئ تارة وينفيه تارة أخرى ، أو يأمـــر بـــه مـــرة ، ويـــنهي عنه في وقت واحد ، أو يفرق بين المتماثلين فيمدح أحدهما ويذم الآخر من نفس الوجه ، فالأقوال المختلفة هي الأقوال المتضادة ، والأقوال المتشابهة هي المتوافقة[١] .

وهـــذا التشـــابه كذلـــك يكون في المعاني وإن اختلفت الألفاظ ، فإذا كانت المعاني يوافق بعضها بعضاً ، ويعضد بعضـــها بعضاً ، ويناسب بعضها بعضاً ، ويدل بعضها على بعض ، ويقتضي بعضها بعضاً كان الكلام متشابهاً ، وهذا هو شأن القرآن الكريم ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بخلاف الكلام المتناقض الذي يضاد بعضه بعضاً ، ويـــدل بعضه على خلاف ما يدل عليه بعضه الآخر ، أو يثبت ما ينفيه ، أو يأمر بما ينهى عنه ، وهذا منزه عنه القرآن ، منفي عنه بالضرورة ، لأنه كلام الله تعالى العليم الحكيم الخبير . وهذا التشابه العام لا ينافي الإحكام العام بل هو مصدق له ، فإن الكلام المتقن يصدق بعضه بعضاً ولا يتناقض ولا يختلف[٢] .

أمـــا التشـــابه الذي ورد في قوله تعالى : (...وأخر متشابهات...)[٣] فهو تشابه خاص ، وهو غير التشابه العام الـــذي ذكـــرته ، وهذا التشابه الخاص ، يقابل الإحكام الخاص الذي ورد في قوله تعالى : (...منه آيات محكمات...)[٤] فالأقسام إذاً أربعة :

١- الإحكام العام : وقد بينته ــ وهو يشمل آيات القرآن الكريم كلها ويعمها ، كما يعم الاحكام الخاص ، والتشابه الخاص .

٢- التشـــابه العـــام : وقـــد بينته أيضاً ــ وهو يشمل آيات القرآن الكريم كلها ويعمها ، وهو كذلك يعم الاحكام الخاص ، والتشابه الخاص .

٣- الإحكام الخاص : وهو المذكور في قوله تعالى : (...منه آيات محكمات...)[٥] أي بينات واضحات الدلالة لا إلتباس فيها على أحد من الناس[٦] ، أحكمن بالبيان والتفصيل ، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حرام وحلال ، ووعـــد ووعيـــد ، وثواب وعقاب ، وأمر وزجر ، وخبر ومثل ، وعظة وعبر[٧] ، فهي آيات قطعيات الدلالة أوقف الله تعالى الخلق على معناها فلا يشتبه على أحد[٨] ، يعرف المراد منها لظهوره ووضوحه فلا خفاء فيه[٩] .

وسيأتي مزيد من الأقوال في بيان معنى هذا المحكم عند بيان رأي السيوطي فقد جمع فيه أقوالاً شتى .

---

(١) انظر : التدمرية (ص١٠٤) .

(٢) انظر : السابق نفسه (١٠٤-١٠٥) .

(٣) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

(٥) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

(٦) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤/٢) ، تفسير الجلالين (ص٥٨) ، بهامش مصحف الشريف .

(٧) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٠/٣) .

(٨) انظر : أبو المظفر السمعاني : تفسير القرآن (٢٩٤/١) .

(٩) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٢١٠،٢١١/٨) .

٤- التشـــابه الخاص : وهو المذكور في قوله تعالى : (...وأخر متشابهات...)[١] وهو في بعض آيات القرآن ، قال ابن كثير : " ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه عليه إلى الواضح منه ، وحكـم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس "[٢] فهي آيات تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شـيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد[٣] ، فدلالتها احتمالية لا قطعية كالآيات المحكمات لأنها تحتمل من الـتأويل أوجهـاً متعددة[٤] فيلتبس المعنى المراد على بعض الناس[٥] مما يجعلهم يحملونه على معان باطلة تؤدي بهم إلى الزيغ والضلال ، قال السمعاني : " إن الذين في قلوبهم زيغ يغلون في طلب التأويل للمتشابه ، فيقعون على التأويل المظلم ، فذلك ابتغاء الفتنة لأن من غلا في الدين ، وطلب تأويل ما لا يعلمه إلا الله ، يقع في الفتنة ، ويكون مفتوناً ، وخير الدين : الـنمط الأوسط الذي ليس فيه غلو ولا تقصير "[٦] ويظهر من كلام السمعاني أن المتشابه هنا هو الذي استأثر الله تعالى بعـلمه فلا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته والوقوف على حقيقته ، وهو أحد الأقوال التي ستأتي عند بيان رأي السيوطي في المحكم والمتشابه .

والمقصـــود هنا هو أن التشابه هو إلتباس المعنى واحتماليته وعدم ظهوره ، أو هو " مشابهة الشئ لغيره من وجه مع مخالفته له من وجه آخر ، بحيث يشتبه على بعض الناس أنه هو أو هو مثله ، وليس كذلك ، والإحكام هو الفصل بينهما بحيث لا يشتبه أحدهما بالآخر ، وهذا التشابه إنما يكون لقدر مشترك بين الشيئين مع وجود الفاصل بينهما ثم من الناس من لا يهتدي للفصل بينهما ، فيكون مشتبهاً عليه ، ومنهم من يهتدي إلى ذلك ، فالتشابه الذي لا تمييز معه قد يكون من الأمور النسبية الإضافية بحيث يشتبه على بعض الناس دون بعض ، ومثل هذا يعرف منه أهل العلم ما يزيل عنهم هذا الاشتباه "[٧] .

هـذا النوع من المتشابه هو الذي وقع فيه النزاع والاختلاف بين العلماء ، وهو مبني على الاختلاف في معنى " الـواو " فـي قولـه تعالى : (... والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا...)[٨] هل هي استئنافية ، و " الراسخون " مبتدأ خبره جملة " يقولون آمنا به " ؟ أم أنها عاطفة ، ويكون " الراسخون " معطوفاً على لفظ الجلالة في قوله تعالى : (...وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا...)[٩] .

وبناءً على هذا الخلاف نشأ التنازع في مسائل تفرعت عليه وهي :

١- تحديد المراد بالآيات المتشابهات ومعناها .

---

(١) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٢) .
(٣) انظر : نفس المرجع .
(٤) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٣/٣) .
(٥) انظر : السمعاني : تفسير القرآن (٢٩٤/١) .
(٦) تفسير القرآن (٢٩٥/١) .
(٧) التدمرية (ص١٠٥-١٠٦) .
(٨) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(٩) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

٢- هل هذا المتشابه مما استأثر الله تعالى بعلمه فلا يستطيع أحد الاطلاع عليه ، وأن من طلب ذلك فقد رام المستحيل ؟

٣- هل آيات صفات الباري جل وعلا تعد من قبيل المتشابهات أم لا ؟ وإذا كانت من المتشابهات فما موقف العلماء منها ؟

هذا ما سيبينه البحث ــ بعون الله تعالى ــ في الصفحات القادمة عند توضيح رأي السيوطي في هذه المسائل .

رأي السيوطي :

تعــرض الســيوطي للكلام عن المحكم والمتشابه وتعريف كل منهما ، فكان له في هذا رايه الذي يقول فيه : " المحكم : الذي لا يتطرق النقص إليه والاختلاف "[١] .

ولمــا كــان المحكم والمتشابه مما يتعلق بوصف القرآن الكريم ــ كما سبق ــ قال السيوطي : " المراد بإحكامه إتقانه وعدم تطرق النقص والاختلاف إليه ، وبتشابهه كونه يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز "[٢] .

ــ فكونــه محكمــاً يعني أنه متقن بليغ في مبناه وأسلوبه ، ويتجلى هذا الإتقان في القرآن الكريم من حيث أنه بديع النظم ، عجيــب الــتأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه[٣] ، إذا تأمله ذو البصيرة تبين له أنه خارج عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم .

قــال الســيوطي : " (كتاب أُحكمت آياته) بعجيب النظم وبديع المعاني (ثم فصلت) بينت بالأحكام والقصص والمواعــظ "[٤] ، فهو الكتاب المحكم الذي لا تعتريه ركاكة ولا نقص ولا تناقص ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان[٥] .

ــ وأمــا كونــه لا يتطرق إليه النقص والاختلاف فلأنه كلام الله تعالى ، وهو وحيه الذي أوحاه إلى نبيه ــ صلى الله عليه وســلم ــ فأظهر الله له به دينه ، وخرق العادة في أسلوب كلامه وبلاغته وحلاوته ، حتى التذ سامعوه بسماعه ألذ من أهل اللهو بلهوهم[٦] ، وأبقى ذلك فيه على صفحات الدهر ليراها ذووا البصائر كما قال ــ صلى الله عليه وسلم ــ " ما من الأنــبياء نبي إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ ، فأرجو أن أكون أكــثرهم تابعاً يوم القيامة "[٧] وما كان وحياً من الله فلا يمكن أن يتطرق إليه نقص ولا خلل ، كما أنه لا يشبه كلام البشر ، ولا يدانيه كلام بشر ، لكن البليغ إذا قرع سمعَه القرآن فصل بينه وبين ما عداه من النظم ولهذا قال تعالى : (وإنه لكتاب

---

(١) السيوطي : معترك الاقران في اعجاز القرآن (١٠٣/١) .

(٢) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن (١٠٣/١) . وكذلك معترك الاقران (١٠٣/١) .

(٣) انظر : القاضي أبو بكر الباقلاني : اعجاز القرآن (ص٥١) المطبوع بهامش الاتقان في علوم القرآن للسيوطي .

(٤) تفسير الجلالين (ص٢٦٢) .

(٥) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨٧/٧) عند تفسير قوله تعالى : (قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون) سورة الزمر الآية (٢٨) .

(٦) انظر : السيوطي : معترك الاقران في اعجاز القرآن (٤/١) .

(٧) متفق عليه : رواه البخاري في "صحيحه " "كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب (١) ح رقم (٤٩٨١) فتح الباري (٣/٩) ، ورواه ايضاً في كتاب الاعتصام بالسنة (٩٦) باب (١) ح رقم (٧٢٧٤) فتح الباري (٢٤٧/١٣) .

ــ رواه مسلم في " صحيحه " (١٣٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧٠) ح رقم (٢٣٩) .

ــ ورواه أحمد في " المسند " (٣٤١،٤٥١/٢) عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ .

عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[١] تنبيهاً على أن تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشر فيمكن أن يغير فيه بالزيادة أو النقصان ، كحال الكتب السابقة الأخرى[٢] ، وفي تفسير السيوطي الموسوم بـ " الجلالين " يقول في معنى المتشابهات : " (وأخر متشابهات) لا تفهم معانيها كأوائل السور "[٣] .

والمقصود بأوائل السور ، الحروف المقطعة مثل آلم ، وآلر ، والمر ، وكهيعص ، ونحوها من فواتح السور كالحواميم وغيرها .

وبذلك يكون السيوطي قد ذكر للمحكم معنيين ، وللمتشابه معنيين .

ـ **فالمعنى الأول للمحكم عنده هو :** الواضح الدلالة ، بمعنى أنه يدل على الحكم أو المعنى دلالة قطعية يعرف المراد منه لظهوره ووضوحه .

ـ **المعنى الثاني للمحكم :** هو الذي لا يتطرق إليه النقص والاختلاف ، فهو تام لا نقص فيه ، ومؤتلف لا اختلاف فيه ولا تناقص ولا اضطراب ، ولا تعارض ولا تضاد ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فلو كان من عند غير الله تعالى لوجد فيه ذلك التضاد والاضطراب ولكن سالم من الاختلاف والاضطراب فهو من عند الله ـ تعالى العزيز الحكيم[٤] .

ـ **وأما المعنى الأول للمتشابه عند السيوطي :** فهو الذي يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والإعجاز .

ـ **والمعنى الثاني :** أنه هو الحروف المقطعة في أوائل السور ، وهي حروف لا يعرف معناها ـ كما قال السيوطي ـ ولا يستطاع إدراك ما تدل عليه .

ويبدو من كلام السيوطي في تعريفه للمحكم والمتشابه أنه تناول تعريف كل من نوعي الاحكام وهما : العام ، والخاص وكذلك في المتشابه العام والخاص أيضاً ، فقوله في المحكم : هو الذي لا يتطرق إليه النقص والاختلاف ، هو الإحكام العام ، وهذا الإحكام يتناول جميع آيات القرآن الكريم ، كما قد سبق بيانه .

وقوله : أو هو الواضح الدلالة ، وأن الآيات المحكمات هي الواضحات الدلالة ، فهذا هو الإحكام الخاص الذي يقابل التشابه الخاص ، وهو يخص بعض آي القرآن العظيم دون البعض الآخر .

وكذلك قوله في المتشابه ، أنه هو الذي يشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق والاعجاز ، هذا هو التشابه العام في القرآن كله ، فالقرآن كله حق وكله صدق ، وهو معجز كله ، وهذا التشابه كما تقدم هو ضد الاختلاف المذكور في قوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٥] .

وتعريفه للمتشابه مرة أخرى بأنه الحروف المقطعة في أوائل السور فهذا هو التشابه الخاص ، وهو أحد الآراء التي قيلت في معنى المتشابه التي سينقلها السيوطي أو أنقلها عنه ، ولذلك كان يفسر هذه الحروف دائماً بقوله : " الله أعلم

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان (٤١،٤٢) .
(٢) انظر : السيوطي : معترك الاقران (٦/١) .
(٣) تفسير الجلالين (ص٥٨) .
(٤) انظر : ابن كثير (٣٢٠/٢) .
(٥) سورة النساء ، الآية (٨٢) .

بمراده من ذلك "[١] وهذا مما يؤيد قولي بأن هذا هو رأي السيوطي في معنى المتشابه ، ويؤيد قولي أيضاً ما صرح به في " الاتقان " حيث قال : " ومن المتشابه أوائل السور ، والمختار فيها أنها من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله تعالى "[٢] .

وقد ذهب بعض العلماء في تفسير المُحكم والمتشابه إلى مثل هذا المعنى الذي قال به السيوطي ، وهناك للعلماء أقوال أخرى ، حكى السيوطي نفسه بعضها في معترك الاقران[٣] ، ولا مانع من إيراد أهمها على سبيل الايجاز ، ليكون المعنى أكثر وضوحاً وأجلى ظهوراً . فمما قيل :

ــ **القول الأول :** إن المحكم هو ما عرف تأويله ، وفهم معناه وتفسيره ، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل[٤] ، وهو قول جابر بن عبدالله ، والشعبي ، وسفيان الثوري ، وغيرهم[٥] ، وهذا القول هو ما أخذ به السيوطي ، فما فهم معناه وتفسيره هو الواضح الدلالة المبين الذي لا غموض فيه ولا اشكال ، كما أنه لا نقص فيه ولا اختلاف .

وما لم يعلم أحد تفسيره ولا المراد بمعناه فهو الذي اختص الله تعالى بعلمه كمعاني الحروف المقطعة كما تقدم ، ولا يمنع أن يدخل في ذلك تحديد وقت قيام الساعة ، ووقت خروج الدجال وظهور الدابة ، ونحو ذلك مما لم يطلع أحد على علمه[٦] ، على أن جعله وقت خروج الدجال من المتشابه لا وجه له ، لأن الدجال وخروجه وأخباره لم ترد في القرآن الكريم ، إنما وردت أخباره ، وأوصافه ، وما يكون من فتنة للناس في آخر الزمان ، كل ذلك ورد في السنة النبوية الشريفة[٧] ، وليس في القرآن الكريم شئ من ذلك ، فوضعه لوقت خروج الدجال من ضمن متشابه القرآن ليس بصحيح ، لأن الكلام هنا على معنى متشابه القرآن ، فيشمل ما ذكر من وقت قيام الساعة ، والحروف المقطعة في أوائل السور وهذا مما استأثر الله تعالى بعلمه كما قال ولم يطلع على ذلك أحد من خلقه ، وشاهده قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لجبريل عندما سأله عن الساعة ، فأجابه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ بقوله : " ما المسئول عنها بأعلم من السائل "[٨] ، ولكن قد يقال : إن الذين جعلوا آيات صفات الله ــ جل وعلا ــ من قبيل المتشابه ، فأولوا أو فوضوا ، قد جعلوا أحاديث

---

(١) تفسير الجلالين (ص٣) أول سورة البقرة ، (ص٥٨) أول سورة آل عمران ، (١٧٨) أول سورة الاعراف ، (ص٢٤٥) أول سورة يونس ــ عليه السلام ــ ، (ص٢٦٢) أول سورة هود ــ عليه السلام ــ ، (ص٢٧٩) أول سورة يوسف ــ عليه السلام ــ ، (ص٢٩٥) أول سورة الرعد، (ص ٣٠٣) أول سورة إبراهيم ، (ص٣١١) أول سورة الحجر .

(٢) (٨/٢) .

(٣) انظر : معترك الاقران (١٠٣/١-١٠٥) ، ، الاتقان (٢/٢) .

(٤) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٤،١٧٥/٣) ، الفخر الرازي : التفسير الكبير (١٨٤/٧) والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) ، والسيوطي : الاتقان (٢/٢) ، ومعترك الاقران (١٠٣/١) .

(٥)انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٤،١٧٥/٣) ، الفخر الرازي : التفسير الكبير (١٨٤/٧) والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) ، والسيوطي : الاتقان (٢/٢) ، ومعترك الاقران (١٠٣/١) .

(٦)انظر : الاتقان (٢/٢) ومعترك الاقران (١٠٣/١) ، وابن حجر : فتح الباري (٢١٠/٨) .

(٧) انظر : يوسف بن عبدالله بن يوسف الوابل : اشراط الساعة (ص٢٧٥) ، شرح العقيدة الطحاوية (٥٦٤-٥٦٦) ولوامع الأنوار (٨٦/٢-٩٤) ، صحيح البخاري ، كتاب الفتن (٩٢)= باب (٢٦) الفتح (٨٩/١٣) ، صحيح مسلم (٢٢٤٧/٤) كتاب الفتن (٥٢) باب (٢٠) وبقية كتب السنن والمسانيد .

(٨) جزء من حديث طويل وهو مشهور بين أهل العلم بحديث جبريل ــ عليه السلام ــ وهو متفق عليه :

ــ رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الإيمان (٢) باب (٣٧) ح رقم (٥٠) الفتح (١١٤/١) ورواه كلك في كتاب التفسير (٦٥) سورة لقمان (٣١) باب (٢) ح رقم (٤٧٧٧) الفتح (٥١٣/٨) .

ــ ورواه مسلم في " صحيحه " (٣٦/١) كتاب الإيمان (١) باب (١) ح رقم {١-(٨)} وكذلك أحاديث رقم (٢،٣،٤،٥،٦،٧) .

الصفات أيضاً من قبيل النصوص المتشابهة ، فأولوها أو فوضوها على غرار ما صنعوا بآيات القرآن الكريم و هو ما فعله السيوطي نفسه حين قال :

فوض أحاديث الصفات ، ولا تشبه أو تعطل[1] وسيأتي ردنا على هذا القول إن شاء الله قريباً .

أقــول لمــا زعموا أن آيات الصفات من المتشابهات وضموا إليها كذلك أحاديث الصفات فجعلوا الجميع في باب واحــد وهــو بــاب المتشابهات ، وكذلك فعلوا عندما قالوا بأن الحروف المقطعة في أوائل السور هي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، ضموا إليها أحاديث الدجال وجعلوا وقت خروجه من المتشابه لأنه مما استأثر الله تعالى بعلمه ، إذاً كل ما استأثر الله بعلمه وليس لأحد من سبيل في الاطلاع عليه ، أو الوصول إلى علمه فهو من المتشابه على هذا القول ، وهذا ممــا جعلهم يقولون إن وقت خروج الدجال من المتشابه ، ولكن يبقى الاعتراض قائماً ، لأن وصف المتشابه إنما ورد في آيات القرآن الكريم ، ولم توصف الأحاديث بذلك .

القــول الــثاني : قيــل : إن المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما يحتمل وجوهاً ، فإذا ردت إلى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكماً[2] . وعزاه السيوطي للماوردي[3] .

ـ القــول الثالث : المحكم الناسخ ، والمتشابه المنسوخ[4] ، وهذا قول ابن مسعود ، وقتادة ، وروى أيضاً عن ابن عباس ، والربيع بن أنس ، والضحاك[5] بن مزاحم[6] .

ـ القــول الــرابع : المحكــم : الذي ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له ، والمتشابه : ما فيه تصريف وتحريف وتأويل ، وأثر هذا عن مجاهد[7] وغيره...

قال ابن عطية : " وهذا أحسن الأقوال "[8]

ـ القــول الخامس : قيل : المحكم : ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره نحو قوله تعالى : (ولم يكن له كفواً أحد)[9] وقوله تعالى : (وإني لغفار لمن تاب)[10] والمتشابهات : ما يرجع فيه إلى غيره[11] نحو قوله تعالى : (

---

(١) انظر : ابن العماد : شذرات الذهب (٥٤/٨) في ترجمة السيوطي .

(٢) انظــر : ابــن جرير : جامع البيان (١٧٤/٣وما بعدها) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٨/٤-٩) ، السيوطي : معترك الاقران (١٠٣/١) ، الاتقان (٢/٢) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .

(٣) انظر : معترك الاقران (١٠٣/١) .

(٤) انظــر : السيوطي : الاتقان (٢/٢-٣) ، ابن جرير : جامع البيان (١٧٤/٣) والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، الشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .

(٥) الضــحاك بن مزاحم البلخي الخراساني ، أبو القاسم ، مفسر ، كان يؤدب الأطفال ، قيل كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي ، له كتاب في التفسير ، توفى بخراسان عام (١٠٥هــ - ٧٢٣هــ) . انظر : ميزان الاعتدال (٤٧١/١) ، العبر للذهبي (١٢٤/١) ، الاعلام (٢١٥/٣) .

(٦) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٤/٣) ، السيوطي : الاتقان (٢/٢-٣) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) ، الرازي : التفسير الكبير (١٨٤/٧) .

(٧) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٤/٣) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٢) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) .

(٨) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .

(٩) سورة الإخلاص الآية (٤) .

(١٠) سورة طه ، بعض الآية (٨٢) .

(١١) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .

إن الله يغفر الذنوب جميعاً...)[1] يرجع فيه إلى قوله جل وعلا : (وإني لغفار لمن تاب...)[4] وعلى قوله تعالى أيضاً : (إن الله لا يغفر أن يشرك به...)[2] ، ذكر عن النحاس أن هذا أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات[3] .

وهـذا القول لا يبعد عن القول السابق له ، إذ هو كالتفسير له ، وبيان معناه لذلك قال القرطبي : " ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية ، وهو الجاري على وضع اللسان ، وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم ، والاحكام : الاتقان ، ولا شـك في أن ما كان واضح المعنى لا اشكال فيه ولا تردد ، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته واتقان تركيبها ، ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه والاشكال "[4] .

ـ **القـول السـادس :** قيـل : المحكم ما كان معقول المعنى ، والمتشابه بخلافه ، كأعداد الصلوات ، واختصاص الصيام برمضان دون شعبان ، ونحو ذلك ، حكاه السيوطي ولم يعزه لأحد[5] ، ولكن يقال هنا إن أعداد الصلوات لم ترد في القرآن الكـريم ، وكذلـك أعداد ركعات كل صلاة لم ترد فيه أيضاً شأنها شأن ما قيل في ذكر الدجال ووقت خروجه ، والذي قد نـبهت عليه في القول الأول ، أما صيام رمضان فقد ورد في القرآن الكريم ، فتخصيص رمضان دون شعبان بالصوم أمر تعبدي غير معقول المعنى ، ولذا جعلوه من قبيل المتشابه ، والمقصود أن الكلام هنا عن المتشابه في آيات القرآن الكريم ، وليس في غيره كما سبق .

ـ **القول السابع :** قيل : المحكمات : هن الثلاث آيات من سورة الأنعام ، وهي قوله تعالى : (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون {١٥١} ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون {١٥٢} وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون {١٥٣})[6] .

وكذلـك الـثلاث آيات من سورة الإسراء ، وهي قوله تعالى : (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسـاناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما {٢٣} واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً {٢٤} ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً {٢٥})[7] .

---

(١) سورة الزمر ، بعض الآية (٥٣) .
(٢) سورة النساء ، بعض الآية (٤٨) .
(٣) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) .
(٤) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، والشوكاني : فتح القدير (٣١٤/١) .
(٥) انظر : معترك الاقران (١٠٤/١) ، والاتقان (٢/٢) .
(٦) سورة الأنعام ، الآيات (١٥٣،١٥٢،١٥١) .
(٧) سورة الإسراء ، الآيات (٢٥،٢٤،٢٣) .

وهـذا القـول مـروي عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ[١] وهما مثالان ذكرهما ابن عباس للمحكم لأنه لا يتصـور أن يكـون في القرآن الكريم كله من المحكم سوى هذه الست آيات فقط ، ولذلك قال ابن عطية : " وهذا عندي مثال أعطاه في المحكمات "[٢] وكلام ابن جرير أيضاً يدل على أن ما ذكره ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ إنما هو مثال للآيات المحكمات المعمول بهن وهن الناسخات قال ابن جرير : " قال بعضهم : المحكمات من أي القرآن : المعمول بهن ، وهن الناسخات ، أو المثبتات الأحكام ، والمتشابهات من آية : المتروك العمل بهن ، المنسوخات "[٣] .

ثم روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قوله في آيات الأنعام ، والاسراء الذي نقلته آنفاً ، ثم روى عنه أيضاً قوله : " إن المحكمات : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه وما يؤمن به ، ويعمل به .

والمتشابهات : منسوخه ، ومقدمه ، ومؤخره ، وأمثاله وأقسامه ، وما يؤمن به ، ولا يعمل به "[٤] .

ونسـب نحـو هذا القول لابن مسعود ــ رضي الله عنه ــ وناس من أصحاب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وروى أيضاً عن قتادة ، والضحاك[٥] ، وغيرهم ، ونقلته في القول الثالث .

إذاً فـالمحكم عـلى هذا القول : هو الآيات الناسخة ، التي تثبت الأحكام الشرعية ويترتب عليها عمل مباشر من أعمال الجوارح ، كبيان الحلال ليُؤتى ، وبيان الحرام ليجتنب ، والفرائض لتؤدى إلى أصحابها بالعدل ، والحدود لتقام على مقترفي موجباتها ، وكذلك الآيات التي تبين العبادات البدنية والمالية ونحوها من الآيات .

والمتشـابه : هو الآيات المنسوخة ، والأمثال ، والأقسام ، ونحوها من الآيات التي يجب الإيمان بها ، ولا يترتب عليها عمل مباشر ، وإنما قلت عمل مباشر ، تقوم به الجوارح ، لأن الأمثال والمواعظ إنما يترتب عليها عمل القلب ، من الخوف ، والخشية ، والخضوع ، والرغبة والرهبة ونحو ذلك من أعمال القلوب ، فإذا قيل في المتشابهات إنها لا يعمل بها بمعـنى إن كانت منسوخة ، فلا يعمل بها حقاً ، وإن كانت أمثالاً ومواعظ وعبر ، فإنه لا يُعمل بها عمل مباشر ، وإنما هو عمل قلبي يثمر المبادرة والإلتزام بأعمال الجوارح .

هـذه الأقـوال أهم ما قيل في معنى المحكم والمتشابه ، وقد جمع السيوطي أقوالاً أخرى ولكن هذه أهمها وبقيتها تتضمنها هذه الأمور السبعة .

وقـد رجـح أبو منصور البغدادي[١] القول الأول القائل بأن المحكم : هو ما عرف تأويله ، وفهم معناه وتفسيره والمتشابه : ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل كوقت قيام الساعة ، وظهور الدابة ، ونحو ذلك ، وكذلك الحروف المقطعة في أوائل السور .

---

(١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٢/٣) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤/٢) ، وعزاه لإبن أبي حاتم ، وكذلك السيوطي في الاتقان (٣/٢) ، ومعترك الاقران (١٠٤/١) .

(٢) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٤) .

(٣) جامع البيان (١٧٢/٣) .

(٤) جامع البيان (١٧٢/٣) .

(٥) جامع البيان (١٧٢/٣-١٧٣) .

ونقل الحافظ العسقلاني عن ابن السمعاني[٢] أنه قال : " إنه أحسن الأقوال ، والمختار على طريقة أهل السنة "[٣] واستحسنه كذلك القرطبي فقال : " هذا أحسن ما قيل في المتشابه "[٤] وذهب إلى هذا أيضاً الإمام أبو سليمان الخطابي حيث قسم المتشابه إلى قسمين :

الأول : وهـو الذي إذا رد إلى المحكم ، واعتبر به عرف معناه وزال اشتباهه والتباسه[٥] ، وهذا قريب مما قيل من معنى المتشابه في القول الخامس من تعريفات المحكم والمتشابه ، وقد أوردت له امثلة هناك

الـثاني : هو الذي لا يمكن الوصول إلى حقيقته ولا سبيل إلى الوقوف على معناه ، لا بنفسه ، ولا برده إلى المحكم ، وهو ما يسمى بالتشابه الحقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه بشر[٦] ، وهذا النوع من المتشابه هو الذي يتبعه أهل الزيغ ، فيطلبون تأويله ، ولا يبلغون كنهه فيرتابون فيه فيفتتنون[٧] .

وإلى قريب من هذا ذهب الشوكاني فقال : " إن المحكم : هو الواضح المعنى ، الظاهر الدلالة ، إما باعتبار نفسه أو باعتــبار غيــره ، والمتشابه ما لا يتضح معناه ، أو لا تظهر دلالته باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره ، لأن أهل كل قول عرفوا المحكم ببعض صفاته ، وعرفوا المتشابه بما يقابلها "[٨] .

المبحث الثاني : هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه ؟

ذكر السيوطي أن في هذه المسألة رأيين[٩] منشؤهما الاختلاف في قوله تعالى :

(والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلّ من عند ربنا)[١٠] .

هل لفظة " الراسخون " معطوف على لفظ الجلالة ، وجملة يقولون حال ، أم أن الواو للإستئناف والراسخون مبتدأ خبره جملة يقولون ؟

قال شارح الطحاوية : " الآية فيها قراءتان : قراءة من يقف على قوله : (إلا الله) .

وقــراءة مــن لا يقــف عندها ، وكلتا القراءتين حق "[١١] وحكى الرأيين ــ أيضاً ــ ابن جرير[١] ، وأبو الحسن الاشعري[٢] وابن كثير[٣] ، وغيرهم[٤] .

---

(١) هــو : عــبدالقاهر بــن طاهر بن محمد بن عبدالله البغدادي التميمي الاسفراييني ، أبو منصور ، عالم متفنن ، وتوفي في اسفرايين عام (٤٢٩هـ – ١٠٣٧م) ، انظر : وفيات الأعيان (٢٩٨/١) ، طبقات السبكي (٢٣٨/٣) ، تبيين كذب المفترى (٢٥٣) ، الاعلام (٤٨/٤) .

(٢) هــو : عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي ، أبو سعد ، مؤرخ رحالة من حفاظ الحديث مولده بمرو (٥٠٦هـ – ١١١٣م) ووفاتــه بهــا (٥٦٢هـ – ١١٦٧م)= طبقات السبكي (٢٥٩/٤) مفتاح السعادة (٢١١/١) ، وفيات الاعيان (٣٠١/١) تذكرة الحفاظ (١٠٧/٤) ، الاعلام (٥٥/٤) .

(٣) فتح الباري (٢١١/٨) .

(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٨/٤) .

(٥) انظر : فتح الباري (٢١١/٨) .

(٦) انظر : السابق نفسه ، وانظر : محمد بن صالح العثيمين : أصول في التفسير (٤١) .

(٧) انظر : فتح الباري (٢١١/٨) .

(٨) فتح القدير (٣١٤/١) .

(٩) انظر : معترك الاقران (١٠٤/١) ، الاتقان (٢/٢) .

(١٠) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

(١١) ابن أبي العز : شرح الطحاوية (ص٢٣٤) .

فــإن كــان قولــه تعالى : (والراسخون في العلم) معطوفاً على اسم الله تعالى ، فالراسخون إذاً يعلمون تأويل المتشابهة ، ويكون المراد بالمتشابه على هذه القراءة ، المتشابه الإضافي[٥] ، ويكون معنى الآية كما قال ابن كثير : (وما يعــلم تأويله) الذي أراد ما أراد (إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به) ثم ردوا تأويل المتشابه على ما عرفوا من تــأويل المحكمــة التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويل واحد ، فاتسق بقولهم الكتاب ، وصدق بعضه بعضاً ، فنفذت الحجة ، وظهــر به العذر ، وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر "[٦] وإن كان قوله تعالى : (والراسخون في العلم) كلاماً مستأنفاً ، يبدأ بالمبتدأ الذي هو (الراسخون) وخبره جملة " يقولون " فالراسخون على هذا الوجه من القراءة لا يعــلمون تــأويل المتشابه في نفسه ، أو المتشابه الذاتي ــ كما سبق ــ وهو الذي استأثر الله تعالى بعلم تأويله . ولكل من الرأيين أدلته سأتناولها فيما يلي بالتفصيل .

* <u>أصحاب الرأي الأول وأدلتهم :</u>

وهم الذين ذهبوا إلى أن اعراب " الراسخون " معطوف على اسم الله تعالى فقد قال السيوطي : " على هذا الرأي طائفة ــ يسيرة منهم مجاهد " وهو راوية عن ابن عباس ، فأخرج ابن المنذر من طريق مجاهد عن ابن عباس في قوله : (ومــا يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم)[٧] قال : أنا ممن يعلم تأويله "[٨] وذكره ابن كثير من رواية أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس ، ثم قال ابن كثير : " وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به ، وكذا قال الربيع بن أنس "[٩] .

ونقــل القرطبي كذلك عن الخطابي أن هذا القول هو قول الأقلين من العلماء ، وأن الأكثرين على القول الثاني وهو الوقف الــتام على قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله)[١٠] وأن ما بعده استئناف كلام آخر وليس معطوفاً وهو قوله تعالى : (والراســخون فــي العلم يقولون آمنا به[٢]...)[١١] وكأن السيوطي تابع في هذا كلام الخطابي ، فردد مقالته ولكن ابن كثير يخــالف هــذا القــول فيقــول : " ومنهم من يقف على قوله : (والراسخون في العلم) وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول ، وقالوا : الخطاب بما لا يفهم بعيد "[١٢] .

---

(١) انظر : جامع البيان (١٨٢،١٨٣/٣) .
(٢) انظر : مقالات الاسلاميين (ص٢٢٤) .
(٣) انظر : تفسير القرآن العظيم (٧،٨/٢) .
(٤) انظر : محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣١/١-٣٣٧) .
(٥) انظر : شرح الطحاوية (ص٢٣٤) .
(٦) تفسير القرآن العظيم (٨/٢) ، وابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) رواه كل منهما عن محمد بن جعفر بن الزبير .
(٧) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(٨) معترك الاقران (١٠٤/١) ، الاتقان (٣/٢) ، ابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) .
(٩) تفسير القرآن العظيم (٨/٢) . وابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) .
(١٠) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .
(١١) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٤) .
(١٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٢) .

والرواية عن مجاهد أوردها السيوطي في " المعترك " فقال : " أخرج عبد بن حميد عن مجاهد في قوله : (والراسخون في العلم) قال : يعلمون تأويله... ويقولون آمنا به "[١] .

وروى ذلك عنه ــ أيضاً ــ ابن جرير[٢] ، وقال القرطبي : " وقرأ مجاهد هذه الآية ، وقال : أنا ممن يعلم تأويله ، حكاه عــنه إمام الحرمــين أبو المعالي "[٣] .

واعترض القرطبي على الخطابي فقال : " ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره ، فقد روى عن ابن عباس أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل ، وأنهم داخلون في علم المتشابه ، وأنهم مع علمهم يقولون : آمنا به ، وقاله الربيع ، ومحمد بن جعفر بن الزبير، والقاسم بن محمد ، وغيرهم ، و " يقولون " على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين "[٤] .

وممن رجح هذا القول أيضاً أبو بكر بن فورك ، وذهب إلى أن الراسخين يعلمون التأويل ، وأطنب في ذلك[٥] .

وذكــر السيوطي هذا القول أيضاً عن الضحاك قال : الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، ولو لم يعلموا تأويله ، لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ، ولا محكمه من متشابهه .

قال السيوطي : " واختار هذا القول النووي ، فقال في شرح مسلم : إنه الأصح ، لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته ، وقال ابن الحاجب : إنه الظاهر "[٦] .

ونقــل القرطبي عن شيخه أبي العباس أحمد بن عمر أن هذا القول هو الصحيح ، وقال فإن تسميتهم " راسخين " يقتضــي أنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شئ هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع[٧] .

وممن قال أيضاً بأن الواو عاطفة : أبو القاسم الزمخشري (من المعتزلة) في تفسيره[٨] .

وأدلــة هــؤلاء يمكــن تلخيصــها فيما يلي بعد أن أقرر مذهبهم فأقول : قالوا : إن " الواو " في قوله تعالى : (...والراســخون) هــي واو العطف ، وهذا مقتضى سياق اللغة ، فإذا كانت الواو حرف عطف فما بعدها معطوف على ماقبلها ، فصار " الراسخون " معطوفاً على اسم الله تعالى ، مما يقتضي أن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه ، وتكون جملة " يقولون آمنا... " جملة حالية ، فيكون المعنى : وما يعلم تأويله إلا الله ، وكذلك الراسخون في العلم يعلمون تأويله حالة كونهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وشاهده من اللغة قول الشاعر :

---

(١) معترك الاقران (١٠٤/١) ، الاتقان (٣/٢) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٢) ، وابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) ، صحيح البخاري كتاب التفسير (٦٥) باب (١) من تفسير سورة آل عمران (٣) الفتح (٢٠٩،٢١٠/٨) .

(٢) انظر : جامع البيان (١٨٣/٣) .

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤) .

(٤) الجامع (١٣/٤) .

(٥) نفسه ، وانظر : أبو بكر محمد بن فورك : مشكل الحديث وبيانه (ص١٩٧) ولعله قد أطنب في كتابه المخطوط : " حل الآيات المتشابهات " .

(٦) معترك الاقران (١٠٥/١) ، والاتقان (٣/٢) ، وانظر كلام الامام النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢١٧/١٦-٢١٨) .

(٧) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٣،١٤/٤) ، وانظر : الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٣/١) .

(٨) انظر : الكشاف .

الـــريح تـــبـــكي شجـــوهـــا والبرق يلمع في الغمامة[١]

فالواو هنا في قوله : (والبرق) عطفت " البرق " على " الريح " ، و " يلمع " في موضع الحال ، أي : لامعاً .

وذكـــروا أن الاستشهاد بهذا البيت إنما يستقيم لأنه يحتمل المعنيين ، فيجوز أن يكون " والبرق " مبتدأً ، والخبر " يـــلمع " ، فيكون مقطوعاً مما قبله ، ويجوز أن يكون معطوفاً على " الريح " ، و " يلمع " في موضع الحال ــ كما سبق ــ أي لامعـــاً ، قالوا : ومادام قد صح هذا في اللغة فإنه يصح في تأويل هذه الآية الكريمة لأن القرآن الكريم إنما يفسر على مقتضى قانون اللغة العربية لأنه نزل بلسان عربي مبين[٢] .

إلا أنه بعد إمعان النظر في هذا البيت الذي استشهدوا به اتضح لي فيه فارق بينه وبين الآية الكريمة ، فـــ " الراسخون " إذا عُطِفـــوا عـــلى اسم الله تعالى اقتضى ذلك العطف اشتراك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم ، فالله تعالى يعلم تأويل المتشابه ، وكذلك الراسخون في العلم يعلمون تأويله ، مع اعتقادنا الجازم بالفارق بين الصفتين[٣] .

لكـــن هذا البيت الذي جعلوه شاهداً للآية لا يفيد هذا المعنى ، فالريح جعلها الشاعر تبكي وهي استعارة كما يقوله عـــلماء اللغة ، والبكاء صوت كما أن الريح عند هبوبها تحدث صوتاً مسموعاً ، ولذلك قال : " تبكي شجوها " والشجو هنا هـــو الهـــبوب كمـــا قال صاحب اللسان : " ريح شَجَوْجَىً و شَجَوْجَاةٌ : دائمة الهبوب "[٤] فالريح تهب هبوباً مُحدِثاً صوتاً مسموعاً ، أما " البرق " فلمعانه لا يحدث صوتاً يكون مشتركاً بينه وبين الريح فيه ، فكيف يقال بأن " البرق " يسوغ عطفه عـــلى الـــريح فيبكي شجوه مع الريح حالة كونه لامعاً ؟؟ والبرق ليس له هبوب ولا صوت فيشارك الريح فيهما أو أحدهما بمقتضـــى هذا العطف ، وبناء على هذا المأخذ فإن " البرق " لا يصح عطفه على الريح بهذا الاعتبار ، والأولى أن يكون " البرق " مبتدأ خبره ما بعده .

وإعراب الآية على معنى العطف لا يتوقف على صحة الاستشهاد بهذا البيت .

وبعد تقرير مذهبهم ، فهذه أدلتهم ، وهي :

---

(١) انظر : الأشعري : مقالات الإسلاميين (ص٢٢٤) ، والقرطبي : الجامع (١٣/٤) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١) .

(٢) انظر : القرطبي : الجامع (١٣/٤) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١)

(٣) قـــال شيخ الاسلام ابن تيمية : " اتفاق المسميين في بعض الاسماء والصفات ليس هو التشبيه والتمثيل الذي نفته الأدلة السمعيات والعقليات وإنما نفت ما يستلزم اشتراكهما فيما يختص به الخالق مما يختص بوجوبه أو جوازه أو امتناعه ، فلا يجوز أن يشركه فيه مخلوق ، ولا يشركه مخلوق في شئ من خصائصـــه ســـبحانه وتعالى " التدمرية (ص٣٩،٤٠) وانظر التحفة المهدية (ص٩٦،٩٧) فعلم الرب تبارك وتعالى صفة كمال تليق به جل وعلا ، لا تشبهها صفة علم المخلوقين ، ولا تماثل علم المخلوقين ، وعلم المخلوقين يختص بهم – ويناسب ضعفهم وافتقارهم وعجزهم ، ولا يلزم من اتفاق الاسمين ــ كالعليم والرؤوف والرحيم ــ تماثل مسماهما ، ولا من اتفاق الصفتين تماثل موصوفاهما ، فالصفة في حق الخالق كما يليق بجلاله وعظمته مختصة به لا يشركه فيها مخلوق .

(٤) ابن منظور : لسان العرب (٤٢٤/١٤) ، مادة : " شجو " .

ـ أولاً : أن الله تعالى أنزل القرآن للعلم والعمل به ، ولا يتحقق العمل به إلا إذا فهمه العبد وتدبر آياته ، ووقف على معانيه وأحكامه ولا يتأتى هذا التدبر والفهم إلا إذا خاطبنا الله تعالى بما نفهمه ونعقله ، لذا لزم أن يكون المتشابه مما يعلمه ويفهمه الراسخون في العلم ، وخطاب الله لنا بما لا يفهم بعيد [١] ، لذا وجب أن يعلم الراسخون تأويل المتشابه .

ـ ثانياً : أن الراسخين في العلم لو لم يَعلموا تأويل المتشابه ، لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ، ولا محكمه من متشابهه ، ولو لم يعلموا ذلك لم يكونوا راسخين ، وإنما مدحهم الله تعالى برسوخهم ، وأن رسوخهم هو علمهم ، وهم مع علمهم قالوا : آمنا به كل من عند ربنا ، فكيف يمدحهم وهم جهال ، ثم إنهم لو لم يعلموا تأويل المتشابه لا ستوى الراسخون وغيرهم ، ولم تكن لهم ميزة مدح على الآخرين[٢] .

ـ ثالثاً : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قائلاً : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل "[٣] والتأويل هنا عام فيشمل المحكم والمتشابه فلزم على ذلك أن تأويل المتشابه مما يمكن العلم به .

وقد ورد عن ابن عباس ما يؤكد ذلك حين قال : " أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله "[٤] ، ولقد صدق رضي الله عنه[٥] ، فإن رسوخه هذا استجابة لدعاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ له بأن يفقهه في الدين ويعلمه التأويل ، فثبت بذلك أن من الراسخين من يعلم تأويل المتشابه بنص الشارع .

ولكن قولهم بأن هذا الدليل وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " وعلمه التأويل " يشمل تأويل المحكم والمتشابه فيه نظر ، ذلك لأن التأويل إذا قصد به معنى التفسير وبيان معاني الألفاظ العربية فلا اشكال فيه ، بل هو المتبادر من كلام النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكلام ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ .

ـ رابعاً : أنه ورد عن مجاهد أنه قال : " عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة "[٦] وورد عنه أيضاً أنه قال : " عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية منه وأسأله عنها فيم نزلت ، وكيف كانت "[١] ولهذا

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٢) ، والسيوطي : معترك الاقران (١٠٥/١)، الاتقان (٣/٢) ، النووي : شرح صحيح مسلم (٢١٨/١٦) ، الحافظ الخطيب البغدادي : الفقيه والمتفقه (٦٣/١) .

(٢) انظر : ابن جرير الطبري : جامع البيان (١٨٣/٣) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٣/١) ، وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك : مشكل الحديث وبيانه (ص١٩٧) ت/ د.عبدالمعطي قلعجي ـ دار الوعي ـ حلب سورية ط١/١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٣) حديث صحيح : رواه أحمد (٢٦٦،٣١٤،٣٢٨،٣٣٥/١) والطبراني في " المعجم الكبير " (٢/٨٤/١) ، والبيهقي في " دلائل النبوة " ، والضياء المقدسي في " المختارة " بسند صحيح عن ابن عباس ، وهو عند البخاري بلفظ : " اللهم فقهه في الدين " من غير ذكر التأويل ، وفي لفظ : " اللهم علمه الحكمة " وفي لفظ " الكتاب " بدل " الحكمة " (٢/١،٣١،٤٤٥،٤٩٩/٤) وهو رواية لأحمد (٢١٤،٢٦٩،٣٥٩/١) والطبراني ، ورواه مسلم (١٥٨/٧) مختصراً : بلفظ : " اللهم فقهه " وهو رواية لأحمد (٣٢٧/١) وفي أخرى له (٣٣٠/١) عن ابن عباس قال : ...فدعا الله أن يزيدني علماً وفهماً ، وذكر ابن حجر في شرحه على صحيح البخاري أن البغوي أخرج في معجم الصحابة من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر : كان عمر يدعو ابن عباس ، ويقربه ويقول : إني رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعاك يوماً فمسح رأسك وقال : " اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل " الفتح (١٧٠/١) . وانظر ت الالباني لشرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣٤) .

(٤) ابن جرير : جامع البيان (١٨٣/٣) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٢) ، القرطبي : الجامع (١٥/٤) ، شرح الطحاوية (ص٢٣٤) ، السيوطي : الاتقان (٣/٢) ، معترك الأقران (١٠٤/١) ، ابن تيمية : تفسير سورة الاخلاص (ص١٣٨) .

(٥) شرح الطحاوية (ص٢٣٤) .

(٦) السيوطي : الاتقان (١٨٩/٢) .

قال الثوري : إذا جاء التفسير عن مجاهد فحسبك به[٢] ، قال ابن تيمية : " ولهذا يعتمد على تفسيره الشافعي والبخاري وغيرهما من أهل العلم ، وكذلك الإمام احمد وغيره ممن صنف في التفسير يكرر الطرق عن مجاهد أكثر من غيره "[٣] .

والمقصود أنه قد تواترت النقول عن مجاهد أنه تكلم في معاني القرآن الكريم ، ولم يقل عن آية من آياته : إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله تعالى[٤] ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإنه يصح أن يقال : إن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه .

هذه هي أدلة أصحاب القول الأول .

<u>* أصحاب الرأي الثاني وأدلتهم :</u>

وهم القائلون بأن لفظة " الراسخون " وقعت بعد واو الاستئناف وهي مبتدأ لكلام جديد ، وخبره جملة " يقولون آمنا به... " وعلى هذا فالراسخون لا يعلمون تأويل المتشابه ، وذكر السيوطي أن هذا هو رأي الأكثرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، فمن نقل عنهم هذا القول من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ : عمر ، وابن عباس ، وعائشة ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، ومن بعدهم عروة بن الزبير ، وعمر بن عبدالعزيز نقله عنهم القرطبي[٥] ، وابن جرير الطبري ، ونقله ابن جرير أيضاً عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس[٦] وهو مذهب الكسائي والأخفش ، والفراء ، وأبي عبيد[٧]

وقال أبو نهيك الأسدي : إنكم تصلون هذه الآية[٨] وإنها مقطوعة ، وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم : آمنا به كل من عند ربنا[٩] ، وممن روى عنه أن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه أبو الشعثاء كما عند ابن كثير[١٠] ، وقال السيوطي : " وهو أصح الروايات عن ابن عباس "[١١] وقد روى عنه أنه قال بالقول الأول أيضاً ــ كما سبق ــ فقد نقل عنه القولان إذاً .

<u>* وأدلة هؤلاء يمكن تلخيصها فيما يلي :</u>

---

(١) نفسه ، ابن تيمية تفسير سورة الاخلاص (ص١٤٢ــ١٤٣) : مقدمة في أصول التفسير (ص٦٦) مجموعة الرسائل والمسائل (١/١٩٧) ، وابن جرير جامع البيان (١/٤٠) وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١/١٥) ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣٤) ، وابن عثيمين : أصول في التفسير (ص٣٧) .

(٢) الاتقان (٢/١٨٩)، ابن جرير : جامع البيان (١/٤٠) ، وابن كثير : تفسير القرآن (١/١٥)، ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير (ص٦٧،٦٦) .

(٣) مقدمة في أصول التفسير (ص٦٧) ، وانظر : الاتقان (٢/١٨٩) ، وابن عثيمين : أصول في التفسير (ص٣٧) .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣٤) .

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٤/١٢) .

(٦) انظر ابن جرير : جامع البيان (٣/١٨٣) ــ القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٤/١٢) وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢/٨) ، والشنقيطي : أضواء البيان (١/٣٣٢) .

(٧) انظر الشنقيطي : أضواء البيان (١/٣٣٢) .

(٨) يقصد آية {٧} من آل عمران وهي قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله...) .

(٩) ابن جرير : جامع البيان (٣/١٨٣) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٤/١٣) ، والشنقيطي : أضواء البيان (١/٣٣٢) .

(١٠) انظر تفسيره (٢/٧) .

(١١) معترك الاقران (١/١٠٥) ، الاتقان (٢/٣) .

أولاً : أن الله تعـالى ذم المتـبعين للمتشابه ، ووصفهم بالزيغ وابتغاء الفتنة ، وما ذلك إلا لأنهم راموا المستحيل ، في طلب ما اختص الله تعالى بعلمه ، وأرادوا أن يشاركوه تعالى في علم استأثر به هو لنفسه الكريمة ــ جل وعلا[١] .

ثانياً : أنه تعالى مدح الذين فوضوا العلم إليه سبحانه ، وأثنى عليهم بتسليمهم له ، وشهد لهم برسوخ قدمهم في العلم وما ذاك إلا لمعرفتهم بأقدارهم العاجزة ، أمام قدرة الخالق تعالى وعلمه المحيط[٢] .

وهـذا نص كلام لابن قدامة " في روضة الناظر " يؤيد ما قلناه في " أولاً " و " ثانياً " قال : " ...ولأن في الآية قـرائن تـدل على أن الله سبحانه ، متفرد بعلم المتشابه ، وأن الوقف الصحيح عند قوله : (وما يعلم تأويله إلا الله) لفظاً ومعنى :

أمـا اللفظ : فلأنه لو أراد عطف الراسخين لقال : ويقولون آمنا به بالواو. وأما المعنى : فلأنه ذم مبتغى التأويل ، ولو كان ذلـك للراسـخين معلوماً لكان متبعه ممدوحاً لا مذموماً ، ولأن قولهم آمنا به ، يدل على نوع تفويض وتسليم لشئ لم يقفوا عـلى معـناه ، سيما إذا تبعوه بقولهم كل من عند ربنا ، فذكرهم ربهم ههنا يعطى الثقة به والتسليم لأمره . وأنه صدر من عـنده ، كمـا جاء من عنده المحكم ، ولأن لفظة " أما " لتفصيل الجمل ، فذكره لها في الذين في قلوبهم زيغ مع وصفه إياهم باتباع المتشابه وابتغاء تأويله يدل على قسم آخر يخالفهم في هذه الصفة وهم الراسخون ، ولو كانوا يعلمون تأويله لم يخالفوا القسم الأول في ابتغاء التأويل وإذ قد ثبت أنه غير معلوم التأويل لأحد فلا يجوز حمله على غير ما ذكرناه "[٣] .

ثالـثاً : إن دلالة الاستقراء في القرآن الكريم تؤيد أن الواو استئنافية لا عاطفة ، وبيان ذلك : أنه تعالى إذا نفى عن الخلق شـيئاً وأثبته لنفسه ، اختص به تعالى وحده ، ولا يكون له في ذلك الاثبات شريك وذلك كقوله تعالى : (قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله...)[٤] وقوله تعالى : (لا يجليها لوقتها إلا هو...)[٥] وقوله تعالى كذلك : (كل شئ هالك إلا وجهه...)[٦] فعلم الغيب ، وعلم وقت الساعة ، وبقاؤه سبحانه الدائم ، كل هذا مختص به جل وعلا دون سواه .

فالمطابق لذلك أن يكون قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله...) معناه : أنه لا يعلمه إلا هو سبحانه وحده لا يشـاركه فيـه أحد[٧] لذلك قال الخطابي : " لو كانت الواو في قوله : (والراسخون) للنسق لم يكن لقوله (كل من عند ربنا) فائدة . والقول بأن الوقف تام على قوله (إلا الله) وأن قوله : (والراسخون) ابتداء كلام هو قول جمهور العلماء للأدلة القرآنية التي ذكرنا "[٨] .

---

(١) انظـر ابـن حجر : فتح الباري (٢١٠/٨) ، السيوطي : معترك الاقران (١٠٥/١) ، الاتقان (٣/٢) ، والشنقيطي : أضواء البيان (٣٣١/١) ومذكرة أصول الفقه (ص٦٤) وكذلك أصلها وهو " روضة الناظرين " لابن قدامة .

(٢) السيوطي : معترك الاقران (١٠٥/١) ، الاتقان (٣/٢) ، الشنقيطي : مذكرة أصول الفقه (ص٦٤) .

(٣) ابن قدامة المقدسي : روضة المناظر ، وانظر : محمد الأمين الشنقيطي : مذكرة في أصول الفقه (ص/٦٤) .

(٤) سورة النمل ، بعض الآية (٦٥) .

(٥) سورة الاعراف ، بعض الآية (١٨٧) .

(٦) سورة القصص ، بعض الآية (٨٨) .

(٧) انظر : الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١) ، القرطبي : الجامع (١٣/٤) .

(٨) الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٢/١) .

رابعاً : أنه على القول بأن الواو عاطفة يرد إشكال لغوي قوي يدل على منع القول بأن جملة " يقولون " حال ، وبالتالي على منع القول بالعطف في " الراسخون " . وبيانه أن نقول : " إن المعروف في اللغة العربية أن الحال قيد لعاملها ، ووصف لصاحبها ، فيشكل تقييد هذا العامل الذي هو " يعلم " بهذه الحال التي هي " يقولون آمنا " إذ لا وجه لتقييد علم الراسخين بتأويله ، بقولهم آمنا به ، لأن مفهومه أنهم في حال عدم قولهم : آمنا به لا يعلمون تأويله ، وهو باطل وهذا الإشكال قوي وفيه الدلالة على منع الحالية في جملة " يقولون " على القول بالعطف "[١] .

وأجاب أصحاب القول الأول عن هذا الإشكال بقولهم : إن جملة " يقولون آمنا به " إذا لم يصح أن تعرب حالاً ، فهي تعرب معطوفاً بحرف عطف محذوف ، قالوا : والعطف بالحرف المحذوف أجازه ابن مالك وجماعة من علماء العربية ، وهو التحقيق ، وأنه ليس مختصاً بضرورة الشعر ، وله شواهد في القرآن تؤيده كما في قوله تعالى : (وجوهٌ يومئذ ناعمة)[٢] فإنه معطوف بلاشك على قوله تعالى : (وجوهٌ يومئذ خاشعة)[٣] بالحرف المحذوف الذي هو الواو ، ويدل له اثبات الواو في نظيره في قوله تعالى في سورة القيامة : (وجوهٌ يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوهٌ يومئذ باسرة...)[٤] الآية وقوله تعالى في عبس : (وجوهٌ يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة)[٥] الآيات ، ومنه قوله تعالى : (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه...)[٦] الآية ، معناه : وقلت ، بالعطف بواو محذوفة وهو أحد الاحتمالات التي ذكرها ابن هشام في المغني ، وغير ذلك من الشواهد ـــ وبهذا يرد الإشكال فلا اشكال[٧] .

خامساً : أن بعض الراسخين قد اشكل عليهم بعض تفسير القرآن حتى قال ابن عباس : " لا أدري ما الأواه ، ولا ما غسلين "[٨] وهذا يدل على أن الراسخين في العلم فضلاً عن غيرهم لا سبيل لهم إلى العلم بتأويل المتشابه وليس لهم غير التسليم والإيمان به كما أخبر الله تعالى عنهم .

ويجاب عنه بأن هذا لا يلزم ، لأن ابن عباس قد علم بعد ذلك ففسر وما توقف في آية ، كما قد ورد عن مجاهد أنه قال : عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقف عند كل آية وأساله عنها[٩] ، وقد ذكر ابن أبي العز أنه قد تواترت النقول عنه (أي مجاهد) أنه تكلم في جميع معاني القرآن ، ولم يقل عن آية إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله[١٠] .

---

(١) السابق نفسه (٣٣٥/١) .
(٢) سورة الغاشية الآية (٨) .
(٣) سورة الغاشية الآية (٢) .
(٤) سورة القيامة الآيات (٢٢،٢٣،٢٤) .
(٥) سورة عبس الآيات (٣٨،٣٩،٤٠) .
(٦) سورة التوبة ، بعض الآية (٩٢) .
(٧) انظر : الشنقيطي : أضواء البيان (٣٣٥/١) .
(٨) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤) .
(٩) انظر : ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير (ص٦٦) ، والسيوطي : الاتقان (١٨٩/٢) وابن عثيمين أصول في التفسير (ص٣٧) .
(١٠) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٣٤) .

كما أنه سبحانه لم يقل وكل راسخ يعلم تأويله ، فإذا لم يعلمه أحد علمه الآخر[١] .

وتحقيق المسألة والفصل فيها أن يقال :

لا شـك أن فـي القـرآن الكريم أشياء لا يعلمها إلا الله تعالى وحده ، ولا سبيل لأحد من الخلق إلى علم تأويله ، كحقيقة الروح ، لأن الله تعالى يقول : (ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)[٢] ، وكمفاتح الغيب التي نص على أنها لا يعلمها إلا هو- عز وجل - بقوله (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو...)[٣] وقد ثـبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنها الخمس المذكورة في آخر سورة لقمان ، قال البخاري - رحمه الله - : " باب : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو...)[٤] ثم روى بسنده عن سالم بن عبدالله عن أبيه " أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : مفاتح الغيب خمس : (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير[٥] "[٦] .

وروى هذا أيضاً ابن جرير[٧] ، ونقله ابن كثير[٨] ، وكذا القرطبي[٩] ، والسيوطي[١٠] ، والشوكاني[١١] ، وغيرهم .

وكذلك يدخل في الأمور التي لا يعلمها إلا الله تعالى وحده الحروف المقطعة في أوائل السور كقوله تعالى الم ، و المر ، و الر ، و كهيعص ، و طه ، و يس ونحوها .

وكذلك نعيم الجنة فحقيقته الكاملة لا يعلمها أحد ولا تطلع عليها نفس كما قال الله تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كان يعلمون)[١٢] فتأويل ما أخبر الله تعالى به من نعيم الجنة ، من الأكل والشرب ، واللباس ، والنكاح ، وقيام الساعة ، وغير ذلك هو الحقائق الموجودة أنفسها ، لا ما يتصور في الأذهان ويعبر عنه باللسان[١٣] .

---

(١) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣/٤) .
(٢) سورة الإسراء ، بعض الآية (٨٥) .
(٣) سورة الأنعام ، بعض الآية (٥٩) .
(٤) سورة الأنعام ، بعض الآية (٥٩) .
(٥) سورة لقمان ، الآية (٣٤) .
(٦) صـحيح البخاري ــ كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة الأنعام (٦) باب (١) ح رقم (٤٦٢٧) انظر : الفتح (٢٩١/٨) ، ورواه أيضاً في تفسير سورة لقمان (٣١) باب (٢) ح رقم (٤٧٧٧)، رقم (٤٧٧٨) ، ورواه من وجه آخر في كتاب الاستسقاء (١٥) باب (٢٩) ح رقم (١٠٣٩) الفتح (٥٢٤/٢) . ونحـوه رواه مسلم في " صحيحه " (٣٩/١) كتاب الإيمان (١) باب (١) ح رقم (٥) . ورواه الإمام أحمد في " مسنده " (٣٨٦،٤٣٨،٤٤٥/١) ، (٨٥/٢-٨٦) و (٣٥٣/٥) .
(٧) انظر : جامع البيان (٢١٣/٧) موقوف على ابن عباس في تفسير سورة الأنعام ، ورواه مرفوعاً من حديث عمرو بن شعيب ، ومن حديث عبدالله بن عمر ، وعبدالله بن مسعود وأبي هريرة ــ رضي الله عنهم جميعاً ــ ، انظر : جامع البيان (٨٨،٨٩/٢١) في تفسير سورة لقمان.
(٨) انظر : تفسير القرآن العظيم (٢٦٠/٣) و كذلك (٣٥٤/٦-٣٥٨) .
(٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٣،٤/٧) ، وكذلك (٥٥/١٤-٥٦) .
(١٠) انظر : الدر المنثور (٢٧٧/٣-٢٧٩) ، وكذلك (٥٣١/٦-٥٣٣) ، وعزاه أيضاً لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردوية .
(١١) انظر : فتح القدير : (١٢٣/٢) تفسير سورة الأنعام الآية (٥٩) وكذلك (٢٤٥/٤-٢٤٦) عند تفسير سورة لقمان الآية (٢٤) .
(١٢) سورة السجدة ، الآية (١٧) .
(١٣) انظر : ابن تيمية : الفتوى الحموية الكبرى (ص٢٢) .

وكذلــك في القرآن أشياء ، يعلمها الراسخون في العلم دون غيرهم كقوله تعالى : (فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)[١] ، وقوله (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين)[٢] مع قوله : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان)[٣] وقوله : (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)[٤] وكقوله : (وروح منه)[٥] .

وبالتأمل في كلا الرأيين نجد أن كل فريق من الفريقين له في رأيه ملحظ فأصحاب الرأي الأول وهم القائلون بأن الواو عاطفة ، وأن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه جعلوا معنى التأويل التفسير ، وفهم المعنى اللغوي الذي نزل به القرآن ، والراسخون يفهمون ما خوطبوا به ، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه .

والذيــن قــالوا هي استئنافية جعلوا معنى التأويل حقيقة ما يئول إليه الأمر ، وذلك لا يعلمه إلا الله تعالى وحده ، وبهذا يفصل المقال ويحسم النزاع ويكون كلا الرأيين صحيح وحق كما صرح بذلك شارح الطحاوية[٦] .

ذلك لأن أصحاب القول بالوقف على لفظ الجلالة ، يستبعدون أن يكون هناك بشر يشارك رب العزة جل وعلا في علم غيوبه ، وهذا حق وصدق ، ولا يقول مسلم عاقل غيره بحال .

وأصــحاب القول بالوقف على " الراسخون في العلم " ، يستبعدون أن يكون تفسير القرآن ، وبيان معناه لا يعلمه إلا الله ، فيبقى القرآن العظيم بمنزلة الرموز التي لا تفهم معانيها ، ولا تعرف أحكامها ، في الوقت الذي أنزل فيه من لدن حكيم حميد ليُفهم و يُتدبر .

والله تعالى منزله هو الذي أمر عباده بالتدبر لأياته والفهم لمعانيه ، وأخبر أن العلة والغاية من إنزاله هو ذلك الفهــم والــتدبر والفقه لأحكامه ، قال تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب)[٧] وقال جل وعــلا : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[٨] وقال عز وجل : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجــدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٩] وقال عز وتقدس : (...قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون)[١٠] ومن هنا وجب القول بأن جميع الأقــوال الــتي رويت على أن الوقف في القراءة على لفظ الجلالة ، هي محمولة على أن المراد بالتأويل على هذا الوجه عواقب أخبار القرآن و مصائرها ، وأن جميع ما روى على أن الوقف في التلاوة على قوله تعالى : (والراسخون في العلم)[١١] محمول على أن التأويل في الآية هو التفسير والبيان .

---

(١) سورة الحجر ، الأيتان (٩٣،٩٢) .
(٢) سورة الأعراف ، الآية (٦) .
(٣) سورة الرحمن ــ جل وعلا ــ ، الآية (٣٩) .
(٤) سورة القصص ، الآية (٧٨) .
(٥) سورة النساء ، الآية (١٧١) .
(٦) انظر : (ص/٢٣٤) .
(٧) سورة ص ، الآية (٢٩) .
(٨) سورة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، الآية (٢٤) .
(٩) سورة النساء ، الآية (٨٢) .
(١٠) سورة الأنعام ، الآية (٩٨) .
(١١) سورة آل عمران ، بعض الأية (٧) .

علـى أنـا إذا رجعنا إلى موقف السلف وأقوالهم وجدناهم قد تكلموا في معنى كل آية ، ولم يستثنوا آية واحدة أو كفوا عن بيان معناها بدعوى أنها متشابهة ، أو أنه لا معنى لها ، ولم يكن بينهم خلاف ولا نزاع في هذا الشأن ، وإنما نشأ الخـلاف بيـن المتأخرين بسبب خطئهم في فهم معنى التأويل في الآية موضوع النزاع ، ونتج عن ذلك أن جعلوا المسألة مسـألة نزاع وخلاف بين السلف[١] ، والأمر ليس كذلك ومما يهمنا هنا أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد رجح أن تكون الواو عاطفـة ، من قبيل عطف المفرد على المفرد ، ويكون الراسخون في العلم يعلمون معنى المتشابه من القرآن ، ولكنه أيضاً لا يمـنع مـن جواز القول بأن الواو للإستئناف على اعتبار أن يكون التأويل المنفي علمه عن الراسخين غير التأويل الذي يعلمونه[٢] .

ويؤكـد ابن تيمية ما ذهب إليه فيتتبع أقوال العلماء في معنى المتشابه فلا يجد رأياً منها إلا وقد بين السلف معناها وفسروه ووضحوه .

فـإذا كان المتشابه هو المنسوخ على ما قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وقتادة ، والسدى وغيرهم ، فالعلماء يقيناً يعـلمون معـناه ، لأنهم يعلمون معنى المنسوخ سواء كان منسوخاً لفظه ، أو لفظه ومعناه معاً ، وهذا يدل في نظره على ضعف الرواية عن ابن عباس وابن مسعود أن الراسخين في العلم لا يعلمون معنى المتشابه[٣] .

وإن كـان المتشابه أخبار القيامة وما فيها ، فمعلوم أن وقت القيام الساعة و حقيقة أمرها لا يعلمه إلا الله ، ولكن هـذا لا يدل على أننا لم نفهم معنى الخطاب الذي خوطبنا به ، والفرق بَيِّن وواضح بين معرفة الخبر ، وبين معرفة حقيقة المخبر عنه .

وإن كـان المتشـابه أوائـل السور المفتتحة بحروف المعجم ، فهذه الحروف ليست كلاماً تاماً يتكون من الجمل الاسمية والفعلية ، و لهذا لم تعرب لأن الإعراب جزء من المعنى ، بل ينطق بها موقوفة كما يقال : أ ، ب ، ت ، ولهذا تكـتب في صورة الحروف المقطعة ، لا بصورة اسم الحرف أي لا تكتب : ألف ، لام ، هكذا ، وإذا كان ما سواها محكماً حصل المقصود ، فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله ، وكلام رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ .

وإن قيـل ــ كمـا يقال ــ إن المتشابه آيات الصفات ، فمعلوم بين المسلمين أنهم يفهمون من صفة الرحمة معنى غيـر صـفة القـدرة ، ويفهمون من صفة العلم معنى غير ما يفهم من صفة الإرادة ، وإنما نفى السلف علمهم بكيفية هذه الصفات كلها ، وعدم علمهم بكيفية الصفة لا ينفي علمهم بمعناها ، فإنهم فهموا معاني جميع ما خوطبوا به في كتاب الله ــ جـل وعلا ــ[٤] ، والذين قالوا إن آيات الصفات لا يُعلم معناها ، والله اعلم بمراده منها يسميهم ابن تيمية " أهل التجهيل " ذلك لأنهم وصفوا الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والسلف بأنهم يجهلون معاني الصفات ، ولم يعرفوا معانيها ، قال ابن

---

(١) انظر : ابن تيمية : تفسير سورة الإخلاص (ص١١٠-١١٧) ، والفتوى الحموية الكبرى (ص٢١-٢٣) ، والاكليل في المتشابه والتأويل (ص٣٠-٣)

(٢) انظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٢٤) ، والإكليل (ص٣٥) .

(٣) انظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٤٢/١٤٣) .

(٤) انظـر : السـابق نفسـه (ص١٥٠،١٢١) ، وانظر : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (٤٠/١) ، مجموع الفتاوي (٢٣٤/٥) ، الحموية (ص ٢١،٢٢،٢٣) ، الأكليل (ص٣٣) ، مجموعة الرسائل والمسائل (١٩٦،١٩٧/١) .

تيميــة : " وأما الصنف الثالث : وهم أهل التجهيل فهم كثير... يقولون : إن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يعرف معــاني مــا أنزل الله إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني الآيات ، ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك ، وكذلك قولهــم فــي أحاديث الصفات : إن معناها لا يعلمه إلا الله ، مع أن الرسول تكلم بها ابتداءً فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه "(١) .

وهــذا ما لا ينبغي أن يقوله مسلم رضي بمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ نبياً ورسولاً مبلغاً عن الله تعالى دينه وشرعه ، وبينه للأمه كما أمره ربه تبارك وتعالى بقوله : (...وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم...)(٢) ويجدر بــنا أن نشير هنا إلى أن أبا حامد الغزالي قد ذكر في " إحيائه " أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان كثيراً ما يردد الآية اكثر من مرة ، متأملاً في معناها ، وجعل أبو حامد التدبر في معاني القرآن أدباً من آداب التلاوة ، لأن المقصود من القراءة هو التدبر فلا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا من قراءة لا تدبر فيها ، كما أن على كل قارئ أن يستوضح من كل آية ما يليق بها(٣) .

وقد عقد فصلاً خاصاً عن ذم قراءة الغافلين ، يقول في ذلك : " وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللســان والعقل والقلب ، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانــزجار والائــتمار ، فاللسان يرتل ، والعقلُ يترجم ، والقلب يتعظ "(٤) ، وخلاصة القول أن الراسخين في العلم يعلمون جميــع معــاني القرآن الكريم بمحكمه ومتشابهه ، وهي المعاني التفسيرية للألفاظ والآيات وما تدل عليه من أحكام ، وأما حقيقــة كيفيــة الصفات وأمور القيامة ــ كما تقدم ــ وما يُرزَقه أهل الجنة فيها بكرة وعشياً ، ونحو ذلك وكذلك الحروف المقطعة ــ في أوائل السور ، فهذا كله مما استأثر الله تعالى بعلمه ، فلا يعلم أحد تأويله .

المبحث الثالث : هل تعتبر آيات الصفات من المتشابه ؟

يــرى السيوطي أن آيات الصفات من المتشابه ، ذكر ذلك صريحاً في " معترك الاقران " وغيره ، حيث قال : " مــن المتشابه آيات الصفات... وجمهور أهل السنة : منهم السلف وأهل الحديث ، على الإيمان بها وتفويض معناها المراد منها إلى الله ــ تعالى ــ ولا نفسرها مع تنزيهنا له عن حقيقتها "(٥) وذكر هذا أيضاً بنفس لفظه في الاتقان(٦) .

وهذا الذي ذكره السيوطي هو حقيقة مذهب أهل التفويض الذين جعلوا نصوص الصفات من المتشابه الذي لا يعلم معــناها إلا الله ــ تعــالى ــ ، وينسبون ذلك إلى السلف وأهل الحديث ــ كما هو واضح في كلام السيوطي ويزعمون ــ أعني أهل التفويض ــ أن السلف وأهل الحديث كانوا يتلون نصوص الصفات ولا يفهمون معناها ويروون أحاديث الصفات ولا يفهمون لها معنى كذلك ، ولكن السلف وأهل الحديث براء من هذا المذهب التفويضي الذي نسبه إليهم السيوطي وأمثاله

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص٢١) ، وانظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٠٧-١١٠) .
(٢) سورة النحل ، بعض الآية (٤٤) .
(٣) انظر : احياء علوم الدين ــ كتاب آداب التلاوة (ص٥١١) ط الشعب .
(٤) السابق نفسه ــ كتاب آداب التلاوة (ص٥١٩) .
(٥) معترك الاقران في إعجاز القرآن (١١١/١) .
(٦) الاتقان في علوم القرآن (٦/٢) .

، ولقد تقدم مني الكلام أنهم فسروا جميع آيات القرآن الكريم ونصوص الأحاديث الشريفة ، ولم يدع أحد منهم في شئ من نصوص الصفات أنها من المتشابه الذي لا يعلم معناه أحد من الخلق ، فلينظر هناك فإنه يغني عن إعادته هنا . وممن ذهب أيضـــاً إلى أن آيات الصفات من المتشابه موفق الدين ابن قدامة المقدسي ، حيث قال : " والصحيح أن المتشابه ما ورد في صفات الله سبحانه وتعالى مما يجب الإيمان به ويحرم التعرض لتأويله "[١] وكلام الشيخ ابن قـــدامة ــ رحمه الله ــ يحتاج إلى تفصـــيل ، فـــإن كان يعني بأنها من المتشابه باعتبار كيفيتها فهو حق ، لأن الكيفية مجهولة لنا ، وهي مما استأثر الله بعلمه ، وإن كان يعني أنها لا يعرف معناها في اللغة ــ كما يقوله أهل التفويض ــ فهذا ما لا يصح أن يقال ، وهو مستبعد من مثله أن يقصد هذا المعنى لأنه حنبلي المذهب ، والمعروف عن الحنابلة عموماً شدة تمسكهم بعقيدة أهل السنة والجماعة تـــبعاً لإمـــامهم أبي عبدالله أحمد بن حنبل ــ رحمه الله ــ إلا من شذ منهم كأبي الفرج ابن الجوزي ، والقاضي أبي يعلى ، وابن عقيل ، وأمثالهم[٢] ، وكذلك قوله : " يحرم التعرض لتأويله " يحتاج أيضاً إلى تفصيل ، فإن كان يقصد بالتأويل التفسير وبيـــان معاني الآيات على مقتضى قواعد اللغة العربية ومعانيها التي نزل القرآن الكريم بها ، فهذا لا يحرم بل هو مطلوب لفهم معاني كتاب الله ــ جل وعلا ــ وهذا مستبعد منه ــ رحمه الله تعالى ــ .

وإن كـــان قصده بالتأويل ذلك النوع الذي يسلكه الجهمية نفاة الصفات ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره فكلامه في ذلـــك حـــق ، فإنه يحرم تأويل الصفات بما يؤدي إلى تعطيل الخالق ــ جل وعلا ــ عنها ، وهذا الذي ينبغي أن يظن في الشيخ موفق الدين ــ رحمه الله تعالى ــ ويدل لهذا أنه قد صنف رسالة قيمة سماها : " ذم التأويل "[٣] ضمنها المذهب الحق ، وهـــو مذهب السلف في صفات الله ــ عز وجل ــ وبين كيف أنهم تلقوا أخبارها وأثبتوا ما جاء فيها بدون تأويل لها ، ورد على شبه القائلين بأن السلف عندما اثبتوا هذه الصفات العلية إنما قاموا بتأويلها ليستقيم المراد منها[٤] .

قـــال الشيخ الشنقيطي : " وقول المؤلف[٥] ــ رحمه الله ــ في هذا المبحث : " والصحيح أن المتشابه ما ورد في صفات الله سبحانه وتعالى مما يجب الإيمان به ، ويحرم التعرض لتأويله كقوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[٦] " ... إلى آخـــره ، لا يخـــلو من نظر ، لأن آيات الصفات لا يطلق عليها اسم المتشابه بهذا المعنى من غير تفصيل ، لأن

---

(١) روضة الناظر وجُنة المناظر . ضمن مذكرة أصول الفقه الشنقيطي (ص٦٤) .

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله تعالى ــ في " درء تعارض العقل والنقل " (٣٤/٧) : " ...ونوع ثالث سمعوا الأحاديث والآثار ، وعظموا مذهب السلف ، وشاركوا المتكلمين الجهمية في بعض أصولهم الباقية ، ولم يكن لهم من الخبرة بالقرآن والحديث والآثار ما لأئمة السنة والحديث ، لا مـــن جهة المعرفة والتمييز بين صحيحها وضعيفها ، ولا من جهة التفهم لمعانيها ، وقد ظنوا صحة بعض الأصول العقلية للنفاة الجهمية ، ورأوا ما بينهما من التعارض وهذا حال أبي بكر بن فورك ، والقاضي أبي يعلى ، وابن عقيل وأمثالهم ، ولذلك كان هؤلاء تارة يختارون طريقة أهل التأويل كما فعلـــه ابن فورك وأمثاله في الكلام على مشكل الآثار ، وتارة يفوضون معانيها ، ويقولون : تجرى على ظواهرها كما فعله القاضي أبو يعلى وأمثاله في ذلك ، وتارة يختلف اجتهادهم ، فيرجحوا هذا تارة ، وهذا تارة كحال ابن عقيل وأمثاله ، وهؤلاء قد يدخلون في الأحاديث ما هو كذب موضوع ، ولا يعرفون أنه موضوع ، وما له لفظ يدفع الاشكال ، مثل أن يكون رؤيا منام فيظنونه كان في اليقظة ليلة المعراج... " .

(٣) طـــبعت هـــذه الرسالة ضمن مجموع ، قام على طباعتها الشيخ محمد أحمد عبدالسلام خضير، بمطبعة المنار بمصر عام ١٣٥١هـــ ، وطبعت مرة أخرى مفردة بالدار السلفية ــ بالكويت عام ١٤٠٦هـــ ــ ١٩٨٦م بتحقيق : بدر بن عبدالله البدر .

(٤) انظر الرسالة المذكورة وهي : ذم التأويل (ص١١) وما بعدها .

(٥) يقصد مؤلف روضة الناظر وهو الشيخ الموفق ابن قدامة ــ رحمه الله ــ .

(٦) سورة طه الآية (٥) .

معـــناها معلوم في اللغة العربية ، وليس متشابهاً ، ولكن كيفية اتصافه ــ جل وعلا ــ بها ليست معلومة للخلق ، وإذا فســـرنا المتشـــابه بأنه هو ما استأثر الله بعلمه دون خلقه كانت كيفية الاتصاف داخلة فيه لا نفس الصفة ، وايضاحه : أن الاســتواء إذا عُــدى بعــلى معــناها في لغة العرب الارتفاع والاعتدال ، ولكن كيفية اتصافه ــ جل وعلا ــ بهذا المعنى المعروف عند العرب لا يعلمها إلا الله ــ جل وعلا ــ كما أوضح هذا التفصيل إمام دار الهجرة مالك بن أنس ــ تغمده الله برحمته بقوله : " الاستواء غير مجهول " يوضح أن أصل صفة الاستواء ليست من المتشابه ، وقوله : " والكيف غير معقــول " يــبين أن كيفيــة الأتصاف تدخل في المتشابه بناءً على تفسيره بما استأثر الله تعالى بعلمه ــ كما تقدم ــ وهذا التفصيل لا بد منه خلافاً لظاهر كلام المؤلف ــ رحمه الله ــ "[١] .

ولقــد ألمــح بعض الباحثين إلى أن الشيخ محمد رشيد رضا صاحب " تفسير المنار " نسب لابن تيمية القول بأن آيــات الصــفات مــن المتشابه[٢] ، وكنت أعلم من قبل أن الشيخ محمد رشيد رضا ــ رحمه الله ــ ممن يعظم شيخ الإســلام ابن تيمية ، ويجل آراءه وطريقته ، فلما رجعت لتفسير المنار رأيت الحقيقة خلاف ما ذكر عنه ، وأنه قد نقل عن ابن تيمية ذلك القول لا باعتباره أنه مذهب ابن تيمية أو أنه قوله ، وإنما نقله كقول من الأقوال الكثيرة التي حكاها ابن تيمية عــن أصــحابها في بيان معنى المحكم والمتشابه ، فصاحب المنار لم ينسب هذا القول إلى شيخ الإسلام ــ كما ذكرت ــ وهاك عبارته ، قال : " ولذلك اختلف فيه المفسرون على أقوال : أحدها... " ثم قال " تاسعها : أن المتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به ذكره ابن تيمية... عاشرها : أن المتشابه آيات الصفات (أي صفات الله) خاصة ومثلها أحاديثها ، ذكره ابن تيمية أيضاً "[٣]

فهــذا كلام صاحب المنار ليس فيه ما يفيد أن هذا هو قول ابن تيمية أو رأيه ، وإنما ذكره ابن تيمية حكاية لآراء العــلماء فــي هــذه المســألة ، أما رأي ابن تيمية فقد قال فيه الشيخ محمد رشيد رضا : " اعلم أنه ليس في كتب التفسير

---

(١) مذكرة أصول الفقه (ص٦٥) ، و انظر كذلك نفس هذا المعنى في رسالته الأخرى : منهج وراسات لآيات الأسماء والصفات (ص٢٣،٢٤) .
(٢) انظر : محمد السيد الجليند : الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل (ص٦٠) .
(٣) السيد محمد رشيد رضا : تفسير القرآن الحكيم ، المسمى تفسير المنار (٣/١٣٧) .

المتداولة ما يروي الغليل في هذه المسألة ، وما ذكرناه آنفاً هو صفوة ما قالوه ، وخيره كلام الاستاذ الإمام[1] ، وقد رأينا أن نرجع بعد كتابته إلى كلام في المتشابه والتأويل لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية كنا قرأنا بعضه من قبل في تفسيره لسورة الإخلاص فرجعنا إليه وقرأناه بإمعان ، فإذا هو منتهى التحقيق والعرفان ، والبيان الذي ليس وراءه بيان... "[2] وهذا يدل على ما قلته من أن الشيخ محمد رشيد رضا يعظم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، ويرى أن مذهبه الذي هو مذهب السلف هو الحق الذي ينبغي أن يتبع ، وأن كل مذهب خالف مذهب السلف فهو ظنون و أوهام ، قال الشيخ رضا : " وكنا نظن في أوائل الطلب أن مذهب السف ضعيف ، وأنهم لم يؤولوا كما أول الخلق لأنهم لم يبلغوا مبلغهم من العلم والفهم ، لا سيما الحنابلة كلهم أو بعضهم ، ولما تغلغلنا في علم الكلام وظفرنا بعد النظر في الكتب التي هي منتهى فلسفة الأشاعرة في الكلام بالكتب التي تبين مذهب السلف حق البيان ، لا سيما كتب ابن تيمية ، علمنا علم اليقين أن مذهب السلف هو الحق الذي ليس وراءه غاية ولا مطلب ، وأن كل ما خالفه فهو ظنون و أوهام لا تغني من الحق شيئاً "[3] ومع هذا فقد نقل ابن تيمية هذا القول عن بعض المتأخرين كما نص على ذلك[1] إذا علم هذا ، فإنني الآن – بإذنه تعالى – أبين رأي ابن تيمية في أن آيات الصفات ليست من المتشابه ، وأنا بهذا اعتبره رداً على السيوطي ومن قال بقوله في آيات الصفات قال ابن تيمية – رحمه الله – رداً على هؤلاء :

" وأما ادخال اسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله ، أو اعتقاد أن ذلك أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله... فالكلام على هذا من وجهين :

الوجه الأول : مَنْ قال إن هذا من المتشابه ؟؟ وأنه لا يفهم معناه ؟... فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة ، لا أحمد بن حنبل ولا غيره ، أنه جعل ذلك من المتشابه... ونَفَى أن يعلم أحد معناه ، وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم ، ولا قالوا إن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحد معناه ، وإنما قالوا : كلمات لها معان صحيحة ،

---

(١) يقصد استاذه الشيخ الإمام محمد عبده .

(٢) تفسير المنار : (١٤٢/٣) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م .

(٣) السابق نفسه (١٦٣/٣) .

قالوا في أحاديث الصفات : (تُمر كما جاءت) ونهوا عن تأويلات الجهمية ، وردوها وأبطلوها ، التي مضمونها تعطيل النصوص عما دلت عليه ، ونصوص أحمد والأئمة قبله بينة في أنهم كانوا يبطلون تأويلات الجهمية ، ويقرون النصوص على ما دلت عليه من معناها ، ويفهمون منها بعض ما دلت عليه كما يفهمون ذلك في سائر نصوص الوعد والوعيد ، والفضائل وغير ذلك ، وأحمد قد قال في غير أحاديث الصفات ، تمر كما جاءت ، في أحاديث الوعيد مثل قوله : " من غشنا فليس منا "[٢] و أحاديث الفضائل ، ومقصوده بذلك أن الحديث لا يحرف كلمه عن مواضعه ، كما يفعله من يحرفه ، ويسمي تحريفه تأويلاً " بالعرف المتأخر "[١] ، وسيأتي بعد قليل معنى التأويل بالعرف المتأخر ، وأنه معنى باطل لم يعرفه السلف ولا الأئمة .

ثم قال ابن تيمية : " فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل ، وكذلك نص أحمد في كتاب " الرد على الزنادقة و الجهمية "[٣] ، أنهم تمسكوا بمتشابه القرآن ، وتكلم أحمد على ذلك المتشابه . وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى في ذلك على سنن الأئمة قبله ، فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى هذا المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره ، بل يبين ويفسر "[٤] فهذا كلام ابن تيمية ، وهو يبين بكلامه بطلان قول من قال : إن آيات الصفات من المتشابه ، وقد رأيناه يستنكر ذلك بسؤال إنكاري فيقول : " مَنْ قال : إن هذا من المتشابه ؟ وأنه لا يفهم معناه ؟ "[٤] . ثم يقول ابن تيمية مؤكداً كلامه السابق : " والدليل على أن هذا ليس بمتشابه لا يعلم معناه ، أن نقول : لا ريب أن الله سمى نفسه في القرآن بأسماء مثل : الرحمن ، والودود ، والعزيز ، والجبار ، والعليم ، والقدير ، والرؤوف ، ونحو ذلك ، ووصف نفسه بصفات مثل : سورة الاخلاص ، وآية الكرسي ، وأول الحديد ، وآخر الحشر ، وقوله : (إن

---

(١) انظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٥٢) .

(٢) ابن تيمية : رسالة الأكليل (٢١-٢٢) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (جـ٢) ، وانظر : تفسير سورة الإخلاص (ص١٠٨) .

(٣) عنوانه المطبوع : " الرد على الجهمية والزنادقة " ت : د. عبدالرحمن عميرة .

(٤،٤) ابن تيمية : الأكليل (ص/٢٢) .

الله بكـل شـئ عليم)[١] و (على كل شئ قدير)[٢] وأنه (يحب المتقين)[٣] و المقسطين[٤] ، و المحسنين[٥] ، وأنه يرضـى عـن الذين آمنوا وعملوا الصالحات[٦] ، و (لما آسفونا انتقمنا منهم)[٧] و (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله)[٨] (ولكن كره الله انبعاثهم)[٩] و (الرحمن على العرش استوى)[١٠] ، ... إلى أمثال ذلك .

فيقال لمن ادعى في هذا أنه متشابه لا يعلم معناه : أتقول هذا في جميع ما سمى الله ووصف به نفسه أم في البعض ؟

فـإن قـلت : هذا في الجميع كان هذا عناداً ظاهراً ، وجحداً لما يُعلم بالاضطرار من دين الإسلام[١١] ، بل كفر صـريح ، فإنـا نفهم من قوله : (إن الله بكل شئ عليم) معنى ، و نفهم من قوله : (إن الله على كل شئ قدير) معنى ليس هو الأول ، ونفهم من قوله : (ورحمتي وسعت كل شئ)[١٢] معنى .

ونفهم من قوله : (إن الله عزيز ذو انتقام)[١٣] معنى ، وصبيان المسلمين ، بل وكل عاقل يفهم هذا ، وقد رأيت بعض من ابتداع و جمد من أهل المغرب مع انتسابه إلى الحديث ، لكن أثرت فيه الفلسفة الفاسدة ، من يقول : إنا نسمى الله الرحمن الـرحيم ــ العليم القدير علماً محضاً من غير أن نفهم منه معنى يدل على شئ قط ، وكذلك في قوله : (ولا يحيطون بشئ مـن علمه)[١٤] يطلق هذا اللفظ من غير أن نقول له علم وهذا الغلو في الظاهر من جنس غلو القرامطة في الباطن ، لكن هذا أيبس و ذاك أكفر "[١٥] وهكذا أفاض وأطنب ابن تيمية في هذا الوجه من الرد على هؤلاء ، ثم قال :

<u>الوجه الثاني :</u> أنه إذا قيل هذه من المتشابه ، أو كان فيها ما هو من المتشابه ، كما نقل عن بعض الأئمة أنه سمى بعض ما اسـتدل به الجهمية متشابهاً ، فيقال : الذي في القرآن أنه لا يعلم تأويله إلا الله... نفى علم تأويله ليس نفى علم معناه ، ... ونـزيده تقريـراً : أن الله سبحانه يقول : (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآناً عربياً غيـر ذي عـوج)[١٦] . وقال تعالى : (آلر تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)[١٧] فأخبر أنه

---

(١) سورة البقرة ، بعض الآية رقم (٢٣١) .
(٢) سورة البقرة ، بعض الآية (١٠٦) .
(٣) سورة التوبة ، بعض الآية (٤) ، الآية (٧) .
(٤) سورة الحجرات ، بعض الآية (٩) .
(٥) سورة المائدة ، بعض الآية (٩٣) .
(٦) قال تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة...) بعض الآية (١٨) من سورة الحجرات .
(٧) سورة الزخرف ، بعض الآية (٥٥) .
(٨) سورة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، بعض الآية (٢٨) .
(٩) سورة التوبة ، بعض الآية(٤٦) .
(١٠) سورة طه ، الآية (٥) .
(١١) انظر مع هذا : تفسير سورة الإخلاص (ص١٣٩) .
(١٢) سورة الاعراف ، بعض الآية (١٥٦) .
(١٣) سورة إبراهيم ــ عليه السلام ــ ، بعض الآية (٤٧) .
(١٤) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٥٥) .
(١٥) الأكليل (٢/٢٤) وانظر : تفسير سورة الاخلاص (ص١٢١) .
(١٦) سورة الزمر ، بعض الآية (٢٨) .
(١٧) سورة يوسف ــ عليه السلام ــ الآيتان (١،٢) .

أنزله ليعقلوه ... وقال أيضاً : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)[١] فحض على تدبره وفقهه وعقله ، والتذكر بـــه والـــتفكر فيه ، ولم يستثن من ذلك شيئاً ، بل نصوص متعددة تصرح بالعموم فيه مثل قوله : (أفلا يتدبرون القرآن أم عـــلى قلوب أقفالها)[٢] وقوله : (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[٣] ومعلوم أن نفي الاختلاف عنه لا يكون إلا بتدبره كله ، و إلا فتدبر بعضه لا يوجب الحكم بنفي مخالفة ما لم يتدبر لما تدبر "[٤] .

وهكـــذا تقرر بوضوح بطلان القول بأن آيات الصفات هي من المتشابه وكذا أحاديث الصفات كلها باللفظ العربي الواضح الذي يفهم معناه ، وليست من قبيل الألغاز أو الكلام الأعجمي بل هي مفهومة المعنى واضحة الدلالة وأما المجهول عنا فهو الكيف فقط وسيأتي مزيد تفصيل لذلك إن شاء الله تعالى . وبه يتضح مذهب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو كما قال الشـــيخ محمـــد رشيد رضا : إنه " منتهى التحقيق والعرفان ، والبيان الذي ليس وراءه بيان "[٥] فهو مذهب السلف الذي لا ينبغي أن يختلف في قبوله اثنان ، ذلك لأن العاقل المنصف الذي يريد اتباع الحق لا يسعه إلا أن يسلم بما قاله ابن تيمية ، إذ أنه حال السلف مع كتاب الله وسنة رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وطريقة الأئمة الاعلام من بعدهم .

ومـــا اثبـــته وقـــررته مـــن كلام ابن تيمية هو الرد الذي أوجهه إلى كلام السيوطي فيما ذهب إليه من أن آيات الصفات من قبيل المتشابه .

كمـــا ينـــبغي أن يعلم أن جعل الاسماء والصفات من المتشابهات هو الذي الجأ المتكلمين ومن وافقهم إلى التأويل الباطل الذي انتهى إلى تعطيل الباري ــ جل وعلا ــ عن صفاته العليا .

والذي تخلص إليه من هذا المبحث ما يلي :

<u>أولاً :</u> صـــفات الله ــ جل وعلا ــ معلومة معانيها ، وليست مجهولة لمن يفهم اللسان العربي ، لأنها قد وردت في القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين .

<u>ثانياً :</u> أنها بهذا الاعتبار ليست من المتشابه الذي لا يعلم تأويله ، فيلتبس المراد منها على أهل العلم والتحقيق ، وأن اطلاق القول بأن صفات الله ــ تعالى ــ من المتشابه ذريعة تعلق بها المؤولة فأولوها تأويلاً باطلاً انتهى بهم إلى تعطيل الباري ــ جل وعلا ــ عن صفاته العلية . .

قال استاذي فضيلة الدكتور محمود مزروعة : " الصواب أن يقال : إن المتشابه الحقيقي يتناول الصفات بوجه دون وجه . فإذا أريد معنى الصفات العلي والأسماء الحسنى التي وصف الله ــ سبحانه ــ ذاته بها ، ووصفه رسوله ــ صـــلى الله عليه وسلم ــ بها ، فالصفات من هذا الوجه ليست من المتشابه ، وكل من قال ذلك فقد ألحد في أسماء الله ــ تعالى ــ ذلكم أن الصفات معلومة المعنى لأنها نزلت بلغة العرب التي هي واضحة المعنى لكل فاهم للعربية .

---

(١) سورة الحشر ، بعض الآية (٢١) .
(٢) سورة سيدنا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، الآية (٢٤) .
(٣) سورة النساء ، الآية (٨٢) .
(٤) الأكليل (ص٣١،٣٠) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (جـ٢) .
(٥) نقلته سابقاً ، وهو في تفسير المنار (١٣٧/٣) .

أمــا إذا أريــد الكيــف ، كيفية اتصافه ــ عز وجل ــ بهذه الصفات فذلك مما استأثر الله ــ تعالى ــ بعلمه ، و لايعلمه إلا هو ، لايعلمه الراسخون و لا غيرهم ، ويكون هذا الشق من المتشابه الحقيقي وليس النسبي أو الاضافي "(١) .

ثالــثاً : أن النــبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يفسر آيات القرآن العزيز لأصحابه ، ولم يرد عنه أنه أخبر عن آية أو آيــات أنها من المتشابه الذي لا يجوز تفسيره ، وكذلك أصحابه ــ رضي الله عنهم ــ من بعده ، والتابعون لهم بإحسان ، والعلماء المستمسكون بهديهم فسروا كتاب الله تعالى وبينوا معانيه ولم يتوقفوا في شئ منه لأجل أنه من المتشابه .

رابعــاً : أن كيفيــة اتصاف الباري ــ جل وعلا ــ بهذه الصفات مجهولة للخلق أياً كانت مرتبتهم في العلم أو منزلتهم في الدين ، ذلك لأن القول في الصفات كالقول في الذات ، فكما أن ذاته ــ جل وعلا ــ لا تعلم كيفيتها ، فكذلك لا تعلم كيفية اتصافه بالصفات .

خامســاً : أن كيفيــة اتصاف الرب ــ جل جلاله ــ بالصفات العلية إذا أطلق عليها أنها من المتشابه بقيد (الكيفية) فإنه يسوغ ذلك ، على أن يُحدد المراد بوجه التشابه و لا يقال عن الصفات إنها من المتشابه باطلاق ، ولكن يقال صفات الله ــ تعالى ــ ليست من المتشابه ، أما كيفية اتصافه ــ عز وجل ــ بها فهي من المتشابه .

سادساً : أنه لم يؤثر عن أحد من السلف ــ رضي الله عنهم ــ أنه أطلق لفظ المتشابه على صفات الله ــ تعالى ــ ، وإنما ســوغنا القــول بالمتشابه عن الكيفية نظراً لكثرة الخلاف ، واتساع هوة الجدل والنزاع ، في هذه المسألة ، و رأينا أنه لا يــنقطع هــذا المــراء والجدال إلا بهذا التحديد والتقييد ، أعني تحديد المراد بمصطلح المتشابه وتقييد اطلاقه على الصفات بالكيفية ، حيث ان العلم بالكيفية من تمام العلم بالصفة وعلى ذلك فنكون قد علمنا شيئاً من الصفة وجهلنا شيئاً آخر .

سابعاً : أن من نسب التفويض إلى السلف فقد أخطأ وتقول عليهم بغير علم ، و سيأتي مزيد تفصيل للأدلة على خطأ نسبة التفويض إلى السلف .

ثامناً : أنه ينبغي التفريق بين تفويض معنى الصفة ، وبين تفويض كيفية اتصاف الخالق ــ عز وتقدس ــ بها ، فإن الأول : وهو تفويض المعنى باطل ، لما قدمنا من أن السلف قد تكلموا في تفسير آيات القرآن وبيان معانيه ومنها آيات الصفات ، ولــم يفوضوا معانيها ــ كما يحكي عنهم بغير وجه حق ــ ولذلك قيل : الاستواء معلوم ، وكذلك يقال في جميع صفات الله ــ تعالى ــ ، فيقال :

الســمع معــلوم والكيف مجهول ، والمحبة معلومة ، وكيفيتها مجهولة ، والرضى معلوم ، وكيفيته مجهولة... وهكــذا في جميع الصفات العلية ، فمن سأل عن معنى الاستواء فإن الاستواء معناه معلوم ، في لغة العرب ، فنبين له هذا المعــنى ، فإن سأل عن الكيف ، قلنا له الكيف مجهول لنا ، لا نعلمه ولا ينبغي أن تسأل عنه ، وهذا معنى قولنا أن السلف قــد فسروا آيات الصفات وبينوا معانيها ، ولم يفوضوا المعنى فلم يقولوا : لا نعلم معناها ، أو أن معناها غير مفهوم ، فهذا هو الخطأ الذي ينسبه المؤولة إلى السلف الكرام . وأمــا الــثاني : وهو اطلاق لفظ تفويض الكيفية ، ففي رأيي أنه ــ وإن كان معناه صحيحاً ــ إلا أنه لا يسوغ استعماله لأمور :

---

(١) تلقيت عنه ــ حفظه الله ــ هذا الكلام شفاهاً .

الأول : عدم ورود استعماله عن أحد من السلف .

الـــثاني : أنـــه قد يكون استعماله سبباً في الخلط بينه وبين الاطلاق الفاسد الذي ينسبه المؤولة دائماً إلى السلف الكرام ، أو يتكلم به من حسنت نيته ، ولكن قل حظه من الفهم الدقيق لمذهب السلف ، فيعتقد التفويض على المعنى الغير صحيح .

الثالث : أن التعبير عنه بما ورد عن السلف والأئمة أولى فإنهم كانوا يعبرون عن هذا المعنى بقولهم : بلا كيف ،

أو : الكيف مجهول ،

أو : الكيف غير معلوم ،

أو : لا يقال كيف ،

أو : نثبت الصفة على ما يليق بجلاله وكماله

ــ جلا وعلا ــ فهذا كله بمعناه .

ولـــم يرد عن واحد منهم ــ فيما أعلم ــ أنه قال : أنا أفوض الكيف ، أو أفوض الكيفية ، فإنه لما كثر اتهام المؤولة للسلف بالتفويض ، ولم يتركوا مناسبة أو مناظرة أو تأليف إلا اتهموهم بذلك ، اضطر الباحثون إلى أن يقولوا : إن التفويض الذي عند السلف هو تفويض الكيفية ، وليس التفويض الذي تذهبون إليه ، ولكن لفظ التفويض لم يرد عنهم لا في المعنى ولا في الكيفية ، ولكنهم ــ كما قلت ــ كانوا يعبرون عنه بقولهم : الكيف مجهول ونحوه كما سبق .

فإن كان المؤولة قد نسبوا إلى السلف القول بالتفويض وهو لم يتكلموا به ، فكيف لو به تكلموا ؟؟..

والمقصـــود بيان أن القول بأن صفات الله تعالى من المتشابهات ــ هكذا باطلاق ــ غير صحيح ، وأن هذا الاطـــلاق هـــو الذي أدى بأكثر المتكلمين إلى تأويلها [1] تأويلاً هو في حقيقته تحريف للكلم عن مواضعه لذا وجب أن أبين معنى التأويل ، ثم موقف السيوطي منه .

المبحث الرابع : معنى التأويل في اللغة والاصطلاح :

المطلب الأول : التأويل في اللغة .

تدور مادة " آل " واشتقاقاتها في معاجم اللغة العربية على أربعة معان[2]

المعنى الأول : المرجع والمصير والعاقبة .

المعنى الثاني : التغيير .

المعنى الثالث : التفسير .

المعنى الرابع : الوضوح .

أما المعنى الأول : وهو المرجع والمصير والعاقبة :

---

(١) وقد يقال : إن المتكلمين أخذوا بمذاهب أهل التعطيل من الفلاسفة ومن تأثر بهم ، فأولوا الصفات العلى ثم تذرعوا أنها من المتشابه .

(٢) انظـــر :الأزهـــري: تهذيب اللغة (١٥/٤٣٧-٤٤٢) مادة " آل " ، وابن فارس معجم مقاييس اللغة (١/١٥٩-١٦٢) مادة " أول " ت: عبدالسلام هارون ط٢/١٣٨٩هـ-١٩٦٩م الحلبي/مصر ، وكذلك : مجمل اللغة (١/٢١٧) ت الشيخ هادي حسن حمودي ط١/١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م الكويت ، ابن منظور : لسان العرب (١١/٣٢-٤٠) مادة " أول " ، والقاموس المحيط (٣/٣٢٠) مادة " آل " ، وتاج العروس (٧/٢١٤) مادة " أول " .

فيقـــال : آل يؤول أولاً ومآلاً : رجع[1] ، وآل عنه :ارتد ، وآل الملك رعيته : إذا ساسهم وأحسن رعيتهم ، وقيل ذلك لأنهم يرجعون إليه في أمورهم ، وآل الرجل أهله وأتباعه وأولياؤه ، يعني : من آل إليه بدين أو مذهب أو نسب[2] .

ويقـــال طبخت النبيذ حتى آل إلى الثلث أو الربع ، أي رجع ، والأيل (وهو الذكر من الأوعال) سمي بذلك لأنه يؤول إلى الجبال يتحصن فيها ، ومنه المآل والموئل : أي الملجأ[3] . قال الراغب : "التأويل : رد الشـــئ إلى الغايـــة المـــرادة منه قولاً أو فعلاً "[4] أي العاقبة ، وقال ابن فارس : " ومن هذا الباب تأويل الكلام ، وهو عاقبته وما يؤول إليه ، وذلك قوله – تعالى – : (هل ينظرون إلا تأويله)[5] يقول ما يؤول إليه في وقت بعثهم ونشورهم "[6] وقال أيضاً : " التأويل آخر الأمر وعاقبته ، يقال : إلى أي شئ مآل هذا الأمر ؟ أي مصيره وآخره وعقباه[7] .

<u>والمعـــنى الـــثاني :</u> التغيير : يقال آل اللبن والعسل والشراب ونحوه ، إذا خثر[8] ، والإيال : وعاء يُجمع فيه الشراب أياماً حتى يجود ، وآل جسم الرجل : إذا نحف[9] .

<u>والمعـــنى الـــثالث :</u> التفســـير : يقال : أول الكلام تأويلاً ، وتأوّله : دبره ، وقدره ، وفسره ، والتأويل والمعنى والتفسير واحـــد[10] . واستعمل بعض العلماء كلمة " مجاز " و " تفسير " و " تأويل " بمعنى واحد ، فيقول في تفسير القرآن : مجازه كذا ، وتفسيره كذا ، ومعناه كذا ، وغريبه ، وتقديره ، وتأويله ، على أن معانيها واحدة[11] .

وقال ابن جرير : " وأما معنى التأويل في كلام العرب : فإنه التفسير والمرجع والمصير[12] "

وقال الليث[13] : " التأويل والتأول تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ، ولا يصح إلا ببيان غير لفظه ، وأنشد :

" نحن ضربناكـــم على تـــنزيله   فاليوم نضربكم على تأويله[14] "

---

(١) لسان العرب (٣٢/١١) .
(٢) انظر : تاج العروس (٢١٦/٧) ، واللسان (٣٦/١١) .
(٣) انظر : تهذيب اللغة (٤٤٢/١٥) ، واللسان (٣٢/١١ ، ٣٣ ، ٣٥) .
(٤) المفردات (ص٣١) ، السيد محمد المرتضي الزبيدي : تاج العروس (٢١٥/٧) .
(٥) سورة الأعراف ، بعض الآية (٥٣) .
(٦) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة (١٦٢/١) .
(٧) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (ص١٩٣) ت مصطفى الشويمي – ط بدران ١٣٨٢هـ – ١٩٦٣م – بيروت .
(٨) لسان العرب (٣٤/١١، ٣٥) .
(٩) انظر : ابن فارس : مقاييس اللغة (٥٩/١) مادة " أول " ت عبدالسلام هارون سنة ١٣٦٦هـ.
(١٠) انظر : لسان العرب (٣٣/١١) .
(١١) انظر : ابو عبيدة : مجاز القرآن (١٨/١-١٩) مقدمة المحقق : فؤاد سزكين .
(١٢) جامع البيان (١٨٤/٣) .
(١٣) لسان العرب (٣٣/١١) .
(١٤) اللسان (٣٣/١١) .
والبيتان في ديوان عبدالله بن رواحة – رضي الله تعالى عنه – وصوابهما :

نحن قتلناكم على تأويله   كما قتلناكم على تنزيله

(ص١٠١ ، ١٠٢) ت : حسن محمد باجودة ط السنة المحمدية ١٩٧٢م – القاهرة . وأصل البيتين في حديث أنس – رضي الله عنه – عند الترمذي في " سننه " (٦٣/٨ ، ٦٤) – كتاب الأدب – باب ما جاء في انشاء الشعر ، ح رقم (٢٨٥١) وفيه أن النبي – صلى الله عليه وسلم – دخل مكة في عمرة القضاء ، وعبدالله بن رواحة – رضي الله عنه – يمشي بين يديه وهو يقول :

خلو بني الكفار عن سبيله   اليوم نضربكم على تنزيله

<u>المعنى الرابع :</u> الوضوح ، ويقال في ذلك :

آل البعير : ألواحه وما أشرف من أقطار جسمه ، والآل : ما أشرف من السراب وأطراف الجبل[١] ، وهذه المعاني الأربعة لكلمة " التأويل " ترجع إلى معنيين اثنين فقط ، فالتغيير يرجع إلى معنى العاقبة والمصير ، والوضوح يرجع في معناه إلى معنى التفسير ، إذ أن التفسير معناه الكشف والبيان[٢] .

المطلب الثاني: التأويل في الاصطلاح .

وفيه مسألتان :

١- التأويل في استعمال السلف .

٢- والتأويل في اصطلاح المتأخرين من المتكلمين والفقهاء والأصوليين.

<u>أولاً: التأويل في استعمال السلف :</u>

مع البحث وجدنا التأويل في استعمال السلف يطابق معناه اللغوي الذي قدمته : فيأتي بمعنى العاقبة ، وهو الغالب في استعمال القرآن الكريم ، والكلام بصفة عامة خبر وانشاء[٣] .

فتأويل الخبر : هو وقوع نفس الشئ المخبر به[٤] .

ومثاله في قول الله تعالى – عن يوسف – عليه السلام – (... ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجداً ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل ، قد جعلها ربي حقاً...)[٥]

فهذا التحقق للرؤيا هو تأويلها الذي آلت إليه ، وقد وقعت على وفق ما أخبر به يوسف –عليه السلام– ، والعالم بتأويل الرؤيا هو الذي يخبر به[٦] ، كما قال يوسف –عليه السلام– (... لايأتيكما طعام ترزقانه...)[٧] أي في المنام (إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما)[٨] أي قبل أن يأتيكما التأويل[٩] . وتأويل الرؤيا هو نفس مدلولها في الخارج[١٠] .

وأما الانشاء فهو أمور منها : الأمر والنهي

فتأويل الأمر : هو اتيان المأمور به ، وكذلك الطلب تأويله نفس الفعل المطلوب[١١] .

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

ولم يذكر فيه التأويل ، قال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه " وقارن بما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٠١/٧) .

(١) انظر : لسان العرب (٣٦/١١) .

(٢) انظر : اللسان (٥٥/٥) مادة " فسر " .

(٣) انظر : ابن تيميه ، تفسير سورة الاخلاص (ص١١٧) .

(٤) انظر : ابن تيميه : الاكليل (ص١٨) ضمن مجموع الرسائل الكبرى (ج٢) .

(٥) سورة يوسف –عليه السلام– بعض الآية (١٠٠) .

(٦) انظر الاكليل (ص١٩) .

(٧) سورة يوسف –عليه السلام– بعض الآية (٣٧) .

(٨) انظر الاكليل (ص١٩) .

(٩) انظر :الاكليل (ص١٩) .

(١٠) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٩٠/١٣) .

(١١) انظر : الاكليل (ص١٨) .

وتـأويل النهي : اجتناب المنهي عنه ، وهذه المعاني كلها تدل على أن التأويل هو العاقبة التي يؤول إليها الشئ ، وهي مصيره .

ويـأتي التأويل في كلام السلف كذلك بمعنى التفسير أي تفسير الكلام -سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه- فالتأويل والتفسير عندهم متقاربان أو مترادفان ، وهو اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم[١] .

ومن أمثلته :

قولـه - صـلى الله عـليه وسلم- يدعو لابن عباس -رضي الله عنهما- " اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل[٢] " فالتأويل هنا التفسير ، ولذلك قال ابن عباس -رضي الله عنهما- : " أنا ممن يعلم تأويله[٣] " وقال أيضاً : "التفسير على أربعة أوجـه : وجـه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لايعلمه إلا الله - تعـالى ذكره-[٤] " لذا قال ابن جرير : "وإن منه -أي القرآن- ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن[٥] " ومـن أمثلـته أيضاً قول جابر بن عبدالله -رضي الله عنه- في حجة النبي -صلى الله عليه وسلم- : " ... ورسول الله - صلى الله عليه وسلم- بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شئ عملنا به[٦] " قال ابن القيم -رحمـه الله- : " فعلمه -صلوات الله وسلامه عليه- بتأويله هو علمه بتفسيره وما يدل عليه ، وعمله به هو تأويل ما أمر به ونهى عنه[٧] " .

والـتأويل بمعـنى التفسيرهواستعمال أبي عبيد في مجاز القرآن ، وابن جرير الطبري في تفسيره ، وقد استعمله الامام احمد -رحمه الله- أيضاً بمعنى التفسير ، فقال في خطبة كتابه " الرد على الجهمية " : " الحمد لله الذي جعل في كل زمـان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ... ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، واطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب...[٨] " فالجاهلون -كما قال الإمام احمد رحمـه الله- يؤولـون الكـتاب العزيز تأويلاً باطلاً ، بمعنى أنهم يفسرونه تفسيراً مخالفاً للحق والصواب وهو في حقيقته تحـريف لكلام الله عن مواضعه ، ثم أخذ الإمام احمد يفسر ما شكت فيه الزنادقة من القرآن تفسيراً نيراً ينفى عنه تحريف الغـالين ، وانـتحال المبطـلين ، ويـرد كيد هؤلاء الزنادقة الذين ضربوا آيات القرآن بعضها ببعض وزعموا فيها الشك

---

(١) انظر : مجموع الفتاوي (٣٥،٣٦/٥) ، (٢٨٨/١٣) ، (٥٥/٣) ، أضواء البيـــــــان (١ /٣٢٩) ، الصواعق المرسلة (١٧٨/١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) جامع البيان (٣٣/١ ، ٣٤) ، وانظر الاتقان (٣/٢) ، معترك الأقران (١٠٤/١) .

(٥) جامع البيان (٣٤/١) .

(٦) نفسه (٣٣/١) .

(٧) صحيح مسلم (٨٨٧/٢) .

(٨) الصواعق المرسلة (١٨١/١) .

(٩) الرد على الجهمية والزنادقة (ص٨٥) ت - د. عبد الرحمن عميرة .

والتـــناقص ، فتناولها الإمام احمد شبهة شبهة ، يفندها ويبين وجه الحق فيها ، ثم يعقب بعد كل رد من هذه الردود فيقول : " فهـــذا تفسير ما شكت فيه الزنادقة "[١] فالإمام أحمـــد -تغمده الله برحمته- رد تأويل الجاهلين أهل البدعة الذين اطلقوا عنان الفتنة ، بتأويل العالمين اهل السنة والجماعة الذين يصدقون بالكتاب وبما أرسل الله تعالى به رسله ، ثم سماه تفسيراً ، وهكذا كان السلف يطلقون لفظ التأويل ، ويريدون به التفسير ، أو يريدون به العاقبة والمصير ، وهذا المعنى هو الغالب في القرآن الكريم.

ثانياً : التأويل عند المتأخرين :

فقد ظهر بعد عصر القرون المفضلة الثلاثة معنى آخر للتأويل غير الذى أثبته في المعنى اللغوي وفي هذا المعنى الإصـــطلاحي عند سلف الأمة ، ففي حين تمسك السلف وأئمة أهل السنة بالمعنى الصحيح في أصل اللغة وفي لغة القرآن الكريم فقد تغير مفهوم التأويل عند بعض العلماء المتاخرين ، واصطلح هؤلاء المتأخرون من المتفقهة، والمتكلمة والمحدّثة والمتصوفة ونحوهم ، على أن التأويل هو : صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به[٢] ، بيد أن ما يؤيد حداثة هذا الاصلاح أن من أقدم ما وصل إلينا من المعاجم اللغوية " تهذيب اللغة " لأبي منصور محمد بن احمـــد الأزهـــري[٣] المـــتوفي ســـنة (٣٧٠هـــ) وقد بين الأزهري معنى لفظ التأويل في تهذيبه هذا ولم يذكر ذلك الاصـــطلاح الحادث إنما ذكر المعنى الذي اتفقت عليه المعاجم اللغوية وهو : العود والرجوع[٤] ومما يزيد هذا الأمر تأكيداً ما نقله أبو الحسين احمد بن فارس ، المتوفي (سنة ٣٩٥هـــ) في " معجم مقاييس اللغة " عن معنى كلمة " التأويل " والذي لـــم يختـــلف عما قاله أبو منصور الأزهري ، فقد ذكر أن معنى التأويل هو الرجوع والعاقبة[٥] ، ولم يشر إلى هذا المعنى الحادث للتأويل.

ولعلنا – وقد عرفنا أن " تهذيب اللغة " و " معجم مقاييس اللغة " من نتاج القرن الرابع الهجري – ندرك أنه حتى هذا الوقت وهو القرن الرابع وبدايات القرن الخامس ، لم يكن التأويل يستعمل إلا بالمعنى اللغوي الذي ذكرناه .

ثـــم بعـــد ذلك وفي خلال القرن السابع نجد ابن منظور ، ينقل عن ابن الأثير ، في معنى التأويل " أنه نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ[٦] " .

وكذلـــك الـــزبيدي في " تاج العروس " ينقل نفس المعنى عن السبكي ، وابن الجوزي ، وكلاهما ليسا من رواة الـــلغة وإنمـــا كل منهما بين فقيه وأصولي ، ومن هنا يزداد تأكيدنا على ما قلناه من أن هذا المعنى الحادث للتأويل لم يكن

---

(١) ردد الإمام احمد -رحمه الله- هذه العبارة كثيراً في كتابه :الرد على الجهمية والزنادقة انظر مثلاً الصفحات :(٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١) .

(٢) انظر :الأكليل (ص١٧) ، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (جـــ ٢) .

(٣) محمد بن احمد بن الأزهر الهروي ، أبو منصور ، أحد الأئمة في اللغة والأدب مولده في هراة بخراسان (٢٨٢هـــ ٨٩٥م) ووفاته بها (٣٧٠هـــ ٩٨١) نسبته إلى جده " الأزهر " ، انظر : وفيات الاعيـــــان (٥٠١/١) ، ارشاد الأريب (٢٩٧/٦) ، أداب اللغة (٣٠٨/٢) ، الاعلام (٣١١/٥) .

(٤) انظر : (٤٣٧/١٥) مادة " أول " ت : ابراهيم الابيار سنة ١٩٦٦م – القاهرة .

(٥) انظر : مقاييس اللغة (١٥٩/١) ، وتهذيب اللغة (٤٤١/١٥) .

(٦) لسان العرب (٣٣/١١) ، ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث (٨٠/١) .

معــروفاً لدى القرون الأولى ، ولم يظهر في دواوين اللغة العربية إلا فيما وضع متأخراً مثل : " لسان العرب " و " تاج العروس " وكلاهما من نتاج القرن السابع الهجري .

ولا يبعد أن نقول : إنما تأثرت معاجم اللغة المتأخرة بهذا المعنى بعد ظهور مقالات الفرق المختلفة ، كالمعتزلة ، والأشاعرة ، والماتريدية ، وخاصة بعدما استفحل أمر الفلاسفة والمتكلمين .

" فأبو منصور الماتريدي وهو من أعيان المائة الرابعة ، يعرف التأويل بقوله : " هو ترجيح أحد المحتملات بدون القطع[١] " وهذه تعتبر مرحلة مبكرة لمعنى التأويل الاصطلاحي عند المتكلمين[٢] " .

ثم أبو محمد بن حزم ، وهو من أعيان المائة الخامسة ، يذكر نحو ما قاله أبو منصور الماتريدي .

ويأتي بعده أبو حامد الغزالي وهو من أعيان المائة السادسة فيعرف التأويل بقوله : " احتمال يعضده دليل ، يصير به أغلب على الظن من المعنى الذي يدل عليه الظاهر ، ويشبه أن يكون كل تأويل صرفاً للفظ عن الحقيقة إلى المجاز[٣] " وهوالقول الذي يردده دائماً نفاة صفات الله تعالى فجعلونها كلها مجازاً لاحقيقة لها .

ثم الرازي وهو من أعيان المائة السابعة ، يذكر ما قاله الغزالي في " المحصول[٤] " ، أما في " أساس التقديس " فيعرف التأويل بقوله : " هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معناه المرجوح مع قيام الدليل القاطع على أن ظاهره محال[٥] " والدليــل القاطع عند الرازي هو دليل العقل وليس دليل النقل[٦] وهكذا ترسخ المعنى الحادث للتأويل حتى أفسحت له معاجم الـــلغة مكانـــاً بجانب معناه الصحيح الذي عرف في لغة العرب ، ونزل به القرآن الكريم ، وتحدث به إمام البلغاء ، وسيد الفصحاء محمد – صلى الله عليه وسلم – .

والخلاصة من هذا ما يلي :

أولاً : التأويل في اللغة له معنيان أساسيان وما زاد عنهما فهو راجع إليهما وهما :

التأويل : بمعنى العاقبة والمصير والرجوع . والتأويل : بمعنى التفسير .

ثانياً : أن هذين المعنيين هما اللذان تمسك السلف بهما ولم يزيدوا على مفهومهما شيئاً ، وظلا سائدين حتى القرن الرابع الهجري .

ثالــثاً : ظهــر المعنى الثالث للتأويل خلال القرن الرابع بعد وقوع الخلاف العقدي بين طوائف الأمة وحصول التفرق بين المســلمين ، وكان ظهور هذا المعنى الثالث في بيئة المتكلمين والفلاسفة ، لأن كل فرقة من الفرق لا يمكنها الاعتماد على ظاهر القرآن في تقرير مذهبها ، ومن ثم عمد كل منها إلى التأويل المحدث والغلو فيه ، لتأصيل مبادئها ، والتماس الدلائل على عقائدها .

---

(١) تأويلات أهل السنة (٢٤/١) ت . د . ابراهيم عوضين ، السيد عوضين ١٣٩١ هـ .

(٢) عــثمان بن علي حسن : منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعـــــة (٥٤٤/٢) مكتبة الرشد / الرياض – ط٣/١٤١٥ هـ – ١٩٩٥م .

(٣) المستصفى (٣٨٧/١) .

(٤) (٣/١ ، ٢٣٢) .

(٥) (ص ٢١١ ، ٢٢٢ ، ٤١١) .

(٦) نفسه .

رابعــاً : أن هــذا المعــنى المحدث للتأويل هو في حقيقته تحريف للكلم عن مواضعه ، وافتراء على كلام الله تعالى وكلام رســوله -صلى الله عليه وسلم- وبما أنه كذلك فإنه يحرم استعماله في تأويل صفات الله عز وجل ، ذلك لأنه يفضي إلى تعطيل الخالق -جل وعلا- عن صفاته العلية .

خامساً : أنه إن احتج المعطلة اليوم بوجود هذ المعنى في معاجم اللغة ، فإنه لاحجة لهم في ذلك لأن هذه المعاجم التي وجد فيها هذا المعنى إنما هي التي وضعت مؤخراً في القرن السابع وما بعده ، متأثرة بطغيان اشتهاره لدى المتكلمين والفلاسفة ، وأنه لايوجد في المعاجم القديمة التي لم يزد فيها شئ على ما نطقت به العرب .

وسيأتي -إن شاء الله- مزيد إيضاح لذلك عندما أبين موقف السيوطي من التأويل .

المبحث الخامس : التأويل عند السيوطي

تعــرض الســيوطي لــبيان معنى التأويل في معرض كلامه عن معرفة تفسير القرآن وتأويله ، وبيان شرف علم التفســير والحاجــة إليــه ، وذكــر معناه اللغوي الصحيح الذي نقلناه -فيما سبق- فقال : " التأويل أصله من الأول وهو الــرجوع[١] " وهــذا أحد المعنيين الصحيحين الذين ذكرناهما ، ولم يذكر السيوطي المعنى الثاني للتأويل وهو التفسير لكنه أردف مــا قالــه فــي معنى التأويل بعبارة أخرى حيث قال : " فكأنه صرف الآية إلى ما تحتمله من المعاني[١] " وهذا هو الخــلط الــذي يحصل عند كثير من المتأخرين فالسيوطي ذكر المعنى الصحيح ثم أردفه بالمعنى المحدث ليتقرر في ذهن القــارئ أن هذا هو معنى التأويل وقوله : " صرف الآية " معناها صرفها عن ظاهرها الراجح إلى معنى مرجوح تحتمله ، ثم فرق بين التأويل والتفسير وذكر في ذلك التفريق عدة آراء :

الأول : مــا حكــاه عن أبي عبيد وطائفة أن التأويل والتفسير بمعنى واحد[٢] ، وهذا موافق لما قاله أئمة أهل السنة كابن جريروابن تيمية وابن القيم وغيرهم .

الــثاني : مــا حكاه عن الراغب أن التفسير أعم من التأويل ، وأن التفسير أكثر استعماله في الألفاظ والمفردات ، وأن أكثر استعمال التأويل في المعاني والجمل ، وأكثر ما يستعمل في الكتب الالهية ، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها[٣]

الــثالث : أن التفســير بيان لفظ لايحتمل إلا وجهاً واحداً ، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلى واحد منها بما ظهر من الأدلة ، ولم يعز هذا القول لأحد[٤] ، وهذا يذكرنا بأحد الأقوال في تعريف المحكم والمتشابه ، حيث قيل : المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه ما كان محتملاً لأكثر من وجه ، وعليه فالآية التي لا تفسر إلا بمعنى واحد محكمة ، والتي تفسر بأكثر من معنى متشابهة ، ويكون بيان المعنى في الحالة الأولى تفسيراً ، وفي الثانية تأويلاً .

---

(١) الاتقان (١٧٣/٢) .

(٢) انظر : السابق نفسه ، وانظر : لسان العرب (٥٥/٥) مادة " فسر " ذكره عن ابن الاعــــرابي ، وذكره صاحب القاموس المحيــــط عن ثعلب ، انظــــــــــــر ترتيب القاموس المحيــط (٤٩٠/٣) .

(٣) انظــر : الاتقان (٢/ ١٧٣) ، المفردات (ص ٣٨٠) ولم أجد عند الراغب هذا التفصيل الذي ذكره السيوطي بل قال الراغب : " والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها ، وفيما يختص بالتأويل ، ولهذا قيل : تفسير الرؤيا وتأويلها " ا . هــ .

(٤) انظر : الاتقان (١٧٣/٢) .

وإذا احتمل الكلام أكثر من معنى وجب أن يوجه إلى واحد منها بقرينه تدل عليه ، وهذا أيضاً لا يخرج عن كون التأويل صرف للكلام عن ظاهره الراجح إلى معنى آخر مرجوح ، وهذا قريب من قول الغزالي : " يشبه أن يكون كل تأويل صرفاً للفظ عن الحقيقة إلى المجاز[١] " .

الرابع : قول الماتريدي : " التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا ، والشهادة على الله أنه عني باللفظ هذا ، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح ، وإلا فتفسير بالرأي وهو المنهي عنه .

والتأويل : ترجيح أحد المحتملات بدون القطع ، والشهادة على الله[٢] " .

على أن القطع بأن المعنى المراد من كلام الله تعالى كذا ، والشهادة على الله بذلك لا يمكن إلا إذا قام دليل مقطوع به ، وهذا الدليل لا يمكن تحصيله إلا من كلام الله تعالى نفسه ، كأن تفسر آية بآية أخرى ، أو من كلام رسونه – صلى الله عليه وسلم – وهذه هي أحسن الطرق التي ذكرها العلماء في تفسير كلام الله –جل وعلا[٣] " أما إن كان تفسيراً بالرأي فإنه لا يمكن لأحد القطع به والشهادة بأنه هو مراد الله تعالى .

وهذ التأويل الذي ذكره أبو منصور الماتريدي هو كما سبق أن قلناه – المرحلة المبكرة لشيوع التأويل بالمعنى المحدث الذي لم يكن معروفاً قبل ذلك .

الخامس : قول البغوي ، والكواشي[٤] : التأويل : صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية ، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط[٥] .

وهذا الذي قاله البغوي هو التفسير ، لأن تفسير الآية إذا وافق الكتاب والسنة ولم يخالفهما فهو تفسير للقرآن بالقرآن وبالسنة الصحيحة ، وهو المعنى المعتبر للتأويل الذي ذكره أبو عبيد ، وابن جرير وغيرهما من أئمة أهل السنة

ثم ذكر السيوطي أقوالاً أخرى لا تخرج عن هذه الأقوال الخمسة .

ويتلخص منها المعاني الثلاثة للتأويل :

١ – الأول وهو الرجوع والعاقبة والمصير .

٢ – التفسير .

٣ – صرف اللفظ عن ظاهره .

---

(١) المستصفى (٣٨٧/١) ، ونقلناه سابقاً .

(٢) الاتقان (١٧٣/٢) ، والماتريدي : تأويلات أهل السنة (٢٤/١) .
وقد نقلت معنى التأويل عنه فيما سبق عند الكلام عن التأويل عند المتأخرين .

(٣) انظر : ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير (ص ٩٢ ، ٩٣) ، وابن عثيمين : اصول في التفسير (ص ٢٧) ، د . فهد بن عبدالرحمن بن سليمان الرومي : بحوث في أصول التفسير ومناهجه (ص ٧٣ – ٧٧) .

(٤) هو : احمد بن يوسف بن الحسن بن رافع ابن الحسين بن سويدان ، الشيباني ، الموصلي ، موفق الدين ، أبوالعباس ، الكواشي ، عالم بالتفسير من فقهاء الشافعية ، من أهل الموصل ولد عام (٥٩٠ هـ = ١١٩٤ م) وتوفي عام (٦٨٠ هـ – ١٢٨١ م) نسبته إلى كواشة أو (كواشى) قلعة بالموصل . انظر : النجوم الزاهرة (٣٤٨/٧) ، الاعلام (٢٧٤/١) .

(٥) الاتقان (١٧٣/٢) .

وهذه هي المعاني التي ذكرناها من قبل ، فأهل السنة يتمسكون بالمعنيين الأول والثاني والمؤولة يتعلقون بالمعنى الثالث ، لأنه أساس مذهبهم في تأويل الصفات .

والسـيوطي من الذين أخذوا بالمعنى الثالث فقد انتهج في باب الصفات منهج التأويل جرياً على مذهب الأشاعرة والماتريدية ، وهو منهج معروف في التجهم والتعطيل .

وقـد صاغه الرازي في قانون كلي يرجعون إليه ويسيرون عليه ، حيث قال : " اعلم : أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شئ ، ثم وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها بخلاف ذلك ، فهناك لا يخلو الحال من أمور أربعة :

١ - إما أن يصدق مقتضى العقل والنقل ، فيلزم تصديق النقيضين .

٢ - وإما أن نبطلهما ، فيلزم تكذيب النقيضين ، وهو محال .

٣ - وإما أن تكذب الظواهر النقلية ، وتصدق الظواهر العقلية .

٤ - وإمـا أن تصـدق الظواهـر النقلية ، وتكذب الظواهر العقلية -وذلك باطل- لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقـلية إلا إذا عرفـنا بالدلائل العقلية اثبات الصانع وصفاته ، وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول -صلى الله عليه وسـلم- وظهور المعجزات على يد محمد -صلى الله عليه وسلم- ، ولو صار القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل مـتهماً غيـر مقبول القول ، ولو كان كذلك لخرج عن أن يكون مقبول القول في هذه الأصول ، وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدة ، فثبت أن القدح في العقل لتصحيح النقل ، يفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً ، وإنه باطل ، ولما بطلت الأقسام الأربعة لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية ، القاطعة بأن هذه الدلائل النقلية : إما أن يقـال إنها غير صحيحة ، أو يقال : إنها صحيحة إلا أن المراد منها غير ظواهرها ، ثم إن جوزنا التأويل : اشتغلنا - عـلى سـبيل التـبرع بذكر تلك التأويلات على التفصيل وإن لم نجوز التأويل ، فوضنا العلم بها إلى الله تعالى ، فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في جميع المتشابهات[1] " .

وهذا القانون الكلي الذي وضعه الرازي يدل على أمر خطير :

هـو توهـم الـتعارض بين الظواهر العقلية والظواهر النقلية ، وهذا غير صحيح ، لأن الظواهر النقلية (القرآن والسـنة الصـحيحة) لايمكـن أن يكون بينها وبين مقررات العقل الصحيح تعارض ، لأن هذا التوهم قد أدي بهم إلى رد الاستدلال بما جاءت به الأنبياء والمرسلون في صفات الله تعال[2]ى وغير ذلك من الأمور التي أنبأوا بها ، وظن هؤلاء - الرازي وأمثاله - أن العقل يعارضها "وأما هذا القانون الذي وضعوه فقد سبقهم إليه طائفة ، منهم أبو حامد[3] وجعله قانوناً في جواب المسائل التي سئل عنها في نصوص أشكلت على السائل ، كالمسائل التي سأله عنها القاضي أبو بكر بن العربي

---

(١) أساس التقديس (ص ٢٢٠ - ٢٢١) .

(٢) الـتعارض بيـن العقل والنقل على فرض وجوده لايؤدي إلى رد الاستدلال بالشرع ، ذلك لان الشرع عندنا أهل السنة مقدم على العقل أصلاً ، إنما خطـأ المتكلمين في فصلين : أولهما : توهمهم أن بين ا لشرع والعقل تعارضاً والثاني : زعمهم أنه في حال التعارض يقدم العقل على الشرع وكلا الأمرين خطأ .

(٣) الاشارة هنا إلى كتاب : " قانون التأويل " الذي ألفه الغزالي ، ط عزت الحسيني - القاهرة ١٣٩٥ هـ - ١٩٤٠ م .

، وخالفه القاضي أبو بكر في كثير من تلك الأجوبة... ووضع أبو بكر بن العربي هذا قانوناً آخر مبنياً على طريقة أبي المعالي ومن قبله ، كالقاضي أبي بكر الباقلاني .

ومثل هذا القانون الذي وضعه هؤلاء ، يضع كل فريق لأنفسهم قانوناً فيما جاءت به الأنبياء عن الله ، فيجعلون الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه هو ما ظنوا أن عقولهم عرفته ، ويجعلون ما جاءت به الأنبياء تبعاً له ، فما وافق قانونهم قبلوه ، وما خالفه لم يتبعوه[١] " ومن فعل ذلك فهو على خطر عظيم ، لأنه جعل كلام الله وكلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - تابعاً لكلام البشر ، وجعل كلام البشر حاكماً على كلام الله -جل وعلا- وكلام الله -عز وجل- محكوماً عليه ، والواجب أن يكون كلام الله -عز وجل- مهيمناً على سائر الكلام ، فهو كلام العزيز العظيم ، فإذا كان كلام البشر هو الأصل المعول عليه ، فما فائدة النبوة والرسالة ؟ وما هي فائدة الوحي الذي يوجه البشر إلى خير الدنيا والآخرة ؟

إن هذا القانون الذي وضعه المتكلمون ، إنما وضعوه بسبب ما لبسوا به على أنفسهم ، بتعظيم العقل وتمجيده ، وظنهم أنه مقدم على الشرع فلما تعارضت عندهم الأصول العقلية التي قرروها بعيداً عن الشرع مع النصوص الشرعية ، وقعوا في مأزق : إما رد الكل ، أو أخذ الكل ، فوجدوا في التأويل مهرباً عقلياً ومخرجاً من التعارض الذي أنتجه منهجهم العقلي . ولهذا قالوا : إننا مضطرون للتأويل ، وإلا أوقعنا القرآن في التناقض ، وإن الخلف لم يؤولوا عن هوى ومكابرة ، وإنما عن حاجة واضطرار ، فهذا هو الذي أنتجه العقل الذي استخدم بعيداً عن الكتاب والسنة ، انتج توهم التناقض في نصوص الوحي المنزل من عند الله تعالى ، وقولهم : إننا مضطرون لا يعذرهم أمام الله .

ومما يجدر بيانه حتى تتم الحقيقة أن مذهب السلف لا تأويل فيه لنص من النصوص الشرعية اطلاقاً ، ولا يوجد نص واحد - لا في الصفات ولا في غيرها - اضطر السلف إلى تأويله ولله الحمد ، وكل الآيات أو النصوص التي ذكروها عن السلف أنهم أولوها ، فإنه ليس تأويلاً وإنما النصوص تحمل في نفسها ما يدل على المعنى الصحيح الذي فهمه السلف منها[٢] والذي يدل على تنزيه الله تعالى دون أدنى حاجة أو أدنى اضطرار إلى التأويل .

إذا تقرر هذا ثم نظرنا في كلام السيوطي الذي سنورده الآن -إن شاء الله- قطعنا بأن السيوطي كان متأرجحاً بين التفويض والتأويل[٣] ، وزعم أن التفويض هو مذهب السلف والتأويل مذهب الخلف ، وهو بذلك لم يصب وجه الصواب في نسبة التفويض للسلف كما سيتبين لنا من خلال البحث، وله قصيدة في التفويض نقل ابن العماد منها هذه الأبيات:

فوض أحاديث الصفات	۞	ولا تشبه أو تعطل
إن رمت إلا خوضاً في	۞	تحقيق معضلة فأول
إن المفوض سالم	۞	مما تكلفه المؤول[٤]

---

(١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (١/٥ ، ٦) .

(٢) انظر موقف الامام احمد من التأويل في آخر هذا الفصل .

(٣) انظر : احمد الخازندار ، ومحمد ابراهيم الشيباني : دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها ، ط١ / ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م - مكتبة ابن تيمية - الكويت ، وانظر : محمد عبدالرحمن المغراوي : المفسرون بين التأويل والاثبات لآيات الصفات (١٨١/٢ ، ١٨٢) دار طيبة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

(٤) انظر : ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب (٥٤/٨) .

وللسيوطي مؤلف مستقل في تأويل الأحاديث التي تثبت الصفات لله جل وعلا ، سماه : " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه[1] " وقوله " الموهمة " لفظة سيئة غير موفقة ، لأنها تصف كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- بأنه يؤدي إلى الايهام ، والوهم والتوهم خطرات يتخيلها القلب غلطاً[2] ، ووصف كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه يوقع الخطرات السيئة في قلب الإنسان بحيث يتخيل الغلط في حق الله جل وعلا مناقض لما وصفه الله تعالى به في قوله : (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى)[3] ومناقض كذلك لقوله -صلى الله عليه وسلم - لعبدالله بن عمرو : " اكتب ، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق "[4] . ولقوله أيضاً : " إني لا أقول إلا حقاً "[5] .

فالسلف الصالح وأهل السنة عموماً لم يتوهموا من نصوص الوحيين تشبيهاً لخالقنا -جل وعلا- بل فهموا منها معاني الكمال والجمال والجلال ، ولم يدر بخلدهم يوماً بل لحظة أنها تشبه الباري -عز اسمه- بخلقه .

لكن أهل البدع لما كانوا لا يفهمون من صفات الرب -جل جلاله- إلا مثل ما يفهمونه من صفات المخلوقين ، عطلوا الرب سبحانه عن أسمائه وصفاته ، وهذا من جهلهم بالكتاب والسنة فهم شبهوا أولاً ، ثم عطلوا ثانياً ، وهما محذوران أحلاهما مر .

لقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يذكر لأصحابه صفات ربه -تبارك وتعالى- ولم يستنكروا شيئاً منها ، فلو كانت موهمة للتشبيه لبادروا إلى السؤال والاستفهام عن مغزاها ، أو لقالوا مثلاً : وهل يشبه الرب خلقه ؟؟ أو لقالوا مثلاً : وهل صفات الله من جنس صفات خلقه ؟؟ أو نحو ذلك كما قال أحدهم : أو يضحك ربنا ؟؟ قال : " إي والذي نفسي بيده إنه ليضحك " قال : فقلت : إذاً لا يعد منا منه خيراً إذا ضحك[6] . وهذا وإن كان سنده ضعيفاً ، لكن يدل على أن الصحابة -رضي الله عنهم- لو استشكلوا آيات الصفات وأحاديث الصفات وتوهموا منها تشبيهاً لبادروا بالسؤال ، ولكنهم لسلامة فطرهم ، وعدم تلوثها بالعقائد الفاسدة لم يستنكروا ولم يستشكلوا شيئاً منها ، بل أقروا بها وآمنوا وأثبتوا ما دلت عليه ، وعلموا أن الله (ليس كمثله شئ)[7] لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله (وهو السميع البصير)[1] بخلاف آيات الأحكام ، فإنهم يستشكلون كثيراً منها ، فيبادرون إلى السؤال والاستفصال عما أشكل ، يبين هذا العلامة ابن

---

(١) ضبط وتعليق : البسيوني مصطفى ابراهيم الكومي - دار الشروق - جده ، ط١/١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م .

(٢) انظر : لسان العرب (٦٤٣/١٢) .

(٣) سورة النجم ، الآيتان (٣ ، ٤) .

(٤) رواه احمد في " المسند " (١٦٢/٢ ، ١٩٢) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤١٨/٧) .

(٥) رواه الامام احمد في " المسند " (٣٤٠/٢) ، (٣٦٠/٢) ، والترمذي من طريق سعيد المقبري ، أنظر : تحفة الأحوذي ، أبواب البر ، باب " ما جاء في المزاح " ح رقم (٢٠٥٨) (١٢٦/٦ ، ١٢٧) .

(٦) أخرجه الامام احمد في " المسند " (١١/٤ - ١٢) ، وابن ماجه -في " سننه "- المقدمة (٦٤/١) باب (١٣) فيما انكرت الجهمية - عن أبي رزين .
والحديث اسناده ضعيف لوجود ثلاثة من الضعفاء في سنده وهم :
١ - موسى بن خاقان ، وهو متكلم فيه - انظر : الميزان (٢٠٣/٤) .
٢ - سلم بن سالم البلخي ، قال ابن حجر : " اتفق المحدثون على تضعيف رواياته " راجع : الجرح والتعديل (٢٦٦/٤) ، الميزان (١٨٥/٢) ولسان الميزان (٦٤/٣) .
٣ - خارجة بن مصعب بن خارجة ، أبو الحجاج السرخسي ، متروك ، انظر : التهذيب (٧٦/١) والتقريب (٢١٠/١) .

(٧) سورة الشورى ، بعض الآية (١١) .

القيم بطريقة أوضح فيقول : " تنازع الناس في كثير من الأحكام ولم يتنازعوا في آيات الصفات وأخبارها في موضع واحد ، بل اتفق الصحابة والتابعون على اقرارها وامرارها مع فهم معانيها ، واثبات حقائقها ، وهذا يدل على أنها أعظم النوعين بياناً ، وأن العناية ببيانها أهم ، لأنها من تمام تحقيق الشهادتين ، واثباتها من لوازم التوحيد ، فبينها الله سبحانه وتعالى ورسوله بياناً شافياً لا يقع فيه لبس يوقع الراسخين في العلم في منازعة ، ولا اشتباه "(١) .

" وآيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس ، وأما آيات الصفات فيشترك في فهم معناها الخاص والعام ، أعني فهم أصل المعنى ، لا فهم الكنه والكيفية ... "(٢) .

والمهم الذي ينبغي أن يعلم أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يتكلم بأحاديث موهمة للتشبيه ، إنما أهل البدع لا يفهمون من ذكر آيات وأحاديث الصفات إلا ما يقتضي التشبيه ، فالباطل نشأ من فهم عقولهم مع أنهم يزعمون أنهم هم وحدهم أهل الحذق في المعقول ، وأنهم أعلم وأحكم من السلف الصالحين .

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وقال ابن القيم أيضاً : " ولهذا أشكل على بعض الصحابة(٣) قوله : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود)(٤) حتى بين لهم بقوله : (من الفجر)(٢) ولم يشكل عليه ولا على غيره قوله : (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)(٥) وأمثالها من آيات الصفات ، وأشكل على عمر بن الخطاب آية الكلالة ، ولم يشكل عليه أول الحديد وآخر الحشر وأول سورة طه ونحوها من آيات الصفات ، وأيضاً فإن بعض آيات الأحكام مجملة عرف بيانها بالسنة ، كقوله تعالى : (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك)(٦) فهذا مجمل في قدر الصيام والاطعام فبينته السنة "(٧).

قال السيوطي في كتابه المذكور(٨) : " التأويل مندرج في التوحيد اندراج المقدمة في البرهان ، غير أن من السلف من٩

---

(١) انظر : من الصواعق المرسلة الأصل الذي حققه د . علي بن محمد الدخيل الله (٢٠٩/١ - ٢١١) ط١ / ١٤٠٨ هـ - دار العاصمة - الرياض .

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (ص ١٥) .

(٣) يشير إلى قصة عدي بن حاتم –رضي الله عنه– فيما رواه البخاري عنه بسنده قال : " أخذ عدي عقالاً أبيض وعقالاً أسود ، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا ، فلما أصبح قال : يارسول الله جعلت تحت وسادي ، قال : " إن وسادك إذاً لعريض إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك " رواه البخاري في صحيحه – كتاب التفسير (٦٥) سورة البقرة (٢) باب (٢٨) ح رقم (٤٥٠٩) انظر فتح الباري (١٨٢/٨) .

(٤) سورة البقرة ، بعض الآية (١٨٧) .

(٥) سورة البقرة ، بعض الآية (١٨٦) .

(٦) سورة البقرة ، بعض الآية (١٩٦) .

(٧) فيما رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٥) ح رقم (٤١٥٩) عن كعب بن عجرة –رضي الله عنه– انظر الفتح (٧/ ٤٤٤ ، ٤٤٥) .

ورواه مسلم في " صحيحه " (٨٥٩/٢ ، ٨٦٠) كتاب الحج (١٥) ، باب (٩) ح رقم [٨٠ - (١٢٠١)] .

ولفظ الحديث في صحيح البخاري : عن كعب بن عجرة أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– رآه وقمله يسقط على وجهه ، فقال : أيؤذيك هوامك ، قال : نعم ، فأمره رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يحلق وهو بالحديبية ، لم يبين لهم أنهم يحلون بها وهم على طمع أن يدخلوا مكة ، فأنزل الله الفدية ، فأمره رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يطعم فرقاً بين ستة مساكين ، أو يهدي شاة ، أو يصوم ثلاثة أيام " .

(٨) " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " .

أمرها على ما وردت ، وأمر بالكف عن التأويل حذاراً على القلب من الزيغ ، وعلى اللسان من الطغيان ، وإنما حذر غير الراسخين في العلم من الخوض بلا بصيرة ولا إيقان "[١] .

ولنا على هذا الكلام عدة ملاحظات :

أولاً : قوله : " التأويل مندرج في التوحيد اندراج المقدمة في البرهان " بمعنى أن التوحيد مبني على التأويل ، أي أنه إذا كانت المقدمة ضرورية لانتاج البرهان ، فالتأويل ضروري في تحقيق التوحيد ، وإذا كان لا برهان من غير مقدمات فإنه لا توحيد من غير تأويل .

وهـذا كـلام محدث لم يقله أحد من السلف ، ولم يقله أحد من علماء السنة . بل التواتر وارد عن السلف وعلماء السنة في ذم التأويل وتبديع من ينتهجه ، فضلاً عن الأئمة الذين نقل السيوطي نفسه عنهم أنهم أمروا بترك التعرض لآيات وأحاديث الصفات بالتأويل ، وسيأتي ذكرهم -إن شاء الله تعالى- وقد صنف بعض العلماء في ذم التأويل وابطاله منهم : القاضي أبو يعلى[٢] ، والشيخ موفق الدين ابن قدامة [٣] ، وهو الذي حكى عن غير واحد إجماع السلف على عدم القول به .

ثانياً : قوله : " غير أن في السلف من أمرها على ما وردت ، وأمر بالكف عن التأويل " هذا اعتراف منه بتقرير مذهب السلف الذين هم أهل القرون المفضلة ، ومن تبعهم من علماء أهل السنة والجماعة ، وقد قال ناظم " الجوهرة " وهو أشعري العقيدة :

" فكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف "[٤]

ولقـد صدق في قوله : فبقي العمل الذي يوافق القول ويطابقه ، وهذا عجيب من ناظم الجوهرة وحجة عليه ، وأعجب منه قـول شارح الجوهرة أيضاً : " ...والمراد بمن سلف من تقدم من الأنبياء والصحابة والتابعين وتابعيهم ، خصوصاً الأئمة الأربعـة المجـتهدين الذين انعقد الاجماع على امتناع الخروج عن مذاهبهم في الافتاء والحكم... "[٥] وهذا والله من العجب الـذي لا ينقضي منه العجب ، لأن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا على عقيدة الأشاعرة ، وكذلك الصحابة -رضي الله عنهم- والتابعون وتابعوهم فهؤلاء هم السلف الذين ندعوا دائماً إلى اتباعهم والتأسي بهم ، والسير على منهاجهم ، والنسج على منوالهم ، ولقد قلت إن هذا من العجب لأن الأئمة الأربعة الذي يمنع الشارح الخروج عن مذاهبهم بالإجماع ، لـم يكونوا كذلك على عقيدة الأشاعرة ، فهل كان أبو حنيفة أشعرياً ، وكذلك مالك والشافعي والإمام احمد كان أشعرياً ؟؟ أم أن الإمام أبا الحسن الأشعري هو الذي انخلع من الإعتزال ، وأعلن أنه على مذهب أحمد بن حنبل ؟؟ إن الصحيح هو

---

(١) السيوطي : تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١٠٦) - ت البسيوني الكومي .

(٢) لـه ردود على الأشعرية ، والكرامية ، والسالمية ، والمجسمة ، وابن اللبان ، من مؤلفاته كتاب : " ذم التأويل " ويسمى " ابطال التأويل " ، ذكره ابن تيميـة في " درء تعارض العقل والنقل " (١/ ١٦) ، (٥/ ٢٣٧) وذكره بروكلمان في الملحق (٣/ ٥٠٣) ولم يذكر أنه موجود ، والكتاب مطبوع منه ثلاث مجلدات طبعه حمود النجدي .

(٣) كتاب " ذم التأويل " مطبوع وسبق ذكره ، وانظر من هذا الكتاب (ص ١٤) ، (ص ١٧) ، (ص ٢٣) ، (ص ٢٧ في حكاية الاجماع) وكذلك (ص ٣٥) و (ص ٤٠) ، (ص ٤٢) .

(٤) ابراهيم اللقاني : جوهرة التوحيد ، بهامش تحفة المريد (ص ١٣١) ط الأخيرة -حلبي مصر ١٣٨٥هـ - ١٩٣٩م

(٥) السابق نفسه ، ومتى انعقد الإجماع على الامتناع عن الخروج عن مذاهبهم في الفتوى والحكم ؟؟ .

الـــثاني ، فقد ترك أبو الحسن مذهب الإعتزال في طوره الثالث والأخير وانتسب إلى الإمام احمد في مسائل العقيدة[١] ، فقد أصبح أبو الحسن الأشعري حنبلياً ، وما كان احمد بن حنبل يوماً أشعرياً ، وهذه من الأمور العجيبة التي انعكست في عقول الأشـــاعرة ، فهم في الفقه أحناف وفي العقيدة أشاعرة وكذلك في الفقه مالكية وفي العقيدة أشاعرة !! وفي الفقه شافعية وفي العقيدة أشاعرة ، وكذلك في الفقه حنابلة وفي العقيدة أشاعرة ، وهذا أمر يدعو إلى العجب فعلاً ، فإذا كان شارح الجوهرة يمـــنع الخـــروج عن مذاهب الأربعة العظام -رحمهم الله- فلم يترك عقيدة هؤلاء الأربعة فيخرج عنها هو وبقية الأشاعرة ويلـــتزموا عقيدة غيرهم وهي عقيدة الأشاعرة التي هي في حقيقتها عقيدة عبدالله بن كلاب ، وليست عقيدة الأشعري ، أما الإمام أبو الحسن الأشعري فقد برئ من المعتزلة وغيرهم وأعلن عقيدته فقال : " فإن قال قائل لنا : قد انكرتم قول المعتزلة والقدرية ، والجهمية ، والحرورية ، والرافضة ، والمرجئة فعرفونا قولكم الذي به تقولون ، وديانتكم التي بها تدينون ، قيل له : قولنا الذي نقول به ، وديانتنا التي ندين بها : التمسك بكتاب الله ربنا -عز وجل- ، وبسنة نبينا محمد -صلى الله عليه وســلم- ومـــا روى عن السادة الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل -نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، واجزل مثوبته- قائلون ، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الكامل ، الذي أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ، فرحمة الله عليه من إمام مقدم ، وجليل معظم ، وكبير مفهم... "[٢] فما هو قول شارح الجوهـــرة بعد هذا الكلام الرصين من أمامه الذي ينتسب إليه ؟؟ ولعل السيوطي كذلك كان قد اطلع على ما قاله الشيخ أبو الحسن -رحمه الله- فلعله كان انزجر عن التأويل الذي سود به صحائف كتابه المذكور[٣] .

غير أن قوله : " في السلف من أمرها... " الخ يشعر بأن بعضاً يسيراً من السلف قال ذلك ولكن الحقيقة أن السلف كـــلهم قاطـــبة الذين هم الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان لم يشذ أحد منهم عن هذا المعتقد الصحيح وهو قراءة آيات الصفات والإيمان بها وفهم معناها المراد وترك تأويل شئ منها ، وعدم البحث أو السؤال عن الكيف .

<u>ثالثاً :</u> قوله : بأن " السلف أمروا بالكف عن التأويل " حذاراً على القلب من الزيغ ، وعلى اللسان من الطغيان " .

وهذا أيضاً اعتراف من السيوطي بأن التأويل سبب للضلال ، وهو علامة على زيغ القلوب وطغيان الألسن ، وهذا هـــو الحـــق الذي يجب أن يتبع ، فإن السلف كانوا يخافون من أن يؤدي التأويل بأصحابه إلى الزيغ والضلال ، وهو الذي حـــدث بالفعل ، وقد حذر منه كتاب الله -جل وعلا- بقوله : (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابـــتغاء تأويلـــه)[٤] وقـــد سبق السيوطي علماء الكلام في رجوعهم عن معتقداتهم المخالفة لعقيدة السلف وتوبتهم من علم الكلام وما يحمله من تأويل ، فقد رجعوا من هذا إلى الانكفاف عن التأويل . ومن هؤلاء :

---

(١) انظر : ابو الحسن الاشعري : الابانة عن أصول الديانة (ص ٢٠) ت : د. فوقية حسين محمود ، ط١ / ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م - دار الأنصار - القاهرة . وابن عساكر : تبيين كذب المفتري (ص ١٥٨) ، الإمام محمد ابو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية (ص ١٦٢ ، ١٦٣) .

(٢) الابانة عن أصول الديانة (٧٠ ، ٧١) ت . د . فوقية حسين محمود -دار الانصار- القاهرة - ط١ / ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

(٣) هو الموسوم بـ " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " .

(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٧) .

الإمـــام الجويني -إمام الحرمين- فقد نقل السيوطي نفسه عنه أنه كان على مذهب الخلف في التأويل ثم رجع عنه[١] ، ولا مـــانع عـــندي من نقل كلام إمام الحرمين لتأييد كلام السيوطي عنه ، قال في " العقيدة النظامية " : " ...وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل واجراء الظواهر على مواردها... "[٢] ثم قال : " والذي نرتضيه رأياً ، وندين الله به عقداً : اتباع سلف الأمة ، فالأولى الاتباع وترك الابتداع "[٣] ثم قال : " وقد درج صحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و -رضـــي عـــنهم – عـــلى ترك التعرض لمعانيها[٤] ، ودرك ما فيها ، وهم صفوة الإسلام ، والمستقلون بأعباء الشريعة ، وكانوا لا يألون جهداً في ضبط قواعد الملة ، والتواصي بحفظها ، وتعليم الناس ما يحتاجون إليه منها ، فلو كان تأويل هذه الآيـــات والظواهـــر مســـوغاً ومحتوماً لأوشك أن يكون اهتمامهم بها فوق اهتمامهم بفروع الشريعة ، وإذا انصرم عصرهم ، وعصر التابعين على الإضراب عن التأويل ، كان ذلك قاطعاً بأنه الوجه المتبع... ومما استحسن من كلام إمام دار الهجرة – رضـــي الله عنه – وهو مالك بن أنس -رضي الله عنه- أنه سئل عن قوله تبارك وتعالى : (الرحمن على العرش اســتوى)[٥] فقـــال : " الإستواء معلوم ، والكيفية مجهولة والسؤال عنه بدعة ، فلنجر آية الإستواء والمجئ وقوله : (لما خلقت بيدي)[٦] على ما ذكرناه ، فهذا بيان ما يجب لله تبارك وتعالى "[٧] .

وقد سبقه قبل ذلك والده أبو محمد الجويني " والد أبو المعالي " (ت ٤٤٠ هـــ) .

فقـــد رجـــع فـــي آخر عمره إلى عقيدة السلف ، وشهد له بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع ، وكتب توبته بعنوان " النصيحة "[٨] .

ومن هؤلاء الذين رجعوا وندموا على إضاعتهم الأعمار في علم الكلام عموماً فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـــ) .

فقـــد ذكـــر أن الرازي عندما مرض مرض الموت أملى على بعض تلاميذه قال : " لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن "[٩] .

ومما قاله الرازي أيضاً في ذلك :

نهـــاية اقـــدام العقـــول عقـــــــال ... وأكثر سعي العالمين ضـــــــلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[١٠]

---

(١) انظر : معترك الإقران (١١٢/١) ، والاتقان (٦/٢) .

(٢) إمام الحرمين أبو المعالي عبدالملك الجويني : العقيدة النظامية (ص/٣٢)

(٣) نفسه . ونقل ذلك السيوطي عن الجويني في كتابه : الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع مخطوط – لوحة رقم (١٦٤/أ ، ب) .

(٤) بـــل تعرض السلف لمعانيها وتفسيرها ، أما الذي تركوه وحذروا منه هو كيفية اتصاف الباري جل وعلا بها ، فهذا لا يعلمه أحد من الخلق ، وكلام الجويني يدل على أنه لم يرجع إلى عقيدة السلف ، وإنما رجع إلى عقيدة التفويض الذي ظنّ أنه عقيدة السلف .

(٥) سورة طه ، الآية (٥) .

(٦) سورة ص ، بعض الآية (٧٥) .

(٧) العقيدة النظامية (ص / ٣٢ ، ٣٣) .

(٨) انظرها مطبوعة مع مجموع الرسائل المنيرية ، وطبعها المكتب الإسلامي معزوة إلى ابن شيخ الحزاميين وهو خطأ . ومناسبة فتواه هذه هي صدور مراسيم سلطانية بلعب أصحاب البدع ومنهم الأشاعرة على المنابر – انظر في ذلك المنتظم لابن الجوزي حوادث سنة ٤٣٣ وما بعدها .

(٩) طبقات الشافعية الكبرى (٩٠/٨) وانظر : سير أعلام النبلاء (٢١ / ٥٠١) .

(١٠) طبقات الشافعية الكبرى (٩٦/٨) ، وفيات الأعيان (٢٥٠/٤) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٠٨ ، ٢٠٩) .

وممن نحى ذلك الرجوع وأومأ إلى ذلك الندم أبو الفتح الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) ، في نهاية الأقدام فقال : " لعمري

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم[١]

ثم كذلك أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) بعدما صال وجال مع علم الكلام ، ومع الفلسفة ، ومع التصوف رجع إلى القرآن وإلى صحيح البخاري حتى مات وصحيح البخاري على صدره[٢] .

فرجوع إمام الحرمين إلى الاثبات وترك التأويل هو الحق الذي لا مرية فيه .

رابعاً : قول السيوطي : " وإنما حذر غير الراسخين في العلم من الخوض بلا بصيرة ولا إيقان " يدل على أن الراسخين في العلم لم يمنعوا من الخوض في التأويل ، والتأويل يتعلق بآيات الصفات ، وهو قد جعلها من المتشابه ، إذاً فالراسخون على هذا يعلمون تأويل المتشابه ، وقد قال في تفسير الآية : بأن المتشابه لا يطلع على علمه أحد ، لا الراسخون ولا غيرهم ، ونصر هذا القول ، وأخبر أنه مذهب الأكثرين من الصحابة والتابعين ، قال السيوطي : " واختلف أيضاً هل المتشابه مما يمكن الاطلاع على علمه ، أو لا يعلمه إلا الله على قولين ... وعلى الأول طائفة يسيرة ... وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم ، خصوصاً أهل السنة فذهبوا إلى الثاني وهو أصح الروايات عن ابن عباس ، قال ابن السمعاني : " لم يذهب إلى القول الأول إلا شرذمة قليلة "[٣] ثم قال : " ويدل لصحة مذهب الأكثرين ما أخرجه عبدالرزاق في تفسيره ، والحاكم في مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ قوله تعالى : (وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون في العلم آمنا به) ، فهذا يدل على أن الواو للإستئناف ، لأن هذه الرواية وإن ثبتت بها القراءة ، فأقل درجاتها أن تكون خبراً باسناد صحيح إلى ترجمان القرآن ، فيقدم كلامه في ذلك على من دونه "[٤] .

ثم هو هنا يقول بأن الراسخين يعلمون تأويله ، وهذا يعد تناقضاً واضحاً في كلام السيوطي ، وتذبذباً يبين وعدم ثباته على رأي واحد في هذه المسألة . غير أننا لو حملنا كلام السيوطي على أحسن وجوهه لقلنا إنه يريد القول بأن الراسخين يعلمون معاني المتشابه ، ويعلمون تفسيره غير أن الكيف في حق الله جل وعلا لا يعلمه أحد ، وهو معنى كلام شيخ الاسلام ابن تيمية الذي سبق أن نقلناه ، وهو يقرره في كل مناسبة .

وهذا الأليق أن نوجه إليه كلام السيوطي فهو في موضع نفي عن الراسخين علم المتشابه وفي هذا الموضع أثبته لهم ، وما من حل لهذا التعارض في أقواله إلا أن نقول إن المنفي هناك غير المثبت هنا فتنفك الجهة فالمنفي هو الكيف ،

---

(١) نهاية الأقدام (ص / ٣) . حرره وصححه الفرجيوم ، وانظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص ٢٠٩) ، ايثار الحق على الخلق (ص ١٤٠) .

(٢) انظر : ابن تيمية : السبعينية (٤٢/٥) ، ابن الجوزي : المنتظم (١٧/٩) ، السبكي : طبقات الشافعية (٢١٠/٦) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في " شرح العقيدة الأصفهانية " : (ص ١٢٣) عن الغزالي : " ...ولهذا تبين له في آخر عمره أن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده ، فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخاري ومسلم ومات في أثناء ذلك على أحسن أحواله ، وكان كارهاً ما وقع في كتبه من نحو هذه الأمور مما أنكره الناس عليه... " .

(٣) معترك الاقران (١٠٤/١ ، ١٠٥) ، والاتقان (٣/٢) .

(٤) معترك الاقران (١٠٥/١) ، والاتقان (٣/٢) .

والمثبت هو المعنى اللغوي ، غير أن هذا المعنى الذي اعتذرت به عن السيوطي قد يكون مستبعداً ، لأنه لم يصرح ولم يشر إليه ولو مجرد إشارة .

وإذا كان السيوطي قد اختار التأويل منهجاً فإنه أيضاً قال بالتفويض ، فهو مؤول مفوض .

صرح بذلك في مصنفه الموسوم بـ " الكوكب الساطع " حيث نظم وشرح فقال :

" وما أتي به الهدى والسنن من الصفات المشكلات نؤمن

بها كما جاءت منزهينا مفوضين أو مؤولينا "[١]

ثم شرح قائلاً : " ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة من الصفات المشكلة ظاهرها ، لا يهامه تشبيهاً ونحوه ، كقوله : (الرحمن على العرش استوى)[٢] و (يبقى وجه ربك)[٣] (ولتصنع على عيني)[٤] و (يد الله)[٥] ونحو ذلك فيه مذهبان لأهل السنة :

أحدهما : أنا نؤمن بها كما جاءت ونفوض المراد إلى الله تعالى ولانفسرها .

ثانيها : أنا نؤولها على ما يليق بجنابه وجلاله تعالى "[٦] .

فقوله " لإيهامه تشبيهاً ونحوه " عبارة أيضاً لا نقرها ولا نرتضيها ، لأن مؤداها أن كلام الله وكلام رسوله أوهام ، وهذا يندرج في إساءة الأدب مع الله عز وجل .

ثم قوله : " مذهبان لأهل السنة " هو يقصد بأهل السنة هنا " الأشاعرة " لأن أهل السنة حقيقة لا يفوضون ، ولا يؤولون ، فكلا المذهبين لا يقول به أهل السنة والجماعة المتبعون للسلف الصالح ولذلك ينبغي أن نحدد المعنى الصحيح لمصطلح أهل السنة ، ونبين لماذا يستعمل الأشاعرة دائماً مصطلح أهل السنة ويقصدون أنفسهم . كما يحلو للبعض أن يقول : الأشاعرة هم أهل السنة ، أو يقول : الأشاعرة والماتريدية هم أهل السنة . فإن هذا الكلام فيه توسع وتجاوز في التعبير ، لذلك نقول : السنة : هي ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه اعتقاداً واقتصاداً ، وقولاً وعملاً[٧]

ومصطلح " أهل السنة " له اطلاقان[٨] : (عام ، وخاص)

---

(١) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع ، مخطوط لوحة رقم (٤٢١) .

(٢) سورة طه ، الآية (٥) .

(٣) سورة الرحمن ، بعض الآية (٢٧) .

(٤) سورة طه ، بعض الآية (٣٩) .

(٥) سورة الفتح ، بعض الآية (١٠) .

(٦) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع ، مخطوط لوحة رقم (٤٢١) .

(٧) انظر : ابو الفرج عبدالرحمن بن رجب الحنبلي جامع العلوم والحكم (١٢٠/٢) - ت : شعيب الأرناؤوط ، ابراهيم باجس ط١ / ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م - مؤسسة الرسالة / بيروت لبنان وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٣٠٦/١٩ ، ٣٠٧) .

(٨) انظر : ابن تيمية منهاج السنة النبوية ، ت . د . محمد رشاد سالم ط ج الامام محمد بن سعود الاسلامية (٢٢١/٢) ، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) . الرياض ، وانظر السنة والشيعة محمد رشيد رضا (ص / ٤٥) مطبعة المنار ١٣٤٧ هـ مصر - ، مجموع الفتاوي (١٥٥/٤) ، والشاطبي : الموافقات (٤/٤) بشرح الشيخ عبدالله دراز بدون تاريخ ، وانظر الرد على المنطقيين لابن تيمية ٥٢٣ - دار المعرفة - بيروت .

- أما الاطلاق العام : فالمراد به ما يكون في مقابل الشيعة[٢] ، فتدخل جميع الفرق المنتسبة للإسلام -عدا الشيعة- في مفهوم أهل السنة . وعلى ذلك يصح تقسيم أهل الإسلام إلى سنة وشيعة ، أو يقال : المسلمون سنة وشيعة .

قال ابن تيمية : " فلفظ السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة ، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة... "[١] .

وأما الإطلاق الخاص : فالمراد به ما يكون في مقابل أهل البدع والمقالات المحدثة ، كالشيعة والخوارج ، والمعتزلة ، والجهمية ، والأشاعرة ، والمرجئة ، وغيرهم من أهل الزيغ والأهواء .

فهؤلاء قطعاً لا يدخلون في مفهوم أهل السنة بالمعنى الخاص ، قال ابن تيمية : " ...وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة ، فلا يدخل فيه إلا من أثبت الصفات لله تعالى ، ويقول : إن القرآن غير مخلوق وإن الله يرى في الآخرة ، ويثبت القدر ، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة "[٢] .

وعندما يقال في ترجمة أحد الأعلام : إنه صاحب سنة ، أو صاحب بدعة ، يريدون به الإطلاق الخاص .

وقد كان أئمة السلف يسمون الاعتقاد الصحيح " سنة "[٣] كما قال سفيان بن عيينة : " السنة عشرة ، فمتى كن فيه ، فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئاً فقد ترك السنة " ثم ذكر جملة من عقائد السلف[٤] .

وقال الإمام احمد بن حنبل : " أصول السنة عندنا : التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ... " ثم ذكر جملة عقائد السلف[٥] .

ويتضح من هذا أن اطلاق السيوطي لمصطلح أهل السنة هو الإطلاق العام ، ويقصد به الأشاعرة خاصة ، بدليل أن الأشاعرة هم الذين يفوضون أو يؤولون ، أما أهل السنة فليس لديهم في منهجهم تفويض ولا تأويل ، بل عقيدتهم اثبات الصفات كما جاءت عن الله تعالى وعن رسوله -صلى الله عليه وسلم- فهم يثبتون ولا يفوضون معاني الصفات - كما ذكر ذلك عنهم افتراءً عليهم - .

أما انتفاء التفويض عنهم فللأدلة الآتية :

أولاً : ما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تضمنت إثبات هذه الصفات الكريمة لله جل وعلا ، من الإستواء والمجيء والمحبة والرضا والغضب ... الخ فإن لم يكن المراد منها اثبات هذه الصفات كما وردت على مراد الله تعالى وكما يليق بجلاله وعظمته فما هو المقصود من ورودها إذاً ؟ .

---

(١) منهاج السنة النبوية (٢/٢٢١) ت د. محمد رشاد سالم ط ج الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م - الرياض - السعودية .

(٢) منهاج السنة النبوية (٢/٢٢١) .

(٣) انظر : ابن رجب : جامع العلوم والحكم (٢/١٢٠) ، ت شعيب الارناؤوط ، ابراهيم باجس وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٦٩/٣٠٦ ، ٣٠٧) .

(٤) انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة . للامام هبة الله بن الحسن اللالكائي (١/١٥٥ ، ١٥٦) برقم (٣١٦) ت احمد سعد حمدان - دار طيبة الرياض .

(٥) نفسه .

وكذلك الأحاديث الكثيرة التي لا تكاد تحصر الواردة من طرق صحيحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والآثار الواردة من طرق صحيحة أيضاً عن الصحابة وأمهات المؤمنين في أثبات الصفات العلية الكريمة ومنها :

١ - قوله -صلى الله عليه وسلم- : " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ؟ "[(١)] .

فهـذا مطابق لقوله تعالى : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير)[(٢)] .

٢ - قولـه -صلى الله عليه وسلم- : " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء "[(٣)]

فهـذا شـأن الذي قبله في مطابقته لآيتي سورة الملك ، وفيه اثبات صفة الرحمة واسم الرحمن كما قال تعالى : (الرحمن الرحيم)[(٤)] وقوله تعالى : (الرحمن ، علم القرآن)[(٥)] وقوله عز وجل : (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعو فله الأسماء الحسنى)[(٦)] وقوله - تعالى - : (وربك الغفور ذو الرحمة...)[(٧)] .

٣ - قولـه -صلى الله عليه وسلم- : " والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها "[(٨)] فهذا أيضاً كسابقه .

٤ - " احتج آدم وموسى ، وفيه : فقال له موسى : أنت آدم فيقولون له : أنت آدم الذي خلقك الله بيده... "[(٩)] الحديث .

٥ - حديـث أتى في الشفاعة وفيه " فيأتون آدم فيقولون له : أنت آدم أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته... "[(١٠)] الحديث .

فهذا والذي قبله يثبتان صفة اليد لله جل وعلا على ما يليق بجلاله وعظمته كما ورد ذلك في قوله تعالى :(يد الله فـوق أيديهم)[(١١)] وقوله جل وعلا : (بل يداه مبسوطتان)[(١)] وقوله عز وجل : (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون)[(٢)] .

---

(١) مـتفق عليه : - رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) ، باب (٦١) ح رقم (٤٣٥١) فتح الباري (٦٧/٨) - ورواه مسلم في " صحيحه " (٧٤٢/٢) كتاب الزكاة (١٢) باب (٤٧) ح رقم (١٤٤) - ورواه الامام احمد (٤/٣) .

(٢) سورة الملك ، الآيتان (١٦ ، ١٧) .

(٣) رواه أبـو داود في " سننه " رقم (٤٩٤١) والترمذي في " سننه " رقم (١٩٨٩) ، وقال : حسن صحيح ، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٠٠) .

(٤) سورة الفاتحة ، الآية (٣) .

(٥) سورة الرحمن ، الآية (١ ، ٢) .

(٦) سورة الإسراء ، بعض الآية (١١٠) .

(٧) سورة الكهف الآية (٥٨) .

(٨) رواه مسلم في " صحيحه " (١٠٦٠/٢) كتاب النكاح (١٦) باب (٢٠) ح رقم (١٢١ ، ١٢٢) .

(٩) مـتفق عـليه : البخاري في " صحيحه " كتاب القدر (٨٢) باب (١١) ح رقم (٦٦١٤) ، انظر الفتح (٥٠٥/١١) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (٤/ ٢٠٤٢) كـتاب القـدر (٤٦) بـاب (٢) ح رقم [(١٣-(٢٦٥٢)] ، وأبو داود (٧٦/٥) كتاب السنة باب (١٧) ، والترمذي (٤٤٤/٤) وابن ماجة في المقدمة (٣١/١) ومالك في الموطأ (٨٩٨/٢) والبغوي في شرح السنة (١٢٢/١) واحمد في المسند (٢٤٨/٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ، ٤٤٨ ، ٤٦٤)] .

(١٠) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) ، باب (٣٧) ح رقم (٧٥١٦) . انظر الفتح (٤٧٧/١٣) . ورواه مسلم في " صحيحه " (١٨٠/١) كتاب الايمان (١) باب (٨٤) ح رقم [٣٢٢ - (١٩٣)] .

(١١) سورة الفتح ، بعض الآية (١٠) .

وهكـذا كـثير من الأحاديث والآثار التي تثبت ذلك لله جل وعلا[٣] ، فهي لم ترد لنؤولها أو نفوضها ، بل وردت لنثبتها لله عز وجل وندعوه بها ونثني عليه ونحمده بهذه الصفات الجليلة التي تثبت له الكمال المطلق ، وإلا فمن أين لنا أن نعلم صفات الكمال الإلهي التي يستحقها إلهنا جل وعلا ؟ .

ثانيـاً : أن كـثيراً مـن المتقدمين الذين صنفوا في أصول العقائد نقلوا نقلاً صحيحاً أن مذهب السلف هو اثبات الصفات وليس تفويضها . فقد أخرج البيهقي من طريق أبي داود الطيالسي قال : كان سفيان الثوري ، وشعبة ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وشريك ، وأبو عوانه : لا يحددون ولا يشبهون ، ويروون هذه الأحاديث ، ولا يقولون كيف ، قال أبو داود وهو قولنا ، وقال البيهقي : وعلى هذا مضى أكابرنا[٤] .

وقال الترمذي : باب ما جاء في فضل الصدقة ، ثم روى حديث أبي هريرة مرفوعاً : " ما تصدق أحد بصدقة من طيـب ، ولا يقـبل الله إلا الطيب ، إلا أخذها الرحمن بيمينه ، وإن كانت تمرة تربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجـبل كمـا يـربي أحدكم فلوه أو فصيله " ثم قال : وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث ، وما يشبه هذا من الروايات في الصفات ، ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا قالوا : تثبت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يـتوهم ولا يقـال : كيـف ؟ هكذا روي عن مالك وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن المبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث : أمـروها بلا كيف ، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات ، وقالوا : هـذا تشـبيه ، وقـد ذكـر الله عـز وجـل في غير موضع من كتابه ، اليد ، والسمع ، والبصر ، فتأولت الجهمية هذه الآيـات ، ففسروها على غير ما فسر أهل العلم ، وقالوا : إن الله لم يخلق آدم بيده ، وقالوا : إن معنى اليد ها هنا القوة ، وقـال اسحاق بن ابراهيم (بن راهويه) إنما يكون التشبيه إذا قال : يد كيد أو مثل يد ، أو سمع كسمع أو مثل سمع ، فإذا قـال : سمع كسمع أو مثل سمع فهذا التشبيه ، وأما إذا قال كما قال الله تعالى : يد وسمع وبصر ولا يقول كيف ، ولا يقول مثل سمع ولا كسمع فهذا لا يكون تشبيهاً ، وهو كما قال الله تعالى في كتابه : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)[٥] .

وقد ورد عن الإمام أبي حنيفة مثل هذا[٦] ، وكذا الإمام مالك بن أنس[٧] ، والشافعي[٨] ، واحمد[٩] ، وكم هائل من العلماء والأئمة[١٠] .

---

(١) سورة المائدة ، بعض الآية (٦٤) .

(٢) سورة يس ، الآية (٧١) .

(٣) للمزيد من الوقوف على هذه الآثار والأحاديث التي تثبت صفات الله تعالى : ابن خزيمة : التوحيد واثبات صفات الرب ، ت . د . عبدالعزيز بن ابراهيم الشـهوان ، البيهقي : الأسماء والصفات ، العلو للعلي الغفار للذهبي ، شرح حديث النزول لابن تيمية ، الشريعة للأجري صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، سنن الترمذي ، وبقية كتب السنة ، وانظر كذلك مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية ، والصواعق المرسلة لابن القيم .

(٤) انظر : فتح الباري (٤٠٧/١٣) .

(٥) سنن الترمذي (٤١/٣) .

(٦) انظر : الفقه الأكبر (ص ٢) .

(٧) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢٢٠/٢) .

(٨) انظر : عون المعبود (٤١/١٣ ، ٤٧) .

(٩) انظر : اللالكائي : شرح اعتقاد أهل السنة (١٥٥/١) .

(١٠) انظر : اجتماع الجيوش الإسلامية معظم أبوابه .

ثالثاً : المفســرون للقرآن ، المتبعون للسلف المتمسكون بنهج أهل السنة ، أوردوا الأحاديث والآثار التي تثبت الصفات العلية عند تفسيرهم آيات الصفات وهذا دليل على أن مذهب أهل السنة هو الإثبات وليس التفويض ومن هؤلاء ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن كثير وغيرهم .

رابعاً : السيوطي عندما قال بأن أحد مذهبي أهل السنة التفويض ، لم يأت بقول أحد من السلف يؤيد هذا التفويض ، ونحن نقطع أنه لم يقل أحد من السلف بالتفويض لأنه لم ينقل عن أحد منهم أنه قال : إني أفوض آيات وأحاديث الصفات أو نسب إلى أحد الصحابة أنه فوض صفة من الصفات[(١)] .

خامساً : أن القول بالتفويض يستلزم أموراً باطلة منها :

١ - معارضـــة النصوص الشرعية وإبطالها وعدم الإلتفات لها ، وتقرير العقائد بمعزل عنها ، مع أن الفرض والواجب أن تكون هي أصل الدين والإعتقاد ، وأن تستنبط منها العقائد والأحكام ، إذاً فما فائدة الوحي وأهميته ؟ وما هي ضرورة النبوة ؟ إذا كنا نعتقد عقائد من عند أنفسنا ثم نصادم بها الوحي الإلهي فنبطله ؟ أو ندعي عدم فهمه ثم نفوض معناه إلى الله تعالى

٢ - أنه يستلزم القول بأحد أمرين :

إما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يعرف معنى الصفات ، بمعنى أنه جهلها ففوضها ، وكذلك الصحابة -رضي الله عنهم- .

وإمـــا أنهم علموا ولكنهم كتموا ولم يبينوا ، ولم يبلغوا ما أنزل إليهم من ربهم ، وكلا الأمرين فيه من الخطورة ما قد يقدح في دين المرء من أصله وأساسه .

قـــال في " إيثار الحق " : " والدليل على أنه لا يجوز القول بأن الصحابة والسلف الصالح لم يفهموا ذلك أو فهموا ولم يقوموا بما يجب عليهم من نصح المسلمين وبيان التأويل الحق لهم ، أمران :

الأول : قاطع ضروري ، وهو أن العادة توجب في كل ما كان كذلك أن يظهر التحذير منه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن أصحابه ، ويتواتر أعظم مما حذروا من الدجال الأعور الكذاب ، ولا يجوز عليهم مع كمال عقولهم وأديانهم أن يـــتركوا صـــبيانهم ونساءهم ، وعامتهم يسمعون ذلك منسوباً إلى الله ، وإلى كتابه ورسوله ، وظاهره كفر وهم سكوت عـــليه ، مـــع بـــلادة الأكثرين ، ولو تركوا بيان ذلك ثقة بنظر االعقول الدقيقة لتركوا التحذير من فتنة الدجال ، فإن بطلان ربوبيته أجلى في العقول من ذلك ، ألا ترى أن المتكلمين لما اعتقدوا قبح هذه الظواهر ، تواتر عنهم التحذير منها والتأويل لهـــا ، وصـــنفوا فـــي ذلك وأيقظوا الغافلين ، وعلموا الجاهلين ، وكفروا المخالفين ، وأشاعوا ذلك بين المسلمين ، بل بين العالمين ، فكان أحق منهم بذلك سيد المرسلين وقدماء السابقين ، وأنصار الدين "[(٢)]

الأمر الثاني : " أنه قد ثبت في تحريم الزيادة في الدين أنه لا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه من مهمات الديـــن ، وثبت أن الإسلام متبع لا مخترع ، ولذلك كفر من أنكر شيئاً من أركانه ، لأنها معلومة ضرورة ، فأولى وأحرى

---

(١) انظر : رضا بن نعسان معطي : علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين (ص ٣٠-٦٣) .

(٢) الامام محمد بن ابراهيم الوزير : ايثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد (ص / ٣٣٩) ، ت : احمد مصطفى حسين صالح - الدار اليمنية للنشر والتوزيع ١٤٠٥ هـــ - ١٩٨٥ م .

ألا يـجئ الشرع بالباطل ، منطوقاً به مكرراً من غير تنبيه على ذلك لا سيما إذا كان ذلك الذي سموه باطلاً هو المعروف في جميع آيات كتاب الله ... ولم يأت ما يناقضه في كتاب الله حتى ينبه على وجوب التأويل والجمع ، أو يوجب الوقف "[١]

٣ – أن القـول بالـتفويض مؤداه القول بأن نصوص الشرع (القرآن والسنة) تحمل معاني لا تليق بالله جل جلاله ، وقد التزم هذا بالفعل أهل التفويض والتأويل الذين يسمون بالخلف ، وهاك نماذج من أقوالهم تقشعر منها الأبدان :

قـال في شرح الكبرى : " وأما من زعم أن الطريق أبداً إلى معرفة الحق الكتاب والسنة ، ويحرم ما سواهما فالرد عليه : أن حجيتهما لا تعرف إلا بالنظر العقلي ، وأيضاً فقد وقعت فيهما ظواهر من اعتقدها كفر عند جماعة وابتدع "[٢] ، ويقول السنوسي أيضاً : " أصول الكفر ستة... " ذكر خمسة ثم قال :

" سادسـاً : التمسـك فـي أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير عرضها على البراهين العقلية ، والقواعد الشرعية "[٣] وهكذا يصبح البشر أوصياء على كلام الله وكلام رسوله ، فلا يقبلوا من كلامهما شيئاً حتى يعرضوه أولاً على عقول الرجال ليقرروا هل هو باطل أم حق –سبحان الله العظيم !!

فكيـف يتصـور أن نصـوص الشرع أتت بالباطل والكفر والضلال ، وأن الرسول –صلى الله عليه وسلم– وأصحابه لم ينبهوا الأمة لذلك .

وقد ردد السيوطي نفس هذا المنهج – أعني منهج التأويل – في رسالته في " علم التوحيد " [٤] فقال :

" ومـا ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات نؤمن بظاهره ، وننزهه عن حقيقته كقوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[٥]

وقوله تعالى : (ويبقى وجه ربك)[٦]

وقوله تعالى : (ولتصنع على عيني)[٧]

وقوله تعالى : (يد الله فوق أيديهم)[٨]

وقوله –صلى الله عليه وسلم– : " إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء "[٩] .

ثـم نفوض معناه المراد إليه تعالى كما هو مذهب السلف ، وهي أسلم ، أو نؤول كما هو مذهب الخلف فنؤول في الآيات : الاستواء : بالإستيلاء ، والوجه : بالذات ، والعين : بالبصر ، واليد بالقدرة ، والمراد في الحديث أن قلوب العباد

---

(١) السابق نفسه (ص / ٣٤٠) .

(٢) السنوسي : شرح الكبرى (ص ٥٠٢) .

(٣) نفسه ، وانظر فيما رداً على السنوسي من كلام الشيخ ابن تيمية (ص٢٢٢)

(٤) مخطوط – ورقة رقم (٤) .

(٥) سورة طه ، الآية (٥) .

(٦) سورة الرحمن ، بعض الآية (٢٧) .

(٧) سورة طه ، بعض الآية (٣٩) .

(٨) سورة الفتح ، بعض الآية (١٠) .

(٩) رواه مسلم في " صحيحه " (٤/٢٠٤٥) ، كتاب القدر (٤٦) باب (٣) ح رقم [١٧ – (٢٦٥٤)] ، والترمذي في " سننه " (٤/٤٤٨) ، كتاب القدر ، باب (٧) ، واستقصى طرقه ابن أبي عاصم في " السنة " (١/٩٨) .

كـــلها بالنسبة إلى قدرته تعالى شئ يسير يصرفه كيف يشاء كما يقلب الواحد من عباده اليسير بين إصبعين من أصابعه "[١]
والســـيوطي في هذا الموضع قد نسب فعلاً وصراحة التفويض إلى السلف ، وهو الذي نقضناه وأبطلناه بالدلائل القاطعة ، وقـــررنا أنه ليس بمذهب للسلف ، بل مذهبهم هو الاثبات للصفات كما وردت بها الآيات والأحاديث ، ولم ينس أن يقول : بأن مذهب السلف أسلم ، وهو القول الذي يردده دائماً أهل التأويل ، فيقولون : مذهب السلف أسلم ، ومذهب الخلف أحكم ، قـــال شيخ الإسلام ابن تيمية : " وقد كذبوا على طريقة السلف "[٢] يعني بنسبتهم إلى التفويض أو نسبة التفويض إليهم ، " وضـــلوا في تصويب طريقة الخلف ، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم ، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف "[١] . لكننا نقرر ونؤكد ، كما قرر وأكد علماء وأئمة أهل السنة ، أن طريقة السلف أسلم وأعلم وأحكم ، وأن طريقة الخلف ليست كذلك ، ولو أنهم اتبعوا طريقة السلف لكان خيراً لهم وأقوم وأكرم .

والســـيوطي مع تقريره بأن مذهب السلف أسلم إلا أنه جنح إلى التأويل كما نراه في تفسيره الجلالين ورسالته في عـــلم الـــتوحيد (مخطـــوط) وكتابه " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " وكلامه في معترك الأقران ، والكوكب الساطع (مخطوط) ، والكنز المدفون وغيرها .

وسنورد ذلك إن شاء الله في فصل توحيد الأسماء والصفات من الباب الثالث – عند الكلام عن الصفات الخبرية .

ولقـــد نقـــل الســـيوطي نفســـه من أقوال العلماء والأئمة ما ينقض منهجه في التأويل ، فقال : " أخرج أبو القاسم اللالكـــائي في السنة ، عن الحسن عن أمه ، عن أم سلمة في قوله : (الرحمن على العرش استوى)[٣] قال : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والاقرار به من الإيمان والجحود به كفر "[٤] .

ونقـــل عن الترمذي أيضاً قوله : " المذهب في هذا (يعني حديث الرؤية) عند أهل العلم من الأئمة – مثل سفيان الثوري ، ومالك وابن المبارك وابن عيينة ، ووكيع وغيرهم – أنهم قالوا : نروي هذه الأحاديث كما جاءت ، ونؤمن بها ، ولا يقال كيف ؟ ولا نفسر ولا نتوهم "[٥] .

ولم ينقل ذلك فقط بل نقل رجوع بعض العلماء عن مذهب التأويل فقال : " وكان إمام الحرمين يذهب إليه (يعني التأويل) ثم رجع عنه ، فقال في الرسالة النظامية : الذي نرتضيه ديناً وندين به عقداً ، اتباع سلف الأمة فإنهم درجوا على تـــرك الـــتعرض لمعانيها "[٦] " وقال ابن الصلاح : وعلى هذه الطريقة مضى صدر الأمة وساداتها ، واختار أئمة الفقهاء

---

(١) رسالة في علم التوحيد – مخطوط (ص ٤ ، ٥) ، والكوكب الساطع – مخطوط – (ص ١٦٤/ب) .
(٢) ابن تيمية : الفتوة الحموية الكبرى (ص ١٣) تقديم محمد عبدالرزاق حمزة ، ط المدني بمصر ١٤٠٣ هـــ – ١٩٨٣ م .
(٣) سورة طه ، الآية (٥) .
(٤) معـــترك الأقران (١١١/١) ، وهو عند اللالكائي ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤٤٠/٢) ، وقال المحقق : " أشار إلى هذه الرواية ابن حجـــر فـــي الفتح (٤٠٦/١٣) وقال ابن تيمية بعد ذكر قول مالك في الاستواء : " وقد روى هذا الجواب عن أم سلمة –رضي الله عنها– ، موقوفاً ومرفوعاً ، ولكن ليس اسناده مما يعتمد عليه " انظر : الفتاوى (٣٦٥/٥) .
(٥) معترك الاقران (١١١/١ ، ١١٢) ، والترمذي في " سننه " (٤١/٣) ، وانظر : عون المعبود (٤٢/١٣) ، وفتح الباري (٤٠٧/١٣) .
(٦) معـــترك الاقـــران (١١٢/١) ، الكوكب الساطع – مخطوط – (ص ١٦٤/ب) وانظر : إمام الحرمين : العقيدة النظامية (ص ٣٢) ، وسبق أن ذكرت أن قول الجويني هو التفويض وليس هو مذهب السلف .

وقادتهـــا ، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامه ، ولا أحد من المتكلمين من أصحابنا يصدف عنها ويأباها "[١] وهل بعد صدر الأمـــة وســاداتها ، وأئمة الفقهاء وقادتها ، وأئمة الحديث وأعلامه ، هل بقي بعد كلام هؤلاء كلام لمتأول ؟ ، فإذا لم يكن هؤلاء هم قدوة الأنام ، ومصابيح الظلام ، فبمن يقتدي أهل الإيمان والإسلام؟ ولقد قال الإمام احمد بن حنبل ، في الرد على الجهمية الذين أولوا الصفات : " الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل ، بقايا من أهل العلم ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى يحيون بكتاب الله الموتى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لابليس قـد أحيوه ؟ وكم من تائه قد هدوه ؟ فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغـالين ، وانـتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، واطلقوا عنان الفتنة ، فهم مخالفون للكتاب ، مختـلفون في الكتاب ، مجمعون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفي الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون به عليهم فنعوذ بالله من فتن المضلين "[٢] فالتأويل المذموم لآيات وأحاديث الصفات هو أساس مذهب الجهمية فقد أقام جهم مذهبه الضال على تأويل آيات الصفات كلها الواردة في القرآن وبذلك نفى أن يكون لله تعالى صفات غير ذاته ، واستتبع هذا التأويل :

- نفي رؤية الله تعالى في الآخرة .
- نفي عنه صفة الكلام .
- أراد أن يثبت أن القرآن مخلوق[٣] .

وليس كلامنا هنا عن جهم وإنما أردنا أن نبين أن التأويل المبتدع ، ليس له أصل شرعي ، وليس هو من الدين في شئ بل هو مما ابتدعه جهم وأتباعه ، ووافقه الأشاعرة في ذلك وإن كانوا لم يوافقوه في بقية معتقده .

وروى عن احمد بن حنبل أيضاً في الأحاديث التي تروى :

" إن الله تبارك وتعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا " وما شابهها قال : " نؤمن بها ونصدق بها ، ولا كيف ولا معنى ، أي لا نكيفهـا ولا نحرفها بالتأويل ، فنقول : معناها كذا ، ولا نرد منها شيئاً ، ونعلم أن ما جاء به الرسول حق ، إذا كان بأسانيد صحاح ، ولا نرد على الله قوله ، ولا يوصف الله بأكثر مما وصف به نفسه بلا حد ولا غاية ليس كمثله شئ "[٤]

وقال اسحاق بن ابراهيم بن راهويه :

" اجمـاع أهـل العـلم أنه (تعالى) فوق العرش استوى ، ويعلم كل شئ في أسفل الأرض السابعة ، وفي قعور البحار ، ورؤوس الاكـام ، وبطون الأودية ، وفي كل موضع كما يعلم علم ما فوق السماوات السبع ، وما فوق العرش ، أحاط بكل

---

(١) معترك الاقران (١/١١٢)

(٢) الامـام احمد بن حنبل الشيباني : الرد على الجهمية والزنادقة ت د . عبدالرحمن عميرة (ص / ٨٥) دار اللواء الرياض – ط ١٣٩٧ هـ – ١٩٧٧ م وانظر : ابن تيمية : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (٢ / ٣٩ ، ٤٠) .

(٣) انظر : مقدمة التحقيق لكتاب الامام احمد : الرد على الجهمية (ص / ٤٣) ، للدكتور عبدالرحمن عميرة .

(٤) ابن تيمية : موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول (١/٣٢٣) .

شــئ علماً ، فلا تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات البر والبحر ، ولا رطب ولا يابس إلا قد عرف ذلك كله وأحصاه ، فلا تعجزه معرفة شئ عن معرفة غيره "[١] .

وغير هؤلاء الذين ذكرنا من الأئمة كثير يثبتون الصفات ولا يؤولون .

ولابــن تيميــة كــلام نفيــس فــي غاية القوة لابطال كلام أهل التأويل رأينا أن ننقله لأهميته القصوى : قال : " ...الخطــاب الذي أريد به هدانا والبيان لنا ، وإخراجنا من الظلمات إلى النور ، إذا كان ما ذكر فيه من النصوص ظاهره بــاطل وكفر ، ولم يرد منا أن نعرف لا ظاهره ولا باطنه ، أو أريد منا أن نعرف باطنه من غير بيان في الخطاب لذلك ، فعلى التقديرين لم نخاطب بما بين فيه الحق ، ولا عرفنا أن مدلول هذا الخطاب باطل وكفر .

وحقيقة قول هؤلاء في المخاطب لنا : أنه لم يبين الحق ، ولا أوضحه ، مع أمره لنا أن نعتقده ، وأن ما خاطبنا به وأمرنا باتباعه والرد إليه لم يبين به الحق ولا كشفه بل دل ظاهره على الكفر والباطل ، وأراد منا أن لا نفهم منه شيئاً ، أو أن نفهــم مــنه مــا لا دليل عليه فيه ، وهذا كله مما يعلم بالاضطرار تنزيه الله ورسوله عنه ، وأنه من جنس أقوال أهل التحريف والإلحاد .

وبهذا احتج الملاحدة كابن سينا وغيره على مثبتي المعاد ، وقالوا : القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص التشــبيه والتجســيم[٢] ، وزعموا أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – لم يبين ما الأمر عليه في نفسه ، لا في العلم بالله تعالى ، ولا باليوم الآخر ، فكان الذي استطالوا به على هؤلاء هو موافقتهم لهم على نفي الصفات ، وإلا فلو آمنوا بالكتاب كله حق الإيمان لبطلت معارضتهم ودحضت حجتهم .

ولهــذا كان ابن النفيس المتطبب الفاضل يقول : ليس إلا مذهبان : مذهب أهل الحديث أو مذهب الفلاسفة ، فأمــا هؤلاء المتكلمون فقولهم ظاهر التناقض والاختلاف ، يعني أن أهل الحديث اثبتوا كل ما جاء به الرسول أولئك جعلوا الجميع تخييلاً وتوهيماً ، ومعلوم بالأدلة الكثيرة السمعية والعقلية فساد مذهب هؤلاء الملاحدة ، فتعين أن يكون الحق مذهب الســلف أهــل الحديــث والســنة والجماعة ثم إن ابن سينا وأمثاله من الباطنية المتفلسفة والقرامطة يقولون : إنه أراد من المخاطــبين أن يفهمــوا الأمــر عــلى خلاف ما هو عليه ، وأن يعتقدوا ما لا حقيقة له في الخارج ، لما في هذا التخييل والإعتقاد الفاسد لهم من المصلحة .

والجهمية والمعتزلة وأمثالهم يقولون : إنه أراد أن يعتقدوا الحق على ما هو عليه ، مع علمهم بأنه لم يبين ذلك في الكتاب والسنة ، بل النصوص تدل على نقيض ذلك فأولئك يقولون : أراد منهم اعتقاد الباطل وأمرهم به ، وهؤلاء يقولون : أراد اعتقاد ما لم يدلهم إلا على نقيضه .

---

(١) نفسه (٣٢٥/١) .
(٢) يعــني لابــد مــن تأويلها – على قولهم – كما أوجب المتكلمون تأويل الصفات التي يزعمون أن اثباتها يفضي إلى التجسيم – تعالى الله عن تعطيل وتجسيم .

والمؤمن يعلم بالاضطرار أن كلا القولين باطل ، ولا بد للنفاة أهل التأويل من هذا أو هذا ، وإذا كان كلاهما باطلاً كان تأويل النفاة للنصوص باطلاً ، فيكون نقيضه حقاً ، وهو إقرار الأدلة الشرعية على مدلولاتها ومن خرج عن ذلك لزمه من الفساد ما لا يقوله إلا أهل الإلحاد "[١] .

المبحث السادس : اتهام السيوطي للإمام أحمد بالتأويل والرد عليه

المطلب الأول: اتهام السيوطي للإمام احمد بالتأويل .

طمع المؤولون أن يجدوا في كلام السلف ما يؤيد مذهبهم ، ويبرر موقفهم ، ويقوي حجتهم ، ففتشوا ونقبوا تفتيش الباحث عن العثرات ، وتنقيب الساقط على الهنات ، وبعد لأي طويل ، وكد مستطيل ، تمخض الجبل فولد فأراً .

فلما ظفروا ببغيتهم ظنوا أنهم حازوا سنداً ، وتوكأوا مستنداً ، فقالوا : تنقمون منا منهج التأويل ، وتلقموننا حجارة بالصياح والعويل ، وتصموننا بالتحريف والتبديل ، وقد ذهب إمامكم مذهبنا ، واستساغ مقدمكم حجتنا ، فقال بالتأويل وهو الذي – عندكم – عليه المعتمد والتعويل ، فكيف تقولون ، وأين تذهبون ؟

فقلنا لهم : أفصحوا عما تكن صدوركم ، وتشتمل عليه أفئدتكم ، فقد ظننتم الظنون بنا ، فـ (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا)[٢] ؟؟

قال السيوطي : " ذكر بعض المحدثين عن بعض الحنابلة أنه لعن المتأولين لأحاديث الصفات ، يقال : هذا رجل حنبلي لعن صاحبه أحمد ابن حنبل ، وهو لا يحس بما قال ، فإن أحمد قال في قوله : (وجاء ربك)[٣] جاء أمره ، وفي قوله :(إلا هو رابعهم)[٤] بعلمه ، وفي قوله : (الله نور السماوات والأرض)[٥] منور السماوات ، فلو كان نوراً وكان في كل مكان لأضاء البيت المظلم ، وهذا منه تأويل يغطي تأويل كل الأخبار "[٦] .

المطلب الثاني : الرد على السيوطي ومن قال بقوله .

وهذا الذي قاله السيوطي لا يعد كونه ترديداً لما نقله من قبله أبو بكر البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ، وأبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) ، وأبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ، والفخر الرازي(ت ٦٠٦ هـ).

أما البيهقي فرواه في كتابه " مناقب الإمام احمد " يقال إنه مخطوط ، ولم أعثر عليه ، وحكاه عن البيهقي الحافظ ابن كثير في " البداية والنهاية "[٧] ، وأما أبو حامد فنقله في " الأحياء "[٨] ، وعول عليه كل من ابن الجوزي[١] ، والرازي في " الأساس "[٢] .

---

(١) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٢٠٢/١ - ٢٠٤) الطبعة الاولى ط جامعة الامام محمد بن سعود ت د . محمد رشاد سالم – ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

(٢) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٤٨) .

(٣) سورة الفجر ، بعض الآية (٢٢) .

(٤) سورة المجادلة ، بعض الآية (٧) .

(٥) سورة النور ، بعض الآية (٣٥) .

(٦) الكنز المدفون (ص ٢١٢) .

(٧) انظر : (٣٢٧/١٠) .

(٨) انظر : (١٠٣/١) .

لذلك رأيت أغلب من تكلم في بحث هذه المسألة يرد هذه النقول إلى مصدرين :

أولهما : الغزالي ، في معرض حديثه عن الإمام احمد ومنعه من التأويل فقال : " سمعت بعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا لثلاثة ألفاظ :

ـــ قوله - صلى الله عليه وسلم - : " الحجر الأسود يمين الله في أرضه "(٣)

ـــ وقوله -صلى الله عليه وسلم- : " قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن "(٤) - وقوله -صلى الله عليه وسلم- : " إني لأجد نفس الرحمن من جانب اليمين ...(٥) "(٦) ونقل هذا الرازي عن الغزالي مع تبديل في أحد الأحاديث(٧) .

الثاني : ما نقله حنبل(٨) في " المحنة " عن الإمام احمد ، يقول :

---

(١) انظـر : زاد المسير (٢٢٥/١) عند تفسيره للآية (٢١٠) من سورة البقرة ، وعند تفسيره للآية الكريمة (٢٢) من سورة الفجر ، أحال على آية البقرة .

وانظـر كذلك كتابه : " الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب " (ص ٦١) ت . محمد منير الامام ، وهذا الكتاب هو نفسه الذي طبع طبعة أخرى بعنوان : " دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه " ت . الكوثري ، وطبعة ثالثة بتحقيق : حسن السقاف ، والمحققون الثلاثة يشربون من عين واحدة هي عين البدعة والتعطيل والتهالك على الوقيعة في أهل السنة والجماعة ، وقد رد على ابن الجوزي في دعواه نسبة التأويل إلى الامام احمد ، صاحب رسالة : ابن الجوزي بين التفويض والتأويل (١٣٨ - ١٤٣) ، ط على الآلة الكاتبة ، ورد على حسن السقاف : سليمان بن ناصر بن عبدالله العلوان ، في كـتاب بعنوان : اتحاف أهل الفضل والانصاف بنقض كتاب ابن الجوزي دفع شبه التشبيه وتعليقات السقاف - صدر منه الجزء الأول ١٤١٥ هـ - دار الصميعي / الرياض .

(٢) انظر : اساس التقديس (ص ١٠٧ ، ١٠٨) .

(٣) هذا الحديث روي مرفوعاً وموقوفاً عن عبدالله بن عمرو ، الحاكم في المستدرك (٤٥٧/١) بلفظ " يأتي الركن يوم القيامة ... وهو يمين الله الـتي يصـافح بهـا خـلقه " والطبراني في الأوسط (٣٣٧/١) ورقمه (٥٦٧) ، وابن خزيمة في صحيحه (٢٢١/٤) ورقمه (٢٧٣٧) وابن الجوزي في العلل المتناهية (٨٥/٢) وصححه الحاكم وتعقبه الذهبي بأن في اسناده عبدالله بن المؤمل وهو ضعيف ، كما رواه عن جابر مرفوعاً : الخطيـب في تاريخ بغداد (٣٢٨/٦) ، وابن عدي في الكامل (٣٣٦/١) ، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٨٤/٢) وفي اسناده اسحاق بن بشر الكاهلي ، قال عنه ابن عدي في الكامل : هو في عداد من يضع الحديث ، كما رواه عن أنس بن مالك مرفوعاً : الديلمي في الفردوس (٢٥٨/٢) بلفظين ، وفي اسناده علي بن العسكري ، ضعيف ، والعلاء بن سلمة الرواس متهم بالوضع ، انظر : فيض القدير (٣١٠/٣) ، كما رواه موقوفاً عـلى ابـن عباس : عبدالرزاق في المصنف (٣٩/٥) ورقمه (٨٩١٩ ، ٨٩٢٠) وابن قتيبة في غريب الحديث (٣٣٧/٢) والأزرقي في أخبار مكـة من طرق (٣٢٣/١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦) ومحمد بن يحي العدني المعروف محمد بن أبي عمر - كما في المطالب العالية - (٣٣٩/١) ورقمه (١١٤٧) وفي الحاشية (٣٤٠/١) " في المسندة هذا موقوف جيد ، وقال البوصري : رواه ابن أبي عمر موقوفاً باسناد صحيح " كما روي موقوفاً عـلى عكرمة ، رواه الأزرقي في أخبار مكه (٣٢٥/١) ، ومما سبق يتبين أن المرفوع ضعيف وأن الصحيح وقفه على ابن عباس ، وممن صحح وقفه العجلوني في كشف الخفا (٣٤٩/١) وقال في تمييز الطيب من الخبيث (ص ٦٨) قال شيخنا هو موقوف صحيح ، كما أشار ابن تيمية في مجموع الفتاوي (٣٩٧/٦) وفي التدمرية (ص ٧٢) أن المشهور فيه أنه عن ابن عباس ، وانظر حول هذا الحديث احياء علوم الدين (١٠٣/١) مـع تخـريج العـراقي ، وشرحه اتحاف السادة المتقين (٧٩/٢ - ٨٠) والسراج المنير للعزيزي (٢٣٦/٢ - ٢٣٧) وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني رقم (٢٢٣) وكنز العمال (٢١٥/١٢ - ٢١٧) .

ملحوظة : وقع في الترغيب والترهيب (١٩٤/٢) ت مصطفى عمارة ، (٣١٤/٢) ت الهراس رواية عبدالله بن عمرو بلفظ : " يأتي الركن اليماني ... " والـذي فـي مصادر الحديث - التي أشرت اليها - وأيضاً في مسند الامام احمد (٢١١/٢) حيث روى أول الحديث دون المصافحة - مجيء الـرواية بـلفظ " يأتي الركن " فقط بدون ذكر لفظة " اليماني " ولذلك بوبوا له بالحجر الأسود ، فلعل ما في الترغيب والترهيب وهم من المنذري - رحمه الله - أو من النساخ ، والله تعالى أجل وأعلم .

(٤) سيأتي تخريجه في الفصل الرابع من الباب الثالث ، وهو فصل توحيد الاسماء والصفات والحديث في صحيح مسلم رقم (٢٦٥٤) .

(٥) رواه احمد في " المسند " (٥٤١/٢) ، وقال العراقي في " المغني " تخريج الأحياء (١٠٣/١) " رجاله ثقاة " .

(٦) احياء علوم الدين (١٠٣/١) .

(٧) أساس التقديس (ص ١٠٧ - ١٠٨) .

(٨) هـو حنبل بن اسحاق بن حنبل بن هلال الشيباني ، أبو علي ، من حفاظ الحديث ، كان ثقة، لكن كان كثير المفاريد التي انفرد بها مخالفة للمشهور من مذهبه الحنبلي كما قال ابن القيم في " مختصر الصواعق " (ص ٣٩٠) ، له كتاب " التاريخ " وكتاب " الفتن " وكتاب " محنة الامام احمد بن

" احـتجوا عـلـيَّ يوم المناظرة ، فقالوا : تجيء يوم القيامة سورة البقرة ، وتجيء سورة تبارك ؟ قال : فقلت لهم : إنما هو الثواب ، قال الله – جل ذكره – : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)[١] وإنما تأتي قدرته ، القرآن أمثال ومواعظ وأمر ونهي ، وكذا وكذا "[٢] ، وأحال القاضي أبو يعلي في " إبطال التأويل " على رواية حنبل[٣] ، ونقل هذه الرواية عن أبي يعلي ابن الجوزي في تفسيره[٤] ، وفي كتابه " دفع شبه التشبيه "[٥] الذي نصر فيه مذهب أهل التعطيل .

وليس في هذين النقلين حجة ولا مستند لهؤلاء المؤولة ، وبيانه كما يلي :

<u>أما النقل الأول :</u> والذي ذكره الغزالي وتبعه الرازي ، فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " هذه الحكاية كذب على احمد ، لم ينقلها أحد عنه بإسناد ، ولا يعرف أحد من أصحابه نقل ذلك عنه ، وهذا الحنبلي الذي ذكر عنه أبو حامد مجهول لا يعرف لا عـلمه بما قال ، ولا صدقه فيما قال "[٦] ويدل على ذلك اختلاف النقل فيما بين الغزالي والرازي ، وهذا الاختلاف له تقديـران : إمـا أن يكون الرازي غلط في النقل عن الغزالي ، وإما يكون الغزالي نقل في كتاب آخر – غير الأحياء – خـلاف ما نقله في " الإحياء " ، وكلاهما يدل على عدم صحة النقل ، قال ابن تيمية : " وعلى التقديرين فيعلم أن هذا النقل الـذي نقلـه غيـر مضبوط "[٧] . كما أن عدم رسوخ الغزالي في علم الحديث جعله ينقل في كتبه كثيراً من الموضوعات والـروايات المكذوبة التي ينكرها أهل العلم بالرواية ، والغزالي نفسه يشهد على نفسه بذلك فقد كان يقول : " أنا مزجي[٨] البضـاعة فـي الحديث"[٩] قال ابن تيمية : " ولهذا يوجد في كتبه من الأحاديث الموضوعة ، والحكايات الموضوعة ما لا يعتمد عليه من له علم بالآثار[١٠] ، وقال في موضع آخر : " ولهذا في كتبه من المنقولات المكذوبة الموضوعة ما شاء الله ... ومـن ذلـك هـذا الـنقل الذي نقله عن احمد ، ولا يتنازع من يعرف أحمد وكلامه أن هذا كذب مفترى عليه ، ونصوصه المنقولة عنه بنقل الأثبات ، والمتواتر عنه يرد هذا الهذيان الذي نقل عنه... "[١١] .

حنبل " وهو ابن عم الامام احمد بن حنبل ، وتلميذه توفي بواسط (٢٧٣ هـ – ٨٨٦ م) . انظر : تذكرة الحفاظ (٢/١٦٠) ، طبقات الحنابلة (١/١٤٣) والاعلام (٢/٢٨٦) .

(١) سورة الفجر ، الآية (٢٢) .

(٢) الجوهـر المفصل في مناقب الامام احمد (ص ٥٨) لمحمد بن محمد أبي بكر السعدي ، ت . د . عبدالله بن عبدالمحسن التركي – ط١ ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م – مصر – ، وانظر : ابن تيمية : الاستقامة (١/٧٤) ط١/١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م – الامام محمد بن سعود – الرياض .

(٣) مخطوط (ص ٦١) .

(٤) انظر : زاد المسير ، تفسير سورة البقرة (١/٢٢٥) .

(٥) انظر : (ص ١٢ ، ١٣ ، ١٤١) ت . حسن السقاف .

(٦) مجموع الفتاوي (٥/٣٩٨) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل (٧/١٤٩-١٥٠) .

(٧) نقض التأسيس – مخطوط – (٣/٩٤) ، نقلاً عن موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٣/١١٦٥) .

(٨) البضاعة المزجاة : هي الرديئة الكاسدة

(٩) قانون التأويل (ص ١٦) ، وانظر ابن تيمية : شرح الأصفهانية (ص ١٢٨) .

(١٠) شرح العقيدة الاصفهانية (ص ١٢٨) .

(١١) نقض تأسيس الجهمية – مخطوط – (٣/١٠٠) ، نقلاً عن : موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبدالرحمن بن صالح المحمود (٣/١١٦٥)

ثـم إن هذه الأحاديث التي نقلها الغزالي والرازي ومن لف لفهما ، ليس فيها ما يوجب التأويل ، ولا صرفها عن ظاهـرها ، لأن معـناها واضـح ، ودلالتها بينة عند من تدبرها : أما الحديث الأول وهو : الحجر الأسود يمين الله... " فالجواب عنه من وجهين :

أحدهما : أن الرواية الصحيحة هي الموقوفة على ابن عباس - رضي الله عنهما - والمرفوعة لاتصح[١] .

والثاني : أن الفاظ الحديث تدل على معناه دلالة واضحة لا تحتاج إلى تكلف التأويل ، فقوله : " الحجر الأسود يمين الله في الأرض " تقييـد له بـالأرض ، ولم يطلقه ، وحكم اللفظ المقيد يخالف حكم اللفظ المطلق ، فهذا فرق واضح بين " اليمين " الـتي هي صفة لله تعالى ، وبين الحجر المخلوق ، وهو كقول الأمير ، مخاطباً قومه في جاسوس له : هذا عيني عندكم ، وقوله : " فمن صافحه وقبله ، كأنما صافح الله وقبل يمينه " ، هذا تشبيه ، ومعلوم أن المشبه غير المشبه به ، فهو صريح فـي أن المصـافح لم يصافح يمين الله أصلاً ، ولكنه شبه بمن يصافح الله ، فأول الحديث وآخره يبين أن الحجر ليس من صفات الله تعالى[٢] .

وأما حديث : " قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن " فقد قال ابن تيمية : " فإنه ليس في ظاهره أن القلب متصل بالأصابع ، ولا مماس لها ، ولا إنها في جوفه ، ولا في قول القائل : هذا بين يدي ما يقتضي مباشرته ليديه ، وإذا قيل السحاب المسخر بين السماء والأرض لم يقتض أن يكون مماساً للسماء والأرض ، ونظائر هذا كثيرة "[٣] .

أما حديث " نفس الرحمن " فالجواب عنه أيضاً من وجهين :

أولهما : أن المقصود بنفس الرحمن في الحديث : الفرج والنصرة ، إذ بأهل اليمن نفس الله عن المؤمنين ، قاتلوا أهل الردة وفتحوا الأمصار .

الـثاني : قولـه في الحديث : " من قبل اليمن " أو " من جانب اليمن " بين المقصود ، ويصرف الذهن عن التشبيه ، وعن طلب التأويل ، إذ ليس لليمن اختصاص بصفات الله -جل وعلا-[٤] .

وأما النقل الثاني : وهو رواية حنبل بن اسحاق فقد اختلف الناس في هذا النقل عن الإمام احمد على أقوال :

١ - فقـال قوم : غلط حنبل في نقل الرواية ، وأنكروا أن يكون أحمد قد قال ذلك ، وقالوا : بأن حنبل له غلطات معروفة ومفـاريد تفرد بها ، وهذه الرواية واحدة منها لذلك قال ابن القيم : " كان كثير المفاريد التي انفرد بها مخالفة للمشهور من مذهبه "[٥] .

وهـذه المفاريد ترى الجماهير خلافه ، وقد اختلف أصحاب المذهب في هذه المفاريد التي انفرد بها حنبل وخالفه فيها الجمهور ، هل تثبت روايته ؟ على طريقين :

---

(١) انظر تخريج الحديث قبل قليل ، وانظر : مجموع الفتاوي (٦/٣٩٧) ، وكشف الخفا : للعجلوني (١/٣٤٩) .

(٢) انظر : مجموع الفتاوي (٦/٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٥٨٠ ، ٥٨١) ، وانظر : درء تعارض العقل والنقل (٥/٢٣٩) ، والتدمرية (ص ٧١ - ٧٢) .

(٣) التدمرية (ص ٧٣) .

(٤) مجموع الفتاوي (٦/٣٩٨) .

(٥) مختصر الصواعق المرسلة (٣٩٠) ، وانظر مجموع الفتاوي (٥/٣٩٩ - ٤٠٠) .

فالخلال وصاحبه قد ينكرانها ، ويثبتها غيرهما كابن حامد .

٢ - وقـال قوم : إنما قال أحمد ذلك إلزاماً للمنازعين له ، فإنهم يتأولون مجيء الرب بمجيء أمره ، قال : فكذلك قولوا : مجـيء كلامـه مجيء ثوابه ، وهذا قريب ، أي أنه إذا كان الرب - تبارك وتعالى - قد أخبر بمجيء نفسه ثم تأولتم ذلك بأمـره ، فإذا أخبر بمجيء القرآن - وهو في الحديث البقرة وآل عمران - فلأن تتأولون ذلك بمجيء ثوابه بطريق الأولى والأحرى ، وإذا قال لهم ذلك على سبيل الالزام لم يلزم أن يكون موافقاً لهم[١] عليه .

٣ - وقال قوم : إن هذه رواية عن احمد ، وجعلوا ذلك عمدتهم في الميل إلى مذهب الأشاعرة ، كما هو قول ابن الزاغوني وغيره ، أو ما هو أشد منهم غلواً في التعطيل والنفي ، كما هو المشهور من مذهب ابن عقيل ، وابن الجوزي ، وغيرهما .

وقـد نفى شيخ الإسلام ابن تيمية بشكل قاطع ما نسب إلى الإمام احمد من التأويل وقال : " ولا ريب أن المنقول المتواتر عن أحمد يناقص هذه الرواية ، ويبين أنه لا يقول إن الرب يجيء ويأتي وينزل أمره ، بل هو ينكر على من يقول ذلك "[٢] ثم قال ابن تيمية : " والصواب أن جميع هذه التأويلات مبتدعة ، لم يقل أحد من الصحابة شيئاً منها ، ولا أحد من الـتابعين لهم بإحسان ، وهي خلاف المعروف المتواتر عن أئمة السنة والحديث ، أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة "[٣] وأشار ابن تيمية إلى رسائل وأقوال الإمام احمد وهي مشهورة ومعروفة وأنه ما من مسألة من مسائل أصول الدين إلا وله فيها كلام ، ولم يرد فيها ما يخالف مذهب السلف ، ولذلك عده الناس إماماً لأهل السنة بسبب ما ابتلي به من المخالفين من أهل الأهواء الذين ناظرهم وبين بطلان أقوالهم ، وهو في ذلك متبع لمن قبله من أئمة السلف[٤] .

فإذا كان المتواتر عن أحمد -رحمه الله- أنه يثبت الصفات وأنه لم يؤول شيئاً منها ، وأنه ينكر على من يفعل ذلك فإنـه ينـبغي أن ينظر إلى رواية حنبل على أنها رواية فردة خالفت المشهور عنه ، ولهذا قال القاضي أبو يعلي بعد ذكره لـرواية حنبل ، وتغليط ابن شاقلا له قال : " وقد قال احمد في رواية أبي طالب : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل مـن الغمام والملائكة...)[٥] (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)[٦] من قال : إن الله لا يرى فقد كفر ، وظاهر هذا أن أحمد أثبت مجيء ذاته لأنه احتج بذلك على جواز رؤيته ، إذا كان الإتيان والمجيء مضافاً إلى الذات "[٧] .

وهكذا يتضح عدم صحة التأويل المنسوب للإمام احمد -تغمده الله تعالى برحمته- وهذا بناء على ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بالدليل الواضح ، إذ يمكننا القول بأن ابن تيمية هو أعلم الحنابلة بمذهبهم وألصقهم به ، وأفقههم فيه ، وأحفظهم لما ورد عن إمامه أحمد -رحمه الله- بل لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنه قد يكون أعرف بمقالات أصحاب المذاهب الأخرى من بعض

---

(١) انظر : الاستقامة (٧٥/١ - ٧٦) .
(٢) مجموع الفتاوي (٤٠١/٥ ، ٤٠٩) .
(٣) نفسه (٤٠٩/٥) .
(٤) انظـر : نقـص التأسيس - مخطوط - (٩٧/٣ - ١٠٣) ، نقلاً عن : موقف ابن تيمية من الأشاعرة للدكتور عبدالرحمن بن صالح المحمود (٣/ ١١٦٧) .
(٥) سورة البقرة ، بعض الآية (٢١٠)
(٦) سورة الفجر ، الآية (٢٢) .
(٧) ابطال التأويلات - مخطوط - (ص ٦١ - ٦٢) نقلاً عن : موقف ابن تيمية من الاشاعرة للدكتور عبدالرحمن بن صالح المحمود (١١٦٧/٣) .

المنتسبين إليها ، وخاصة في أبواب الصفات ومسائل الإيمان ، ولذلك كان قوله وكلامه حجة قوية في بيان الحق والصواب الذي كان عليه السلف الصالح -رضوان الله عليهم- أجمعين .

وخلاصة البحث في صحة ما نسب للإمام احمد من القول بالتأويل هي ما يلي :

أولاً : أن ما نقله الغزالي والرازي لا يصح من جهة النقل والرواية ، إذ لم ينقل بسند واضح صحيح ، ولم يتفق الرازي مع الغزالي فيما نقلاه من ذلك .

ثانياً : أن النقول الكثيرة المتواترة عن الإمام احمد ، تدل على اثباته الصفات ، ومنعه من التأويل ، وانكاره على المؤولة .

ثالثاً : أن رواية حنبل التي ذكرها في كتابه " المحنة " قد انفرد بها دون سائر من نقلوا مناظرة أحمد لخصومه ، مثل عبدالله بن احمد ، وصالح بن احمد ، والمروزي وغيرهم[١] ، فلم ينقلها إلا حنبل وحده دون غيره ، وهي في نفس الوقت مخالفة لمذهب أحمد والحنابلة عموماً[٢] مما يضعفها ويسقط الاحتجاج بها .

رابعاً : أن القوم يزعمون أنهم لا يثبتون العقائد بالروايات الآحاد ، ولا يحتجون بها ، لكنهم هنا خالفوا أصول مذهبهم ، فاحتجوا بما انفرد به حنبل وحده ، وتركوا المتواتر المشهور عن احمد -تغمده الله تعالى برحمته- ، وهذا من انتكاس عقول المؤولة أهل البدعة فإنهم يقولون الذي لهم ، ولا يقولون ما عليهم ، أما أهل الحق فيقولون الذي لهم والذي عليهم ، فلماذا يردون الأخبار الآحاد فيما يثبت الصفات ، ويقبلونها فيما يثبت التأويل ، وهذا على فرض صحة النقل الذي تكلمنا عنه بما يكفي ، وهذا دليل على أنهم يكيلون بمكيالين ويزنون بميزانين وهي علامة اتباع الهوى ، لا اتباع الحق .

خامساً : أن هذه الأحاديث لا حجة لهم فيها ، ذلك لأن ما فهمه المؤولة من الظواهر الفاسدة ، قد دلت النصوص نفسها على أنه غير مراد ، وهذا الفهم السقيم هو الذي جعلهم يقعون في التأويل الفاسد .

سادساً : على فرض ثبوت رواية حنبل عن الإمام احمد -تغمده الله تعالى برحمته- فإنه يقال : إن الإمام -رحمه الله- قد قال هذا على سبيل الالزام لخصومه ، وقد قال شيخ الإسلام : " وهذا قريب "[٣] ، أي قريب من الصواب .

سابعاً : أن السيوطي في نسبته التأويل للإمام احمد إنما هو منساق وراء ما نقله المؤولة من قبله من غير تحقيق ولا تمحيص ، وبناء عليه فالسيوطي غير محق في نسبة هذا التأويل لإمام السنة احمد بن حنبل -رحمه الله تعالى ورضي عنه- .

فهذا هو الحق الذي يجب أن يصار إليه .

وقبل أن ننهي بحث هذه المسألة ينبغي أن نبين أن أبا الفرج ابن الجوزي مضطرب في مسألة الصفات ، فقد أول كثيراً منها ومن هنا فقد طعن في كثير من علماء السنة بغير حق ونسبهم إلى التشبيه ، وقد رد عليه العلماء ، وبينوا أنه في معتقده ليس سلفياً خالصاً ، بل خلط سلفيته بكثير من آراء الأشاعرة والمعتزلة .

ومن بين العلماء الذين شنع عليهم ابن الجوزي شيخ الإسلام الأنصاري ، واتهمه بالتشبيه ، فرد عليه الإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي بقوله : " حاشاه من التشبيه ، ولا يقبل قول ابن الجوزي فيه "[١].

---

(١) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٤٠٥/١٦) .

(٢) من الحنابلة من جنح إلى التأويل كما ذكرنا عن ابن الجوزي وابن عقيل .

(٣) الاستقامة (٧٥/١) .

كذلك رد على ابن الجوزي كثير ممن عاصره من العلماء وشنعوا عليه ، وذكروه بمذهب السلف الصالح ، ومن ذلك الرسالة القيمة التي وجهها له الشيخ اسحاق بن أحمد العلثي[٢] ، وذكر نصها الإمام ابن رجب الحنبلي في ذيله على طبقات الحنابلة ، وكان مما قال له فيها : " أعلم أنه قد كثر النكير عليك من العلماء والفضلاء والأخيار في الآفاق بمقالتك الفاسدة في الصفات ، وقد أبانوا وهاء مقالتك ، وحكوا عنك أنك أبيت النصيحة ... ثم تعرضت لصفات الخالق تعالى كأنها صدرت لا من مصدر سكن فيه احتشام العلي العظيم ، ولا أملاها قلب مليء بالهيبة والتعظيم ، بل من واقعات النفوس البهرجية الزيوف ، وزعمت أن طائفة من أهل السنة والأخيار تلقوها وما فهموا ، وحاشاهم من ذلك بل كفوا عن الثرثرة والتشدق لا عجزاً -بحمدالله- عن الجدال والخصام ، ولا جهلاً بطرق الكلام ، وإنما أمسكوا عن الخوض في ذلك عن علم ودراية ، لا عن جهل وعماية ... وتدعي أن الأصحاب خلطوا في الصفات ، فقد قبحت أكثر منهم وما وسعتك السنة ، فاتق الله سبحانه ولا تتكلم فيه برأيك فهذا خبر غيب لا يسمع إلا من الرسول المعصوم ، فقد نصبتم حرباً للأحاديث الصحيحة ، والذين نقلوها نقلوا شرائع الإسلام "[٣] .

وقال ابن قدامة -أيضاً- فيه : " كان ابن الجوزي إمام عصره... إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنة ولا طريقته فيها "[٤] .

وابن تيمية ممن أثبت تناقض ابن الجوزي في باب الصفات وقرر اضطرابه فيه ، فهو يثبت تارة وينفي تارة أخرى ، قال ابن تيمية : " إن أبا الفرج نفسه متناقض في هذا الباب لم يثبت على قدم النفي ، ولا على قدم الإثبات ، بل له من الكلام في الإثبات نظماً ونثراً ما أثبت به كثيراً من الصفات التي أنكرها في هذا المصنف ، فهو في هذا الباب مثل كثير من الخائضين في هذا الباب من أنواع الناس يثبتون تارة ، وينفون أخرى في مواضع كثيرة من الصفات كما هو حال أبي الوفاء ابن عقيل ، وأبي حامد الغزالي "[٥] .

فإذا كان أبو الفرج ابن الجوزي ، قد اتخذه أهل التعطيل تكأة في تقوية مذهبهم ، فهذه هي حاله التي بينها شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهي حالة متناقضة مضطربة لا يعول عليها ، وليست بحجة لمن يحتج بها ، فإن كان ابن الجوزي قد أول بعض الصفات في موضع ، فقد أثبت غيرها في موضع آخر ، وإن كان قد صنف في منهج التعطيل ، فقد رد عليه معاصروه ولاموه لوماً شديداً ، وأنكروا عليه ما خالف فيه منهاج السلف ، آمرين له أن يتقي الله ويرجع إلى مذهب سلفه وإمامه احمد بن حنبل ، -تغمده الله بواسع رحمته- .

ويؤيد هذا ويؤكده ما قاله ابن رجب في حق ابن الجوزي فقد قال : " نقم عليه جماعة من مشايخ أصحابنا وأئمتهم ميله إلى التأويل في بعض كلامه ، واشتد نكيرهم عليه في ذلك ، ولا ريب أن كلامه في ذلك مضطرب مختلف ، وهو وإن كان مطلعاً على الأحاديث والآثار فلم يكن يحل شبه المتكلمين ، وبيان فسادها ، وكان معظماً لأبي الوفاء ابن

---

(١) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة (٢٠٥/٢) .

(٢) اسحاق بن احمد بن محمد بن غانم العلثي ، الزاهد ، القدوة ، أبو الفضل ، ويقال أبو محمد ، قال المنذري : قيل : إنه لم يكن في زمانه أكثر انكاراً للمنكر منه ، وحبس على ذلك مرة ، توفي عام (٦٣٤ هـ) . انظر : ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٢٠٥/٤) .

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٢٠٦/٢ - ٢٠٩) .

(٤) ذيل طبقات الحنابلة (٤١٥/١) ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣٣١/٤) .

(٥) مجموع الفتاوي (١٦٩/٤) .

عقيل متابعاً لأكثر ما يجده من كلامه ، وإن كان قد رد عليه في بعض المسائل وكان ابن عقيل بارعاً في الكلام ، ولم يكن تام الخبرة بالحديث والآثار فلهذا يضطرب في هذا الباب ، وتتلون آراؤه ، وأبو الفرج تابع له في هذا التلون "(١) .

الفصل الثالث

موقفه من المنطق وعلم الكلام

المبحث الأول : موقف السيوطي من المنطق

المطلب الأول : نشأة المنطق وتعريفه

أولاً : نشأة المنطق

مـر الفكـر اليوناني بأزمة شديدة عندما طغى عليه الجدل السوفسطاني ، الذي ظهر في النصف الثاني من القرن الخـامس وأوائـل الـرابع قبل الميلاد(٢) ، وذلك الجدل الذي كانت غاية صاحبه الغلبة بكل وسيلة ، فهو يهدف إلى تحقيق النصـر عـلى الخصم فقط لا لإستخلاص الحقيقة(٣) ، فالسوفسطائي يدعي أن الحق مسألة نسبية إضافية وهو ما يراه كل شـخص فـي نفسه(٤) ، فالخطأ إذاً مستحيل لأن الإنسان هو مقياس الحق ، فما يراه حقاً فهو كذلك وإن رأى الناس جميعاً عكسـه فالمتنازعان في قضية ما كل منهما محق ، ولهذا كثيراً ما كان السوفسطائي يعضد وجهة نظره بالحجج حتى تبدو وكأنها قضية يقينية ، ثم يكر عليها فينقضها ويبرهن على صدق نقيضها(٥) .

ثم ظهر (سقراط)(٦) فأفسد على السوفسطائيين جدلهم العقيم(٧) ، وذلك بأن وضع أسساً جديدة لفن الحوار والجدل ، فبنى طريقته على مناقشة المقدمات والآراء السائدة ، والتي تستنبط منها النتائج ، فهو يبحث مع مجادليه – دون ملل عن الـتعريف الحقيقـي للأشياء(٨) ، أي عن التعريف الذي يعبر عن ماهية الشئ المعرَّف ، بمعنى أنه كان يبحث عن جوهر

---

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب (٤/٣٣١) .

(٢) انظـر : د/ عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ص/٢٤٩ ط١ مكتبة مدبولي – القاهرة بدون تاريخ ، د/ محمد عزيز نظمي سالم : تاريخ الفلسفة ص/٥٣ وما بعدها مؤسسة شباب الجامعة – الاسكندرية بدون تاريخ ولا طبعة .

(٣) انظر : د/ عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ص/٢٥٠ . و د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ص/١٠ .

(٤) انظر : د/عبدالسلام محمد عبده : المنطق والفكر الانساني ص/ ٨،٩ بدون طبعة وتاريخ .

(٥) انظر : د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص/١٠ – مكتبة الأنجلو المصرية –ط٣ .

: د/ محمد عزيز نظمي سالم : تاريخ الفلسفة ص/٥٣ وما بعدها .

: يوسف كـرم : تـاريخ الفلسـفة اليونانيـة ص/٤٤-٤٦ ط٥ ، بـدون تـاريخ ، مكتـبة النهضة المصرية .

: د/ عبدالسلام محمد عبده : المنطق والفكر الإنساني ص/ ٨،٩ .

(٦) ولـد في أثينا ، وتعلم فيها واتهم بالإلحاد ، وحكم عليه بالإعدام ، كان نحاتاً كأبيه ، ولكن الميل إلى الحكمة ، اشتدت به في سن مبكرة ، فأخذ يغذي عقلـه ويهذب نفسه ، واقتنع بأن العلم إنما هو العلم بالنفس لأجل تقويمها ، فكان شعاره " اعرف نفسك " قيل عنه : إنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض أي أنزل الفلسفة من البحث في الأفلاك والعناصر إلى البحث في النفس وفيما يؤدي إلى خيرها . انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص/٥٠ ، د/عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية /٢٤٤،٢٤٥ .

(٧) انظر : د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص/١١ .

(٨) انظر : د/ عبدالسلام محمد عبده : المنطق والفكر الانساني ص/٨،٩ .

الأشـياء محـاولاً استخدام القياس[١] ، كما أنه كان يساعد خصمه على الوصول إلى الحقيقة عن طريق ما يسمى بطريقة الـتوليد[٢] ، فقد كانت أمه قابلة وكان يشبه نفسه بالقابلة لأن صناعته توليد المعاني في نفوس الرجال ، واستخلاص الأفكار من العقول ، والحق من الصدور[٣].

ثـم أعقبه تلميذه " أفلاطون [٤]" - (نحو ٤٢٧-٣٤٧ق.م) فزاد على طريقة استاذه تحديداً أكثر لمعاني الألفاظ والتعريفات حتى لا يوجد مجال للمغالطة ، ووضع فكرة " الجدل الصاعد " و نظرية المثل "[٥] ، ثم ظهر من بعده تلميذه " أرسـطو "[٦] (نحـو ٣٨٤- ٣٢٢ ق.م) ليـتوج هذه الجهود الفكرية فيما سماه بالتحليلات (أي المنطق)[٧] ، فقعد له ، ورتـب مباحـثه ، وحـدد مصـطلحاته ، ورتب مسائله ، وفصوله ، فنسب إليه المنطق نسبة صياغة وإظهار ، لا ابتداء واختراع[٨] . وذلك لأن أرسطو ، وجد في طريقة أفلاطون الجدلية منبعاً لتصنيف الكليات الخمس وبيان أنواع القضايا به .

قـال ابـن خلدون : (وتكلم فيه - أي المنطق - المتقدمون أول ما تكلموا به جُملاً جُملاً ، ومفترقاً ، ولم تهذب طـرقه ، ولـم تجمـع مسائله حتى ظهر في يونان " أرسطو " فهذب مباحثه ، ورتب مسائله وفصوله ، وجعله أول العلوم الحكمية وفاتحتها ، ولذلك يسمى بالمعلم الأول وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى " النص "[٩])[١٠] .

ثم بعد ذلك بدأ دخوله على المسلمين في عهد الدولة العباسية ، متأثراً بأسلوب اللغة اليونانية[١١] .

وكـانت أول الحـوادث فـي عهدها اخراج الكتب اليونانية إلى أرض الاسلام ، وذلك علي يد يحي بن خالد ابن بـرمك[١] ، وكـان وزيراً لهارون الرشيد[٢] ، فطلب يحي البرمكي كتب اليونان من ملك الروم وكانت محجوبة عن أنظار

---

(١) انظر : د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ص/ ١١ .
: و يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص/٥٢،٥٣ .

(٢) انظر : د/ محمد عزيز نظمي سالم : تاريخ الفلسفة ص/٦٢،٦٣ .
: يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص/٥٢،٥٣ .

(٣) انظر : د/ عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية ص/٢٤٤ .

(٤) فيلسوف إغريقي ، يعتبرونه بداية فلسفة الغرب السياسية نحو (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) الموسوعة الفلسفية (ص ٥٢-٥٥) .

(٥) انظر : د/محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص/١٢، وتاريخ الفلسفة اليونانية ، ليوسف كرم (ص ٦٧،٦٩) وما بعدها .
والمُثُل الأفلاطونية : هي التي قالها في كتابه المسمى (عوغياس) سرياني وفيها كتاب برقلس الأفلاطوني . كشف الظنون (١٥٨٦/٢) .

(٦) ويقال أرسطاطاليس وأرسطوطاليس ، وهو الأقرب إلى الأصل اليوناني ، هو ابن نيقوماخس الطبيب المشهور ، وأرسطو هو رأس الحكماء المشائين ويعرف بالمعلم الأول ، لأنه أول من وضع التعاليم المنطقية ، انظر كتاب : دائرة المعارف لبطرس البستاني ٧٥/٣ وما بعدها مؤسسة . مطبوعاتي اسماعيليان ١٨٧٨م - ١٢٩٥هـ طهران بدون طبعة .

(٧) أول من أطلق اسم المنطق على هذا الفن هم شراح أرسطو ، وليس أرسطو نفسه ، انظر : المعجم الفلسفي لجميل صليبا ٤٢٨/٢ ، ومدخل إلى علم المنطق للدكتور/ مهدي فضل الله ص/١٨ دار الطليعة ط١/١٩٧٧م بيروت .

(٨) انظـر : أبو الفتح محمد عبدالكريم الشهرستاني : الملل والنحل ص/٣٧٤ ت: عبدالعزيز الوكيل - دار الفكر - بيروت بدون تاريخ ولا طبعة ، د/ محمود قاسم : المنطق الحديث ص/١٥ .

(٩) قال د/ علي عبدالواحد وافي : اسم كتابه " الأورجانون " ومعنى هذه الكلمة باليونانية " الآلة " أي إنه آلة تعصم الفكر من الخطأ فترجمته بالنص غير صحيحة . المقدمة (١١٣٧/٣) حاشية .

(١٠) مقدمة ابن خلدون (١١٣٧/٣) - ت: د/ علي عبدالواحد وافي ط٣/ بدون تاريخ دار نهضة مصر للطبع والنشر - الفجالة / القاهرة.

(١١) انظـر : عبدالمتعال الصعيدي : تجديد المنطق ص/٥، د/ محمد حسني الزين : منطق ابن تيمية ومنهجه الفكري ص/٣٠ المكتب الاسلامي ط١/ ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م - بيروت .

النصـــارى خشية افتتانهم بها ، فجد الأخير في إرسالها إلى الوزير العربي طلباً في الخلاص من شرها ، ورغبة في إفساد أحـــوال المســـلمين ، حـــتى قال أحد بطارقة الروم : " فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها ، وأوقعت بين علمائها "[٣] فجمع عليها البرمكي كل زنديق وفيلسوف[٤] ، ومنذ ذلك الحين انتشر شرها في دولة الإسلام كما قال البطريق

ويرى بعض الباحثين أن هذا الانتقال كان قبل ذلك ، أي في عهد الأمويين ، وعلى يد خالد بن يزيد بن معاوية[٥] (ت ٩٠هـــ) ، قال ابن النديم : " خطر بباله حب الصنعة (الكيمياء) فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر ، وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربية ، وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة "[٦] .

يقـــوي هـــذا الراي أيضاً ما ذكره أبو الفتح الشهرستاني عن أصحاب واصل بن عطاء[٧] ، أنهم قد طالعوا بعض كتب الفلاسفة[٨] .

والـــذي يظهـــر لي من كلا الرأيين : أن هذه الكتب الفلسفية ابتدأ دخولها ونقلها من اليونانية إلى العربية في العهد الأموي كما ذكر ابن النديم والشهرستاني ، ثم كثرت وشاعت في العهد العباسي ، في زمن البرمكي ، ثم استفحل أمرها أيام المأمون لما أثاره من البدع وحث عليه من الاشتغال بعلوم الأوائل وإخماد السنة[٩] .

بقى أن نقول : إنه مع ذلك فلم تكن كتب الفلاسفة والمنطق محل تقدير عند أهل العلم من جميع طوائف المسلمين : أهـــل الســـنة والجماعـــة ، والمعتزلة ، والأشاعرة ، والكرامية[١٠] ، والشيعة ، بل كان كل من يشتغل بها معروفاً عند المسلمين بالإلحاد والزندقة ، كالفارابي[١] (ت ٣٣٩هــ) والكندي[٢] ، وابن سينا[٣] ، وغيرهم[٤] .

---

(١) يحيـــي بـــن خـــالد بن برمك ، أبو الفضل ، الوزير السري الجواد ، سيد بني برمك وأفضلهم ، وهو مؤدب الرشيد العباسي ، ومعلمه ومربيه ، انظر : ارشاد الأريب ٢٧٢/٧ ، وفيات الأعيان ٢٤٣/٢ ، البداية والنهاية ٢٠٤/١٠ ، المسعودي ٢٢٨/٢ ، تاريخ بغداد ١٢٨/١٤ ، الأعلام ١٤٤/٨ .

(٢) هارون (الرشيد) ابن محمد (المهدي) ابن المنصور العباسي ، أبو جعفر ، خامس الخلفاء العباسيين في العراق ، ولد بالري (١٤٩هــ-٧٦٦م) ، بويع بالخلافة (١٧٠هــ) ، انظر : البداية والنهاية ٢١٣/١٠ ، ابن الاثير ٦٩/٦ ، الطبري ٤٧،١١٤/١٠ الأعلام ٦٢/٨ .

(٣) السيوطي : صون المنطق والكلام (ص/٩) – ت د/علي سامي النشار .

(٤) نفسه (ص/٨) .

(٥) خـــالد بـــن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، الأموي ، القرشي ، أبو هاشم ، انظر : الفهرست لابن النديم ٢٤٢/١ ، البيان والتبين للجاحظ ١٧٨/١ ، الوفيات ١٦٨/١ ، تهذيب ابن عساكر ١١٦/٥ وفيه وفاته سنة (٩٠هــ) ، ابن الوردي (١٧٩/١) وذكره في وفيات سنة ٨٢هــ – الأعلام (٣٠٠/٢).

(٦) ابـــن النديم : الفهرست (٢٤٢/١) ، وانظر : د/ على سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الاسلام ص/٥ . دار المعارف – مطبعة المصري – ط١٣٨٥/٢هــ-١٩٦٥م – مصر، وانظر : د/ محمد حسني الزين : منطق ابن تيمية (ص/٣١،٣٢) .

(٧) واصـــل بن عطاء الغزال ، أبو حذيفة ، من موالي بني ضبة أو بني مخزوم ، رأس المعتزلة ، ومنهم طائفة تنسب إليه خاصة تسمى " الواصلية " ، ولـــد بالمدينة (٨٠هــ – ٧٠٠م) ت (١٣١هــ – ٧٤٨م) ، انظر : المقريزي (٣٤٥/٢) وفيات الأعيان (١٧٠/٢) ومروج الذهب (٢٩٨/٢) ، آمال المرتضـــى (١١٣/١) فـــوات الوفيـــات (٣١٧/٢) ، تاريخ الإسلام للذهبي (٣١١/٥) ، النجوم الزاهرة (٣١٣/١-٣١٤) لسان الميزان (٢١٤/٦) ، شذرات الذهب (١٨٢/١) الأعلام (١٠٨/٨) .

(٨) انظر : الملل والنحل (ص/٤٦) ، ت عبدالعزيز الوكيل .

(٩) انظر : السيوطي : صون المنطق (ص/١٢) .

(١٠) هم : أصحاب ابي عبدالله محمد بن كرام ، وهم من جملة الصفاتية ، قال الأشاعرة عنهم إنهم يعتقدون التشبيه ، ويقولون بحلول الحوادث في ذات الـــرب (تعالى) وهذا لا يثبت عنهم ، كما حكى عنهم القول بالتحسين والتقبيح العقليين كقول المعتزلة ، وأن الإيمان هو الاقرار باللسان فقط دون التصديق بالقلب وعمل الجوارح ، انظر : الملل والنحل للشهرستاني (ص/١٠٨) ، وما بعدها ، والفرق بين الفرق للبغدادي (ص/٢١٥) وما بعدها .

ثـم بعد ذلك حصل أول مزج حقيقي بين المنطق وعلوم المسلمين وذلك على يد الشيخ أبي حامد الغزالي ، حيث أداه اجتهاده إلى وجوب تعلم المنطق ، بل جعله شرطاً في تحصيل العلوم ، فهو في نظره معيار العلوم وميزانها ، وصنف فـي ذلـك " معيـار العلم " ، و " مقاصد الفلاسفة " و " محل النظر " و " القسطاس المستقيم " كما صرح في بداية كتابه المستصفى(٥) : أن من لا يحيط بالمنطق فلا ثقة بعلومه أصلاً .

وهـذا كلام الغزالي في كتابه معيار العلم ، قال : " ...فلما كثر في المعقولات مزلة الأقدام ، ومثارات الضلال ، ولـم تـنفك مرآة العقل عما يكدرها من تخليطات الأوهام ، وتلبيسات الخيال ، رتبنا هذا الكتاب معياراً للنظر والاعتبار ، وميـزاناً للبحث والافتكار ، وصيقلاً للذهن ، ومشحذاً لقوة الفكر والعقل ، فيكون بالنسبة إلى أدلة العقول كالقروض بالنسبة للشـعر ، والـنحو بالاضافة إلى الإعراب ، إذ كما لا يعرف منزحف الشعر عن موزونه إلا بميزان العروض ، ولا يميز صواب الاعراب عن خطئه إلا بمحك النحو ، كذلك لا يفرق بين فاسد الدليل وقويمه ، وصحيحه وسقيمه إلا بهذا الكتاب . فكل نظر لا يتزن بهذا الميزان ، ولا يعهاير بهذا المعيار ، فاعلم أنه فاسد العيار غير مأمون الغوائل والأغوار "(٦) .

فَرأيُ الغزالي من كلامه هذا واضح وصريح في أن من لم يتبع قواعد هذا المنطق في بحثه واستدلاله – كما قدمنا – فإنه لا يوثق بعلمه ، ولا بنتائج أبحاثه ويكون نظره فاسداً وعلمه لا وزن له ، وبسبب تهويل الغزالي ، وتفخيمه لأهمية المنطق ، حَرَص كثير من العلماء الذين أتوا من بعده على دراسة المنطق وتحصيله حتى يستكمل شرائط النظر والاجتهاد ، ويكون أهلاً للتأليف والفتوى(٧) ، وذلك ظناً منهم أنه لا يبلغ أحدهم درجة الاجتهاد إلا بعد تحصيل علم المنطق ، وقد يدهش القارئ ويتملكه العجب حين يعلم أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح اعتبر ما قام به الغزالي من خلطه المنطق بعلوم الاسلام ، بدعـة صـار شؤمها عظيماً على من أتوا من بعده ، قال أبو عمرو : " ولقد أتى بخلطة المنطق باصول الفقه بدعة عظم

---

(١) هـو : أبـو نصـر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، تركي الأصل ، يحسن اليونانية ، وأكثر اللغات الشرقية ، في وقته ، يلقب بالمعلم الثاني لشـرحه مؤلفـات المعلم الأول أرسطو ، له : إحصاء العلوم ، وآراء أهل المدينة الفاضلة ، وغيرها . كان يقول بالمعاد الروحاني وخصه بالأرواح العالمة دون الجاهلة ، وله في ذلك مذاهب يخالف فيها سبيل المؤمنين والفلاسفة من سلفه الأقدمين ، قال ابن كثير : " فعليه – إن كان مات على ذلك – لعـنة رب العالمين " وقال أيضاً : " ولم أر الحافظ ابن عساكر ذكره في تاريخه لفتنه وقباحته " . ولد سنة (٢٦٠هـ) ، وتوفي سنة (٣٣٩هـ) . انظر : البداية والنهاية (٢٢٤/١١) حوادث سنة (٣٣٩هـ) ، وفيات الأعيان (٧٦/٢) طبقات الأطباء (١٣٤/٢-١٤٠) ، حكماء الإسلام ٣٠ ، دائرة المعارف الاسلامية (٤٠٧/١-٤١٢) الأعلام (٢٠/٧) .

(٢) هو : أبو يوسف يعقوب بن اسحاق الصباح ، فيلسوف وأحد ابناء ملوك كندة ، ت سنة (٢٦٠هـ-٨٧٣م) . انظر : طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (٧٣) أخبار الحكماء للقفطي (٢٤٠-٢٤٧) ، الأعلام (١٩٥/٨) .

(٣) هـو : أبو علي الحسين بن عبدالله بن سيناء ، شرف الملك ، الفيلسوف الذي يدعى الرئيس ، أصله من بلخ ومولده في إحدى قرى بخارى (٣٧٠هـ-٩٨٠م) ت (٤٢٨هـ-١٠٣٧م) قال ابن القيم : " كان ابن سينا – كما أخبر عن نفسه – هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم ، من القرامطة الباطنيين " وقال ابن تيمية : " وكان أهل بيته من أهل دعوة الحاكم العبيدي الذي= = كان هو وأهل بيته معروفين عند المسلمين بالالحاد " انظر : وفيات الأعيان (١٥٢/١) ، تاريخ حكماء الاسلام ٢٧-٧٢ ، دائرة المعارف الاسلامية (٢٠٣/١) ، إغاثة اللهفان لابن القيم (٢٦٦/٢) ، الأعلام (٢٤٢/٢) .

(٤) انظر : الرد على المنطقيين (ص/٣٣٧) ، وتجديد علم المنطق لعبد المتعال الصعيدي (ص/٥) وموقف أهل السنة القدماء بإزاء علوم الأوائل – مقالة للمستشرق جولد تسيهر ضمن كتاب المستشرقين جمعها الدكتور عبدالرحمن بدوي مكتبة نهضة مصر ، وانظر مقدمة ابن خلدون (ص/٤٨٣) .

(٥) (١٠/١) ، وانظر الرد على المنطقيين لابن تيمية (ص/١٥،١٤) .

(٦) معيار العلم (ص/١٢) ت: مصطفى أبو العلا .

(٧) انظر : ما رُمي به جلال الدين السيوطي من عدم استكماله للمنطق وذكر ذلك في أول كتابه صون المنطق (ص/١) .

شـؤمها عـلى المـتفقهة حتى كثر بعد ذلك اللمتفلسفة ، والله المستعان "[1] ولم يكن ابن الصلاح وحده هو الذي أنكر على الغزالي فعله ذلك ، فقد وجدنا شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً من أشد المنكرين لصنيع الغزالي ، وقد أخبر ابن تيمية كذلك أن العقـلاء والفضلاء من المسلمين ظلوا ينكرون ذلد ، ويطعنون عليه بسببه ، قال ابن تيمية : " لكن بسبب ما وقع منه – أي الغـزالي – فـي أثناء عمره ، وغير ذلك ، صار كثير من النظار يدخلون المنطق اليوناني في علومهم ، حتى صار من يسلك طريق هؤلاء من المتأخرين يظن أنه لا طريق إلا هذا ... ولا يعلم أنه مازال العقلاء والفضلاء من المسلمين وغيرهم يعيبون ذلك ، ويطعنون فيه ، وقد صنف نظار المسلمين في ذلك مصنفات متعددة "[2] .

ويتـبين مـن هذا أن دخول المنطق علوم المسلمين لم يكن محبوباً ولا مرغوباً لأي جماهير العلماء والأئمة ، بل قوبل منهم بالإنكار والرفض ، وعدم القبول ، وتأثيم من يشتغل به ، ويترك الوحي الذي جاء بالحق ، والهدى .

ولعلـه من المتبادر إلى الذهن أن يقال : إذا كان علماء الأمة وأئمتها جابهوا المنطق بالرفض والكراهية والتحريم إذاً فلماذا تمكن بعد ذلك من أهل العلم وتغلغل في مصنفاتهم ، حتى أصبح كثير منهم يعتبرونه مقدمة ضرورية لكثير من العلوم ؟ .

أقـول إن دخـول المنطق على المسلمين حصل على يد عالم فحل من فحول الأمة (هو أبو حامد الغزالي والذي لقـبه البعض بحجة الإسلام) ، ولقد كان محل تقدير كبير للعلماء الذين عاصروه ، وكذلك الذين أتوا من بعده ، وكان هذا الـتقدير والاكبار للشيخ أبي حامد سبباً عظيماً لأن يأخذوا ذلك عنه من غير بحث ولا تمحيص ، ثقة منهم بعلمه وفضله ، ولا شك أن هذا التلقي غير المدروس ، هو التقليد المذموم الذي أدى إلى هذا التغلغل لعلم المنطق ولذلك ينبغي أن لا يتلقى المسلمون شيئاً إلا شيئاً يوافق أصول دينهم ، ومبادئ عقيدتهم ، كما أن نظرة الاكبار والإجلال لأحد الأئمة لا يسوغ لنا أن نقـبل منه كل شئ دون عرضه على أدلة الوحي المعصوم ، فكثيراً ما وقع الانحراف والضلال بسبب التلقي التقليدي الذي ذمه رب العزة – جل وعلا – بقوله : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)[3] . يستخلص من ذلك عدة أمور :

<u>أولاً :</u> أن المـنطق عـلم غير اسلامي ، فقد نشأ علماً وثنياً ، متولداً من أفكار بشرية ، ونما في أحضان الفلسفة ، التي لم يعـرف أصـحابها هـدى القرآن الكريم ، ولم يستنيروا بمنهاج السنة النبوية بل كانوا أهل شرك وإلحاد ، بل ما كان عند مشركي العرب من الكفر والشرك خير مما عند الفلاسفة[4] فهو علم ارضى لم يهتد بهدى الأنبياء .

<u>ثانيـاً :</u> أن النـبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لم يعرفوه ، ولم يأمروا به أو يحثوا الأمة عليه . فهو من البدع السيئة فإن شريعة الإسلام ليست موقوفة على شئ يتعلم من غير المسلمين أصلاً[5] .

---

(١) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية (ص/١٣٣) .

(٢) الرد على المنطقيين (ص/١٩٨) .

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٠) .

(٤) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص/ ١٠١،٥٣٥ ، وما بعدها .

(٥) نفسه ص/٢٥٨ .

ثالـــثاً : أن علماء الأمة الناصحين اعتبروا نقله وترجمته وادخاله إلى المسلمين نكته سوداء في جبين كل من ساهم أو أمرأ واشتغل به وجد في تحصيله .

واعتـــبره البعض بدعة مشؤمة على الإسلام وأهله فإن المسلمين لم يأخذوا بالمنطق الأرسطي بل رفضوه بشدة ، ولا يــزال فيهم الآن من يرفضه ويحرمه لملابسته العلوم الفلسفية المباينة للعقائد الصحيحة[١] ، ولا يزال يتردد قول بعض العــلماء : " نعوذ بالله من قياس فلسفي وخيال صوفي "[٢] وإن علماء السنة إنما حذروا من المنطق وأهله ومن الاشتغال به لــئلا يغــتر بعض المسلمين به عندما يرى صدق بعض قضاياه فيظن أن قضاياه كلها صادقة ، وقد نبه إلى ذلك الشيخ أبو حــامد الغــزالي فقال : " وربما ينظر في المنطق أيضاً من يستحسنه ويراه واضحاً ، فيظن أن ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين ، فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية "[٣] وهذا الكلام من أبي حامد - رحمه الله - يؤخذ منه ، ويؤاخذ به ، أما كونه يؤخذ منه فلأنه إشارة واضحة إلى أنه لا ينبغي الوثوق في كل قضايا المنطق ، وذلك لما يحملـــه مـــن كفريات - كما قال - فمن وثق ببعض قضاياه ، يخش عليه أن يصدق بتلك الكفريات فيستعجل الوقوع فيها (خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين)[٤] .

وأمـــا كونـــه يؤاخـــذ به ، فلأن أبا حامد بالرغم من معرفته بحال المنطق ، وخبرته به ، واشارته إلى المحظور الخطيـــر المترتب عليه ، فقد بالغ في مدحه والثناء عليه ، والتعظيم من شأنه حتى جعله أساس العلوم ومعيارها وميزانها ، وهـــذا يعـــد تناقضاً في الرأي ، وتضاداً في الرؤية ، فإذا كان المنطق ينطوي على أصول فاسدة لا تؤمن غوائلها ، فلماذا التهويل من شأنه ، والتعظيم لأمره ، سيما وأن المسلمين ليسوا بحاجة إليه ، وقد مضت القرون المفضلة دون معرفته ، وقد كانت أقرب القرون إلى الله تعالى ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأسلمها حجة ، وأقواها برهاناً .

وهـــا هـــو شـــيخ الإسلام ابن تيمية ينبه إلى ما نبه إليه الغزالي من قبل ، بل جعل فساد أصول الفلاسفة في الإلهيات بســـبب اعتمادهم على المنطق قال ابن تيمية : " كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ، ولا ينتفع به البليد ، ولكـــن كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيت من صدق كثير من قضاياه ... وتبين لي أن كثيراً فما ذكروه في أصولهم في الإلهيات وفي المنطق هو من أصول فساد قولهم في الإلهيات "[٥] . ولو اقتصر الأمر على عدم صدق بعض قضايا المـــنطق لهـــان الأمـــر ، وسهل الخطب ، لكنه مع ذلك يلزم من اعتقده لوازم باطلة وعقائد فاسدة تناقض العلم والإيمان وتفضي إلى أنواع من الجهل والكفر والضلال[٦] ومن ذلك قولهم بقدم العالم فهم يعتقدون أن الإله لا يسبق العالم في الوجود

---

(١) انظر : د/ على سامي النشار : مناهج البحث عن مفكرة الإسلام (ص/٢٧،٢٨،٨٦) ط٤ دار المعارف - ١٩٧٨م .

(٢) ابـــن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٤٨٢) وهو من كلام أبي القاسم السهيلي صاحب : " الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لإبن هشام " ومن قول شيخه أبي بكر بن العربي أيضاً .

(٣) المنقذ من الضلال (ص٩٣) ، ط ابن زيدون ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م ، دمشق .

(٤) سورة الحج ، بعض الآية (١١) .

(٥) الرد على المنطقيين (ص ٣،٤) .

(٦) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/١٩٨) .

الزمني وإن كان يسبقه في الوجود الفكري مثلما تسبق المقدمة النتيجة في الوجود الفكري[١] ، فالإله – عندهم – متقدم على العـالم بالرتـبة لا بالـزمان[٢] . وهذا مما انكره الشيخ أبو حامد الغزالي عليهم وكفرهم به[٣] ، هو وغيره من علماء المسـلمين ، ومن ذلك – أيضاً – إنكارهم النبوات[٤] أو قولهم بأنها مكتسبة تستعد لها النفوس بأنواع الرياضات ، كما كان يسـتعد لهـا السهروردى [٥] المقتول ، وابن سبعين[٦] وهناك لوازم أخرى فاسدة أثرت عدم ذكرها خشية الإطالة وخروج الموضوع عن مقصوده[٧] .

ثانياً : تعريف المنطق ونبذة مختصرة عنه :

يعـرفه أرسـطو نفسه بأنه : آلة العلم ، وموضوعه الحقيقي هو العلم نفسه ، أوصورة العلم "[٨] وقد أثر تعريف أرسطو للمنطق في العصور الوسطى إسلامية ونصرانية فردد الإسلاميون التعريف كما هو ، وكذلك فعل النصارى[٩] .

وعرفه ابن سينا بقوله : " المراد من المنطق أن يكون عند الإنسان آلة قانونية تعصمه مراعاتها عن أن يضل في فكره "[١٠]

ويعـرف ابـن سينا أيضاً بقوله : " المنطق هو الصناعة النظرية التي تعرفنا من أي الصور والمواد يكون الحد الصـحيح ، الذي يسمى بالحقيقة حداً والقياس الصحيح الذي يسمى برهاناً "[١١] وهو تعريف ارسطاطاليسي بحت يتضمن تفسيرات معلمه الأول (أرسطو) كما يتضمن تقسيماته له[١٢] .

أما الغزالي فيعرفه في " معيار العلم " بقوله : " إن مضمونه تعليم كيفية الانتقال من الصور الحاصلة في ذهنك ، إلى الأمور الغائبة عنك ، فإن هذا له هيئة وترتيب إذا روعيت أفضت إلى المطلوب ، وإن أهملت قصرت عن المطلوب "[١٣] .

ويقـول أيضـاً فـي " مقاصد الفلاسفة " : " إنه القانون الذي يميز صحيح الحد والقياس عن غيره ، فيتميز العلم اليقيـني عما ليس يقينياً وكأنه الميزان أو المعيار للعلوم كلها "[١٤] وهو أيضاً تعريف لا يبعد كثيراً عن تعريف ابن سينا ، الذي يرجع بدوره إلى تعريف أرسطو .

---

(١) انظر : الأستاذ : علي لبن : الغزو الفكري في المناهج الدراسية (ص/٣٢) – دار الوفاء ط١/١٤٠٧هـ–١٩٨٧م ، مصر .

(٢) انظر : أبو حامد الغزالي : تهافت الفلاسفة (ص/٤٨) ، ط٣ دار المشرق ، بيروت – بتقديم ماجد فخري .

(٣) انظر : تهافت الفلاسفة (ص/٤٨) وما بعدها (ص/٢٥٤) بتقديم : ماجد فخري .

(٤) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٢٧٧) .

(٥) يحيى بن حبش بن أميرك ، أبو الفتوح شهاب الدين السهرودي ، فيلسوف – مختلف في اسمه – ، وفيات الأعيان (١/٢٦١) ، النجوم الزاهرة (٦/ ١١٤) ، أعلام النبلاء (٤/٢٩٢٩) ، لسان الميزان (٣/١٥٦) ، الأعلام (٨/١٤٠) .

(٦) نفسه : (ص/٤٧٥،٤٧٤،٣٠٢،٣٠١) ، وابن سبعين : هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الإشبيلي المرسي الرقوطي قطب الدين ، أبو محمد ، من القائلين بوحدة الوجود ، جلاء العينين (ص١٥) ، فوات الوفيات (١/٢٤٧) ، شذارت الذهب (٥/٣٢٩) ، الأعلام (٣/٢٨٠)

(٧) لمـزيد من معرفة هذه اللوازم الباطلة الفاسدة ينظر : عثمان بن علي حسن : منهج الإستدلال على مسائل الاعتقاد عن أهل السنة والجماعة (جـ٢/ ٦١٣) وما بعدها مكتبة الرشد – الرياض ط٣/ ١٤١٥هـــ – ١٩٩٥م .

(٨) د/ علي سامي النشار : المنطق الصوري منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة (ص/٦) ط٥ / ١٩٧١م – دار المعارف بمصر .

(٩) نفسه (ص/٧) .

(١٠) ابن سينا : الإشارات والتنبيهات مع شرح نصير الدين الطوسي القسم الأول (ص/١١٧) د. سليمان دنيا ط٣ / دار المعارف القاهرة – مصر .

(١١) ابن سينا (ص/٣) نقلاً عن د. علي سامي النشار : المنطق الصوري ص/٧ .

(١٢) انظر : د. علي سامي النشار : المنطق الصوري (ص/٧) .

(١٣) (ص/٢٧) .

(١٤) (ص/٣) .

وقد ردد الغزالي نفس هذا المعنى لتعريف المنطق في بقية مصنفاته " كالمستصفى " و " محك النظر "[١] .

فالمناطقة إذاً يعتبرونه قواعد أو قانون من يراعيه في طريقة بحثه وأصله إلى مطلوبه فهو كما قال ابو حامد عبارة عن تعليم كيفية الانتقال من صور حاصلة ، أي مقدمات معلومة حتى يصل منها إلى أمور غائبة مجهولة ، أو هو كما قيل : الانتقال من المعلوم إلى المجهول .

فهو بذلك بمثابة الآلة المستخدمة في صناعة العلوم الفلسفية العقلية ، لذلك قال الجرجاني (ت٨١٦هـ)[٢] في تعريفاته : " المنطق : آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في الفكر " فهو كالنحو للسان ، والعروض للشعر . فالذي يراعي قواعد النحو لا يقع منه خطأ في الكلام عندما يتكلم أو يكتب .

ويبدو أن هذا التعريف هو الذي استقر عليه الباحثون من قبل الجرجاني لذا وجدنا ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) قد سبق الجرجاني به حيث يقول : " يزعمون أنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن أن يزل في فكره "[٣] .

ويقول في موضع آخر : " فإنهم يزعمون أنه : آلة قانونية تمنع مراعاتها الذهن أن يزل في فكره "[٤] فهو إذاً علم يبحث فيه عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث إنها توصل إلى مجهول تصوري أو تصديقي وهم بهذا يقسمون العلم إلى تصور وتصديق وكل من التصور والتصديق ينقسم إلى ضروري ونظري ، فالأقسام أربعة :

١- تصور ضروري . ٢- تصور نظري .

٣- تصديق ضروري . ٤- تصديق نظري .[٥]

فادراكنا معنى كلمة (زيد) هو تصور ، وإدراكنا معنى كلمة (قائم) هو تصور أيضاً ، والتصور الضروري هو الذي لا يحتاج إلى تأمل ونظر ومثاله : إدراك أن الواحد نصف الاثنين ، والتصور النظري هو الذي يحتاج إلى تأمل وفكر ونظر ومثاله : إدراك أن الواحد نصف سدس الاثنى عشر .

والتصديق : هو إدراك وقوع النسبة بين كلمة (زيد) وبين كلمة (قائم) ، فكلمة (زيد قائم) اشتملت على تصورات أربعة :

١- تصور الموضوع : وهو (زيد) . ٢- وتصور المحمول : وهو (قائم) .

٣- وتصور النسبة بينهما وهو تعلق المحمول بالموضوع . ٤- تصور وقوع النسبة بينهما .

والتصور الرابع هو التصديق[٦] ، أما معنى الموضوع والمحمول :

---

(١) انظر : د/ علي سامي النشار : المنطق الصوري (ص/٧) .

(٢) كتاب التعريفات (ص/٢٠٨) .

(٣) الرد على المنطقيين (ص/٧) .

(٤) نقض المنطق (ص/١٥٧) .

(٥) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٤) ،
: الشيخ أحمد الدمنهوري : إيضاح المبهم من معاني السلم في المنطق (ص/٥) ط ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م - الحلبي وأولاده .

(٦) انظر : الدمنهوري : إيضاح المبهم (ص/٥،٦) .

فالموضـــوع : هـــو المبتدأ عند النحاة ، وهو الذي يقتضي خبراً وهو الموصوف ، وهو في مثالنا (زيد) والمحمول : هو خبر المبتدأ ، وهو الصفة ، وهو في مثالنا كلمة (قائم) .

فزيد هو الموضوع ، وقائم هو المحمول[١] . أما التصديق الضروري ، فهو إدراك وقوع النسبة في قولنا : الواحد نصـــف الاثـــنين ، والتصديق النظري : هو إدراك وقوع النسبة في قولنا : الواحد نصف سدس الاثنى عشر ، وعلى هذا فالعلوم منحصرة في التصورات والتصديقات ، لذلك قالوا : العلم إما تصور وإما تصديق[٢] .

" والنظري منهما لابد له من طريق ينال به ، فالطريق الذي ينال به التصور هو الحد[٣] ، والطريق الذي ينال به التصديق هو القياس "[٤]. ولكل من التصورات والتصديقات مبادئ ومقاصد .

فمبادي التصورات : الكليات الخمس وهي : " الجنس " و " النوع " و " الفصل " و " الخاصة " و " العرض العام "[٥] ومقاصد التصورات هو " القول الشارح " يعني " الحد " أو " التعريف "[٦] .

ومبادئ التصديقات : القضايا وأحكامها، والقضايا هي " المقدمات " وهي إما " موجبة " ، وإما " سالبة " وكل منهما إما " كــلية " وإما " جزئية "[٧] ومقاصد التصديقات هو القياس ، وقد قدمنا عن ابن تيمية – قبل أسطر – أن القياس هو الطريق الذي تنال به التصديقات .

أمـــا غايـــته وفائدته : فتظهر فائدته مما قدمنا من تعريفه فهو – كما يقولون – يمنع الذهن من الخطأ والزلل في التفكير والبحث والاستدلال ، " فمن تمكن من هذا الفن صار النظري من المعاني المستورة ضرورياً مكشوفاً واضحاً له "[٨]

فهذا مختصر موجز جداً عن المنطق وتعريفه و مضمونه .

المطلب الثاني : السيوطي يهدم المنطق ويحرمه

لما ادعى السيوطي أنه مجتهد الأمة الإسلامية في وقته[٩] ، لم يُسلَّم له ذلك بسبب حدة أخلاقه ، واعتداده بنفسه في بعـــض الأحيـــان ، وكـــان مما رموه به أنه لا يعرف فن المنطق ولا يتقنه ، ولهذا فلا ينبغي له – في زعمهم – أن يرفع عقيرته بوصوله إلى مرتبة الإجتهاد ، وذلك لأنهم يرون أن من شروط الإجتهاد اتقان فن المنطق .

---

(١) انظر : أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي : مفاتيح العلوم (ص/٨٦) دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ، بدون تاريخ ولا طبعة .

(٢) انظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٤) .

(٣) يعني : التعريف ، كما في قولهم : حد الإنسان أنه حيوان ناطق ، انظر : الجرجاني : التعريفات (ص/٨٣،٣٨) – دار الكتب العلمية ط١/١٤٠٣هـــ – ١٩٨٣م .

(٤) ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٤) .

(٥) نفس السابق (ص/٥) .

(٦) الشيخ أحمد الدمنهوري : إيضاح المبهم في معاني السلم (ص/٦) .

(٧) ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٦) .

(٨) الدمنهوري ، إيضاح المبهم (ص/٤) .

(٩) انظـــر : صون المنطق والكلام (ص١) ، التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة (ص٧٥،١٦) ، حسن المحاضرة (١/١٩٠) ، تعريف الفئة بأجوبة الأســئلة المائــة (٢/٥٠٩) ضــمن الحاوي للفتاوي ، الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض (ص٢) ، الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف ، رسالة ضمن الحاوي (٢/١٦٧) ، وانظر كذلك : السخاوي : الضوء اللامع (٤/٦٩) .

تحـدث السيوطي بذلك صراحة فقال : " ... فلما كان في هذا العام ، وتحدثت بما أنعم الله به عليّ من الوصول إلى رتبة الإجتهاد ، ذكر ذاكر أن من شروط الإجتهاد معرفة فن المنطق[1] ، يعني وقد فقد هذا الشرط عندي بزعمه ، وما شعر المسكين أني أحسنه أكثر ممن يدعيه ويناضل عليه ، وأعرف أصول قواعده وما بنيت عليه ، وما يتولد منها ، معرفةً ما وصل إليها شيوخ المناطقة الآن ، إلا شيخنا محيي الدين الكافيجي[2] ... "[3] .

ولا يكـتفي السيوطي فقط بإبراز مكانته ، وعلو همته في اتقان ذلك الفن ، بل يكر بالهجوم على مناوئيه فيصفهم هـم بعدم اتقانه ، وبخلو أبحاثهم من استعماله والاستدلال به فيقول : " ... ثم إن كثيراً من المحبطين ، الذين هم عن تحقيق العلم بمعزل ، لهجوا بأن يقولوا : ما الدليل على تحريمه ؟ وما مستند ابن الصلاح في إفتائه بذلك ؟

ونحو ذلك من العبارات ، والعجب أنهم يناضلون عن المنطق ولا يتقنونه ، ويدأبون فيه وفي أبحاثهم لا يستعملونه ، فيخبطون فيه خبط عشواء ، ولا يهتدون عند المناظرة والاستدلال إلا إلى عمياء "[4] .

فهـو إذن لم يكن يجهل هذا العلم ، ولم يترك الاشتغال به لعدم إدراكه ومعرفته بموضوعه وقضاياه ، وإنما تركه ترك الخبير بحرمته ، وعدل عنه عدول العالم بقلة فائدته وعدم جدواه ، وتيقنه بأنه علم دخيل على لسان الشرع الحنيف ، فهـو يعـبر عـن لسان يوناني ومنطق ارسطاطاليس ، الذي هو في حيز ، ولسان العرب في حيز ، ومن عدل عن لسان الشرع إلى لسان غيره وخرج ، فقد ضل وجهل ولم يصب القصد[5] .

ولذلك فإن كثيراً من أهل المنطق إذا تكلم في مسالة فقهية ، وأراد تخريجها على قواعد علمه (يعني علم المنطق) أخطأ ، ولم يصب ما قاله الفقهاء ، ولا سار على قواعدهم ، من أجل ذلك فقد اتهم شيخه الكافيجي – مع تعظيمه له – بأن فتاواه الفقهية كانت غير جارية على قوانين الفقه ، وما ذاك إلا لأنه كان يخرجها على قواعد الاستدلال المنطقي أما شريعة الإسلام فلها قواعد أخرى ، لا يخرج الفقه إلا عليها فمن تركها وخرج على غيرها لم يدرك غرض الفقه[6] .

وهناك يقول : " والشيخ – رحمه الله –[7] استاذي ونعله تاج رأسي ولكن هذا هو الحق الذي لابد منه ، وقد أراد مني مرات أن أوافقه في فتاوى تتعلق بالأوقاف ، ولم أوافقه على شئ منها"[8] .

فهذه وقفة حق من السيوطي تجاه شيخه واستاذه ، وتجاه المنطق بصفة عامة ، فقد اعتبره من البدع المضلة ، وأن من دأب على الاشتغال به فهو مبتدع ، ترد روايته للحديث ولا يقبل منه شأنه شأن سائر المبتدعة من الجهمية والرافضة* وغيرها[9] .

---

(١) صورة المنطق (ص١) .
(٢) مضت ترجمته في فصل شيوخه .
(٣) صون المنطق (ص١) .
(٤) صون المنطق (ص٢) .
(٥) نفسه (١٥،١٦) .
(٦) نفسه (ص/١٦) .
(٧) يقصد شيخه محيي الدين الكافيجي .
(٨) صون المنطق (ص/١٦) .
(٩) انظر : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٣٢٧/١) ت: عبدالوهاب عبداللطيف ط١٣٩٩/٢هـ – ١٩٧٩م – دار الكتب العلمية – بيروت .

ومن هذا المنطلق وضع السيوطي كتاباً في تحريم الاشتغال بفن المنطق منذ عام (٨٦٨هـ)[١] ثمان وستين وثمانمائة ، سماه : " القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق "[٢] ذكره في ترجمته لنفسه – في كتابه " حسن المحاضرة "[٣] .

وكذلك يؤكد السيوطي أن أول من وضع فن المنطق هو أرسطاطاليس[٤] – كما سبق لنا بيان ذلك عند التعريف بالمنطق[٥] – الذي قرر أن في كل نوع حصة من جنسه ، وأن الإنسان يشاركه الكلب وغيره من الحيوانات في الحيوانية[٦]

وباستقرائي كلام السيوطي وجدت أن نقده المنطق قام على عدة – نقاط كانت هي الأسباب الرئيسية في تحريمه للمنطق وتحريمه الاشتغال به وهي :

أولاً : أنه علم مبتدع لم يتكلم به الصحابة – رضي الله عنهم – ولا اشتغل أحدهم به ، بل لم يكونوا يعرفونه ، وهم القدوة بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقد كانوا أعمق الناس علماً ، وأقلهم تكلفاً ، وأبرهم قلوباً وما لم يكن عندهم ديناً فهو ليس اليوم بدين ولا علم . وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد "[٧] وفي رواية : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد "[٨] .

ثانياً : أنه نشأ في أحضان الفلسفة ، وتولد منها وهي أساس الكفر والإلحاد .

ثالثاً : أن بعضه مبني على القول بالهيولي[٩] الذي هو كفر يجر إلى الإلحاد والزندقة[١٠] .

رابعاً : أنه لا فائدة فيه ، وليس له ثمرة دينية أصلاً بل ولا دنيوية[١١] .

قال ابن تيمية : " كنتُ أعلم دائماً أن المنطق اليوناني لايحتاج إليه الذكي ، ولا ينتفع به البليد "[١٢] وقال يصفه بأنه " لحم جمل غثٍ على رأس جبل وعر لا سهلَ فيرتقى ، ولا سمينَ فيُنتَقل "[١٣] .

---

* ذكر السيوطي قبل هذا أهل البدع ممن لا تقبل روايتهم ، كالمجسمة ومنكر علم الجزيئات ، والقائل بخلق القرآن ، والرافضة ، والمرجئة ، انظر : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٣٢٧/١) ت عبدالوهاب عبداللطيف .

(١) انظر : السيوطي : صون المنطق (ص/١) .

(٢) هو ليس كتاباً بالمعنى المعروف ولكنها فتوى في حوالي صفحتين ونصف وهي مرقومة في الحاوي (ط/٢٥٥) .

(٣) انظر : حسن المحاضرة (٣٣٥/١) .

(٤) انظر : صون المنطق (ص/٤) .

(٥) انظر بحثنا السابق في التعريف بالمنطق .

(٦) هذا كلام أرسطو ولذلك دأب المناطق على تعريف الإنسان بأنه : " حيوان ناطق " .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الصلح (٥٣) باب (٥) ح رقم (٢٦٩٧) ، انظر فتح الباري (٣٠١/٥) . ورواه مسلم في " صحيحه " (١٣٤٣/٣) كتاب الاقضية (٣٠) باب (٨) ح رقم (١٧-(١٧١٨)) ، وأبو داود (٤٦٠٦) ، وابن ماجه (١٤) وابن حيان وصححه (٢٦،٢٧).

(٨) مسلم في " صحيحه " (١٣٤٤/٣) كتاب الأقضية (٣٠) باب (٨) ح رقم (١٨-(٠٠٠)) .

(٩) الهيولي : لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة ، وفي الإصطلاح هي جوهر في الجسم قابل لما يعرض لذلك الجسم من الاتصال والانفصال ، محل للصورتين الجسمية والنوعية . التعريفات للجرجاني (ص ٢٥٧) .

(١٠) انظر السيوطي : القول المشرق ضمن الحاوي (٢٥٥/١) .

(١١) نفسه السابق .

(١٢) ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/٣) .

(١٣) ابن تيمية : نقض المنطق (ص/١٥٥) – ت : محمد حامد الفقي ، وهو مثل يضرب للشئ الذي يغرك ظاهره فإذا دنوت منه وبحثته لم تجد ما فيه يكافئ تعب السعي إليه ، وهو جزء من حديث أم زرع رواه البخاري كتاب النكاح باب (٨٢) انظر الفتح (٢٥٤/٩) .

خامســـاً : أنــه لم يكن أحد من نظار المسلمين – قبل الغزالي – يلتفت إلى طريق المنطقيين ، بل الأشعرية ، والمعتزلة ، والكرامية ، والشيعة وسائر الطوائف كانوا يعيبونها يثبتون فسادها[١] .

سادساً : أنه لم يزل علماء المسلمين من أهل السنة وأئمة الدين يذمون المنطق ، ويذمون أهله وينهون عنه وعن أهله[٢] .

قـــال ابن تيمية : " ... حتى رأيت للمتأخرين فتياً فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيـــرهم فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله ، حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا : أن الشيخ أبا عمرو ابن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروفة من أبي الحسن الآمدي ، وقال أخذها منه أفضل من أخذ عكا ، مع أن الآمدي لم يكن أحد في وقته أكثر تبحراً في العلوم الكلامية والفلسفية منه ، وكان من أحسنهم إسلاماً ، وأمثلهم اعتقاداً "[٣] .

ســـابعاً : أن المنطق عندما حدث في أواخر القرن الثاني كان الإمام الشافعي حَيّاً إذ ذاك ، فتكلم فيه حيث قال : " ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان ارسطاطاليس "[٤] .

واســـتنتج الســـيوطي من كلام إمامه الشافعي : أن من أراد تخريج القرآن والسنة والشريعة على مقتضى قواعد المـــنطق لم يصب غرض الشارع ألبتة ، فإن كان في الفروع نُسب إلى الخطأ ، وإن كان في الأصول نُسب إلى البدعة ، وهذا أعظم دليل على تحريم المنطق لأنه كان سبب الإحداث والإبداع ومخالفة السنة ومخالفة غرض الشارع[٥] .

ويقـــل الســـيوطي عن جمع كبير من علماء المذاهب الأربعة أنهم ذموا المنطق والمناطقة، وذكر أنهم نصوا على تحـــريمه وعـــدم منفعته، وقرر أن أول من نص على ذلك الإمام الشافعي[٦] وتبعه في ذلك من أصحابه إمام الحرمين أبو المعـــالي الجويني[٧]، والغزالي في آخر أمره[٨] وابن عساكر[٩] ، والشيخ أبو عمرو بن الصلاح[١٠] ، وابن عبدالسلام[١] ، والإمام النووي[٢] ، وابن دقيق العيد[٣] ، والذهبي[٤] وغيرهم .

---

(١) انظر السيوطي : صون المنطق (٤-٦) .

(٢) انظر : ابن تيمية : نقض المنطق (١٥٦) .

(٣) نقض المنطق (ص١٥٦) .

(٤) السيوطي : صون المنطق (١٤) .

(٥) نفسه .

(٦) هو : محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلي ، إمام الشافعية وإليه نسبتهم ، ولد بغزة (فلسطين) عام (١٥٠هـ – ٧٦٧م) وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد مصر عام ١٩٩هـ فتوفي بها عام (٢٠٤هـ – ٨٢٠ م) – الأعلام (٢٦/٦) تذكرة الحفاظ (٣٢٩/١)، تهذيب التهذيب (٢٥/٩)، صفة الصفوة (١٤٠/٢) .

(٧) هـو عبدالملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد الجويني ، أبو المعالي ، ركن الدين ، الملقب بإمام الحرمين ، ولد في جوين من نواحي نيسابور عام (٤١٩هـ – ١٠٢٨م) – انظـر : وفيـات الأعيـان (٢٨٧/١) السـبكي (٢٤٩/٣) تـبين كـذب المفـترى (٢٧٨) – والأعـلام (١٦٠/٤) .

(٨) انظر : السيوطي : الحاوي للفتاوي (٢٥٥/١) رسالة القول المشرق في تحريم المنطق .

(٩) هـو : علـي بـن الحسن بن هبة الله أبو القاسم ، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي ، المؤرخ الحافظ الرحالة ، مولده في دمشق (٤٩٩هـ – ١١٠٥م) ووفاته بها (٥٧١هـ – ١١٧٦م) انظر : ابن خلكان (٣٣٥/١) ، مفتاح السعادة ، (٢١٦/١) ، البداية والنهاية (٢٩٤/١٢) ، طبقات الشافعية (٢٧٣/٤) ، الأعلام (٢٧٣/٤) .

(١٠) هو : عثمان بن عبدالرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي النصر النصري الشهرزوري الكردي الشرخاني ، أبو عمرو ، تقي الدين ، المعروف بابن الصلاح ، ، ولد في شرخان (قرب شهرزور) عام (٥٧٧هـ– ١١٨١م) وتوفي بدمشق عام (٦٤٣هـ – ١٢٤٥م) انظر : وفيات الأعيان (٣١٢/١) ، طبقات الشافعية (١٣٧/٥) ، شذرات الذهب (٢٢١/٥) ، علماء بغداد/١٣٠ ، مفتاح السعادة (٣٩٧/١) ، والأعلام (٢٠٧/٤) .

ومـــن أئمـــة المالكية الذين نصوا على تحريم الاشتغال بالمنطق : ابن أبي زيد ، والقاضي أبو بكر بن العربي ، وأبو بكر الطرطوشي[٥] ، وأبو طالب المكي[٦] وابن المنير[٧] وغيرهم من عامة أهل المغرب .

ونص عليه من أئمة الحنفية :

أبـــو ســـعيد الســـيرافي ، والسراج القزويني[٨] وألف في ذمه كتاباً سماه " نصيحة المسلم المشفق لمن ابتلى بحب علم المنطق "[٩] وغيرهم .

ونص على ذلك من أئمة الحنابلة :

أبـــو الفـــرج بن الجوزي[١٠] ، وسعد الدين الحارثي[١١] وتقي الدين ابن تيمية[١٢] ، وقد ألف في ذمه ونقض قواعده مجلداً كبيراً سماه : " نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونان " اختصره السيوطي في نحو ثلثه[١] ، وهو المصنف الكبير ، العظيم الفائدة الجليل النفع الذي طُبع بعنوان " الرد على المنطقيين "[٢]

---

(١) هو : عبدالعزيز بن عبدالسلام بن ابي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي ، عز الدين الملقب بسلطان العلماء ، ولد ونشأ في دمشق (٥٧٧هـ- ١١٨١ م) ونشـــأ بهـــا ، توفـــي بالقاهـــرة عـــام (٦٦٠هــــ - ١٢٦٢م) ، انظـــر : فـــوات الوفيـــات (٢٨٧/١) ، طـــبقات الســـبكي (٨٠/٥-١٠٧) ، الأعلام (٢١/٤) .

(٢) هو : الإمام يحيي بن شرف النووي ، محيي الدين أبو زكريا - مضت ترجمته في الفصل الثاني من الباب الأول .

(٣) هو : محمد بن علي بن وهب بن مطيع ، أبو الفتح ، تقي الدين القشيري ، المعروف كأبيه وجده وأخيه بابن دقيق العيد ، قاض ، من أكابر العلماء ، توفي بالقاهرة سنة (٧٠٢هـ-١٣٠٢م) " حسن المحاضرة " (٣٢٩/١) ، انظر : الدرر الكامنة (٩١/٤) ، مفتاح السعادة (٢١٩/٢) ، فوات الوفيات (٢٤٤/٢) ، خطط مبارك (١٣٥/١٤) ، والأعلام (٢٨٣/٦) .

(٤) هـــو : محمـــد بـــن أحمـــد بـــن عـــثمان بـــن قايمـــاز الذهـــبي ، شـــمس الديـــن ، أبـــو عـــبدالله حـــافظ مـــؤرخ ، علامة محقق ، تركماني الأصل ، من أهل ميا فارقين مولده بدمشق (٦٧٣هـ - ١٢٧٤م) ووفاته بها ، انظر : فوات الوفيات (١٨٣/٢) ، وذيـــل تذكـــرة الحفاظ (٣٤و٣٤٧) ، وطبقات السبكي (٢١٦/٥) ، والشذرات (١٥٣/٦) ، والدرر الكافية (٣٣٦/٣) ، والنجوم الزاهرة (١٨٢/١٠)، والاعلام بالتوبيخ (٨٤) ، مفتاح السعادة (٢١٢/١) ثم (٢١٦/٢) ، والأعلام (٣٢٦/٥) .

(٥) هـــو : محمـــد بـــن الوليـــد بـــن محمـــد بـــن خـــلف القرشـــي الفهـــري الأندلســـي ، أبـــو بكـــر ، الطرطوشـــي ، أديب من فقهاء المالكية الحفاظ ، من أهل طرطوشة بشرق الأندلس ، توفى عام (٥٢٠هـ - ١١٢٦م) ، انظر : وفيات الأعيان (١/ ٤٧٩) ، الديباج (٢٧٦)، نفح الطيب (٣٦٨/١) ، ودائرة المعارف الإسلامية (٧٧/١) ، حسن المحاضرة (٢٥٦/١) . الأعلام (١٣٤/٧) .

(٦) هـــو : محمـــد بن علي بن عطية الحارثي ، أبو طالب ، واعظ زاهد ، فقيه من أهل الجبل بين واسط وبغداد ، توفي ببغداد عام (٣٨٦هـ-٩٩٦م) ، انظر : وفيات الأعيان (٤٩١/١) ، = ميزان الاعتدال (١٠٧/٣) ، تاريخ بغداد (٨٩/٣) ، لسان الميزان (٣٠٠/٥) . الأعلام (٢٧٤/٦) .

(٧) هـــو : عـــبدالواحد بـــن منصـــور بن محمد بن المنير ، أبو محمد ، فخر الدين الاسكندري ، المالكي ، مفسر له شعر ونظم في " كان وكان " وفاته بالاسكندرية عام (٧٣٣هـ - ١٣٣٣م) انظر : البداية والنهاية (١٦٣/١٤) ، الدرر الكامنة (٤٢٢/٢) ، الأعلام (١٧٧/٤) .

(٨) هو : عمر بن عبدالرحمن بن عمر البهبهائي ، الكناني ، القزويني ، الفارسي ، سراج الدين ، فاضل مات شاباً عن (٣٧) أو (٣٨) عاماً (سنة ٧٤٥ هـ-١٣٤٤م) ، انظر : ابن العماد : شذرات الذهب (١٤٣/٦) ، فهرس الكتب خانة (١٩٢/١) وخزائن الأوقاف (٣١) ، الأعلام (٤٩/٥) .

(٩) فـــي كشف الظنون (١٩٥٨/٢) " نصحية المسلم المشفق لمن ابتلى بحب المنطق " للسراج القزويني " هو : عمر بن عبدالرحمن المتوفي (٧٤٥هـ) ذكره السيوطي في " القول المشرق ".

(١٠) هـــو : عـــبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي ، أبو الفرج علامة عصره، وواعظ دهره ، مولده ببغداد (٥٠٨هـ-١١١٤م) ، ووفاتـــه بها (٥٩٧هـ-١٢٠١م) انظر : وفيات الأعيان (٢٧٩/١) ، البداية والنهاية (٢٨/١٣) ، مفتاح السعادة (٢٠٧/١) ، ابن الوردي (١١٨/٢) ، دائرة المعارف الإسلامية (١٢٥/١) - الأعلام (٣١٧/٣) .

(١١) هو : مسعود بن أحمد بن مسعود بن زيد بن عباس الحارثي ، البغدادي ، ثم المصري ، فقيه حنبلي ، محدث حافظ ، قاضي القضاة ، سعد الدين ، أبو محمد ، وأبو عبدالرحمن ، ولد سنة (٦٥٢هـ) أو (٦٥٣هـ) ، وتوفي بالقاهرة سنة (٧١١هـ) ، انظر : ذيل طبقات الحنابلة (٣٦٢/٤) ، الدرر الكامنة (٣٤٧/٤) ، حسن المحاضرة (٢٠٢/١) ، شذرات الذهب (٢٨/٦) .

(١٢) مضت ترجمته في الفصل الأول .

وله مؤلف ثالث من درره العظيمة سماه " نقض المنطق " . وغير هؤلاء كثير ممن لم نذكرهم اقتصاراً على مشاهيرهم .

لقـد نقل السيوطي عن كم كبير من الأئمة والعلماء ذمهم المنطق و أهله ليدلل على صحة رأيه الذي ذهب إليه ، وليـبين للمبهورين بالمنطق أنه ليس بدعاً في انكار ذلك العلم والازراء بأهله بل سبق من الفحول المعتد بكلامهم والمعتبر بآرائهم ما يبين معه الحق ويتضح الصدق في رد هذا العلم الذي لا يحتاج إليه المسلمون لا عالمهم ولا متعلمهم .

وهكـذا حارب السيوطي المنطق محاربة عنيفة في كل اتجاه يمكنه أن يوجه إليه سهام النقد . وإن كتابه " صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام " ليعد موسوعة هامة في موضوع نقد المنطق اليوناني[٣]، يبحث فيه موقف علماء المسـلمين مـن عـلم الكلام وعلم المنطق ، وهو قد جمع بين هذين الفنيين – علم الكلام والمنطق – نظراً لما بينهما من التلازم[٤] . وهذا الكتاب يتميز بميزات ثلاث :

أولها : أنه تناول الموضوع بتسلسل تاريخي ، فتكلم أولاً عن ابتداء وضع المنطق ثم ابتداء دخوله في ملة الإسلام ، وابتداء تأثر الأصول به ، ثم ابتداء فشوه في المتأخرين ، ثم أخذ يبسط أقوال علماء الإسلام في نقد المنطق وتحريمه مراعياً في ذلك كله الترتيب التاريخي ولا غرو في ذلك فالسيوطي يعد من كبار المؤرخين ولذلك قال :

" ذكـر مـن صـرح بذم المنطق أو تحريمه من أئمة الإسلام : لاشك أن المجتهد يحرم عليه إحداث قول لم يقل به أحد ، واخـتراع رأي لـم يسـبق إليـه ، ولهذا كان من شروط الإجتهاد ، معرفة أقوال العلماء من الصحابة فمن بعدهم إجماعاً وإختلافاً لئلا يخرق الإجماع فيما يختاره موجب في ذكر أقوال العلماء هذه المسألة قبل إقامة الدليل لكون الكتاب مؤلفاً على طريقة الإجتهاد "[٥] ثم يبدأ السيوطي في سرد أقوال علماء المسلمين في ذم المنطق ، ونقده مبدئاً بالشافعي ومنتهياً بابن تيمية[٦] .

<u>ثانيها :</u> أنه قام في هذا الكتاب بتلخيص بعض الكتب المفقودة من خلال عرض لآراء العلماء وأقوالهم في تحريم المنطق ، بعـض هـذه الكـتب مفقود والبعض الآخر ليس في متناول أيدينا الآن[٧] . وقد أفاد السيوطي بعلمه هذا الدراسة التاريخية الفلسـفية افادة كبيرة ، ومن أهم الكتب الذي لخصها كتاب ابن تيمية المسمى : " نصيحة أهل الإيمان في الرد على منطق اليونـان " وقـد سـبق أن قلت بأن هذا الكتاب هو المطبوع باسم " الرد على المنطقيين " والسيوطي سمى تلخيصه " جهد القريحة في تجريد النصيحة "[٨] وقد قام السيوطي فعلاً بتلخيصه تلخيصاً متقناً مفهوماً ، ثم قال في آخره : " وهذا آخر ما لخصـته من كتاب ابن تيمية ، وقد أوردت عبارته بلفظة من غير تصرف في الغالب ، وحذفت من كتابه الكثير ، فإنه في عشرين كراسة ، ولم أحذف من المهم شيئاً ، إنما حذفت مالا تعلق له بالمقصود مما ذكر استطراداً أو رداً على مسائل من

---

(١) انظر : صون المنطق (ص/١) ، (ص/٢٠١) ، والحاوي (٢٥٦/١) .

(٢) مطبوع بواسطة إدارة ترجمان السنة – لاهور – باكستان والذي عندي هو الطبعة الرابعة .

(٣) انظر : د/ علي سامي النشار : مناهج البحث عند مفكري الإسلام (ص٢٢٤) .

(٤) انظر : السيوطي : صون المنطق والكلام (ص/٣،٤..) .

(٥) السيوطي : صون المنطق (ص/١٤) .

(٦) انظر : د/ النشار ، مناهج البحث عند مفكري الإسلام (ص/٢٢٤) .

(٧) انظر : د/ علي سامي النشار : مناهج البحث (ص/٢٢٢٤) .

(٨) انظر : صون المنطق (ص/٢) .

الإلهيـات أو نحوهـا ، أو مكرراً أو نقصاً لعبارات بعض المناطقة ، وليس راجعاً لقاعدة كلية في الفن أو نحو ذلك ، فإذا طالع كل واحد كتابي هذا المختصر ، استفاد من المقصود بسهولة أكثر مما يدركه من الأصل فإنه وعر صعب المآخذ "[١]

ثالثها : أنه اقتصر فقط على الراي الصحيح من أقوال أهل العلم ، وهو الرأي الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة ، وأهل الحديث وهو تحريم المنطق وتحريم الاشتغال به ، وذمه وذم أهله ، ولم يلتفت اطلاقاً لتهويل المؤيدين للمنطق والموجبين له كالغـزالي وغيـره ، بل يؤيد ما قرره ابن تيمية من أن سائر طوائف المسلمين تذمه وتحذر منه[٢] ولم يتعرض السيوطي مطـلقاً في هذا المصنف لرأي المناطقة أو ايراد شئ من حججهم في الدفاع عن المنطق أو الدعوة إليه ، أو بيان أهميته . فهو لا يرى له أهمية تذكر ، بل يرى أنه علم سيىء محرم على المسلمين تعلمه والاشتغال به .

ورأيـي في هذا أن السيوطي – رحمه الله – قد أحسن في هذا المصنف كل الإحسان ، وابدع أيما إبداع في بيان الـرأي الحـق الذي لم يخلطه بغيره من الآراء والمذاهب ، وهو سائر بذلك على نهج الشافعي وابن الصلاح وابن تيمية – رحمهم الله – وكفى بهم حجة في بيان الحق واتِّبَاعِه ، وذم الباطل وأَتْبَاعِه .

المبحث الثاني : موقف السيوطي من علم الكلام

المطلب الأول : نشأة علم الكلام

بعـث الله – تعالى – نبيه محمداً – صلى الله عليه وسلم – إلى الثقلين كافة ، فختم به النبوة ، وأكمل به الدين ، وأتم به النعمة ، ووضع عن أمته الآصار والأغلال ، فلم يترك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خيراً إلا دل أمته عليه ، ولـم يـترك شراً إلا حذرها منه ، وإنه لم ينتقل إلى جوار ربه حتى بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه ، فترك أتباعه على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

وبعد أن انتقل – صلى الله عليه وسلم – إلى الرفيق الأعلى بدأت تطل الفتن والمحن برأسها على أمته[٣] .

قال البخاري : " وقعت الفتنة الأولى – يعني مقتل عثمان – فلم تُبق من أصحاب بدر أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثانية – يعني الحرة – فلم تُبق من أصحاب الحديبية أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثالثة ، فلم ترتفع ، وللناس طَبَاخ "[٤] يعني عقل وقوة[٥] .

" فـالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى ، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية ، والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة ، فصار هؤلاء الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، يقابلون البدعة بالبدعة "[٦]

---

(١) صون المنطق (ص٣٤٣) .

(٢) انظر : الرد على المنطقيين (ص/٣٣٧) .

(٣) انظـر الشهرستاني : الملل والنحل (١/٢٣-٣٢) ، د/ محمد البهي : الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي (ص/٣٠-٣٥) ط٦/١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م مكتبة وهبة – القاهرة .

(٤) رواه الـبخاري فـي صـحيحه من قول سعيد بن المسيب – رحمه الله – كتاب المغازي (٦٤) باب (١٢) حديث (٤٠٢٤) انظر فتح الباري بصرح صحيح البخاري (٧/٣٢٣) . ط المكتبة السلفية .

(٥) قـال ابـن حجر : " طَبَاخ بفتح المهملة والموحدة الخفيفة ، وآخره معجمة أي : قوة ، قال الخليل : أصل الطباخ السِمَن والقوة و يستعمل في العقل والخيرة ، قال حسان – رضي الله عنه – : المال يغشى رجالاً لا طباخ لهم كالسيل يغشى أصول الدندن البالي

والدندن ما أسود من النبات " ا . هـ – الفتح (٧/٣٢٥) .

(٦) ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص/٥٩٣) . ت: محمد ناصر الدين الألباني ط٦/١٤٠٠هـ .

ومن شأن هذه الفتن أن تحل على المسلمين بصدمات شديدة عنيفة ، ثم لا تنقشع حتى تخلف وراءها اختلافاً بيناً واسعاً بين الناس ، ثم يشتد الخلاف ويتسع أكثر حتى يصبح كل رأي مذهباً يبحث له أصحابه عن تأصيل علمي بين الأدلة الشرعية أو العقلية .

غير أن الفتن التي نزلت بالمسلمين عند بدء شروق الإسلام وظهور نوره ، مرت وانتهت دون أن تفرق لهم كلمة ، أو تزعزع لهم دولة ، فقد تركهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – جميعاً على منهاج واحد في أصول الدين وفروعه ، غير من أظهروا وفاقاً ، وأضمروا نفاقاً[١] .

١- بيد أن مسألة الخلافة كانت هي الشرارة الأولى التي اندلعت منها نار الخلاف القوي ، فكانت العامل الأول في نشأة الجدل والكلام[٢] .

حيث أدى ذلك الخلاف إلى التقاطع والتدابر بين الأخوة ، وتبادل الاتهام بينهم بالزيغ والضلال والانحراف[٣] .

كان للخلافة شأنها الكبير في قيام الفرق ، وفي ظهور الجدل والاختلاف ، وهو من أكبر – إن لم يكن أكبر – مظاهر الخلاف التي حدثت منذ وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى عدها أبو الحسن الأشعري أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين[٤] .

" ثم لم يلبث تمادي الخلاف بينهم ، أن انتقل من الأشخاص إلى التبريرات الدينية نفسها التي كانت تساق لتأييد هؤلاء الأشخاص أو معارضتهم ، فصار يقال : ما هي الكبيرة ؟ بعد أن كان يقال : فلان لا تصح خلافته لأنه ارتكب الكبيرة[٥] ، ومن النظر في تحديد الكبيرة ، انتقلوا إلى النظر في جزائها ، فهل يخلد صاحبها في النار أو لايخلد ؟ وتفرعت الأقوال لديهم في الإجابة عن هذا السؤال ، وتشققت المذاهب .

ومن النظر في تحديد الكبيرة وجزائها ، انتقلوا إلى النظر في ظروف مرتكبيها وهل يرتكبها مرتكبها وهو حر مختار ؟ أو يرتكبها مرتكبها مجبراً غير مختار ؟ "[٦] وعلى هذا المنوال تمادى الناس ، فالبحث يجر إلى البحث ، والمسألة تثير المسألة ، واتسعت الهوة ، وتفاقم الأمر ، وذلك بسبب توارد جملة من العوامل ، بجانب الخلاف السياسي والتي دفعتهم إلى السير فيها دفعاً[٧] .

---

(١) انظر : عبدالقاهر البغدادي : الفرق بين الفرق (ص/١٤) ت محمد يحي الدين عبدالحميد دار المعرفة – بيروت لبنان بدون تاريخ ولا طبعة .

(٢) انظر : د/ أبو الوفا التفتازاني : علم الكلام وبعض مشكلاته (ص/١٦-١٩) وانظر كذلك : يحي هاشم فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام (ص/ ١٢٦) ، الشيخ محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة وتاريخ المذاهب الفقهية (ص/١٣) – دار الفكر العربية بدون طبعة ولا تاريخ

(٣) انظر : أبو الحسن علي بن اسماعيل الاشعري : مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين ، عنى بتصحيحه هلموت ريتر (ص/١) ط٣ النشرات الاسلامية .

(٤) انظر : نفس المصدر والصفحة ، وانظر : مصطفى عبدالرزاق تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية (ص/٢٨٤) ط٣ بدون تاريخ .

(٥) قال الجرجاني : " هي كل ما كان حراماً محضاً ، وشرع عليها عقوبة محضة بنص قاطع في الدنيا والآخرة " التعريفات (ص١٨٣) ، وروى ابن كثير عن ابن عباس = – رضي الله عنهما – قال : " الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب " تفسير القرآن العظيم (٢//٢٤٧) ورواه ابن جرير وقال ابن كثير في تفسيره أيضاً (٢/٢٤٨) " وقد اختلف علماء الأصول والفروع في حد الكبيرة ، فمن قائل : هي ما عليه حد في الشرع ، ومنهم من قال : هي ما عليه وعيد لخصوصه... الكتاب والسنة ، وقيل غير ذلك " .

(٦) د. سليمان دنيا : التفكير الفلسفي الإسلامي (ص٣٢٥،٣٢٦) ط١/ ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م . مكتبة الخانجي – مصر .

(٧) انظر تفصيلاً اكثر في ذلك : يحي هاشم فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام (ص١١٨-١٣٤) .

ومن هذه العوامل المساعدة على نشأة الكلام والجدل أيضاً .

٢- كـثرة فتوح المسلمين ، ودخولهم البلاد المفتوحة ، كأرض فارس والهند وغيرها[١] ، وكانت ديانات هذه البلاد ديانات وثـنية ، وعقائدهـا شـركية ، وكـانت بـلاد فـارس - مـثلاً - تعتـنق المجوسـية[٢] ، والزردشـنية[٣] ، والثنوية[٤] ، ولقد كان للمجوسية قدم في أرض العرب في قريش وفي تميم وفي أرض الـبحرين وقد أخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - الجزية من مجوس البحرين عام ٨هـ[٥] ، وكانت الزرادشتية ديانة الفرس العامة في عهد الأسرة الساسانية إلى الفتح الإسلامي[٦] ، وكان بجانبها المزدكية والمانوية[٧] .

فـلما دخل الإسلام أرض فارس ، عاملهم المسلمون بأخذ الجزية اقتداءً بسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - في ماملـتهم كأهل الكتاب وذلك طوال عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين وكان من الطبيعي أن يتركوا على حالهم يمارسون طقوسهم المجوسية ، ويحتفظون ببيوت النار ، وبكتبهم التي يعتبرونها مقدسة وبرجال الدين فيهم[٨] .

فساعد هذا التسامح على بقاء مذاهبهم وعقائدهم الباطلة حتى ظلت كرمان ، على مجوسيتها طوال خلافة بني أمية ، ولم تدخل الإسلام إلا في عهد الخلافة العباسية ، واستقرت بيوت النار في كل ولاية من ولايات فارس تقريباً في القرون الأولى الـثلاثة بعد الفتح[٩]. وكذلك استمرت الديصانية[١٠] والمانوية[١١] ، والمزدكية[١] فكان بعض من دخل الإسلام ممن

---

(١) انظر : المصدر السابق (ص١٤٧-٢٥٥) ، وانظر كذلك : الشيخ محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد (ص١٣) .

(٢) المجوسية : اسم يجمع الديانات الفارسية المختلفة وأصلها عبادة النار ، قال الشهرستاني : يقال لها الدين الأكبر والملة العظمى... اثبتوا أصلين اثنين مدبرين قديمين يقتسمان الخير والشر ، والنفع والضر ، والصلاح والفساد ، يسمون أحدهما النور ، والآخر الظلمة ، وبالفارسية : يزدان ، وأهرمن ، ولهم بعد ذلك تفصيلات تبعاً لكل ديانة منها ، الملل والنحل (٢٣١،٢٣٣) .

(٣) الزردشتية : ديانة فارسية قديمة من ديانات المجوس عبدة النار ، وكان " زردشت " المنسوبة إليه اعتنق عبادة النار ، ولد زردشت في اذربيجان ، ثم انـتقل إلى فلسـطين واسـتمع إلى بعـض أنبياء بني اسرائيل ثم رجع إلى اذربيجان وارتد مرة أخرى إلى الأديان الفارسية ويدعى اتباعه له النبوة والرسـالة ، وينسـبون إليه بعض الخوارق ، وهم يقولون أيضاً بأصلي النور والظلمة وأنهما يتقاومان ويتغالبان إلى أن يغلب النور الظلمة ، انظر تفصيل ذلك عند الشهرستاني " الملل والنحل (٢٣٧-٢٤٥) .

(٤) أصـحاب الاثنين الأزليين ، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان ، يتساويان في القدم ، ويختلفان في الجوهر والطبع والفعل والحيز والمكان والأجناس والابدان والأرواح ، الشهرستاني : الملل والنحل (ص٢٤٥) .

(٥) انظر : البلاذري : فتوح البلدان (ص/٨٥،٢٦٦) .

(٦) انظر : أحمد أمين : فجر الإسلام (ص/٩٣) .

(٧) انظـر : د/ عـلي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١٨٦،١٨٩/١) . ويحيي هاشم حسن فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام (ص/١٨٣) - ط مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م .

(٨) انظر : يحيي هاشم فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام (ص١٨٣) ط مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ-١٩٧٢م

(٩) انظر : نفس المرجع .

(١٠) نسـبة إلى " ديصان " أو " ابن ديصان " أثبتوا أصلين : نوراً وظلاماً ، فالنور يفعل الخير قصداً ، والظلام يفعل الشر طبعاً واضطراراً ، فما كان من خير ونفع ، وطيب ، وحسن ، فمـن الـنور ، ومـا كان من شر ، وضرر ، وفتن ، وقبح فمن الظلام ، ورعموا أن النور : حي ، عالم ، قادر ، حساس ، دراك ، ومنه تكون الحركة والحياة ، والظلام : ميت ، جاهل ، عاجز ، جماد ، موات ، لا فعل له ولا تمييز ، وزعموا أن الشر يقع منه طباعاً وخرقاً ، (انظر الشهرستاني : الملل والنحل (٢٥١)) .

(١١) نسـبة إلى " ماني بن فاتك " ، ولد بجنوبي بابل نحو (٢١٦م) وربما كان فارسي الأصل ، ادعى النبوة في الرابعة والعشرين من عمره ، والمانوية فـرقة غنوصـية ، كـانت أخطر البدع التي تعرضت لها النصرانية ، واعتنقها كثير من النصارى وكان من يلقبونه القديس أو غسطين نفسه مانوياً لـبعض الوقـت ، أهم أركانها قولها بالثنائية ، بمعنى أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين : أحدهما النور ، والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يـزالا ، ولن يزالا ، ثم اصبحت المانوية فلسفة ممزوجة من النصرانية واليهودية ، والبوذية ، والزردشتية وكانت تقول بالمعمودية والقربان ، وتأخذ من كل الأديان وتحرم اللحوم ، انظر : الشهرستاني : الملل والنحل (٢٤٥-٢٥٠) ، د. عبدالمنعم حفني : الموسوعة الفلسفية (ص٤١٧) .

كـــان يدين بهذه الوثنيات باقياً على شئ من اعتقاداته السابقة ، بل لم يكن بعضهم مخلصين للإسلام وإن أظهروه ، فكيف الحال بمن لم يدخلوا فيه - أصلاً - ، وظلوا معلنين لدياناتهم .

لقـــد أخذ هؤلاء وأولئك يجادلون في الإسلام ويحاورون ، بل أخذوا يهاجمون ويعارضون(٢) ، وشجعهم على ذلك مـــا ذكـــرناه مـــن التسامح البعيد المدى مع هؤلاء ، ولقد انبرى لهم بعض العلماء للرد عليهم والدفاع عن الإسلام وعقيدته وتشـــريعاته ، ومـــن هنا كانت هذه الفتوحات وبقاء أصحاب الديانات المنسوخة بل الموضوعة ، على دياناتهم وعقائدهم ، عاملاً قوياً من عوامل نشأة علم الكلام(٣) .

٣- كمـــا كـــان بجـــانب ذلك رغبة بعض الولاة(٤)في تعريب بعض الكتب اليونانية وغيرها وقد ذكرنا ذلك في بحث نشأة المنطق ، ولقد اتفق العقلاء على أن هذا التعريب أو الترجمة قد تسبب في إحداث مفاسد كبيرة(٥) في أمة الإسلام .

قـــال الصلاح الصفدي(٦) : " حكى أن المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى - أظنه صاحب جزيرة قبرص - كـــتب يطلب منه خزانة كتب اليونان ، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد ، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي واستشارهم في ذلك فكلهم أشار عليه بعدم تجهيزها إليه ، إلا بطراقاً واحداً ، فإنه قال : جهزها إليهم فما دخلت هذه العـــلوم عـــلى دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها "(٧) ثم قال الصفدي : " حدثني من أثق به أن الشيخ تقي الدين أحمـــد بن تيمية - رحمه الله تعالى - كان يقول : " ما أظن أن الله يغفل عن المأمون ، ولابد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخاله هذه العلوم الفلسفية بين أهلها "(٨) .

---

(١) نســـبة إلى " مزدك " المولود في نيسابور سنة (٤٨٧م) ، والمقتول عام (٥٢٣م) كان مانوياً وانشق عليهم ، وقال بثلاثة أصول للعالم بدلاً من أصلين هـــي الماء والنار والتراب امتزجت بنسب متساوية ، فكانت مادة الخير الصافية ، وبنسب متفاوتة فكانت مادة الشر الكدرة ، وكان " مزدك " ينهى الناس عـــن المخالفـــة والمباغضـــة والقـــتال ، ولما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال ، أحل النساء وأباح الأموال ، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ ، انظر : الملل والنحل (ص٢٥٠) والموسوعة الفلسفية (٤٣٨) .

(٢) انظر : د/ سليمان دنيا : التفكير الفلسفي الاسلامي (ص/٣٢٦) ، مكتبة الخانجي بمصر ط١/١٣٨٧هـــ-١٩٦٧م .

(٣) انظر : عبدالرحمن بن عبدالعزيز الشبل: ذم الكلام وأهله للهروي تحقيق ودراسة (٣٥/١) ط١/١٤١٦هـــ-١٩٩٥م مكتبة العلوم والحكم / المدينة المنورة .

(٤) قـــد اختلف في أول من بدأ الترجمة لهذه الكتب فقيل : خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، المتوفي سنة (٩٠هـــ) وقيل : قبلها ، انظر : الغيث المسجم (٧٩/١) ، صون المنطق (٧-٨) ، ابن النديم الفهرست (٢٤٢/١) والنشار : مناهج البحث (ص/٥) . وقيل : أبو جعفر المنصور ، عبدالله بن محمد بن علي ، ثاني خلفاء بني العباس المتوفي سنة (١٥٨هـــ) . انظر : مقدمة ابن خلدون (٨٩٢) ، تاريخ الخلفاء (٢٦٩) الاعلام (٢٥٩/٤) وقيل : يحي بن خالد بن برمك الفارسي ، المتوفي سنة (١٩٠هـــ) أثناء خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدي وكان وزيراً له . انظر صون المنطق (٧-٩) وقيـــل : عبدالله المأمون بن هارون الرشيد سابع الخلفاء العباسيين المتوفي سنة (٢١٨هـــ) . انظر : الملل والنحل (٣٠/١) ، الرد على المنطقيين (ص/٣٧٤) . وقيل : أمير الأندلس عبدالرحمن بن الحكم بن هشام بن عبدالرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبدالملك بن مروان ، المتوفي سنة (٢٣٩ هـــــ) وانـــه كان يشبه بالمأمون العباسي في طلب الكتب الفلسفية ، وبالوليد بن عبدالملك في قوته . انظر : السيوطي : صون المنطق (ص/١٢) ، الذهبي في تاريخ دول الإسلام .

(٥) انظر : عبدالرحمن بن عبدالعزيز الشبل : ذم الكلام للهروي تحقيق ودراسة (ص/٣٢) .

(٦) صلاح الدين أبو الصفا خليل بن أيبك الصفدي الشافعي ت(٧٤٦هـــ) .

(٧) السيوطي : صون المنطق (٧-٩) ، وانظر الغيث المسجم (٧٩/١) ، الهروي : ذم الكلام وأهله (٣١/١) مقدمة المحقق .

(٨) السابق نفسه .

هــذه الــترجمة كــانت وســيلة للجدال واستنصار بعض المسلمين على بعض في مجال الحجاج وتأييد كل فريق لرأيه[١] ، مما كان له أثره البالغ في نشأة علم الكلام .

٤- ويــرى بعض الباحثين أن النصوص الشرعية (الكتاب والسنة) كانت عاملاً من عوامل نشأة علم الكلام[٢] . فكل ما وقــع من النزاع على الخلافة والذي سبق وتكلمت عليه قد حاول كل فريق أن يربط رأيه فيه بالنصوص الشرعية كمصدر أساسي للدين والاعتقاد كما أن كل فريق منهم كان يجتهد في أن يظهر رأيه على أنه هو وحده الموافق للعقيدة الصحيحة ، وأن كلاً منهم يدعى تمسكه بمصدر الفخر العام للجماعة ألا وهو الوحي ، بل قد يحاول كل منهم أن يظهر أمام الجميع بأنه هو الراعي الأوحد لهذا المصدر العظيم ، وأن جماعته وفريقه هو وحده الوفي بمطالب القرآن والسنة .

ولا شــك أنهــم في سبيل ذلك يحاولون أن يؤلوا آيات القرآن والأحاديث على وفق ما يخدم نزعتهم أو آراءهم ، حتى ولو كلفهم ذلك منقصة التعسف في ليّ عنق الآيات والأحاديث بما يحقق لهم ما يريدون .

يقول د. محمد البهي : " ولو أن القرآن لم يشتمل على ما يساعد بعض هذه المحاولات ، لكان التعسف أمراً لازماً لكل محاولة من هذا النوع ، ولو لم يكن في بعض عباراته من الاحتمال ما يغذي تخريجه على وجهين فأكثر ، لكان التعقيد أبــرز خصائص هذا التخريج ، ومثل هذا الاحتمال ليس خصوصية للقرآن من حيث هو قرآن ، لكنه خصوصية للغة على العموم ، لأنه من طبيعتها ، و " الحقيقة " و المجاز " ليسا إلا عنوانين لهذه الطبيعة وهما ضربان من ضروب الاحتمال "[٣]

ومــا يقال عن القرآن ، يقال أيضاً عن الأحاديث النبوية لأن لغتها هي لغة القرآن ، والتي تحمل نفس الخصائص مــن احتمال التأويل والتفسير بأكثر من وجه واحد ، ولقد كان من الأحاديث النبوية التي أسهمت بدور كبير في نشأة الفرق ومن ثم ظهور علم الكلام ، حديث الفرق ، الذي يذكر أن الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة[٤] . إذ أنه قد حصر الفرقة الناجية في واحدة فقط ، فكان على كلٍ أن يبحث لنفسه : أين هو من هذه الفرقة الناجية ؟[٥].

ولكن كون نصوص الكتاب والسنة سبباً في نشأة الفرق ، ومن ثم في نشأة علم الكلام قول لا يخلو من نظر ، ذلك لأن الصــحابه – رضــي الله عنهم جميعاً – قد تلقوا جميع النصوص الشرعية ، وعايشوا نزولها لحظة بلحظة ، ولم ينشأ فيهــم مثل هذا الجدل المبتدع ألا وهو علم الكلام ، فلو كانت النصوص الشرعية – وهي آيات القرآن الكريم والأحاديث

---

(١) انظر : د. سليمان دنيا (ص/٣٢٧) .

(٢) انظــر : ابن خلدون: المقدمة (١٠٧٦/٣) ت.د.علي عبدالواحد وافي ط٣/ دار نهضة مصر ، و د/ محمــد البــهي : الجانب الالهي مــن التفكـير الاســلامي (ص/٣٥) – ط٦ مكتـبة وهبة – القاهرة . و يحي هاشم بن فرغل: عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام (ص١٨-٦١) ، (ص/٢٨٩-٢٩١). و د. محمد يوسف موسى : القرآن والفلسفة (ص/٣٠) .

(٣) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي (ص/٣٤،٣٥) .

(٤) أخرجه : أبو داود (٥٠٣/٢-٥٠٤) ، الدارمي (٢٤١/٢) ، أحمد (١٠٢/٤) الحاكم (١٢٨/١) والآجري في الشريعة (١٨) وابن بطة في الابانة (٢/ ١٠٨) والالكــائي في شرح السنة (١/٢٣/١) ، وقال الحاكم : " هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث " ووافقه الذهبي وقال الحافظ في تخــريج الكشاف (ص/٦٣) اسناده حسن ، وقال ابن تيمية في المسائل (٨٣/٢) هو حديث صحيح مشهور ، وصححه أيضاً الشاطبي في الاعتصام (٣/ ٣٨) ، وانظر : الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/حديث رقم (٢٠٣،٢٠٤) .

(٥) انظر : يحي هاشم فرغل : عوامل وأهداف نشأة علم الكلام (ص٢٩١) .

النـــبوية الشريفة – سبباً في نشأة علم الكلام ، لوُجد هذا العلم في عصر الصحابة والتابعين ، ولكنهم قد تلقوا القرآن والسنة بفهم واع ، ونظر ثاقب ، ولم يلتبس على عقولهم وأفهامهم شئ من هذه النصوص ، ولذلك كانوا كلهم يصدرون عن منهج واحـــد فـــي التلقي ألا وهو الوحي ، وعن منهجٍ واحد في الفهم ، وهو طريقة فهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – التي عـــلمهم ورباهم عليها ، ولم يرتضوا غير ذلك سبيلاً ، ولم يتكلفوا بحث مسائل عقيمة لا يرجون فائدتها ولا ثوابها من الله تعـــالى ، وإنما كان كل عملهم وتعلمهم ودعوتهم كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – كما كانوا يخشون على أنفســـهم خشـــية عظيمة من أن يزيدوا في كلامهم أو علمهم أو عملهم شيئاً عما كان يفعله رسول الهدى – صلى الله عليه وسلم – أو يتكلم به أو يعلمه الناس .

فكيف يقال : إن نصوص الوحيين هي السبب – أو هي سبب من أسباب – نشأة علم الكلام ؟ إنما نشأ الكلام فيما بعـــد العصـــور المفضلة بأسباب ليست منها النصوص الشرعية ، ولو تمسك الناس بهما كما فعل الأصحاب – رضي الله عنهم – ولو لم ينبهروا بأفكار غيرهم ، لما حصل ما نراه من اكداس العلوم التي لا تنفع المسلمين بل كانت سبباً في تمزقهم وتفرقهم ومناجزة بعضهم بعضاً وكم من باحث.عزا نشأة علم الكلام إلى التأثير المباشر أو غير المباشر بالفلسفة اليونانية[١] ، أمـــا القلة النادرة من الباحثين فهي التي جعلت تلك النصوص الشرعية سبباً من الأسباب ، لكنه لا يعدو كونه رأياً يحتمل الخطـــأ والصـــواب ، ونحن نميل إلى خطأ هذا القول ، نظراً لأن الكثرة الكاثرة من الباحثين يرجعون نشأة علم الكلام إلى الفلسفة اليونانية والتأثر بها بشكل أو بأخر ، وعلى تفاوت بين المتأثرين بها ، فهو يكاد يكون اجماعاً ، أو شبه اجماع على أن هذا هو السبب الرئيس – إن لم يكن عند البعض هو السبب الأوحد – في نشأة هذا العلم .

كمـــا أن ما قدمته من أن هذا العلم لم يظهر له أثر في عهد الصحابة – رضي الله عنهم – وهم أفضل القرون ، مما يعضد أيضاً ميلنا إلى مجانبة هذا الرأي للصواب ، لكن يمكن القول بأن ابتعاد الناس بعد عصر الصحابة والتابعين عن الفهم الصحيح لنصوص القرآن والسنة كان سبباً من أسباب الجدال والشقاق الذي نتج عنه – كسبب فرعي لا أصل – علم الكـــلام ، فالعيب إذاً ليس في النصوص الشرعية ، إنما العيب في الناس أنفسهم إذ لم يتمسكوا بالنصوص التمسك الحق ولم يعضوا عليها بالنواجد ، اتباعاً للهدى واعتقاداً بأن الحق فيها وحدها وليس في غيرها .

فالآفة إذاً – كما قيل – من الفهم السقيم ، وما ذنب النص القرآني ، أو النص النبوي إذا لم يفهمه المنحرف على وجهه الصحيح الذي أنزل به ؟

يقول د. محمد البهي : " والكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد من الحكماء ، كأبي الهذيل العلاف ، والنظام من المعـــتزلة ، وكالأشعري وإمام الحرمين والغزالي من الأشاعرة ، في أن كل واحد منهم استخدم العقل في بحثه الالهي في حـــدود مـــا ورد بـــه الإسلام ، مع فطنه تأثره بآراء الاغريق ، لكن درجة التاثر بين هذه الطبقات الثلاث بالفكر الاغريقي متفاوتة ، فمن يُعرفون باسم الفلاسفة والحكماء تعتبر درجة التأثر عندهم أوضح منها عند من يعرفون بالمتكلمين ، معتزلة

---

(١) انظر في ذلك : ذم الكلام وأهله لشيخ الإسلام الهروي ، مقدمة المحقق (١/٢٩-٣٣) ، د.محمد البهي : الجانب الالهي من التفكير الاسلامي (ص٢١-٢٤، من ٥١-٩٣) ، د.سليمان دنيا : التفكير الفلسفي الاسلامي (ص٣٢٧،٣٢٦) ، د/ علي سامي النشار : نشأة الفكر = = الفلسفي في الإسلام (١/٥٤) ، د.فاروق دسوقي حرية الإنسان (ص٥٢،٥١) ، د.سليمان العايدة محاضرات في العقيدة – النبوات مذكرة على الآلة الكاتبة (ص٤) .

وأشاعرة على وجه العموم ، والأشاعرة أقل في التأثر من المعتزلة "[١] ، لقد كان المسلمون – ولا يزالون – في غنى عن هـذا الفكـر الاغـريقي وعن غيره من الأفكار الدخيلة عليهم ، لأن الله تعالى قد اكمل الدين الاسلامي ورضيه لعباده ولم يرتض لهم ديناً سواه ، ولقد فهم الصحابة – رضي الله عنهم – هذه المعاني ، فلم ينظروا لأفكار الأمم الكافرة إلا على أنها أفكـار جاهـلية ، يقـول مصطفى عبدالرزاق : " كان لهذه المعاني الدينية التي قررها الإسلام منذ نشأته أثرها العظيم في توجيه النظر العقلي عند المسلمين في عهودهم الأولى ، فكرهوا البحث والجدل في أمور الدين دون أمور الأحكام الشرعية ... فالمسلمون في الصدر الأول كانوا يرون ألا سبيل لتقرير العقائد إلا بوحي ... وقد مضى زمان النبي – عليه السلام – والمسـلمون على عقيدة واحدة هي ماجاء في كتاب الله[٢] لأنهم أدركوا زمان الوحي وشرف صحبة صاحبه ، وأزال نور الصحبة عنهم الشكوك والأوهام "[٣] .

ويقول المقريزي : " اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – رسولاً إلى الناس جميعـاً وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف نفسه الكريمة في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه – صلى الله عليه وسـلم – الروح الأمين ، وبما أوحى إليه ربه تعالى ، فلم يسأله – صلى الله عليه وسلم – أحد من العرب بأسرهم قرويهم وبدويهـم عن معنى شئ من ذلك ، كما كانوا يسألونه – صلى الله عليه وسلم – في أحكام الحلال والحرام ، وفي الترغيب والـترهيب ، وأحوال القيامة ، والملاحم والفتن ونحو ذلك مما تضمنته كتب الحديث ومعاجمها ومسانيدها وجوامعها ، ومن أمعـن النظر في دواوين الحديث النبوي ، ووقف على الآثار السلفية ، علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة – رضي الله عنهم – على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم ، أنه سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن معنى شئ مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم ، وعن لسان نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – بـل كـلهم فهمـوا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات فأثبتوا – رضي الله عنهم – بلا تشبيه ، ونزهوا من غير تعطيـل ، ولم يتعرض مع ذلك أحد منهم إلى تأويل شئ من هذا ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت ، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على واحدانية الله تعالى ، وعلى اثبات نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – سوى كتاب الله[٤] ، ولا عرف أحد منهم شيئاً من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة "[٥] .

إذاً فلم يكن القرآن الكريم ولا السنة النبوية فلسفة ولا أصولاً للتفلسف ، وما كانت نصوصهما سبباً لنشأة علم الكلام – كما يقوله البعض

٥– وأخيراً يمكن القول بأن الأحاديث الموضوعة التي وضعها الوضاعون ، قد أسهمت بنصيب كبير في إثارة الجدل ، كما كان لها أثرها السئ في انحراف متبعيها عن العقيدة الصحيحة . يضاف مع ذلك – مما يتعلق بالأحاديث – أن تأخر حركة التدوين ، والجرح والتعديل وتخريج الأحاديث ، وتمييز صحيحها من سقيمها ، كان له أثر بالغ أيضاً في نشأة علم الكلام ،

---

(١) في هذا الكلام تساهل شديد في حق الفلاسفة ، وكذلك المعتزلة فإن من قرأ كلام هؤلاء وهؤلاء تبين له أنه لا يمت إلى الإسلام بصلة .

(٢) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي (ص٢١) .

(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية (ص٢٧٢،٢٧١) .

(٤) كـان الصحابة – رضي الله عنهم – جميعاً – وكذلك السلف ، يرون أن سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – وحي كالقرآن ، فهما مصدرا العقيدة ، وأصل الدين ، وأساس الاستدلال على العقيدة واثبات النبوة .

(٥) الخطط (٨١/٤،٨٠) نقلاً عن : تمهيد التاريخ الفلسفة الاسلامية (ص٢٧٣) .

والــبحث والجــدل ، وإثــارة الخصومات وتوسيع هوة الخلاف والفرقة بين المسلمين ، مع ما يضاف إلى ذلك من الجهل بنصوص الوحي فيأخذون بعضاً ويتركون بعضاً إلى جانب ما تبتلى به النفوس من اتباع الهوى الذي يعمي ويصم عن اتباع الحق .

هكــذا كانت نشأة علم الكلام – كما رأيناها وبإيجاز شديد – مع شئ من عوامل هذه النشأة ، فما هو علم الكلام ؟ هذا ما سنجيب عليه – إن شاء الله تعالى – في الورقات التالية .

I

المطلب الثاني : تعريف علم الكلام وموضوعه

قال أبو نصر الفاراني (ت ٣٣٩هـ ــ ٩٥٠م) (١)

" وصناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحددة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ماخالفها " (٢) ·
وهذا التعريف هو الأصل الذي انبثقت منه بقية التعريفات من بعد الفارابي ·

فقال الايجي (٧٥٦هـ ــ ١٣٥٥م) (٣) : والكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه" (٤)

وقال التفتازاني (ت ٧٩٢هـ ــ ١٣٨٩م) :(٥) الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية " (٦) ·

والناظر إلى هذه التعريفات يتبادر إلى ذهنه أن علم الكلام إنما وضع لإثبات العقيدة الإسلامية ، وتدعيم أركانها ، والدفاع عنها ضد شبهات الخصوم ، وإيراد الأدلة والحجج التي سموها يقينية ، وزعموا أنها تحلى الإيمان بالإيقان ·

وإذا مايحثـنا عـن تلك الأدلة التي قال عنها المتكلمون بأنها يقينية في تثبيت العقائد الإيمانية ، وجدنا أنهم يقصدون بها الادلة العقلية ، المبنية على مقدمات ونتائج عقلية غير منضبطة بميزان الشرع ، زاعمين أن الحق في نفس الأمر هو ماعلموه بعقولهم(٧)·

ولذلك نجد ابن خلدون يعرف علم الكلام بقوله : " هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية " (٨) ·

كما ان دفاع المتكلمين أيضاً عن العقائد ودفع شبه المعاندين يقوم كذلك على نفس الطريقة العقلية التي لاتهتدي بهدى القرآن والسنة ·

ــ والفرق بين علم الكلام ، وعلم المنطق الذي سبق الكلام عنه ،أن المنطق أعم من علم الكلام ، فلا يختص بالعقائد فقط

ــ ويفترق أيضاً المنطق في كونه نشأ متقدماً عن علم الكلام قروناً طويلة ، فتأثر لذلك علم الكلام بالمنطق ، دون العكس ·

ــ ومن الفروق أيضاً أن المتكلم يعتقد ثم يستدل على ذلك بالعقل ، أما أهل المنطق فإنهم يستدلون ثم يعتقدون ·(٩)

والمــنطق فرع من فروع الفلسفة ، وقد أختلط علم الكلام أيضاً بالفلسفة حتى كاد يصير فلسفة خالصة يقول ابن خلدون :" ··· والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لايتمز أحد الفنين عن الآخر ، ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم"(١٠) ·

فغايــة مــاظن علماء الكلام أن الدلائل الشرعية ليس فيها مايقنع الخصومة وبقية الحجة عليهم ، وهذا من خطئهم وجهللهم وضــلالهم ، وفإن الله عزوجل ــ قد خاطب بكتابه كل ملحد وكافر ومشرك ، وفاسق ،وأقام الحجة عليهم بأظهر الدلائل وأقــربها ، فــأقم الحجــة على فرعون ، ونمرود وسائر الكفرة من علماء اليهود والنصارى ، والمنافقين ، وكذلك الفسقة والمبتدعين بشكل بين وواضح ، إلا أن علماء الكلام لم ينظروا فيه ،ولم يلتفتوا إلى دلائله الدافعة ولا أدل على ذلك من أن فرعون خصم والنمرود كذلك ، وكذا علماء اليهود والنصارى ظهر لهم الحق بالدلائل الشرعية التي تحارفيها العقول ، ولا يحيلها ·

ويتضــح مما تقدم في تعريف علم الكلام ، أن المتكلمين متفقون على أنه : علم يعتمد على النظر العقلي في أمر العقــائد الديــنية ، لأن الأدلة السمعية (الكتاب والسنة) - عندهم - لا تفيد اليقين[1] فيجب أن يصار إلى العقل ، ليكون

---

(١) محمــد بن محمد بن طره خان بن أوزلخ ، أبو نصر الفارابي ، المشهور بالمعلم الثاني ، ولد في فاراب على نهر جيحون (٢٦٠هـ ــ ٨٧٤م) ووفاته عام (٣٣٩هـ ــ ٩٥٠) ، انظر وفيات الأعيان (٢ /٧٦) ، طبقات الأطباء (٢ / ١٣٤) الأعلام (٧/ ١٢٠) ·

(٢) إحصاء العلوم (ص ٧١) م · السعاقدة القاهرة ، ٦٣٥ ــ ١٩٣١م ·

(٣) عــبدالرحمن بن أحمد الأيجي (ت ٧٥٦هـ) ، انظر : بغية الوعاة (٢٩٦) ، مفتاح السعادة (١٦٩/١) ، الدرر الكامنة (٢ /٣٢٢) ، طبقات البكي (٧٠٨/٦) ·

(٤) الموافق في علمالكلام (ص٧) مكتبة المتنبيء ــ القاهرة ·

(٥) مســعود بن عمر بن عبدالله التفتازاني ، سعد الدين ، ولد بتفتازان من بلاد خراسان (٧١٢هـ ــ ١٣١٢م) ، وتوفي (٧٩٣هـ ــ ١٣٩٠م) · انظر :بغي لاوعاة (٣٩١) ، مفتاح السعادة (١٦٥/١) الدرر الكامنة (٣٥٠/٤) الأعلام ٢١٩/٧) ·

(٦) شرح المقاصد (١٧٧/١) ·

(٧) درء تعارض العقل والنقل (١٢/١) ·

(٨) المقدمة · ١٠٦٩/٣) ت · د · علي عبد الواحد واقي ·

(٩) دائرة المعارف الإسلامي (٥٢٩/٥) ·

(١٠) المقدمة (١٠٧٠/٣) ·

محكَّمـــاً فيمـــا يجب وفيما يحرم اعتقاده ، فما استساغه العقل وجب إثباته وإن لم يثبت في الكتاب والسنة ، وما رده العقل وجب رده أو على الأقل التوقف فيه ، ولو كان هذا الأمر قد ورد إثباته في الكتاب أو في السنة أو فيهما معاً[٢] .

هـــذه محصَّـــلة موجزة لتعريف علم الكلام أردت الوقوف عليها قبل أن أبين نقد السيوطي له ، والآن حان الوقت لأوضح – بعون الله تعالى – ذلك النقد .

المطلب الثالث : نقد السيوطي علم الكلام وتحريمه إياه

ركز السيوطي نقده علم الكلام على ثلاثة محاور :

المحـــور الأول : أنـــه علم مبتدع ، لأن السلف الصالح – رضي الله عنهم – لم يتكلموا به ، ولم يعرفوا قضاياه ، ولم يتـــلقوا عقائدهم منه ، ولم يؤسسوا توحيدهم على قواعده[٣] ، فهو لم يرد الأمر به في الكتاب ولا في السنة ، ولا يوجد عن السلف البحث فيه ، وذلك بخلاف العربية فإنه ورد الأمر بها في الحديث ، ووجد عن السلف البحث فيها[٤] .

أمـــا قول السيوطي بأن الحديث قد ورد بالأمر بها أي بتعلم العربية ، فلم أقف في ذلك على حديث صحيح يأمر بتعلم العربية ، بل ما ورد في ذلك من الأحاديث إما موضوع وإما ضعيف [٥] .

ولذلـــك فـــإن الســـيوطي عد علم الكلام من البدع المذمومة ، ففي كتابه " الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع "[٦] اســـتعرض العديد من البدع ، وعد منها علم الكلام ، قال : " ومن ذلك – أي من البدع – علم الكلام والجدل ، وهو بدعة ومحدث لم يكن في السلف الماحنين "[٧] وكذلك وصف المشتغل بعلوم الفلسفة والمنطق بالابتداع فقال : " الرابع : من الملحق بالمبتدع ، من دأبه الاشتعال بعلوم الأوائل كالفلسفة والمنطق... "[٨] .

ولا ريب أن علم الكلام وليد الفلسفة والمنطق وهو فرع عنهما ، فله حكم أصله وما دام المنطق والفلسفة بدعةً ، والمشتغلُ بهما مبتدعاً فإن علم الكلام كذلك بدعة ، والمشتغل به مبتدع . ومادام علم الكلام بدعة ، فالبدعة ضلالة وهو محرم .

ويؤكـــد السيوطي هذا الحكم على علم الكلام بالتحريم بما نقله عن الإمام الذهبي بأنه قل من أمعن النظر في علم الكـــلام إلا وأداه اجتهاده إلى القول بما يخالف السنة ، ولهذا ذم علماء السلف النظر في علم الأوائل ، فإن علم الكلام مولد من علم الحكماء الدهرية[٩] ، فمن أراد الجمع بين علم الأنبياء بين علم الفلاسفة بذكائه ، لا بد وأن يخالف هؤلاء وهؤلاء ،

---

(١) انظـــر : ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (١٣/٢) ، الاستقامة (٦،٢٣،٤٧/١-٥٠) ، ابن القيم ك الصواعق المرسلة (٦٣٢،٣/٢-١١٣٠-١١٣١) ابن ابي العز : شرح العقيدة الطحاوية (٥٩٠،٣٩٩) .

(٢) انظر : أبو اسماعيل الهروي : ذم الكلام ط٣٦/١ – من كلام المحقق عبدالرحمن بن عبدالعزيز الشبل في المقدمة ، وانظر : ابن تيمية : الرد على المنطقيين (ص/١٠٠) .

(١) انظر : صون المنطق (ص/٣٠) ، وانظر : محمد جلال شرف : جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الكلامية – ١٩٨١م .

(٢) السابق نفسه .

(٣) لـــلوقوف على صحة ما قلته من أن هذه الأحاديث التي تأمر بتعلم العربية غير صحيحة ، انظر : أبو الربيع نجم الدين سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الحنبلي : الصعقة الغضبية في الرد على من أنكر العربية ، ت.د. محمد بن خالد الفاضل .

(٦) الكتاب مطبوع بدراسة وتحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلمية – بيروت (ط١٤٠٨/١هـــ-١٩٨٨م) – لبنان .

(٧) (ص/١٠٦) .

(٨) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٣٢٧/١) – ت عبدالوهاب عبداللطيف ، دار الكتب العلمية (ط١٣٩٩/٢هـــ-١٩٧٩م).

(٩) الدهـــر : مدة الحياة الدنيا كلها ، وهو كل مدة طويلة ، وهو مرور الزمن وكان العرب ينسبون كل حادث إليه ، والدهريون هم الذين يعتقدون أن ما في العالم موجود أزلاً ، ولا خلق له فهم ملحدون ، يجحدون الصانع المدبر العالم القادر ، ويزعمون أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه لا بصانع

ومـــن كف ومشى خلف ما جاءت به الرسل من إطلاق ما أطلقوا ، ولم يتخذ لق ولا عمق ، فإنهم – صلوات الله عليهم – أطـــلقوا وما عمقوا فقد سلك طريق السلف الصالح ، وسلم له دينه ويقينه نسأل الله السلامة في الدين[١] يضاف إلى ما تقدم أن الـــدأب على الاشتغال بعلم الكلام من شأنه أن يثير الشبه ويجر إلى الحيرة والشكوك[٢] ، يستنبط السيوطي هذا من كلام ابـــن عباس – رضي الله عنهما – عندما قال : " لا تضربوا كتاب الله بعض ببعض ، فإن ذلك يوقع الشك في قلوبكم "[٣]، ويذكر السيوطي أن هذه العلة التي علل بها ابن عباس منع النظر في المتشابه هي نفسها التي علل بها النووي – رحمه الله – في شرح المهذب منع النظر في علم الكلام[٤] .

ولعـــل مـــا يزيد هذه المسألة وضوحاً وبياناً ما نقله .. السيوطي عن الإمام مالك – رحمه الله – وقد جاءه رجل يســـأله ، فقال مالك : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد ، لعن الله عمراً ، فإنه ابتدع هذه البدع من الكلام ، ولو كان الكلام علماً لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الأحكام والشرائع[٥] .

وهذا النص من مالك – رحمه الله – يصرح بالعلة في تحريم الكلام ، وكذا سائر أئمة المسلمين الذين نصوا على تحـــريم عـــلم الكـــلام ، عللوه بكون السلف لم يتكلموا فيه[٦] ، وذلك لخلوه من الخير والفائدة في الدين ، بل هو باب كبير للدخول إلى لجة الخصومة والخلاف ، وهو الذي حذر منه السلف ، بل قد وقع فعلاً بين فرق الأمة ، كما أن العلة الكبرى في تحريمه أنه باب عظيم لمخالفة الكتاب والسنة .

هذا هو مجمل المحور الأول الذي تناول فيه السيوطي نقد علم الكلام ، والآن إلى المحور الثاني.

المحور الثاني : أن النبي – صلى الله عليه وسلم – حذر الأمة منه ، ويبين السيوطي ذلك فيؤكد أن الكلام عبارة عن آراء وأهـــواء ، وقد حذر النبي – صلى الله عليه وسلم – من أهل الأهواء ، ويتفق علماء الإسلام على أن أهل الأهواء هم أهل الكلام والمنطق والفلسفة* ، ويستشهد على ذلك بحديث النبي – صلى الله عليه وسلم – الذي نقله عن الهروي[٧] في كتابه :

، ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة (الغزالي المنقذ من الضلال) وعليه فهم ينكرون الخـــالق والنـــبوة والـــبعث والحســـاب ويردون – كل شئ إلى فعل الأفلاك ولا يعرفون الخير ولا الشر وإنما اللذة والمنفعة (الجاحظ : الحيوان) والطـــبيعيون الدهريون بخلاف فلاسفة الدهريين والأولون يقولون بالمحسوس ، وينكرون المعقول ، بينما يقول الآخرون بالمحسوس والمعقول معاً ، وينكرون الحدود والأحكام وصارت الدهرية ديناً صريحاً في عهد يزدجرد الثاني في الدولة الساسانية (٤٣٨-٤٥٧م) ويصفهم القرآن الكريم آية (٢٣) الجاثيـــة : فيقول : (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) . معجم الألفاظ والاعلام القرآنية (ص/١٧٨) محمد اسماعيل ابراهيم ، والموسوعة الفلسفية د/عبدالمنعم الحفني (١٨٣) .

(١) صون المنطق (ص/١٩) ، وانظر الذهبي : ميزان الاعتدال (١٤٤/٣) في ترجمة علي ابن الزاغوني .

(٢) انظر : جلال الدين السيوطي وآراؤه الكلامية (ص/٧٤) .

(٣) صون المنطق (ص/٣٩/٤٠) .

(٤) صون المنطق (ص/٤٠) ، المجموع شرح المهذب (٤٩/١) ت : محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد جدة .

(٥) انظر : صون المنطق (ص/٣٣) .

(٦) انظر : نفسه (ص/٣٣) ، د/محمد جلال شرف : جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الكلامية (ص/٧٤) .

* انظر : صون المنطق (ص/١٣٦،١٣٧) .

(٧) هو : عبدالله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي ، أبو اسماعيل ، شيخ خراسان في عصره ، من كبار الحنابلة ، من ذرية أبي أيوب الأنصاري – رضي الله عنه – ، انظر : سير أنباء النبلاء ج ١٥ ، والذيل على طبقات الحنابلة ، (١-٦٤) ، الاعلام (١٢٢/٤) .

" ذم الكـــلام "[١] فقال : " وأخرج الهروي عن ابن عمر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إياكم والركون إلى أصحاب الأهواء ، فإنهم بطروا النعمة ، وأظهروا البدعة ، وخالفوا السنة ونطقوا بالشبهة ، وتابعوا الشيطان "[٢] .

قال أبو عمر بن عبد البر : " ما توفى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى كره المسائل وناحية التنقيب والبحث وزجر عـــن ذلك ، وحذر المسلمين في غير موطن حتى كان من قوله كراهية لذلك : " ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك الذين من قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشئ فخذوا منه ما استطعتم "[٣] .

وهذا يؤكد كلام السيوطي في استدلاله من أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قد حذر الأمة من الركون إلى أهل الـــبدع ويستمر السيوطي في الاستدلال على ذلك فينقل عن علي – رضي الله عنه – أنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حِكَماً ، وإن من القول عيا ، وإن من طلب العلم جهلاً "[٤] ثم يفسر السيوطي معنى قوله – صلى الله عليه وسلم – " وإن مِن طَلَبِ العلم جهلاً " فيقول : " معناه علم النجوم وعلم الكلام "[٥]

وهـــذا ممـــا يؤيد ما قاله أبو يوسف[٦] – رحمه الله – لبشر المريسي[٧] : " العلم بالخصومة والكلام هو الجهل ، والجهل بالخصومة والكلام هو العلم وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل زنديق ، أو رمى بالزندقة "[٨] .

أراد بـــالجهل به اعتقاد عدم صحته ... أو أراد به الاعراض عنه أو ترك الالتفاف إلى اعتباره ، فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله ، فيكون علماً بهذا الاعتبار[٩] ، والله تعالى أعلم .

ولا أدل عـــلى أن أهل الكلام هم أهل الأهواء الذين حذر منهم المصطفى – صلى الله عليه وسلم – من قول أبي عمـــر بن عبدالبر[١٠] ، – رحمه الله – قال : " أجمع أهل الفقه والآثار في جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ،

---

(١) حققه / عبدالرحمن بن عبدالعزيز الشبل بقسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ونال به درجة الدكتوراه ، ولم يطبع منه سوى جزئين فقط .

(٢) هـــذا الحديـــث الذي استشهد به السيوطي موضوع ، أخرجه ابن عدي في " الكامل " (٢٠٥/١) وابن الجوزي في " الموضوعات " (٢٦٩/١) والسهمي في " تاريخ جـــرجان " (ص ٢٦٤) ثلاثتهم من طريق أبي حمزة السكري عن ابراهيم الصائغ عن نافع عن ابن عمر بنحوه ، وقال ابن عدي : " هذا الحديث كذب موضوع على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأحمد بن محمد بن علي كان يضع الحديث " . انظر : ذم الكلام للهروي (١٨٦/٣) ح رقم (٦٣٢) .

(٣) جامع بيان العلم وفضله (ص٣٦٩) ، والحديث رواه البخاري في صحيحه رقم (٧٢٨٨) ، مسلم في صحيحه (٩٧٥/٢) رقم (١٣٣٧) .

(٤) صون المنطق (ص٤٧) ، والهروي : ذم الكلام (١٧١/٣) وإسناده ضعيف أخرجه الخطيب في " المتفق والمفترق " رقم (١٥٦٠) والضياء المقدسي فـــي " المختارة " (١٢٠،٤٩٣/٢) كلاهما من طريق ابن أبي عروبة عن المغيرة بن عبدالرحمن عن يحيي بن السكن وهو اسناد ضعيف جداً . فيحي بن السكن هو البصري ، قال أبو حاتم : " ليس بالقوى " وقال صالح جزرة : " لا يسوى فلساً " ورماه الوليد بالكذب ، انظر : الجرح والتعديل (٩/ ٥٥) ، وتاريخ بغداد (١٤٦/١٤) واللسان (٢٥٩/٦) ، وانظر ترجمة المغيرة في " تهذيب الكمال " (٣٩٠/٢٨) .

(٥) صون المنطق (ص/٤٧) .

(٦) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري ، الكوفي ، البغدادي أبو يوسف ن صاحب الإمام أبي حنيفة ، وتلميذه ، وأول من نشر مذهبه ، ولد بالكوفة (١١٣هـــ–٧٣١م) مات ببغداد (١٨٢هـــ–٧٩٨م) ، انظر : مفتاح السعادة (١٠٠/٢) ، النجوم الزاهرة (١٠٧/٢) ، البداية والنهاية (١٨٠/١٠) ، ابن خلكان (٣٠٣/٢) ، الاعلام (١٩٣/٨) .

(٧) بشـــر بـــن غيـــاث بن أبي كريمة عبدالرحمن المريسي العدوي بالولاء ، أبو عبدالرحمن ، فقيه معتزلي ، متفلسف يرمي بالزندقة كان أبوه يهودياً ، انظر : وفيات الأعيان (٩١/١) ، النجوم الزاهرة (٢٢٨/٢) ، ميزان الاعتدال (١٥٠/١) ، الاعلام (٥٥/٢) – (ت٢١٨هـــ–٨٣٣م) وعمره نحو من ٧٠ سنة .

(٨) صون المنطق (ص/٦٠) ، وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٦٤/٤) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٢) ، وانظر : تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية (١٢٧/١) .

(٩) انظر : ابن أبي العز شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٢) .

(١٠) يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري القرطبي المالكي ، أبو عمر ، من كبار حفاظ الحديث ، ولد بقرطبة (٣٦٨هـــ–٩٧٨م) توفي بشاطبة (٤٦٣هـــ–١٠٧١م) ، انظـــر : بغية الملتمس (٤٧٤) ، وفيات الأعيان (٣٤٨/٢) ، آداب اللغة (٦٦/٣) ، الديباج المذهب (٣٥٧) – وسماه يوسف بن عمر وهو خطأ . الأعلام (٢٤٠/٨) .

ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء ، وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه ، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم "[١]

ثم ساق ابن عبدالبر – رحمه الله – بسنده إلى أبي عبدالله محمد بن خويز منداد[٢] أنه قال : قال مالك : لا تجوز الإجارة في كتب أهل الأهواء والبدع والتنجيم ، وذكر كتباً ، ثم قال : وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم ، وتفسخ الإجارة في ذلك ، وكذلك كتب القضاء بالنجوم وعزائم الجن وما أشبه ذلك "[٣] وقال في كتاب الشهادات في تأويل قول مالك – رحمه الله – : " لا تجوز شهادة أهل البدع وأهل الأهواء " قال : " وأهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع ، أشعرياً كان أو غير أشعري ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً ، ويهجر ، ويؤدب على بدعته ، فإن تمادى عليها استتيب منها "[١] .

ويستطرد السيوطي في ذكر الأحاديث النبوية التي تحذر من الكلام والبدع فيذكر حديث أبي أمامة – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل[٤] ، ثم تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون)[٥] وكذا حديث عمرو بن شعيب عن أبه عن جده قال : خرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على أصحابه ذات يوم ، وهم يتراجعون في القدر ن فخرج مغضباً ، حتى وقف عليهم ، فقال : يا قوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لنضرب بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضاً ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به "[٦] .

ويستمر السيوطي في سرد الأحاديث التي تؤيد رأيه في أن علم الكلام والجدل من البدع التي ينبغي للأمة أن تحذر منها وتبتعد عنها ، وأن تعلم الأجيال المتعاقبة من أبناء الأمة أن علم الكلام يجب الابتعاد عنه وعن الاشتغال به ، فهو يريد بذلك التحذير من تكرار البدع ، لأنها ليست موقوتة بعصر دون آخر ، فإن الزمان باق ، والتكليف قائم ، والخطرات متوقعة ولا تكاد تنتهي ، مؤكداً بذلك المعنى الذي قصده ابن عباس – رضي الله عنهما – حين قال : " ما من عام إلا والناس يحيون فيه بدعة ويميتون فيه سنة ، حتى تحيا البدع ، وتموت السنن "[٧] وإن المتأمل في تاريخ المسلمين ليرى صحة ما قاله ذلك الحبر الجليل ، لا سيما في العصور الأخيرة التي غاصت في تيارات الجدل والانحرافات .

---

(١) صون المنطق (ص/١٣٦) وهو في جامع بيان العلم وفضله (ص/٣٦٥) تقديم عبدالكريم الخطيب ، دار الكتب الحديثة – القاهرة بدون طبعة وبدون تاريخ .

(٢) هو : محمد بن أحمد بن عبدالله ، وقيل : ابن اسحاق ، كنيته أبو عبدالله الشهير بابن خويز منداد ، وكان يجانب الكلام وينافر أهله – رحمه الله – ، انظر : الديباج المذهب (ص٢٦٨) .

(٣) صون المنطق (ص/١٣٦-١٣٧) ، وهو في كتاب " جامع بيان العلم وفضله " لابن عبدالبر (ص/٣٦٥ ، ٣٦٦) .

(٤) صون المنطق (ص/٣٥) ، ورواه أبو عمر بن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (ص/٣٦٨) ، وحكاه بن عبدالبر عن الأوزاعي من كلامه في جامع بيان العلم وفضله أيضاً وكذلك عن بكر بن نصر . وهو عند ابن ماجة في سننه عن أبي أمامة – رضي الله عنه – (١٩/١) ح رقم ٤٨ المقدمة باب (٧) اجتناب البدع والجدل ، ت/ محمد فؤاد عبدالباقي ، ط الحلبي بدون تاريخ ، والهروي في ذم الكلام (٣٢٢/١) رقم (٤٤) ، والترمذي (٣٥٣/٥) رقم (٣٢٥٣) وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) سورة الزخرف الآية (٥٨) .

(٦) صون المنطق (ص/٣٥) وحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، رواه ابن ماجة في سننه (٣٣/١) ح رقم (٨٥) ، وقال المحقق : قال في الزوائد : هذا اسناد صحيح ، رجاله ثقات .

(٧) الإمام الشاطبي : الاعتصام (١٢٨/٢) .

لقـد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يخشى على أمته التنازع والخلاف الذي يؤدي بهم إلى تكفير بعضهم بعضاً ثم استحلال كل منهم دماء وأموال الآخرين فينشأ القتل والقتال بينهم ، ومن ثم يهلكون وتذهب ريحهم ، لقد خرج على أصحابه يوماً وهم يتنازعون في القدر فغضب حتى احمر وجهه ، ثم قال : أبهذا أمرتم ، أم بهذا أرسلت إليكم ، إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر عزمت عليكم أن لا تنازعوا "[١] .

كمـا كـان يخشى – صلى الله عليه وسلم – ويخاف من رؤوس الضلال وأئمة الزندقة ، الذين يزخرفون للناس الحجج ، ويسمونها دلائل وبراهين ليقنعوا بها السذج والبسطاء والدهماء فيتبعوهم ، وهذا وارد في حديث معاذ ابن جبل – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " إني أخاف عليكم ثلاثاً ، وهي كائنة ، زلة عالم ، وجدال مـنافق بالقرآن ، ودنيا تفتح عليكم "[٢] يؤيد هذا المعنى ما ذكره الإمام ابن جرير في قوله تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً...)[٣] قال : " هم أهل البدع من هذه الأمة الذين اتبعوا متشابه القرآن دون محكمه "[٤] ثم روى عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال : " هم أهل الضلالة " وروى أيضاً عن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة "[٥] ولا يزال السيوطي يورد الروايات التي ينقلها من ذم الكـلام للهروي وغيره في هذا الباب فينقل من ذلك قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لا تقوم الساعة حتى تكون خصوماتهم في ربهم "[٦] .

---

(١) أخرجه الهروي في ذم الكلام ، وانظر صون المنطق (٣٥) وهذا الحديث عن أبي هريرة – رضي الله عنه – غير حديث عمرو بن شعيب السابق . كما قد نبهت عليه فيما سبق . وانظر : سنن الترمذي (٣٨٦/٤) ح رقم (٢١٣٣) – كتاب القدر (٣٣) باب (١) ، والحديث الصحيح بشواهده ، انظر : ذم الكلام (٣٤٠/١) رقم (٥٦) وشواهده رقم (٤٧،٤٨،٥٢،٥٣،٥٤،٥٥) .

(٢) صـون المـنطق (ص٣٨) وذم الكلام (٣٧٦/١) ، والحديث اسناده بهذا اللفظ ضعيف جداً ، وهو حسن لغيره ، أخرجه الطبراني في " الكبير " (٢٠/ ١٣٨،٢٨٢) ، وفـي " الأوسط " كما في " مجمع البحرين " (٢٦٩/١،٢٤٠) وفي " الصغير " (١٨٦/٢) ، والطيب في " تاريخه " (١٢٩/٢) كلاهما من طريق عبدالحكيم بن منصور الواسطي ، عن عبدالملك بن عمير ، عن عبدالرحمن ، عن ابن أبي ليلى ، عن معاذ به . قال الطبراني – كما في مجمع البحرين : (٢٤١/١) " لم يروه عن عبدالملك إلا عبدالحكيم ، ولايروي عن معاذ إلا بهذا الاسناد " وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (١٨٦/١) " وفيـه عبد الحكيم بن منصور وهو متروك الحديث " وانظر : " الميزان (٢٥١/٣) وفيه أيضاً انقطاع ، فابن أبي ليلى لم يدرك معاذاً ، وأخرجه أيضـاً الطـبراني في " الأوسط " – كما في مجمع البحرين " (٢٤٢/١) واللالكائي (١١٦/١) كلاهما من طريق أبي حازم عن عمرو بن مرة ، عن معاذ بنحوه ، قال الهيثمي في " مجمع الزوائد " عمرو بن مرة لم يسمع من معاذ ، وللحديث شاهد من حديث ابن عمر أخرجه البيهقي في الشعب (٢٨١/٧) وغيره

(٣) سورة الأنعام ، الآية (١٥٩) .

(٤) جامع البيان (١٠٥/٨) .

(٥) نفسـه ، وانظـر : السيوطي : معترك الأقران (٥٠٤/٣) وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلى الحكيم الترمذي ، والطبراني والشيرازي في الالقاب وابن مردوية . عن أبي هريرة .

وعـزاه أيضـاً بسـياق آخر عن عائشة – رضي الله عنهما – إلى ابن أبي حاتم وأبي الشيخ والطبراني وأبي نعيم في الحلية وابن مردوية ، وأبي نصر السجزي في الابانة ، والبيهقي في شعب الإيمان .

انظر : الدر المنثور (٤٠٢/٣) .

(٦) صون المنطق (ص/٤٧) وذم الكلام للهروي (١٥٩/٣) – والحديث اسناده ضعيف ، أخرجه ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله (ص/٣٦٣) من طريق أحمد بن سليمان عن أبي قلابة ، به .

وأبو قلابة ، هو : عبدالملك بن محمد بن عبدالله بن محمد الرقاشي ، صدوق ، تغير حفظه لما سكن بغداد .

وفي إسناده أيضاً : سهيل بن أبي صالح ، صدوق ، تغير حفظه بآخره ، كما في " التقريب " وانظر أيضاً : سؤالات الحاكم للدار قطني " (ص/١٣١) و " تهذيب التهذيب " لابن حجر (٣٧١/٦) .

المحـــور الـــثالث : أقـــوال الصحابة – رضوان الله عنهم أجمعين – وكذا التابعين وأئمة مذاهب أهل السنة ، وكذلك أئمة التصوف والسلوك في ذم الكلام وأهله .

أما الصحابة – رضي الله عنهم – فهم مجمعون إجماعاً لا شك فيه على اتباع نبيهم محمد – صلى الله عليه وسلم – وامتثال أمره وعدم التزحزح عن منهجه قيد شعرة ، ذلك لأنهم صاحبوه ورأوا فيه نور النبوة ، فآمنوا به وصدقوه ، وأحبوه حباً لم يكن له في التاريخ مثيلاً لا سابقاً ولا لاحقاً ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ، فاستحقوا وصف الله تعالى لهم بأنهم هم المفلحون ، الصادقون[١] .

فأول من أبدأ به عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وهو من هو في حبه واتباعه لرسول الله – صلى الله عليه وســلم – بعــد الصــديق أبي بكر – رضي الله عنه – فقد نقل عنه السيوطي أنه قال : " يهدم الإسلام ثلاث : زلة عالم ، وجــدال مــنافق بالقرآن ، وأئمة مضلون "[٢] وهذا الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – يأمر المسلمين بالاتــباع ، وينهاهم عن الضلال والابتداع ، فيقول – رضي الله تعالى عنه – : " يا أيها الناس : إن الله بعث محمداً بالحق وأنــزل عليه الفرقان ، وفرض عليه الفرائض ، وأمره أن يعلم أمته ، فبلغ رسالته ، ونصح لأمته ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وبين لهم ما يجهلون ، فاتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم ، كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"[٣] وهو تصريح من ابن مسعود – رضي الله عنه – بأن المحدثات في الدين بدع ، وهي بدورها ضلالات ، وهذا يتناول علم الكلام ، لأنه محدث ، وليــس مبنياً على أصول الكتاب والسنة ، – كما قد بينا قبل ذلك – وابن مسعود – رضي الله عنه – لم يخرج في كلامه هذا عما قاله النبي – صلى الله عليه وسلم – حيث قال : " إن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد – صلى الله عــليه وســلم – وشــر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة "[٤] .وهو نفس المعنى الذي في حديث العــرباض بــن ســارية – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ... عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة "[٥] .

---

(١) قــال تعــالى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين {٢} الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون {٣} والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون {٤} أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون {٥}) سورة البقرة ، والصحابة – رضي الله عنهم – قــد بــلغوا الغايــة في الإيمان بالغيب ، وإقامة الصلاة والإيمان بالآخرة ، والإخلاص واليقين فلذلك استحقوا وصفهم بالمفلحين ، وكذلك أول سورة المؤمــنون ، ومن سورة الأعراف الآية (١٥٧) ، وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون {١٥}) سورة الحجرات ، والصحابة – رضي الله عنهم – جميعاً هم أول الموصوفين بهذه الأوصاف .

(٢) صون المنطق (ص٣٨) ، ذم الكلام (٣٧٥/١) رقم (٨٠) والأثر صحيح . رواه الدارمي في " سننه " (٨٢/١) رقم (٢١٤) .

(٣) صون المنطق (ص٣٥-٤٨) ، ذم الكلام (١٦٥/٢) ، روى الجزء الأخير من الأثر مختصراً : وكيع في " الزهد " (٣١٥) ، وأبو خيثمة في " العلم " (٥٤) ، وأحمــد فــي " الزهد " (ص٢٠٢) من طريق وكيع ، والدارمي في " سننه " (٢١١) في المقدمة ، وابن وضاح في " البدع " (ص١٠) من طــريقين ، والمــروزي فــي " السنة " (ص٢٣) ، والطبراني في " الكبير " (١٦٨/٩) رقم (٨٧٧٠) قال الهيثمي : " ورجاله رجال الصحيح " مجمع الزوائد (١٨١/١) ، ورواه ابن بطة في الإبانة الكبرى (١٧٤،١٧٥) وفي الإبانة الصغرى (١٠٣) ، ورواه ابن أبي زمنين في " أصول السنة " (١١) واللالكائي (١٠٤) ، والبيهقي في " المدخل إلى السنن " (٢٠٤) ، وفي " الشعب " (٤٠٧/٢) رقم (٢٢١٦) ، وأورده ابن قدامة في ذم التأويل (٥٨) .

(٤) صون المنطق (ص/٤٣) ، والحديث صحيح ، رواه مسلم في " صحيحه " (٥٩٢/٢) كتاب الجمعة (٧) باب (١٣) ح رقم {٤٣-(٨٦٧)} .

(٥) صون المنطق (ص/٤٦) ، والهروي : ذم الكلام (١١٣/٣-١٤٨) ، والحديث صحيح – كما قال أبو العباس الدغولي ، ونقله عنه الهروي – وقد أخــرج هذا الحديث : الإمام حمد في " المسند " (١٢٦،١٢٧/٤) ، والدارمي في " سننه " (٥٧/١) وابن ماجة في " السنن " (٤٤) وصححه كما قال ابن حجر في الفتح (٢٥٣/١٣) ، والحاكم في " المستدرك " (٩٥/١-٩٦) وفي المدخل إلى الصحيح ، وصححه ووافقه الذهبي .

وقد أتى أبو قرة الكندي ابن مسعود بكتاب فقال : إني قرأت هذا بالشام فأعجبني ، فإذا هو كتاب من كتب أهل الكتاب ، فقال ابن مسعود : إنما هلك من كان قبلكم باتباعهم الكتب ، وتركهم كتاب الله ، فدعا بطست وماء ، فوضعه فيه ، وأماثه بيده حتى رأيت سواد المداد"[١] . ولذلك قال ابن مسعود : " إنكم ستحدثون ويحدث لكم ، فإذا رأيتم محدثاً فعليكم بالأمر الأول "[٢] .

كما أنه أمر بالتأسي بصحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : " من كان منكم مؤتسياً فليأتسي بأصحاب محمد – صلى الله عليه وسلم – فإنهم كانوا أبر قلوباً ، وأعمق علماً ، وأقل تكلفاً ، وأقوم هدياً ، وأحسن أخلاقاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم فإنهم كانوا على هدى مستقيم "[٣] .

كما نقل السيوطي آثاراً كثيرة عن الصحابة في نفس هذا المعنى الذي يؤكد على وجوب اتباع النبي – صلى الله عليه وسلم – وصحابته الكرام دون دخول في جدال أو اشتغال بعلم الكلام فأثر ذلك عن ابن عباس[٤] ، وأبي بن كعب[٥] ، ومعاذ بن جبل[٦] ، و محمد بن علي[٧] وابن عمر[٨] – رضي الله عنهم جميعاً – .

والتابعون أيضاً آثارهم في هذا الباب كثيرة ، فمنهم منصور بن المعتمر[٩] الذي قال : ما هلك أهل دين قط حتى يخلف فيهم الزنادقة[١٠]. ومنهم عمر بن عبدالعزيز[١١] الذي قال : لم يزل أمر بني اسرائيل مستقيماً حتى حدث فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم ، فقالوا فيهم بالرأي ، فضلوا وأضلوا[١٢] .

ومنهم إبراهيم النخعي[١] ، قال في قوله تعالى : (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء ...)[٢] قال : اعزي بعضهم ببعض بالجدال في الدين[٣] .

ورواه أيضاً أبو داود في " سننه " (٤٦٠٧) ، ورواه الترمذي في " سننه " (٢٦٧٦) وقال : " حديث حسن صحيح " كما نقله عنه الحافظ ابن الجوزي في " تلبيس إبليس " (ص٢٢) ورواه ابن جرير في " تفسيره " (٦/٢١٢-٢١٣) وابن أبي حاتم في " تفسيره " (١٠٢٠١) ، وابن حبان في " صحيحه " (١ رقم ٥) وصححه ابن تيمية في " مجموع الفتاوي " (٢٨/٤٩٣٩) .

(١) صون المنطق ،ص٣٦) ، ذم الكلام (٣٤٩/١) .

(٢) صون المنطق (ص/٤٥) ، ذم الكلام (٤٧/٣) رقم (٥٤٩) .

(٣) صون المنطق (ص٥٢) ، ذم الكلام (٣٨/٤) رقم (٧٥٨) .

(٤) انظر صون المنطق (ص/٥٠،٤٩،٣٩) .

(٥) انظر نفسه (ص/٣٩) .

(٦) انظر نفسه (ص/٥٢،٤٥) .

(٧) انظر نفسه (ص/٥٣،٤٧) .

(٨) انظر نفسه (ص/٥١) .

(٩) منصور بن المعتمر بن عبدالله السلمي ، ابو عتاب ، من أعلام رجال الحديث من أهل الكوفة (ت١٣٢هـ-٧٥٠م) انظر : تهذيب (٣١٢/١) ، حلية الأولياء (٤٠/٥) ، تاريخ الإسلام للذهبي (٣٠٥/٥) ، الأعلام (٣٠٥/٧) .

(١٠) صون المنطق (ص٣٧) ، وذم الكلام (٣٥٠/١) رقم (٦٢) ، وفيه " ما هلك دين... " .

(١١) عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم الأموي ، القرشي ، أبو حفص ، الخليفة الصالح ، والملك العادل ، ولد عام (٦١هـ-٦٨١م) ، (ت١٠١هـ-٧٢٠م) رحمه الله تعالى ، أنظر : فوات الوفيات (١٠٥/٢) ، تهذيب التهذيب (٤٧٥/٧) ، حلية الأولياء (٢٥٣/٥) ، صفة الصفوة (٦٣/٢) ، وانظر مراجع أخرى في الأعلام (٥/٥) .

(١٢) صون المنطق (٣٧) ، وذم الكلام (٣٥٥/١-٣٥٦) رقم (٦٥)،وهذا الأثر إسناده ضعيف . أخرجه الشافعي في السنن (٥٢/٢) رقم (٣٥٦) ومن طريق البيهقي في " معرفة السنن " (١٨٧/١) رقم (٣٣٣) من طريق عبدالله بن مؤمل المخزومي ، عن عمر بن عبدالرحمن بن محيض ، عن عمر بن عبدالعزيز ، به ، وعبدالله بن مؤمل المخزومي ضعيف الحديث – كما في " التقريب " . وعمر بن عبدالرحمن بن محيض السهمي ، مقبول ، كما في " التقريب " ولم يتابع .

ومنهم أبو عمرو الأوزاعي[٤] الذي قال : عليك بآثار السلف وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوها بالقول[٥] .

ومـــنهم الحســـن البصـــري[٦] الذي قال : لا تجالس أصحاب الأهواء وإن ظننت أن عندك الجواب[٧] . أي وإن اعـــتقدت أنك قادر على الرد على آرائهم ومعتقداتهم فلا تجالسهم . وأمثال هذه الآثار عن كثير من التابعين منهم عطاء بن أبـــي رباح[٨] ، ومطرف بن عبدالله بن الشخير[٩]، ويحي بن أبي كثير[١٠] وغيرهم كثير جداً ، ولست هنا في مقام الحصر والاستقصاء لأقوال الصحابة والتابعين كلها[١١] .

كمـــا يستشهد السيوطي على ما ذهب إليه من ذم الكلام وأهله بأقوال الأئمة الأربعة ، أبي حنيفة[١٢] ، ومالك[١٣] ، والشافعي[١٤] ، وأحمد[١] – رحمهم الله تعالى جميعاً – .

---

(١) إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود ، أبو عمران ، النخعي ، من منحج ، من أكابر التابعين صلاحاً وصدق رواية ، وحفظاً للحديث ، من أهل الكوفة ، ولد (٤٦هـ–٦٦٦م) وتوفي مختفياً من الحجاج بن يوسف (٩٦هـ–٨١٥م) . انظر : طبقات ابن سعد (١٨٨/٦) ، تهذيب التهذيب ، وحلية الأولياء (٢١٩/٤) ، الأعلام (٨٠/١) .

(٢) سورة المائدة ، بعض الآية (١٤) .

(٣) صـــون المـــنطق (ص٣٧) وعـــزاه إلى سعيد بن منصور في " سننه " ، وهو في " ذم الكلام " (٩٢،٩٣/٤) ، ابن جرير في " جامع البيان " (١٥٨/٦) وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (٤٢/٣) إلى أبي عبيد ، وابن المنذر .

(٤) عبدالرحمن بن عمرو بن يُحْمِد الأوزاعي ، من قبيلة الأوزاع ، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد ، ولد في بعلبك (٨٨هـ–٧٠٧م) ونشأ في البقاع ، وسكن بيروت وتوفي بها (١٥٧هـ–٧٧٤) ، انظر : ابن النديم (٢٢٧/١) والوفيات (٢٧٥/١) حلية الأولياء (١٣٥/٦) ، شذرات الذهب (٢٤١/١) ، الأعلام (٣٢٠/٣) .

(٥) صون المنطق (ص٣٩) ، ذم الكلام (٤٣١/١) رقم (١٢٠) ، (٢٥٩/٢) رقم (٣٢٤) .

(٦) الحســـن بن يسار البصري ، أبو سعيد ، تابعي جليل ، إمام البصرة وحبر الأمة في زمانه ، ولد بالمدينة المنورة (٢١هـ–٦٤٢م) ، ونشأ في كنف علي بـــن أبـــي طالب – رضي الله عنه – توفي بالبصرة (١١٠هـ–٧٢٨م) ، انظر : تهذيب التهذيب ، وفيات الأعيان ، ميزان الاعتدال (٢٥٤/١) ، حلية الأولياء (١٣١/٢) ، الأعلام (٢٢٦/٢) .

(٧) صون المنطق (ص٥٢) ، ذم الكلام (٤٣/٤) .

(٨) عطـــاء بن أسلم بن صفوان ، تابعي ، من أجلاء الفقهاء ، كان عبداً أسود ، ولد بجَنَد (باليمن) (٢٧هـ–٦٤٧م) ونشأ بمكة فكان مفتي أهلها ومحدثهـــم ، وتوفي بها (١١٤هـ–٧٣٢م) انظر : تذكرة الحفاظ (٩٢/١) ، تهذيب (١٩٩/٧) ، حلية الأولياء (٣١٠/٣) ، صفة الصفوة (١١٩/٢) ، ميزان الاعتدال (١٩٧/٢) ، الوفيات (٣١٨/١) ، الأعلام (٢٣٥/٤) .

(٩) مطـــرف بن عبدالله بن الشِّخِّير الحرشي العامري ، أبو عبدالله ، زاهد من كبار التابعين ، ولد في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – وكانت إقامته ووفاتـــه بالبصرة (٨٧هـ–٧٠٦م) انظر : حلية الأولياء (١٩٨/٢) ، تهذيب التهذيب (١٧٣/١٠) ، الاعلام (٢٥٠/٧) ، وانظر : صون المنطق (ص ٥٣) .

(١٠) يحي بن صالح الطائي بالولاء ، اليمامي ، أبو نصر بن أبي كثير ، عالم أهل اليمامة في عصره ، من ثقات أهل الحديث ، وفاته (١٢٩هـ–٧٤٧م) انظـــر : تاريخ الإسلام للذهبي (١٧٩/٥) ، وتهذيب التهذيب (٢٦٨/١١) ، طبقات ابن سعد (٤٠٤/٥) ، الاعلام (١٥٠/٨) ذكره السيوطي في صون المنطق (ص٥٦) .

(١١) لـــلمزيد من معرفة أقوال والصحابة والتابعين ، انظر صون المنطق (ص٥٦) وما بعدها . وذم الكلام للهروي ت . أبي جابر عبدالله بن محمد بن عثمان الأنصاري .

(١٢) الـــنعمان بـــن ثابت ، التيمي بالولاء ، الكوفي ، أبو حنيفة ، إمام الحنفية الفقيه المجتهد المحقق ولد بالكوفة (٨٠هـ–٦٩٩م) ونشأ بها ، يبيع الخز ويطلب العلم ، أراده المنصور ليتولى القضاء فأبى ، فحبسه حتى مات ببغداد (١٥٠هـ–٧٦٧م) . انظر : تاريخ بغداد (٣٢٣/١٣) ، ابن خلكان (٢/ ١٦٣) والنجوم الزاهرة (١٢/٢) والبداية والنهاية (١٠٧/١٠) ، الاعلام (٣٦/٨) .

(١٣) مـــالك بن أنس بن مالك الأصبحي ، الحميري أبو عبدالله ، إمام المذهب المالكي أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، انظر : الديباج المذهب (٧١) الوفيات (٤٣٩/١) ، تهذيب التهذيب (٥/١٠) صفة الصفوة (٩٩/٢) ، الأعلام (٢٥٨/٥) .

(١٤) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي ، أبو عبدالله ، إمام المذهب الشافعي وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، أنظر : تذكرة الحفاظ (٣٢٩/١) ، تهذيب التهذيب (٢٥/٩) الوفيات (٤٤٧/١) الأعلام (٢٦/٦) .

قال الإمام ابن حجر : " واشتد انكار السلف لذلك - يعني للبدع - كأبي حنيفة وأبي يوسف[٢] والشافعي ، وكلامهم في ذم أهل الكلام مشهور ، وسببه أنهم تكلموا فيما سكت عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ... فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف ، واجتنب ما أحدثه الخلف "[٣] ، وكذلك سفيان الثوري[٤] ، و يحي بن يحي النيسابوري[٥] ، وابن المبارك[٦] ، ومحمد بن الحسن[٧] ، وأبو يوسف[٨]. فهؤلاء جميعاً وغيرهم ممن لم نذكرهم لم يكونوا يتكلمون في شئ من علم الكلام ، بل كانوا ينهون عنه وعن الخوض فيه ، ويأمرون أصحابهم وأتباعهم باتباع الكتاب والسنة ، وعدم الخوض في شئ من علم الكلام ، ويزجرون الناس عن مجالسة المتتكلمين ، وعن النظر في شئ من كتبهم .

وعند معرض كلام السيوطي عن أصحاب الفرق الضالة ، وجدته يصف الروافض بالكذب ، والمعتزلة بالكلام ، أما أصحاب الحديث فيصفهم بالمروءة والدين[٩] .

وما قاله في ذلك هو الصواب أما الروافض فلأن دينهم فعلاً قائم على الكذب الذي أشهره التقية[١٠] .

ولهذا قام جلال الدين السيوطي بتوجيه رسالة سماها " مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة "[١] إلى المسلمين في مصر يوم دخلها داعية إيراني يزعم أنه يدعو إلى التقريب بين السنة والشيعة بين لهم فيها حقيقة دين الشيعة المبني على التقية والخداع والكذب[٢] .

---

(١) أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو عبدالله ، الشيباني الوائلي ، إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، أنظر : ابن عساكر (٢/٢٨) . حلية الأولياء (٩/١٦١) صفة الصفوة (٢/١٩٠) تاريخ بغداد (٤/٤١٢) ، والأعلام (١/٢٠٣) .

(٢) مضت ترجمته .

(٣) فتح الباري (١٣/٢٥٣) .

(٤) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري من بني ثور بن عبد مناة ، من مضر ، أبو عبدالله ، أمير المؤمنين في الحديث ، ولد بالكوفة (٩٧هـ-٧١٦م) ت (١٦١هـ-٧٧٨م) . انظر : دول الإسلام (١/٨٤) ، ابن خلكان (١/٢١٠) ، طبقات ابن سعد (٦/٢٥٧) ، حلية الأولياء (٦/٣٥٦) ، تهذيب التهذيب (٤/١١١) ، تاريخ بغداد (٩/١٥١) .

(٥) يحيي بن يحيي بن بكير بن عبدالرحمن ، التميمي الحنظلي ، أبو زكريا ، النيسابوري ، إمام في الحديث ، ورع ثقة ، ولد (١٤٢هـ-٧٥٩م) وتوفي (٢٢٦هـ-٨٤٠م) انظر : تهذيب (١١/٢٩٦) وانظر الأعلام (٨/١٧٦) .

(٦) عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي ، أبو عبدالرحمن ، الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر ، صاحب التصانيف أفنى عمره في الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، ولد (١١٨هـ-٧٣٦م) وتوفي بهيت على الفرات منصرفاً من غزو الروم (١٨١هـ-٧٩٧م) انظر : تذكرة الحفاظ (١/٢٥٣) ، مفتاح السعادة (٢/١١٢) ، حلية الأولياء (٨/١٦٢) وشذرات الذهب (١/٢٩٥) ، الأعلام (٤/١١٥) .

(٧) محمد بن الحسن بن فرقد ، الشيباني من موالي بني شيبان ، أبو عبدالله ، إمام بالفقه والأصول ، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة أصله من قرية حرسته بغوطة دمشق ولد بواسط (١٣١هـ-٧٤٨م) ونشأ بالكوفة ، ثم انتقل إلى بغداد ومنها إلى خراسان وتوفي بالري (١٨٩هـ-٨٠٤م) . انظر : الفهرست لإبن النديم (١/٢٠٣) ، الوفيات (١/٤٥٣) ، البداية والنهاية (١٠/٢٠٢) ، لسان الميزان (٥/١٢١) والنجوم الزاهرة (٢/١٣٠) ، الأعلام (٦/٨٠).

(٨) مضت ترجمته .

(٩) صون المنطق (١٤٦) عن هارون الرشيد ، ص/٦٠) عن ابن المبارك ، وانظر : د/محمد جلال أبو الفتوح شرف : جلال الدين السيوطي منهجه وآراؤه الكلامية (ص/٧٧) ، ذم الكلام (٤/٢١٦) رقم (١٠١٩) .

(١٠) التقية عند الشيعة : هي موافقة غيرهم في الظاهر ، ومخالفتهم في الباطن ، وقد رووا في ذلك " خالطوهم بالبرانية وخالفوهم بالجوانية " وهو في اصول الكافي للكليني وهو من الكتب الشيعية (٩/١١٦) ، ورووا أيضاً " إن تسعة أعشار الدين في التقية ، ولا دين لمن لا تقية له " نفس المصدر (٩/١١٠) ونسبوا لجعفر الصادق في تفسير قوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) قال : أي أعمالكم بالتقية ، وهو في كتاب الاعتقادات ط إيران (١٣٧٤هـ) .

وأمـــا المعــتزلة فهم الذين حملوا لواء البدعة النكراء التي هي بدعة الكلام ، ورفعوا منارها وهاجموا أهل السنة واضــطهدوهم وعذبوهم ، واستعدوا عليهم الحكام والخلفاء ، فاستوجبوا بذلك اللعائن التي استمطروها من أفواه الصالحين المتقين ، من أمثال الإمام أبي حنيفة والإمام مالك - رحمهما الله - ولا يخفى على كثير من العقلاء ما وقع للإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - من الضرب والسجن والتعذيب على أيدي هؤلاء المعتزلة في قضية خلق القرآن التي ابتليت بها الأمة زمناً. ثم افترقوا في مذهبهم فرقاً شتى ، وطرائق قدداً ، ومن أراد الاطلاع ليتبين صحة هذا الكلام فليراجع كتب الفرق[٣] ، وسـيرى من ذلك العجب ، فلا يكاد يجد اثنين على طريقة واحدة في الاعتقاد ، ولكن يبدع بعضهم بعضاً ، بل يترقون إلى الـتكفير ، يكفر الابن أباه ، والرجل أخاه ، والجار جاره[٤] فتراهم أبداً في تنازع وتباغض واختلاف تنقض أعمارهم ولما تـتفق كلمـتهم ، إن المعتزلة مع اجتماعهم في هذا اللقب يكفر البغداديون منهم البصريين ، والبصريون منهم البغداديين ، ويكفر أصحاب أبي علي الجبائي[٥] ابنه أبا هاشم ، وأصحابُ أبي هاشم يكفرون أباه أبا علي وكذلك سائر رؤوسهم وأرباب المقالات منهم ، إذا تدبرت أقوالهم رأيتهم متفرقين يكفر بعضهم بعضاً ويتبرأ بعضهم من بعضهم الآخر ، وكذلك الخوارج والروافض فيما بينهم وبين سائر المبتدعة بمثابتهم ، وهل على الباطل دليل أظهر من هذا[٦] ؟؟!

قال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شئ إنما أمرهم إلى الله)[٧] إن أهل البدعة تفرقوا وتحـزبوا لأنهم أخذوا الدين من المعقولات والآراء ، فأورثهم الافتراق والاختلاف ، لأن دلائل العقل قلما تتفق ، لأن عقل كـل واحـد يُرِي صاحبه غير ما يرى الآخر ، بل قد يُرِي صاحبه أن الآخر على ضلال أو كفر ومن هنا جاء الاختلاف والافتراق[٨] .

وأمـــا أصــحاب الحديث ، فهم الفرقة الناجية المنصورة إلى يوم القيامة - إن شاء الله - ذلك لأنهم اتبعوا القرآن الكــريم وفهموه على فهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الكرام ، فتحدثوا وعلموا ودعوا ونشروا العلم الذي كـان يتكلم به النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه - رض الله عنهم - وكفوا وسكتوا عما سكتوا عنه ، ووسعهم ، وسـع القـوم ، واتبعوا مع كتاب الله سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - وما الدين إلا نصوص الكتاب والسنة على فهم السلف الصالحين من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان .

---

(١) هذه الرسالة بين يدي الآن مطبوعة بضبط وتعليق خالد عبدالفتاح شبل ، مكتبة التراث الإسلامي القاهرة . بدون رقم طبعة ولا تاريخ.

(٢) انظر : د/ عبدالله الأفغاني : سراب في إيران ، كلمات سريعة حول الخميني ودين الشيعة (ص/٢٢،٢٣) ط٢/١٤٠٢هـ-١٩٨٢م . بدون ناشر . ومــن أراد التوسع في معرفة كذبهم وضلالهم فليرجع إلى المصنف العظيم " منهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية " بأكمله وهو من مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله .

(٣) مــن ذلك : مقالات الاسلاميين لأبي الحسن الأشعري ١٥٥ ــ ٢٧٩، الفرق بين الفرق للبغدادي ١١٤ ــ ٢٠١ ، الملل والنحل للشهرستاني (٤٣ ــ ٨٢) ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د/ علي سامي النشار (٣٧٣ ــ ٥١٩) .

(٤) انظر : صون المنطق (ص/١٦٧) ، وهو من كلام أبي المظفر السمعاني في كتابه " الانتصار لأهل الحديث " .

(٥) مضت ترجمته .

(٦) انظر : صون المنطق (ص/١٦٧،١٦٨) ، نقلاً عن أبي المظفر السمعاني في كتابه الانتصار لأهل الحديث .

(٧) سورة الأنعام بعض آية (١٥٩) .

(٨) انظر : صون المنطق (ص/١٦٨) .

إنهم جعلوا الكتاب والسنة أمامهم ، وطلبوا الدين من قبلهما ، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم عرضوه على الوحيين ، فما وجدوه موافقاً لهما قبلوه وشكروا الله عز وجل ، حيث أراهم ذلك ووفقهم عليه ، وما وجدوه مخالفاً لهما تركوه وأقبلوا على الكتاب والسنة ورجعوا بالتهمة على أنفسهم ، فإن الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلى الحق ، ورأى الإنسان قد يرى الحق وقد يرى الباطل[١] وهذا معنى قول أبي سليمان الداراني[٢] – وهو واحد زمانه في المعرفة – : ما حدثتني نفسي بشئ إلا طلبت منها شاهدين من الكتاب والسنة ، فإن أتت بهما ، وإلا رددته[٣] .

صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قوله : " لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله "[٤]وفي بيان هذه الطائفة المتمسكة بالحق . يقول علي بن المديني[٥]: هم أصحاب الحديث[٦] .

وهم الذين ينطبق عليهم ما ورد في الأثر " يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين "[٧] ومما يدل على أن أهل الحديث هم أهل الحق ، وهم عدول الأمة أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم ، قديمهم وحديثهم مع اختلاف بلدانهم ، وزمانهم ، وتباعد ما بينهم في الديار ، وسكون كل واحد منهم قطراً من الأقطار ، وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ، ونمط واحد يجرون فيه على

---

(١) انظر : صون المنطق (ص/١٦٧) .

(٢) مضت ترجمته .

(٣) صون المنطق (١٦٧) ، نقله السيوطي عن أبي المظفر السمعاني في كتابه " الانتصار لأهل الحديث " قال د/ النشار : " لم أعثر على ذكر لهذا الكتاب في " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون " انظر : صون المنطق ٠ص١٤٧) حاشية (١) .

(٤) متفق عليه .

رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (٩٦) باب (١٠) ح رقم (٧٣١١) فتح الباري (٢٩٣/١٣)

ورواه مسلم في " صحيحه " (١٣٧/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧١) ح رقم {٢٤٧-(١٥٦)} ، وفي كتاب الإمارة (٣٣) باب (٥٣) ح رقم {١٧٠-(١٩٢٠)} (١٥٢٣/٣) ، رقم {١٧٣-(١٩٢٣)} ، رقم {١٧٤-(١٠٣٧)} (١٥٢٤/٣) . ورواه أبو داود في " سننه " كتاب الفتن (١) والترمذي في " سننه " كتاب الفتن (٢٧،٥١) وابن ماجة في " سننه " المقدمة (١) ، وفي كتاب الفتن (٩) ، ورواه أحمد في " المسند " (٢٧٩/٥، ٢٧٨، ٢٦٩، ٣٤) .

(٥) علي بن عبدالله بن جعفر السعدي ، بالولاء ، المديني ، البصري ، أبو الحسن محدث مؤرخ ، كان حافظ عصره ، ولد بالبصرة (١٦١هـ-٧٧٧م) ، ومات بسامراء (٢٣٤هـ-٨٤٩م) انظر : تذكرة الحفاظ (١٥/٢) ، تهذيب التهذيب (٣٤٩/٧) ، طبقات الحنابلة (١٦٨) ، ميزان الاعتدال (٢٢٢٩/٢) ، تاريخ بغداد (٤٥٨/١١) ، مفتاح السعادة (١٦٣/٢) ، الأعلام (٣٠٣/٤) .

(٦) صون المنطق (ص٤٩) ، وبمثل كلام ابن المديني قال الإمام أحمد انظر : صحيح مسلم (١٥٢٣/٣) حاشية المحقق (٢) .

(٧) صون المنطق (ص٤٩) ، وابن عبدالبر : التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٥٩/١) ت.أ/ مصطفى بن أحمد العلوي ، أ/ محمد عبدالكبير البكري ط٢/١٤٠٢هـ-١٩٨٢م ، وانظر خطبة كتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد .

والحديث اسناده موضوع ، فيه وهب بن وهب ، هو ابن كثير بن عبدالله القرشي القاضي ، وكنيته أبو البختري ، رماه بالوضع الإمام أحمد وابن الجارود ، وابن عدي والحاكم ، وكذبه غير واحد من أهل العلم كيحي بن معين ، وابن راهويه ، ووكيع ، وللحديث شواهد متعددة ، كلها ضعيفة لا يتقوى بها ، وبعضها مسلسلة بالعلل ، قال العراقي في " التقييد " (ص١١٦) : " وقد روي متصلاً من رواية جماعة من الصحابة : علي بن أبي طالب ، وابن عمر ، وأبي هريرة ، وعبدالله بن عمرو ، وجابر بن سمرة ، وأبي أمامة ، وكلها ضعيفة ، لا يثبت منها شئ ، وليس فيها شئ يقوي المرسل المذكور... " .

وقد سبق العراقي إلى هذا الحكم الدار قطني وغيره فيما نقله عنه ابن الملقن في " المقنع " (٢٤٦/١) فقال : " وقال جماعة منهم الدار قطني لا يصح مرفوعاً إنما هو مرسل " .

وقال ابن عبدالبر في كتابه " جامع بيان العلم وفضله " : " إن هذا الحديث روى عن أسامة وأبي هريرة بأسانيد ، وكلها مضطربة غير مستقيمة " وقال العقيلي في " الضعفاء " : " وقد رواه قوم مرفوعاً من جهة لا تثبت " . وعليه فالحديث ضعيف كما ذهب إلى ذلك الدار قطني ، والعقيلي ، وابن القطان ، وابن كثير ، والعراقي ، والبلقيني ، وغيرهم ، والواقع يشهد بذلك حيث وجد من حملة العلم من هو مخروم العدالة فاسق ، وهذا فيه تعارض مع ما وقع في الخبر من الأخبار بأن كل حامل علم عدل . والله أعلم .

طريقة لا يحيدون عنها ، ولا يميلون فيها ، قولهم في ذلك واحد ، وفعلهم واحد ، لا ترى بينهم اختلافاً ولا تفرقاً في شئ ما وإن قـل ، بـل لو جمع جميع ما جرى على ألسنتهم مما نقلوه عن سلفهم ، وجدته كأنه جاء من قلب واحد ، وجرى على لسان واحد وهو على الحق دليل مبين[١] .

ويصـل السيوطي إلى موقف الصوفية من علم الكلام ، ولم يكن موقف علماء الصوفية العاملين المتبعين للكتاب والسـنة مختلفاً عما كان عليه السلف الصالح من الصحابة – رضي الله عنهم – والتابعين ومن تبعهم بإحسان ، فمن هؤلاء شيخ مذهب الصوفية الجنيد بن محمد[٢] ، الذي قال : " أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب من القلب ، والقلب إذا عرى من الهيبة بالله عرى من الإيمان "[٣] . ومثل هذا الكلام ورد عن سهل بن محمد الصعلوكي[٤] .

ومنهم أيضاً ممشاد الدينوري ، الذي كان يحذر أصحابه من أصحاب علم الكلام ألا يخرجوهم من دينهم[٥] .

ومنهم كذلك سهل التستري[٦] ، الذي حث على التمسك بالكتاب والسنة فقال : " ... ما أحد ترك الظاهر إلا خرج إلى الزندقة "[٧] .

ومـنهم أيضـاً : أبـو حفص الحداد الذي سئل عن البدعة فقال : " التعدي في الأحكام ، والتهاون بالسنن ، واتباع الآراء والأهواء ، وترك الاقتداء والاتباع "[٨] .

ومـن مشـايخ الصـوفية كذلـك أبو علي الجوزجاني ، فقد سُئل : كيف الطريق إلى الله ؟ قال : أصح الطريق وأعمـرها و أبعدها من الشبه اتباع الكتاب والسنة قولاً وفعلاً وعزماً ، وعقداً ونية ، لأن الله تعالى قال : (وإن تطيعوه تهـتدوا)[٩] فسـأله : كيـف الطريق إلى اتباع السنة قال : مجانبة البدع ، واتباع ما اجتمع عليه الصدر الأول من علماء الإسلام وأهله ، والتباعد من مجالس الكلام وأهله ، ولزوم طريقة الاقتداء والاتباع ، بذلك أُمر النبي – صلى الله عليه وسلم – بقوله تعالى : (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً)[١٠] .

وبعد نقد السيوطي علم الكلام على تلك المحاور الثلاثة السابقة واستطراده في ذلك بما يوحي لمن قرأ كلامه أنه عالم أثري سلفي ، لم يتأثر في عقيدته بعلم الكلام ، إلا أنه من الجلي جداً ـــ وبعد أن علمنا موقفه من التأويل ، وكذلك بما

---

(١) انظر : صون المنطق (ص١٦٧) .

(٢) الجـنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي ، الخزاز ، القواريري أبو القاسم ، شيخ مذهب الصوفية ، مولده ببغداد ومنشأه ووفاته (٢٩٧هـ-٩١٠م) بها ، انظر : وفيات الأعيان (١١٧/١) حلية الأولياء (٢٥٥/١٠) ، صفة الصفوة (٢٣٥/٢) ، تاريخ بغداد (٢٤١/٧) الاعلام (١٤١/٢) .

(٣) صون المنطق (ص/٧٤) ، ذم الكلام للهروي (٤٠٦/٤) .

(٤) صون المنطق (ص/٧٧) .

– والصعلوكي هو : سهل بن محمد بن سليمان الصعلوكي ، النيسابوري ، أبو الطيب ، مفتي نيسابور ، انظر : وفيات الأعيان (٢١/١) الأعلام (١٤/٣)

(٥) صون المنطق (ص/٧٤) ، ذم الكلام (٣٧٦/٤) رقم (١٢٤٤) .

(٦) هـو : سـهل بـن عبدالله بن يونس التستري ، أبو محمد ، أحد أئمة الصوفية ، انظر : طبقات الصوفية (٢٠٦) وفيات الأعيان ، (٢١٨/١) ، حلية الأولياء (١٨٩/١٠) ، الأعلام (١٤٣/٣).

(٧) صون المنطق (ص/٧٤) ، ذم الكلام (٣٧٧/٤-٣٧٨) رقم (١٢٤٦) .

(٨) صون المنطق (ص٧٥) ولم أعثر عليه في ذم الكلام .

(٩) سورة النور (٥٤) .

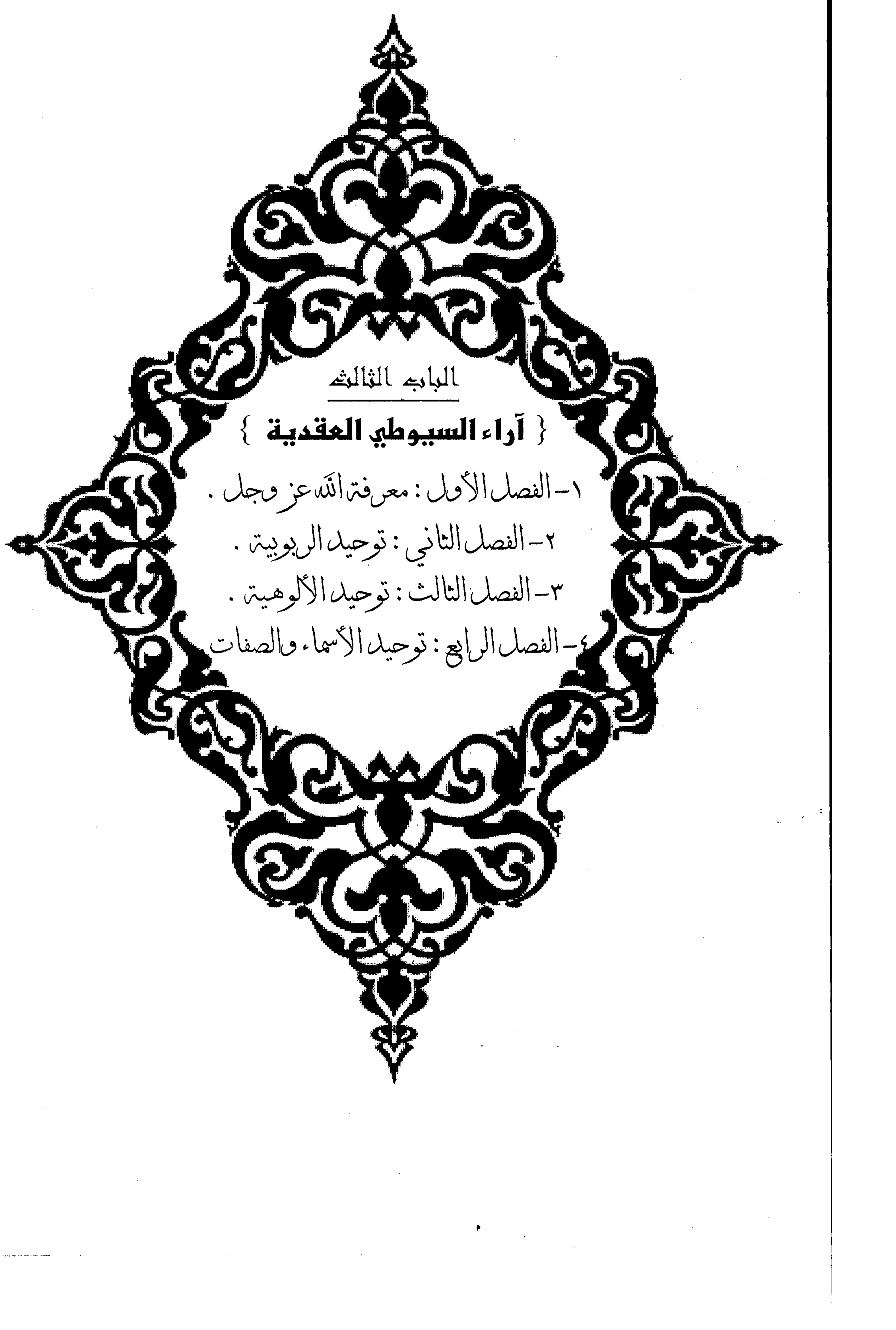
(١٠) سورة النحل (١٢٣) ، وانظر : صون المنطق (ص/٧٥) ، وذم الكلام (٣٨١/٤) رقم (١٢٥٢)

سـيأتي فـي موقفه من الصفات ـ أن السيوطي أشعري المعتقد له ميل واضح إلى التصوف ، وما المذهب الأشعري إلا مسلك من مسالك علم الكلام ، فكيف يتصور ذم علم الكلام مع اتباعه ؟ وكيف يتسق هدمه مع بناء المعتقد على قواعده ؟ الحق أن السيوطي يتبنى في ذلك ازدواجية عجيبة ، ليس من تفسير لها إلا بواحد من ثلاثة:-

الأول : أنـه ربما قصد بعلم الكلام المحرم ذاك الذي أوغل به اصحابه في تشققات وتفريعات طويلة لا تمت إلى العقيدة بصلة ، كما فعل الكثير من فرق المعتزلة وأضرابهم ، والتزموا بمقتضاه لوازم باطلة تقدح في الدين ٠

الـثاني : تحريمه على العامة دون الخاصة من العلماء الذين يعلمون قواعده ، وطرقه ، يقررون بها العقيدة ، ويردون بها شبهات الخصوم ، أما العوام فليس ذلك لهم ، لأنهم إن خاضوا في الاطلاع عليه كان سبباً في شتاتهم وضياعهم وضلالهم

الـثالث : أن السـيوطي اختار عقيدة الأشعري ، دون الخوض في علم الكلام ، أي كما يتلقنها العوام أو المبتدئون ، دون التوسع في الاستدلال أو الرد ٠ وهذا هو الأرجح ـ والله أعلم٠



الباب الثالث

{ آراء السيوطي العقدية }

الفصل الأول

معرفة الله عزوجل

معـرفة الله – جل وعلا – أعظم المعارف وأهمها على الإطلاق فالذي لا يعرف ربه الذي خلقه لا تنفعه معرفة ألبـتة ، فـإن الله تعالى خلق الإنسان لغاية ، وأوجده لحكمة ، وإذا لم يعرف المرء خالقه وموجده ولأي غاية أوجده ، كان كالأنعام بل أضل .

المبحث الأول : هل المعرفة فطرية أم نظرية ؟

وهـذه المسألة – مع منتهى وضوحها وجلائها – تخبط كثيرٌ من الناس فيها خبط عشواء ، ولم يهتدوا فيها إلا إلى عمياء ، إلا من رحمهم الله تعالى وهداهم ، وكثر القيل والقال ، واشتد النزاع والجدال ، وكان الناس فيها على قولين :

١- فـريق هداهـم الله تعـالى إلى الحـق ، فعـلموا أن معـرفة الله تعـالى فطرية ، مركوزة في النفس البشرية ، لا تحتاج إلى دليل ، وهؤلاء هم أهل السنة والجماعة المتبعون للسلف الكرام .

ولكـن بعـض الناس قد تفسد فطرته لأسباب خارجية كاجتيال الشياطين له عن فطرته الصحيحة وكذلك التربية المنحرفة أو التنشيئة الضالة وغير ذلك . وعندئذ يحتاج إلى تذكير وتدليل وبيان ونظر ، قال ابن تيمية : " ... وهذا كما أن الذيـن أوجبوا النظر ، وقالوا : لا يحصل العلم إلا به مطلقاً ، أخطأوا ، والذين قالوا : لا حاجة إليه بحال ، بل المعرفة ، دائمـاً ضرورية لكل أحد في كل حال ، أخطأوا ، بل المعرفة وإن كانت ضرورية في حق أهل الفطر السليمة ، فكثير من الـناس يحـتاج فيهـا إلى نظـر ، والإنسـان قـد يسـتغني عـنه فـي حـال ، ويحـتاج إليـه فـي حال "[1] ويدل على فطرية المعرفة أدلة متعددة منها :

أولاً : القرآن الكريم :

وردت في القرآن الكريم آيات كريمة تؤكد فطرية معرفة الله عز وجل ، ومن ذلك :

١- قـال تعالى : (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم . قالوا بلى شهدنا أن تقولـوا يـوم القيامـة إنـا كـنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطـلون)[2] فهذه الآية الكريمة تقرر بوضوح أن الله تعالى قد أخذ ميثاقاً أزلياً على ذرية بني آدم قبل خروجهم إلى هذه الحياة الدنيا وأشهدهم جميعاً على أنه تعالى هو ربهم فعرفوه وأقروا له بذلك . وسواء كان هذا العهد قبل خروج الذرية إلى الدنيـا في عالم الذر ، أو كان عهد الفطرة – على خلاف بين العلماء – فإن ذلك لا يؤثر في حصول المعرفة ، فالآية إنما تؤكد هذه القضية وتقررها تقريراً واضحاً .

٢- قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الـناس لا يعـلمون)[3] ، فالله تعالى يأمر رسوله – صلى الله عليه وسلم – بأن يقيم وجهه للدين ، فيقول جل وعلا :

---

(١) درء التعارض (٣/٣٠٣) ، وانظر مجموع الفتاوى (٦/٧٣) .
(٢) سورة الأعراف الآيتان (١٧٢-١٧٣) .
(٣) سورة الروم الآية (٣٠) .

فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم ، التي هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر الخلق على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره[١]. نعم قد تطمس هذه الفطرة وتغطى حيناً عند بعض الناس لكنها لا تزول بالكلية لتبقى شاهدة على أهلها يوم القيامة ، وإن كان ذلك لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب قبل مجئ الرسل وبلوغ الدعوة ، لكن الله تعالى جعل ذلك لإقامة الحجة وقطع الأعذار[٢] . قال تعالى (...وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)[٣] وقال جل وعلا : (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً)[٤] وأما قوله تعالى : (لا تبديل لخلق الله ...) قال بعض المفسرين معناه لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فيكون خبراً بمعنى الطلب وهذا معنى حسن صحيح[٥] .

" وقال آخرون : هو خبر على بابه ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة لا يولد أحد إلا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك ، ولهذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد وعكرمة ، وقتادة والضحاك ، وابن زيد في قوله تعالى : (لا تبديل لخلق الله) أي : لدين الله "[٦] .

وقال الإمام البخاري - رحمه الله - " قوله : (لا تبديل لخلق الله) لدين الله ، خلق الأولين : دين الأولين ، والفطرة : الإسلام "[٧] .

ثانياً : السنة النبوية الشريفة :

١- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان - يعني بعرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بن يديه كالذر ثم كلمهم قبلاً قال : (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا...) الآية "[٨] فهذا الحديث يؤيد معنى الآية التي ذكرناها في أدلة القرآن الكريم بأن العباد قد أقروا بربوبية الخالق جل وعلا قبل أن يولدوا ، وهذا مما يدل على أن الخلق فطروا على معرفة الله جل وعلا .

٢- عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ذات يوم في خطبته : " ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا : كل مال نحلته عبداً حلال ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً "[٩].

---

(١) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٢٠/٦) .

(٢) انظر : فطرية المعرفة (ص١٧) .

(٣) سورة الأسراء ، بعض الآية (١٥) .

(٤) سورة النساء الآية (١٦٥) .

(٥) انظر : تفسير القرآن العظيم (٣٢٠/٦) .

(٦) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٢٠/٦) وانظر : ابن جرير : جامع البيان (٢٧/٢١).

(٧) صحيح البخاري - كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة الروم ، الفتح (٥١٢/٨) .

(٨) رواه الإمام أحمد في " مسنده " (٢٧٢/١) وابن أبي عاصم في " السنة " ح رقم (٢٠٢) والحاكم في " المستدرك " (٥٤٤/٢) والبيهقي في " الاسماء والصفات " (٤١٣) وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " ، وقد احتج مسلم بكلثوم بن جبر ، ووافقه الذهبي .

(٩) رواه مسلم في "صحيحه " كتاب الجنة وصفة نعيمها (٥١) باب (١٦) ، ح رقم {٦٣-(٢٨٦٥)} انظر صحيح مسلم (٢١٩٧/٤) وأحمد في " المسند " (٤/ ١٦٢) .

وفـــي هـــذا الحديـــث الشريف دليل على أن الله تعالى خلق عباده كلهم حنفاء ، أي مسلمين[١] ، ولكن الشياطين اجتالـــتهم أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل ، فغيروا فطرهم السليمة وأمروهم أن يشركوا بالله تعالى ما لم ينزل به سلطاناً .

٣- عـــن أبـــي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء " ثم يقول : (فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) "[٢] .

فـــأبو هريرة – رضي الله عنه – يذهب إلى أن الفطرة في الحديث المراد بها الإسلام ، وممن قال ذلك أيضاً ابن شـــهاب ، وقتادة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، والنخعي ، وروي أيضاً عن ابن عباس وعكرمة في إحدى الروايتين عن الإمام أحمد[٣] ، وهو تفسير البخاري في صحيحه[٤] .

وقال ابن تيمية : " هذا هو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع عليه أهل العلم بالتأويل "[٥] .

- ووجه دلالة الحديث على أن الفطرة فيه أريد بها الإسلام :

١- أنـــه – صلى الله عليه وسلم – ذكر الأديان الباطلة التي يلقنها الآباء أولادهم ، دون الإسلام فهذا يدل على أن الإسلام أمـــر مـــركوز في النفس لا يحتاج إلى تلقين الآباء احتياج الأديان الباطلة إلى من يروجها محاولة لاعتناقها فلوترك المولود دون إخراجه إلى أحد هذه الأديان لكان على الإسلام .

٢- تشبيهه – صلى الله عليه وسلم – المولود على الفطرة بالبهيمة الجمعاء السليمة مما يعيبها ، وتشبيهه – صلى الله عليه وسلم – ما يكون من عمل الأبوين من التهويد والتنصير والتمجيس بجدع الأذن الصحيحة ، وعيبها بعد سلامتها ، ولا يكون ذلـــك إلا إذا غير الأبوان ما كان كاملاً ، ومعلوم أن المولود على الفطرة إذا كان كاملاً وخرج عن كماله بأي دين باطل ، كان مولوداً على الإسلام . ذلك أن الإسلام هو الدين الكامل الذي رضيه الله لعباده بل إنه دين الأنبياء جميعاً ، ومن البدهي أن الإنسان إذا كان مولوداً على الإسلام كان مولوداً على العلم والإقرار به تعالى[٦] .

---

(١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٩٦/١٧) . وهي رواية عبدالرحمن بن عائذ التي أوردها ابن عبدالبر في التمهيد (٧٣/٨) .

(٢) رواه الـــبخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) سورة الروم ، ح رقم (٤٧٧٥) الفتح (٥١٢/٨) ، ومسلم في " صحيحه " (٢٠٤٧/٤) كتاب القدر (٤٦) باب (٦) رقم { ٢٢-(٢٦٥٨)} ، وأحمد في " المسند " (٣٩٣/٢) من طريق سلمة بن عبدالرحمن .

ورواه مسلم في " صحيحه " ح (٢٦٥٨) وأحمد في " المسند " (٢٧٥/٢) وابن حبان في " صحيحه " (الإحسان) ح (١٢٨) ، واللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السنة " ح (٩٩٤) من طريق سعيد بن المسيب .

ورواه ابن حبان في " صحيحه " (الإحسان) ح (١٣٣) واللالكائي في " شرح اعتقاد أهل السنة " ح (٩٩٥) من طريق حميد بن عبدالرحمن .

ورواه مالك في " الوطأ " كتاب الجنائز ح (٥٢) ، وأبو داود في " سننه " ح (٤٧١٤) ، وابن حبان في " صحيحه " ح (١٣٣) واللالكائي في " شرح اعتقاد أهل السنة " ح (٩٩٨) .

(٣) انظر : ابن تيمية : رسالة الفطرة (ص٣٣٤) ، وانظر : النووي شرحه على صحيح مسلم (٢٠٨/١٦) وذكره قولا عن المازري، وانظر: ابن حجر: فتح الباري (٢٤٨/٣)، (٥١٢/٨) .

(٤) انظر : فتح الباري (٥١٢/٨) .

(٥) رسالة الفطرة (ص٣٣٤) ، وانظر : فتح الباري (٢٤٨/٣) .

(٦) انظر : ابن تيمية : رسالة الفطرة (ص٣٣) .

هذا ومع ما ذكرنا من وجه الدلالة في الحديث ، فهناك روايات تؤيد أن الفطرة هي الإسلام :

أ- جاء في رواية : " ما من مولود يولد إلا وهو على الملة "(١) وفي أخرى " ... إلا على هذه الملة "(٢) فقوله - صلى الله عليه وسلم - " على الملة " الألف واللام في " الملة " للعهد أي يولد على الملة المعهودة وهي ملة الإسلام ، وقوله - صلى الله عليه وسلم - في الأخرى " على هذه الملة الإشارة واضحة هنا أنها تشير إلى الملة الإسلامية .

ب- وفي حديث عياض بن حمار المجاشعي - رضي الله عنه - الذي تقدم : " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم... " الحديث(٣) فإذا كان العبد قد خلق حنيفاً مسلماً كان مفطوراً على معرفة ربه جل وعلا .

جـ- وقال - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه الترمذي : " كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم يولد على فطرة الإسلام... "(٤) الحديث فإضافة الفطرة إلى الإسلام ، إضافة بيانية .

د- وقال - صلى الله عليه وسلم - : " خمس من الفطرة "(٥) أي من الفطرة التي هي الإسلام ، بدليل ما روى : " عشر من الفطرة "(٦) وفي لفظ : " عشر من سنن الإسلام "(٧) .

<u>ثالثاً : أدلة الواقع :</u>

بدراسة واقع الإنسان ومظاهر حياته يتبين لنا أن معرفة الله تعالى وقصد عبادته فطرة في قلبه فطر عليها ويدل على ذلك أمور منها :

<u>١- الإحساس المبكر :</u> يظهر على الطفل في وقت مبكر من حياته دلائل واضحة على فطرية معرفته لله عز وجل ، فالمولود إذا بلغ سن الفهم والتمييز بدأ يلقي على أبويه أسئلة لا يجدان لها أية إجابة إلا أن يقولا له : (الله) ، وهذا يعني أن في أعماق الطفل إحساساً بخالقه وصانعه ، وخالق الكون وصانعه ومدبره . فمن أسئلة هذا الطفل الصغير :

- من خلقنا ؟ - من خلق الشمس ؟ - من خلق القمر ؟

- لماذا يموت الناس ؟ وهكذا ... أسئلة لا جواب لها إلا أن يقال : الله تعالى هو الذي خلقك وخلق أباك وأمك وخلق الشمس والقمر والنجوم وجعل الموت والحياة إلا أن يكون الوالدان ملحدين لا يؤمنان بالله تعالى فعندئذ سيكون الجواب كاذباً ، ويتلقى الطفل معلومات خاطئة تكون سبباً في انحراف فطرته ، وإخراجه من السلامة إلى النقص ، ومن التوحيد إلى الشرك ومن المعرفة إلى الجهل والشك والريب كما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما سبق ، : " فأبواه يهودانه

---

(١) صحيح مسلم (٢٠٤٨/٤) كتاب القدر (٤٦) باب (٦) ح (٢٣) .

(٢) نفسه .

(٣) صحيح مسلم (٢١٩٧/٤) كتاب الجنة (٥١) باب (١٦) ح رقم (٦٣) .

(٤) رواه الترمذي في " سننه " (٢٤٧/٤) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب اللباس (٧٧) باب (٦٣) رقم (٥٨٨٩) الفتح (٣٣٤/١٠) وباب (٦٤) رقم (٥٨٩١) الفتح (٣٤٩/١٠) ، ومسلم في " صحيحه " (٢٢١،٢٢٢/١) كتاب الطهارة (٢) باب (١٦) رقم (٤٩،٥٠) .

وأبو داود في " سننه " كتاب الترجل (١٦) والترمذي كتاب الأدب ، باب (١٤) والنسائي في " سننه " كتاب الطهارة ، باب (٨،١٠) وأحمد (٢/ ٢٢٩،٢٣٩،٢٨٣،٤١٠،٤٨٩) .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (٢٢٣/١) كتاب الطهارة (٢) باب (١٦) رقم (٥٦) وأحمد (١٣٧/٦) .

(٧) نفسه .

أو ينصرانه أو يمجسانه "[١] وكقوله – صلى الله عليه وسلم – : " فأتتهم الشياطين فاجتالتهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً "[٢] .

٢- **طمأنينة المؤمن وشقاء الكافر والملحد :** إن العبد إذا آمن بالله تعالى وأسمائه وصفاته وقدره وقضائه عاش آمناً مطمئناً راضياً بما يقضيه الله تعالى له ، مطمئن القلب مستقر النفس ، وذلك لتوافق الإيمان الشرعي مع ما في قلبه من معرفة فطرية . وبالعكس فإن غير المؤمن بالله تعالى يعيش في قلق قلبي ، واضطراب نفسي ، لأن فطرته تنادي وتصرخ بأن لهذا الكون إلهاً حكيماً عليماً مدبراً ، والشياطين تناديه بمضادة هذه الفطرة ومحادتها فيعيش في صراع داخلي بين نداء الفطرة والمذاهب المنحرفة ، مما يسبب له قلقاً دائماً ، وانزعاجاً قوياً قد ينتهي بصاحبه إلى أمراض نفسية تقضي على دنياه وأخراه وذلك بسبب الانحراف الخارجي عن مقتضى الفطرة الصحيحة السليمة التي خلق الله الناس عليها .

٣- **عدم وجود مجتمع بلا دين :** يؤكد التاريخ والدراسات والأبحاث المعاصرة أنه لا يوجد مجتمع أياً كان بدون دين يدين به في حياته ، وإن كانت تختلف هذه الأديان من مجتمع لآخر .

ومن هذه الأديان ما أصله دين سماوي وإن كان قد لحقه التحريف والتبديل – ما عدا الإسلام – دين الله عز وجل ومنها ما هو وضعي من صنع البشر .

وهذه الظاهرة تؤكد أن في القلب معرفة تدفع الإنسان إلى عبادة خالقه . إلا أن هذه المعرفة وجهت إلى الوجهة التي يدين بها المجتمع . وإلا فلو لم يكن لدى الإنسان شعور بخالقه ، وحاجته إلى طاعته والتقرب إليه ليرضى عنه لأمكن أن توجد مجتمعات بغير دين .

لقد اعترف بهذه الحقيقة غير المسلمين ، يقول " لاروس " : " وإن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقر بها إلى الحياة الحيوانية ، وإن الإهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة "[٣] .

ويقول " ليفي بريل " : " ...فالبدائيون لهم نفس الأعضاء الحاسة التي لنا ، ويدركون ظواهر الطبيعة كما يدركها المتحضرون غير أن إدراكاتهم متضمنة في حالة من حالاتت الشعور المركب ويتحكم في تلك الحالات أحاسيس وعواطف دينية ، ففكر البدائي قبل كل شئ فكر ديني تتصل فيه كل الأفكار بالدين وتختلط به "[٤] . ونقول إن الإنسان البدائي والمتحضر على حد سواء في الشعور بقوة غيبية هائلة مسيطرة على هذا الكون ، متحكمة في قوانينه وفق إرادتها العليا ، فيدين لها بالولاء والطاعة والخضوع ، والخوف والرجاء .

يقول " لاروس " : " إن هذه الغريزة الدينية لا تختفي بل لا تضعف ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة وعند عدد قليل جداً من الأفراد "[٥] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) د. محمد عبدالله دراز : الدين (ص٨٣) .

(٤) د. علي سامي النشار : نشأة الدين (ص١٧) .

(٥) د. محمد عبدالله دراز : الدين (ص٨٣) .

ويقول " هنري برجسون " : " لقد وجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد جماعات بغير ديانة "[١] .

هذه هي بعض أقوال المؤرخين للأديان تؤكد أنه لم يخل مجتمع من دين يؤكد فطرية التدين ، وإن هذا الإنسان مدفوع من داخله للدين إلا أنه يتدين بما يجده في مجتمعه ظاناً أنه هو الذي يجده في داخله .

هذه بعض دلائل الواقع الذي يشهد على فطرية الدين ، ومعرفة الله عز وجل بعيداً عن تعقيد المتكلمين ونظرياتهم الفلسفية .

رابعاً : أن الجمادات فطرت على معرفة الله تعالى وطاعته والسجود له وتسبيحه : يدل لذلك :

١- تسبيح الجماد لله عز وجل وتحميده تسبيحاً وحمداً حقيقيين قال تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً)[٢] فالمخلوقات متحركها وساكنها ، ناطقها وصامتها تنزه الله تعالى وتقدسه وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون ، ولكن لا تفهمون تسبيحهم لأنه بلغة غير لغتكم[٣] . وقال تعالى : (يسبح لله ما في السموات وما في الأرض...)[٤] وقال جل وعلا : (سبح لله ما في السموات وما في الأرض)[٥] وغيرها من الآيات .

وثبت في الصحيح عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : " ... وكنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل "[٦] .

ومن المعلوم أن المفطور على تسبيح الله - تعالى - وحده ، مفطور على معرفته به سبحانه ، إذ كان تسبيحاً وحمداً حقيقيين[٧] وليس مجرد دلالتها على أنه سبحانه المنزه عن النقائص ، المحمود المستحق للحمد ، ولكن تسبيحها تسبيح حقيقي بلسان المقال لا بلسان الحال بدليل قوله تعالى : (... و لكن لا تفقهون تسبيحهم ...) أي لا تفهمون ، بل الذي يعلم تسبيحهم ونطقهم هو الله تعالى .

٢ ـ وفريق آخر ، وهم المتكلمون من المعتزلة وجمهور الأشاعرة أنكروا فطرية المعرفة ، وذهبوا إلى أنها نظرية ، أي لايوجد في القلوب معرفة للخالق ـ جل وعلا ـ قبل النظر في الآيات الكونية والنفسية ، ومن باب أول لايكون فيها ميل إلى عبادة الله عزوجل أومحبته وتعظيمه .

لهذا فإن المتكلمين أول مايوجبون على المكلف " المعرفة " أي معرفة الله عزوجل على اختلاف في بدايات المعرفة ـ كما سيأتي ـ ويحكون على ذلك الاجماع[٨] ،وهو زعم غير صحيح .

فإن قصدوا بذلك الاجماع إجماع الأمة فهو باطل لأن أهل السنة من السلف والأئمة التابعين لهم يخالفون ذلك ـ كما سبق ـ ويقولون إن معرفة الله تعالى فطرية ولايوجبون النظر .

وإن قصدوا بالاجماع اجماع المتكلمين ، فهو أيضاً غير صحيح لأن منهم من خالف في ذلك ووافق السلف على أنها فطرية .

---

(١) نفسه .

(٢) سورة الإسراء ، الآية (٤٤) .

(٣) انظر : ابن تيمية : رسالة الفطرة (ص٣٣٨-٣٣٩) ، وابن جرير : جامع البيان (١٥/٩٢-٩٣) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٧٥-٧٨) .

(٤) سورة الجمعة ، بعض الآية (١) .

(٥) سورة الصف ، بعض الآية (١) .

(٦) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٩) الفتح (٦/٥٨٧) .

(٧) انظر : ابن تيمية : رسالة الفطرة (ص٣٣٨) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥/٧٦) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٧٤) .

(٨) انظر : الباقلاني : الانصاف (ص٢٢) ، الايجي : المواقف (ص٢٨) .

قــا الإمام ابن حجر ــ رحمه الله ــ : " وفي نقل الاجماع نظر كبير ومنازعة ططويلة حتى نقل جماعة الاجماع في نقيضه ،واستدلوا بإطباق أهل العصر الأول على قبول الاسلام فمن دخل فيه من غير تنقيب [(١)] .

وهذا هو الحق الذي تثبته الأدلة ، وتبطل ماسواه وستأتي إن شاء الله .

أما من خالف المتكلمين وهو منهم فإنه أبو الفتح الشهر ستاني بل هو من زعمائهم ، فقد قال : " أما تعطيل العالم عن الصــانع العــالم القادر الحكيم لست أراها مقالة لأحد ،ولا أعرف عليه صاحب مقالة إلا مانقل عنشرذمة قليلة من الدهرية ... "[(٢)] ثــم حــكى مذهبهم ، ثم قال : " ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع بل هو معترف بالصانع لكن يحيل سبب وجود العالم على البحث والاتفاق ، احترازاً عن التعطي ، فما عدت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان ، فإن الفطر السليمة الانسانية شهدت بضرورة فطرتها ، وبديهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير ... ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشرك" [(٣)] .

والسيوطي في هذا تابع المتكلمين فقد أوجب المعرفة كما أوجبوها حيث قال : " وأول واجب على المكلف معرفة الله ... لأنها مبنى سائر الواجبات إذ لايصح بدونها واجب ولا مندوب " [(٤)] .

وواضح من كلام السيوطي أن العبد إذا كان أول مايجب عليه من أمور الدين هو معرفة الله ، فهو ليس مقطوراً على المعرفة ، ولاتحل له المعرفة إلا بالنظر والاستدلال .

والذي ذهب إليه السيوطي خلاف ماقرره أهل السنة والجماعة ، ولكنه في " الدر المنثور " [(٥)] ذك رالأحاديث والآثار التي تقرر أن الفطرة هي الإسلام ، وكذلك في الجلالين ، وإن كان هذا القسم من التفسير من وضع شيخه المحلي ، إلا أنه صــرح بتأييد شيخه فيما كتب ووافقه [(٦)] ،ونهج نهجه في هذا التفسير فقال شيخه المحلي في تفسير سورة الروم : " (فأقم) يــامحمد (وجهــك للدين حنيفاً) مائلاً إليه ، أي : أخلص دينك لله أنت ومن تبعك (فطرة الله) خلقته (التي فطر الناس عــليها) وهـــي دين الاسلام ، أي : الزموها (لاتبديل لخلق الله) لدينه ، أي : لاتبدلوه بأن تشركوا (ذلك الدين القيم) المستقيم ، توحيد الله " [(٧)] .

فهذا تقرير السيوطي في التفسيرين ، موافق لما قرره أهل السنة ، ومخالف لماقرره في " الكوكب الساطع " [(٨)] ولا استطيع الآن تحديــد أي الــرأيين هو الذي استقرت عليه عقيدة السيوطي ، ولا استطيع كذلك الجزم بأيهما كان متأخراً على الآخر فيكون الحكم له ،وقد ذكر السيوطي كلا الكتابين في ترجمة نفسه في حسن المحاضرة[(٩)] دون بيان شيء من ذلك التقدم والتأخر .

فإن كان التفسير هو المتأخر فهو ذاك ، وإن كان الكوكب الساطع هوا لمتأخر ، فهو دليل على التزام السيوطي عقيدته الأشــعرية ، وعدم التخلي عنها ، وهذا هو الظاهر ، ذلك لأنني لما رجعت إلى التفسير الكبير للفخر الرازي ،وجدته فسر الفطــرة بالإسلامي كما فعل السيوطي ، ولكنه ذكر بعد ذلك أن الفطرة وحدها لاتكفي في الإيمان فقال عند قوله تعالى : (لاتبديل لخلق الله) [(١٠)] أي الوحدانية مترسخة فيهم لاتغير لها حتى إن سألتهم من خلق السموات والأرض يقولون الله ، كأن الايمان الفطري غير كاف " [(١١)] ،ومعنى ذلك أنه لابد من النظر حتى تحصل المعرفة ،وهذه محاولة من الرازي للاحتفاظ

---

(١) فتح الباري (١/٧٠) .

(٢) نهاية الإقدام (ص١٢٣) .

(٣) نهاية الاقدام(ص١٢٣ ــ ١٢٤) .

(٤) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع ــ مخ ــ (١٨٤ / أ ــ ب) .

(٥) الدر المنثور (م٦ جــ ٢١ / ٤٩١) .

(٦) انظر تصريحه بذلك في تفسير الجلالين (ص ٣) .

(٧) نفسه (٤٩٢) مذيلاً بلباب النقول في أسباب النزول ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ١٤٠٧ ــ ١٩٨٧م

(٨) نفس المرجع السابق .

(٩) انظر : (١/٣٣٩ ، ٣٤٢) .

(١٠) سورة الروم ، بعض الآية (٣٠) .

(١١) التفسير الكبير (٢٥/١٢١) .

بعقيدتـــه الاشـــعرية ،ولا يبعد أن يكون السيوطي كذلك ،فهو على المذهب الأشعري كالرازي تماماً ، وكونه يفسر الفطرة بالاسلام فهذا لايتعارض مع مذهبه ــ كما ذكرنا عن الرازي ٠٠٠

المبحث الثاني : أول واجب على المكلف

اختلفت الأقوال في بيان أول الواجبات تبعاً للاختلاف حول المعرفة هل هي فطرية أم نظرية ؟

١ ــ فــأهل السنة قالوا : مادامت المعرفة فطرية ، فإن أول واجب على المكلف أن ينطق بالشهادتين ، وهي قول (أشــهد أن لا إلــه إلا الله ، وأشـــهد أن محمداً رسول الله) فإنه من المعلوم يقيناً أن رسول الله ــ ﷺ ــ إنما كان يقبل في الاسلام كل من قال : لا إله إلا الله من غير ان يوجب عليه النظر ، في دلائل نبوته ، أو يطالبه به قبل أن يدخل الإسلام ، فقد " علم بالاضطرار من دين الرسول ــ ﷺ ــ واتفقت الأمة أن أصل الاسلام وأول مايؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فبذلك يصير الكافر مسلماً ، والعدو ولياً ، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الايمان ،وإن قاله بلسانه دون قبله فهو في ظاهر الاسلام دون باطن الإيمان " [١] ٠

٢ ــ وذهــب المتكـلمون لى أنــه مــادامت المعـــرفة نظرية وهي متوقف حصولها على حصول النظر ،ومادامت المعرفةواجــبة فالنظر الموصل إليها واجب ، لأنه مالايتم الواجب إلا به فهو واجب ٠ ولذلك قالوا : إن أول واجب على المكلف هوا لنظر ، وواضح من هذا أنه خلاف قول أهل السنة والجماعة ٠

والقــول بوجوب النظر هو قول أبي الحسن الأشعري وأبي إسحاق الإسفرايين [٢] ، قال التفتازاني : " ٠٠٠ أما كون النظر مقدرواً فظاهر ،وأما توقف المعرفة عليه ، فلأنها ليست بضرورية بل نظرية ،ولامعنى للنظرى إلا مايتوقف على النظر ويتحصل به" [٣]

٣ ــ والسيوطي وإن كان قد أوجب المعرفة ، فإنه لم يصرح بوجوب النظر ،ولكنه جمع الأقوال المختلفة في بيان أول واجب على المكلف فبلغت ثمانية أقوال ولم يقطع بترجيح أحدها ، فقال عن أول الواجبات : " فيه أقوال :

أحدها : أنه معرفة الله ٠٠٠

الثاني : أنه النظر المؤدي إليها ، لأنه مقدمتها ، وعليه الاستاذ أبو اسحاق ٠٠٠

الثالث : أنه أول النظر ، أي : أول أجزائه ،وعليه القاضي [٤] ،

الرابع : أنه القصد إلى النظر ، لتوقف النظر على قصده ،وعليه ابن فورك[٥] ،وإمام الحرمين ٠[٦]

الخامس : أنه الاقرار بالله ورسوله ،

السادس : أنه النطق بالشهادتين ٠

السابع : أنه الإسلام ٠

الثامن : أنه التقليد [٧] ٠

وزاد بعضهم أن أول واجب هو الشك ، حكي عن ابي هاشم المعتزلي [٨] ،ولم يذكره السيوطي ضمن الأقوال السابقة ، إما لعدم تحقق ثبوته عنده ،وإما لسقوطه وبطلانه وعدم صحته ، ذلك لأن المطلوب من العبد زوال شكه ، بل ورد القرآن الكريم باستبعاد وقوعه ، فقال تعالى : (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) [٩]

---

[١] سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد في شرح كتا ب التوحيد (ص١٢٧) ٠

[٢] انظر : إبراهيم بن محمد الباجوري : تحفة المريد على جوهر التوحيد (ص ٢٤) ٠

[٣] شرح المقاصد (١/٢٩١) ٠

[٤] أي : أبو بكر الباقلاني ، محمد بن الطيب ت (٤٠٣) هــ ٠

[٥]أبو بكر ، محمد بن لحسن (ت٤٠٦هــ) ٠

[٦]أبو محمد ، عبد الملك بن يوسف الجويني (ت٤٧٨ هــ) ٠

[٧] الكوكب الساطع ق (١٨٤ / أ ــ ب) ،وانظر : شرح المقاصد (١/ ٣٠١ ومابعدها) ٠

[٨] انظر : شرح المقاصد (١/٣٠٢) ، والمواقف (١/١٩٢) ، الشامل للجويني (ص١٢١) ، تحفة المريد (ص٢٤) ٠

[٩] سورة سيدنا إبراهيم عليه السلام ــ بعض الآية (١٠) ٠

والسيوطي وإن لم يصرح بترجيح أحد هذه الأقول ، فقد مال إلى القول الأول حيث استدل له بحديث معاذ ــ رضي الله عــنه ــ : " إنــك تقــدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم ... " الحديــث [١] ، لأن فيه دليلاً على عدم معرفتهم به ــ جل وعلا ــ وهذا قول القاضي عياض [٢] ــ رحمه الله ــ نقله عنه الإمــام الــنووي ــ رحمه الله ــ [٣] وذكر انه مذهب حذاق المتكلمين [٤] ، وفي رأيي أن الحديث لايدل على ماذهب إليه حذاق المتكلمين مع القاضي ، فأول الحديث يحدد أول مايدعى إليه أهل الكتاب فيقول :" فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة الله " ولــم يقل : فليكن أو ل ماتدعوهم إليه معرفة الله ، لأن معرفة أن لهذا الكون إلهاً مدبراً حكيماً شيء مستقر في النفوس ، لكــنهم ضــلوا فــي صرف العبادة لغيره ــ جل وعلا ــ ، وأما قوله ــ ﷺ ــ " فإذا عرفوا الله ...) فهو بلاغة إيجار بحــذف المضـــاف ، تقديره : فإذا عرفوا عبادة الله ، وهذا سائغ كثير في اللغة غير ممنوع ، مثاله قوله تعالى : ﴿ واسأل القــرية الــتي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ... ﴾ [٥] وعلى هذا فلا مستند لهؤلاء الحذاق ــ على ماذكر ــ في أن أول الواجــبات هو المعرفة ،والحق أن أول مايدعى إليه العبد قول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وهو توحيد الله وعبادته وتــرك الشرك والتنديد ، وإذا سقط وجوب المعرفة ، سقط النظر ، وسقط القصد إليه ، وكذلك الشك من قبل ، ولم يصح من ذلك سوى قول أهل السنة ولله الحمد .

المبحث الثالث :

إيمان المقلد عند المتكلمين

سبق أن قلنا إن المتكلمين لما أوجبوا النظر على المكلف نشأت مسألة إيمان من آمن تقليداً وبغير نظر هل يصح إيمانه أم لا تعرض السيوطي لهذه المسألة وأورد فيها أقوالاً :

فقال نظماً :

" يُمنع التقــليــد في العقائد	للفخر والأستاذ ثــم الآمــدي
والعنبري جوزه وقد حظر	أسلافنا كالشافعي فيها النظر
ثــــم على الأول أن يقلــد	فمؤمن عاص على المعتمد
لكــن أبــو هاشــم لم يعتبر	إيمـــانه وقــد عُزي للأشعري
قال القشيري : عليه مفترى	والحق أن يأخذ بقول من عرى
بغــير حجــة بــأدنى وهمِ	لم يكفه ويكــتــفى بالجــزمِ "[٦] .

ثم شرح السيوطي ما نظمه وفصله في أربعة أقوال فقال : " في التقليد في العقائد أقوال : أحدها : لا يجوز وعليه كثيرون ، منهم الاستاذ أبو اسحاق الاسفراييني كما نقله عنه في جمع الجوامع في أوائل التقليد ، ورجحه الإمام الرازي والآمدي كما

---

[١] متفق عــليه ، رواه الــبخاري في صحيحه ، كتاب الزكاة (٢٤) باب (٦٣) ح رقم (١٤٩٦) الفتح (٣ / ٣٥٧) .. ورواه مسلم في صحيحه (٥١/١) كتاب الايمان (١) باب (٧) ،.ح رقم (٣١) .

[٢] عياض بن موسى بن عياض اليحصبي ، (ت ٥٤٤ هــ) .

[٣] انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٩٩/١ ــ ٢٠٠) .

[٤] السابق نفسه ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (٣٥٩/٣) .

[٥] سورة سيدنا يوسف ــ عليه السلام ــ بعض الآية (٨٢) .

(٦) الكوكب الساطع (لوحة ٤١٠) .

فـــي معـــرفة الله تعالى واجب محتم ، وأن التقليد في العقائد لا يكفي ، وأن المقلد وهو من أخذ بقول غيره بدون دليل عنده على معتقده الذي أخذه عن غيره غير مؤمن . وقول السيوطي : " وعليه كثيرون " أي هو قول المعتزلة والأشاعرة وكثير من المتكلمين على ما حكى في المقاصد . وعزا البيجوري هذا القول إلى السنوسي في الكبرى[١] . وذكر عن أبي هاشم أنه حكـم بكفر المقلد[٢] . وحكاه السيوطي عن الأشعري ولكنه اعتذر عنه فقال : " وحكى هذا القول عن الأشعري ، وقد شنع عليه أقوام بسبب ذلك لأنه يلزم منه تكفير العوام وهم غالب المؤمنين "[٣] وهذا هو أشد مأخذ على أصحاب هذا القول ، لأن تكفير العوام لم يؤثر عن أحد من الأئمة بل المأثور عنهم هو التحذير من اطلاق حكم الكفر على أي أحد من غير حجة أو دليل يوجب ذلك ، وأن من اشتهر عنهم تكفير عامة المسلمين هم الخوارج وقد وصمهم أئمة الإسلام بالبدعة والجهالة لذلك واعتذر السيوطي – كما قلت – عما نسب إلى الإمام الأشعري من تكفير المقلد ، أو عدم إعتبار إيمانه .

فقال : " وأجيب عنه بأوجه :

<u>أحدها :</u> أنه مكذوب عليه . قاله القشيري .

<u>ثانيهـــا :</u> أنـــه ليس المراد النظر على طريقة المتكلمين ، بل على طريقة العامة وذلك يتأتى من العوام والأعراب كما قال الأصمعي لبعض الأعراب : بم عرفت ربك ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، وأثر الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ألا تدل على اللطيف الخبير ؟

<u>ثالـــثها :</u> أن مراد الأشعري أن من اختلج في قلبه شبهة في حدوث العالم أو النبوة أو الحشر أو نحو ذلك ، وجب أن يجتهد في إزالته بالدليل العقلي فإن استمر على ذلك لا يصح إيمانه "[٤] .

قال السيوطي ناقلاً عن صاحب جمع الجوامع : " والتحقيق أنه إن أريد بالتقليد الأخذ بقول الغير بغير حجة مع احتمال شك أو وهـــم ، كما في تقليد إمام في الفروع مع تجويز أن يكون الحق في خلافه فهذا لا يكفي في الإيمان عند أحد لا الأشعري ولا غيره ، وإن أريد به الاعتقاد الجازم لا لموجب فهذا كاف في الإيمان ، ولم يخالف فيه إلا أبو هاشم "[٥] .

وهؤلاء القائلون بعدم كفاية التقليد في العقائد اختلفوا في النظر الذي لا يكون الشخص معه مقلداً :

١- فمـــنهم مـــن لا يوجـــب الاســـتدلال العقلي على كل مسألة من مسائل العقيدة بل يقولون يكفي أن تثبت الرسالة عنده بالمعجزة، بأن يعلمها مشاهدة أو اخباراً متواتراً أو إجماعاً ، فإذا ثبت عنده أن الرسول صادق بسبب ما أظهره من معجزة وأخـــذ بقول الرسول لم يكن مقلداً إذ كل قول للرسول يأخذه العبد فالدليل عنده قائم على حقيقته وهو أن هذا خبر المعصوم الذي ثبت صدقه . وكل خبر هذا شأنه فهو حق[٦] .

٢- ومنهم من لا يكتفي بذلك بل يوجب الاستدلال العقلي في كل مسألة ، ومع ذلك فلا يجب عند هؤلاء القدرة على التعبير

---

(١) انظر : (ص٢٥) .

(٢) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٦) ، والكوكب الساطع لوحة رقم (٤١١) .

(٣) الكوكب الساطع – لوحة رقم (٤١١) .

(٤) الكوكب الساطع (١٦٠ ب) .

(٥) نفسه .

(٦) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٦) .

الذي ثبت صدقه . وكل خبر هذا شأنه فهو حق[١] .

٢- ومنهم من لا يكتفي بذلك بل يوجب الاستدلال العقلي في كل مسألة ، ومع ذلك فلا يجب عند هؤلاء القدرة على التعبير عـن الدليـل القائم عنده ، ولا على مجالدة الخصوم ودفع الشبه فيكفي الإيمان بالعقائد بدليل على كل منها ولو كان الدليل سمعياً ، وهذا هو المشهور عند الأشعري بل حكى عنه أن من لم يكن كذلك لا يكون مؤمناً[٢] ، وسبق الاعتذار عنه .

٣- ومـنهم مـن أوجـب مع ايجاب الاستدلال على كل عقيدة القدرة على مجالدة الخصوم ، ودفع الشبه ، وإلى هذا ذهب المعـتزلة فأوجبوا العلم بكل عقيدة بدليل تفصيلي ، ولم يكتفوا بالأدلة الإجمالية فلم يحكموا بإيمان من عجز عن الدليل الذي يستطيع معه رد الخصوم ودفع الشبه ، بل حكم أبو هاشم بكفره[٣] .

هذا القول هو القول الأول من حكم إيمان المقلد .

<u>القـول الثاني :</u> في حكم التقليد ذكره السيوطي بقوله : " أنه يجوز ، وعليه عبيد الله بن الحسن العنبري[٤] وغيره ... لأنه - صـلى الله عـليه وسلم - كان يكتفى في الإيمان من الأعراب بالتلفظ بكلمتي الشهادة المبني على العقد الجازم وليسوا أهلاً للـنظر "[٥] وذكره البيجوري في القول الخامس من الأقوال التي أوردها في حكم إيمان المقلد فقال : " الإكتفاء به من غير عصيان مطلقاً لأن النظر شرط كمال فمن كان فيه أهلية النظر ولم ينظر فقد ترك الأولى "[٦] .

<u>القـول الثالث :</u> هو قول من قال : إن التقليد واجب وإن النظر حرام ، وأن المقلد مؤمن وليس النظر شرطاً لا في حصول الإيمـان ولا في كماله وعلل السيوطي إيجاب التقليد وأنه " يحرم النظر والبحث فيه لأنه مظنة الشبه والوقوع في الضلال لاختلاف الأذهان والأنظار [٧] .

ولعل شبهه من قال هذا القول تتمثل - كما هو ظاهر في كلام السيوطي - في نقطتين :

<u>الأولى :</u> أن النظر بدعة لم يكن على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه وكل بدعة ضلالة وهي رد على صاحبها[٨] .

وقـد يجـاب عن هذا بأن النظر ليس ببدعة كما قيل بل كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يقيمون الأدلة الدامغة رداً على المنكرين ودحضاً لشبه المعاندين ، والقرآن الكريم مملوء بالأدلة المقنعة والأنظار الدقيقة ، وما يوجد عند المتكلمين من أدلة صحيحة إنما هي غيض من فيض مما يوجد في آيات القرآن الكريم .

<u>الـثانية :</u> قالوا : إن النظر جدال ، والجدال منهي عنه ، قد ذمه السلف الكرام ، ونهى الرسول - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٦) .

(٢) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٦) .

(٣) نفسه .

(٤) عـبيد الله بـن الحسن بن الحصين العنبري ، من تميم ، قاض من الفقهاء العلماء بالحديث ، من أهل البصرة ، وتوفي بها (١٦٨هـ-٧٨٥م) انظر : تهذيب التهذيب (٧/٧) ، الأعلام (١٩٢/٤) .

(٥) الكوكب الساطع - لوحة (٤١٠) .

(٦) تحفة المريد (ص٢٢-٢٣) وانظر : مذكرة التوحيد (ص٢٧) ، فطرية المعرفة (ص٢٢٠) .

(٧) الكوكب الساطع - لوحة (٤١٠) .

(٨) انظر : مذكرة التوحيد (ص٢٧) .

الحـــق بعدمـــا تبين... ‌)[١] أما إذا كان الجدال إظهاراً للحق فهو غير مذموم وليس منهياً عنه بل هو أمر مطلوب وقد قال تعـــالى : (وجادلهم بالتي هي أحسن...)[٢] . ثم إن النظر تفكر يقصد به الوصول إلى حقيقة من الحقائق فهو غير الجدال فكيـــف يقال إنه مذموم والفكر مأمور به لأنه وسيلة يتوصل بها إلى معرفة عظمة الله ، جل وعلا وحكمته وقدرته البالغة وغير ذلك من عظيم صفاته وشريف أسمائه .

---

(١) سورة الأنفال ، بعض الآية (٦) .

(٢) سورة النحل ، بعض الآية (١٢٥) .

الفصل الثاني : توحيد الربوبية

تعريف كمة التوحيد لغة :

يقول ابن الأثير (في أسماء الله الواحد) : " هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر "[١] ويقول الأزهري : " فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير . وقيل هو الذي لا يتجزأ ولا يثني ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مثل ، ولا يجمع هذان الوصفان (يعني الواحد الأحد) إلا لله تعالى "[٢] . ومن هذه النقول من علماء اللغة أستطيع أن أقول : إن هذه المادة (وَحَدَ) تدور حول انفراد الشئ بذاته أو بصفاته أو بأفعاله ، وعدم وجود نظير له : فيما هو واحد فيه[٣] . فالتوحيد مصدر وحد يوحد ، بمعنى جعله واحداً[٤] ، ثم نقلت هذه اللفظة إلى معنى الفرد المتميز عن غيره ، لأن كون الله تعالى واحداً ليس بجعل جاعل ، وعلى هذا فالواحد هو المنفرد بخصائصه عما سواه[٥] . ويكون معنى قول القائل : وحد الله ، أي اعتقده واحداً[٦] ، قال تعالى حكاية عن المشركين : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا الشئ عجاب)[٧] أي : " أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟! "[٨] يقول الإمام ابن حجر – رحمه الله – : " ومعنى وحدت الله ، اعتقدته منفرداً بذاته وصفاته لا نظير له ولا شبيه "[٩] وقال السفاريني – رحمه الله : " ... فمعنى وحدت الله نسبت إليه الوحدانية ، لا جعلته واحداً ، فإن وحدانية الله تعالى ذاتية ليست بجعل جاعل "[١٠] وعلى هذا فالتوحيد باعتباره فعلاً من أفعال القلب : هو الاعتقاد الجازم بانفراد الله تعالى المطلق بالربوبية والألوهية ، والأسماء الحسنى والصفات العليا ، والأفعال الحكيمة .

التوحيد في الاصطلاح :

ثم أصبحت هذه الكلمة – أعني كلمة التوحيد تدل على العلم المسمى بها وهو : " العلم الذي يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بالأدلة اليقينية "[١١] أو هو : " العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية "[١٢] أي العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة من أدلتها اليقينية ، سواء توقفت على الشرع كالسمعيات أم لا[١٣] وعرفه السيوطي فقال : " ... هو علم يبحث فيه

---

(١) لسان العرب (٤٥١/٣) .

(٢) نفسه .

(٣) انظر : د.محمد خليل هراس : دعوة التوحيد (ص٧) مكتبة الصحابة ، طنطا – مصر بدون تاريخ ولا طبعة .

(٤) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٣٤٤/١٣) ، وانظر الشيخ سليمان ابن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد (ص/٣٢) ط٤/١٤٠٠هـ المكتب الإسلامي – بيروت ، د.محمد خليل هراس دعوة التوحيد (ص٧) ، د.إبراهيم بن محمد البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة (ص١٠) دار السنة – الخبر – السعودية .

(٥) انظر : د.إبراهيم بن محمد البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص١٠) .

(٦) انظر : د. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد (ص٧) .

(٧) سورة ص الآية (٥) .

(٨) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٥/٧) .

(٩) فتح الباري (٣٤٤/١٣) .

(١٠) لوامع الأنوار (٥٧/١) .

(١١) د. إبراهيم بن محمد البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص١٠) .

(١٢) السفاريني : لوامع الأنوار (٥/١) ، لوائح الأنوار السنية (١٤٩/١) ت: عبدالله بن محمد بن سليمان بصيري – مكتبة الرشد – الرياض ط١/ ١٤١٥هـ .

(١٣) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٥/١) .

عمـــا يجب اعتقاده في ذات الله ، وما يجب له ، ويمتنع عليه من الصفات ، وبعثة الرسل ، وأحوال المعاد على قانون الاسلام "[١] وعرفه في موضع آخر فقال : " علم يبحث فيه عما يجب اعتقاده "[٢] . وقد سمى دين الإسلام توحيداً ، لأن مبناه على أن الله تعـــالى واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له ، وّواحد في ذاته وصفاته لا نظير له ، والى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم التوحيد ، وهي أقسام متلازمة ، كل قسم منها لا ينفك عن القسمين الآخرين وهي – على التقسيم الاصطلاحي :

– توحيد الربوبية . – توحيد الأسماء والصفات . – توحيد الالوهية .

وســـأعقد إن شاء الله تعالى لكل من توحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الألوهية فصلاً مستقلاً بعد هذا . أما في هذا الفصل فسأتناول – بحوله تعالى – بيان توحيد الربوبية ، فأقول :

__أما عن توحيد الربوبية :__

فالربوبية نسبة إلى " الرب " وهو الله جل وعلا ، فهو تعالى الذي له الربوبية على جميع الخلق[٣] ، لا شريك له ، وهو ســبحانه رب الأربـــاب ، ومـــلك الملوك والأملاك ولا يقال الرب في غير الله إلا بالإضافة[٤] ورب كل شئ مالكه ومستحقه . والرب يطلق على الملك ، والسيد ، والمدبر ، والمربي ، والقيِّم ، والمنعم[٥] . قال ابن الأنباري في بيان معنى لفظة الرب : " الرب ينقسم على ثلاثة أقسام :

١- يكون الرب الملك .

٢- ويكون الرب السيد المطاع ، قال تعالى (...فيسقي ربه خمراً)[٦] أي : سيده .

٣- ويكون الرب المصلح ، رب الشئ إذا أصلحه ، وأنشد :

يَرُبُّ الذي يأتي من العرق أنه إذا سُئل المعروف زاد وعمما "[٧]

والـــرب بهذه المعاني كلها على الوجه الأكمل الأتم هي حق لله كما ينبغي له سبحانه ، وعلى الوجه الذي يليق بجلاله وعظمـــته . قال ابن كثير : " والرب هو المالك المتصرف ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح ، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى "[٨] .

وعـــلى ضـــوء مـــا سبق من بيان معنى لفظة " التوحيد " ، ولفظة " الربوبية " يمكن القول بأن توحيد الربوبية والمـــلك[٩] : هـــو الإقرار بأن الله تعالى رب كل شئ ومالكه ، وخالقه ورازقه ، وأنه المحيي والمميت ، النافع الضار المتفرد

---

(١) شرح نظم جمع الجوامع – مخطوط رقم (١٣٣٠) جامعة الرياض – لوحة رقم (٤٠٢) .

(٢) علم التوحيد (مخطوط) لوحة رقم (١) مكتبة المعهد الأحمدي – بطنطنا – مصر .

(٣) ابن منظور : لسان العرب (٣٩٩/١) . مادة " ربب " .

(٤) نفسه ، وقيل في الجاهلية بغير إضافة للملك قال الحرث بن حلزة : وهو الرب ، والشهيد على يوم الحيَارَيْن والبلاء بلاء .

(٥) نفسه .

(٦) سورة يوسف الآية (٤١) .

(٧) لسان العرب (٤٠٠/١-٤٠١) مادة " ربب " .

(٨) تفسير القرآن العظيم (٣٩/١) .

(٩) انظر : الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد (ص٣٣) .

بإجابـة دعاء الداعي إذا دعاه ، الذي له الأمر كله ، وبيده الخير كله ، القادر على ما يشاء ، ليس له في ذلك شريك "[١] وهذا التوحيد أعني " توحيد الربوبية " لا يكفي وحده لنجاة العبد يوم القيامة من عذاب الله ، بل لا بد من أن يأتي معه يلازمه وهو " توحيد الألوهية " فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ، وتوحيد الألوهية - الذي سأبينه قريباً في الفصل الثالث - بحول الله تعالى - يتضمن توحيد الربوبية . أما كون توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ، فلأن الذي يخلق ويرزق ، ويميت ويحي ، ويدبر أمور خلقه ، ويكون بيده الأمر كله ، هو وحده المستوجب للانفراد بالألوهية ، وبناءً على ذلك فمن أقر بالربوبية لله عز وجـل ، لزمه لزوماً مؤكداً أن يقر له بالألوهية فينقاد إليه ولا يعبد غيره ، وألا يتوجه بقلبه وقالبه إلى غيره سبحانه وتعالى . وأمـا كـون " توحيد الربوبية " لا يكفي في نجاة العبد من العقوبة في الآخرة ، فلأن الله تعالى قد أخبر في كتابه الكريم ، بأن مشـركي العرب وقت مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - كانوا مقرين به ، ومع ذلك كانوا يعاندون دعوة الرسول - صلى الله عـليه وسـلم - فهم مقرون بالربوبية ، لكنهم كافرون بالألوهية معاندون لدعوة الإسلام التي بنيت على الألوهية[٢] . قال تعـالى : (ولـئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم)[٣] وقال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولـن الله فـأنى يؤفكون)[٤] وقال جل وعلا : (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله فقل أفلا تتقون)[٥] يقول ابن كثير : " يحتج تعـالى على المشركين باعتراضهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الاله ، (قل من يرزقكم من السماء والأرض)[٦] أي من ذا الـذي ينزل من السماء ماء المطر ، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته ، فيخرج منها (حباً ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخـلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا)[٧] أإله مع الله ؟؟ فسيقولون : الله ، يعني لا غيره ... وكذلك قوله : (أمن يملك السمع والأبصـار)[٨] أي : الـذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها ، ... وقوله : (ومن يخـرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي)[٩] أي : بقدرته العظيمة ، ومنته العميمة . وقوله : (ومن يدبر الأمر)[١٠] أي : من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، وهـم يسألون ... فالملك كله العلوي والسفلي وما فيهما من ملائكة وإنس وجان ، فقيرون إليه ، عبيد له ، خاضعون لديه (

---

(١) انظـر : ابـن أبي العز شرح العقيدة الطحاوية (ص/٧٦) ت الألباني - ط٦ المكتب الإسلامي . والسفاريني : لوامع الأنوار البهية (١/١٢٩) ، سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب تيسير العزيز الحميد (ص/٣٣) .

(٢) انظر : ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (٧٦-٨١) والشيخ : سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب : تيسير العزيز الحميد (ص٣٣-٣٤) .

(٣) سورة الزخرف الآية (٩) .

(٤) سورة الزخرف الآية (٨٧) .

(٥) سورة سيدنا يونس - عليه السلام - الآية (٣١) .

(٦) سورة سيدنا يون س- عليه السلام - الآية (٣١) .

(٧) سورة عبس الآيات (٢٧-٣١) .

(٨) سورة سيدنا يون س- عليه السلام - الآية (٣١) .

(٩) نفس الآية السابقة .

(١٠) نفس الآية السابقة .

فسـيقولون الله)[١] أي : هـم يعـلمون ذلك ويعترفون به (فقل : أفلا تتقون)[٢] أي : أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهـلكم " ا.هـ[٣] ويرى السيوطي أن سورة الفاتحة تضمنت الاقرار بالربوبية[٤] ، وذلك في قوله تعالى : (...رب العالمين)[٥] فالعـالمين جمع عالم والعالم هو ما سوى الله تعالى[٦] . والرب هو المربي بالنعم[٧] ، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " رب الجن والانس "[٨] وهذا أيضاً قول سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن جريج ، وهو مروى عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ، وقال قتادة : " رب العالمين ، كل صنف عالم[٩] ، والمقصود بالعالمين كل ما سوى الله – عز وجل – وهـو سـبحانه خالقهم ورازقهم وما لكهم . فالخلق والملك من خصائص الربوبية ، فالرب جل وعلا هو الخالق لجميع العـالمين ، فـلا خالق غيره ، ولا يستقل شئ سواه باحداث أمر من الأمور ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما سـواه إذا قدر سببا فلا بد له من شريك معاون وضد معوق فهو سبحانه المالك المتصرف الذي يرزق الخلق ويملك السمع والأبصـار ، ويهبها لعباده ، فيجعل فيها القوة السامعة والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها وسلب العباد إياها ، وهو الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، وهو الذي يدبر أمر عباده ، وأمر الكون كله ، بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون قال تعالى : (قل من يـرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون)[١٠] يقول السيوطي : (قل) لهم (من يرزقكم من السماء)[١١] بالمطر (والأرض) بالنبات (أمن يملك السمع) بمعنى الأسمع أي خلقها[١٢] ، (والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت) كالانسان والطائر مـن الـنطفة والبيضـة[١٣] ، (ويخـرج الميت) كالنطفة والبيضة[١٤] (من الحي) (ومن يدبر الأمر) بين الخلائق (فسـيقولون) هو (الله ، فقل) لهم (أفلا تتقون) ـه فتؤمنون "[١٥] وقد قدمت أن المشركين كانوا مقرين بالربوبية لله جل وعـلا وذكـرت دليلاً هناك وفي هذه الآية دليلٍ آخر على أن المشركين كانوا يقرون بأن الله وحده هو خالق كل شئ وهو اقرار بربوبيته تعالى أيضاً ولكنهم لا يعبدونه وحده لا شريك له ، ويدل على هذا أيضاً قوله تعالى : (قل لمن الأرض ومن

---

(١) نفس الآية السابقة .

(٢) نفس الآية السابقة .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢٠٢،٢٠٣/٤) .

(٤) معترك الأقران (٥٣/١) وانظر ابن القيم : مدارج السالكين (٧/١) .

(٥) سورة الفاتحة الآية (٢) .

(٦) السيوطي : رسالة علم التوحيد لوحة ١ مخطوط .

(٧) معترك الاقران (١٨٧/٢) .

(٨) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٩/١) .

(٩) انظر : السابق نفسه .

(١٠) سورة يونس – عليه السلام – الآية (٣١) .

(١١) السابق نفسه .

(١٢) الجلالين (٢٥٠) .

(١٣) الجلالين (٦٢) .

(١٤) نفسه السابق .

(١٥) الجلالين (٢٥٠) .

فيهـا إن كنـتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون)[١] وقوله تعالى أيضاً : (ولـئن سـألتهم من خلق السموت والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى تؤفكون)[٢] وقوله تعالى كذلك : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[٣] يقول السيوطي : " (وما يؤمن أكثرهم بالله) حيث يقرون بأنه الخالق الرازق (إلا وهـم مشركون) به بعبادة الأصنام ولذا كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك تملكه ، وما ملك ، يعنونها "[٤] وقوله : " يعنونها " أي يقصدون معناها ، أي يقصدون هذا الاشراك بالله تعالى في ألوهيته مع اعتقادهم واقرارهم بربوبيته جل وعلا .

وهذا يدل على أن مجرد الاقرار بالربوبية وحده دون تحقيق الألوهية وهي صرف العبادة لله تعالى وحده لا شريك لـه دون سـواه ، ليس بنافع صاحبه شيئاً ، لأن المقر بأن الله تعالى هو الخالق الرازق ثم يعبد غيره أو يدعو غيره تعالى كالاصنام أو الملائكة أو الجن فهو مشرك[٥] ، كما في الآية (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[٦] والمشركون في نار جهنم كما أخبر الله تعالى عنهم ، قال تعالى : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها ، أولـئك هم شر البرية)[٧] فتبين من ذلك أن توحيد الربوبية وحده لا يكفي العبد في حصول الاسلام ، بل لابد أن يأتي مع ذلك بلازمه وهو توحيد الألوهية – كما قد تقدم من الكلام في بداية هذا الفصل .

---

(١) سورة المؤمنون الآيات (٨٤-٨٩) .
(٢) سورة العنكبوت الآية (٦١) .
(٣) سورة يوسف الآية (١٠٦) .
(٤) الجلالين (٢٩٤) .
(٥) انظر : ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٩-٨٠) .
(٦) سورة يوسف – عليه السلام – الآية (١٠٦) .
(٧) سورة البينة الآية (٣) .

الفصل الثالث

توحيـــــــد الألوهيـــــــة

المبحث الأول :

تعريف توحيد الألوهية

توحيـــد الألوهيـــة هو القسم الثاني من أقسام التوحيد على حسب خطة هذا البحث ، و " الألوهية " من أَلِه يأله إذا تحيــر[١] ، لأنه " إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية ، ابغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد "[١] وقيل : " أصل أَله ولاه ، فقلبت الواو همزة ، كما قالوا : للوِشاح : إشاح ، وللوِجاح – وهو الستر – : إجاح[٢] ، ومعنى وِلاه : أن الخلق يولهون إليه في حوائجهم ، ويضرعون إليه فيما يصيبهم ، ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم ، كما يَوله كل طفل إلى أمه "[٣] . و " الله " هو المألوه المعبود[٤].

قال ابن عباس : " الله : ذو الألوهية والمعبوديةعلى خلقه أجمعين "[٥] و " الألوهية " : العبادة[٦] .

قال تعالى : (... وَيَذَرَكَ وآلهتك ...)[٧] وقرأ ابن عباس : ويذرك وإلاهتك ، أي وعبادتك ، قال : لأن فرعون كان يُعبد ولا يَعبد أحداً[٨] . وهكذا كان يقرؤها مجاهد[٩] وغيره .

والتأله : التنسك والتعبد ، والتأليه : التعبيد ، قال رؤبه :

للـــــه دَرُّ الغـــانيات المُـــدّه   سبحن واسترجعن من تألُّهي[١٠]

يعني من تعبدي ، وطلبي الله بعمل[١١] .

وعـــليه " فالألوهيـــة " : العبادة ، ويكون معنى الإله : المعبود ، والمطاع ، وهو يطلق على المعبود بحق كقوله

---

(١) لسان العرب (١٣/٤٦٧) .

(٢) قال القرطبي : " وللوِسادة : إسادة " الجامع لأحكام القرآن (١/٧٢) .

(٣) ابن منظور لسان العرب (١٣/٤٦٨) ، القرطبي (١/٧٢) الجامع لأحكام القرآن .

(٤) ابن القيم : مدارج السالكين (١/٨) . ت . محمد حامد الفقي .

(٥) ابن جرير : جامع البيان (١/٥٤) .

(٦) ابن منظور : لسان العرب (١٣/٤٦٨) ، وابن جرير : جامع البيان (١/٨) .

(٧) سورة الأعراف الآية (١٢٧) .

(٨) ابـــن منظور : لسان العرب (١٣/٤٦٨) ، وابن جرير : جامع البيان (١/٥٤) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١/٣٥) ، والسيوطي : معترك الأقران (٢/ ٣٤) . وهنا ينبغي أن أنبه إلى أن قراءة الجمهور هي القراءة الأولى " ويذرك وآلهتك " قال ابن كثير – رحمه الله : " وقرأ بعضهم (إلاهتك) ، أي عبادتك ، وروى ذلك عن ابن عباس ومجاهد " تفسير القرآن العظيم (٣/٤٥٦) قلت : روى هذا ابن جرير – رحمه الله – عـــن ابـــن عـــباس ومجـــاهد في تفسير (١٣/٣٨) ، ووجه ابن كثير قراءة الجمهور على أنه كان لفرعون إله يعبده ، وروى عن الحسن البصــــري – رحمه الله – قال : " كان لفرعون إله يعبده في السر " وهو عند ابن جرير أيضاً الأثر رقم (١٤٩٦٤) (١٣/٣٩) ، وفي رواية عن الحســـن أخـــرى : كـــان له جُمانةٌ في عنقه يسجد لها ، وقد قيل إنه كان يعبد قرص الشمس ، وعن السدي أنه كان إذا رأى بقرة حسناء أمرهم فرعون أن يعبدوها فلذلك أخرج لهم عجلاً جسداً – على قول ابن كثير – أو عجلاً بقرة – على رواية ابن جرير ، ورجح الرازي عبادة فرعون للكواكب . انظر تفسيره (١٤/٢٢٠) .

(٩) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١/٥٤) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١/٣٥) .

(١٠) ابن منظور : لسان العرب (١٣/٤٦٩) ، وابن جرير : جامع البيان (١/٥٤) .

(١١) ابن جرير : جامع البيان (١/٥٤) .

تعـــالى : (الله لا الـــه إلا هو الحي القيوم)[١] ويطلق على المعبود بالباطل ، كما في قوله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه)[٢] ثم غلب استعماله على الاله الحق ، وصار معنى الإله هو : من تألهه القلوب حباً وتعظيماً ، وإجلالاً[٣] .

وبهذا يكون معناه يشتمل على أمرين :

الاول : غاية الحب والتعظيم والإجلال .

الثاني : غاية الذل بالطاعة والإنقياد والعبادة[٤] .

وبـــناءً على ذلك ، يكون معنى توحيد الألوهية : إفراد الخالق جل وعلا بالعبادة والطاعة واخلاص الدين له وحده لا شريك له[٥] والخضوع والذل والحب والإفتقار والتوجه إليه تعالى[٦] .

ويقـــال أيضـــاً : إن توحيد الألوهية ، هو توحيد الله عز وجل بأفعال عباده ، كالصلاة والصيام والزكاة والحج ، والذبـــح ، والـــنذر ، والخوف والرجاء ، والمحبة ، على معنى أنهم يفعلونها طاعةً له سبحانه ، وابتغاء مرضاته ، وينبني عـــلى ذلك إخلاص العبادات كلها ظاهرها وباطنها لله وحده لا شريك له ، لا يجعل فيها شيئاً لغيره ، لا لملك مقرب ، ولا لنبي مرسل ، فضلاً عن غيرهما "[٧] .

وقـــال الســـيوطي في قوله تعالى : (حتى إذا فزع عن قلوبهم...)[٨] " الصحيح أنها في الملائكة ، ولأن القصد الـــرد عـــلى الكفار الذين عبدوا الملائكة بذكر شدة خوف الملائكة من الله وتعظيمهم له " معنى ذلك أن الملائكة مخلوقة لا تســـتحق العبادة لأنها تعبد الله وتخافه والإله لا يخاف أحداً ولا يعبد أحداً فإذا كانت الملائكة تخاف الله تعالى فالله تعالى هو المستحق للخوف والعبادة وحده لا شريك له[٩] ومن هنا كان لابد من توفر أصلين لتحقيق توحيد الألوهية :

أولهما : أن تصرف جميع أنواع العبادة له سبحانه ، دون ما سواه .

وثانيهما : أن تكون العبادة موافقة لأمر الله تعالى ونهيه .

ويجمع هذين الأصلين : الإخلاص والمتابعة وهو مدلول الشهادتين : (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله) فلا عبادة ولا طاعة إلا لله ، ولا طريق لذلك إلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكل طريق غير طريق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإنه لا يوصل إلى المطلوب[١٠] ..

وهـــذا التوحيد هو لازم لتوحيد الربوبية ومتضمن له . وتوحيد الربوبية – كما قدمت قبل – بدون هذا التوحيد لا

---

(١) سورة البقرة بعض الآية (٢٥٥) ، آل عمران الآية (٢) .
(٢) سورة الجاثية الآية (٢٣) .
(٣) البريكان المدخل (ص٩٤) ، فتح المجيد (ص٣٥) .
(٤) الوابل الطيب (ص١٥) – البريكان المدخل (ص٩٤) .
(٥) د. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد (ص٣٧) ، والبريكان : المدخل لدراسة العقيدة (ص٩٤) .
(٦) لوامع الانوار (١٢٨/١) .
(٧) تيسير العزيز الحميد (ص ٣٦) .
(٨) سورة سبأ بعض الآية (٢٣) .
(٩) معترك الأقران (١٣٣/٣ ، ١٣٤) .
(١٠) انظر البريكان (ص ٩٤) ، وشرح الطحاوية (ص٧٠ وما بعدها) ، وفتح المجيد (ص٢٥) .

ينفع صاحبه ولا ينجيه يوم القيامة من عذاب الله تعالى ، كما أن توحيد الألوهية هذا هو حقيقة دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه[١] .

وهو أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل[٢] .

قال تعالى : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم)[٣] وقال هود – عليه السلام – : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون)[٤] ، وقال صالح – عليه السلام – لقومه : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)[٥] وقال شعيب – عليه السلام – لقومه : (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره)[٦] وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[٧] وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[٨] .

وقال – صلى الله عليه وسلم – : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ... "[٩]

فهذا التوحيد هو أول ما يدخل به العبد الإسلام وهو آخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة " . وهو أول واجب وآخر واجب [١٠] .

وفي فضل (لا إله إلا الله) ورد عن معاذ[١١] بن جبل – رضي الله عنه – قال : كنت رديف النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : " يا معاذ " ، قلت : لبيك وسعديك ، ثم قال مثله ثلاثاً ، " هل تدري ما حق الله على العباد ؟ " قلت : لا ، قال : " حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً " ثم سار ساعة فقال : " يا معاذ " ، قلت : لبيك وسعديك قال : " هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ ألا يعذبهم "[١٢].

وعن جابر[١٣] – رضي الله عنه – قال : أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – رجل فقال : يا رسول الله ما

---

(١) انظر : التيسير (ص ٣٩) .

(٢) شرح الطحاوية (٧٤ – ٧٥) .

(٣) سورة الأعراف بعض الآية (٥٩) .

(٤) سورة الأعراف بعض الآية (٦٥) .

(٥) سورة الاعراف بعض الاية (٧٣) .

(٦) سورة الاعراف بعض الاية (٨٥) .

(٧) سورة النحل بعض الاية (٣٦) .

(٨) سورة الانبياء الاية (٢٥) .

(٩) رواه البخاري (٢٦٢/٣) و (١١١،١١٢/٦) و (٢٧٥/١٢) و (٢٥٠/١٣) من فتح الباري ، ومسلم (٥١،٥٢،٥٣/١) عن أبي هريرة – رضي الله عنه – ، وأخرجه مسلم (٥٣/١) عن جابر وابن عمر ، وانظر : نظم المتناثر من الحديث المتواتر (ص٩) .

(١٠) شرح الطحاوية (٧٤ – ٧٥) ، تيسير العزيز الحميد (ص ٣٩) وما بعدها ، وانظر فتح المجيد (ص٤٨) .

(١١) هو أبو عبدالرحمن معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عائذ الأنصاري الخزرجي المدني البدري الصحابي الشهير الجليل ، وأعلم الأمة بالحلال والحرام ، توفي سنة ١٧هـ – وقيل ١٨هـ – انظر : الاستيعاب (١٤٠٢/٣ – ١٤٠٧) ، وأسد الغابة (١٩٤/٥ – ١٩٧) والاصابة (٦/ ١٣٦ – ١٣٨) .

(١٢) البخاري في صحيحه ، كتاب الاستئذان (٧٩) باب (٣٠) ح رقم (٦٢٦٧) ، انظر فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (٣٩٧/١٠) (٦٠/١١-٦١) ، وكذا في مواضع أخرى من الصحيح بألفاظ متقاربة ، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الايمان (١) ح رقم (٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١) انظر (٥٨/١ – ٥٩) ، والترمذي في سننه كتاب الايمان باب (١٨) ح رقم (٢٦٤٣) انظر (٢٦/٥ – ٢٧) .

(١٣) هو : أبو عبدالله جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري الخزرجي السلمي المدني له ولأبيه صحبة كان من أعيان الصحابة وفقائهم ومجتهديهم ، مات بالمدينة سنة ٧٨هـ ، وقيل ٧٧ هـ وقيل غير ذلك ، انظر : الاستيعاب (٢١٩/١) ، أسد الغابة (٣٠٧/١) الاصابة (١/

الموجبتان[١] ؟ فقال : " من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، ومن مات يشرك بالله شيئاً دخل النار "[٢] .

وعنه – أيضاً – قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به دخل النار "[٣] .

المبحث الثاني :أساليب القرآن في تقرير توحيد الألوهية والدعوة إليه

يتضـــح من خلال آيات الكتاب العزيز المنهج الإلهي في إثبات توحيد الألوهية ، ودعوة الناس إليه ، وهو في ذلك يســلك طــرقاً وأساليب متعددة ومتنوعة ليرسخ هذا المقصد الأعظم ألا وهو توحيد الألوهية ، اذكر منها على سبيل الإيجاز في إيراد الأدلة – ما يلي :

الأول : ســوق آيات الربوبية في الخلق والتدبير والملك والحفظ ، والرعاية ، والإحسان ، والرحمة وجعل ذلك دليلاً على توحيد الألوهية .

فمن لا يقدر أن يخلق يكون عاجزاً ، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً[٤] .

قال تعالى : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون)[٥] ، وقال تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون)[٦] .

والقرآن مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له ، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية ، ويبين أنــه لا خــالق إلا الله ، وأن ذلــك مســتلزم أن لا يعبد إلا الله ، فيجعل الأول دليلاً على الثاني ، إذ كانوا يسلمون الأول ويــنازعون فــي الــثاني ، فيبين لهم سبحانه انكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده ، وأنه هو الذي يؤتي العباد ما ينفعهم ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له في ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجعلون معه آلهة اخرى[٧] ؟؟ كقوله تعالى : (قــل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون)[٨] الآيات[٩] .

والآيات التي تعتبر شواهد ودلائل للربوبية كثيرة جداً يسوقها الله عز وجل ثم ينتقل منها إلى الدعوة لعبادته وحده لا شريك له .

الــثاني : التنديد بما يتخذه الناس آلهة من دون الله عز وجل ، وإظهار عجز هذه الآلهة الباطلة العجز الشنيع والفقر البالغ والغفــلة عمن يدعوها ويفزع إليها كقوله تعالى في أواخر سورة الأعراف : (أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يســتطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون إن

---

٤٣٤) .

(١) أي الخصلة الموجبة لدخول الجنة ، والخصلة الموجبة لدخول النار .

(٢) أخــرجه مسـلم في صحيحه ، كتاب الايمان (١) ح رقم (١٥١) انظر (٩٤/١) وأحمد في مسنده (٣٩١/٣) ، وابو يعلى في مسنده ح (٢٢٧٤) انظر (٤٦٨/٢) .

(٣) اخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الايمان (١) (٩٤/١) ح رقم (١٥٢) .

(٤) شرح الطحاوية (٨٧) .

(٥) سورة الاعراف الآية (١٩١) .

(٦) سورة النحل الآية (١٧) .

(٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص ٨٣ ، ٨٤) .

(٨) سورة النمل الآيتان (٥٩ ، ٦٠) .

(٩) انظر : تفسير ابن جرير (٤/٢٠ – ٥) ، تفسير الالوسي (٥/٢٠) ، وتفسير أبي السعود (٨٣/٦ ، ٨٤) .

الذيـــن تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون)[١] وآيات أخرى غير ذلك .

ويقول السيوطي في قوله تعالى : (ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، ولا يستطعون)[٢] .

" فـــي هـــذه الآية توبيخ للكفار ، ورد عليهم في عبادتهم من لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، ولا يستطيعون ، فنفي الإستطاعة بعد نفي الملك أبلغ في الذم ، والضمير على (ما) لأن المراد به الآلهة "[٣] .

وقـــال أيضـــاً في قوله تعالى : (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً)[٤] الآيـــة " مَـــن – هنا نكرة موصوفة ، والمراد بها من هو حر قادر كأنه قال : وحراً رزقناه ... ليطابق عبداً ، ويحتمل أن تكـــون موصـــولة ، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى له الملك وبيده الرزق ، ويتصرف فيه كيـــف يشـــاء ، فكيف يسوي بينه وبين الأصنام ، وإنما قال : (لا يقدر على شيء) لأن بعض العبيد يقدرون على بعض الأمور كالمكاتب والمأذون له "[٥] .

الـــثالث : التشنيع بحال العابدين لهذه الآلهة الباطلة ، ووصفهم بالضلال والإنحراف والسفه حيث رضوا لأنفسهم أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا تغني شفاعتهم عنهم شيئاً كما في قوله تعالى على لسان إبراهيم – عـــليه الســـلام – يخـــاطب قومـــه : (أف لكـــم ولمـــا تعـــبدون مـــن دون الله أفلا تعقلون)[٦] ، وقوله لهم في مكان آخـــر : (لقـــد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين)[٧] وقوله لأبيه : (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً)[٨] والآيات في بيان هذا التشنيع على المشركين كثيرة[٩] .

الـــرابع : بيـــان مشاهد الندم يوم القيامة بين العابدين والمعبودين ، وبين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة ، وتنصل المعـــبودين من جناية هؤلاء العابدين المشركين ، وإنكارهم أن يكونوا هم السبب في إضلالهم وشركهم قال تعالى في سورة الـــبقرة : (ومـــن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يـــرون العـــذاب أن القـــوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب إذ تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأســـباب وقـــال الذيـــن اتـــبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار)[١٠] وغير هذه الآيات كثير في تقرير هذه المسألة .

---

(١) سورة الأعراف الآيات (١٩١ – ١٩٥) .
(٢) سورة النحل الآية (٧٣) .
(٣) معترك الأقران (٢/٣٥٢) .
(٤) سورة النحل الآية (٧٥) .
(٥) معترك الأقران (٢/٣٥٢) .
(٦) سورة الأنبياء الآية (٦٧) .
(٧) سورة الانبياء الآية (٥٤) .
(٨) سورة مريم الآية (٤٢) .
(٩) انظر : د. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد (ص٤٢) .
(١٠) سورة البقرة الآيات (١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧) .

الخامس : بيان انفراده سبحانه وتعالى بما له من الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، التي لا يكون إلهاً إلا من اتصف بها ، فالإلــه يجــب أن يكون كاملاً حائزاً لجميع صفات الكمال فإن النقص مناف للألوهية ، فإذا ثبت اختصاصه سبحانه بهذه الأســماء والصــفات دل ذلك على تفرده بالألوهية . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)[١] ، وقوله تعالى : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم)[٢] ، وغير ذلك من الآيات[٣] .

المبحث الثالث : ما ذكره السيوطي من نواقض التوحيد

وإذا كــانت الألوهية هي العبادة كما قدمت وأن حق الله تعالى على عباده هو أن يوحدوه التوحيد الخالص بصرف العــبادة كلها له وحده لا شريك له ، وألا يتوجهوا بشيء منها لغيره جل وعلا سواء كان ذبحاً أو سجوداً أو غيره ، فهذا هو الذي قرره السيوطي وأكده في مؤلفاته وفتاويه .

١- الذبــح لغير الله : افتى السيوطي بأن الذبح لغير الله كفر ، قال في جواب له على أسئلة وردته : " ... فاعلم أن جميع مــا ســألت عــنه في هذه الفصول من فعل الملوك والرعية للأشياء التي وصفتها كلها مذمومة ، ومحرمة شرعاً ، إلا ما اســتثنيته لــك وبعضــه أشد في الحرمة من بعض ، وبعضها مقتض للكفر، وهو ما ذكرت عن قوم أنهم يذبحون للأصنام ويعبدونها ... "[٤] .

ومــا قالــه الســيوطي هــو الصحيح الذي تؤيده الأدلة الشرعية ، قال تعالى : (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي وممــاتي لله رب العــالمين ، لا شــريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)[٥] قال ابن كثير : " يأمره تعالى أن يخبر المشــركين الذين يعبدون غير الله ، ويذبحون لغير اسمه وحده لا شريك له ، وهذا كقوله تعالى : (فصل لربك وانحر)[٦] أي أخلص صلاتك وذبيحتك كما هي في بعض معانيها ، فإن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها ، فأمر الله بمخالفتهم ، والإنحراف عما هم فيه ، والإقبال بالقصد والنية ، والعزم على الإخلاص لله تعالى " .

والنسك : هو الذبح في الحج والعمرة كما ورد عن مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم[٧] .

فدلــت الآية الكريمة على أن الذبح الذي عبرت عنه بالنسك هو لله وحده لا لغيره وقوله تعالى : (لا شريك له) دل عــلى أن الذبــح لغيرالله تعالى شرك به عز وجل ، يؤيد هذا أيضاً ما ورد في الحديث الصحيح عن علي – رضي الله عــنه – قال : حدثني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأربع كلمات : " لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من لعن

---

(١) سورة البقرة الآية (١٦٣) .
(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .
(٣) كالآيات في أوائل سورة آل عمران ، وأوائل سورة الشورى ، وأوائل سورة الحديد ، وغيرها .
(٤) الحاوي (١/٩١) .
(٥) سورة الأنعام الآية (١٦٤) .
(٦) سورة الكوثر الآية (٣) .
(٧) ابن جرير : جامع البيان (٨/١١٢) وتفسير ابن كثير (٣/٣٧٧) ، وانظر : تيسير العزيز الحميد (ص ١٨٨) .

والديه ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض "[١] .

والمراد بالذبح لغير الله تعالى - كما قال الإمام النووي - هو أن يذبح باسم غير اسم الله تعالى ، كمن يذبح للصنم ، أو للصليب ، أو لموسى أو لعيسى - عليهما الصلاة والسلام - أو الكعبة ونحو ذلك ، وكل هذا حرام ، ولا تحل هذه الذبيحة ، سواء كان الذابح مسلماً أو نصرانياً أو يهودياً ، قال النووي : مضى عليه الشافعي ، واتفق عليه أصحابنا ، فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله ، والعبادة له ، كان ذلك كفراً ، فإن كان الذابح مسلماً قبل ذلك صار بالذبح مرتداً[٢] .

وقد ورد ماهو أشد مما ذكر من الذبح لغير الله ، فمجرد أن يقرب المسلم شيئاً ولو حقيراً لمخلوق غير الله على سبيل التعبد لهذا المخلوق فإن ذلك يوقعه في الشرك الذي يكون سبباً لدخوله النار ، فعن طارق بن شهاب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب " قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟؟ قال : " مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرب له شيئاً فقالوا لأحدهما قرب ، قال : ما عندي شيء ، قالوا : قرب ولو ذباباً ، فقرب ذباباً فخلوا سبيله ، فدخل النار ، وقالوا للآخر : قرب قال : ما كنت لأقرب لأحد شيئاً من دون الله عز وجل ، فضربوا عنقه ، فدخل الجنة "[٣] فدخول الرجل الجنة في ذباب ، أي : بسبب الذباب ، ذلك لأنه أبى أن يقرب الذباب ولو كان حقيراً على سبيل التعبد لهذا الصنم ، فهذا التقريب لغير الله شرك يستحق فاعله دخول النار ، وهو الذي جوزي به صاحبه الذي قرب ذباباً للصنم ، ففي هذا بيان عظمة الشرك ولو في شيء قليل ، وأنه يوجب النار ألا ترى إلى هذا لما قرب لهذا الصنم الذباب وهو أرذل الحيوان وأخسه كان جزاؤه النار لإشراكه في عبادة الله[٤] ، " إذ الذبح على سبيل القربة والتعظيم عبادة ، وهذا مطابق لقوله تعالى : (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار)[٥] ... وفيه أنه دخل النار بسبب لم يقصده ، بل فعله تخلصاً من شرهم ، وفيه أن الذي دخل النار مسلم ، لأنه لو كان كافراً لم يقل : دخل النار في ذباب ، وفيه أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان "[٦] .

وهذا الحديث يبين أن الشرك عند الله ثم عند المؤمنين ذنب عظيم ، فانظر إلى هذا المؤمن كيف صبر على القتل ، ولم يوافقهم على طلبهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر .

ولقد ورد في الحديث ما هو أشد من ذلك وأدق ، وهو التحذير من الذبح لله تعالى بمكان كان يذبح فيه لغير الله ، فعلى الرغم من أن الذابح يذبح لله تعالى خالصاً ، لكنه أوقع الذبح في مكان كان يذبح فيه لصنم أو لوثن أو لمخلوق غير الله ، فإن ذبحه هذا لا يجوز فعن ثابت بن الضحاك[٧] قال : نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة[٨] ، فسأل النبي - صلى الله

---

(١) صحيح مسلم (١٥٦٧/٣) .

(٢) شرح الامام النووي لصحيح مسلم وبالتالي تطبق عليه احكام الردة من القتل وغيره (١٤١/١٣) .

(٣) معارج القبول :حافظ الحكمي (٤١٣/١) ، تيسير العزيز الحميد (١٩٣) ، والحديث صحيح موقوفاً ، رواه أحمد في " الزهد " (ص١٥،١٦) وأبو نعيم في الحلية (٢٠٣/١) عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي - رضي الله عنه - ، ولم أقف على روايته مرفوعاً .

(٤) انظر تيسير العزيز الحميد (١٩٥) .

(٥) سورة المائدة بعض الآية (٧٦) .

(٦) تيسير العزيز الحميد (١٩٥) .

(٧) ثابت بن الضحاك بن خليفة الأشهلي ، صحابي جليل مشهور ، روى عنه ابو قلابة وغيره ومات سنة اربع وستين - رضي الله عنه - .

(٨) " بوانة " بضم الباء وقيل فتحها ، قال البغوي : موضع في اسفل مكة دون يلملم ، وقيل هضبة من وراء ينبع . انظر : تيسير العزيز الحميد (ص

عـليه وسلم - فقال : " هل كان فيه وثن من أوثان الجاهلية يُعبد " ؟ قالوا : لا ، قال : " فهل كان فيها عيد من أعيادهم " ؟ قالوا : لا ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما يملك ابن آدم "[1] .

ففـــي هذا الحديث الشريف استفصال المفتي من المستفت عما إذا كان يوجد مانع من موانع الوفاء بالنذر ، فإنه قد دل على أن هذا المكان المسئول عن الذبح فيه إذا كان يذبح فيه لغير الله فإنه يمنع من الذبح فيه لله ، أو كان في المكان عيد من أعياد الجاهلية ولو بعد زواله ، والحذر من مشابهة المشركين في نسكهم وأعيادهم ولو لم يقصده . وأن هذا يعد معصية لأن قولـــه - صلى الله عليه وسلم - : " فأوف بنذرك " تعقيب للوصف بالحكم بحرف الفاء ، وذلك يدل على أن الوصف سـبب الحكـم ، فيكون سبب الأمر بالوفاء وجود النذر خالياً عن هذين الوصفين ، فيكونان مانعين من الوفاء ، ولو لم يكن معصـــية لجاز الوفاء به ، ولأنه عقبة بقوله : " فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله " فدل أن الصورة المسئول عنها مندرجة في هذا اللفظ العام ، لأن العام إذا أورد على سبب فلا بد أن يكون السبب مندرجاً فيه ، ولأنه لو كان الذبح فيما ذكر جائزاً لســوغ - صلى الله عليه وسلم - للناذر الوفاء به كما سوغ لمن نذرت الضرب بالدف أن تضرب به ، لأنه عليه السلام - استفصـــل فلما قالوا : لا ، قال له : " فأوف بنذرك " وهذا يقتضي أن كون البقعة مكاناً لعيدهم ، أو بها وثن من أوثانهم مانع مـــن الذبح بها وإن نذر ، وإلا لما حسن الاستفصال ، فتخصيص البقعة بالنذر لا بأس به ، مالم يوجد مانع من تلك الموانع التي استفصل عنها النبي - صلى الله عليه وسلم -[2] .

٢- <u>السجود لغير الله :</u> وكان مما تناوله السيوطي في فتاويه مسألة السجود لغير الله جل وعلا ، وأفتى بأن هذا السجود كفر ، قال في الحاوي رداً على سائل يسأل عن قوم يسجدون لغير الله : " ...وقوم انهم يسجدون لملوكهم ، فهذا كله كفر... "[3] وهذا موافق لما ورد من النصوص الشرعية في النهي عن السجود لغير الله تعالى ومنها :

١- قولـــه تعالى : (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)[4] يقول ابن جرير - رحمه الله - : (واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) " إن كنتم تعبدون الله ، وتذلون له بالطاعة ، وإن من طاعته أن تخلصوا له العبادة ولا تشركوا في طاعتكم إياه وعبادتكموه شيئاً سواه ، فإن العبادة لا تصلح لغيره ، ولا تنبغي لشئ سواه "[5] .

ويقول ابن كثير - رحمه الله - : " لا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به "[6] .

فهذا يدل على أن السجود لغير الله تعالى شرك ، سواء كان للشمس أو للقمر أو لملك أو لنبي أو لسلطان أو لجن ،

---

٢٠٠) .

(١) الحديـــث صحيح ، رواه أبو داود (٣٣١٣) ومن طريقه البيهقي (٨٣/١٠) والطبراني في الكبير (١٣٤١) عن ثابت بن الضحاك بسند صحيح ، رجاله رجال الشيخين ، وصححه الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير (١٨٠/٤) .

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد (ص ٢٠٠ ، ٢٠١)

(٣) الحاوي (٢٩١/١) .

(٤) سورة فصلت الآية (٣٧) .

(٥) جامع البيان (١٢١/٢٤) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (١٧٠/٧) .

أو لغيره فالسجود عبادة كالركوع قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم)[1] والسجود عبارة عن نهاية التعظيم للمسجود له فلا تليق إلا بالله الخالق جل وعلا .

٢- قوله تعالى حكاية عن الهدهد يخبر سليمان - عليه السلام - عن ملكة سبأ وقومها الذين كانوا يعبدون الشمس من دون الله : (وجدتهـا وقومهـا يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم)[2]

فوصف سجودهم لغير الله تعالى بأنه من تزيين الشيطان ، فالشيطان دأبه تزيين الكفر والشرك والمعاصي للإنسان ، وقد زين لهؤلاء القوم السجود لغير الله تعالى ، وهو السجود للشمس ، فصدهم بذلك عن السبيل الحق ، الذي هو التوحيد والسـجود والـركوع لله تعالى وحده ، ومن صُد عن الحق وقع في الباطل ، فصاروا في ضلال لا يهتدون ، ووصفها في سـياق القصـة بالكفر هي وقومها ، قال تعالى : (وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين)[3] ، وعلى ذلك فكل من عبد غير الله أو سجد لغير الله فهو كافر بمنطوق هذه الآية الكريمة ، يقول ابن جرير : (إن هذه المرأة كانت كافرة من قوم كافرين)[4] .

فهذا مما يؤيد صحة فتوى السيوطي بكفر من سجد لغير الله تعالى .

<u>٣- السـحر :</u> وكـان مما تعرض له السيوطي أيضاً موضوع السحر ، وقد أفتى فيه بأنه كفر ، فقال في إجابته بعض من سأله : " ...ومنها من يعتقد أن بعض الناس يقتل بمس أو مقاربة ، أو يمرض ، وهذا اعتقاد فاسد ، فإن كان ذلك بسحر أثم فاعله أو كفر ... "[5] .

والسـحر لغـة : هـو " كل ما لطف مأخذه ودق "[6] ولهذا جاء في الحديث : " إن من البيان لسحراً "[7] وسمي السحور سحوراً لأنه يقع خفياً آخر الليل[8] ، قال تعالى : (سحروا أعين الناس)[9] أي أخفوا عنهم علمهم[10] .

والسحر اصطلاحاً : " هو عقد ورقي وكلام يتكلم به أو يكتبه أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشـرة له ولـه حقيقة فمنه ما يقتل ، وما يمرض ، وما يأخذ الرجل عن أمرأته فيمنعه وطأها ، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه ، وما يبغض أحدهما إلى الآخر ، أو يحبب بين اثنين "[11] وقال ابن القيم : " والسحر مركب من تأثيرات الأرواح

---

(١) سورة الحج ، بعض الآية (٧٧) .
(٢) سورة النمل الآيات (٢٤-٢٦) .
(٣) سورة النمل الآية (٤٣) .
(٤) جامع البيان (١٩/١٦٨) .
(٥) الحاوي للفتاوي (١/٢٩٢) .
(٦) الطاهر الزاوي : ترتيب القاموس المحيط (٢/٥٢٨) . والراغب الاصفهاني : المفردات (٢٢٦) .
(٧) رواه البخاري عن ابن عمر - في صحيحه كتاب الطب (٧٦) باب (٥١) ح رقم (٥٧٦٧) ، انظر فتح الباري (١/٢٣٧) ، اخرجه البيهقي في الدلائل من طريق مسلم عن ابن عباس ، ومالك في الموطأ باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله .
(٨) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١/٢١٢) .
(٩) سورة الاعراف جزء من الآية رقم (١١٦) .
(١٠) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١/٢١٢) .
(١١) ابـو محمـد عبدالله بن قدامة المقدس : المغنى المطبوع معه الشرح الكبير (١٠/١١٣) ونحوه في الشرح الكبير (١٠/١١٢) ، وقريب منه في

الخبيثة ، وانفعال القوى الطبيعية عنها ، وهو أشد ما يكون من السحر والاسيما في الموضع الذي انتهى السحر إليه "[١] .

قلت : وقد أجمع أهل السنة والجماعة على وقوع السحر بدليل القرآن وصحيح الأخبار ، وانكر المعتزلة وطائفة من الناس[٢]

وقال تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد)[٣] يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن[٤] .

وللسحر حقيقة ، بمعنى أنه يتحقق وقوعه ووجوده ، وهذا هو الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة – كما قلت – ، وقد شذ منهم قوم بعضهم من أصحاب الإمام الشافعي[٥] وهو أبو جعفر الاستراباذي ، ومن الحنفية أبو بكر الرازي ، وكذا الإمام ابن حزم الظاهري فأنكروا حقيقة السحر وقالوا : إنما هو وهم وتخييل[٦] فوافقوا بذلك مذهب المعتزلة فيه .

قال الإمام النووي : " والصحيح أن له حقيقة وبه قطع الجمهور ، وعليه عامة العلماء ، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة "[٧] ولو لم يكن للسحر حقيقة ووجود لم ترد النواهي عنه في الشرع ، والوعيد على فاعله ، والعقوبات الدنيوية والأخروية على متعاطيه والإستعاذة منه أمراً وخبراً .

فإنه لا يعقل أن ينهى الشرع عن شيء لا حقيقة له ولا وجود له في الواقع .

وقد أخبر الله سبحانه أن السحر كان موجوداً في زمن فرعون وأنه أراد – لعنه الله – أن يعارض به معجزات نبي الله ورسوله موسى – عليه السلام – في العصا بعد أن رماه هو وقومه به بقولهم الذي حكاه الله تعالى فقال : (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم)[٨] وقال تعالى عن سحرة فرعون : (فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم)[٩] وقال جل وعلا : (... فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى)[١٠] . ومعظم سياق قصة موسى – عليه السلام – مع فرعون تثبت حقيقة السحر وتأثيره ، بل وصفه الله تعالى بأنه (سحر عظيم)[١١] .

وقد أخبر الله تعالى كذلك عن قوم صالح – عليه السلام – وكانوا قبل إبراهيم – عليه السلام – أنهم قالوا لنبيهم

تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد نقلاً عن الكافي لابن قدامة كذلك انظر ص (٣٨٢) – ط المكتب الاسلامي .

(١) زاد المعاد (٤/١٢٥-١٢٦) .

(٢) للمزيد انظر : المعتمد في أصول الدين (ص١٦٧) ، والارشاد (ص٢٧٠-٢٧٢) ، والمغني لابن قدامة (١٠/١١٣) ن بدائع الفوائد (٢/٢١١-٢٢٨) وكشاف اصطلاحات الفنون (٣/١٥٢-١٥٧) .

(٣) سورة الفلق الآية (٤)

(٤) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٥/٣٥٣) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٥٥٥) ، الشوكاني : فتح القدير (٥/٥٢٠ ، ٥٢١) .

(٥) انظر : ابن حجر : فتح الباري (١٠/٢٢٢) .

(٦) المغنى (١٠/١١٣)

(٧) ابن حجر : فتح الباري (١٠/٢٤٢) ، شرح النووي لصحيح مسلم (١٤/١٧٤) .

(٨) سورة الاعراف الآيات (١٠٩ – ١١٢) .

(٩) سورة الاعراف الآية (١١٦) .

(١٠) سورة طه الآيات (٦٦ – ٦٩) .

(١١) سورة الأعراف بعض الآية (١١٦) .

صـــالح – عـــليه الســـلام – (إنمـــا أنت من المسحرين)[1] وكذا قال قوم شعيب – عليه السلام – له (إنما أنت من المسحرين)[2] وكذلك قال المشركون لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – كما ذكر الله تعالى عنهم في غير موضع ، بل ذكر الله عز وجل أن هذا القول قاله كل قوم لرسولهم قال تعالى : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون)[3] وقال تعالى آمراً بالإستعاذة من السحر : (ومن الشر النفاثات في العقد)[4] وهن السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن[5] .

وأخـــبر تعـــالى عن اليهود أنهم نبذوا كتاب الله تعالى المنزل بالوحي على موسى – عليه السلام – أو على نبينا محمـــد – صلى الله عليه وسلم – واتبعوا العلم الضار الذي هو السحر تعلماً من الشياطين وتعليماً وأخبر أن من فعل ذلك ليـــس له فـــي الآخرة من نصيب وليس له دين ينجيه من عذاب الله يوم القيامة ، قال جل وعلا : (ولما جاءهم رسول من عندالله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا ما تتلوا الشياطين عـــلى مـــلك ســـليمان ومـــا كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت ومـــاروت ومـــا يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق ولبئس مـــا شـــروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عندالله خير لو كانوا يعلمون)[6] وبهذه النصوص القـــرآنية وغيـــرها مما سأذكره قريباً – إن شاء الله – يثبت السحر ، حقيقته ووقوعه فعلاً وتأثيراً . قال الإمام أبو سليمان الخطـــابي : " وقد أنكر قوم من أصحاب الطبائع[7] السحر وأبطلوا حقيقته ، والجواب : أن السحر ثابت وحقيقته موجودة ، وقد اتفق أكثر الأمم من العرب والفرس والهند وبعض الروم على اثباته ... وقد ذكر الله عز وجل أمر السحر في كتابه في قصـــة ســـليمان ، وما كان الشياطين يعلمونه من ذلك ، ويعلمون الناس منه ... وورد في ذلك عن النبي – صلى الله عليه وســـلم – وعن الصحابة – رضي الله عنهم – أخبار كثيرة لا ينكرها لكثرتها إلا من انكر العيان وجحد الضرورة ... فنفى الحر جهل والاشتغال بالرد على من نفاه لغز وفضل ... "[8]

قال صاحب " سلم الوصول إلى علم الأصول ":

" والسحـــر حـــــق ولـــه تـــأثير لكـــــن بمـــــا قـــــدره الـــقـــــدير

---

(١) سورة الشعراء الآية (١٥٣) .

(٢) سورة الشعراء الآية (١٨٥) .

(٣) ســـورة الذاريـــات الآية (٥٢) . يحتمل أن يكون بعضهم قال : ساحر ، وبعضهم الآخر قال : مجنون ، ثم تبادلوا الاتهام فقال الأولون : مجنون ، وقال الآخرون : ساحر ، ويحتمل أيضاً أن يكون الجميع قالوا مرة : ساحر ، ومرة أخرى قالوا : مجنون .

(٤) سورة الفلق الآية (٤) .

(٥) انظر : ابن جرير الطبري : جامع البيان (٣٥٣/١٥) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥٥٥/٨) ، الشوكاني : فتح القدير (٥٢٠/٥ ، ٥٢١) .

(٦) سورة البقرة الآيات (١٠١ – ١٠٣) .

(٧) هـــم المنتســـبون إلى مـــا يســـمى بعلم الطبيعة وهو علم يبحث عن طبائع الأشياء ، وما اختصت به من القوة ، والطبائع الأربع عند الأقدمين : الحرارة ، البرودة ، والرطوبة ، واليبوسة – انظر : كشاف اصطلاح الفنون (٩١٢/٢) والمعجم الوسيط مادة (طبع) (ص٥٥٠) .

(٨) أعلام الحديث (١٥٠٠/٢-١٥٠٤) مع بعض التصرف والاختصار .

أعني بذا التقدير ما قد قدره في الكون لا في الشرعة المطهرة "[١]

وتأييداً وتأكيداً لذلك ولما ذكرته من الآيات التي تثبت حقيقة السحر قد ثبت في الصحيحين من طرق عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : سَحَرَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – رجل من بني زريق يقال له لبيد الأعصم ، حتى كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله ، حتى إذا كان ذات يوم – أو ذات ليلة – وهو عندي ، لكنه دعا ودعا ثم قال : يا عائشة ، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ أتاني رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي ، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال مطبوب ، قال : من طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم . قال : في أي شيء ؟

قال : في مشط ومشاطه ، وجفِ طلعِ نخلة ذكرٍ. قال : وأين هو ؟

قال : في بئر ذروان ، فأتاها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ناس من أصحابه ، فجاء فقال : يا عائشة ، كأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين . قلت يا رسول الله أفلا استخرجته ؟

قال : قد عافاني الله ، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً ، فأمر بها فدفنت[٢] .

قال الإمام النووي : " قال المازري – رحمه الله تعالى – : مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على اثبات السحر ، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة ، خلافاً لمن انكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها ، وقد ذكره الله تعالى في كتابه . وذكر أنه مما يتعلم ، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به ، وأنه يفرق بين المرء وزوجه ، وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له ، وهذا الحديث أيضاً مصرح باثباته ، وأنه أشياء دفنت وأخرجت وهذا كله يبطل ما قالوه ، فإحالة كونه من الحقائق محال ، ولا يستنكر في العقول أن الله سبحانه وتعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق ، أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر ، وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم ، ومنها مسقمة كالأدوية الحادة ، ومنها مضرة كالأدوية المضادة للمرض لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوي قتالة ، أو كلام مهلك ، أو مؤد إلى التفرقة ... وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر ، فزعم أنه يحط من منصب النبوة ، ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل ؛ لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته ، وعصمته – صلى الله عليه وسلم – فيما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ، ولا كان مفضلاً من أجلها ، وهو مما يعرض للبشر ، فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له ، وقد قيل إنه إنما كان يخيل إليه أنه وطيء زوجاته وليس بواطيء ، وقد يتخيل الإنسان مثل هذا في المنام فلا يبعد تخيله في اليقظة ولا حقيقة له ، وقيل : إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ، ولكن لا يعتقد صحة ما يتخيله ، فتكون اعتقاداته على السداد ، قال القاضي عياض – رحمه الله تعالى – وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط

---

(١) الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد (٥٠٦/١) من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – بدون رقم طبعة ولا تاريخ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الطب (٧٦) باب (٤٧) ح رقم (٥٧٦٣) ومسلم (١٧١٩/٤) ح رقم (٢١٨٩) وابن ماجة – كتاب الطب باب (٤٥) وأحمد (٥٧،٦٣،٩٦/٦) .

عـلى جسـده وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله في الحديث حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يـأتيهن ، ويـروي : يخيل إليه أي يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن ، فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم يـأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور ، وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله ونحوه ، فمحمـول عـلى الـتخيل بالبصر لا كالخلل يتطرق إلى العقل ، وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة "[١] . وأما ما نقله النووي عن المازري فيما سبق من قوله : " خلافاً لمن أنكر ذلك " قال ابن هبيرة " أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فإنه قال : لا حقيقة له عندي ، ثم ذكر الإختلاف في حكم الساحر[٢] ، وقال القرطبي : " وعـندنا أن السـحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما شاء "[٣] ثم أكد مرة أخرى وقال : " ذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة ، وذهب عامة المعتزلة وأبو اسحاق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لا حقيقة له وإنما هو تمويه وتخييل وإيهام "[٤] .

ثم أبطل القرطبي ما ذهب إليه المعتزلة ومن وافقهم من انكار حقيقة السحر وقال : " روى سفيان عن أبي الأعور عـن عكرمة عن ابن عباس قال : عُلم السحر في قرية من قرى مصر يقال لها " الفرما " فمن كذب به فهو كافر مكذب لله ورسوله ، منكر لم علم مشاهدة وعياناً "[٥] .

- ولقـد نقـلت فيمـا تقدم - عن السيوطي أنه أفتى بإثم الساحر وكفره ، ولدي عدد من الأدلة على صحة كلام السيوطي وفتواه في تحريم السحر وأنه كفر ، وأن متعاطيه كافر لا خلاق له في الآخرة .

قال صاحب " سلم الوصول " :

" واحكم على الساحـر بالتكفـير ... وحـــده القتـــل بـــلا نكـــير

كما أتى في السنة المصرحة ... مما رواه الترمذي وصـــــححه

عن جنـــدب وهكـذا في أثـر ... أمـر بقتـلهم روي عن عمـــر

وصح عن حفصة عند مالك ... ما فيه أقوى مرشد للسالك[٦] .

ومقصــوده الحكم على الساحر إذا تعلم السحر أو علمه ، وسواء عمل به أو لم يعمل - بالتكفير ، يعني أن يحكم عليه بأنه كفر بهذا الذنب الذي هو السحر[٧] ، وهو قول مالك ، وبقول مالك قال أحمد بن حنبل وهو مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين ، أما مالك فيحكم بكفره وبقتله دون استتابة والشافعية على خلاف ذلك .

---

(١) شرح النووي لصحيح مسلم (١٤/١٧٤-١٧٥) .

(٢) الإفصاح عن معاني الصحاح (٢/٢٢٦) المؤسسة السعيدية بالرياض .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/٣٢) ، وانظر : الخطابي : أعلام الحديث (٢/١٥٠٠-١٥٠٤) .

(٤) نفسه السابق .

(٥) الجامع (٢/٣٣) .

(٦) الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الوصول في التوحيد (١/٥١٢) ، مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد ، وانظر : الخطابي : أعلام الحديث (٢/١٥٠٠-١٥٠٤) .

(٧) حـافظ حكمـي : معـارج القبول (١/٥١٢) ، وانظر : شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/١٧٦) ، وابن جرير : جامع البيان (١/٤٥٤) ، والرازي (٣/٢٣٢) ، فتح القدير (١/١٢٠) . وابن كثير (١/٢٠٦-٢٠٧) .

وهذا الحكم بالكفر صريح وواضح في آية سورة البقرة من أوجه :

الأول : فـي قوله تعالى: (ولما جاءهم رسول من عندالله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتو الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)[١] .

والنبذ هو الطرح والإلقاء للشيء ، وهذا فيه من الإحتقار والإزدراء والسخرية والإمتهان ما فيه ، قال القرطبي : " النبذ : الطرح والالقاء ... قال أبو الاسود :

وخبرني من كنتُ أرسلت إنما	أخذت كتابي معرضا بشمالكـا
نظرت إلى عنوانه فنبـذتـه	كنبذك نعلاً اخلقت من نعالكـا

وهـذا مـثل يضرب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به "[٢] ، فإذا كان ذلك بكتاب الله تعالى فهو كفر ، سواء أريد بالكتاب التوراة التي كانت بأيديهم ، أو القرآن الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – كل ذلك نبذه كفر[٣] .

الثاني : فـي قوله تعالى : (وتبعوا ما تتلوا الشياطين)[٤] تتقوله وتزوره (على ملك سليمان)[٤] أي في ملكه وعهده ، ومعلوم أن استبدال ما تتلوه الشياطين وتتنوله ، والإنقياد له والعمل به عوضاً عما أوحاه الله تعالى إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – هذا من أعظم الكفر ، وهو مع ذلك من عبادة الطاغوت التي هي أصل الكفر[٥] .

ومعـلوم كذلك أن الله جل وعلا سمي طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرمه الله ، أو تحريم ما أحله ، سمي ذلك عبادة ، وأنه اتخاذ لهم أرباباً من دون الله فقال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)[٦] الآية .

قال عدي بن حاتم حين سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتلوها : إنا لسنا نعبدهم ، قال : " أليس يحلون مـا حـرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه " ؟ قال : بلى ، قال : " فتلك عبادتكم إياهم "[٧] ولهذا قال تعالى بعدها : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)[٨] .

فـإذا كان هذا في طاعة الأحبار والرهبان فكيف يكون الحكم إذا كانت طاعة للشيطان فيما ينافي وحي الله بل بعد أن ينبذ ويطرح وحي الله ويعظم وحي الشيطان بالتلاوة والإتباع .

" فعـبادة الشيطان هي اتباعه فيما أمر به من الكفر والضلال ودعا إليه "[٩] كما قال عز وجل نيه : (إنما يدعو

---

(١) سورة البقرة الآية (١٠١) .

(٢) الجامع لأحكام القران (٢٩/٢) والأبيات في ديوان أبي الأسود الدؤلي (ص٢١) وتفسير الطبري (٤٠١/٢) .

(٣) حافظ حكمي : معارج القبول (٥١٢/١) .

(٤) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) .

(٥) انظر : الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (٥١٣/١) .

(٦) سورة التوبة بعض الآية (٣١) .

(٧) قـال ابـن كـثير : " رواه الإمام أحمد ، والترمذي وابن جرير من طرق " تفسيره (٧٧/٤) ، وانظر : تحفة الأحوذي ، تفسير سورة التوبة – الحديـث (٥٠٩٣) (٤٩٢/٨-٤٩٤) وقـال الترمذي : " هذا حديث غريب " ، وقال صاحب التحفة : " وأخرجه أحمد ، وابن جرير وابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردوية ، والبيهقي في " سننه " وانظر تفسير الطبري (٢٠٩/١٤-٢١١) ، ونقل السيوطي في الدر المنثور (١٧٤/١٠) أن الترمذي حسنه .

(٨) سورة التوبة ، بعض الآية (٣١) .

(٩) الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (٥١٣/١) ، ومجموع الفتاوي (٨٠/١٣ – ٨١) ، ومجموع الفتاوي (٣٣/١٩) التفسير القيم (ص

وهذا الحكم بالكفر صريح وواضح في آية سورة البقرة من أوجه :

الأول : في قوله تعالى: (ولما جاءهم رسول من عندالله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتو الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون)[١] .

والنبذ هو الطرح والإلقاء للشيء ، وهذا فيه من الإحتقار والإزدراء والسخرية والإمتهان ما فيه ، قال القرطبي : " النبذ : الطرح والالقاء ... قال أبو الاسود :

وخبرني من كنتُ أرسلت إنما   أخذت كتابي معرضا بشمالكا

نظرت إلى عنوانه فنبذته   كنبذك نعلاً اخلقت من نعالكا

وهذا مثل يضرب لمن استخف بالشيء فلا يعمل به "[٢] ، فإذا كان ذلك بكتاب الله تعالى فهو كفر ، سواء أريد بالكتاب التوراة التي كانت بأيديهم ، أو القرآن الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – كل ذلك نبذه كفر[٣] .

الثاني : في قوله تعالى : (وتبعوا ما تتلوا الشياطين)[٤] تتقوله وتزوره (على ملك سليمان)[٤] أي في ملكه وعهده ، ومعلوم أن استبدال ما تتلوه الشياطين وتتقوله ، والإنقياد له والعمل به عوضاً عما أوحاه الله تعالى إلى رسوله – صلى الله عليه وسلم – هذا من أعظم الكفر ، وهو مع ذلك من عبادة الطاغوت التي هي أصل الكفر[٥] .

ومعلوم كذلك أن الله جل وعلا سمي طاعة العلماء والأمراء في تحليل ما حرمه الله ، أو تحريم ما أحله ، سمي ذلك عبادة ، وأنه اتخاذ لهم أرباباً من دون الله فقال تعالى : (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)[٦] الآية .

قال عدي بن حاتم حين سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتلوها : إنا لسنا نعبدهم ، قال : " أليس يحلون ما حرم الله فتحلونه ، ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه " ؟ قال : بلى ، قال : " فتلك عبادتكم إياهم "[٧] ولهذا قال تعالى بعدها : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)[٨] .

فإذا كان هذا في طاعة الأحبار والرهبان فكيف يكون الحكم إذا كانت طاعة للشيطان فيما ينافي وحي الله بل بعد أن ينبذ ويطرح وحي الله ويعظم وحي الشيطان بالتلاوة والإتباع .

" فعبادة الشيطان هي اتباعه فيما أمر به من الكفر والضلال ودعا إليه "[٩] كما قال عز وجل فيه : (إنما يدعو

---

(١) سورة البقرة الآية (١٠١) .

(٢) الجامع لأحكام القران (٢٩/٢) والأبيات في ديوان أبي الأسود الدؤلي (ص٢١) وتفسير الطبري (٤٠١/٢) .

(٣) حافظ حكمي : معارج القبول (٥١٢/١) .

(٤) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) .

(٥) انظر : الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (٥١٣/١) .

(٦) سورة التوبة بعض الآية (٣١) .

(٧) قال ابن كثير : " رواه الإمام أحمد ، والترمذي وابن جرير من طرق " تفسيره (٧٧/٤) ، وانظر : تحفة الأحوذي ، تفسير سورة التوبة – الحديث (٥٠٩٣) (٤٩٢/٨-٤٩٤) وقال الترمذي : " هذا حديث غريب " ، وقال صاحب التحفة : " وأخرجه أحمد ، وابن جرير وابن سعد وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردوية ، والبيهقي في " سننه " وانظر تفسير الطبري (٢٠٩/١٤-٢١١) ، ونقل السيوطي في الدر المنثور (١٧٤/١٠) أن الترمذي حسنه .

(٨) سورة التوبة ، بعض الآية (٣١) .

(٩) الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (٥١٣/١) ، ومجموع الفتاوي (٨٠/١٣ – ٨١) ، ومجموع الفتاوي (٣٣/١٩) التفسير القيم (ص

حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)[١] .

الـثالث : فـي قوله تعالى : (وما كفر سليمان)[٢] فهي تبرئة الله سبحانه وتعالى نبيه سليمان من الوقوع في الكفر ، وهذا الكفـر الـذي بـرأه مـنه هـو علم السحر – وإن كان بريئاً من الكفر كله معصوماً مما هو دونه – ولكن سياق الآية في خصـوص السحر وأنه بريء منه ، ولو فرض وجود عمله به لكفر ، لأنه شرك ، والشرك أقبح الذنوب وأعظم المحبطات للأعمـال كما قال تعالى في جميع رسله ، سليمان وغيره – عليهم السلام –[٣] : (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون)[٤] . وعلى ذلك يكون المعنى المفهوم من الآية : إن سليمان – عليه السلام – لو سحر أو عمل بالسحر لكفر ، ولكن الكفر منفي عنه ، فنتج أن سليمان ما سحر وما كفر ، ونتج أيضاً أن السحر كفر ، وأن الساحر كافر ، وإن سليمان – عليه السلام – مبرأ من ذلك كله .

الرابع : في قوله تعالى : (ولكن الشياطين كفروا يعلمون السحر)[٥] قال القرطبي : " فأثبت كفرهم بتعليم السحر "[٦] .

وقد أكذب الله تعالى اليهود فيما نسبوه إلى نبيه سليمان – عليه السلام – وإنما نسبوه إلى السحر ، ولازم ما نسبوه إليه هو الكفر لأن السحر كفر ، ولهذا أثبت كفر الشياطين لأنهم علموا الناس السحر ، وكذلك كل من تعلم السحر أو علمه ، أو عمل به يكفر ككفر الشياطين الذين علموه الناس[٧] ، ولهذا قال تعالى في الملكين (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر)[٨] فالملكان يحذران من يتعلمه منهما ، ويبينان له أنه بمجرد تعلمه يكفر سواء عمل به وعلمه أو لا[٩]

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : ... فإذا أتاهما الآتي مريد السحر نهياه أشد النهي وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، وذلك أنهما عَلِمَا الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر ، قال : فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا ، فإذا أتى عاين الشيطان فعلمه ، فإذا تعلمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعاً في السماء ، فيقول : يا حسرتاه يا ويله ماذا أصنع[١٠] .

وعـن الحسن البصري أنه قال : في تفسير هذه الآية " نعم أُنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذي أراد الله تعـالى أن يبتـلى به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر "[١١] ، أي لا تتعلمه

---

٥٧١) ، النبوات (٢٥٧ – ٦٦) واستعاذة السحرة بالجن في الصفدية (١/١٧١ – ١٧٤) .

(١) سورة فاطر الآية (٦) .

(٢) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) . انظر : الشوكاني : فتح القدير (١/١١٩) .

(٣) انظر : الشيخ حافظ بن احمد الحكمي : معارج القبول (١/٥١٤) .

(٤) سورة الانعام الآية (٨٨) .

(٥) سورة البقرة الآية (١٠٢) .

(٦) الجامع (٢/٣١) ، والشوكاني : فتح القدير (١/١١٩) ، الرازي في تفسيره (٣/١٢١) .

(٧) انظر : الشيخ حافظ بن احمد حكمي (١/٥١٦) ، وانظر النووي : شرح مسلم (١٤/١٧٦) ، الشوكاني : فتح القدير (١/١١٩) .

(٨) سورة البقرة الآية (١٠٢) .

(٩) انظر : الشيخ حافظ احمد حكمي (١/٥١٦) ، ذكر الرازي في تفسيره (٣/٢٣١) أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محظور وهو رأي غير صواب لمخالفته الأدلة السابقة .

(١٠) معارج القبول (١/٥١٧) ، تفسير ابن كثير (١/٢٠٥) .

(١١) معارج القبول (١/٥١٧) ، نفس المصدرين السابقين .

فتكفر بذلك[١]

وقال قتادة : " كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا : (إنما نحن فتنة) أي بلاء ابتلينا به (فلا تكفر) "[٢]

وقـال السدى : " إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له : ائت هذا الرماد فبل عليه فإذا بال عليه خرج منه نـور فسـطع حتى يدخل السماء ، وذلك الإيمان ، وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء وذلك غضـب الله ، فإذا أخبرهما بذلك علماء السحر ، فذلك قول الله تعالى : (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر...) الآية "[٣] وعن ابن جريج في هذه الآية قال : " لا يجترىء على السحر إلا كافر ، والفتنة هي المحنة والإختبار "[١] .

الخـامس : فـي قوله تعالى : (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق)[٤] يعني من حظ ولا نصيب ، وهذا الوعيد لم يطلق إلا فيما هو كفر لا بقاء للإيمان معه ، فإنه ما من مؤمن إلا ويدخل الجنة ، وكفى بدخول الجنة خلاقاً ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولذا قال الحسن : (ماله في الآخرة من خلاق) قال : ليس له دين[٥] .

السـادس : فـي قولـه تعالى : (ولو أنهم آمنوا)[٦] يعني برسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – (واتقوا) السحر وسائر الذنوب (لمثوبة من عندالله خير لو كانوا يعلمون)[٧] وهذا صريح جداً في كفر الساحر ، ونفى الإيمان عنه بالكلية ، فإنه لا يقال للمؤمن المتقي : ولو أنه آمن واتقى ، وإنما قال تعالى ذلك لمن كفر وفجر وعمل بالسحر واتبعه وخاصم به رسوله ، ورمى به نبيه ، ونبذ الكتاب وراء ظهره وهذا ظاهر[٨] .

ومن المعلوم لغة : أن " لو " حرف امتناع لامتناع أي امتناع جوابها لامتناع شرطها فإن هؤلاء السحرة قد امتنعت عـنهم مثوبة الخير من الله تعالى لامتناع إيمانهم بالرسول – صلى الله علية وسلم – وعدم تقواهم ، وهذا صريح كذلك في انتفاء الإيمان عن هؤلاء السحرة ، ولازم انتفاء الإيمان هو الكفر .

وقد صرح بكفر الساحر طائفة من السلف .

قال ابن حجر : " وقد استدل بهذة الآية – يعني آية سورة البقرة – على أن السحر كفر ، ومتعلمه كافر "[٩] .

وقـال النووي : " وعن مالك : الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب ، يتحتم قتله كالزنديق قال عياض : وبقول مالك قال احمد وسبقهما في ذلك جماعة من الصحابة والتابعين "[١٠] .

---

(١) ابن قدامة : المغني (١٠/١١٥) .
(٢) تفسير الطبري (١/٤٦٢) ، وتفسير ابن كثير (١/٢٠٦) .
(٣) معارج القبول (١/٥١٧) ، تفسير الطبري (١/٤٦٢) ، وتفسير ابن كثير (١/٢٠٦) .
(٤) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) .
(٥) تيسير العزيز الحميد (٣٨٣) وابن جرير : جامع البيان (١/٤٦٥) ، تفسير ابن كثير (١/٢٠٧) .
(٦) سورة البقرة الآية (١٠٣) .
(٧) سورة البقرة الآية (١٠٣) .
(٨) معارج القبول (١/٥١٨) .
(٩) فتح الباري (١٠/٢٢٤) ، وابن تيمية : مجموع الفتاوى (٢٩/٣٨٤) .
(١٠) صـحيح مسـلم مـع شرح النووي (١٤/١٧٦) -ابن حجر (١٠/٢٢٤) ، تيسير العزيز الحميد (٣٨٤) معارج القبول (١/٥١٨) ، والنووي : المجموع شرح المهذب (١٩/٢٤١) .

وهـــو كذلك قول أبي حنيفة والشافعي[١] قال الشافعي : " إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر ، مثل ما اعتقد أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها ، فهو كافر "[٢] .

وقـــال ابن قدامة : " قال أصحابنا : ويكفر الساحر بتعلمه وفعله سواء اعتقد تحريمه أو إباحته "[٣] وقال علي : " الساحر كافر "[٤] .

وفي حديث مرفوع رواه رزين : " الساحر كافر "[٥] وقال أبو العالية : " السحر من الكفر "[٦] وقال ابن جريج : " لا يجتريء على السحر إلا الكافر "[٧] وقال القرطبي : " ذهب مالك إلى أن المسلم إذا سحر نفسه بكلام يكون كفراً يقتل ولا يســـتتاب ولا تقبل توبته لأنه أمر يستسر به كالزنديق والزاني ، ولأن الله تعالى سمى السحر كفراً بقوله : (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) وهو قول احمد ابن حنبل ، وأبي ثور وإسحاق والشافعي وأبي حنيفة ، وروى قتل الســـاحر عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وأبي موسى وقيس بن سعد وعن سبعة من التابعين "[٨] وقال ابن حجر : " وفـــي إيراد المصنف[٩] هذه الآية[١٠] إشارة إلى اختيار الحكم بكفر الساحر لقوله فيها : (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفـــروا يعلمون الناس السحر)[١١] فإن ظاهرها انهم كفروا بذلك ، ولا يكفر بتعلم الشيء إلا وذلك الشيء كفر ، وكذا قوله تعـــالى في الآية على لسان الملكين : (إنما نحن فتنة فلا تكفر) فإن فيه إشارة إلى أن تعلم السحر كفر ، فيكون العمل به كفراً ... وقد زعم بعضهم أن السحر لا يصح إلا بذلك "[١٢] أي لا يصح إلا بالكفر . وقد نبهت على كفر الساحر فيما سبق من ستة أوجه تدل عليها الآية .

ثـــم قـــال ابن حجر : " وقصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن من حديث ابن عمر في مسند احمد ، وأطنب الطـــبري في إيراد طرقها[١٣] بحيث يقضي بمجموعها على أن للقصة أصلاً ، خلافاً لمن زعم بطلانها " وكل ما أوردته من الدلائل على أن السحر كفر ، وأن الساحر كافر إنما سقته تأييداً لفتوى الجلال السيوطي في أن من يقتل بسحر فقد كفر ، والكفر هنا بسبب السحر لا بسبب القتل[١٤]

---

(١) ابن هبيرة الاشراف نقله عن ابن كثير (٢١٢/١) ، تيسير العزيز (٣٨٤) .
(٢) ابـــن قدامـــة – المغنى (١١٥/١) ، تيسير العزيز (٣٨٤) ، أبو بكر الجصاص : أحكام القرآن – بيروت ط٢ / دار الكتاب العربي ، والنووي : المجموع (٢٤٥/١٩) ، روضة الطالبين (٣٤٦/٩) المكتب الاسلامي بيروت ط٢ / ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .
(٣) المغنى (١١٥/٧) .
(٤) المغـــنى (١١٦/٧) ، وانظر : منصور البهوتي : كشف القناع عن متن الاقناع (١٨٦/٦) تعليق الشيخ هلال مصيلحي – الرياض مكتبة النصر الحديثة .
(٥) تيسير العزيز العززيز الحميد (٣٨٤) .
(٦) تيسير العزيز الحميد (٣٨٤) .
(٧) ابن جرير : جامع البيان (٤٦٤/١) ، تيسير العزيز الحميد (٣٨٤) .
(٨) الجامع لأحكام القرآن (٣٣/٢) .
(٩) يقصد الإمام البخاري في صحيحه .
(١٠) فتح الباري (٢٢٠/١٠) ، والآية (١٠٢) من سورة البقرة .
(١١) سورة البقرة بعض الآية (١٠٢) .
(١٢) فتح الباري (٢٢٥/١٠) .
(١٣) انظر جامع البيان (٤٥٤/١ – ٤٥٩) .
(١٤) يجب أن ننوه هنا إلى أنه يرى بعض العلماء أن الساحر لا يكفر بسحره منهم الامام ابن حزم – انظر المحلي بالآثار (٣٩٨/١١) .

٤- **الرياء :** " الرياء " هو " ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه"[١] قال ابن حجر : " وهو مشتق من الرؤية ، والمراد به اظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدوا صاحبها "[٢] .

والمرائي يقصد رؤية الناس لعبادته لطلب المنزلة في قلوبهم بأن يريهم الخصال المحمودة من نفسه فيحظى لديهم بالمنزلة .

وقد حذر السيوطي من الرياء وبين أنه مذموم ، وأن فاعله آثم ، فعندما وردت إليه أسئلة سائل يستفتيه في بعض المسائل كان جواب السيوطي عليه ببيان الحق فقال : " ... ومنها من أمر ونهى وقصد به رياء وسمعة ، والجواب : أنه مذموم آثم ، فشرط ذلك الإخلاص لوجه الله تعالى "[٣] قال تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)[٤] .

فأصل دين الإسلام الذي بعث الله به رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم – هو إفراده تعالى بأنواع العبادة ، والإخلاص له فيها .

فالرياء سبب من أسباب عدم قبول العمل فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان صواباً خالصاً ولذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه "[٥] وقال تعالى في الحديث القدسي : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشريكه "[٦] .

فمن قصد بعمله غير الله تركه الله وشركه قال الطيبي : " الضمير المنصوب في قوله (تركته) يجوز أن يرجع إلى العمل "[٧] .

فإذا كان الرياء محضاً كحال المنافقين فهو نفاق كما قال تعالى : (... وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً)[٨] .

وإذا كان العمل لله تعالى ويشاركه الرياء ، فإن شاركه في أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه ومن الأدلة على هذا حديث شداد بن أوس مرفوعاً : " من صلى يرائي فقد أشرك ، ومن صام يرائي فقد أشرك ، ومن تصدق يرائي فقد أشرك ، وإن الله عز وجل يقول : أنا خير قسيم لمن أشرك بي ، فمن أشرك بي شيئاً فإنَّ حَشْدَة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به أنا عنه غني "[٩] .

وإن خالط العمل نية أخرى غير الرياء ، مثل أخذ أجرة خدمة في الجهاد مثلاً أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة

---

(١) الجرجاني : كتاب التعريفات (١١٣) .

(٢) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري (١١/٣٣٦) .

(٣) الحاوي (١/٢٩٣) .

(٤) سورة الكهف الآية (١١٠) .

(٥) رواه النسائي (٦/٢٥) ، والطبراني (٧٦٢٨) وحسنه الحافظ العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٤/٣٨٤) ، والسيوطي في الدر المنثور (٥/٤٧٢) .

(٦) رواه مسلم (٢٩٨٥) وابن ماجه (٤٢٠٢) واحمد (٢/٣٠١ ، ٤٣٥) ، وصححه ابن حيان (٣٩٥) .

(٧) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٥-١١٦) ، وانظر فتح المجيد (٣٢٤) .

(٨) سورة النساء بعض الآية (١٤٢) .

(٩) رواه احمد (٤/١٢٦) ، والطيالسي (١١٢٠) والطبراني في الكبير (٧١٣٩) والحاكم (٤/٣٢٩) ، وفيه شهر بن حوشب ، وهو ضعيف ، وبعضهم حسن حديثه ، وانظر " مجمع الزوائد " (١٠/٢٢١) .

نقص بذلك أجر جهاده ولم يبطل بالكلية[١] ، قال الإمام احمد : " التاجر والمستأجر والمكري ، أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم ، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله ولا يخلط به غيره[٢] .

وقال أيضاً فيمن يأخذ جعلاً على الجهاد : إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس أن يأخذ كأنه خرج لدينه فإن أعطى شيئاً أخذه[٣] .

وروى عن عبدالله ابن عمر قال : إذا أجمع أحدكم على الغزو ، فعوضه الله رزقاً ، فلا بأس بذلك ، وأما إن أحدكم إن أعطي درهماً غزا ، وإن منع درهماً مكث فلا خير في ذلك ... وهكذا يقال فيمن أخذ شيئاً في الحج ليحج به : إما عن نفسه ، أو عن غيره ، وقد روي عن مجاهد أنه قال في حج الجمال ، وحج الأجير ، وحج التاجر : هو تمام لا ينقص من أجورهم شيء ، وهو محمول على أن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب .

وأما إن كان أصل العمل لله ، ثم طرأت عليه نية الرياء ، فإن كان خاطراً ودفعه فلا يضره بغير خلاف ، وإن استرسل معه هذا الخاطر فهل يُحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته ؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام احمد وابن جرير الطبري ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك ، وأنه يجازى بنيته الأولى وهو مروي عن الحسن البصري وغيره[٤] .

قال ابن رجب : " فأما إذا عمل العمل لله خالصاً ، ثم ألقى الله له الثناء الحسن في قلوب المؤمنين بذلك ، ففرح بفضل الله ورحمته ، واستبشر بذلك ، لم يضره ذلك ، وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه سئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير ويحمده الناس عليه فقال : " تلك عاجل بشرى المؤمن "[٥] وبهذا المعنى فسره الإمام احمد واسحاق بن راهويه وابن جرير الطبري وغيرهم "[٦] .

والمقصود مما سبق أن الرياء محرم ، ينقص الأجر والثواب على العمل أو يحبطه من أساسه فلا يستحق فاعله الثواب بل يكون جزاؤه العقاب .

" وبالجملة فما أحسن قول سهل بن عبدالله التستري : ليس على النفس شيء أشق من الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب "[٧] .

وقد ورد في حديث تسمية الرياء " بالشرك الخفي أو الأصغر " ومن هنا كانت علاقة الرياء بموضوع الألوهية ، فالشرك ينافي التوحيد والرياء ينافي كمال التوحيد ، فعن أبي سعيد مرفوعاً : " ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟ قالوا : بلى ، قال : الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه "[٨]

---

(١) انظر ابن رجب : جامع العلوم والحكم (٨٢/١) .
(٢) نفسه .
(٣) نفسه .
(٤) انظر : نفسه (٨٢/١ – ٨٣) .
(٥) رواه مسلم (٢٦٤٢) ، وابن ماجه (٤٢٢٥) ، وأحمد (١٥٦/٥ ، ١٥٧ ، ١٦٨) وصححه ابن حبان (٣٦٦ ، ٣٦٧) .
(٦) جامع العلوم والحكم (٨٣/١ ، ٨٤) .
(٧) نفسه ٨٤ .
(٨) رواه احمد (٣٠/٣) .

ففي هذا الحديث سمي الرياء " بالشرك الخفي " وأما " الشرك الأصغر " فأطلق على الرياء في حديث شداد بن أوس قال : كنا نعد الرياء على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الشرك الأصغر "[١] .

٥- العدوى : وكان مما تناوله السيوطي ويتعلق بتوحيد الألوهية " العدوى " فقال في فتاويه : " ... ومنها من يعتقد أن الأمراض تعدى وهو اعتقاد فاسد ، قال – صلى الله عليه وسلم – : " لا عدوى "[٢] .

والعدوى : اسم من الإعداء ، يقال : أعداه الداء يعديه إعداءً : جاوز غيره إليه[٣] .

والعدوى : أن يكون ببعير جرب مثلاً فتتقى مخالطته بإبل أخرى حذار أن يتعدى ما به من الجرب إليها فيصيبها ما أصابه[٣] ، وقد أبطله الإسلام لأنهم كانوا يظنون أن المرض بنفسه يتعدى ، فأعلمهم النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الأمر ليس كذلك ، وإنما الله تعالى هو الذي يمرض ، وينزل الداء .

ونص الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " لا عدوى ، ولا طيرة ولا هامة ، ولا صفر "[٤]

وقوله : " ولا هامة " بتخفيف الميم على الصحيح ، وهي طائر من طير الليل كأنه يعني : البومة ، وكان أهل الجاهلية يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول : نعت إليّ نفسي أو أحداً من أهل داري[٥] وقيل : كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامه فتطير ، ويسمون ذلك الطائر : الصدى[٦] . فنفى الإسلام هذا الإعتقاد الفاسد[٧] .

وأما قوله : " لا صفر " قيل : هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس ، وهي أعدى من الجرب عند العرب ، وعلى هذا يكون المراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى ، ويكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام ، وهذا قول سفيان بن عيينه وأحمد والبخاري وابن جرير[٨] .

وقيل المراد بها : شهر صفر ، والنفي وارد على ما كان يفعله المشركون في النسيء فكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه ، وهذا قول الإمام مالك[٩] ، وقيل إن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون من شهر صفر ، روى أبو داود[١٠] عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول : إن أهل الجاهلية كانوا يستشئمون بصفر ويقولون : إنه شهر مشؤوم فأبطل النبي – صلى الله عليه وسلم – ذلك . واختار ابن رجب هذا القول ثم قال : " وكثير من الجهال يتشاءم بصفر ، وربما ينتهي عن السفر فيه والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها ، والطيرة هي التشاؤم وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام

---

(١) رواه ابن ابي الدنيا في كتاب الاخلاص ، وابن جرير في التهذيب ، والطبراني والحاكم وصححه .
(٢) الحاوي للفتاوي (٢٩٢/١) .
(٣) انظر : ابن منظور : لسان العرب (٣٩/١٥) .
(٤) البخاري انظر الفتح (٢١٤/١٠) ومسلم (١٧٤٢/٤-١٧٤٥) .
(٥) تيسير االعزيز الحميد (٤٣٢) .
(٦) به جزم ابن رجب في لطائف المعارف (١٤٧) .
(٧) تيسير العزيز الحميد (٤٣٢) .
(٨) انظر : تيسير العزيز الحميد (٤٣٣) ، لطائف المعارف (ص١٤٧) .
(٩) لطائف المعارف (ص١٤٧) ، تيسير العزيز الحميد (٤٣٣) ، وابن كثير في تفسير النسيء.
(١٠) سنن أبي داود (٣٩١٥) في الطب .

، كيوم الأربعاء مثلاً - عند البعض - وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال وخاصة في النكاح ، وكذلك الاعتقاد بأن بعض الساعات في بعض الأيام ساعات نحسة كالساعة التي قبل صلاة الجمعة ونحو ذلك ، كل ذلك من الباطل المنهي عنه .

و الكلام عن العدوى وقع فيه اشكالاً بين اعتقادات الناس في العدوى وبين النهي الشرعي عن اعتقادها أو نفيها في الحديث ، كذلك إشكال بين حديثين متعارضين في الظاهر كلاهما رواهما أبو هريرة - رضي الله عنه - فالحديث الأول هو الذي أثبته قبل قليل وهو قوله - صلى الله عليه وسلم - : " لا عدوى ، ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر " وهو حديث متفق على صحته - كما قدمت - في صحيح البخاري : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا عدوى " فقام أعرابي فقال : أرأيت الإبل تكون في الرمال أمثال الظباء فيأتيها البعير الأجرب فتجرب ، قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " فمن أعدى الأول " ورواه مسلم من طريق آخر بنحوه ، وروى البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل الصالح " " الكلمة الحسنة "[1] ورواه مسلم[2] - أيضاً - . والأحاديث في نفي العدوى كثيرة في الصحيحين والسنن وغيرهما .

وقد ورد في صحيح مسلم أن أبا هريرة كان يحدث بحديث " لا عدوى " ويحدث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أيضاً أنه قال : " لا يورد ممرض على مصح " وأمسك عن حديث : " لا عدوى " فراجعوه فيه فقالوا : سمعناك تحدثه ، فأبى أن يعترف به ، قال أبو سلمة الراوي عن أبي هريرة : فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر[3] .

وقد روى حديث " لا عدوى " جماعة من الصحابة منهم أنس بن مالك ، وجابر بن عبدالله ، والسائب ابن يزيد ، وابن عمر وغيرهم فنسيان أبي هريرة له لا يضر[4] .

وفي بعض روايات هذا الحديث : " ... وفر من المجذوم كما تفر من الأسد "[5] .

وقد اختلف العلماء في ذلك اختلافاً كثيراً :

(١) فذهبت طائفة إلى رد حديث : " لا عدوى " مستدلين بأن أبا هريرة رجع عنه ، قالوا : والأحاديث الدالة على الإجتناب أكثر ، فالمصير إليها أولى ، وهذا يعارض بأن حديث " لا عدوى " قد رواه جماعة كما تقدم غير أبي هريرة .

(٢) وذهبت طائفة أخرى إلى عكس الأولى تماماً ، ورجحوا حديث " لا عدوى " ، زيفوا ما سواه من الأخبار ، وأعلوا بعضها بالشذوذ كحديث " فر من المجذوم فرارك من الأسد " ، وبأن عائشة أنكرته ، كما روى ابن جرير عنها : أن امرأة سألتها عنه فقالت : ما قال ذلك ، ولكنهُ قال : " لاعدوى " وقال : " فمن أعدى الأول " ؟ قالت : وكان لي مولى به هذا الداء ، فكان يأكل في صحافي ، ويشرب في أقداحي ، وينام على فراشي .

وهذا الإنكار أيضاً من عائشة - رضي الله عنها - لا يضر إذ الأحاديث في الإجتناب أيضاً ثابتة ، كحديث " لاعدوى " . فلم يبق إلا الجمع .

---

(١) صحيح البخاري - كتاب الطب (٦٧) باب (٤٤) ح رقم (٥٧٥٦) ، انظر : الفتح (٢١٤/١٠)

(٢) صحيح مسلم (١٧٤٢/٤-١٧٤٣) .

(٣) نفسه السابق .

(٤) انظر : تيسير العزيز الحميد (٤٢٤) ، وفتح الباري (١٦٠/١٠) .

(٥) رواه البخاري (١٥٨/١٠) تعليقاً .

(٣) لذلك ذهبت طائفة ثالثة إلى أن لكل من الإثبات والنفي حالتين مختلفتين :

فحيث جاء : " لا عدوى " كان المخاطب بذلك من قوي يقينه ، وصح توكله بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى كما يستطيع أن يدفع التطير الذي يقع في نفس كل واحد ، لكن القوي اليقين لا يتأثر به وهذا كما أن قوة الطبيعة تدفع العلة وتبطلها . وحيث جاء الإثبات كان المراد به ضعيف الإيمان والتوكل .

قال مالك لما سئل عن حديث " فر من المجذوم " ، قال : " ما سمعت فيه بكراهية ، وما أرى ما جاء من ذلك إلا مخافة أن يقع في نفس المؤمن شيء "[١] ومعني هذا أنه نفى العدوى مطلقاً ، وحمل الأمر بالمجانبه على حسم المادة وسد الذريعة لئلا يحدث للمخاطب شيء من ذلك فيظن أنه بسبب المخالطة فيثبت العدوى التي نفاها الشارع .

وإلى هذا ذهب أبو عبيد وابن جرير والطحاوي وذكره القاضي أبو يعلى عن احمد[٢]

(٤) وذهب البيهقي إلى أحسن من هذا كله ، وتبعه ابن الصلاح ، وابن القيم ، وابن رجب ، وابن مفلح وغيرهم :

وهو أن قوله – صلى الله عليه وسلم – : " لا عدوى " على الوجه الذي كانوا يعتقدونه في الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى وأن هذه الأمراض تعدى بطبعها ، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من هذه العيوب سبباً لحدوث ذلك ، ولذلك قال : " فر من المجذوم كما تفر من الأسد " وقال : " لا يورد ممرض على مصح " [٣] وقال في الطاعون : " إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوها "[٤] وكل ذلك بتقدير الله تعالى كما قال : " فمن أعدى الأول "[٥] يشير إلى أن الأول إنما جرب بقضاء الله وقدره فكذلك الثاني وما بعده .

وقد ورد عن ابن مسعود مرفوعاً : " لا يعدى شيء " قالها ثلاثاً فقال الأعرابي : يا رسول الله ، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " فمن أجرب الأول ؟ لا عدوى ، ولا هامة ، ولا صفر ، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصابها ورزقها "[٦] فأخبر – صلى الله عليه وسلم – أن ذلك كله بقضاء الله وقدره كما دل عليه قوله تعالى : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها)[٧] .

وأما أمره بالفرار من المجذوم ، ونهيه عن إيراد الممرض على المصح ، وعن الدخول إلى موضع الطاعون ، فإنه من باب اجتناب الأسباب التي خلقها الله تعالى ، وجعلها أسباباً للهلاك والأذى ، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية ، فكما أنه يؤمر أن لا يلقى بنفسه في الماء أو في النار أو تحت الهدم أو نحو ذلك كما جرت العادة بأنه يهلك أو يؤذى ، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم ، وقدوم بلد الطاعون ، فإن هذه الأسباب كلها أسباب للمرض والتلف ،

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٥) ، وانظر الفتح (١٠/١٦٢) .

(٢) تيسير العزيز الحميد (٤٢٥) ، وانظر : الفتح (١٠/١٦٢) .

(٣) صحيح البخاري (١٠/٢٤١) فتح ، ومسلم برقم (٢٢٢١) .

(٤) صحيح مسلم (رقم ٢٢١٨) ، (٢٢١٩) ، والبخاري (١٠/١٧٨-فتح) .

(٥) صحيح البخاري (١٠/١٧١-فتح) ومسلم (٤/١٧٤٢-١٧٤٣) .

(٦) رواه احمد (١/٤٤٠) ، والترمذي رقم (٢١٤٣) ، والطحاوي في شرح المعاني (٤/٣٠٨) واسناده صحيح ، انظر : المنهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد : تصنيف أبي سليمان جاسم الفهيد الدوسري (ص ١٥٤) .

(٧) سورة الحديد الآية (٢٣) .

والله تعالى هو الخالق للأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر غيره[١] .

وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره ، فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاء منه أن لا يحصل به ضرر ، ففي هذه الحالة تجوز مباشرة ذلك لا سيما إذا كانت فيه مصلحة عامة أو خاصة .

٦- زجر الطير والكهانة :

وقد تعرض السيوطي لمسألة زجر الطير والكهانة وقرر أنها من المحرمات التي لا يجوز فعلها ، فعند تفسيره قوله تعالى : (وأن تستقسموا بالأزلام ...)[٢] قال : " تستفعلوا وهو طلب ما قسم له ، وذلك أنهم كانوا يكتبون على الأزلام وهي السهام ، على أحدها : أفعل ، وعلى الآخر : لا تفعل ، والثالث : مهمل ، فإذا أراد الإنسان أن يفعل أمراً جعلها في خريطة وأدخل يده وأخرج أحدها ، فإن خرج الذي فيه أفعل فعل وإن خرج المهمل أعاد الضرب[٣] .

وقد شدد ابن العربي في النظر في شيء منها حتى جعلها من الكفر والعياذ بالله[٤] ، مستدلاً بالآية (ذلكم فسق)[٥] وإنما حرمه الله وجعله فسقاً لأنه دخول في علم الغيب الذي انفرد الله به ، فهو كالكهانة وغيرها لما يرام به من الاطلاع على الغيوب "[٦] . ومن رام الاطلاع على الغيوب فقد رام مستحيلاً واقترف شركاً وبيلاً .

يقول السيوطي في قوله تعالى : (قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ...)[٧] يقول : " سبب نزول هذه الآية ، أن قريشاً سألوه - صلى الله عليه وسلم - متى الساعة ؟ فأخبره الله بعدم علمها[٨] ، ولذلك قالت عائشة - رضي الله عنها - : " من زعم أن محمداً يعلم الغيب فقد أعظم الفرية على الله "[٩] إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - حقاً لا يعلم الغيب فعلم ذلك الغيب المطلق من صفات الله عز وجل ، (عالم الغيب)[١٠] إنه تعالى يعلم الغيب ، ولا يطلع على غيبه أحداً من خلقه[١١] ، إلا من شاء الله تعالى أن يطلعه على شيء من الغيب من أنبيائه ورسله آية لهم على صدقهم وتثبيتاً لهم وإقامة للحجة على المخالفين ، كما قال تعالى : (إلا من ارتضى من رسول)[١٢] .

والسعي وراء معرفة الغيب هو الكهانة التي كانت كثيرة جداً في الجاهلية حتى إنهم لم يكونوا يفعلون شيئاً ذا بال إلا بعد سؤال الكهان ، إذن فالكهانة : هي ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الإستناد إلى سبب . والأصل

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٢٦) ، فتح المجيد (٢٧٦) .

(٢) سورة المائدة الآية (٣) .

(٣) السيوطي : معترك الأقران (٩٩/٢) ، وانظر : ابو بكر محمد بن عبدالله ابن العربي : أحكام القرآن (٥٤٥/٢) ت . علي محمد البجاوي - دار المعرفة بدون تاريخ ولا طبعة ، وانظر : ابو المظفر السمعاني (١٠/٢) ت . ابي تميم ياسر بن ابراهيم ، ابي بلال غنيم دار الوطن ط (١/ ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م) .

(٤) هذا من كلام السيوطي ولم أجد هذا التشديد عند ابن العربي في احكام القرآن .

(٥) سورة المائدة الآية (٣) .

(٦) السيوطي : معترك الأقران (٩٩/٢) .

(٧) سورة النمل الآية (٦٥) .

(٨) معترك الأقران (٣٨٧/٢) ، ولم اجد سبب النزول هذا في كتب التفسير التي بين يدي ولا حتى في لباب النقول الذي وضعه السيوطي - ولا الواحدي .

(٩) رواه مسلم في صحيحه (١٥٩/١) رقم (١٧٧) .

(١٠) سورة الرعد بعض الآية (٩) ، سورة المؤمنون بعض الآية (٩٢) ، سورة السجدة بعض الآية (٦) .

(١١) انظر ابن كثير (٢٧٣/٨) .

(١٢) سورة الجن ، بعض الآية (٢٧) .

فيه استراق الجن السمع من كلام الملائكة فتلقيه في أذن الكاهن ، والكاهن : لفظ يطلق على العراف والذي يضرب الحصى والمنجم ، وقال في المحكم : الكاهن القاضي بالغيب ، وقال الخطابي : الكهان - فيما علم بشهادة الإمتحان - : قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة ، وطبائع نارية ، فهم يفزعون إلى الجن في أمورهم ، ويستفتونهم في الحوادث فيلقون إليهم الكلمات[1] .

لقد أكد السيوطي على عدم امكان علم الغيب لغير الأنبياء كما قدمت[2] ، أما هؤلاء الكهان والمنجمون فهم طواغيت ضلالة ، لكن السيوطي ينبه على أن هؤلاء الكهان حتى ولو أخبروا بشيء من المغيبات فإن إخبارهم يكون عن ظن ضعيف أو عن وهم لا عن علم يقيني قال السيوطي : " فإن قلت : قد ظهر من أخبار الكهان والمنجمين ما وقع وظهر صدقهم : والجواب : أن إخبارهم بذلك عن ظن ضعيف أو عن وهم لا عن علم ولا يجب تصديقهم لأن الآية نفت علمهم ، وإنما يجب علينا تصديق الرسل ، لأنه علم إلهي ... ورضي الله عن بعض العلماء لما دخل على بعض الملوك ، ووجده متحيراً ، فقال له : مالك فقال له : رأيت البارحة ملك الموت في المنام وسألته : كم بقي من عمري فأشار لي بأصابعه الخمسة ولا أدري هل هي خمس ساعات أو أيام أو جمعات أو أشهر أو سنين ؟؟ فقال له : إنما أشار لك بالخمس إلى الحديث في : خمس لا يعلمهن إلا الله ثم قرأ : (إن الله عنده علم الساعة ...) الآية[3] ، فهدأ روعه ، وإن كان ملك الموت الموكل بقبض الأرواح لا يدري عمر العبد حتى يؤمر بقبض روحه ، فما بالك بمن افترى على الله ، ورحم الله القائل :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع[4]

وكلام السيوطي حق يؤيده قوله - صلى الله عليه وسلم - " من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً "[5] .

وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - "[6] .

وعن عمران بن حصين مرفوعاً : " ليس منا من تطير أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر له ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - "[7] .

قال شارح الطحاوية : " ولا تصدق كاهناً ، ولا عرافاً ولا من يدعى شيئاً يخالف الكتاب والسنة واجماع الأمة "[8]

أما صاحب " سلم الوصول " فقد قال :" ومن يصدق كاهناً فقد كفر ... بما أتى به الرسول المعتبر "[9] .

---

(١) تيسير العزيز الحميد (٤٠٦) .
(٢) انظر : معترك الأقران (٣٨٧/٢) .
(٣) سورة لقمان الآية (٣٤) .
(٤) معترك الاقران (٣٨٧/٢ - ٣٨٨) .
(٥) اخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب السلام ، باب تحريم الكهانة واتيان الكهان (١٧٥١/٤) ح رقم (٢٢٣٠) .
(٦) اخرجه احمد (٤٠٨/٢ ، ٤٢٩ ، ٤٧٦) ، وأبو داود في سننه كتاب الطب في باب الكاهن (١٥/٤) ح رقم (٣٩٠٤) ، والترمذي في سننه كتاب الطهارة باب في كراهية اتيان الحائض (٢٤٢/١) ح رقم (١٣٥) ، واسناد هذا الحديث صحيح على شرط البخاري ، قال العراقي في اماليه حديث صحيح وتابعه الألباني - شرح الطحاوية ص (٥٦٦) ، وقال الذهبي : اسناده قوي وتابعه الأرناؤوط ايضاً في شرح الطحاوية بتحقيقه ص (٤٤١) .
(٧) تيسير العزيز الحميد (٤١٠) وما بعدها رواه الترمذي باسناد جيد ، ورواه الطبراني باسناد حسن من حديث ابن عباس .
(٨) شرح العقيدة الطحاوية ص (٥٦٦) ، ت الألباني .
(٩) معارج القبول (٥٣٠/١) .

الفصل الرابع

توحيد الأسماء والصفات

تمهيد:

ارتكز في جميع الفطر السليمة ثبوت الكمال المطلق لله جل وعلا ، فكل من عرف الله تعالى عرف له ذلك الكمال ، وإن الفطر النظيفة التي لم تتنجس بأدران البدع والتعطيل تقر للرب جل وعلا بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا وتعبده وتدعوه بها .

كما أن صفات الكمال الإلهية تعود إلى الأمور الوجودية لا العدمية ، فإن نفاة الصفات يصفون الله جل وعلا بالسلوب والإضافات[1] ولا يصفونه بصفاته الثبوتية إلا نادراً وبعضهم لا يصفه بشئ منها .

" وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثل الأعلى[2] فقال تعالى : (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى)[3] وقال تعالى : (وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)[4] فجعل سبحانه مثل السوء – المتضمن للعيوب والنقائض وسلب الكمال – لأعدائه المشركين وأوثانهم ، وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى ، وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية ، والمعاني الثبوتية ، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل ، كان بها أكمل وأعلى من غيره "[5] .

إن صفات الله – جل وعلا – لما كانت أكثر وأكمل ، كان له – جل وعلا – المثل الأعلى وكان هو سبحانه أحق به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان ، لأنهما إن تكافآ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن لم يتكافآ فالموصوف به أحدهما وحده ، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير ، وهو الله جل في علاه[6] .

المبحث الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات

وعلى ضوء ما سبق فإنه يجب على كل مسلم أن يقر بل يؤمن إيماناً راسخاً بتوحيد الأسماء والصفات وهو : الإقرار والإعتراف الجازم بكل ما ورد في كتاب الله ، وما ورد في سنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – الصحيحة ، من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، وإثبات ما أثبته الله لنفسه من صفاته الكريمة ، لأنه لا يصف الله أعلم

---

(١) انظر : ابن تيمية : الفتوى الحموية الكبرى (ص٢٠) بمقدمة محمد عبدالرزاق حمزة ، ط المدني – القاهرة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .

(٢) ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص/١٤٤) – ت الألباني ط٦ المكتب الاسلامي .

(٣) سورة النحل الآية (٦٠) .

(٤) سورة الروم الآية (٢٧) .

(٥) ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص/١٤٤) ، ت الألباني ط٦ المكتب الإسلامي ، وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (١٦/١٠٤-١٠٥) . وانظر : الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم (٣/١٠٣٠-١٠٣١) ، د.علي بن محمد الدخيل الله – دار العاصمة بالرياض النشرة الأولى ١٤٠٨هـ .

(٦) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (١٤٤) ألباني ، وابن القيم : الصواعق المرسلة (٣/١٠٣٢،١٠٣١) ، ت.د. علي بن محمد الدخيل الله .

بـــالله مـــن الله ، قال تعالى : (أأنتم أعلم أم الله)[١] وما أثبته له رسوله – صلى الله عليه وسلم – الذي قال فيه ربه – جل وعـــلا – : (وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى)[٢] . وأن تُثبت هذه الصفات العلية لله على الوجه الذي يليق بكمالـــه وجماله وجلاله ، من غير تعطيل ، ولا تحريف ، ولا تمثيل ، ولا تكييف[٣] ، إيماناً بقوله جل وعلا عن نفسه : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)[٤] .

قـــال شيخ الإسلام ابن تيمية : " ومن الإيمان بالله : الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، وبما وصفه به رسوله محمـــد – صـــلى الله عليه وسلم – من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل بل يؤمنون بأن الله سبحانه (ليـــس كمثله شئ وهو السميع البصير)[٥] فلا ينفون عن ما وصف به نفسه ، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه ولا يلحدون فـــي أسماء الله وآياته ، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، لأنه سبحانه لا سمي له ، ولا كفوء له ، ولا ند له ، ولا يقـــاس بخـــلقه سبحانه وتعالى ، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلاً وأحسن حديثاً من خلقه "[٦] وقال صاحب كـــتاب " تيسير العزيز الحميد " في تعريف توحيد الأسماء والصفات : " هو الإقرار بأن الله بكل شئ عليم ، وعلى كل شئ قدير وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، له المشيئة النافذة ، والحكمة البالغة ، وأنه سميع بصير ، رؤوف رحيم ، عـــلى العرش استوى ، وعلى الملك احتوى ، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى ، والصفات العلى "[٧] يقول ابن رجب : " وأما وصف النبي – صلى الله عـــليه وســـلم – لـــربه – عز وجل – بما وصفه به ، فكل ما وصف النبي – صلى الله عليه وسلم – به ربه فهو حق وصدق ، يجب الإيمان والتصديق به ، كما وصف الله – عز وجل – به نفسه ، مع نفي التمثيل عنه "[٨] .

فتوحيد الأسماء والصفات إذاً : هو إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العليا معرفةً وإثباتاً وإقراراً وتصديقاً ، وتـــنزيهه تعـــالى عن كل ما يضاهيه ويشابهه ، وينافي كماله وجلاله وعظمته ، وذلك بالانتهاء إلى ما انتهى إليه الكتاب والسنة والوقوف عنده ، وعدم تجاوزه إلى غيره .

يقول ابن أبي زمنين[٩] : " وأعلم أن أهل العلم بالله ، وبما جاءت به أنبياؤه ورسله ، يرون الجهل بما لم يخبر به – تـــبارك وتعـــالى – عن نفسه علماً ، والعجز عما لم يدع إليه إيماناً ، وأنهم إنما ينتهون من وصفه بصفاته وأسمائه إلى

---

(١) سورة البقرة الآية (١٤٠) .

(٢) سورة النجم الآية (٣،٤) .

(٣) انظـــر : ابـــن تيميـــة : العقيـــدة الواسطية (ص/٢٢-٢٨) مع شرحها للشيخ هراس ، والفتوى الحموية (ص/٣١-٣٢) ، د. البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص/٩٠) ، الشيخ عبدالرحمن الدوسري : الأجوبة المفيدة المهمات العقيدة (ص/١٧) ط١/١٤٠٢هـــ-١٩٨٢م ، مكتبة دار الأرقم – الكويت .

(٤) سورة الشورى ، بعض الآية (١١) .

(٥) العقيدة الواسطية (ص/٨-٩) . زهير الشاويش ط١/١٤٠٥هـــ-١٩٨٤م – المكتب الإسلامي .

(٦) نفسه السابق .

(٧) الشيخ سليمان بن عبدالله : تيسير العزيز الحميد (ص/٣٤،٣٥) .

(٨) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى (ص/٤٠-٤١) .

(٩) هـــو : أبـــو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى المرى الأندلسي ، فقيه مالكي ، من الوعاظ الأدباء والمشايخ الفضلاء ، ولد سنة ٣٢٤هـــ وتوفي سنة ٣٩٩هـــ . انظر : ترتيب المدارك (١٨٣/٧) ، بغية الملتمس (ص/٨٨،٨٧) ، الديباج المذهب (٢٣٢/٢-٢٣٤) .

حيث انتهى في كتابه وعلى لسان نبيه "[١] - صلى الله عليه وسلم - .

وهنا وأنا بصدد بيان مسلك السيوطي في الأسماء والصفات أقول : إن السيوطي في باب الأسماء قد أثبت الوارد مـن أسماء الله الحسنى إثباتاً شرعياً صحيحاً موافقاً لأهل السنة والجماعة . وأما الصفات فله فيها مخالفة لمنهج أهل السنة سأبينه - إن شاء الله تعالى - قريباً .

المبحث الثاني : منهج السيوطي في توحيد الأسماء والصفات

المطلب الأول : الكلام عن ذات الله تعالى

قـال السيوطي : " وذاته تعالى مخالفة لسائر الذوات مخالفة مطلقة ، لا يشاركها شئ في حقيقتها ولا في صفاتها ولا في أفعالها "[٢] .

وقد ورد اطلاق لفظ " الذات " في صحيح البخاري في قصة خبيب - رضي الله عنه - عندما أراد المشركون أن يقتلوه ، وخرجوا به من الحرم قال خبيب - رضي الله عنه - :

ولست أبالي حين اقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع[٣]

وهذا قد ترجم عليه البخاري فقال : " باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل ، وقال خُبيب : وذلك في ذات الإله ، فذكر الذات باسمه تعالى "[٤] .

وروى البخاري أيضاً في صحيحه قول أبي هريرة - رضي الله عنه - : " لم يكذب إبراهيم - عليه السلام - إلا ثلاث كذبات : ثنتين منهن في ذات الله عز وجل ... " إلخ[٥]

وقصة خبيب استدل بها السيوطي على صحة ما ذهب إليه من اطلاق لفظ الذات على الله - عز وجل - فقال : " ذاته مخالفة لسائر الذوات - جل وعلا - وعدلت عن قول ابن السبكي[٦] في " جمع الجوامع " حقيقته مخالفة لسائر الحقائق ، لأن ابن الزملكاني[٧] قال : يمتنع اطلاق لفظ الحقيقة على الله تعالى ، قال ابن جماعة[١] : لأنه لم يرد ، وقد ورد اطلاقه

---

(١) أصـول السنة (١٧٩/١) رسالة ماجستير قدمها الطالب محمد إبراهيم هارون للجامعة الإسلامية عام (١٤٠٣-١٤٠٤هـ) ، وفي كتاب التمهيد لابن عبدالبر كلام نحو كلام ابن أبي زمنين انظره (١٤٦/٧-١٤٧) .

(٢) الكوكب الساطع في شرح نظم جمع الجوامع - مخطوط لوحة رقم (١٦١/أ) - رقم المخطوط (١٣٣٠) - بجامعة الرياض ، يقوم بتحقيقها الآن الزميل حسان فلمبان - بجامعة أم القرى بمكة .

ونحو هذه العبارة التي ذكرها السيوطي عند الايجي في المواقف انظر (ص/٣٦٩) - مكتبة المتنبي - القاهرة .

(٣) صحيح البخاري - كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٤) ح رقم (٧٤٠٢) انظر الفتح (٣٨١/١٣) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق (٣٨٨/٦) - كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٨) ح رقم (٣٣٥٨) ، ورواه مسلم أيضاً ولكن بدون ذكر لفظة " ذات الله " انظر صحيح مسلم (١٨٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٨٤) ح رقم {٣٢٧-(١٩٤)} .

(٦) عـبدالوهاب بـن عـلي بـن عـبدالكافي السـبكي ، أبـو نصـر ، تـاج الديـن ، قاضـي القضـاة المـورخ ، ولد في القاهرة (٧٢٧هـ-١٣٢٧م) ثم انتقل إلى دمشق وتوفي بها (٧٧١هـ-١٣٧٠م) ونسبته إلى سبك من أعمال المنوفيه بمصر ، ، انظر : جلاء العينين (١٦) ، الدرر الكامنة (٤٢٥/٢) ، وحسن المحاضرة (١٨٢/١) ، الاعلام (١٨٤/٤) .

(٧) محمـد بـن علي بن عبدالواحد الأنصاري ، كمال الدين المعروف بابن الزملكاني فقيه شافعي ، ولد بدمشق (٦٦٧هـ-١٢٦٩م) ، وتوفي ودفن بالقاهرة (٧٢٧هـ-١٣٢٧م) انظر : جلاء العينين (١٧) ، فوات الوفيات (٢٥٠/٢) ، طبقات السبكي (٢٥١/٥) والاعلام (٢٨٤/٦) .

عليه[2] تعالى ، ففي البخاري في قصة خبيب من قوله : وذلك في ذات الإله "[3] .

ومعنى كلام ابن الزملكاني وابن جماعة أن اطلاق لفظ الحقيقة على الله تعالى لم يرد في النصوص الشرعية ، ولذلك لا يجوز اطلاقه عليه سبحانه وتعالى ، أما لفظ الذات فقد ورد اطلاقه كما قدمت من نصوص عن خبيب وأبي هريرة - رضي الله عنهما - .

قال الحافظ ابن حجر : " قوله[4] : باب ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله عز وجل ، أي ما يذكر في ذات الله ونعوته من تجويز إطلاق ذلك كأسمائه "[5] .

وفي بعض مجالس المناظرة بين شيخ الإسلام ابن تيمية ، وبعض علماء عصره ، قال ابن تيمية : بعد أن أجاب المناظرين لـه عمن حكى مذهب السلف من العلماء : " وأن الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ، يحتذى فيه حذوه ، ويتبع فيه مثاله ، فإذا كان إثبات الذات إثبات وجود لا اثبات كيفية ، فكذلك إثبات الصفات ، إثبات وجود لا اثبات كيفية "[6] .

وقـال أيضاً في موضع آخر : " القول في الصفات ، كالقول في الذات فإن الله ليس كمثله شئ لا في ذاته ولا في صـفاته ، ولا فـي أفعالـه ، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذوات ، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل سائر صفات الـذوات "[7] فهذا فيه دلالة على جواز اطلاق لفظ " الذات " ، وكذلك قال ابن حجر : " قلت : وظاهر لفظه أن مراده أضاف اسم الذات إلى اسم الله تعالى ، وسمعه النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم ينكره ، فكان جائزاً "[8] ثم قال ابن حجر - رحمـه الله تعـالى - : " وقـد تـرجم الـبيهقي فـي الأسـماء والصـفات مـا جـاء فـي الـذات[9] ، وأورد حديث أبي هريرة المتفق عليه في ذكر ابراهيم - عليه السلام - " إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله " ... وحديـث أبـي هريـرة المذكور في الباب[10] ، وحديث ابن عباس " تفكروا في كل شئ ولا تفكروا في ذات الله "[11] موقوف وسنده جيد .

---

(١) محمد بن أبي بكر بن عبدالعزيز بن محمد ، أبو عبدالله ، عز الدين الكناني ، الحموي ، ثم المصري ، الشافعي ، المعروف بابن جماعة ، مولده بينبع (٧٤٩هـ-١٣٤٨م) انتقل إلى القاهرة وتتلمذ لإبن خلدون وتوفي فيها بالطاعون (٨١٩هـ-١٤١٦م) .

انظر : حسن المحاضرة (٢٣٦/١) ، بغية الوعاة (٢٥) ، الضوء اللامع (١٧١/٧-١٧٤) شذرات الذهب (١٣٩/٧) ، الاعلام (٥٧/٦) .

(٢) يقصد لفظ " الذات " كما يبينه كلامه الذي بعده .

(٣) رسالة في علم التوحيد من دراية جلال الدين السيوطي (ص٣) .

(٤) يعني قول الإمام البخاري في صحيحه .

(٥) فتح الباري (٣٨١/١٣) .

(٦) العقيدة الواسطية (ص/٩٤) ت زهير الشاويش ، وانظر : عبدالعزيز المحمد السلمان : الكواشف الجلية عن معاني الواسطية (ص/٤٣٠) .

(٧) التدمرية (ص/٤٣) ت. محمد بن عودة السعوي ط١٤٠٥/١هـ-١٩٨٥م) .

(٨) فتح الباري (٣٨٢/١٣) .

(٩) انظر : الاسماء والصفات (٦/٢) ، وانظر الكوكب الساطع - مخطوط لوحة رقم (١٦١/ب) .

(١٠) الذي فيه قصة خبيب - رضي الله عنه - .

(١١) قـال ابن حجر : " موقوف وسنده جيد " ما نقلته في المتن ، والحديث له حكم الرفع وقد روى مرفوعاً ، قال السخاوي : اخرجه ابن أبي شيبة في العرش من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس به ، ورواه الأصبهاني في ترغيبه ، ثم أبو نعيم في الحلية من حديث اسماعيل بن عباس عن الأحـوص بـن حكيم عن شهر عن ابن عباس ، وفيه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله " قال السـخاوي وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكتسب قوة ، والمعنى صحيح ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعاً " لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل : آمنت بالله " انظر : فتح الباري (٣٨٣/١٣) ، والمقاصد الحسنة (ص/١٥٩) ، والترغيب والترهيب للأصبهاني (٢٨٧/١-٢٨٨) ح رقم (٦٤١) ، وحلية الأولياء (٦٧/٦) ، ومجمع الزوائد (٨١/١) ، وشعب الإيمان للبيهقي (١٣٦/١) ح رقم (١٢٠) .

قال السيوطي : " وقال حسان[1] بحضرة النبي – صلى الله عليه وسلم – :

وإن أخا الأحقاف إذ قام فيهم   يجاهد في ذات الإله ويعدلُ "[2]

ويـــبين ابن تيمية أصل دخول كلمة " الذات " في اصطلاحات علماء الكلام فيقول : " ...وأما لفظ " الذات " فإنها في اللغة تأنيث ذو ، وهذا اللفظ يستعمل مضافاً إلى اسماء الأجناس ، يتوصلون به إلى الوصف بذلك ، فيقال : شخص ذو علم وذو مال وشرف ، ويعني حقيقته ، أو عين ، أو نفس ذات علم وقدرة وسلطان ونحو ذلك .

وقد يضاف إلى الأعلام كقولهم : ذو عمرو ، وذو الكلام ، وقول عمر : " الغنى بلال وذووه " .

فلما وجدوا الله قال في القرآن : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك... "[3] ، (...ويحذركم الله نفسه...)[4] ، و (...كتب على نفسه الرحمة...)[5] : وصفوها فقالوا : نفس ذات علم وقدرة ، ورحمة ، ومشيئة ونحو ذلك ، ثم حذفوا الموصـــوف وعرفوا الصفة فقالوا : الذات ، وهي كلمة مولدة ، ليست قديمة ، وقد وجدت في كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – والصحابة ، لكن بمعنى آخر ، مثل قول خبيب الذي في صحيح البخاري :

وذلك في ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو ممزع[6]

وفي الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، كلهن في ذات الله... "[7] .

وعن أبي ذر : " كلنا أحمق في ذات الله " ، وفي قول بعضهم : أصبنا في ذات الله ، والمعنى في جهة الله وناحيته أي لأجل الله ولابتغاء وجهه ، ليس المراد بذلك النفس ، ونحوه في القرآن : (فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم)[8] وقوله : (علِم بذات الصدور)[9] أي الخصلة والجهة التي هي صلة بينكم ، وعلِم بالخواطر ونحوها التي هي صاحبة الصدور .

فاســـم " الـــذات " في كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – والصحابة والعربية المحضة : بهذا المعنى ، ثم أطلق المتكـــلمون وغيـــرهم على " النفس " بالاعتبار الذي تقدم ، فإنها صاحبة الصفات ، فإذا قالوا الذات فقد قالوا التي لها الصفات ، وقد روى في حديث مرفوع وغير مرفوع " تفكروا في آلاء الله ، ولا تتفكروا في ذات الله "[10] فإن كان هذا الـــلفظ أو نظيره ثابتاً عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه ، فقد وجد في كلامهم اطلاق اسم " الذات " على النفس كما يطلق المتأخرون "[11] .

---

(١) هـــو الصـــحابي الجـــليل حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي ، الأنصاري ، أبو الوليد ، شاعر النبي – صلى الله عليه وسلم – توفي بالمدينة المنورة (٥٤هــ-٦٧٤م) . انظر : تهذيب التهذيب (٢٤٧/٢) ، والإصابة (٣٢٦/١) ، وابن عساكر (١٢٥/٤) ، والشعر والشعراء (١٠٤) .

(٢) الكوكب الساطع (١٦١/ب) ، وانظر : فتح الباري (٣٨٣/١٣) .

(٣) سورة المائدة ، بعض الآية (١١٦) .

(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٠) .

(٥) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٢) .

(٦) انظر : فتح الباري (٣٨١/١٣) ح رقم (٧٤٠٢) .

(٧) سبق تخريجه وهو متفق عليه ، انظر : فتح الباري (٣٨٨/٦) ، وصحيح مسلم (١٨٤/١).

(٨) سورة الأنفال ، بعض الآية (١) .

(٩) ســـورة آل عمران بعض الآية (١١٩) ، (١٥٤) ، والمائدة بعض الآية (٧) ، الأنفال بعض الآية (٤٣) ، وهود بعض الآية (٥) ولقمان بعض الآية (٢٣) ، وفاطر بعض الآية (٣٨) ، والزمر بعض الآية (٧) ، والشورى بعض الآية (٢٤) ، والحديد بعض الآية (٦) ، والملك بعض الآية (١٣) .

(١٠) سبق تخريجه ، انظر : (ص/١٩) .

(١١) مجموع الفتاوى (٣٤١/٦-٣٤٢) وانظر نفسه (ص/٩٩-١٠٠) .

المطلب الثاني : أسماؤه تعالى توقيفية

مـــن الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة أن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية ، لا مجال فيها لتدخل العقل بنفي ما ورد في النصوص الصحيحة ، أو اثبات ما لم يرد فيه نص ، بل ذلك موقوف على نصوص الكتاب وصحيح السنة ، ولا يؤخذ ولا يتلقى إلا من جهة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يوحي به الله إليهم ، فما جاء من ذلك مثبتاً يجب علينــا إثــباته والإيمـــان بـــه وفق ما وردت به نصوص الوحيين ، وما جاء منفياً وجب نفيه ، وما سكت عنه وجب علينا السكوت عنه وعدم الخوض فيه .

وليس لعقل بشري - مهما بلغ من القوة والعلم والنباهة - أن يجتهد في اختراع أسماء وصفات لله جل وعلا ، إذ كـــان العقـــول قاصـــرة عن إدراك ذلك ، ولا يمكنها معرفة ما يستحقه الباري جل وعلا من الأسماء والصفات بحال من الأحـــوال ، إن ذلك لباب عظيم القدر ، عزيز المنال ، غير مظفور به ، ولا مطموع فيه ، ولا موصول إليه ، فعظمته جل وعلا فوق كل عظمة ، وقدرته فوق كل قدرة ، وشأنه أعظم من أي شأن ، فالقول فيه من غير طريق الوحي خبط تائه في دياجير الحلل ، وتقول على الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وقد صرح السيوطي بأن أسماء الله تعالى توقيفية فقال وهو يتكلم عن اطلاق اسم " الصانع " عليه سبحانه وتعالى فقال : " اشتهر عند المتكلمين اطلاق الصانع عليه تعالى ، واعترض بأنه لم يرد ، وأسماؤه تعالى توقيفية ، وأجاب السبكي بأنه قرئ شاذاً (...صنعة الله...)[١] فمن اكتفى في الاطلاق بورود الفعل اكتفى بذلك .

وأجـــاب غيـــره بأنه مأخوذ من قوله (صنع الله)[٢] "[٣] فهذا تصريح من السيوطي بالتوقيف في أسمائه تعالى ، وأتى بمثال من الأسماء التي لم يرد ذكرها في النصوص الشرعية ، وهو اسم " الصانع " ولكنه قال : " وقد ظفرت بحديث صحيح ورد فيه اطلاقه عليه وهو ما أخرجه الحاكم ، والبيهقي وغيرهما .

مـــن حديـــث حذيفة مرفوعاً : " إن الله صانع كل صانع وصنعته "[٤] قال النووي : " وأسماء الله تعالى توقيفية لا تطلق إلا بدليل صحيح "[٥] ويقول ابن القيم : " ما يطلق على الله في باب الأسماء والصفات توقيفي "[٦] .

ويقول ابن حجر : " قال الفخر : المشهور عن أصحابنا أنها توقيفية ... وقال أبو القاسم القشيري : الأسماء تؤخذ توقيفاً من الكتاب والسنة والاجماع "[٧] .

---

(١) ســـورة الـــنمل ، بعض الآية (٨٨) ، وهي قوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون)

وجواب السبكي يوحي بجواز اشتقاق اسم " الصانع " لله تعالى من هذا المصدر (صنعة) الله ، فمادامت صنعته فهو صانعها - جل وعلا - وهذا لا يجوزه أهل السنة بل يكتفون في إطلاق الأسماء على ما ورد به السمع في القرآن والسنة الصحيحة .

(٢) سورة النمل ، بعض الآية (٨٨) .

(٣) الكوكب الساطع - مخطوط - لوحة رقم (١٦١/ب) ، وكذلك رسالة في علم التوحيد - مخطوط - لوحة رقم (٢) .

(٤) الكوكب الساطع لوحة رقم (١٦١/ب) وكذلك رسالة في علم التوحيد ، لوحة رقم (٢) ، وانظر في توقيف الأسماء لله تعالى : عضد الدين الايجي : المواقف (ص/٣٣٣) .

(٥) شرح صحيح مسلم (١٨٨/٧) وانظر : تهذيب الأسماء واللغات (١٢٧/٣) ، وتحرير ألفاظ التنبيه (ص/١٢٣) والأذكار (٣٤٣) .

(٦) بدائع الفوائد (١٦٢/١) .

(٧) فتح الباري (٢٢٣/١١) .

وقال السفاريني :

" لكنها في الحق توقيفية   لنا بـذا أدلـة وفيـة "[١]

وقال في شرحه لذلك : " الجمهور منعوا إطلاق ما لم يأذن به الشرع مطلقاً ، وجوزه المعتزلة مطلقاً ، ومال إليه بعض الأشاعرة كالقاضي أبي بكر الباقلاني ، وتوقف إمام الحرمين الجويني ، وفصل الغزالي فجوز اطلاق الصفة ، وهي ما دل على معنى زائداً على الذات ومنع اطلاق الاسم وهو ما يدل على نفس الذات واحتج للقول المعتمد أنها توقيفية بأنه لا يجوز أن يسمى النبي – صلى الله عليه وسلم – بما ليس من أسمائه فالباري أولى "[٢] .

والحـق لديّ في هذه المسألة هو رأيُ الجمهور الذي حكاه السفاريني وهو المنع من اطلاق ما لم يأذن الشرع مطلقاً وذلك لأمور منها :

أولاً : أن إباحة ذلك قول على الله بغير علم ، ورجم بالغيب ، وقد حرم الله تعالى ذلك فقال جل وعلا : (أتقولون على الله مـا لا تعـلمون)[٣] وسماه إلحاداً فقال : (...وذروا الذين يلحدون في أسمائه...)[٤] كما سماه هوى وجعله سبباً للضلال فقـال تعالى : (...وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم...)[٥] وسماه تعالى كذلك افتراء وكذباً ووصم صاحبه بأنه أظلم النـاس ، فقال – جل وعلا – : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم)[٦] كما أن الله تعالى قد نهانا عن ذلك نهياً صريحاً فقال تعالى : (ولا تقف ما ليس لك به علم)[٧] .

ثانيـاً : أنه تشريع في الدين بما لم يأذن به الله تعالى ، وهو في حقيقته ابتداع كما قال جل شأنه : (أم لهم شركاء شرعوا لهـم مـن الدين ما لم يأذن به الله ، ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ، وإن الظالمين لهم عذاب أليم)[٨] قال ابن جرير : " ابـتدعوا لهم من الدين ما لم يبح الله لهم ابتدعوا "[٩] ولا شك أن ذلك الابتداع ظلم ، ولذلك قال تعالى : (وإن الظالمين لهم عذاب أليم)[١٠] .

ثالثاً : أنه تقديم بين يدي الله تعالى ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وقد نهينا عن ذلك كما في قوله جل وعلا : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله...)[١١] .

وكيف يجيب العبد إذا حاسبه ربه يوم القيامة عن وصفه ربه تعالى بما لم يصف الله تعالى به نفسه ؟؟ .

رابعـاً : أن اسـماء الله – تعالى – حسنى ومهما اجتهد العبد فإنه لن يوفق للتعرف على الإسم الأحسن الذي يستحقه الله –

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١/١٢٤-١٢٥) .
(٢) السابق نفسه ، وانظر الجويني : الإرشاد (ص/١٤٣) .
(٣) سورة الأعراف ، بعض الآية (٢٨) .
(٤) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٢٨) .
(٥) سورة الأنعام ، بعض الآية (١١٩) .
(٦) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٤٤) .
(٧) سورة الأسراء الآية (٣٦) .
(٨) سورة الشورى الآية (٢١) .
(٩) جامع البيان (٢١/٢٥) .
(١٠) سورة الشورى الآية (٢١) .
(١١) سورة الحجرات ، بعض الآية (١) .

جل وعلا - .

قال ابن القيم : " لله من صفة الإدراكات : العليم الخبير ، دون العاقل الفقيه ، والسميع البصير ، دون السامع والباصر ، ومن صفات الإحسان : البر ، الرحيم ، الودود ، دون الرفيق والشفيق ونحوها . وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف وكذلك الكريم ، دون السخي ، والخالق ، البارئ ، المصور ، دون الفاعل ، الصانع ، المُشَكِّل . والغفور ، العفو ، دون الصفوح الساتر "(١) فهذه الأسماء كلها لا يجوز اطلاقها على الله وهي مترادفات للأسماء الصحيحة الواردة فكيف بما ليس لها مرادف أصلاً ؟؟ .

<u>خامساً :</u> إذا كان البشر لا يرضون أن يسمعوا بغير أسمائهم فكيف يجوز ذلك في حق الله تعالى خالق البشر ، وخالق الخلق أجمعين ؟

قال البغدادي : " مأخذ أسماء الله تعالى التوقيف عليها ، إما بالقرآن وإما بالسنة الصحيحة ، وإما بإجماع الأمة عليه ، ولا يجوز اطلاق اسم عليه من طريق القياس . وهذا خلاف قول المعتزلة البصرية في اجازتها إطلاق الأسماء عليه بالقياس .

وقد أفرط الجبائي(٢) في هذا الباب حتى سمى الله مطيعاً لعبده إذا أعطاه مراده ، وسماه مُحبِلاً للنساء إذا خلق فيهن الحبل ، وضللته الأمة في هذه الجسارة التي تورثه الخسارة "(٣) .

لقد جعل أبو بكر بن العربي الزيادة في أسماء الله تعالى من الإلحاد المنهي عنه بقوله تعالى : (وذروا الذين يلحدون في أسمائه)(٤) فقال : " والإلحاد يكون بالزيادة فيها ، والنقصان منها ، كما يفعله الجهال الذين يخترعون أدعية يسمون فيها الباري بغير أسمائه ، ويذكرونه بما لم يذكره من أفعاله ، إلى غير ذلك مما لا يليق به ، فحذار منها "(٥) .

وبهذا يظهر رجحان قول الجمهور وصحته ، وهو قول أهل السنة والجماعة ، وبه ظهر بطلان مذهب المعتزلة ، كما أنه لا مسوغ لتوقف الجويني الذي قيده في الإرشاد(٦) .

<u>**المطلب الثالث : هل "القديم" من أسماء الله تعالى ؟**</u>

قال السيوطي(٧) : " والله تعالى قديم ، كما ورد وصفه بذلك في حديث أبي هريرة في عد الأسماء التسعة والتسعين أخرجه ابن ماجة "(٨) وقال أيضاً : " ...الله الواحد أي الذي لا نظير له في ذاته ولا صفاته ، قديم أي لا ابتداء لوجوده إذ

---

(١) بدائع الفوائد (١٦٨/١) .

(٢) محمد بن عبدالوهاب بن سلام الجبائي ، أبو علي ، من أئمة المعتزلة ، ورئيس علماء الكلام في عصره ، ولد (٢٣٥هـ-٨٤٩م) واشتهر بالبصرة ودفن بحي المنسوبي إليها (٣٠٣هـ-٩١٦م) . انظر : المقريزي (٣٤٨/٢) ، وفيات الأعيان (٤٨٠/١) ، البداية والنهاية (١٢٥/١١) ، الأعلام (٢٥٦/٦) .

(٣) عبدالقاهر البغدادي : الفرق بين الفرق (ص/٣٣٧) .

(٤) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٨٠) .

(٥) أحكام القرآن (٨١٦/٢) .

(٦) انظر (ص/١٤٣) - ت.د.محمد يوسف موسى .

(٧) الكوكب الساطع - مخطوط - لوحة رقم (١٦١/أ) .

(٨) قال البوصيري : " لم يخرج من الأئمة الستة عدد أسماء الله الحسنى من حديث أبي هريرة ولا من غيره سوى ابن ماجة والترمذي ، لكن طريق الترمذي بغير هذا السياق وبزيادة ونقص، وتقديم وتأخير ... واسناد طريق ابن ماجة ضعيف لضعف عبدالملك بن محمد الصنعاني " وقد نبه الترمذي على عدم صحة الحديث انظر (٤٩٧/٥) وأخرج هذا الحديث أيضاً الحاكم في المستدرك وفيه ضعف كما قال البيهقي ، انظر : سنن ابن ماجة (١٢٦٩/٢-١٢٧٠) ، كتاب الدعاء (٣٤) ، باب أسماء الله عز وجل (١٠) ح رقم (٣٨٦١) ، ومصباح الزجاجة (١٤٨/٤) ، المستدرك (١٧/١) ، كتاب الإيمان - باب إن لله تسعة وتسعين اسماً... ، والأسماء والصفات للبيهقي (٣٢/١) . وانظر الزوائد للبوصيري (ص/٤٩٨) .

لو كان حادثاً لاحتاج إلى محدث تعالى عن ذلك... "[١] .

وفــي بيـــان معنى " القديم " قال السفاريني نفس العبارة التي نقلتها عن السيوطي حيث قال : " صفاته قديمة ، لا ابتداء لوجودها ولا انتهاء ، إذ لو كانت حادثة لا حتاجت إلى محدث ، تعالت ذاته المقدسة ، وصفاته المعظمة عن ذلك ، فإن حقيقة ذاته مخالفة لسائر الحقائق وكذلك صفاته تعالى "[٢] .

وقال أيضاً : " والقديم هو الذي لم يسبق وجوده عدم ، فإنه سبحانه و تعالى متصف بالقدم ، وهي صفة سلبية في اصطلاحهم ، والصفات السلبية ما مدلولها عدم أمر لا يليق به تعالى ، فقِدَمُه تعالى ذاتي واجب له تعالى غير مسبوق بعدم ، إذ هو تعالى لا ابتداء لوجوده "[٣] .

وقــول السفاريني : " فإنه سبحانه وتعالى متصف بالقدم " فهذا الوصف إنما أطلقه عليه العلماء من باب الأخبار ، لا أنه وَصَفَ نَفْسَه به ، فنصوص الكتاب والسنة ليس فيها اسم القديم أو وصفه بالقدم ، وإنما هو من باب الأخبار عنه تعالى لا من باب الانشاء[٤] .

والقِدَمَ في اللغة يطلق على ما توالت على وجوده الأزمنة ، وكر عليه الجديدان ، الليل والنهار ، ومنه قوله تعالى : (...حتى عاد كالعرجون القديم)[٥] وبهذا الاعتبار يقال أساس قديم ، وبناء قديم .

وهــذا المعنى مستحيل في حقه تعالى ، إذ أن وجوده عز وجل ليس وجوداً زمانياً ، ولا نسبة للزمان إلى وجوده البتة ، وليس وجوده سبحانه مقيساً بتوالي الأزمنة ، بل وجوده غير مقترن بزمان أصلاً تعالى وتقدس .

ولــذا احــترز السيوطي في تعريف القدم فقال : " لا ابتداء لوجوده "[٦] ، وكذلك قال العلامة السفاريني – ما سبق النقل عنه[٧]- .

واطــلاق " القديم " بمعنى ما لا أول لوجوده هو الذي يليق بالله – عز وجل – . ولهذا المعنى ألمح السفاريني حيــث قال : " وأعلم أن القِدم إما ذاتي كقدم الواجب ، وإما زماني كقدم زمان الهجرة بالنسبة لليوم ، ومنه : (...حتى عاد كالعــرجون القديم)[٨] ، ومنه القدم الإضافي كقدم الأب بالنسبة للإبن "[٩] . وقد جعله السيوطي اسماً من أسمائه تعالى بهذا المعنى ، أعني القدم الذاتي ، وممن عده اسماً من اسمائه – جل وعلا – أيضاً من المحدثين د.عمر سليمان الأشقر[١٠] .

ولكن ابن أبي العز أنكر ذلك وحكى هذا الانكار عن كثير من السلف والخلف ولم يسم منهم غير ابن حزم ، وهذه

---

(١) رسالة علم التوحيد – مخطوط – لوحة رقم (١) . وانظر : الجويني : الإرشاد (ص/٣٢) ، سعد الدين التفتازاني : شرح العقائد النسفية (ص/٣٠) ، والجويني أيضاً : العقيدة النظامية (ص/٢٠) .

(٢) لوامع الأنوار البيهية (١/١١٦) .

(٣) نفسه (١/٣٨) .

(٤) انظر : نفسه ، في حاشية الصفحة مستفاد من تعليقات مفتي الديار النجدية في عصره العلامة الشيخ عبدالله بابطين (ت١٢٨٢هـ) .

(٥) سورة يس الآية (٣٩) .

(٦) رسالة في علم التوحيد – مخطوط – لوحة رقم (١) .

(٧) انظر : لوامع الأنوار البهية (١/١١٦) .

(٨) سورة يس ، بعض الآية (٣٩) .

(٩) لوامع الأنوار البهية (١/٣٨) .

(١٠) انظر : أسماء الله وصفاته (ص/٥٣) .

هـي عـبارة ابن أبي العز شارح العقيدة الطحاوية : قال : " وقد أدخل المتكلمون في أسمائه تعالى القديم ، وليس هو من الأسماء الحسنى ، فإن القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن : هو المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم ، للعتيق ، وهذا حديـث ، لـلجديد ، ولم يستعملون هذا الإسم إلا في المتقدم على غيره لا فيما لم يسبقه عدم ، كما قال تعالى : (حتى عاد كالعرجون القديم)[١] والعرجون القديم الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الثاني ، فإذا وجد الجديد ، قيل للأول قديم ، قال تعالى : (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم)[٢] أي متقدم في الزمان ، وقال تعالى : (قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون {٧٥} أنـتم وآباؤكم الأقدمون {٧٦})[٣] فالأقدم مبالغة في القديم ، ومنه : القول القديم والجديد للشافعي – رحمه الله تعالى – وقال تعالى : (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار)[٤] أي يتقدمهم ، ويستعمل منه الفعل لازماً ومتعدياً ، كما يقال : أخذت ما قدم وما حدث ، ويقال : هذا قدم هذا وهو يقدمه ، ومنه سميت القدم قدماً لأنها تقدم بقية بدن الإنسان ، وأما إدخال القديم فـي أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام ، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف ، منهم ابن حزم ، ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدم ، فإن ما تقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره ، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى ، التي تدل على خصوص ما يمدح به ، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكـون من الأسماء الحسنى ، وجاء الشرع باسمه الأول ، وهو أحسن من القديم لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له ، بخلاف القديم ، والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة "[٥] .

والحـق أن الحديـث الـذي اسـتدل به السيوطي عند ابن ماجة لا ينهض للاستدلال به ، لأنه لا يصح ، ولأن الاستدلال على معرفة أسماء الباري أشرف الغايات فلا يليق أن يُستدل على ذلك بأحاديث واهية .

قال البوصيري : " واسناد طريق ابن ماجة ضعيف لضعف عبدالملك بن محمد الصنعاني "[٦] .

ونقله الشوكاني[٧] بنصه في " تحفة الذاكرين " ثم قال : " وفي اسناده ضعف "[٨] .

ونقل عن ابن حزم قوله : " جاءت في إحصائها – يعني الأسماء الحسنى – أحاديث مضطربة لا يصح منها شئ أصلاً "[٩]

وقال ابن تيمية : " والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى ... ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – بل هذا ذكره الوليد بن مسلم ، عن سعيد بن عبدالعزيز ، أو عن بعض شيوخه ، ولهذا لم يروه أحد مـن أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي ، رواه عن طريق الوليد بن مسلم بسياق ، ورواه غيره باختلاف في الأسماء ، وفي

---

(١) سورة يس ، بعض الآية (٣٩) .

(٢) سورة الأحقاف الآية (١١) .

(٣) سورة الشعراء الآيتان (٧٦،٧٥) .

(٤) سورة هود الآية (٩٨) .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية (ص/١١٤-١١٥) . وانظر تقريب وترتيب شرح العقيدة الطحاوية (١/٤٦٦-٤٦٨) .

(٦) الزوائد (ص/٤٩٨)

(٧) محمـد بن علي بن محمد الشوكاني ، اليماني ، الصنعاني ، ولد (١١٧٣هـ) في هجرة شوكان من قرى السحامية إحدى قبائل خولان ، وتوفى بصنعاء (١٢٥٠هـ) له : فتح القدير في التفسير ، ونيل الأوطار في الحديث ، انظر : البدر الطالع .

(٨) (ص/٥٤،٥٥) .

(٩) المحلي (١/٣٠) ، الفصل (٢/٣٤٥) ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (١١/٢١٧) الشوكاني تحفة الذاكرين (٥٤،٥٥) .

ترتيــبها ، يبين أنه ليس من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وسائر من روى هذا الحديث عن أبي هريرة ، ثم عن الأعــرج ، ثم عن أبي الزناد لم يذكروا أعيان الأسماء ، بل ذكروا قوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن لله تسعة وتسعين اســماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة "[١] وهكذا أخرجه أهل الصحيح كالبخاري ومسلم وغيرهما ، ولكن رُوي عدد الأسماء من طريق أخرى من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة ، رواه ابن ماجة واسناده ضعيف[٢] ، يعلم أهل الحديث أنه ليس من كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – وليس في عدد الأسماء الحسنى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – إلا هذان الحديثان ، كلاهما مروي من طريق أبي هريرة "[٣] .

ومحصول القول أن هذا الحديث الذي ذكر فيه عدد الأسماء الحسنى روى من طريقين :

أولهما : عند الترمذي في جامعه[٤] ، من طريق الوليد بن مسلم ، عن شعيب ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة .

ثانيهما : عند ابن ماجة في سننه[٥] ، من طريق مخلد ابن زياد القطواني ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هريرة .

قــال ابن تيمية : " وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين الروايتين ليستا من كلام النبي – صلى الله عليه وســلم – وإنمــا كل منهما من كلام بعض السلف... "[٦] وقد أغفل ابن جرير الطبري الكلام عن تعداد الأسماء الحسنى أو إيراد شئ من الروايات التي تعينها كما في حديث الترمذي وابن ماجة مما يدل على أنه لم يثبت في تعيينها شئ عنده[٧] .

أمــا ابن كثير فقد ذكر رواية الترمذي ، التي فيها سرد الأسماء ، ونبه على أن رواية ابن ماجة بها زيادة ونقص عن رواية الترمذي ثم قال : " والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج[٨] فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم ، وعبدالملك بن محمد الصنعاني ، عن زهير بن محمد ، أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك ، أي أنهم جمعوها من القرآن كما ورد عن جعفر بن محمد ، وسفيان ابن عيينة وأبي زيد اللغوي والله أعلم "[٩] .

وقال الحاكم في المستدرك بعد تخريج الحديث من طريق صفوان بن صالح ، عن الوليد بن مسلم : " صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بسياق الأسماء الحسنى ، والعلة فيه عندهما تفرد الوليد بن مسلم "[١٠] .

---

(١) مــتفق عــليه ، أخــرجه الــبخاري فــي صحيحه ، كتاب الشروط باب (١٨) ح (٢٧٣٦) ، الفتح (٣٥٤/٥) ، وفي مواضع أخرى انظر ح (٦٤١٠،٧٣٩٢) كــتاب الدعوات (٦٨) كتاب التوحيد (٩٧) ، ومسلم في صحيحه ح رقم (٥٦) (٢٠٦٣/٤،٢٠٦٢) ، والترمذي (٥٣٠/٥) ح رقم (٣٥٠٦، ٣٥٠٨) .

(٢) وهذا هو الذي عول عليه السيوطي في استدلاله .

(٣) مجموع الفتاوى (٩٧/٨،٩٦) .

(٤) انظر (٥٣٠/٥) .

(٥) انظر : كتاب الدعاء (٣٤) من سنن ابن ماجة ، باب (١٠) ح رقم (٣٨٦٠) .

(٦) مجموع الفتاوى (٣٧٩/٦) ، وابن حجر : فتح الباري (٢١٥/١١) .

(٧) انظر : جامع البيان (١٣٣/٩-١٣٤) .

(٨) المدرج في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – هو : أن يذكر الراوي عقيبه كلاماً لنفسه أو لغيره ، فيرويه بعده متصلاً بالحديث من غير فصــل ، فيــتوهم أنه من الحديث وليس كذلك ، انظر : ابن حجر : نزهة النظر شرح نخبة الفكر (ص/٤٦) ، والسيوطي : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٢٦٨/١) .

(٩) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥١٦/٣) ، وابن حجر : الفتح (٢١٨/١١) .

(١٠) مستدرك الحاكم (١٧/١) ، وانظر : فتح الباري (٢١٥/١١) .

قال ابن حجر : " وليست العلة عند الشيخين تفرد الوليد بن مسلم فقط بل الاختلاف فيه ، والاضطراب وتدليسه ، واحتمال الادراج "[١] .

وهو ما رجحه أبو بكر بن العربي ، ورجحه أيضاً الحافظ ابن حجر في نهاية بحثه لهذه المسألة[٢] .

وإذا تـرجح عدم صحة الحديث الذي استدل به السيوطي على تسمية الله بـ " القديم " فإنه لا يجوز أن يسمى به جل وعلا ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة والذي قرره ابن تيمية وحكاه عن الإمام أحمد - رحمه الله[٣]- .

كمـا أنه لا يجوز أن يشتق له سبحانه اسماء مما أخبر به عن نفسه من أفعال ، فلا يقال : إن من أسمائه تعالى : المفتي ، أخذاً من قوله تعالى : (ويستفتونك فيْ النساء قل الله يفتيكم فيهن)[٤] .

ولا يقال : الزارع ، أخذاً من قوله تعالى : (أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون)[٥] .

ولا يقال : الماكر ، أخذاً من قوله تعالى : (ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين)[٦] .

ولا يقا : الفارش أو الماهد أخذاً من قوله تعالى : (والأرض فرشناها فنعم الماهدون)[٧] .

ولا يقال : الفالق ، أخذاً من قوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى)[٨] ، وهكذا ، فلا يجوز لأحد أن يشتق من أفعاله الثابتة له اسماً ، بل لا يطلق عليه إلا ما ورد به نص الكتاب والسنة[٩] .

لكـن يقـال إن ما يُخبَر به عن الله تعالى بما يظن أنه اسم أو صفة هو ليس في الحقيقة اسماً أو صفة ، وإنما هو إخـبار عن الله بما يليق به جل وعلا ، لا سيما في معرض الدفاع عن العقائد والرد على الخصوم ، كما وقع شئ من ذلك خـلال كـلام ابـن تيميـة في رده على نفاة الصفات ، قال : " وصفه تعالى بالصفات الفعلية - مثل الخالق ، والرازق ، والـباعث ، والوارث ، والمحيي ، والمميت - قديم عند أصحابنا ، وعامة أهل السنة من المالكية والشافعية والصوفية ... حتى الحنفية ... "[١٠] .

وقـال أيضاً : " ...فإنه قد ثبت بالأدلة العقلية والسمعية أن كل ما سوى الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن ، وأن الله انفرد بالقدم والأزلية "[١١] .

فهـذا وقع من ابن تيمية على سبيل الاخبار لا على أنه اسم أو وصف لله تعالى ، وهو الإخبار عن صفاته الفعلية بأنهـا قديمة ، وأن الله تفرد بالقدم والأزلية ، فإن ابن تيمية ليس ممن يطلق هذه الألفاظ على الله تعالى إلا من باب الإخبار

---

(١) فتح الباري (٢١٥/١١) .

(٢) انظر : السابق (٢١٧/١١) .

(٣) انظر : مجموع الفتاوى (٢٦/٥) .

(٤) سورة النساء الآية (١٢٧) .

(٥) سورة الواقعة الآيتان (٦٣-٦٤) .

(٦) سورة الأنفال الآية (٣٠) .

(٧) سورة الذاريات الآية (٤٨) .

(٨) سورة الأنعام الآية (٩٥) .

(٩) انظر : الصنعاني : سبل السلام (١٤٣/٣) .

(١٠) مجموع الفتاوى (٢٦٨/٦) .

(١١) نفسه (٢٣٠/٦) .

كما قد قدمت . فإن أهل السنة – وابن تيمية منهم – يحكمون الكتاب والسنة فيما أطلقته الفرق المخرفة من أسماء وصفات علـى الله ، فـلا يبادرون بقبوله ولا رده حتى يعلمون مراد قائله منه ، فإذا كان معنىً خطأً ردوه على صاحبه ، وإن كان حسناً قبلوه وأقروه وقالوا لقائله : مرادك صحيح ، ولكن لا تستعمل هذه الألفاظ المبتدعة الموهمة[١] .

" فإن قيل : ما قولكم في من قال لنا : هل الله شئ أو ليس بشئ ؟ وهل الله موجود أو معدوم ؟ ، وهل الله قديم أو محدث ؟ – وهل الله قائم بنفسه أو محتاج إلى غيره ؟؟ فهل يجوز أن نقول : إن الله شئ ، وموجود ، وقديم ، وقائم بنفسه ؟

فـإن قلـتم : نعم ، خالفتم قاعدتكم ، وإن قلتم : لا ، قلتم قولاً عظيماً . والجواب : أن قولنا بأن الله شئ ، وقديم ، وموجود ، وقائم بنفسه ، هو من باب الإخبار لا من باب الصفات ، فباب الإخبار يتوسع فيه ، أما باب الصفات فيقتصر فيه على ما ورد "[٢] .

قـال ابن القيم : " ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي ، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفاً ، كالقديم ، والشئ والموجود ، والقائم بنفسه "[٣] .

ولكن مع ذلك فالأفضل والأولى أن يُخْبَر عن الله تعالى بما ورد من الألفاظ الشرعية في الكتاب والسنة ، فنقول : الأول بدل القديم ، ونقول : القيوم بدل القائم بالنفس .

ونقول : الآخر بدل الأزلي والأبدي ، فالتعبير بما ورد أولى وأحرى[٤] .

المطلب الرابع : الإسم الأعظم

تعـرض السيوطي لبيان الإسم الأعظم ، وذكر أقوال العلماء فيه . قال الشوكاني : " وقد اختلف في تعيين الإسم الأعظـم عـلى نحو أربعين قولاً قد أفردها السيوطي بالتصنيف "[٥] وقال ابن حجر " وجملة ما وقفت عليه من ذلك أربعة عشـر قولاً "[٦] ولم يذكر السيوطي في تصنيفه الذي ذكره الشوكاني سوى عشرين قولاً فقط ، قال : " فقد سئلت عن الإسم الأعظم وما ورد فيه فأردت أن اتتبع ما ورد فيه من الأحاديث والآثار والأقوال فقلت في الإسم الأعظم أقوال... "[٧] .

ثـم سرد السيوطي بعد ذلك أقوال العلماء وآراءهم ، فبلغ بها العشرين . وقد عزا بعض الأقوال إلى أصحابها ولم يعز البعض الآخر غير أنه ذكر قولاً آخر في معترك الأقران زائداً على العشرين وسأبينها بشئ من التفصيل :

القول الأول : وهو قول ابن جرير الطبري حكى عنه ابن حجر أنه أنكر وجود الإسم الأعظم ، وذكر بأنه لا يجوز تفضيل بعـض الأسـماء على بعض[٨] ، وذكر السيوطي عن أصحاب هذا القول أنه لا وجود له بمعنى أن اسماء الله تعالى كلها

---

(١) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٣٦/٦) ، (٤١/٣) ، وانظر كذلك : د.عمر سليمان الأشقر : اسماء الله وصفاته (ص/١٣٣) – دار النفائس ط٢-١٤١٤هـ-١٩٩٤م .

(٢) د.عمر سليمان الأشقر : اسماء الله وصفاته (ص/١٣٣)

(٣) بدائع الفوائد (١٦٢/١) . وانظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (١٢٥/١) .

(٤) انظر : د.عمر سليمان الأشقر : اسماء الله وصفاته (١٣٣) .

(٥) تحفة الذاكرين (ص/٥٢) . دار الكتب العلمية – بدون تاريخ ولا طبعة .

(٦) الحاوي للفتاوي (٣٩٤/١) . وهي رسالة بعنوان الدر المنظم في الإسم الأعظم (ضمن كتاب الحاوي كما أشرت) .

(٧) انظر : معترك الأقران (١١٠/٣) .

(٨) فتح الباري (٢٢٤/١١) .

عظيمـــة ، لا يجـــوز تفضيل بعضها على بعض[1] وحكاه عن ابن جرير الطبري ، وأبي الحسن الأشعري ، وأبي حاتم بن حـــبان[2] ، والقاضي أبي بكر الباقلاني[3] ، ونحوه عن الإمام مالك[4] . ولم يذكر السيوطي قول مالك ، بل ذكره ابن حجر فقـــال : " ونســـب ذلك بعضهم لمالك ، لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور لئلا يظن أن بعض القرآن أفضـــل مـــن بعض ، فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل ، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم ، وأن أسماء الله كلها عظيمة "[5] .

وأورد الســـيوطي نـــص كلام ابن جرير فقال : " وعبارة الطبري : اختلفت الآثار في تعيين الإسم الأعظم والذي عـــندي أن الأقوال كلها صحيحة إذ لم يرد في خبر منها أنه الإسم الأعظم ولا شئ أعظم منه ، فكأنه تعالى يقول : كل إسم من أسمائي يجوز وصفه بكونه أعظم فيرجع إلى معنى عظيم "[6] .

ولا شـــك أن كلام الإمام الطبري حق في أن أسماء الله تعالى عظيمة كلها ، ولكن لا مانع أن يكون بعضها أعظم مـــن بعـــض ، ولا يقتضـــي ذلك نقصاً ولا عيباً ، قال ابن القيم : " أسماء الله وصفاته يفضل بعضها بعضاً ، ولا يقتضي تفاضـــلها نقصاً ، وتفسير بعضها ببعض لا يعني تماثلها من كل وجه ، بل له سبحانه من كل صفة معنى من معاني الكمال والجمـــال "[7] ويفضل بعضها بعضاً أي في المعنى والمدلول أما من حيث نسبتها إلى الباري جل وعلا فواحدة إذ كل منها يدل على الكمال والعظمة والجمال[8] .

كذلك لا يلزم من القول بتفاضلها ثبوت نقص في المفضول ، فإن من الأمور المسلمة شرعاً وعقلاً تفاضل الكمال في ذاته[9]

ولا يـــلزم كذلـــك أن يكـــون معنى الصفة والإسم هو معنى الصفة الأخرى والإسم الآخر من جميع وجوه الدلالة المعنوية واللفظية وإن كانتا متفقتين في الدلالة على ذات الرب جل وعلا[10] ، فكل صفة من صفاته الجليلة تدل على معنى

---

(١) انظر : الحاوي (٣٩٤/١) .

(٢) هـــو : محمـــد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد التميمي ، أبو حاتم البستي ، مشهور بابن حبان ، مؤرخ علامة ، محدث ، ولد في بست من بلاد سجستان وتنقل في الأقطار ثم عاد إلى بلده حيث توفي بها (٣٥٤هـ-٩٦٥م) له تصانيف عديدة ، انظر : معجم البلدان (١٧١/٢) ، شـــذرات الذهب (١٦/٣) ، تذكرة الحفاظ (١٢٥/٣) ، ميزان الاعتدال (٣٩/٣) ، طبقات السبكي (١٤١/٢) ، لسان الميزان (١١٢/٥) ، الأعلام (٧٨/٦) .

(٣) محمـــد بـــن الطيـــب بن محمد بن جعفر ، الباقلاني ، أبو بكر ، قاض من كبار علماء الكلام انتهت إليه رياسة الأشعرية في عصره ، ولد في البصرة (٣٣٨هـ-٩٥٠م) وسكن بغداد فتوفي بها (٤٠٣هـ-١٠١٣م) وينتسب في الفروع إلى مذهب المالكية ، له مصنفات عديدة معظمها في علم الكلام والرد على الباطنية والملاحدة والمعطلة والخوارج والمعتزلة ، انظر : وفيات الأعيان (٤٨١/١) ، قضاة الأندلس (٣٧-٤٠) تاريخ بغداد (٣٧٩/٥) الوافي بالوفيات (١٧٧/٣) ، الديباج المذهب (٢٦٧) ، تبين كذب المفترى (٢١٧-٢٢٦) ، الأعلام (١٧٦/٦) .

(٤) مـــالك بن أنس بن مالك الأصبحي ، الحميري ، أبو عبدالله ، إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب المالكية مولده بالمدينة المنورة (٩٣هـ-٧١٢م) ووفاته بها (١٧٩هـ-٧٩٥م) له مناقب عظيمة ، ومؤلفات عديدة ، انظر : الديباج المذهب (ص/١٧-٣٠) ، والوفيات (٤٣٩/١) ، تهذيب التهذيب (٥/١٠) ، صفة الصفوة (٩٩/٢) ، حلية الأولياء (٣١٦/٦) ، والأعلام (٢٥٧/٥) .

(٥) فتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٦) الحاوي (٣٩٤/١-٣٩٥) ، وانظر ابن حجر : فتح الباري (٢٢٤/١١) ، وانظر كلام ابن جرير : جامع البيان (٤٨١/١) .

(٧) بدائع الفوائد (١٦٧/١) .

(٨) انظر : د.إبراهيم بن محمد بن عبدالله البريكان : القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف (ص/٢٥٩) . دار الهجرة ط١٤١٥/٢هـ-١٩٩٤م

(٩) نفس المصدر .

(١٠) نفس المصدر .

ثبوتي جمالي للرب سبحانه وتعالى زائد على مدلول الصفة الأخرى ، فلا مانع حينئذ من أن يصف الله تعالى بعض أسمائه بأنـــه أعظم من البعض الآخر لتضمنه معنى زائداً أعظم من غيره ، من غير أن يؤدي هذا إلى اعتقاد نقص في المفضول – كما قدمت – ومن الأدلة على ذلك : ما ثبت عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق عرشه : إن رحمتي سبقت غضبي "[١] وفي رواية : " ...تغلب غضبي... "[٢] .

ووجه الدلالة من هذا الحديث : أن الرحمة والغضب صفتان من صفات الله – عز وجل – وقد فاضل بينهما بأن بين أن رحمته تسبق وتغلب غضبه ، إذ التعبير بالسبق والغلبة يدلان على أن السابق والغالب أفضل من المسبوق والمغلوب

٢- مـــا ثـــبت أيضـــاً عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه كان يدعو فيقول : " اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافـــاتك من عقوبتك... "[٣] فإن الرضا والسخط صفتان من صفات الله وقد فاضل الرسول – صلى الله عليه وسلم – بيـــنهما ، بأن استعاذ بصفة الرضا من صفة السخط ، ولا شك أن المستعاذ به أفضل للمستعيذ من المستعاذ منه[٤] ، وثبوت هذه الأفضلية لصفة الرضا ، لا تنفي دلالة الصفة المفضولة التي هي السخط على الكمال الإلهي ، فضلاً عن أن تدل على نقص في الموصوف – عز وجل – فصفة السخط هي نفسها صفة كمال لله – جل وعلا – فإنه تعالى يسخط على الكافرين والمشـــركين ، ويغضـــب من أعدائه وأعداء أوليائه من الأنبياء والمرسلين والمؤمنين التابعين لهم ، وهذا السخط في محله وموضـــعه صـــفة كمال له تعالى ، ويرضى تبارك وتعالى عن أنبيائه ورسله ، وأتباعهم المؤمنين الموحدين وهذا الرضا أيضاً في نفسه صفة كمال له سبحانه وتعالى ، وهو أفضل من السخط بلا شك ، ولا ريب أيضاً أن الكمال الذي وصف الله – عـــز وجل – به نفسه ووصفه به رسوله – صلى الله عليه وسلم – غاية في الجمال والعظمة ، وهو مع ذلك يتفاوت من إسم إلى آخر ، ومن صفة إلى أخرى .

إن الـــناظرين فـــي معـــاني الأسماء والصفات يجد فيها من الدلالة من كل صفة له على جانب من جوانب كماله ســـبحانه ، كمـــا يجد بعضها أرفع من بعض وأدل على الجمال والعظمة والكمال من البعض الآخر ، لذلك صحت البلاغة النبوية بالإخبار عن إسمه الأعظم[٥] .

خلاصـــة ما تقدم أن إثبات الإسم الأعظم لا يدل على نقص غيره من الأسماء أو الصفات وترجح من ذلك ثبوت

---

(١) صحيح البخاري : انظر الأحاديث رقم (٣١٩٤) ، (٧٤٠٤) ، (٧٤١٢) ، (٧٤٢٢) ، (٧٤٥٣) ، (٧٥٠٣) ، (٧٥٥٤) .
، كتاب التوبة (٤٩) باب (٤) في سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ح رقم (١٤) (٢٧٥١) انظر : صحيح مسلم (٢١٠٧/٤) وكذلك ح رقم (١٦،١٥) حـــ٢١٠٨/٤ . والـــترمذي : دعـــوات (٩٩) وابـــن ماجـــة – مقدمـــة (١٣) ، زهـــد (٣٥) ، وأحمـــد (٣١٣/٢،٢٦٠،٢٥٨،٢٤٢، ٣٥٨،٣٨١،٣٩٧،٤٣٣،٤٦٦) .

(٢) صـــحيح البخاري ، كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٥) انظر فتح الباري (٣٨٤/١٣) ح رقم (٧٤٠٤) ونصه كما أثبته في الحاشية السابقة . وكذلك في كتاب بدء الخلق (٥٩) ح رقم (٣١٩٤) فتح (٢٧٧/٦) وفي صحيح مسلم (٢١٠٨/٤) كتاب التوبة (٤٩) باب (٤) في سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه ح رقم (١٦،١٤) .

(٣) رواه مســـلم فـــي " صحيحه " (٣٥٢/١) كتاب الصلاة (٤) باب (٤٢) ح رقم (٢٢)-{٤٨٦}) ، ورواه أبو داود في " سننه " كتاب الصلاة ، باب في الدعاء في الركوع والسجود ، ح رقم (٨٦٥) ، انظر : عون المعبود (١٣٢/٣) ، وابن ماجة في " سننه " كتاب الدعاء ، باب ما يتعوذ منه النبي – صلى الله عليه وسلم – ح رقم (٣٨٤١) (ص/١٢٦٢-١٢٦٣) ، وغيرهم .

(٤) انظر : ابن تيمية : جواب أهل العلم والإيمان (ص/٨٧) وما بعدها .

(٥) انظر : د.إبراهيم بن محمد بن عبدالله البريكان : القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف (ص/٢٦١) .

الإسم الأعظم دون أية محاذير ، خلافاً لمن أنكره ، أو أورد عليه شئ من المحاذير . ويبقى الخلاف فقط في تعيينه .

القول الثاني : أن الإسم الأعظم مما استأثر الله تعالى بعلمه ، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ، كما قيل بذلك في ليلة القدر ، وفي ساعة الإجابة من يوم الجمعة ، وفي الصلاة الوسطى[١] وهذا القول قريب جداً من القول الأول .

القول الثالث : أن ضمير الغائب المفرد (هو) هو الإسم الأعظم[٢] ، نقله الفخر الرازي عن بعض أهل الكشف[٣] ، واحتج له بأن من أراد أن يعبر عن كلام عظيم بحضرته لم يقل أنت قلت كذا ، وإنما يقول : (هــو) تأدباً معه[٤] .

هكــذا ذكــر السيوطي كلام الرازي عن بعض أهل الكشف هؤلاء ، ولم يعلق على ذلك بتصحيح أو تضعيف أو إبطال ، وكذلك ابن حجر في الفتح ولكني أقول إن هذا القول باطل من وجوه :

أولاً : أن لفظــة (هــو) ضمير وليست إسماً ، وهو إجماع أهل اللغة قاطبة ، ولم يقل أحد منهم – فيما أعلم – أنها إسم لمخلوق ، فضلاً عن أن تكون إسماً للخالق جل وعلا .

ثانياً : أنه حتى ولو افترضنا جدلاً – أنه إسم ، فلا يجوز إطلاقه على الباري جل وعلا ، لعدم ورود ما يدل على ذلك في الكــتاب العزيــز ، أو السنة النبوية المطهرة الصحيحة ، إذ بان لنا آنفاً أن أسماءه تعالى توقيفية ، ونقلت إجماع علماء السنة على ذلك[٥] . وبناءً عليه لا يصح أن يعتبر (هو) إسماً من أسمائه تعالى فضلاً عن اعتباره الإسم الأعظم .

ثالــثاً : ادعــاء أن (هــو) إسم من أسمائه تعالى ، ذريعة سيئة لتعطيل أسماء الله تعالى وصفاته وإبطالها أو على الأقل هجرانها فنسيانها وعدم دعائه تعالى بها ، إذ قد رأينا وسمعنا كثيراً ممن ينتسب إلى التصوف عندما يدعو الله تعالى يقول : (يا هو) ، أو يذكرون الله عز وجل بقولهم : (هو .. هو .. هو) أو يقولون (هوّ .. هوّ .. هوّ الله) بتشديد الواو ، (هوّ هــوّ هــوّ اللطيف – هوّ هوّ هوّ الخبير... إلخ) ، وهم إنما يفعلون ذلك اعتقاداً منهم بأنه (أي الضمير : هو) هو الإسم الأعظم فيقدمونه على كل إسم من أسمائه تعالى ، فيتركون أسماء الله : العظيم ، الكبير ، المتعال ، القوي ، الملك ، القدوس ، الســلام ، المؤمــن ، المهيمــن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارئ المصور ، الرحمن ، الرحيم وغيرها من

---

(١) انظر : السيوطي : الحاوي للفتاوي (٣٩٥/١) ، ابن حجر : فتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٢) انظر : نفس المصدرين السابقين .

(٣) الكشف في اللغة : رفع الحجاب ، وفي الإصطلاح : هو الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية ، والأمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً . انظر : الجرجاني : التعريفات (ص/١٨٤) ، وهذا الكشف مصطلح صوفي يدندن به المتصوفة ، ولا أدري كيف يكشف لهم الحجاب ويطلعون عن المعاني الغيبية والأمور الحقيقية ؟؟! إلا أن يكون كما قال بعضهم : حدثني سري عن ربي ، وهذا أوسع باب للإفتراء على الله تعالى بالكذب ، قال أبو الحسن الشاذلي : زعم بعض الناس أنه وصل إلى مقام المحبة لله ، وهو في درجة تُفنيه عن إتباع التكاليف الشرعية ، ويرد عليهم أبو الحســن الشــاذلي فيقــول : سمعت هاتفاً يقول : إنْ أردت كرامتي فعليك بطاعتي وبالإعراض عن معصيتي ، وتعبير أبي الحسن هذا بقوله : ســمعت هاتفــاً ، إن قصد به الله فلماذا يسميه هاتفاً ؟ وإن كان يقصد شيئاً آخر غير الله تعالى ، فطاعة غير الله فيما يناقض تعاليم الله لا تجوز فعلى المسلم الإعراض عن هذه الألفاظ والمصطلحات المبتدعة ، وأن يتقيد بالكتاب والسنة ، وقد يفسر كلام أبي الحسن الشاذلي بأنه يقصد اتباع ديــن الله الصــحيح بطاعة الله وترك معصيته حتى ينال العبد كرامة الله له ، لكن نسبته للهاتف لا ينبغي ، وكان الأولى أن يرد عليهم بقول الله تعــالى : (قــل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ، قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) آل عمران (٣١،٣٢).

انظر : د.حسن الشرقاوي : معجم ألفاظ الصوفية (ص/٢٤٢) ، د.عبدالحليم محمود : أبو الحسن الساذلي (ص/٨٩) أعلام العرب عدد (٢٢) .

(٤) الرازي : لوامع البينات (ص/١٠٢) .

(٥) نقلت عن المعتزلة أنهم جوزوا – مطلقاً – إطلاق أسماء على الله لم يرد بها الشرع ، انظر : المطلب الثاني من هذا المبحث .

الأسماء الحسنى ويذكرونه تعالى بهذا الضمير الذي يبعدهم عن الله ولا يقربهم منه تعالى .

<u>القول الرابع :</u> إن إسم الله الأعظم هو (الله)[١] . وهذا القول هو رأي ابن عباس ، وجابر بن زيد وأبي حنيفة ، وابن أبي حاتم[٢] في تفسيره ، وعامر الشعبي[٣] ، وجابر بن زيد وأبي ضيفة والطحاوي .

قال السيوطي : " لأنه اسم لم يطلق على غيره ، ولأنه الأصل في الأسماء الحسنى ، ومن ثم أضيفت إليه "[٤] ولم يزد ابن حجر على ذلك شيئاً ، ولكن السيوطي أورد كلام ابن ابي حاتم بسنده فقال : " قال ابن ابي حاتم في تفسيره : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا إسماعيل بن عليه ، عن أبي رجاء ، حدثني رجل عن جابر بن عبدالله بن زيد أنه قال : إسم الله الأعظم هو " الله " ، ألم تسمع أنه يقول : (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم)[٥] "[٦] وقـال السيوطي أيضاً : " وقال ابن أبي الدنيا في كتاب الدعاء : حدثنا اسحاق بن إسماعيل عن سفيان بن عيينة عن مسعر قـال : قال الشعبي : اسم الله الأعظم يا الله "[٧] هذا ولم يستدل ابن حجر لهذا القول بدليل ولعل السبب أنه لم يثبت لديه ما استدل بـه السـيوطي لهذا القول . لكنني رأيت السفاريني مال إلى ترجيحه حين قال : " ...وعند أكثر أهل العلم أنه لفظ الجلالة "[٨] ورجحه صراحة العلامة المباركفوري[٩] ، وكذلك الدكتور عمر سليمان الأشقر[١٠] وغيرهم[١١] .

ولعل ترجيح هذا القول لأمور منها :

<u>أولاً :</u> أنه المأثورعن السلف كابن عباس ، وعامر الشعبي ، وجابر بن زيد ، وأبي حنيفة النعمان[١٢] ، والطحاوي[٤] وغيرهم .

<u>ثانياً :</u> أن لفظ الجلالة (الله) هو المذكور في معظم الأحاديث التي وردت في بيان الإسم الأعظم ، قال الطحاوي : " فهذه

---

(١) انظر : الحاوي (٣٩٥/١) وفتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٢) هو : عبدالرحمن بن محمد أبي حاتم ابن ادريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ، أبو محمد ، حافظ للحديث ، مفسر ، ولد (٢٤٠هـ-٨٥٤م) ، وتوفي (٣٢٧هـ-٩٣٨م) له مصنفات منها : الجرح والتعديل ، وتفسير القرآن العظيم ، والرد على الجهمية ، وغيرها انظر : تذكرة الحفاظ (٤٦/٣) ، فوات الوفيات (٢٦٠/١) ، طبقات الحنابلة (٥٥/٢) ، الأعلام (٣٢٤/٣) .

(٣) هو : عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار ، الشعبي ، الحميري ، أبو عمرو ، راوية من التابعين يضرب المثل بحفظه ، ولد بالكوفة (١٩هـ-٦٤٠م) ، ونشأ ومات بها فجأة (١٠٣هـ-٧٢١م) ، نسبته إلى شعب وهو بطن من همدان ، انظر : تهذيب التهذيب (٦٥/٥) ، الوفيات (٢٤٤/١) ، حلية الأولياء (٣١٠/٤) ، تهذيب ابن عساكر (١٣٨/٧) ، تاريخ بغداد (٢٢٧/١٢) ، الأعلام (٢٥١/٣) .

(٤) الحاوي (٣٩٥/١) وانظر : فتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٥) سورة الحشر الآية (٢٢) .

(٦) الحاوي (٣٩٥/١) ، وابن حجر : الفتح (٢٢٤/١١) .والأثر رواه ابن ابي شيبة في " مصنفه " (٢٧٣/١٠) ح رقم (٩٤١٥) ، (٣٢/١٤) ح رقم (١٧٤٦١) والدارمي في الرد على المريس ضمن عقائد السلف (ص/٣٦٨) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٣/١) إلى البخاري في تاريخه وابن الضريس في فضائله .

(٧) الحاوي (٣٩٥/١) ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (٢٢٤/١١) ، والأثر رواه ابن أبي شيبة في " مصنفه " (٢٧٣/١٠) ح رقم (٩٤١٦) و (٣٢/١٤) ح رقم (١٧٤٦٢) ، والدارمي في " الرد على بشر المريسي العنيد " ضمن عقائد السلف (ص/٣٦٨) والسيوطي في " الدر المنثور " من طريق ابن أبي شيبة ، وعزاه أيضاً لإبن مردوية عن ابن عباس - رضي الله عنه - انظر (٢٣/١) .

(٨) لوامع الأنوار البهية (٣٥/١) .

(٩) انظر : تحفة الأحوذي (٤٤٦/٩) .

(١٠) انظر : أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة (ص/٨٧) .

(١١) انظر : الشيخ عبدالله الغصن : أسماء الله الحسنى (ص/٩٦) .

(١٢) انظر : شرح مشكل الآثار (١٦١/١-١٦٢) .

الآثار قد رويت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متفقة في إسم الله الأعظم أنه (الله) جل وعز "[١] .

ثالثاً : أن هذا الإسم الشريف أصل في أسماء الله تعالى وسائر أسمائه تعالى ترجع إليه قال تعالى : (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها...)[٢] فأضاف سائر الأسماء الشريفة إلى هذا الإسم العظيم ، والموصوف بلا ريب أشرف من الصفة ، ولأنه يقال : الرحمن الرحيم الملك القدوس كلها أسماء الله تعالى ، ولا يقال : الله إسم الرحمن الرحيم ، فدل على أن هذا الإسم هو الأصل[٣] .

قال الجرجاني : " الإسم الأعظم هو الإسم الجامع لجميع الأسماء ، وقيل : هو (الله) لأنه إسم الذات الموصوفة بجميع الصفات "[٤] .

رابعاً : أن هذا الإسم العظيم تكرر في كتاب الله تعالى عدداً يفوق كثيراً أي إسم آخر من الأسماء الحسنى ، فقد تكرر في كتاب الله (٢٦٠٢) مرة ، منها (٩٨٠) مرة مرفوعاً ، (٥٩٢) مرة منصوباً ، (١١٢٥) مرة مجروراً ، وخمس مرات بلفظ (اللهم) ، بينما تكررت الأسماء الأخرى بعدد أقل من ذلك بكثير[٥] .

إلى غير ذلك من الميزات والخصائص لهذا الإسم العظيم[٦] .

القول الخامس : أن الإسم الأعظم هو : (الله الرحمن الرحيم)[٧] .

ثم نقل السيوطي كلام ابن حجر في الفتح فقال : " قال ابن حجر في شرح البخاري : ولعل مستنده ما أخرجه ابن ماجة عن عائشة أنها سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعلمها الإسم الأعظم فلم يفعل ، فصلّت ودعت : اللهم إني أدعوك الله ، وأدعوك الرحمن ، وأدعوك الرحيم ، وأدعوك بأسمائك الحسنى كلها ما علمت منه ومالم أعلم ... الحديث ، وفيه أنه - صلى الله عليه وسلم - قال لها : " إنه لفي الأسماء التي دعوت بها "[٨] ، قال (يعني ابن حجر) : وسنده ضعيف ، وفي الإستدلال به نظر لا يخفى "[٩] .

وفي كلام ابن حجر إشارة إلى أن هذا الحديث لا يصح الاستدلال به من وجهين :

الأول : ضعف سنده .

الثاني : أن أم المؤمنين لم تقتصر في دعائها على أسماء (الله الرحمن الرحيم) فقط بل دعت بأسماء الله الحسنى كلها ، ولم تقتصر على الأسماء التي تعلمها كلها ، بل عمت وقالت : " ما علمت منه وما لم أعلم " فلو أنها اقتصرت في دعائها على

---

(١) شرح مشكل الآثار (١/١٦١) .
(٢) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٨٠) .
(٣) الإمام الخطابي : شأن الدعاء (ص/٢٥) .
(٤) التعريفات (ص/٢٤) .
(٥) انظر : د.عمر سليمان الأشقر : أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة (ص/٨٩-٩٠) .
(٦) انظر : ابن القيم : مدارج السالكين (١/٣٢-٣٣) ، جلاء الأفهام (ص/١١٧) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١/١٠٢) .
(٧) الحاوي (١/٣٩٥) ، وابن حجر : الفتح (١١/٢٢٤) .
(٨) رواه ابن ماجة في " سننه " كتاب الدعاء ، باب الإسم الأعظم (٢/١٢٦٨) ح رقم (٣٨٥٩) واسناده ضعيف - كما قال ابن حجر - قال البوصيري في " مصباح الزجاجة " المطبوع مع السنن . هذا إسناد فيه مقال ، وعبدالله بن عكيم وثقة الخطيب ، وعده جماعة من الصحابة ولا يصح له سماع ، وأبو شيبة لم أر من جرحه ، ولا من وثقه ، وباقي رجال الإسناد ثقات . ا.هـ وانظر ابن حجر : الفتح (١١/٢٢٧) .
(٩) الحاوي (١/٣٩٥) ، والفتح (١١/٢٢٤) .

(اســم الله الرحمن الرحيم) وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لها إنه لفي هذه الأسماء لعلم يقيناً أنه فيها ، أما وأنها قد جمعت معه غيره من الأسماء فيحتمل أن يكون في هذه ، وفي غيرها ، والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الإستدلال

لكن السيوطي قوى هذا الرأي بدليل آخر لم يذكره ابن حجر ، فقال : " قلت (أي السيوطي) أقوى منه في الإستدلال مــا أخرجه الحاكم في المستدرك وصححه عن ابن عباس أن عثمان بن عفان - سال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عــن بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال : " هو إسم من أسماء الله تعالى وما بينه وبين إسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العين وبياضــها من القرب "[١] ، وفي مسند الفردوس للديلمي ، من حديث ابن عباس مرفوعاً : (إسم الله الأعظم في ست آيات مــن آخر سورة الحشر) "[٢] وفي هذا الذي استدل به السيوطي أيضاً نظر ، لأنه لم يعين هذا الإسم بالتحديد ، ولكنه أقوى في الإستدلال كما قال السيوطي من جهة أنه أقرب إلى الإسم الأكبر من غيره كما في نص الحديث ، هو أقرب ولكنه ليس هــو ، ومــا فــي مسند الفردوس كذلك لم يعين الإسم ، ولكنه قال في ست آيات من آخر سورة الحشر ، وفي هذه الآيات المذكورة ثمانية عشر إسماً فكيف يتعين منها (الله الرحمن الرحيم) دون غيرها ؟ .

ويتضح من هذا أيضاً أن هذا ليس هو الإسم الأعظم وإن كان عظيماً كبقية أسمائه تعالى .

<u>القول السادس :</u> أنه (الرحمن الرحيم الحي القيوم)[٣] واستدل له السيوطي وابن حجر بقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)[٤] وفاتحة سورة آل عمران : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)[٥] "[٦] .

وأومأ ابن حجر إلى تضعيفه بقوله : " وحسنه الترمذي وفيه نظر لأنه من رواية شهر بن حوشب "[٧] ولأجل شهر بن حوشب فإن هذا الحديث لا ينهض للاحتجاج به ويظهر - تبعاً لذلك - ضعف هذا الرأي .

<u>القــول السابع :</u> أنه : (الحي القيوم)[٨] . واحتج له السيوطي بحديث أبي أمامة يرفعه : " الإسم الأعظم في ثلاث سور : البقرة ، وآل عمران ، وطه ، قال القاسم الراوي عن أبي أمامة : ألتمسته فيها فعرفت أنه : الحي القيوم "[٩] .

قــال الســيوطي : " وقواه الرازي واحتج بأنهما يدلان على صفات العظمة بالربوبية ما لا يدل على ذلك غيرهما

---

(١) الحاكم : السمتدرك (١/٥٠٥) .
(٢) الحاوي (١/٣٩٥) وانظر : مسند الفردوس .
(٣) انظر : الحاوي (١/٣٩٥) ، وفتح الباري (١١/٢٢٤) .
(٤) سورة البقرة الآية (١٦٣) .
(٥) سورة البقرة الآية (٢٥٥) وآل عمران الآية (٢) .
(٦) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب الدعاء (٢/٨٠-ح١٤٩٦) . وجامع الترمذي - كتاب الدعوات ، باب جامع الدعوات عن النبي - صلى الله عــليه وسلم - (٥/٤٨٣-٣٤٧٨) وقال : حسن صحيح - ومسند الإمام أحمد (٦/٤٦١) . والحديث مداره على شهر ابن حوشب ، وفيه مقال . كما قال ابن حجر في الفتح (١١/٢٢٤) .
(٧) فتح الباري (١١/٢٢٤) .
(٨) الحاوي (١/٣٩٥) ، ابن حجر الفتح (١١/٢٢٤) .
(٩) رواه ابــن ماجــة فــي " سننه " كتاب الدعاء ، باب إسم الله الأعظم (٢/١٢٦٧) ح رقم (٣٨٥٥) ، ورواه الحاكم في " مستدركه " (١/٥٠٥) وقوله : " التمســته فيهــا فعرفــتت أنه الحي القيوم " كلام مدرج في الحديث من كلام القاسم الراوي عن أبي أمامة - كما ذكر السيوطي - في الحاوي " وكذلك ابن حجر في فتح الباري (١١/٢٢٨) ، والحديث صحيح لطرقه ، انظر : النهج الأسمى (١/٦٥) .

كدلالتهما "[١] . وقد رجحه الإمام ابن القيم – رحمه الله – فقال :

إسم الإلــه الأعظم اشتملا على إسم الحي والقـيوم مـقـترنان

فالكل مرجعها إلى الإسمين يد ري ذاك ذو بصر بهذا الشان[٢]

أي أن مدار الأسماء والصفات والأفعال راجع إلى هذين الإسمين[٣] .

وقال في زاد المعاد : " ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى هم إسم الحي القيوم "[٤] وذكـر عـن شـيخه الإمـام ابـن تيميـة – رحمـه الله – أنـه كـان يشـير إلى أنهمـا الإسـم الأعظم[٥] .

وقـوى هـذا القـول شارح الطحاوية فقال : " ...وإليهما يرجع معانيها (أي معاني الأسماء الحسنى كلها) فإن الحيـاة مسـتلزمة لجميع صفات الكمال فلا يتخلف عنها صفة منها ، إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمهـا اسـتلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة ، وأما القيوم فهو متضمن كمال غناه ، وكمال قدرته ، فإنه القـائم بنفسـه ، فـلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه ، المقيم لغيره ، فلا قيام لغيره إلا بإقامته ، فانتظم هذان الإسمان صفات الكمال أتم انتظام "[٦] .

ويشهد لهذا الرأي ويقويه ما يلي :

أولاً : حديث أبي أمامة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن اسم الله الأعظم لفي سور من القرآن ثلاث : البقرة ، وآل عمران ، وطـــه "[٧] .

واستنبط العلماء من هذا الحديث أن الإسم الأعظم هو : (الحي القيوم) [٨]

ثانياً : حديـث أنس – رضي الله عنه – أنه كان مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالساً ورجل يصلي ثم دعا : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنان ، بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، يا حي ياقيوم ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لقد دعا الله بإسمه الأعظم الذي إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى "[٩] .

---

(١) الحاوي (٣٩٥/١) ، ابن حجر : الفتح (٢٢٤/١١) ، وكلام الرازي في لوامع البينات (ص/٩٥) نقلاً عن د.عبدالله بن عمر

(٢) أحمـد بن إبراهيم بن عيسى : توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم الموسومة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية – (٢٥٩/١) ، ت.زهير الشاويش .

(٣) انظر : د.عبدالله بن عمر الدميجي : اسم الله الأعظم (ص/١٣٨) .

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢٠٤/١) .

(٥) انظر : مدارج السالكين (٤٤٨/١) .

(٦) ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (٩٢/١) .

(٧) سبق تخريجه قبل قليل ص ، والحديث كما سبق صحيح بمجموع طرقه انظر : النهج الأسمى (٦٥/١) .

(٨) انظر : شرح مشكل الآثار (١٦٣/١) .

(٩) الحديـث روي مـن عدة طرق يرتقي بها إلى الصحة ، وقد صححه الحاكم في " المستدرك " (٥٠٣/٣) فقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي ، وصححه العلامة الألباني في تخريجه على مشكاة المصابيح (٧٠٩/٢) وكذلك العلامة شعيب الأرناؤوط في تخريج صحيح ابن حبان (١٧٦/٣) ، ومشكل الآثار (١٦١/١) والشيخ محمد الحمود النجدي : النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى (٦٤/١) .

والإمام الشوكاني – رحمه الله – يجعل الإسم الأعظم (لا إله إلا هو الحي القيوم بزيادة (لا إله إلا هو)[(١)] ، كما أن ابن القيم – رحمه الله – يجعل التجربة للدعاء بهذا الإسم دليلاً على صحته مع ما تقدم من الأحاديث والآثار ، فيقول : " ومن تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة : أن من أدمن (يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت) أورثه ذلك حياة القلب والعقل ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – شديد اللهج بها جداً ، وقال لي يوماً : لهذين الإسمين – وهما الحي القيوم – تأثير عظيم في حياة القلب "[(٢)] .

القول الثامن : أنه : (الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام الحي القيوم)[(٣)] .

قال ابن حجر : " ورد ذلك مجموعاً في حديث أنس عند أحمد[(٤)] ، والحاكم[(٥)] ، وأصله عند أبي داوود[(٦)] ، والنسائي[(٧)] ، وصححه ابن حبان[(٨)] "[(٩)] .

وأورد السيوطي نص الحديث عن أنس – رضي الله عنه – " أنه كان مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالساً ورجل يصلي ثم دعا : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لقد دعا الله بإسمه العظيم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى "[(١٠)] ومال ابن القيم إلى تصحيحه في مدارج السالكين[(١١)] .

القول التاسع : أنه : (الله لا إله إلا هو ، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد)[(١٢)] .

وهذا الذي رجحه السيوطي وابن حجر ، قال السيوطي : " وهو أرجح من حيث السند عن جميع ما ورد في ذلك " ومال إلى تصحيحه أيضاً ابن القيم في المدارج[(١٣)] .

القول العاشر : أنه : (بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام)[(١٤)]. قال السيوطي : " أخرج أبو يعلى[(١٥)] عن رجل

---

(١) انظر : تحفة الذاكرين (ص/٧١) .
(٢) مدارج السالكين (٤٤٨/١) .
(٣) الحاوي (٣٩٦/١) ، الفتح (٢٢٤/١١) .
(٤) المسند (١٥٨،٢٤٥/٣) .
(٥) المستدرك (٥٠٤/١) .
(٦) سنن أبي داود الحديث رقم (١٤٩٥) .
(٧) سنن النسائي (٥٢/٣) .
(٨) صحيح ابن حبان (زوائد) ح رقم (٢٣٨٢) .
(٩) فتح الباري (٢٢٤/١١) .
(١٠) السيوطي : الحاوي (٣٩٦/١) والحديث سبق تخريجه قبل قليل وهو صحيح بمجموع طرقه .
(١١) انظر : (٢٣/١) ، والحديث صحيح كما سبق ص (٤٧١).
(١٢) الحاوي (٣٩٦/١) ، ابن حجر : الفتح (٢٢٥/١١) ،ورد في حديث إسناده صحيح – رواه أبو داود (١٤٩٣،١٤٩٤) والترمذي (٣٥٤٢) وقال : حسن غريب ، والحاكم (٥٠٤/١) وصححه ، وابن ماجة (٣٨٥٧) ، وابن أبي شيبة في مصنفه (٩٤٠٩،١٧٥٦) ، وابن حبان (٢٣٨٢) من طريق مالك بن مغول عن عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه ومن طريق أخرى عند أحمد (٣٣٨/٤) .
(١٣) انظر (٢٣/١)٠ والحديث صحيح ، انظر الصفحة السابقة (ص٤٧١) ٠
(١٤) الحاوي (٣٩٦/١) ، ابن حجر : الفتح (٢٢٤/١١) وهو قطعة من حديث عبدالله بن بريدة عن أبيه ، الذي سبق تخريجه ، وانظر ابن جرير : جامع البيان (١٦٣/١٩) ٠
(١٥) أحمد بن علي بن المثنى التميمي الموصلي ، حافظ من علماء الحديث (ت ٣٠٧هـ) انظر : دول الإسلام (١٤٦/١) ٠

من طئ - وأثني عليه خيراً - قال : كنت أسأل الله تعالى أن يريني الإسم الأعظم ، فرأيت مكتوباً في الكواكب في السماء : يا بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام[1] . وهذا أيضاً لا يعول عليه لأنه منام ، والمنام لا ينبنى عليه حكم ، كما أنه من رجل مجهول لا يعرف حاله ، إلا أنه أثني عليه خيراً .

القول الحادي عشر : أنه (ذو الجلال والإكرام)[2] واحتج السيوطي لهذا القول بحديث معاذ - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سمع رجلاً يقول : ياذا الجلال والإكرام ، فقال : " قد استجيب لك فسل "[3] .

وقد أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره عن مجاهد قال : " الإسم الذي إذا دُعي به أجاب : ياذا الجلال والإكرام" [4].

القول الثاني عشر : أن الإسم الأعظم هو : (رب رب)[5] ورد عن أبي الدرداء ، وابن عباس قالا : " إسم الله الأكبر رب رب "[6]

وعن عائشة مرفوعاً وموقوفاً : " إذا قال العبد يارب يارب ، قال الله تعالى : لبيك عبدي سل تُعط "[7] .

القول الثالث عشر : أنه : دعوة ذي النون في بطن الحوتت : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين)[8] .

فعن فضالة بن عبيد - يرفعه - : " دعوة ذي النون في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، لم يدع بها رجل مسلم قط إلا استجاب الله له "[9] .

قال السيوطي[10] : " وأخرج ابن جرير من حديث سعد مرفوعاً : " إسم الله الذي إذا دعُي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى "[11] .

قال[12] : " وأخرج الحاكم عن سعد بن أبي وقاص - مرفوعاً - " ألا أدلكم على إسم الله الأعظم : دعاء يونس ، فقال رجل هل كانت ليونس خاصة ؟ فقال : ألا تسمع قوله : (ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجي المؤمنين) "[13] .

---

(١) أبـــو يعلي في " مسنده " ، ورجاله ثقات ، انظر : الهيثمي : مجمع الزوائد (١٥٦/١٠) ، جلاء الأفهام (ص/١٤٦) ، فتح الباري (٢٢٨/١١) ، لوامع الأنوار البهية (٣٦/١) .

(٢) الحاوي (٣٩٦/١) ، فتح الباري (٢٢٤/١١) .

(٣) جزء من حديث رواه الترمذي في " سننه " كتاب الدعوات ح رقم (٣٥٢٧) (٥٤١/٥) وقال حديث حسن .

(٤) جامع البيان (١٦٣/١٩) .

(٥) الحاوي (٣٩٦/١) ، فتح الباري (٢٢٥/١١) .

(٦) رواه ابن أبي شيبة في " مصنفه " كتاب الدعاء (٢٧٣/١٠) ، باب اسم الله الأعظم ،ح رقم (٩٤١٤) ، وفي الرقائق (٣٢/١٤) ح رقم (١٧٤٥٩) وسنده صحيح ، أو حسن . ورواه الحاكم في " المستدرك " (٥٠٥/١) .

(٧) ذكره السيوطي في الحاوي (٣٩٦/١) والحديث اخرجه البزار (٣١٤٥) من طريق الحكم بن سعيد، حدثنا هشام عن ابيه ، عن عائشة-مرفوعاً ... " وإسناده ضعيف، آفته الحكم بن سعيد وهو الأموي ضعيف،وقدصرح بعلته الهيتمي في "المجمع" (١٥٩/١٠) وذكره البخاري في التاريخ(١/ ٢٤٣/٢) وقال : "منكر"١٠٤هــ وتبعه ابن عدي في الكامل (٦٢٥/٢)بقوله:"حديث منكر " .

(٨) الحاوي (٣٩٧/١) ، فتح الباري (٢٢٥/١١) ، وهي بعض الآية (٨٧) من سورة الأنبياء - عليهم السلام - .

(٩) أخرجه أحمد في " المسند " (١٧٠/١مطولاً) ، من حديث سعد بن أبي وقاص ، والترمذي في " سننه " (٥٢٩/٥) كتاب الدعوات ح رقم (٣٥٠٥) والحاكم في " المستدرك " (٥٠٥/١) وصححه ووافقه الذهبي ، والنسائي في عمل اليوم والليلة ح رقم (٦٥٦) .

(١٠) الحاوي (٣٩٧/١) .

(١١) لم أجده في جامع البيان .

(١٢) الحاوي (٣٩٧/١) .

(١٣) الحـــاكم في " المستدرك " (٥٠٥/١) ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، والنسائي في عمل اليوم والليلة مع رقم (٦٥٦) والترمذي في " سننه " (٥/ ٥٢٩) كـتاب الدعــوات ح (٣٥٠٥) ، وأحمد في " المسند " (١٧٠/١) ، وحسنه الإمام ابن حجر كما في الفتوحات الربانية (١١/٤) وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٨٠٢/٣) ح رقم (٣٣٧٨) وفي صحيح الكلم الطيب (ص/٧٤) ح (١٢٢) .

قال[1] : وأخرج إبن أبي حاتم عن كثير بن معبد قال : سألت الحسن عن إسم الله الأعظم فقال : أما تقرأ القرآن : قول ذي النون : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) [2] " .

القول الرابع عشر : أنه (هو الله الله الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم)[3] .

نقلــه الفخر الرازي عن زين العابدين أنه سأل الله أن يعلمه الإسم الأعظم ، فرأى في النوم هذا الذي ذكرته (هو الله الله ... إلخ) وهذا يتوقف على موافقته للدليل الشرعي لأن مجرد المنام لا ينبني عليه حكم مثل هذا والدليل الشرعي يؤخذ من الكتاب والسنة وليس لزين العابدين ولا لغيره أن يعين مثل هذا لأنه لا يعلم إلا من قبل الوحي .

القول الخامس عشر : أنه مخفي في الأسماء الحسنى ، ويؤيده حديث عائشة - رضي الله عنها - المتقدم لما دعت ببعض الأســماء وبالأسماء الحسنى ما علمت هي منها وما لم تعلم ، فقال لها النبي - صلى الله عليه وسلم - إنه لفي الأسماء التي دعوت بها[4] .

ومؤدى هذا القول التوقف عن التعيين فمن أراد أن يصيب الإسم الأعظم فليدع بجميع الأسماء الحسنى والصفات العليا كلها

القــول السادس عشر : أنه : كل إسم من أسمائه تعالى دعا العبد به مستغرقاً ، بحيث لا يكون في فكره حالتئذ غير الله ، فإن من دعا الله تعالى بهذه الحالة كان قريب الإجابة[5] . حكاه السيوطي عن أبي يزيد البسطامي[6] أنه سأله رجل عن الإسم الأعظم فقال : ليس له حد محدود، إنما هو فراغ قلبك لوحدانيته ، فإذا كنت كذلك فافزع إلى أي إسم شئت فإنك تسير به إلى المشرق والمغرب[7] .

كما نقل السيوطي نحواً من هذا عن أبي سليمان الداراني[8] ، قال : سألت بعض المشايخ عن إسم الله الأعظم قال : تعرف قلبك ؟؟ قال : قلت : نعم ، قال : فإذا رأيته قد أقبل ورق فسل الله حاجتك ، فذاك إسم الله الأعظم[9] .

وهــذا القــول مآله إلى القول الأول بمعنى أنه لا وجود للإسم الأعظم ، ولكنها حالة من الشفافية والإخلاص وجمعية

---

(١) الحاوي (١/٣٩٧) .

(٢) سورة الأنبياء الآية(٨٧)، والحديث اخرجه أبي حاتم في تفسيره (٨/٢٤٦٥) ، (١١٣٧١٤) قال : " ثنا أبي ثنا أحمد بن أبي سريج ، ثنا داود بن المحبر بن قحذم المقدسي عن كثير بن معبد ، قال : سألني الحسن ... " إسناده ضعيف جداً ، علته داود بن المحبر قال الذهبي في الميزان : (٢/٢٠) قــال أحمد : " لا يدري ما الحديث " قال ابن المديني : " ذهب حديثه " وقال أبو زرعة وغيره : " ضعيف " وقال أبو حاتم : " ذاهب الحديــث ، غيــر ثقــة " - وقال الدارقطني : " متروك " وفيه أيضاً كثير بن معبد وهو القيسي ، لا يكاد يعرف ، ضعفه الأزدي ، الذهبي : الميزان (٣/٤١٠) وانظر لسان الميزان لابن حجر ، ترجمة رقم (٦٨٢٠) .

(٣) الحاوي (١/٣٩٧) ، والفتح (١١/٢٢٥) .

(٤) الحاوي (١/٣٩٧) وفتح الباري (١١/٢٢٥) .

(٥) الحاوي (١/٣٩٧) .

(٦) طيفــور بــن عيسى البسطامي ، أبو يزيد ، زاهد مشهور ، نسبته إلى بسطام بلدة بين خراسان والعراق أصله منها ولد سنة (١٨٨هـ-٨٠٤م) ووفاتــه بهــا (٢٦١هـ-٨٧٥م) ، طبقات الصوفية (٦٧-٧٤) وفيات الأعيان (١/٢٤٠) ، ميزان الاعتدال (١/٤٨٠) حلية الأولياء (١٠/٣٣) الشعراني (١/٦٥) الاعلام (٣/٢٣٥) .

(٧) الحاوي (١/٣٩٧) ، وانظر : حلية الأولياء (١٠/٣٣) .

(٨) عبدالرحمن بن أحمد بن عطية العنسى ، المذحجى ، أبو سليمان ، زاهد مشهور من أهل داريا بغوطة دمشق توفي بها (٢١٥هـ-٨٣٠م) كان مــن كبار المتصوفين ، انظر : طبقات الصوفية (ص٧٥-٨٢) ، وفيات الأعيان (١/٢٧٦) ، حلية الأولياء (٩/٢٥٤) ، تاريخ بغداد (١٠/٢٤٨) الإعلام (٣/٢٩٣) .

(٩) أبو نعم : الحلية (٩/٢٥٦) .

القلب على الله والالتجاء إليه فعند هذه الحالة يكون الإسم الأعظم .

ولكــن يرد على هذا أن الله تعالى يجيب المضطر إذا دعاه كما ورد في الكتاب العزيز[١] ، والمضطر يشمل من كــانت حالته ما ذكر ، ويشمل غيره ، ويرد عليه كذلك ان من شروط استجابة الدعاء وليس هوبعينه اسم الله الأعظم ، مما يبين معه ضعف هذا القول .

القــول السابع عشر : أن الإسم الأعظم هو (اللهم)[٢] نقله السيوطي عن الزركشي[٣] الذي حكاه في شرح جمع الجوامع واســتدل لذلك بدليل عقلي لا شرعي قال : إن " الله دال على الذات ، والميم دالة على الصفات التسعة والتسعين ... ولهذا قال الحسن البصري : (اللهم) مجمع الدعاء ، وقال النضر ابن شميل : من قال : اللهم ، فقد دعا الله بجميع أسمائه "[٤] .

وهذا الكلام أيضاً يعوزه الدليل الشرعي .

القول الثامن عشر : أنه (مالك الملك) عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إســم الله الأعظــم الــذي إذا دعي بــه أجاب في هذه الآية من آل عمران : (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء[٥]...) إلى قوله تعالى : (...وترزق من تشاء بغير حساب) "[٦] وحكم السيوطي على ضعف سند هذا الحديث وكفانا المؤونة[٧] .

القــول التاســع عشر : أنه في ست آيات من أول سورة الحديد . قال السيوطي في تفسير قوله تعالى : (فسبح بإسم ربك العظيم)[٨] :

" يحــتمل أن يكــون المعنى سبح الله بذكر أسمائه ، والإسم هنا جنس الأسماء ، والعظيم صفة للرب ، أو يكون الإسم هنا واحــداً ، والعظيــم صفة له ، وكأنه أمر أن يسبح بإسمه الأعظم ويؤيد هذا ويشير إليه إتصال سورة الحديد بها وفي أولها التسبيح وجعله من صفات الله وأسمائه .

قال ابن عباس : إسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد ، وروى أن الدعاء بعد قراءتها مستجاب "[٩]

وروى السيوطي في الدر المنثور عن علي بن أبي طالب قال : إذا أردت أن تدعو الله بإسمه الأعظم ، فاقرأ من أول ســورة الحديد إلى آخر ست آيات منها ، وآخر سورة الحشر يعني أربع آيات ، ثم ارفع يديك فقل : يا من هو هكذا ، اسألك بحق هذه الأسماء أن تصلي على محمد ، وأن تفعل بي كذا وكذا مما تريد ، فوالله الذي لا إله غيره ، لتنقلبن بحاجتك

---

(١) قال تعالى : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون) النمل الآية (٦٢) .
(٢) الحاوي (٣٩٧/١) .
(٣) نفسه .
(٤) نفسه .
(٥) سورة آل عمران ، الآية (٢٦) .
(٦) الطبراني في الكبير .
(٧) الحاوي (٣٩٦/١) .
(٨) سورة الواقعة الآية (٩٦) .
(٩) معترك الأقران (١١٠/٣) .

إن شاء الله[١] .

خلاصة هذا البحث :

أولاً : ثبوت الإسم الأعظم من أسماء الله جل وعلا حقيقة لا جدال فيها ، يدل عليها ما صح من الأحاديث النبوية .

ثانيـــاً : كـــلام العلماء بشأن الإسم الأعظم وحديثهم عنه ، واختلافهم في تعيينه مما يدل دلالة واضحة وقاطعة على ثبوت الإسم الأعظم خلافاً لمن أنكره .

ثالـــثاً : أرجح الأقوال السابقة في تعيين الإسم الأعظم هو ما ورد من حديث عبدالله بن بريدة ، عن النبي – صلى الله عليه وســـلم – أنه سمع رجلاً يدعو ويقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولـــم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : والذي نفسي بيده لقد سأل الله بإسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى "[٢] قال الترمذي هذا حديث صحيح .

وكذلـــك ما ورد من حديث أنس – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سمع رجلاً يدعو : الـــلهم إنـــي أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنان ، بديع السموات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، ياحي ياقيوم ، فقال : لقد سأل الله بإسمه الأعظم "[٣] .

وممن رجح هذا الذي ذكرت :

- ابن حجر في فتح الباري[٤] .
- ابن القيم في مدارج السالكين[٥] .
- السيوطي في الحاوي[٦] .
- الشوكاني في تحفة الذاكرين[٧] .

وبقية الأقوال إما ضعيف ، وإما أنه لا دليل عليه .

المطلب الخامس : الصفات الذاتية

تقسيم : يقسم أهل السنة صفات الله تعالى إلى قسمين : صفات ذاتية ، وصفات فعلية[٨] .

١- فالصـــفات الذاتية : هي الصفات المتعلقة بذاته المقدسة التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها ، وهي لا تنفك عنه سبحانه ، بل هي لازمة لذاته أزلاً وأبداً وهي قسمان :

---

(١) الدر المنثور مجلد (٨) (جـ٢٧/٤٨) ، وقال السيوطي : أخرجه ابن النجار في تاريخ بغداد بسند ضعيف .

(٢) سبق تخريجه في القول التاسع .

(٣) سبق تخريجه في القول الثامن .

(٤) انظر : (٢٢٥/١١) .

(٥) انظر : (٢٣/١) بتحقيق محمد حامد الفقي .

(٦) انظر : (٣٩٦/١) .

(٧) انظر : (ص/٥٢) .

(٨) انظـــر : العلامة محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي : لوامع الأنوار البهية (١١٢/١) الحاشية من تعليق العلامة الشيخ عبدالله ابن عبدالرحمن بن عبدالعزيز أبا بطين .

كصـفة الحيـاة ، والعلم والقدرة ، والإرادة ، والقوة ، والعزة ، والملك والعظمة والكبرياء ، والمجد ، والجلال ، والسمع والبصر و الوجه ، واليدين والعين ونحوها .

وأمـا الصـفات الفعلية : فهي الصفات التي تتعلق بمشيئته وقدرته ، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها كالخلق ، والرزق ، والإعطـاء ، والمـنع ، والإحيـاء ، والإماتة ،والرحمة ، وأنواع التدبير المختلفة .وكذلك الاستواء على العرش وخبرية : كالإستواء على العرش ، والمجئ والإتيان ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والرضى والغضب ، والمحبة ونحوها[١]...

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية بإعتبارين : كصفة الكلام : فإنه بإعتبار أصل الصفة صفة ذاتية ، لأنه تعالى لم يزل ولا يـزال متكـلماً ، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية ، لأن الكلام متعلق بمشيئته - عز وجل - يتكلم متى شاء بما شاء كيف شاء[٢] - سبحانه وتعالى - قال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)[٣] .

١- صفة الحياة :

أثبت السيوطي صفة الحياة لله جل وعلا ، وهي من الصفات السمعية العقلية - كما قدمت - .

- أمـا العقل فإنه يثبت - ضرورة وإستدلالاً - أن الله تعالى متصف بالحياة ، إذ لو لم يتصف بالحياة ، لا تصف بضدها وهـو الموت والفناء - تعالى الله - وهو محال ، بدليل ظهور الأفعال منه سبحانه ، واستحالة ظهورها ممن يجهلها ويعجز عـنها ، فهـو عالم وقادر ، ويستحيل قيام العلم والقدرة بغير الحي[٤] . ولأن الحياة من صفات الكمال ، بل هي مستلزمة لجميع صفات الكمال ، وكل كمال لا نقص فيه ثبت لمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق فهو أولى به[٥] .

- وأمـا السمع : فقد ورد في القرآن الكريم وصف الله تعالى بأنه حي في كثير من الآيات قال تعالى : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)[٦] وقال تعالى : (وتوكل على الحي الذي لا يموت...)[٧] وقال : (وعنت الوجوه للحي القيوم)[٨] وقال : (

---

(١) انظر : د.محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية (١٥٩-١٦٠) .
والشيخ محمد بن صالح العثيمين : شرح لمعة الاعتقاد (ص١١-١٢) .
وعبدالعزيز المحمد السلمان : الكواشف الجلية عن معاني الواسطية (ص٤٢٩-٤٣٠) .

(٢) انظر في جميع تقسيم ما تقدم :
- الأسماء والصفات : للبيهقي (ص/١٣٧-١٣٨) ، والفتاوى السعدية : للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ص/٨) ، والتنبيهات السنية على العقيدة الواسطية : لعبدالعزيز ابن ناصر الرشيد (ص١٩-٢٠) .
والتنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة : للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي (ص/٤٠-٤١) .
وشرح العقيدة الواسطية : د.محمد خليل هراس (ص/١٥٩-١٦٠) ، والإمام الخطابي ومنهجه في العقيدة : بقلم أبي عبدالرحمن الحسن بن عبدالرحمن العلوي (ص١٤٧) والكواشف الجلية : عبدالعزيز المحمد السلمان (ص/٤٢٩-٤٣٠) ، وشرح لمعة الإعتقاد : محمد بن صالح العثيمين (ص١١-١٢) ومنهج الإمام الشوكاني في العقيدة : د.عبدالله نوموك (٤٠٠/١) .

(٣) سورة يس الآية (٨٢) .

(٤) انظـر : عضـد الديـن عـبدالرحمن بن أحمد الإيجي : المواقف في علم الكلام (ص٢٩٠) ، وحاشية الدسوقي على أم البراهين : الشيخ محمد الدسوقي (١٠٨) .

(٥) انظر : محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية (٢٣-٢٤) وانظر كذلك : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (١٤١/٩) .

(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٥) وسورة آل عمران الآية (٢) .

(٧) سورة الفرقان الآية (٥٨) .

(٨) سورة طه الآية (١١١) .

هو الحي لا إله إلا هو)[١] .

وقد ذكر السيوطي أن من صفات الله تعالى الحياة ، قال : " وهي صفة تقتضي صحة العلم لموصوفها "[٢] بمعنى أنها تصح لمن قامت به أن يتصف بالإدراك الذي هو العلم[٣] ، فمن اتصف بالحياة لا يستحيل اتصافه بالإدراك فما دام حياً فإنه يصح وصفه بالعلم والقدرة ، ومن كان عالماً قادراً يجب أن يكون حياً .

قـال الشيخ محمد بن صالح العثيمين : " فالحي ذو الحياة الكاملة المتضمنة لأكمل الصفات التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال "[٤] .

وقـال السـيوطي : " الحي ... الذي له حياة "[٥] وقال في موضع آخر : " الحي : الدائم بالبقاء "[٦] ويشهد لهذا التفسير قوله تعالى : (وتوكل على الحي الذي لايموت...)[٧] فهو تعالى دائم بالبقاء لا يموت عز وجل [٨].

فـالله – عز وجل – حي لم يزل موجوداً ، وبالحياة موصوفاً ، وسائر الأحياء يعترضهم الموت والعدم ، والحياة صفة ذاتية حقيقية قائمة بذاته تعالى[٩] ، جامعة لسائر الصفات متقدمة الرتبة عليها ، فلا يتقدمها إلا الوجود[١٠] .

٢- صفة البقاء :

وهي استمرار الوجود فيما لا يزال[١١] ، وقيل هي نفي العدم اللاحق بعد الوجود ، والبقاء صفة واجبة له تعالى ، كما وجب له القدم ، لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه[١٢] .

فإنـه سبحانه لو قدر لحوق العدم له ، لكانت نسبة الوجود والعدم إلى ذاته تعالى سواء ، فيلزم افتقار وجوده إلى موجـد يخـترعه بدلاً عن العدم الجائز عليه – تقدس وتعالى عن ذلك – فيكون حادثاً ، واللازم باطل ، فكذا الملزوم لأن وجوده تعالى واجب لذاته[١٣] .

ولذلك أثبت السيوطي لله تعالى – فيما سبق – صفة الحياة ، وفسر الحي بأنه الدائم بالبقاء ، فإذا كانت قد ثبتت له تعالى صفة الحياة الكاملة التي لا يلحقها زوال ، ثبت له تعالى البقاء بطريق اللزوم .

فالحياة الكاملة اللائقة بكماله – جل وعلا – تستلزم جميع صفات الكمال .

---

(١) سورة غافر الآية (٦٥) .
(٢) علم التوحيد لوحة (ص٣) ، الكوكب الساطع – مخطوط لوحة رقم (١٦٣/أ) .
(٣) انظر : الشيخ محمد الدسوقي : حاشية الدسوقي على أم البراهين (ص/١٠٨) .
(٤) تعليقات على العقيدة الواسطية (ص١٣) .
(٥) الكنز المدفون والفلك المشحون (ص٩٤) .
(٦) تفسير الجلالين (ص٤٩) .
(٧) سورة الفرقان الآية (٥٨) .
(٨) انظر : الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١٥/٣) وبمثل هذا التفسير اورده السيوطي عن الربيع وقتادة .
(٩) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٤١/١) .
(١٠) انظر : نفس المصدر (١٣٢/١) .
(١١) انظر : السيوطي : الكوكب الساطع – مخطوط لوحة رقم (١٦٣–ب) .
(١٢) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٣٩/١) .
(١٣) انظر : نفس المصدر .

والبقاء الذي لا يلحقه عدم ، صفة من صفات الكمال تستلزمها صفة الحياة .

يقول ابن أبي العز : " فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة ... فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فــلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها - استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة "[١] .قال تعالى (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)[٢] .

وقــال : (هو الأول والآخر)[٣] قال السيوطي في معنى الآخر : " الذي لا انتها ء لوجوده "[٤] وقال أيضاً : " بقــاؤه تعالى غير مستفتح ولا متناه ، أي لا أول له ، ولا آخر ، فهو والقدم راجعان إلى استمرار الوجود في الماضي إلى غيــر غايــة ، وفي المستقبل إلى غير نهاية "[٥] . وقال في معنى الباقي : " الذي دام وجوده وفي معناه الوارث "[٦] . قال مؤلف الطحاوية : " قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء "[٧] .

وقال الشارح : " قوله : لا يفنى ولا يبيد ، إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى ... ومؤكد لقوله دائم بلا انتهاء "[٨] .

قال - صلى الله عليه وسلم - : " اللهم أنت الأول فليس قبلك شئ ، وأنت الآخر فليس بعدك شئ... "[٩] .

قال ابن أبي العز : " والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر "[١٠] .

٣- صفة القدرة :

القدرة صفة أزلية ، تؤثر في المقدورات بإيجادها عند تعلقها بها على طبق العلم والإرادة[١١] .

وفــي اثــباتها يقول السيوطي في معنى إسم الله " القادر " الذي له القدرة ، وفي معناه المقتدر ... والقوي المتين بمعنى القادر "[١٢] .

ويقول أيضاً في معنى إسم الله تعالى " المقتدر" : " من أسماء الله ، ومعناه : من له القدرة والقوة والعظمة والكبرياء ، وإنمــا يوصف بذلك تعظيماً ، فكل مقدور معلوم ، وليس كل معلوم مقدوراً ، لأن المحالات كلها معلومة للقديم سبحانه ، وليست بمقدورة له "[١٣] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص١٢٥،١٢٤) .
(٢) سورة الرحمن رقم الآية (٢٧) .
(٣) سورة الحديد رقم الآية (٣) .
(٤) الكنز المدفون (ص/٩٥) .
(٥) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع - مخطوط - لوحة رقم (١٦٣/أ) .
(٦) الكنز المدفون (ص/٩٥) .
(٧) شرح العقيدة الطحاوية (ص/١١٣) .
(٨) شرح العقيدة الطحاوية (ص/١١٥) .
(٩) صحيح مسلم .
(١٠) شرح العقيدة الطحاوية (ص/١١٣) .
(١١) انظر : العلامة السفاريني : لوامع الأنوار البهية (١/١٥٠،٤١) ، وانظر كذلك الايجي : المواقف (١٥٠) .
(١٢) الكنز المدفون (ص٩٤) .
(١٣) معترك الأقران في إعجاز القرآن (٢/٤٩٤) ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين (ط١/١٤٠٨هـ-١٩٨٨م) دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

فالله تعالى هو القادر المقتدر ذو القدرة التامة الشاملة[١] .

وللقادر في لسان اللغة معنيان :

الأول : أن يكون بمعنى القدير ، من القدرة ، على كل شئ ...

الثاني : أن يكون القادر بمعنى المُقدِّر ، يقال : قَدَرَ ، وقدَّر (بالتخفيف والتشديد) معنى واحد قال تعالى : (فقدرنا فنعم القادرون)[٢] ، أي نعم المقدِّرون[٣] .

والدليل على قدرته تعالى إيجاد الأشياء وخلق هذا العالم الضخم الهائل علوية وسفلية بأجرامه وأفلاكه ، ويستحيل في الفطرة السليمة أن يكون خالق هذا العالم عاجزاً .

ومن المعلوم أن القدرة صفة كمال ، فإذا كان المخلوق قوياً قادراً على ما يفعله ، فالخالق تعالى أولى أن يكون قادراً قوياً على ما يفعله ، ومن المستقر في الفطر أنه إذا فرض الفاعل غير قادر على الفعل امتنع كونه فاعلاً[٤] .

فكل آيات الله الظاهرة والمعنوية ، وجميع مخلوقاته العلوية والسفلية تدل على كمال قدرته الشاملة ، التي لا يخرج عنها مثقال ذرة كما أنه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة ، وعبارة العبد تقصر عن ذلك المعنى العظيم ، وكفى العبد دليلاً أن ينظر في خلق نفسه كيف قدره أحكم الحاكمين ، وخلقه في أحسن تقويم ، وشق له السمع فسمع ، والبصر فأبصر ، واللسان فنطق ، والفؤاد فعقل إلى غير ذلك فكيف إذا سرح قلبه في عجائب الملكوت ، ونظر بعين بصيرته إلى مبدعات الحي الذي لا يموت ، ورأى الآيات الباهرة ، والبراهين الظاهرة على كمال قدرة ذي العزة والجبروت .

فالله تعالى القدير الذي له مطلق القدرة ، وكمالها وتمامها ، ما كان ليعجزه من شئ في الأرض ولا في السماء ، الذي ما خَلْقُ الخلق ولا بعثهم في كمال قدرته إلا كنفس واحدة الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، الذي وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما أي لا يكرثه ولا يثقله ، الفعال لما يشاء إذا شاء كيف شاء في أي وقت شاء .

قال تعالى في إثبات قدرته جل وعلا : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً)[٥] .

وقال : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شئ قدير)[٦] .

وقال : (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شئ في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً)[٧] .

---

(١) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٤١/١) ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص١٦) .
(٢) سورة المرسلات الآية (٢٣) .
(٣) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٤١/١) ، والإمام أبو سليمان الخطابي : شأن الدعاء (ص٨٦) ت أحمد الدقاق ، والإمام أبو عبدالله القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٥/١١) .
(٤) انظر : لوامع الأنوار (١٥٠/١) .
(٥) سورة النساء الآية (١٣٣) .
(٦) سورة الحج الآية (٦) .
(٧) سورة فاطر الآية (٤٤) .

وقــال : (أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى ، بلى إنه على كل شئ قدير)[١] .

والآيات في هذا الباب كثيرة جداً يطول ذكرها . وأما الأحاديث النبوية فمنها :

قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حديث الاستخارة : " اللهم إني استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم ... " الحديث[٢] .

وقــد أجمعت الأمة على الإيمان والإقرار بقدرة الله جل وعلا ، حكى ذلك ابن حزم في الدرة [٣]، و الجويني في العقيدة النظامية[٤] .

يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين : " القدرة هي التمكن من الفعل بلا عجز ، وقدرة الله شاملة كل شئ "[٥] .

ولمثل هذا ذهب السيوطي حيث قال : " قدرته تعالى شاملة".

٤ ــ صفة الإرادة :

أثـبت السيوطي لله تعالى صفة الإرادة ، وهي من الصفات السمعية العقلية ، لأن العقل يثبت لله تعالى إرادة تليق بجلالــه – جل وعلا – وأنه مريد لأفعاله سبحانه ، إذ لو لم يتصف بالإرادة لا تصف بضدها ، كالسهو والإكراه ، ولكان مغلوباً مقهوراً على ما لا يريده – تعالى وتقدس – وهذا محال عليه – جل وعلا – بدليل ما ظهر في أفعاله – سبحانه – من تخصيص وترتيب ووضعها في مواضعها .

أمــا الســمع فقد وردت الآيات المثبتة لها في الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالى : (إن ربك فعال لما يريد)[٦] ، وقولــه : (وربك يخلق ما يشاء ويختار)[٧] ، وقوله : (إن الله يحكم ما يريد)[٨] ، وقوله : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)[٩] .

قال السيوطي : " الإرادة صفة تخصص أحد طرفي الشئ من الفعل والترك بالوقوع "[١٠] .

---

(١) سورة الأحقاف الآية (٣٣) .

(٢) أخرجه البخاري في مواضع من صحيحه منها : كتاب التهجد (١٩) باب (٢٥) ح رقم (١١٦٢) ، وفي كتاب الدعوات (٨٠) باب (٤٨) ح رقم (٦٣٨٢) ، وفي كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٠) ح رقم (٧٣٩٠) .

– وأخرجه أبو داود في سننه (٨٩،٩٠/٢) ح رقم (١٥٣٨) .

– وأخرجه الترمذي في سننه (٣٤٥،٣٤٦/٢) .

– وأخرجه النسائي في سننه (٦٦/٦) .

– وأخرجه ابن ماجة في سننه (٤٤٠/١) ح رقم (١٣٨٣) .

– وأخرجه الإمام أحمد في السمند (٣٤٤/٣) .

(٣)انظر : (٣٢١) .

(٤) (ص/٢٤) .

(٥) نقلها على الواسطية (ص/١٦) .

(٦) سورة هود الآية (١٠٧) .

(٧) سورة القصص الآية (٦٨) .

(٨) سورة المائدة الآية (١) .

(٩) سورة يس الآية (٨٢) .

(١٠) الكوكب الساطع – مخطوط لوحة رقم (١٦٣/أ) ، علم التوحيد – مخ – لوحة (٣) .

وتوضيح هذا أن يقال : إن نسبة الضدين إلى قدرته تعالى سواء ، فكما يمكن أن يقع بقدرته تعالى أحد الضدين يمكن أن يقع به الضد الآخر .

وكذلك نسبة وقوع كل منهما إلى الأوقات سواء ، فكما يمكن أن يقع في وقته الذي وقع فيه ، يمكن أيضاً أن يقع قبله أو بعده ، إذاً فلا بد من مخصص يرجح أحدهما على الآخر ، ويخصص له أيضاً وقتاً دون سائر الأوقات ، ولا يكون هذا المخصص إلا الإرادة[1] .ولذلك عرفها السيوطي بأنها صفة تخصص ... إلخ

ويبين السيوطي أن الله تعالى يريد ما علم أنه سيقع ويكون ، وأماماً لايكون فلا يريده سبحانه :

يقول السيوطي :

" ما علم تعالى أنه يكون أراده ، وما يعلم أنه لا يكون فلا يريده ، فالإرادة عندنا تابعة للعلم لا للأمر ، إذ لو أراد ما لا يقع لكان نقصاً في إرادته لكلالها عن النقوذ فيما تعلقت به "[2] .

ولم أر للسيوطي كلاماً في التفريق بين الأرادة والمشيئة . وهما في الأصل بمعنى واحد ، إلا أن السلف يقسمون الإرادة إلى : إرادة كونية خلقية وهي المستلزمة لوقوع المراد عموماً في العالم ، كقول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن[3] ، وعلى هذا فلا تتضمن المشيئة المعنى الثاني للإرادة .

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين :

" مشيئة الله هي إرادته الكونية ، وهي عامة لكل شئ من أفعاله وأفعال عباده ، والدليل قوله تعالى في أفعال الله (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها...)[4] والدليل في أفعال العباد قوله تعالى (ولو شاء الله ما فعلوه)[5] وإرادة الله صفة من صفاته وتنقسم إلى قسمين : **كونية** : وهي التي بمعنى المشيئة . **وشرعية** : وهي التي بمعنى المحبة .

فدليل الكونية قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام)[6] ، ودليل الشرعية قوله تعالى : (والله يريد أن يتوب عليكم)[7] "[8] .

والفرق بين الإرادة الكونية وبين الإرادة الشرعية :

أن الإرادة الكونية : لا بد فيها من وقوع المراد ، سواءً كان هذا المراد محبوباً لله أم غير محبوب له تعالى .

وأما الإرادة الشرعية فلا يلزم فيها وقوع المراد ، ولا يكون المراد فيها إلا محبوباً لله تعالى كما أن الإرادة الكونية تتحقق في حق الكافر كفرعون وأبي لهب دون الإرادة الشرعية . فالله تعالى أراد – كوناً – أن يكون فرعون وأبو لهب كافرين ، ولكنه أراد منهما الإيمان – شرعاً – فتحققت فيهما الأولى دون الثانية . فافترقتا .

---

(١) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (١٤٥/١) .
(٢) الكوكب الساطع – مخ – لوحة (١٦٣/أ) .
(٣) انظر : ابن تيمية : رسالة في الإرادة والأمر (ص٣٦٧) ضمن مجموعة الرسائل الكبرى – المجموعة الأولى .
(٤) سورة السجدة الآية (١٣) .
(٥) سورة الأنعام الآية (١٣٧) .
(٦) سورة الأنعام الآية (١٢٥) .
(٧) سورة النساء الآية (٢٧) .
(٨) تعليقات على العقيدة الواسطية (ص١٩) .

أمـا فـي حق المؤمن كأبي بكر الصديق وجميع الصحابة وغيرهم من المؤمنين فتجتمع في كل واحد منهم الإرادة الكونية والإرادة الشرعية .

لأن الله تعالى أراد - كوناً - إيماناً هؤلاء ، وأراد منهم الإيمان - شرعاً - فاجتمعتا[١] .

٥- صفة العلم :

قال السيوطي في تعريفها : " هي صفة ينكشف بها الشئ عند تعلقها به "[٢] وكذا قال السفاريني[٣] .

وصفة العلم صفة سمعية عقلية ، فالعقل يثبت أن لله تعالى علماً محيطاً بكل شئ ، وأنه تعالى عالم بكل شئ ، بل هو العليم سبحانه ، والعليم نعت على سبيل المبالغة[٤] في وصفه بكمال العلم[٥] ، أحاط بكل شئ علماً ، وأحصى كل شئ عدداً[٦] .

ويدل على علمه تعالى : إيجاده للأشياء في هذا الكون ، لاستحالة إيجاده الأشياء مع الجهل بها[٧] .

ولأن إيجـاده تعـالى للأشـياء هو بإرادته ، والإرادة تستلزم تصور المراد ، وهو العلم ، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة ، والإرادة مستلزمة للعلم ، فالإيجاد مستلزم للعلم[٨] . ولأن مِنَ المخلوقين مَنْ هو عالم ، والعلم صفة كمال ، وكل كمال اتصف به المخلوق من غير استلزام نقص ، فالخالق تعالى أحق به ، وأكمل فيه منه[٩] .

وهـذا الدليل له طريقان : **أولهما** : أن يقال : يُعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق ، وأن الواجب أكمل من الممكن ، ويُعلم بالضرورة أنا إذا فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم ، كان العالم أكمل ، فلو لم يكن الواجب عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه ، وهو ممتنع[١٠] .

الـثاني : أن يقال : كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عارياً مـنه ، بـل هـو أحق به ، والله سبحانه وتعالى له المثل الأعلى ، لا يستوي هو والمخلوق في العلم فضلاً عن أن يكون المخـلوق أعـلم مـنه - جل وعلا - بل كل ما ثبت لمخلوق أعلم منه - جل وعلا - بل كل ما ثبت لمخلوق من كمال ، فالخالق تعالى أحق به[١١] . وطـريق ثبوت صفة العلم لله تعالى سمعاً من الكتاب والسنة كثير جداً كقوله تعالى : (إن الله بكل شئ عليم)[١٢] وقوله : (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم...)[١٣] وقوله : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم

---

(١) شرح الواسطية - هراس (ص/٥٢،٥١) ، انظر : ابن عثيمين : تعليقات على الواسطية (١٩) .

(٢) علم التوحيد - مخ - لوحة (٣) .

(٣) لوامع الأنوار (١/١٤٥) .

(٤) انظر السيوطي : الكنز المدفون (ص٩٤) .

(٥) انظر : الخطابي : شأن الدعاء (ص٥٧) .

(٦) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (١/٤١) ، الخطابي : شأن الدعاء (ص٥٧) .

(٧) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (١/١٤٨) نقلاً عن ابن تيمية .

(٨) نفسه .

(٩) انظر : ابن تيمية : رسالة الإرادة والأمر - ضمن مجموعة الرسائل الكبرى (١/٣٨٢) .

(١٠) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (١/١٤٩) نقلاً عن ابن تيمية .

(١١) نفسه .

(١٢) سورة العنكبوت الآية (٦٢) .

(١٣) سورة البقرة الآية (٢٥٥) .

مـا فـي الـبر والـبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)[١] . وقوله : (يعلم ما في السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليم بذات الصدور)[٢] وقوله : (يعـلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها)[٣] وبعد أن أثبت السيوطي صفة العلم لله تعـالى قـرر أن عـلمه تعالى شامل محيط بكل شئ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض . قال السيوطي : " علمه تعالى شامل لكل معلوم أي ما من شأنه أن يعلم ممكناً كان أو ممتنعاً ، جزئياً أو كلياً قال تعالى : (أحاط بكل شئ علماً)[٤] (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها)[٥] الآية (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة)[٦] الآية (ألا يعلم من خلق)[٧] " ثم نقل عن الإمام النووي في شرح المهذب رداً على من أنكر علم الله تعالى بالجزئيات ، قال : " قال في شـرح المهـذب ومن أنكر علمه تعالى بالجزئيات فهو كافر ، ثم قال : كثير من أهل السنة : إنه لا يحصل بذلك تغير في علمه تعالى فإن العلم بأنه سيوجد هو العلم بوجوده في زمن الوجود ، فإذا علم أن فلاناً في الجزء الفلاني من النهار قاعد ، وفـي الجزء الفلاني مضطجع ، وفي الجزء الفلاني قائم ، كانت حالته في كل جزء من النهار ما علم تعالى كونه عليه في تلك الحالة ، فلا تغير في العلم ، فإن العلم بتفاصيل ذلك قديماً ، وإنما يحتاج الخلق إلى علم آخر لطروا الغفلة منهم ، وقال آخـرون منهم بالتغير ، وقالوا : إنما يمتنع التغير في الصفات الحقيقية دون الإضافية ، فإن التغير فيها لا يوجب تغيراً في الـذات ، ومـثّل ذلك باسطوانه قام إنسان عن يمينها ، فقلنا الإسطوانة عن يساره ، ثم عن يسارها فقلنا صارت يمينه ، ثم تحول إلى غيرها ، فقلنا صارت أمامه أو وراءه ، فالاسطوانة لم تتغير ، وإنما المتغير المتنقل .

وصـدقت هذه العبارة عليها للإضافة فلذا إذا قلنا الله عالم الآن بما نحن فيه ، وقد كان عالماً بما كنا أمس عليه ، وسيكون عالماً بما نكون عليه غداً ، فالتغير جار على أحوالنا وهو تعالى أمس واليوم وغداً في معنى كونه عالماً في جميع الأحوال على حد واحد "[٨] وردُّ السيوطي على من أنكر علم الله تعالى بالجزئيات هو في الحقيقة رد على الفلاسفة لأنهم هم الذين قالوا بذلك ، وقد كفرهم أبو حامد الغزالي كذلك في آخر كتابه " تهافت الفلاسفة " فقال في خاتمته : " فإن قال قائل : قد فصلتم مذاهب هؤلاء أفتقطعون القول بكفرهم ووجوب القتل لمن يعتقد اعتقادهم ؟؟ .

قلنا : تكفيرهم لابد منه في ثلاث مسائل : **احداها :** مسئلة قدم العالم ، وقولهم إن الجواهر كلها قديمة .

والثانية : قولهم إن الله لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص . **والثالثة :** في انكارهم بعث الأجساد وحشرها .

فهـذه المسـائل الثلاث لا تلائم الإسلام بوجه ، ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء ، وأنهم ذكروا ما ذكروه على سبيل

---

(١) سورة الأنعام الآية (٥٩) .

(٢) سورة التغابن الآية (٤) .

(٣) سورة سبأ الآية ٢) وسورة الحديد الآية (٤) .

(٤) سورة الطلاق الآية (١٢) .

(٥) سورة الأنعام الآية (٥٩) .

(٦) سورة سبأ الآية (٣) .

(٧) سورة الملك الآية (١٤) .

(٨) الكوكب الساطع – مخ – لوحة (١٨،١٩) ، وانظر النووي : المجموع شرح المهذب .

المصلحة تمثيلاً لجماهير الخلق ، وتفهيماً ، وهذا هو الكفر الصراح الذي لم يعتقده أحد من فرق المسلمين "[١] .

وحكى ابن تيمية أن الغزالي قد كفر الفلاسفة أيضاً في كتاب " فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة "[٢] .

وفي تأكيد الرد على المنكرين لعلم الله تعالى بالجزئيات يقول السيوطي في تفسير قوله تعالى : (قل لو كان البحر مـــداداً لكلمات ربي لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي)[٣] قال : " وفي الآية اخبار عن اتساع علم الله تعالى ... والكلمات هي المعلومات فمعنى الآية : لو كتب علم الله بمداد البحر ، لنفد البحر ولم ينفد علم الله ، وكذلك لو جيئ ببحر مثله ، وذلك أن الـــبحر متناه ، وعلم الله غير متناه "[٤] ويقول السيوطي أيضاً في تفسير قوله تعالى : (ولو أنما في الأرض من شجرةٍ أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم)[٥] .

قال : " إخبار بكثرة كلمة[٦] الله ، والمراد اتساع علمه ، ويعني أنه لو كانت شجرة الأرض أقلاماً ، والبحور مداداً تصـــب فيـــه[٧] صبّاً دائماً ، وكتبت بذلك كلمات الله ، لنفدت الأشجار والبحار ولم تنفد كلمات الله ، لأن الأشجار والبحار متناهية ، وكلمات الله غير متناهية[٨] ، فإن قلت : لِمَ لَمْ يقل : والبحر مداداً ، كما قال في الكهف ؟

فالجواب أنه أغنى عن ذلك قوله : (يمده) ، لأنه من قوله مدّ الدواة وأمدها .

فـــإن قـــلت : لـــم قال (من شجرة) ، ولم يقل من شجر ، باسم الجنس الذي يقتضي العموم ؟ فالجواب أنه أراد تفصيل الشجر ، إلى شجرة شجرة ، حتى لا يبقى منها واحدة . فـــإن قـــلت : لم قال : (كلمات الله) ولم يقل كلام الله بجمع الكثرة ؟ . فالجواب أن هذا أبلغ ، لأنه إذا لم تنفد الكلمات مع أنها جمع قلة ، فكيف ينفد الجمع الكثير ؟؟ وروى أن سبب نزول الآية قول اليهود : قد أوتينا التوراة وفيها العلم كله ، فنزلت الآية لتدل على أن ما عندهم قليل من كثير ، والآية على هذا مدنية . وقيل سببها أن قريشاً قالوا : إن القرآن سينفد "[٩] .

ويقول السيوطي أيضاً في اثبات علم الله تعالى المحيط بكل شئ الكليات والجزئيات : " لا يغيب عن علم الله مثقال ذرة وقد قدمنا أن الذرة صغار النمل أو بيضها "[١٠] .

٦،٧- صفتا السمع والبصر :

قال السيوطي : " وهما صفتان يزيد الانكشاف بهما على الانكشاف بالعلم "[١١] .

---

(١) (٢٥٤/١) ط٣ بدون تاريخ دار المشرق - بيروت ، حقّقه ووقف على طبعه موريس بويج في طبعة أولى سنة ألف وتسعمائة وسبع وعشرين وأعيد طبعه مصدراً بدراسة للدكتور ماجد فخري .

(٢) انظر : بغية المرتاد (ص٣٣٢) ت.د. موسى بن سليمان الدويش ط١٤٠٨/١هـ-١٩٨م.

(٣) سورة الكهف الآية (١٠٩) .

(٤) معترك الأقران (١٠٧/٢) ونحوه في تفسير الجلالين (ص٣٦٤) .

(٥) سورة لقمان الآية (٢٧) .

(٦) هكذا بالافراد ، والكلمة الواحدة لا يتصور فيها كثرة ولعلها كلمات .

(٧) لم يتقدم في كلام السيوطي ذكر اسم يعود عليه الضمير ، ومفهوم من سياق الكلام أنه البحر ، لكن الكلام على هذا يعتبر ناقصاً .

(٨) نحو هذا التفسير في تفسير الجلالين (ص/٥٠٠) .

(٩) معترك الأقران (٤٠٢،٤٠٣/٢) ، وانظر : لباب النقول في أسباب النزول سورة لقمان ، وانظر : الدر المنثور (٥٢٨/٢١) ولم يذكره الواحدي .

(١٠) معترك الأقران (٣٨٦/٣) .

(١١) علم التوحيد - مخ - لوحة (٣) ، الكوكب الساطع - مخ - لوحة (١٦٣/ب) ز

وهاتـــان الصفتان من الصفات السمعية العقلية ، فالعقل يثبت بالضرورة أن الله الحي القدير العليم يجب أن يتصف بالسمع والبصـــر ، إذ لولم يتصف بالسمع والبصر لا تصف بضد ذلك وهو العمى والصم ، وهذا محال ، لأن السمع والبصر من صفات الكمال ، فإن الحي السميع البصير أكمل من حيّ لا يُسمع ولا يبصر كما أن الموجود الحيّ ، أكمل من موجود ليس بحي ، وكل كمال اتصف به المخلوق من غير استلزام نقص فالخالق به أولى ، لأنه تعالى يتنزه عن كل نقص وعيب .

وثـــبت أيضاً بالنصوص الكثيرة من الكتاب والسنة أن الله تعالى سميع بصير ، ففي الكتاب العزيز قوله تعالى : (ليـــس كمثله شئ وهو السميع البصير)[١] ، وقوله تعالى : (إنني معكما أسمع وأرى)[٢] ، وقوله تعالى : (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون)[٣] ، وقوله تعالى (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير)[٤] .

ووردت الســـنة النبوية كذلك بإثبات هاتين الصفتين فعن عائشة قالت : " تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها ، إن المـــرأة لتناجي النبي - صلى الله عليه وسلم - اسمع بعض كلامها ، ويخفى علي بعض كلامها إذ أنزل الله (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)[٥] وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " اربَعُوْا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، تدعون سميعاً بصيراً قريباً... " الحديث[٦] .

وعـــن أبي يونس سليم بن جبير[٧] ، مولى أبي هريرة قال : سمعت أبا هريرة يقرأ هذه الآية : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)[٨] إلى قوله : (سميعاً بصيراً) قال[٩] : رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه "[١٠] .

قال الخطابي : " وضعه اصبعه على أذنه وعينه عند قراءته سميعاً بصيراً ، معناه اثبات صفة السمع والبصر لله سبحانه "[١١] .

---

(١) سورة الشورى الآية (١١) .

(٢) سورة طه الآية (٤٦) .

(٣) سورة الزخرف الآية (٨٠) .

(٤) سورة المجادلة الآية (١) .

(٥) ابـــن جريـــر الطبري : جامع البيان مجلد (١٤ جـ٢٨/٥) ورواه البخاري تعليقاً في صحيحه كتاب التوحيد ، باب الفتح (٣٧٢/١٣) ، ورواه الامام احمد في مسند موصولاً(٤٦/٦) ، وابن ماجة (٦٧/١) رقم (١٨٨)، وانظر: ابن كثير في تفسيره(٦٠/٨) .

(٦) البخاري في صحيحه - كتاب التوحيد (٩٧) باب (٩) ، انظر الفتح (٣٧٢/١٣) ح (٧٣٨٦) .

ومسلم في صحيحه - كتاب الذكر (٤٨) باب (١٣) انظر (٢٠٧٦/٤) ح (٢٧٠٤) ، ومعنى اربعوا أي ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم .

(٧) أبـــو يونـــس سليم بن جبير المصري ، ثقة ، مات سنة (١٢٣هـ) انظر : التاريخ الكبير (١٢٢/٤) ، تهذيب التهذيب (١٦٦/٤) والتقريب (ص٢٤٩) .

(٨) سورة النساء الآية (١١) .

(٩) أي أبو هريرة - رضي الله عنه .

(١٠) أبـــو داود فـــي ســـننه - كتاب السنة - باب (١٩) ح (٤٧٢٨) (٩٦/٥-٩٧) ، والدارمي في الرد على بشر المريسي العنيد (ص٤٧) ، وابن خـــزيمة : الـــتوحيد (٩٧/١-٩٨) واللالكـــائي : شرح أصول الاعتقاد (٤١٠/٣) ، وقال عقبة : (وهو اسناد صحيح على شرط مسلم ، يلزمه إخراجه " والبيهقي : الاسماء والصفات (٢٣٣،٢٣٤) والهروي في كتاب الأربعين (ص٦٦-٦٧) وقال ابن حجر : " أخرجه أبو داود بسند قوي على شرط مسلم من رواية أبي يونس..." انظر الفتح (٣٧٣/١٣) .

(١١) معالم السنن (٣٣٠/٤) ، شأن الدعاء (ص٥٩-٦١) .

قــال شارح الواسطية : " ومعنى السميع : المدرك لجميع الأصوات مهما خفتت فهو يسمع السر والنجوى ، يسمع هــو صفة لا يماثل أسماع خلقه ، والبصير ك المدرك لجميع المرئيات من الأشخاص والألوان مهما لطفت أو بعدت ، فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والأستار ... وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذي يليق به "(١) .

ومــن الخطــأ الاعتقاد أن سمعه تعالى هو علمه بالمسموعات ، وبصره علمه بالمبصرات فإن الأعمى يعلم بوجود السماء ولكنه لا يراها ، وكذا الأصم يعلم بوجود الأصوات ولكنه لا يسمعها .

فسمع الله تعالى من الصفات الذاتية الثابتة له حقيقة على الوجه الذي يليق بجلاله تعالى . وهو على قسمين :

الأول : بمعنى الإجابة ، وهذا من الصفات الفعلية ودليله قوله تعالى : (إن ربي لسميع الدعاء)(٢) .

الثاني : بمعنى إدراك المسموع ، وهذا من الصفات الذاتية ، ودليله سبق إيراده من سورة المجادلة وهو قوله تعالى : (قد سمع الله قول التي تجادل في زوجها...) الآية(٣) .

وهذا القسم قد يراد به - مع إدراك المسموع - النصر والتأييد كما في قوله تعالى (إنني معكما أسمع وأرى)(٤) . وقــد يراد به أيضاً التهديد كقوله تعالى : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء)(٥) والبصير بمعنى إدراك المرئيات والمبصرات ، قد يراد به أحياناً النصر والتأييد كالآية التي شرحتها قبل قليل من سورة طه وهي قوله تعالى : (إنــني معكمــا أسمع وأرى)(٦) . وقد يراد به ايضاً التهديد كما في قوله تعالى : (ألم يعلم بأن الله يرى)(٧) وهذا المعنى لصفة البصر هو قسم من قسمي الرؤية ، وهي صفة ذاتية لله تعالى - أيضاً - ثابتة له حقيقة على ما يليق به تعالى .

وأمــا القســم الــثاني من هذه الرؤية : فهو الرؤية بمعنى العلم ، كما في قوله تعالى : (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً)(٨) أي نعلمه(٩) .

قــال ابن القيم عند ذكره لحديث أبي هريرة الذي أوردته سابقاً " وضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه " رفعــاً لــتوهم مــتوهم أن المراد بالسمع والبصر غير الصفتين المعلومتين ، وأمثال هذا كثير في القرآن والسنة ، كما في الحديــث الصــحيح أنه - صلى الله عليه وسلم - قال : " يقبض الله سمواته بيده ، والأرض بيده الأخرى "(١٠) ثم جعل

---

(١) محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية (ص/٤٩-٥٠) .
(٢) سورة إبراهيم الآية (٣٩) .
(٣) سورة المجادلة الآية (١) .
(٤) سورة طه الآية (٤٦) .
(٥) سورة آل عمران بعض الآية (١٨١) .
(٦) سورة طه الآية (٤٦) .
(٧) سورة العلق الآية (١٤) .
(٨) سورة المعارج الآيتان (٦،٧) .
(٩) انظر فيما تقدم من التقسيمات للسمع والبصر : الشيخ محمد بن صالح العثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص٢٥-٢٦) .
(١٠) إشارة إلى حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - الذي رواه مسلم في صحيحه كتاب صفة القيامة والجنة والتاريخ (٢٥) (٤/٢١٤٨-٢١٤٩) ، وابــن ماجة في سننه ، المقدمة ، باب (١٣) ح (١٩٨) (١/٧١-٧٢) وأحمد في المسند (٢/٧٢) ، والدارمي في الرد على بشر المريسي العنيد (ص٣١-٣٢) وابن أبي عاصم في السنة (ص٢٤٠-٢٤١) ، وابن خزيمة في التوحيد (١/١٧٠-١٧١) ، وأبو الشيخ في العظمة (٢/٤٣٧-٤٣٨) ، وابن منده في الرد على الجهمية (ص٧٤-٧٥) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٢٧) .

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقبض يده ويبسطها تحقيقاً لإثبات اليد ، وإثبات صفة القبض "[١] .

وحديث أبي هريرة المتقدم ، ساق ابن خزيمة لإثبات صفة العين[٢] ، وسيأتي الكلام عنها .

٨- **صفة الكلام :**

هـذه الصفة العظيمة وقع حولها خلاف واسع بين الفرق والطوائف ومن أجل هذا ينبغي أن أبين أولاً – وقبل أن أعرض لكلام السيوطي في إثبات هذه الصفة – مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في كلام الله عز وجل فأقول : إن اعتقاد أهل السنة هو إثبات صفة الكلام لله تعالى ، وأنها صفة قائمة به غير بائنة عنه ، وأنها من صفاته اللازمة لذاته ، لا ابتداء لإتصـافه بها ولا انتهاء ، فهو تعالى لم يزل ولا يزال يتكلم بكلام حقيقي بصوت لا يشبه أصوات المخلوقين ، وحروف ، يتكـلم بما شاء ومتى شاء ، وكيف شاء ، كلامه تعالى أحسن الكلام ، لا يشبه كلام المخلوقين ، ويكلم به من شاء من خلقه من ملائكته ، ورسله ، وسائر عباده بواسطة إن شاء ، وبغيرها .

ويُسـمِعه مـن شـاء على الحقيقة من رسله وملائكته ويُسمِعه عباده في الدار الآخرة بصوت نفسه ، كما أنه كلم موسـى – عليه السلام – وناداه حينِ أتى الشجرة بصوت نفسه ، فسمعه موسى وكلماته تعالى لا نهاية لها ، ومن كلامه : القـرآن ، والتوراة ، والإنجيل فالقرآن كلامه سوره ، وآياته ، وكلماته ، تكلم به بحروفه ومعانيه ، ولم ينزله على أحد قبل رسوله محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وسلم –

أسـمعه جـبريل – عليه السلام – وأسمعه جبريلُ محمداً – صلى الله عليه وسلم – ، وأسمعه محمدٌ – صلى الله عليه وسلم – أصحابه ، وليس لجبريل ولا لمحمد – صلى الله عليه وسلم – إلا التبليغ والأداء .

وهو المكتوب في اللوح المحفوظ وهو الذي في المصاحف ، يتلوه التالون بألسنتهم ، ويقرؤه المقرئون بأصواتهم ، ويسـمعه السامعون بآذانهم ، وينسخه النساخ ، ويطبعه الطابعون بآلاتهم ، وهو الذي في صدور الحفاظ بحروفه ومعانيه ، تكـلم الله بـه عـلى الحقيقة ، فهو كلامه على الحقيقة لا كلام غيره ، منه بدأ وإليه يعود ، وهو قرآن واحد منزل ، غير مخلوق كيفما تصرف : بقراءة قارئ ، أو بلفظ لافظ ، أو بحفظ حافظ ، أو بخط كاتب ، وحيث تُلي وكُتب وقرئ .

وكـلام الله تعـالى ينقسم ويتبعض ويتجزأ فالقرآن من كلامه ، والتوراة من كلامه والإنجيل من كلامه ، والقرآن غيـر الـتوراة ، والتوراة غير الإنجيل ، والفاتحة بعض القرآن ، وآية الكرسي بعض البقرة وسورة البقرة غير سورة آل عمـران وكـذا سورة آل عمران غير سورة النساء وهكذا سائر كلامه – جل وعلا – وفي القرآن من المعاني ما ليس في التوراة ، وفيها من المعاني ما ليس في القرآن وهكذا سائر كلامه .

وكلامه تعالى يتفاضل ، فيكون بعضه أفضل من بعض ، فآية الكرسي أفضل من سواها من الآي .

وسورة الفاتحة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها ، و (قل هو الله أحد)[٣] تعدل ثلث القرآن .

وكلامه تعالى يتعاقب – أي يتلو بعضه بعضاً – كـ (بسم الله) فكلمة (الله) عقب (بسم) وكذلك السين عقب

---

(١) الصواعق المرسلة (٣٩٧/١) .

(٢) انظر : كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب (٩٦/١) .

(٣) سورة الإخلاص ،الآية (١) .

الباء ، والميم عقب السين ، وكل ذلك كلام الله تعالى ، غير مخلوق بألفاظه وحروفه لا يشبه كلام الخلق .

وأصوات العباد وحركاتهم بالقرآن ، وورقه وجلده ، ومداد الكتابة ، كل ذلك مخلوق مصنوع والمؤلف من الحروف المنطوقة المسموعة المسطورة المحفوظة هو كلام الله تعالى غير مخلوق بحروفه ومعانيه ومن زعم أنه مخلوق فقد كفر .

هذا هو مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في كلام الله ، وكل ما خالف هذا فهو بدعة وباطل .

وقد أثبت السيوطي صفة الكلام لله تعالى فقال : " ... وصفاته الحياة ... "[١] . إن صفة الكلام من الصفات السمعية العقلية اثبتها الله تعالى لنفسه في كتابه فقال تعالى : (وكلم الله موسى تكليما)[٢] وقال : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[٣] وقال تعالى مخاطباً نبيه موسى – عليه السلام – : (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين)[٤] .

والآيات في إثبات هذه الصفة العظيمة كثيرة مع ما في القرآن من ذكر مناداته ومناجاته المتضمنة معنى الكلام كقوله تعالى : (وناداهما ربهما...)[٥] (وناديناه من جانب الطور الأيمن)[٦] والنداء لا يكون إلا بصوت مسموع حادث بكلام ، وغيرها من الآيات التي تدل على ما ذكر.

ومن السنة والآثار أدلة كثيرة أيضاً اجتزئ منها :

حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : يا آدم ، أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم : يا موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك التوراة بيده ، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى ، ثلاثاً "[٧] .

وحديث أبي هريرة – أيضاً – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه "[٨] وحديث عائشة – رضي الله عنها – قالت في قصة الأفك : " والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحياً يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى... "[٩] .

وغير هذه الأحاديث كثير وكذلك الآثار . وأما دلالة العقل على هذه الصفة فيقال : إن الكلام صفة كمال ، وضدها

---

(١) علم التوحيد (ص٣) .

(٢) سورة النساء الآية (١٦٤) .

(٣) سورة التوبة الآية (٦) .

(٤) سورة الأعراف الآية (١٤٤) .

(٥) سورة الأعراف الآية (٢٢) .

(٦) سورة مريم الآية (٥٢) .

(٧) متفق عليه، وصحيح البخاري ٢١٤/٠٧) كتاب القدر-باب (١١) ،صحيح مسلم (٢٠٤٢/٤) وانظر: التوحيد لإبن خزيمة (١٢/١) .

(٨) أخرجه عثمان بن سعيد الدارمي في " الرد على الجهمية " رقم (٢٨٧،٣٤٠) .

واللالكائي رقم (٥٥٧) .

وللحديث شاهدين من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً : " .. وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه "

أخرجه الترمذي في سننه رقم (٢٩٢٦) والدارمي في سننه رقم (٣٣٥٩) .

فالحديث حسن ، انظر :تخريجه والحكم عليه،في شرح اصول اعتقاد اهل السنة للألكائي (٣٧٥/٢) .

(٩) متفق عليه ،صحيح البخاري (٢٧٧/٣-٢٣١٩) وتفسير سورة النور (١٢٧/٦-١٣٢)،وصحيح مسلم (٢١٢٩/٤) رقم (٢٧٧٠) .

وهــو الخــرس صفة نقص ، و الخرس أو البكم إن وجد في مخلوق كان نقصاً بيناً ، ويتمنى أن يتنزه المخلوق عن هذا الــنقص والعيــب ، فالخالق – جل وعلا – يتنزه عنه من باب أولى ، وإذا كان الكلام صفة كمال في المخلوق ، فاتصاف الخــالق بــه أولى وأحرى . فإنه يجب له كل كمال وجلال – وكما قدمت – كل كمال اتصف به المخلوق من غير استلزام نقص فالخالق أولى أن يتصف به .

ولمــا تكــلم السيوطي عن القرآن ظهرت على بعض كلامه ظلال كثيفة من الأشعرية حيث قال : " القرآن كلامه تعــالى أي المعنى القائم بذاته المقدسة ، وهو المراد بالكلام النفسي "[1] وهذا هو نفس مذهب الأشاعرة في كلام الله تعالى : حيــث قــالوا : هــو المعنى القائم بالنفس ، أو هو الكلام النفسي والألفاظ موضوعة للدلالة عليه ، ولذلك قالوا في القرآن هوعبارة عن كلام الله أو أن الكلام صفة عُبّر عنها بالنظم المسمى بالقرآن[2] .

وبــناء عــلى ذلك قالوا : الكلام ليس بحروف ولا أصوات . والمتكلم من قام به الكلام لا من أوجد الكلام ، وقد نصروا هذا القول ببعض الشبه التي حسبوها أدلة من اللغة والشرع : أما اللغة فقالوا : إن العربي يقول ك (كان في نفسي كلام) ويقول : (كان في نفسي قول) ويقول : (كان في نفسي حديث) .

وقال عمر – رضي الله عنه – : " زورت في نفسي كلاماً فأتى أبو بكر فزاد عليه "[3] .

نسمى عمر ما في نفسه كلاماً .واستدلوا أيضاً بقول الأخطل النصراني[4] :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما　　　جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وأما شبههم الشرعية فقالوا :

قال الله تعالى : (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) . فالله تعالى لم يكذب المنافقين في الفاظهم ، وإنما كذبهم فيما تكنه ضمائرهم وسرائرهم ، فدل على أنه حقيقة الكلام والقول . ومــثله قوله تعالى : (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول)[5] قالوا : فالقول بالنفس قائم وإن لم ينطق به اللسان والقول هو الكلام .

وقولــه تعالى : (إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان)[6] فأسقط حكم الكفر عن المكره على كلمة الكفر ، وجعل الحكــم لصدق الكلام القائم بالقلب . قالوا : فهذه الآيات وما في معناها دالة على أن حقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنفس ،

---

(١) الكوكب الساطع لوحة (١٦٤/ب) .

(٢) السيوطي : الكوكب (١٦٣/ب) .

(٣) ورد هذا في حديث السقيفة .
أخــرجه أحمــد في المسند رقم (٣٩١) والبخاري في صحيحه – كتاب الحدود (٨٦) ، باب (٣١) انظر الفتح (١٤٥/١٢) ، وفي موضع آخر في كتاب فضائل الصحابة (٦٢) باب (٥) الفتح (١٩/٧-٢٠) .

(٤) هــو : غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ابن عمرو ، من بني تغلب ، أبو مالك ، شاعر مصقول الألفاظ ، حسن الديباجة ، اشتهر في عهد بــني أميــة بالشــام ، قيل إنه أشهر أهل عصره كما قيل في الفرزدق وجرير ، نشأ على النصرانية في اطراف الحيرة بالعراق له ديوان شعر مطــبوع . ولد (١٩هـ-٦٤٠م) ومات (٩٠هــ-٧٠٨م) – الأغاني (٢٨٠/٨) ، الشعر والشعراء ١٨٩ ، دائرة المعارف الإسلامية (٥١٥/١) ، الاعلام (١٢٣/٥) .

(٥) سورة المجادلة الآية (٨) .

(٦) سورة النحل الآية (١٠٦) .

لا الحروف ولا الأصوات التي هي أمارات ودلالات على الكلام الحقيقي(١) .

- إبطال مذهب الأشاعرة في الكلام النفسي : أما قول العربي : (كان في نفسي كلام) ونحوه ، فليس لهم فيه مستند ، لأن الكلام إذا أطلق ينصرف إلى الألفاظ الخارجة من الفم والشفتين وقد يشمل المعنى ، لأن المجنون قد يتكلم بكلام لا معنى له ، لكنه يسمى كلاماً في الإطلاق ، لكن لفظ (الكلام) إذا جاء مقيداً ، كان التقييد قرينة دالة على اخراجه عن اطلاقه ولا منازعة في أنه قد يراد به المعاني أو الألفاظ بالقرائن فلما قيده العربي بالنفس أخرجه من مطلق الكلام إلى كونه في النفس لم يظهر في الخارج ، ولا يصح أن يقال لهذا العربي إنه متكلم به طالما أنه في نفسه ولم تتحرك به شفتاه ولسانه ونطق به

كما أن من لازم الكلام أن يكون مسموعاً فلو لم يُسمع من شخص ما كلام ، لم يصح أن يقال إنه تكلم ، إذ لو ادعى عليه مدع بكلام لم ينطق به لعُدّ ذلك كذباً عليه وبهتاناً .

- الجواب عن كلام عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وأما قول عمر يوم السقيفة فالجواب عنه من وجهين :

أولهما : إن التزوير - كما قال الأصمعي - : " إصلاح الكلام وتهيئته " فهو قد قدر في نفسه كلاماً وهيأه ، ولكن لم يتكلم به بعد ، فلا يعتبر كلاماً حتى يتكلم به .

ومثاله أيضاً من يقدر في نفسه أن يعمل عملاً كأن يصلي مثلاً ، ثم لا يفعله ، فهل يقال : إنه صلى في نفسه ؟؟ مع أن القلب له عمل كما أن للجوارح عملاً .

والثاني : لو صحّ ما قالوه ، لكان موافقاً لرأي أهل السنة لا لمذهبهم ، فإنهم يعدون مطلق الكلام كلام النفس ، أما أهل السنة فعندهم مطلق الكلام اللفظ والمعنى جميعاً ، وقد يراد أحدهما بقرينة ، وهي موجودة في قول عمر المذكور ، ألا وهي التقييد بالنفس ، وهي قرينة تخرجه عن مطلق الكلام المعروف المتبادر إلى ذهن السامع ، إلى كلام مقيد بحالة معينة .

* أما الجواب عن شعر الأخطل فمن وجوه :

الأول : انكر العلماء كونه من شعره ، لأنهم قد بحثوا عنه في دواوينه ، فلم يجدوه فيه ، قال أبو محمد الخشاب نحوي العراق : " فتشتُ شعر الأخطل المدون ، كثيراً ، فما وجدت هذا البيت "(٢) .

الثاني : أنه لم يتلقه أهل العربية بالقبول .

الثالث : أن بعضهم أورده بلفظ : إن البيان لفي الفؤاد... إلخ

وهذا يفسد المعنى الذي أرادوه .

الرابع : الأخطل شاعر نصراني مثلث كافر ، وقد ضلت النصارى في معنى كلام الله تعالى ومسماه ، فجعلوا المسيح نفس كلمة الله .

الخامس : أنه شاعر مولد ، لا يحتج بشعره في اللغة ، وهذا معلوم عند أهل التحقيق .

السادس : أن من يحتج من أهل البدع بهذا البيت يخفي بيتاً قبله يوضح معناه أكثر ، ويتبين من البيتين مجتمعين أنهما حجة

---

(١) انظر : أبو بكر الباقلاني : الانصاف (١٠٩-١١٠) .

(٢) العلو الذهبي (ص/١٩٤) .

على الأشاعرة وليسا حجة لهم ، وهما هكذا :

لا تعجبنك من أثـير خطبة حتى يكون مع الكـلام أصيلاً

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فحيـنما ذكـر الشـاعر الكلام في البيت الأول ذكره مطلقاً ليشمل اللفظ والمعنى ، إذ أن الذي يُسمع من الخطيب ألفاظـه ، فأبـان الشـاعر عـن حقيقة الكلام المؤثر الذي يقع من النفوس موقعاً ، بأنه الذي قد اشتمل على المعاني التي موضعها القلب ، لا مجرد الألفاظ التي تُسمع من المتكلم ، ولم يرد تعريف الكلام ووضع حد له بكونه المعاني المجردة .

السابع : مسمى " الكلام " و " القول " ونحوهما ليس مما يحتاج في تفسيره إلى قول شاعر ، بل ولا ألف شاعر ، فإنه مما قـد عـلم ضرورة إذ هو مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللسان ، وعرفوا معناه في لغتهم . واللغة إنما تستفاد من استعمال أهلها لها في كلامهم ، لا تستفاد مما يذكر من الحدود والتعريفات ، بأن يقال : " الرأس كذا ... الكلام كذا ... "[١] . وبهذا يتبين فساد استدلالهم بهذا الشعر ، وأشد ما يظهر هذا الفساد عندما يترك الاستدلال بكتاب الله وسنة رسوله ، ويُلجأ إلى الاستدلال بشعر شاعر كافر لا يعتد به .

قـال أبو المعالي : أسعد بن المنجي الحنبلي : " كنت يوماً عند الشيخ أبي البيان[٢] - رحمه الله - فجاءه ابن تميم الـذي يدعى الشيخ الأمين ، فقال له الشيخ بعد كلام جرى بينهما : " ويحك ، الحنابلة إذا قيل لهم ما الدليل على أن القرآن بحـرف وصوت ؟ قالوا : قال الله كذا ، وقال رسوله كذا ، - وسرد الشيخ الآيات والأخبار - وأنتم إذا قيل لكم ما الدليل على أن القرآن معنى قائم في النفس ؟ قلتم : قال الأخطل : إن الكلام لفي الفؤاد ....

إيش هذا الأخطل ؟ نصراني خبيث ، بنيتم مذهبكم على بيت شعر من قوله ، وتركتم الكتاب والسنة "[٣] وقال شيخ الإسلام : " كان مما يُشَنّع به على هؤلاء أنهم احتجوا في أصل دينهم ومعرفة حقيقة الكلام - كلام الله وكلام جميع الخلق - بقول شاعر نصراني يقال له الأخطل :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وقد قال طائفة : إن هذا ليس من شعره ، وبتقدير أن يكون من شعره ، فالحقائق العقلية ، أو مسمى لفظ (الكلام) الـذي يتكـلم به جميع بني آدم ، لا يرجع فيه إلى قول ألف شاعر فاضل ، دع أن يكون شاعراً نصرانياً اسمه الأخطل ، والنصـارى قـد عرف أنهم يتكلمون في كلمة الله بما هو باطل ، والخطل في اللغة : هو الخطأ في الكلام ، وقد أنشد فيهم المنشد :

قبحاً هذا بيت شعر لمن نبذ القرآن وراءه وإذا استدل يقول قال الأخطل "[٤]

وقال شيخ الإسلام أيضاً : " ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجاه في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) شيخ الإسلام : الإيمان (ص١٣٢-١٣٤) .

(٢) نبأ بن محمد بن محفوظ القرشي الشافعي .

(٣) الذهبي : العلو (١٩٣-١٩٤) . بسند صحيح وفي المتن تحريف في المطبوعة انظر مختصرة (ص٢٨٤-٢٨٥) .

(٤) ابن تيمية : مجوع الفتاوى (٢٩٦/٦-٢٩٧) .

لقـــالوا : هــذا خــبر واحد ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول ، وهذا البيت لم يثبت نقله عن قائله بإسناد صـــحيح لا واحد ولا أكثر من واحد ، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول ، فكيف يثبت به أدنى شئ من اللغة فضلاً عن مسمى الكلام "[١] .

* وأمـــا الجــواب عما احتجوا به من الكتاب والسنة : فيقال عن قوله تعالى : (إذا جاءك المنافقون...) إن الله تعالى كذب المـــنافقين في قولهم الذي سماه قولاً ، فقد قال تعالى : (إذا جاءك المنافقون قالوا...) والقول ألفاظ وكلمات منطوقة خلافاً لزعمهم أنه في القلب ، ولكن لما كانت الألفاظ المجردة غير كافية لإثبات إيمانهم وصدقهم فيه وإنما يجب أن يقارنها إيمان القلب ، واستقرار معنى ما قالوه فيه ، لأجل ذلك كذبهم في دعواهم ، فالذي كذبهم الله تعالى فيه إنما هو الدعوى المجردة ، وعدم صحة ذلك منهم ، ولم يكذبهم في صحة كون ما نطقوا به ، قولاً وكلاماً ، بل أقر ذلك وثبته ، وليس الخلاف في صدق القـــول أو كذبه إنما الخلاف في ماهيته وحقيقته[٢] . ونظير هذه الآية قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " يا معشر من آمـــن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه... "[٣] وأما استدلالهم بقوله تعالى : (ويقولون في أنفسهم...) الآية فمردود أيضاً من وجهيـــن : <u>أولهمـــا :</u> أن لفظ (القول) ورد في الآية مرتين ، مرة مقيداً بالنفس ، ومرة مطلقاً ، ولا ريب أن المطلق هو تـــناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتحيتهم له بغير ما حياه به الله ، وكل ذلك أقوال هي ألفاظ ومعاني ، فأطلقه للعلم به ، وقيد الأول بالنفس ليكون خاصاً بالمعنى دون اللفظ ، هذا على تسليم كونه حديث نفسي . فـــلو كان مطلق القول إنما يراد به حديث النفس لم تكن هناك حاجة إلى تقييده بها ، ولكان التناجي والتحية معاني مجردة ، تُحدّثُ القلوب بعضها بعضاً بها من غير نطق ولا لفظ ، وهذا لا يتصوره عاقل . ومثل هذه الآية آية الاعراف ، وهي قوله تعـــالى : (واذكـــر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول)[٤] فهذا هو الذكر باللسان سراً ، فلم يخرج عن كونـــه ألفاظاً ومعاني مجتمعة ألا ترى قوله : (ودون الجهر) ؟ والجهر هو رفع الصوت بالذكر ، وهو فوق مرتبة الإسرار التي هي الذكر بخفض الصوت وكل ذلك قائم باللسان والقلب . ونظير هذه الآية – أيضاً – احتجاجهم بحديث " يقول الله

---

(١) كتاب الإيمان (ص١٣٢) .

(٢) انظر : العقيدة السلفية (٣٣٦-٣٣٧) في كلام رب البرية .

(٣) حديث صحيح ، وتمامه : " ...لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه وإن كان في بيته " .

– أخـــرجه أحمـــد في مسنده (٤/٤٢٠-٤٢١-٤٢٤) ، وأبو داود في سننه (٤٨٨٠) وابن أبي الدنيا في " الصمت " (١٦٨،١٦٩) والخرائطي في " مساوئ الأخلاق " ج٢ ورقة ٢/ب ، كلهم من حديث أبي برزة الاسلمي ، واسناده حسن .

– وأخـــرجه أبو يعلي (١٦٧٥) ، وابن أبي الدنيا في " الصمت " أيضاً (١٦٧) ، وأبو نعيم في " دلائل النبوة " (٣٥٦) ، والبيهقي في " دلائل النبوة " أيضاً (٦/٢٥٦) كلهم من حديث البراء ابن عازب ، واسناده صالح في الشواهد .

– وأخـــرجه أيضاً : الترمذي في سننه (٢٠٣٢) ، وابن حبان في صحيحه (١٤٩٤) (موارد الظمآن) ، وأبو بكر الإسماعيلي – كما في تفسير ابن كثير (٦/٣٨٢) كلمهم من حديث عبدالله بن عمر ، قال الترمذي : " حديث حسن غريب " واسناده جيد .

– وأخـــرجه كذلك : الطبراني في " الكبير " (٦/٢٠٧٤) من طريق قدامة وهو صدوق لا بأس به ، ولكن اسماعيل بن شيبة الطائفي له مناكير ولكن الحديث بمجموع طرقه السابقة صحيح .

(٣) سورة الأعراف الآية (٢٠٥)

عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني... " الحديث[١] فإن الذكر في النفس هنا هو ذكر اللسان سراً ، ألا تراه قال في تتمة الحديث : (وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم) ؟ فهما منزلتان للذكر .

ومثل ذلك – أيضاً – يكون الجواب عن احتجاجهم بقوله تعالى : (وأسروا قولكم أو أجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور)[٢] . بل هي حجة عليهم لا لهم ، إذ أنه تعالى أثبت لهم قولاً يُسَرُّ به ، وقولاً يُجهر به ، والمجهور إنما يكون برفع الصوت ، وضده الذي يسر به ، ويجمعهما نطق اللسان ، يوضحه قوله تعالى : (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى)[٣] فهذه ثلاث مراتب : الأولى : الجهر ، والثانية : السر ، والثالثة : هي حديث النفس ، ولذلك قال في الآية : (إنه عليم بذات الصدور) تنبيهاً لهم على أنه إذا كان يعلم ما في الصدور هو المعبر عنه في الآية الأخرى بقوله (وأخفى) فعلمه بالجهر من القول والاسرار به أولى .

وأما الجواب عن احتجاجهم بقوله تعالى : (إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان)[٤] فإنه تعالى لم يسم ما في القلب كلاماً ، وإنما قال : (وقلبه مطمئن بالإيمان) لأنه موضعه ومحله في الأصل .

وتسميتهم ما في القلب كلاماً راجع إلى ما أصلوه في مذهبهم من أن الإيمان هو التصديق القلبي ، فمذهبهم في الإيمان هو مذهب الجهمية المرجئة ، أما الإيمان عند أهل السنة والجماعة فهو : تصديق بالقلب ، وقول باللسان ، وعمل بالجوارح ، حقيقة في هذا جميعاً ، فرفع الله الحرج عن المكره رفعاً مؤقتاً للضرورة ، تيسيراً عليه وتخفيفاً لا على أن الإيمان على الحقيقة هو تصديق القلب فقط ، فإنه لو كان كذلك لما كان فرق بين حال الاكراه وعدمه ، ففيم الرخصة إذاً ؟؟

ولو سُلِّمَ – جدلاً – بكون إيمان المكره كلاماً فإنه مقيد بذكر القلب .

قال شيخ الإسلام : " ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وتابعيهم ، لا من أهل السنة ، ولا من أهل البدعة ، بل أول من عُرِف في الإسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط هو عبدالله ابن سعيد بن كلاب[٥] ، وهو متأخر في زمن محنة أحمد بن حنبل ، وقد انكر عليه علماء السنة وعلماء البدعة ، فيمتنع أن يكون الكلام الذي هو أظهر صفات بني آدم ، كما قال تعالى : (فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما انكم تنطقون)[٦] ولفظه لا تحصى وجوهه كثرة ، لم يعرفه أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاء من قال فيه قولاً لم يسبقه إليه أحد من المسلمين

---

(١) متفق عليه صحيح البخاري رقم (٧٤٠٥) الفتح (٣٨٤/١٣) ،وصحيح مسلم (٢٠٦١/٤) رقم (٢٦٧٥)

(٢) سورة الملك الآية (١٣) .

(٣) سورة طه الآية (٧) .

(٤) سورة النحل الآية (١٠٦) .

(٥) هو : عبدالله بن سعيد بن كُلَّاب ، أبو محمد ، القطان ، متكلم ، يعرف (بابن كُلّاب) قال السبكي : وكلاب بضم الكاف وتشديد اللام ، قيل : لقب بها لأنه كان يجتذب الناس إلى معتقده إذا ناظر عليه ، كما يجتذب الكلاب الشئ ، له مصنفات منها : " الصفات " و " خلق الأفعال " و " الرد على المعتزلة (ت بعد سنة ٢٤٠هـ بقليل) قال عنه ابن حزم : " إنه شيخ قديم للأشعرية " انظر : لسان الميزان (٢٩٠/٣) طبقات الشافعية (٥١/٢) ، الفهرست لابن النديم (ص٢٥٥) ، مقالات الاشعري (٢٩٨/١-٢٩٩) ، (١١٨/٢،٥٤،٥٢، ٢٠٢-٢٠٣،٢٣١،٢٣٣،٢٤٥) والاعلام (٩٠/٤) .

(٦) سورة الذاريات الآية (٢٣) .

ولا غيرهم "[١] .

وقال أبو نصر السجزي[٢] : " ركبوا مكابرة العيان ، وخرقوا الاجماع المنعقد بين الكافة المسلم والكافر "[٣] بل " ألجأهم الضيق مما دخل عليهم في مقالتهم إلى أن قالوا الأخرس متكلم ، وكذلك الساكت والنائم ، ولهم في حال الخرس والسكوت والنوم كلام هم متكلمون به ، ثم أفصحوا بأن الخرس والسكوت والآفات المانعة من النطق ليست بأضداء للكلام ... وهذه مقالة تبين فضيحة قائلها في ظاهرها من غير رد عليه ، ومن عُلم منه خرق اجماع الكافة ، ومخالفة كل عقلي وسمعي قبله لم يُناظر ، بل يُجانَب ويقمع "[٤] وبهذا يتبين خطأ الأشعرية وبطلان مذهبهم في كلام الله ، وبه يتبين خطأ السيوطي لأنه ردد مذهبهم فيه .

أما مسألة خلق القرآن فقد أنكر السيوطي ذلك قال : " القرآن كلامه تعالى ... غير مخلوق "[٥] وهذا منه رد وإبطال لمذهب المعتزلة .

أدلة السيوطي على أن القرآن غير مخلوق :

١- وكان مما استدل به السيوطي على ما ذهب إليه قوله : " لأنه كلام الله وكلامه صفته "[١] بمعنى أن صفاته تعالى ليست مخلوقة ، والكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات كما قرر ابن تيمية .

٢- ومن أدلة السيوطي أيضاً قوله : " وقد ذكر الله الإنسان في ثمانية عشر موضعاً[٦] ، وقال إنه مخلوق ، وذكر القرآن في أربعة وخمسين موضعاً[٧] ولم يقل إنه مخلوق ، ولما جمع بينهما نبه على ذلك فقال : (الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان)[٨] "[٩] وهذا حق فإن الله تعالى فرق بين علمه وبين خلقه ، فالقرآن علمه ، والإنسان خلقه ، وعلمه تعالى غير مخلوق . وبهذه الآية احتج الإمام أحمد -رحمه الله - في رده على الجهمية فيما كتبه للمتوكل في مسألة القرآن ، قال : " قال الله عز وجل : (الرحمن {١} علم القرآن {٢} خلق الإنسان {٣} علمه البيان {٤})[١٠] فأخبر تعالى أن القرآن من علمه ، وقال أيضاً : (قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)[١١] وقال تعالى : (...ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين)[١٢] وقال تعالى : (

---

(١) الإيمان (ص١٢٨) .

(٢) هو : عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي ، البكري ، السجزي ، نسبة إلى سجستان ، نزيل الحرم ، ومصر ، من حفاظ الحديث ، سكن مكة وتوفي بها سنة (٤٤٤هـ-١٠٥٢م) . انظر : تذكرة الحفاظ (٢٠٦/٣-٢٠٧، ١١١٨،٢٩٧-٢١٢٠) ، والرسالة المستطرفة (ص٣٠) ، الاعلام (١٩٤/٤) .

(٣) ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل (٨٥/٢-٨٦) .

(٤) السابق (٨٦/٢) .

(٥) الكوكب الساطع لوحة رقم (١٦٤/ب،١٦٥/أ) .

(٦) رجعت إلى المعجم المفهرس فوجدتها كما قال السيوطي : ثمانية عشر موضعاً .

(٧) رجعت إلى المعجم المفهرس فوجدت ما ذكر بلفظ (القرآن) بالافراد والتعريف : في ثمانية وخمسين موضعاً ، وما ذكر بلفظ (قرآناً) بالنصب : في عشرة مواضع أخرى .

(٨) سورة الرحمن الآيات (١-٣) .

(٩) الكوكب الساطع - لوحة رقم (١٦٥/أ) .

(١٠) سورة الرحمن الآيات (١-٤) .

(١١) سورة البقرة الآية (١٤٠) .

(١٢) سورة البقرة الآية (١٤٥) .

وكذلـــك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا واق)[١] . فالقرآن من عـــلم الله تعالى ، وفي هذه الآيات دليل على أن الذي جاءه - صلى الله عليه وسلم - هو القرآن ، لقوله تعالى : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم) "[٢] .

وقال الإمام أحمد - أيضاً - في حكاية مناظرته للجهمية في مجلس المعتصم : " قال لي عبدالرحمن القزّاز : كان الله ولا قـــرآن ، فقـــلت له : فكـــان الله ولا علم ، فأمسك ، ولو زعم أن الله كان ولا علم لكفر بالله "[٣] وقيل للإمام أحمد : قوم يقولـــون : إذا قال الرجل : كلام الله ليس بمخلوق ، يقولون من إمامك في هذا ؟ ومن أين قلت : ليس بمخلوق ؟ قال : " الحجة قـــول الله تـــبارك وتعالى (فمن حاجك فيه مِنْ بعد ما جاءك من العلم)[٤] فما جاءه غير القرآن ... القرآن من علم الله ، وعلم الله ليس بمخلوق ، والقرآن كلام الله ليس بمخلوق ، ومثل هذا في القرآن كثير "[٥] .

وقـــال الإمـــام أحمد - رحمه الله - : " القرآن علم من علم الله ، فمن زعم أن علم الله مخلوق فهو كافر "[٦] وبناءً على ذلك يمكنني القول : بأن الله تعالى سمى القرآن علماً ، إذ هو الذي جاءه من ربه وهو الذي علمه الله تعالى إياه - صلى الله عليه وسلم - وعلمه تعالى غير مخلوق ، إذ لو كان مخلوقاً لا تصف تعالى بضده قبل الخلق - وهو الجهل - تعالى الله عن ذلك وتنزه وتقدس .

٣- ثم استدل السيوطي بعد ذلك بما ورد عن بعض الصحابة - رضي الله عنهم - منهم ابن عباس - رضي الله عنهما - فقـــال[٧] : " أخـــرج اللالكائي في " السنة " ، والآجري في " الشريعة " بسند صحيح عن ابن عباس في قوله : (قرآناً عربياً غير ذي عوج)[٨] قال : " غير مخلوق "[٩]

---

(١) سورة الرعد الآية (٣٧) .

(٢) رواه صـــالح فـــي " المحـــنة " (ص١٢١) وعبدالله في " السنة " (رقم ١٠٧) عن أبيهما الإمام أحمد بن حنبل - رحمهم الله جميعاً - . وهي في رسالته إلى المتوكل ضمن كتاب " الرد على الجهمية " لأحمد ، ت د. عبدالرحمن عميرة .

(٣) رواه حنبل في " المحنة " (ص٤٥) عنه .

(٤) سورة آل عمران الآية (٦١) .

(٥) رواه صالح في " المحنة " (ص٦٩) عنه .

(٦) رواه ابن هانيء في " المسائل " (٢/١٥٤،١٥٣) عنه .

(٧) الكوكب الساطع - لوحة رقم (١٦٥/أ) .

(٨) سورة الزمر الآية (٢٨) .

(٩) اللالكـــائي في السنة (٢/٢٤٢) ، وصحح السيوطي اسناده كما ذكر في المتن،وأخرجه أبو بكر محمد بن الحسين الآجري في " الشريعة " ، كما ذكـــر الســـيوطي ، وهو في الطبعة الأولى المحققة بتحقيق د. عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي (١/٤٩٥) رقم (١٦٠) ، وأشار المحقق إلى ضعف اسناده ، لضعف أبي عبدالله جعفر بن إدريس القزويني شيخ الأجري ، كما في اللسان (٢/١١٠) عن الدار قطني .

- ورواه البيهقي في " الاسماء والصفات " (١/٣٧٧) .

- وأورده السيوطي في الدر المنثور وعزاه لإبن مردوية ، وعزاه أيضاً للديلمي في " مسند الفردوس " عن أنس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - انظر الدر المنثور (٧/٢٢٣) وعزاه كذلك لإبن شاهين في " السنة " عن أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم- .

- كما رواه الأصبهاني في " الحجة " (ص١٤٨) .

- وعزاه أبو المظفر السمعاني في " تفسيره " للوالي عن ابن عباس ، انظر (٤/٤٦٧) بتحقيق : أبي تميم ياسر بن إبراهيم ، أبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم .

- وانظر : الشوكاني : فتح القدير (٤/٤٦٣) .

- وقال القرطبي : " وعن ابن عباس - أيضاً - غير مخلوق ، ذكره المهدوي ، وقاله السدي فيما ذكره الثعلبي " (١٥/١٦٤) .

٤- ثم استدل السيوطي بأقوال أئمة أهل السنة ، فقال : " وقال الشافعي : إنما خلق الله كل شئ بـ(كُن) فلو كانت (كُن) مخلوقة لكان مخلوق خلق مخلوقاً " ، ثم قال : " قال الأئمة : لو كان (كُن) الأولى مخلوقاً لكان مخلوقاً بكن أخرى ، وهكذا إلى ما لا يتناهى هو محال "[١] وعلى[٢] ، ونظير هذا قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " من نزل منزلاً ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شئ حتى يرتحل من منزله ذلك "[٣] وقوله – صلى الله عليه وسلم – أيضاً : " من قال إذا أمسى ثلاث مرات : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضره حُمَة[٤] تلك الليلة " ، قال أبو هريرة : فكان أهلنا قد تعلموها ، فكانوا يقولونها فلدغت جارية منهم فلم تجد لها وجعاً[٥] .

إن في هذا اثبات شرعية الاستعاذة بكلمات الله تعالى ، فلو كانت كلماته مخلوقة لكانت الاستعاذة بها شركاً ، لأنها استعاذة بمخلوق ومن المعلوم أن الاستعاذة بغير اللهُ تعالى وأسمائه وصفاته شرك ، فكيف يصح أن يُعلّم النبي – صلى الله عليه وسلم – أمته ما هو شرك ظاهر ، وهو الذي جاءهم بالتوحيد الخالص ؟؟ ففي هذا دليل على أن كلمات الله تعالى غير مخلوقة

قال نعيم بن حماد[٦] : " لا يستعاذ بالمخلوق ولا بكلام العباد والجن والإنس والملائكة " وقال البخاري عقبه : " وفي هذا دليل أن كلام الله غير مخلوق ، وأن سواه خلق "[٧] كما استدل السيوطي أيضاً بكلام نعيم بن حماد قال : " سمعت سفيان بن عيينة وسئل عن القرآن أمخلوق هو ؟ فقال : يقول الله : (ألا له الخلق والأمر)[٨] ألا ترى كيف فرق بين الخلق والأمر ، فالأمر كلامه ، فلو كان كلامه مخلوقاً لم يفرق "[٩] وقد استدل الإمام أحمد بآية الاعراف (الا له الخلق والأمر)[١٠] في رسالته إلى المتوكل عندما طلب منه أن يبين له حقيقة رأيه في مسألة خلق القرآن ، قال أحمد : " وقال (تعالى) : (ألا له الخلق والأمر) فأخبر بالخلق ، ثم قال والأمر ، فأخبر أن الأمر غير الخلق "[١١] وبهذه الأدلة الدامغة يظهر بطلان مذهب المعتزلة المبتدع في قولهم بخلق القرآن ، كما أن نصوص أئمة أهل السنة متضافرة في تكفير من قال إن

---

(١) الكوكب (١٦٥/أ) وهذا الأثر رواه اللالكائي في السنة (٢٤٣/٢) ،والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٢٥٢) ، وأورده السبكي في طبقات الشافعية (١٦٤/٢) وانظر: تاريخ بغداد (٣٠٢/١٤) .

(٢) سورة الفرقان الآية (٣) .

(٣)أخرجه أحمد في المسند (٣٧٧،٤٠٩/٦) ، ومسلم في صحيحه (٢٠٨٠/٤) ، والترمذي في سننه رقم (٣٤٣٧) ، والنسائي في " عمل اليوم والليلة " رقم (٥٦٠،٥٦١) ، وابن ماجة رقم (٣٥٤٧) من حديث سعد بن أبي وقاص عن خولة بنت حكيم السلمية . وقال الترمذي : " حديث حسن صحيح غريب " وأورد على اسناده اختلاف لا يضر .

(٤) الحُمة ، بضم الحاء المهملة ، وتخفيف الميم ، هي سم العقرب .

(٥) حديث صحيح ، صحيح مسلم (٢٠٨٠/٤) ح رقم (٢٧٠٨) .

– أخرجه أحمد في " المسند " (٢٩٠/٢) ، والنسائي في " عمل اليوم والليلة " رقم (٥٩٠) من طريق سهيل بن ابي صالح عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً . واسناده صحيح ، ورجاله رجال الصحيح .

(٦) شيخ الإمام البخاري ، وأحد أعلام السنة .

(٧) خلق أفعال العباد (ص١٤٣) .

(٨) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

(٩) الكوكب الساطع – لوحة رقم (١٦٥/أ) وعزاه السيوطي لابن أبي حاتم في كتاب " الرد على الجهمية " . وقد أخرجه أبو داود في " المسائل " (ص٢٦٥) بسند جيد .

(١٠) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

(١١) هذه الرسالة ذكرها الذهبي في " تاريخه " ، وهي أيضاً في " حلية الأولياء " (٢١٦/٩-٢١٩) ورواها ابن الجوزي في " مناقب الإمام أحمد " (ص ٣٧٧) ، ونقلها الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه " ابن حنبل حياته وعصره " (ص١٣٤-١٣٧) . قال الذهبي عقب الرسالة : " قلت : رواة هذه الرسالة عن أحمد أئمة اثبات أشهد بالله أنه أملاها على ولده " .

القرآن مخلوق ومن هؤلاء الأئمة على سبيل المثال لا الحصر :

١- سفيان بن سعيد الثوري ، قال : " من قال : إن (قل هو الله أحد ، الله الصمد) مخلوق ، فهو كافر "[١] .

٢- مـــالك بن أنس : قال : " من قال القرآن مخلوق ، يوجع ضرباً ويحبس حتى يموت "[٢] وقال أيضاً : " من قال القرآن مخلوق يؤدب ويحبس حتى تعلم منه التوبة "[٣] وقال : " من قال القرآن مخلوق يستتاب ، فإن تاب وإلا ضربت عنقه "[٤] .

٣- عبدالله بن المبارك : كان يقول : الجهمية كفار "[٥] ، وقال محمد بن أعين ، سمعت النضر بن محمد يقول : من قال : (إنـــني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) [٦]مخلوق فهو كافر " ، قال : فأتيت ابن المبارك فقلت له : ألا تعجب من أبي محمد قـــال : كـــذا وكذا ؟ ، قال : " وهل الأمر إلا ذاك ، وهل يجد بداً من أن يقول هذا ؟؟ "[٧] . وفي رواية قال : " صدق أبو محمد عافاه الله ، ما كان الله عز وجل يأمر أن نعبد مخلوقاً "[٨] .

٤- أبـــو يوسف صاحب أبي حنيفة ، قال : جيئوني بشاهدين يشهدان على المريسي ، والله لأملأن ظهره وبطنه بالسياط ، يقول في القرآن " يعني : مخلوق[٩] .

٥،٦،٧- معتمر بن سليمان [١٠]. - حماد بن زيد[١١] . - يزيد بن زريع[١٢] .

قال فطر بن حماد : سألت معتمر بن سليمان ، فقلت : يا أبا محمد ، إمام لقوم يقول : القرآن مخلوق ، أُصلي خلفه ؟ فقال : " ينبغي أن تضرب عنقه " . قال فطر وسألت حماد بن زيد ، فقلت يا أبا اسماعيل ، لنا إمام يقول : القرآن مخلوق أُصلي خلفه ؟؟ قال : " صل خلف مسلم أحب إلي " قال فطر : وسألت يزيد بن زريع ، فقلت : يا أبا معاوية ، إمام يقول : القرآن مخلوق ، أُصلي خلفه ؟ قال : " لا ، ولا كرامة "[١٣] .

٨- عـــبدالله بـــن ادريـــس الأودي[١٤] ، قـــال يحيـــي بـــن يوســـف

---

(١) عبدالله بن أحمد في السنة رقم ١٣ بسند جيد .

(٢) الاجري في الشريعة (ص/٧٩) بسند جيد ، عبدالله بن أحمد في السنة رقم (١١)

(٣) عبدالله بن أحمد رقم (٢١٣) . وابن الطبري اللالكائي في السنة رقم (٤٩٧-٤٩٨) بسند صحيح .

(٤) رواه ابن أبي حاتم كما في السنة لابن الطبري رقم (٤٩٥) ، بسند صالح .

(٥) عبدالله بن أحمد في السنة رقم (١٥) بسند صحيح .

(٦) سورة طه الآية رقم (١٤) .

(٧) رواه عبدالله بن أحمد في " السنة " رقم (١٩) بسند جيد .

(٨) رواه عـــبدالله بـــن أحمـــد فـــي السنة رقم (٢٠) وأبو داود في " المسائل " (ص٢٦٧) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٢٤٨) وابن الطبري اللالكائي رقم (٤٢٨) بسند جيد .

(٩) رواه عبدالله بن أحمد رقم (٥٣) بسند صحيح .

(١٠)معتمر بتن سليمان بن طرفان ، ابو محمد ، حدث عنه الإمام احمد بن حنبل (ت ١٨٧هـ)تذكرة الحفاظ (٢٤٥/١) ، والأعلام (٢٦٥/٧) .

(١١)حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي (ت ١٧٩هـ) تذكرة الحفاظ (٢١١/١) تهذيب التهذيب (٩/٣) ، حلية الأولياء (٢٥٧/٦)، الأعلام (٢٧١/٢) .

(١٢)يزيد بن زريع ، ابو معاوية البصري (ت ١٨٢هـ) تذكرة الحفاظ (٢٣٦/١) تهذيب التهذيب (٣٢٥/١١)، تهذيب الكمال (٣٧١) ، الأعلام(١٨٢/٨) .

(١٣) روايـــات فطر بن حماد هذه عن الأئمة الثلاثة : معتمر ابن سليمان ، حماد بن زيد ، يزيد بن زريع رواها عبدالله ابن الإمام أحمد في " السنة " رقم (٤٢) بسند حسن .

(١٤) من أئمة المسلمين ثقة عابد .

(١٥) ثقة عدل .

(١٦) من أئمة المسلمين ثقة عابد .

(١٧) ثقة عدل .

الزِمّي[1] : كنا عند عبدالله بن ادريس ، فجاءه رجل فقال : يا أبا محمد : ما تقول في قوم يقولون القرآن مخلوق ؟ فقال : " أمِنَ اليهود ؟ " قال : لا ، قال : " فمِنَ النصارى ؟ " قال : لا ، قال : فمن المجوس ؟ " قال : لا ، قال : " فيمن ؟ " قال : من أهل التوحيد ، قال : " ليس هؤلاء من أهل التوحيد ، هؤلاء الزنادقة ، من زعم أن القرآن مخلوق ، فقد زعم أن الله مخلوق ، يقو الله : (بسم الله الرحمن الرحيم) فالله لا يكون مخلوقاً ، والرحمن لا يكون مخلوقاً ، وهذا أصل الزنادقة ، من قال هذا فعليه لعنة الله ، لا تجالسوهم ولا تناكحوهم "[2] .

٩- وكيع بن الجراح : قال أبو جعفر السويدي : سمعت وكيعاً وقيل له : إن فلاناً يقول : إن القرآن محدث ، فقال : " سبحان الله ، هذا كفر " وسئل عن الجهمية فقال : " لا يُصلي خلفهم "[3] .

١٠- سفيان بن عيينة : قال : " القرآن كلام الله عز وجل ، من قال : مخلوق فهو كافر ، ومن شك في كفره فهو كافر "[4] . وغير هؤلاء الذين ذكرتهم خلق كثير وردت أقوالهم صريحة في تكفير من قال إن القرآن مخلوق ، ولا يتسع المجال هنا لاستيعابهم جميعاً ، إلا أن يفردوا بمصنف مستقل[5] .

<u>٩- صفة الوجه :</u>

أوّل السيوطي صفة الوجه بالذات فقال : " وما ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات نؤمن بظاهره وننزهه عن حقيقته كقوله تعالى : (ويبقى وجه ربك)[6] ... ثم نفوض معناه المراد إليه تعالى كما هو مذهب السلف وهو أسلم أو نؤول كما هو مذهب الخلف ... الوجه بالذات "[7] ويظهر أنه قد استحسن مذهب الخلف فجنح إلى التأويل - كما سنرى - ، والعجيب في الأمر أنه نسب كلاً من التفويض والتأويل إلى مذهب أهل السنة[8] .

أما أنها طريقة خلفية ، فهو صحيح ، وأما أنها طريقة لأهل السنة فهذا هو الباطل بعينه ، لأن أهل السنة والجماعة عقيدتهم اثبات صفات الله كما وردت من غير تأويل ولا تحريف ، ولا تمثيل ولا تعطيل .

قال ابن تيمية : " قال لي بعض الناس : إذا أردنا أن نسلك سبيل السلامة والسكوت ، وهي الطريقة التي تصلح عليها السلامة - قلنا كما قال الشافعي - رضي الله عنه - : آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول

---

(١) رواه البخاري في " خلق أفعال العباد " رقم (٥) وعبدالله بن أحمد في " السنة " رقم (٢٩) وابن الطبري اللالكائي رقم (٤٣٢) بسند صحيح ، الآجري في " الشريعة " (٤٩٦/١) رقم (١٦١) بتحقيق د. عبدالله بن عمر الديجي - دار الوطن ط١/١٤١٨هـ-١٩٩٧م .

(٢) عبد الله بن أحمد في السنة برقم (٣٣) ، بسند صحيح .

(٣) نفس المصدر السابق ، رقم (٢٥) ، بسند صحيح .

(٤) ذكر الآجري جمعاً من الأئمة يقولون : القرآن غير مخلوق ، الشريعة (٥٢٤/١) .

(٥) سورة الرحمن الآية (٢٨) .

(٦) رسالة في علم التوحيد - مخطوط لوحة رقم (٤،٥) ، والكوكب الساطع - مخطوط - لوحة رقم (١٦٤/أ ، ب) .

(٧) انظر : الكوكب الساطع - لوحة رقم (١٦٤/أ ، ب) .

(٨) أورد كلام الشافعي ابن قدامة المقدسي في " لمعة الاعتقاد " (ص٦،٧) .

الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله [١] ، وإذا سلكنا سبيل البحث والتحقيق فإن الحق مذهب من يتأول الصفات ، وأحاديث الصفات من المتكلمين . فقلت له - يعني ابن تيمية - : أما ما قال الشافعي فإنه حق يجب على كل مسلم أن يعتقده ، ومن اعتقده ولم يأت بقول يناقضه فإنه سالك سبيل السلامة في الدنيا والآخرة وأما إذا بحث الإنسان وفحص وجد ما يقوله المتكلمون من التأويل الذي يخالفون به أهل الحديث كله باطلاً ، ويتقن أن الحق مع أهل الحديث ظاهراً وباطناً "[٢] ، وبين ابن تيمية مذهب أهل الحديث فقال : " مذهب أهل الحديث وهم السلف من القرون الثلاثة المفضلة ، ومن سلك سبيلهم من الخلف : أن هذه الأحاديث تمر كما جاءت ، ويؤمن بها وتصدق وتصان عن تأويل يفضي إلى تعطيل ، وتكييف يفضي إلى تمثيل "[٣] . وهذا هو المذهب الحق ، مذهب أهل السنة والجماعة الذي أنزله الله تعالى على نبيه - صلى الله عليه وسلم - وبناءً على معرفة هذا النهج الصحيح : أرى أن السيوطي قد أخطأ في تأويل صفة الوجه بالذات كما أخطأ جميع المؤولة في ذلك . وهؤلاء المؤولة للصفات قد لجأوا للتأويل الفاسد ظناً منهم أن اثبات الصفات يؤدي إلى تشبيه الخالق جل وعلا بالمخلوق ، وأن له جوارح وأعضاء تشبه جوارح المخلوق ، وهو وهمٌ فاسد أدى إلى تأويل فاسد . فالمؤول قد افترض التشبيه والمماثلة بين الله تعالى وبين الخلق في ذهنه ، ثم أراد أن يتخلص من هذا التشبيه فنفى عن الله ما أثبته لنفسه وبذلك وقعوا في محذورين عظيمين :

<u>أولهما :</u> توهم التشبيه من اثبات الصفات .

<u>الثاني :</u> نفي الصفات لئلا يقعوا في التشبيه .

وقد أفضى بهم ذلك إلى جرأة كبيرة على قدسية النصوص الشرعية ، إما بالتأويل إن كانت قرآناً ، وإما بالرد وعدم القبول إن كانت أحاديث بزعم أنها آحاد لا تنهض إلى درجة الاحتجاج بها في العقائد . وكلاهما باطل . لأن مؤدي هذا هو القدح في الشارع ، واتهامه في بيانه ونصحه .

إذا تقرر هذا ، فإنني أقول إن صفة " الوجه " صفة ثابتة بكتاب الله تعالى ولسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - الصحيحة

قال تعالى : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)[٤] وقال تعالى : (فأينما تولوا فثم وجه الله)[٥] وقال تعالى : (كل شئ هالك إلا وجهه)[٦] وقال - صلى الله عليه وسلم - : " حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه "[٧].

---

(١) أورد كلام الشافعي ابن قدامة المقدسي في " لمعة الاعتقاد " (ص٦،٧) .

(٢) الرسالة المدنية (٢٧٠) - بحث نظري وتطبيقي في الأسماء والصفات - ت: الوليد ابن عبدالرحمن الفريان - ط١/١٤٠٨هـ - دار طيبة - الرياض .

(٣) نفسه (ص٢٩) .

(٤) سورة الرحمن الأيتان (٢٦،٢٧) .

(٥) سورة البقرة الآية (١١٥) .

(٦) سورة القصص الآية (٨٨) .

(٧) حديث صحيح : رواه مسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٧٩) ح رقم (١٧٩/٢٩٣) (١٦٢/١) ، وأحمد في " المسند " (٣٩٥،٤٠٥/٤) والدارمي في " الرد على الجهمية " (ص٢٧٨) والآجري في " الشريعة " ح/٦٥٩،٦٦٠ (١٠٨٣/٣-١٠٨٥) واللالكائي ح/٦٩٦ (٤١٤/٣) والبيهقي في " الأسماء والصفات " (٢٩٥/١) ، وابن خزيمة في التوحيد (ص٧٤) ، وابن ماجة في المقدمة ح/١٩٦ (٧١/١) .

وقال – صلى الله عليه وسلم – أيضاً : " ... وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن "[١] .

وغيرها من الأحاديث[٢] ، وقد صح في قوله تعالى : (للذين أحسنو الحسنى وزيادة)[٣] أن الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى الكريم ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وذلك في قوله : " إن أهل الجنة إذا دخلوا الجنة نودوا : أن يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله – عز وجل – موعداً لم تروه ، قالوا : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ؟ ويزحزحنا عن النار ؟ ويدخلنا الجنة ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون إليه تبارك وتعالى ، فوالله ما أعطاهم الله عز وجل شيئاً أحب إليهم منه " ثم تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)[٤] . ومع أن اللفظ في هذا غير صريح في بيان صفة الوجه ولكن تفسره الأحاديث السابقة .

وهذا كله إنما يدل على اثبات صفة الوجه لله تعالى حقيقة على ما يليق به ، وأن تأويل السيوطي وغيره لها لا يصح ، بل هو باطل لأنه حمل للكلام على غير معناه الحقيقي ، ولا يصح ذلك إلا بقرينة مانعة من حمله على الحقيقة ، وليس فيما أوردته من الأدلة أي قرينة صحيحة تمنع ذلك[٥] . كما أن القول بإثبات صفة الوجه لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته هو قول السلف ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة ، وهو الحق ومن العجيب حقاً أن ترى منتسباً إلى مذهب ما لا يوافق مؤسس مذهبه ، بل يخالفه ويذهب إلى ما لم يقله إمامه ، وأوضح هذا بمثالين :

<u>أولهما :</u> السيوطي ، وهو في أساس مذهبه أشعري ، فإنه خالف إمامه أبا الحسن الأشعري في تقرير هذه الصفة واثباتها ، حيث قال الإمام أبو الحسن : " من سألنا فقال : أتقولون إن الله سبحانه وجهاً ؟ قيل له : نقول ذلك خلافاً لما قاله المبتدعون ، وقد دل على ذلك قوله عز وجل : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)[٦] "[٧] .

وإن من الانصاف أن يقال إن من الأشاعرة – ايضاً – من أثبت صفة الوجه ، اقتناعاً بالدليل ، وابتاعاً لإمام

---

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما :
– البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٤) ، ح رقم (٧٤٤٤) الفتح (٤٢٣/١٣) .
– ومسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨٠) ، ح رقم (٢٩٦/١٨٠) (١٦٣/١) .
(٢) انظر : ما أورده ابن خزيمة في كتاب التوحيد (٢٤/١-٤٤) ، والآجري في " الشريعة " (١٠٨٣/٣-١٠٨٥) رقم (٦٥٩،٦٦٠) ، الدارمي في " الرد على بشر المريس العنيد " ضمن عقائد السلف (٥١٧-٥١٩) ، البيهقي في " الأسماء والصفات " (٣٠١-٣٠٢) وانظر : ابن حجر في الفتح (٣٨٨/١٣) ، وابن القيم في " مختصر الصواعق المرسلة (٣٣٥-٣٤٤) .
(٣) سورة يونس الآية (٢٦) .
(٤) رواه مسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨٠) ح رقم (١٨١) (١٦٣/١) . والإمام أحمد في " المسند " (٣٣٢/٤) ، (١٥/٦-١٦) ، وابن خزيمة في " التوحيد (ص١٨١) ، عبدالله بن أحمد في " السنة " (٢٤٥/١) ح رقم (٤٤٩) . والبيهقي في الاعتقاد (ص٤٨) ، كلهم من طريق يزيد بن هارون قال : أخبرنا حماد بن سلمة ... به .
– ورواه مسلم في " صحيحه " ح رقم (١٨١) (١٦٣/١) وأحمد في المسند (٣٣٣/٤) ، والترمذي ح رقم (٢٥٥٢) (٦٨٧/٤) كلهم من طريق عبدالرحمن ابن مهدي قال : حدثنا حماد ... به .
(٥) انظر : ما أورده الدارمي من رودود على المعطلة لهذه الصفة ، في " الرد على بشر المريسي العنيد " (٥١٥) وما بعدها ضمن عقائد السلف . وكذلك ابن القيم في " مختصر الصواعق المرسلة (٣٣٦-٣٤٤) فقد أجادا وأفادا – رحمهما الله رحمة واسعة – .
(٦) سورة الرحمن الآية (٢٧) .
(٧) الابانة عن أصول الديانة (ص ١٢٤) ت.د. فوقية حسين محمود – دار الأنصار – القاهرة .

المذهـب الـذي وافق عقيدة السلف منهم على سبيل المثال : الحافظ أبو بكر البيهقي [١] ، وأستاذه وشيخه : الحافظ أبو بكر بن فورك . أثبت البيهقي ذلك في كتابه الجليل " الأسماء والصفات "[٢] وأثبتها أيضاً ابن فورك في كتابه " مشكل الحديث "[٣] .

والـثاني : فهـو أبو الفرج ابن الجوزي ، وهو حنبلي المذهب ، لكنه ذهب إلى تأويل الوجه بالذات ، في كتابه " دفع شبه التشـبيه "[٤] وذهب إلى تفويضها في " تلبيس ابليس "[٥] مما يدل على اضطرابه في قضية الصفات ، وجهله بمذهب إمامه أحمد بن حنبل ، فلا يكون حجة على مذهب الحنابلة ، كما أن السيوطي ليس بحجة على مذهب الأشعري .

١٠- صفة العينين :

أولهـا السيوطي بالبصر[٦] ، وهو تأويل باطل ، فالبصر صفة ذاتية ، والعينان صفة أخرى خبرية وذاتية أيضاً . وهـي ثابـتة لله جل وعلا بالكتاب والسنة ، ويعتقد أهل السنة أن الله تعالى له عينان تليقان به جل وعلا . أما آيات الكتاب فقولـه تعـالى : (واصـنع الفـلك بأعيـننا ...)[٧] وقولـه تعـالى : (... ولتصـنع عـلى عيني)[٨] وقوله تعالى : (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)[٩] ومن السنة :

١- قوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله لا يخفى عليكم ، إن الله ليس بأعور (وأشار إلى عينيه) ، وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى ، كأن عينه عنبة طافية "[١٠] .

٢- وورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قرأ هذه الآية : (إن الله كان سميعاً بصيراً)[١١] فوضع إبهامه على أذنه ، والـتي تـليها على عينيه "[١٢] . قال ابن خزيمة : " واجب على كل مؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما ثبت الخالق البارئ لنفسه من العين ، وغير مؤمن من ينفي عن الله تبارك وتعالى ما قد ثبته الله في محكم تنزيله ببيان النبي – صلى الله عـليه وسـلم – الـذي جعلـه الله مبيـناً عـنه عـز وجـل فـي قولـه : (وأنزلـنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)[١٣] فبين النبي – صلى الله عليه وسلم – أن لله عينين ، فكان بيانه موافقاً

---

(١) يرى بعض الباحثين أن الإمام أبا بكر البيهقي ليس من الأشاعرة بدليل كتابه : " الأسماء والصفات " وهو رأي له وجاهته .
(٢) انظر (ص٣٠١-٣٠٢) ، د.أحمد بن عطية بن علي الزهراني : البيهقي وموقفه من الالهيات (ص٢٣٢-٢٣٤) .
(٣) انظر : (ص١٧١) ، د.أحمد الزهراني : البيهقي وموقفه من الالهيات (ص٢٣٢-٢٣٤) .
(٤) (ص٣) ت: محمد زاهد الكوثري .
(٥) انظر (ص٩٦) .
(٦) انظر : الكوكب الساطع (١٦٤/ب) ، ورسالة التوحيد (ورقة ٤ / مخطوط) .
(٧) سورة هود الآية (٣٧) .
(٨) سورة طه الآية (٤٨) .
(٩) سورة الطور الآية (٤٨) .
(١٠) رواه الـبخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٧) ح رقم (٧٤٠٧) الفتح (٣٨٩/١٣) ن وفي كتاب الفتن (٩٢) ح رقم (٧١٢٣) الفـتح (٩٠/١٣) .ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الفتن (٥٢) باب (٢٠) ح رقم (١٠٠-١٦٩) (٢٢٤٧/٤) ، وابن أبي شيبة في " المصنف " كتاب الفتن ، ح رقم (١٩٣٠٢) – (١٢٨/١٥) ، وأحمد في " المسند " (١٣١/٢،٣٧،٢٧) ، والترمذي في سننه – كتاب الفتن ح رقم (٢٢٤١) (٥١٤/٤) ، عبدالله بن أحمد في " السنة " ح رقم (٩٩٨) (٤٤٥/٢) وح رقم (١٠٠٠) (٤٤٦/٢) وح رقم (١٠١١) (٤٥٠/٢) ، والآجري في " الشريعة " ح رقم (٨٨٣) (١٣١٣/٣) .
(١١) سورة النساء الآية (٥٨) .
(١٢) سبق تخريجه في أثناء الحديث عن صفتي السمع والبصر .
(١٣) سورة النحل الآية (٤٤) .

لبيان محكم التنزيل الذي هو مسطور بين الدفتين مقروء في المحاريب والكتاتيب "[١] وقال الشيخ ابن عثيمين : " وأجمع أهل السنة على أن العينين اثنتان "[٢] .

١١- صفة اليدين :

هي صفة ذاتية خبرية ، ذهب السيوطي إلى تأويلها بالقدرة [٣] ، وهذا التأويل باطل ، لأن هذه الصفة ثابتة بالكتاب والسنة ، والاجماع .

قال تعالى مخاطباً ابليس – لنعه الله – : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي)[٤] وقال تعالى : (بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)[٥] وقال تعالى (تعز من تشاء وتذلك من تشاء بيدك الخير...)[٦] وقال تعالى : (يد الله فوق أيديهم)[٧] ومن السنة :

١- أن موسى – عليه السلام – لما التقى هو وآدم – عليه السلام – قال له : " ...أنت الذي خلقك الله بيده... "[٨] الحديث .

٢- وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن أحدكم ليتصدق بالتمرة من طيب ، ولا يقبل الله إلا طيباً ، فيجعلها الله في يده اليمنى ، ثم يربيها كما يربي أحدكم فلوه[٩] أو فصيله ، حتى تصير مثل أحد "[١٠] .

٣- وقال – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها "[١١] .

٤- وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن يمين الله ملأى لا يفيضها نفقة ... وبيده الأخرى القبض يرفع ويخفض "[١٢] .

---

(١) (٩٧/١) وانظر أيضاً : (١١٤/١) .

(٢) " عقيدة أهل السنة والجماعة " (ص١٢) ، وانظر : أبو الحسن الأشعري في " الابانة " (ص١٢٠) ، السفاريني في " لوامع الأنوار البهية (١/ ٢٤٠-٢٤١) ، أبو عبدالرحمن الحسن بن عبدالرحمن العلوي في " الإمام الخطابي ومنهجه في العقيدة " (ص١٥٠-١٥٢) ، البيهقي في " الاسماء والصفات " (ص٣١٢ وما بعدها) ، علوي بن عبدالقادر السقاف في " صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة " (ص١٨٧-١٨٩) ، البيهقي في " الاعتقاد " (ص٢٩) ، د/ أحمد بن عطية الزهراني : البيهقي وموقفه من الالهيات (ص٢٤١) ، الكواشف الجلية عن معاني الواسطية – للشيخ عبدالعزيز المحمد السلمان (ص٢٤٩-٢٥٤) .

(٣) الكوكب الساطع (ورقة١٦٤/ب) .

(٤) سورة ص الآية (٧٥) .

(٥) سورة المائدة الآية (٦٤) .

(٦) سورة آل عمران الآية (٢٦) .

(٧) سورة الفتح الآية (١٠) .

(٨) سبق تخريجه أثناء الحديث عن صفة الكلام .

(٩) الفلو : أي المهر الصغير ، سمي بذلك لأنه فلي عن أمه أي فصل وعزل ، وقيل هو العظيم من أولاد ذوات الحوافر ، والفصيل ما فصل عن اللبن ، وأكثر ما يطلق على الابل ، وقد يقال في البقر ، وفي الفلو ، لغتان فصيحتان : أفصحهما وأشهرهما فتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو (فَلُوّ) والثانية : بكسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو . (فِلْو) . انظر : لسان العرب (١٦٢/١٥) .

(١٠) أخرجه : البخاري في " صحيحه " – كتاب الزكاة (٢٤) باب باب (٨) ح رقم (١٤١٠) الفتح (٢٧٧/٣-٢٧٨) ، وأيضاً في كتاب التوحيد (٩) ، باب (٢٣) الفتح (٤١٥/١٣) .– ومسلم في " صحيحه " – كتاب الزكاة ، باب (١٩) (٧٠٢/٢) .وغيرهما .

(١١) أخرجه مسلم في " صحيحه " كتاب التوبة (٤٩) باب (٥) ، ح رقم (٣١-٢٧٥٩) (٢١١٣/٤) .

– وابن خزيمة في " التوحيد " ح رقم (٧-٩٩) باب (٦-٢٣) (١٧٦/١) .

(١٢) أخرجه البخاري في " صحيحه " – كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٢) ، – رقم (٧٤١٩) ، الفتح (٤٠٣/١٣) ، ومسلم في " صحيحه " كتاب الزكاة ، باب (١١) ح رقم (٣٦-٩٩٣) ، (٦٩١/٢) .

قال ابن خزيمة : " باب ذكر اثبات اليد للخالق البارئ جل وعلا ، والبيان أن الله تعالى له يدان كما أعلمنا في محكم تنزيله ... " ثم قال : " باب ذكر البيان من سنة النبي – صلى الله عليه وسلم – على اثبات يد الله جل وعلا ، موافقاً لما تلونا من تـنزيل ربعـاً لا مخالفاً ، قد نزه الله نبيه وأعلى درجته ، ورفع قدره عن أن يقول إلا ما هو موافق لما أنزل الله عليه من وحيه "[1] وحكى أبو الحسن الأشعري اجماع أهل السنة على اثبات اليدين لله جل وعلا فقال : " وأجمعوا على أنه عز وجل يسـمع ويـرى ، وأن له تعالى يدين مبسوطتين "[2] وقال أبو الحسن – أيضاً – : " وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، من غير أن يكون جوازاً[3] ، وأن يديه تعالى غير نعمته ، وقد دل على ذلك تشريفه لآدم عليه السـلام حيث خلقه بيده ، وتثريعه إبليس على الاستكبار عن السجود مع ما شرفه به بقوله : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيـدي)[4] "[5] . فموقف الأشعري هنا يتطابقْ مع عقيدة السلف تماماً في قضية الصفات ، حيث نص بصريح العبارة على أن صـفتي اليد والقبضة صفتان ثابتتان لله تعالى ، وأن الله تعالى موصوف بهما حقيقة لا مجازاً ، وأن يديه غير نعمته ، كمـا أنهما غير قدرته ، وهذا إن دل على شئ ، فإنما يدل على مدى الخلاف الكبير بين رأي أبي الحسن الأشعري ورأي المـتأخرين المنتسبين إليه مذهباً ممن صاروا إلى التأويل في الصفات مثل الرازي والغزالي وابن العربي ، وكذا السيوطي وغيـرهم ، ومـا ذهـب إليـه الاشعري في صفتي اليد والقبضة هو نفس ما استدل به كبار الأئمة والباحثين على مخالفة الأشـاعرة لشيخهم في ذلك[6] . قال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن ساق الآيات القرآنية التي تثبت صفة اليدين لله جل وعلا قـال : " وقد تواتر في السنة مجئ " اليد " فيْ حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – فالمفهوم من هذا الكلام أن الله تعالى يديـن مختصـتان به ذاتيتان له ، كما يليق بجلاله ، وأنه سبحانه خلق آدم بيده دون الملائكة وابليس ، وأنه سبحانه يقبض الأرض ، ويطـوي السموات بيده اليمنى ، وأن (يداه مبسوطتان) ومعنى بسطهما بذل الجود وسعة العطاء ، لأن الاعطاء والجـود – فـي الغـالب – يكون ببسط اليد ومدها "[7] قال شيخ الإسلام هذا الكلام المتقدم في معرض مناظرته لأحد نفاة الصفات ، ثم قال : " قلت له : فالقائل : إن زعم أنه ليس له يد من جنس أيدي المخلوقين ، وأن يده ليست جارحة فهذا حق ، وإن زعـم أنـه ليـس له يد زائدة على الصفات السبع فهو مبطل "[8] وبعد أن أوردت أدلة صفة اليدين من الكتاب والسنة ، ونقلت دليل الاجماع على اثباتها ، بقى أن أقول : إن تأويل النفاة لليدين بالقدرة أو بالنعمة باطل من وجوه :

<u>الأول :</u> أن لفظ " اليدين " بصيغة التثنية لم يستعمل في النعمة ولا في القدرة ، لأن اللغة العربية قد ورد فيها :

– استعمال الواحد في الجمع ، كما في قوله تعالى : (إن الإنسان لفي خسر)[9] .

---

(١) كتاب التوحيد واثبات صفات الرب عو وجل (١/١١٨-١٨٦) .

(٢) رسالته إلى أهل الثغر (ص٧٢) ت.د. محمد السيد الجليند .

(٣) أي مجازاً ، بل هي حقيقة .

(٤) سورة ص الآية (٧٥) .

(٥) رسالة إلى أهل الثغر (ص٧٢-٧٣) ، وانظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٦/٣٦٩) .

(٦) انظر : الاشعري : رسالة : إلى أهل الثغر (ص٧٣،٦٩) هامش التحقيق . وانظر : موقف ابن تيمية من الأشاعرة .

(٧) مجموع التفاوى (٦/٣٦٣،٣٦٢) .

(٨) نفسه (ص٣٦٣) .

(٩) سورة العصر الآية (٢) .

- واستعمال لفظ الجمع في الواحد ، كقوله تعالى : (الذين قال لهم الناس : إن الناس)[1] فلفظة (الناس) الأولى المقصود بها نعيم بن مسعود الأشجعي ، ولفظة (الناس) الثانية المقصود بها أبو سفيان[2] .

- واستعمال لفظ الجمع في الاثنين كقوله تعالى : (صغت قلوبكما)[3] . أما استعمال لفظ الواحد في الاثنين أو الاثنين في الواحد فلا أصل له ، ذلك لأن هذه الالفاظ عدد وهي نصوص في معناها لا يتجوز بها ، ولا يجوز أن يقال : عندي رجل ويعني رجلين ، ولا يجوز أيضاً أن يقال : عندي رجلان ويعني به الجنس . لأن اسم الواحد يدل على الجنس والجنس فيه شياع ، وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس والجنس يحصل بحصول الواحد[4] .

فقوله تعالى : (لما خلقت بيدي) لا يجوز أن يراد به القدرة ، لأن القدرة صفة واحدة ، ولا يجوز أن يعبر عن الواحد بالاثنين[5] . ولا يجوز كذلك أن يراد به النعمة ، لأن نعم الله لا تحصى ، ولا يجوز كذلك أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية . ولا يجوز أيضاً أن يكون المعنى (لما خلقت أنا) لأنه لو أريد ذلك لأضيف الفعل إلى اليد مباشرة كقوله تعالى : (بما قدمت يداك)[6] وكقوله تعالى : (ذلك بما قدمت أيديكم)[7] فأسند الفعل إلى اليد مباشرة . أما إذا أضاف الفعل إلى الفاعل ، وعُدي الفعل إلى اليد بحرف الباء كقوله هنا (لما خلقت بيدي) فإنه نص في أنه فعل الفعل بيديه ، ولهذا لا يصح لمن تكلم أو مشى أن يقال : فعلت هذا بيديك ، ولكن يجوز أن يقال : هذا فعلته يداك ، لأن مجرد قوله فعلت كافي في الاضافة إلى الفاعل ، فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان ذلك زيادة محضة من غير فائدة[8] ، قال شيخ الإسلام : " ولست تجد في كلام العرب ... أن فصيحاً يقول فعلت هذا بيدي ... إلا ويكون فعله بيديه حقيقة ، ولا يجوز أن يكون لا يد له "[9] .

<u>الوجه الثاني :</u> أن يقال : ما الموجب لصرف " اليد " عن حقيقة معناها ؟ الجواب : أنه لا موجب ولا مسوغ لأن يصرف معنى اليد على أن يراد بها يد حقيقة . فإن قيل : يجب صرفها عن المعنى الحقيقي لأن " اليد " جارحة وذلك ممتنع على الله سبحانه ، فجوابه أن يقال : الممتنع وصفه تعالى بيد من جنس أيدي المخلوقين ، فهذا ينزه عنه سبحانه وتعالى - وبلا ريب - ولكن " لم لا يجوز أن يكون له يد تناسب ذاته ، تستحق من صفات الكمال ما تستحق الذات ؟؟ "[10] إن حقيقة اللفظ وظاهره " يد " يستحقها الخالق جل وعلا كالعلم والقدرة وغيرها من الصفات العلية ، لا تشبه صفات المخلوقين ، فكما أن الذات العلية لا تشبه ذوات المخلوقين ، فكذلك صفاتها .

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٧٣) .
(٢) تفسير الجلالين (٨٥) ، وابن كثير (٢/١٤٣-١٤٧) .
(٣) سورة التحريم الآية (٤) .
(٤) أنظر : ابن تيمية : مجموع التفاوى (٦/٣٦٥) .
(٥) نفس المرجع السابق .
(٦) سورة الحج الآية (١٠) .
(٧) سورة آل عمران الآية (١٨٢) .
(٨) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٦/٣٦٦،٣٦٥) . وأبو الحسن : الابانة (١٣١) .
(٩) نفسه (٦/٣٦٦) . وانظر : الاشعري : الابانة (ص١٣٣) .
(١٠) نفسه (٦/٣٦٧) .

الوجـــه الـــثالث : لم يرد في كتاب الله تعالى ما يدل على أن المراد باليد خلاف ظاهرها ، أو ما يدل على أن الظاهر غير مراد من لفظة اليد ، وليس كذلك في سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما يدل على نفي الظاهر بوجه من الوجوه . وكذلك ليس في العقل ما يدل دلالة ظاهرة على أن الباري تعالى لا " يد " له ألبتة .

" فـإذا لم يكن في السمع ولا في العقل ما ينفي حقيقة اليد ألبتة ، وإن فرض ما ينافيها فإنما هو من الوجوه الخفية عند من يدعيه – وإلا ففي الحقيقة إنما هو شبهة فاسدة – فهل يجوز أن يملأ الكتاب والسنة من ذكر اليد وأن الله تعالى خلق بيـده ، وأن يداه مبسوطتان وأن الملك بيده ، وفي الحديث الشيء الكثير ، ثم إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –وأولى الأمـر لا يبينون للناس أن هذا الكلام لا يراد به حقيقته ولا ظاهره ، حتى ينشأ جهم بن صفوان بعد انقراض عصر الصحابة فيـبين للـناس ما نزل إليهم على نبيهم ، ويتبعه بشر بن غياث ومن سلك سبيلهم من كل مغموص عليه بالنفاق "[١] وكيف يجوز أن يقول الله تعالى : (ما فرطنا في الكتاب من شئ)[٢] وكيف يجوز أيضاً أن يعلمنا النبي – صلى الله عليه وسلم – كل شئ حتى " الخراءة " ثم يترك الكتاب المنزل عليه وسنته الغراء مملوءة مما يزعم الخصم أن ظاهره تشبيه وتجسيم وأن اعـتقاد ظاهره ضلال ، وهو لا يبين ذلك ولا يوضحه ؟؟ وكيف يجوز للسلف أن يقولوا أمروها كما جاءت ، مع أن معناها المجـازي هـو المراد ، وهو شئ لا يفهمه العرب ، حتى يكون أبناء الفرس والروم أعلم بلغة العرب من أبناء المهاجرين والأنصار ؟!![٣] وبعد أن ثبت بطلان ما ذهب إليه المؤولة من تأويل صفة " اليدين " لم يبق أمام هؤلاء إلا أن يلتزموا مذهب أهل الحق ، الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة وهو وجوب اثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه ، وأثبته له رسوله – صلى الله عـليه وسـلم – من الصفات ، **إثباتاً حقيقياً بلا تكييف ولا تمثيل ، وتنزيهاً بلا تحريف ولا تعطيل (ليس كمثله شئ وهو** السميع البصير)[٤] .

١٢- صفة الأصابع :

وهي من صفات الله تعالى الذاتية الخبرية الثابتة بالسنة الصحيحة وأدلة اثباتها كثيرة منها :

قولـه – صـلى الله عليه وسلم – : " إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيـث يشـاء " ثـم قال – صلى الله عليه وسلم – : " اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك "[٥] . قال إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة : " باب اثبات الأصابع لله عز وجل " ثم ذكر بأسانيده أدلة ذلك[٦] . وقال الآجري : " باب الإيمان بأن قلوب الخلائق بين أصبعين من أصابع الرب عز وجل بلا كيف "[٧] . وقال البغوي : " والاصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات الله عز وجل ، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل من صفات الله تعالى كالنفس ، والوجه

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٦٧/٦-٣٦٨) .
(٢) سورة الأنعام الآية (٣٨) .
(٣) انظر السابق نفسه (٣٦٨/٦-٣٦٩) .
(٤) سورة الشورى الآية (١١) .
(٥) مسلم (٢٦٥٤) .
(٦) توحيد (١٨٧/١) .
(٧) الشريعة (١١٥٦/٣) .

، والعيـــن ، واليد ، والرجل ، والآيتان ، والمجئ ، والنزول إلى السماء الدنيا ، والاستواء على العرض والضحك ، والفرح "[١] أما السيوطي فقد ذهب إلى تأويل الاصابع بالقدرة ، قال : " والمراد في الحديث أن قلوب العباد كلها بالنسبة إلى قدرته تعـــالى شئ يسير يصرفه كيف يشاء ، كما يقلب الواحد من عباده اليسير بين أصبعين من أصابعه "[٢] فقوله : " إن قلوب العـــباد كـــلها بالنسبة إلى قدرته... " تأويل لصفة الأصابع بالقدرة وهو تأويل الجهمية - كما سيأتي - . قال ابن قتيبة : " ونحـــن نقول : إن هذا الحديث صحيح[٣] ، وإن الذي ذهبوا إليه في تأويل الإصبع لا يشبه الحديث ، لأنه - عليه السلام - قال في دعائه : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي علي دينك " فقالت له احدى أزواجه : أو تخاف يا رسول الله على نفسك ؟ فقال : " إن قلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الله عز وجل " فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم الله تعالى فهو محفوظ بتيـــنك النعمتين فلأي شئ دعا بالتثبيت ؟ ولم احتج على المرأة التي قالت له : أتخاف على نفسك بما يؤكد قولها ؟ ، وكان ينبغي ألا يخاف إذا كان القلب محروساً بنعمتين . فإن قال لنا : ما الإصبع عندك ها هنا ؟ قلنا هو مثل قوله في الحديث الآخر " يحمـــل الأرض على إصبع "[٤] وكذا على إصبعين ، ولا يجوز أن تكون الإصبع هنا نعمة ، ... ولا نقول إصبع كأصابعنا ، ولا يـــد كأيديـــنا ، ولا قبضة كقبضاتنا لأن كل شئ منه لا يشبه شيئاً منا " [٥] وانطلاقاً من أدلة السنة الصحيحة ، يثبت أهل السنة صفة الأصابع لله تعالى على ما يليق بالله عز وجل بلا كيف ولا حد .

١- قال الإمام أحمد : " وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ويوعيها ما أراد " [٦] .

٢- وقـــال الإمـــام الدارمي في معرض رده على بشر المريسي : " ورويت أيها المريسي عن رسول الله - صلى الله عليه وسـلم - أنه قال : " القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء فأقررت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قالـــه ، ثـــم رددته بأقبح محاول ، وأوحسن ضلال ولو دفعت الحديث أصلاً كان أعذر لك من أن تقربه ثم ترده بمحال من الحجـــج ، وبالتي هي أعوج ، فزعمت أن أصبعي الله قدرتاه ، وكذلك قوله : (والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة)[٧] أي فـــي مـــلكه ، فيقال لك أيها المعجب بجهالته : في أي لغات العرب وجدت أن إصبعيه قدرتيه ، فأنبئنا بها فإنا قد وجدناها خارجة من جميع اللغات ، إنما هي قدرة واحدة قد كفت الاشياء كلها وملأتها ، واستنطقتها ، فكيف صارت القلوب من بين الاشـــياء بين قدرتين ، وكم تعدها قدرة ، فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " بين أصبعين من أصابع الرحمن " وفي دعـــواك هي أكثر من قدرتين وثلاث وأربع ، حكمت فيها للقلوب بقدرتين ، وسائرها لما سواها ففي دعواك هذا أقبح محال وأبين ضلال "[٨] وبهذه الأدلة الدامغة يتبين بطلان ما ذهب إليه السيوطي من تأويل هذه الصفة الإلهية ، وكذلك يتبين خطأ

---

(١) شرح السنة (١٦٨/١) .

(٢) رسالة في علم التوحيد لوحة رقم (٤،٥) .

(٣) يقصد حديث عبدالله بن عمر المتقدم الذي رواه مسلم في صحيحه ، وقد ذكره هنا ابن قتيبة في كلامه الآتي .

(٤) رواه الـبخاري رقـم (٧٥١٣) الفتح (٤٧٤/١٣) ، صحيح مسلم (٢١٤٧/٤) رقم (٢٧٨٦) ، الدارمي في الرد على بشر المريسي (ص٤١٨) ، وابن أبـــي عاصـــم فـــي الســـنة (٢٣٨/١) رقـــم (٥٤١) ، ابـــن جريـــر فـــي تفســـيره (٢٦/٢٤) ، وابـــن خـــزيمة فـــي الـــتوحيد (١٧٩/١) رقم (١٠٢) ، واللالكائي في السنة (٤١٨/٣) رقم (٧٠٦) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٩/٢) ، والآجري فيالشريعة (١١٦٤/٣) .

(٥) تأويل مختلف الحديث (ص٢٠٩-٢١٠) .

(٦) طبقات الحنابلة (٢٩/١) .

(٧) سورة الزمر ، بعض الآية (٦٧) .

(٨) الرد على بشر المريسي (ص٥٩) .

كل من ذهب مذهبه من قبله أو من بعده ، ويبقى مذهب أهل السنة هو الحق الظاهر .

١٣- صفة الصورة :

وهذه الصفة ذاتية خبرية ، ثابتة لله تعالى بالأحاديث الشريفة الصحيحة وهي أدلة هذه الصفة كما يلي :

الدليل الأول : حديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – الطويل في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة ، وفيه " ...فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فيقول أنا ربكم ، فيقولون : أنت ربنا... "(١) الحديث .

الدليل الثاني : حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه – ، وهو الحديث المشهور فيه ذكر اختصام الملأ الأعلى ، وفيه : " رأيت ربي في أحسن صورة... "(٢) .

الدليل الثالث : حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله عز وجل خلق آدم على صورته "(٣) .

الدليل الرابع : حديث ابن عمر – رضي الله عنهما – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " لا تقبحوا الوجه ، فإن ابن آدم خُلق على صورة الرحمن جل وعز "(٤) وقد ثار خلاف كبير بين العلماء حول حديث أبي هريرة – رضي الله عنه

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٤) ح رقم (٧٤٣٩) فتح الباري (٤٢٠/١٣) .
ومسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) ولفظه : " ...ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة ، فقال أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا... "ح رقم (٣٠٢-١٨٣) باب (٨١) (١٦٧/١) .

(٢) رواه الترمذي في " سننه " تفسير سورة (ص) رقم (٣٢٣٣) ، وأحمد في " المسند " (٢٤٣/٥) من حديث معاذ بن جبل ، وهو حديث المنام الطويل ، ومن جعله يقظة فقد غلط ، وقال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح ، ساكت محمد بن اسماعيل – يعني البخاري – فقال : حسن صحيح " ورواه ابن أبي عاصم في " السنة " (ص٤٦٥-٤٧١) ، انظر " إرواء الغليل " للألباني رقم (٦٨٤) و " مجمع الزوائد " للهيثمي (١/ ٢٣٨،٧-٢٣٧،٢-١٧٦/١٧٩) .= والحديث صححه البخاري والترمذي كما سبق ، ومن المتأخرين أحمد شاكر والألباني . وانظر شرح هذا الحديث لابن رجب بتحقيق جاسم الفهيد فقد أجاد في جمع طرقه .

(٣) أخرجه مسلم في " صحيحه " كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) باب (٣٢) ح رقم (١١٥-٢٦١٢) انظر (٢٠١٧/٤) .
- والبخاري في " صحيحه " كتاب العتق (٤٩) باب (٢٠) ح رقم (٢٥٥٩) فتح الباري (١٨٢/٥) ونص الحديث : " إذا قاتل احدكم فليجتنب الوجه " بدون ذكر الصورة ، من طريق سعيد المقبري عن ابيه ، عن أبي هريرة – ورواه أحمد في " المسند " (٢٤٤/٢) وابنه في " السنة " ح رقم (٤٩٦) (٢٦٧/١) ، والبيهقي في " الاسماء والصفات " (١٧/٢) من طريق سفيان عن أبي الزناد ... به .

(٤) هذا الحديث رواه ابن خزيمة في " التوحيد " رقم (٧-٤١) (٨٥/١) من طريق " الاعمش عن حبيب بن ابي ثابت عن عطاء ابن ابي رباح عن ابن عمر... " وقد أعله بن خزيمة بمخالفة الاعمش للثوري في اسناده حيث أرسله الثوري ، ولم يقل عن ابن عمر ، وكذلك بتدليس الأعمش فقد عنعن .وكذلك حبيب بن أبي ثابت وقد عنعن ، انظر كتاب التوحيد (٨٧/١) بمعنى أن الأعمش مدلس ، وكذلك حبيب . وجواب ذلك كما قال محقق كتاب الشريعة للآجري ، إن عنعنة الاعمش لا تضر هنا لأن ابن حجر عده من المرتبة الثانية من المدلسين وهم : " من احتمل الأئمة تدليسه ، وأخرجوا له في الصحيح لإمامته وقلة تدليسه " انظر : " تعريف أهل التقديس " (ص٢٣) .
وكذلك حبيب لا تضر عنعنته لأنه من المرتبة الثالثة من المدلسين وقد قبل بعض العلماء عنعنتهم ، ومنهم الإمام مسلم بن الحجاج في " صحيحه " .
يقول د.عبدالله بن عمر الدميجي أيضاً : " لكن يشهد له حديث أبي هريرة يرفعه ، ورواه الدار قطني من حديث ابن لهيعة أيضاً عن الأعرج عن أبي هريرة يرفعه ، (الصفات ح :١٤٩ (ص٦٥) وابن لهيعة وإن كان سيء الحفظ... إلا أنه يصلح في الشواهد والمتابعات ، ولهذا فالحديث لا يقل عن درجة التحسين إن لم يصل إلى درجة الصحة " انظر " كتاب الشريعة " (١١٥٣/٣) الحاشية . وقال الشيخ حمود بن عبدالله التويجري في " عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن " : " وقد ادعى الألباني في تعليقه على " كتاب السنة " لابن أبي عاصم أن هذا المرسل (يعني حديث سفيان الثوري) أصح من الموصول ، وهذه دعوى لا دليل عليها فلا تقبل ، وكما أن الاعمش قد روى الموصول بالعنعنة عن حبيب بن ابي ثابت ، فكذلك الثوري قد روى المرسل بالعنعنة عن حبيب بن أبي ثابت ، وكل من الأعمش والثوري مدلس ، وكل منهما من المرتبة الثانية من المدلسين فلا مزية إذاً لاسناد المرسل على اسناد الموصول ، وقد قال الحافظ ابن حجر في تعريف المرتبة الثانية من المدلسين أنه من احتمل الائمة تدليسه وأخرجوا له في الصحيح لإمامته وقلة تدليسه في جنب ما روى كالثوري ، وذكر أيضاً الأعمش في هذه المرتبة ،

- الـذي فيـه : " فـإن الله عز وجل خلق آدمُ على صورته "[١] ، حكاه ابن حجر في الفتح في مواضع متعددة[٢] ، وابن قتيبة[٣] ، وابن تيمية[٤] وغيرهم . ويتلخص هذا الخلاف فيما يلي :

أولاً : رد هـذا الحديـث وانكار ثبوته ، والنهي عن التحدث به ، روى ذلك عن الإمام مالك[٥] - رحمه الله . ولكن الإمام الذهبي تعقبه ورد عليه وبين ثبوت الحديث وصحته ، وذكر طرقه ، وقد ذكر طرقه أيضاً الآجري في كتاب " الشريعة "[٦] ، وكذلك ابن خزيمة في " التوحيد "[٧] ولكن ابن خزيمة حمل الحديث على تأويل بعيد - سيأتي قريباً - إن شاء الله .

ثانياً : قسم من أهل العلم قبل الحديث ، ولكنهم ارجعوا عود الضمير في قوله : " على صورته " إلى آدم - عليه السلام - ، ولـو وضع الاسم الظاهر مكان الضمير على هذا الرأي لكان معنى الحديث : أن الله تعالى خلق آدم على صورة آدم !! وقـد نسب ابن قتيبة هذا الرأي إلى بعض علماء الكلام ، قال : " قال قوم من أصحاب الكلام : أراد خلق آدم على صورة آدم ، لـم يزد على ذلك "[٨] . وقال ابن حجر : " اختلف إلى ماذا يعود الضمير ؟ فقيل : إلى آدم ، أي خلقه على صورته التي استمر عليها إلى أن أهبط وإلى أن مات ، دفعاً لتوهم من يظهر أنه لما كان في الجنة كان على صفة أخرى ، أو ابتداء خـلقه كمـا وجـد ، ولم ينتقل في النشأة كما ينتقل ولده من حالة إلى حالة... "[٩] وقد استدل أصحاب هذا القول بما رواه الـبخاري عـن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : " خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً... "[١٠] وهـو مـا استدل به ابن خزيمة على تأويله للحديث فقال : " فصورة آدم ستون ذراعاً ، التي أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أن آدم - عليه السلام - خلق عليها "[١١] لكن ابن قتيبة ينتقد هذا التأويل ويعتبر الكلام غير ذي فائدة إذا قيل : إن الله خـلق آدم عـلى صـورة آدم ، ثم يقول : " ومن يشك في أن الله تعالى خلق الإنسان على صورته ، والسباع على صـورها ، والأنعام على صورها ؟ "[١٢] . كما أن الشيخ حمود بن عبدالله التويجري يعتبر هذا التأويل من ابن خزيمة زلة

وعـلى هذا فينبغي أن يساوى بين الأعمش والثوري في الرواية عن حبيب بن أبي ثابت إذ لا فرق بينهما في مرتبة التدليس " (ص٢١ من عقيدة أهل الإيمان) وقال - أيضاً - : " فأما قوله - يعني الألباني - إن حديث ابن عمر قد ضعفه ابن خزيمة فإن الثوري أرسله فخالف فيه الأعمش ، وأن الأعمـش وحبيباً مدلسان ، فيقال : قد صححه اسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل وهما أجل من ابن خزيمة باتفاق الناس " (ص٧٣) من عقيـدة أهـل الإيمان ، وانظر : ميزان الاعتدال للذهبي (٤٢٠/٢) ، وفتح الباري (١٨٣/٥) . وصححه الحاكم في المستدرك (٣١٩/٢) ووافقه الذهبي ، وانظر : الشريعة (١١٥٣/٣-١١٥٤) الحاشية . وبهذا يتبين أن الحديث صالح للاستشهاد به .

(١) سبق تخريجه قبل قليل ، وهو في الصحيحين وغيرهما ، انظر (ص٤٩٠) من هذا المبحث .

(٢) انظر : الفتح (١٨٣/٥) ، (٣/١١) ، (٤٥٠/١١) ، (٤٢٦/١٣) ، (٣٦٦/٦) .

(٣) انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٢١٩ وما بعدها) .

(٤) انظر : ما نقله عنه الشيخ حمود بن عبدالله التويجري عن القسم المخطوط الذي لم يطبع من كتابه الجليل " بيان تلبيس الجهمية في نقض تأسيس بدعهم الكلامية " وما نقله عنه أثبته في كتاب سماه " عقيدة أهل الإيمان في خلق آدم على صورة الرحمن " (ص٧٣ وما بعدها) .

(٥) روى ذلك العقيلي في " الضعفاء الكبير " (٢٥١/٢-٢٥٢) ، ونقله الذهبي في " الميزان " (٤١٩/٢) .

(٦) انظر (١١٤٧/٣-١١٥٥) ت.فضيلة الشيخ د.عبدالله بن عمر الدميجي .

(٧) اظر (٤٥/١-٩٤) ت.د.عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان .

(٨) تأويل مختلف الحديث (ص٢١٩) .

(٩) فتح الباري (٣/١١) .

(١٠) صحيح البخاري - كتاب الاستئذان (٧٩) باب (١) ح رقم (٦٢٢٧) انظر فتح الباري (٣/١١) .

(١١) التوحيد واثبات صفات الرب عز وجل (٩٤/١) .

(١٢) تأويل مختلف الحديث (ص٢١٦) .

مـــن زلاتـــه فقال بعد أن أورد كلام ابن خزيمة : " هذا نص ابن خزيمة على حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – في الصورة وهو معدود من زلاته ، لأنه قد ذهب إلى قول الجهمية في تفسيره لمعنى قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله خـــلق آدم على صورته "[١] وقال أيضاً : " ومن زلات ابن خزيمة أيضاً تقربه من اثبات خلق آدم على صورة الرحمن وتأويله لحديث الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت... "[٢] ثم ساق سند حديث ابن عمر . ومن علم مذهب أهل السنة حق العلم وأنهـــم لـــم يتكلفوا تأويل آيات وأحاديث الصفات كما فعل ابن خزيمة يعلم أنها زلة منه لا يعتد به فيها . كما أن ابن تيمية والذهبي اعتبرا ما ذهب إليه ابن خزيمة خطأ لا يتابع عليه ، وأنه يؤخذ عليه ولا يؤخذ منه ، قال ابن تيمية ناقلاً عن الشيخ أبـــي الحســـن بـــن عبدالملك الكرجي : " فأما تأويل من لم يتابعه عليه الأئمة فغير مقبول وإن صدر ذلك التأويل عن إمام معـــروف غير مجهول نحو ما نسب إلى أبي بكر محمد بن اسحاق بن خزيمة تأويل الحديث " خلق آدم على صورته " فإنه يفسر ذلك بذلك التأويل ولم يتابعه عليه من قبله من أئمة الحديث لما روينا عن أحمد رحمه الله تعالى ، ولم يتابعه أيضاً من بعـــده ، حـــتى رأيت في كتاب " الفقهاء " للعبادي الفقيه ، أنه ذكر الفقهاء وذكر عن كل واحد منهم مسألة تفرد بها ، فذكر الإمـــام ابـــن خزيمة وأنه تفرد بتأويل هذا الحديث " خلق آدم على صورته "[٣] قال ابن تيمية : " وقد ذكر الحافظ أبو موسى المديـــني فيمـــا جمعه من مناقب الإمام الملقب بقوام السنة أبي القاسم اسماعيل بن محمد التيمي صاحب كتاب " الـــترغيب والترهيب " قال : سمعته يقول : أخطأ محمد بن اسحاق بن خزيمة في حديث الصورة ، ولا يطعن عليه بذلك ، بـــل لا يؤخذ عنه هذا فحسب ، قال أبو موسى : أشار بذلك إلى أنه قل من إمام إلا وله زلة فإذا ترك ذلك الإمام لأجل زلته تـــرك كثير من الأئمة وهذا لا ينبغي أن يفعل "[٤] وأما قوله " لما روينا عن أحمد – رحمه الله – " فإن الإمام أحمد قد صرح بـــأن مـــن تأول الحديث على نحو ما قاله ابن خزيمة فإنه قال بقول الجهمية ، قال ابن حجر : " وقال الطبراني في كتاب " الســـنة " : حدثنا عبدالله بن أحمد ابن حنبل قال : قال رجل لأبي : إن رجلاً قال : خلق الله آدم على صورته – أي صورة الـــرجل – فقـــال كذب ، هو قول الجهمية "[٥] . أما الذهبي فقد ترجم لابن خزيمة وقال في أثناء ترجمته : " ...وكتابه في الـــتوحيد مجـــلد كبير ، وقد تأول في ذلك حديث الصورة ، فليعذر من تأول بعض الصفات ، وأما السلف فما خاضوا في التأويل بل آمنوا وكفوا... "[٦] . وقال د.عبدالعزيز بن إبراهيم الشهوان[٧] : " وقد أخطأ – رحمه الله – في هذا التأويل "[٨] . وإذا كـــان من عذر يعتذر به عن الإمام ابن خزيمة في تأويله لحديث الصورة – كما قال الذهبي – هو ما نقله ابن تيمية عن الكرجي قال : " على أني سمعت عدة من المشايخ رووا أن ذلك التأويل مزور مربوط على ابن خزيمة وإنه مفترى عليه

---

(١) عقيدة أهل الإيمان (ص١٣) .
(٢) نفسه (ص٣٧) .
(٣) عقيدة أهل الإيمان (ص١٣) .
(٤) عقيدة أهل الإيمان (ص١٣،١٤) .
(٥) فتح الباري (١٨٣/٥) ، وانظر الذهبي في " الميزان " (٦٠٣/١) .
(٦) عقيدة أهل الإيمان (ص١٤) نقلاً عن سير أعلام النبلاء .
(٧) محقق كتاب التوحيد لابن خزيمة .
(٨) كتاب التوحيد لابن خزيمة (٦٩/١) .

"[1] وبهذا الاعتذار تُبرأ ساحة ابن خزيمة من هذه الزلة التي نسبت إليه ، ويبقى الحق والصواب لمنهج أهل السنة الذين أثر عنهم في كثير من مصنفاتهم وأقوالهم عدم تأويل شئ من الصفات الإلهية إذا ثبتت بالدليل الصحيح .

ثالثاً : قال بعضهم : إن الله تعالى خلق آدم على صورة لآدم عنده تعالى. وهذا التأويل أيضاً لا يجوز في حقه تعالى ، لأنه تعالى خالق الخلق وفاطر السموات والأرض على غير مثال سابق ، كما قال جل وعلا : (بديع السموات والأرض)[2] وبديع فعيل للمبالغة بمعنى فاعل[3] ، أي مبدع ، والمبدع هو خالق الخلق على غير مثال سابق فالله جل وعلا هو مبدع السموات والأرض بمعنى خالقهما ومنشئهما وموجدهما ومخترعهما وما فيهما وما بينهما على غير حد ولا مثال[4] ، وبدون أصل ولا مثال احتذاها عليه[5] . وخلق آدم – عليه السلام – كذلك لم يكن على صورة ولا مثال سبق ، لأنه إذا كان خلق السموات والأرض الذي هو أعظم من خلق الناس كان على غير حد ولا مثال ولا صورة ، فكذلك آدم من باب أولى لأنه أهون من خلق السموات والأرض . قال ابن قتيبة بعد ما أورد قول من قال إن الله خلق آدم على صورة عنده قال : (وهذا لا يجوز لأن الله – عز وجل – لا يخلق شيئاً من خلقه على مثال "[6] . وحاصل هذا القول أنه يرجع إلى القول الذي سبقه وهو قول القائل : إن الله خلق آدم على صورة آدم[7] ، فضلاً عن كونه لا يجوز في حق الله تعالى كما سبق . فقد رد الإمام أحمد على من قال إن الله خلق آدم على صورة آدم ، ونقلت عنه قبل قليل ما ذكره ابن حجر في الفتح من أن هذا كلام الجهمية يعني تأويل الحديث بهذا التأويل . وفي ترجمة عبدالوهاب الوراق[8] وقد سئل عن مسألة خلق الله آدم على صورته ، فقال : " من لم يقل إن الله خلق آدم على صورة الرحمن فهو جهمي "[9] وهذا – كما قلت – هو قول الإمام احمد الذي نقله ابن حجر ، وفي ترجمة محمد بن علي الجرجاني[10] : قال : " قال لي أحمد ابن حنبل : من قال : إن الله خلق آدم على صورة آدم فهو جهمي ، وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه ؟ "[11] وعند الذهبي في " الميزان " زيادة في هذه الرواية حيث ذكر عن الإمام أحمد عندما سأله سائل عن أن معنى الحديث أن الله خلق آدم على صورة آدم ، فقال أحمد : " فأين الذي يروي عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنْ الله خلق آدم على صورة الرحمن ، ثم قال أحمد : وأي صورة لآدم قبل أن يخلق "[12] وبهذا يتبين أن هذا القول أيضاً مردود كسابقه وهو يؤول إليه في المعنى ، وفي البطلان كذلك .

---

(١) عقيدة أهل الإيمان (ص١٣) .

(٢) الآية رقم (١١٧) من سورة البقرة ، (١٠١) من سورة الأنعام .

(٣) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٦٠/٢) ..

(٤) نفسه السابق .

(٥) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٥٠٨/١) .

(٦) ابن قتيبة ، وانظر : التويجري : عقيدة أهل الايمان (ص١٦) .

(٧) انظر : التويجري : عقيدة أهل الإيمان (ص١٦) .

(٨) عبدالوهاب بن عبدالحكم بن نافع أبو الحسن الوراق ، نسائي الأصل عده القاضي ابن أبي يعلي من أصحاب الامام أحمد بن حنبل كان من الصالحين العقلاء وفاته عام (٢٥١هـ) . انظر طبقات الحنابلة (٢٠٩/١) .

(٩) طبقات الحنابلة (٢١٢/١) .

(١٠) محمد بن علي بن عبدالله ، أبو جعفر الوراق ، الجرجاني ، يعرف بحمدان من أصحاب الامام أحمد ، مشهود له بالصلاح والفضل ، وفاته عام (٢٧٢هـ) انظر طبقات الحنابلة (٣٠٨/١) .

(١١) طبقات الحنابلة (٣٠٩/١) وانظر الميزان للذهبي (٦٠٣/١) .

(١٢) (٦٠٢/١-٦٠٣) .

القـول الرابع : أن الضمير يعوذ على المضروب[1] والمضروب هذا - كما روى - هو عبد ضربه مولاه على وجه فنهاه النبي - صلى الله عليه وسلم[2] - ثم قال له : " إن الله خلق آدم على صورته " أي على صورة هذا المضروب وذكر ابـن حجر أن هذا هو قول الأكثر من العلماء وابن خزيمة ممن قال هذا القول ، فقد رجح أن " الهاء في هذا الموضع كناية عـن اسـم المضروب والمشتوم "[3] كما أن هذا هو قول السيوطي حيث قال : " ...على صورته أي صورة العبد المضروب والواقعـة تبينه "[4] وهو قول غير صحيح رده العلماء وخطأوا فيه ابن خزيمة وقد نقلته عنهم قبل ذلك في القول الثاني منهم ابـن قتيـبة وابن تيمية والذهبي ، وأبو الحسين الكرجي ، والعبادي الفقيه ، وقوام السنة وغيرهم كما أنني ذكرت الروايات الـواردة عـن الامـام أحمد في أن من ذهب إلى تأويل الحديث فقد قال بقول الجهمية ، كما أثبت الاعتذار عن الامام ابن خزيمة - رحمه الله - بما يغني عن إعادته هنا كما أن الزيادة التي ذكرت وهي قصة العبد المضروب باطلة لا أصل لها ، قـال الشـيخ التويجري : " والزيادة التي ذكرها ابن قتيبة في حديث الصورة لا أصل لها ، ولم أرها في شئ من الروايات الصـحيحة ، وقد ذكر شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية أنه لا أصل لذلك ولا يعرف في شئ من كتب الحديث "[5] يضاف إلى ذلك أن يقال : لا يشك أحد من العقلاء أن بني آدم قد خلقهم الله تعالى على صورة أبيهم آدم ، ولم يخلقهم على صورة غيره من المخلوقات ، ولو كان المراد من حديث ابن عمر الاخبار بأن ابن آدم خلق على الصورة التي خلقها الرحمن حين صور آدم ثم نفخ فيه الروح لما كان في الحديث فائدة ، ولا كان فيه فضيلة خاصة لآدم وذريته ، فإن الحديث قد قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - ابتداءً من غير سبق قصة مضروب ولا مشتوم ، لبيان فضيلة اختص الله بها آدم - عليه السلام - مـن ضمن ما اختصه به من فضائل وخصائص امتاز بها على سائر المخلوقات ، كما قد خصه بأنه تعالى خلقه بيديه ، وبأنه قد نفخ فيه من روحه ، وأنه علمه الأسماء كلها ، وأنه أمر الملائكة بالسجود له ، وكذلك بأنه خلقه على صورته ، فلو لم يحمل الحديث على اثبات هذه الفضيلة لما كان في الحديث فائدة يساق من أجلها . وبهذا يتبين - أيضاً - بطلان هذا القول .

القـول الخامس : هو أن الضمير يعود على الله تعالى ، قال ابن حجر : " قال القرطبي : أعاد بعضهم الضمير على الله تعـالى متمسـكاً بمـا ورد في بعض طرقه " أن الله خلق آدم على صورة الرحمن "[6] وإن هذا القول لهو قول أهل السنة والجماعـة[7] ، وهـو إثبات صورة للباري جل وعلا على ما يليق بجلاله وكماله وقدسيته ، لا تشبه صورة المخلوقين ولا تشـبهها صـورة المخـلوقين (ليـس كمـثله شئ وهو السميع البصير)[8] وهذا الاثبات مبني على ما تقدم من الأحاديث

---

(١) انظر : ابن حجر : فتح الباري (١٨٣/٥) ، وابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث(ص٢١٦).

(٢) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٣/١١) ، وابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث (ص٢١٦) .

(٣) ابن خزيمة : التوحيد (٨٤/١) .

(٤) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٢٤) .

(٥) عقيدة أهل الإيمان (ص١٤) ، وذكر الشيخ التويجري نص كلام ابن تيمية في (ص٦٤) .

(٦) فتح الباري (١٨٣/٥) والحديث صحيح كما سبق من رواية ابن عمر .

(٧) انظـر : حمود بن عبدالله التويجري : عقيدة أهل الإيمان (ص١٩) ، وانظر كذلك : علوي بن عبدالقادر السقاف : صفات الله عز وجل الواردة فـي الكـتاب والسـنة (ص١٦٥) دار الهجرة - الرياض وابن رجب : اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى - هامش (ص٤١) للمحقق جاسم الفهيد الدوسري ، وانظر كذلك السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٢٣٨/١) .

(٨) سورة الشورى الآية (١١) .

الصحيحة الواردة في الصحيحين وغيرهما ، وقد أملى الإمام أحمد على بعض أصحابه فيما أملى من أمور الإعتقاد قال : " ...وأن آدم صلى الله عليه خُلق على صورة الرحمن ، كما جاء الخبر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ... الإيمان بذلك ، فمن لم يؤمن بذلك ويعلم أن ذلك حق كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فهو مكذب برسول الله – صلى الله عليه وسلم – "[١] أما تأويل الصورة على نحو ما تأوله السيوطي ولم يثبت الصورة لله تعالى فهو منهج باطل كما تقدم في سائر الصفات التي تكلمت عنها والتي أولها السيوطي على طريقة أهل البدع الجهمية .

أما أهل السنة فقد تقرر مذهبهم الحق من إثبات الصفات بدون تأويل يفضي إلى التعطيل ، وبدون تشبيه يؤدي إلى تمثيل . على إنه إن كان قد وقع الخلاف حول عود الضمير في حديث أبي هريرة وهو الذي جعلته الدليل الثالث في بداية الكلام وفي نصه " خلق الله آدم على صورته فإن الدليل الرابع وهو حديث ابن عمر قد ورد صريحاً في أن آدم – عليه السلام – خلق على صورة الرحمن ، فهو نص يجب أن ينقطع الخلاف بوجوده ، فهو مفسر وموضح لحديث أبي هريرة ويرد ما قيل فيه من التأويلات البعيدة المستكرهة . أما أن يُرد حديث ابن عمر الصريح بتعليلات واهية ، ثم يحمل حديث أبي هريرة على تأويلات باطلة فهذه هي طريقة أهل البدع والانحراف . ولا محصل من ورائها سوى الابتداع والبعد عن الحق . أما أهل السنة فطريقتهم كما ذكر ابن تيمية عن كبار أئمتهم كالأوزاعي ، ومكحول ، والزهري ، ومالك بن أنس وسفيان بن سعيد ، وابن عيينة ، ومعمر بن راشد وغيرهم أنهم قالوا في أحاديث الصفات : أمروها كما جاءت بلا كيف ، فقولهم : " أمروها كما جاءت " رد على المعطلة ، وقولهم : " بلا كيف " رد على الممثلة . وقول الأئمة " أمروها كما جاءت بلا كيف " إنما هو نفي لعلم كيفية الصفة ، ولم ينفوا حقيقتها ، فلو كان هؤلاء الأئمة قد آمنوا باللفظ المجرد من غير فهم لمعناه على ما يليق بالله ، لما قالوا أمروها كما جاءت بلا كيف ، فإنه لا يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا لم يفهم عن اللفظ معنى ، وإنما يحتاج إلى نفي علم الكيفية إذا أثبتت الصفات . وكذلك فإن من ينفي الصفات الخبرية أو ينفي الصفات مطلقاً لا يحتاج أن يقول بلا كيف ، فلو كان مذهب السلف نفي الصفات لما قالوا بلا كيف ، وكذلك أمرهم بإمرارها كما جاءت يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه ، فإنها جاءت ألفاظ دالة على معانٍ . وقال الآجري بعد أن روى أحاديث الصورة : " هذه من السنن التي يجب على المسلمين الايمان بها ، ولا يقال فيها كيف ؟ ولم ؟ بل تستقبل بالتسليم والتصديق ، وترك النظر كما قال من تقدم من أئمة المسلمين "[٢] وذكر أيضاً عن أبي بكر المروذي قال : سألت أبا عبدالله أحمد بن حنبل عن الأحاديث التي تردها الجهمية في الصفات ... فصححها وقال : قد تلقتها العلماء بالقبول ، تسلم الأخبار كما جاءت "[٣] لقد انعقدت كلمة أهل السنة جميعاً على هذا الأصل العظيم ألا وهو تلقي الأخبار الصحيحة بالقبول والتسليم والإثبات مع تنزيه الباري – جل وعلا – عما لا يليق به سبحانه ، وإن من معتقدهم اثبات الصورة له – جل وعلا – كما أثبتوا له – سبحانه – اليدين والعينين والساق والأصابع ، ولذلك قال ابن قتيبة : " والذي عندي أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين ، وإنما وقع الإلف لتلك لمجيئها في القرآن ، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن ،

---

(١) ابن ابي يعلي : طبقات الحنابلة (٣١٣/١) ، وانظر ميزان الاعتدال (٤٢٠/٢) ، والفتح (١٨٣/٥) .
(٢) الشريعة (١١٥٣/٣) .
(٣) الشريعة (١١١٥٤/٣) .

ونحن نؤمن بالجميع ، ولا نقول في شئ منه بكيفية ولا حد "[١] وحكى شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذا الحديث – يعني حديث الصورة – لم يكن بين السلف فيه نزاع من القرون الثلاثة المفضلة ، في أن الضمير عائد إلى الله تعالى فإنه مستفيض من طرق متعددة عن عدد من الصحابة ، وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك ، وهو أيضاً مذكور فيما عند أهل الكتابين من الكتب كالتوراة[٢] وغيرها[٣] والصحابة الذين رووا حديث الصورة اثنا عشر صحابياً هم :

١- معاذ بن جبل – رضي الله عنه – .
٢- عبدالرحمن بن عائش – رضي الله عنه – .
٣- عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – .
٤- ثوبان – رضي الله عنه – .
٥- عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – .
٦- أبو أمامة – رضي الله عنه – .
٧- جابر بن سمرة – رضي الله عنه – .
٨- أبو رافع – رضي الله عنه – .
٩- أبو هريرة وعبدالرحمن بن عوف – رضي الله عنهما – .
١٠- أنس بن مالك – رضي الله عنه – .
١١- عدي بن حاتم – رضي الله عنه – .
١٢- أبو عبيدة بن الجراح –رضي الله عنه – [٤] .

وتلقاه السلف من بعدهم متفقين على روايته كعطاء بن أبي رباح ، وحبيب بن أبي ثابت ، والأعمش والثوري وأصحابهم من غير نكير سمع من أحد لمثل ذلك في ذلك العصر ، وهذه الروايات المتنوعة في الاشتهار دليل على أن علماء الأمة لم تنكر اطلاق القول بأن الله تعالى خلق آدم على صورة الرحمن بل كانوا متفقين على اطلاق مثل هذا[٥] . وقد وصف الله تعالى هذه الأمة بأنها خير أمة أخرجت للناس وأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فمن الممتنع أن يكون في عصر التابعين يتكلم أئمة ذلك العصر بما هو كفر وضلال ولا ينكر عليهم أحد ، فلو كان " قوله خلق آدم على صورة الرحمن " باطلاً لكانوا منكرين لذلك الباطل[٦] . وهذا القدر يكفي في إبطال مذهب المؤولة ، وإثبات الصفة لله تعالى وهي (صفة الصورة) على ما يليق بجلاله وعظمته سبحانه ، على خلاف ما تأوله السيوطي من تفسير الحديث بأن المراد صورة العبد المضروب [٧] ، وقد بينت أنه لم يثبت في سبب هذا الحديث قصة ضارب ولا مضروب ، فثبت بطلان التأويل وبقى الحق واضحاً

---

(١) تأويل مختلف الحديث (ص٢٢١) .

(٢) أورد ابن تيمية نقلاً من التوراة للاستشهاد به على صحة إثبات الصورة لله جل وعلا فقال: " وما كان من العلم الموروث عن نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – فلنا أن نستشهد عليه بما عند أهل الكتاب كما قال تعالى : (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وقال تعالى : (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين...) وقال تعالى : (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله...) ... ثم ذكر كلام ابن عباس وهو أن موسى – عليه السلام – ضرب الحجر لبني إسرائيل فتفجر. وقال : " اشربوا يا حمير " فأوحى الله تبارك وتعالى إليه : " عمدت إلى خلق من خلقي خلقتهم على صورتي فشبهتهم بالحمير " قال فهذا موافق لما تقدم في حديثي ابن عمر وأبي هريرة ، واستشهد ابن قتيبة أيضاً بحديث ابن عباس وزاد ابن قتيبة قوله " فما برح حتى عوقب " (هكذا) ، ويقول محقق كتاب ابن قتيبة لعل الصواب " عوتب " بدل عوقب . انظر : تأويل مختلف الحديث (ص٢٢١) ، وانظر كلام ابن تيمية عند الشيخ حمود التويجري في عقيدة أهل الإيمان (ص٣١) (ص٧٥) .

(٣) انظر : عقيدة أهل الإيمان للتويجري (ص٥٤) نقلاً عن نقض التأسيس لابن تيمية – الجزء المخطوط الذي لم يطبع ، وهو في مكتبة جامعة الملك سعود بالرياض .

(٤) انظر : ابن رجب الحنبلي : اختيار الأول في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى بتحقيق جاسم الفهيد الدوسري (ص٣٤) حاشية المحقق ، فقد أجاد جزاه الله خيراً في جمع طرق الحديث .

(٥) عقيدة أهل الإيمان (ص٧٤) نقلاً عن ابن تيمية في نقض التأسيس .

(٦) نفسه .

(٧) انظر : تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٢٤) .

وهو مذهب أهل السنة والجماعة .

١٤- صفة القدمين :

صـــفة ذاتيـــة خبرية ثابتة لله تعالى بصحيح السنة الشريفة . وهذه الصفة الشريفة محل نزاع بين السلف والخلق كسابقتها من الصفات الخبرية(١) . أما السلف فمذهبهم الناصع معروف ، لأنهم يعلمون أن المقام في هذا المجال وهو صفات الباري جل وعلا ليس مقام اجتهام أو قياس أو استحسان وإنما هو مقام تسليم لله ولرسوله ، وأنه لا قول لأحد أياً ما كان مع قـــول الله – جل وعلا – وقول رسوله – صلى الله عليه وسلم – فتلقوا وآمنوا وصدقوا وسلموا مع فهم دقيق ويقين تام بأن الله تعـــالى مـــا سمى نفسه – وكذلك رسوله – إلا بالأسماء الحسنى ، ولا وصف – تعالى – نفسه – وكذلك رسوله – إلا بالصفات العليا ، وهم مع اثباتهم لهذه الصفات العُلى أيقنوا تماماً أنه تعالى : (ليس كمثله شئ وهو السميع البصير)(٢) وإذا تقـــرر هذا وعلم وهو معلوم دائماً ، فإن صفة القدمين قد أثبتها لله تعالى أهل السنة والجماعة من غير تشبيه ولا تأويل بناء على أدلة صحيحة منها :

الدليل الأول : حديث أنس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " لا تزال جهنم تقول : هل من مزيد ، حتى يضع رب العزة فيها قدمه... "(٣) وفي حديث آخر لأنس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " لا يزال يُلقى فيها وتقول : هل من مزيد حتى يضع فيها رب العالمين قدمه... "(٤) .

الدليـــل الثاني : حديث أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " تحاجت النار والجنة... " وفيه : " فأما النار فلا تمتلئ فيضع قدمه عليها... "(٥) .

الدليـــل الـــثالث : حديث أبي سعيد الخدري عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " افتخرت الجنة والنار... " وفيه : " ...حتى يأتيها تبارك وتعالى فيضع قدمه عليها فتنزوي... " الحديث(٦) .

الدليل الرابع : أثر ابن عباس ، قال : " الكرسي : موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره "(٧) .

الدليل الخامس : أثر أبي موسى الأشعري : قال : " الكرسي موضع القدمين ، وله أطيط كأطيط الرحل "(١) وموقف السلف

---

(١) انظر : د.محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الالهية في الكتاب والسنة النبوية (ص٣٢٠) .

(٢) سورة الشورى الآية (١١) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأيمان والنذور (٨٣) ، باب (١٢) ح رقم (٦٦٦١) الفتح (٥٤٥/١١) .
ورواه مسلم في " صحيحه " (٢١٨٧/٤) كتاب الجنةوصفة نعيمها وأهلها (٥١) باب (١٣) ح رقم (٣٧-٢٨٤٨) .

(٤) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٧) ح رقم (٧٣٨٤) الفتح (٣٦٩/١٣) .
ورواه مسلم في " صحيحه " (٢١٨٨/٤) كتاب الجنة (٥١) باب (١٣) ح رقم (٣٨-٢٨٤٨) .

(٥) رواه الـــبخاري فـــي " صـــحيحه " كتاب التفسير (٦٥) سورة ق باب (١) ح رقم (٤٨٤٩) الفتح (٥٩٥/٨) .ومسلم في " صحيحه " كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١) باب (١٣) (٢١٨٦/٤) ح رقم (٣٥-٢٨٤٦) وأحمد في " المسند " (٥٠٧/٢) ، (١٣/٣) .

(٦) رواه ابن خزيمة في " التوحيد " (٢٢٤/١) رقم (٢٧-١٣٤) ورواته ثقات إلا محمد بن معمر فهو صدوق .

(٧) رواه ابن خزيمة في " التوحيد (٢٤٨/١) رقم (١٢-١٥٤) ، رقم (١٣-١٥٥) ، رقم (١٤-١٥٦) .
– ورواه الحاكم (٢٨٢/٢) في " المستدرك " وقال : " حديث صحيح " على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .
– والذهبي في " العلو " (١٠٢) وقال رواته ثقات ، وصححه الالباني في " مختصر العلو " والشيخ أحمد شاكر في " عمدة التفسير " (١٦٣/٢) .
– ورواه كذلك ابن أبي شيبة في " العرش " (٦١) ، والدارمي في " الرد على المريسي " (ص٦٧) .

- كمـا قدمـت وكما هو معلوم - من هذه الأحاديث والآثار هو التلقي والقبول والإيمان والتصديق واثبات الصفة لله تعالى عـلى مـا يليق بجلاله وعظمته ، ولكن الخلف المؤولة أبو إلا التلاعب بنصوص الشرع ، والاعتداء على حرمة الوحي ، فقـال بعضهم : لا بد من صرف لفظة (القدم) عن ظاهرها لقيام الدليل القطعي العقلي (زعموا) على استحالة الجارحة عـلى الله تعالى(٢) . وهو الذي ذهب إليه السيوطي عندما ذكر لفظة القدم قال : " وجه الإشكال ذكر الجوارح "(٣) ومن الـذي قال : إن قدم الله جارحة من الجوارح حتى يضطر الخلف إلى مثل هذه التأويلات المستكرهة ؟ بل الذي عليه سلف هـذه الأمـة - وهم أعلم وأدق وأحكم - أن قدم الله ، ووجه الله ، ويد الله ، وعينه وأصابعه ، وغيرها من الصفات الثابتة بنصـوص الوحي (الكتاب أو السنة) صفات لله تعالى على ما يليق به جل وعلا ، ولا نقول إنها جوارح ، بل هي صفات عـلية للعـلي الأعلى جل جلاله ، آمنا بها على مراد الله ومراد رسوله ، ومعنى الكلمة معلوم من حيث الوضع اللغوي ، والكيـف مجهول لأنه غيب ، والبحث عن الكيفية بدعة أحدثها علماء الكلام ، والإيمان بها على أنها صفات ذاتية لله تعالى واجب من واجبات الدين الإسلامي "(٤) .

وإنـه لمن العجب أن يعتقد مسلم أن الآيات القرآنية التي أنزلها الله العليم الحكيم ، والأحاديث النبوية التي أوحاها إلى رسـوله - عـليه الصلاة والسلام - تدل بظواهرها على ما لا يليق بالله - جل وعلا - كيف وهو تعالى الذي وصف نفسـه الكـريمة بهذه الصفات (أأنتم أعلم أم الله)؟(٥) ، وكذلك وصفه بها رسوله - صلى الله عليه وسلم - فكيف يصف النبي - صلى الله عليه وسلم - ربه بما لا يليق ؟ أأنتم أعلم أم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟؟ .

المطلب السادس : الصفات الفعلية

تمهيـد : صفات الله الفعلية أو صفات الأفعال من الصفات الخبرية التي لا تثبت إلا بالخبر الصادق الصحيح ، وقد وردت النصـوص الشـرعية باثـبات صفات الأفعال كالإستواء على العرش ، والنزول والمجيء والإتيان ونحوها إما بالكتاب أو بالسنة الصحيحة ، أو بهما معا كما سنرى قريبا .

لكن السيوطي عندما تكلم عن هذه الصفات لم يتبع في اثباتها منهج أهل السنة والجماعة ، بل اتبع مذهب الأشاعرة(٦) فـي تأويلها ، وهذا المذهب ظاهر البطلان كما قد قررته قبل ذلك في فصل " موقفه من التأويل " (٧) ولكنه هنا قد طبق مـنهج الـتأويل عـلى هذه الصفات العلية فقال : " وما ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات ، نؤمن بظاهره ،

---

(١) رواه ابـن أبـي شـيبة في " العرش " (ص٦٠) . وابن جرير في " تفسيره " (١٠/٣) عن السدي ، وعن مسلم البطين . والبيهقي في " الاسماء والصـفات " . وصحح إسناده موقوفاً الألباني في " مختصر العلو (ص١٢٤،١٢٣) . وانظر السيوطي : الدر المنثور (١٧/٣) قال السيوطي : " وأخـرج ابـن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي موسى الأشعري قال : الكرسي موضع القدمين وله أطيط كـأطيط الـرجل ، قلت (يعني السيوطي) : هذا على سبيل الاستعارة - تعالى الله عن التشبيه ، ويوضحه ما أخرجه ابن جرير عن الضحاك في الآية قال : كرسيه الذي يوضع تحت العرش الذي تجعل الملوك عليه أقدامهم " الدر المنثور (١٧/٣) ، وكلام السيوطي تأويل غير صحيح .

(٢) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٨٤/١٧) .

(٣) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص١٣٦-١٣٧) .

(٤) انظر : د.محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الإلهية في الكتاب والسنة (ص٣٢٤) .

(٥) سورة البقرة الآية (١٤٠) .

(٦) والمعتزلة كذلك والجهمية على نفي الصفات مطلقا .

(٧) انظر : الفصل الثاني من الباب الثاني .

ونــنزهه عن حقيقته كقوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[١] (ويبقى وجه ربك)[٢] (ولتصنع على عيني)[٣] (يدالله فوق أيديهم)[٤] وقوله -صلى الله عليه وسلم- " إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصـــرفه كيف يشاء[٥] ، ثم نفوض معناه المراد إليه تعالى ، كما هو مذهب السلف ، وهي أسلم ، أو نؤول كما هو مذهب الخـــلف ، فـنؤول في الآيات الاستواء بالاستيلاء والوجه بالذات ، والعين بالبصر ، واليد بالقدرة ، والمراد في الحديث أن قلوب العباد كلها بالنسبة إلى قدرته تعالى شيء يسير يصرفه كيف يشاء ، كما يقلب الواحد من عباده اليسير بين أصبعين من أصابعه "[٦]

وقال أيضاً في " نظم جمع الجوامع " :

" وما أتى به الهدى والســــــنن ... من الصفات المشكلات نؤمنْ

بها كما جـــاءت مـــنزهينـــا ... مـــفوضين أو مؤوليـــــنا

والجهل بالتفصيل ليس يقـــدح ... بالاتفاق والسكوت أصـــح "

ثم قال شارحاً لهذا النظم :

" مـــاورد فـــي الكتاب والسنة الصحيحة من الصفات المشكلة ظاهرها لإيهامه تشبيهاً ونحوه ، كقوله تعالى (الرحمن على العـــرش استوى)[٧] ، (ويبقى وجه ربك)[٨] ، (ولتصنع على عيني)[٩] ، (يد الله فوق أيديهم)[١٠] ، وحديث مسلم : " إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء "[١١] ، ونحو ذلك ، فيه مذهبان لأهل السنة :

<u>أحدهمـــا</u> : أن نؤمـــن بها كما جاءت ، ونفوض المراد منها إلى الله تعالى ، ولانفسرها مع تنزهينا له تعالى عن حقيقتها ، وهذا مذهب السلف وأهل الحديث وهو أسلم كما مر من زيادتي ، والسكوت أصلح .

سئل مالك عن قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[١٢] فقال : " الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والايمان به

---

(١) سورة طه الآية (٥) .
(٢) سورة الرحمن الآية (٢٧) .
(٣) سورة طه الآية (٣٩) .
(٤) سورة الفتح الآية (١٠) .
(٥) صـــحيح مسلم (٤/٢٠٤٥) كتاب القدر (٤٦) باب (٣) ج رقم (١٧/٢٦٥٤) وفي نص الحديث في صحيح مسلم " ... كقلب واحد يصرفه حيث يشاء" ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- " اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك" .
واخرجه ابن ماجه "في السنة" - كتاب الدعاء (٢) ، أحمد "في المسند" (٢/١٦٨ ، ٣/١١٢ ، ٢٥٧)
(٦) علم التوحيد - مخطوط لوحة رقم (٤،٥) ، وسبق أن نقلت جزءاً من هذا النص عند الكلام على الوجه والعينين
(٧) سورة طـــه (٥) .
(٨) سورة الرحمن الآية (٢٧) .
(٩) سورة طـــه الآية (٣٩) .
(١٠) سورة الفتح الآية (١٠) .
(١١) سبق تخريجه قبل قليل .
(١٢) سورة طـــه الآية (٥) .

واجب والسؤال عنه بدعة " أخرجه البيهقي [١] .

وأخرج عنه أيضا – أنه قال : " هو كما وصف نفسه ولايقال كيف ، وكيف عنه مرفوع "[٢] .

وأخـــرج اللالكائي في السنة عن أم سلمة – رضي الله عنها – أنها قالت : " الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والاقرار به إيمان ، والجحود به كفر" [٣] .

وأخرج بن ربيعه بن ابي عبدالرحمن أنه سئل عنه فقال : " الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، وعلى الله الرسالة ، وعلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – البلاغ ، وعلينا التسليم " [٤] . وأسند – أيضا – عن محمد بن الحسن قال : " اتفق الفقهاء من المشرق إلى المغرب على الايمان بالصفات من غير تشبيه ولاتفسير "[٥] .

وقـــال الترمذي في الكلام على حديث الرؤية : " المذهب في هذا عند أهل العلم من الأئمة مثل :سفيان الثوري ، ومـــالك ، وابـــن المـــبارك ، وابن عيينة ، ووكيع ، وغيرهم أنهم قالوا : نروى هذه الأحاديث كما جاءت ، ونؤمن بها ، ولايقال كيف ولاتفسر ولانتوهم "[٦] .

ثانيهمـــا : أنا نؤولها على مايليق بجنابه وجلاله تعالى ، بأن يؤول الاستواء بالاستيلاء ، والوجه بالذات ، والعين بالبصر ، واليد بالقدرة ، ونحوها ، وهذا مذهب الخلف .

وكـــان إمـــام الحرمين يذهب إليه ثم رجع عنه ، فقال في " الرسالة النظامية " : " الذى نرتضيه ديناً وندين الله به عقداً ، اتباع سلف الأمة ، فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها " [٧] .

وتوســـط ابن دقيق العيد فقال : " إذا كان التأويل قريباً من لسان العرب لم ينكر ، أو بعيداً توقفنا عنه وآمنا بمعناه على الوجه الذى أريد به مع التنزيه .

قـــال : ومـــا كان معناه من هذه الالفاظ ظاهراً مفهوماً من خطاب العرب قلنا به من غير توقيف كما في قوله (يا حسرتي على مافرطت في جنب الله) [٨] فنحمله على حق الله ، وما يجب له ، وكذا حديث (قلب المؤمن بين أصبعين) نحمله على

---

(١) هذا القول الدقيق قد اشتهر عن الامام مالك بن أنس رحمه الله – وإن كان محفوظاً عن غيره، حتى غدا قاعدة محكمة تنطبق على جميع نصوص الصفات ، وقد أخرجه عنه جمع من الأئمة منهم : الدارمي : الرد على الجهمية (ص ٢٨٠) ، واللالكائى في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣٩٨/٣) ، أبو نعيم : الحلية (٣٢٥/٦-٣٢٦) والبيهقي في الاسماء والصفات (ص ٥١٥) وابن عبدالبر في التمهيد (١٣٨/٧) ، الذهبي : سير أعلام النبلاء (١٠٠/٨) ، والعلو (١٠٣) والأصبهاني : الحجة (٢٥٧/٢) ، وابن قدامة : اثبات صفة العلو (ص ١٧٢) ، وذكره ابن تيميـــة : الحمويـــة (ص ٢٤) ، التدمرية (ص ٤٣ ، ٩٨) ، شرح حديث النزول (٣٢) وابن القيم : اجتماع الجيوش (٧٥) وفي مختصر الصواعق المرسلة (٣٢٤/٢) ، وابن ابى العز : شرح العقيدة الطحاوية (٩٦/١ ، ٢/ ٣٧٢) وابن حجر : فتح الباري (٤٠٦/١٣) .

(٢) البيهقي : الاسماء والصفات (١٥٠/٢) .

(٣) اللالكـــائي : شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٤٠/٣) ، قال ابن تيمية : " وقد روى هذا الجواب عن أم سلمة – رضي الله عنها – موقوفاً ومرفوعاً ولكن ليس (٤٤٢/٣) إسناده مما يعتمد عليه " مجموع الفتاوى (٣٦٥/٥) .

(٤) اللالكـــائي : شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٤٢/٣) . وفي اجتماع الجيوش الاسلامية : " وعلينا التصديق " (ص ٧٠) قال ابن تيمية : إنه ثابت عن ربيعة شيخ مالك ، الفتاوى (٣٦٥/٥) .

(٥) اللالكائي : شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٤٨٠/٣) رقم (٧٤٠) .

(٦) سنن الترمذي (٦٩٢/٤) كتاب (٣٩) باب (٢٠) وانظر (٤١/٣) سنن الترمذي أيضاً .

(٧) العقيدة النظامية (ص ٣٢) .

(٨) سورة الزمر ، بعض الآية (٥٦) .

أن إرادة القلب واعتقاد ذاته مصرفة بقدرة الله ، وما يوقعه في القلوب كما يقلب الواحد منا اليسير بين أصابعه "[1] أ.هـ.

أقول : هذا الذي قرره السيوطي وسطره ، - مع طوله وجهده - قد خالف فيه تماما ما قرره أئمة السلف - رحمهم الله- في اثباتهم هذه الصفات الجليلة لله -جل وعلا- اعتمادا على نص الكتاب والسنة ، فوافق السيوطي - بما ذهب إليه - المؤولة الذين عزفوا عن مذهب أهل السنة والجماعة - وهو المذهب الحق - وأعرضوا عنه ، وهذا الإعراض عن مذهب السلف - الذي هو مذهب أهل السنة والجماعة - هو أصل ضلال الفرق والطوائف المبتدعة .

وفي كلام السيوطي الذي نقلته آنفا عدة عبارات ينبغي الوقوف عندها لتجلية وجه الحق فيها وأهمها :

__الأولى :__ قوله : " ما ورد في الكتاب والسنة من المشكل من الصفات " .

قد قدمت في الفصل الثاني من الباب الثاني " موقفه من التأويل " وهو أن السيوطي يجعل صفات الباري من المشكل أي المتشابه وذكرت أيضا أن الصحيح الراجح أن آيات الصفات وأحاديثها ليست من قبيل المتشابه بأدلة وبراهين تغني عن الإعادة .

__الثانية :__ قوله : " نؤمن بظاهره ، وننزهه عن حقيقته " هذا كلام المؤولة الذين ينزهون الله عن حقيقة الصفات ، وهذا هو التعطيل بعينه ، أما أهل السنة فيثبتون الصفات لله عز وجل إثباتا حقيقيا على ما يليق بجلاله سبحانه وتعالى ، فيقولون في الإستواء : إن الله تعالى استوى على عرشه بذاته حقيقة استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته ، لا على وجه المماثلة والمشابهة للمخلوقات .

---

(١) الكوكب الساطع شرح نظم جمع الجوامع - مخطوط - لوحة رقم (١٦٤/أ،ب) .

(٢) الفتوى الحموية الكبرى (ص١٣) تقديم محمدعبدالرزاق حمزة، ط المدلى : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

(٣) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

ويقولون نفس قولهم في بقية الصفات العلى كلها .

الثالثة : قوله : " ثم نفوض معناه المراد إليه تعالى كما هو مذهب السلف ، وهو اسلم ، أو نؤول كما هو مذهب الخلف " .

وهــذه مــن الطامات الكبرى في مذهب المؤولة ، فهم جاهلون بمذهب السلف ، ضالون بمذهب الخلف . قال ابن تيمية : " وقد كذبوا على طريقة السلف ، وضلوا في تصويب طريقة الخلف ، فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف في الكذب عليهم ، وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف "[١] وقد قدمت أيضا في الفصل الثاني من الباب الثاني ، بطلان نسبة التفويض إلى مذهب السلف ، فالسلف مثبتون لا مفوضون . وقد أوضحت ذلك وبينته هناك بما يغني عن الإعادة .

أدلة اثبات الصفات التي تأولها السيوطي

١- صفة الإستواء :

ورد إثـبات صفة الاستواء لله تعالى في القرآن الكريم في سبعة مواضع وهي : قوله تعالى : (إن ربكم الله الذي خـلق الســموات والأرض فــي ستة أيام ثم استوى على العرش)[٢] وقوله (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش)[٣] وقوله : (الرحمن على العرش استوى)[٤] وقوله: (ثم استوى على العرش الرحمن)[٥] وقوله: (الله الــذي خـلق الســموات والارض ومابيـنهما في ستة أيام ثم استوى على العرش[٦] وقوله: (هو الذي خلق السموات والارض فــي ســتة ايام ثم استوى على العرش)[٧] فهذه الآيات تدل دلالة واضحة قاطعة لا تحتمل أى تأويل على أن الله تعـالى مسـتوٍ عـلى عرشـه بذاته تعالى حقيقة ، استواء يليق بجلاله ، وكمال عظمته جل وعلا، لاعلى وجه المماثلة او المشابهة بالمخلوق .

أما الدليل من السنن والآثار ، فمنها :

٢- قوله - صلى الله عليه وسلم - : " لما فرغ الله من خلقه ، استوى على عرشه " [٨] .

٣- قول ابن عباس - رضي الله عنهما - : " ... إن الله تعالى استوى على عرشه قبل أن يخلق شيئاً ، فكان أول ما خلق القلم ... " [٩] . ومعنى الإستواء : العلو ، والإرتفاع ، والإستقرار والصعود [١] .

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى (ص١٣) تقديم محمدعبدالرزاق حمزة، ط المدلى : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
(٢) سورة الأعراف الآية (٥٤) .
وسورة يونس الآية (٣) .
(٣) سورة الرعد الاية(٢).
(٤) سورة طه الاية (٥).
(٥) سورة الفرقان الاية (٥٩).
(٦) سورة السجدة الاية (٤).
(٧) سورة الحديد الاية (٤).
(٨) ذكره ابن القيم في " اجتماع الجيوش الاسلامية " (ص٥٤) وقال : " رواه الخلال في كتاب " السنة " باسناد صحيح على شرط البخاري " وقال الذهبي في " العلو " (ص٥٢) : " رواته ثقات "
(٩) رواه ابن بطة في " الابانة الكبرى " ح رقم (٩٨) (٢/١٠٦) ، واللالكائي في " شرح أصول أهل السنة والجماعة " ح رقم (١٢٢٣) (٤/٦٦٩) . والآجـري فـي " الشريعة " ح رقم (٣٥١) (٢/٧٧٠) ، رقم (٤٤٤) (٢/٨٦٧) وح رقم (٦٦٦) (٣/١٠٩٠) . باسناد صحيح كما قرره محقق كتاب الشريعة .

قال ابن القيم – رحمه الله – :

" فلهم عبارات عليها أربع قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وكذلك ارتفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو رابع وابو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القول في تفسيره أدرى من الجهمي بالقرآن"[٢]

وعبارات السلف ومصنفاتهم أكثر من أن تحصر في اثبات هذه الصفة العظيمة . قال ابن القيم : " القول في أن الله تعالى مستو على العرش هذه المسألة سبيلها التوقيف المحض ، ولا يصل إليها الدليل من غير هذا الوجه ، وقد نطق به الكتاب في غير آية ، ووردت به الاخبار الصحيحة، فقبوله من جهة التوقيف واجب ، والبحث عنه وطلب الكيفية غير جائز ، وقد قال مالك : الاستواء معلوم ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة "[٣] فمن التوقيف الذي جاء به الكتاب قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى)[٤] ، وقال تعالى : (ثم استوى على العرش)[٥] وقال : (رفيع الدرجات ذو العرش)[٦] ، وقال : (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الارض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا)[٧] وقال : (تعرج الملائكة والروح إليه)[٨] ... وقال حكاية عن فرعون أنه قال : (يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فاطلع إلى إله موسى)[٩] فوقع قصد الكافر إلى الجهة التي أخبره موسى عنها ، ولذلك لم يطلبه في طول الأرض ولا عرضها ، ولم ينزل إلى طبقات الأرض السفلى [١٠] ،فدل ما تلوناه من هذه الآي على أن الله سبحانه في السماء مستو على العرش ، وقد جرت عادة المسلمين خاصتهم وعامتهم بأن يدعو عند الابتهال والرغبة إليه ، ويرفعوا أيديهم إلى السماء ، وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن ربهم المدعو في السماء سبحانه "[١١] وقد حكى أبو عمر الطلمنكي[١] إجماع المسلمين من أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه بذاته ،

---

(١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١/ ١٢٩) وذكر عنه ابن القيم في " اجتماع الجيوش الإسلامية " (١/ ١١٩) أنه قال في كتابه " صريح السنة " : "وحسب امرئ أن يعلم أن ربه هو الذي على العرش استوى ، فمن تجاوز إلى غير ذلك فقد خاب وخسر " . وانظر : الشيخ محمد بن صالح العثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص ٣٢) .

(٢) أحمد بن إبراهيم بن عيسى: توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم (النونية) (١/٤٤٠) ت زهير الشاويش – المكتب الاسلامي ط ١٤٠٦/٣ هـ .

(٣) سبق تخريجه عند نقلي لكلام السيوطي .

(٤) سورة طه الاية (٥) .

(٥) سورة الفرقان الاية (٥٩) .

(٦) سورة غافر الاية (١٥) .

(٧) سورة الملك الايتان (١٦، ١٧) .

(٨) سورة المعارج الاية (٤) .

(٩) سورة غافر الايتان (٣٦، ٣٧) .

(١٠) قال ابن عبد البر في "التمهيد " (٧/ ١٣٣) : " فدل على أن موسى _ عليه السلام _ كان يقول إلهي في السماء ، وفرعون يظنه كاذبا " وقال الصابوني في "عقيدة السلف " (ص ١٥) : وإنما قال ذلك لأنه سمع موسى _عليه السلام _يذكر أن ربه في السماء ،ألا ترى إلى قوله (وإني لأظنه كاذبا) يعني في قوله : إن في السماء إلها " وانظر اجتماع الجيوش (ص ٧٨) .

(١١) تهذيب مختصر سنن أبي داود لابن القيم (٧/١٠٨-١٠٩) نقلا عن أبي سليمان الخطابي في "شعار الدين" . وانظر : مختصر الصواعق المرسلة (٢/٣٨١) .

وقال أيضا : " أجمع أهل السنة على أنه تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز "[٢] أما القائلون بالمجاز منهم المؤولة من الأشعرية ومن وافقهم كالسيوطي وغيره . وزعموا أن استوى بمعنى استولى ، وأن الاستواء هو الاستيلاء ، واستدلوا بما هو أو هي من بيت العنكبوت ، ألا وهو شاعرهم اليتيم الأخطل النصراني الذي استدلوا بما نسبوه إليه في صفة الكلام – سابقا – وتبينت الحقيقة بالدلائل أنه لم يقل ما استدلوا به على أنه من شعره ، وكذلك هنا استدلوا – أيضا – ببيت من الشعر نسبوه إليه زوراً، مما يدل على تهافت رأيهم، وفساد مذهبهم . قال أبوسليمان الخطابي : "وزعم بعضهم أن الاستواء هـا هنا بمعنى الاستيلاء ، ونزع فيه إلى بيت مجهول[٣] لم يقله شاعر معروف يصح الاحتجاج بقوله "[٤] وهذا الإمام الخطابي من أئمة اللغة كما قال عنه ابن القيم[٥] .

إذ أن قائله مجهول لا يدرى من هو حتى يعلم هل يحتج بشعره أم لا ؟؟ ثم ينظر بعد ذلك هل صح سند النقل عنه أم لا ؟ ثم إذا صح السند هل تلقاه علماء العربية بالقبول أم بالرد ؟؟ . وهنا أيضا يصدق على المؤولة قول من قال فيهم :

تباً لمن نبذ القرآن وراءه   واذا استدل يقول قال الأخطل

قـال شيخ الاسلام ابن تيمية : " ولم يثبت نقل صحيح أنه شعر عربي ، وكان غير واحد من أئمة اللغة أنكروه – هكذا قال – وقالوا : أنه بيت مصنوع لا يعرف في اللغة ، وقد علم أنه لو احتج بحديث رسول الله – صلىالله عليه وسلم – لاحتاج الى صحته ، فكيف ببيت من الشعر لايعرف اسناده ؟ وقد طعن فيه أئمة اللغة "[٦] وقال المحقق ابن القيم : " ...فهذا شـعر مولد حدث بعد كتاب الله ، ولم يكن معروفا قبل نزول القران ولافي عصر من أنزل عليه القران ، ولم يكن من لغة مـن نـزل القران عليه ... "[٧] وقال الحافظ ابن كثير : " والجهمية تستدل على الاستواء على العرش بأنه الاستيلاء ببيت الأخطل – وذكره – قال : وليس فيه دليل ، فإن هذا الاستدلال باطل من وجوه كثيرة ، وقد كان الأخطل نصرانيا "[٨] وقال أيضـا : " وهـذا الـبيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهذا من تحريف الكلم عن مواضـعه ، وليس في بيت هذا النصراني حجة ولا دليل على ذلك ، ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عـليه ، تعـالى الله عن قول الجهمية علوا كبيرا ، فإنه إنما يقال استولى على الشيء إذا كان ذلك الشئ عاصيا عليه قبل اسـتيلائه عليه ، كاستيلاء بشر على العراق ، واستيلاء عبد الملك على المدينة بعد عصيانها عليه ، وعرش الرب لم يكن

---

(١) هـو : أحمـد بـن عبدالله ، أبو عمر ، الطلمنكي ، المعافري ، الأندلسي ، كان من المجودين في القراءات ، وله تصانيف في القراءة ، وروى الحديث . (ت٤٢٩هـ) انظر ترجمة : طبقات القراء لابن الجزري (١/١٢٠) طبعة الخانجي ، شذرات الذهب (٣/٢٤٣-٢٤٤) ، تذكرة الحفاظ (٣/١٠٩٨-١١٠٠) ، الديباج المذهب لابن فرحون المالكي _ ط ابن شقرون القاهرة سنة ١٣٥١هـ (ص/٣٩-٤٠) .

(٢) ذكـره عنه الامام ابن القيم في "اجتماع الجيوش الاسلامية " (ص٧٦) ، وفي مختصر الصواعق المرسلة (٢/٣٢٤) . نقلا عن كتابه الذي سماه "الوصول إلى معرفة الأصول" .

(٣) هو : قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق أورده الجوهري في الصحاح مادة (سوا) (٦/٢٣٨٥) ، ونقله عنه ابن منظور في " لسان العرب " مادة (سوا) (١٤/٤١٤) ولم ينسباه لأحد ، ونسبه الزبيدي في " التاج " (١٠/١٨٩) للأخطل وليس في ديوانه .

(٤) مختصر الصواعق المرسلة (٢/٣٢١) نقلا عن " شعار الدين " لأبي سليمان الخطابي .

(٥) انظر : مختصر الصواعق المرسلة (٢/٣٢١) .

(٦) مجموع الفتاوى (٥/١٤٦) .

(٧) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (٢/٦٧٥) . والمختصر (٢/٣٢٦) ، وفيه إبطاله من وجوه أخرى رائعة .

(٨) البداية والنهاية (٧/٨) .

ممتنعاً عليه نفسا واحداً حتى يقال : استولى عليه ، أو معنى الاستواء الاستيلاء ، ولا تجد أضعف من حجج الجهمية ، حتى أداهم الافلاس من الحجج إلى بيت هذا النصراني المقبوح ، وليس فيه حجة ، والله أعلم "[١] وكذلك يقال أيضا : لو كان الاستواء هو بمعنى الاستيلاء لكان الكلام عديم الفائدة والجدوى - كما سبق في كلام ابن القيم الذي نقله عن الخطابي - ذلك لأن الله عز وجل قد أحاط علمه وقدرته بكل شيء ، وكل قطر وبقعة من السموات والأرضين تحت العرش ، وهو مستول عليها بهذا المعنى فهو مالكها وقاهرها ، فما معنى إذا تخصيص العرش بالذكر في الاستيلاء ؟؟ إذ كل الكون في قبضته تعالى وتحت ملكه وقهره . ثم إن الاستيلاء - كما ذكر الحافظ ابن كثير - يتحقق معناه عند المنع من الشيء فإذا وقع الظفر به ، قيل : استولى عليه ، فأى منع كان حتى يوصف بالاستيلاء بعده ؟ [٢] ! [٣] . إن المؤولة وهم يدعون الانتساب إلى أبي الحسن الأشعرى ، قد خالفوا رأيه ومذهبه فقد استدل أبو الحسن بأدلة قاطعة موافقا أهل السنة في بطلان تفسير الاستواء بالاستيلاء ، قال ابن القيم : " ونحن نذكر لفظه بعينه الذى حكاه عنه أبو القاسم ابن عساكر ، في كتاب " تبين كذب المفترى " وحكاه قبله أبو بكر بن فورك ، وهو موجود في كتبه ، قال في " كتاب الابانة " ، وهو آخر كتبه ، قال : (باب ذكر الاستواء) إن قال قائل : ما تقولون في الاستواء ؟ قيل له : نقول إن الله عز وجل يستوى على عرشه استواء يليق به...كما قال : (الرحمن على العرش استوى) وساق الأدلة على ذلك ثم قال : وقال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إن معنى قوله : (الرحمن على العرش استوى) أنه استولى وملك وقهر ، وجحدوا أن يكون الله على عرشه كما قال أهل الحق ، وذهبوا في الاستواء إلى القدرة ، ولو كان هذا كما قالوا ، كان لافرق بين العرش والأرض السابعة السفلى لأن الله تعالى قادر على كل شيء والأرض والسموات وكل شيء في العالم فلو كان الله مستويا على العرش بمعنى الاستيلاء والقدرة ، لكان مستوياً على الارض والحشوش ، والانتان والاقذار لانه قادر على الاشياء كلها ، ولم نجد أحدا من المسلمين يقول إن الله مستو على الحشوش والاخليه ، فلايجوز أن يكون معنى الاستواء على العرش ، على معنى هو عام في الاشياء كلها ، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص بالعرش دون سائر الاشياء [٤] ، وهكذا قال في كتابه " الموجز " وغيره من كتبه "[٥] . قال ابن القيم :

---

(١) السابق نفسه (٧/ ٢٧٣) .

(٢) انظر : ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٢١) ، نقلا عن " شعار الدين " للخطابي ، بتصريف في العبارة .

(٣) اخرج ابن عرفة في كتابه " الرد على الجهمية " - كما في اجتماع الجيوش الاسلامية " (ص١٦٧)_ وعنه اللالكائى بسنده في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة " (٣٩٩/٣) قال : أخبرنا محمد بن جعفر النحوى ، إجازة ، ثنا أبو عبدالله نفطويه قال : حدثني أبو سليمان داود بن علي قال : كنا عند ابن الأعرابي فأتاه رجل فقال له : ما معنى قول الله عز وجل (الرحمن على العرش استوى)؟ فقال : هو على عرشه كما أخبر عز وجل ، فقال : ياأبا عبدالله ، ليس هذا معناه ، إنما معناه استولى ، فقال اسكت ما أنت وهذا لايقال : استولى على الشيء إلا أن يكون له مضاد ، فإذا غلب أحدهما قيل : استولى ،أما سمعت قول النابغة :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه　　　سبق الجواد إذا استولى على الأمد

(ديوان النابغة الذبياني ص١٤) . وأخرج هذا _أيضا _ أبو اسماعيل الهروى في كتاب "الفاروق " حكاه عن الحافظ ابن حجر في فتح البارى (٤٠١/١٣) ، ورواه البيهقي في الأسماء والصفات (ص٥٢٣) ، والخطيب البغدادي في " تاريخ بغداد " (٢٨٤/٥) وابن قدامة في اثبات صفة العلو (ص١٧٤) .

(٤) الإبانه بلفظه مع اختلاف يسير ، انظر (ص١٠٥) بتحقيق د/فوقيه حسين محمود - دار الانصار -القاهرة .

(٥) ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٣٢٦/٢) .

" والأشعري يقول تفسير استوى بحقيقة استولى من البهتـــان[1]

هو قول أهل الإعتزال وقول اتبا ع لجـهم وهو ذو بطـــلان

في كتبه قـد قـاله من "موجـز"[2] "وابـانه"[3] و "مقـالة"[4] ببـيان "

كما أن البيت الذى استدلو به على سوء مذهبهم هو حجة عليهم لالهم ، وهو دليل على حقيقة الاستواء ، فإن بشرا المذكـور فيـه كـان أخـا عـبد المـلك بـن مـروان ، وكـان أميـرا عـلى العـراق مـن قـبل أخيـه الخـليفة عبد الملك ، فاستوى على سرير ملكها كما هى عادة الملوك ونوابها أن يجسلوا فوق سرير الملك مستوين عليه ، وهذا هو المطابق لمعنى هذه اللفظة في اللغة ، كما قال تعالى : (لتستووا على ظهوره...)[5] وقوله : (واستوت على الجودى)[6] ، وقوله : (فاستوى على سوقه) وفي الصحيح أن النبى – صلى الله عليه وسلم – كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سـفر كـبر ملبيا[7] ، وقال علي – رضي الله عنه – أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بدابة ليركبها ، فلما وضع رجلـه في الغرز قال : " بسم الله " فلما استوى على ظهرها قال : "الحمدلله " [8] فليس في هذه المواضع كلها موضع واحد يدل على أن الاستواء بمعنى الاستيلاء والقهر[9]. وكذلك فاستواء الشيء على غيره يتضمن استقراره وثباته وتمكنه عليه ، كمـا قـال تعـالى في السفينة (واستوت على الجودى)[10] أى رست عليه واستقرت على ظهره ، ولا يصح أن يقال اسـتولت السفينة على الجودى ، وقال تعالى : (لتستووا على ظهوره)[11] ، وقال في الزرع : (فاستوى على سوقه)[12] فإنه قبل ذلك يكون فيه ميل واعوجاج لأجل ضعف سوقه ، واذا استغلظ الساق واشتدت السنبله استقرت ، ومنه قولهم : قد استوى بشر على العراق ، فإنه يتضمن استقراره وثباته عليها ، ودخوله دخول مستقر غير مزلزل ، وهو يتضمن الاستيلاء ، لا أن معناه الاستيلاء وهو بحسب موضعه ، لأنه لا يصح أن يقال استولت السنبلة على ساقها ، ولا استولت السفينة على الجبل ، ولا استولى الرجل على السطح إذا ارتفع فوقه[13] .

وبهـذا يتـبين بطلان رأى من قال : إن الاستواء هو الاستيلاء ، وبه يتبين – أيضا – خطأ السيوطى في موافقته لـلمؤولة بهـذا التأويل الباطل ، ولقد تصدى العلماء والأئمة منذ ظهرت هذه البدع لدحضها وإبطالها ، واحقاق مذهب أهل

---

(١) أى أن أبا الحسن الاشعري ذكر ابطال تأويل الاستواء بالاستيلاء ، وعد ذلك من الكذب والبهتان في كثير من كتبه ، انظر ابن عيسى : توضيح المقاصد (شرح النونين) (٤٤١/١) .

(٢) كتاب من تصنيف أبى الحسن الاشعري سماه "الموجز" وذكره ابن القيم في مختصر الصواعق (٣٢٦/٢) ، كما سبق .

(٣) " الابانه عن أصول الديانه" تصنيف أبى الحسن الاشعري ، مطبوع طبعات عديدة .

(٤) " مقالات الاسلاميه واختلاف المصلين " من تصنيفه أيضا ، مطبوع .

(٥) سورة الزخرف الآية (١٣) .

(٦) سورة سيدنا هود – عليه السلام – ، بعض الآية (٤٤) .

(٧) صحيح مسلم (٩٧٨/٢) ح رقم (٣٤٢) .

(٨) سنن الترمذي كتاب الدعوات ، باب (٤٦) ، وأبو داود – كتاب الجهاد ، باب (٧٤) .

(٩) انظر : ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٣٢٦/٢) .

(١٠) سورة هود الآية (٤٤) .

(١١) سورة الزخرف الآية (١٣) .

(١٢) سورة الفتح الايه (٢٩) .

(١٣) انظر : ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٣٢٧/٢) .

السنة والجماعة بالدليل الناصع ، والبرهان الساطع ومن ذلك هذا التأويل الفاسد للاستواء بالاستيلاء ، وخلاصة ما تقدم من رد لهذا التأويل أنه لايصح لوجوه أربعة هى ايجاز ما قدمته مفصلا وهى :

١- أنه خلاف ظاهر النص . ٢- أنه خلاف ما فسره السلف .

٣- أنه يلزم عليه لوازم باطلة . ٤- أنه غير صحيح في اللغة ، قال ابن تيمية :

"سئل الخليل : هل وجدت في اللغة استوى بمعنى استولى ؟ فقال : هذا ما لاتعرفه العرب ، ولا هو جائز في لغتها ، وهو امام في اللغة - على ما عرف من حاله - فحينئذ حمله على ما لايعرف حمل باطل [١] " .

ولعظم هذه الصفة - وصفاته تعالى كلها عظيمة - اهتم العلماء بجمع أدلتها من الكتاب والسنة الصحيحة ، وتقييد ما جاء فيها من أخبار وأقوال واستدلالات من طريق اللغة وغيرها ، من خلال مؤلفات حميدة مع ردهم المحكم على أهل الشبه والضلال والبدع ، معطلة الصفات ونفاتها ، ودحض أقوالهم ، وتفنيد آرائهم وإبطال مزاعمهم بما تقربه عيون المؤمنين ، وتسعد به قلوب الموحدين[٢] .

٣- صفة النزول :

وهي صفة فعلية ثابتة لله عز وجل ، بالسنة الصحيحة المتواترة ، ومعنى النزول عند أهل السنة والجماعة : أن الله جل وعلا ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر نزولا حقيقيا يليق بجلاله ، ولا يعلم كيفيته إلا هو جل وعلا[٣] ، ونزوله سبحانه إلى السماء الدنيا لا ينافي علوه ، لأنه تعالى ليس كمثله شيء ولا يقاس نزوله بنزول مخلوقاته[٤] .

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/١٤٦) ، وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضع إبطال تفسير الاستواء بمعنى الاستيلاء من اثني عشر وجهاً ، فانظر هناك .

(٢) ينبغي لكل مسلم الاطلاع على أقوال الأئمة والعلماء والباحثين من أهل السنة وما قيدوا من أدلة وبراهين في صفة الاستواء ومعها صفة العلو مع ردهم على المبتدعين ، ولينظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٥/١٣٦-١٢٥) .ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث (ص٣٢٧-٣٣٠) .
الدارمي : الرد على الجهمية _ضمن عقائد السلف (ص٢٦٣-٢٨٢) ، وكذا رده على بشر المريسي العنيد (ص٢٣-٢٥) .
ابن أبي شيبة : كتاب العرش وما روى فيه . ابن خزيمة : كتاب التوحيد واثبات صفات الرب جل وعلا (١/٢٣١-٣٢٧) .
أبو الحسن الاشعرى : الإبانة عن أصول الديانة (ص١٠٥-١١٩) .اللالكائى : شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة -(٣/٣٨٧-٤٠٢) .
أبو محمد الجوينى : اثبات الاستواء والفوقية _ ضمن مجموعة الرسائل المنيرية (١/١٧٤-١٨٧) .
الصابونى : عقيدة السلف (ص١٥-٢٦) .ابن عبد البر : التمهيد (٧/١٢٨-وما بعدها) .
ابن قدامة : اثبات صفة العلو . أحمد بن ابراهيم الواسطى : النصيحة في اثبات صفات الرب جل وعلا .
ابن تيمية : العقيدة الواسطة بشرح ، محمد خليل هراس .
والذهبى : العلو للعلى الغفار ، والاربعين في صفات رب العالمين _ له ، (ص٧٨-٩٨) . ضمن ست رسائل للذهبى .
ابن القيم : اجتماع الجيوش الاسلامية (ص٤٥ إلى آخر الكتاب) . ومختصر الصواعق المرسلة _له_ (٢/٣٢١-وما بعدها) .
والقصيدة النونية _له_ مع شرحها للهراس (١/١٩٤ وما بعدها) ابن أبى العز : شرح العقيدة الطحاوية (٢/٣٨١-٣٩٤) .السفاريني : لوامع الأنوار البهية (١/١٩٠) أسامة بن توفيق القصاص : اثبات علو الله على خلقه والرد على المخالفين .الشيخ عبدالله بن محمد الغنيمان : شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري .الشيخ حمود بن عبدالله التويجري : اثبات علو الله ومباينته لخلقه .د . موسى بن سليمان الدويش : علو الله على خلقه . د . عوض منصور : (الرحمن على العرش استوى) بين التنزيه والتشويه .

(٣) انظر : ابن خزيمة : التوحيد (١/٢٨٩) ، وابن تيمية : شرح حديث النزول (ص٤ ، ٥ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ١٩٢) ، السفاريني : لوامع الأنوار البهية (١/٢٤٢ ، ٢٤٣) ، ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٤٤) ، وابن عثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص٣٧ ، ٣٨) .

(٤) انظر : ابن تيمية : دقائق التفسير ، تفسير سورة الإخلاص (٦/٤٢٤) ، ابن ابي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٤٤ ، ٢٤٥) ، ابن عثيمين : تعليقات على العقيدة الواسطية (ص٣٨) ، السفاريني : لوامع الأنوار البهية (١/٢٤٥) .

ودليـل نزول الرب جل وعلا قوله – صلى الله عليه وسلم – : " ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فاعطيه ، من يستغفرني فأغفر له "[١] قـال ابـن خزيمة : " باب ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي –صلى الله عليه وسـلم– في نزول الرب –جل وعلا– إلى السماء الدنيا كل ليلة ، نشهد شهادة مقر بلسانه ، مصدق بقلبه ، مستيقن بما في هـذه الأخـبار من ذكر نزول الرب ، من غير أن نصف الكيفية ، لأن نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا ، وأعلمنا أنه ينزل ، والله – جل وعلا – لم يترك ، ولا نبيه –عليه السلام– بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم ، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول ، غير متكلفين القول بصفته ، أو بصفة الكيفية ، إذ النـبي – صلى الله عليه وسلم – لم يصف لنا كيفية النزول "[٢] وقال الآجرى : " باب الايمان والتصديق بأن الله عز وجل يـنزل إلى السماء الدنيا كل ليلة "[٣] ثم قال : " الايمان بهذا واجب ، ولا يسع المسلم العاقل أن يقـول : كيف ينزل ؟ ولا يـرد هـذا إلا المـعتزلة[٤] وأما أهل الحق فيقولون الايمان به واجب بلا كيف ، لأن الأخبار قد صحت عن رسول الله – صـلى الله عـليه وسـلم – أن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا كل ليلة ، ... فمن ردها فهو ضال خبيث ، يحذرون ويحذرون منه "[٥] . وقال الخطابي : " هذا الحديث وما أشبهه من الأحاديث في الصفات كان مذهب السلف فيها الايمان بها واجراؤها على ظاهرها ، ونفى الكيفية عنها "[٦] .

وأورد شيخ الإسلام ابن تيمية أقوالا كثيرة لأهل الحديث في اثبات نزول الرب جل وعلا فقال : " ويثبت أصحاب الحديـث نـزول الرب كل ليلة إلى السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ، ولا تمثيل ولا تكييف ، بل يثبتون ما أثبته رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وينتهون فيه إليه ، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره "[٧] .

فهذا جملة اعتقاد أهل السنة والجماعة ودليلهم في نزول الله تعالى إلى سماء الدنيا كل ليلة .

أما النزول عند أهل التأويل فيؤولونه بنزول أمره[٨] وتأوله السيوطي بقوله : " منزل المؤاخذة بالعدل ، والمسامحة والفضل "[٩] فهو عائد إلى معنى نزول أمره – كما سبق القول قبله – أو نزول ملائكته أو اقباله على أهل الأرض بالرحمة

---

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " كتاب التهجد ، باب (١٤) ح رقم (١١٤٥) ، انظر : الفتح (٢٩/٣) ، وفي كتاب الدعوات ، باب (١٤) ح رقم (٦٣٢١) الفتح (١٢٨/١١ – ١٢٩) ، وفي كتاب التوحيد ، باب (٣٥) ح رقم (٧٤٩٤) الفتح (٤٦٤/١٣).
وأخرجه مسلم في " صحيحه " كتاب صلاة المسافرين ، باب (٢٤) ح رقم (١٦٨) وما بعده (٥٢١/١ – ٥٢٢) .

(٢) التوحيد (٢٨٩/١-٢٩٠) .

(٣) الشريعة (١١٢٤/٣)

(٤) وكذلك الأشاعرة والماتريدية ، وسائر الجهمية من قبلهم وقد جمع شيخ الاسلام ابن تيمية شبه المنكرين لهذا الحديث فقندها ورد عليها في كتاب " شرح حديث النزول " .

(٥) الشريعة (١١٢٤/٣-١١٢٦) .

(٦) أعـلام الحديث في شرح صحيح البخارى ، ت. ودراسة د. محمد بن سعد بن عبد الرحمن آل سعود – مركز احياء التراث الاسلامى جامعة أم القرى مكة .

(٧) شرح حديث النزول (ص ٥٠ ، ٥١) . المكتب الإسلامي .

(٨) انظر : ابن تيمية : شرح حديث النزول (ص ٥٧) وقد رد ابن تيمية هذا التأويل وأنكره ، ونقل عن الإمام احمد انكاره الشديد لهذا التأويل .

(٩) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١١٥) .

والإحسان ، كما يذهب إليه المؤولة[1] .

أما قول السيوطي بأن الله تعالى ينزل " منزل المؤاخذة بالعدل ، والمسامحة والفضل " إن هذا الوصف ثابت لله تعـالى في كل وقت من الليل أو النهار، بل هو سبحانه حكم عدل في الدنيا والاخره جميعا ، وحمل الحديث النبوي على هـذا المعنى يبطل تخصيص النزول الالهي في الثلث الاخير من الليل ، فيكون قوله -صلى الله عليه وسلم-: ... " حين يبقى ثلث الليل الاخر" لا معنى له ولا فائدة منه وعليه وجب القول بمقتضى الحديث ، وإثبات صفه النزول لله تعالى نزولا حقيقيا يليق به جل وعلا من غير تشبيه ولا تعطيل .

فمـن "فهم من هذا الحديث وأمثاله ما يجب تنزيه الله عنه ، كتمثيله بصفات المخلوقين ، ووصفه بالنقص المنافي لكمالـه الذي يستحقه فقد أخطأ في ذلك ، وإن أظهر ذلك منع منه ، وإن زعم أن الحديث يدل على ذلك ويقتضيه فقد أخطأ أيضـا فـي ذلـك ، فإن وصفه سبحانه وتعالى في هذا الحديث بالنزول هو كوصفه بسائر الصفات كوصفه بالاستواء إلى السماء وهي دخان ، ووصفه بأنه خلق السموات والأرض في سته أيام ثم استوى على العرش ، ووصفه بالاتيان والمجيء ... وأمـثال ذلـك من الافعال التى وصف الله تعالى بها نفسه ، وكذلك وصف نفسه بالعلم والقوه والرحمه ونحو ذلك ... ومذهب سلف الأمه وأئمتها أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسوله-صلى الله عليه وسلم- في النفى والاثبات ، والله تعـالى قد نفى عن نفسه مماثله المخلوقين فقال تعالى بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : بسم الله الرحمن الرجيم (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)[2] فبين أنه لم يكن أحد كفوًا له وقال تعالى (هل تعلم له سميا)[3] ... ففيما أخبر به عن نفسه من تنزيهه عن الكفء والسمى ، والمثل ، والند ، وضرب الأمثال له ، بيان أن لا مـثل له فـي صفاته ولا أفعاله ، فإن التماثل في الصفات والأفعال يتضمن التماثل في الذات ، فإن الذاتين المختلفين يمتنع تمـاثل صفاتهما وأفعالهما ، إذ تماثل الصفات والأفعال يستلزم تماثل الذوات فإن الصفة تابعة للموصوف بها والفعل أيضا تابع للفاعل "[4] .

وعـلى ذلك لايجوز أن يفهم من الحديث أن نزوله تعالى مثل نزول غيره من المخلوقين ، كما أن الإتفاق على أن علمه ليس كعلم غيره ، ولا حياته كحياة غيره ، ولا استواؤه مثل استواء غيره فالله تعالى موصوف بصفات الكمال الذي لا نقـص فيـه منزه عن صفات النقص مطلقا ومنزه أيضا عن أن يماثله مخلوق في صفات الكمال ، لأن القول في الصفات كـالقول في الذات ، والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، فإن سأل سائل : كيف ينزل أو كيـف اسـتوى أو كيف يتكلم ؟ فيقال له : كيف هو في نفسه ؟ فإذا قال : أنا لا أعلم كيفية ذاته ، فيقال له : ونحن لا نعلم

---

(١) انظـر في ذلك : ابن فورك في " مشكل الحديث " (ص ٧٦ - ٧٨) ، والجويني في " الإرشاد " (ص ١٦١) والغزالي في " الإقتصاد في الإعتقاد " (ص ٥٣) ، والرازي في " أساس التقديس " (ص ١٤٣ - ١٤٦) ، والأربحي في " المواقف " (ص ٢٧٢ - ٢٧٣) ، وابن المرتضى المعتزلي في " القلائد في تصحيح العقائد " (ص٨٤) ، وابن حجر في " الفتح (٣/٣٠ - ٣١) .

(٢) سورة الإخلاص كلها .

(٣) سورة مريم - عليها السلام - ، بعض الآية (٦٥) .

(٤) ابن تيمية : شرح حديث النزول (ص ٥ - ٧) .

كيفية صفاته فإن العلم بكيفية الصفة يتبع العلم بكيفية االموصوف[١] .

قال الإمام أحمد : " وينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا كيف شاء (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٢] "[٣] .

وقـــال الإمـــام الترمذي : " وقد قال غير واحد من أهل العلم في هذا الحديث[٤] وما يشبهه هذا من الروايات من الصـــفات ونزول الرب تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا ، قالوا قد ثبتت الروايات في هذا ويؤمن بها ولا يتوهم ولا يقال كيف ، هكذا روي عن مالك ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن مبارك أنهم قالوا في هذه الأحاديث أمروها بلا كيف ، وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة ، وأما الجهمية فأنكرت هذه الروايات وقالوا : هذا تشبيه "[٥] .

وقـــال أبـــو محمد المزني[٦] : " حديث النزول قد صح والإيمان به واجب ولكن ينبغي أن يعرف أنه كما لا كيف لذاته لا كيف لصفاته "[٧] .

وقـــال أبو عمر الطلمنكي : " أجمعوا على أن الله يأتي يوم القيامة والملائكة صفا صفا لحساب الأمم ، وعرضها كمـــا يشاء وكيف شاء ، وأجمعوا على أن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا على ما أتت به الآثار كيف يشاء لا يحدون في ذلك شيئا "[٨] ومثله قال ابن عبدالبر في التمهيد حيث قال : " والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون : ينزل ربنا كمـــا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويصدقون بهذا الحديث ولا يكيفون والقول في كيفية النزول كالقول في كيفية الاســـتواء والمجيء والحجة في ذلك واحدة "[٩] وقال أيضا : " وقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " ينزل ربنا إلى السماء الدنيا " عندهم مثل قول الله عز وجل (فلما تجلى ربه للجبل)[١٠] ومثله قوله : (وجاء ربك والملك صفا صفا)[١١] كلهم يقول : ينزل ويتجلى ويجيء بلا كيف ، لا يقولون : كيف يجيء ؟ وكيف يتجلى ؟ وكيف ينزل ، لأنه ليس كشيء من خـــلقه ، وتعالى عن الأشياء ، ولا شريك له وفي قول الله عز وجل (فلما تجلى ربه للجبل)[١٢] دلالة واضحة أنه لم يكن قبل ذلك متجليا للجبل ، وفي ذلك ما يفسر معنى حديث التنزيل "[١٣].

---

(١) انظر السابق نفسه (ص ١١) ، التدمرية (ص٤٤،٤٣) .

(٢) سورة الشورى الآية (١١) .

(٣) كتاب السنة للإمام احمد " ضمن مجموعة رسائل جمعها محمد حامد الفقي بعنوان : شذرات البلاتين " (١/ ٤٩) .

(٤) يعني حديث أبي هريرة مرفوعا : " ما تصدق أحد بصدقة من طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه ... " الحديث ، وهو عند البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة واحمد .

(٥) سنن الترمذي (٣/ ٤١ -٤٢) .

(٦) هـــو احمد بن عبدالله بن محمد المزني المغفلي الهروي إمام عالم حافظ يقال له الشيخ الجليل (ت ٣٥٦) . انظر سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٨١ – ١٨٤) وطبقات الشافعية للسبكي (٣/ ١٧) ، شذرات الذهب (٣/ ١٨) .

(٧) ذكره عنه السمعاني في الأنساب (١٢/ ٢٢٨) .

(٨) ذكرها عنه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوي (٥/ ٥٧٧ – ٥٧٨) وذكرتها هنا مع شيء من الإختصار .

(٩) التمهيد (٧/ ١٤٣) .

(١٠) سورة الأعراف بعض الآية (١٤٣) .

(١١) سورة الفجر الآية (٢٢) .

(١٢) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .

(١٣) التمهيد (٧/ ١٥٣) .

٣- صفتا الاتيان والمجئ:

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه يجيء ويأتي وينزل ويدنو وهو تعالى فوق عرشه بائن من خلقه وأن مجيئه وإتيانه ودنوه -جل وعلا- صفات فعلية له ثابتة بالأدلة الصحيحة على ما يليق بجلاله وعظمته وكبريائه ، لا تشبه صفات المخلوقين ، ولا تشبهها صفات المخلوقين[١] (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٢] .

أما الأدلة التى استدل بها أهل السنة والجماعة على هاتين الصفتين العظيمتين فالكتاب والسنة والإجماع .

وآيات الكتاب العزيز التى تدل دلالة واضحة على الإتيان والمجيء قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور)[٣] وقوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك ، أو يأتى بعض آيات ربك ...) الآية[٤] ، وقوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفاصفا)[٥]، - والدليل من السنة :

١- حديث أبى هريرة مرفوعا : " ... وإن تقرب إلى ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى ، أتيته هرولة " [٦] .

٢- حديث أبى سعيد الخدرى ، وفيه : " ... قال : فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التى رأوه فيها أول مرة ، فيقول : أنا ربكم ... "[٧]

وأما الإجماع فقد حكاه أبو الحسن الأشعرى في " رسالته إلى أهل الثغر " ، قال : " وأجمعوا على أنه (تعالى) يجيء يوم القيامة ، والملك صفاصفا ، لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء من المذنبين ، ويعذب من يشاء "[٨] ورغم وضوح وصراحة الأدلة التى استدل بها أهل السنة فإن السيوطى قد جرى على مذهب المؤولة ، وأوّل صفة الاتيان بأن الله تعالى يخلق فعلا يسمى إتيانا ، فقد ذكر قول الله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ...) الآية[٩] ثم قال : " ويأتى : يفعل فعلا يسميه إتيانا "[١٠] وفسره في " الجلالين " بإتيان أمره فقال : " ما ينتظر التاركون الدخول فيه (يعنى السلم) إلا أن يأتيهم الله) أي أمره "[١١] وكذلك في آية الأنعام قال : " (أو يأتى ربك)[١]

---

(١) انظر : العقيدة الواسطية مع شرحها للعلامة محمد خليل هراس بمراجعة عبدالرزاق عفيفي ، وتصحيح الشيخ اسماعيل الأنصاري (ص ٦٢ - ٦٥) ، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين في " عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ٢٣) ، الامام ابو عثمان اسماعيل الصابوني في " عقيدة السلف وأصحاب الحديث " (ص ١١٢ ، ١١٨) ضمن مجموعة الرسائل المنيرية - المجلد الأول ، وابن تيمية في مجموع الفتاوي (٤٩٣/١٦ - ٤٩٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٠ - ٤٢١) والعلامة السفاريني في " لوامع الأنوار البهية (٢٤٥/١) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (ص ٤٤٨) ، وابن القيم في " مختصر الصواعق المرسلة " (٣٨٣/٢ وما بعدها) ، " ومحمد امان الجامي في الأسماء والصفات " (٢٥٨) ، وعبدالعزيز المحمد السلمان في الكواشف الجلية (ص ٢٢٧ - ٢٣٧) .

(٢) سورة الشورى الآية (١١) .

(٣) سورة البقرة الآية (٢١٠) .

(٤) سورة الانعام الآية (١٥٨) .

(٥) سورة الفجر الآية (٢٢) .

(٦) صحيح البخاري رقم (٧٤٠٥) ، وصحيح مسلم رقم (٢٦٧٥) .

(٧) أخرجه البخارى في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٤) ح رقم (٧٤٣٩) فتح البارى (٤٢٠/١٣، ٤٢١) . ومسلم في " صحيحه " كتاب الايمان (١) باب (٨١) ح رقم (٢٩٩-١٨٢) (١٦٣/١) .

(٨) (ص ٧٣) ت . د . محمد السيد الجليند .

(٩) سورة البقرة الآية (٢١٠) .

(١٠) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١١٧) .

(١١) تفسير الجلالين (ص ٣٨) .

)[١] أي أمــره بمعنى عذابه "[٢] وكذلك قال شيخه جلال الدين المحلى[٣] في تفسير سورة الفجر حيث أول مجيء الله تعالى بمجيء أمره[٤] ، والسيوطي سائر على منوال شيخه المحلى كما قال في بداية تفسير " الجلالين " ولو لم يكن موافقا لشيخه فــي هــذا التأويل لاعترض عليه أو على الأقل فسر آيات الإتيان بما يوافق أهل السنة ، وإنما حقيقة الأمر أن السيوطي أشــعري ، وأن التمشعر مذهبه الذي اختاره وارتضاه لنفسه ديناً ، وهو أيضاً مضطرب - كما يرى الناظر في كتبه - في تفسير الاتيان مرة بأن الله يفعل فعلاً يسميه اتياناً ، ومرة بأن الله يأتي أمره ، أو يأتي عذابه ، وكل هذا فراراً من إثبات الصفة لله جل وعلا ، المهم أن يؤول الكلام بأي تأويل كان يبعده عن إثبات الصفة لله جل جلاله .

أمــا أهل السنة فلا جدال في أنهم يثبتون صفة الإتيان لله عز وجل على ما يليق به سبحانه ، من غير تشبيه ولا تعطيل ، وهذه الآيات التي يصرفها المؤولة عن معناها الحقيقي لهي الأدلة الواضحة على إثبات صفتي الاتيان والمجيء لله جــل وعلا ، وإنه لم يؤثَر عن واحد منهم أنه فسر الآية كما فسرها السيوطي ، إلا ما ورد عن سلفه الأشاعرة الذين وافقوا في هذا مذهب الجهمية ، فقد فسر الزمخشري (المعتزلي) الآية الكريمة بأن الله تعالى يأتي بعذاب في الغمام الذي ينتظر منه الرحمة ، فيكون مجيء العذاب من حيث تنتظر الرحمة أفظع وأهول .

وكمــا قلت : إن أئمة أهل السنة ، والمفسرين الذين ينهجون منهج السلف ، ويفسرون القرآن تفسيراً لغوياً وأثرياً فإنهم يطبقون على تفسير الآيات بإثبات صفتي الاتيان والمجيء .

قــال ابن جرير : " اختلف في صفة إتيان الرب تبارك وتعالى الذي ذكره في قوله : (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ...) فقــال بعضــهم : لا صفة لذلك غير الذي وصف به نفسه عز وجل من المجيء والاتيان والنزول ، وغير جائز تكلف القول في ذلك لأحد إلا بخبر من الله جل جلاله ، أو من رسول مرسل ، فأما القول في صفات الله وأسمائه ، فغيــر جائز لأحد من جهة الإستخراج إلا بما ذكرنا "[٥] وذكر أقوالاً أخرى ثم رجح القول الأول . ثم قال : " فمعنى الكلام إذاً : هــل ينظرون التاركون الدخول في السلم كافة ، والمتبعون خطوات الشيطان إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام فيقضى من أمرهم ما هو قاض[٦] "[٧] .

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٨) .

(٢) تفسير الجلالين (١٧٦) .

(٣) سبقت ترجمته في فصل شيوخ السيوطي .

(٤) انظر : تفسير الجلالين من سورة غافر إلى سورة الناس بتعليق فضيلة الشيخ عبدالرزاق عفيفي (ص ٢٨٠ ، ٢٨١) وقد بين الشيخ عبدالرزاق عفيفــي كــثيراً مــن الــتأويلات المــأخوذة عــن الجهميــة الــتي دونها صاحب الجلالين انظر مثلاً : سورة الشورى الآية (٤٨) وقد فسر الرحمة : بالنعمة ، وسورة الزخرف الآية (٢) قال : (أنزلناه) أي أوجدناه ، وهو مبني على القول بخلق القرآن ، وسورة الجاثية الآية (٣٠ فســر الــرحمة بالجنة فراراً من اثبات الصفة ، وسورة الفتح الآية (١٠) فسر اليد بالاطلاع والمجازاة فراراً من اثبات صفة اليد وهو تجهم واضح ، سورة الحجرات الآية (٩) فر من اثبات صفة المحبة ، وسورة المجادلة الآية (١) فسر السمع والبصر بالعلم ، وسورة الصف الآية (٤) فسر صفة المحبة بالنصر والكرم وهو تجهم واضح أيضاً ، وسورة الملك الآية (١) فسر اليد بالتصرف وهي كالتي قبلها وكذلك الآية (١٦) فيها نفي لعلو الله تعالى - وغيرها .

(٥) جامع البيان (٣٢٩/٢) .

(٦) هكذا النص عند ابن جرير - رحمه الله - .

(٧) نفسه (٣٣٠/٢) .

وفي تفسير قوله تعالى : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ...)[١] الآية يقول الإمام الطبري : " يقول جل ثناؤه : هل ينتظر هؤلاء العادلون بربهم الأوثان والأصنام ، إلا أن تأتيهم الملائكة بالموت ، فتقبض أرواحهم أو أن يأتيهم ربك يا محمد بين خلقه في موقف القيامة ، أو يأتي بعض آيات ربك... قال أهل التأويل : طلوع الشمس من مغربها "[٢] .

وذكر صاحب كتاب " الصفات الالهية " أن المفسرين يطبقون على تفسير الاية[٣] بما فسرها به الامام ابن جرير الطبرى ، كما ذكر أنه تتبع أقوال المفسرين عند غير الطبرى فوجد أنها لاتكاد تختلف عنه في شيء[٤] .

ثم قال : " وقد نقل الإمام الشوكاني في تفسيره[٥] ... تفاسير كبار المفسرين في معنى مجيء الملائكة ، ومجيء الله تعالى ، ومجيء بعض آياته دون أدنى اختلاف إلا ما كان في العبارة والأسلوب لأنهم جميعاً يستقون من معين واحد وهو (الوحي) الذي يستوحون منه مراد الله من كلامه سبحانه ، ثم يستوضحون ما أشكل عليهم من سنة نبيهم ، فلا يقولون على الله بغير علم "[٦] .

قال الشيخ محمد خليل هراس بعد أن ذكر الآيات السابقة :

قال : " في هذه الآيات إثبات صفتين من صفات الفعل ، وهما صفتا الاتيان والمجيء والذى عليه أهل السنة والجماعة الايمان بذلك على حقيقته ، والابتعاد عن التأويل الذى هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل "[٧]

وبهذا يتضح صحة مذهب أهل السنة والجماعة المتبعين منهج السلف الصالح في اثبات جميع ما وصف الله تعالى به نفسه ، ووصفه به رسوله – صلى الله عليه وسلم – في سنته الصحيحة ، ويتضح أيضاً بطلان مذهب الخلفية المؤولة ويظهر خطأ السيوطي في ما ذهب إليه من تأويل الإتيان كما سبق .

٤– صفة الرضى :

هي صفة فعلية لله جل وعلا يثبتها أهل السنة والجماعة لثبوتها بالكتاب والسنة الصحيحة .

١ – قال الله تعالى : (رضي الله عنهم ورضوا عنه)[٨] .

٢ – وقال تعالى : (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ...)[٩] .

٣ – وفي دعاء النبي –صلى الله عليه وسلم– من حديث عائشة " ... اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ... "[١٠]

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٥٨) .
(٢) جامع البيان (٩٦/٨) .
(٣) آية سورة الانعام رقم (١٥٨).
(٤) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة (ص٢٥٩) .
(٥) انظر : فتح القدير (١٨١/٢ ، ١٨٢) .
(٦) الصفات الإلهية (ص ٢٥٩ – ٢٦٠) .
(٧) شرح العقيدة الواسطية (ص١١٢) .
(٨) سورة المائدة الآية (١١٩) ، وسورة البينة الآية (٨) .
(٩) سورة الفتح الآية (١٨) .
(١٠) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الصلاة (٤) باب (٤٢) ح رقم (٢٢٢ – ٤٨٦) (٣٥٢/١) ، وأبو داود – كتاب الصلاة (١٤٨) والوتر (٥) .

٤ - وقوله -صلى الله عليه وسلم- : " إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويكره ثلاثاً... "الحديث[١] .

وحكى الإجماع على إثبات هذه الصفة صاحب كتاب " الصفات الالهية " فقال : " وهي ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع العلماء الذين يعتد بإجماعهم من الأئمة الأربعة وغيرهم ممن هم في طبقتهم أو بعدهم من الذين ينهجون منهج السلف الصالح ، بل هذه الصفة هي مطلب كل عابد وغاية كل سالك "[٢] .

لكن السيوطي فسر الرضى بإرادة الرحمة وهو تأويل على طريقة الأشعرية بناءً على نفي قيام الأفعال الإختيارية بالله تعالى قال السيوطي : " يرضى : يريد الرحمة "[٣] .

وهذا التأويل خطأ مخالف للنصوص الشرعية من القرآن والسنة واجماع العلماء الذي نقلته قبل قليل ، وليس عليه دليل " لا من الأدلة العقلية ، ولا من الأدلة النقلية ، بل لا تؤيدهم حتى الفطرة السليمة "[٤] .

وهؤلاء المؤولة الذين وافقهم السيوطي لجأوا إلى تأويل صفة الرضى بدعوى أن الرضى انفعال نفسي وتغير من حال إلى حال وهذا لا يليق بالله تعالى - زعموا -[٥] .

وخلاصة الجواب على هذه الشبهة التي يتشدق بها وبأمثالها علماء الكلام في مثل هذه الصفات أن يقال : لا يلزم عقلاً اثبات لوازم صفة المخلوق ، لصفة الخالق جل وعلا ، إذ هذه صفة مخلوق ، وتلك صفة الخالق تعالى ولا مناسبة بينهما البتة .

فرضى المخلوق يليق به ، كما أن رضى الخالق يليق بكماله وجلاله عز وجل ، فكما أن ذاته لا تشبه ذوات المخلوقين ، فكذلك رضاه لا يشبه رضى المخلوقين[٦] (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٧]

قال أبو اسماعيل الصابوني : " وكذلك يقولون (يعني إثبات الصفات وعدم تأويلها) في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع ، والبصر ، والعين .. والرضى ، والسخط والحياة ... "[٨] وقد أثبت هذة الصفة أيضا ابن تيمية في الواسطية [٩] بإيراد الآيات التى ورد فيها صفة الرضى ، وقال الشارح : " تضمنت هذة الآيات اثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله والغضب ... وهي عند أهل الحق صفات حقيقية لله عزوجل على ما يليق به ، ولا تشبة ما يتصف به المخلوق من ذلك ، ولا يلزم منها ما يلزم في المخلوق ، فلا حجة للأشاعرة والمعتزلة على نفيها ، ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله عزوجل بها يلزمه أن تكون هذه

---

(١) أخرجه مسلم في " صحيحه " كتاب الأقضية (٣٠) باب (٥) ح رقم (١٠ - ١٧١٥) (٣/١٣٤٠) ، ومالك في " الموطأ " - الكلام (٢٠) .

(٢) د . محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الالهية في الكتاب والسنة (ص٢٨٩-٢٩٠) .

(٣) " تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه " (ص ١٢١) .

(٤) الصفات الالهية في الكتاب والسنة (ص ٢٨١) .

(٥) انظر المصدر السابق (ص ٢٩١) .

(٦) انظر : ابن أبي العز : شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٢٥) ، د . محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الالهية في الكتاب والسنة ص (٢٩١) وفي معناه ابن القيم : مختصر الصواعق المرسلة (٢/٣٨٥) .

(٧) سورة الشورى الآية (١١) .

(٨) عقيدة السلف أصحاب الحديث (ص ١٠٧) ضمن مجموع الرسائل المنيرية المجلد الاول .

(٩) انظر : الكواشف الجلية (ص٢١٠) ، والتدمرية (ص٣٢،٣١) ، والتحفة المهدية (ص٧٩-٨١) .

الصـــفات فيــه على نحوما هي في المخلوق ، وهذا الظن الذي ظنوه في ربهم أرداهم فأوقعهم في حمأة النفى والتعطيل ، والأشـــاعرة يرجعون هذه الصفات كلها إلى الإرادة ... فالرضى عندهم إرادة الثواب والغضب والسخط الخ إرادة العقاب ، وأما المعتزلة فيرجعونها إلى نفس الثواب والعقاب"[١] قال الطحاوي : " والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى "[٢] .

وقـــال الشـــارح : " ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى ، والعداوة ... ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام ، وسائر الصفات "[٣] .

وقال أيضاً : " ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان : لم تأولت ذلك ؟ فلا بد أن يقول : إن الغضب غليان دم القلب ، والرضى الميــل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى ! فيقال له : غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ، لا أنه هو الغضـــب ، ويقال له أيضاً : وكذلك الإرادة والمشيئة فينا ، هي ميل الحي إلى الشيء ... وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليــه ، ويزداد بوجوده ، وينتقص بعدمه ، فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء ، فإن جـــاز هذا جاز ذاك ، وإن امتنع هذا امتنع ذاك ، فإن قال : الإرادة التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بهـــا العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة ! قيل له : فقل : إن الغضب والرضى الذي يوصف الله به مخالف لما يوصف به العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة ، فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات لم يتعين التأويل ، بل يجب تـــركه ، لأنك تسلم من التناقض ، وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب ، فإن صرف القرآن عـــن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ، ولا يكون الموجب للصرف ما دله عليه عقله ، إذ العقول مختلفة ، فكل يقول إن عقلـــه دله على خلاف ما يقوله الآخر "[٤] وقال ابن عثيمين : " ونؤمن بالله تعالى يرضى ما شرعه من الأعمال والأقوال ... ونؤمن بأن الله تعالى يرضى عن الذين أمنوا وعملوا الصالحات "[٥] .

وهكذا يتبين صحة مذهب أهل السنة ، وبطلان مذهب التأويل الذي ذهب إليه السيوطي .

٥- صفة الفرح :

ذهـــب السيوطي – كما هو مذهبه – إلى تأويل صفة الفرح فقال : " يفرح : يقبل يتبشبش " [٦] وهو تأويل باطل كما سيأتي ، لأن صفة الفرح لله – تعالى – صفةٌ فعلية ثابتة له – عز وجل – بالسنة الصحيحة .

قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : " لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم ... "[٧] الحديث .

---

(١) شرح العقيدة الواسطية : محمد خليل هراس (ص٦٠) .
(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٢٤) .
(٣) نفس السابق .
(٤) نفس السابق (ص ٥٢٥) .
(٥) عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ٢٧) .
وانظر : رضا بن نعسان معطي : علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين (ص ٥١) .
(٦) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١٢٢) .
(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الدعوات (٨٠) باب (٤) ح رقم (٦٣٠٨) انظر الفتح (١٠٢/١١) .
ومسلم في " صحيحه " كتاب التوبة (٤٩) باب (١) ح رقم (٧ – ٢٧٤٧) (٢١٠٤/٤).

وعقيـدة أهل السنة إثبات هذه الصفة الفعلية لله جل وعلا التي اثبتها لنفسه في القرآن أو التي أثبتها له رسوله – صلى الله عليه وسلم– في السنة ، وقد أكدت هذا المعنى مراراً فيما ذكرته من الصفات التي تعرضت لها سابقاً .

قـال أبـو عثمان اسماعيل الصابوني : " وكذلك يقولون في جميع الصفات (أي إثباتها لله على ما يليق بجلاله) التي نزل بذكرها القرآن ، ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين ... والفرح والضحك وغيرها "[١] .

وقد استدل ابن تيمية بهذا الحديث المتقدم على اثبات صفة الفرح لله تعالى في " الواسطية " وقال الشارح : " وفي هـذا الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل ، والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات أنه صفة حقيقية لله عز وجل على مـا يليق به ، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح ، عندما يحدث عبده التوبة والإنابة إليه ، وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب وقبول توبته .

وإن كان الفرح في المخلوق على أنواع ، فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب ، وقد يكون فرح أشر وبطر ، فالله عـز وجـل منزه عن ذلك كله ، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه لا في ذاته ولا في أسبابه ولا في غاياته ، فسببه كمال رحمته وإحسانه التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها ، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين .

أمـا تفسـير الفرح يلازمه وهو الرضى ، وتفسير الرضى بإرادة الثواب ، فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه سـبحانه ، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم ، حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيه كما هي في المخلوق تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم "[٢] .

والسيوطي قد فر من إثبات صفة الفرح وفسرها بالبشبشة ، و " البشبشة " أو البشاشة صفة فعلية أيضاً ثبتت بالسـنة الصـحيحة ، ولكـنه هو لايريد من ذلك إثبات صفة فعلية أخرى ، وإلا لما أول صفة الإتيان والمجيء ولا صفة الرضى قبل ذلك ، وتفسير صفة بصفة أخرى هو أيضاً من التأويل الباطل الذي لم ينتهجه السلف الصالح ، ولا أئمة أهل السنة فمن فسر صفة الفرح بالرضى ، ثم فسر الرضى بإرادة الثواب أخطأ منهج الصواب ، ولم يصب عين الحق ، وأيضاً من فسر صفة الفرح بالبشبشة فقد أبعد النجعة وإن كانت البشبشة ثابتة أيضاً بالخبر الصحيح ، فهي صفة غير صفة الفرح ، ودليـلها حديث أبي هريرة أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " ما توطن رجل مسلم المساجد للصلاة والذكر ، إلا تبشبش الله له كما يتبشبش أهل الغائب بغائبهم إذا قدم عليهم "[٣] .

قال ابن قتيبة : " قوله : يتبشبش ، هو من البشاشة وهو يتفعل "[٤].

---

(١) عقيـدة السلف وأصحاب الحديث (ص ١٠٧) ضمن مجموعة الرسائل المنيرية المجلد الأول ، وانظر : ابن تيمية : التدمرية (ص ١٤٤) ت محمد بن عودة السعوي .

(٢) محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية (ص ١١١ – ١١٢) .

(٣) رواه ابـن ماجة في " سننه " واللفظ له ، صحيح ابن ماجه (٦٥٢) وأحمد في " المسند " (٨٣٣/٢) ، والطيالسي (٢٣٣٤) ، والحاكم في " المسـتدرك " (٢١٣/١) ، وقال : " على شرط الشيخين " ووافقه الذهبي والألباني في " صحيح الترغيب والترهيب " (٣٢٥) ، والشيخ مقبل بن هادي الوادعي في " الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين " (٣٢٢/٢) (رقم ١٢٦٨) ، ورواه ابن خزيمة في " صحيحه " (١٥٠٣) ، وابن قتيبة في " غريب الحديث " (١٦٠/١) وفي مسند احمد برقم (٨٥٠١) بلفظ : " لا يتوضأ أحدكم فيحسن الوضوء إلا ... " وصحح إسناده أحمد شاكر .

(٤) غريب الحديث (١٦٠/١) .

وقال أبو يعلى الفراء تعقيباً على كلام ابن قتيبة : " فحمل الخبر على ظاهره ولم يتأوله "[١] .

وقال الدارمي : " وبلغنا أن بعض أصحاب المريسي قال له : كيف تصنع بهذه الأسانيد الجياد ، التي يحتجون بها علينا في رد مذاهبنا مما لا يمكن التكذيب بها ، ... وما أشبهها ؟ قال : المريسي : لاتردوه تفتضحوا ، ولكن غالطوهم بالتأويل فتكونوا قد رددتموها بلطف ، إذ لم يمكنكم ردها بعنف كما فعل هذا المعارض سواء ، وسننقل ما روى في هذه الأبواب من الحب والبغض والسخط والكراهية وما أشبهه ... (ثم ذكر أحاديث في صفة الحب والبغض والسخط والكره والعجب والفرح ثم ذكر حديث أبي هريرة السابق في البشاشة ثم قال :) وفي هذه الأبواب روايات كثيرة أكثر مما ذكر لم نأت بها مخافة التطويل "[٢] وقد نقلت عن البغوي فيما سبق قوله : "... وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل ، من صفات الله تعالى ، كالنفس ، والوجه ... والضحك والفرح "[٣] يعني نثبتها ولا نعتدي عليها بالتأويل .

وكذا كلام ابن كثير يطابق ما قاله البغوي وقد نقلته في صفة الرضى[٤] .

وبهذا القدر يتبين الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة ، وبطلان ما عداه من المذاهب .

٦- الغضب :

هي صفة فعلية خبرية ثابتة لله عز وجل بالكتاب والسنة الصحيحة.

١ - قال تعالى : (والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين)[٥] .

٢ - وقال تعالى : (... ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى)[٦] .

٣ - وقال تعالى : (يا أيها الذين أمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ...)[٧] .

٤ - وقال -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه : " إن رحمتي غلبت غضبي "[٨] .

٥ - وحديث الشفاعة الطويل وفيه : " إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ... "[٩]

وبناءً على هذه الدلائل الصحيحة القاطعة يثبت أهل السنة والجماعة صفة الغضب لله تعالى ، على ما يليق بجلاله وعظمته ،لا يكيفون ولا يشبهون ولا يؤولون[١٠] .

---

(١) إبطال التأويلات (٢٤٣/١) .

(٢) رد الإمام الدارمي على بشر المريس العنيد (ص ٢٠٠) محمد حامد الفقى .

(٣) شرح السنة (١/ ١٦٨) .

(٤) انظر : ما نقلته في صفة الرضى ، وانظر كذلك : رضا بن نعسان معطى : علاقة الإثبات والتفويض بصفات رب العالمين (ص ١٥) ، وانظر ابن عثيمين : عقيدة أهل السنة والجماعة (ص ٢٨) .

(٥) سورة النور الآية (٩) .

(٦) سورة طه الآية (٨١) .

(٧) سورة الممتحنة الآية (١٣) .

(٨) متفق عليه ، وسبق تخريجه في صفة الكلام .

(٩) رواه البخاري في " صحيحة " كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٣) ، ح رقم (٣٣٤٠) انظر الفتح (٦ / ٣٧١) .

ومسلم في " صحيحه " كتاب الايمان (١) باب (٨٤) ح رقم (٣٢٧-١٩٤) (١٨٤/١) .

(١٠) انظر: ابن تيمية التدمرية (ص ١٤٤) .

أمـــا الســـيوطي فقد أول صفة الغضب فقال : " يغضب : يريد العقوبة "[١] وهو تأويل باطل كما قدمت في صفة الفرح ، وكذلك في صفة الرضى ، وأشير إلى ما نقلته عن أبي عثمان اسماعيل الصابوني في صفة الفرح[٢] ، فصفة الفرح كصـــفة الغضـــب فـــي الإثبات فكلاهما قد ثبت بالنصوص الشرعية الصحيحة فالكلام في إثباتها – أعني صفة الغضب – كالكلام في اثبات صفة الفرح ، وصفة الرضى ، قال الطحاوي في عقيدته : " والله يغضب ويرضى ، لا كأحد من الورى "[٣] وقال الشارح : " ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضى ، والعداوة ، والحب والبغض ... "[٣] وقال قـــوام الســـنة الأصبهاني : " قال علماؤنا : يوصف الله بالغضب ، ولا يوصف بالغيظ "[٤] فهذا معتقد السلف وأهل السنة والجماعـــة عامة أما الخلف – ومنهم السيوطي – لم يحالفهم التوفيق في عدم إثبات هذه الصفة كالصفات التي تكلمت عنها قبلها . فزعموا أن المراد بالغضب : إرادة العقوبةُ ، أو إرادة الإنتقام[٥] أو العذاب[٦] .

قالوا لأن أصل الغضب غليان دم القلب عند إرادة الإنتقام ، وهو تغير وانفعال ، والتغير من حال إلى حال أمر لا يليق بالله جل جلاله[٧].

ورد هـــذه الشـــبهة كرد أخواتها مما ذكروه في سبب تأويلهم الصفات السابقة (الاتيان ، والمجيء ، والرضى ، والفـــرح) نؤكـــد مـــا سبق أن ذكرناه في مواضع كثيرة أن معتقد أهل السنة والجماعة : أن لوازم صفات المخلوقين التي ذكـــروها لا تلزم صفات الخالق جل وعلا ، إذ لا مناسبة ولا مشاكلة بين صفات الخالق تعالى وبين صفات المخلوق حتى تقـــاس صفاته سبحانه على صفاتهم ، وهذا سوء ظن بربهم كما ذكر الشيخ الهراس ونقلته عنه قبل ذلك ، من وقوعهم في محذوريـــن : محـــذور تشـــبيه صـــفات الخـــالق بصفات المخلوق ثم محذور تعطيل صفات الباري جل وعلا ، وفي كلا المحذورين قد جاءوا شيئاً إدا[٨] ، فكما أنهم أثبتوا ذات الباري دون تفكير في لوازم ذوات المخلوقين ، يلزمهم إثبات صفات ذاتية أو فعلية دون تفكير في لوازم صفات المخلوقين ، وهذا الإلزام يلحق جميع النفاة ، المعتزلة والأشاعرة[٩] وغيرهم .

٧- صفة الضحك :

وهي صفة من صفات الله عز وجل الفعلية الخبرية الثابتة بالسنة الصحيحة.

١ – في قوله – صلى الله عليه وسلم – : " يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة "[١٠] .

٢ – وفـــي حديـــث ابن مسعود في آخر أهل النار خروجاً منها ، وآخر أهل الجنة دخولاً فيها ، وفيه أنه قال يخاطب الله

---

(١) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (١٢٠) ، والجلالين (ص ٢٠٠) .
(٢) انظر : عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص ١٠٧) .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٥٢٤) .
(٤) الحجة في بيان المحجة (٤٥٧/٢) .
(٥) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١١٠/٣ ، ١٩٨) .
(٦) انظر : السيوطي : تفسير الجلالين (ص ٢٠٠) .
(٧) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٩٨/٣) .
(٨) منكراً عظيماً .
(٩) انظر : د . محمد أمان بن علي الجامي : الصفات الإلهية في الكتاب والسنة في ضوء الإثبات والتنزيه (ص ٣٠١) .
(١٠) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجهاد (٥٦) باب (٢٨) ح رقم (٢٨٢٦) ، انظر الفتح (٣٩/٦) ، والآجري في " الشريعة " رقم (٦٢٩) (١٠٥٢/٢) ، ومسلم في " صحيحه " كتاب الإمارة (٣٣) باب (٣٥) ح رقم : (١٢٨-١٨٩٠) (١٥٠٤/٣) .

تعالى : " أتسخر مني ؟ أو تضحك مني ... " الحديث[١] .

٣ - وفـــي حديث آخر لإبن مسعود - رضى الله عنه - بعدما روى الحديث ضحك ، ثم قال : ألا اتسألوني مم أضحك ؟ فقالوا : مم تضحك ؟ قال : هكذا ضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا : مـــم تضحـــك يـــا رســـول الله ؟ ؟ قال : " مـــن ضحـــك رب العالمـــين حـــين

قال : أتستهزيء منى وأنت رب العالمين ؟ فيقول : إني لا أستهزىء منك ، ولكنى على ما أشاء قادر "[٢] .

٤ - وفـــي حديث أبي سعيد الخدري ، وهو حديث طويل وفيه ذكر هذا الرجل الذي هو آخر أهل الجنة دخولاً فيها قال : " ... فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه ، فإذا ضحك منه قال له : أدخل الجنة ... "الحديث[٣] .

وبـــناءً على هذه الأدلة الصحيحة يثبت أهل السنة والجماعة صفة الضحك لله جل وعلا من غير تشبيه له بخلقه ، ومن غير تعطيل لهذه الصفة العظيمة ، بل على الوجه الأكمل اللائق بعظمته وجلاله وقدسيته .

ولكـــن السيوطي على مذهبه في تأويل هذه الصفات الخبرية قال : " يضحك : يرضى "[٤] وقد أول الرضى قبل ذلك - كما نقلته عنه - بإرادة الثواب ، وقد بينت بطلان ذلك . كما قام السيوطي بتأويل الضحك في شرحه موطأ الإمام مالك ، فقد نقل عن أبي الوليد الباجي[٥] أن الضحك هو كناية عن التلقي بالثواب والانعام وهذا نص ما نقله وما سطرت يده : " يضـــحك الله لرجـــلين ، قال الباجي : هو كناية عن التلقي بالثواب والانعام والاكرام أو المراد تضحك ملائكته وخزنة جنـــته أو حمـــلة عرشه ، وذلك أن مثل هذا غير معهود "[٦] وأياً ما كان تأويل السيوطي أو ما نقله من تأويل الباجي فإنه تـــأويل ظاهـــر الـــبطلان ، لأنه خلاف الأحاديث الشريفة الصحيحة التي نقلتها في بداية كلامي عن صفة الضحك ، وهي الدلائـــل الـــتي استدل بها أئمة أهل السنة على إثبات صفة الضحك لله عز وجل قال ابن خزيمة : " باب ذكر إثبات ضحك ربنا - عز وجل - بلا صفة تصف ضحكه جل ثناؤه ولا يشبه ضحكه بضحك المخلوقين ، وضحكهم كذلك ، بل نؤمن بأنه تعـــالى يضـــحك كما أعلم النبي - صلى الله عليه وسلم - ونسكت عن كيفية ضحكه - جل وعلا - إذ الله - عز وجل - اســـتأثر بصـــفة ضحكه لم يطلعنا على ذلك ، فنحن قائلون بما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - مصدقون بذلك بقلوبنا

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٥١) ح رقم (٦٥٧١) انظر الفتح (١١/٤١٨ ، ٤١٩) .
ومسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨٣) ح رقم (٣٠٨ - ١٨٦) (١/١٧٣)

(٢) رواه مسلم في "صحيحه" كتاب الايمان (١) باب (٨٣) ح رقم (٣١٠-٧٨٧) (١/١٧٤، ١٧٥) .
- وأخـــرجه الـــبخاري في " صحيحه " بلفظ آخر وفيه اثبات صفة الضحك لله جل وعلا ، في كتاب التفسير (٦٥) سورة الحشر باب (٦) ح رقم (٤٨٨٩) انظر الفتح (٨/٦٣١) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٥٢) ح رقم (٦٥٧٣) انظر الفتح (١١/٤٤٤ ، ٤٤٥) .
وكذلك في كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٤) ح رقم (٧٤٣٧) انظر الفتح (١٣/٤١٩ ، ٤٢٠) .
ومسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨١) ح رقم (٢٩٩ - ١٨٢) (١/١٦٣ ، ١٦٤) ، (١٨٣) (١/١٦٧) .

(٤) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (١١٨) .

(٥) هو : سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي ، أبو الوليد الباجي ، فقيه مالكي كبير ، ومولده في باجه بالأندلس عام (٤٠٣ = ١٠١٢م) ، توفـــي بالمرية عام (٤٧٤هـــ = ١٠٨١م) . أنظر : الديباج المذهب / ١٢٠ ، والوفيات (١/٢١٥) والفوات (١/١٧٥) ، ونفح الطيب (١/٣٦١) ، وابن الوردي (١/٣٦٠) ، والأعلام (٣/١٢٥) .

(٦) جلال الدين السيوطي : تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (٢/١٧) . دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

منصتون عما لم يبين لنا مما استأثر الله بعلمه "[١] .

وقال الإمام أحمد : " يضحك الله ، ولا نعلم كيف ذلك إلا بتصديق الرسول "[٢] وقال الآجري : " باب الإيمان بأن الله - عز وجل - يضحك " ثم قال : " اعلموا - وفقنا الله وإياكم للرشاد من القول والعمل - أن أهل الحق يصفون الله - عـز وجل - بما وصف به نفسه - عز وجل - وبما وصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - وبما وصفه به الصحابة - رضي الله عنهم - وهذا مذهب العلماء ممن اتبع ولم يبتدع ولا يقال فيه : كيف ؟ بل التسليم له والإيمان به أن الله - عز وجـل - يضحك ، كذا روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن صحابته - رضي الله عنهم - فلا ينكر هذا إلا من لا يحمد حاله عند أهل الحق "[٣] .

وقـال قوام السنة الأصبهاني : " وأنكر قوم في الصفات الضحك ، وإذا صح الحديث لم يحل لمسلم رده ، وخيف على من يرده الكفر ، قال بعض العلماء : من أنكر الضحك فقد جهل جهلاً شديداً ، والحق أن الحديث إذا صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وجب الإيمان به ، ولا توصف صفته بكيفية ولكن نسلم اثباتاً له وتصديقاً به "[٤] .

وقال أبو عثمان الصابوني : " وكذلك يقولون (يعني السلف وأهل الحديث) في جميع الصفات (يعني بالإثبات) الـتي نـزل بذكـرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح من السمع والبصر والعين ... والضحك وغيرها من غير تشبيه لشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين "[٥] .

٨- صفة الهرولة :

وهي أيضاً كسابقتها صفة فعلية خبرية - ثابتة - لله عز وجل بالحديث الصحيح .

قال - صلى الله عليه وسلم - فيما يرويه عن ربه : " أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفســه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة "[٦] .

ولثبوت الدليل وصحته يثبت أهل السنة والجماعة صفة الهرولة لله جل وعلا على ما يليق بكماله وجلاله وعظمته من غير تشبيه كما هو حالهم ومعتقدهم في جميع الصفات الإلهية الفعلية .

ولكن السيوطي خالف أهل السنة أيضاً في هذه الصفة وأولها فقد قال : "يمشي هرولة : يرحم أولياءه رحمة ناجزة سريعة "[٧] والحديث ليس فيه (يمشي هرولة) إنما فيه (أتيته هرولة) .

---

(١) التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل (٢/٥٦٣) .
(٢) أبو يعلى الفراء : ابطال التأويلات (١/٢١٧) ، ومختصرها (ص / ١٣) .
(٣) الشريعة (٢/١٠٥١) .
(٤) الحجة في بيان المحجة - مع شيء من الإختصار - (٢/٤٥٧ - ٤٥٨) .
(٥) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص ١٠٧) ضمن مجموعة الرسائل المنيرية - المجلد الأول .
(٦) رواه البخارى في "صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (١٥) ، ح رقم (٧٤٠٥) انظر الفتح (١٣/٣٨٤) ، وفي نفس الكتاب باب (٥٠) انظر الفتح (١٣/٥١١ ، ٥١٢) .
ورواه مسلم في "صحيحه" كتاب الذكر والدعاء (٤٨) باب (١) ح رقم (٢-٢٦٧٥) (٤/٢٠٦١) .
(٧) تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه (ص ١١٦) .

ومعـــلوم أن الله تعـــالى يـــرحم أولياءه ويثيبهم على مبادرتهم إلى طاعة ربهم ، ولكن ليس هذا هو معنى الهرولة الـــواردة في الحديث وإنما هذا لازمها ومقتضاها ، كما سبق أن ذكرت في الصفات السابقة من أن الرضى لازم الضحك ، وأن الثواب هو لازم الرضى وليس الضحك هو الرضى ، ولا الرضى هو إرادة الثواب ، فكذلك هنا .

قـــال علماء الحديث : الهرولة هي : المشي السريع[١] ، أو هي ضرب من المشي السريع دون العدو[٢] ، أي بين المشي والعدو[٣] .

فـــأهل السنة يثبتون هذه الصفة لله تعالى بهذا المعنى على ما يليق بالله جلا وعلا بدون تشبيه له بأحد من الخلق ، وبدون إعتقاد ان هذه الهرولة تشبه هرولة المخلوقين .

وقد ورد في الفتوى رقم (٦٩٣٢) من فتاوي اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية . ما يلي :

" س : هل لله صفة الهرولة ؟

الحمدلله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله وصحبه ... وبعد :

ج : نعم ، صفة الهرولة على نحو ما جاء في الحديث القدسي الشريف على ما يليق به ، قال تعالى : " إذا تقرب إلي العبد شبراً ، تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً ، وإذا أتاني يمشي ، أتيته هرولة " رواه البخاري ومسلم ، وبالله التوفيق ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم "[٤] .

وقـــال الشـــيخ محمـــد بن عثيمين[٥] : " صفة الهرولة ثابتة لله تعالى ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه الـــبخاري ومســـلم عـــن أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – (وذكر الحديث ثم قال) وهذه الهرولة صفة من صـــفات أفعاله التي يجب علينا الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل ، لأنه أخبر بها عن نفسه ، وهو أعلم بنفسه ، فوجب علينا قبولها بدون تكييف ، لأن التكييف قول على الله بغير علم ، وهو حرام ، وبدون تمثيل ، لأن الله يقول : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[٦] "[٧] .

---

(١) انظر : ابراهيم بن اسحاق الحربى : عزيب الحديث (ص٢/٦٨٤) ت . د . سليمان العايد ط١/٥[illegible] دار المدني – جدة .

(٢) انظر : الحافظ ابن حجر : فتح الباري (١٣/٥١٣) .

(٣) إنظر : أبو موسى المديني :المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث (٣/٩٦) ت عبدالكريم العزباوي ط١/١٤٠٨هـ .
قـــال الإمام النووى : " هذا الحديث من أحاديث الصفات ويستحيل إرادة ظاهره ، وقد سبق الكلام في أحاديث الصفات مرات ومعناه من تقريب إلي بطاعـــتي تقـــرب إليـــه برحمتي والتوفيق والإعانة ، وإن زاد زدت ، فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة أي صببت عليه الرحمة وسبقته بها ،ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود ، والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه " صحيح مسلم بشرح النووى (١٧/٣) . وكلام ابن حجر مثله في الفتح (١٣/٥١٣) ، وهو تأويل أشعري ظاهر .

(٤) فتاوي اللجنة الدائمة (٣/١٤٢) .

(٥) عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية .

(٦) سورة الشورى الآية (١١) .

(٧) الجواب المختار لهداية المحتار (ص ٢٤) .

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القــــرى

كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : سعيد إبراهيم مرعي خليفة كلية : الدعوة وأصول الدين قسم : العقيدة ....

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الدكتوراة .... في تخصص : العقيدة ....

عنوان الأطروحة : ((جلال الدين السيوطي وآراؤه الاعتقادية عرض ونقد على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٦/ ٦/ ١٤٢١هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش الخارجي
الاسم : د/ محمود محمد مزروعة	الاسم : د/ عبدالعزيز عبداللطيف المرشدي	الاسم : د/ سعود عبدالعزيز الخلف
التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]

يعتمد

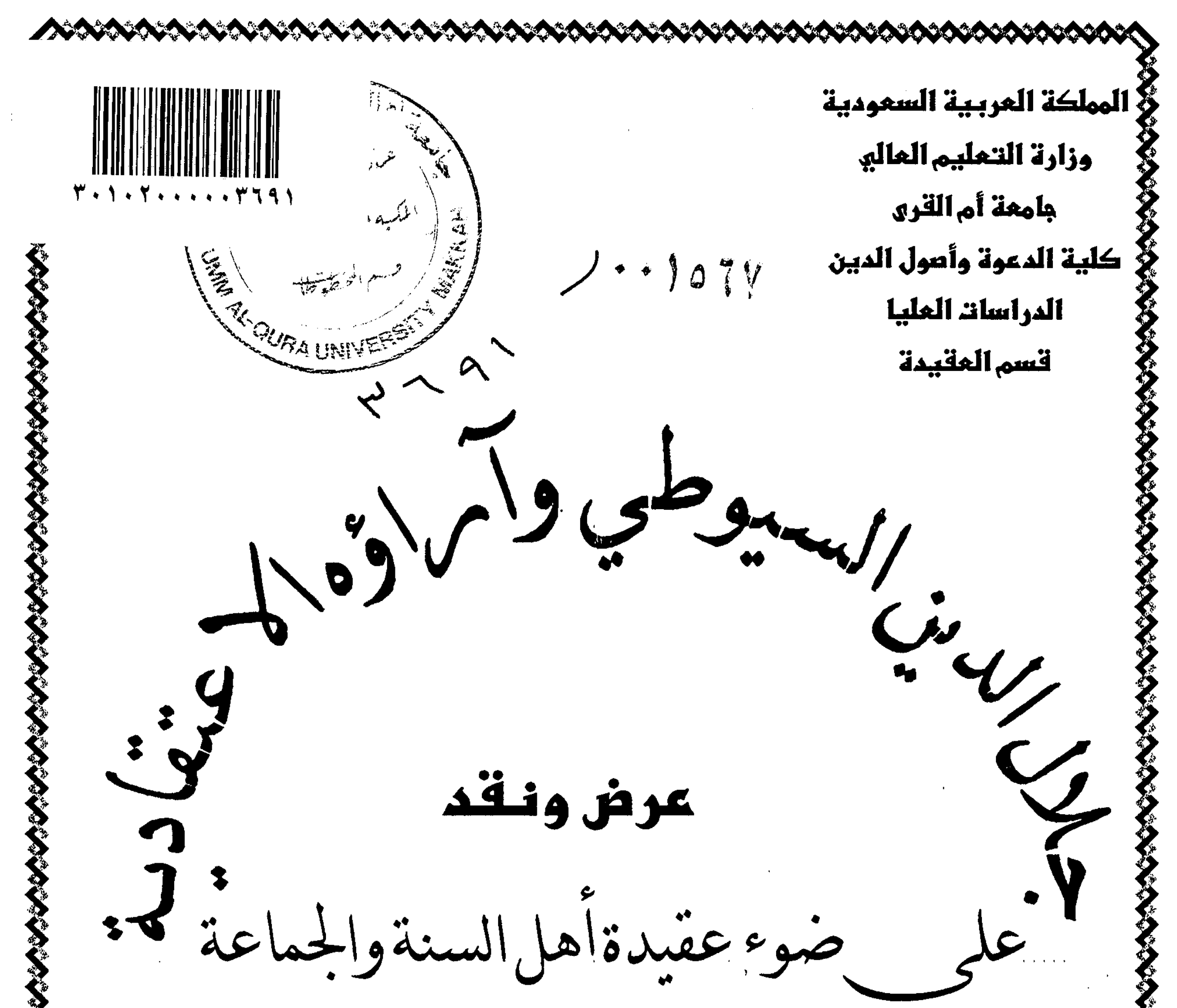
رئيس قسم العقيدة

الاسم : د/ عبدالله بن محمد القرني

التوقيع : [توقيع]

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم العقيدة



عرض ونقد

على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب

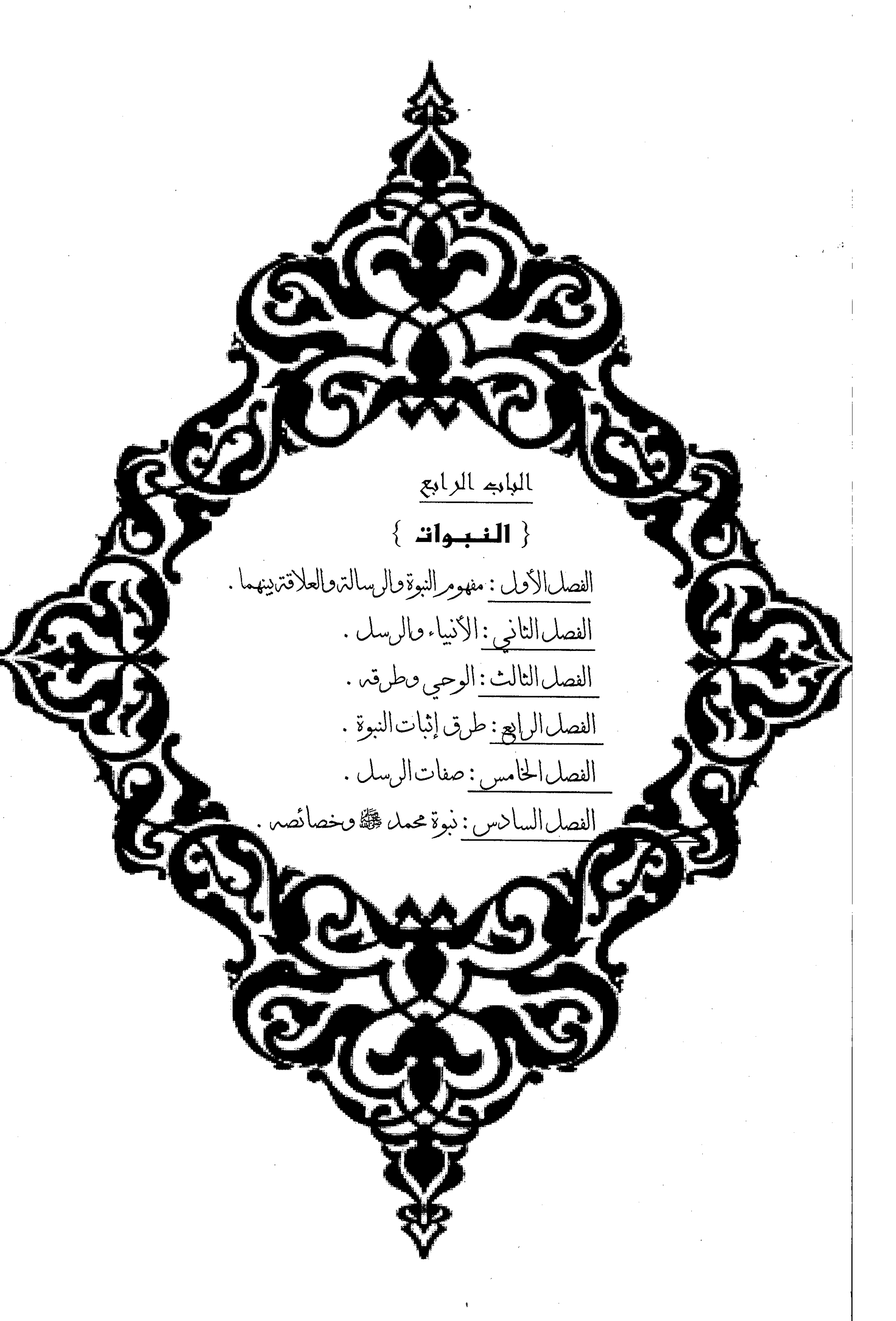
سعيد إبراهيم مرعي خليفة

إشراف الأستاذ الدكتور

محمود محمد مزروعة

الجزء الثاني

١٤٢٠هـ — ٢٠٠٠م



الباب الرابع

{ النبوات }

الفصل الأول : مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما .

الفصل الثاني : الأنبياء والرسل .

الفصل الثالث : الوحي وطرقه .

الفصل الرابع : طرق إثبات النبوة .

الفصل الخامس : صفات الرسل .

الفصل السادس : نبوة محمد ﷺ وخصائصه .

الفصل الأول

مفهوم النبوة والرسالة والعلاقة بينهما

المبحث الأول : النبوة والنبي في اللغة

بعد استقراء اللغة العربية واستنطاق معاجمها رأيت أن أصل لفظة " النبوة " أو " النبي " يرجع إلى ثلاثة معان :

المعنى الأول : أن النبي مشتق من النبأ الذي هو الخبر العظيم .

المعنى الثاني : أنه من النَّبْوة أو النباوة على معنى العلو والارتفاع والعلم الظاهر .

المعنى الثالث : أنه من النبئ الذي هو الطريق الواضح الذي ينهج بلا دليل وخرِّيت .

أما كونه من " النبأ " وهو الخبر ، فيقال : نبأ ، ونبَّأ ، وأنبأ ، قال صاحب القاموس : " النبأ ، محركة ، الخبر ... والنبئ المخبر عن الله تعالى "[١] . فهو فعيل : بمعنى فاعل .

ال في الصحاح : " والنبأ : الخبر ، تقول : نبأ ،ونبأ : أي أخبره، ومنه أخذ النبئ ، لأنه أنبأ عن الله تعالى ، وهو فعيل:بمعنى فاعل"[٢].

وكذلك قال صاحب النهاية : " النبئ : فعيل بمعنى فاعل للمبالغة ، من النبأ : الخبر ، لأنه أنبأ عن الله ، أي أخبر ... يقال : نبأ ، ونبَّأ ، وأنبأ "[٣]

وعن ابن فارس : " أن نبأ : قياسه الإتيان من مكان إلى مكان ... ومن هذا القياس النبأ : الخبر ، لأنه يأتي من مكان إلى مكان ، والمنبئ : المخبر "[٤] .

القاضي عياض[٥] : " النبي يهمز ولا يهمز "[٦] إشارة إلى التسوية في معنى اللفظين .

إذاً فالنبي هنا مأخوذ من النبأ ، بمعنى الخبر الهام العظيم ، المفيد فائدة عظمى[٧] ، والأصل فيه الهمز[٨] ، لكنه قد يترك الهمز تخفيفاً ، وهو جائز ومستساغ لغة .

وأما المعنى الثاني وهو كونه من النَّبوة أو النباوة ، بمعنى الارتفاع والعلو ، فقد قال ابن منظور : " ... وقيل

---

(١) مجد الدين الفيروزآبادي : القاموس المحيط (٣٩٣/٤) باب الهمزة فصل الميم والنون – دار المعرفة – بيروت ، بدون طبعة ولا تاريخ .

(٢) اسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح (٢٥٠٠/٦) الألف اللينة ، ت. أحمد عبدالغفور عطار – دار العلم للملايين – (ط٣-١٤٠٤هـ) .

(٣) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ، المعروف بابن الأثير : النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٥) ت. طاهر أحمد الزاوي ، محمود محمد الطناحي ، المكتبة العلمية – بيروت .

(٤) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا : معجم مقاييس اللغة (٣٨٥/٥) ط٢ بدون تاريخ – ت. عبدالسلام هارون .

(٥) ابن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي ، السبتي ، عالم المغرب ، ولي قضاء " سبتة " التي ولد فيها (٤٧٦هـ-١٠٨٣م) وتوفي بمراكش ، انظر : وفيات الاعيان (٣٩٢/١) ، قضاة الأندلس (١٠١) ، وقلائد العقيان (ص٢٢٢) ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (١٢٣/١) ، مفتاح السعادة (١٩/٢) وانظر : الاعلام (٩٩/٥) .

(٦) مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/٢) ط المكتبة العتيقة بتونس ، ودار التراث بالقاهرة – بدون طبعة ولا تاريخ .

(٧) انظر : الراغب الأصفهاني : المفردات (ص٤٨١) .

(٨) نفسه (ص٤٨٢) .

المعنى مشتق من النباوة وهي الشئ المرتفع "[١] وقال في القاموس : " والنباوة : ما ارتفع من الأرض ، كالنَّبْوة والنَّبي ... "[٢] .

وأما المعنى الثالث للنبي وهو الطريق الواضح ، ففي اللسان : " النبي : الطريق الواضح " .

وفي القاموس : " والنبئ : الطريق الواضح ، والمكان المرتفع المحدود ب ... والنبيّ – كغنيّ – : الطريق " .

والنبي بهذا المعنى طريق واضح جلي إلى مرضاة الله تعالى ، وأن العرب تقول للطريق الواضح : النبئ .

<u>خلاصة :</u> ونخلص من هذا إلى أن النبي يجمع جميع المعاني المتقدمة ، فهو نبي : فعيل بمعنى مفعول أي منبأ من الله تعالى ، وهو فعيل بمعنى فاعل : أي منبئ للخلق بما أنبأه الله من الأنباء العظيمة ، والأخبار الخطيرة ، وهو الرفيع القدر والبرهان ، ذو الرتبة الشريفة ، والمكانة النبيهة عند مولاه ، الذي يهدي الخلق إلى أقوم الطرق ، وأفضل السبل ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

– كلام السيوطي في معنى النبوة :

والسيوطي لا يختلف كلامه في معنى النبي والنبوة عما نقلته واستخرجته من المعاجم اللغوية ، بل يتفق معها تماماً ، وإن كان قد اقتصر على معنين اثنين فقط ، فقال : " النبأ : خبر ، ومنه اشتق النبئ بالهمز ، وترك الهمز تخفيف "[٣] وهذا يدل على صحة اللفظين عنده ، المهموز ، وغير المهموز ، إلا أن مقصد التخفيف من النطق هو الذي يستدعى أحياناً ، أو عند بعض العلماء أو القراء ، ترك الهمز ، لكنه ينبه على أن ترك الهمز عند من يتركه يرجع إلى معنى النَّبوة التي هي الارتفاع ، قال السيوطي : " وقيل : إنه عند من ترك الهمز مشتق من النَّبوة وهي الارتفاع "[٤] .

وفي موضع آخر يؤكد على ما قرره فيقول : " نبئ : مشتق من الإنباء ، وهو الإخبار لقوله تعالى : (ذلك من أنباء الغيب ...)[٥] ، (نبئنا بتأويله)[٦] ، وقيل هي مشتقة من الرفعة والتفضيل لقوله تعالى : (وكان رسولاً نبياً)[٧] "[٨] . والسيوطي – كما قلت – لم يتعرض للمعنى الثالث في لفظة النبي ، وهو (الطريق الواضح) ، ولكنه يذهب إلى عدم جواز إطلاق اسم (نبي) أو (نبئ)على كل من أنبأ بنبأ ، أو أخبر بخبر، حتى ولو كان صادقاً في إخباره ، فاسم (نبي) لا يجوز اطلاقه على غير أنبياء الله تعالى ، يقول السيوطي : " لا يجوز استعمال هذا الإسم في غير الأنبياء ، وإن كان المخبر صادقاً " [٩] ومعنى هذا أن اسم (نبي) أصبح مصطلحاً مقصوراً على من ينبئون عن الله وحيه وأحكامه

---

(١) لسان العرب (١٦٣/١) .
(٢) الفروز آبادي : القاموس المحيط (٣٩٣/٤) ، وانظر منه (٢٩/١) .
(٣) معترك الأقران في اعجاز القرآن (٥٣٩/٢) .
(٤) السابق نفسه .
(٥) سورة آل عمران ، بعض الآية (٤٤) .
(٦) سورة يوسف الآية (٣٦) .
(٧) سورة مريم الآية (٥١) .
(٨) معترك الأقران (٥٣٤/٢) .
(٩) معترك الأقران (٥٣٤/٢) .

وشرائعه ، وهم أنبياء الله ورسله ، ولذا يقول : " وكل نبيئ : مخبر ، وليس كل مخبر نبئ "[١] .

المبحث الثاني : الرسالة والرسول في اللغة

الإرســـال يأتي في اللغة بمعان متعددة ، إلا أنها متقاربة في معناها ، فيأتي الإرسال بمعنى التوجيه ، والتتابع ، والانبعاث على التؤدة ، ويأتي أيضاً بمعنى التسليط ، والتسخير ، والاطلاق أو التخلية وترك المنع ، ويأتي كذلك بما يقابل الامساك . ولكل معنى من هذه المعاني شواهد من اللغة أو من القرآن والسنة .

والرسول فعول ، وهي من صيغ المبالغة ، و اسم المفعول منه (مرسَل) بفتح السين من " أرسل " الرباعي ، واسم الفاعل (مرسِل) بكسر السين ، والرسول هو متحمل القول ، ، وهذا القول الذي يتحمله الرسول هو الرسالة .

وفي قوله تعالى : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده...)[٢] .

يقــول السيوطي : " الفتح في هذه الآية عبارة عن العطاء ، والإمساك عبارة عن المنع ، والإرسال الاطلاق بعد المنع ، والرحمة كل ما يمن الله به على عباده من خير الدنيا والآخرة "[٣] .

وهــذا الكــلام مــن السيوطي متفق تماماً مع قاله الراغب في مفرداته[٤] ، كما أن السيوطي صرح فيه كذلك بأن الإرسال : الإطلاق ، أي أن الاطلاق معنى من معانيه .

ومما تقدم يتضح جلياً أن الإرسال يرد في اللغة بمعان متعددة – كما ذكرت سابقاً – وهي في حقيقتها متقاربة .

ومن هنا نعلم أن الإرسال عام وخاص ، وأنه يكون بالخير والشر ، وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة[٥] ، وأن الرسول من يبعث محملاً أو متحملاً قولاً أو أمراً أو فعلاً ليبلغه أو ينفذه .

والرســل أو الرسول في بعض آيات القرآن تعني الملائكة كما في قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم)[٦] أي جــبريل – عــليه الســلام – قالــه : ابن عباس ، والشعبي ، وميمون بن مهران ، والحسن ، وقتادة ، والربيع ابن أنس ، والضــحاك وغيــرهم[٧] ، وقوله تعالى : (إنا رسل ربك لن يصلوا إليك)[٨] وقوله تعالى : (ولما جاءت رسلنا لوطاً سئ بهم...)[٩] ، وقوله تعالى : (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى...)[١٠] وغيرها من الآيات .

ولذا قال السيوطي في قوله تعالى: (قال ما خطبكم أيها المرسلون)[١١] أي ما شأنكم ؟ أو بأي شئ جئتم ؟ والخطاب مع

---

(١) السابق نفسه .

(٢) سورة فاطر الآية رقم (٢) .

(٣) معترك الأقران (٤١١/٢) .

(٤) انظر : (ص) .

(٥) انظر : نفسه .

(٦) سورة التكوير الآية (١٩) .

(٧) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٧٩،٨٠/٣٠) وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٦١/٨) .

(٨) سورة هود الآية (٨١) .

(٩) سورة هود الآية (٧٧) .

(١٠) سورة هود الآية (٦٩) .

(١١) سورة الحجر الآية (٥٧) .

الملائكة الذي نجاؤوا لإبراهيم - عليه السلام - بالبشرى "[١] فهذا من اطلاق لفظ الرسل أو المرسلين على الملائكة - كما ذكرت - .

ويقول السيوطي - أيضاً - : " وقد ذكرنا أن الرسالة والإرسال بمعنى واحد ، والرسول المتحمل للرسالة إلى الأمة "[٢] واستيفاءً لمعنى الإرسال فإن شيخ الاسلام ابن تيمية يفرق بين الإرسال الكوني ، والإرسال الشرعي الديني[٣] ، أو يسميه الإرسال العام والإرسال الخاص[٤] .

المبحث الثالث : النبي والرسول في الاصطلاح والعلاقة بينهما

وقع خلاف كبير بين العلماء في وضع الحد الاصطلاحي الذي يوضح معنى النبي والرسول ، إلا أنني أقول بداية : إن هذا الخلاف لا يترتب عليه ضلال المخالفين لأهل السنة في هذه المسألة ، أو تبديعهم أو تفسيقهم ، نظراً لأن النصوص الشرعية غير قاطعة الدلالة على المعنى المقصود ، لكن العلماء من أهل السنة وغيرهم قد بذلوا جهدهم واستفرغوا وسعهم في بيان المعنى الاصطلاحي لكل من النبي والرسول والنبوة والرسالة والعلاقة بينهما .

غيره أنه يمكن إرجاع ميع التعريفات الواردة في النبي والرسول إلى مذهبين رئيسيين :

<u>أولهما :</u> مذهب من لا يفرق بين الرسول والنبي ، ويرى أنهما مترادفان ، وهو قول القاضي عبدالجبار[٥] من المعتزلة ، وقد أثبته سابقاً في التعريف رقم (٢) ، وحكاه الرازي عن المعتزلة عامة[٦] وحكاه الملا علي القاري عن الكمال بن الهمام من الحنفية[٧] ، وهو ظاهر كلام أبي الحسن الماوردي من الشافعية[٨] ولأصحاب هذا الاتجاه حجج على قولهم ، فقالوا :

١- إن الذي يدل على أن الرسول والنبي بمعنى واحد هو اتفاق الكلمتين في المعنى " فهما يثبتان معاً ويزولان معاً في الاستعمال حتى لو أُثبت أحدهما و نُفي الآخر لتناقض الكلام ، وهذا هو أمارة اثبات كلتي اللفظتين المتفقتين في الفائدة "[٩] .

٢- وأما استدلال بعض من فرق بين اللفظتين بقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ...)[١٠] لمجرد الفصل بين الرسول والنبي ، فهو لا يدل على اختلاف الجنسين ، لأن الله تعالى فصل بين نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وبين غيره من الأنبياء ولم يدل ذلك على أن نبينا - صلى الله عليه وسلم - ليس من الأنبياء-عليهم السلام -.

٣- وقد فصل تعالى - أيضاً - بين الفاكهة وبين النخل والرمان ، ولم يدل على أن النخل والرمان ليسا من الفاكهة ،

---

(١) معترك الأقران (٣٤٢/٢) .

(٢) السابق نفسه (١٨٥/٢) .

(٣) انظر : الفرقان بين أولياء الرحمن و أولياء الشيطان (ص١٥١) - ط رئاسة الافتاء بالمملكة العربية السعودية تصحيح وتعليق محمود عبدالوهاب فايد .

(٤) انظر : النبوات (٢٥٧-٢٥٨) .

(٥) عبدلجبار بن أحمد الهمذاني ، شيخ المعتزلة في عصره ، ولي القضاء بالري وتوفي فيها (٤١٥هـ-١٠٢٥م) انظر : طبقات المعتزلة (١١٢) ولسان الميزان (٣٨٦/٣) .

(٦) انظر : الفخر الرازي : التفسير الكبير (٥٠/١٢) .

(٧) انظر : الملا علي القاري : شرح الفقه الأكبر (ص٩٤) .

(٨) انظر : أعلام النبوة (ص٢٣،١٩) وقد نقلته في التعريف رقم (٣) .

(٩) عبدالجبار بن أحمد : شرح الأصول الخمسة (ص٥٧٨) ت . د/عبدالكريم عثمان ط١٣٨٤/١هـ-١٩٦٥م وهبة - القاهرة .

(١٠) سورة الحج الآية (٥٢) .

فكذلك لا فرق بين الرسول والنبي[١] ، لأن الواو هي لمطلق الجمع بين اللفظتين .

٤- كمـــا أن آية الحج المتقدمة[٢] ، دالة على أن النبي قد يكون مرسلاً ، بالإضافة إلى قوله تعالى : (وما أرسلنا في قرية من نبي)[٣] فالنبي مرسل ، والمرسل نبي[٤] .

٥- أن الله تعالى خاطب محمداً - صلى الله عليه وسلم - مرة بالنبي ، ومرة أخرى بالرسول ، فدل على أنه لا منافاة بين الأمرين[٥] .

٦- أنـــه تعـــالى نص على أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - هو رسول الله وخاتم النبيين فهو رسول نبي ونبي رسول وكذلك سائرهم .

٧- أن اشتقاق لفظ النبي إما من النبأ وهو الخبر ، أو من قولهم : نبا إذا ارتفع ، والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة[٦]

هذه مجمل أدلة القوم المانعين من التفريق بين النبي والرسول .

<u>ثانيهمـــا :</u> مذهب جمهور العلماء القائلين بوجود الفرق بين النبي والرسول وأجابوا عن أدلة أصحاب الرأي الأول بأجوبة حسنة فقالوا :

١- قولـــه تعـــالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي...) الآية[٧] هي حجة عند الجمهور في التفريق بين النبي والرســول ، لأنـــه تعالى عطف النبي على الرسول بحرف الواو ، وهذا العطف يقتضي المغايرة لأنه لو لم يكن ثمة فرق بينهما لقال : وما أرسلنا من قبلك من نبي رسول ، أما وقد ما يز بين اللفظتين فقد دل على تمايز بين المعنيين ، فثبت الفرق .

٢- وكذلـــك قوله تعالى : (وكم أرسلنا من نبي في الأولين...)[٨] هي الأخرى دليل على التفريق لأنها تدل على أنه كان نبياً فأرسله الله تعالى وجعله رسولاً ، فبعد أن كان نبياً فقط أصبح نبياً رسولاً . وهو تأييد لصحة قولنا بالتفريق[٩] .

٣- وأما الفصل بين نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وبين غيره من الأنبياء فلا حجة فيه لأنه من باب عطف الخاص عـــلى العـــام ، فإذا قيل : " أنبياء الله " دخل فيهم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وإذا قيل : " نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - " فلا يتناول الكلام غيره من الأنبياء[١٠] .

٤- كذلك يقال في قوله تعالى : (فيهما فاكهة ونخل ورمان)[١١] هو من باب عطف الخاص على العام ، فلفظ الفاكهة عام

---

(١) انظر : عبدالجبار : شرح الأصول الخمسة (٥٧٨) .
(٢) هي قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ...) الحج (٥٢) .
(٣) سورة الأعراف الآية (٩٤) .
(٤) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٢/٥٠) .
(٥) نفسه السابق .
(٦) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٢/٥٠) .
(٧) سورة الحج الآية (٥٢) .
(٨) سورة الزخرف الآية (٦) .
(٩) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٢/٥٠) .
(١٠) السابق نفسه .
(١١) سورة الرحمن الآية (٦٨) .

يشـمل النخل والرمان وغيرهما من أصناف الفاكهة الأخرى ، وإذا قيل " نخل ورمان " فلا يدخل في المعنى بقية أصناف الفاكهة ، فكذلك في آية الحج[١] .

٥- كمـا أن خطاب الله تعالى للنبي - صلى الله عليه وسلم - مرة بالنبي ، وأخرى بالرسول لا يدل على عدم الفرق لأن نبينا محمداً - صلى الله عليه وسلم - كما هو معلوم نبي رسول ، فإن خاطبه بالنبي فهو حق ، ولا يلزم من ذلك أن يكون النبي رسولاً ، وإن كان محمد - صلى الله عليه وسلم - نبياً رسولاً .

وإن خاطـبه بالرسـول فهو حق أيضاً وقد تضمن خطابه بالنبوة ، فكأنه قال : " يا أيها النبي الرسول ، فإن كان محمد رسولاً ، فهو من باب أولى نبي ، والله تعالى يخاطبه في كل موضع بما يناسبه من مقام الخطاب "[٢] .

٦- وأما كون اشتقاق لفظ النبي إما من النبأ أو من نبا إذا ارتفع والمعنيان لا يحصلان إلا بقبول الرسالة ، فهو غير مسلم " لأن النبي المنبأ من الله قد جمع بمجرد ذلك جميع المعاني التي اشتق منها اسمه ، وقد حصلت له الرفعة وعلو الشأن وإن لم يحصل له الرسالة "[٣] .

٧- بالإضـافة إلى ذلك الحديث الوارد في عدد الأنبياء وهم مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ، وعدد الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر رسولاً[٤] ، فهذا الحديث يدل على الفرق بين الأنبياء والمرسلين وهو دليل يعضد رأي من قال بالتفريق .

ولكـن هـؤلاء القائلين بالفرق بين النبي والرسول لم يتفقوا على وجه الفرق بينهما ، والأكثرون على أن الرسول انسـان حـر ذكـر أوحى الله إليه بالنبوة وأمره بإبلاغها إلى قوم معينين أو إلى الناس كافة ، والنبي مثله إلا أنه لم يؤمر بالتبليغ . وهو قول الأشاعرة[٥] ، وجمهور أهل السنة .

وكان ممن قال بهذا القول من أئمة أهل السنة الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري[٦] (ت/٣١٠هـ) ، والامام شـمس الديـن ابن القيم[٧] (ت/٧٥١هـ) ، وأبو الفداء اسماعيل ابن كثير[١] (ت/٧٧٤هـ) ، وابن أبي العز الحنفي شارح

---

(١) انظر: سعيد إبراهيم مرعي خليفة: النبوة عند ابن تيمية ورده على المخالفين (ص٦٧) - ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى/١٤١٠هـ .

(٢) السابق نفسه (ص٦٩) .

(٣) السابق نفسه .

(٤) أخرجه أحمد في " المسند " (١٧٨/٥-١٧٩) وفي سنده ثلاثة ضعفاء ، وأخرجه ابن حبان رقم (٩٤) مطولاً ، وفي سنده هشام الغساني ، قال أبو حـاتم وغيـره ، كـذاب ، وأخرجه أحمد (٢٦٦/٥،٢٦٥) من حديث أبي أمامة ، وفي سنده ثلاثة ضعفاء أيضاً .قال العلامة الألوسي في روح المعـاني : " وزعـم ابن الجوزي أنه موضوع ، وليس كذلك ، نعم قيل في سنده ضعف جبر بالمتابعة " انظر : روح المعاني (١٧٢/١٧) دار الفكر ١٣٩٨هـ .وقد أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٦٢/٢) من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله : أ نبي كان آدم ؟ قال : " نعم ، معـلَّم ومكـلم " قـال : كم بينه وبين نوح ؟ قال : " عشرة قرون " قال : يا رسول الله كم كانت الرسل ؟؟ قال : " ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً " . وسنده صحيح على شرط مسلم كما قال الحاكم ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في تحقيقه مشكاة المصابيح (١٢٢/٣) .

(٥) انظـر في ذلك : أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية (ص٢١٠-٢١٢) ، والملا علي القاري : شرح الفقه الأكبر (ص٩٤) ، وحاشية الدسوقي عـلى أم البراهين للشيخ محمد الدسوقي (ص١٧٣) ط دار الفكر - بيروت بدون طبعة ولا تاريخ ، وانظر كذلك : ابو عبدالله السنوسي : شرح السنوسية الكبرى ، المسمى " عمدة أهل التوفيق والتسديد " (ص٣٥٠) ت . د/عبدالفتاح عبدالله بركة ط/١ ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م ، - دار القلم - الكويت .

وانظر كذلك: أبو عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي : المنهاج في شعب الايمان (٢٣٩/١) - دار الفكر ط١٣٩٩/١هـ-١٩٧٩م .

(٦) انظر : جامع البيان (١٨٩/١٧) ط١٣٨٨/٣هـ .

(٧) انظـر : زاد المعـاد فـي هدي خير العباد (٤٣/١) ت. شعيب وعبدالقادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة (ط/٣ ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م) ، وكذلك : طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٣٤٩) ط/١ ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م .

الطحاوية[٢] (ت/٧٩١هـ) ، والعلامة محمد بن أحمد السفاريني[٣] (ت/١١٨٨هـ) .

وذهب بعض المعتزلة مذهب التفريق بين النبي والرسول ، حكاه سعد الدين التفتازاني[٤] ، ورأيته في كلام الزمخشري وهو أيضاً من المعتزلة[٥].

لكن وجه الفرق الذي ذكره هؤلاء يرد عليه بعض الاعتراضات منها :

١- أن قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي...)[٦] تفيد أن النبي مرسَل من الله ، فالرسول مرسَل ، والنبي أيضاً مرسَل ، والمرسَل هو من يحمل رسالة من مرسِل إلى مُرسَلٍ إليه ولا يحصل الإرسال إلا بالتبليغ فثبت أن النبي يبلغ ما أرسله الله به إلى الناس ، وتعريفه بأنه لا يؤمر بالتبليغ يناقض مدلول هذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي ذكرت قبل ذلك منها قوله تعالى : (وكم أرسلنا من نبي في الأولين)[٧] مما يدل على أن النبي مرسل برسالة إلى قومه ، وهذا الاعتراض يتوجه أيضاً إلى ما نقله السيوطي عن مجاهد ، قال : " النبي وحده ، الذي يكلم ، وينزل عليه ، ولا يرسل "[٨] وقد اتضح مما ذكرته أن النبي يرسل ، كما قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي...)[٩] فذكر إرسالاً يعم النوعين[١٠] .

٢- أن النبوة من معانيها الرحمة كما قال تعالى : (أهم يقسمون رحمة ربك ...)[١١] ، قال الشوكاني : " يعني : النبوة "[١٢] ، وقال تعالى : (فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا...) الآية[١٣] . قال الشوكاني : " الرحمة النبوة "[١٤] ، وقال - أيضاً - : " أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : (آتيناه رحمة من عندنا...) قال : " أعطيناه الهدى والنبوة "[١٥] وهذه الرحمة قد وصفها الله تعالى بأنها قد وسعت كل شئ كما قال عز وجل : (ورحمتي وسعت كل شئ)[١٦] وقال عن الملائكة : (ربنا وسعت كل شئ رحمة وعلماً)[١٧] .

---

(١) انظر : تفسير القرآن العظيم (٤٢٣/٦) في تفسير الآية (٤٠) من سورة الأحزاب (وخاتم النبيين) .
(٢) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص١٦٧) ط٦/ ١٤٠٠هـ- المكتب الاسلامي - بيروت ت. الالباني .
(٣) انظر : لوامع الأنوار البهية (٤٩/١) دار الخافقين - دمشق .
(٤) انظر : شرح المقاصد (٨٧٣/٢) .
(٥) انظر : الكشاف (٣٧/٣) - دار المعرفة - بيروت .
(٦) سورة الحج الآية (٥٢) .
(٧) سورة الزخرف الآية (٦) .
(٨) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦٥/٦) . دار الفكر ط١/١٤٠٣هـ-١٩٨٣م - بيروت لبنان .
(٩) سورة الحج الآية (٥٢) .
(١٠) انظر : ابن تيمية : النبوات (ص٢٥٥) دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م ، بيروت - لبنان .
(١١) سورة الزخرف الآية (٣٢) .
(١٢) محمد بن علي الشوكاني : فتح القدير (٥٥٤/٤) . وانظر : تفسير الجلالين (ص٥٩٨) .
(١٣) سورة الكهف الآية (٦٥) .
(١٤) فتح القدير (٢٩٩/٣) ، وانظر : الشنقيطي : أضواء البيان (١٥٨/٤) .
(١٥) نفس السابقين .
(١٦) سورة الاعراف الآية (١٥٦) .
(١٧) سورة غافر الآية (٧) .

وفي ترك البلاغ من قبل النبي والانذار كتمان لرحمة الله وتضييق لها ، وتحجير لواسعها ، وجحد لنعمة الله التي أمر نبيه أن يحدث بها " كما في قوله تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث)[١] ، وأعظم رحمة وأكبر نعمة هي رحمة الهداية ، ولم يثبت بقول صريح ، في نص صحيح أن الله اختص نبياً من الأنبياء وأوحى إليه وحياً ، وقال له : هذا لك خاصة لا يشركك فيه الناس . مما يدل على أن النبي يدعو ويبلغ .

٣- أنه قد وردت بعض النصوص الشرعية التي تبين أن الأنبياء كانوا يقاتلون في سبيل الله ، والقتال من أعظم واجبات الدعوة والبلاغ ، إذ هو حماية للحق ، ودحر للباطل المعوق لانتشار الخير والعدل بين الناس قال تعالى : (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله...) الآية[٢] ، وقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه : لا يتبعني رجل قد ملك بضع أمرأة وهو يريد أن يبني بها ، ولما يبن بها ، ولا آخر قد بنى بنياناً ولم يرفع سقوفها ، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو منتظر ولادها ، فغزا ، فأدنى للقرية حين صلاة العصر ، أو قريباً من ذلك ، فقال للشمس : أنت مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها علينا ، فحبست حتى فتح الله عليهم... " الحديث[٣] وهذا النبي هو يوشع بن نون – عليه السلام – وهو ليس برسول باتفاق ، وقد بلغ وحي الله وغزا في سبيله[٤].

٤- أن اتباع الأنبياء من العلماء والأئمة ، مطالبون بالدعوة والتبليغ والجهاد ، وهم ليسوا بأنبياء ، فكيف بالأنبياء ، وهم أرفع وأفضل ، وقد اختصهم الله تعالى بالوحي ، قال تعالى : (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً...)[٥] ، وقال تعالى : (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)[٦] فإذا كانت هذه حال العلماء والفقهاء الذين ورثوا علم الأنبياء ، وهم متوعدون إذا كتموا علماً يهدي الناس إلى طريق الحق والهدى ، فكيف بالأنبياء وهم المعروفون بشدة شفقتهم على أممهم ورحمتهم بهم ، ومحبة الخير والصلاح لهم

فهذه أهم الاعتراضات التي وجهت لهذا الراي ، ولذلك لجأ بعض العلماء إلى تعريفات أخرى فقال بعضهم : " الرسول من أوحي إليه بشرع جديد ، والنبي من لم يوح إليه بشرع جديد ، وإن أمر بالبلاغ والانذار "[٧] وهذا الرأي يتمشى مع معنى الآية الكريمة التي في سورة الحج في كون الإرسال يعم الرسول والنبي ، ولكنه فرق بينهما بكون الرسول موحى

---

(١) سورة الضحى الآية (١١) .

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٦) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب فرض الخمس (٥٧) باب (٨) ح رقم (٣١٢٣) فتح الباري (٦/٢٢٠) .
ورواه أيضاً في كتاب النكاح من "صحيحه " باب (٥٨) ح رقم (٥١٥٧) فتح الباري (٩/٢٢٣) .

(٤) قال الحافظ ابن حجر : " وهذا النبي هو يوشع بن نون ، كما رواه الحاكم من طريق كعب الأحبار ، وبين تسمية القرية كما سيأتي ، وقد ورد من طريق مرفوعة صحيحة ، أخرجها أحمد من طريق هشام عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس " . الفتح (٦/٢٢١) .

(٥) سورة فصلت الآية (٣٣) .

(٦) سورة البقرة الآية (١٥٩) .

(٧) انظر : القاضي عياض : الشفا (١/٢٥١) ، والألوسي : روح المعاني (٧١/١٧٣) ، والرازي : التفسير الكبير (١٢/٥٠) ، وهذا القول هو الذي اختاره د. عمر سليمان الأشقر في كتابه " الرسل والرسالات " (ص٥) ، مكتبة الفلاح – الكويت ط٣/ ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

إليـــه بشرع جديد وهو المأخذ على هذا التعريف ، لأن يوسف - عليه السلام - كان رسولاً وكان على ملة إبراهيم - عليه السلام - ولم يوح إليه بشرع جديد ، كما أن داود وسليمان - عليهما السلام - كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة[1] .

لـــذا ذهـــب البعض إلى أن الرسول من يأتيه جبريل بالوحي من عند الله لإنذار الخلق ، وأما من أوحي إليه مناماً فهو نبي وليس برسول .

قـــول السيوطي : " كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً ، فالرسول الذي يأتيه جبريل بالوحي من عند الله لإنذار الخلق ، وأما من أوحي إليه في المنام فليس برسول "[2] وهذا القول موافق لقول الرازي الذي ذكره في تفسيره حيث قال : " إن مـــن جاءه الملك ظاهراً وأمره بدعوة الخلق فهو الرسول ، ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولاً أو أخبره أحـــد مـــن الرسل بأنه رسول الله ، فهو النبي الذي لا يكون رسولاً وهذا هو الأولى "[3] وهو كلام الألوسي - أيضاً - في روح المعاني[4] . وهذا القول أيضاً لا يسلم من اعتراض عليه ، فيقال **أولاً :** إذا كان الرسول هو من يأتيه الملك ظاهراً ويأمـــره بالـــبلاغ فهو رسول ، وإن جاءه مناماً وأمره بالبلاغ فماذا يكون ؟؟ أيكون رسولاً لأنه أمره بالتبليغ ؟ فهذا خلاف ظاهـــر كلام السيوطي والرازي ، أم يكون نبياً فقط لأن الوحي إليه كان مناماً ؟ وعلى هذا فتكون رؤيا الأنبياء غير حق ، لأن الواقـــع خلاف الرؤيا ، ومن المقرر المتفق عليه بين العلماء أن رؤيا الأنبياء حق ووحي ، فما يرونه في المنام يطابق الحقيقة ، وعلى كلام السيوطي والرازي لا تتحقق هذه المطابقة .

ثانيـــاً : كـــلام الرازي يلزم منه كذب الأنبياء أو بعضهم ، لأنه قال : إذا " أخبره أحد من الرسل بأنه رسول الله فهو النبي الذي لا يكون رسولاً " فإخبار الرسول لا يكون مطابقاً لواقع الأمر ، وهو نوع من الكذب وهذا محال .

وبناء على هذا يتضح أن كلام السيوطي والرازي من قبله غير دقيق لما ورد عليهما من الاعتراض .

ولابن تيمية رأي هو أقرب إلى الصواب أحببت أن أعرج عليه لأهميته .

يـــرى ابن تيمية أن الرسول هو من يبعث إلى مخالفين مكذبين ، يدعوهم إلى الإسلام ، والنبي هو من يرسل إلى موافقيـــن له في أصل الملة التي يدعو إليها ، ولكنهم لبعد العهد بهم ، وطول الأمد عليهم ينحرفون عن بعض التعاليم التي أمـــروا بهـــا ، فكل من الرسول والنبي مرسل من الله ، وكل منهما يدعو ويبلغ ، ويبشر وينذر ، وكل منهما مُنَبَّأً من الله ، ومُنبِئ بما أنبأه الله تعالى . إلا أن النبي يدعو الموافقين ويقيم فيهم حكم الله الذي يعرفونه ويؤمنون به ، والرسول يفعل ذلك أيضاً ويزيد عليه في أنه يدعو المخالفين كذلك قال ابن تيمية : " النبي : هو الذي ينبئه الله ، وهو ينبئ بما أنبأ الله به ، فإن أرســـل مـــع ذلـــك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول ، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرســـل هو إلى أحد[5] يبلغه عن الله رسالة ، فهو نبي ، قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته...)[6] وقوله : (من رسول ولا نبي)[7] فذكر إرسالاً يعم النوعين ، وقد خص أحدهما بأنه رسول

---

(١) انظر : ابن تيمية النبوات (ص١٧٣) .

(٢) معترك الأقران (١٨٥/٢) .

(٣) التفسير الكبير (٥٠/١٢) .

(٤) انظر : (١٧٢/١٧) .

(٥) يعني : لم يرسل إلى أحد من المخالفين .

(٦) سورة الحج الآية (٥٢) .

، فــإن هــذا هو الرسول المطلق الذي أمره بتبليغ رسالته إلى من خالف أمر الله "[1] فمن أرسل إلى مخالفين فهو رسول ، كرســول الله نوح – عليه السلام – ، ومن أرسل إلى موافقين مؤمنين يذكرهم فهو نبي وليس برسول ، كشيث وإدريس – عــليهما الســلام – وقبلهما آدم – عليه السلام – فهؤلاء كانوا قبل نوح ، ونوح – عليه السلام – هو أول رسول بعث إلى أهل الأرض[2] ، ثبت ذلك في الصحيح[3] ، " قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام ، فأولئك الأنــبياء يــأتيهم وحــي من الله بما يفعلون ، ويأمرون به المؤمنين الذين عندهم لكونهم مؤمنين بهم ، كما يكون أهل الشريعة الواحدة ، يقبلون ما يبلغه العلماء عن الرسول ، وكذلك أنبياء بني إسرائيل يأمرون بشريعة التوراة ، وقد يوحى إلى أحدهم وحــي خاص في قصة معينة ، ولكن كانوا في شرع التوراة كالعالم الذي يفهمه الله في قضية معنى يطابق القرآن كما فهم الله ســليمان حكــم القضــية الــتي حكم فيها هو و داود[4] ، فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره ، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله من الخبر والأمر والنهي ، فإن أرسلوا إلى كفار يدعونهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك لــه[5] ، ولا بد أن يكذب الرسل قوم ... فإن الرسل ترسل إلى مخالفين فيكذبهم بعضهم ... فقوله : (وما أرسلنا من قبلك مــن رســول ولا نــبي...)[6] دليل على أن النبي مرسل ، ولا يسمى رسولاً عند الاطلاق ، لأنه لم يرسل إلى قوم بما لا يعــرفونه ، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفونه أنه حق كالعالم ، ولهذا قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: " العلماء ورثة الأنبياء "[7] ، وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة "[8] .

وبهذا يتضح أن الصحيح هو التفريق بين النبي والرسول ، وأن أقرب الأقوال إلى الصواب هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية لقوة أدلته وسلامته من الاعتراض .

أما قول السيوطي فهو يصح في التفريق بين النبي والرسول ، ولكنه لا يسلم من الاعتراض عليه في وجه التفريق بينهما – كما بينت ذلك عند ما نقلت كلام الرازي والسيوطي وما اعترض به عليهما .

---

(١) النبوات (ص٢٥٥) .

(٢) انظر : النبوات (ص٢٥٥) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٣) ح رقم (٣٣٤٠) انظر : الفتح (٣٧١/٦) .
ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٨٤) ح رقم (٣٢٧-١٩٤) انظر : صحيح مسلم (١٨٤/١) .

(٤) يشير إلى قوله تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعــلماً ...) الآيــة (٧٩) ســورة الأنبياء ، روى ابن جرير بسنده عن ابن مسعود قال : كرم قد أنبتت عنا قيده فأفسدته (يعني الغنم) ، قال فقضـــى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله ، قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم ، فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها ، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : (ففهمناها سليمان) . جامع البيان (٥١/١٧) وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٤٩/٥) .

(٥) جواب الشرط محذوف ، ولعل المصنف – رحمه الله – قد تركه لأنه مفهوم من السياق، وتقديره : فهم الرسل ، أو لعله سقط سهواً من الناسخ .

(٦) سورة الحج الآية (٥٢) .

(٧) الــبخاري فــي " صحيحه " كتاب العلم (٣) باب (١٠) الفتح (١٥٩/١-١٦٠) وقال ابن حجر : " طرف من حديث أخرجه أبو داود والترمذي ، وابــن حــبان ، والحــاكم مصححاً من حديث أبي البرداء ، وحسنه حمزة الكناني ، وضعفه عندهم سنده لكن له شواهد يتقوى بها ، ولم يفصح المصنف (يعني : البخاري) بكونه حديثاً ، فلهذا لا يعد في تعاليقه لكن ايراده له في الترجمة يشعر بأن له أصلاً " (الفتح ١٦٠/١) ، وقد حسنه العلامة المحقق ابن القيم في " مفتاح دار السعادة " (٦٣/١) في الوجه السابع والأربعين .

(٨) النبوات (ص٢٥٦،٢٥٧) .

الفصل الثاني : الأنبياء والرسل

المبحث الأول : وجوب الإيمان بهم جميعاً :

الإيمـــان بالأنبياء والرسل أصل من أصول الإيمان ، قال تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبـــراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحـــن له مســـلمون)[١] وقـــال تعالى : (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)[٢] .

قـــال الســـيوطي عند تفسيره الآية (٢٨٥) من سورة البقرة : " (آمن) صدق (الرسول) محمد – صلى الله عليه وســـلم – (بما أنزل إليه من ربه) من القرآن (والمؤمنون) عطف عليه ، (كل) تنوين عوض من المضاف إليه (آمن بالله وملائكته وكتبه) بالجمع والإفراد[٣] (ورسله) ويقولون : (لا نفرق بين أحد من رسله) فنؤمن ببعض ونكفر ببعض كمـــا فعـــل اليهود والنصارى "[٤] فهنا يبين السيوطي أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه المؤمنين به قد آمنوا بالرســـل جميعاً من غير تفريق بينهم ، بأن يؤمنوا ببعض رسل الله دون البعض الآخر ، وهكذا المؤمنون من بعدهم ، ولم يفعلوا ما فعله اليهود والنصارى فإن اليهود كفروا بعيسى ومحمد – عليهما السلام – والنصارى كفروا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ولقد كان هذا هو سبب غضب الله عليهم ولعنهم والحكم عليهم بالكفر والضلال[٥] .

قـــال ابن كثير : " فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، ويصدقون بجميـــع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرقون بين أحد منهم ، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارون ، راشدون مهديون ، هادون إلى سبل الخير ، وإن كان بعضهم ينســـخ شريعة بعض بإذن الله ، حتى نُسخ الجيمع بشرع محمد – صلى الله عليه وسلم – خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذي تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين "[٦] .

ويـــزيد الســـيوطي الأمر تأكيداً لهذا المعنى ، وايضاحاً له ، فيجعل الكفر بالرسل أو بواحد منهم ضلالاً بعيداً عن الحـــق ، فيقـــول في قوله تعالى : " يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا) داوموا على الإيمان (بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رســـوله) محمـــد – صلى الله عليه وسلم – وهو القرآن (والكتاب الذي أنزل من قبل) على الرسل ، بمعنى الكتب ...

---

(١) سورة البقرة ، الآية (١٣٦) .
(٢) سورة آل عمران ، الآية (٨٤) .
(٣) قراءتان (كتبه) أو (كتابه) .
(٤) تفسير الجلالين (ص٥٧) .
(٥) الحقيقة أن النصارى كفروا بعيسى – كذلك – لأنهم لم يؤمنوا به رسولاً كما أرسله الله تعالى إليهم ، بل كفروا به رسولاً وجعلوه شريكاً لله تعالى ، وابنا له ، فهما كفران لا كفر واحد .
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥٠٨/١) .

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً)[١] عن الحق "[٢] .

" (إن الذيـــن آمنوا) بموسى وهم اليهود (ثم كفروا) بعبادتهم العجل (ثم آمنوا) بعده (ثم كفروا) بعيسى (ثم ازدادوا كفراً) بمحمد (لم يكن الله ليغفر لهم) ما أقاموا عليه (ولا ليهديهم سبيلاً)[٣] طريقاً إلى الحق "[٤] .

وبمعنى هذا أو قريباً منه قال الإمام ابن جرير : " يعني بذلك جل ثناؤه (يا أيها الذين آمنوا) بمن قبل محمد من الأنبياء والرسل ، وصدقوا بما جاءوهم به من عند الله (آمِنوا بالله ورسوله) يقول : صدقوا بالله ، وبمحمد رسوله ، أنه لله رسول ، مرسل إليكم ، وإلى سائر الأمم قَبْلَكُم (والكتاب الذي نزل على رسوله) يقول : وصدقوا بما جاءكم به محمد من الكـتاب الـذي نزله الله عليه ، وذلك القرآن (والكتاب الذي أنزل من قبل) يقول : وآمِنوا بالكتاب الذي أنزل الله من قبل الكـتاب الذي نزله على محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو التوراة والانجيل "[٥] ثم قال : (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمـنوا ثـم كفروا...) الآية[٦] " اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك : فقال بعضهم تأويله : (إن الذين آمنوا) بموسى (ثم كفـروا)[٧] به (ثم آمنوا) يعني النصارى بعيسى (ثم كفروا به[٨] (ثم ازدادوا كفراً) بمحمد (لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً) "[٩] .

أمـا ابن كثير فلم يخصص اليهود بتفسير قوله تعالى : (إن الذين آمنوا ثم كفروا...) الآية ، بل جعلها عامة في اليهود وغيرهم ، وهو الأولى ، لأن لفظ الآية عام ، يتناول جميع من كانت هذه صفته ، إلا أنه جعل هذه الصفة من صفات المنافقين[١٠] .

وفـي موضـع آخـر يقول السيوطي في تفسير سورة هود : " (وتلك عاد) إشارة إلى آثارهم ، أي فسيحوا في الأرض وانظروا إليها ، ثم وصف أحوالهم فقال : (جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله)[١١] جمع ، لأن من عصى رسولاً عصى جميع الرسل ، لاشتراكهم في أصل ما جاءوا به وهو التوحيد "[١٢] .

وقال السيوطي أيضاً : " (عصوا رسله)[٢] في جمع الرسل هنا وجهان :

أحدهما : أن من عصى رسولاً واحداً لزمه عصيان الجميع ، فإنهم متفقون على الايمان بالله تعالى وعلى توحيده .

---

(١) سورة النساء الآية (١٣٦) .
(٢) تفسير الجلالين (ص١١٦) .
(٣) سورة النساء الآية (١٣٦) .
(٤) تفسير الجلالين (ص١١٦-١١٧) .
(٥) جامع البيان (٣٢٦/٥) .
(٦) سورة النساء الآية (١٣٧) .
(٧) يعني بعبادتهم العجل ثم بتحريفهم التوراة – كما تقدم – .
(٨) يعني كفروا به نبياً ورسولاً وجعلوه شريكاً لله – سبحانه – وابنا له .
(٩) جامع البيان (٣٢٧/٥) .
(١٠) تفسير القرآن العظيم (٣٨٦/٢) .
(١١) سورة هود الآية (٥٩) .
(١٢) تفسير الجلالين (ص٢٧٠) .

الثاني : أن يراد الجنس ... وانظر كيف شنع كفرهم ، وهول على فعلهم بحرف التنبيه وبتكرار أسمائهم "[١] .

وأكد على هذا المعنى ابن كثير فقال : " (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم)[٢] كفروا بها ، وعصوا رسل الله ، وذلك أنه من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء ، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به ، فعاد كفروا بهود ، فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل "[٢] .

إذاً فالايمان بجميع الأنبياء والمرسلين واجب ، كما أن الكفر برسول واحد يعتبر كفراً بجميعهم ، لذلك قال تعالى : (كذبت قوم نوح المرسلين)[٣] وقال : (كذبت عاد المرسلين)[٤] ، وقال : (كذبت ثمود المرسلين)[٥] وقال : (كذبت قوم لوط المرسلين)[٦] ومن المعروف أن كل أمة كذبت رسولها فقط ، ولكن هذا محمول على المعنى السابق من أن التكذيب برسول واحد يعد تكذيباً بالرسل كلهم ، إذ أنهم جميعاً حملة رسالة واحدة ، ودعاة دين واحد ، يصدقهم ربهم ، ويصدق بعضهم بعضاً ، ويبشر السابق منهم باللاحق ، ويصدق المتأخر منهم بالمتقدم .

المبحث الثاني

٢- لب دعوتهم - عليهم السلام - :

لب دعوات الرسل والأنبياء - عليهم السلام - وجوهر رسالاتهم ، هو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وترك ما يعبد من دونه ، قال تعالى عن نوح - عليه السلام - : (لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره)[٧] قال السيوطي : " (إني أخاف عليكم) إن عبدتم غيره (عذاب يوم عظيم) "[٨] وقال أيضاً في قوله تعالى : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله)[٩] وحده "[١٠] .

إن عبادة الله وتوحيده هو المقصود الأعظم لرسالات الأنبياء والمرسلين ، جاءوا بها من عند الله ، وبأمر من الله ، ليعبدوا الناس لربهم وخالقهم - جل وعلا - يستوي في ذلك الكبير والصغير ، والشريف والوضيع ، والمالك والمملوك ، حتى الأنبياء أنفسهم أول العابدين ، وفي مقدمة الموحدين ، قال تعالى : (لن يستنكف) أي يتكبر ويأنف (المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) عند الله ، لا يستنكفون أن يكونوا عبيداً ، وهذا من أحسن الاستطراد ، ذكر للرد على من زعم أنهم آلهة أو بنات الله ، كما رد بما قبله على النصارى الزاعمين ذلك المقصود خطابهم (ومن يستنكف عن عبادته

---

(١) معترك الأقران (٢/٦٠٠) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٦٣) ، وانظر : الفخر الرازي : التفسير الكبير (١٢/١٦) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٩/٣٧) ، والشوكاني : فتح القدير (٢/٥٠٦) .

(٣) سورة الشعراء الآية (١٠٥) .

(٤) سورة الشعراء الآية (١٢٣) .

(٥) سورة الشعراء الآية (١٤١)

(٦) سورة الشعراء الآية (١٦٠)

(٧) سورة الاعراف الآية (٥٩) .

(٨) تفسير الجلالين (ص١٨٧) .

(٩) سورة الاعراف الآية (٦٥) .

(١٠) تفسير الجلالين (ص١٨٧) .

ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً)[١] ثم قال تعالى : (وأما الذين استنكفوا واستكبروا)[٢] عن عبادته[٣] (فيعذبهم عذاباً أليماً)[٢]

وبمثل ما قال السيوطي قال الامام بن جرير الطبري في قوله تعالى : (لن يستنكف المسيح) الآية ، " لن يأنف ولن يستكبر المسيح أن يكون عبداً لله يعني : من أن يكون عبداً لله[٤]... ولن يستنكف أيضاً من الاقرار لله بالعبودية والاذعان له بذلك رسله المقربون ، الذين قربهم الله ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه[٥]... وأما الذين تعظموا عن الاقرار لله بالعبودة ، والاذعان له بالطاعة ، واستكبروا عن التذلل لألوهته وعبادته ، وتسليم الربوبية والوحدانية له (فيعذبهم عذاباً أليما)[٦] يعني عذاباً موجعاً "[٧] .

فالمسيح وجميع الأنبياء – عليهم السلام – داخلون في العبودية لله ، بل هم أول المسارعين إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فهذا أعظم ما أرسلوا به ، ودعوا إليه ، فقد قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)[٨] وقال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)[٩] وفي تفسير هذه الآية يقول السيوطي : (أن اعبدوا الله) " وحدوه "[١٠] (واجتنبوا الطاغوت) قال : " الأوثان أن تعبدوها "[١١] .

وبمثل هذا فسرها ابن جرير إلا أنه فسر الطاغوت بالشيطان ، والسيوطي فسرها بالأوثان ، وعبادة الأوثان إنما يدعو إليها الشيطان وأعوانه وأتباعه (إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)[١٢] قال ابن جرير " يقول تعالى ذكره : ولقد بعثنا أيها الناس في كل أمة سلفت قبلكم رسولاً ، كما بعثنا فيكم بأن اعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأفردوا له الطاعة ، وأخلصوا له العبادة ... وابعدوا من الشيطان ، واحذروا أن يغويكم ، ويصدكم عن سبيل الله ، فتضلوا "[١٣] .

يؤكد السيوطي على تقرير هذا التوحيد الذي دعت إليه الرسل ، فيقول : في تفسير قوله تعالى : (وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، إن أنتم)[١٤] في عبادتكم الأوثان[١٥] (إلا مفترون)[٥] كاذبون على الله "[٦] .

وهكذا كان كل رسول يأمر قومه بعبادة الله وحده ، واجتناب كل ما سواه من المعبودات من أوثان ، وهوى ،

---

(١) سورة النساء الآية (١٧٢) وانظر معها : تفسير الجلالين (ص١٢٢-١٢٣) .
(٢) سورة النساء الآية (١٧٣) .
(٣) تفسير الجلالين (ص١٢٣) .
(٤) جامع البيان (٣٧/٦) .
(٥) نفسه (٣٨/٦) .
(٦) سورة النساء الآية (١٧٣) .
(٧) جامع البيان (٣٨،٣٩/٦) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٣٣/٢) ، والشوكاني : فتح القدير (٥٤٢/١) .
(٨) سورة الانبياء الآية (٢٥) .
(٩) سورة النحل الآية (٣٦) .
(١٠) الجلالين (ص٣٢٢) وانظر كذلك (ص٢٧٠) ، (ص٢٧٤) .
(١١) نفسه (ص٣٢٢) .
(١٢) سورة فاطر الآية (٦) .
(١٣) جامع البيان (١٠٣/٦) وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٩٩/٤) .
(١٤) سورة هود الآية (٥٠) .
(١٥) تفسير الجلالين (٢٦٩) .

وشهوة وسلطان .

فمـــا سوى الله تعالى ليس بإله ، وإن إلهية ما سواه أبطل الباطل ، وإثباتها أظلم الظلم ، فلا يستحق العبادة إلا هو سبحانه ، كما لا تصلح الإلهية لغيره ، فكل الذين ألهوا وعبدوا غير الله ، هم ضالون مشركون ، ليس لهم في الآخرة من نصيب .

ولا ريـــب أن عبادة الله وتوحيده أساسه قول : لا إله إلا الله ، فهي كلمة التوحيد ، الدالة عليه ، وهي أول واجب على العبد ، وهي أول ما يدخل به الاسلام ، وآخر ما يخرج به من الدنيا قال السيوطي : " جميع الرسل جاءت بهذه الكلمة المشـــرفة دون ســـائر الطاعـــات ، وأول مـــن شهد بها الله وملائكته ثم الرسل ، قال تعالى : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكـــة...)[1] ثم أمرك بها في قوله (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)[2] ولا يبقى في الجنة غيرها ، والقرآن ، والحمد لله ، والحب لله ، فعليك أيها الأخ بحفظها ، ولا تدنسها بالمعاصي ، وإن قُدّرت عليك فامحها بتوبة ، كالثوب تغسله كلما تدنس ، وإن لم تتب وتوسخ فيوم زينة المحشر ما تلبس ؟ وحرص عليها من أحببته أو تعلق بك "[3] .

قـــلت : قـــد ورد في الحديث أيضاً أن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس[4] ، وهذا أيضاً مما يبقى في الجنة ، وهو تسبيح الله تعالى وتحميده .

والســـيوطي عـــند بيـــان معـــنى كلمة (لا إله إلا الله) وذلك في تفسير قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم...)[5] يورد بعض الاسئلة والمناقشات التي يتبين من خلالها معنى هذه الكلمة العظيمة ، فقال : " فإن قـــلت : لأي شـــئ ذكـــر الشـــهادة على نفسه ، مع أن الشهادة من النفس لا تقبل ؟ فالجواب : أن الله لما بعث نبيه محمداً بالرســـالة ، وأمرهم بتوحيد الله ، فقال : قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، فقالوا : من يشهد أنه رسول الله ؟ قال لهم : أي شئ أكبر شهادة ، فقالوا : الله أكبر شهادة ، فأنزل الله الآية "[6] .

بيـــد أنـــني لم أجد في مصنفات أسباب النزول هذا الذي ذكره السيوطي هنا ، لكنه ذكر في " أسباب النزول " من تصنيفه عن ابن عباس قال : جاء النحام بن زيد[7] ، وقروم بن كعب[8] ، وبحري بن عمر[9] ، فقالوا : يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره ، فقال : لا إله إلا الله ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو ، فأنزل الله في قولهم : (قل أي شئ أكبر شهادة...) الآية "[10] .

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٨) .

(٢) سورة آل عمران الآية (٦٤) .

(٣) معترك الاقران (٤٨٦/٢) .

(٤) ورد في صحيح مسلم (٢١٨٠/٤) ح رقم (٢٨٣٥) .

(٥) سورة آل عمران بعض الآية (١٨) .

(٦) معترك الأقران (٤٨٦/٢) .

(٧) الدر المنثور (٢٥٦/٣) قروم ، وكذلك عند ابن جرير (١٤٦/٧) .

(٨) السابق نفسه .

(٩) الدر المنثور (٢٥٦/٣) بحري بن عمرو ، وعند ابن جرير بن عمير (١٤٦/٧) .

(١٠) أســـباب النزول في حاشية تفسير الجلالين (ص٢٦٤،٢٦٥) ، والدر المنثور (٢٥٦/٣) وتابعه الشوكاني (١٠٦/٢) ، وهو عند ابن جرير (١٤٦/٧) ، كما قال السيوطي .

وروى فـي الدر المنثور أيضاً عن مجاهد في قوله : (قل أي شئ أكبر شهادة) قال : " أمر محمد – صلى الله عليه وسلم – أن يسال قريشاً : أي شئ أكبر شهادة ؟ ثم أمره أن يخبرهم فيقول في قوله تعالى : الله شهيد بيني وبينكم "[١] .

فقوله : (الله شهيد بيني وبينكم) [٢] إخبار من الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأمر من الله ، وليس من كلام قريش .

ثـم قـال السيوطي : " ومعناها شهد شهادةً فرضيها وأمر الخلق بها بعد شهادته لنفسه في أزله ... فإن قلت : لم ذكـر الـنفي قبل الاثبات ؟ والجواب : لإكمال المدحة ، لأن قول الرجل : لا عالم في البلد إلا فلان ، أمدح من قولك : فـلان عالم في البلد ، وأيضاً فالنجاة من النار أولى من دخول الجنة ، فأمر الله أولاً بما ينجي من النار ، وهي البراءة من عبادة الأصنام[٣] ثم بالتوحيد الذي يدخل الجنة .

وأيضاً فنفى الإلهية عن الأصنام[٤] إثبات الألوهية لله ، وليس في إثبات الإلهية لله نفي الإلهية عن الأصنام ، لأن العـاقل لا يكون بغير التولي إلى معبود ، فإذا نفي الإلهية عن الاصنام ثبت توليه إلى الله ، وإذا أثبت الإلهية لله فليس يتبرأ عن الأصنام ، لأنه ربما يكون لواحد معبودان ، فما أشرف هذه الكلمة المشرفة إن وفقت إليها وأماتك الله عليها "[٥] .

المبحث الثالث : عـددهم

تعرض السيوطي لتعداد الأنبياء والمرسلين في " الحاوي " فقال : " مسألة – كم عدد الأنبياء والرسل ؟ الجواب : روى الطبراني في الأوسط عن أبي أمامة الباهلي " أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟ قال : " نعم " ، قال : كم بيـنه وبيـن نوح ؟ قال : " عشرة قرون " ، قال : كم بين نوح وإبراهيم ؟ قال : " عشرة قرون " ، قال : يا رسول الله كم كـانت الرسل ؟ قال : " ثلاثمائة وخمسة عشر " ورجاله رجال الصحيح[٦] ، وأخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم عن أبـي ذر قال : " قلت : يا رسول الله ، كم الأنبياء ؟ قال : " مائة ألف نبي وأربعة وعشرون ألفاً " قلت : يا رسول الله كم الرسل منهم ؟ قال : ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير "[٧] ، وقال في " الجلالين " : " روى أنه تعالى بعث ثمانية آلاف نبي ، أربعة آلاف من اسرائيل[٨] ، وأربعة آلاف من سائر الناس ، قاله الشيخ[٩] في سورة غافر "[١٠] .

ذكر هذه الرواية بسندها الحافظ ابن كثير فقال : " عن أنس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : "

---

(١) الدر المنثور (٢٥٦/٣) ، وانظر ابن جرير (١٦٢/٧) .

(٢) سورة الأنعام الآية (١٩) .

(٣) الأولى أن يقال : عبادة غير الله ، لأنه أعم من أن تكون العبادة للأصنام أو لغيرها من المعبودات المتعددة .

(٤) الأولى أن يقال : نفي الإلهية عن غير الله – كسابقه – .

(٥) معترك الأقران (٤٨٦،٤٨٧/٢) .

(٦) تفسير ابن كثير (٤٢٣/٢) وقال : معان بن رفاع السلامي ضعيف ، وعلي بن يزيد ضعيف ، والقاسم أبو عبدالرحمن ضعيف أيضاً .

(٧) مشكاة المصابيح (١٢٢/٣) ، الحاوي (١٣٨/٢) وقال الألباني : إسناده صحيح .

(٨) هكذا " من اسرائيل " ولعلها " من بني إسرائيل " كما هو واضح من كلام شيخه المحلي في تفسير سورة غافر – الجلالين (ص٥٧٧) . وعند ابن كثير : " إلى بني إسرائيل " بدلاً من "من" انظر التفسير (٤٢٣/٣) .

(٩) يقصد شيخه جلال الدين المحلي .

(١٠) (ص١٢١) وانظر تفسير سورة غافر (ص٥٧٧) .

بعث الله ثمانية آلاف نبي ، أربعة آلاف إلى بني إسرائيل ، وأربعة آلاف إلى سائر الناس "[١] وذكرها السيوطي في " الدر المنثور " من حديث أنس أيضاً ، وعزاها للحاكم وضعفها[٢] .

قال السفاريني : " وتقدم أن جميع الأنبياء – عليهم السلام – من لدن آدم إلى خاتمهم نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، وأن الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر "[٣] .

ويبدو أن السفاريني قد صح لديه حديث أبي ذر عند ابن حبان في صحيحه .

يرى التفتازاني أنه من الأولى ألا يذكر فيهم عدد معين ، قال : لأنه : " لا يؤمن في ذكر العدد أن يدخل فيهم من ليس منهم إن ذكر عدد أكثر من عددهم ، أو يخرج منهم من هو فيهم إن ذكر عدد أقل من عددهم "[٤] .

وذكر التفتازاني علة أخرى تمنع من تحديد عدد الأنبياء وهي أن الأحاديث الواردة في عددهم هي من قبيل الآحاد ، قال : " إن خبر الواحد على تقدير اشتماله على جميع الشرائط المذكورة في أصول الفقه ، لا يفيد إلا الظن ، ولا عبرة بالظن في باب الاعتقادات خصوصاً إذا اشتمل على اختلاف رواية ، وكان القول بموجبه مما يفضي إلى مخالفة ظاهر الكتاب ، وهو أن بعض الأنبياء لم يذكر للنبي – عليه السلام – ويحتمل مخالفة الواقع ، وهو عد النبي – عليه السلام – من غير الأنبياء ، وغير النبي من الأنبياء ، بناءً على أن اسم العدد خاص في مدلوله لا يحتمل الزيادة ولا النقصان "[٥] .

والمحذور الذي أورده التفتازاني من احتمال دخول من هو غير نبي في الأنبياء وعكسه ، فهو إنما يقع لو أن من ذكر العدد ذكره من غير اعتماد على نص ، أما إن ورد النص عن المعصوم ، فلا محذور ، وكذلك رده حديث العدد بأنه آحاد ، إنما هو جار على مذهبه الأشعري في عدم احتجاجهم بخبر الواحد في العقائد ، وهو مردود ، والصحيح ما عليه أهل السنة والجماعة من الاحتجاج بأخبار الآحاد في العقائد والأحكام على حد سواء إذا صح سنده ولم يكن به شذوذ ولا علة قادحة ، وهنا قد ثبت نص حديث أبي ذر – رضي الله عنه – وصح ، فوجب الاحتجاج به ، مع عدم الالتفات إلى ما ذكره التفتازاني ، وأما كون الحديث يخالف ظاهر الكتاب ، فإنني أقول لا مخالفة هنا ، لأن قول الله تعالى : (...ومنهم من لم نقصص عليك)[٦] أي في القرآن كمن ذكرنا أسماءهم صريحة فيه وهم الخمسة والعشرون نبياً :

١- آدم ، ٢- إدريس ، ٣- نوح ، ٤- هود ، ٥- صالح ،٦- وإبراهيم، ٧- لوط ، ٨- إسماعيل ، ٩- إسحاق ، ١٠- يعقوب ، ١١- يوسف ، ١٢- أيوب ، ١٣- شعيب ، ١٤- موسى ، ١٥- هارون ، ١٦- يونس، ١٧- داود ، ١٨- سليمان ، ١٩- إلياس ، ٢٠- اليسع ، ٢١- زكريا ، ٢٢- يحيي ، ٢٣- عيسى ، ٢٤- ذو الكفل عند كثير من

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٢٣) وقال ابن كثير : " وهذا أيضاً اسناد ضعيف فيه الربذي ضعيف، وشيخه الرقاشي أضعف منه " وقال في المجمع (٨/٢١٠) عن الربذي "ضعيف جداً".

(٢) (٢/٧٤٦) ، وانظر : معترك الأقران (٢/٤٢٦) .

(٣) لوامع الأنوار البهية (٢/٢٦٣) .

(٤) شرح العقائد النسفية (ص٨٨-٨٩) ، وانظر نحوه في " تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد " للبيحوري (ص٧٥) .

(٥) نفسه (ص٨٩) .

(٦) سورة غافر ، بعض الآية (٧٨) .

المفسرين ، ٢٥- سيدهم وخاتمهم محمد - صلى الله عليه وسلم - وعليهم أجمعين[١].

فهــو سبحانه يخبر أنه لم يذكر بقية الأنبياء في القرآن بأسمائهم ، ويكون قد ذكرهم لنبيه بوحي في غير القرآن ، أو أنــه تعــالى أخبره بعددهم جملة - كما هو مقتضى الحديث - دون أن يبين له تفصيل أعيانهم وأسمائهم وعلى هذا فلا مصادمة بين القرآن والحديث ، ومالم يذكر في القرآن لا يعارضه كونه ذكر في السنة وعليه فلا اشكال .

ويجــدر التنــبيه على أن ابن تيمية أشار إلى أن الامام أحمد لم يثبت عنده حديث أبي ذر الذي يذكر عدد الأنبياء والرســل قال بعد كلام نقله عن الامام أحمد : " وهذا الذي ذكره أحمد ، وذكره محمد بن نصر المروزي ، وغيرهما يبين أنهم لم يعلموا عدد الكتب والرسل ، وأن حديث أبي ذر في ذلك لم يثبت عندهم "[٢] .

وكذلــك ذهب صاحب شرح الطحاوية إلى أنه لم يرد في عدة الأنبياء نص ، فقال : " وأما الأنبياء والمرسلون ، فعلينا الايمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله ، والايمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم ، فعلينا الايمان بهم جملة ، لأنه لم يأت في عددهم نص "[٣] .

ويــبدو أن الشارح - رحمه الله - لم يقف على نص حديث أبي ذر - رضي الله عنه - المتقدم ، أو لعله رأى ما رآه ابــن الجوزي من أن الحديث موضوع فلم يأخذ به ، لأنه لم يثبت عنده كما قد نقلت آنفاً عن الامام أحمد مما قاله ابن تيمية لكن الصواب أن الحديث صحيح وثابت كما نقلت ذلك عن أئمة الحديث المعتد برأيهم .

المبحث الرابع

٤- المفاضلة بينهم:

قال السيوطي في تفسير قوله تعالى : (وربك أعلم بمن في السماوات والأرض)[٤] " فيخصهم بما شاء على قدر أحوالهــم "[٥] (ولقد فضلنا بعض النبين على بعض)[١] " بتخصيص كلاً منهم بفضيلة كموسى بالكلام ، وابراهيم بالخلة ، ومحمــد بالاســراء "[٢] فهذا خبر من الله تعالى بتفضيله بعض الأنبياء على البعض الآخر ، وقال ابن جرير تفسيراً للآية " وربــك يــا محمد أعلم بمن في السموات والأرض وما يصلحهم ، فإنه خالقهم ورازقهم ومدبرهم... فإن ذلك من فعلي بهم لتفضــيلي بعض النبين على بعض ، بإرسال بعضهم إلى بعض الخلق ، وبعضهم إلى الجميع ، ورفعي بعضهم على بعض درجــات "[٦] ثم روى عن قتادة : " اتخذ الله ابراهيم خليلاً ، وكلم الله موسى تكليما ، وجعل الله عيسى كمثل آدم خلقه من تــراب ثم قال له كن فيكون ، وهو عبدالله ورسوله ، من كلمة الله وروحه ، وآتى سليمان ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وآتى داوود زبــوراً ، كــنا نحدث دعاءً عُلِّمَه داود ، تحميد وتمجيد ، ليس فيه حلال ولا حرام ، ولا فرائض ولا حدود ،

---

(١) ابن كثير (٢/٤٢٢) .
(٢) مجموع الفتاوي (٧/٤٠٩) ، وانظر السفاريني : لوامع الأنوار (٢/٢٦٤) .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية (ص٣٤٩) .
(٤) سورة الاسراء الآية (٥٥) .
(٥) تفسير الجلالين (ص٣٤٣) .
(٦) جامع البيان (١٥/١٠٣) والسيوطي : الدر المنثور (٢/٣) ، (٥/٣٠٣،٣٠٢) .

وغفر لمحمد ما تقدم من ذنبه وما تأخر "[1] .

ويبدو الاتفاق واضحاً بين كلام كل من السيوطي وابن جرير ٠ و قال السيوطي في تفسير قوله تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)[2] قال : " بتخصيصه بمنقبة ليست لغيره "[3] . فهذا تفضيل تخصيص كل نبي بما ليس لغيره من الأنبياء ، أما تفضيل الرتب والمنازل والدرجات فقد : " أجمعت الأمة على أن الرسل أفضل من الأنبياء والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم "[4] قال تعالى : (ورفع بعضهم درجات)[5] .

قال ابن كثير : " ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء "[6] كما حكى السيوطي الاجماع على تفضيل أولي العزم من الرسل فقال : " إن الله فضل بعض الأنبياء والرسل على بعض ، من غير تعيين الفاضل على المفضول ، لكن الاجماع على تفضيل أولي العزم منهم ، واختلف فيالتفضيل بينهم فقيل : آدم ، لأنه أبو البشر ، وقيل : نوح لأنه أول رسول بعث في الأرض ، وقيل : ابراهيم لأنه خليل الله ، وقيل : موسى لأنه كليم الله ، وقيل عيسى لأنه روح الله ، والاجماع على أن نبينا ومولانا محمد – صلى الله عليه وسلم – سيدهم وإمامهم ... "[7] .

وقد أمر الله تعالى رسوله محمداً – صلى الله عليه وسلم – بأن يصبر كما صبر أولوا العزم الذين تقدموه فهو واحد منهم ، قال تعالى : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل)[8] وقد ذكرهم الله تعالى في قوله : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ، ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم...)[9] وذكرهم – جل وعلا – في موضع آخر فقال : (شرع لكم من الدين ما وحي به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)[10] .

ولقد أورد السيوطي أقوالاً في بيان من هم أولوا العزم فقال : " وقيل أولوا العزم الثمانية عشر المذكورون في الأنعام "[11] وهو قوله تعالى : (تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحي وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على

---

(١) المصدران السابقان .
(٢) سورة البقرة الآية (٢٥٣) .
(٣) تفسير الجلالين (٤٩) .
(٤) عمر سليمان الاشقر : الرسل والرسالات (ص٢١٧) .
(٥) سورة البقرة الآية (٢٥٣) .
(٦) تفسير ابن كثير (٥/٨٥) .
(٧) معترك الأقران (٣/٢٦) .
(٨) سورة الأحقاف الآية (٣٥) .
(٩) سورة الأحزاب الآية (٧) .
(١٠) سورة الشورى الآية (١٣) .
(١١) معترك الأقران (٣/١٠٠) .

العالمين)[١] ودليل هذا القول أن الله تعالى قال بعد هذه الآيات آمراً نبيه – صلى الله عليه وسلم – : (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده...)[٢] .

" وقيل : كل من لقي من أمته شدة ، وقيل : الرسل كلهم أولو عزم ، فـ " من الرسل " على هذا لبيان الجنس ، وعلى الأقول المتقدمة للتبعيض "[٣] وهذه الأقوال التي ذكرها السيوطي لا يخفى بعدها ، ذلك لأنه يكاد يكون شبه اتفاق بين العلماء على أن أولي العزم هم الخمسة المذكورون في آية الأحزاب[٤] وآية الشورى[٥] قال ابن كثير : " ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن ، في سورة الأحزاب[٦]... وفي الشورى[٧]... ولا خلاف أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – أفضلهم ، ثم من بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور "[٨] وقال ابن عثيمين : " ...وأن أفضلهم محمد ثم إبراهيم ثم موسى ثم نوح وعيسى ابن مريم " وبغض النظر عن ترتيب الأفضلية بين هؤلاء الخمسة محمد ، ونوح وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، – عليهم جميعاً الصلاة والسلام[٩] – فإنه من المتفق عليه أنهم أفضل الرسل ، والرسل أفضل من الأنبياء ، والأنبياء أفضل من سائر الخلق وبجانب آيات التفضيل هذه وردت أحاديث أيضاً تفضل بعض النبيين على بعض كما في حديث أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع ، وأول مشفع "[١٠] وفي أول حديث الشفاعة : " أنا سيد الناس يوم القيامة "[١١] وورد أيضاً قوله – صلى الله عليه وسلم – " إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة : واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم "[١٢] فهذه بالقطع تفيد تفضيله – صلى الله عليه وسلم – على سائر الأنبياء والمرسلين ومن باب أولى على سائر الناس ، هذا في الوقت الذي وردت أحاديث في النهي عن المفاضلة بين الأنبياء ، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم : " لا تخيروني على موسى... " الحديث[١٣] ، وقوله – صلى الله عليه وسلم–: " لا تفضلوا بين أنبياء الله "[١٤] وقوله – عليه الصلاة والسلام –:

---

(١) سورة الأنعام الآيات (٨٣-٨٦) .
(٢) سورة الأنعام الآية (٩٠) .
(٣) معترك الأقران (١٠٠/٣) .
(٤) آية رقم (٧) .
(٥) آية رقم (١٣) .
(٦) آية رقم (٧) .
(٧) آية رقم (١٣) .
(٨) تفسير القرآن العظيم (٨٥/٥) .
(٩) روى ذلك الترتيب ابن جرير : جامع البيان (٣٧/٢٦) عن عطاء الخراساني ، وانظر : ابن كثير (٢٨٨/٧) .
(١٠) الطحاوية (١٦٩) . رواه مسلم في صحيحه (٥٩/٧) وأبو داود (٤٦٧/٣) ، وابن سعد في الطبقات (٢٠/١) وأحمد (٥٤٠/٢) .
(١١) صحيح البخاري (٣٣٤/٢) ، (٢٧٢/٣) ، صحيح مسلم (١٢٧/١) ، وأحمد (٤٣٥/٢) .
(١٢) نفسه السابق . صحيح مسلم (٥٨/٧) ، والترمذي (٢٨١/٢) وقال :" حديث حسن صحيح".
(١٣) صحيح البخاري ح رقم (٢٤١١) ، (٣٤٠٨) ، صحيح مسلم ح رقم (٢٣٧٣) (١٨٤٤/٤) .
(١٤) صحيح البخاري ح رقم (٢٤١٢) ، (٣٤١٤) ، صحيح مسلم (١٨٤٣،١٨٤٥/٤) ح رقم (١٦٣) .

" لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى " وقوله : " ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متى "[١] .

وقد أشكل على البعض هذا التعارض الظاهر بين نصوص التفضيل وبين النصوص التي تنهي عن التفضيل – كما تقدم –

ولكن العلماء جمعوا بين هذه النصوص على ما هو مقرر ، من أن ظواهر النصوص إذا تعارضت بحث في معرفة المتقدم والمتأخر ، فيكون السابق منسوخاً باللاحق ، وإلا جمع بينها على ما هو معلوم بين العلماء . وقد قالوا في الجمع بين هذه النصوص أجوبة منها :

أولاً : أن هذا النهي كان قد حصل منه – صلى الله عليه وسلم – قبل أن يعلمه الله بالتفضيل[٢] ، وقبل أن يوحي إليه بأنه سيد ولد آدم[٣] ، وإن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل[٤] .

ثانياً : ما قاله السيوطي : " أنه قال ذلك على وجه التواضع والانبساط والتنبيه للمخاطب على ألا يتعرض لأنبياء الله ورسله بالغيبة "[٥] .

ثالثاً : ما قاله الإمام ابن حجر أنه إنما : " خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة "[٦] .

رابعاً : أنه نهى عن التفضيل بمجرد الآراء والعصبية ، ذلك لأن التفضيل إذا كان على قانون الهوى والتشهي كان مذموماً ، وهو كذلك إن جرى على وجه الحمية والعصبية – أيضاً – بل الجهاد نفسه وهو ذروة سنام الإسلام ، إن حصل من المقاتل حمية وعصبية كان كذلك مذموماً ، فإن الله قد حرم الفخر "[٧] .

خامساً : لا تفضلوا ، لأن مقام التفضيل ليس إليكم ، وإنما هو إلى الله – عز وجل – وعليكم الانقياد ، والرضى والتسليم له ، والإيمان به[٨] ، ذكر هذا ابن كثير ، وقال به الشوكاني ونصره وضعف ما سواه ، وغلب جانب النهي عن التفضيل ، وذهب إلى أنه لو فرض أنه لم يرد إلا القرآن الكريم بإخبارنا بأن الله تعالى فضل بعض أنبيائه على بعض لم يكن لنا فيه دليل على جواز التفضيل بين الأنبياء ، ذلك لأن " المزايا التي هي مناط التفضيل معلومة عند الله لا تخفى عليه منها خافية، وليست بمعلومة عند البشر ، فقد يجهل أتباع نبي من الأنبياء بعض مزاياه وخصوصياته ، فضلاً عن مزايا غيره ، والتفضيل لا يجوز إلا بعد العلم بجميع الأسباب التي يكون بها هذا فاضلاً وهذا مفضولاً ، لا قبل العلم ببعضها أو بأكثرها أو بأقلها ، فإن ذلك تفضيل بالجهل ، وإقدام على أمر لا يعلمه الفاعل له وهو ممنوع "[٩] .

---

(١) صحيح البخاري ح رقم (٣٣٩٥ ، ٣٤١٣ ، ٣٤١٦ ، ٤٦٣٠، ٧٥٣٩) ، (٣٤١٥) ، (٤٦٠٤) ، (٤٦٣١) ، (٤٨٠٥) ، مسلم (٤/ ١٨٤٣) ، ح رقم (٢٣٧٣) .

(٢) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٥٢/٦) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٩/١) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٧١/٣) .

(٣) انظر : السيوطي : معترك الأقران (٢٦/٣) ، ابن كثير تفسير القرآن العظيم (٤٤٩/١) ، القرطبي : الجامع (١٧١/٣) .

(٤) انظر : القرطبي : الجامع (١٧١/٣) .

(٥) معترك الأقران (٢٦/٣) ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٥٢/٦) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٩/١) .

(٦) فتح الباري (٤٥٢/٦) .

(٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص١٧٠-١٧١) .

(٨) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٩/١) .

(٩) فتح القدير (٢٦٩/١) .

إذاً فورود القرآن الكريم بالتفضيل لا يستلزم جواز التفضيل للبشر، فكيف وقد وردت السنة الصحيحة بالنهي عن ذلك ؟ .

لكن قد يقال تعقيباً على كلام الشوكاني : إن القائل بالتفضيل إجمالاً ، لم يقل محذوراً ، لأنه قائل بمقتضى القرآن، ومن قال بمقتضى كتاب الله قائل بالحق لا بالباطل ، لأن من المتفق عليه أن من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، وعليه فلا يمنع من قال : إن الله قد فضل بعض رسله على بعض ، هكذا بإطلاق ، لأنه ناطق بما نطق به الكتاب العزيز

سادساً : أن النهي عن التفضيل في مثل الحال التي حصلت بين اليهودي وبين المسلم الأنصاري من الخصام ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده فلطم بها وجه ذلك اليهودي ، وقال : أي خبيث ، على محمد – صلى الله عليه وسلم – ؟؟

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من تنشق عنه الأرض ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدري ، أكان فيمن صَعِقَ ، أم حوسب بصعقته الأولى "[1] فقالوا : إنما ورد النهي عن المفاضلة بين الأنبياء في مثل هذه الحال من التخاصم والتشاحن والتشاجر لأنها قد تؤدي إلى تنقص أحد من الأنبياء .

سابعاً : ما ذكره القرطبي واستحسنه فقال : " إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة ، لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف ، والمعجزات المتباينات ، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل ، وإنما تتفاضل بأمور أخر زائدة عليها ، ولذلك منهم رسل أولوا عزم ، ومنهم من اتخذ خليلاً . ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات "[2] ثم قال القرطبي : " وهذا قول حسن ، فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل ، وأعطي من الوسائل ... ومعلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل ، فإن من أرسل فضل على غيره بالرسالة ، واستووا في النبوة ، إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم "[3] ثم نقل القرطبي عن ابن عطية قوله : " إن القرآن يقتضي التفضيل وذلك في الجملة دون تعيين أحد مفضول "[4]

ثامناً : ماذهب إلأيه شارح الطحاوية من أن النهي عن التفضيل إنما هو نهي عن التفضيل الخاص حيث قال : " إن قوله – صلى الله عليه وسلم – : " لا تفضلوني على موسى "[5] ، وقوله : " لا تفضلوا بين الأنبياء "[6] نهى عن التفضيل الخاص ، أي لا يفضل بعض الرسل على بعض بعينه ، بخلاف قوله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر "[7] فإنه تفضيل عام فلا يمنع منه ، وهذا كما لو قيل : فلان أفضل أهل البلد ، لا ينصب على أفرادهم ، بخلاف ما لو قيل لأحدهم : فلان أفضل

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الخصومات (٤٤) باب (١) ح رقم (٢٤١٢) فتح الباري (٥/٧٠) .
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٣/١٧٢،١٧١) .
(٣) نفسه (٣/١٧٢) .
(٤) نفسه .
(٥) شرح الطحاوية .
(٦) شرح العقيدة الطحاوية (١٦٩-١٧٠) .
(٧) شرح العقيدة الطحاوية (١٧٠-١٧١) .

منك "[١] قال : " ثم رأيت الطحاوي - رحمه الله - قد أجاب بهذا الجواب في شرح معاني الآثار "[٢] .

وعليه فلا يجوز إثبات التفضيل إلا على وجه العموم ، وبدون تحديد مفضول بعينه .

تاسعاً : قال الإمام ابن حجر : " إنما نهى عن ذلك (التفضيل) من يقوله برأيه ، لا من يقوله بدليل ،

عاشراً : من يقوله بحيث يؤدي إلى تنقيص المفضول

حادي عشر : يؤدي إلى الخصومة والتنازع

ثاني عشر : المراد لا تفضلوا بجميع أنواع الفضائل بحيث لا يترك للمفضول فضيلة "[٣]

ثالث عشر : وقال أيضاً عن بعض أهل العلم : " الأخبار الواردة في النهي عن التخيير إنما هي في مجادلة أهل الكتاب ، وتفضيل بعض الأنبياء على بعض بالمخايرة ، لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازدراء بالآخر فيفضي إلى الكفر ، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان ، فلا يدخل في النهي "[٤] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (ص١٧١-١٧٢) .

(٢) نفسه .

(٣) فتح الباري (٤٤٦/٦) .

(٤) نفسه .

الفصل الثالث : الوحي وطرقه

المبحث الأول : الـــوحـــي :

١- الوحي في اللغة :

أصـــل الوحي : الإشارة السريعة[١] الخفية[٢] ، " ولتضمن السرعة قيل أمرٌ وَحْيٌ ، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض "[٣] وفي الرمز والتعريض معنى الخفاء .

وأوحيـــت إليه إذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، ويقال : " وحيت إليه الكلام وأوحيت "[٤] وذلك بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة[٥] ، " قال علقمة : قرأت القرآن في سنتين "[٦] فقال الحارث الأعور : " القرآن هيـــن ، الوحي أشد منه ، أراد بالقرآن القراءة، وبالوحي الكتابة والخط ، يقال : وحيت الكتاب وحياً "[٧] لأن اصل مادتها (وحـــي) الثلاثي ، والوارد في القرآن الكريم الفعل الرباعي (أوحى) كما في قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل...)[٨] وقوله تعالى : (بأن ربك أوحى لها)[٩] .

فاللغة الظاهرة في القرآن بالألف (أوحى) وأما في غير القرآن العظيم فوحيت إلى فلان مشهورة أنشد العجاج :

" وحي لها القرار فاستقرتِ "[١٠]

ويطـــلق الوحـــي في اللغة على معان متعددة : فيأتي بمعنى الإلهام الحاصل للإنسان قال أبو اسحاق : " ...ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً "[١١] ومن ذلك قوله تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي...)[١٢] وقوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه...)[١٣] فهذا إلهام# أو اعلام في خفاء قال أبو اسحاق وأصل الوحي في اللغة كلها إعلام في خفاء ويأتي بمعنى الإلهام الحاصل للحيوان ، ومنه قوله تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل...)[١٤] ، وسماه الراغب بالتسخير[١٥] ، فأوحي إلى النحل أي سخره سبحانه .

ويأتي بمعنى الأمر ، كما في قوله تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين...)[٢] على قول ، وكذا في قوله تعالى : (بأن ربك أوحى لها)[١٦] أي أمرها[١٧] .

---

(١) انظر : الراغب الأصفهاني : المفردات (ص٥١٥) .
(٢) انظر : ابن منظور : لسان العرب (٣٧٩/١٥) .
(٣) الراغب : المفردات (ص٥١٥) .
(٤) ابن منظور : اللسان (٣٧٩/١٥) .
(٥) الراغب : المفردات (ص٥١٥) .
(٦) اللسان (٣٨٠/١٥) .
(٧) السابق نفسه .
(٨) سورة النحل الآية (١٦٨) .
(٩) سورة الزلزلة الآية (٥) .
(١٠) ابن منظور : لسان العرب (٣٨١/١٥) وانظر : ابن فارس : معجم مقاييس اللغة (١٣/٦)، والجوهري : الصحاح (٢٠/٥-٢٥) .
(١١) لسان العرب (٣٨١/١٥) .
(١٢) سورة المائدة الآية (١١) . # اظر المفردات (٥١٥) .
(١٣) سورة القصص الآية (٧) .
(١٤) سورة النحل الآية (١٦٨) وانظر اللسان (٣٨٠/١٥) .
(١٥) انظر المفردات (٥١٥) .
(١٦) سورة الزلزلة الآية (٥) .
(١٧) اللسان (٣٨٠/١٥) .

أو هـو تسـخير عـلى قـول الراغب[1] ومنه قوله تعالى : (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق ، واضربوا منهم كل بنان)[2] فهذا أمر أيضاً .

ويأتي كذلك بمعنى أن تكلمه بكلام تخفيه عن غيره قال أبو ذوؤيب :

فقال لها ، وقد أوحت إليه : ألا لله أمـك مـا تعـيـف

وقريب منه قوله تعالى : (يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)[3] يعني يسر بعضهم إلى بعض[4] .

ويأتي – أيضاً – بمعنى الإشارة السريعة على سبيل الرمز والإيماء ، قال تعالى : (فأوحي إليهم أن سبحوا بكرة وعشـيا)[5] ، والمعروف أن زكريا – عليه السلام – أشار إليهم إشارة وحية سريعة ولم يتكلم[6] ، قال الفراء : (فأوحي إليهم) أي : " أشار إليهم "[7] ويأتي الوحي بمعنى الرسالة والبعث ، قال ابن الأعرابي : " وأوحى الرجل إذا بعث برسول ثقة إلى عبد من عبيده ثقة "[8] .

ويأتي – كذلك – بمعنى الإيماء بالجوارح ، قال الشاعر :

نظـرت إليهـا نظرة فتحيرت دقائق فكري في بديع صفاتها

فأوحى إليها الطرف أني أحبها فأثر ذاك الوحي في وجناتها[9]

وقـد عـبر القرآن الكريم بالوحي عن وسواس الشيطان ، وتزيينه خواطر الشر للإنسان[10] ، قال تعالى : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم...)[11] .

ويتضح مما سبق أن كل ما دللت به من كلام ، أو كتابة أو رسالة أو إشارة فهو وحي[12] .

وقـد ذكـر ابن منظور معاني أخر للوحي كأن يأتي الوحي بمعنى النار ، وبمعنى الملِك (بكسر اللام) وبمعنى السيد وغيرها[13] وهي بعيدة عن مقصود البحث .

٢- الوحي في الاصطلاح :

نقـل الآجري بسنده عن ابن شهاب الزهري[14] تعريف الوحي فقال : " الوحي : ما يوحي الله عز وجل إلى النبي من أنبيائه ، فيثبت الله – عز وجل – ما أراد من وحيه في قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – يتكلم به النبي – صلى الله عليه وسلم – ويبينه ، وهو كلام الله عز وجل ووحيه "[15] .

---

(١) المفردات (ص٥١٦) .

(٢) سورة الأنفال الآية (١٢) .

(٣) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(٤) اللسان (١٥/٣٨٠) ، وابن فارس : المعجم (٦/٩٣) .

(٥) سورة مريم الآية (١١) .

(٦) انظـر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، وانظر : د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن (ص٢٤) ط١٠/١٩٧٧م . دار العلم للملايين – بيروت ، المفردات (ص٥١٥) .

(٧) اللسان (١٥/٣٨٠) .

(٨) نفس المصدر ، وانظر : ابن فارس : المعجم (٦/٦٣) .

(٩) انظـر : محمـد رشيد رضا : الوحي المحمدي (ص٤٣) ط٩/١٣٩٩هـ-١٩٧٩م – المكتب الاسلامي ، د. صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن (ص٢٤) .

(١٠) انظر : المفردات (ص٥١٥) .

(١١) سورة الأنعام الآية (١١٢) .

(١٢) انظر : ابن حجر : فتح الباري (١/٩) .

(١٣) انظر : اللسان (١٥/٣٨٢،٣٨١) .

(١٤) أبـو بكر محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زهرة بن كلاب ، القرشي ، المدني ولد سنة (٥٠هـ) توفي سنة (١٢٤ هـ) . انظر : طبقات ابن سعد قسم (٢) (٢/١٣٥) ، وجامع بيان العلم وفضله (١/٧٣-٧٦) ، حلية الأولياء (٣/٣٦٩) .

(١٥) الآجري : الشريعة (٣/١٤٦٣) رقم (٩٨٤) بإسناد حسن . وانظر : د. محمد أبو شهبة : المدخل لدراسة القرآن الكريم (ص٤٨) .

ونقله ابن تيمية بنصه أيضاً عن ابن شهاب[1] . ونقله السيوطي كذلك عند تعريفه الوحي "[2].

وزاد عـليه قـال : " ... ومنه مالايتكلم به ، ولايكتبه لأحد ، ولكنه يحدث به الناس حديثاً ، ويبين لهم أن الله أمره يبينه للناس ، ويبلغهم إياه " [3] .

وهـذا يتـناول الوحـي المتلو ، المتعبد بتلاوته ، وهوا لقرآن العظيم ، ويتناول كذلك الوحي غير المتلو ، وهو الحديث القدسي ، والحديث النبوي .

وقال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ [4].

وقال رسول الله ﷺ :" اكتب فوالذي نفسي بيده ماخرج مني إلا الحق) "[5] .

ولذلك عرفه الإمام ابن حجر تعريفاً شاملاً في كلمتين فقال :" هو : الإعلام بالشرع " . [6]

والشرع هو كل ماأنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ وهو ينتظم الاعتقاد ، والأحكام العملية ، والأخلاق [7] .

وعـلى ذلك فهو ليس مطلق إعلام ، إنما هو إعلام خاص وهو الذي يكون من الله تعالى إلى أنبيائه ورسله ، ومن **هنا كان الوحي في الاصطلاح أخص منه في اللغة من وجهين:**

الأول : المصدر فمصدره هو الله تعالى .

الثاني : الأشخاص الموحي إليهم وهم الأنبياء والمرسلون . [8]

المبحث الثاني : طـرقـه :

للوحي طرق متعددة ، وأضرُب حسبما دل عليه قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم)[9] .

فقـد جمعـت هـذه الآيـة الكريمة طرق الوحي في ثلاثة رئيسية ، وللعلماء فيها تقسيمات فمنهم من يقسمها إلى أربـع[10] ، ومـنهم مـن يجعلها خمساً[11] ، ومنهم من عدها ستة وأربعين نوعاً[12] . على حسب نظرة كل منهم لطريقة التقسيم وكله اجتهاد في تفسير الآية . وقد دلت هذه الآية على أن الطرق :

١- إما (وحياً) . ٢- (أو من وراء حجاب) .

٣- أو إرسال رسول من الملائكة .

- وقولـه : (إلا وحياً) يتناول : الالهام ، والرؤيا الصادقة ، والوحي المنامي الذي يحصل مباشرة من الله تعالى لنبيه في المنام[13] ، بدون وساطة الملك .

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (٣٩٧/١٢) .

(٢) انظر : الاتقان في علوم القرآن (٤٤/١) ، والدر المنثور (٣٦٣/٧) .

(٣) الاتقان (٤٤/١) .

(٤) سورة النجم ، الآيتان (٣ ، ٤) .

(٥) أبو داود في " سننه " (٦٠/٤) رقم (٣٦٤٦) ، وأحمد في المسند (١٦٢/٢ ، ١٩٢) ، والدارمي في " سننه " المقدمة ، باب (٤٣) رقم (٤٩٠) وصححه الالباني ، انظر صحيح الجامع (٣٨٥/١) رقم (١٢٠٧) .

(٦) فتح الباري (٢٩/١) .

(٧) انظـر : عـثمان جمعـة ضميرية : الإسلام وعلاقته بالشرائع الاخرى (ص٣٥) ، التوحيد مفتاح دعوة الرسل (ص٢٥) . المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص ١١٧) .

(٨) انظر : عبد الله عبدالحي أبو بكر : الوحي في الإسلام ، وابطال الشبهات حوله ـ ماجستير ـ أم القرى ١٤٠٥هـ ـ ١٤٠٦هـ (ص٨٤)

(٩) سورة الشورى الآية (٥١) .

(١٠) انظر : سعيد خليفة : النبوة عند ابن تيمية (١١٧-١٣١) .

(١١) انظر : السيوطي : الاتقان (٤٤/١) .

(١٢) انظر: أبو عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي: المنهاج في شعب الإيمان (٢٣٩/١-٢٥٥) وابن حجر : فتح الباري (٢٠/١) . ذكره عن الحليمي .

(١٣) انظر : ابن الجوزي : زاد المسير في علم التفسير (٢٩٧/٧) .

- والذي من وراء حجاب يتضمن كلام الله تعالى للنبي بدون أن يرى شيئاً ، فهو يسمع الصوت فقط كما حصل لموسى - عليه السلام - عندما ناداه ربه بالواد المقدس طوى وكما وقع لنبينا - صلى الله عليه وسلم - ليلة الاسراء وهو معروف .

- والذي يحصل بإرسال الرسول الملائكي ، فهو أن يرسل الله جبريل المكلف بالوحي إلى الأنبياء فيبلغ كلام الله تعالى إليهم ، وقد يأتي الملك إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - مناماً ، وقد يأتيه يقظة في صورته الحقيقية الملائكية أو في صورة بشرية أو يأتيه في مثل صلصلة الجرس.

فهذه الأقسام الرئيسية وما تضمنتها من الأقسام الفرعية ، وقد سماها السيوطي " كيفيات الوحي " وقسمها إلى خمس :

الأولى : " أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس كما في الصحيح "[1] فعن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام[2] - رضي الله عنه - سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال... "[3] واستشهد السيوطي بدليل آخر على هذه الكيفية فقال : " وفي مسند أحمد عن عبدالله بن عمر : سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - : هل تحس بالوحي ؟ فقال : أسمع صلاصل ، ثم اسكت عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض "[4] .

والصلصلة المذكورة صوت الملك بالوحي ، قال الخطابي : " يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد ، وقيل : بل هو صوت حفيف أو خفق أجنحة الملك ، والحكمة في تقدمه أن يقرع سمعه الوحي فلا يبقى فيه مكان لغيره "[5] قال السيوطي : " وفي الصحيح أن هذه الحالة اشد حالات الوحي عليه "[6] وقد مضى التصريح بذلك في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، إذ قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " وهو أشده علي " ويفهم من هذه العبارة أن الوحي كله شديد ، ولكن هذه الصفة أشدها ، وهو واضح ، لأن الفهم من كلام مثل الصلصلة أشكل من الفهم من كلام الرجل بالتخاطب المعهود ، قال ابن حجر : " والحكمة فيه أن العادة جرت بالمناسبة بين القائل والسامع ، وهي هنا : إما بإتصاف السامع بوصف القائل بغلبة الروحانية ، وهو النوع الأول ، وإما بإتصاف القائل بوصف السامع وهو البشرية وهو النوع الثاني ، والأول أشد بلا شك "[7] .

وعلل السيوطي شدة الوحي في هذه الكيفية بكون الوحي يتضمن آية وعيد أو آية تهديد فقال : " إنه كان إنما ينزل هكذا (أي شديداً) إذا نزلت آية وعيد أو تهديد "[8] وهذا الكلام فيه نظر - كما قال ابن حجر - لأن الحديث لم يبين هذه العلة ، ولأن هذه الشدة لا تختص بالقرآن ، فقد حصلت هذه الشدة حالة الوحي بالسنة الشريفة[9] ، ولكن الأقرب إلى الصواب أن فائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات له[10] - صلى الله عليه وسلم - ، والله أعلم

الثانية : " أن ينفث في روعه الكلام نفثاً ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : " إن روح القدس نفث في روعي "[11] ...

---

(١) الاتقان (٤٤/١) ، ومعترك الأقران (٢٦٥/٢) .

(٢) الحارث بن هشام المخزومي ، أخو أبي جهل شقيقه ، أسلم يوم الفتح ، وكان من فضلاء الصحابة واستشهد في فتوح الشام ، انظر ابن حجر : فتح الباري (٩٨/١) .

(٣) البخاري في " صحيحه " كتاب بدء الوحي (١) باب (٢) ح رقم (٢) الفتح (١٨/١) ، ورواه أيضاً في كتاب بدء الخلق (٥٩) باب (٦) ح رقم (٣٢١٥) الفتح (٣٠٤/٦) .

ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢٣) ح رقم (٨٧-٢٣٣٣) صحيح مسلم (١٨١٦/٤) .

(٤) الاتقان (٤٤/١) ومعترك الأقران (٢٦٥/٢)، وانظر : مسند الإمام أحمد (١٥٨،١٦٣،٢٥٧/٦)

(٥) ابن حجر : فتح الباري (٢٠/١) ، والاتقان (٤٤/١) .

(٦) الاتقان (٤٤/١) ومعترك الأقران (٢٦٥/٢) ، وانظر حديث الحارث بن هشام المتقدم .

(٧) فتح الباري (٢٠/١) .

(٨) الأتقان (٤٤/١) ، ومعترك الأقران (٢٦٦/٢) ، ونقله ابن حجر في الفتح (٢٠/١) ولم ينسبه لأحد .

(٩) انظر : الفتح (٢٠/١) .

(١٠) نفسه .

(١١) حديث صحيح بشواهده ، انظر تحقيق الأرنؤوط " زاد المعاد " (٧٧،٧٨/١) .

وهذا قد يرجع إلى الحالة الأولى[١] ، أو التي بعدها بأن يأتيه في إحدى الكيفيتين وينفث في روعه "[٢] .

وهـذه الكيفيـة – كمـا قال السيوطي – قد ترجع إلى الحالة الأولى . **فالأولى :** أن يأتيه الملك في مثل صلصلة الجرس ، فينفث في روعه أثناء هذه الصلصلة .

والثانية : أن يأتيه الملك فينفث في روعه دون صلصلة – والله أعلم – والنفث : هو القذف والالقاء ، فقد وردت رواية الحاكم عن ابن مسعود : " إن جبريل – عليه السلام – ألقى في روعي "[٣] والرُّوع : بضم الراء : القلب والخلد والخاطر[٤] .

الثالـثة : " أن يأتيه في صورة الرجل فيكلمه ، كما في الصحيح : " وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول "[٥] زاد أبو عوانة في صحيحه : وهو أهونه على "[٦] .

الـرابعة : " أن يأتيه الملك في النوم ، وعـد قوم من ذلك سورة الكوثر "[٧] فقد روى مسلم عن أنس – رضي الله عنه – قـال : " بيـنما رسـول الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع راسه متبسماً فقلنا ما أضـحكك يـا رسول الله ؟ فقال : " أنزل عليّ آنفاً سورة " فقرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر) " الحديث[٨] .

واعترض الرافعي[٩] على كون الوحي بسورة الكوثر كان مناماً ، وفضل أن يقال : إن القرآن كله نزل في اليقظة ، ومال إليه السيوطي في الاتقان حيث قال : " قال الامام الرافعي في " أماليه " : فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت فـي تـلك الإغفـاءة ، وقالوا : من الوحي ما كان يأتيه في النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحي ، قال : وهذا صحيح[١٠] ، لكن الأشبه أن يقال : إن القرآن كله نزل في اليقظة ، وكأنه خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة في اليقظة أو عرض عليه الكوثـر الذي وردت فيه السورة ، فقرأها عليهم وفسرها لهم ، قال : وورد في بعض الروايات أنه أغمى عليه ، وقد يحمل ذلـك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ، ويقال لها : برحاء الوحي أ.هـ ، قلت (أي : السيوطي) : الذي قالـه الرافعي في غاية الاتجاه وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه ، والتأويل الأخير أصح من الأول ، لأن قوله : أنزل علي آنفاً يدفع كونها نزلت قبل ذلك ، بل نقول نزلت تلك الحالة ليس الاغفاء اغفاء نوم ، بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي ، فقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا "[١١] .

وما قاله الرافعي واستحسنه السيوطي هو الحق الذي ينبغي أن يصار إليه

الخامسة : أن يكلمه الله إما في اليقظة كما في ليلة الإسراء ، أو في النوم كما في حديث معاذ : " أتاني ربي فقال : فيـم يختصم الملأ الأعلى... " الحديث[١٢] ، وليس في القرآن من هذا النوع شئ فيما أعلم – نعم يمكن أن يعد منه آخر سـورة البقرة ... وبعض سورة الضحى ، وألم نشرح "[١٣] ولم أجد في كلام السيوطي ما استدل به على أن آخر سورة البقرة

---

(١) التي ذكرت أنه يأتيه في مثل صلصلة الجرس .

(٢) الإتقان (٤٤/١) ومعترك الأقران (٢٦٦/٢) .

(٣) الحاكم : المستدرك على الصحيحين (٤/٢) .

(٤) انظـر : الـنووي : شـرح صحيح مسلم (١٥٥/١٧) ط٢/ ١٣٩٢هـ–١٩٧٢م ، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ، وانظر ترتيب القاموس المحيط (٤١٣/٢) ، واللسان (١٣٧/٨) .

(٥) هو بقية الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عائشة عن الحارث بن هشام – رضي الله عنهما – سبق تخريجه .

(٦) الاتقان (٤٤/١) وذكر زيادة أبي عوانة ابنُ حجر في فتح الباري (٢١/١) ، وانظر : معترك الأقران (٢٦٦/٢) .

(٧) الاتقان (٤٤/١) ، ومعترك الأقران (٢٦٦/٢) .

(٨) رواه مسلم في " صحيحه " (٣٠٠/١) كتاب الصلاة (٤) باب (١٤) ح رقم (٥٣–٤٠٠) .

(٩) هـو : عـبدالكريم بن محمد بن عبدالكريم ، أبو القاسم ، الرافعي ، القزويني . انظر : فوات الوفيات (٣/٢) مفتاح السعادة (٤٤٣/١) ، طبقات الشافعية (١١٩/٥) ، وكشف الظنون (٢٠٥) والاعلام (٥٥/٤) .

(١٠) أي كون رؤيا الأنبياء وحياً ، فقد ورد هذا في صحيح البخاري عن عبيد بن عمير انظر فتح الباري (١٦٨/٤) .

(١١) الاتقان (٢٣/١) ، ومعترك الأقران (/٢٦٦) .

(١٢) سبق تخريجه في فصل توحيد الأسماء والصفات في (صفة الصورة) .

(١٣) الاتقان (٤٥/١) ، ومعترك الأقران (٢٦٧/٢) .

مــن ذلك ولكن استدل على كون بعض سورة الضحى وألم نشرح قد أوحيت في النوم فقال : " فقد أخرج ابن أبي حاتم من حديــث عــدي بن ثابت قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته قلت أي ربِ : اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً فقال يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويت ، وضالاً فهديت ، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ورفعت لك ذكرك فلا أُذكر إلا ذُكِرت معي "[١] وهذا ليس فيه دليل على أن الوحي كان مناماً .

قـــال السيوطي : " وقد اجتمع أنواع الوحي في قوله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب...) الآية[٢] ، وكلها اجتمعت في نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – .

---

(١) الدر المنثور (٥٤٤/٨) ، الاتقان (٤٥/١) ، ابن جرير (١٥٠/٣٠-١٥١) .

(٢) سورة الشورى الآية (٥١) .

الفصل الرابع : طرق إثبات النبوة

المبحث الأول : أهل السنة يثبتون النبوة بطرق كثيرة

يرى أهل السنة والجماعة أن طرق التثبت من صحة النبوة ، ومعرفة صدق مدعيها ، كثيرة ومتعددة، ولا يقتصر على طريق واحدة . " إن طرق العلم بالرسالة كثيرة جداً ومتنوعة ، ونحن ... إذا علمنا بالتواتر أحوال الأنبياء ، وأوليائهم ، وأعدائهم ، علمنا علماً يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة "[١] وقد ذكر الحليمي عن بعض أهل العلم أن أعـلام نبوة محمد – صلى الله عليه وسلم – تبلغ ألـفـاً[٢] . فإن " كل شخصين ادعيا أمراً من الأمور أحدهما صادق في دعـواه والآخـر كـاذب فلا بد أن يبين صدق هذا ، وكذب هذا من وجوه كثيرة إذ الصدق مستلزم للبر ، والكذب مستلزم للفجور "[٣] .

من هذه الطرق على سبيل المثال لا الحصر :

– الـنظر في أحوال الأنبياء وما حصل لهم من بدايات الوحي وأوائل النبوة ، كما استدل بذلك ورقة بن نوفل ، حينما سمع مـن النـبي – صلى الله عليه وسلم – ما حصل له في غار حراء ، وكما استدلت به السيدة الجليلة أم المؤمنين خديجة – رضي الله عنها – وكذلك هرقل ، على صدق نبوة الرسول – صلى الله عليه وسلم – حتى استبان لهم بهذا المسلك أن الذي أنزل عليه هو وحي من الله تعالى كالذي حصل لموسى – عليه السلام –[٤] .

– ومـنها : النظر فيما يظهر من أحوال صفاتهم وأخلاقهم وشمائلهم سواء كانت قبل البعثة أم بعدها وكلها تدل على عظيم صـدقهم وكمـال عقولهـم ، وصفاء سلوكهم ، حتى كانت أخلاقهم مضرب المثل في العلم والحلم والرفق والأناة ، مع ما امتازوا به وفاقوا البشر فيه من المدارك العقلية والمواهب الروحية ، التي تعتبر دلائل واضحة على صدق نبوتهم .

– ومنها : أن يكونوا من أشرف الناس نسباً ، ورفعة ، وأن يكونوا ذوي مكانة في أقوامهم[٥] .

– ومنها : الآيات المعجزة ، والبراهين الواضحة التي وقعت مصدقة لهم ، مؤيدة لدعواهم .

– ومنها : تبشير الكتب السابقة بمجيئهم واخبارهم عن أوصافهم ونعوتهم .

– ومنها : شهادات الخصوم والأعداء بصدقهم والاعتراف بفضلهم .

وغيرها كثير لمن أمعن النظر في دلائل صدق الأنبياء ، وصحة دعواهم[٦] .

قـال ابن تيمية : " وسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من آياته ، وأخلاقه وأقواله وأفعاله ، وشريعته من آياتـه ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالح أمته من آياته ، وذلك يظهر بتدبر سيرته من حين ولـد إلى أن بعـث ، ومن حين بعث إلى أن مات ، وتدبر نسبه وبلده ، وأصله وفصله ، فإنه كان من أشرف أهل الأرض نسـباً ... وكان من أكمل الناس تربية ونشأة ، لم يزل معروفاً بالصدق والبر والعدل ، ومكارم الأخلاق ، وترك الفواحش والظلم ، وكل وصف مذموم ، مشهوداً له بذلك عند جميع من يعرفه قبل النبوة وممن آمن به ، وكفر بعد النبوة ، لا يعرف بشئ يعاب به ، لا في أقواله ، ولا في أفعاله ولا في أخلاقه ، ولا جُرب عليه كذبةٌ قط ، ولا ظلمٌ ولا فاحشةٌ ، وكان خلقه وصـورته من أكمل الصور وأتمها ، وأجمعها للمحاسن الدالة على كماله ، وكان أمياً من قوم أميين ، لا يعرف لا هو ولا هـم ما يعرفه أهل الكتاب من التوراة والانجيل ولم يقرأ شيئاً من علوم الناس ، ولا جالس أهلها ، ولم يدع نبوة إلى أن اكمل الله له أربعين سنة ، فأتى بأمر وهو أعجب الأمور وأعظمها ، وبكلام لم يسمع الأولون والآخرون بنظيره ، وأخبرنا بأمر لم

---

(١) ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية (ص١٠٤) .

(٢) انظر : المنهاج في شعب الايمان (١/٢٦٣) .

(٣) ابن تيمية : شرح الأصفهانية (ص٨٩) .

(٤) انظر : سعيد خليفة : النبوة عند ابن تيمية (ص٢١١) .

(٥) انظر : ابن خلدون : المقدمة (١/٤٠١) ت. د. علي عبدالواحد وافي .

(٦) للتوسع في هذه الطرق انظر : سعيد خليفة : النبوة عند ابن تيمية (ص٢١٠-٢٩٢) .

يكن في بلده وقومه من يعرف مثله ، ولم يعرف قبله ولا بعده لا في مصر من الأمصار ، ولا في عصر من الأعصار من أتى بمثل ما أتى به ، ولا من ظهر كظهوره ، ولامن أتى من العجائب والآيات بمثل ما أتى به ، ولا من دعا إلى شريعة أكمل من شريعته ، ولا من ظهر دين على الأديان كلها بالعلم والحجة ، وباليد والقوة كظهوره "[١] .

المبحث الثاني : طرق اثبات النبوة عند السيوطي

وأما السيوطي فقد ذكر من طرق إثبات النبوة ثلاثة أنواع :

١- أخبار الكتب السابقة . ٢- شهادة الخصوم . ٣- المعجزات .

أولاً - أخبار الكتب السابقة :

ألمح إليه السيوطي إلماحة سريعة في معترك الأقران عندما تكلم عن قوله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) الآية[٢] ، قال : " أي كلفوا العمل بها ، والقيام بأوامرها ونواهيها ، فلما لم يطيقوا أمرها ، ولم يعملوا بها ، شبههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار على ظهره ، ولا يدري ما فيها ، وهم أيضاً حملوا التوراة ولم يحملوها ، لأنها تنطق بنبوءة نبينا ومولانا محمد - صلى الله عليه وسلم - فمن قرأها ولم يؤمن به فقد خالف التوراة "[٣] وقرر ذلك - أيضاً - الايجي " في المواقف " حيث قال : " المسلك الثالث (في إثبات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -) : اخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته - عليه السلام - في التوراة والانجيل "[٤] .

وكذلك أبو بكر البيهقي في " الاعتقاد والهداية " فقال : " فمن دلائل نبوته التي استدل بها أهل الكتاب على صحة نبوته ، ما وجدوا في التوراة والانجيل وسائر كتب الله المنزلة من ذكره ونعته وخروجه بأرض العرب ، وإن كان كثير منهم قد حرفوها عن مواضعها "[٥] .

وقال ابن تيمية : " وأيضاً فقد علم أن العالم ما زال فيه نبوة من آدم - عليه السلام - إلى سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فالنبي الثاني يعلم صدقه بأمور منها اخبار النبي الأول به كما بشر بنبينا محمد - عليه أفضل الصلاة ، وأكمل السلام - الأنبياء قبله ، وكذلك بشر بالمسيح الأنبياء قبله "[٦] .

وهذا الأمر يكاد يكون مجمعاً عليه بين علماء المسلمين ، ولكنني لم أر السيوطي أورد نصوصاً من التوراة تنطق بنبوة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولكنني أنقل شيئاً مما اتفق العلماء على نقله .

روى البخاري عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص - رض الله عنهما - قلت : أخبرني عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في التوراة ، قال : " أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً[٧] للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب[٨] في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة[٩] ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء[١٠] ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويُفتَح بها أعينٌ عميٌ ، وآذانٌ صم ، وقلوبٌ غلف "[١١] قال البخاري : "

---

(١) ابن تيمية : دقائق التفسير (١٥٩/١) ت. الجليند ط٢/١٤٠٤هـ .

(٢) سورة الجمعة الآية (٥) .

(٣) معترك الأقران (٤٥٠/٢) .

(٤) (ص٣٥٧) .

(٥) (ص١٦٩) ت. كمال يوسف الحوت .

(٦) شرح العقيدة الأصفهانية (ص١) .

(٧) الحِرز بكسر الحاء : الحافظ ، وأصل الحرز الموضع الحصين ، ابن حجر : الفتح (٣٤٣/٤) .

(٨) السخب : رفع الصوت بالخصام ، ويقال : الصخب ، ابن حجر : الفتح (٣٤٣/٤) .

(٩) قال ابن حجر : " زاد في رواية كعب : مولده بمكة ومهاجره طيبة وملكه بالشام " انظر الفتح (٥٨٦/٨) .

(١٠) أي ملة العرب ، ووصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام ، والمراد بإقامتها أن يخرج أهلها من الكفر إلى الايمان . ابن حجر : الفتح (٣٤٣/٤) .

(١١) البخاري في " صحيحه " كتاب البيوع (٣٤) باب (٥٠) ح رقم (٢١٢٥) الفتح (٣٤٢/٤) .

تابعه عبدالعزيز بن أبي سلمة عن هلال[١] عن عطاء[٢] عن ابن سلام[٣] "[٤] .

قال ابن حجر : " ومما جاء عنه (أي عبدالله بن سلام) في ذلك مجملاً ، ما أخرجه الترمذي من طريق محمد بن يوسف بن عبدالله بن سلام عن أبيه عن جده قال : " مكتوب في التوراة صفة محمد – صلى الله عليه وسلم – وعيسى بن مريم يدفن معه "[٥] .

وما رواه البخاري ، قد رواه أيضاً ابن جرير الطبري وفي آخره قال : " قال عطاء (ابن يسار) : ثم لقيت كعباً (أي كعب الأحبار) فسالته عن ذلك فما اختلفا حرفاً إلا أن كعباً قال بلغته : قال : قلوباً غلوفياً ، وآذاناً صمومياً ، وأعيناً عمومياً "[٦] .

وروى الامام احمد بسنده عن أبي صخر العقيلي قال : حدثني رجل من الأعراب قال : جلبت جلوبة إلى المدينة في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – فلما فرغت من بيعتي قلت : لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم في أقفائهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها ، يعزي بها نفسه على ابن له في الموت كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أنشدك بالذي أنزل التوراة ، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي ؟؟ فقال براسه هكذا ، أي : لا ، فقال : ابنه : إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني اشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : اقيموا اليهودي عن أخيكم ، ثم وَلِي كفنه والصلاة عليه "[٧] وروى الحاكم بسنده عن هشام بن العاص الأموي قال : بعثت أنا ورجل آخر إلى هرقل صاحب الروم ندعوه إلى الاسلام ، فخرجنا حتى قدمنا الغوطة – يعني غوطة دمشق – فنزلنا على جبلة بن الأيهم الغساني... " الحديث ، وفيه : أن جبلة هذا أرسلهم مع رسول له إلى الملك الأعظم (هرقل) فلما دخلوا عليه قالوا : (لا إله إلا الله والله أكبر) ثم تقابلوا معه فسألهم ثم صرفهم عن مجلسه حتى كان الليل فأرسل إليهم ثم دعا بشئ كهيئة الربعة العظيمة مذهبة فيها بيوت صغار عليها أبواب ففتح بيتاً فاستخرج حريرة سوداء فنشرها ، فإذا فيها صورة حمراء ، وإذا فيها رجل ضخم العينين ، عظيم الأليتين ، لم أر مثل طول عنقه ، وإذا ليست له لحية ، وإذا له ضفيرتان أحسن ما خلق الله ، قال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : لا ، قال : هذا آدم – عليه السلام – وإذ هو اكثر الناس شعراً ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء فإذا فيها صورة نوح – عليه السلام – ، ثم فتح باباً آخر فاستخرج منه حريرة سوداء، وإذا فيها صورة إبراهيم – عليه السلام –، ثم فتح باباً آخر ، فإذا فيه صورة بيضاء وإذا والله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : أتعرفون هذا ؟ قلنا : نعم ، محمد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : وبكينا ، قال : والله يعلم أنه قام قائماً ثم جلس ، وقال والله إنه لهو ؟ قلنا : نعم ، إنه لهو ، كأنك تنظر إليه فأمسك ساعة ينظر إليها ، ثم قال : أما إنه كان آخر البيوت ، ولكني عجَّلتُه لكم لأنظر ما عندكم... "[٨] الحديث ، وفيه : كلما فتح باباً أخرج صورة نبي من الأنبياء كما تقدم .

فهذه من النبوءات التي نقلت عن طريق علماء المسلمين ، أما التوراة التي بين أيدي اليهود الآن فقد ورد فيها ما يدل على صفة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وهي بشارات كثيرة منها :

---

(١) هو هلال بن علي ، ويقال له : هلال ابن أبي هلال . الفتح (٣٤٣/٤) .

(٢) هو عطاء بن يسار ، انظر سند الحديث السابق في صحيح البخاري . ح رقم (٢١٢٥) .

(٣) هو : عبدالله بن سلام ، وكان من علماء أهل الكتاب – فأسلم وحسن اسلامه ، فهو صحابي جليل .

(٤) البخاري في " صحيحه " انظر الفتح (٣٤٣/٤) ، (٥٨٥/٨) .

(٥) فتح الباري (٣٤٣/٤) .

(٦) جامع البيان في تأويل آي القرآن (٨٣/٩) .

ورواه البيهقي كذلك في " الاعتقاد " (ص/١٦٩) . وابن كثير في " تفسيره " (٤٨٤/٣) .

(٧) مسند أحمد (٤١١/٥) وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٨١/٣) ، وقال ابن كثير : " هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح من حديث أنس " . انظر التفسير (٤٨١/٣) .

(٨) ابن كثير : تفسر القرآن العظيم (٤٨١/٣-٤٨٤) ، ثم قال ابن كثير : " هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي – رحمه الله – في كتاب دلائل النبوة ، عن الحاكم إجازه ، فذكره واسناده لا بأس به " .

١- " و أما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره واكثره كثيراً جداً ، اثنى عشر رئيساً يلد ، واجعله أمة كبيرة "[١] .
والترجمة الصحيحة للنص العبراني هكذا : " وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا اباركه وأثمره واكثره بمأذمأذ " .
ومعناه الصريح باللفظ العربي : " واكثره بمحمد "[٢] .
٢- وورد فيها أيضاً أن اسماعيل – عليه السلام – كانت سكناه بلاد الحجاز :
" وسكنوا من حويله إلى شور التي أمام مصر "[٣] لأن حويلة من أولاد يقطان ، وأولاد يقطان بجهة اليمن ، والحجاز بين اليمن وأشور التي أمام مصر[٤] .
وفي كتاب " تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب " قال مؤلفه[٥] : " إن جبال فاران هي مكة وأرض الحجاز لأن فاران اسم رجل من ملوك العمالقة الذين اقتسموا الأرض ، فكان الحجاز لفاران فتسمى القطر باسمه "[٦] .
ونص التوراة يقول : " وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله ، بني اسرائيل قبل موته ، فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من ساعير ، وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم "[٧]
وبتفسير هنا النص نجد أن سيناء تشير إلى المكان الذي كان فيه موسى[٨] ، وأما ساعير ، فهي أرض فلسطين التي سكنها عيسو أخو يعقوب أي أخو اسرائيل[٩] أما أرض فاران فقد ورد نص يبين موضعها :
" سمع الله صوت الغلام[١٠] ، ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : ما لك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء ، فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام ، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية ، وكان ينمو رامى قوس وسكن في برية فاران... "[١١] .
والنص العبراني هكذا : " يا هاجر قومي سي هاعر وهاجر يقي اث نادح يولى لفي دل اتمى مايو " وترجمته الحقيقية : قومي احملي هذا الطفل واحتفظي به فإن منه محمداً ، وذريته كنجوم السماء[١٢] .
إذاً فقول موسى – عليه السلام – : " وتلألأ من جبل فاران " إنما هو تحديد لموضع ظهور النبي الخاتم محمد – صلى الله عليه وسلم –[١٣].
٣- وورد في التوراة أيضاً : " الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران سلاه ، جلاله غطى السموات والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور له من يده وشعاع ، وهناك استتار قدرته ، قدامه ذهب الوباء وعند رجليه خرجت الحمى ، وقف وقاس الأرض ، نظر فرجف الأمم ، ودكت الجبال الدهرية وخسفت آكام القدم "[١٤] .

---

(١) سفر التكوين ، الاصحاح (١٧) ، عدد (٢٠) .
(٢) محمد عزت اسماعيل الطهطاوي : محمد نبي الاسلام في التوراة والانجيل والقرآن (ص١٥) مطبعة التقدم – القاهرة .
(٣) تكوين اصحاح (٢٥) عدد (١٨) .
(٤) محمد عزت اسماعيل الطهطاوي : محمد نبي الاسلام في التوراة والانجيل والقرآن (ص١٦) .
(٥) هو الشيخ عبدالله الترجمان ، كان نصرانياً ثم أسلم . انظر : المصدر السابق (ص١٧) .
(٦) نقلاً عن كتاب : محمد نبي الاسلام في التوراة والانجيل والقرآن (ص١٧) .
(٧) سفر التثنية ، الاصحاح (٣٣) عدد (١،٢) .
(٨) سفر الخروج (٢٤ : ١٦-١٨) .
(٩) سفر التكوين (٣٦ :٨) ، وانظر : مناظرة بين الاسلام والنصرانية من مطبوعات الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد (ص٢٢١) . ط٢/١٤١٢هـ – مكتبة ابن خزيمة – الرياض .
(١٠) أي إسماعيل – عليه السلام – .
(١١) سفر التكوين ، الصحاح (٢١) عدد (١٧-١٩) .
(١٢) محمد نبي الاسلام في التوراة والانجيل (ص١٩) .
(١٣) انظر : مناظرة بين الاسلام والنصرانية (ص٢٢٤) الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، ابن تيمية : الجواب الصحيح (٣/٣٠٠-٣٠٢) .
(١٤) سفر حبقوق – اصحاح (٣) عدد (٣،٤) . وانظر : المناظرة (٢٢٥) .

والترجمة الصحيحة للنص العبري : " الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران سلاه جلاله غطى السموات ، وامتلأت الأرض من تحميد أحمد وملك بيمينه رقاب الأمم... "[١] .

أما النسخة المطبوعة في لندن قديماً سنة ١٨٤٨م ، والأخرى المطبوعة في بيروت سنة ١٨٨٤م فالنص فيها هكذا " القـــدوس من جبل فاران ، لقد أضاءت السماء من بهاء محمد ، وامتلأت الأرض من حمده "[٢] إلى أن قال : " زجرك في الأنهار واحتدام صوتك في البحار يا محمد ادنو لقد رأتك الجبال فارتاعت "[٢] .

فإنه سمي في هذا النص محمداً – صلى الله عليه وسلم – مرتين ، باسمه الصريح ، ووصفه بمقاتله أهل الأرض ، وأنه من جبل فاران ، كما وصفه بالجهاد براً وبحراً حتى خضعت له الأمم[٣] . والبشارات بنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – كثيرة اكتفيت منها بما سبق وهو دال على المطلوب إن شاء الله .

ثانياً – شهادة الخصوم :

نبه عليها السوطي عند كلامه على قوله تعالى : (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ وقالت النصارى ليست اليهود على شئ...) الآية[٤] .

قال : (سببها اجتماع نصارى نجران مع يهود المدينة فذمت كل طائفة الأخرى ، وهذا أيضاً منهم موجود في هذا الزمان ، فإن كل طائفة منهم مقرة بأن الاسلام خير من دين الفريق الآخر "[٥] .

ومـــا ذكره السيوطي في سبب نزول الآية رواه ابن جرير عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال رافع بـــن حريملة : ما أنتم على شئ وكفر بعيسى بن مريم وبالإنجيل ، فقال رجل من أهل نجران من النصارى : ما أنت على شئ وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما : (وقالت اليهود ليست النصارى على شئ ، وقالت النصارى ليست اليهود على شئ) إلى قوله: (فيما كانوا يختلفون) "[٦].

إن خصـــوم الرســـول – صـــلى الله عليه وسلم – وأعداءه قد شهدوا بصدقه وأمانته ، حتى إنهم كانوا ليسمونه " الصـــادق الأميـــن ، لقد وقف النضر بن الحارث أمام سادة قريش حينما وقفوا ضد دعوة النبي – صلى الله عليه وسلم – وكذبـــوه فقـــال لهم : " يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعُقَدهم[٧] ، وقلتم كاهن لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة وتخالجهم ، وســـمعنا ســـجعهم ، وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها : هزجه ورجزه ، وقلتم مجـــنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ، يا معشر قريش فانظروا في شـــأنكم ، فإنـــه والله لقد نزل بكم أمر عظيم "[٨] هذا على الرغم من أن النضر بن الحارث هذا كان من شياطين قريش ، وممن كان يؤذي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وينصب له العداوة[٩] .

قال ابن تيمية : " وقد ذكرنا أن قومه المعادين له غاية العداوة مازالوا معترفين بصدقه – صلى الله عليه وسلم –

---

(١) محمد نبي الاسلام (ص٣٩) .

(٢) نفسه .

(٣) انظر : نفسه .

(٤) سورة البقرة الآية (١١٣) .

(٥) معترك الأقران (١٣٨/٣) .

(٦) جامع البيان (٤٩٥/١) ، وابن كثير (٢٢٣/١) .

(٧) العقد ، بفتح وسكون ، أو بضم ففتح جمع عُقْدة ، وهي التي يعقدها الساحر في الخيط ينفخ فيها بشئ يقوله بلا ريق أو معه .

(٨) سيرة ابن هشام (٢٩٩/١-٣٠٠) ، وانظر : ابن تيمية : الجواب الصحيح (٤٩/٤) .

(٩) انظر : سيرة ابن هشام (٣٠٠/١) ، والجواب الصحيح (٥٠/٤) .

وأنهم لم يجربوا عليه كذباً ، بل ومعترفين بأن ما يقوله ليس بشعر ولا كهانة ، وأنه ليس بساحر "[١] .

روى ابـن اسحاق أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسـول الله – صـلى الله عليه وسلم – وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكـان صـاحبه ، فـباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثـم انصـرفوا ، حتى إذا كان الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهـم الطـريق ، فقـال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود : فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخـنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت مـن محمد[٢]؟ فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك ، قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته ، فقـال يـا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعتُ ، تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف ، أطعموا فأطعمـنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذينا[٣] على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه قال : فقام عنه الأخنس وتركه "[٤] .

وشـهادة أخرى من أبي سفيان عندما سافر إلى الشام ودعاه هرقل ملك الروم وسأله عن أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان فيما سأله أن قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، وذكر باقي الحديث[٥] .

ومـن هـذه الشهادات أيضاً ما رواه أنس قال : " جاء عبدالله بن سلام إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – مقدمه المدينة ، فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أمه تارة ، وإلى أبيه تارة ؟ قال : " أخبرني جبريل آنفاً " قال عبدالله : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، " أما أول أشراط الساعة ، فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه " فقال : أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله ، قال : يا رسول الله إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهـتوني عندك ، فجاءت اليهود ، فقال لهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أي رجل عبدالله فيكم " ؟ قالوا : خيرنا وابـن خيـرنا ، وسـيدنا وابن سيدنا وعالمنا وابن عالمنا ، قال : " أرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ " قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخـرج إليهم عبدالله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وتنقصوه ، قال : فهذا ما كنت أخاف وأحذره "[٦] .

وعـن ثوبان قال : كنت قائماً عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فجاء حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها ، فقال : لم تدفعني ؟ قال : قلت : ألا تقول ، يا رسول الله ؟ قال : إنما سميته

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤١/٤) .

(٢) – صلى الله عليه وسلم – .

(٣) " الجـاذي كالجاثي وقال ثعلب : الجذوّ على أطراف الأصابع ، والجثوّ على الرُكَب ، وقال ابن الاعرابي : الجاذي على قدميه ، والجاثي على ركبتيه ، وأما الفراء فجعلهما واحداً " لسان العرب (١٣٦،١٣٧/١٤) مادة (جذا) .

(٤) سيرة ابن هشام (٣١٥،٣١٦/١) .

(٥) جـزء مـن حديث طويل في صحيح البخاري ح رقم (٧) الفتح (٣١/١) ، ورقم (٢٩٤١) الفتح (١٠٩/٦) ، ورقم (٤٥٥٣) الفتح (٢١٤/٨) ، وصحيح مسلم (١٣٩٣/٣) ح رقم (١٧٧٣) ، وأحمد في " المسند " (٢٦٢،٢٦٣/١) .

(٦) صحيح البخاري ح رقم (٣٣٢٩) الفتح (٣٦٢/٦) ، ورقم (٣٩١١) الفتح (٢٤٩/٧) ، ورقم (٤٤٨٠) الفتح (١٦٥/٨) ، ورقم (٣٩٣٨) الفتح (٧/ ٢٧٢) ، وروى بعضـه تعليقاً – انظر الفتح (٤١٥/١١) . ورواه مسلم في صحيحه (٢٥٢/١) رقم (٣١٥) ، ورواه أحمد في " المسند " (٣/ ١٠٨،١٨٩،٢١٧) .

باســـمه الـــذي ســـماه به أهله ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: " إن اسمي الذي سماني به أهلي محمد " ، فقال اليهـــودي : جئت اسألك ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم - : " ينفعك شئ إن حدثتك " ؟ قال : أسمع بأذني ، فنكت بعود معه ، فقال : " سل " فقال اليهودي : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله – صلى الله عـــليه وســـلم – : " في الظلمة دون الجسر " ، قال : فمن أول الناس اجازة ؟ قال : " فقراء المهاجرين " فقال اليهودي فيما تحفتهم حين يدخلون ؟ قال : " زيادة كبد نون " ، قال : وما غذاؤهم على أثره ؟ قال : ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها " قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : " من عين فيها تسمى سلسبيلاً " ، قال : صدقت ، قال : وجئت اسألك عن شئ لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان ، قال : " ينفعك إن حدثتك " ؟ قال : أسمع بأذني ، قال : جئت اسألك عن الولد ، قال : " ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مَنيُّ الرجل مَنيَّ المرأة ، أذكراً بإذن الله ، وإذا علا مني المرأة مني الرجل ، آنثا بإذن الله " فقال اليهودي : صدقت ، وإنك لنبي ، ثم انصرف ، فقال النبي – صـــلى الله عـــليه وسلم – سألني هذا عن الذي سألني عنه وما أعلم شيئاً منه ، حتى أتاني الله به "[١] وإذا كنت قد أثبت شيئاً مما ورد عن الأقدمين من شهادات واعترافات بصدق الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – فلا مانع أيضاً أن أدون هنا بعض ما قاله خصوم الإسلام ، وخصوم محمد – عليه الصلاة والسلام – في العصر الحديث ، والذي يؤكد على صحة الإســـلام واســـتقامة تعاليمه ، وأنه بالقطع دين من عند الله العلي الأعلى جل وعلا وتقدس ، وذلك لكي اكمل ما ألمح إليه السيوطي في قوله : " وهذا أيضاً منهم موجود في هذا الزمان ، فإن كل طائفة منهم مقرة بأن الإسلام خير من دين الفريق الآخـــر "[٢] ولا ريب أن السيوطي كان يتحدث عن زمانه هو الذي عاش فيه ، وبالقطع قد سمع أو اطلع على ما كُتب في هذا الشأن مما يشهد شهادة قاطعة على أن الاسلام دين الله الحق الذي ارتضاه للبرية في آخر الزمان .

أمـــا وإنـــه قـــد أقر خصوم الإسلام في زماننا هذا – وهو القرن الخامس عشر الهجري – بحقية الاسلام وصدق رسوله ، فهي شهادات أشد دلالة ، وأعمق أثراً نظراً لبعدها الكبير عن زمان ظهور النبي – صلى الله عليه وسلم – وإنمـــا انـــتزعوا هذه الدلالات والآيات الشاهدة بالصدق والحق من نصوص القرآن الكريم ، والسنة الشريفة التي أخبر بها القرآن في قوله تعالى : (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد)[٣] .

قال د. موريس بوكاي[٤] : " لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم ، وذلك دون أي فكر مسبق ، و بموضوعية تامة ، باحـــثاً عن درجة إتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف قبل هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمات ، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتي كانت وجيزة ، وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي اســـتطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على آية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث "[٥] .

وقـــال أيضاً : " كيف يمكن لإنسان كان في بداية أمره أمياً[٦]،... أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في

---

(١) رواه مسلم في " صحيحه " (٢٥٢/١) رقم (٣١٥) . وانظر : الجواب الصحيح (٥٩/٤-٦٠) .

(٢) معترك الأقران (١٣٨/٣) .

(٣) سورة فصلت الآية (٥٣) .

(٤) د. موريس بوكاي (Maurice Bucaille) الطبيب والعالم الفرنسي ، كان كتابه : " القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم " من أكثر المؤلفات الـــتي عـــالجت موضوعاً كهذا ، أصالة واستيعاباً وعمقاً ، ويبدو أن عمله في هذا الكتاب القيم منحه قناعات مطلقة بصدق كتاب الله ، وبالتالي صـــدق الدين الذي جاء به ، دعا أكثر من مرة لحضور ملتقى الفكر الاسلامي الذي ينعقد في الجزائر صيف كل عام ، وهناك أتيح له أن يطلع أكثر على الاسلام فكراً وحياةً . نقلت هذا من كتاب للدكتور عماد الدين خليل بعنوان : " قالوا عن الاسلام " من منشورات الندوة العالمية للشباب الاسلامي بالرياض – ط١٤١٢/١هـ–١٩٩٢م – المملكة العربية السعودية .

(٥) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم (ص١٣) ، وانظر : عماد الدين خليل : قالوا عن الاسلام (ص٥٦) .

(٦) كـــان رســـول الله – صلى الله عليه وسلم – في بداية أمره أمياً ، وظل بقية حياته كلها أمياً – بمعنى أنه لا يقرأ ولا يكتب – حتى آخر يوم من أيامه ، رغم ما أكرمه الله تعالى به من علم إلهي فاق به علوم الأولين والآخرين .

مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها ، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة "[١] .

وقالت الباحثة ستشيجفسكا[٢] : " إن القرآن الكريم مع أنه أنزل على رجل عربي أمي نشأ في أمة أمية فقد جاء بقوانين لا يمكن أن يتعلمها الإنسان إلا في أرقي الجامعات ، كما نجد في القرآن حقائق علمية لم يعرفها العالم إلا بعد قرون طويلة "[٣] .

إن هذه الباحثة قد لحظت من القرآن جانبه التشريعي الدقيق ، الذي يملأ جوانح النفس إعظاماً لصاحب هذا التشريع العادل المحكم ، كما لحظ " بوكاي " – من قبل – دقة آيات الذكر الحكيم في تقرير النظريات العلمية التي توصل إليها مؤخراً العلم الحديث في بحثه الدءوب .

إن الانسان ليدهش وهو يطالع كتاب الله العزيز ويتأمل آياته البينات ، وكذلك السنة النبوية الصحيحة التي تشع سطورهما بالنور والضياء ، ولا تزال تكشف لكل باحث مستنير ، متحرر الفكر والضمير من مخلفات الوثنيات القديمة والحديثة ، عن الحقائق العلمية الدقيقة التي أخبر عنها الوحي (القرآن والسنة) وهما المعجزة الخالدة الكبرى لهذا النبي الأمي الكريم الأمين محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وسلم – (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد)[٤] .

٣- المعجزات :

جمع " مُعْجِزَة " وهي اسم فاعل من " أَعْجَزَ " ، قال الليث : " أعجزني فلان ، إذا عجزتُ عن طلبه وإدراكه "[٥] .

ومصدره : " العَجْز " الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشئ من عمل أو رأي أو تدبير[٦] .

والتعجيز : التثبيط ، ومُعْجِزَة النبي – صلى الله عليه وسلم – ما أَعْجَزَ به الخصم عند التحدي ، والهاء للمبالغة[٧]

هذا هو معنى " المعجزة " في اللغة ، أما حدها في الاصطلاح فقد وردت عن العلماء عدة تعريفات ، أجمعها ما ذكره الشريف الجرجاني ، قال : " هي : أمر خارق للعادة ، داعية للخير والسعادة مقرونة بدعوى النبوة ، قصد به إظهار صدق من أدعى أنه رسول من الله "[٨] .

وقريب منه ما ذكره التفتازاني ، قال : " هي : أمر يظهر بخلاف العادة على يدي مدعي النبوة عند تحدي المنكرين ، على وجه يعجز المنكرين عن الاتيان بمثله "[٩] .

ولم يبعد من هذين التعريفين تعريف السيوطي للمعجزة ، وقد عرفها في موضعين فقال : " حد المعجزة : فعل ناقض للعادة في زمان التكليف ظهر على يد متحد بالنبوة "[١٠] .

وقال في الموضع الثاني : " والمعجزة المؤيد بها الرسل : أمر خارق للعادة ، بأن يظهر على خلافها ، كإحياء

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم (ص١٥٠) .

(٢) هي : يوجينا غيانة ستشجفسكا ، باحثة بولونية معاصرة ، درست الاسلام في الأزهر على يد أساتذة ومشرفين متخصصين زهاء خمس سنوات (١٩٦١م-١٩٦٥م) تمكنت خلالها من اللغة العربية كذلك ، وكانت قد أنهت دراستها العليا في كلية الحقوق ، وفي معهد اللغات الشرقية في بولونيا . عن : د.عماد الدين خليل : قالوا عن الاسلام (ص٦٨) .

(٣) د. عماد الدين خليل : قالوا عن الاسلام (ص٦٨) نقلاً عن " تاريخ الدولة الاسلامية وتشريعها (ص١٧) للباحثة يوجينا غيانة ستشيجفسكا .

(٤) سورة سبا الآية (٦) .

(٥) لسان العرب (٥/٣٧٠) مادة " عجز " .

(٦) الفيروز آبادي : بصائر ذوي التمييز (١/٦٥) .

(٧) الطاهر الزاوي : ترتيب القاموس المحيط (٣/١٦١) .

(٨) التعريفات (ص٢١٩) .

(٩) شرح العقائد النسفية (ص٨٦) .

(١٠) الكنز المدفون والفلك المشحون (ص٩٥) .

ميت ، وإعدام جبل ، وانفجار الماء من بين الأصابع ، وأن تظهر على وفق التحدي ، أي الدعوى للرسالة "[١] .

وقد اعتبر السيوطي في هذا التعريف قيوداً يتضح بها حقيقة المعجزة ، وسماها بعضهم شروطاً وهي :

١- أن تكـــون فعـــلاً لله تعالى[٢] ، أو قولاً ، أو تركاً[٣] ، فالفعل – كما قال السيوطي – " كإحياء الميت ، وإعدام الجبل ، وانفجار الماء من بين الأصابع "[٤] .

والقول كالقرآن ، والترك كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم – عليه السلام –[٥] .

فالمعجـــزة إذاً مـــن مقـــدورات الرب سبحانه وتعالى لا من مقدورات المخلوقين ، فإن كانت من جنس مقدورات المخلوقين كحمل جبل ، فلا بد أن تكون خارقة[٦] ، ولذلك قال الايجي : " أن يكون فعلاً لله أو ما يقوم مقامه "[٧] .

٢- أن تكـــون خارقـــة للعادة[٨] ، وهي ما اعتاده الناس واستمروا عليه مرة بعد أخرى ، قال السيوطي : " بأن يظهر على خلافها "[٩] أي هذا الأمر الناقض للعادة ، يظهر على خلافها ، وهو معنى كونه خارقاً ، إذ لا يكون خارقاً ولا ناقضاً إلا إذا كان على خلافها .

قال السيوطي : " فخرج غير الخارق كطلوع الشمس كل يوم "[١٠] إذ لا إعجاز في ذلك ، لأنه سنة كونية مطردة خـــلق الله الكون عليها ، لا يشذ عنها ، تحدث كل يوم ، والأنبياء وغيرهم بإزائها سواء ، وسواء وجدت دعوى النبوة أو لم توجد ، فلا يجوز أن تكون دليلاً على النبوة ، ذلك لأن آية النبوة ودليلها يجب أن يكون مختصاً بمن هو له ، وهو النبي ، لا يستوي فيه النبي وغيره ، وإذا لم يكن كذلك لا يتم كونه دليلاً للنبوة وآية لها .

٣- أن يحصل الأمر الخارق للعادة على يد مدعي النبوة أو الرسالة ، وفي ذلك يقول السيوطي : " فخرج غير الخارق ... والخـــارق من غير تحد "[١١] لأنه لو ظهر الخارق على يد أحد من الناس لكنه لم يدع نبوة ولا رسالة ، فلا يجوز أن يحكم بأنها معجزة دالة على نبوته ، ذلك لأن العلم بالنبوة متوقف على الخبر بها ، وهذا الخبر لا سبيل إلى العلم به إلا من جانب النـــبي نفســـه ، أمـــا وأنه لم يدع ذلك لنفسه ، فإنه لا يثبت له ذلك بمجرد ظهور الخارق عليه . إذاً لابد أن يكون الخارق مقروناً بدعوى النبوة ، كأن يقول : إني نبي ، أو إني رسول الله إليكم .

وإنـــي إنمـــا قـــلت : إنه لا يثبت حصول النبوة بمجرد ظهور الخارق من غير ادعاء لها ، لأن الأفعال الخارقة حاصلة لغير الأنبياء ، وهم ليسوا بأنبياء قطعاً ، فلا يمكن أن تكون دليلاً على نبوتهم ، فتخرج بهذا الشرط أو القيد الكرامة الحاصلة للصالحين وغيرها[١٢] .

٤- أن تـــتعذر معارضته[١٣] ، وهو معنى التحدي الذي ليس في مقدور قوم النبي أن يأتون بمثله معارضين به معجزاته ،

---

(١) علم التوحيد – مخطوط – لوحة رقم (٦) .

(٢) نفسه (لوحة ٥) ، وانظر : إمام الحرمين الجويني : الارشاد (ص٣٠٨) ، والإيجي : المواقف (ص٣٣٩) ، والبيجوري : تحفة المريد (ص٨٢) ، وذكره عنهم ابن تيمية في النبوات (ص١٤٠،٢٨) .

(٣) انظر : البيجوري : تحفة المريد (ص٨٣) ، والايجي : المواقف (ص٣٤١) .

(٤) علم التوحيد – لوحة رقم (٦) .

(٥) انظر : الارشاد (ص٣٠٨) .

(٦) انظر : ابن تيمية : النبوات (ص١٤٠،٢٨) ، والايجي : المواقف (ص٣٣٩) .

(٧) المواقف (ص٣٣٩) .

(٨) انظر : الكنز المدفون (ص٩٥) ، علم التوحيد لوحة (٦) ، أبو المظفر الاسفراييني : التبصير في الدين (ص١٦٩) .

(٩) علم التوحيد ، لوحة رقم (٦) .

(١٠) نفسه ، وانظر كذلك : البيجوري : تحفة المريد (ص٨٣) ، والجرجاني : التعريفات (ص١٤٦) .

(١١) علم التوحيد ، لوحة رقم (٦) ، وانظر : الكنز المدفون (ص٩٥) والتبصير في الدين (ص١٦٩) .

(١٢) انظر : السيوطي : علم التوحيد ، لوحة رقم (٦) ، وانظر : الايجي : المواقف (ص٣٣٩) .

(١٣) انظـــر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٢٩٠/٢) ، والايجي : المواقف (٣٣٩) ، والبيجوري : تحفة المريد (ص٨٣) والجويني : الارشاد (ص٣٠٧-٣٠٨) ، مغفـــور عـــثمان : النـــبوة والرســـالة في الاسلام (ص١٠٩) ، سعيد خليفة : النبوة عند ابن تيمية (ص٣١٧) ، أبو المظفر الاسفراييني : التبصير في الدين (ص١٦٩) .

فإن كان الخارق مما يقدر قومه على فعل مثله ، فلا يكون معجزة له ، إذ يستوي في ذلك النبي وغيره فلا تثبت دعواه ، أو أنـــه يلزم منه افحام الأنبياء وانقطاع حجتهم ، ولذلك كان انقلاب عصا موسى حية عظيمة ، معجزة لم يقدر سحرة فرعون على معارضتها بمثلها(٢) .

٥- أن لا يكون الفعل الخارق مكذباً له ، قال السيوطي : " كأن يدعي نطق طفل بتصديقه ، فينطق بتكذيبه "(١) وهذا واضح لأن الفعــل الخـــارق ، الصـــادر من صاحبه ليكون آية على صدقه ، لو تحقق ولكن على وجه يكذبه ، لم يكن دليلاً ولا بـــرهاناً عـــلى صـــدقه ، بل انقلب إلى العكس بحيث يكون بالدلالة على الكذب أولى من الدلالة على الصدق ، ولو قال : معجزتي أن ينطق هذا الضب ، فنطق بتكذيبه قائلاً : إنه كاذب ، لم يعلم به صدقه ، بل ازداد اعتقاد كذبه(٢) .

الفصل الخامس : صفات الرسل

- ديبـــاجـــة :

اكرم الله تعالى رسله وأنبياءه بصفات كريمة تؤهلهم لأداء مهمتهم الخطيرة ، وتمكنهم من تبليغ رسالاتهم الشاقة ، فقد أرسلهم الله جل وعلا مصابيح الظلم ، وهداة الأمم ، اختارهم لتبليغ دينه ، وصنعهم على عينه .

وقـــد تضمن الوحي إلى الانبياء - عليهم الصلاة والسلام - وصف الله تبارك وتعالى لهذه الكوكبة من المصطفين الأخيار بصفات عديدة ، تدل على رفعة الموصوفين بها عند الله جل وعلا ، وشرف مكانتهم ، وعلوم منزلتهم ، وقربهم من الله سبحانه ، وحبهم له عز وجل ، وحب المولى تعالى وتقدس لهم ، الأمر الذي يقتضي أن الله اصطنعهم لنفسه الكريمة ، وكملهم بالعلم والحلم والأمانة ، وأدبهم بالأدب الرباني ، وزكاهم بالخلق الايماني .

فكـــانوا عـــلى ذلك مولودين على فطرة الله التامة التي لا تتبدل ولا تتغير ، بل تنمو وتزكو وتطهر ، وتظهر من الصغر إلى الكهولة والشيخوخة والكبر .

ومـــن المقطـــوع به أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد عُرفوا بين أقوامهم بقوة الايمان ، وكمال الأمانة ، وغايـــة الصـــدق والديانة ، والقوة في تبليغ أمر الله وشرعه ، مع العقل التام والفطنة النادرة حتى صار من المستحيل عند الـــناس فـــي حقهـــم الكذب أو الكفر والخيانة ، أو الجحود والكتمان ، أو الغفلة والبلادة ، مع كثرتهم ، واستقرار بشريتهم وجواز الأعراض والأمراض عليهم بما لا يعد منفراً منهم ولا مقعداً لهم عن أداء مهمتهم(٣) .

تلك أهم صفات الأنبياء الضرورية عقلاً وشرعاً في أداء الوحي وتلقيه ، والقوة في العمل به ، والدعوة إليه ، فَبِها وأمثالها تميزوا عن غيرهم وإن شابهوا بني آدم في البشرية ، والصورة الخِلْقِيَّة(٤) .

وســـأتناول الآن بشـــئ من التفصيل ما ذكره الجلال السيوطي من صفات هؤلاء الرسل والانبياء الكرام - عليهم الصلاة والسلام - :

---

(١) السيوطي : علم التوحيد - لوحة رقم (٦) .

(٢) انظر : الايجي : المواقف (ص٣٣٩) ، الجويني : الارشاد (ص٣١٥) ، والبيجوري : تحفة المريد (ص٨٣) .

(٣) انظر : الشهرستاني : نهاية الاقدام (ص٤٦٢-٤٦٤) .

(٤) انظـــر : محمـــد الـــداه أحمد : النبوة والرسالة بين الامام الغزالي وشيخ الاسلام ابن تيمية (ص١٦٥) ، بحث مقدم لدرجة الدكتوراة ، من جامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤١٨هـ .

المبحث الأول: أنهم بشر

إن أنبياء الله ورسله بشر آدميون ، من بني آدم ، أبوهم آدم ، وأمهم حواء ، تعتريهم عوارض البشرية ، وما يعتري سائر أفراد الناس ، فيما لا علاقة له بتبليغ الرسالة وبيان الأحكام ، فهم يأكلون ويشربون كما قال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق)[١] وقال تعالى : (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام)[٢] وقال تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي)[٣] وقال تعالى عن فرعون وملئه عندما أرسل الله لهم موسى وأخاه هارون فكذبوهما وقالوا : (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون)[٤] والآيات في إثبات بشرية الرسل كثيرة ما بين إخبار من الله تعالى ، إلى اعتراف من الرسل أنفسهم كما في قوله تعالى عنهم : (إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء)[٥] إلى اعتراف المكذبين للرسل ببشريتهم ووصفهم بهذا الوصف ظناً منهم أن كونهم بشراً يغض من قدرهم ، أو ينقص من كفاءتهم لتحمل الرسالة من الله ، أو يحط من مكانتهم ومنزلتهم عند الله ، وهذا ظن سئ ، وعناد للخالق تعالى ، ومحادة لرسله .

قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم) قال: " قل لهؤلاء المشركين يا محمد إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم "[٦] .

وقال التفتازاني : " وقد أرسل الله رسلاً من البشر إلى البشر مبشرين لأهل الايمان والطاعة بالجنة والثواب ، ومنذرين لأهل الكفر والعصيان بالنار والعقاب "[٧] .

وعلى هذا أكد السيوطي ، وقرر أن الرسل من جملة البشر فقد قال عند قوله تعالى : (قالت رسلهم : أفي الله شك)[٨] قال : " أضاف الرسل إليهم ، ولم يقل رسلنا تنبيهاً على أن الرسل منهم بحيث يعلمون حالهم وأنهم لم يعهدوا منهم كذباً ، ولا علموا أنهم خالطوا سحرة ، فدل على أن ما جاءوهم به حق "[٩] فقوله " تنبيهاً على أن الرسل منهم " أي من هؤلاء البشر الذين بعثوا فيهم ، وأرسلوا إليهم ، فهم بشر منهم مثلهم .

وقال السيوطي في موضع آخر عند قوله تعالى : (يتلو عليهم آياته ويزكيهم...)[١٠] قال : " منَّ الله على عباده ببعث رسول منهم وإليهم ، يعلمهم بيان الشرائع والفهم ، ويزكيهم ويطهرهم ، ونسب التعليم إليه ، لأنه يعلم ما في الكتب

---

(١) سورة الفرقان الآية (٢٠) .
(٢) سورة المائدة ، بعض الآية (٧٥) .
(٣) سورة الكهف ، بعض الآية (١١٠) .
(٤) سورة المؤمنون ، بعض الآية (٤٧) .
(٥) سورة إبراهيم – عليه السلام – ، بعض الآية (١١) .
(٦) جامع البيان (٣٩/١٦) .
(٧) شرح العقائد النسفية (ص٨٥) .
(٨) سورة ابراهيم ، بعض الآية (١٠) .
(٩) معترك الأقران (١٥٧/٣) .
(١٠) سورة الجمعة ، بعض الآية (٢) .

وطرق النظر بما يلقي جبريل إليه "[١] .

وفي محاورة قوم نوح له - عليه السلام - وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة الأوثان قالوا له ما حكاه الله عنهم : (ما هذا إلا بشر مثلكم)[٢] قال السيوطي : " هذا الكلام من قوم نوح لما قال لهم : إني رسول الله إليكم - استبعدوا أن تكون النبوة لبشر ، وأثبتوا الربوبية لحجر "[٣] وهذا تقرير منه بأن نوحاً وسائر الأنبياء بشر كسائر البشر وهكذا هم أهل الضلال والعناد ، يرتكبون الحماقات ويعتقدون المتناقضات .

يقول في ذلك ابن جرير : " فقالت جماعة أشراف قوم نوح ، الذين جحدوا توحيد الله ، وكذبوه لقومهم : ما نوح أيها القوم إلا بشر مثلكم ، إنما هو إنسان مثلكم ، وكبعضكم (يريد أن يتفضل عليكم)[٤] يقول : يريد أن يصير له الفضل عليكم ، فيكون متبوعاً وأنتم له تبع "[٥] ، وقال الشوكاني : " (ما هذا إلا بشر مثلكم) أي من جنسكم في البشرية ، لا فرق بينكم وبينه " ومع هذه الآيات فقد ورد من الأحاديث النبوية ما يؤكد حقيقة بشرية الأنبياء والمرسلين فقد قال - صلى الله عليه وسلم - : " ...لكني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء " وقد أثر في بدنه السم الذي دسته اليهودية له - صلى الله عليه وسلم - في طعامه ، وكذلك أثر في بدنه السحر ، وكان الأنبياء يقتلون كما فعل بنو اسرائيل - عليهم لعائن الله - بأنبيائهم ، وقد قال تعالى : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم...)[٦] .

وكان الأنبياء - صلوات الله عليهم يمرضون ويوعكون ، ويتألمون ، وكان يصيبهم الحر والبرد ، والجوع والعطش ، والغضب والتعب ، ونحو ذلك مما يعرض للأبدان البشرية ، دون أن يؤثر على عقولهم فيما يتعلق بإبلاغ دين الله ، ودون أن يلحقهم نقص أو عيب أو ذم بسببه [٧] .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما قال : لما بعث الله محمداً رسولاً ، انكرت العرب ذلك ، أو من انكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، قال : فأنزل الله (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم؟)[٨] وقال : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، بالبينات والزبر)[٢] فاسألوا أهل الذكر : يعني أهل الكتب الماضية : أبشراً كانت الرسل التي أتتكم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة انكرتم ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد رسولاً ، قال : ثم قال : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ، أي ليسوا من أهل السماء كما قلتم)[٩] فالغرض " أن هذه الآية الكريمة أخبرت أن الرسل الماضين قبل محمد - صلى الله

---

(١) معترك الأقران (٤٣٠/٣) .
(٢) سورة المؤمنون ، بعض الآية (٢٤) .
(٣) معترك الأقران (٣٧٧/٢) .
(٤) سورة المؤمنون ، بعض الآية (٢٤) .
(٥) جامع البيان (١٦/١٨) .
(٦) سورة آل عمران الآية (١٤٤) .
(٧) انظر : الكواشف الجلية عن معاني الواسطية (٦٩-٧٠) ، تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد (ص٧٧) .
(٨) سورة يونس ، بعض الآية (٢) .
(٩) جامع البيان (١٠٩/١٤) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن (٤٩٢/٤) .

عليه وسلم – كانوا بشراً كما هو بشر "[١] ثم ساق ابن كثير الآيات التي تصرح ببشرية الرسل[٢] – عليهم السلام – .

قـال الشيخ ابن عثيمين : " ونؤمن بأن جميع الرسل بشر مخلوقون ليس لهم من خصائص الربوبية شئ ، قال الله تعالى عن نوح وهو أولهم: (ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك)[٣] وأمر الله تعالى محمداً وهـو آخرهم أن يقول : (لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك)[٤] وأن يقول : (لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله)[٥]... "[٦] .

فرسل الله تعالى وأنبياؤه – عليهم السلام – بشر ، وعلى ذلك إجماع علماء الأمة لا يشذ من ذلك إلا زنديق معاند أو جاهل ضال .

ومما يتفرع على هذا الموضوع مسألة :

نبوة الجـــن :

فهل كان في الجن رسل أو أنبياء منهم أرسلهم الله إليهم كما أرسل إلى الانس رسلاً وأنبياء منهم ؟

– ذهـب فريق من العلماء إلى أن الله أرسل إليهم رسلاً ، كما أرسل إلى الانس منهم رسلاً ، وهذا الرأي رواه ابن جرير عـن الضحاك بن مزاحم[٧] ، وحكاه القرطبي عن مقاتل[٨] ، ونقله السيوطي عن ابن حزم[٩] ، وقال ابن الجوزي : " وهو ظاهر الكلام "[١٠] ، أي ظاهر القرآن ، وكذلك قال السبكي : " ظاهر القرآن مع ما قاله الضحاك "[١١] .

قال ابن جرير : " واختلف أهل التأويل في الجن ، هل أرسل إليهم رسل كما أرسل إلى الانس منهم رسل "[١٢] ثم روى عـن الضحاك أنه سئل عن الجن : هل كان منهم نبي قبل أن يبعث النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : ألم تسمع إلى قـول الله (يـا معشـر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي...)[١٣] يعني بذلك رسلاً من الانس ، ورسلاً من الجن ، فقالوا : بلى "[١٤] أما القرطبي فقد نسب هذا القول إلى مقاتل مع الضحاك فقال : " وقال مقاتل والضحاك : أرسل الله رسلاً من الجن ، كما أرسل من الانس "[١٥] لكن ابن كثير لا يوافق على ما قاله الضحاك ، ويعتبر الآية غير

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٩٢/٤) .
(٢) انظر السابق ، وانظر كذلك : الرازي : التفسير الكبير (٣٦/٢٠-٣٧) .
(٣) سورة هود الآية (٣١) .
(٤) سورة الأنعام الآية (٥٠) .
(٥) سورة الأعراف الآية (١٨٨) .
(٦) عقيدة أهل السنة والجماعة (٥٢-٥٣) .
(٧) انظر : جامع البيان (٣٦/٨) ، السيوطي : الاشباه والنظائر (ص٢٦٠) .
(٨) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٧) .
(٩) انظر : لقط المرجان في أحكام الجان (ص٤٢) ، وكذلك في الأشباه والنظائر (ص٢٦٠) .
(١٠) زاد المسير ، وانظر : السفاريني : لوامع الانوار (٢٢٣/٢) .
(١١) انظر : لقط المرجان (ص٤٣) .
(١٢) جامع البيان (٣٦/٨) .
(١٣) سورة الانعام الآية (١٣٠) .
(١٤) جامع البيان (٣٦/٨) ، الدر المنثور (٣٥٩/٨) .
(١٥) الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٧) .

صريحة فيما ذهب إليه ، فيقول : " وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلاً واحتج بهذه الآية الكـريمة وفي الاستدلال بها على ذلك نظر ، لأنها محتملة وليست بصريحة "[١] ولكن الرازي احتج لهذا القول بوجه آخر وهـو قولـه تعـالى : (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً)[٢] فقال : " قال المفسرون : السبب فيه أن استئناس الانسان يعني بالانسان اكمل من استئناسه بالملك ، فوجب في حكمة الله تعالى أن يجعل رسول الإنس من الإنس ليكمل هذا الاستئناس ، إذا ثبت هذا المعنى ، فهذا السبب حاصل في الجن ، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن "[٣] .

وقضية الاستئناس بين أفراد الجنس الواحد لا تنكر ، ولكنها غير مسلمة تماماً في موضوع نبوة الجن وارسالهم ، لأنهـا لو صحت كدليل تام على ذلك لما أرسل نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إليهم ، ولكن من المعلوم المؤكد أنه - صـلى الله عليه وسلم - مرسل إلى الثقلين جميعاً الإنس والجن ، وهذا لا خلاف فيه[٤] ، فكيف تعتبر قضية الاستئناس قبل ارسال نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إليهم ، ولا تعتبر بعد ارساله ؟؟ .

كما أنه يمكن أن يقال : بأن صعوبة تلقي البشر عن الملائكة أمر ثابت ، فقد نقل إلينا نقلاً صحيحاً أن نبينا محمداً - صـلى الله عـليه وسـلم - كان يعاني من الوحي شدة[٥] ومشقة ، ولكنه لم ينقل إلينا أن الجن تحصل لهم هذه المشقة والمعاناة إذا تلقوا عن الإنس ، وعليه فلا ضرورة للجوء إلى موضوع هذا الاستئناس الذي عضد به الرازي رأي الضحاك ومن وافقه .

وأما ابن حزم فقد استدل بدليل آخر وهو قوله - صلى الله عليه وسلم - : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لـي الغـنائم ولـم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة "[٦] والشاهد منه قوله - صلى الله عليه وسلم - " وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة " ووجه استدلاله أنه إذا كان النبي بشراً ، وجب أن يبعث إلى قومه من البشر لا إلى الجن ، لأنهم ليسوا من قومه قطعاً ، فلا يكون نبياً إليهم ، ووجب أيضاً أن يبعث من الجن جني إلى قومه الجن ، لا إلى الإنس لأنهم ليسوا من قومه قطعاً ، وهذا مقتضى الحديث .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٣٢/٣) .
(٢) سورة الأنعام الآية (٩) .
(٣) التفسير الكبير (٢٠٥/١٣) .
(٤) انظر : السيوطي : لقط المرجان (ص٤٤) فقد قال : " لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في أن الله تعالى أرسل محمداً إلى الإنس والجن " .
(٥) تكلمت عن ذلك بشئ من التفصيل في الفصل الثالث من الباب الثاني وهو الذي بعنوان : الوحي وطرقه ، فانظره هناك .
(٦) متفق عليه :
- صحيح البخاري : كتاب التيمم (٧) باب (١) ح رقم (٣٣٥) فتح الباري (٤٣٥/١-٤٣٦) .
وأيضاً كتاب الصلاة (٨) باب (٥٦) ح رقم (٤٣٨) فتح (٥٣٣/١) .
" كتاب فرض الخمس (٥٧) باب (٨) ح رقم (٣١٢٢) ، فتح (٢٢٠/٦) .
- وصحيح مسلم : كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥) ح رقم (٣) ، (٣٧٠/١) .
- سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي (٢٠٩/١-٢١١) كتاب الغسل والتيمم (٢٦) باب التيمم بالصعيد .
- سنن الدارمي (٢٦٣/١) كتاب الصلاة باب (١١١) ح رقم (١٣٩٦) ، (١٤٤٢/٢) كتاب السير باب (٢٩) ح رقم (٢٤٧٠) .

لكـن هذا الاستدلال أيضاً ليس بشئ ، لأن الجن تتبع للأنس ، وهم في الصلاح والفساد مراتب وطوائف كما أن الانـس مـراتب وطوائـف " فمـنهم الكامل في الاستقامة والطيبة وعمل الخير ، ومنهم من هو دون ذلك ومنهم البله المفضـلون ومنهم الكفرة وهم الكثرة الكاثرة ، يقول الله سبحانه في حكايته عن الجن الذي استمعوا إلى القرآن : (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً)[1] أي منهم الكاملون في الصلاح ، ومنهم أقل صلاحاً، فهم مذاهب مختلفة كما هـو حال البشر "[2] يقول ابن جرير " (وأنا منا الصالحون)[3] وهم المسلمون العاملون بطاعة الله ، (ومنا دون ذلك)[1] يقـول : ومـنا دون الصـالحين (كـنا طرائق قدداً)[1] يقول : وأنا كنا أهواء مختلفة ، وفرقاً شتى ، منا المؤمن والكافر والطـرائق جمع طريقة ، وهي طريقة الرجل ومذهبه ، والقدد جمع قدة ، وهي الضروب والأجناس المختلفة "[4] وقال ابن كـثير :" (كـنا طرائق قدداً)[1] أي : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة "[5] ثم نقل عن أحمد بن سليمان النَّجاد " من أماليـه " بسـنده إلى الأعمش قال : " تروح إلينا جنى ، فقلت له ، ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال فأتيناهم به فجعـلت أرى الـلقم ترفع ولا أرى أحداً فقلت فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم ، قلت فما الرافضة فيكم ؟ قال : شرنا "[6].

وهكـذا قال القرطبي ونقل مثله عن جمع من المفسرين ففي تفسيره لقوله تعالى : (كنا طرائق قدداً)[1] نقل عن السدى قال : " فرقاً شتى "[7] وعن الضحاك قال : " أدياناً مختلفة "[8] ، وعن قتادة قال : " أهواءً متباينة "[9] ثم نقل أيضـاً عـن السدى قال : " في الجن مثلكم قدرية ، ومرجئة ، وخوارج ، ورافضة ، وشيعة ، وسنية "[10] فهذا كله يثبت تـبعية الجن للانس ، فهم تابعون لهم يأخذون عنهم ويتعلمون منهم ، ولا يضيرهم هذا التعلم والتلقي من الإنس ، كما أنه لا يشق عليهم ولا يستوحشون منه ، لذلك لم يكن من الضروري أن يكون أنبياؤهم منهم ، وعليه فكل نبي يبعث في قومه من الإنس ويتبعه معهم قوم من الجن ، ولا يمنع ذلك مانع عقلي أو شرعي .

- وأما الفريق الثاني من العلماء وهم الأكثر[11] ، وقولهم الأشهر[12] ، فذهبوا إلى أنه لم يكن من الجن رسول ولا نبي البتة قـال القرطبي : " وهو الصحيح "[13] ، ونقل الرازي ادعاء الاجماع ، ولكنه بعيد كما قال الرازي نفسه، قال : " لأنه

---

(١) سورة الجن الآية (١١) .
(٢) د. عمر سليمان الاشقر : عالم الجن والشياطين (ص٤٨) .
(٣) سورة الجن الآية (١١) .
(٤) جامع البيان (٢٩/١١١-١١٢) .
(٥) تفسير القرآن العظيم (٨/٢٦٨) .
(٦) نفسه (٨/٢٦٨-٢٦٩) ، والسيوطي : لقط المرجان (ص٣٣) .
(٧) الجامع لأحكام القرآن (١٩/١١) والدر المنثور عن ابن عباس (٨/٣٠٤) .
(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٩/١١) .
(٩) نفسه ، وانظر ابن جرير : الجامع لأحكام القرآن (١٩/١١٢) .
(١٠) الجامع لأحكام القرآن (١٩/١١) ، الدر المنثور (٨/٣٠٤) .
(١١) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٣/٢٠٥) .
(١٢) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٤/٢٣٤) .
(١٣) الجامع لأحكام القرآن (٧/٥٧) .

كيف ينعقد الاجماع مع حصول الاختلاف "[1] وقد مضى معنا في القول الأول جمع من العلماء قالوا بخلاف هذا القول الثاني وعليه فلا اجماع .

قال السيوطي : " جمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أنه لم يكن من الجن قط رسول ولا نبي ، كذا روي عن ابن عباس ومجاهد ، والكلبي ، وأبي عبيد "[2] ورواه أيضاً ابن جرير عن ابن جريج[3] ، وهو المروي عن القاضي أبي يعلي وابن عقيل[4] ، وانتصر له ابن كثير بشدة وحشد له الأدلة الكثيرة ، ولكن معظمها عمومات . قال أصحاب هذا القول : لم يرد دليل صريح عن المعصوم يدل على ما قال به أصحاب الرأي الأول من ارسال رسل أو أنبياء من الجن ، بل الدليل على خلافه فقد قال الله تعالى : (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)[5] وانعقد الاجماع على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة ، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء القوم فقط[6] .

وقال تعالى أيضاً عن إبراهيم – عليه السلام – : (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب)[7] فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته ، ولم يقل أحد من الناس : إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته ، وقد قال تعالى : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق)[8] وقال : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى)[9] ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب[10] ولهذا قال تعالى اخباراً عنهم : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن)[11] .

وأجابوا عن دليل الرأي الأول وهو قوله تعالى : (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم)[12] فقالوا : قوله تعالى : (منكم) أي من أحد الفريقين وهو الإنس خاصة ، فأما الجن فلم يرسل منهم إليهم رسول ولم يكن له تعالى من الجن قط رسول مرسل ، ويدل على هذا التفسير وجوه منها :

<u>أولاً :</u> قوله تعالى : (منكم) أي من الإنس ، وهو تغليب للإنس على الجن كما يغلب المذكر على المؤنث[13] في كثير من الآيات .

<u>ثانياً :</u> أن قوله تعالى : (منكم) أي : في الخلق والتكليف والمخاطبة ، ولما كان الجن ممن يخاطب ويعقل قال : (منكم)

---

(١) التفسير الكبير (٢٠٥/١٣) .

(٢) لقط المرجان (ص٤١) ، وانظر : الاشباه والنظائر (ص٢٦٠) .

(٣) انظر : جامع البيان (٣٦/٨) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٣٢/٣) .

(٤) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٢٢٣/٢) نقلاً عن الفروع لابن مفلح .

(٥) سورة آل عمران الآية (٣٣) .

(٦) انظر : الرازي : التفسير الكبير (٢٠٥/١٣) .

(٧) سورة العنكبوت الآية (٢٧) .

(٨) سورة الفرقان الآية (٢٠) .

(٩) سورة يوسف الآية (١٠٩) .

(١٠) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٣٢/٣-٣٣٣) .

(١١) سورة الأحقاف الآية (٢٩) .

(١٢) سورة الأنعام الآية (١٣٠) .

(١٣) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٧) .

وإن كانت الرسل من الإنس[١] .

ثالثاً : قوله تعالى : (ومن كل تأكلون لحماً طرياً ، وتستخرجون حلية تلبسونها)[٢] ولا يخرج من الأنهار حلية[٣] ، فقوله (لحماً طرياً) أي : " منهما جميعاً "[٤] وقوله تعالى : (حلية) أي : " اللؤلؤ من الأجاج "[٥] فأخرج الكلام عن البحرين والمقصود واحد منهما وهذا سائغ في اللغة كنظائره التي سبقت ، وكما سيأتي .

رابعاً : قوله تعالى : (الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً...)[٦] وإنما القمر في واحدة منهن وهي السماء الدنيا ، وليس فيهن كلهن[٧] . كما يقال : جاءني بنو تميم ، والمراد بعضهم ، أو يقال : الأمير في العراق ، ومعلوم أنه يستحيل أن يملأ الأمير حيز العراق كله ، وإنما هو جزء ضئيل منه[٨] .

خامساً : أن الخطاب في قوله تعالى : (منكم) إنما توجه للثقلين الإنس والجن جميعاً في عرصة القيامة ، فجعل تعالى الرسل في مخرج اللفظ من الجميع ، وإن كان الرسل من الإنس دون الجن قال أبو عبدالله القرطبي : " وقيل : إنما صير الرسل في مخرج اللفظ من الجميع لأن الثقلين قد ضمتها عرصة القيامة ، والحساب عليهم دون الخلق ، فلما صاروا في تلك العرصة في حساب واحد في شأن الثواب والعقاب على العبودية ولأن الجن أصلهم من مارج من نار ، وأصلنا من تراب وخلقهم غير خلقنا ، فمنهم مؤمن ومنهم كافر ، وعدونا ابليس عدو لهم ، يعادي مؤمنهم ، ويوالي كافرهم ، وفيهم أهواء ، شيعة وقدرية ومرجئة يتلون كتابنا "[٩] أي : لما صاروا في تلك العرصة ، وفي حساب واحد في شأن الثواب والعقاب على العبودية خرج اللفظ جامعاً لهم ، كما يجمع رب الأسرة أسرته كبيراً وصغيراً ، ويوبخهم قائلاً : ألم أحذركم وأنهكم عن عصياني ؟ وإنما أراد الكبار العاقلين المكلفين ، دون صغارهم ورضعهم ، وأخرج اللفظ للجميع باعتبارهم أهل دار واحدة ، أو كما في قول القائل لجماعة أدؤر[١٠] ، إن في هذه الدور لشراً ، وإن كان الشر في واحدة منهن ، فيخرج الخبر عن جميعهن والمراد به الخبر عن بعضهن ، وكما يقال – أيضاً – : أكلت خبزاً ولبناً : إذا اختلطا ، ولو قيل : أكلت لبناً ، كان الكلام خطأ ، لأن اللبن يشرب ولا يؤكل[١١] .

ولذلك قال السيوطي : (منكم) " أي من مجموعكم أي بعضكم الصادق بالإنس "[١٢] .

---

(١) انظر : نفسه .
(٢) سورة فاطر الآية (١٢) .
(٣) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٣٦/٨) .
(٤) الدر المنثور (١٤/٧) عن قتادة ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥٢٦/٦) .
(٥) الدر المنثور (١٤/٧) ، وانظر : الجلالين (ص٥٢٧) .
(٦) سورة نوح الآية (١٥-١٦) .
(٧) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٣٤/٤) ، والقرطبي : الجامع (١٩٧/١٨) والجلالين (٧٠٥) والرازي : التفسير الكبير (١٤٠/٣٠) .
(٨) انظر : الشوكاني : فتح القدير (٢٩٨/٥) ، الرازي : التفسير الكبير (١٤٠/٣٠) .
(٩) الجامع لأحكام القرآن (٥٧/٧) .
(١٠) جمع دار .
(١١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٣٦/٨) .
(١٢) تفسير الجلالين (ص١٧٠) .

ونبه ابن تيمية على هذا الخطاب المشترك بين الإنس والجن والمقصود به اثبات نبوة الإنس فقط فقال : " والقرآن خطاب للثقلين ، والرسول منهم جميعاً كما قال تعالى : (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم)[١] فجعل الرسل التي أرسلها من النوعين مع أنهم من الإنس "[٢] وهذا يعتبر ترجيحاً من ابن تيمية لكون الرسل من الإنس دون الجن ، ثم قال : " فإن الإنس والجن مشتركون[٣] في كونهم أحياء ناطقين مأمورين منهيين ، فإنهم يأكلون ويشربون وينكحون وينسلون ، ويغتذون وينمون بالأكل والشرب ، وهذه الأمور مشتركة بينهم ، وهم يتميزون بها عن الملائكة ، فإن الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح ولا تنسل ، فصار الرسول من أنفس الثقلين باعتبار القدر المشترك بينهم الذي تميزوا به عن الملائكة حتى كان الرسول مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة "[٤] .

<u>سادساً :</u> أن الله كان يلقي الداعية في قلوب قوم من الجن حتى يسمعوا كلام الرسل فيحفظوه ويفقهوه ، ثم يأتون قومهم من الجن فيخبرونهم بما سمعوا وينذرونهم به[٥] ، ودليله قوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين)[٦] فأولئك الجن كانوا رسل الرسل[٧] ، فأطلق عليهم رسلاً بهذا المعنى ، وهم النُّذُر كما سماهم بعض المفسرين ، قال السيوطي في قوله تعالى : (ألم يأتكم رسل منكم)[٨] " أي من مجموعكم... أو رسل الجن نُذُرهم الذين يستمعون كلام الرسل فيبلغون قومهم "[٩] فالرسل من الإنس ، والنذر من الجن ، وهؤلاء النذر هم رسل الرسل . قال السيوطي : " تأولوه على أنهم رسل عن الرسل ، سمعوا كلامهم فأنذروا قومهم ، لا عن الله "[١٠] وقال ابن جرير : " قال ابن عباس : " هم الجن الذين لقوا قومهم ، وهم رسل إلى قومهم ، فعلى قول ابن عباس هذا إن من الجن رسلاً للإنس إلى قومهم "[١١] وقال مجاهد : " الرسل من الإنس والنذر من الجن ثم قرأ : (إلى قومهم منذرين)[١٢] "[١٣] قال ابن جرير : " فتأويل الآية على هذا ... ألم يأتكم أيها الجن والإنس رسل منكم ؟ فأما رسل الإنس فرسل من الله إليهم ، وأما رسل الجن فرسل رسل الله من بني آدم وهم الذين إذ سمعوا القرآن ولو إلى قومهم منذرين "[١٤] .

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٣٠) .
(٢) مجموع الفتاوي (١٦/١٩٢) .
(٣) في مجموع الفتاوي : " مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين " ولعله خطأ والصواب ما أثبته حتى يستقيم الكلام ، فهم مشتركون في كونهم أحياء ناطقين .
(٤) مجموع الفتاوي (١٦/١٩٢) .
(٥) انظر : الرازي : التفسير الكبير (١٣/٢٠٥) .
(٦) سورة الأحقاف الآية (٢٩) .
(٧) انظر : السيوطي : الدر المنثور (٨/٣٥٩) عن ابن جريج .
(٨) سورة الأنعام الآية (١٣٠) .
(٩) الجلالين (ص١٧٠) ، وانظر : ابن جرير : جامع البيان (٨/٣٦) وابن تيمية : مجموع الفتاوي (٤/٢٣٤) .
(١٠) الاشباه والنظائر (ص٢٦٠) .
(١١) جامع البيان (٨/٣٦) .
(١٢) سورة الأحقاف الآية (٢٩) .
(١٣) القرطبي : الجامع (٧/٥٧) ، والسيوطي : الدر المنثور (٨/٣٥٩) ، ولقط المرجان (ص٤١) ، وذكره ابن كثير عن ابن عباس في تفسيره (٣/٣٣٢) .
(١٤) جامع البيان (٨/٣٦) ، وانظر : لقط المرجان (ص٤٢) .

وبعد أن وضحت الرأيين كلاً بأدلته وناقشتها ، تبين لي أن الراجح منهما هو القول الثاني وهو قول من قال : إن الرسل والأنبياء جميعهم من الإنس ، ولم يرسل الله تعالى رسلاً ولا أنبياء من الجن ، وإنما الجن كان منهم نذر تلقوا علوم الأنبياء منهم فحفظوها وفقهوها ثم ذهبوا إلى أقوامهم منذرين ، وهؤلاء قد يطلق عليهم رسل باعتبار أنهم رسل مبتعثين من قبل الرسل البشريين فهم رسل رسل أو هم النذر لاغير ، وإنما رجحت هذا القول لقوة أدلته ، وتنوعها ، وجريانها على مقتضى اللسان العربي ، وهو قول جمهور أهل العلم .

المبحث الثاني : أنهم رجال

والأصل في هذا هو قوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم...)[١] قال الرازي : " دلت الآية على أنه تعالى ما أرسل أحداً من النساء "[٢] وهذا هو قول السيوطي بعد ما ذكر هذه الآية الكريمة قال : " يدل على تخصيص الرسالة بالرجال "[٣] وقال في موضع آخر : " فيه إشارة إلى أنه لم يبعث رسولاً من النساء ، واختلف في مريم والصحيح أنها صديقة "[٤] والواقع أن الخلاف ليس في مريم وحدها - كما سيأتي - .

أما هذه الآية الكريمة التي استدل بها السيوطي والرازي على تخصيص الرسالة بالرجال فهي صيغة حصر ، أثبت الرسالة فيها للرجال الموحي إليهم ، وأشعر بنفي ذلك عن غيرهم ، فلا تكون أنثى نبية[٥] ، وهو استدلال قوي ، وعليه جمهور العلماء ، بل نقل الكرماني الاجماع عليه[٦] ، وحكى الاجماع عليه أيضاً القاضي أبو بكر ، والقاضي أبو يعلي وأبو المعالي[٧] لكن حكاية الاجماع فيها نظر ، لأنه قد نقل عن أبي الحسن الأشعري أن من النساء من نبئ[٨] وهو صريح رأي ابن حزم الذي قواه ونصره بأدلة سأناقشها قريباً ، وقد حصرهن ابن حزم في ست وهن : حواء أم البشر ، وسارة أم اسحاق ، وهاجر أم اسماعيل ، وأم موسى[٩] ، وآسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران أم عيسى[١٠] - عليهم جميعاً السلام - والأصل الذي بنى عليه أبو الحسن الاشعري قوله - كما نقل عنه - أن من جاءه الملك عن الله بحكم من أمر أو نهي أو باعلام مما سيأتي فهو نبي ، وقد ثبت مجئ الملك لهؤلاء بأمور شتى من ذلك من عند الله - عز وجل - ووقع التصريح بالايحاء لبعضهن في القرآن[١١] كما في قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه...) الآية[١٢]

---

(١) سورة النحل ، الآية (٤٣) .

(٢) التفسير الكبير (٣٦/٢٠) .

(٣) معترك الأقران (٣٤٩/٢) .

(٤) نفسه (٣٢٦/٢) .

(٥) انظر السفاريني ك لوامع الأنوار (٢٦٥/٢-٢٦٦) .

(٦) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٤٧/٦) .

(٧) انظر ابن تيمية مجموع الفتاوي (٣٩٦/٤) .

(٨) انظر : فتح الباري (٤٧١/٦، ٤٤٧) ، ولوامع الأنوار (٢٦٦/٢) .

(٩) اسمها " يوخابذ " ، وهي في التوراة " يوكابد " بكاف بدل الخاء وبدال مهملة بدل المعجمة ، والنطق بالكاف مفخماً ، ومعناه بالعربية " جليلة " وضبطها السيوطي بحاء مهملة بدل الخاء المعجمة وبنون بدل الباء الموحدة ، انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٢٦٦/٢) .

(١٠) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٧١/٦، ٤٤٧) ، لوامع الأنوار (٢٦٦/٢) .

(١١) انظر : فتح الباري (٤٤٧/٦) .

(١٢) سورة القصص (٧) .

وأمـــا إتيان الملك فكما قال تعالى : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً)[١] ، وقال أيضاً : (وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين)[٢] ونحوها من الآيات ، كما أن الله تعالى ذكرها في جملة الأنبياء الذين ذكرهم في سورة مريم ، أما في السنة فقد ورد قوله – صلى الله عليه وسلم – : " كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران... " الحديث[٣] .

ويظهــر ميــل ابن حزم إلى هذا الراي من تعريفه للنبوة في كتابه " الدرة " وهو مصرح به في كتابه الآخر " الفصَــل " فقــد قال : " النبوة أن ينبئ الله – عز وجل – من يشاء من عباده ، بوحي يعلمه به ما يكون قبل أن يكون "[٤] ويــلزم مــن هذا التعريف أن كل من جاءه الوحي من الله – بمعنى الملك الذي ذكره أبو الحسن – بما يكون أو بما يحدث مستقبلاً فهو نبي ، – وعليه فأم موسى ، وأم اسحق ، وأم عيسى ، وأم اسماعيل ، وآسيا ، وحواء – كما قدمت – نبيات ، وهو ما يذهب إليه أبو محمد بن حزم صراحة ، ويدافع عنه – كما قلت آنفاً – فقد عقد فصلاً في كتابه " الفِصل في الملل والأهــواء والـنحل "[٥] بعنوان " نبوة النساء " وصحح نبوتهن – كما زعم – ولم يجوز أن يكون منهن رسل ، واستدل لما ذهــب إليــه بأدلــة كثيرة محصلها عدم القطع بما قال[٦] ، كما يلزم من قوله في تعريف النبوة أن يكون النبي غير مأمور بالتبليغ ، وهذا فيه نظر ، وقد ناقشته في الفصل الأول من هذا الباب ، وكما يلزم من كلام الامام أبي الحسن الاشعري الذي تقــدم ، ومــن كلام الامام ابن حزم أيضاً ما لا يصح التزامه ، وهو القول بنبوة النفر الثلاثة من بني اسرائيل ، الاقرع ، والأبرص ، والأعمى[٧] ، لأنه قد أتاهم الملك عياناً ، وهذا لم يقله أحد من علماء الأمة[٨] ، كما أن نص الحديث يرد القول بنبوتهم لأنه نص في آخره على أن الله تعالى سخط عن اثنين منهم ، ورضي عن الثالث ، حين قال الملك للأعمى : " فإنما ابتليــتم ، فقد رضي الله عنك ، وسخط عن صاحبيك "فكيف يكون من سخط الله عليه نبياً لمجرد مجئ الملك إليه ؟ كما أن ثالثهم الذي رضي الله عنه ، لم يقل أحد من الأئمة بنبوته ، لأنه لا نص فيه ولا اجتهاد .

ومــن هــذا الباب أيضاً حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – : " أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى ، فأرصد[٩] الله تعالى على مدرجته[١٠] ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً

---

(١) سورة مريم الآية (١٧) .

(٢) سورة آل عمران الآية (٤٢) .

(٣) صحيح البخاري – كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٣٢) ح (٣٤١١) فتح الباري (٤٤٦/٦) . ومسلم (١٨٨٦/٤) ح رقم (٢٤٣١)

(٤) الدرة فيما يجب اعتقاده (ص٣٨٠) .

(٥) انظر : (١٧/٥-١٩) .

(٦) تكلم أيضاً على نفس الموضوع باختصار في كتابه : " الاصول والفروع " (٢٧٥/٢-٢٧٦) .

(٧) صحيح البخاري ، كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٥١) ح رقم (٣٤٦٤) فتح الباري (٥٠٠/٦) . وصحيح مسلم (٢٢٧٥/٤) ح رقم (٢٩٦٤) .

(٨) انظر : تعليق المحقق د.أحمد ناصر الحمد على كلام ابن حزم في كتاب " الدرة فيما يجب اعتقاده " (ص٣٨٠) .

(٩) أرصده : أقعده يرقبه ، انظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٢٤/١٦) .

(١٠) المَدْرَجــة : بفتح الميم والراء هي الطريق سميت بذلك لأن الناس يدرجون عليها أي يمضون ويمشون ، انظر نفس المصدر السابق ، وانظر كذلك : النووي : رياض الصالحين (ص١٧٦) ت.الألباني .

لـــي في هذه القرية ، فقال : هل لك من نعمة تَرُبُّها[١] عليه ؟ قال : لا ، غير أني أحببته في الله تعالى ، قال : فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه "[٢] .

فقوله : " فإني رسول الله إليك... " نظير قوله تعالى على لسان الملك لمريم (قال : إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً)[٣] وهذا الرجل الزائر أخاه في الله لم يقل أحد من العلماء بأنه نبي بل قال الامام النووي : " وفيه أن الآدميين قـد يـرون الملائكة "[٤] ولم يقل بأن هذا الرجل الذي رأى الملك ، بل وبلغه الملك رسالة من ربه هو نبي ، كذلك لم ينقل النووي عن أحد من الأئمة القول بنبوته ، كما أن النبي – صلى الله عليه وسلم – سماه " رجلاً " ولم يسمه " نبياً " بمعنى أن النـبي – صـلى الله عليه وسلم – تحدث عنه باعتباره رجلاً صالحاً أحب له أخاً في الله ، وقام بزيارته من أجل تلك المحـبة لا لغرض دنيوي ولا من أجل مصلحة مادية ولا منفعة له عنده ، ولم يقل النبي – صلى الله عليه وسلم – بأن ذاك الرجل الزائر هو نبي .

ومـن هـنا وجب القول : بأنه لا يلزم أن يكون كل من يأتيه الملك نبياً ، لمجرد ذلك الاتيان والمجئ وبه يظهر ضـعف القول بنبوة النساء بصفة عامة وبنبوة مريم بصفة خاصة ، وذلك بناءً على قولهم : إن كل من يأتيه الملك فهو نبي سواء كان رجلاً أو امرأة .

وبقـي الكلام الآن على بيان معنى " الاصطفاء " في قوله تعالى : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساء العالمين)[٥] .

الاصطفاء في اللغة : الاختيار .

قال في القاموس: " استصفاه : أخذ صفوه ، واختاره كاصطفاه "[٦] وقال في اللسان : " استصفى الشئ واصطفاه : اختاره ... والاصطفاء : الاختيار ، افتعال من الصفوة "[٧] .

وكلام المفسرين في تفسير معنى الاصطفاء في الآية الكريمة لا يبتعد عن المعنى اللغوي ، بل يتطابق معه ، قال ابن جرير : " (اصطفاك) اختارك واجتباك لطاعته وما خصك به من كرامته ، وقوله (وطهرك) يعني طهر دينك من الريب والأدناس التي في أديان نساء بني آدم (واصطفاك على نساء العالمين) يعني : اختارك على نساء العالمين في زمـانك بطاعتك إياه ففضلك عليهم "[٨] ، ففسر ابن جرير – كما نرى – الاصطفاء بالاختيار وهو معناه اللغوي الذي سبق أن نقلـته مـن معاجم اللغة ، فجعل (اصطفاكِ) الأولى : اختياره سبحانه وتعالى لمريم ابنة عمران ليجعلها محل كرامته

---

(١) تَرُبُّها : تقوم باصلاحها ، وتنهض إليه بسبب ذلك ، شرح النووي (١٦/١٢٤) .
(٢) رواه مسلم في " صحيحه " (٤/١٩٨٨) كتاب البر والصلة والآداب (٤٥) باب (١٢) ح رقم (٣٨-{٢٥٦٧}) .
(٣) سورة مريم – عليها السلام – الآية (١٩) .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/١٢٤) .
(٥) سورة آل عمران ، الآية (٤٢) .
(٦) ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة (٢/٨٣٤) .
(٧) (١٤/٤٦٣) ، والرازي : مختار الصحاح (ص٣٢١) .
(٨) جامع البيان (٣/٢٦٢) والأولى أن يقال : ففضلك عليهن ، لأن الآية في تفضيلها على النساء .

ورعايته فنشأت كريمة صالحة تقية عابدة ، وهذا محض فضل منه سبحانه وتعالى على أمته مريم .

وجعل (اصطفاكِ) الثانية : اختياره تبارك وتعالى لها مرة أخرى ليجزيها الجزاء الأوفى ، والثواب الأحسن لما رأى منها من الاجتهاد في العبادة والطهر والتقى ، فاختارها لتكون من أفضل نساء العالمين ، ولتكون أماً لعبده ورسوله عيسى - عليه السلام - وهذا أيضاً محض فضل وكرم وإحسان منه تبارك وتعالى ، فالفضل منه سبحانه بتوفيقها للطاعة والطهر والعبادة ، والفضل منه سبحانه وتعالى أيضاً بإثابتها وتفضيلها على غيرها من النساء .

والسيوطي كذلك فسر الاصطفاء بالاختيار ولم يخالف من سبقه من المفسرين فقال : " (يا مريم إن الله اصطفاكِ) اختاركِ (وطهركِ) من مسيس الرجال [١] (واصطفاكِ على نساء العالمين) أي أهل زمانك "[٢] والمفسرون - كما هو ملاحظ من تفاسيرهم - منهم من جعل تفضيل مريم - عليها السلام - على نساء زمانها ، وهو رأي ابن جرير والسيوطي ، ومنهم من جعل تفضيلها على نساء العالمين مطلقاً إلى يوم القيامة وهو كلام الشوكاني - كما سبق - وهو مقتضى كلام القرطبي في تفسيره لأنه جعلها نبية ، وسيأتي كلامه ومناقشته قريباً .

حكى هذين الرأيين أبو المظفر السمعاني في " تفسيره " ، وابن حجر في " الفتح " . قال السمعاني : " اختاركِ وطهركِ من الحيض والنفاس [٣] ، وقيل : من الذنوب ، (واصطفاكِ على نساء العالمين) منهم من قال : على نساء عالمي زمانها ، ومنهم من قال : على جميع نساء العالمين في أنها ولدت بلا أب[٤] ، ولم يكن ذلك لأحد من نساء العالم "[٥] .

وقال ابن حجر في شرحه لقوله - صلى الله عليه وسلم - " خير نسائها مريم "[٦] قال : " أي نساء أهل الدنيا في زمانها ... و (اصطفاكِ على نساء العالمين) ظاهره أن مريم أفضل من جميع النساء ، وهذا لا يمتنع عند من يقول إنها نبية ، وأما من قال : ليست بنبية فيحمله على عالمي زمانها ، وبالأول جزم الزجاج وجماعة ، واختاره القرطبي ، ويحتمل أيضاً أن يراد نساء بني اسرائيل ، أو نساء تلك الأمة، أو " من " فيه مضمرة ، والمعنى : أنها من جملة النساء الفاضلات"[٧] .

وبعد هذا النقل لكلام المفسرين فإنني لم أفهم من تفاسيرهم أن الاصطفاء هو اصطفاء النبوة ، وإنما هو اصطفاء التفضيل والاكرام ، إلا ما كان من كلام الامام القرطبي وهو رأي مرجوح سيظهر - إن شاء الله تعالى - عند إيراد كلامه قريباً .

إذاً فالاصطفاء في الآية الكريمة - كما قلت - هو اصطفاء الهداية والتكريم والتوفيق للعبادة والطاعة والتفضيل

---

(١) أي طهرها من مسيس الرجال بالحرام .

(٢) تفسير الجلالين (ص٦٤) .

(٣) بل قد نفست بعيسى - علي السلام - .

(٤) الأولى أن يقال : ولدت بلا زوج ، لأن المرأة تلد عن طريق اقترانها بزوج لا أنها تلد بأب ، وإن كان المعنى المقصود أنها ولدت بلا أب لوليدها ، لكن الأولى ما قلته .

(٥) أبو المظفر السمعاني : تفسير القرآن (٣١٨/١) .

(٦) جزء من حديث رواه البخاري في " صحيحه " من حديث عبدالله ابن جعفر قال : سمعت عليا - رضي الله عنه - يقول : " سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول ك خير نسائها مريم ابنة عمران ، وخير نسائها خديجة " كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٤٥) ح رقم : (٣٤٣٢) ، انظر الفتح (٤٧٠/٦) .

(٧) فتح الباري (٤٧١/٦) .

علـى الغير ، وكلها هبات وإحسان منه جل وعلا لبعض عباده دون بعض ، كما اصطفى تعالى أبا بكر الصديق - رضي الله عـنه - ليكـون صاحب الرسول - صلى الله عليه وسلم - ووزيره الأول دون غيره من الأصحاب ، واصطفى تعالى أصحابه - صلى الله عليه وسلم - دون غيرهم لينعموا بشرف الصحبة لنبيه - صلى الله عليه وسلم - في الدنيا والآخرة ، واصطفى تعالى له من النساء زوجاته الفضليات - رضي الله عنهن - ليكن له زوجات في الدنيا والآخرة ، وكم من امرأة تاقت لأن يكرمها ربها تعالى فتكون زوجة له - صلى الله عليه وسلم - ولكن لم يحصل لها ما أرادت ورجت

وكل هذا اصطفاء واختيار لأنواع عديدة من الاكرام والتفضيل والاحسان وليس فيه شئ من معاني النبوة .

ولا ضـير عـليّ أن أعضد ما قلته بكلام الفخر الرازي في تفسيره الكبير حيث قال : " اعلم أن المذكور في هذه الآية[١] . <u>أولاً :</u> هو الاصطفاء ، <u>وثانياً :</u> التطهير ، <u>وثالثاً :</u> الاصطفاء على نساء العالمين ، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء أولاً مـن الاصطفاء الثاني ، لما أن التصريح بالتكرير غير لائق ، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها ، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في آخر عمرها .

<u>أما النوع الأول من الاصطفاء :</u> فهو أمور :

<u>أحدها :</u> أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الاناث .

<u>وثانيها :</u> قال الحسن : إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين ، بل ألقتها إلى زكريا ، وكان رزقها يأتيها من الجنة .

<u>وثالثها :</u> أنه تعالى فرغها لعبادته ، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة .

<u>ورابعها :</u> أنه كفاها أمر معيشتها ، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى : (...أني لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله...)[٢] .

<u>وخامسها :</u> أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفاهاً ، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها ، فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول .

- وأما التطهير : ففيه وجوه :

<u>أحدهـا :</u> أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية فهو كقوله تعالى في أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - : (ويطهركم تطهيراً)[٣] .

<u>وثانيها :</u> أنه تعالى طهرها عن مسيس الرجال (أي بالحرام) .

<u>وثالثها :</u> طهرها عن الحيض ، قالوا : كانت مريم لا تحيض .

<u>ورابعها :</u> وطهرك من الافعال الذميمة ، والعادات القبيحة .

<u>وخامسها :</u> وطهرك عن مقالة اليهود وتهمهم وكذبهم .

<u>- وأمـا الاصطفاء الثاني :</u> فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى - عليه السلام - من غير أب ، وأنطق عيسى حال انفصاله

---

(١) هي الآية (٤٢) من سورة آل عمران ، وهي قوله تعالى : (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساء العالمين)
(٢) سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٧) .
(٣) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٣٣) .

منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة "[١] .

ومـــن هذا الذي نقلته عن الرازي ومن قبله يتأكد القول بأن الاصطفاء هو اختيار اكرام واحسان وإفضال ، وليس بصـــريح في إثبات نبوة مريم كما قرر ابن حجر[٢] ، حيث قال : " استدل بقوله تعالى : (إن الله اصطفاكِ) على أنها كـــانت نـــبية وليس بصريح "[٣] وأما ذكرها – عليها السلام – في سورة مريم مع من ذكر من الأنبياء[٤] ، فليس صريحاً كذلك على كونها نبية ، وإنما ذكرت من أجل نبوة ابنها عيسى – عليها السلام – وليس لنبوتها هي ، قال الفخر الرازي : " أعـــلم أن مريم – عليها السلام – ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً من أهل القرى)[٥] وإذا كان كذلك كان ارسال جبريل – عليه السلام – إليها ، إما أن يكون كرامة لها ، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء ، أو إرهاصـــاً لعيسى – عليه السلام – وذلك جائز عندنا "[٦] وأما التصريح بالايحاء لبعض النساء في القرآن كما قال ابو الحسن الاشعري[٧] ، فليس فيه أيضاً – ما يدل على النبوة ، لأن الايحاء هنا لأم موسى هو الإلهام الحاصل للإنسان – كما قـــد وضـــحته فـــي الفصـــل الثالث عند الكلام عن تعريف الوحي وقلت هناك بأن الالهام أحد معانيه ، قال أبو اسحاق : " ...ولذلك صار الالهام يسمى وحياً "[٨] ومنه قوله تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي...)[٩] ومنه – أيضـــاً – قوله تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى)[١٠] فهو إلهام[١١] يحصل لآحاد الناس توفيقاً منه تعالى لعبده ورحمة به وهو ما حدث لأم موسى – عليهما السلام – وليس فيه ما يؤكد نبوتها .

والحديث الذي ورد في كمال النساء وهو قوله – صلى الله عليه وسلم – : " كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النســـاء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران... "[١٢] فقد كان هذا الحصر في الحديث مما استدلوا به على أن آسية ومـــريم نبيتان ، قالوا : " لأن اكمل النوع الانساني الأنبياء ثم الأولياء والصديقون والشهداء ، فلو كانت غير نبيتين للزم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة والواقع أن هذه الصفات في كثير منهن موجودة ، فكأنه قال ولم ينبأ من النساء إلا فلانة وفلانة ، وقو قال لم تثبت صفة الصديقة أو الولاية أو الشهادة إلا لفلانة وفلانة لم يصح ، لوجود ذلك في غيرهن

---

(١) التفسر الكبير (٤٧/٨) .
(٢) انظر : فتح الباري (٤٧٠/٦) .
(٣) فتح الباري (٤٧٠/٦) .
(٤) ذكر السيوطي هذا القول عن السبكي في " الحلبيات " قال : " ويشهد لنبوتها ذكرها في سورة مريم مع الأنبياء وهو قرينة ، قال : وقد اختلف في نـــبوة نســـوة غيـــر مـــريم كأم موسى وآسية وحواء وسارة ولم يصح عندنا في ذلك شئ " انظر : الأشباه والنظائر في قواعد وفروع الشافعية للسيوطي (ص٢٤٠) وانظر فتح الباري (٤٧١/٦) .
(٥) سورة يوسف الآية (١٠٩) .
(٦) التفسير الكبير (٤٧/٢٠) .
(٧) انظر فتح الباري (٤٤٧/٦) .
(٨) لسان العرب (٣٨١/١٥) .
(٩) سورة المائدة الآية (١١) .
(١٠) سورة القصص الآية (٧) .
(١١) انظر : الراغب : المفردات (ص٥١٥) .
(١٢) سبق تخريجه ، وهو في الصحيحين .

، إلا أن يكون المراد في الحديث كمال غير الأنبياء فلا يتم الدليل على ذلك لأجل ذلك "[١] .

والظاهـر من الحديث أن المراد هو كمال غير الأنبياء وكمال كل جنس بحسبه ، فأعلى درجات الكمال في جنس الـرجال بـلوغ النـبوة والرسـالة فضلاً من الله ونعمة . ومقتضى حكمة إلهية ، وأعلى درجات الكمال في جنس النساء الصـديقية ، كما أخبر تعالى عن مريم فقال : (وأمه صديقة)[٢] وإذا كان فيهن من بلغت رتبة الصديقية ففيهن أيضاً الولاية والشهادة ، ولا يستلزم نفي النبوة عنهن ، نفي ما سواها من الصديقية والولاية والشهادة فنفي الأعلى لا يستلزم نفي الأدنى ويصح عكسه ، فأبو بكر صديق ، وعمر ولي وشهيد ، والاجماع منعقد على أفضلية أبي بكر – رضي الله عنه – ، وبـه ظهر أن المراد في الحديث كمال غير الأنبياء ويؤيد ما قلته قول الكرماني : " لا يلزم من لفظ الكمال ثبوت نبوتها – أي مريم – ، لأنه يطلق لتمام الشئ وتناهيه في بابه ، فالمراد بلوغها النهاية في جميع الفضائل التي للنساء ، قال : وقد نُقل الاجماع على عدم نبوة النساء "[٣] وقد سبق الكلام على نقل الاجماع .

ويؤيده كذلك ما قاله السيوطي في رد قول من قال بنبوة مريم ، وأكد على أنها صديقة وليست نبية قال السيوطي : (صـديقة)[٤] " بـناء مبالغة من الصدق أو من التصديق ، ووصف مريم بهذه الصفة دون النبوة ، يدفع قول من قال إنها نبيـة "[٥] وبـناءً على هذا يتضح ضعف الأدلة التي استدل بها على نبوة النساء كل من الأشعري وابن حزم والقرطبي ، وسيأتي كلام القرطبي قريباً ورد القاضي عياض عليه .

كما يؤيد ما قلته – أيضاً – كلام شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقد وصف كلام ابن حزم بالشذوذ ، فقال : " وبالجملة فهـذا قـول شاذ ، لم يسبق إليه أحد من السلف ، وأبو محمد (يعني ابن حزم) مع كثرة علمه وتبحره ، وما يأتي به من الفوائـد العظيمـة ، له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة ، وهذا كقوله : إن مريم نبية ، وإن آسية نبية ، وإن أم موسى نبية ، وقد ذكر القاضي أبو بكر ، والقاضي أبو يعلي ، وأبو المعالي ، وغيرهم : (الاجماع على أنه ليس في النساء نبية ، والقرآن والسنة دلا على ذلك (يعني على صحة الاجماع) كما في قوله : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى)[٦] ، وقوله : (ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة...)[٧] ذكر أن غاية ما انتهت إليه أمه : الصديقية "[٨] .

وكان ممن قال بنبوة النساء – أيضاً – القرطبي ، ولكنه أسقط منهن سارة وهاجر ، ونقله في " التمهيد " عن أكثر

---

(١) ابن حجر : فتح الباري (٤٤٧/٦) .
(٢) سورة المائدة الآية (٧٥) .
(٣) ابن حجر : فتح الباري (٤٤٧/٦) .
(٤) سورة المائدة ، بعض الآية (٧٥) .
(٥) معترك الأقران (٥٨١/٢) .
(٦) سورة يوسف الآية (١٠٩) .
(٧) سورة المائدة الآية (٧٥) .
(٨) مجموع الفتاوي (٣٩٦/٤) .

الفقهـــاء[١] ، قــال القرطبي : " والصحيح أن مريم نبية "[٢] وقال عياض : " الجمهور على خلافه "[٣] " ونقل النووي في " الاذكـــار" أن إمام الحرمين[٤] نقل الاجماع على أن مريم ليست نبية ، وعن الحسن : ليس في النساء نبية ولا في الجن "[٥] ومــا قالــه القاضي عياض ، والإمام النووي والجويني وما نقل عن الحسن هو الحق الذي ترجحه الأدلة ، وهو ما رجحه شــيخ الاســلام ابن تيمية ، وكذلك الفخر الرازي من قبله[٦] ، وتأكيداً لذلك أنقل نصاً آخر من كلام ابن تيمية فقد قال : " ومريم بنت عمران ، وآسيا زوجة فرعون من أفضل النساء ، والفواضل من هذه الأمة كخديجة وعائشة وفاطمة – رضي الله عــنهن – أفضل منها[٧] ، كما أن المفضلين من رجال هذه الأمة أفضل من فضلاء رجال غيرها ، فإن الصواب الذي عليه عامة المسلمين ، وحكى الاجماع عليه غير واحد أنهما ليستا نبيتين ، وإنما غايتهما الصديقية ، كما دل عليه القرآن ، وصديقوا هذه الأمة رجالها ونساؤها أفضل من صديقي غيرها "[٨] .

المبحث الثالث : أنهم صادقون

رســل الله وأنبياؤه – عليهم جميعاً السلام – صادقون مصدقون ، بارون راشدون كرام بررة أتقياء ، أمناء ، هداة مهتدون ، وبالبراهين الظاهرة والآيات الباهرة من ربهم مؤيدون ، بلغوا جميع ما أرسلهم الله تعالى به ، ولم يكتموا شيئاً ، ولم يغيروا أو يبدلوا ، ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفاً ولم ينقصوه (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين)[٩] ولقد كانوا جميعهم على الحق المبين ، والهدى المستبين ، ودلائل صدقهم كثيرة أذكر منها ثلاثة أنواع :

<u>أولهــا :</u> وهــو أعظمهــا شــهادة الله تعــالى لهم بأنهم صادقون قال تعالى : (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)[١٠] ، وقال تعالى أيضاً : (...هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)[١١] . وقال عز شأنه عن اسماعيل – عليه السلام – : (إنه كان صادق الوعد)[١٢] وقال تبارك اسمه عن ابراهيم – عليه السلام – : (إنه كان صديقاً نبياً)[١٣] وقال عــز وتقدس : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين)[١٤] فسلم على المرســلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب[١٥] ، قال د. هراس : " ثم يسلم على رسله – عليهم الصلاة والسلام –

---

(١) فتح الباري (٤٧١/٦) و " التقريب لكتاب التمهيد " مخطوط في خزانة القرويين بفاس برقم (١١٧/٨٠) .
(٢) فتح الباري (٤٧١/٦) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٥٣/٤) .
(٣) فتح الباري (٤٧١/٦) ، (٤٧٣/٦) .
(٤) انظر : فتح الباري (٤٧٣/٦،٤٧١) .
(٥) نفسه (٤٧٣/٦،٤٧١) .
(٦) انظر : التفسير الكبير (٤٧/٨) .
(٧) هكذا بضمير الأفراد والصواب أن يقال : افضل منهما ، لأن سياق الكلام عن مريم وآسيا – عليهما السلام – ، ولعل الخطأ من النسخ أو الطباعة .
(٨) مختصر الفتاوي المصرية (ص٢٠١) .
(٩) سورة النحل الآية (٣٥) .
(١٠) سورة الزمر الآية (٣٣) .
(١١) سورة يس ، بعض الآية (٥٢) .
(١٢) سورة مريم ، بعض الآية (٥٤) .
(١٣) سورة مريم ، بعض الآية (٤١) ، وكذلك قال عن سيدنا إدريس – عليه السلام – في الآية (٥٦) .
(١٤) سورة الصافات الآيات (١٨٠-١٨٢) .
(١٥) انظر : العقيدة الواسطية (ص٣٠) مع شرحها لهراس .

بعـد ذلـك للإشـارة إلى أنه كما يجب تنزيه الله – عز وجل – وابعاده عن كل شائبة نقص وعيب ، فيجب اعتقاد سلامة الرسـل في أقوالهم وأفعالهم من كل عيب كذلك ، فلا يكذبون على الله ، ولا يشركون به، ولا يغشون أممهم ، ولا يقولون عـلى الله إلا الحق "[1] فالرسل هم أصدق الخلق على الاطلاق ، يقول الله تعالى في تأكيد هذا الصدق : (ولو تقول علينا بعـض الأقـاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين)[2] أي لو كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما يزعمون مفترياً علينا " فزاد في الرسالة أو نقص منها أو قال شيئاً من عنده فنسبه إلينا – وليس كذلك – لعاجلناه بالعقوبة (لأخذنا منه باليمين) ... لانتقمنا منه باليمين ، لأنها أشد في البطش ... (ثم لقطعنا منه الوتين) ... وهو نياط القلب وهو العرق الذي القلب معلق فيه "[3] يقول سيد قطب : " وفي النهاية يجيئ ذلك التهديد الرعيب ، لمن يفـتري على الله في شأن العقيدة وهي الجد الذي لا هوادة فيه ، يجئ لتقرير الاحتمال الواحد الذي لا احتمال غيره ، وهو صـدق الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأمانته فيما أبلغه إليهم أو يبلغه ، بشهادة أن الله لم يأخذه أخذاً شديداً ، كما هو الشأن لو انحرف أقل انحراف عن أمانة التبليغ ... ومفاد هذا القول من الناحية التقريرية أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – صـادق فيمـا أبـلغهم ، وأنه لو تقول بعض الأقاويل التي لم يوح بها إليه لأخذه الله فقتله على هذا النحو الذي وصفته الآيـات، ولمـا كان هذا لم يقع فهو لا بد صادق "[4] وهذا المعنى بعينه متحقق في جميع الرسل كما هو متحقق في رسولنا محمد – صلى الله عليه وسلم – فكلهم رسل الله ، وجميعهم أخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد[5] ، وحكمهم في الصدق كذلك حكم واحدة ، وهم فيه قد بلغوا الغاية ، ويدل على ما قلته أن هذه الآية قُرئت (ولو تُقُوِّلَ) على البناء للمفعول – كما ذكـر أبو عبدالله القرطبي[6] – وهي صيغة تعم كل من تقول على الله تعالى ، سواء كان محمداً – صلى الله عليه وسلم – وحاشـاه – أم كان غيره ، وقد قال الله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شئ ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله)[7] أي ومن أخطأ قولاً ، وأجهل فعلاً ممن افترى على الله كذباً ، يعني : ممن اختلق على الله كذباً ، فادعى عليه أنه بعثه نبياً ، وأرسله نذيراً ، وهو في دعواه مبطل ، وفي قيله كاذب ، وهذا تسفيه من الله لمشركي العرب ، وتجهيل منه لهم في معارضة عبدالله بن سعد بن أبي سرح ، والحنفي مسيلمة[8] ، لنبي الله – صلى الله عليه وسلم

---

(١) شرح العقيدة الواسطية (ص٣٠) .

(٢) سورة الحاقة الآيات (٤٤-٤٧) .

(٣) ابـن كـثير : تفسير القرآن العظيم (٢٤٥/٨) ، ونقل ذلك عن ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحكم ، وقتادة ، والضحاك ، ومسلم البطين ، وأبو حميد بن زياد ، وانظر ابن جرير : جامع البيان (٦٦،٦٧/٢٩) .

(٤) في ظلال القرآن (٣٦٨٩/٢٩) .

(٥) ورد هذا في حديث رواه البخاري في " صحيحه " ، كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٤٨) ح رقم (٣٤٤٢،٣٤٤٣) فتح الباري (٤٧٧،٤٧/٦) ورواه مسـلم فـي "صحيحه " (١٨٣٧/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٤٠) ح رقم (١٤٣،١٤٤،١٤٥) ، وانظر : صحيح الجامع (١٤/٢) .ورواه أبو داود في " سننه " وأحمد في " مسنده " .

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٧٨/١٨) .

(٧) سورة الأنعام الآية (٩٣) .

(٨) مضت ترجمته ، وزوجه سجاح .

- ونفي منه عن نبيه محمد – صلى الله عليه وسلم – اختلاق الكذب عليه ، ودعوى الباطل[١] .

وما أخبرنا الله تعالى به من أن الكاذب عليه سبحانه يؤخذ أخذاً شديداً رعيباً ، نرى صدقه واقعياً مشاهداً وقد سجل لنا التاريخ هذا الشاهد القوي ، فإن النبي الصادق في دعواه ، ينصره الله تعالى ويؤيده ، ويظهر أمره فيستمر على ذلك حتى ينتهي الأجل المقدر .

أما الكذاب المفتري فلا يدوم أمره إلا قليلاً ، ثم ينقطع ذكره ويضمحل أمره فلا يبقى له من باقية ، وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية : " أخبرت الأنبياء المتقدمون أن المتنبئ الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة ، وهذه من حجج أحد ملوك النصارى الذين يقال بأنهم من ولد قيصر ... حيث رأى رجلاً يسب النبي – صلى الله عليه وسلم – من رؤوس النصارى ويرميه بالكذب ، فجمع علماء النصارى وسألهم عن المتنبئ الكذاب كم تبقى نبوته ؟ فأخبروه بما عندهم من النقل عن الأنبياء : أن الكذاب المفتري لا يبقى إلا كذا وكذا سنة لمدة قريبة ، إما ثلاثين سنة أو نحوها ، فقال لهم : هذا دين محمد له أكثر من خمسمائة سنة أو ستمائة سنة وهو ظاهر مقبول متبوع ، فكيف يكون هذا كذاباً ، ثم ضرب عنق ذلك الرجل "[٢] إذاً لا يوجد مدع للنبوة كذاب إلا ولابد أن ينكشف ستره ، ويظهر أمره ، أما الأنبياء الصادقون فلا يزال يظهر صدقهم ، ويعلو أمرهم كما هو مشاهد ، وأن أخبارهم الصادقة لا تزداد مع الأيام إلا ثباتاً ووثوقاً وظهوراً ، ومع تداول الفرق ، وكثرة طعون الأعداء ، وحرصهم على توهينها و تضعيف أصلها إلا قوة وقبولاً ، وللطاعنين عليها إلا حسرة وغليلاً ، على عكس أخبار الكذابين التي لا أصل لها فإنه لا بد مع مرور الأزمان ، وتداول الناس من انكشاف كذبها ، وظهور بطلانها وخمول ذكرها[٣] .

<u>ثانيها :</u> الآيات الباهرة ، والبراهين القاهرة التي أظهرها الله على أيديهم تنطق بصدقهم ، وتلوح بتأييدهم ، قال تعالى : (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين)[٤] وقال تعالى : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين)[٥] .

وقال – صلى الله عليه وسلم – : " ما من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر... "[٦] .

قال ابن حجر : " الآيات : المعجزات الخوارق ... وهذا دال على أن النبي لا بدله من معجزة تقتضي إيمان من شاهدها بصدقه ، ولا يضره من أصر على المعاندة ... والمعنى : أن كل نبي أعطي آية أو أكثر من شأن من يشاهدها من البشر أن يؤمن به لأجلها " فكل نبي أعطاه الله تعالى آية خاصة به لم يعطها بعينها غيره ، تحدى بها قومه ، وكانت آية كل نبي (معجزته) تقع مناسبة لحال قومه الذين أرسل إليهم ، فمن كان في قومه السحر فاشياً أعطاه آية مناسبة لما برعوا فيه من السحر كعصا موسى – عليه السلام – فإنها جاءت على صورة ما يصنع السحرة لكنها ليست بسحر إنما هي آية

---

(١) انظر : ابن جرير (٢٧٢/٧) ، وابن كثير (٢٩٥/٣) ، والقرطبي (٢٧/٧) .

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية (ص٩٦،٩٥) .

(٣) انظر : القاضي عياض : الشفا (٣٥٦/١) .

(٤) سورة الانفال الآية (٦٢) .

(٥) سورة الصف الآية (١٤) .

(٦) متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب (١) ، ح رقم (٤٩٨١) فتح الباري (٣/٩) ، ورواه أيضاً في كتاب الاعتصام بالسنة (٩٦) باب (١) ح رقم (٧٢٧٤) فتح الباري (٢٤٧/١٣) .ورواه مسلم في " صحيحه " (١٣٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧٠) ح رقم (٢٣٩) .

خارقة تلقفت ما صنعوه ولفقوه ، فأعجزتهم وبهرتهم حتى آمن بموسى صانعوا السحر أنفسهم ، لأنهم تيقضوا بخبرتهم أنها ليست بسحر مثل سحرهم الذي يأفكونه ، ولم يقع ذلك بعينه لغير موسى - عليه السلام - فاختص بها دون سواه من الأنبياء ، وكذلك لما كان الطب والحكمة فاشيان في عهد عيسى ابن مريم - عليهما السلام - وأن الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور أيده الله تعالى بآية من جنس علمهم بما لم تصل قدرتهم إليه ، فكان عيسى - عليه السلام - يحي الموتى ويبرئ الاكمه والأبرص من غير معالجة منه كما يفعل أطباء عصره ، ومن غير أن يتعلم الطب كما تعلموه ونبغوا فيه وذلك كما كان نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - أمياً لا يقرأ ولا يكتتب وفاق قومه فيما أوحاه الله إليه من الكلام الفصيح البليغ المعجز وهو القرآن الكريم ، فإن قوم عيسى كانوا فائقين في علاج بلاء الأبدان ، فتفوق عليهم فيه وأعجزهم أن يأتوا بمثله ، وهم مع تفوقهم لم يصلوا إلى أنهم يحيون الموتى البتة ، لكن الله تعالى أيد رسوله عيسى بأنه كان يحي الموتى بإذنه تعالى ، فكانت آية له قاهرة بهرتهم ، فتيقنوا بخبرتهم الطبية أن هذا الذي يأتي به عيسى - عليه السلام - خارج عن نطاق الطب بالكلية ، ولا يستطيعه بشر ، إنما هو آية ربانية لبيان حق ودلالة صدق .

وكذا لما كان العرب الذين بعث فيهم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - في غاية البلاغة والفصاحة ، اكرم الله رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بآية أعجزت ألسنتهم - وهم ملوك اللسان والبيان - عن محاكاته ، وهو القرآن العظيم ، فتحداهم بأن يأتوا بسورة مثله ، فلم يقدروا على ذلك ، فأيقنوا بخبرتهم الفائقة في صناعة الكلام وتركيب الالفاظ التي تعتبر قمة في الفصاحة والبلاغة والبيان آنئذ ، لما سمعوا نظم القرآن الكريم ، وتراكيب الفرقان الحكيم ، أدركوا أنه فوق طاقة البشر ، وأنه آية ناطقة بصدقه - عليه الصلاة والسلام - وهكذا أعطى الله كل نبي آية تخصه وبجانبها آيات كثيرة آمن بسببها كثير من البشر ، كانت من أدل الدلائل على صدق هؤلاء الرسل الكرام .

وثالثاً : دلالة العقل على صدق الرسل والأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - والصدق هو مطابقة خبرهم للواقع ولو بحسب اعتقادهم[1] فلو لم يكن الرسل صادقون للزم الكذب في خبره تعالى ، ولكن كذب خبره محال ، فما أدى إليه وهو عدم صدقهم محال ، فيجب لهم الصدق .

ودليل هذه الملازمة : أن الله صدقهم بالآية (المعجزة) النازلة منزلة قوله : صدق عبدي في كل ما يبلغ عني ، وتصديق الكاذب من العالم بكذبه محض كذب ، وهو محال في حقه تعالى ، فملزومه وهو عدم صدقهم محال ، وإذا استحال عدم صدقهم ، وجب صدقهم وهو المطلوب .

قال تعالى : (...وصدق الله ورسوله...)[2] وقال : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين)[3] لكنا لم نأخذ منه باليمين ، ولم نقطع منه الوتين ، فدل على أنه لم يتقول علينا ، بل كان صادقاً فيما

---

(١) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٢/٣٠٧) .
وانظر : ابراهيم بن محمد البيجوري : تحفة المريد على جوهرة التوحيد (ص٧٦) ، حسن السيد متولي : مذكرة التوحيد (ص٣٣) .
(٢) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٢٢) .
(٣) سورة الحاقة ، الآيات (٤٤-٤٦) .

بلغه عنا .

قـال السـفاريني : " والوتين : عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه وبالجملة فهذا معلوم بالاضطرار من دين الاسلام لا يحتاج إلى تقريره ، وفي قصة هرقل مع أبي سفيان كما في الصحيح[١] عند سؤال هرقل عظيم الروم أبا سفيان عن أوصاف النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب أي على الناس ؟ قال : لا ، وإن كان ليدعي فينا بالأمين ، فقال : لقد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم ليكذب على الله تعالى ، فيشعر هذا أن عقلاء الأمم مطبقون على استحالة كذب الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – "[٢] .

وإذا كـان قـد علم صدق الأنبياء والرسل – عليهم السلام – بدلالة المعجزة ، وغيرها من دلائل النبوة ، وجب تصديقهم في كل ما أتوا به عن الله ، ويستحيل عليهم الكذب عقلاً وشرعاً – كما بينت آنفاً – .

قـال الجلال السيوطي : " والكذب الصراح لا يجوز على الأنبياء عند أهل التحقيق ، وأما المعاريض فهي جائزة "[٣] والمعاريض هي : " ما يفهم به السامع مراده من غير تصريح "[٤] .

المبحث الرابع : أنهم معصومون

مـن المقطوع به أن الأنبياء والرسل هم صفوة البشر ، خلقهم الله تعالى على الفطرة السليمة ، النقية عن الآفات الخُلقية ، وقد هيأ لهم الله جل وعلا نشأة أعدهم بها لتحمل أمانة دعوة الخلق إلى التوحيد والعمل الصالح ، فهم مكلفون من الله جـل وعـلا بهداية الخلق بالبيان الواضح ، وإقامة الحجة الدامغة ومقارعة الخصوم ، يزين ذلك عقل راجح ، وفطانة راشـدة تبهت عقول المعاندين والمجادلين بالباطل (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربـي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ، قال ابراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت

---

(١) هـذا ورد فـي حديث متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " كتاب بدء الوحي (١) باب (٦) ح رقم (٧) انظر : الفتح (٣١/١) ، ورواه أيضـاً في كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٠٢) ح رقم (٢٩٤١) فتح (١٠٩/٦) ، وفي كتاب التفسير (٩٥) باب (٤) ، ح رقم (٤٥٥٣) فتح (٨/ ٢١٤) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (١٣٩٣/٣) كتاب الجهاد (٣٢) باب (٢٦) ح رقم (٧٤-{١٧٧٣}) وأحمد (٢٦٣/١،٢٦٢) .

(٢) لوامع الأنوار البهية (٣٠٧/٢) ، وانظر : تحفة المريد (ص٧٦) ، وحاشية محمد بن محمد الأمير على شرح الجوهرة لعبد السلام المالكي (ص١١٤) .

(٣) معترك الأقران (٧٢/٣) .

(٤) التعريفات (ص٦٢) .

وقـال فـي اللسـان (١٨٢/٧) : " وعرّض لي بالشئ لم يبينه " وقال أيضاً (١٨٢/٧-١٨٣) : " والمعاريض من الكلام ما عُرِّض به ولم يُصرَّح ، وأعـراض الكـلام ، ومعارضه ومعاريضه : كلام يشبه بعضه بعضاً في المعاني ، كالرجل تسأله : هل رأيت فلاناً ؟ فيكره أن يكذب وقد رآه فيقـول : إن فلاناً لَيُرى . ولهذا المعنى قال عبدالله ابن العباس : ما أحب بمعاريض الكلام حمر النعم ، ولهذا قال عبدالله بن رواحة حين اتهمته امرأته بجارية له وقد كان حلف ألا يقرأ القرآن وهو جنب ، فألحت عليه بأن يقرأ سورة ، فأنشأ يقول :

شهـدت بـأن وعـد الله حـق ... وأن الـنـار مثـوى الكافرينا
وأن العرش فوق المـاء طاف ... وفوق العـرش رب العالمينا
وتحمله مـلائكـة شـداد ... ملائكة الالـه مسـومـينا

قال : فرضيت ، لأنها حسبت هذا قرآنا ، فجعل ابن رواحة هذا عَرَضاً ومعْرَضاً فراراً من القراءة ... والمعاريض خلاف التصريح ، والمعاريض : الـتورية بالشـئ عـن الشـئ " والـتورية هـي : " أن يـريد المتكـلم بكلامـه خـلاف ظاهـره مثل أن يقول في الحرب : مات إمامكم ، وهـو يـنوي به أحداً من المتقدمين " (التعريفات ص٧١) ، وفي الحديث عن عمران بن حصين مرفوعاً : " إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب " أي سعة .

الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين)[١] ومع ذلك فهم يبلغون ما أوحاه الله إليهم بكل دقة وأمانة لا يغيرون ولا يبدلون ولا يتقولون ، (...قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع إلا ما يوحى إليّ)[٢] .

(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين)[٣] .

وهـذه الأمانة هي ما اصطلح على تسميتها بالعصمة ، فهذه الصفوة المختارة قد عصمهم الله تعالى من كل ما من شأنه أن يعيق دعوتهم أو ينفر من سلوك طريقتهم ، أو يدخل في قلوب المدعوين أدنى ريب من جهة البلاغ والبيان .

فهـم القدوة الحسنة لجميع البشر ، وهم المثل الأعلى ، والنموذج الأكمل في جميع نواحي الكمال الخلقي والسمو الـروحي ، وذلـك بـبعدهم عن اقتراف المعاصي والآثام ، وعزوفهم عن الانكباب على الشهوات واجتنابهم كل ما يخل بالمـروءة أو يهدر الكرامة ، ومن أجل ذلك أمر الله تبارك وتعالى بالاقتداء بهم ، والنسج على منوالهم ، والتخلق بأخلاقهم والالتزام بمنهجهم قولاً وعملاً واعتقاداً . (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)[٤] .

<u>- تعريف العصمة في اللغة :</u>

العصمة في كلام العرب تعني : المنع والحفظ .

وعَصَـمَه يَعصِمه عَصْماً : منعه ووقاه[٥] . واسم الفاعل : عاصم ، قال تعالى : (يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد)[٦] .

والعاصم هنا بمعنى : مانع ودافع[٧] وقد يطلق ويراد به اسم المفعول ، كما في قوله تعالى وتقدس حكاية عن ابن نـوح - عـليه السـلام - : (...قـال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم...)[٨] . أي : لا معصوم اليوم من أمر الله إلا من رحمه الله تعالى ، أي : لا " معصوم إلا المرحوم "[٩]

وذكـر الراغب الأصفهاني أن العَصْم : الامساك والاعتصام : الاستمساك[١٠] ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، وفي التنزيل العزيز قوله جل وعلا : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا...)[١١] أي : تمسكوا بعهد الله[١٢] ، أو بدينه

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٨) .

(٢) سورة سيدنا يونس - عليه السلام - ، بعض الآية (١٥) .

(٣) سورة الحاقة الآيات (٤٦،٤٥،٤٤) .

(٤) سورة الأنعام ، بعض الآية (٩٠) .

(٥) لسان العرب (٤٠٣،٤٠٤/١٢) .

(٦) سورة غافر الآية (٣٣) .

(٧) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٦٢/٢٤) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١٣٣/٧)، والسمعاني : تفسير القرآن (١٩/٥) ، الشوكاني : فتح القدير (٤٩١/٤) ، حسنين محمد مخلوف : كلمات القرآن تفسير وتبيان (ص٣٩٥) بهامش المصحف الشريف ، الجلالين (ص٥٧٢) .

(٨) سورة سيدنا هود - عليه السلام - الآية (٤٣) .

(٩) لسان العرب (٤٠٣/١٢) .

(١٠) انظر : المفردات (ص٣٣٦) .

(١١) سورة آل عمران ، بعض الآية (١٠٣) .

(١٢) اللسان (٤٠٤،٤٠٥/١٢) ، وانظر : جامع البيان (٣٠/٤) ، وابن كثير ك تفسير القرآن العظيم (٧٣/٢) ، والشوكاني : فتح القدير (٣٦٩/١) .

أو بكتابه[١] فالعصمة إذاً معناها : المنع ، والحفظ ، والإمساك والوقاية .

- تعريف العصمة في الاصطلاح :

وأما العصمة في الاصطلاح : فقد اختلفت في ذلك عبارات العلماء فقال بعضهم : " هي حفظ الله تعالى عبده مما يوبقه "[٢] ولفظة " عبده " في هذا التعريف غير دقيقة إذ أنها تشمل غير الأنبياء ، مع أن الاتفاق بين علماء الأمة على ثبوتها للأنبياء والرسل فقط دون غيرهم من سائر البشر ، وعلى ذلك فهو تعريف جامع غير مانع . وقريب منه تعريف الجرجاني حيث قال : " العصمة : هي ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها "[٣] فهل هذه الملكة تحصل للأنبياء وغيرهم ؟ والجواب المؤكد أنها ليست ثابتة لغير الأنبياء ، ثم إن معنى كون العصمة ملكة ، أنه يمكن اكتسابها ، ذلك لأن الملكة حالة ترسخ في النفس مع كثرة المران والدربة

لذلك قال الجرجاني نفسه في تعريفها (أعني الملكة) : " هي صفة راسخة في النفس ، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال ، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية ، وتسمى حالة ما دامت سريعة الزوال ، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال فتصير ملكة ، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخُلقاً "[٤] فكل ذي حرفة أو صنعة أو فن من العلوم بكثرة ممارسته له والانشغال به ، تصبح لديه ملكة في تلك الحرفة أو الصنعة أو الفن ، وذلك كالفقيه الذي رسخت لديه ملكة استنباط الأحكام من الأدلة بحيث يمكنه معرفة الحكم الشرعي لكل جزئية من تصرفات البشر من الحل أو الحرمة أو الكراهة أو غير ذلك ، فهي ملكة مكتسبة بالتعلم والدراسة والمناقشة والنظر في أقوال العلماء وسماع طرق اجتهادهم والوقوف على موارد نزاعهم مع الصبر والدأب في ذلك ، حتى تحصل له تلك الملكة .

إذاً فهي صفة أو حالة تكتسب بالمراس والتعود وهي قابلة للزوال ، ولكن العصمة التي للأنبياء ليست كذلك ، بل هي محض فضل الله جل وعلا ، ولذا عرفها بعضهم بقوله : " هي محض فضل الله تعالى بحيث لا اختيار للعبد فيه وذلك إما بخلقهم[٥] على طبع يخالف غيرهم بحيث لا يميلون إلى المعصية ، ولا ينفرون عن الطاعة كطبع الملائكة ، وإما بصرف همتهم عن السيئات وجذبهم إلى الطاعات ، جبراً من الله تعالى بعد أن أودع في طبائعهم ما في طبائع البشر "[٦] .

وفي القول بجبر الأنبياء على الطاعة ، وسلب اختيارهم نظر ، لأنهم إذا كانوا مجبورين على ذلك كان لا فرق بينهم وبين الملائكة ، إذ لا يصح أن يقال إن الملائكة معصومون ، لأنهم لا اختيار لهم بين الطاعة والمعصية إنما جبلهم الخالق جل وعلا على الطاعة لاغير ، إنما العصمة تقال في حق من أودع فيه الاختيار بين هذا وذاك ، ولكنهم (أي الأنبياء - عليهم السلام -) حفظوا بفضل من الله جل وعلا عن مواقعة الاثم .

---

(١) انظر : ابن جرير ك جامع البيان (٣١/٤،٣٠)، والسيوطي: الدر المنثور (٢/٢٨٤-٢٨٧) والشوكاني : فتح القدير (٣٦٩/١) .

(٢) محمد الخضر بن الناجي ضيف الله : عصمة الأنبياء في الكتاب والسنة والرد على الشبهات الواردة عليها (ص١٩) .

(٣) التعريفات (ص١٥٠) .

(٤) التعريفات (ص٢٢٩) .

(٥) أي الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

(٦) الملا علي القاري الحنفي : شرح الفقه الأكبر (ص٩٤) .

ومن أجل هذا قال بعضهم : " العصمة فضل من الله ولطف منه ، ولكن على وجه يبقى اختيارهم بعد العصمة في الاقدام على الطاعة والامتناع عن المعصية وإليه مال الشيخ أبو منصور الماتريدي حتى قال : العصمة لا تزيل المحنة . أي : الابــتلاء والامتحان ، يعني لا تجبره على الطاعة ولا تعجزه عن المعصية ، بل هي لطف من الله تعالى يحمله على فعل الخير ، ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار ، تحقيقاً للابتلاء والاختبار "(١) .

قال د.أحمد بن ناصر الحمد ، حيث عرف العصمة فقال : " إنها حفظ الله تعالى لأنبيائه من تغير الفطرة ، ومن الخطأ فيما يبلغون عنه من وحي ، ومن اقتراف الكبائر ، وما يستقذر "(٢) .

وأفضــل مــن هذا وأجمع ما استخلصه د.أحمد آل عبداللطيف بقوله : " العصمة : هي حفظ الله ظواهر الأنبياء وبواطــنهم مما تستقبحه الفطر السليمة قبل النبوة ، وحفظهم من الكبيرة وصغائر الخسة بعدها ، وتوفيقهم للتوبة والاستغفار من الصغائر ، وعدم اقرارهم عليها "(٣) .

فالعصمة بهذا المعنى ثابتة للأنبياء – عليهم السلام – وهي من صفاتهم التي أكرمهم المولى جل وعلا بها وميزهم عــن سائر البشر ، ولا تكون هذه العصمة البتة إلا للأنبياء الكرام – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – حيث وهبهم الله جل جلاله ومنّ عليهم بهذه النعمة العظمى ، ولقد كان للسيوطي رأيه في هذه المسألة ، والذي سأبينه فيما يلي .

– رأي السيوطي في العصمة :

يــرى الســيوطي أن الأنــبياء – عليهم السلام – يتمتعون بالعصمة من الذنوب والآثام ، وذلك لكرامتهم على الله تعالى ، وهو في هذا لاينفرد عن بقية علماء الأمة . فهم متفقون جميعاً على إثبات هذه العصمة للأنبياء والمرسلين ، ولذلك قــال : " ونعتقد أن الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – معصومون ، لا يصدر عنهم ذنب ، لا كبيرة ولا صغيرة ، لا عمداً ولا سهواً ، لكرامتهم على الله تعالى بل ومن المكروه ، لأن وقوع المكروه من التقي نادر فكيف من النبي ؟ "(٤) .

فهــو – كمــا نرى من كلامه – ينفي وقوع الذنوب من الأنبياء ، أو صدورها عنهم أياً كانت هذه الذنوب فهم لا يصــدر عنهم لا كبيرة ولا صغيرة ، ولا حتى فعل مكروه ، وعلل ذلك بأن المؤمن التقي يندر منه وقوع الأفعال الكروهة شرعاً ، فمن باب أولى ألا يصدر من النبي مكروه من المكروهات .

وإن كــان من المتبع غالباً عند جل العلماء والباحثين أن يفرقوا بين العصمة قبل النبوة وبعدها ، إلا أن السيوطي هنا لم يفصل هذا الأمر هل هذه العصمة التي أثبتها هي ثابتة للنبي قبل وبعد النبوة ، أم أنها بعد النبوة فقط ؟ .

والذي يبدو من كلام السيوطي أنه يتناول العصمة بعد النبوة ، إذ أن النبي بعد اكرام الله تعالى له بها يكون موضع الأسوة والقدوة والتشريع ، أما قبلها فليس كذلك .

---

(١) تأويلات أهل السنة (٢٤١،٥٥٠/١) ، وانظر : الملا على القاري : شرح الفقه الأكبر (ص٩٤) ، د.علي عبدالفتاح المغربي : ابو منصور الماتريدي إمام أهل السنة وآراؤه الكلامية (ص٣٥١) .

(٢) ابن حزم : الدرة فيما يجب اعتقاده (ص٣٧٨) هامش المحقق د.أحمد بن ناصر الحمد .

(٣) د.أحمد عبداللطيف آل عبداللطيف : عصمة الأنبياء (ص٢٤) . رسالة ماجستير مقدمة لجامعة أم القرى .

(٤) علم التوحيد (لوحة رقم (٢٩) مخطوط .

أولاً - العصـــمة قبل النبوة : يرى أكثر العلماء أنه لا دليل على ثبوت العصمة للأنبياء قبل النبوة ، وهذا هو رأي جمهور الأشاعرة وبعض المعتزلة . وهو كذلك رأي أهل السنة وسيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى .

فـأبو الحسن الآمدي يرى عدم عصمة الأنبياء قبل النبوة ، فقد يصدر عنهم المعاصي كبيرة كانت أو صغيرة ، إذ لا دلالة للمعجزة على عصمة الأنبياء فيما قبل ظهورها على أيديهم ، كما أنه لا توجد دلالة سمعية على عصمتهم قبل بعثتهم [١] .

وكذلك هو مذهب أبي بكر بن الطيب الباقلاني[٢] ، وأكثر أصحابه[٣] .

وذهب إليه كذلك العضد الإيجي[٤] في المواقف[٥] والفخر الرازي في " عصمة الأنبياء "[٦] ، والبغدادي في أصول الديــن[٧] ويتضح من ذلك - كما قلت - أن جمهور الأشاعرة يذهب إلى نفي العصمة قبل البعثة لأنه لا دليل عليها ، ولما كان السيوطي ينتسب إلى مذهب الأشاعرة كما يظهر من كتاباته ومؤلفاته[٨] فهو - على الظن الغالب - قائل بقولهم ، لأنه لــو كــان لديــه خلاف ما هم عليه لأظهره وبينه ، أما وإنه قد سكت عنه فإن الأصل أن يكون على مذهبهم إلا أن يُظْهر خلافه ، أقول : إن أغلب الظن أن يكون على رأي الأشاعرة في هذه المسألة ولا أقطع بنسبة شئ إليه لم يقله .

ثانياً - أما العصمة بعد النبوة ، ففيها مسائل :

الأولى - العصـــمة فـــي التبـــليغ : ولقد اتفقت كلمة طوائف الاسلام بل أهل الشرائع قاطبة على عصمة الأنبياء والرسل عن تعمد كل ما يخل بصدقهم في دعوى الرسالة وتحملها ، وأمانتهم في التبليغ عن الله عز وجل[٩] ، فهم لا ينسون شيئاً مما أوحاه الله تعالى إليهم ، إلا شيئاً قد نسخ ، وقد تكفل الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يقرئه القرآن فلا ينســى شيئاً فيه إلا ما نسخه الله وأراد أن ينسيه إياه ، قال تعالى : (سنقرئك فلا تنسى {٦} إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر ومـــا يخــفى {٧})[١٠] وتكفــل الله تعـــالى أيضـــاً بـــأن يجمعـــه فـــي صـــدره ، قـــال جـــل شـــأنه : (لا تحـرك بــه لســانك لتعجل به {١٦} إن علينا جمعه وقرآنه {١٧} فإذا قرأناه فاتبع قرآنه {١٨})[١١] والعصمة في التبــليغ عــن الله تعالى وحيه وأحكامه وإن كان السيوطي لم يذكرها بخصوصها إلا أنه لا يتصور من إمام كالسيوطي أن

---

(١) ابكار الافكار (١٤٠/٢) ق ب - (١٤١) ق ب .

(٢) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر الباقلاني ، القاضي ، من كبار علماء الكلام ، انتهت إليه رئاسة مذهب الأشاعرة ، ولد بالبصرة (٣٣٨هـ-٩٥٠م) وسكن بغداد وتوفي بها (٤٠٣هـ-١٠١٣م) له العديد من المصنفات انظر : وفيات الأعيان (٤٨١/١) ، قضاة الاندلس (ص٣٧-٤٠) ، تاريخ بغداد (٣٧٩/٥) ، دائرة المعارف الاسلامية (٢٩٤/٣) ، تبين كذب المفترى (٢١٧-٢٢٦) ، الاعلام (١٧٦/٦) .

(٣) انظر : الإحكام في أصول الأحكام (١٦٩/١) .

(٤) محمد بن عبدالرحمن الإيجي .

(٥) انظر : المواقف في علم الكلام (ص٣٥٩) .

(٦) انظر : (ص٣) .

(٧) انظر : (ص١٦٨) .

(٨) صـــرح الســيوطي بانتسابه إلى المذهب الأشعري حيث قال : " وقد أطبقت أئمتنا الأشاعرة من أهل الكلام والأصول ... أن من مات ولم تبلغه الدعوة مات ناجياً " ، انظر : مسالك الحنفا في والدي المصطفى (ص١١) ضمن الرسائل التسع (ط١/١٤٠٥هـ) - دار إحياء العلوم - لبنان .

(٩) انظـر فـي نقل هذا الإجماع : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٨٩،٢٩٠/١٠) ومنهاج السنة النبوية (٤٧٠/١-٤٧٣) والرازي : عصمة الأنبياء (ص٥٦) ، التفتازاني : شرح العقائد النسفية (ص٨٩) ، السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٣٠٤/٢) ، الأشقر : الرسل والرسلات (ص٩٧) .

(١٠) سورة الأعلى - جل جلاله - ، الآيتان (٦،٧) .

(١١) سورة القيامة الآيات (١٦،١٧،١٨) .

يقول بخلاف ما قرره العلماء الذين اتفقوا جميعاً على ذلك ، ولولا أن المسألة في عداد الأمور الراسخة المتفق عليها لتكلم عنها وذكرها ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا بأن هذه العصمة قد اتفق عيها العامة والخاصة ، إذ قد أيقنوا وآمنوا جميعاً بمعنى قوله تعالى : (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) (١) لأن من لا ينطق عن الهوى كان معصوماً من قبل الله – جل وعلا – .

إن ديـــن الله الـــذي شرعه لهداية البشر للتي هي أقوم إنما يعرف من قبل الرسل الكرام ، وليس ثمة طريق آخر يستطيع البشر الاهتداء به إلى ما يحبه الله تعالى ويرضاه ، أو يبغضه جل وعلا ويأباه ، فالأنبياء والرسل هم السبيل الوحيد لمعرفة دين الله ، ومعرفة الله جل وعلا وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهم الواسطة بين الحق والخلق ، فلا طريق إلا طريقهم ، ولا مـــنهاج للسعادة إلا منهاجهم ، ولا باب يوصل إلى جنات الله والنعيم المقيم إلا بابهم ، فلو كذب هؤلاء الرسل الكرام فيما أنزله الله تعالى عليهم لتبليغه إلى عباده فنقصوا منه أو زادوا عليه شيئاً من تلقاء أنفسهم ، أو لو بدلوا فيه أو غيروا أو حـــرفوا لكانت عقيدة الناس وشريعتهم على وجه غير صحيح ، وليس من حكمة الله تعالى وعدله ورحمته بخلقه أن يرسل إليهـــم رسلاً كذبة يفترون على الله – جل وعلا – ما لم ينزل به سلطاناً ومن المشاهد في سنن الله عز وجل في إرسال الأنـــبياء والمرســـلين إلى الناس ، أنه تعالى يُثبِّتُ من اصطفاهم لهذه المهمة العظيمة على الصدق والحق ، ولو ذاقوا من أقوامهـــم مـــا حكـــاه الله عنهم من الأذى والتعذيب والتقتيل (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ، إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً)(٢) .

ومن المعلوم أيضاً من سنن الله تعالى مع رسله وأنبيائه الكرام أنه لم يخز ولم يعذب ولم يهلك أحداً منهم عقاباً له عـــلى كذب في تبليغه أو في دعواه فدل ذلك على عصمتهم من الكذب وغيره من كل ما يقدح في صدقهم وأمانتهم ، ودقة بلاغهم عن الله تعالى ، وشدة خوفهم منه سبحانه وتعظيمهم له ولأمره ونهيه .

ولمـــا كـــان الجلال السيوطي منتسباً إلى المذهب الأشعري – كما قلنا – فمن المؤكد أن رأيه في هذه المسألة هو رأيهم ، وقوله هو قولهم لأنني لم أجد له كلاماً يخالفهم فيها ، ولذلك سأوضح رأيهم في هذه المسالة فأقول :

اتفـــق الأشاعرة على عصمة الأنبياء – عليهم السلام – عن الكذب في دعوى النبوة وكذلك في تبليغهم ما أرسلوا به من قبل الله تعالى يقول شارح المواقف : " أجمع أهل الملل والشرائع كلها على وجوب عصمتهم عن تعمد الكذب ، فيما دل المعجـــز القـــاطع عـــلى صدقهم فيه كدعوى الرسالة وما يبلغونه عن الله تعالى إلى الخلائق ، إذ لو جاز عليهم التقول والافتراء في ذلك عقلاً لأدى إلى إبطال دلالة المعجزة وهو محال "(٣).

وقـــريب من هذا قال أبو المعالي – رحمه الله – : " فإن قيل بينوا لنا عصمة الأنبياء وما يجب لهم ، قلنا : تجب

---

(١) سورة النجم ، الآيتان (٣،٤) .

(٢) سورة الاسراء الآيتان (٧٤،٧٥) .

(٣) الجرجاني : شرح المواقف (٢٦٢/٨) .

عصمتهم عما يناقض مدلول المعجزة وهذا مما نعلمه عقلاً ، ومدلول المعجزة صدقهم فيما يبلغون "[١] .

وبمثل ما قال الجرجاني والجويني قال أبو الحسن الآمدي : " وأما بعد النبوة فقد اتفق أهل الملل وأرباب الشرائع علـى وجـوب عصـمة الأنبياء – عليهم السلام – عن الكذب عمداً فيما دلت المعجزة القاطعة على صدقهم فيه وذلك في دعـوى الرسـالة وما يبلغونه عن الله تعالى إلى الأمة بطريق التبليغ عنه ، وإلا فلو جاز عليهم التقول والتخرص في ذلك عقلاً لأفضى إلى إبطال دلالة المعجزة وهو محال "[٢] .

ومـن كلام الآمدي وغيره يتضح أن عصمة الأنبياء لم تكن محل خلاف بين أهل الإسلام ، بل لم تكن كذلك بين أهل الشرائع كافة ، لكن الجميع متفقون على عصمتهم عن تعمد ما يخل بصدقهم وأمانتهم وهذا ما أكده السيوطي بقوله : " الكـذب الصـراح لا يجوز على الأنبياء عند أهل التحقيق "[٣] بل يذهب السيوطي إلى أبعد من ذلك فيذكر أن المشركين لم يكونوا يعتقدون كذب النبي – صلى الله عليه وسلم – ولكنهم كذبوا جحوداً منهم للحق مع علمهم بصدقه ، فقد قال عند قوله تعالى : (...فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)[٤] قال : لا يكذبونك بتشديد الذال ، بمعنى : لا يكذبونك معتقدين لكذبك ، وإنما هم يجحدون الحق مع علمهم به .

ومن هنا يتضح اطباق أهل الأرض على تصديق الأنبياء مؤمنهم وكافرهم أما المتبعون لهم فظاهر وأما المكذبون لهم فظاهر أمرهم التكذيب والرفض ، وباطنه التصديق المحض وهو المقصود من إثبات العصمة لهم – صلوات الله تعالى عليهم أجمعين – .

لكـنه قـد حصل خلاف بين الأئمة في جواز وقوع الكذب من الأنبياء عن طريق الغلط والنسيان فأنكره البعض وجوزه آخرون .

قـال الآمدي : " واختلفوا في جواز ذلك عليهم بطريق الغلط والنسيان ، فمنع منه الأستاذ أبو اسحاق[٥] وكثير من الأئمـة ، لمـا فيه من مناقضة دلالة المعجزة القاطعة ، وجوزه القاضي أبو بكر[٦] مصيراً منه إلى أن ما كان من النسيان وفلـتات اللسـان غير داخل تحت التصديق المقصود بالمعجزة ، وهو الأشبه "[٧] وبقوله قال الإيجي بلفظ يكاد ينطبق على لفظه ، حيث قال : " وفي جواز صدوره عنهم على سبيل السهو والنسيان خلاف : فمنعه الاستاذ[٨] وكثير من الأئمة لدلالة المعجـزة على صدقهم ، وجوزه القاضي[٩] مصيراً منه إلى عدم دخوله في التصديق المقصود بالمعجزة "[١] وهذا الخلاف

---

(١) الجويني : الارشاد (٣٥٦) .
(٢) أبكار الأفكار (١٤١ ق أ) .
(٣) معترك الأقران (٧٢/٣) .
(٤) سورة الأنعام ، بعض الآية (٣٣) .
(٥) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الاسفراييني ، ركن الدين الشافعي ، فقيه ومتكلم أصولي (ت٤١٨هـ) بنيسابور ، انظر : وفيات الأعيان (٨/١-) ، شذرات الذهب (٢٠٩/٣-٢١٠) ، طبقات الشافعية (١١١/٣-١١٤) ، العبر (١٢٨/٣) ، معجم البلدان (٢٤٧/١) ، تبيين كذب المفترى (ص٢٤٣-٢٤٤) .
(٦) محمد بن الطيب الباقلاني – رحمه الله – .
(٧) إحكام الأحكام (١٧٠/١) ، وأبكار الأفكار (١٤١/٢ ق أ) .
(٨) أبو اسحاق الاسفراييني – رحمه الله – .
(٩) محمد بن الطيب الباقلاني – رحمه الله – .

الــذي نقله إلينا كل من الآمدي والأيجي مبنى على كون الغلط والنسيان داخلاً تحت دلالة التصديق المقصود بالمعجزة ، أو غيــر داخــل تحتها ، فالاستاذ أبو اسحاق ومن وافقه يرون أنه داخل تحت دلالة التصديق المقصود بالمعجزة ولذلك امتنع عندهم أن يقع غلط من النبي أو نسيان ذلك لأن المعجزة قائمة مقام قول الله جل وعلا : صدق عبدي في كل ما يبلغ عني ، فإذا وقع الغلط أو النسيان ، كان ذلك ناقضاً لدلالة المعجزة على الصدق ، وذلك ممتنع ، فامتنع وقوع الغلط والنسيان .

وأمــا الآمــدي والقاضــي الباقلاني ومن وافقهما يرون أن الغلط والنسيان وفلتات اللسان غير داخل تحت دلالة التصــديق المقصود بالمعجزة ، ذلك لأن : " المعجزة إنما تدل على صدق الرسول فيما هو متذكر فيه ، عامد له ، وأما ما كان من النسيان وفلتات اللسان فلا تدخل تحت التصديق المقصود بالمعجزة ، ولا المعجزة دالة على نفسه ، وعلى هذا فلا تكون صورة النسيان ناقضة لدلالة المعجزة "(٢) وبمثل هذا قال الجرجاني في " شرح المواقف "(٣) .

ومن هنا يتضح أن الرأي الراجح لدى جمهور الأشاعرة جواز وقوع الغلط أو السهو أو النسيان من النبي .

أما السيوطي فهو يرى ما رآه الاستاذ أبو إسحاق خلافاً لجمهورهم من امتناع وقوع السهو من النبي وقد قال فيما نقلــناه عنه قبل قليل : " ونعتقد أن الأنبياء معصومون ، لا يصدر عنهم ذنب لا كبيرة ولا صغيرة ، لا عمداً ولا سهواً... "(٤) فهو بذلك لا يرى وقوع السهو أو الغلط من النبي وكلامه في هذا صريح كما رأينا مما نقلنا عنه .

<u>الثانية - العصمة من الكبائر</u> : أما الكبائر فقد حكى غير واحد اتفاق أهل العلم على عدم تعمد الأنبياء - عليهم الســلام - لارتكــاب الكــبائر والسيوطي ممن قال بهذا القول فوافق اتفاق العلماء على ذلك ، وقد سبق نقل كلامه في أن الأنبياء لا يقع منهم الذنوب الكبائر لا عمداً ولا سهواً(٥) .

قال الآمدي : " فإن كان من الكبائر ، فقد اتفق المحققون والأئمة على وجوب عصمتهم عن تعمده من غير نسيان ولا تأويل ، ولم يخالف في ذلك غير الحشوية(٦) "(٧) .

ونحا نحوه الجرجاني حيث قال : " أما الكبائر - أي صدورها عنهم عمداً - فمنعه الجمهور من المحققين والأئمة ولم يخالف فيه إلا الحشوية "(٨) .

---

(١) المواقف (ص٣٥٨) .
(٢) الآمدي : أبكار الأفكار (١٤١/٢ ق أ) .
(٣) انظر : (٢٦٣/٨) .
(٤) علم التوحيد (لوحة ٢٩) .
(٥) علم التوحيد (لوحة ٢٩) .
(٦) أول مــن استعمل لفظ " الحشوية " عمرو بن عبيد (المعتزلي) قال : كان عبدالله بن عمر حشوياً ، يريد بالحشوية الأميين ، ثم صار من يقدس العقــل ويؤثــره على النقل كالمعتزلة يرمون بها علماء الحديث كأحمد بن حنبل ومن على شاكلته من أهل الحديث من أئمة السنة والجماعة ، فأعداء أهل السنة عموماً ينبزون أهل السنة بمثل هذه الألقاب على سبيل الانتقاص ، انظر : تعليق الشيخ عبدالرزاق عفيفي على هذه اللفظة في كــتاب الآمــدي : إحكام الأحكام (١٧٠/١) وانظر كذلك : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٩/٤) ، والشهرستاني : الملل والنحل (ص١٠٥) في معرض كلامه عن المشبهة ، وانظر : د.عبدالمنعم الحفني : الموسوعة الفلسفية (ص١٦٩) .
(٧) أبكار الأفكار (١٤١/٢ ق أ) وأحكام الأحكام (١٧٠/١) .
(٨) شرح المواقف (٢٦٤/٨) .

ولمثل قولهما[1] ذهب السعد التفتازاني في " شرح المقاصد "[2] وكذلك في " شرح العقائد النسفية "[3] والبيضاوي في " طوالع الأنوار "[4].

وأما إن كان قصدهم من ذكر " الحشوية " نبز أهل السنة بهذا اللقب ، فهذا من الباطل الذي زلت به ألسنة وأقلام بعض الفضلاء أمثال التفتازاني والإيجي والجرجاني ، وما كان يليق بمثلهم الوقوع في مثل هذا الصنيع .

ذلك لأن أهل السنة والجماعة كما هو مشهور عنهم ومعلوم ، يقولون بعصمة الأنبياء عن تعمد الكبائر ، وسيتضح لنا ذلك عند عرضنا لرأي أهل السنة بعد قليل – إن شاء الله – فرأيهم أفضل الآراء ، ومذهبهم في هذا وفي غيره أنصع المذاهب وأوضحها ، وهو الحق الذي لا مرية فيه .

الثالثة – عصمة الأنبياء من الصغائر : يقسم متكلموا الاشاعرة الصغائر إلى قمسين :

أولهما : قسم يوجب الحكم على فاعله بالخسة ، ودناءة الهمة ، سقوط المروءة ، وذلك كسرقة لقمة ، والتطفيف بحبة ، ونحو ذلك .

والثاني : لا يوجب على فاعلة الحكم بالخسة كنظرة أو كلمة سفه نادرة في حالة غضب .

ويلحقون القسم الأول بالكبائر في وجوب عصمة الأنبياء – عليهم السلام – منه ، وحكى بعضهم الاجماع على ذلك وفي هذا يقول الآمدي : " وأما ما ليس بكبيرة فإما أن يكون من قبيل ما يُلحِق فاعله بالأرازل والسفل والحكم عليه بالخسة ودناءة الهمة ، وسقوط المروءة ، كسرقة حبة ، أو كسرة ونحوه ، فالحكم فيه حكم الكبيرة "[5] بمعنى أنه تجب عصمتهم منه كما تجب عصمتهم من تعمد ارتكاب الكبائر .

وحكى القاضي عياض اجماعهم على ذلك حيث قال : " وقال بعض أئمتنا لا يجب على القولين أن يختلف أنهم معصومون عن تكرار الصغائر وكثرتها إذ تلحقها بالكبائر ، ولا في صغيرة أدت إلى إزالة الحشمة واسقطت المروءة ، وأوجبت الازراء والخساسة فهذا مما يعصم عنه الأنبياء إجماعاً "[6] .

وأما القسم الثاني فيرون جواز صدوره من الأنبياء عمداً وسهواً ، وهو مذهب الآمدي وأكثر أصحابه ، وأكثر المعتزلة عدا الجبائي[7] ، الذي قال بعصمة الأنبياء عن تعمد الصغائر ، وأن ذلك لا يجوز عليهم إلا بطريقة السهو أو الخطأ في التأويل وقد سبق الجبائي كلٌ من النظام[8] ، وجعفر بن مبشر[9] في هذا القول .

---

(١) أي الآمدي والجرجاني .

(٢) انظر (٥/٥٠) .

(٣) انظر : (ص٨٩) .

(٤) انظر : (ص٢١٤) .

(٥) أبكار الأفكار (٢/١٤١ ق أ) وانظر : إحكام الأحكام (١/١٧١) .

(٦) الشفا (٢/٣٣٠) .

(٧) محمد بن عبدالوهاب ، أبو علي الجبائي ، نسبة إلى بلده " جي في خوزستان كان رأساً في الاعتزال (ت٢٩٥هـ) انظر : الشهرستاني : الملل والنحل (١/٧٨)

(٨) ابراهيم بن سيار النظام ، أبو اسحاق ، رأس الغرفة النظامية المعتزلية (ت ما بين ٢٢١،٢٢٣هـ) . الشهرستاني : الملل والنحل (١/٥٣) .

(٩) أبو محمد جعفر بن مبشر من رجال المعتزلة ، وهو و جعفر بن حرب زعيما الجعفرية من فرق الاعتزال ، انظر : الفرق بين الفرق (ص١٦٧) .

وفي حكاية هذا يقول الآمدي :

" وأما ما لا يكون من هذا القبيل كنظرة أو كلمة سفه نادرة في خصام ونحو ذلك ، فهذا مما اتفق أكثر أصحابنا ، وأكثر المعتزلة على جوازه عمداً وسهواً ... وذهب الجبائي إلى أن ذلك لا يجوز إلا بطريق السهو أو الخطأ في التأويل ، وذهب النظام وجعفر بن مبشر إلى أن ذلك لا يجوز منهم إلا على طريق الغفلة والسهو غير أنهم يؤاخذون بذلك ، وإن لم تؤاخذ أممهم به ، لعلوم رتبهم وقوة معرفتهم بالله تعالى "(١) .

فإذا كان جمهور الأشاعرة قد جوزوا وقوع الصغائر التي لاتوجب الخسة والدناءة من الأنبياء - عليهم الصلام - عمداً وسهواً ، وجوزها جمهور المعتزلة سهواً لا عمداً ، فإن السيوطي قد منع من ذلك مطلقاً سواء كان عن طريق العمد أو كانت عن طريق السهو(٢) ذهاباً منه إلى أن ذلك لا يقع منهم - عليهم السلام - لكرامتهم على الله تعالى ، فإن الأنبياء لهم كرامة ومنزلة رفيعة ، ورتبة خاصة وزلفى لديه جل وعلا ، وهو تعالى يكرمهم بذلك بأن يعصمهم من الوقوع في شئ من الذنوب والآثام ، حتى ولو سميت صغيرة ، كما أن وقوع الصغائر والمكروهات من الرجل الصالح التقي نادر ، فمن باب أولى أن لا يقع فيها مطلقاً من هم أفضل منه وأتقى وأعلى وهم الأنبياء - عليهم السلام - وإنه لَيُشكر للسيوطي هذه الغيرة والمحبة وعدم المساس بجناب الأنبياء الكرام ، ولكن ينبغي التنبيه والحذر من أن تحملنا هذه المحبة والغيرة على تنزيه الأنبياء عن شئ لا يقدح في عدالتهم ولا يؤثر على عظيم كرامتهم وعلو مكانتهم عند الله جل وعلا ، بل هو مقتضى بشريتهم ، ودليل عليها ، ومع ذلك فإنهم ينبهون أو يعاتبون كما سيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

وأما قول السيوطي بأن وقوع المكروه من التقي نادر ، فأولى ألا يقع مكروه من النبي ، كلام فيه نظر ، لأن وقوع المكروه من النبي أندر من النادر ومع ذلك قد يقع منه ما لا يؤثر ذلك على ما أكرمهم الله تعالى به من علو الرتبة ، ورفيع المنزلة ، ولكن - كما قلنا - لا يقرهم الله عليها ، بل ينبههم تنبيهاً ، وقد يعاتبهم عتاباً ، ولا يعاقبهم عقاباً ، بل عتاب المحب لحبيبه ، ويأتي - إن شاء الله - مزيد تفصيل لهذا عند بيان رأي أهل السنة ، فإلى رأيهم .

رأي أهل السنة والجماعة في العصمة

أولاً : العصمة قبل النبوة :

أهل السنة والجماعة لا يرون عصمة الأنبياء قبل النبوة مطلقاً ، خلافاً للرافضة(٣) ، وأكثر المعتزلة ، أما الرافضة فيذهبون إلى عصمة الأنبياء والرسل قبل النبوة من جميع الذنوب صغارها وكبارها ، وأن وقت العصمة عندهم يبدأ منذ الولادة ، ويستمر إلى الوفاة ، والأنبياء بأي حال من الأحوال لا تجوز عليهم المعاصي لا سهواً ولا عمداً ولا ذهولاً ،

---

(١) أبكار الأفكار (١٤١/٢ ق ب) وانظر : الايكي : المواقف (ص٣٥٩) والقاضي عبدالجبار : شرح الأصول الخمسة (ص٥٧٥) ، المغني (١٥/ ٢٨٠) والأشعري : مقالات الاسلاميين (٢٩٧/١) .

(٢) انظر : رسالة في علم التوحيد (لوحة رقم ٢٩) .

(٣) الرافضة أو الروافض : فرقة من فرق الشيعة كانوا من أتباع زيد بن علي بن الحسين حين طلبوا منه أن يتبرا من الشيخين الجليلين أبي بكر وعمر ، فقال : لقد كانا وزيري جدي فلا أتبرأ منهما ، فرفضوه ، وتفرقوا عنه فسموا رافضة ، انظر : مقالات الاسلاميين (ص١٦، ص٦٥) بتصحيح هلموت ريتر ، وانظر : مروج الذهب (٢٢٠/٣) .

سواء كانت تلك المعاصي من الكبائر أم الصغائر[١] .

وأما أكثر المعتزلة فيرون عصمة الأنبياء عن الكبائر وما يجري مجراها في التنفير قبل البعثة[٢] .

وقد ألجأ كلا الفريقين هذا القول إلى تأويل نصوص القرآن الكريم التي أخبرت بما وقع من الرسل والأنبياء من التوبة من الذنوب ، ومغفرة الله تعالى لهم ورفع درجاتهم بذلك[٣] .

وقد بين ابن تيمية – رحمه الله – منشأ الخطأ في قول من يقول بقول كل من الرافضة والمعتزلة فيقول رحمه الله : " وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول : إن الله لا يبعث نبياً إلا من كان معصوماً قبل النبوة ، كما يقول ذلك طائفة من الرافضة وغيرهم .

وكذلك من قال إنه لا يبعث نبياً إلا من كان مؤمناً قبل النبوة فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصاً وإن تاب التائب منها ، وهذا منشأ غلطهم ، فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيماً ، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شئ أصلاً ، لكن إن قدم التوبة لم يلحقه شئ وإن آخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله ، والأنبياء – صلوات الله عليهم وسلامه – كانوا لا **يؤخرون التوبة ، بل يسارعون إليها ، ويسابقون إليها ، ولا يؤخرون ولا يصرون على الذنب ، بل هم معصومون من ذلك** "[٤] .

وقد حكى شيخ الاسلام ابن تيمية – رحمه الله – الاتفاق على " جواز بعثة رسول لا يعرف ما جاءت به الرسل من قبله من النبوة والشرائع ، وأن من لم يقر بذلك بعد الرسالة فهو كافر ، والرسل قبل الوحي لا تعلمه فضلاً عن أن تقر به ، قال تعالى : (ينزل الملائكة بالروح من أمره...)[٥] الآية ، وقال : (...يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق)[٦] فجعل انذارهم بالتوحيد كالانذار بيوم التلاق ، وكلاهما عرفوه بالوحي "[٧] .

ثم بين شيخ الإسلام – رحمه الله – أن من نشأ من الأنبياء بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم وقد عرف عنه الصدق والأمانة والبعد عما ينفر من القبول ، فالرسل يبعثون من خيار أمتهم ، وقد استنبط شيخ الإسلام هذا الفهم من قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب – عليه السلام – (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين ، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها...)[٨] الآية .

والشاهد من هذا قوله تعالى : (...أو لتعودن في ملتنا...) فالعود في ملة المشركين يدل على أن شعيباً – عليه

---

(١) انظر : الآمدي : أبكار الأفكار (١٤٠/٢ ورقة ب ، ١٤١ ق أ) .
(٢) انظر : القاضي عبدالجبار : شرح الأصول الخمسة (ص٥٧٣) ، والمغني (٣٠٤/١٥) .
(٣) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (١٥٠/١٥) .
(٤) مجموع الفتاوي (٣٠٩/١٠) .
(٥) سورة النحل ، بعض الآية (٢) .
(٦) سورة غافر ، بعض الآية (١٥) .
(٧) مجموع الفتاوي (٣٠،٣١/١٥) .
(٨) سورة الأعراف الآية (٨٨) ، وبعض الآية (٨٩) .

السلام – كان قبل أن يكرمه الله تعالى بالنبوة والرسالة على دين قومه ويدل عليه أيضاً قول شعيب – عليه السلام – الذي حكاه الله تعالى عنه : (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها...) فمن كانت حاله من الأنبياء مثل حال شعيب لم يكن عليه نقص في ذلك ، يقول شيخ الإسلام : " إن الله سبحانه إنما يصطفى لرسالته من كان خيار قومه حتى في النسب – كما في حديث هرقل ، ومن نشأ بين قوم مشركين جهال لم يكن عليه نقص إذا كان على مثل دينهم ، إذا كان معروفاً بالصدق والأمانة ، وفعل ما يعرفون وجوبه وترك ما يعرفون قبحه ، قال تعالى : (...وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)[١] فلم يكن هؤلاء مستوجبين العذاب ، وليس في هذا ما ينفر عن القبول منهم ، ولهذا لم يذكره أحد من المشركين قادحاً "[٢] .

بل قد بين شيخ الاسلام – رحمه الله – أن الرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم أكمل من غيره ممن نشأ بين أهل الايمان والنبوة ، وأنه ليس بالضرورة أن يبغض كل رسول ما كان عليه قومه من العبادة الوثنية قبل مبعثه ، أما ما حصل لنبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – من بغض لما كان عليه قومه من عبادة الأوثان فهو خاص به – صلى الله عليه وسلم – ، يقول شيخ الإسلام : " وما ذكر أنه بغضت إليه الأوثان لا يجب أن يكون لكل نبي ، فإنه سيد ولد آدم ، والرسول الذي ينشأ بين أهل الكفر الذين لا نبوة لهم يكون أكمل من غيره ، من وجهة تأييد الله له بالعلم والهدى ، وبالنصرة والقهر ، كما كان نوح وإبراهيم ، ولهذا يضيف الأمر إليهما في مثل قوله : (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم...)[٣] الآية ، (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم...)[٤] الآية "[٥] .

وهكذا يتضح أن أهل السنة والجماعة لا يرون عصمة الأنبياء عن الكفر والمعاصي قبل البعثة ، وإنما يرون وجوب عصمتهم عما ينفر الناس عن القبول لدعوتهم ، فهم يبعثون من خيار أمتهم نسباً وأخلاقاً وأن أعظم ما يتصفون به من الخلق الصدق والأمانة .

أما السيوطي فقد قدمت أنه أغفل الكلام عن العصمة قبل النبوة ، إما لأنه يرى – والله تعالى أعلم – أنه لا يتعلق بهم أسوة ولا قدوة قبل النبوة ، وإما موافقة منه لرأي جمهور الأشاعرة الذي بينته فيما سبق ، وهو أنهم يذهبون إلى عدم عصمة الأنبياء قبل النبوة تماماً كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة .

ثانياً – العصمة بعد النبوة :

وفيها أربعة مسائل هذه رؤوسها :

الأولى : العصمة في تحمل الرسالة . الثانية : العصمة في التبليغ .

الثالثة : العصمة من كبائر الذنوب . الرابعة : العصمة من صغائرها .

---

(١) سورة الاسراء ، بعض الآية (١٥) .
(٢) مجموع الفتاوي (١٥/٣٠) .
(٣) سورة الحديد ، بعض الآية (٢٦) .
(٤) سورة آل عمران ، بعض الآية (٣٣) .
(٥) مجموع الفتاوي (١٥/٣١) .

المسألة الأولى : العصمة في تحمل الرسالة :

يعتقد أهل السنة والجماعة أن الرسل - عليهم الصلاة والسلام - معصومون في تحملهم لرسالات ربهم جل وعلا ، فهم يحفظون ما أوحاه الله تعالى إليهم من نصوص وأحكام ، فلا ينسون شيئاً منه إلا ما قد أراد الله تعالى نسخه قال جل وعلا : (سنقرئك فلا تنسى ، إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى)[١] .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : " وهذا إخبار من الله - عز وجل - ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها "[٢] .

وقال الإمام ابن جرير - رحمه الله تعالى - : " يقول تعالى ذكره : سنقرئك يا محمد هذا القرآن فلا تنساه ، إلا ما شاء الله ثم اختلف أهل التأويل في معنى قوله : (فلا تنسى إلا ما شاء الله) فقال بعضهم : هذا إخبار من الله نبيه - عليه الصلاة والسلام - أنه يعلمه هذا القرآن ، ويحفظه عليه... وقال آخرون : معنى النسيان في هذا الموضع : الترك ، وقالوا : معنى الكلام : سنقرئك يا محمد فلا تترك العمل بشئ منه ، إلا ما شاء الله أن تترك العمل به مما ننسخه "[٣] ثم اختار القول الأول .

المسألة الثانية - العصمة في التبليغ :

إذا ثبتت العصمة في التحمل والتلقي ، فإن أهل السنة والجماعة كذلك يثبتون العصمة للأنبياء والرسل في تبليغ ما حفظوه عن الوحي ، بمعنى أنهم يستحيل أن يكذبوا على الله تعالى ، أو أن يتقولوا عليه سبحانه ما لم يقله ، أو يكتموا شيئاً مما أوحاه الله تعالى إليهم ، فإن فعل شئ من ذلك خيانة ، وهو من المستحيل في حق رسل الله تعالى وأنبيائه - عليهم السلام - قال جل وعلا : (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين)[٤] " فسبح - سبحانه وتعالى - نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل ، وسلم على المرسلين لسلامة ما قالوه من النقص والعيب "[٥] .

يقول ابن كثير - رحمه الله - : " ينزه تعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقوله الظالمون المكذبون المعتدون - تعالى وتقدس - عن قولهم علواً كبيراً ، ولهذا قال : (سبحان ربك رب العزة) أي : ذي العزة التي لا ترام (عما يصفون) أي : عن قول هؤلاء المعتدين المفترين (وسلام على المرسلين) أي : سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم، وصحته وحقيقته "[٦].

فالرسل والأنبياء - عليهم السلام جميعاً - صادقون مصدقون ، في كل ما يخبرون به عنه - جل وعلا - معصومون من الكذب عليه والإخبار عنه بما يخالف الواقع ، وأنه لو حدث شئ من الكتمان أو التغيير أو التبديل لما أوحاه

---

(١) سورة الأعلى الآيتان (٦،٧) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٠١/٨) .

(٣) جامع البيان (١٥٤/٣٠) .

(٤) سورة الصافات الآيتان (١٨١،١٨٠) .

(٥) ابن تيمية : العقيدة الواسطية - مع شرحها لمحمد خليل هراس (ص٣٠) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٤١/٧) .

الله تعــالى إلى أحــد مــنهم لعاجله الله تعالى بالعقوبة وانتزاع النبوة منه ، قال - جل وعلا - : (ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين)[١] .

ويدل على العصمة في التبليغ أيضاً قوله - جل وعلا - : (وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى)[٢] .

ومــن هنا كانت عصمة الأنبياء في التبليغ محل اتفاق الأمة كلها ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : " فإنهم - أي العلماء - متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله - تعالى - ، وهذا هو مقصود الرسالة ، فإن الرسول هو الذي يبلغ عن الله أمره ونهيه وخبره ، وهم معصومون في تبليغ الرسالة باتفاق المسلمين ، بحيث لا يجوز أن يستقر في ذلك شئ من الخطأ "[٣] .

وقــال فــي موضع آخر : " إن الإنبياء - صلوات الله عليهم - معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبــليغ رسالاته باتفاق الأمة ، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه ... بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عصم الأنبياء ولو كانوا أولياء الله ... وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة ... والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة ، فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين "[٤] .

وقــال ابــن حمدان[٥] : " وأنهم معصومون فيما يؤدون عن الله تعالى "[٦] وقال ابن عقيل[٧] في الارشاد : " إنهم - عليهم الصلاة والسلام - لم يعتصموا في الأفعال بل في نفس الأداء قال : ولا يجوز عليهم الكذب فيما يؤدونه عن الله تعالى "[٨]

وقــال الســفاريني : " وقــد أجمعت الأمة على أن ما كان طريقه الإبلاغ ، فالأنبياء والرسل معصومون فيه من الإخبار عن شئ منه بخلاف الواقع ، لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً على تفصيل في بعض ذلك "[٩] ومن العصمة في التبليغ عصمة الأنبياء - عليهم السلام - من تناقص أقوالهم ، فلا يجوز أن يصدر عنهم " خبران متناقضان في الحقيقة ، ولا أمران متناقضان في الحقيقة إلا وأحدهما ناسخ والآخر منسوخ "[١٠] وذلك لأن الله تعالى " قد ضمن حفظ الذكر الذي أنزله على رسوله ، ولم يضمن حفظ ما يؤثر عن غيره ولأن ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة هو هدي الله الذي جاء من عند الله ، به يعرف سبيله ، وهو حجته على عباده ، فلو وقع فيه ضلال لم يبين لسقطت حجة الله في ذلك ، وذهب

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات (٤٦،٤٥،٤٤) .

(٢) سورة النجم الآيتان (٣،٤) .

(٣) منهاج السنة النبوية (٤٧١/١،٤٧٠) .

(٤) مجموع الفتاوي (٢٩٠/١٠،٢٨٩) ، وانظر : النبوات (ص٣٣٣-٣٣٥) .

(٥) هــو : أحمد بن حمدان بن شبيب النميري الحراني ، فقيه حنبلي ، أديب ولد عام (٦٢٠هـ) بحران ، ونشأ بها ، كف بصره بعدما أسن ، توفي في القاهرة عام (٦٩٥هـ) انظر : العليمي : المنهج الأحمد (ص٤٠٥) والدر المنضد (٤٣٦/١) .

(٦) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٣٠٤/٢) .

(٧) هــو : عــلي بن عقيل بن محمد ، أبو الوفاء ، عالم العراق ، وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته ، توفي (٥١٣هـ) ، انظر : ابن رجب : طبقات الحنابلة (٢٥٩/٢) والعليمي : الدر المنضد (٤٣٦/١) .

(٨) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٣٠٤/٢) .

(٩) لوامع الأنوار (٢٠٧/٢) .

(١٠) ابن تيمية : مجموع الفتاوي (١٦٨/٤) .

هداه ، وعميت سبيله "[١] .

وهذه العصمة في التبليغ ثابتة بالشرع والعقل والإجماع حكى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] ، وغيره .

المسألة الثالثة : العصمة من كبائر الذنوب :

اتفق السلف على عصمة الأنبياء من الكبائر وما فحش من الذنوب والآثام ، يؤكد هذا شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول : " ...فـــإن القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف حتى إنه قـــول أكـــثر أهـــل الكلام ، كما ذكر أبو الحسن الآمدي ، أن هذا قول أكثر الأشعرية ، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء ، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول "[٣] .

وحـــكى القاضي عياض اجماع المسلمين على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر والموبقات[٤] ، كما حكى أبو الحســـن الأشـــعري إجمـــاع المعتزلة على ذلك[٥] ، وألمح الشوكاني إلى هذا المعنى في تفسيره[٦] ، وصرح به في إرشاد الفحول حكاية عن القاضي أبي بكر بن العربي ، وابن الحاجب وغيرهما[٧] .

وهـــذه العصـــمة بعـــد النبوة أما قبل البعثة وقبل نزول الوحي فقد قدمنا أن أهل السنة لا يثبتون العصمة للأنبياء ووافقهم في هذا الأشاعرة ، قال التفتازاني : "...وأما قبل الوحي فلا دليل على امتناع صدور الكبيرة "[٨]وقد فصلت القول في ما سبق بما يغني عن الإعادة هنا .

المسألة الرابعة : العصمة من الصغائر :

جوز أهل السنة والجماعة وقوع الذنوب الصغائر من الأنبياء ومعنى هذا أنهم لايثبتون لهم العصمة من الصغائر ، ولكنهم مع ذلك ذهبوا إلى أن الله تعالى لا يقر الأنبياء على هذه الصغائر بل ينبههم وقد يعاتبهم على ذلك فلا يقرون عليها ، بل يتداركهم ربهم جل وعلا بعنايته فيسير لهم التيقظ والتفطن لملاحظتها ثم يمن عليهم بتوبة عاجلة يسارعون إليها مسارعة ، ويســـابقون إليهـــا مسابقة ، فيتبين لمتبعيهم أنها معصية ، ويتبين من جهة أخرى صدق الرسل والأنبياء وأما نتهم في نقل الوحي الذي يعاتبهم الله تعالى به فلا يكتمون منه شيئاً .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : " والأنبياء - صلوات الله عليهم وسلامه - " كانوا لا يؤخرون التوبة ، بل يسارعون إليها ، ويسابقون إليها ، لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب بل هم معصومون من ذلك "[٩] .

كمـــا يبين - رحمه الله - فيما نقلت عنه آنفاً ، أن عدم عصمة الأنبياء من الذنوب الصغائر هو قول أكثر علماء

---

(١) نفسه (١٦٨/٤-١٦٩) .

(٢) انظر : السابق (٢٩٥/١٠) .

(٣) مجموع الفتاوي (٣١٩/٤) .

(٤) الشفا (٣٣٧/٢) .

(٥) انظر : مقالات الاسلاميين (٢٩٧/١) .

(٦) انظر : فتح القدير (٨/٣) .

(٧) انظر : (١٥٩/١) ت.د.شعبان محمد اسماعيل ، دار الكتبي ط١٤١٣/١هـ-١٩٩٢م .

(٨) شرح العقائد النسفية (ص٨٩) .

(٩) مجموع الفتاوي (٣٠٩/١٠) .

الإســلام ، فهــو قــول أكــثر عــلماء الكلام ، وأكثر أهل التفسير ، والحديث ، والفقهاء ، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين إلا ما يوافق هذا القول[١] .

قــال القاضــي عياض : " وأما الصغائر ... فجوزها جماعة من السلف وغيرهم على الأنبياء ، وهو مذهب أبي جعفر الطبري ، وغيره من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين "[٢] .

وهــؤلاء الذين منعوا من وقوع الصغائر ظنوا أن نسبة هذه الصغائر إلى الأنبياء طعن بهم ، وغض من مــنازلهم الشريفة ، واعتداء على مقام النبوة ، ولكنهم في نفس الوقتت وجدوا بعض نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشــريفة تثبت وقوع شئ من هذه الصغائر من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فتحملوا لذلك تأويل النصوص الشرعية اخضــاعاً لهــا تحــت ما يتوهمون ، وكان العكس هو الواجب ، بمعنى أنه كان ينبغي عليهم أن يتقبلوا النصوص بالتسليم والرضى واخضاع العقول والنفوس لأحكامها بدلاً من تأويلها الذي يصل إلى درجة التحريف ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمــه الله- " ونصــوص الكــتاب والسنة في هذا الباب كثيرة متظاهرة والآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المســلمين كــثيرة ، لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية ... وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها أنها فاسدة من باب تحريف الكلم عن مواضعه "[٣] .

عــلى أن القائــلين بالعصمة من الصغائر لا دليل لديهم ولا حجة على رأيهم ، غير حجج ضعيفة هي في حقيقتها شبهات وفي هذا يقول شيخ الاسلام - رحمه الله - : " والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ، ليس لهم حجة من كــتاب وسنة رسول ، ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها ، وإنما مبدأ قولهم من أهل الأهواء ، كالروافض والمعتزلة ، وحجتهم آراء ضعيفة من جنس قول الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم "[٤] .

أما الشبهات التي بني عليها هؤلاء القائلون بالعصمة فهي شبهتان :

<u>الأولى :</u> قــالوا : إن الله تعالى قد أمرنا باتباع الرسل ، والتأسي بهم ، والأمر باتباع الرسول والاقتداء به يستلزم أن تكون اعــتقاداته وأقواله وأفعاله جميعها طاعات لا محالة ، لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لله تعالى لحصل تناقض في واقع الحال ، إذ يقتضي أن يجتمع في هذه المعصية التي وقعت من الرسول الأمر باتباعها وفعلها من حيث كوننا مأمورين بالتأســي بالرســول - صلى الله عليه وسلم - والنهي عن مواقعتها من حيث كونها معصية منهي عنها ، وهذا تناقض فلا يمكــن أن يأمــر الله عبداً بشئ في حال أنه ينهاه عنه ، فوجب أن يكون النبي معصوماً من مقارفة جميع المعاصي أياً كان صغيرة أم كبيرة[٥] .

---

(١) نفسه (٣١٩/٤) .

(٢) الشفا (٣٢٨/٢)، وانظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٣٠٩/١٠-٣١٦) ، وجامع الرسائل (٢٢١/١-٢٧٦،٢٢٦-٢٧٩)، والآمدي : أبكار الأفكار (١٤٢/٢ ق ب-١٥٦ ق ب)، وقد أورد الآمدي أدلة كثيرة على جواز صدور الصغائر من الأنبياء بعد البعثة ، حيث بلغت أكثر من عشرين دليلاً ، وانظر : الأشقر : الرسل والرسالات (ص١٠٧-١٠٩) .

(٣) مجموع الفتاوي (٣١٣/١٠-٣١٤) .

(٤) جامع الرسائل (٢٧٦/١) .

(٥) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٩٣/١٠) .

وجوابها : كما يقرر ابن تيمية أنه اعتراض غير صحيح ، وقد يكون له وجهة لو أن معصية النبي من الأنبياء أو الرســـول بقيت خافية غير ظاهرة بحيث تختلط علينا الطاعة بالمعصية ، أما وأن الله تعالى ينبه رسله وأنبياءه إلى ما وقع منهم من مخالفات ويوفقهم إلى المسارعة للتوبة منها من غير تأخير ، فإن ما أوردوه لا يصح دليلاً ، " والاقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر ، فأما المنسوخ والمنهي عنه والمتوب منه فلا قدوة فيه بالاتفاق .

فإذا كانت الأقوال المنسوخة لا قدوة فيها ، فالافعال التي لم يقر عليها أولى بذلك "[١] .

إذاً فالاقتداء والتأسي بهؤلاء الأنبياء في هذه الحالة إنما يكون منصباً على الاسراع في التوبة عند وقوع المعصية وعدم التسويف في ذلك ، تأسياً برسل الله وأنبيائه الكرام في مبادرتهم بالتوبة من غير تأخير[٢] .

والـــثانية : توهمهم أن الذنوب تنافي الكمال ، وأنها تكون نقصاً وإن تاب منها التائب[٣] ، أو أنها تؤدي إلى التنفير منهم ، وعدم السكون إليهم والأخذ عنهم .

والجـــواب : أن هـــذا الـــتوهم غير صحيح ، فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصاً فهو غالط غلطاً عظيمـــاً ، فـــإن التوبة تغفر الحوبة ، ولا تنافي الكمال ، ولا يتوجه إلى صاحبها لوم ولا عقاب ، بل إن العبد في كثير من الأحيـــان يكون بعد توبته من معصيته خيراً منه قبل مقارفته للمعصية وذلك لما يحصل في قلبه من الندم والخوف والخشية مـــن الله تعالى ، ولما يجهد به نفسه من الاستغفار والدعاء ، ولما يجهد به نفسه كذلك من القيام بصالح الأعمال ليلاً ونهاراً يرجو بذلك أن تمحو الصالحات تلك السيئات ، وقد ورد عن بعض السلف أنه قال : " كان داود - عليه السلام - بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة "[٤] ، وورد أيضاً عن غيره : " لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه "[٥] .

يؤيد ذلك ما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال " لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دوية مهـــلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه فأضلها ، فخرج في طلبها حتى إذا أدركه الموت ولم يجدها ... فغلبـــته عيـــنه ، فاستيقظ فإذا راحلته عند راسه عليها طعامه وشرابه وما يصلحه... "[٦] وقد أخبر الله تعالى أنه يحب الـــتوابين ، والأنـــبياء والرسل أعظم التوابين قال تعالى : (...إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[٧] وقال جل وعلا مبيناً ثواب التائبين : (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً)[٨] .

ومعـــلوم أنـــه لم يقع ذنب من نبي إلا وقد سارع إلى التوبة والاستغفار ، يدلنا على هذا أن القرآن لم يذكر ذنوب الأنـــبياء - عليهم السلام - إلا مقرونة بالتوبة والاستغفار فآدم وزوجه عصيا فبادرا بالتوبة قائلين : (...ربنا ظلمنا أنفسنا

---

(١) ابن تيمية : جامع الرسائل (٢٧٦/١) ، وانظر : مجموع الفتاوي (٢٩٣/١٠) .

(٢) انظر : الأشقر : الرسل والرسلات (ص١١٠) .

(٣) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٩٣/١٠-٣٠٩) ، الآمدي : ابكار الأفكار (١٥٧/٢ ق أ-١٥٩ ق ب) .

(٤) ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٢٩٤/١٠) .

(٥) نفسه .

(٦) مـــتفق عـــليه : رواه الـــبخاري ، في صحيحه ، كتاب الدعوات (٨٠) باب (٤) ح رقم (٦٣٠٨) انظر الفتح (١٠٢/١١) ، ومسلم في صحيحه (٢١٠٢/٤) كتاب التوبة (٤٩) باب (١) ح رقم ({١-{٢٦٧٥}،٣،٢-{٢٧٤٤}،٤،٥-{٢٧٤٥}،٦-{٢٧٤٦}،٧-{٢٧٤٧}،٨) .

(٧) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٢٢) .

(٨) سورة الفرقان الآية (٧٠) .

وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)[١] .

ومــا كادت ضربة موسى - عليه السلام - تقضي على القبطي فيسقط قتيلاً حتى سارع موسى - عليه السلام - طالباً الغفران والرحمة من ربه جل وعلا قائلاً : (...رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي...)[٢] ونبي الله داود - عليه السلام - مــا كــاد يشــعر بخطيئته حتى خر راكعاً منيباً إلى ربه جل وعلا ، قال الله تعالى عنه : (...فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب)[٣] .

فالأنــبياء - صــلوات الله عليهم وسلامه - لا يقرون على الذنب من جهة ، ومن جهة أخرى فإنهم لا يؤخرون التوبة ، فالله تعالى قد عصمهم من ذلك ، وهم بعد التوبة والإنابة أكمل منهم قبلها[٤] .

وبهــذا يتــبين غلط من ذهب إلى عصمة الأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - من الصغائر لدلالة الكتاب والســنة على نقيض ما ذهبوا إليه ، وهاتان الشبهتان المتقدمتان هما أهم ما تمسك به هؤلاء ، وبدحضهما يحصل المقصود من اثبات صحة ما ذهب أهل السنة والجماعة ، وحسب المؤمن الأدلة الواضحة البينة التي تهدي للتي هي أقوم .

---

(١) سورة الأعراف ، بعض الآية (٢٢) .

(٢) سورة القصص ، بعض الآية (١٦) .

(٣) سورة ص ، بعض الآية (٢٤) .

(٤) انظر: ابن تيمية : مجموع الفتاوي (١٠/٢٩٣-٢٩٦) ، وجامع الرسائل (١/٢٧٦-٢٧٩)، الأشقر : الرسل والرسالات (ص١٠٩-١١١) .

الفصل السادس :نبوة نبينا محمد – ﷺ – وخصائصه

المبحث الأول : دلائل نبوة نبينا محمد – ﷺ –

تناولنا فيما مضى – وفي الفصل الرابع من هذا الباب – طرق إثبات النبوة عند الجلال السيوطي ، بصفة عامة ، أمـا هـنا وفـي هذا الفصل ، فإننا – بحول الله تعالى – نتكلم عن نبوة الحبيب المصطفى محمد بن عبدالله – صلوات الله وسلامه عليه – خاصة ، وسنحاول أن نبرز من خلال هذا الفصل – إن شاء الله تعالى رأي السيوطي فيها .

والسـيوطي – كغيره من العلماء – يشهد أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – عبدالله ونبيه ورسوله[١] ، صاحب الطـريقة الغـراء ، التي من رغب عنها فهو الهالك[٢] ، سيد العرب والعجم نبي سريّ[٣] ، قدره عليّ ، وبرهانه جلي[٤] ، مشيد أركان البلاغة والفصاحة ، ومؤيد دعائم الجود والسماحة[٥] .

رحم الله العالمين بإرسال هذا النبي الرحيم إليهم ، لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى ، والنجاة من الشقاوة العظمى ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى ، وعلمهم بعد الجهالة ، وهداهم بعد الضلالة[٦] .

" أخذ الله تعالى الميثاق على النبيين إن جاءهم أن يؤمنوا به وينصروه[٧] ، ولو أدركوه لما وسعهم إلا أن يتبعوه ، ويعزوه ويوقروه[٨] ، وأرسله إلى جميع الخلق كافة ... وأجرى على يديه من المعجزات ألوفاًجمله ، وآتاه من الخصائص ما لم يؤته نبياً قبله... "[٩] .

إنـه – صلى الله عليه وسلم – أفضل الخلق على الإطلاق[١٠] ، قد ختم الله تعالى به النبيين والمرسلين ، فلا نبي بعده ولا رسول[١١] .

والناظر في كلام السيوطي هذا يجده قد اشتمل على ثلاثة عناصر رئيسية ، وهي :

١– الإقـرار بنـبوة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – والإيمان بأنه رسول الله حقاً ، يدل على صدق نبوته أدلة كثيرة مـنها المعجـزات الكثيرة التي أيده الله تعالى بها ، وأن أعظم هذه المعجزات هي المعجزة الخالدة على مر العصور وكر الدهور ، وهو القرآن العظيم[١٢] .

٢– أن الله تعالى جعله خاتم النبيين فلا نبي بعده ولا رسول[١٣] .

وسأتناول إن شاء الله كلاً من هذين العنصرين في مطلب مستقل ، أما العنصر الثالث وهو خصائصه – صلى الله عليه وسلم – فسأتناوله في المبحث الثاني إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر : الكنز المدفون والفلك المشحون (ص٣) .

(٢) انظر : تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (٢/١) .

(٣) السّريّ : صاحب المروءة في شرف ، أو السخاء في مروءة ، والمعنى : السيد الشريف السخي .

(٤) انظر : المقامة السندسية في النسبة المصطفوية (ص١١٢) ضمن الرسائل التسع .

(٥) انظر : شرح مقامات السيوطي (٢٢١/١) .

(٦) انظر : معترك الأقران (١٩٠/٢) .

(٧) قـال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ، قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) آل عمران الآية (٨١) .

(٨) قال الله تعالى : (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) سورة الفتح الآية (٩) .

(٩) المقامة السندسية (ص١١٥) .

(١٠) علم التوحيد ، لوحة رقم (٢٣) .

(١١) نفسه ، لوحة رقم (٥) .

(١٢) انظر : الكنز المدفون (ص٣٩ ومعترك الأقران (٣/١) .

(١٣) انظر : المقامة السندسية (ص١١٥) والخصائص الكبرى كله .

المطلب الأول : معجزاته - ﷺ -

قدمت في الفصل الرابع تعريف المعجزة في اللغة ، وفي الإصطلاح ، بما يغني عن إعادته هنا ، وقد تعرض السيوطي لبيان بعض المعجزات التي أيد الله تعالى بها نبيه ورسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - فكانت دلائل باهرة على نبوته وإكرام الله تعالى له بالرسالة . ولكن المعجزة الكبرى التي أفاض في بيانها والكلام عنها السيوطي هي المعجزة الخالدة وهي القرآن الكريم ، ومن المعجزات التي تناولها السيوطي بالبيان ما يأتي :

المعجزة الأولى - خاتم النبوة :

وهو جلد ناشئ قليلاً عن بقية جلد الجسد مثل بيضة الحمامة ، كالخال الذي هو عبارة عن شامة سوداء في البدن ، وقيل هي نكتة سوداء فيه ، والجمع خِيلان ... وفي صفة خاتم النبوة عليه خيلان هو جمع خال وهي الشامة في الجسد(1) .

وموضع هذا الخاتم أو الخال أو الشامة في جسد نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - بين كتفيه الشريفين .

قال السيوطي : " اختلفت أقوال الرواة في خاتم النبوة وليس ذلك باختلاف بل كل شبَّه بما سُنح له ، فواحد قال كـزِرِّ الحجلة(2) وهو بيض الطائر المعروف أو زر البُشْخَانَاة(3) وآخر : كبيضة الحمامة ، وآخر : كالتفاحة ، وآخر بَضْعة لحم ناشزة ، وآخر : كالمحجمة ، وآخر : كركبة العنز ، وكلها ألفاظ مؤداها واحد وهو قطعة لحم ، ومن قال : شَعْر ، فلأن الشعر حوله متراكب عليه "(4) . ثم روى السيوطي في إثبات هذا الخاتم بعض الآثار منها :

١- عن السائب بن يزيد قال : " قمت خلف النبي - صلى الله عليه وسلم - فنظرت إلى خاتمه بين كتفيه مثل زر الحجلة"(5)

٢- عن جابر بن سمرة قال : " رأيت خاتم النبوة بين كتفيه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده "(6) .

٣- عن عبدالله بن سَرْجَس قال : " نظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ، عند نُغْضِ كتفه اليسرى ، جُمْعاً عليه خيلان كأمثال الثآليل "(7) وقد أورد السيوطي آثاراً غير هذه ، بعضها مقبول وبعضها ضعيف(8) ، وفيما أوردناه في هذا غنية .

---

(١) انظر : لسان العرب (٢٢٩/١١) ، وانظر : ابن الأثير : الكامل (٢٠٨/٢) .

(٢) الحجلة طائر في حجم الحمام أحمر المنقار والرجلين ، وهو يعيش في الصرود العالية ، انظر : لسان العرب (١٤٣/١١) وحاشية المحقق لكتاب الخصائص الكبرى (١٥٠/١) .

(٣) البُشْخَانَاة ، طائر كالحجلة .

(٤) الخصائص الكبرى (١٥٠/١) ، ت.د.محمد خليل هراس ، وانظر هذه الأقوال كلها عند ابن حجر : فتح الباري (٥٦٣/٦) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الوضوء (٤) باب (٤٠) رقم (١٩٠) انظر الفتح (٢٩٦/١) ، ومسلم في " صحيحه " (١٨٢٣/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٣٠) رقم (١١١-{٢٣٤٥}) ، والترمذي في " سننه " كتاب المناقب (١١) .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٢٣/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢٩) رقم (١٠٩) ، والترمذي في " سننه " كتاب المناقب (١١) وأحمد (٢/ ٢٢٦) ، (٩٠/٥) .

(٧) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٢٣/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٣٠) رقم (١١٢) .

(٨) انظر : الخصائص (١٤٧/١-١٥١) أورد السيوطي في هذا الباب آثاراً تفيد بأن خاتم النبوة مكتوب عليه " محمد رسول الله " أو مكتوب عليه " الله وحده لا شريك له محمد رسول الله " قال د.محمد خليل هراس : " كل ما ورد من وجود كتابة في الخاتم أو غيره بلحم أو بشعر كذب موضوع " انظر الخصائص (١٥٠/١) حاشية (١) .

المعجزة الثانية – انشقاق القمر :

تكلم السيوطي عن معجزة انشقاق القمر ، واستدل عليها بما ورد في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية[١] .

قـال تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر)[٢] وقد وقعت معجزة انشقاق القمر في زمن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – " وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي – صلى الله عليه وسلم – وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات "[٣] وسبب هذه المعجزة أن كفار مكة سألوه – صلى الله عـليه وسلم – أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر آية حجة على صدقه ، وحقيقة نبوته ، ولكنهم بعد ما أراهم تلك المعجزة الباهرة أعرضوا وكذبوا وقالوا : هذا سحر مستمر ، سحرنا محمد[٤] .

ومن الأحاديث التي دلت على هذه الآية العظيمة :

١- عـن أنـس – رضي الله عنه – قال : " إن أهل مكة سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر مرتين "[٥].

ولفظ البخاري أنه " أراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما "[٦].

٢- عـن محمـد بن جبير بن مطعم عن أبيه – رضي الله عنه – قال : " انشق القمر على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فصار فرقتين ، فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل فقالوا : سحرنا محمد "[٧] .

٣- عن عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما – قال : " انشق القمر في زمان النبي – صلى الله عليه وسلم – "[٨] .

---

(١) انظر : الخصائص الكبرى (٣١٢/١) .

(٢) سورة القمر ، الآية (١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤٤٧/٧) ، وانظر : ابن جرير : جامع البيان (٨٤/٢٧) .

(٤) (صلى الله عليه وسلم) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٨٤/٢٧) .

(٥) رواه الـبخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) باب (١) رقم (٤٨٦٧-٤٨٦٨) انظر الفتح (٦١٧/٨) ، ومسلم في " صحيحه " (٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) باب (٨) رقم (٤٦-{٢٨٠٢}) ، وأحمد في " المسند " (١٦٥/٣) ، وابن جرير : جامع البيان (٨٤/١٧) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٧٠/٧) إلى عبدالرزاق ، وعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردوية ، وانظر : الخصائص (٣١٢/١) .

(٦) الـبخاري في " صحيحه " كتاب مناقب الأنصار (٦٣) باب (٣٦) رقم (٣٨٦٨) انظر الفتح (١٨٢/٧) ، وابن جرير : جامع البيان (٨٥/٢٧) ، وانظر : الدر المنثور (٦٧٠/٧) .

(٧) انظر : الخصائص الكبرى (٣١٣/١) .

والحديـث رواه ابن جرير : في " جامع البيان " (٥١/٢٧) من حديث محمد بن فضيل وغيره عن حصين به ، وتفرد به الإمام أحمد من هذا الوجه ، وأسـنده الـبيهقي في " الدلائل " من طريق محمد بن كثيرر ، عن أخيه سليمان بن كثير عن حصين بن عبدالرحمن ، ورواه البيهقي أيضاً من طـريق إبراهيم ابن طهمان وهشيم ، كلاهما عن حصين عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده فذكره . انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٨/٧) وزاد السيوطي عزوه في الدر المنثور (٦٧١/٧) إلى عبد بن حميد ، والترمذي والحاكم وأبي نعيم .

(٨) رواه البخاري في " صحيحه " ، كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة اقتربت الساعة (٥٤) باب (١) ح رقم (٤٨٦٦) .

ورواه البخاري أيضاً في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٧) ح (٣٦٣٨) ومسلم في " صحيحه " (٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين (٥٠) باب (٨) ح رقم (٤٨-{٢٨٠٣}) من حديث بكر بن مضر عن جعفر ابن ربيعة ، عن عراك بن مالك به مثله .

ورواه ابن جرير بسنده إلى ابن عباس أيضاً في " جامع البيان " (٨٥/٢٧) .

قال ابن كثير : " وروى العَوْفي ، عن ابن عباس نحو هذا " انظر : تفسير القرآن العظيم (٤٤٨/٧) .

وفي رواية ابن جرير قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " قد مضى ذلك ، كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه "[١] .

٤- عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال في قوله تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر)[٢] : وقد كان ذلك علـى عهـد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - انشق فلقتين ، فلقة من دون الجبل وفلقة من خلف الجبل ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " اللهم اشهد "[٣] .

٥- عـن عـبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شقتين حتى نظروا إليه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اشهدوا "[٤] .

وعـنه أيضاً - رضي الله عنه - قال : " كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمنى ، فانشق القمر ، فأخذت فرقة خلف الجبل ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اشهدوا ، اشهدوا "[٥] .

وبناءً على هذه الأدلة المتقدمة فمعجزة انشقاق القمر ثابتة بما لا يدع مجالاً للشك في وقوعها على عهد رسول الله - صـلى الله عـليه وسلم - قال السيوطي : " قال العلماء : انشقاق القمر آية عظيمة لا يكاد يعدلها شئ من آيات الأنبياء وذلك أنه ظهر في ملكوت السماء خارجاً من جملة طباع ما في هذا العالم المركب من الطبائع فليس مما يطمع في الوصول إليه بحيلة فلذلك صار البرهان به أظهر "[٦] .

وقـد حـكى القاضـي عيـاض أجماع المفسرين وأهل السنة على وقوعه[٧] فثبتت هذه المعجزة بالكتاب والسنة والإجماع .

وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (٦٧١/٧) إلى ابن مردوية ، والبيهقي في " الدلائل " .

(١) جامع البيان (٨٦/٢٧) .

(٢) سورة القمر الآية (١) .

(٣) رواه مسـلم في " صحيحه " (٢١٥٩/٤) كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) باب (٨) ح رقم (٢٨٠١) ، والترمذي من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد ، به ، قال مسلم : كرواية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود ، وقال الترمذي : " حسن صحيح " انظر : تحفة الأحوذي ، تفسير سورة القمر (١٧٥/٩) ح رقم (٣٣٤٢) .

وابن جرير في " جامع البيان " (٨٥/٢٧) .

وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (٦٧١/٧) إلى ابن المنذر ، وابن مردوية ، وانظر : الخصائص الكبرى (٣١٣/١) .

(٤) متفق عليه .

- رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) سورة اقتربت الساعة (٥٤) باب (١) ح رقم (٤٨٦٥) الفتح (٦١٧/٨) ، وكتاب مناقب الأنصار (٦٣) باب (٣٦) ح رقم (٣٨٦٩) انظر : الفتح (١٨٣/٧) .

- ورواه مسـلم في " صحيحه " (٢١٥٨/٤) ح رقم (٤٤) ورواه أبو داود بلفظ : " انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت قـريش : هذا سحر ابن أبي كبشه ، قال : فقالوا : انظروا ما يأتيكم به السفار فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال فجاء السفار فقالوا ذلك " انظر : منحة المعبود (١٢٣/٢) أبواب ما جاء في معجزاته - صلى الله عليه وسلم - باب ومن معجزاته - صلى الله عليه وسلم - انشقاق القمر .

وابن جرير في " جامع البيان " (٨٥/٢٧) من حديث المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود ، وزاد : " فأنزل الله عز وجل : (اقتربت الساعة وانشق القمر) ، وانظر ابن كثير في " تفسيره " (٤٨٠/٧) .

ورواه الإمام أحمد (٣٧٧/١) ح رقم (٣٥٨٣) ، (٤١٣/١) رقم (٣٩٢٤) ، (٤٤٧/١) رقم (٤٢٧٠) ، (٤٥٦/١) رقم (٤٣٦٠) .

(٥) ابن جرير ك جامع البيان (٨٥/٢٧) . وانظر : الخصائص الكبرى (٣١٢/١) .

(٦) الخصائص الكبرى (٣١٤/١) .

(٧) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٣٩٦/١) .

المعجزة الثالثة – شفاء عين علي بن أبي طالب ﷺ ببركة بصاق النبي ﷺ و إخباره – ﷺ – بفتح خيبر :

ذكرها السيوطي ضمن المعجزات التي جمعها في كتاب الخصائص الكبرى[١] ، ثم استدل عليها بما رواه الشيخان أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال يومْ خيبر : " لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، فبات الناس ليلتهم أيهم يعطي ، فغدوا كلهم يرجوه ، فقال : " أين علي ؟ " فقيل يشتكي عينيه ، فبصق في عينيه ، ودعا له فبرا كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه فقال : ... "[٢] الحديث .

وفي بعض الروايات : " ... فبات الناس يدوكون[٣] ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كلهم يرجون أن يعطاها ، فقال : " أين علي بن أبي طالب ؟ " فقالوا : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : " فأرسلوا إليه " فأُتي به ، فبصق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في عينيه ، ودعا له فبرأ ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية... "[٤] .

وفي رواية لمسلم : " ...فأعطاه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الراية ، ففتح الله عليه "[٥] .

ففي هذا الحديث الشريف معجزتان اثنتان لا معجزة واحدة **أولاهما :** شفاء علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بسبب بركة بصاق النبي – صلى الله عليه وسلم – في عينيه ، فقد برأ عليٌّ – رضي الله تعالى عنه – من رمده الذي كان في عينيه بمجرد أن بصق فيهما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقام كأن لم يكن به وجع ، قال ابن حجر : " وعند الحاكم من حديث علي نفسه قال : فوضع رأسي في حجره ثم بزق في الية راحته فدلك بها عيني ، وعن بريدة في " الدلائل " للبيهقي : " فما وجعها عليٌّ حتى مضى لسبيله " أي مات ، وعند الطبراني من حديث عليّ : " فما رُمِدتُ ولا صُدِعتُ مذ دفع النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى الراية يوم خيبر " وله من وجه آخر : " فما اشتكيتها حتى الساعة ، قال : ودعالي فقال : " اللهم أذهب عنه الحر والقر " ، قال : فما اشتكيتها حتى يومي هذا "[٦] .

وأما المعجزة الثانية : فهي تحقق خبر النبي – صلى الله عليه وسلم – بفتح خيبر – كما في رواية مسلم – " ففتح الله عليه " وهي معدودة من دلائل نبوته – عليه الصلاة والسلام – .

وكون علي _ رضي الله عنه – لم يشتك عينيه بعد ما بصق فيهما النبي – صلى الله عليه وسلم – حتى مات

---

(١) انظر (٥٢/٢) .

(٢) متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " في مواضع ، في كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٠٢) ح رقم (٢٩٤٢) انظر الفتح (١١١/٦) ، وفي نفس كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٤٣) ح رقم (٣٠٠٩) انظر الفتح (١٤٤/٦) ، وفي كتاب فضائل الصحابة (٦٢) باب (٩) رقم (٣٧٠١) عن سهل بن سعد الساعدي ، رقم (٣٧٠٢) عن سلمة ، وكتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٩) ، رقم (٤٢١٠) .

ورواه مسلم في " صحيحه " (١٨٧١/٤) رقم (٣٣-{٢٤٠٥}) عن أبي هريرة ، (١٨٧٢/٤) رقم (٣٤-{٢٤٠٦}) عن سلمة بن الأكوع .

(٣) أي : يخوضون ويتحدثون في ذلك ، والدوكة بالكاف الاختلاط – فتح (٤٧٧/٧) .

(٤) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢١٠) الفتح (٤٧٦/٧) ، ومسلم في " صحيحه " كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب (٤) رقم (٣٤-{٢٤٠٦}) ، (١٨٧٢/٤)

(٥) صحيح مسلم (١٨٧٢/٤) ، كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب (٤) رقم (٣٥-{٢٤٠٧}) .

(٦) فتح الباري (٤٧٧/٧) .

معجــزة ثالــثة ، من معجزات – صلى الله عليه وسلم – وكونه أيضاً لم يشتك الحر والقر بعدما دعا له النبي – صلى الله عليه وسلم – معجزة رابعة تضاف إلى رصيد المعجزات النبوية .

المعجزة الرابعة : إخباره – ﷺ – عمن أبلى بلاءً حسناً في القتال ، أنه من أصحاب النار[(١)] :

وأورد السيوطي في ذلك حديث سهل بن سعد ، وأبي هريرة – رضي الله عنهما – الذي رواه الشيخان :

١- عــن ســهل بن سعد الساعدي – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ألتقى هو والمشركون فاقتتلوا ، فلما مال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى عسكره ، ومال الآخرون إلى عسكرهم ، وفي أصحاب رسول الله – صــلى الله عليه وسلم – رجل لا يدع لهم شاذةً[(٢)] إلا اتبعها يضربها بسيفه ، فقالوا : ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان[(٣)] ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أما إنه من أهل النار " ، فقال رجل من القوم : أنا صاحبه[(٤)] أبداً ، قــال فجــرح معــه ، كلما وقف وقف معه ، وإذا أسرع أسرع معه ، قال : فخرج الرجل جرحاً شديداً فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بالأرض ، وذبابه[(٥)] بين ثدييه ، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه ، فخرج الرجل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : أشهد أنك رسول الله ، قال : " وما ذاك ؟ " قال : الرجل الذي ذكرت آنفاً أنه من أهل النار ، فأعظم الــناس ذلــك ، فقــلت : أنــا لكم به ، فخرجت في طلبه ، حتى جرح جرحاً شديداً ، فاستعجل الموت ، فوضع نصل سيفه بــالأرض وذبابه بين ثدييه ، ثم تحامل عليه فقتل نفسه ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عند ذلك : " إن الرجل ليعمــل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، وهو من أهل النار ، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة "[(٦)] ، اللفظ لمسلم) .

٢- عــن أبــي هريرة – رضي الله عنه – قال : شهدنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حُنَيْناً[(٧)] ، فقال لرجل ممن يُدْعَى بالاسلام : " هذا من أهل النار " فلما حضرنا القتال قاتل الرجل قتالاً شديداً فأصابته جراحة ، فقيل : يا رسول الله ، الــرجل الذي قلت له آنفاً إنه من أهل النار[(٨)] ، فإنه قاتل اليوم قتالاً شديداً ، وقد مات ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " إلى النار " فكاد بعض المسلمين أن يرتاب ، فبينما هم على ذلك ، إذ قيل : إنه لم يمت ولكن به جراحاً شديدة ،

---

(١) انظر : الخصائص الكبرى (٦٣/٢) .

(٢) الشــاذ والشاذة : الخارج والخارجة عن الجماعة ، وأنث الكلمة على معنى النَّسَمة ، أو تشبيه الخارج بشاذة الغنم ، يقال : فلان لا يدع شاذة ولا فاذة ، إذا كان شجاعاً ، لا يلقاه أحد إلا قتله .

(٣) أي : ما كفى وأغنى عنا أحد غناءه وكفايته .

(٤) أي : أنا أصحبه في خفية وألازمه لأنظر السبب الذي يصير به من أهل النار .

(٥) ذباب السيف هو طرفه الأسفل ، أما طرفه الأعلى فمقبضه أو نصله .

(٦) متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٢) الفتح (٤٧١/٧) ، وفي كتاب الرقاق (٨١) باب (٣٣) رقم (٦٤٩٣) الفتح (٣٣٠/١١) ، وفي كتاب الجهاد (٥٦) باب (٧٧) رقم (٢٨٩٨) الفتح (٨٩/٦) .

– ورواه مسلم في " صحيحه " (١٠٦/١) كتاب الإيمان (١) باب (٤٧) رقم (١٧٩–{١١٢}) ، وأورده السيوطي في الخصائص (٦٢/٢) .

(٧) كــذا وقع في الأصول ، قال القاضي عياض : " صوابه خيبر " ويؤيده رواية البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٣) انظر الفتح (٤٧١/٧) .

(٨) أي الذي قلت في شأنه أنه من أهل النار .

فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه ، فأُخبِر النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، فقال : " الله أكبر ، أشهد أني عبد الله ورسوله " ثم أمر بلالاً فنادى في الناس ، " إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر "[1] ، (اللفظ لمسلم) .

والمعجزة في هذا واضحة جلية لا تحتاج إلى بيان ، وهو وقوع ما أخبر به الصادق المصدوق قبل وقوعه ، وهي من الدلالات العظيمة على صدق نبوته ورسالته ، التي أرسله الله تعالى بها ، فهو المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى .

كما ذكر السيوطي في معرض كلامه عن غزوة خيبر عدة معجزات أخر ، منها :

المعجزة الخامسة : شفاء ساق سلمة بن الأكوع ﷺ من الضربة التي ضربها يوم خيبر

عن يزيد بن أبي عبيد قال : " رأيت أثر ضربة في ساق سلمة بن الأكوع فقلت : يا أبا مسلم ما هذه الضربة ؟ قال ضربة أصابتها يوم خيبر ، فقال الناس : أصيب سلمة فأتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكيت حتى الساعة "[2] وفي هذا أيضاً شفاء الضربة التي ضُرِبَها سلمة - رضي الله عنه - بسبب بركة ريق النبي - صلى الله عليه وسلم - .

المعجزة السادسة : إخباره - ﷺ - عن الشاة المسمومة :

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - شاة فيها سم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اجمعوا لي من كان ها هنا من اليهود " فجمعوا له ، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إني سائلكم عن شئ فهل أنتم صادقوني عنه ؟ " فقالوا : نعم يا أبا القاسم : فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " من أبوكم ؟ " قالوا : أبونا فلان ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كذبتم، بل أبوكم فلان " قالوا صدقت وبررت ، فقال : " هل أنتم صادقوني عن شئ إن سألتكم عنه ؟ " فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا ، قال لهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : " من أهل النار ؟ " فقالوا : نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها ، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " اخسئوا فيها ، والله لا نخلفكم فيها أبداً " ثم قال لهم : " هل أنتم صادقوني عن شئ إن سألتكم عنه ؟ " قالوا : نعم ، فقال : " هل جعلتم في هذه الشاة سُماً ؟ " فقالوا : نعم ، فقال : " ما حملكم على ذلك ؟ " فقالوا : أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك ، وإن كنت نبياً لم يضرك[3] .

وتمام قصة هذه الشاة المسمومة ذكرها ابن اسحاق بغير اسناد - كما قال ابن حجر[4] - ، قال ابن اسحاق : "

---

(١) متفق عليه .
- رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٣) الفتح (٤٧١/٧) ، وفي كتاب القدر (٨٢) باب (٥) رقم (٦٦٠٦) الفتح (٤٩٨/١١) .
- ورواه مسلم في " صحيحه " (١٠٥/١) كتاب الإيمان (١) باب (٤٧) رقم (١٧٨-{١١١}) .
(٢) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٨) رقم (٤٢٠٦) انظر الفتح (٤٧٥/٧) .
(٣) البخاري في " صحيحه " كتاب الجزية والموادعة (٥٨) باب (٧) رقم (٣١٦٩) فتح الباري (٢٧٢/٦) ، الخصائص الكبرى (٦٣/٢) .
(٤) انظر : فتح الباري (٢٤٥/١٠) .

لمـــا اطمـــأن النبي – صلى الله عليه وسلم – بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية وكـــانت ســـألت : أي عضو من الشاة أحب إليه ؟ قيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، فلما تناول الذراع لاك منها مضـــغة ولم يسغها ، وأكل معه بشر بن البراء بن معرور فأساغ لقمته ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن هـــذا العظم ليخبرني أنه مسموم ، ثم دعا بها ، فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيُخبَّر ، قال : فتحاوز عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، ومات بشر من أكلته[١] .

وقـــد أورد هذه القصة ابن سعد مطولة من طرق عن ابن عباس بسند ضعيف[٢] ، ووقع في مرسل الزهري[٣] أن رســـول الله – صـــلى الله عليه وسلم – تناول الكتف فنهش[٤] منها فلما ازدرد لقمته قال : " إن الشاة تخبرني " يعني أنها مســـمومة ، وأوردها أيضاً البيهقي موصولة من طريق سفيان بن حسين عن الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة عن أبـــي هريـــرة – رضـــي الله عنه – وفيها أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أكل منها ، فقال لأصحابه : " أمسكوا فإنها مسمومة " ثم قال لها أي للمرأة : " ما حملك على ذلك ؟ "[٥]... الخ

ومعجزة إخباره – صلى الله عليه وسلم – بأن الشاة مسمومة ثابتة ولا خلاف بين العلماء في وقوعها ، وهي تعد مـــن دلائل نبوته – صلى الله عليه وسلم – ولذلك ذكرها البيهقي وغيره في دلائل النبوة ، أما الخلاف فقد وقع بين العلماء في قتل زينب بنت الحارث اليهودية التي وضعت ذلك السم في الشاة ، فقال بعضهم : إنها لما اعترفت تركها النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يكن ينتقم لنفسه ، وقيل : لأنها أسلمت لما رأت هذه المعجزة منه – صلى الله عليه وسلم – فلما أسلمت خـــلى ســـبيلها ولم يتعرض لها . حكى إسلامها الزهري ، وجزم به سليمان التيمي في " مغازية " ولفظه بعد قولها : وإن كنت كاذباً أرحتُ الناس منك ، قالت : " وقد استبان لي الآن أنك صادق ، وأنا أُشهدك ومن حضر أني على دينك ، وأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله " ، قال : فانصرف عنها حين أسلمت ، وقال البعض : بل قتلها ، وأجابوا عن القول الأول بأنـــه – صلى الله عليه وسلم – تركها في بادئ الأمر لما أسلمت ولكن بعدما مات بشر بن البراء الذي أكل من الشاة مع النبي – صلى الله عليه وسلم – قتلها به قصاصاً ، لأنه بموته تحقق وجوب القصاص بشرطه[٦] .

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية (٣٣٧/٢) ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٩٧/٧) .

(٢) انظر : فتح الباري (٢٤٥/١٠) .

(٣) وهو عند أبي داود في السنن ، وانظر فتح الباري (٤٩٧/٧) وقال ابن حجر : " وهذا منقطع لأن الزهري لم يسمع من جابر " وأخرجه أبو داود أيضاً من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة نحوه مرسلاً . قال البيهقي : " وصله حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة " انظر الفتح (٤٩٧/٧) .

(٤) نَهَسَ اللحمَ يَنْسُه نَهْساً ونَهَساً ، بالسين المهملة ، انتزعه بالثنايا للأكل ، أما النَّهْشُ بالشين المعجمة فهو أخذ اللحم بجميع الأسنان ، انظر اللسان (٢٤٤/٦) مادة نَهَس ، (٣٦٠/٦) مادة : نَهَشَ .

(٥) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٩٧/٧) .

(٦) حكى هذا الخلاف ، وهذه الأقوال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٤٩٧/٧) ونقلتها باختصار .

المعجزة السابعة : نعيه – ﷺ – قواد جيشه في غزوة مؤتة إلى أصحابه ، قبل أن يصل خبرهم إليه :

ومؤتة بأدنى البلقاء من أرض الشام كانت في جمادي الأولى سنة ثمان[١] ، وقد بعث إليها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – البعوث ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة – رضي الله عنه – وقال : " إن قُتل زيد فجعفر ، وإن قُتل جعفر فعبدالله بن رواحة "[٢] ، قال أنس – رضي الله عنه – : نعى النبي – صلى الله عليه وسلم – زيداً ، وجعفراً ، وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : " أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فأصيب – وعيناه تذرفان – حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليه "[٣] .

وهذا السيف من سيوف الله الذي فتح الله عليه هو خالد بن الوليد – رضي الله عنه – فقد اصطلح الناس عليه بعد مقتل الثلاثة الأول[٤] – رضي الله عنهم – ، قال ابن حجر : " وفيه علَم ظاهر من أعلام النبوة "[٥] أي في هذا الحديث ، وفيه أيضاً " فضيلة ظاهرة لخالد بن الوليد ولمن ذكر من الصحابة "[٥] – رضي الله عنهم – .

وقد ذكر السيوطي روايات متعددة في تقرير هذه المعجزة ، لا تصح[٦] ، وقد اقتصرت في هذا على ما صح منها وفيه غنية والحمد لله.

المعجزة الثامنة :إخباره – ﷺ – عن الظعينة التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش :

حدث هذا أثناء استعداد النبي – صلى الله عليه وسلم – لفتح مكة المكرمة ، وهو الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ، ورسوله وجنده وحزبه الأمين ، واستنفذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وأشرق وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً ، خرج له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بكتائب الإسلام ، وجنود الرحمن سنة ثمانٍ ، لعشر مضين من شهر رمضان المبارك ، واستعمل على المدينة المنورة أبا رُهْم كلثوم بن حُصين الغفاري ، وقيل : استعمل عبدالله بن أم مكتوم – رضي الله عنهما[٧] – .

وقد عزم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المسير إلى فتح مكة بعد ما نقضت قريش العهد الذي عقدوه معه في صلح الحديبية ، بإعانتها حلفاءها بني بكر بن عبدمناة بن كنانة ، على حلفاء النبي – صلى الله عليه وسلم –

---

(١) انظر : ابن القيم : زاد المعاد (٣/٣٣٦) .

(٢) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٤٤) رقم (٤٢٦١) ، انظر فتح الباري (٧/٥١٠) ، وأحمد في " المسند " (٥/ ٣٠١،٣٠٠،٢٩١) .

(٣) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٤٤) رقم (٤٢٦٢) انظر فتح الباري (٧/٥١٢) .

(٤) زاد المعاد (٣/٣٣٨) .

(٥) فتح الباري (٧/٥١٣) .

(٦) انظر : الخصائص الكبرى (٢/٧٠-٧٥) .

(٧) انظر : زاد المعاد (٣/٣٤٧) .

من خزاعة ، وهم على ماء يقال له الوتير ، وقتلوا منهم عدداً[١] .

فلما عزم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على المسير إلى مكة المكرمة أعلم أصحابه بذلك ، وأمرهم بالجد والتجهيز وقال : " اللهم خـذ العيون والأخبار عن قريش ، حتى نبغتها في بلادها ، فتجهز الناس لذلك[٢] .

فكـتب حـاطب بن أبي بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إليهم ثم أعطاه امـرأة ، وجعـل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً فجعلته في قرون رأسها . ذكر السيوطي روايات ما فعله حاطب في ذلك بعضها في الصحيحين ، وبعضها في أحدهما ، والباقي ما نقله عن ابن اسحاق والبيهقي والحاكم وغيرهم[٣] .

فمـن ذلـك ما رواه الشيخان عن عليٍّ – رضي الله عنه – قال : بعثني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنا والزبير والمقداد فقال : " انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها " ، قال : فانطلقنا تعَادَى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا لها : أخرجي الكتاب ، قالت ما معي كتاب ، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ، قال : فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلـتعة – إلى ناس بمكة من المشركين – يخبرهم ببعض أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " يا حاطب ، ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل عليّ ، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش – يقول : كنت حليفاً – ولم أكن من أنفُسها ، وكان من معك من المهاجرين من لهم بها قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتـني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي ولم أفعله ارتداداً عن ديني ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ، فقـال رسـول الله – صـلى الله عليه وسلم – : " أما إنه قد صدقكم " فقال عمر : يا رسول الله ، دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : " إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً قال : اعملوا ما شئتم فقد غفر لكم " فأنزل الله السـورة[٤] (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق – إلى قوله – فقد ضل سواء السبيل "[٥] . وفي هذه القصة أكثر من دليل على معجزته – صلى الله عليه وسلم – :

أولهـا : إخـباره – صلى الله عليه وسلم – بما فعل حاطب – رضي الله عنه – وكتابته الكتاب إلى قريش ، والحديث فيه اعتراف حاطب – رضي الله عنه – بذلك ، وعدم انكاره ، كما أن كتابه شاهد مادي آخر غير اعترافه ، وهما دليلان على صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعلى نبوته .

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية (٣٩٤/٢–٣٩٥) نقله عن ابن اسحاق بغير سند ، ووصله الطبراني في الصغير (ص٢٢٢) من حديث ميمونة بنت الحارث – رضي الله عنها – بإسناد ضعيف ، وانظر : زاد المعاد (٣٤٨/٣) ، وابن حجر : الفتح (٥١٩/٧) – وتخريج ابن حجر للرواية (٥٢٠) .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية (٣٨٩/٢–٣٩٨) عن ابن اسحاق بلا سند ، وانظر : زاد المعاد (٣٥٠/٣–٣٥١) .

(٣) انظر : الخصائص الكبرى (٧٦/٢–٨٩) .

(٤) سورة الممتحنة الآية (١) .

(٥) رواه البـخاري فـي " صحيحه " كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٤١) رقم (٣٠٠٧) انظر الفتح (١٤٣/٦) وباب (١٩٥) رقم (٣٠٨١) الفتح (١٩٠/٦) والمغازي (٦٤) باب (٤٦) رقم (٤٢٧٤) الفتح (٥١٩/٧) .

ومسـلم في " صحيحه " (١٩٤١/٤) كتاب فضائل الصحابة (٤٤) باب (٣٦) رقم (١٦١–{٢٤٩٤}) وسنن أبي داود – كتاب الجهاد ، باب في حكم الجاسوس إذا كان مسلماً ، وانظر تحفة الأحوذي (١٩٨/٩–٢٠٢) رقم (٣٣٦٠) .

الثاني : إخباره – صلى الله عليه وسلم – بأن الكتاب دفعه حاطب إلى ظعينة أي امرأة من مزينة[1] ، وشهد الواقع بصدقه – صلى الله عليه وسلم – .

الثالث : إخباره – صلى الله عليه وسلم – بمكانها وهو : روضة خاخ ، وقد أدركها علي وصاحباه في نفس المكان .

قال ابن حجر – رحمه الله – : " وقد أظهر الله صدق رسوله في كل من أخبر عنه بشئ "[2] .

المعجزة التاسعة : نبع الماء من بين أصابعه الشريفة – ﷺ – :

جمـــع السيوطي تحت هذه المعجزة كثيراً من الأحاديث منها صحاح ومنها غير ذلك [3] ، وأحاديث نبع الماء من بيـــن أصابعه الشريفة تعددت طرقها الصحيحة حتى بلغت حد التواتر المعنوي ، فمنها ما اتفق عليه في الصحيحين ، ومنها مـــا انفـــرد بـــه أحدهما ، ومنها ما ورد في غيرهما ، وقد انتقيت لتقرير هذه المعجزة وغيرها ، ما كان حديثاً صحيحاً ، وأعرضـــت عن كثير مما جمعه السيوطي ولم يصح ، لأن في الصحيح الغنية عن غيره في إثبات المقصود وقد انتقيت من تلك الأحاديث التي أوردها السيوطي خمسة أحاديث صحيحة :

١- حديث جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – .

٢- حديث أنس – رضي الله عنه – .

٣- حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – .

٤- حديث عمران بن حصين – رضي الله عنه – .

٥- حديث أبي قتادة – رضي الله عنه – .

١- **أمـــا الأول :** فعن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – قال : " عطش الناس يوم الحديبية ، والنبي – صلى الله عليه وسلم – بين يديه رِكْوة[4] ، فتوضأ ، فجَهِشَ الناس نحوه ، فقال : " مالكم " ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك ، فوضع يده في الرِكوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا ، قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة "[5] .

٢- الثاني :

---

(١) انظـــر : الســـيرة النبوية (٣٩٨/٢) ، ابن حجر : فتح الباري (٥٢٠/٧) وذكر ابن حجر أن هذه المرأة اسمها " سارة " – فيما نقله عن ابن اسحاق – وهو في سيرة ابن هشام (٣٩٨/٢) ، ونقل ابن حجر عن الواقدي أن اسمها " كنود " وقال : " وفي رواية " سارة " وفي رواية أخرى " أم سارة " ، كمـــا ذكر ابن هشام في " السيرة " النبوية أن هذه المرأة كانت ضمن الذين أهدر الرسول دماءهم يوم فتح مكة لأنها كانت تغني بهجاء الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكانت مولاة لبعض بني عبدالمطلب ، السيرة النبوية (٤١٠/٢) .

(٢) فتح الباري (٦٣٥/٨) .

(٣) انظر : الخصائص الكبرى (٢/٢١٤-٢٢٦) .

(٤) الرِكوة : مثلثة الراء ، وهي إناء صغير من جلد يُشرب فيه الماء ، اللسان (٣٣٣/١٤) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " في مواضع وهي : كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) ، رقم (٣٥٧٦) الفتح (٥٨١/٦) وفي كتاب المغازي (٦٤) باب (٣٥) رقم (٤١٥٢) الفـــتـــح (٤٤١/٧) ورقـــم (٤١٥٣) الفـــتـــح (٤٤٣/٧) ، كـــتـــاب الأشـــربـــة (٧٤) بـــاب (٣١) رقم (٥٦٣٩) الفتح (١٠١/١٠) ورواه أحمد في " المسند " (٣٢٩،٣٤٣،٣٥٣،٣٦٥/٣) . وأورده السيوطي في " الخصائص الكبرى " (٢١٤/٢) .

أ)- عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأُتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بوَضوء فوضع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضئوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه حتى توضئوا من عند آخرهم "(١) .

فهذا من طريق إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أنس – رضي الله عنه(٢) – .

ب)- ومن طريق ثابت عن أنس – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – : دعا بإناء من ماء ، فأُتي بقدح رَحْرَاحٍ فيه شئ من ماء فوضع أصابعه فيه ، قال أنس : فجعلت انظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه قال أنس فحزرت من توضأ ما بين السبعين إلى الثمانين(٣) .

قال الحافظ ابن حجر : " قوله : (رَحْرَاح) بمهملات ، الأولى مفتوحة بعدها سكون ، أي متسع الفم ، وقال الخطابي : الرحراح : الإناء الواسع الصحن القريب القعر ، ومثله لا يسع الماء الكثير فهو أدل على عظم المعجزة "(٤) .

جـ)- ومن طريق حميد عن أنس – رضي الله عنه – قال : حضرت الصلاة فقام من كان قريب الدار إلى أهله وبقي قوم ، فأُتي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بمخضب(٥) من حجارة فيه ماء فصغر المخضب أن يبسط فيه كفه ، فتوضأ القوم كلهم ، قلنا : كم كنتم ؟ قال : ثمانين وزيادة(٦) .

د)- ومن طريق الحسن قال : حدثنا أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : " خرج النبي – صلى الله عليه وسلم – في بعض مخارجه ، ومعه ناس من أصحابه ، فانطلقوا يسيرون ، فحضرت الصلاة " فلم يجدوا ماء يتوضئون ، فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماء يسير ، فأخذ النبي – صلى الله عليه وسلم – فتوضأ ، ثم مد أصابعه الأربع على القدح ، ثم قال : " قوموا فتوضئوا فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء وكانوا سبعين أو نحوه "(٧) .

هـ)- ومن طريق قتادة عن أنس – رضي الله عنه – قال : " أُتي النبي – صلى الله عليه وسلم – بإناء وهو بالزوراء ، فوضع يده في الإناء ، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ القوم ، قال قتادة : قلت لأنس : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة ، أو زُهاءَ ثلاثمائة "(٨) .

---

(١) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الوضوء (٤) باب (٣٢) رقم (١٦٩) الفتح (٢٧١/١) .

(٢) انظر : الخصائص الكبرى (٢١٤/٢) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الوضوء (٤) باب (٤٦) رقم (٢٠٠) انظر : فتح الباري (٣٠٤/١) . ورواه مسلم في " صحيحه " (٤/ ١٧٨٣) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢) رقم (٤-{٢٢٧٩}) ولفظه : (ما بين الستين إلى الثمانين) . ورواه أحمد في " المسند " (١٤٧/٣) ، وانظر : السيوطي : الخصائص الكبرى (٢١٥/٢) .

(٤) فتح الباري (٣٠٤/١) .

(٥) المِخْضَبُ : وعاء يشبه المِركَن لغسل الثياب أو خضبها .

(٦) رواه البخاري " صحيحه " كتاب الوضوء (٤) باب (٤٥) رقم (١٩٥) الفتح (٣٠١/١) ، وكتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٥) الفتح (٦ /٥٨١) ، ورواه أحمد في " المسند " (١٠٦،١٧٥،٢٤٨،٢٤٩/٣) . وانظر : الخصائص الكبرى (٢١٥/٢) .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٤) الفتح (٥٨١/٦) .

(٨) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٢) الفتح (٥٨٠/٦) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (١٧٨٣/٤

٣- الثالث : حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - :

عن عبدالله قال : " كنا نعد الآيات بركة ، وأنتم تعدونها تخويفاً ، كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في سـفر فقـل المـاء ، فقال : " اطلبوا فضلة من ماء " فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ، فأدخل يده في الإناء ثم قال : حيّ على الطهـور المبارك ، والبركة من الله[1] ، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل "[2] .

٤- الرابع : حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - :

قال - رضي الله عنه - كنا في سفر مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وإنا أسرينا حتى إذا كنا في آخر الليل ، وقعـنا وقعـة ، ولا وقعة أحلى عند المسافر منها ، فما أيقظنا إلا حر الشمس ، وكان أول من استيقظ فلان ، ثم فلان ، ثم فلان ، - يسميهم أبو رجاء[3] فنسي عوف[4] - ثم عمر بن الخطاب الرابع ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا نام لـم يوقظ حتى يكون هو يستيقظ ، لأنا لا ندري ما يحدث له في نومه ، فلما استيقظ عمر ، ورأى ما أصاب الناس - وكان رجلاً جليداً - فكبر ورفع صوته بالتكبير ، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ بصوته النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما استيقظ شكوا إليه الذي أصابهم ، قال : " لا ضير" - أو " لا يضير" " ارتحلوا " ، فارتحل ، فسار غير بعيد ، ثم نزل فدعا بالوَضوء فتوضأ ، ونودي بالصلاة فصلى بالناس ، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل معتزل لم يصل مع القوم قال : " ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم " ؟ قال : أصابتني جنابة ولا ماء ، قال : " عليك بالصعيد فإنه يكفيك " ، ثـم سـار النبي - صلى الله عليه وسلم - فاشتكى إليه الناس من العطش ، فنزل فدعا فلاناً - يسميه أبو رجاء نسيه عوف - ودعا علياً فقال : " اذهبا فابتغيا الماء " فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين[5] - أو سطيحتين[6] - من ماء على بعير لها ، فقالا لها : أين الماء ؟ قالت : عهدي بالماء أمسِ هذه الساعة ، ونفرنا خلوفاً[7] ، قالا لها : انطلقي إذاً ، قالت : إلى أين ؟ قـالا : إلى رسـول الله - صلى الله عليه وسلم - ، قالت : الذي يقال له الصابئ ؟ قالا : هو الذي تعنين[8] ، فانطلقي ،

) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢) رقم (٧) ، وأورده السيوطي في الخصائص الكبرى (٢/٢١٥) .

(١) قـال الدكـتور محمد خليل هراس : " ما أجمل هذه العبارة في هذه المناسبة ففيها احتياط للتوحيد ، ونفي لكل ما يتوهم من نسبة هذه الآيات إلى غير الله عز وجل ، مما كان سبباً في ضلال كثير من الناس ، حيث ألهوا بعض من أجريت على أيديهم هذه الأمور ، كما فعل النصارى بالنسبة للمسيح - عليه السلام - " ، انظر : الخصائص الكبرى (٢/٢١٨) حاشية رقم (٤) .

(٢) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٩) الفتح (٦/٥٨٧) ، الترمذي في " سننه " كتاب المناقب (٦) ، والدارمـي فـي " سـننه " المقدمة (٥) ، والنسائي طهارة (٦٠) ، وأحمد في " المسند " (١/٤٦٠) ، وأورده السيوطي في " الخصائص الكبرى " (٢/٢١٨) .

(٣) الراوي عن عمران بن حصين - رضي الله عنه - .

(٤) الراوي عن أبي رجاء ، فالحديث يرويه عوف عن أبي رجاء عن عمران .

(٥) المـزادة : أكبر من القربة ، والمزادتان حمل بعير ، سميت مزادة لأنه يزاد فيها من جلد آخر من غيرها ، وتسمى أيضاً السطيحة . الفتح (١/ ٤٥٢) .

(٦) السطيحة هي المزادة ، انظر : الفتح (١/٤٥٢) .

(٧) تريد أن رجالها تخلفوا لطلب الماء ، انظر : الفتح (١/٤٥٢) .

(٨) هـذا الـرد فيه أدب حسن ، ولو قالا لها : لا ، لفات المقصود ، ولو قالا لها : نعم ، لم يحسن بهما إذ فيه تقرير ذلك فتخلصا أحسن تخلص - انظر : الفتح (١/٤٥٢) .

فجـاءا بها إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وحدثاه الحديث ، قال : فاستنزلوها عن بعيرها ، ودعا النبي – صلى الله عـليه وسلم – بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين – أو السطيحتين ، وأوكأ أفواهما وأطلق العزالي[١] ، ونودي في الناس : اسقوا[٢] ، واستقوا ، فسقَى من شاء ، واستقى من شاء ، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناءً من ماء قال : " اذهـب فأفرغه عليك " وهي قائمة تنظر إلى ما يُفعل بمائها ، وايم[٣] الله لقد أقلع عنها ، وإنه ليخيل إلينا أنها أشد مِلأةً منها حيـن ابـتدأ فيها ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " اجمعوا لها " ، فجمعوا لها – من بين عجوة ودقيقة وسويقة – حتى جمعوا لها طعاماً ، فجعلوها[٤] في ثوب وحملوها على بعيرها ووضعوا الثوب بين يديها ، قال لها : " تعلمين ما رَزِئنا من مائك شيئاً ، ولكن الله هو الذي أسقانا " ، فأتت أهلها وقد احتبست عنهم ، قالوا : ما حبسكِ يا فلانة ؟ قالت : العجب ، لقيني رجلان فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابئ ، ففعل كذا وكذا ، فوالله إنه لأسحر الناس من بين هذه وهذه ، وقالت بأصبعها الوسطى والسبابة فرفعتهما إلى السماء ، تعني السماء والأرض – أو أنه لرسول الله حقاً ، فكان المسلمون بعد ذلك يغيـرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصِّرْمَ[٥] الذي هي منه ، فقالت يوماً لقومها : ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمداً ، فهل لكم في الإسلام ؟ فأطاعوها ، فدخلوا في الإسلام .

قال أبو عبدالله[٦] : صبأ : خرج من دين إلى غيره[٧] .

٥- حديث أبي قتادة – رضي الله عنه – :

" أن النـبي – صـلى الله عـليه وسـلم – كان في سفر فأسرى ثم نام فما استيقظ إلا والشمس في ظهره ، فدعا بميضأة[٨] كان معي فيها شئ من ماء فتوضأ منها ، ثم قال : احفظ علينا ميضأتك ستكون لها نبأ ، فسار حتى امتد النهار ، فقـال الـناس : هلكـنا وعطشـنا ، فقال : " لا هُلْكَ[٩] عليكم " ثم قال : " انطلقوا إلى غُمَرِي[١٠] ، يعني القدح الصغير – فـدعـا بالميضأة فجعـل النبي – صلى الله عليه وسلم – يصب وأبـو قتادة يسقيهم ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم

---

(١) العَـزَالِي : بفتح المهملة ، والزاي وكسر اللام ، ويجوز فتحها : جمع عَزْلاء بإسكان الزاي ، قال الخليل : هي مصب الماء من الرواية ، ولكل مزادة عزلاوان من أسفلها " يفرغ منهما الماء ، انظر : الفتح (٤٥٢/١) .

(٢) أسقوا بهمزة قطع مفتوحة من أسقى ، أو بهمزة وصل من سقى ، (انظر : الفتح (٤٥٢/١) والمراد أنهم سقوا غيرهم من الدواب ، واستقوا هم .

(٣) أصله : ايمن الله ، بهمزة وصل مفتوحة أو مكسورة والميم مضمومة ، وهو اسم وضع للقسم هكذا ، ثم حذفت النون تخفيفاً . انظر فتح الباري (١/ ٤٥٣) .

(٤) أي الأطعمة التي جمعوها لها .

(٥) بكسر الصاد المهملة : أي الأبيات المجتمعة من الناس ، انظر : الفتح (٤٥٣/١) .

(٦) هو : محمد بن اسماعيل البخاري في " صحيحه " انظر : الفتح (٤٤٧/١) .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التيمم (٧) باب (٦) رقم (٣٤٤) ، الفتح (٤٤٧/١) ، وفي باب (٩) رقم (٣٤٨) الفتح (٤٥٧/١) وفي كتاب المـناقب (٦١) بـاب (٢٥) رقم (٣٥٧١)، ورواه مسلم في " صحيحه " (٤٧٤/١) كتاب المساجد (٥) باب (٥٥) رقم (٣١٢-{٦٨٢}) ، ورواه أحمد في " المسند " (٤٣٤،٤٣٥/٤) .

(٨) الميضأة : هي الإناء الذي يتوضأ به ، كالركوة .

(٩) (لا هُلْكَ عليكم) أي لا هلاك .

(١٠) الغُمَر : كَصُرَد ، القدح الصغير ، وهو في الحديث مضاف إلى ياء المتكلم .

- : " أحسنوا الملأ[١] ، كلكم سيروي حتى ما بقى أحد "[٢] .

هـــذا ما انتقيته مما جمعه السيوطي ، وهو كاف في إثبات هذه المعجزة العظيمة ، الدالة دلالة ظاهرة على صدق نبوة - نبينا وحبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

المعجزة العاشرة : تكثير الطعام القليل :

وهـــي أن يكون الطعام قليلاً لا يكاد يكفي فرداً واحداً ، فيدعو فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبركة ، أو يضع يده الشريفة عليه ، فيكثر الطعام ببركة ذلك حتى يكفي العدد الكثير من الناس .

والأحاديث الواردة في إثبات هذه المعجزة كثيرة وصحيحة كما وقع في غزوة الخندق[٣] وغيرها .

والسيوطي كعادته يجمع من الأحاديث الصحيح والضعيف في الموضوع عنوان البحث ولكنني سأنتقي ما صح فيه

١- عن أنس - رضي الله عنه - قال : " قال أبو طلحة[٤] لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شئ ؟ قالت : نعم ، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها فلفت فيه الخبز ببعض ، ولاثتني[٥] ببعضه ، ثم أرسلتني إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : فذهبت به ، فوجدت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المسجد ومعه الناس ، فقمت عليهم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " آرسلك أبو طلحة ؟ ، فقلت : نعم ، قال : " بطعام ؟ " قلت : نعم ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمن معه : " قوموا " ، فانطـــلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة فأخبرته قال أبو طلحة : يا أم سليم قد جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالناس ، وليس عندنا ما نطعمهم ، فقالت : الله ورسوله أعلم . فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله - صلى الله عـــليه وسلم - فأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " هـــلمي[٦] يـــا أم سليم ما عندك " فأتت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الله عليه وسلم - ففُتَّ ، وعصـــرت أم سليم عُكَّة[٧] فأدمته ، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيه ما شاء الله أن يقول[١] ، ثم قال : " ائذن

(١) (أحسنوا الملأ) الملأ : الخُلق والعشرة ، يقال : ما أحسن ملأ فلان أي خلقه وعشرته ،، وما أحسن ملأ بني فلان أي عشرتهم وأخلاقهم ، ذكره الجوهري وغيره ، وأنشد الجوهري تَنَادَوْا يالَ بُهثَةَ إذ رأونا فقلنا : أحسِني ملأ جُهَيْنَا وهو في صحيح مسلم (٤٧٤/١) كتاب المساجد (٥) باب (٥٥) رقم (٣١١-{٦٨١}) ، ورواه أحمد في " المسند (٢٩٨/٥) .

(٢) هكـــذا أورد الســـيوطي في الخصائص الكبرى (٢٢٤/٢) مختصراً جداً ، وهو في صحيح مسلم (٤٧٤/١) كتاب المساجد (٥) باب (٥٥) رقم (٣١١-{٦٨١}) ، ورواه أحمد في "المسند" (٢٩٨/٥) .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية (٢١٨/٢) ، صحيح البخاري ، كتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٨) انظر : الفتح (٥٨٦/٦) ، وذكر ابن حجر أن هذا كان حين محاصرة الأحزاب للمدينة في غزوة الخندق . انظر : الفتح (٥٨٨/٦) . وسيأتي الحديث بتمام بعد قليل - إن شاء الله تعالى - ، وانظر : الفتح (٣٩٢/٧) .

(٤) هـــو : زيد بن سهل الأنصاري زوج أم سليم والدة أنس ابن مالك - رضي الله عنهم - وقد اتفقت الطرق على أن الحديث من مسند أنس ، وقد وافقه على ذلك أخوه لأمه عبدالله بن أبي طلحة فرواه مطولاً عن أبيه أخرجه أبو يعلي من طريقه بإسناد حسن . الفتح (٥٨٨/٦) .

(٥) لاثتني ببعضه : أي لفتني به ، يقال : لاث العمامة على رأسه أي عصبها . الفتح (٥٨٩/٦) .

(٦) في بعض الروايات (هلم) وهي لغة حجازية ، هلم عندهم لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع ، ومنه قوله تعالى : (...والقائلين لإخوانهم هلم إلينا...) الاحزاب (١٨) والمراد بذلك طلب ما عندهما . انظر الفتح (٥٩٠/٦) .

(٧) المراد أنها صيرت ما خرج من العُكة له إداماً ، والعُكّة بضم المهملة وتشديد الكاف إناء من جلد مستدير يجعل فيه السمن غالباً والعسل . انظر الفتح (٥٩٠/٦) .

لعشرة " فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : " ائذن لعشرة فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : " ائذن لعشرة " فأذن لهم ، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ، ثم قال : " ائذن لعشرة " فأكل القوم كلهم حتى شبعوا ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً "[٢] .

وفي بيان قلة الطعام الذي كان عند أم سليم – رضي الله عنها – ورد في رواية يعقوب بن عبدالله بن أبي طلحة ، قال أنس – رضي الله عنه – : " فدخل أبو طلحة على أمي فقال : هل من شئ ؟ فقالت : نعم ، عندي كسر من خبز وتمرات فإن جاءنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحده أشبعناه ، وإن جاء آخر معه قل عنهم "[٣] فلما دعا رسول الله فيه بالبركة – أكل منه ثمانون رجلاً حتى شبعوا ففي رواية عبدالله بن عبدالله بن أبي طلحة عند مسلم : " وأفضلوا ما أبلغوا جيرانهم "[٤] أي أنه فضل من الطعام شئ أهدوه إلى جيرانهم ، وهذا ببركة دعائه – صلى الله عليه وسلم – .

٢- عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " الله الذي لا إله إلا هو ، إن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعني ، فمر ولم يفعل ، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ، ما سألته إلا ليشبعني فمر ولم يفعل ، ثم مر بي أبو القاسم – صلى الله عليه وسلم – فتبسم حين رآني ، وعرف ما في نفسي وما في وجهي ، ثم قال : " يا أبا هر " قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " إلحق " ومضى ، فتبعته ، فدخل فاستأذن فأذن لي ، فدخل فوجد لبناً في قدح ، فقال : " من أين هذا اللبن ؟ قالوا : أهداه لك فلان – أو فلانة – قال : " أبا هر " قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " إلحق إلى أهل الصفة فادعهم لي " قال : وأهل الصفة أضياف الاسلام ، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم ، وأصاب منها وأشركهم فيها ، فساءني ذلك[٥] ، فقلت : وما هذا اللبن في أهل الصفة ؟ كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاءوا أمرني فكنت أنا أعطيهم ، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – بد ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت ، قال : " يا أبا هر " ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " خذ فأعطهم " فأخذت القدح

---

(١) في رواية سعد بن سعيد " فمسحها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ودعا فيها بالبركة " وفي رواية النضر بن أنس " فجئت بها ففتح رباطها ثم قال : " بسم الله ، اللهم أعظم فيها البركة " وعرف بهذا المراد بقوله : " وقال فيها ما شاء الله أن يقول " انظر : الفتح (٥٩٠/٦) .

(٢) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الصلاة (٨) باب (٤٣) رقم (٤٢٢) الفتح (٥١٧/١) ، وكتاب المناقب (٦١) باب (٢٥) رقم (٣٥٧٨) الفتح (٥٨٦/٦) ، كتاب الأطعمة (٧٠) باب (٦) رقم (٥٣٨١) الفتح (٥٢٦/٩) ، وكتاب الأطعمة – أيضاً – (٧٠) باب (٤٨) رقم (٥٤٥٠) الفتح (٥٧٤/٩) ، وكتاب الأيمان والنذور (٨٣) باب (٢٢) رقم (٦٦٨٨) ، الفتح (٥٧٠/١١) .

ورواه مسلم في "صحيحه" (١٦١٢/٣) كتاب الأشربة (٣٦) باب (٢٠) رقم (١٤٢-{٢٠٤٠}) ، ورواه الترمذي – كتاب المناقب (٦) ، ومالك في " الموطأ " – صفة النبي – صلى الله عليه وسلم – (١٩) .

(٣) صحيح مسلم (١٦١٤/٣) كتاب الأشربة (٣٦) باب (٢٠) رقم (١٤٣) .

(٤) نفسه .

(٥) يعني ساءه أن يأتي هذا العدد الكبير من أهل الصفة ، واللبن قليل يخاف أن لا يبقى منه شئ يشربه يتقوى به ، وهو أكثرهم جوعاً – رضي الله عنهم – .

فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يرد علي القدح ، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروي ، ثم يرد علي القدح ، فيشـــرب حتى يروي ثم يرد علي القدح ، حتى انتهيت إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد روي القوم كلهم فأخذ القدح فوضعه على يده ، فنظر إليّ فتبسم ، فقال : " يا أبا هر " قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " بقيتُ أنا وأنت " قلت : صدقت يـــا رسول الله ، قال : " اقعد فأشرب " فقعدت فشربت فقال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول : " اشرب " حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ، ما أجد له مسلكاً ، قال : " فأرني " فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة... "[١] .

٣- عن جابر بن عبدالله الأنصاري – رضي الله عنهما – : " أن أباه استشهد يوم أحد ، وترك ست بنات ، وترك عليه دَيْناً ، فـــلما حضره جِذاذُ النخل أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقلت : يا رسول الله قد علمت أن والدي استشهد يوم أحد وترك عليه ديناً كثيراً ، وإني أُحب أن يراك الغرماء ، قال " اذهب فبَيْدِر[٢] كل تمر على ناحية " ، ففعلت ثم دعوته ، فـــلما نظروا إليه أُغروا بي[٣] تلك الساعة ، فلما رأى ما يصنعون طاف حول أعظمها بَيْدَراً ثلاث مرات ، ثم جلس عليه ، ثـــم قال : " ادع أصحابك " فمازال يكيل لهم حتى أدى الله أمانة والدي ، وأنا والله راض أن يؤدي الله أمانة والدي ، ولا أرجع إلى أخواتي تمرة ، فَسَلِم والله البَيَادِرُ كلها حتى أني أنظر إلى البَيْدَر الذي عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كأنه لم ينقص تمرة واحدة "[٤] .

هـــذه الأحـــاديث الثلاثة التي انتقيتها من المجموع الذي جمعه السيوطي تحت هذه المعجزة ، وهي ثلاثة أحاديث صحيحة تثبت ما نحن بصدده من المعجزة في تكثير الطعام القليل ببركة دعائه – صلى الله عليه وسلم – فيه ، أو مسّه له بيده الشريفة وقد إكتفيت هنا بما صح في ذلك .

وهـــذه المعجزات العشرة تعد من الدلائل الباهرة على صدق نبوة نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وقد أثبتها كمثال هنا على ما يستدل به من علامات النبوة وإلا فهي غيض من فيض ، وسطر من كتاب ، وموجة من عباب مما جمعه الســـيوطي وغيره في هذا الباب العظيم من دلائل النبوة وعلاماتها ، ولو أني ذهبت استقصى ما سطره يراع السيوطي فيه لطال البحث وخرج عن مقصوده الذي ينحصر في بيان طريقته ومنهجه الذي اتتبعه في هذا المقام .

وبقـــي أن أتكـــلم هنا عن معجزة كبرى ، هي أعظم المعجزات على الإطلاق ، ألا وهي معجزة القرآن الكريم ، المعجزة الخالدة على مر العصور وكر الدهور ، ولقد أخرتها هنا لتكون مسك الختام .

---

(١) صحيح البخاري : كتاب الرقاق (٨١) باب (١٧) رقم (٦٤٥٢) انظر : الفتح (٢٨١/١١).
ورواه الترمذي – كتاب القيامة (٣٦) وأحمد في " المسند " (٣٠٠/٣،٤٤) .

(٢) بَيْدِر : بفتح الموحدة ، وسكون التحتانية ، بعدها دال مكسورة بصيغة فعل الأمر ، أي : اجعل كل صنف في بَيْدَر – أي جرين – يخصه ، انظر : الفـــتح (٤١٤/٥) ، والمراد : أن يكوم جابر – رضي الله عنه – الله عنه – كل صنف من التمر في كوم ويضعه في مكان منفرد عن الآخر ، والبيدر أو الجرين هو الموضع الذي يجمع فيه الحصيد ويداس .

(٣) أُغروا بي : بفتح الهمزة وضمها ، فبالفتح معناها : هيجوا بي ، ومنه قوله تعالى : (فأغْرَيْنَا بينهمُ العداوة والبغضاء ...) المائدة ، بعض الآية (١٤) ، وبضم الهمزة معناها : لهج به وأولع ، والإغراء : هو التهييج والإفساد . انظر : الفتح (٤١٤/٥) .

(٤) رواه الـــبخاري في " صحيحه " كتاب الوصايا (٥٥) باب (٣٦) رقم : (٢٧٨١) الفتح (٤١٣/٥) وكتاب المغازي (٦٤) باب (١٨) رقم (٤٠٥٣) الفتح (٣٥٧/٧) . ورواه النسائي في " سننه " كتاب الوصايا (٣) . وأحمد في " المسند " (٢٦٥/٣) . وأورده السيوطي في " الخصائص الكبرى " (٢٤٣/٢) .

المعجزة الحادية عشرة : { القرآن الكريم } المعجزة الخالدة :

١- تمهيد :

القــرآن الكــريم هو : كلام الله تعالى الذي أنزله سبحانه وتعالى على قلب نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – بلســان عــربي مــبين ، بواسطة الملك جبريل الأمين – عليه السلام – بلفظه ومعناه ، المكتوب في المصاحف ، المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر المبدوء بسورة الفاتحة ، والمختوم بسورة الناس .

تكـلم الله تعالى به على الحقيقة فسمعه منه جبريل – عليه السلام – وتكلم به جبريل – عليه السلام – فسمعه منه النبي – صلى الله عليه وسلم – ، وتكلم به النبي – صلى الله عليه وسلم – فسمعته منه أمته ، وحفظته عنه ، فهذا المحفوظ فـي الصـدور ، المقروء بالألسنة ، المكتوب في المصاحف هو كلام الله حقيقة ، فالكلام كلام الباري ، والصوت صوت القـارئ ، أنزله الله تعالى لنقراه تدبراً ، ونتأمله تبصراً ، ونسعد به تذكراً ، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه ، ونصدق بـه ونجـتهد على إقامة أوامره ونواهيه ، فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته ، وطريقه الموصلة السالكة إليه ، ونوره المبين ، وصراطه المستقيم الذي لا تميل به الآراء ، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء ، والنزل الكريم الذي لا يشبع مـنه العلماء ، لا تفنى عجائبه ، ولا تقلع سحائبه ، ولا تنقضي آياته ، ولا تختلف دلالاته ، فهو نور البصائر من عماها ، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها .

لقد أنزله الله تعالى على رسوله ، وقال له : (...وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)[١] لقـد نالت معجزة القرآن الإهتمام الأكبر من فكر جلال الدين السيوطي فقد تكلم عنها بإسهاب بالغ حتى لقد وضع لها مؤلفاً مسـتقلاً مـن ثلاثـة مجلدات[٢] ليبين دلالة إعجاز القرآن ، وهو يبدأ كلامه عن القرآن وإعجازه فيبين أن الله تعالى جعل معجزات هذه الأمة عقلية ، لفرط ذكائها ، وكمال عقولها وأفهامها ، وفضلهم على من تقدمهم من الأمم[٣] .

وقد أنزل الله تعالى هذا الكتاب المعجز على نبيه – صلى الله عليه وسلم – وخصه بالإعانة على التبليغ ، فلم يقدر أحد من مناوئيه على معارضته بعد تحديهم ، وكانوا أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ، وأمهلهم طوال السنين فعجزوا ، وقالوا ما حكاه الله تعالى عنهم : (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون)[٤] .

يقول السيوطي[٥] : " فأخبر تعالى أن الكتاب آية من آياته ، قائم مقام معجزات غيره من الأنبياء[١] لفنائها بفنائهم ،

---

(١) سورة النحل ، الآية (٤٤) .

(٢) هـو كتاب : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ضبطه وصححه وكتب فهارسه : أحمد شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م .

(٣) انظر : معترك الأقران (٣/١) .

(٤) سورة العنكبوت الآيتان (٥١،٥٠) .

(٥) معترك الأقران (١/٣-٤) .

وكـــانوا أحـــرص الناس على إطفاء نوره ، وإخفاء أمره ، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها تقوية لحججهم ، بل عدلـــوا إلى العـــناد تـــارة ، وإلى الاستهزاء أخرى ، فتارة قالوا ساحر ، وتارة قالوا : أساطير الأولين ، كل ذلك من تحيرهم ، ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم ، وسبى ذراريهم وحُرمهم ، واستباحة أموالهم ، فنصب لهم الحرب ونصبوا لـــه ، وقـــتل من عليتهم وأعلامهم ، وأعمامهم وبني أعمامهم ، وهو في ذلك يحتج عليهم بأن يأتوا بسورة واحدة ، وآيات يســـيرة ، إذ هـــي انقص لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل نفوسهم وخروجهم من أوطـــانهم ، مع أنهم أشد الخلق أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم[٢] ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة ، قالوا له : أنـــت تعرف من حال الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، فقال لهم : هاتوها مفتريات لتبكيتهم ، فلم يرم ذلك خطيـــب ، ولا طمـــع فيه شاعر ، ولا طبع[٣] منه أو تكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيره ويحميه ، نصـــرة لدينهم ، بل أظهر الله دينه ، وخرق العادة في أسلوب كلامه ، وبلاغته وحلاوته ، حتى ألتذوا بسماعه ألذ من أهل الـــلهو في لهوهم ، وأبقى ذلك فيه إلى صفحات الدهر ، ليراها ذوو البصائر كما قال – صلى الله عليه وسلم – : " ما من الأنـــبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "[٤] .

نعـــم لقد تحدى القرآن نفسه جميع البشر أن يأتوا بمثله ، أو بمثل سورة منه ، فما استطاع واحد منهم ، أو جماعة – منذ بعث الله تعالى محمداً – صلى الله عليه وسلم – حتى يوم الناس هذا – أن يعارضه بكتاب مثله ، أو بمثل سورة منه رغم كثرة أعداء الإسلام في مختلف عصور التاريخ ، ومنهم دول عظمى ، وهم يتمنون لو يستطيعون معارضة هذا القرآن العظيم لاشتروا ذلك بالقناطير المقنطرة من أنْفَسِ ما يملكون .

قال تعالى في هذا المقام – مقام التحدي للمشركين – : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)[٥] فهذا تحد لتأكيد تعجيزهم عن مضاهاة كلامه – جل وعلا – ثم قال عـــز من قائل : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)[٦] فقوله تعالى : (ولن تفعلوا) لنفي التأبيد أو تأبيد النفي أي : ولن تفعلوا ذلك أبداً وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعـــارض بمثله أبداً في مستقبل الزمن ، وحتى يوم الدين ، وكذلك وقع الأمر ولم يُعارض القرآن من لدنه إلى زماننا هذا ، ولا يمكـــن ذلـــك وأنىّ يـــتأتى ذلك لأحد ، والقرآن كلام الله خالق كل شئ ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين[٧] ؟

---

(١) وانظر : الباقلاني : إعجاز القرآن (ص٣٥) .

(٢) هذا كلام السيوطي في معترك الأقران (٣٠٤/١) ، وانظر في معناه : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٥٥/١) .

(٣) هكذا في نص كلام السيوطي ولا أدري ما معناه .

(٤) البخاري في " صحيحه " كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة (٩٦) باب (١) رقم (٧٢٧٤) الفتح (٢٤٧/١٣) ، كتاب فضائل القرآن (٦٦) باب (١) رقم (٤٩٨١) ، ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٧٠) رقم (٢٣٩) . صحيح مسلم (١٣٤/١) .

(٥) سورة البقرة الآية (٢٣) .

(٦) سورة البقرة الآية (٢٤) .

(٧) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨٩/١) .

والعجيـــب أن هـــذا التحدي من الله تعالى وقع في غير موضع من كتاب الله – جل وعلا – ، فقد قال تعالى : (قل فأتوا بكـــتاب من عند الله هو أهدى منهما[1] أتبعه إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين)[2] .

وقال في موضع آخر : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[3].

وقال تعالى في موضع ثالث : (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)[4] .

وقال – جل وعلا – في موضع رابع : (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنـــتم صـــادقين)[5] وهـــذه الآيات الأربع مكية ، ثم تحداهم أيضاً في المدينة بآية سورة البقرة التي أوردتها في أول آيات التحدي ، وجعل التحدي فيها مستمراً إلى يوم القيامة .

٢- العلماء المصنفون في إعجاز القرآن :

يذكر السيوطي أنه قد سبقه ثلة من العلماء بالتصنيف في بيان إعجاز القرآن ، اذكر منهم على سبيل المثال :

١- الإمام ، أبو سليمان ، حَمْدُ[6] بن محمد بن إبراهيم الخطابي[7] ، البستي ، (ت٣٨٨هـ) وهو عالم جليل سني المنهج ، سلفي المعتقد ، مع بعض المآخذ عليه التي لا تغض من قدره ومكانته . وله مصنفات شهيرة منها : " معالم السنن "[8] ، و " شأن الدعاء "[9] و " أعلام الحديث "[1] و " بيان إعجاز القرآن "[2] وغيرها .

---

(١) قال ابن كثير – رحمه الله – " أي التوراة والقرآن " انظر : تفسير القرآن العظيم (٢٥٢،٢٥٣/٦) ، وانظر : الرازي : التفسير الكبير (٢٦١/٢٤)

(٢) سورة القصص الآيتان (٤٩،٥٠) .

(٣) سورة الإسراء الآية (٨٨) .

(٤) سورة سيدنا هو – عليه السلام – الآية (١٣) .

(٥) سورة سيدنا يونس – عليه السلام – الآية (٣٧) .

(٦) بفـــتح الحاء وسكون الميم ، وهو الصواب في اسمه ، وقد سماه أبو عبيد الهروي بأحمد ووافقه الثعالبي في اليتيمة (٣٣٤/٣) وتبعهما على ذلك ياقوت في معجمه وآخرون غيره ، قال أبو طاهر السِّلفي في مقدمة معالم السنن (كما في مختصر سنن أبي داود) (١٦١/٨) : " والصواب " فـــي اســـمه حمد كما قاله الجم الغفير والعدد الكثير لا كما قالاه " يعني الهروي والثعالبي . وقد ذكر ابن خلكان عمن سمع أبا سليمان يقول : اسمي الذي سميت به حمد ، ولكن الناس كتبوا أحمد فتركته عليه . وفيات الأعيان (٢١٥/٢) .

(٧) نســـبة إلى جده الخطاب (وفيات الأعيان ٢١٥/٢) وقيل لزيد بن الخطاب – رضي الله عنه – وهو ابن نفيل بن عبدالعزي القرشي العدوي أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، وله شرف الصحبة . الاستيعاب (٥٥٠/٢-٥٥٣) .

(٨) " معـــالم الســـنن فـــي تفسير كتاب السنن لأبي داود السجستاني " وبعضهم يقول في شرح كتاب السنن بدل تفسير . طبع في حلب بتحقيق محمد راغب الطباخ ، وطبع في القاهرة سنة ١٩٤٨م بتحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي .

(٩) وقـــد سمي بتفسير أسامي الرب – عز وجل – وبشرح دعوات ابن خزيمة ، وبشرح الاسماء الحسنى انظرر : معجم الأدباء (٢٥٢/٤) ، (١٠/ ٢٦٩) وتذكـــرة الحفـــاظ (١٠١٩/٣) وطبقات الشافعية للسبكي (٢٨٣/٣) وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص٤٠٤) ، وقد طبع الكتاب بدار المأمون للتراث سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م بتحقيق أحمد يوسف الدقاق .

٢- أبـو الحسـن ، عـلي بن عيسى الرُّماني[٣] ، وهو من شيوخ المعتزلة ، وكانت له مشاركة في الحياة العامة ببغداد ، وتوفي عام (٣٨٦هـ)[٤] .

٣- الإمام فخر الدين ، ابو عبدالله ، محمد بن عمر الرازي ، الشافعي ، صاحب " التفسير الكبير ومفاتيح الغيب " المتوفي (٦٠٤هـ) .

ولـم يذكـر السـيوطي اسـم مصنف الرازي الذي صنفه في إعجاز القرآن ، ولعله الموسوم بـ " مختصر في الإعجاز " والرازي من علماء المذهب الأشعري ، ويعتبره البعض مهذب المذهب ومقعد أصوله .

٤- الإمام القاضي ، أبو بكر ، محمد بن الطيب الباقلاني ، وهو من فضلاء المذهب الأشعري ، ولعله أفضلهم ، ولم يذكر السيوطي كذلك اسم مصنفه في الإعجاز ، وهو مشهور ومطبوع ومتداول بعنوان : " إعجاز القرآن " .

٣- عدد وجوه إعجاز القرآن الكريم :

ذكر السيوطي أن بعض العلماء أنهى وجوه إعجاز القرآن إلى ثمانين وجهاً[٥] .

لكنه قال : " والصواب : أنه لا نهاية لوجوه إعجازه "[٦] والسيوطي نفسه لم يثبت في كتابه من وجوه الإعجاز سوى خمسة وثلاثيـن وجهـاً ، ضـمنها الجزء الأول من مصنفه ، وجعل الجزأين الآخرين في تفسير وبيان بعض الألفاظ والعبارات والآيات ، يستنبط منها بعض الفوائد والنكت ، ويورد في بيانها بعض الروايات والقصص التي قد لا يصح بعضها .

إن معجـزات الأنبياء السابقين على نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - كانت معجزات مادية ، تنقضي بإنقضاء وقـتها ولا يـبقى لها أثر بعد ذلك إلا في نفوس من رأوها وشاهدوها وبموتهم وفنائهم ينتهي كل ما للمعجزة من أثر ، أما معجـزة القـرآن الكـريم فهو المعجزة الكبرى لخاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله عليه وسلم - معجزة خالدة بحقيقتها وآثارها إلى يوم الدين .

كما أن المعجزات المادية السابقة تعتبر مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة ، وأهداف الوحي ، أما القرآن الكريم فدلالته عـلى صـفة النبوة وحقيقة الدين ، وأصل الشريعة وأهداف الوحي ، لأنه معجزة وتشريع ، وهو دليل باهر على النبوة ، ونظام حياة شامل لمن آمن بها وصدق بصاحبها .

فهـو معجـزة الإسلام ، وأصل الدين ، يطلع عليه الأجيال في كل زمن ، ويتلونه في كل عصر ، وهو البرهان

---

(١) ذكـر لهـذا الكتاب نحو أحد عشر اسماً ، انظر مقدمة محققه د.محمد بن سعد ابن عبدالرحمن آل سعود (٦٤/١-٦٥) وقد طبـع في جامعة أم القـرى بمكة المكرمة سنة ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م بتحقيق د.محمد بن سعد بن عبدالرحمن آل سعود ثم طبع مرة أخرى بالمغرب بتحقيق د.يوسف الكتاني .

(٢) نشـره عبدالله بن الصديق الغماري سنة ١٣٧٢هـ بمطبعة دار التأليف بالقاهرة ونشر أخيراً بطبعة - دار المعارف ت محمد خلف الله أحمد و د.محمد زغلول سلام .

(٣) علي بن عيسى بن علي بن عبدالله باحث معتزلي مفسر من كبار النحاة (ت٣٨٤هـ) .

(٤) رسالته في إعجاز القرآن سماها " النكت " نشرت مع رسالتين إحداهما للجرجاني والثانية للخطابي من نشر دار المعارف .

(٥) معترك الأقران (٥/١) .

(٦) ونقله عن السكاكي في " المفتاح " .

العظيم الذي يلامسون وجوه إعجازه فيستدلون به على أمور :

الأول : أن هذا الكتاب هو كلام الله حقاً ، وليس بكلام بشر .

الثاني : أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – صادق في رسالته ، لأنه هو الذي بلغه إلينا عن ربه – جل وعلا – ولم نعلم به إلا عن طريقه – صلى الله عليه وسلم – .

الثالث : أن معجزات الأنبياء السابقين ، لولا القرآن الكريم لم نعلم بها بطريق يقيني ثابت ، فالذي يعرفنا بها بيقين إنما هو القرآن الكريم نفسه ، فمتى ثبت هو ثبتت هي .

٤- هل يُعلم الإعجاز ضرورة أم استدلالاً ؟ :

يتساءل السيوطي عن هذه المسألة ثم يجيب عليها فيقول : " ظهور ذلك على النبي – صلى الله عليه وسلم – يعلم ضـــرورة ، وكونـــه معجزاً يعلم بالاستدلال "(١) وحكى عن الأشعري أن الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالاً ، وكذلـــك من ليس ببليغ ، أما البليغ الذي أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة ، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه وعجز غيره عن الإتيان بمثله(٢) .

٥- هل العجز يتناول الجن والملائكة ؟؟ :

أمـــا عن هذا العجز فهل يتناول الجن والملائكة أم أنه مختص بالإنس فقط دون غيرهم ؟ يقول السيوطي : " إنما وقع العجز في الإنس دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه ، وإنما ذكروا في قوـــله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)(٣) تعظيمـــاً لشـــأنه ، لأن للهيئة الاجتماعية من القوة ما ليس للأفراد ، فإذا فرض اجتماع الثقلين ، وظاهر بعضهم بعضاً وعجـــزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز ، وقال بعضهم : " بل وقع للجن أيضاً والملائكة منويون في الآية لأنهم لا يقدرون أيضاً على الإتيان بمثل القرآن "(٤) ، وذكر السيوطي عن بعض العلماء أنه إنما اقتصر في الآية على ذكر الجن والإنس لأنه – صلى الله عليه وسلم – كان مبعوثاً إلى الثقلين دون الملائكة(٥) .

والـــذي أراه – والله أعلم – أن هذا التحدي يشمل جميع المخلوقين، سواء كانوا جناً أم ملائكة ، ذلك لأن كلام الله جـــل وعلا لا يمكن أن يضاهيه مخلوق لا ملكٌ ولا جن ولا غيرهما ، إذ لو قدر أن تأتي الملائكة أو الجن بمثل كلام الله – تعـــالى – لـــم يكن لكلام الله تعالى الخالق مزية على غيره من كلام المخلوقين ، ولا ستوى كلام الخالق وكلام المخلوق ، وهذا لا يقوله عاقل . كما أن ذكر الجن في آية سورة الإسراء(٦) صريح في بيان عجزهم عن الإتيان بمثل كلامه عز وجل

---

(١) معترك الأقران (٧/١) .

(٢) انظر : معترك الأقران (٧/١) ، والاتقان (١٢٣/٢) ، الباقلاني : إعجاز القرآن (ص١٦٤) ، (ص٣٢٩) .

(٣) سورة الاسراء الآية (٨٨) .

(٤) معترك الأقران (٧/١) .

(٥) نفسه ، نقله السيوطي عن الكرماني في " غرائب التفسير " .

(٦) الآية رقم (٨٨) .

، حتى ولو اجتمع عالم الجن بعالم الإنس وتظاهروا على ذلك ، فإذا ثبت عجز الثقلين مجتمعين ، كان أمر كل عالَم منفرداً عن الآخرين أشد عجزاً عن ذلك ، وهو إثبات لتفرد كلام الله – تبارك وتعالى – وتميزه الفائق عن كل كلام سواه .

ومن هنا يتضح أن الصواب قول من قال : بحصول العجز للإنس والجن والملائكة ، فجميع الخلق عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن .

٦- هل غير القرآن الكريم من كلام الله تعالى معجز ؟

أو يقال : التوراة والإنجيل اللذان أنزلهما الله تعالى على موسى وعيسى – عليهما السلام – هل يقع فيهما الإعجاز كما وقع في القرآن الكريم ؟

الجـواب عـند السيوطي وبه شئ من التفصيل ، حيث يفرق السيوطي : بين جانب النظم والتأليف ، وبين جانب الإخبار بالمغيبات .

١- أما جانب النظم والتأليف بالنسبة للتوراة والإنجيل فينفي السيوطي وقوع الإعجاز فيه .

٢- وأمـا جانب الإخبار بالمغيبات ، فيثبت تضمنه للإعجاز . يقول السيوطي : " فإن قلت : هل يقال : إن غير القرآن من كلام الله معجز ، كالتوراة والإنجيل ؟ فالجواب : ليس شئ من ذلك معجزاً في النظم والتأليف وإن كان معجزاً كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار بالغيوب "[١] ولمثل هذا الذي قاله السيوطي ، ذهب القاضي أبو بكر الباقلاني[٢] .

ويستدل السيوطي على عدم إعجاز التوراة والإنجيل بأدلة نجملها فيما يلي :

أولاً : أن الله تعالى لم يصفهما بما وصف به القرآن الكريم من الإعجاز .

ثانياً : أنا قد علمنا أنه لم يقع التحدي فيهما كما وقع في القرآن الكريم ، والآيات التي نقلناها فيما سبق ناطقة بذلك ، بخلاف غيره من الكتب .

ثالـثاً : أن اللسـان الذي أنزل به التوراة والإنجيل لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذي ينتهي إلى حد الإعجاز[٣] .

ثم نقل السيوطي تأييداً لكلامه عن ابن جنى[٤] في قوله تعالى : (قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى)[٥] أن العدول عن قوله : أن نلقي ، لغرضين :

أحدهما : لفظي ، وهو المزاوجة لرؤوس الآي .

والـثاني : معـنوي ، وهو أنه تعالى أراد أن يخبر عن قوة أنفس السحرة واستطالتهم على موسى ، فجاء عنهم باللفظ أتم وأوفى منهم في أسنادهم الفعل إليه .

---

(١) معترك الأقران (١/١٠) ، الإتقان (٢/١٢٤) .
(٢) انظر : إعجاز القرآن (٣٣٠-٣٣١) .
(٣) انظر : معترك الأقران (١/١٠) ، الاتقان (٢/١٢٤) .
(٤) عثمان بن جنى الموصلي ، أبو الفتح من أئمة الأدب والنحو (ت٣٩٢هـ) .
(٥) سورة طه الآية (٦٥) .

ثـم أورد سـؤالاً ، وهـو أنا نعلم أن السحرة لم يكونوا أهل لسان ، فنذهب بهم هذا المذهب من صنعة الكلام . وأجـاب بـأن جميـع ما ورد في القرآن حكاية عن غير أهل اللسان[١] من القرون الخالية ، إنما هو معرب عن معانيهم ، وليـس هـو بحقيقـة ألفاظهم ، ولهذا لا يُشَك أن قوله تعالى : (قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى)[٢] إن هذه الفصاحة لم تجر على لغة العجم[٣] .

٧- ما موضع الإعجاز من كتاب الله تعالى ؟ :

يـنقل السـيوطي جواب هذا السؤال عن أبي حيان التوحيدي[٤] ، ومفاده أنه لا يشار إلى موضع بعينه من القرآن الكـريم يـتحقق فيه الإعجاز دون غيره ، بل القرآن الكريم بجملته ينطبق عليه هذا الوصف، وكان مما قاله : " هذه مسألة فيهـا حيـف على المفتي ، وذلك أنه شبيه بقولكم ما موضع الإنسان من الإنسان ؟ فليس للإنسان موضع من الإنسان ، بل متى أشرت إلى جملته قصدت حقيقته ، ودللت على ذاته كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شئ منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ومعجزة لمحاوِله ، وأهدى لقائله ، وليس في طاقة البشر الاحاطة بأغراض[٥] الله في كتابه فلذلك حارت العقول ، وتاهت البصائر عنده "[٦] .

٨- القدر المعجز من القرآن :

أُختلِف في القدر المعجز من القرآن على أقوال حكاها السيوطي في الاتقان ، نجملها فيما يلي :

الأول : قول الأشاعرة تبعاً لأبي الحسن قالوا : إن أقل ما يُعجز عنه من القرآن السورة ، قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرهـا . فـإذا كانت الآية بقدر حروف السورة ، وإن كانت سورة الكوثر ، فذلك معجز ، ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة في أقل من هذا القدر[٧] .

الـثاني : قول المعتزلة حيث ذهبوا إلى أن كل سورة برأسها فهي معجزة ، وقد حُكي عنهم نحو القول الأول إلا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة ، بل شرط الآيات الكثيرة[٨] .

ونسب السيوطي إلى بعضهم أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن[٩] ، بمعنى أنه لا يحصل الإعجاز إلا بالقرآن كله جملة وهذا مردود بقوله تعالى : (...فأتوا بسورة من مثله...)[١٠] وقوله تعالى : (...فأتوا بعشر سور مثله مفتريات...)[١] .

---

(١) أي : اللسان العربي .

(٢) سورة طه الآية (٦٣) .

(٣) معترك الأقران (١/١٠) ، الاتقان (٢/١٢٤-١٢٥) .

(٤) هو : علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، فيلسوف متصوف معتزلي ، قال ابن الجوزي كان زنديقاً ، ولد في شيراز ، وتوفي نحو (٤٠٠هـ-١٠١٠م) . انظر : طبقات السبكي (٢/٤) بغية الوعاة (٣٤٨) ، ميزان الاعتدال (٣/٣٥٥) الاعلام (٤/٣٢٦) .

(٥) لا ينبغي أن يعبر بلفظ " أغراض الله " لأنه لم يرد في النصوص الشرعية وإنما يقال : " مراد الله " لأن الارادة من صفاته تعالى .

(٦) معترك الأقران (١/١٠) ، الاتقان (٢/١٢٤-١٢٥) .

(٧) انظر : الباقلاني : إعجاز القرآن (ص٣٢٤) .

(٨) انظر : نفسه .

(٩) انظر : الاتقان (٢/١٢٣) .

(١٠) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٣) .

الثالث : أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره ، لقوله تعالى : (فليأتوا بحديث مثله...)[٢] .

قـال السـيوطي : " ولا دلالة في الآية لأن الحديث التام لا تحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة "[٣] والرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب - والله أعلم - إذ أن الإعجاز إنما يتحقق بمحصل كلام تام المعنى وإن كان قصيراً كسـورة الكوثـر أو آيـة بقدرها ، وقد علم يقيناً أن العرب قاطبة قد عجزوا عن مثل ذلك ولم يستطع أحد منهم الإتيان به وإلحاقـاً بهذه المسألة أورد السيوطي اعتراضاً قال فيه : " فإن قال قائل : فلعل السور القصار يمكن فيها المعارضة قيل لا يجـوز فيها ذلك من قبل أن التحدي قد وقع بها فظهر العجز عنها "[٤] في قوله تعالى : (فأتوا بسورة...)[٥] أي أن قوله " سورة " تشمل القصار والطوال ، وقد تحدى بها ولم يُعارض ، فظهر بذلك العجز كما حكى هذا الاعتراض كل من الرماني ، والباقلاني ، أما عبارة الرماني فهي التي نقلتها عن السيوطي ، وأما الباقلاني فقال : " فإن ادعى ملحد أو زعم زنديق أنه لا يقـع العجز عن الإتيان بمثل السور القصار ، أو الآيات بهذا المقدار ، قلنا له : إن الإعجاز قد حصل بما بيناه ، وعرف بما وقفنا عليه ، من عجز العرب عنه ثم فيه شئ آخر ، وهو أن هذا سؤال لا يستقيم للملحد لأنه يزعم أنه ليس في القرآن كله إعجاز ، فكيف يناظره على تفصيله ، وإذا ثبت لنا معه إعجازه في السور الطوال قامت الحجة عليه ، وثبتت المعجزة ، ولا معنى لطلبه لكثرة الأدلة والمعجزات .

ونحـن نعـلم أن إعجـاز البعض بما بيناه ، والبعض الآخر بأنه إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلا قولنا... "[٦] ويكمل السيوطي الاعتراض الذي ذكره الرماني عن بعض المعترضين فيقول : " فإن قال : فإنه يمكن في القصار أن تغير الفواصـل فيجعل بدل كل كلمة ما يقوم مقامها فهل يكون ذلك معارضة ؟ قيل له : لا ، من قبل أن المفحم يمكنه في قوافي الشـعر مـثل ذلك وإن كان لا يمكنه أن ينشئ بيتاً واحداً ، ولا يفصل بطبعه بين مكسور وموزون ، فلو أن مفحماً رام أن يجعل بدل قوافي قصيدة رؤبة[٧] :

وقاتِم الأعماق خاوي المختَرقْ مشتَـبِه الأعْـلام لمـاعِ الـخَـفَـقْ

يكِلُّ وفـدُ الريح من حيثُ انخَرَقْ

فجعـل بدل " المخترق " الممزق ، وبدل " الخفق " الشفق وبدل " انخرق " انطلق ، لأمكن ذلك ، ولم يثبت له

---

(١) سورة سيدنا هود - عليه السلام - ، بعض الآية (١٣) .

(٢) سورة الطور ، بعض الآية (٢٤) .

(٣) الاتقان (١٢٣/٢) ، وانظر : الباقلاني : إعجاز القرآن (ص٣٢٤-٣٢٥) .

(٤) الاتقـان (١٢٥/٢) ، وانظـر : الـرماني : الـنكت في إعجاز القرآن (ص١١١) ضمن " ثلاث رسائل في إعجاز القرآن " للرماني والخطابي والجرجاني ، ت. محمد خلف الله أحمد ، دكتور محمد زغلول سلام - دار المعارف - القاهرة ط٤ .

(٥) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٣) .

(٦) إعجاز القرآن (ص٣٢٦-٣٢٧) .

(٧) رؤبة بن عبدالله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي ، أبو الجَحَّاف أو أبو محمد ، راجز من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسـية كان أكثر مقامه في البصرة ، توفي (١٤٥هـ-٧٦٢م) انظر : وفيات الأعيان (١٨٧/١) البداية والنهاية (٩٦/١٠) لسان الميزان (٤٦٤/٢) ، الاعلام (٣٤/٣) .

به قول الشعر ، ولا معارضة رؤبة في هذه القصيدة عند أحد له أدنى معرفة ، فكذلك سبيل من غير الفواصل "[١] .

٩- وجوه إعجاز القرآن الكريم :

أسـهب السيوطي في بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وهو باطلاعه عما صُنِّف مِن قَبْل مُصنَّفِه في الاعجاز قد وضـع مصنفه جامعاً لمحاسن من تقدمه من العلماء ، لكن السيوطي لا يستحسن كل ما كتب في هذه المسألة لذلك يقول : " لمـا ثـبت كون القرآن معجزة نبينا – صلى الله عليه وسلم – وجب الاهتمام بمعرفة وجه الإعجاز ، وقد خاض الناس في ذلـك كـثيراً فبين محسن ومسئ "[٢] ولعل السيوطي يقصد بالمسيئين هؤلاء الذي قالوا بأن التحدي وقع بالكلام القديم ، أي الصـفة الذاتيـة ، وهي كون الله تعالى متصفاً بصفة ذاتية هي صفة الكلام ، وهي التي يعبر عنها المتكلمون من الأشاعرة وغيرهم بقولهم الكلام النفسي ، أي الصفة القائمة به – جل وعلا – لا يقصدون بذلك القرآن الكريم ، وإنما يقصدون الكلام النفسـي الـذي إذا عبر الله تعالى عنه بالعبرية كان توراتاً ، وإذا عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، فالتوراة والقرآن – على زعمهـم – ليسـت كلام الله تعالى على الحقيقة ، وإنما هما عبارة عن كلام الله – جل وعلا – وإنما يقال عنهما كلام الله مجـازاً ، عندهم وكلام الله عندهم هو الصفة القديمة القائمة بالنفس . وقد نقضنا هذا القول – بحمد الله تعالى وحسن توفيقه – عند كلامنا عن صفة الكلام في فصل الأسماء والصفات . والمقصود أن السيوطي يخطئ من قال : إن التحدي وقع بهذه الصـفة القديمة أي الكلام النفسي ، ويصفهم بالإساءة ، وهو كما قال ، لأن الكلام النفسي لا يمكن لأحدٍ الاطلاع عليه ، فكيـف يُتحدى بأن يأتي بمثله ؟ ولذلك قال : " فزعم قوم أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات ، وأن العرب كلفت في ذلك مالا يطاق ، وبه وقع عجزها "[٣] ثم رد السيوطي ذلك القول بما قدمنا معناه آنفاً فقال : " وهو مردود لأن ما لا يمكـن الوقـوف عليه لا يتصور التحدي به "[٤] ثم يرجح السيوطي رأي جمهور الأشاعرة فيقول : " والصواب ما قاله الجمهور أنه وقع بالدال على القديم ، وهو الألفاظ "[٥] وهو بقوله " الدال على القديم " يقصد القرآن الكريم ، فالقرآن عنده – كـبقية الأشـاعرة – ليس هو كلام الله حقيقة ، وإنما هو ألفاظ دالة على الكلام النفسي ، وهم يقولون عنه إنه عبارة عن كلام الله – كما قدمت ذلك ورددت عليه في فصل الأسماء والصفات عند صفة الكلام .

وفـي كلام السيوطي هذا رد عليه وعلى الأشاعرة عموماً ، لأنه إن كان هذا القرآن ليس كلام الله تعالى حقيقة ، فكيف يتحداهم الله بما ليس من كلامه ؟

إنمـا الحـق ما عليه أهل السنة أن القرآن الكريم هو كلام الله حقيقة تكلم الله تعالى به على الحقيقة ، وأنزله على عـبده ورسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – وتحدى به العرب فهو كلامه المعجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

---

(١) الاتقان (١٢٥/٢) ، النكت في إعجاز القرآن (ص١١١-١١٢) .
(٢) الاتقان (١١٨/٢) .
(٣) الاتقان (١١٨/٢) .
(٤) نفسه .
(٥) نفسه .

- الكلام عن الإعجاز بالصرفة :

ذهب النظام - من المعتزلة - أن وجه إعجاز القرآن كان بالصرفة ، بمعنى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضته ، وسلب عقولهم عن ذلك ، وأن الإعجاز لم يكن راجعاً إلى صفة القرآن في نفسه ، بل كان مقدوراً لهم لكن عاقهم أمر خارجي ، فصار كسائر المعجزات(١) .

وقد صور الباقلاني هذا المذهب بعبارة رائقة فقال : " فإن قيل : فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله ، مع قدرتهم على صنوف البلاغات وتصرفهم في أجناس الفصاحات ؟ وهلا قلتم : إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة ، وتوجه من هذه الطرق الغريبة كان على مثل نظم القرآن قادراً ، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف أو يمنعه من الإتيان بمثله ضرباً من المنع ، أو تقصر دواعيه دونه مع قدرته عليه ، ليتكامل ما أراده الله من الأدلة ، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة ، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين لم يعجز عن نظم مثلهما ، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى ، وكذلك الثالثة . حتى يتكامل قدر الآية والسورة "(٢) .

والجواب عن هذا القول الفاسد من وجوه :

أولها : قال السيوطي عن هذا القول : إنه قول فاسد بدليل قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)(٣) فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لإجتماعهم لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره "(٤) .

الثاني : انعقاد الإجماع على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة الإعجاز ، بل المعجز في الحقيقة - والحال هذه - هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم على الإتيان بمثله(٥) .

الثالث : أنه يلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي ، وزمان التحدي مرهون بوجود الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - فبعد أن لحق النبي - صلى الله عليه وسلم - بالرفيق الأعلى يزول التحدي وبزواله يزول الإعجاز عن القرآن الكريم ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجزة الرسول - صلى الله عليه وسلم - العظمى باقية ولا معجزة له باقية سوى القرآن(٦) .

الرابع : أن الإعجاز إن كان بالصرفة لم يكن كلام الله تعالى معجزاً ، وإنما الإعجاز يكون بالصرفة ، وعليه فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه(٧) ، قال القاضي أبو بكر الباقلاني : " وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم أن

---

(١) انظر : الاتقان (١١٨/٢) .

(٢) اعجاز القرآن (ص٥٥-٥٦) .

(٣) سورة الإسراء الآية (٨٨) .

(٤) الاتقان (١١٨/٢) .

(٥) الاتقان (١١٨/٢) .

(٦) السابق نفسه .

(٧) نفسه .

الكــل قادرون على الإتيان بمثله وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيب ، لو تعلموه لوصلوا إليه به ، ولا بأعجب من قــول فــريق منهم : إنه لا فرق بين كلام البشر ، وكلام الله تعالى في هذا الباب ، وإنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد "[١] .

الوجه الأول من وجوه الإعجاز

كونه حقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

فهو الكتاب الخالد الذي لا يتطرق إليه باطل في نصه ولا في أحكامه ، ولا في أي حقيقة علمية عرضها ، أو أي مبدأ من مبادئه وتشريعاته أو أي خبر تاريخي أخبر به من أنباء الغيب الماضية ، أو أي خبر أخبر عن وقوعه في المستقبل ، كما أنه لا يأتيه باطل ألبته بتحريف أو تبديل أو ضياع أو نسيان .

قال الله – جل وعلا – (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)[٢] .

وقال – تعالى – مبيناً تعهده بحفظه وصيانته : (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون)[٣] .

وهــذا الواقــع يشهد أن القرآن الكريم لم يأته باطل بحال من الأحوال ، ولا من وجه من الوجوه ، وكذلك لن يأتيه الباطل من أى وجه من الوجوه ، مهما توالت الدهور ، واتسعت تجارب الحياة وزادت مكتشفات العلوم .

إن اكتشــاف الحقــائق العلمية الثابتة بيقين ، تثبت دواماً يوماً بعد يوم أن القرآن الكريم حق لايأتيه الباطل ، وإنه كــتاب الله المسطور الذي يؤيده كتاب الله المنظور الذى هو هذا الكون بحقائقه وسننه فالقرآن كلام الله ، والكون خلق الله ، وكل منهما يؤيد الآخر ويؤكده ، وأنه يستحيل تعارضها أو تنــاقضهما .

وكذلك فإن هذا الكتاب العظيم لا يأتيه الباطل في أي خبر تاريخي أخبر به عن القرون الماضية ، والأمم الخالية ، قال تعالى : (ذلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين)[٤] .

وقال تعالى : (إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين)[٥]

وقــد جاءت حديثاً دلائل الآثار الأرضية بعد قرون من نزول القرآن ، فصدقت حقائقها التي توصل إليها علماء الآثار الأخبار التي أتى بها القرآن الكريم ، وذلك من إعجاز القرآن الكريم الدال على أنه كلام الله وليس من كلام البشر [٦] .

وكذلــك فإن هذا الكتاب العظيم المعجز لا يأتيه الباطل في أي خبر أخبر به عما سيحدث في مستقبل أيام الدهر ، والأمثلة على تحقق الكثير من هذه الأخبار كثيرة نذكر منها .

---

(١) الاتقان (١١٨/٢) ، إعجاز القرآن (٥٨) .
(٢) سورة فصلت الآية (٤٢) .
(٣) سورة الحجر الآية (١٥) .
(٤) سورة سيدنا هود – عليه السلام – الآية (٤٩) .
(٢) سورة النمل الآية (٧٦ ، ٧٧) .
(٣) أنظر : الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني : العقيدة الإسلامية وأسسها (ص٣٢١) ط ٧ / ١٤١٥هــ – ١٩٩٤ م – دار القلم – دمشق .

١- قول الله – جل وعلا – : (...لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ...)[١]

وقد تحقق ما أخبر الله تعالى به في هذه الآية الكريمة ، فدخل الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه – رضي الله عنهم – المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين ، غير خائفين .

٢ – وقوله تعالى : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ويبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً)[٢] وقد وفى الله تعالى للمؤمنين هذا الوعد الحق ، فكانت دولة الإسلام هي الدولة المستخلفة في الأرض ، والممكنة بتمكين الله تعالى لها ، ولم يشهد التاريخ دولة مثلها في قوة الإيمان ، وقوة العدل ، وقوة البأس ، بفضل إيمانها وتمسكها بحبل الله ونصرها لله تعالى ودينه ورسوله .

٣ – وقوله تعالى : (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب...)[٣] وقد تحقق ذلك فتم نصر الله للمؤمنين ، والفتح المبين – فتح مكة – ثم فتح الممالك العظمى التي كانت صاحبة السيادة والسلطان في الآرض .

٤ – وقوله تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين)[٤] .

وكان ذلك قبل غزوة بدر الكبرى ، وتحقق وعد الله تعالى لهم ، فانتصروا علىالمشركين نصراً مؤزراً ، وغنموا منهم رغم قلة عدد المسلمين بالنسبة لهم .

٥ – وقوله تعالى : (آلم . غلبت الروم . في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين قلى لله الأمر من قبل ومن بعد ويوميذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[٥] .

وقد تحقق ذلك بإجماع أهل التاريخ ، فانتصر الروم على فارس بعد أن غُلبوا ، وذلك في بضع سنين كما أخبر الكتاب العزيز المعجز .

والآيات في هذا الباب معلومة ما من وعد ولا خبر أخبر بوقوعه في المستقبل إلا ووقع كما أخبر واضحاً جلياً مثل فلق الصبح ، ولا زالت الأنباء والأخبار والحقائق تظهر لتؤكد هذا الإعجاز الباهر .

<u>**الوجه الثاني من وجوه الإعجاز :**</u>

هذا السلطان العجيب لآيات القرآن العظيم في هدايته ، وتأثيره المعنوي على عقول الناس وقلوبهم ، وفي الخشية والرهبة التي تحدثها تلاوته في قلوب سامعية واستيلاء مواعظه عليها الأمر الذى حدا بحضومه أن يصفوه بالسحر ، إذ هو

---

(١) سورة الفتح ، بعض الآية (٢٧) .

(٢) سورة النور الآية (٥٥) .

(٣) سورة الصف ، بعض الآية (١٣) .

(٤) سورة الأنفال الآية (٧) .

(٥) سورة الروم الآيات (١ – ٦) .

سحر البيان الذى يستولي على الألباب فتخشع القلوب وتذل الرقاب لعظمة بلاغته وتأثيره العجيب .

لقــد كان هذا السلطان الروحي هو السر في تجمع مختلف الشعوب والأمم حوله - عرباً وعجماً على سواء - إذ بســر هــذا الــتأثير تركت عصبياتها القومية ، ومعتقداتها الدينية الباطلة الموروثة ، وهجرت تقاليدها وأعرافها وعاداتها الجاهــلية المتبعة ، ولا غرو أن يصفه الله تعالى بأنه هدى للناس وبينات من الهدى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان)[١] .

ولا غــرو كذلــك أن يحــدث هــذه الخشية والخشوع في القلوب والنفوس والعقول فقط ، وإنما يحدثها كذلك في الجمادات الصماء التي لا تعقل ولا تعي تأثراً بسلطانه العجيب (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)[٢] .

ومن أمثلة تأثير القرآن الكريم في النفوس :

١- لمــا قــرأ جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنه - القرآن على النجاشي ومن حوله من القسيسين والرهبان ، وأخذت الخشــية تغشاهم فأجهشوا جميعاً بالبكاء حتى فرغ جعفر - رضى الله عنه - من القراءة، ثم إن النجاشي أرسل إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مجموعة من علماء النصارى فقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليهم سورة " يس " فبكوا وآمنوا[٣] ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين)[٤] .

٢ - وعــن جــبير بن مطعم - رضى الله عنه - قــال : سمعت رســول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في المغرب بــالطور فــلما بلغ هذه الآية : (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون)[٥] كاد قلبي يطير للإسلام [٦] .

يقــول الإمام أبو سليمان الخطابى في بيان هذا الوجه : (قلت : في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه بالقلوب ، وتأثيره في النفوس ، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن ، منظوما ولا منثوراً ، وإذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٥) .

(٢) سورة الحشر الآية (٢١) .

(٣) ذكر السيوطي في الدر المنثور (٣ / ١٣٠) وعزاه إلى عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ ، وابن مردويه عن سعيد بن جبير ، وروى نحوه ابن جرير في " جامع البيان " (٧ / ٥) عن السدى ، وقال الحافظ ابن كثير : وقد روى النسائي عن عمر بن على الفلاس ، عــن عمر بن على بن مقدم ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءآمنا فاكتبنا مع الشاهدين) . تفسير القرآن العظيم (٣ /١٥٩) .

(٤) سورة المائدة الآية (٨٣) .

(٥) سورة الطور الآيات (٣٥-٣٧) .

(٦) متفق عليــه : رواه البخــارى في " صحيحــه " كتــاب التفســير (٦٥) بــــاب (١) رقم (٤٨٥٤) أنظر : الفتح (٨/٦٠٣) . ومسلم في " صحيحه " (١/٣٣٨) كتاب الصلاة (٤) باب (٣٥) رقم (٧٤ - {٤٦٣}) .

منه إليه ، تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة ، وقد عراها الوجيب والقلق وتغشاها الخوف والفرق تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب ، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها فكم من عدو للرسول – صلى الله عليه وسلم – من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله ، وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه ، وصار عداوتهم موالاة ، وكفرهم إيماناً ، خرج عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – يريد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويعمد لقتله ، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه ، فلما وقع فى سمعه لم يلبث أن آمن[١] وبعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليوافقوه على أمور أرسلوه بها ، فقرأ عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – آيات من حم السجده ، فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش قالوا : أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به[٢] .

ومصداق ما وصفناه في القرآن في قوله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله...)[٣] . وفى قوله : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله...)[٤] . وقال سبحانه : (...أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم...)[٥] . وقال سبحانه : (...وإذا تليت عليهم آياتنا زادتهم إيمانا ...)[٦] . وقال سبحانه : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ...)[٧] في أى ذوات عدد منه ، وذلك لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وهو من عظيم آياته ، ودلائل معجزاته)[٨] .

أما السيوطى فيجعل لتأثير القرآن الكريم على قلوب سامعيه حالين :

الأولى : حال المؤمن إذا سمع آيات الله تعالى تتلى فإنه يقشعر جلده ، ويمتلئ قلبه روعة وهيبة وانجذاباً وتلذذا بسماع كلام الله – جل وعلا – فيزداد بسماعه لذة واستمتاعاً وإيمانا[٩] ، فسامعه لايمجه ، وقارئه لا يمله فتلذ له الأسماع ، وتشغف له القلوب ، فلا تزيده تلاوته إلاحلاوة ، ولا ترديده إلا محبة ، ولا يزال غضاً طرياً ، وغيره من الكلام – ولو بلغ في الحسن والبلاغة – مبلغه – يمل مع الترديد ، ويعادى إذا أعيد ، لأن إعادة الحديث على القلب أثقل من الحديد ، وكتابنا بحمد الله تعالى يُستلذ به في الخلوات ويؤنس به في الأزمات ، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك ، حتى أحدث لها أصحابها لحونا

---

(١) انظر: قصة إسلام عمر في سيرة ابن هشام (٣٤٣/١)وما بعدها .
(٢) سيأتى نص الحديث بذلك قريباً – إن شاء الله تعالى – .
(٣) سورة الحشر ، بعض الآية (٢١) .
(٤) سورة الزمر ، بعض الآية (٢٣) .
(٥) سورة العنكبوت ، بعض الآية (٥١) .
(٦) سورة الأنفال ، بعض الآية (٢) .
(٧) سورة المائدة ، بعض الآية (٨٣) .
(٨) بيان إعجاز القرآن (ص٧٠-٧١) ضمن ثلاث رسائل .
(٩) انظر معترك الأقران (١٨٢/١-١٨٣) .

وطربا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها ، أما القرآن الكريم فإنه لا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عبره ، ولا تفنى عجائبه هوالجد ليس بالهزل ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن قسم به أقسط ، ومن عمل به أجر ، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم ، ومن طلب الهدى من غيره أضله الله ، ومن حكم بغيره قصمه الله ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، فيه نبأ الأولين والآخرين ، فتح الله به أعيناً عمياً ، وأذناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، فيه ينابيع العلم ، وفهم الحكمة[١] .

<u>الثانية :</u> حال الكافر المكذب الذي إذا سمع كلام الله – جل جلاله – أحس كأنه سياط وقوارع ، فتعتريه الهيبة والخوف والوجل ، ولذلك كان بعضهم يستثقل سماعه ، ويزداد نفوراً كما قال تعالى : (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى ءآذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً)[٢] .

و " الوقر " هو الثقل الذى يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به[٣] .

وتوليهم ونفورهم بسبب اشمئزاز قلوبهم من ذكر الله تعالى قال – جل وعلا – : (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)[٤] .

يقول السيوطي : (الوجه العشرون من وجوه إعجاز : الروعة التى تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه ، والهيبة التى تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله ، وإبانه خطره ، وهى على المكذبين به أعظم ، حتى كانوا يستثقلون سماعه ، ويزيدهم نفوراً ، كما قال تعالى ، ويودون انقطاعه لكراهتهم له ... وأما المؤمن فلا تزال روعته به ، وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذاباً وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه ، وتصديقه به ... وهذه الروعة قد اعترف بها جماعة قبل الإسلام وبعده : فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن به ، ومنهم من كفر[٥] ثم ساق السيوطي حديث جبير بن مطعم الذى نقلته قبل قليل ، وساق أيضاً حديث عتبه بن ربيعة لما جاء النبي – صلى الله عليه وسلم – من خلاف قومه ، فتلا عليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حم السجدة ، قال الإمام ابن كثير :

" قال الإمام العلم عبد بن حميد في مسنده : حدثنى ابن أبى شيبة ، حدثنا علي بن مسهر ، عن الأجلح ، عن الذيال ابن حرملة الأسدي ، عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنه – قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة . فقالوا : أنت يا أبا الوليد : فأتاه عتبة فقال : يا محمد ، أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله – صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر : معترك الأقران (١/١٨٤-١٨٥) .
(٢) سورة الإسراء ، الآية (٤٦) .
(٣) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥ / ٧٩) .
(٤) سورة الزمر ، الآية (٤٥) .
(٥) معترك الأقران (١ / ١٨٢ – ١٨٣) .

- ، فقــال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك ، فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سخلة [١] قط أشأم على قومك منك فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا وفضحتنا في العــرب ، حــتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهنا ! والله ما ننظر إلا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف ، حتى نتفانى ! أيها الرجل ، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش فلنزوجك عشراً . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فرغت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل من الرحمن الرحيم) [٢]حتى بلغ (فــإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) [٣] . فقال عتبة : حسبك ! ما عندك غير هذا ؟ قال : " لا " فرجع إلى قريش ، فقالوا ، : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته . قالوا : فهل أجابك ؟ قال : لا ، والذى نصبها بنيةً[٤] ما فهمت شيئاً مما قال ، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . قالوا : ويلك ! يكلمك الرجل بالعربية ما تدري ما قال ؟! قال : لا ، والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة .

وهكذا رواه الحافظ أبو يعلي الموصلي في مسنده ، عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده ، مثله سواء .

وقــد ســاقه البغوي في تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل ، عن الأجلح – وهو ابن عبدالله الكندي – وقد ضعُف بعــض الشــئ عــن الذيال بن حرملة ، عن جابر ، فذكر الحديث إلى قوله : (فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صــاعقة عاد وثمود) [٥] فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم : فقــال أبــو جهــل : يا معشر قريش ، والله ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد ، وأعجبه طعامه ، وما ذاك إلا من حاجة أصابته ، فانطلقوا بنا إليه . فانطلقوا إليه فقال أبو جهل : يا عتبة ، ما حبسك عنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كانت لك حاجة جمعنا لك فغضب وقال :لقد علمتم اني اكثركم مالاً ، ولكني أتيته وقصصت عليه فأجابني بشئ والله مــا هــو بشــعر ولا كهانــة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله : (فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمــود) [٦]، فأمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم أن يكف ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب . وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلي ، والله أعلم .

وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط ، فقال :

حدثــني " يزيد " بن زياد ، عن محمد بن كعب القرظي قال : حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة – وكان سيداً – قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم

---

(١) السخلة : ولد الشاه من المعز والضأن . والسخل : المولود المحبب إلى أبويه . وهو فى الأصل ولد الغنم .

(٢) سور فصلت الآيتان (١،٢) .

(٣) سورة فصلت ، الآية (١٣) .

(٤) يعني بالبنية : الكعبة . وكانت تدعى بنية إبراهيم – عليه السلام – ، لأنه بناها ، وقد كثر قسمهم برب هذه البنية .

(٥) يعني بالبنية : الكعبة . وكانت تدعى بنية إبراهيم – عليه السلام – ، لأنه بناها ، وقد كثر قسمهم برب هذه البنية .

(٢) سورة فصلت ،الآية (١٣) .

إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمور لعله يقبل بعضها ، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة ، ورأوا أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يزيدون ويكثرون ، فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، فقم إليه فكلمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم – فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السُطة[1] في العشرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها . قال : فقال له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " قل يا أبا الوليد أسمع " . قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالاً . وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً[2] تراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع[3] على الرجل حتى يداوي منه – أو كما قال له – حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستمع منه قال : " أفرغت يا أبا الوليد؟ " قال : نعم . قال : " فاستمع مني " قال : أفعل . قال : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) . ثم مضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيها يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى السجدة (منها) فسجد ، ثم قال : " قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك " . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : أقسم – يحلف بالله – لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه مُلككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ! قال : هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم[4] .

وهذا السياق أشبه من الذي قبله ، والله أعلم .

وقد ساق السيوطي هذا الحديث مختصراً ليدلل على الهيبة والروعة التي يتركها القرآن الكريم في نفوس الناس عامة وفي نفوس المعاندين بصفة خاصة ، وهذا دليل على أن هذا ليس كلام مخلوق بل هو كلام الله – جل وعلا – ويزيد السيوطي الأمر تأكيداً فيذكر أن بعض المعاندين أراد أن يعارض القرآن فاعترته روعة وهيبة كف بها عن ذلك فيقول : "

---

(١) السطة – بكسر السين – : الشرف .

(٢) الرئى – بفتح الراء ، وبنو تميم يكسرونها – : ما يتراءى للإنسان من الجن .

(٣) التابع : ما يتبع الإنسان من الجن .

(٤) سيرة ابن هشام : (١/٢٩٣-٢٩٤) .

روي أن ابن المقفع[1] طلب ذلك ورامه ، وشرع فيه ، فمر بصبي يقرأ : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك...)[2] فرجع ومحا ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ، وكان أفصح أهل وقته ، وكان يحيي بن حكيم الغزال[3] ، بليغ الأندلس في زمنه ، فحكى أنه رام شيئاً من هذا فنظر في سورة الإخلاص ليحذوا على مثالها ، وينسخ – بزعمه – على منوالها ، قال : فاعترتني خشية ورقة حملتني على التوبة والأوبة "[4] .

الوجه الثالث : بلاغته وفصاحته :

إن القرآن الكريم – بوصفه كتاب هدى للعالمين – على ذروة سنام الفصاحة والبلاغة ، وفي المنزلة التي لا يستطيع البشر – أحدهم أو كلهم ، أو كلهم مع عالم الجن – مهما أوتوا من بلاغة وبيان أن يرقوا إلى مستواه ، وقد شهد بذلك العدو والصديق ، والمؤمن والكافر .

قال القاضي أبو بكر الباقلاني : " .. ثم انظر في آية آية ، وكلمة كلمة ، هل تجدها كما وصفنا من عجيب النظم ، وبديع الرصف ؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية ، وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها أخواتها وضامتها ذواتها ، تجري في الحسن مجراها ، وتأخذ في معناها ، ثم من قصة إلى قصة ، ومن باب إلى باب ، من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل ، وحتى يُصوِّر لك الفصل وصلاً ، ببديع التأليف وبليغ التنزيل "[5] لقد عجز العرب – وقت نزول القرآن – عن الإتيان بمثله ، يدل لذلك أنه تحداهم حتى طال التحدي ، وقد جعله الله تعالى بذلك دليلاً على صدق رسوله – صلى الله عليه وسلم – ونبوته ، وضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم ، وسبى ذراريهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه ، بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال وإكثار المراء والجدال ، وعن الجلاء عن الأوطان ، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي ، فلما لم يحصل هناك معارضة منهم ، علم أنهم عاجزون عنها ، وذلك لبلوغه في البلاغة والفصاحة والبيان الذروة ، والدرجة القصوى ، التي عجز عن مضاهاتها كل فصيح ، وقعد عن معارضتها كل بليغ ، وبلاغة القرآن المعجزة تتجلى في أمور منها :

أولاً : أن اللفظ القرآني في مفرداته وتراكيبه في مقام الذروة من الفصاحة والبلاغة والبيان ، فهو قد بلغ الغاية في " حسن

---

(١) عبدالله بن المقفع ، من أئمة الكتاب ، وقيل أنه من عنى في الإسلام بكتب المنطق وترجمتها ، أصله من الفرس ، ولد بالعراق (١٠٦هـ–٧٢٤م) مجوسياً (مزدكيا) وأسلم على يد عيسى بن علي (عم السفاح) وولي كتابة الديوان للمنصور العباسي ، وترجم له كتب أرسطوطاليس الثلاثة في المنطق، وكتاب " المدخل إلى علم المنطق " المعروف " بإيساغوجي " وترجم عن الفارسية كتاب " كليلة ودمنة " وهو أشهر كتبه ، أتهم بالزندقة فقتله في البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبي (١٤٢هـ–٧٥٩م) انظر : أمراء البيان (٩٩–١٥٨) ، لسان الميزان (٣/٣٦٦) ، البداية والنهاية (١٠/٩٦) ، دائرة المعارف الإسلامية (١/٢٨٢) الأعلام (٤/١٤٠) .

(٢) سورة سيدنا هود – عليه السلام – ، بعض الآية (٤٤) .

(٣) هو : يحيي بن الحكم وليس ابن حكيم – البكري الجياني ، المعروف بالغزال ، شاعر مطبوع من أهل الأندلس ، امتاز نظمه الجيد الحسن بالفكاهة المستملحة – انظر : بغية الملتمس (٤٨٥) ، نفخ الطيب (١/٤٤٩) ، المطرب من أشعار أهل المغرب (١٣٣–١٥١) ، الأعلام (٨/١٨٤) .

(٤) السيوطي : معترك الأقران (١/١٨٣–١٨٤) وهذا قريب من معنى الصرفة التي يدعيها النظام من المعتزلة .

(٥) إعجاز القرآن (ص٢٥١–٢٥٢) ، وانظر : الاتقان (٢/١١٨–١١٩) .

تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن "[١]

ثانياً : أن أساليب القرآن المختارة للدلالة على المعاني المرادة هي أروع الأساليب وأجملها ، وأكملها وأحكمها ، وفي القمة من الإبداع وجمال التصوير ، فلا يستطيع أحد أن يداني " صورة نظمه العجيب " والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاءت عليه ، ووقفت عليه مقاطع آياته ، وانتهت إليه فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولا بعـــده نظير له "[٢] فهو خارج بفصاحته وبلاغته عن جنس كلام العرب من النظم والنثر ، والخطب والشعر ، أقول إنه خـــارج خروج تفوق على ما ألفوه من فنون التعبير ، وأساليب الكلم ، مع كون حروفه في كلامهم ، ومعانيه في خطابهم ، وألفاظـــه في حروفهم ، لكنه بذاته قبيل غير قبيل كلامهم ، ورتبة أخرى متميزة عن رتب خطابهم ، فهو الأسلوب المعجز للثقلين أجمعين ، الجامع بين " صفتي الجزالة والعذوبة ، وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالباً في كلام البشر "[٣] ، إنه يكاد يكون إجماع بين علماء الإسلام على سمو الأسلوب القرآني ، ورفعة منزلته فوق كل أسلوب ، ولذلك وجدنا علماء السنة ، والأشاعرة ، والمعتزلة ، لا يشذ أحد منهم عن الإقرار بهذا ، يقول الرماني (من شيوخ المعتزلة) : "" وأما نقض العادة : فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ، منها : الشعر ، ومنها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومـــنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث ، فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوق به كل طريقة "[٤] .

ثالـــثاً : أن المعاني القرآنية المرادة ، في مقام الذورة أيضاً من الإبداع والجمال والكمال ، والمطابقة لحال مهمة الرسالة ، مـــع الصـــدق فيها ، وموافقة الحق والواقع ، واستيفائها لكل ما يضمن المصلحة العامة والخاصة ، ويحقق السعادة لجميع الـــناس ، أفـــراداً وجماعات ، وشعوباً وحكومات . قال تعالى : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)[٥] وقال تعالى : (إن هذا القرءآن يهدي للتي هي أقوم...)[٦] وقـــال عز من قائل : (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)[٧] وقال عز شأنه وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً يهدي به من نشآء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم)[٨] .

ولـــنأتي هـــنا بمثال واحد يدل على كمال المعاني التي يتضمنها الأسلوب القرآني ، وشرفها وعلو منزلتها بما لا

---

(١) السيوطي : معترك الأقران (٢٣/١) ، الاتقان (١٢٢/٢) ، وانظر : القاضي عياض : الشفا (٣٥٨/١) .
(٢) معترك الأقران (٢٣/١) ، الاتقان (١٢٢/٢) ، انظر الشفا (٣٦٩/١) .
(٣) الاتقان (١٢٢/١) .
(٤) النكت في إعجاز القرآن (ص١١١) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، وانظر : الاتقان (١٢٢/٢) .
(٥) سورة المائدة الآيتان (١٥-١٦) .
(٦) سورة الإسراء ، بعض الآية (٩) .
(٧) سورة البقرة الآيتان (١،٢) .
(٨) سورة الشورى الآية (٥٢) .

يدانيه كلام آخر ، قال السيوطي في قوله تعالى : (...ولكم في القصاص حياة...)[١] قال : " معناه كثير ، ولفظه يسير ، لأن معناه أن الانسان إذا علم أنه متى قَتَل به ، كان ذلك داعياً إلى ألا يُقدم على القتل ، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص ، كثير من قتل الناس بعضهم لبعض ، وكان ارتفاع القتل حياة لهم "[٢] فهذا ما تتضمنه هذه اللفظة الوجيزة من معنى شريف وهذا على سبيل الإجمال ، وللعلماء بإعمال فكرهم ، وتدبر نظرهم في هاتين الكلمتين : (القصاص حياة) لمحوا فضلهما عما كان مثلاً سائراً بين العرب وهو قولهم : " القتل أنفى للقتل" بنحو عشرين وجهاً ذكرها السيوطي بقوله : " وقد فضلت هذه الجملة على أوجز ما كان عند العرب في هذا المعنى ، وهو قولهم : " القتل أنفى للقتل " بعشرين وجهاً أو أكثر "[٣] وأنا أجتزئ منها عشرة :

أولها : أن العبارة القرآنية أقل حروفاً ، فإن حروفها عشرة ، وحروف : القتل أنفى للقتل – أربعة عشر – .

ثانيها : أن نفي القتل لا يستلزم الحياة ، والآية ناصة على ثبوتها ، التي هي الغرض المطلوب منه .

ثالثها : أن تنكير " حياة " تفيد تعظيماً فتدل على أن القصاص فيه حياة متطاولة ، والمثل ليس كذلك .

رابعها : أن الآية مطردة بخلاف المثل ، فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل ، بل قد يكون أدعى له وهو القتل ظلماً وإنما ينفيه قتل خاص ، وهو القصاص ، ففيه حياة أبداً .

خامسها : أن الآية مستغنية عن تقدير محذوف بخلاف قولهم ، فإن فيه حذف " من " التي بعد أفعل التفضيل وما بعدها ، وحذف " قصاصاً " مع القتل الأول ، وحذف " ظلماً " مع القتل الثاني ، والتقدير : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً من تركه .

سادسها : أن الآية اشتملت على فن من البديع ، وهو جعل أحد الضدين الذي هو الفناء والموت محلاً ومكاناً لضده وهو الحياة ، واستقرار الحياة في الموت مبالغة عظيمة فكأنه جعل القصاص كالمنبع للحياة والمعدن لها بإدخال " في " عليه .

سابعها : أن في الآية طباقاً ، لأن القصاص مشعر بضد الحياة ، بخلاف القتل .

ثامنها : أن المثل كالمتناقض من حيث الظاهر، لأن الشئ لا ينفي نفسه.

تاسعها : سلامة الآية من لفظ القتل المشعر بالوحشة ، بخلاف لفظ الحياة ، فإن الطباع أقبل له من لفظ القتل .

عاشرها : أن لفظ القصاص مشعر بالمساواة ، فهو ينبئ عن العدل ، بخلاف مطلق القتل[٤] .

وذكر السيوطي وجوهاً أخرى آثرت الاقتصار على هذه العشرة اجتزاءاً بها عن بقيتها ، وهي كالمثال لغيرها .

فانظر إلى روعة الأسلوب القرآني الذي لا يضاهيه قول مخلوق كان أو يكون ، فهو بديع النظم ، عجيب التأليف متناه في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجز الخلق عنه ، ولذلك قيل : " البلاغة ، إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن ، وأعلى طبقات البلاغة للقرآن خاصة "[٥] .

---

(١) سورة البقرة ، بعض الآية (١٧٩) .
(٢) معترك الأقران (١/٢٢٧) .
(٣) معترك الأقران (١/٢٢٧) .
(٤) انظر هذه الوجوه وغيرها : السيوطي : معترك الأقران (١/٢٢٧-٢٣٠) .
(٥) الرماني : النكت في إعجاز القرآن (ص٧٥-٧٦) .

فبلاغة القرآن الكريم معجزة ، إنما تتناول اللفظ والمعنى معاً ، إذ لا يتصور أن ينفك المعنى المعجز عن لفظ يحمله هو معجز أيضاً ، لأن الألفاظ هي ظروف المعاني التي تحملها وتحتويها ، فإذا كانت الألفاظ فصيحة جزلة ، وجب أن يتضمن ترتيبها وتأليفها بنظمها وضم بعضها إلى بعض معاني سامية هي تكميل لوجه إعجازها .

يقول الباقلاني : " ...فإن ادعى إعجازها لألفاظها ، ونظمها وتأليفها ، فإني لا أدفع ذلك ، وأصححه "[١] .

على أن الإمام عبدالقاهر الجرجاني يرى أن الإعجاز لا يتعلق بالكلم المفرد ، بل يتعلق بالتراكيب والنظم الذي ينتج معنى معجزاً ، إذ أنه لو قيل إن الكلمات المفردة التي هي أوضاع اللغة هي التي يتعلق بها الإعجاز لزم أن يكون قد حدث لها وصف لم يكن موجوداً قبل نزول القرآن أوجب لها ذلك الإعجاز ، وهذا محال ، فلا يجوز أن يكون ذلك الوصف في الألفاظ المفردة التي هي بوضع اللغة لأنه يؤدي إلى أن يكون هذا الوصف قد تجدد في معنى الحمد ، الرب ، ومعنى العالمين ، والملك ، واليوم ، والدين ، وهذا وصف لم يكن قبل نزول القرآن ، وهذا إن كان صحيحاً لم يكن شئ أبعد من المحال منه[٢] .

ويؤكد الشيخ عبدالقاهر على هذا في موضع آخر فيقول : (إن الفصاحة ، والبلاغة ، وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني ، وإلى ما يُدَل عليه بالألفاظ دون اللفاظ أنفسها "[٣] ويذهب يدلل الشيخ عبدالقاهر على هذا فيذكر أن المعارضة لا يتصور حصولها في الألفاظ ، لأن من جاء بلفظ فوضعه مكان لفظ آخر نحو : أن يقول بدل " أسد " " ليث " ، وبدل " بَعُد " " نأى" ، وبدل " قرُب" " دنا " ، لم تكن هذه المعارضة ، والإلكان كل تفسير للألفاظ هو معارضة لها ، وعلى هذا فينبغي أن يُصار إلى أن المعارضة ترجع إلى جهة معاني الكلام المعقولة ، دون الألفاظ المسموعة[٤] .

ولكني أقول : إنه لولا تميز اللفظ في مفرداته وتركيبه لما تميز المعنى على غيره ، فلو قيل : " زيد كالأسد " كان تشبيهاً لزيد بالأسد ، ولكن إن قيل : " زيد أسد " كان المعنى أبلغ في هذه العبارة الثانية منه في العبارة الأولى ، وإنما تغير المعنى تبعاً لتغير تركيب الكلام ، إذاً فالمعنى فرع عن تركيب اللفظ ، وما شرفت المعاني إلا بشرف بلاغة الألفاظ في تركيبها وترتيب بعضها على بعض .

وهكذا يقال في القرآن إن إعجازه في لفظه ، وفي معناه ولا يقال إن التحدي كان في المعنى دون اللفظ ، وإنما وقع التحدي كما هو معلوم على الإتيان بمثله ، لفظاً ومعنى ، وهذا هو الذي أعجز العرب ، ولذا كان القرآن الكريم بياناً ، وتبياناً لكل شئ ، قال تعالى : (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان)[٥] لكن بيان الإنسان مما يليق به كمخلوق أما بيان الله تعالى على ما يليق به جل وعلا وهو الخالق سبحانه فقد وصف القرآن بأنه بيان قال تعالى : (...هذا بيان

---

(١) إعجاز القرآن (ص٣٤٤) .

(٢) انظر : دلائل الإعجاز (ص٢٤٨) .

(٣) دلائل الإعجاز (١٧٢-١٧٣) .

(٤) انظر : السابق نفسه .

(٥) سورة الرحمن الآيات (١،٢،٣) .

للناس...)[١] ووصفه بأنه تبيان لكل شئ فقال تعالى : (...ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شئ وهدى ورحمة...)[٢] وقال : (بلسان عربي مبين...)[٣] فكرر في مواضع أنه مبين ، فالقرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه ، وطرقه وأبوابه ، من تعديل النظم وسلامته ، وحسنه وبهجته ، وحسن موقعه في السمع ، وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول ، وتشكله على جهته حتى يحل محل البرهان ، ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسناً وبهجة وسناءً ورفعة[٤] .

فالكلام إذا علا في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتأثير في النفوس ، ما يذهل ويبهج ، ويقلق ويؤنس ، ويطمع ويؤيس ، ويضحك ويبكي ، ويحزن ويفرح ، ويهز الأعطاف ، ويبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً ، وكلام الله حاز المنزلة العليا من هذه الأوصاف فقد عجز العرب عن معارضته لمزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة وبرهان ، وصفة وتبيان ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ، ولفظه ينكر شأنها ، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه ، أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ، وأعجز الفحول ، ونظاماً والتئاماً ، واتقاناً وإحكاماً ، لم يدع في نفس بليغ منهم - ولو حك بنافوخه السماء - موضع طمع ، حتى خرست الألسن عن أن تدعي أو تقول ، وخلدت الأفهام فلم تملك أن تصول .

هذه الوجوه الثلاثة التي ذكرتها هي أهم وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وقد ذكر السيوطي وجوهاً أخر بلغت خمسة وثلاثين وجهاً ، فذكر من وجوه إعجازه : مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض ، وكذلك افتتاح السور وخواتمها وذكر فيها ما احتوى عليه القرآن في سوره من براعة الاستهلال ، وذكر كذلك من وجوه إعجازه وقوع ناسخه ومنسوخه ، وانقسامه إلى محكم ومتشابه ، وما احتواه من قراءات سبع متواترة ، وتقديم بعض ألفاظه وتأخيرها ، واحتواؤه على جميع لغات العرب ، وما فيه من عموم وخصوص ، وإجمال وتفصيل ، وما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، وأحوال القرون السالفة ، وتيسير الله تعالى حفظه وتلاوته ، ووقوع التشبيه والاستعارة ، والكناية والتعريض والإيجاز والاطناب ، ووقوع البدائع البليغة فيه من الالتفات والاستدراك ، وغيرها من بدائع الأسلوب ، وكذلك احتواؤه على الخبر والإنشاء ، والوعد والوعيد ، وغير ذلك مما ذكره السيوطي من وجوه إعجازه .

وقد اقتصرت على ذكر الوجوه الثلاثة الأولى تفصيلاً ، لأن البعض قد ينازع في كون الوجوه الأخرى وجوهاً للإعجاز ومثال ذلك أن يقال - مثلاً - : إن من وجوه إعجازه احتواؤه على الأخبار الغيبية المستقبلية وكذلك إخباره بأحوال

---

(١) سورة آل عمران ، بعض الآية (١٣٨) .

(٢) سورة النحل ، بعض الآية (٨٩) .

(٣) سورة الشعراء ، الآية (١٩٥) .

(٤) انظر : الباقلاني : إعجاز القرآن (ص٣٤٤-٣٤٥) .

الأمـم السابقة وأيامها الخالية مما أصبح في عداد الغيبات المنسية التي لا يمكن معرفتها إلا من طريق هذا القرآن العظيم ، ولا شـك أن هـذا وجه من وجوه إعجازه وأنه من عند الله تعالى وليس من كلام أحد من البشر ، ولكن ليست جميع آيات القرآن الكريم تخبر بمغيبات مستقبلية أو ماضية ، وبمقتضى ذلك يمكن لقائل أن يقول ليس القرآن كله معجزاً ، لأن بعض الآيات تتضمن هذه الأخبار ، وبعضها الآخر لا يتضمن شيئاً من ذلك ، فما تضمنها فهو معجز ، وما لم يتضمن شيئاً منها فهـو غيـره معجز ، مع أن المعلوم المجمع عليه أن القرآن كله معجز ، وكل آية فيه معجزة ، وكل سورة كذلك لأن الله تعـالى لمـا ذكر آيات التحدي لم يخصص شيئاً منه ، وإنما تحدى به كله أو بأي سورة منه ، ولم يعين سورة بعينها ، من أجـل هذا فصلت القول في الوجوه الثلاثة الأولى لأنها وجوه جامعة للقرآن كله ، والباقي لا يعدو كونه دلائل على أنه من عند الله تعالى ، لأن النبي الأمي - عليه الصلاة والسلام - ما كان ليدري شيئاً من هذه الغيوب إلا بإذن الله تعالى وإطلاعه عليها .

المطلب الثاني : أنه -ﷺ- خاتم النبـيين

قال السيوطي : " أرسل (الله) تعالى رسله مؤيدين منه بالمعجزات الباهرة ، أي الظاهرة ، وختم بهم[١] محمداً - صـلى الله عـليه وسلم -، كما قال تعالى : (...ولكن رسول الله وخاتم النبيين...)[٢] "[٣] خَتْمُ النبوة والرسالة بنبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وكذلك ختم الرسل والأنبياء به - عليهم جميعاً السلام - أمر مقرر بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

فلا نبي بعد نبينا ورسولنا سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - ولا رسول ، ولا نبوة بعد نبوته ولا رسالة .

- أمـا بالقـرآن : فلقولـه تعـالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عـليماً)[٤] ففي هذه الآية الكريمة تصريح بخاتميته - صلى الله عليه وسلم - للأنبياء قبله ، فلا نبي بعده ولا رسول ، وهذا هو الذي فهمه أئمة المفسرين لكتاب الله تعالى من صدر الإسلام وحتى اليوم .

قـال ابن جرير : " يقول تعالى ذكره ما كان أيها الناس محمد أبا زيد بن حارثة ولا أبا أحد من رجالكم الذين لم يـلده محمد فيحرم عليه نكاح زوجته بعد فراقه إياها ، ولكنه رسول الله وخاتم النبيين الذي ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحـد بعده إلى قيام الساعة ، وكان الله بكل شئ من أعمالكم ومقالكم وغير ذلك ذا علم لا يخفى عليه شئ "[٥] ثم روى عن قتادة في قوله تعالى : (وخاتم النبين) . أي آخرهم[٦] .

---

(١) هكذا العبارة عند السيوطي في رسالته : في علم التوحيد (مخطوط) لوحة رقم (٥) ، وصحة العبارة أن يقال : وختمهم بمحمد - صلى الله عليه وسلم - لا أن يقال : ختم بهم محمداً - صلى الله عليه وسلم - .

(٢) سورة الأحزاب ، بعض الآية رقم (٤٠) .

(٣) رسالة في علم التوحيد ، لوحة رقم (٥) .

(٤) سورة الأحزاب الآية (٤٠) .

(٥) جامع البيان (١٦/٢٢) .

(٦) جامع البيان (١٦/٢٢) وأورد هذا الأثر السيوطي في الدر المنثور (٢٠٤/٥) عن عبدالرزاق وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

وقال البغوي : " ختم الله به النبوة " وروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : " يريد - أي الله تعالى - لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابناً يكون بعده نبياً "(١) .

وقال الزمخشري : " يعني أنه لو كان له ولد بالغ فبلغ مبلغ الرجال لكان نبياً ، ولم يكن هو خاتم الأنبياء "(٢)

وقال ابن الجوزي : " من قرأ خاتم بكسر التاء فمعناه : وختم النبيين ، ومن فتحها فالمعنى آخر النبيين "(٣) ثم أورد كلام ابن عباس - رضي الله عنهما - الذي ذكره البغوي .

وقال القرطبي : " قال ابن عطية : هذه الألفاظ عند جماعة علماء الأمة خلفاً وسلفاً متلقاة بالقبول على العموم التام مقتضيه نصاً أنه لا نبي بعده - صلى الله عليه وسلم - "(٤) .

وقال ابن كثير : " فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بالطريقة الأولى والأحرى لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة فإن كل رسول نبي ولا ينعكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من حديث جماعة من الصحابة - رضي الله عنه - " ثم ساق عدداً من الأحاديث(٥) وذكر المحلي في الجلالين أنه - صلى الله عليه وسلم - لا نبي بعده(٦) .

فهذه أقوال المفسرين ، مما نقلنا عنهم ، ومما لم ننقل لا يخرج كلامهم عن مثل هذا الذي نقلنا ، وكلهم متفقون على أن المراد بالآية ختم النبوة المحمدية ، وأن رسول الله محمد بن عبدالله هو آخر الأنبياء والمرسلين ، ولم يخالف أحد منهم في هذا .

<u>أما أدلة السنة :</u> في هذا فهي صريحة كذلك في تقرير ختم النبوة بنبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - من ذلك :

١- قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ...وإنه سيكون في أمتي كذابون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي "(٧) .

٢- في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إليه - صلى الله عليه وسلم - فيقولون : " أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك... "(٨) .

٣- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدي ، وسيكون خلفاء فيكثرون "(٩) .

٤- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل

---

(١) الحسين بن مسعود الفراء البغوي : معالم التنزيل (٥٦٥/٦) .
(٢) محمود بن عمر الزمخشري : الكشاف (٢٣٩/٣) .
(٣) أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي : زاد المسير (٣٩٣/٦) .
(٤) أبو عبدالله محمد بن أحمد القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٩٦/١٤) .
(٥) أبو الفداء اسماعيل بن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٩٣/٣) .
(٦) تفسير الجلالين (١١٠/٢) .
(٧) سنن أبي داود (١٣٨/٤) ، سنن الترمذي (٤٦٦/٦) وقال الترمذي : حديث صحيح ، وسند أحمد (٢٧٨/٥) وله أصل في صحيح مسلم (٤/ ٢٢١٥) وابن ماجة (١٣٠٤/٢) .
(٨) متفق عليه ، رواه البخاري في " صحيحه " (١٠٦/٦) ، ومسلم في صحيحه (١٨٤/١) .
(٩) البخاري في " صحيحه " (٢٠٦/٥) ، ومسلم في صحيحه (١٤٧١/٣) ، وأحمد في المسند (٢٩٧/٢) ، وابن ماجة في سننه (٩٥٨/٢) .

رجـل بـنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون ويتعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين "(١) .

وأمـا الإجمـاع : فقـد أجمع الصحابة - رضي الله عنهم - على قتال المتنبئين بعد وفاة النبي - صلى الله عليه وسلم - وسيروا الجيوش إلى قتالهم ، كما فعلوا مع مسيلمة وغيره ، ولو كانوا غير معتقدين بختم النبوة وانتهائها بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما تعجلوا في ذلك ولطالبوا المتنبئين بالدليل على دعواهم تلك ، ولكنهم لم يفعلوا لأنهم يعلمون علم اليقين أنه لا نبي بعد محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وقـد ذكـر الـبغدادي أسباب تكفير بني حنيفة وبني أسد وأن من ذلك دعواهم نبوة مسيلمة وطليحة فقال : " فأما المـرتدون مـن بـني حنيفة وبني أسد فإنهم كفروا من وجهين : أحدهما : اسقاط وجوب الزكاة ، والثاني : دعواهم نبوة مسيلمة وطليحة "(٢) .

كما حكى البغدادي أيضاً إجماع علماء المسلمين على أن آخر الأنبياء هو رسول الله محمد - صلى الله عليه وسلم - . فقـال : " أجمع المسلمون وأهل الكتاب على أن أول من أرسل من الناس آدم - عليه السلام - وآخرهم عند المسلمين محمـد - صـلى الله عليه وسلم - "(٣) وقال أيضاً: " كل من أقر بنبوة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - أقر بأنه خاتم الأنبياء والرسل ، وأقر بتأبيد شريعته ، ومنع من نسخها "(٤) .

وهـذا يـبين مدى رسوخ هذه العقيدة في نفوس المسلمين من صدر الإسلام وعلى مدار التاريخ وحتى الآن ، ولا يزال علماؤنا يؤكدون هذه العقيدة ، ويتصدون لمن يخالفها ، مما جعلها أمراً مجمعاً عليه ، ولا يسع أحداً الخروج عليه . كما أكد على هذا الإجماع القاضي عياض(٥) ، والغزالي أبو حامد(٦) ، وهو مقتضى كلام أبي عبدالله القرطبي(٧) وغيره .

وإذا ذهبـنا نستقصي كلام علماء أمة الإسلام في تقرير هذه العقيدة لطال بنا البحث وخرج عن مقصوده ، والذي يهمـنا أن الجـلال السيوطي واحد من هؤلاء العلماء الذين قد انعقد بهم الإجماع على عقيدة ختم النبوة بنبوة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

المبحث الثاني : خصائصه -ﷺ-

لقـد اختص الله تعالى نبيه ورسوله - محمداً - صلى الله عليه وسلم - بخصائص عظيمة باهرة ، مشرقة إشراق البدور السافرة ، امتن سبحانه وتعالى عليه بها ، واختصه دون الأنبياء والمرسلين ، تفضيلاً وإكراماً ، وتبجيلاً وإعظاماً ، حتى كان إمام المتقين ، وسيد المرسلين ، فهو إمامهم إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، صلوات الله تعالى عليه وعلى آله

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " (٤/٢٢٦) ، ومسلم في " صحيحه " (٤/١٧٩٠) ، وأحمد في " المسند " (٢/٢٩٨) ، والحميدي في " مسنده " (٢/٤٤٨) .
(٢) الفرق بين الفرق (ص٢٣١) .
(٣) أصول الدين (ص١٥٩) ، والفرق بين الفرق (ص٣٣٢) .
(٤) أصول الدين (ص١٦٢) .
(٥) انظر : الشفا (٢/٢٧١) .
(٦) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد (ص٢٢٥) .
(٧) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٩٦) .

وصحبه، وأنصاره وحزبه، والتابعين من تبعهم إلى يوم الدين .

والسيوطي صنف مصنفاً ضخماً في خصائصه – صلى الله عليه وسلم – سماه " الخصائص الكبرى " أو " كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب "[١] ، جمع فيه كثيراً من الأخبار فيها الصحيح والضعيف والموضوع ، ولسوف اقتصر هنا على بعض ما صح نقله في هذا الكتاب .

فمن هذه الخصائص :

الأولى : أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا به[٢] :

قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)[٣] ورد في تفسير هذه الآية الكريمة :

١- أن علياً وابن عباس قالا : لم يبعث الله عز وجل نبياً ، آدم فما بعده ، إلا أخذ عليه العهد في محمد ، لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، فقال : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة...)[٤] الآية[٥] .

٢- وعن قتادة قال : " هذا ميثاق أخذه الله على النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ، وأن يبلغوا كتاب الله ورسالاته إلى قومهم ، وأخذعليهم فيما بلغتهم رسلهم أن يؤمنوا بمحمد – صلى الله عليه وسلم – ويصدقوه وينصروه "[٦] .

٣- وعن السُدِّي قال : " لم يبعث الله عز وجل نبياً قط من لدن نوح إلا أخذ ميثاقه ليؤمنن بمحمد ولينصرنه إن خرج وهو حي ، وإلا أخذ على قومه أن يؤمنوا به ، ولينصرنه إن خرج وهم أحياء "[٧] .

قال السيوطي : " واذكر (إذ) حين (أخذ الله ميثاق النبيين) عهدهم (لما) بفتح اللام للابتداء وتوكيد معنى القسم الذي في أخذ الميثاق ، وكسرها متعلقة بأخذ وما موصولة على الوجهين أي الذي (آتيتكم) إياه ، وفي قراءة آتيناكم (من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) من الكتاب والحكمة وهو محمد – صلى الله عليه وسلم – (لتؤمنن به ولتنصرنه) جواب القسم إن أدركتموه وأممهم تبع لهم في ذلك (قال) تعالى لهم (أأقررتم) بذلك (وأخذتم) قبلتم (على ذلكم إصري) عهدي (قالوا أقررنا قال فاشهدوا) على أنفسكم وأتباعكم بذلك (وأنا معكم من الشاهدين)

---

(١) حققه فضيلة الشيخ الدكتور – محمد خليل هراس – رحمه الله – ونشره دار الكتب الحديثة بالقاهرة – مصر ، بدون طبعة ولا تاريخ .
(٢) انظر : الخصائص الكبرى (٢٢/١) .
(٣) سورة آل عمران الآية (٨١) .
(٤) ابن جرير : جامع البيان (٣٣٢/٣) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٥٦/٢) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٨٠/٤-٨١)، والسيوطي : الدر المنثور (٢٥٢/٢-٢٥٣) .
(٥) سورة آل عمران ، بعض الآية (٨١) .
(٦) ابن جرير : جامع البيان (٣٣٣/٣) ، والسيوطي : الدر المنثور (٢٥٣/٣) .
(٧) ابن جرير : جامع البيان (٣٣٢/٣) ، والسيوطي : الدر المنثور (٢٥٣/٣) ، والخصائص الكبرى (٢٢/١) .

عليكم وعليهم "[١] .

وهـذا الـذي ذكرته في الآية أحد وجهي تفسيرها والوجه الثاني : أن المقصود بالآية : أن الله تعالى أخذ الميثاق علـى الأنبياء أن يصدق بعضهم بعضاً ويأمر بعضهم بالأيمان بعضاً ، فذلك معنى النصرة بالتصديق ، وهذا قول سعيد بن جـبير ، وطـاووس ، والحسـن ، وروى عن قتادة والسدّي[٢] قال القرطبي : " وهو ظاهر الآية ، قال طاووس : أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر "[٣] .

الثانية : عموم بعثته إلى جميع الإنس والجن :

حكى السيوطي الإجماع على أنه – صلى الله عليه وسلم – مبعوث إلى جميع الإنس والجن[٤] .

ولذلـك فلا يشك عاقل أنه من بدهيات الإسلام أن رسول الله محمداً – صلى الله عليه وسلم – أرسل للناس كافة أحمـرهم وأبيضـهم وأسـودهم ، وليـس لطائفة معينة منهم أو لجنس خاص من أجناسهم ، يدل لذلك قوله تعالى : (وما أرسـلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً...)[٥] وقوله تعالى : (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً...)[٦] والدلالة فـي هـاتين الآيتين صريحة في اختصاصه – صلى الله عليه وسلم – بإرساله إلى عموم البشر ، وأنه – صلى الله عليه وسـلم – رسـول الله إلى الناس جميعاً ، وكما أنه رسول الله إلى جميع الناس في عصره ، فهو كذلك رسوله المرسل إلى جميع الناس في جميع العصور والأزمان من بعده ، قال تعالى : (وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ...)[٧] فكل مـن بلغه هذا الكتاب العظيم فهو مطالب بالإيمان بمحمد – صلى الله عليه وسلم – وبكتابه وبدينه وشريعته[٨] ، فيجب على كل أحد الإيمان به واتباعه وحبه وتعظيمه وتوقيره ، والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه حتى يفوز بخيري الدنيا والآخرة .

وقد وردت أحاديثه – صلى الله عليه وسلم – تؤيد عمومية بعثته إلى جميع البشر فمن ذلك قوله – صلى الله عليه وسـلم – : " ...وكـان النـبي يـبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة "[٩] وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ...وأرسلتُ إلى الخلق كافة وختم بي النبيون "[١٠] وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ...وبعثتُ إلى الأحمر والأسود "[١١]

---

(١) الجلالين (ص٧٠) .

(٢) انظر: القرطبي الجامع لأحكام القرآن (٨٠/٤)، ابن جرير: جامع البيان (٣٣١/٣-٣٣٢) السيوطي : الدر المنثور (٢٥٢/٣) .

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨٠/٤) .

(٤) انظر : الخصائص (١٣٧/٣) .

(٥) سورة سبأ ، بعض الآية (٢٨) .

(٦) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٥٨) .

(٧) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٩) .

(٨) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢٤٠/٣) .

(٩) رواه البخاري في " صحيحه " (٩١/١) ، والنسائي في " سننه " (٢٠٩/١) ، والدارمي في " سننه " (٣٢٢/١) .

(١٠) رواه مسلم في " صحيحه " (٣٧١/١) ، وأحمد في " المسند " (٤١٢/٢) .

(١١) رواه الإمام أحمد في " المسند " (١٤٥/٥) وقال في مجمع الزوائد (٢٥٩/٨) رجاله رجال الصحيح ، وأبو داود الطيالسي في " مسنده " بترتيب البنا المسمى بمنحة المعبود (١٢٢/٢) .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ...أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم... "[١] .

فهذه الأحاديث تدل على عموم بعثته – صلى الله عليه وسلم – لكافة الناس ، من غير استثناء أو تقييد بزمن دون زمن ، مما يؤكد أن المراد بذلك العموم ، هو عموم مكاني بحيث لا يخرج عنه مكان في الأرض كلها ، وعموم زماني كذلك بحيث يمتد منذ وجوده – صلى الله عليه وسلم – إلى قيام الساعة ، وهذه خصوصية من خصائصه – ﷺ –

الثالثة : أنه رحمة للعالمين :

كان إرساله – صلى الله عليه وسلم – رحمة للعالمين ، وهذا صريح قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)[٢] .

قال السيوطي : " اختصاصه – صلى الله عليه وسلم – بأنه بعث رحمة للعالمين حتى الكفار بتأخير العذاب ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة "[٣] .

وورد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال : قيل يا رسول الله ادع على المشركين ، قال : " إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة "[٤] .

قال ابن كثير : " فإن قيل : فأي رحمة حصلت لمن كفر به ؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر ابن جرير : حدثنا اسحاق بن شاهين ، حدثنا اسحاق الأزرق ، عن المسعودي ، عن رجل يقال له : سعيد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما أصاب الأمم من الخسف والقذف "[٥] .

الرابعة : أنه – صلى الله عليه وسلم – أكثر الأنبياء تابعاً :

لما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أوتي جوامع الكلم من القرآن والسنة ، وكانت صحبة قوية دامغة ، وبرهانه ساطعاً كثر أتباعه والمؤمنون به ليتقنهم من صدقه وأمانته ، وأنه رسول مرسل بالحق من قبل الله جل وعلا ولذلك قال – صلى الله عليه وسلم – : " ما من الأنبياء إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته

---

(١) رواه أحمد في " المسند " (٢٥٦/٥) وقال الهيثمي : رجاله ثقات (٣٦٧/١٠) من مجمع الزوائد ، وقال أحمد شاكر : " اسناده صحيح " ، (١٣/ ٢٦) من المسند بتحقيقه .

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٧) .

(٣) الخصائص (١٣٧/٣) .

(٤) انفرد بإخراجه مسلم في " صحيحه " كتاب البر ، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها (٢٠٠٦/٤) رقم (٨٧) ، وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٣٨٠/٥) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣٨٢/٥) ، وابن جرير : جامع البيان (١٠٦/١٧) قال ابن كثير : " وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث المسعودي عن ابي سعد وهو سعيد بن المرزُبان البقال عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فذكر بنحوه ، والله أعلم ، وقد رواه أبو القاسم الطبراني عن عبدان بن أحمد عن عيسى بن يونس الرملي ، عن أيوب بن سويد ، عن المسعودي ، عن حبيب بن أبي ثابت ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة ، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف " انظر تفسير القرآن العظيم (٣٨٢/٥) .

وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "[1] قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : " قوله : فأرجو أن أكثرهم تابعاً يوم القيامة) رتب هذا الكلام على ما تقدم من معجزة القرآن المستمرة لكثرة فائدته ، وعموم نفعه ، لاشتماله على الدعوة والحجة والإخبار بما سيكون ، فعم نفعه من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد ، فحسن ترتيب الرجوى المذكورة على ذلك وهذه الرجوى قد تحققت ، فإنه أكثر الأنبياء تبعاً "[2] .

وقد صح عنه - صلى الله عليه وسلم - أيضاً أنه قال : " أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعاً "[3] وقال أيضاً : " أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة "[4] وكونه - صلى الله عليه وسلم - أول من يقرع باب الجنة هي خصوصية أخرى له - صلى الله عليه وسلم - .

الخامسة : أنه أعطى خمساً لم يعطهن نبي قبله[5] :

خصه الله تعالى بخمسة أشياء لم يعطها لأحد من الأنبياء السابقين وردت في قوله - صلى الله عليه وسلم - " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة "[6] فهذه رواية البخاري ، وأما رواية مسلم فهي من حديث أبي هريرة مرفوعاً : " فضلت على الأنبياء بست ... " فذكر أربعاً من هذه الخمس ، وزاد اثنتين ، وهما قوله : " أعطيت جوامع الكلم ، وختم بي النبيون " فأما ختم النبيين بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - فقد سبق الحديث عنه في المطلب الثاني من المبحث الأول من هذا الفصل ، وأما جوامع الكلم فهي أيضاً من خصائصه - صلى الله عليه وسلم - ، ووردت في أحاديث أخر رواها البخاري[7] ومسلم[8] وغيرهما[9] وفي قوله - صلى الله عليه وسلم - : " نصرت بالرعب مسيرة شهر " هو بأن يقذف الله تعالى الرعب في قلوب أعدائه قبل أن يأتي إليهم أو يأتوا إليه بمدة شهر[10] ، قال ابن حجر - رحمه الله - : " وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتى لو كان وحده بغير عسكر ، وهل هي حاصلة لأمته من بعده ؟ فيه احتمال "[11]

---

(١) متفق عليه ، سبق تخريجه في الكلام على معجزة القرآن .

(٢) فتح الباري (٧/٩) .

(٣) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٨/١) كتاب الإيمان (١) باب (٨٥) ح رقم (٣٣٠) .

(٤) نفسه .

(٥) انظر الخصائص (١٣٤،١٥٣،١٥٤،١٥٦،١٦١/٣) .

(٦) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب التيمم (٧) باب (١) رقم (٣٣٥)، الفتح (٤٣٥،٤٣٦/١) كتاب الصلاة (٨) باب (٥٦) رقم (٤٣٨) الفتح (٥٣٣/١) ورواه مسلم في "صحيحه"(٣٧٠/١) كتاب المساجد (٥) رقم (٣) على اختلاف في الترتيب بينه وبين رواية البخاري ، وقال ابن حجر في الفتح " مدار هذا الحديث على هشيم بهذا الاسناد وله شواهد من حديث ابن عباس وأبي موسى وأبي ذر من رواية عمر وبن شعيب عن أبيه عن جده رواها كلها أحمد بأسانيد حسان " الفتح (٤٣٦/١) .

(٧) الحديث رقم (٢٩٧٧) و (٦٩٩٨) و (٧٠١٣) .

(٨) الحديث رقم (٥٢٣) .

(٩) رواه أيضاً الإمام أحمد في " مسنده " (٢٥٠،٢٦٤/٢) ، والترمذي رقم (١٥٥٣) ، والنسائي (٣/٦-٤) .

(١٠) انظر : ابن حجر : الفتح (٤٣٧/١) .

(١١) نفسه .

- وقد جعل الله تعالى له - صلى الله عليه وسلم - الأرض كلها مسجداً يصلي هو وأمته حيث أدركتهم الصلاة ، وكانت الأمم قبلنا لا يصلون إلا في أماكن مخصوصة كالبيع والصوامع وكذلك جعل له تربتها طهوراً ، أي مطهراً لغيره ، بمعنى أنه يرفع الحدث عند عدم الماء ، أي بالتيمم ، كما ورد في حديث حذيفة - رضي الله عنه - : " وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء "(١) .

- وأما الغنائم فقد أحلت له - صلى الله عليه وسلم - ولأمته من بعده ، ولم يكن ذلك لأحد من قبله ، وقد كان الأمم المتقدمة على ضربين : منهم لم يؤذن له في الجهاد فلم تكن لهم غنائم ، ومنهم من أذن له فيه لكن كانوا إذا غنموا شيئاً لم يحل لهم أن يأكلوه ، وجاءت نار فأحرقته(٢) .

- وأما الشفاعة ، فالمقصود بها الشفاعة العظمى في إراحة الناس من هول الموقف ولا خلاف في وقوعها ، جزم بذلك غير واحد من العلماء(٣) .

ورد حديث الشفاعة العظمى من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أنا سيد الناس يوم القيامة هل تدرون بمن ؟ ، يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد فيبصرهم الناظر ويُسمعهم الداعي ، وتدنو منهم الشمس ، فيقول بعض الناس : ألا ترون إلى ما أنتم فيه ، إلى ما بلغكم ؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس : أبوكم آدم . فيأتونه ، فيقولون يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، وأسكنك الجنة ، ألا تشفع لنا إلى ربك ؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيت . نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح... " الحديث(٤) وفيه أنهم يذهبون إلى نوح - عليه السلام - ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى يأتون إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فيسجد تحت العرش فيقال له : يا محمد ارفع رأسك واشفع تشفع ، وسل تعطه ، وهذه الشفاعة كما هو واضح من نص الحديث أنها خصوصية من خصائصه - عليه الصلاة والسلام - كما ذكر السيوطي(٥) وابن خزيمة(٦) وغيرهما .

السادسة : أن كتابه معجز :

اختص الله تعالى نبيه وحبيبه محمداً بالكتاب العزيز ، القرآن الكريم الذي أعجز الانس والجن أن يأتوا بمثله فهو كتاب معجز ، محفوظ من التبديل والتحريف على مر الدهور ، جامع لكل ما يحتاجه البشر من الهداية والارشاد والتشريع (

---

(١) رواه مسلم في " صحيحه " (٣٧١/١) كتاب المساجد (٥) رقم (٤) .
(٢) انظر : ابن حجر : فتح الباري (٤٣٨/١) .
(٣) انظر : فتح الباري (٤٣٨/١) .
(٤) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأنبياء (٦٠) باب (٣) رقم (٣٣٤٠) الفتح (٣٧١/٦) كتاب التفسير (٦٥) باب (٥) رقم (٤٧١٢) الفتح (٣٩٥/٨) ، ورواه مسلم في "صحيحه" (١٨٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٨٤) رقم (٣٢٧) ، والترمذي (٦٢٢/٤) ، وأحمد (٤٣٥/٢) .
(٥) انظر : الخصائص (٢٢٣/٣) .
(٦) التوحيد (٥٨٩/٢-٥٩٦) .

وتمـــت كلمة ربك صدقاً وعدلاً...)[١] أي صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأحكام ، وأنه كتاب مستغن عن غيره ، ميسر لـــلحفظ والذكر ، نزل منجماً عل سبعة أحرف[٢]، وقد تعهد الله تعالى بحفظه ، وأخبر أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقد تكلمنا عن إعجاز القرآن فيما مضى في بحث المعجزات .

السابعة : اختصاصه بالفاتحة وخواتيم سورة البقرة :

ورد في الحديث الصحيح أن الله تعالى آتاه – صلى الله عليه وسلم – سورة الفاتحة ، وخواتيم سورة البقرة ، ولم يؤتها أحداً من الأنبياء قبل كما روى أنهما من كنز تحت العرش[٣] .

أورد الســـيوطي في ذلك حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : بينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعـــنده جبريل إذ سمع نقيضاً[٤] فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : " هذا باب قد فتح من السماء ، ما فتح قط ، قال فنزل منه ملك ، فأتى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : أبشر بنورين قد أوتيتها لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته "[٥] .

وعـــن عقبة بن عامر الجهني قال : قال لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإني أعطيتها من تحت العرش "[٦] .

ويـــدل عـــلى خصوصيته بهما ما ورد في حديث حذيفة وفيه : " ... لم يعطها أحد قبلي ، ولا يعطاها أحد بعدي "[٧] ،وكذلك في حديث ابن عباس .

الثامنة : اختصاصه بليلة القدر :

ذكـــر السيوطي أن ليلة القدر مما اختص الله تعالى به نبيه – صلى الله عليه وسلم[٣] – بل نقل الإجماع على هذا عن بعض العلماء ، فقد نقل عن الإمام النووي – رحمه الله قال : " ليلة القدر مختصة بهذه الأمة زادها الله تعالى شرفاً ، لم تكن لمن قبلنا ، قال مالك في الموطأ : بلغني أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أرى أعمال الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك ، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذي بلغه غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً مـــن ألف شهر "[٨] قال السيوطي : " وله شواهد بينتها في التفسير المسند "[١] قال الحافظ ابن كثير : وهذا الذي قاله مالك

---

(١) سورة الأنعام ، بعض الآية (١١٥) .
(٢) انظر : الخصائص (١٢٧/٣) .
(٣) انظر : الخصائص (١٣٣/٣، ١٦٦) .
(٤) النقيض : الصوت .
(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (٥٥٤/١) كتاب الإيمان (١) باب (٤٣) رقم (٢٥٤) ، والنسائي في " سننه " كتاب الصلاة (١) ، أحمد في " المسند " (٣٨٧،٤٢٢/١) ، (١٥١،١٨٠/٥) .
(٦) أحمـــد في " مسنده " (١٤٧/٤) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٠٦/١) ثم قال : " هذا إسناد حسن ، ولم يخرجوه في كتبهم " وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (١٣٧/٢) إلى أبي عبيد ، ومحمد بن نصر ، وأورده أيضاً في الخصائص (١٣٣،١٦٦/٣) .
(٧) ذكره ابن كثير في تفسيره (٥٠٦/١) .
(٨) الخصائص الكبرى (١٩٢/٣-١٩٣) .

يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب " العُدة " أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء فالله أعلم ، وحكى الخطـابي عليه الإجماع "[1] وفي هذا الإجماع الذي حكاه الخطابي - رحمه الله - نظر ، فقد ذكر ابن كثير خلافاً في هذه الخصوصـية ، وما حكاه صاحب " العُدة "من أن الجمهور على القول بالخصوصية دليل على وجود المخالف ، ولذلك قال ابـن كـثير ك " اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة ، أو هي من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين ... والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضيين كما هي في أمتنا "[2] .

التاسعة : اختصاصه - صلى الله عليه وسلم - بالإسراء :

قـال تعالى : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتـنا إنـه هو السميع البصير)[3] هذه الآية الكريمة صريحة في وقوع الإسراء لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - بجسـده وروحـه الشريفين ، يقظة لا مناماً ، فقد ابتدئت بكلمة (سحان) التي تدل على أن ما بعدها أمر عجيب الشأن ، والإسراء بالروح وحدها أمر عادي لا عجب فيه ثم قال تعالى : (أسرى بعبده) والإسراء السير ليلاً ، والعبد اسم للشخص الذي هو مجموع الروح والجسد ، ولو كان الإسراء بالروح فقط لقال تعالى : روح عبدنا ، ثم قال جل وعلا : (لنريه من آياتـنا) ليـدل على أنه لا بد أن تكون الرؤية بصرية ، فإن الرؤيا في النوم تقع لكل أحد فلا تظهر فيها خصوصية له - صـلى الله عـليه وسـلم - وعلى هذا فالإيمان بالإسراء واجب ، وأما المعراج وهو الرحلة السماوية فهي ثابتة بالأحاديث الصحيحة التي يفيد مجموعها التواتر وتدل عليه كذلك الآيات من أور سورة النجم .

قال السيوطي : " أعلم أن الإسراء ورد مطولاً ومختصراً من حديث :

"- أنس . - وأبي بن كعب .

- وبريدة . - وجابر بن عبدالله .

- وحذيفة بن اليمان . - وسمرة بن جندب .

- وسهل بن سعد . - وشداد بن أوس .

- وصهيب . - وابن عباس .

- وابن عمر . - وابن عمرو .

- وابن مسعود . - وعبدالله بن أسعد بن زرارة .

- وعبدالرحمن بن قرط . - وعلي بن أبي طالب .

- وعمر بن الخطاب . - ومالك بن صعصعة .

- وأبي أمامة . - وأبي أيوب الأنصاري .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٦٦/٨) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤٦٦/٨) .

(٣) سوورة الاسراء الآية (١) .

- وأبي ذر . - وأبي سعيد الخذري .

- وأبي سفيان بن حرب . - وأبي ليلى الأنصاري .

- وأبي هريرة . - وعائشة .

- وأسماء ، بنتي أبي بكر . - وأم هانئ .

- وأم سلمة - رضي الله عنهم جمعياً - "[١] .

ثم أورد السيوطي أحاديث هؤلاء الصحابة جميعاً ، ومنها ما هو في الصحيحين ، ومنها ما هو في أحدهما ، وبقيتها في كتب السنن والمسانيد ، وأنا أورد هنا بعض ما صح من هذه الأحاديث لإثبات المطلوب وهو بيان خصوصيته - صلى الله عليه وسلم - بهذه المنقبة العظيمة .

١- حديث أنس - رضي الله عنه - :

- روى مسلم من طريق ثابت البناني عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " أتيت بالبراق[٢] (وهو دابةٌ أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتها طرفه) قال ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس[٣] . قال ، فربطته بالحلقة[٤] التي يربط به الأنبياء . قال ، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين . ثم خرجت . فجاءني جبريل عليه السلام بإناءٍ من خمرٍ وإناءٍ من لبنٍ . فاخترت اللبن . فقال جبريل - صلى الله عليه وسلم - اخترت الفطرة[٥] " الحديث[٦] .

وهذا القدر من الحديث يثبت إسراء النبي - صلى الله عليه وسلم - كما هو واضح وهو حديث طويل وبقيته تثبت معراجه عليه الصلاة والسلام إلى السموات العلى ، فبعد هذا القدر المذكور بقول : " ثم عَرَجَ بنا إلى السماء... " إلخ .

وأخرجه البخاري وابن جرير من طريق شريك بن عبدالله ابن أبي نَمِر عن أنس قال : " ليلة أُسرِيَ برسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفرٍ قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم : أيُّهم هو ؟ فقال أوسطهم : هو خيرهم ، فقال أحدهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبُه وتنام عينه ولا ينام قلبُه ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم ، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر

---

(١) الخصائص الكرى (٣٧٨/١) .

(٢) " أتيت بالبراق " قال أهل اللغة : البراق اسم الدابة التي ركبها - صلى الله عليه وسلم - ليلة الإسراء .

(٣) "بيت المقدس " قال ابو علي الفارسي : لا يخلو إما أن يكون مصدراً أو مكاناً . فإن كان مصدراً كان كقوله تعالى : إليه مرجعكم ، ونحوه من المصادر . وإن كان مكاناً فمعناه بيت المكان الذي جعل فيه الطهارة . أو بيت مكان الطهارة . وتطهير إخلاؤه من الأصنام وإبعاده منها .

(٤) " فربطته بالحلقة " قال صاحب التحرير : المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس .

(٥) " اخترت الفطرة " فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة . ومعناه ، والله أعلم ، اخترت علامة الإسلام والاستقامة . وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً سائغاً للشاربين ، سليم العاقبة . وأما الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع من الشر في الحال والمال .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " كتاب الإيمان (١) باب (٧٤) رقم {٢٥٩-(١٦٢)} انظر (١٤٥/١) ، ورواه الإمام أحمد في " المسند " بهذا السياق (١٤٨،٢٨٦/٣) ، قال : حدثنا حسن ابن موسى ، قال : حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا ثابت البناني عن أنس ابن مالك ... الحديث .

زمـــزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه ، فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطستٍ من ذهب فيه تور من ذهب محشواً إيماناً وحكمةً ، فحشا به صدره ولغاديده – يعني عروق حلقه – ثم أطبقه ثم عرج به إلى السماء " الحديث[١] .

٢- حديث جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – :

– عــن جابــر بن عبدالله – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لما كذبتني قريش حين أسرى بي إلى بيت المقدس قمت في الحجر فجلَّى الله لي بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا انظر إليه "[٢] .

٣- حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – :

قال : " لما أسرى برسول الله – صلى الله عليه وسلم – فانتهى إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة ، إليها ينتهي ما يُعرج بـــه... "[٣].

٤- حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – :

قـــال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي فسألوني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها فكُرِبتُ كرباً ما كُربتُ مثله قط فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شئ إلا أنبأتهم به "[٤] .

العاشرة : أنه سيد ولد آدم – عليه السلام – و أول من تنشق عنه الأرض وأول من يجيز على الصراط:

عـــد ذلك السيوطي من خصائصه[٥] ، وهو كذلك دليله قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع "[٦] .

وأمـــا إنـــه أول من يجيز على الصراط فلقوله – صلى الله عليه وسلم – " يضرب الصراط بين ظهراني جهنم ، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته "[٧]

---

(١) البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٣٧) رقم (٧٥١٧) انظر الفتح (٤٧٨/١٣) ، كتاب بدء الخلق (٥٩) باب (٦) رقم (٢٢٠٧) الفـتح (٣٠٢) مـن طريق قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة – رضي الله عنهما – ورواه ابن جرير في تفسيره (٣/١٥) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (١٤٨/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧٤) رقم (٢٦٢،٢٦٤) .

(٢) رواه البخاري في " صحيحه " مناقبل الأنصار (٦٣) باب (٤١) رقم (٣٨٨٦) الفتح (١٩٦/٧) ، ورواه مسلم في صحيحه (١٥٦/١) رقم (٢٧٦) .

(٣) رواه مسلم في " صحيحه " (١٥٧/١) كتاب الإيمان (١) باب (٧٦) في ذكر سدرة المنتهى حديث رقم (١٧٩) ، من طريق مُرة الهمذاني . وكذا رواه الحـــافظ أبو بكر البيهقي عن طريق الزبير بن عدي عن طلحة بن مصرف عن مرة ، ثم قال : " وهذا الذي ذكره عبدالله بن مسعود طرف من حديث المعراج .

(٤) رواه مسلم في " صحيحه " (١٥٦/١) من طريق أبي سلمة بن عبدالرحمن عن أبي هريرة ، كتاب الإيمان (١) باب (٧٥) ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال ، رقم (٢٧٨) .

(٥) انظر : الخصائص (٢٤١/٣،٢٤٠،٢٢٠) .

(٦) رواه مســلم في " صحيحه " (١٧٨٢/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٢) رقم (٢٢٧٨) ، وأورده السيوطي في الخصائص (٢٢٠/٣) . ورواه أبو داود في " سننه " (١٣) ، ابن ماجة في " سننه " كتاب الزهد (٣٧) وأحمد في " المسند " (٥/١) .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الأذان (١٠) باب (١٢٩) رقم (٨٠٦) انظر الفتح (٢٩٢/٢) ، وأحمد في " المسند " (٢٩٣/٢) . وأورده السيوطي في الخصائص (٢٤٠/٣) .

الحادية عشرة : أنه أول من يفيق من الصعقة :

ذكـــرها الســـيوطي واســـتدل عليها بقوله – صلى الله عليه وسلم – : " ...لا تخيروني على موسى ، فإن الناس يصـــعقون يـــوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى باطش بجانب العرش ، فلا أدري أكان موسى فيمن صَعِق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله عز وجل "(١) .

وقال – صلى الله عليه وسلم – أيضاً : " يصعق الناس حين يصعقون ، فأكون أول من قام... "(٢) الحديث .

الثانية عشرة : أن الله تعالى لم يناده في القرآن الكريم باسمه بل بلقبه :

ذكـــر الســـيوطي أن مـــن خصائصه – عليه الصلاة والسلام – أن الله تعالى لم يخاطبه في القرآن الكريم باسمه المجـــرد بل خاطبه بلقب من ألقابه ، كما قال تعالى يخاطب نبيه ورسوله – صلى الله عليه وسلم – : " يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)(٣) وقال تعالى : (يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال...)(٤) وقال تعالى (يا أيها النـــبي قـــل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم...)(٥) (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم...)(٦) (يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين...)(٧) (يا أيها النبي إنا أرسلناك شـــاهداً ومبشـــراً ونذيـــراً)(٨) (يـــا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك...)(٩)

(يـــا ايها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً)(١٠) (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك...)(١١) (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن...)(١٢) (يـــا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك...)(١٣) وفي خطاب الله تعالى لزوجاته – رضي الله عنهن – لم يقل لهن يا

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٤٣) رقم (٦٥١٧) ، انظر الفتح (٣٦٧/١١) ، ورواه فيكتاب الخصومات (٤٤) باب (١) رقم (٢٤١١) ، (٢٤١٢) الفتح (٧٠/٥) ، وكتاب التوحيد (٩٧) باب (٣١) رقم (٧٤٧٢) الفتح (٤٤٧/١٣) .
– ورواه مسلم – (١٨٤٣/٤–١٨٤٥) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٤٢) ، رقم (١٦٢،١٦١،١٦٠،١٥٩) ، وأبو داود في " سننه " كتاب السنة ، باب (١٣) ورواه أحمد في " المسند " (٢٦٤/٢) ، (٤١/٣) .

(٢) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٤٣) رقم (٦٥١٨) الفتح (٣٦٧/١١) .

(٣) سورة الأنفال الآية (٦٤) .

(٤) سورة الأنفال ، بعض الآية (٦٥) .

(٥) سورة الأنفال ، بعض الآية (٧٠) .

(٦) سورة التوبة ، بعض الآية (٧٣) ، سورة التحريم ، بعض الآية (٩) .

(٧) سورة الأحزاب ، بعض الآية (١) .

(٨) سورة الأحزاب الآية (٤٥) .

(٩) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٥٠) .

(١٠) سورة الأحزاب الآية (٥٩) .

(١١) سورة الممتحنة ، بعض الآية (١٢) .

(١٢) سورة الطلاق ، بعض الآية (١) .

(١٣) سورة التحريم ، بعض الآية (١) .

نساء محمد ، إنما قال تعالى : (يا نساء النبي...)[١] وقال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك...)[٢] وغيـرها ، وقال : (يا أيها المزمل)[٣] ، (يا أيها المدثر)[٤] أما سائر الأنبياء – عليهم السلام – فخاطبهم بأسمائهم دون ألقـابهم كما قال تعالى : (... يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك...)[٥] ، (يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا...)[٦] (يـا آدم اسـكن أنت وزوجك الجنة...)[٧] ، (يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي...)[٨] (...يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك...)[٩] ، (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض...)[١٠] (يا زكريا إنا نبشرك بغلام...)[١١] ، (يا يحي خذ الكتاب بقوة...)[١٢] .

ولا شـك أن خطاب الله تعالى لحبيبه محمد – صلى الله عليه وسلم – بالألقاب الشريفة التي وردت في الآيات ، دون خطابـه باسـمه المجرد ، فيه معنى الإعزاز والتكريم والتشريف ، وإنه لأعظم تشريف وتكريم إن كان من الله تعالى لأحد من خلقه ، ومن هذا تتضح الخصوصية التي اختصه الله تعالى بها .

الثالثة عشرة : تحريم ندائه باسمه على الأمة :

مـن تكـريم الله تعالى لنبيه ورسوله محمد – صلى الله عليه وسلم – أنه حرم تعالى على أمته مناداته باسمه الشريف مجرداً وإذا كان الله تعالى لم يناده باسمه الشريف مجرداً ، تكرماً منه تعالى وتشريفاً فمن باب أولى ألا يناديه أحد من البشر باسمه المجرد بل بلقب من ألقابه الشريفة التي تدل على التعظيم والتوقير .

قال السيوطي : " ومن خصائصه تحريم ندائه باسمه على الأمه بخلاف سائر الأنبياء فإن أممهم كانت تخاطبهم بأسمائهم "[١٣] .

قال الله جل وعلا : (...قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قومٌ تجهلون)[١٤] ، وقال تعالى : (إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين)[١٥] .

أما رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – فقد قال الله تعالى في حقه : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء

---

(١) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٣٢) .
(٢) سورة المائدة ، بعض الآية (٦٧) .
(٣) سورة المزمل الآية (١) .
(٤) سورة المدثر الآية (١) .
(٥) سورة سيدنا هود – عليه السلام – ، بعض الآية (٤٨) .
(٦) سورة الصافات ، بعض الآية (١٠٤) ، بعض الآية (١٠٥) .
(٧) سورة البقرة ، بعض الآية (٣٥) وسورة الأعراف ، بعض الآية (١٩) .
(٨) سورة الأعراف ، بعض الآية (١١٤) .
(٩) سورة المائدة ، بعض الآية (١١٠) .
(١٠) سورة ص ، بعض الآية (٢٦) .
(١١) سورة مريم – عليها السلام – ، بعض الآية (٧) .
(١٢) سورة مريم – عليها السلام – بعض الآية (١٢) .
(١٣) الخصائص الكبرى (١٤١/٣) نقله عن أبي نعيم .
(١٤) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٣٨) .
(١٥) سورة المائدة الآية (١١٢) .

بعضكم بعضاً...)[١] .

فهـذا نهـي منه سبحانه أن ينادوه باسمه أو بكنيته ، كأن يقولوا : يا محمد ، أو يا أبا القاسم ، بل ينادوه بما فيه تشـريف له - صـلى الله عليه وسلم - قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : " كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك إعظاماً لنبيه - صلوات الله وسلامه عليه - قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبي الله "[٢] وهـو قول الضحاك ، وقتادة ، ومقاتل ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن[٣]. وهو أحد الوجهين في تأويل الآية الكريمة . والوجه الثاني : أن معنى الآية : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره فإن دعاءه مستجاب فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا[٤] . حكاه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، والحسن البصري ، وعطية العوفي[٥] ، واختار هذ الوجه ابـن جرير - رحمة الله - ورجح ابن كثير الوجْه الأول وهو الذي أراه راجحاً ، ذلك لأن قول القائل : دعا زيد عمراً ، غير قوله : دعا عليه ، فدعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - مناداته ، بدليل قوله تعالى : (كدعاء بعضكم بعضاً) ولم يقل كدعاء بعضكم على بعض فإذا تعدى الفصل بنفسه كان في معنى النداء ، كقوله ادع فلاناً ، والله تعالى أعلم .

الرابعة عشرة : إقسام الله تعالى بحياته - صلى الله عليه وسلم -:

أقسم الله تعالى في القرآن الكريم بحياة رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - اعتبر السيوطي هذا من خصائصه - عـليه الصلاة والسلام[٦] - قال الله تعالى : (لعمرك إنهم لمن سكرتهم يعمهون)[٧] يقول تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : وحياتك يا محمد ، إن قومك من قريش (...لفي سكرتهم يعمهون)[٢] يقول : لفي ضلالتهم وجهلهم يترددون[٨] ، يقـول ابـن كثير - رحمه الله - : " أقسم تعالى بحياة نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - وفي هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع وجاه عريض "[٩] روى ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : " ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد - صلى الله عليه وسلم - وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره "[١٠]

وروى أيضـاً عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : " ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد - صلى

---

(١) سورة النور ، بعض الآية (٦٣) .
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٩٦/٦) ، وعزاه السيوطي في "الدر المنثور" (٢٣٠/١٨) إلى ابن أبي حاتم وابن مردوية وأبي نعيم في الدلائل .
(٣) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٧/١٨)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٩٦/٦)، والسيوطي الدر المنثور (٢٣١/١٨) .
(٤) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٧٧/١٨)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٩٧/٦).
(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٩٧/٦) .
(٦) انظر : الخصائص (١٣٨/٣) .
(٧) سورة الحجر الآية (٧٢) .
(٨) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٤٤/١٤) .
(٩) تفسير القرآن العظيم (٤٦٠/٤) .
(١٠) جـامع الـبيان (٤٤/١٤) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٦٠/٤) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٢٧/١٠) ، وعزاه السيوطي في "الـدر المنثور" (٨٩/١٤) إلى ابن ابي شيبة ، والحرثِ بن أبي أسامة ، وأبي يعلي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردوية ، وأبي نعيم ، والبيهقي معاني الدلائل ، وفي الخصائص (١٣٨/٣) لابن عساكر .

الله عليه وسلم - قال : وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا (إنهم لفي سكرتهم يعمهون) "[١] ولهذا ذهب المفسرون فقد قالوا : أقسم الله تعالى ها هنا بحياة رسوله ومصطفاه محمد - صلى الله عليه وسلم - تشريفاً له وتكريماً وتعظيماً لشأنه ، وقد حكى القاضي عياض اجماع أهل التفسير على ذلك[٢] ، وأصل كلمة (لعمرك) ضم العين ، من العمر ، ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال ، وفي هذا نهاية التعظيم ، وغاية البر والتشريف[٣] .

الخامسة عشرة : إسلام قرينه من الجن :

ذكر السيوطي أن الله تعالى اختص نبيه - صلى الله عليه وسلم - بإسلام قرينه من الجن[٤]، وذكر في ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم -: " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن " قالوا : وإياك يا رسول الله ، قال : " وإياي . إلا أن الله أعانني عليه فأسلّم . فلا يأمرني إلا بخير "[٥] وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج من عندها ليلاً ، قالت : فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال : " مالك يا عائشة ! أغرتِ ؟ " فقلت : وما لي لايغار مثلي على مثلك ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أقد جاءك شيطانك ؟ " قالت : يا رسول الله أو معي شيطان ؟ قال : " نعم " قلت : ومع كل إنسان ؟ قال : " نعم " قلت : ومعك ؟ يا رسول الله ، قال : " نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم "[٦] .

وقوله - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الأول : " إلا أن الله أعانني عليه فأسلم " وفي الثاني : " حتى اسلم " روى " أسلم " بضم الميم وفتحها ، وهما روايتان مشهورتان فمن رفع قال : معناه أسلمُ أنا من شره وفتنته ، أي يكتب الله لي السلامة من وسوسته بالشر ، ومن فتح الميم قال : إن القرين اسلم ، من الإسلام ، وصار مؤمناً فلا يأمرني إلا بخير .

واختلفوا في الأرجح منهما ، فقال الخطابي : الصحيح المختار الرفع ، ورجح القاضي عياض الفتح واختاره الإمام النووي - رحمه الله - وذلك لقوله - صلى الله عليه وسلم -: " فلا يأمرني إلا بخير "[٧]. واختلفوا على رواية الفتح : قيل : أسلم بمعنى استسلم وانقاد ، وقيل معناه : صار مؤمناً وهذا هو الظاهر . قال القاضي عياض - رحمه الله - " واعلم " أن الأمة مجمعة على عصمة النبي - صلى الله عليه وسلم - من الشيطان وكفايته منه ، لافي جسمه بأنواع الأذى ، ولا على خاطره بالوساوس "[٨] .

ومن فوائد هذا الحديث الإشارة إلى التحذير من فتنة القرين ووسوسته وإغوائه ، فأعلمنا - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) جامع البيان (١٤/٤٤) .

(٢) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٠/٢٧) .

(٣) انظر : السابق نفسه .

(٤) انظر : الخصائص (٣/١٣٩) .

(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (٤/٢١٦٧) كتاب صفة القيامة "كتاب صفات المنافقين وأحكامهم" (٥٠) باب (١٦) رقم {٦٩-(٢٨١٤)} وانظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٨/٥٥٨) ، ورواه أحمد في " مسنده " (١/٣٨٥،٣٩٧،٤٠١،٤٦٠) .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (٤/٢١٦٨) كتاب صفة القيامة من كتاب صفات المنافقين وأحكامهم (٥٠) ، باب (١٦) رقم {٧٠-(٢٨١٥)} .

(٧) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/١٥٨) ، والقاضي عياض : الشفا (٢/٧٣).

(٨) الشفا (٢/٧٣٥) .

بأنه معنا لنحترز منه بحسب الإمكان أما إسلام قرينه – صلى الله عليه وسلم – فهي خصوصية له ، ليست لأحد سواه .

السادسة عشرة : أن الله تعالى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[1]:

قال الله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً)[2] .

نقل السيوطي عن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام أن من خصائصه أنه أخبره الله تعالى بالمغفرة ، ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك ، بل الظاهر أنه لم يخبرهم ، بدليل قولهم في الموقف يوم القيامة نفسي نفسي[3] ، ويدل لذلك أيضاً قول عيسى – عليه السلام – عندما يذهب الناس إليه في موقف القيامة : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا يدل على خصوصيته بذلك قال ابن كثير : " هذا من خصائصه – صلوات الله وسلامه عليه – التي لا يشاركه فيها غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو – صلوات الله وسلامه عليه – في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو أكمل البشر على الإطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة "[4] ، وهذا يؤكد كلام السيوطي في اعتبار ذلك خصوصية له – صلى الله عليه وسلم – .

السابعة عشرة : تحريم نكاح زوجاته من بعده :

قال تعالى : (...وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً)[5] .

قال السيوطي : " ولم يثبت ذلك لأحد من الأنبياء "[6] يعني في تحريم نسائه أن يتزوجن غيره من بعده ، فكان ذلك خصوصية له – صلى الله عليه وسلم – وفي معنى هذه الآية يقول الله عز وجل : وما ينبغي لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً لأنهن أمهاتكم ، ولا يحل للرجل أن يتزوج أمه .

وقد ذكر أن ذلك نزل في رجل كان يدخل قبل الحجاب قيل : هو طلحة بن عبيد الله[7] – رضي الله عنه – ، قال : لئن مات محمد لأتزوجن امرأة من نسائه ، قيل : هي عائشة[3] – رضي الله عنها – فأنزل الله تبارك وتعالى : (...وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً...) الآية[8] .

---

(١) انظر الخصائص (١٦١/٣) .

(٢) سورة الفتح ، الآيتان (١،٢) .

(٣) انظر : الخصائص (١٦١/٣-١٦٢) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣١٠/٧) .

(٥) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٥٣) .

(٦) الخصائص (١٤٤/٣) .

(٧) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٥/٦) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٤٧/١٤) وهذا الكلام لا يليق بصحابي جليل من المبشرين بالجنة وسيأتي نقص هذا الكلام بعد قليل :انظر (ص ٩٠٠) .

(٨) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٤٠/٢٢) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤/٦).

وقـد عـلل السيوطي تحريم نكاح أزواج النبي من بعده – صلى الله عليه وسلم – و – رضي الله عنهم – لأنهن أزواجه في الجنة ولأنهن أمهات المؤمنين وأن في ذلك غضاضة ينزه عنها منصبه الشريف[١] .

وتحصل مما سبق أنه يحرم على أي أحد من الأمة أن ينكح واحدة من زوجات نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وذلك لسببين :

<u>أولهمـا :</u> أنهن أمهات المؤمنين ، بنص القرآن الكريم قال تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم...)[٢] ونكاح الأمهات محرم أيضاً بنص القرآن الكريم قال تعالى : (حرمت عليكم أمهاتكم...)[٣] فهن – رضي الله عنهن – أمهات للمؤمنين بنص كلام الله جل وعلا ، والتحريم بهذا النص أقوى في الحرمة والتعظيم من أمهات النسب ، فإذا حرم نكاح أمهات النسب على أبنائهن فأمهات المؤمنين – رضي الله عنهن – أولى بالتحريم والتعظيم منهن .

<u>الـثاني :</u> أن أزواجه – رضي الله عنهن – هن أزواجه في الجنة وذلك لأنهن لما خيرن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة فكافأهن الله تعالى على ذلك بأن جعلهن زوجات لنبيه في الجنة[٤] .

ولهذين السببين أجمع علماء الأمة قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أزواجه أنه يحرم على غيره أن يتزوجها من بعده – صلى الله عليه وسلم[٥] – .

والخلاف بين العلماء فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين .

ومنشأ هذا الخلاف : أن من طلقها الرسول – صلى الله عليه وسلم – في حياته هل تدخل في عموم قوله تعالى : (...من بعده...) أم لا ؟

فمـن قال بأنها داخلة في هذا العموم ذهب إلى التحريم . فيكون معنى قوله تعالى : (... من بعده ...) أي من بعد فراق لها سواء بالتطليق أم بالموت .

ومـن قال أنها ليست داخلة فيه ذهب إلى الجواز اقتصاراً في التحريم على من فارقها – صلى الله عليه وسلم – بالموت دون التطليق . قال القرطبي – رحمه الله – : " والصحيح جواز ذلك "[٦] أما من تزوجها – صلى الله عليه وسلم – ثـم طلقها قبل أن يدخل بها فيقول الحافظ ابن كثير – رحمه الله – : " فما نعلم في حلها لغيره – والحالة هذه – نزاعاً ، والله أعلم "[٧] .

وقـد اتضـح مـن هذا أن تحريم نكاح زوجاته – صلى الله عليه وسلم – على كل أحد من بعده خصوصية من

---

(١) انظر الخصائص (١٤٥/٣) .

(٢) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٦) .

(٣) سورة النساء ، بعض الآية (٢٣) .

(٤) انظر : الخصائص (١٤٥/٣) حاشية (٢) للمحقق الشيخ هراس .

(٥) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٤٥/٦) .

(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٤٨/١٤) .

(٧) تفسير القرآن العظيم (٤٤٥/٦) .

خصائصـــه تمييـــزاً لشرفه وتنبيهاً على رفيع مرتبته ، وأن من استحل ذلك فهو كافر كما قد نقل عن الإمام الشافعي[١] - رحمه الله - .

وما نقل عن طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - أنه هو الذي قال : لئن مات محمد - صلى الله عليه وسلم - لأتـــزوجن امرأة من نسائه ، فقد نقل القرطبي - رحمه الله - أن ذلك لا يصح عنه وإنما كان ذلك من أحد المنافقين ، وأن الصـــحابة ينزهون عن مثل هذا ، يقول القرطبي : " وحكى مكي عن معمر أنه قال : هو طلحة بن عبيد الله ، قلت : وكذا حـــكى النحاس عن معمر أنه طلحة ، ولا يصح ، قال ابن عطية : لله در ابن عباس ، وهذا عندي لا يصح على طلحة بن عبيد الله ، قال شيخنا أبو العباس : وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله ، والكذب في نقله ، وإنمـــا يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال . يروي أن رجلاً من المنافقين قال : حين تزوج رسول الله - صلى الله عليه وســـلم - أم سلمة بعد أبي سلمة ، وحفصة بعد خنيس بن حذافة ما بال محمد يتزوج نساءنا ! والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت الآية في هذا... "[٢] والحق ما قاله القرطبي - رحمه الله - فإن الصحابة جميعاً - رضي الله عنهم - كانوا ينظرون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نظرة إعظام وإكبار ، وتقدير وإجلال ، ولم يدر بخلد واحد منهم أن يصـــاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشوكة فما دونها فضلاً عن أن يتمنى أحدهم موته ، أو يتربص به ذلك لكي ينكح واحدة من زوجاته ، فهذا لا يليق بأدنى مؤمن ينظر تلك النظرة ، أو تخطر بباله تلك الخطرة ، في حق زوجات إمام من أئمة المسلمين أو خليفة من خلفائهم أو عالم مقدم من علمائهم ، فضلاً عن أن يكون ذلك في حق رسول الله - صلى الله عـــليه وسلم - ونبيه ومصطفاه ، فهو في مقام الأب لجميع المؤمنين ، وزوجاته في منزلة الأمهات لهم ، ولو لم يأت نص كريم يقرر ذلك .

<u>الثامنة عشرة : منزلة الوسيلة في الجنة[٣] :</u>

ثبت له - صلى الله عليه وسلم - هذه الخصوصية بصحيح السنة مغن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رســـول الله - صـــلى الله عليه وسلم - : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صلوا عليّ فإنه من صلـــى عليَّ صلاة صـــلـــى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة "[٤] .

والوسيلة فسرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأنها منزلة في الجنة ، وفسرها أهل اللغة بأنها المنزلة عند المـــلك[٥] وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " أنا هو " خبر كان ، وقع موقع إياه ، وهذا على تقدير أن يكون " أنا " تأكيداً

---

(١) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٤٧) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/١٤٧) .

(٣) السيوطي : الخصائص (٣/٢٤٢) .

(٤) رواه مســـلم فـــي " صـــحيحه " (١/٢٨٨) كتاب الصلاة (٤) باب (٧) رقم {١١-(٣٨٤)} ، ورواه أبو داود في " سننه " كتاب الصلاة (٣٦) ، والترمذي في " سننه " كتاب المناقب (١) والنسائي في " سننه كتاب الأذان (٣٧) ، وأحمد في " المسند " (٢/١٦٨) .

(٥) انظر : لسان العرب (١١/٧٢٤) ، ترتيب القاموس المحيط (٤/٦١٢) .

للضـــمير المستتر في " أكون " ويحتمل أن يكون " أنا " مبتدأ و " هو " خبر ، والجملة خبر " أكون " . وقوله : " حلت له " أي وجبت وقيل نالته[١] .

التاسعة عشرة : أن الله يرضيه في أمته ولا يسوؤه[٢] :

وفـــي ذلك يقول عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – تلا النبي – صلى الله عليه وسلم – قول الله – عز وجل – في إبراهيم : (رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني...) الآية[٣] وقال عيسى – عليه السـلام – : " إن تعذبهـم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم "[٤] فرفع يديه وقال : " اللهم أمتي أمتي " وبـكى فقـال الله – عز وجل – يا جبريل اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل – عليه السـلام – فسـاله ، فأخبره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما قال – وهو أعلم – فقال الله : يا جبريل : اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك "[٥] . وهذا من كرامته على ربه وكريم منزلته عند الله – جل وعلا – .

العشرون : أن الله تعالى أنكحه زينب من فوق سبع سموات :

قـال الله تعالى : (... فلما قضى زيداً منها وطراً زوجناكها ...)[٦] نزلت هذه الآية الكريمة في شأن زينب بنت جحش أم المؤمنين – رضي الله عنها – وكانت قبل أن يتزوجها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحت زيد بن حارثة – رضي الله عنه – وكان قد اتخذه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – له ابناً بالتبني ، وكان العرب يأنفون أن يتزوج الـرجل زوجـة ابـنه بالتبني إذا فارقها ، فأراد الله تعالى أن يبطل هذه العادة الجاهلية ، فأنزل هذه الآية الكريمة بتزويج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بزينب – رضي الله عنها[٧] – .

قـال ابن كثير : " وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله – عز وجل – بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها ، بلا ولي ولا مهر ولا عقد ولا شهود من البشر "[٨] .

وفـي هذا تقول زينب أم المؤمنين – رضي الله عنها – : " زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات "[٩] وفي دخوله – صلى الله عليه وسلم – عليها بغير إذن ولا عقد ولا شهود يقول أنس – رضي الله تعالى عنه – : " لما انقضـت عـدة زينب ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لزيد : " فاذكرها علي "[١٠] قال : فانطلق زيد حتى أتاها

---

(١) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٨٦/٤) .
(٢) انظر : السيوطي : الخصائص الكبرى (٢٣٦/٣) .
(٣) سورة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ، بعض الآية (٣٥) .
(٤) سورة المائدة الآية (١١٨) .
(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (١٩١/١) كتاب الإيمان (١) باب (٨٧) رقم {٣٤٦-(٢٠٢)}.
(٦) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٣٧) .
(٧) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٢٢/١٤) .
(٨) تفسير القرآن العظيم (٤٢٠/٦) .
(٩) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب التوحيد (٩٧) باب (٢٢) رقم (٧٤٢٠) . الفتح (٤٠٣/١٣) .
(١٠) أي : فاخطبها لي من نفسها .

وهي تخمر عجينها[١] . قال : فلما رأيتها عظمت في صدري[٢] . حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذكرها ، فوليتها ظهري ونكصت على عقبي[٣] فقلت : يا زينب ! أرسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يذكرك ، قالت ، ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها[٤] ، ونزل القرآن[٥] ، وجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدخل عليها بغير إذن... "[٦] وظاهر هذا كما قال ابن كثير أنه - صلى الله عليه وسلم - دخل على زينب أم المؤمنين بغير إذن ، وبدون عقد ولا شهود من البشر ولا ولي ، فالذي تولى عقدها وكان ولياً لها وشاهداً على نكاحها هو الله جل وعلا وهو خير الشاهدين وأنعم به تعالى من ولي يتولى الصالحين .

الحادية والعشرون :أن الله أباح له النكاح من وهبت نفسها له :

عد السيوطي من خصائصه - صلى الله عليه وسلم - أن الله تعالى أباح له النكاح بلفظ الهبة ، وبلا مهر ابداءً وانتهاءً[٧] . وشاهد هذا قوله تعالى : (يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي ءاتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللآتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً)[٨] .

يقول ابن كثير في قوله تعالى : (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي...) " أي : ويحل لك - أيها النبي - المرأة المؤمنة إذا وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك ، وهذه الآية توالى فيها شرطان "[٩] وهما قوله تعالى : (إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها...) ونظير هذا في القرآن في آيات عدة منها قوله تعالى إخباراً عن نوح - عليه السلام - أنه قال لقومه : (ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن

---

(١) أي : تجعل في عجينها الخمير .

(٢) قوله : (عظمت في صدري) معناه أنه هابها واستجلها من أجل إرادة النبي - صلى الله عليه وسلم - تزوجها ، فعاملها معاملة من تزوجها - صلى الله عليه وسلم - في الإعظام والإجلاء والمهابة ، وقوله : (أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -) هو بفتح الهمزة من أن أي من أجل ذلك أي : ما أستطيع أن انظر إليها من أجل أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذكرها .

(٣) أي رجعت ، وكان جاء إليها ليخطبها وهو ينظر إليها على ما كان من عادتهم، وهذا قبل نزول الحجاب ، فلما غلب عليه الإجلال تأخر وخطبها وظهره إليها لئلا يسبقه النظر إليها .

(٤) أي : موضع صلاتها من بيتها - رضي الله عنها - .

(٥) أي : نزل قوله تعالى : (فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) فدخل عليها - صلى الله عليه وسلم - بغير إذن لأنها صارت بذلك زوجة له .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (١٠٤٨/٢) كتاب النكاح (١٦) باب (١٥) باب زواج زينب بنت جحش - رضي الله عنها - ، ونزول الحجاب ، واثبات وليمة العرس .

- ورواه النسائي في " سننه " كتاب النكاح (٢٦) . - ورواه أحمد في " مسنده " (١٩٥/٣) .

(٧) الخصائص (٣٠٢/٣) .

(٨) سورة الأحزاب الآية (٥٠) .

(٩) تفسير القرآن العظيم (٤٣٤/٦) .

يغويكـــم...)[١] وقولــه تعالى إخباراً عن موسى أنه قال : (...يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)[٢]

ويدل على خصوصيته – صلى الله عليه وسلم – بمن تهب له نفسها ما ورد عن عكرمة أنه قال في قوه تعالى : (...خالصـــة لـــك مـــن دون المؤمنين...) " أي لا تحل الموهوبة لغيرك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل له حتى يعطيها شيئاً "[٣] .

وكذا قال مجاهد ، وقتادة[٤] ، والشعبي[٥] . وروى نحوه عن إبراهيم النخعي ، وطاووس ، ومكحول والزهري وعطاء[٦] .

وقـــال ابن جرير – رحمه الله – في قوله تعالى : (...قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم...) " يقول تعالى ذكره : قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في أزواجهم إذا أرادوا نكاحهن مما لم نفرضه عليك وما خصصناهم به من الحكم في ذلك دونك ، وهو أنا فرضنا عليهم أنه لا يحل لهم عقد نكاح على حرة مسلمة إلا بولي عصبة وشهود عدول ، ولا يحل لهم منهن أكثر من أربع "[٧] .

وقال ابن كثير – رحمه الله – : " إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب لها عليه مهر مثلها ، كمـــا حكـــم به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في بَرْوَع بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله – صلى الله عـــليه وســـلم – بصـــداق مثلها لما توفى عنها زوجها ، والموت والدخول سواء في تقرير المهر ، وثبوت مهر المثل في المفوضـــة لغير النبي – صلى الله عليه وسلم – فأما هو – عليه السلام – فإنه لا يجب عليه للمفوضة شئ ولو دخل بها ، لأن له أن يـــتزوج بغيـــر صداق ، ولا ولي ، ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش – رضي الله عنها – "[٨] ونقل الرازي عن الشافعي – رحمهما الله – في الآية أن معناها : إباحة الوط بالهبة ، وحصول التزوج بلفظها من خواصك[٩] .

وهذه الأقوال من المفسرين تدل بمقتضى الآية على خصوصية – صلى الله عليه وسلم – بذلك .

وهل كان عنده – صلى الله عليه وسلم – امرأة موهوبة أم لا ؟ على قولين للعلماء :

١- فمنهم من قال : لم تكن عنده – صلى الله عليه وسلم – امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين ، أما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد وهو مروى عن ابن عباس[١٠] – رضي الله عنهما – ومجاهد[١١] .

---

(١) سورة سيدنا هو – عليه السلام – ، بعض الآية (٣٤) .
(٢) سورة سيدنا يونس – عليه السلام – ، بعض الآية (٨٤) .
(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٣٦/٦) .
(٤) انظر : نفسه .
(٥) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٢٢/٢٢) .
(٦) انظر : السيوطي : الدر المنثور (٦٣٠/٢٢) .
(٧) جامع البيان (٢٣/٢٢) .
(٨) تفسير القرآن العظيم (٤٣٦/٦) .
(٩) انظر : التفسير الكبير (٢٢١/٢٥) .
(١٠) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٢٣/٢٢) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٣٦/٦) وعزاه إلى ابن أبي حاتم ، والقرطبي : الجامع (١٤/ ١٣٤) ، وعـــزاه السيوطي في الدر المنثور (٦٣٠/٢٢) إلى الطبراني وابن مردوية والبيهقي في السنن ، وانظر : فتح الباري (٥٢٩/٨) وقال إسناده حسن .
(١١) انظر ابن جرير : جامع البيان (٢٣/٢٢) .

وقال آخرون : بل كان عنده - صلى الله عليه وسلم - منهن ، ثم اختلفوا في تسميتها :

أ- فقيل : هي ميمونة بنت الحارث - رضي الله عنها - وهو قول قتادة ، وروى عن ابن عباس[١] - رضي الله عنهما - وعكرمة[٢] .

ب- وقيل : هي زينب بنت خزيمة الأنصارية - رضي الله عنها - التي كانت تدعى أم المساكين ، وهو قول الشعبي[٣] .

جـ- وقيل : هي أم شريك بنت جابر الأسدية ، وهو قول علي ابن الحسين[٤] ، والضحاك مقاتل[٥] ، وعروة بن الزبير[٦]

د- وقيل : هي خولة بنت حكيم بن أمية بن الأوقص السلمية ، وهو قول عائشة[٧] - رضي الله عنها - وعروة بن الزبير[٨] .

هـ - وقيل : هي فاطمة بنت شريح[٩] .

و- وقيل : هي ليلى بنت قيس بن الخطيم[١٠] .

والذي يظهر لي أنه أصح هذه الأقوال أنها خولة بنت حكيم ، روى ذلك البخاري في صحيحه موصولاً ومعلقاً .

ومن هذا يتضح اختصاص النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذه الخصوصية سواء وقع فعلاً أم لم يقع .

<u>الثانية والعشرون : تزويجه من شاء من النساء بمن شاء من الرجال بغير رضاهن ورضى آبائهن :</u>

عد السيوطي هذا من خصائصه - صلى الله عليه وسلم[١١] - وقد قال تعالى : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم...)[١٢] لأن الله تعالى قد علم شفقة رسوله - صلى الله عليه وسلم - على أمته ، ونصحه لهم فجعله أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وحكمه فيهم مقدماً على اختيارهم لأنفسهم كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر

---

(١) انظر : ابن جرير : جامع البيان (٢٣/٢٢) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٣٥/٦)، وعزاه لسعيد بن أبي عروبة ثم قال : " فيه انقطاع ، هذا مرسل " ، وابن حجر : فتح الباري (٥٢٥/٨) وقال : " وهذا منقطع ، وأورده من وجه آخر مرسل وإسناده ضعيف " وهو يعارض ما نقلناه عن ابن عباس في القول الأول من أنه لم يكن عنده - صلى الله عليه وسلم - امرأة موهوبة .

(٢) انظر : السيوطي : الدر المنثور (٦٣١/٢٢) .

(٣) انظر : جامع البيان (٢٣/٢٢) ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣٥/١٤) ، والسيوطي : الدر المنثور (٦٣٠/٢٢ وانظر: الفتح (٥٢٥/٨) ثم قال : " وليس بثابت " .

(٤) انظر : جامع البيان (٢٣/٢٢) ، والجامع لأحكام القرآن (١٣٥/١٤)، والفتح (٥٢٥/٨) .

(٥) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٣٥/١٤) .

(٦) انظر : السيوطي : الدر المنثور (٦٣١/٢٢) ، والفتح (٥٢٥/٨) .

(٧) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب النكاح (٦٧) باب (٢٩) رقم (٥١١٣) انظر الفتح (١٦٤/٩) ،وكذلك الفتح (٥٢٥/٨) وأشار البخاري إليــه تعليقاً كما قال ابن حجر في الفتح (٥٢٥/٨) وتعليق البخاري في " صحيحه " المشار إليه آنفاً قال : " رواه أبو سعيد المؤدب ، ومحمد بن بشــر ، وعبده ، عن هشام عن أبيه عن عائشة ، يزيد بعضهم على بعض " قال ابن حجر : " أما رواية أبي سعيد واسمه محمد بن مسلم بن ابي الوضاح فوصلها ابن مرودية في التفسير والبيهقي من طريق منصور بن ابي مزاحم عنه مختصراً ... " .

(٨) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٣٥/١٤) .

(٩) انظر : الفتح (٥٢٥/٨) .

(١٠) انظر : الفتح (١٧٥/٩) .

(١١) انظر : الخصائص (٣٠٧/٣) .

(١٢) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٦) .

بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)[١] وقال – صلى الله عليه وسلم – : " ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرأوا إن شئتم : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)[٢] فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه [٤].

وفي تقرير هذا أيضاً يقول الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) [٥].

وفي سبب نزول هذه الآية الكريمة روى المفسرون عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ، فخطبها فقالت : لست بناكحته ، فقال – رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " بل فانكحيه " قالت : يا رسول الله ، أؤامر في نفس ، فبينما هما يتحادثان أنزل الله هذه الآية على رسوله – صلى الله عليه وسلم –: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً...) [٢] الآية ، قالت : قد رضيته لي منكحاً يا رسول الله ؟ قال : " نعم " قالت : إذاً لا أعصي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، قد أنكحته نفسي[٣] فليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا أمر الله عز وجل ورسوله – صلى الله عليه وسلم – بأمر أن يعصياهما أو أن يخالفا أمرهما .

الثالثة والعشرون : وجوب قضاء دين من مات من المسلمين :

كان من شفقته ورحمته – صلى الله عليه وسلم – أنه إذا مات رجل من المسلمين وكان معسراً اجتهد – صلى الله عليه وسلم – في قضاء الدين عنه وعد السيوطي هذه من خصائصه – عليه الصلاة والسلام[٤] – ، فعن جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول : " صبحكم ومساكم " . ويقول : " بعثت أنا والساعة كهاتين " ويَقْـرُن بين أصبعيه السبابة والوسطى ، ويقول : " أما بعد . فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهُدَى هُدَى محمد ، وشرُ الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ثم يقول : " أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالاً فلأهله . ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ "[٥] .

وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " والذي نفس محمد بيده إن على الأرض من مؤمن إلا أن أولى الناس به ، فأيكم ما ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه ، وأيكم ترك مالاً فغلى العصبة من كان "[٦]

---

(١) سورة النساء الآية (٦٥) .

(٤)رواه البخاري في صحيحه "كتاب الإستقراض (٤٣)باب (١١) رقم (٢٣٩٩)، الفتح (٦١/٥) ، ورواه ايضاً في كتاب التفسير ، تفسير سورة الأحزاب (٣٣) باب (١) رقم (٤٧٨١) الفتح (٥١٧/٨) ورواه ابن جرير : انظر جامع البيان (٧٧/٢١) ورواه الإمام احمد في "المسند"(٣/ ٣٣٤)،(٣٣٥/٣) وعزاه السيوطي في" الدر المنثور" (٥٦٦/٢١) مع ما سبق إلى ابن مردوية .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٣٦) .

(٣) ابن جرير : جامع البيان (١١/٢٢) ، ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤١٧/٦) اقرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٢١/١٤) ن فتح الباري (٥٢٤/٨) .

(٤) انظر : الخصائص (٢٥٨/٣) .

(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (٥٩٢/٢) كتاب الجمعة (٧) باب (١٣) رقم {٤٣-(٨٦٧)}.

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (١٢٣٨/٣) كتاب الفرائض (٢٣) باب (٤) رقم (١٥) .

وعـــن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكر أحاديث منها : وقـــال رســـول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أنا أولى الناس بالمؤمنين في كتاب الله عز وجل ، فأيكم ما ترك ديناً أو ضـــيعة فادعوني ، فأنا وليه ، وأيكم ما ترك مالاً فليؤثر بماله عصبة من كان "[١] وعن أبي هريرة أن رسول الله – صلى الله عـــليه وســـلم – كان يؤتي بالرجل الميت عليه الدين ، فيسأل : " هل ترك لدينه من قضاء ؟ " فإن حُدِّث أنه ترك وفاءً صلى عليه ، وإلا قال : " صلوا على صاحبكم " فلما فتح الله عليه الفتوح قال : " أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفى وعليه دين فعليّ قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته "[٢] فصلاته على الميت شفاعة وقد كانوا حريصين على ذلك ، ومن الـــذي لا يحـــرص على دعاء النبي – صلى الله عليه وسلم – له ؟ وهل كانت صلاته على من عليه دين محرمة عليه أو جائزة ؟ وجهان : ولكن الصواب الجزم بجوازها مع وجود الضامن[٣] .

ونقـــل الحافظ ابن حجر عن القرطبي أنه – صلى الله عليه وسلم – ربما كان يمتنع من الصلاة على من استدان ديـــناً غير جائز ، وأما من استدان لأمر هو جائز فما كان يمتنع ، قال ابن حجر " وفيه نظر ، لأن في حديث الباب ما يدل على التعميم حيث قال : (من توفي وعليه دين) ولو كان الحال مختلفاً لبينه "[٤] .

وفيه إشعار بأنه – صلى الله عليه وسلم – كان يقضيه من مال المصالح ، وقيل : بل كان يقضيه من خالص مال نفسه[٥] .

وهل كان قضاء الدين واجباً عليه – صلى الله عليه وسلم – أم لا؟ فقيل كان واجباً ، وقيل كان تبرعاً منه – صلى الله عليه وسلم[٦] – ولكن قوله – صلى الله عليه وسلم – " فعليّ قضاؤه " يشعر بالوجوب ، كقوله تعالى : (...كتب عليكم الصيام...)[٧] ومعناه : عليّ قضاؤه مما يفئ الله عليه من الغنائم والصدقات ، وهكذا يلزم المتولي لأمر المسلمين أن يفعله بمن مات وعليه دين ، فإن لم يفعل فالإثم عليه إن كان حق الميت في بيت المال يفي بقدر ما عليه من الدين وإلا فبقسطه[٨]

ويكـــون معنى كلامه – صلى الله عليه وسلم – في هذا الحديث المتقدم : أنا قائم بمصالحكم حياة أحدكم وموته ، وأنا وليه في الحالين ، فإن كان عليه دين قضيته من عندي إن لم يخلف وفاء وإن كان له مال فهو لورثته لا آخذ منه شيئاً وإن خلف عيالاً محتاجين ضائعين فليأتوا إليّ فعليّ نفقتهم ومؤنتهم[٩] .

---

(١) مسلم (١٢٣٨/٣) نفس الكتاب والباب ، والحديث رقم (١٦) .

(٢) الـــبخاري في " صحيحه " كتاب الكفالة (٣٩) باب (٥) رقم (٢٢٩٨) الفتح (٤٧٨/٤) ، كتاب النفقات (٦٩) باب (١٥) رقم (٥٣٧١) الفتح (٩/ ٥١٥) ، كـــتاب الاستقراض (٤٣) باب (١١) رقم (٢٣٩٩) الفتح (٦١/٥) ، كتاب التفسير ، سورة الأحزاب (٣٣) باب (١) رقم (٤٧٨١) الفتح (٥١٧/٨)، كتاب الفرائض (٨٥) باب (٤) رقم (٦٧٣١) الفتح (٩/١٢) .

ومسلم في " صحيحه " (١٢٣٧/٣) كتاب الفرائض (٢٣) باب (٤) رقم {١٤-(١٦١٩)} .

(٣) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٦٠/١١) ، وابن حجر : الفتح (٤٧٨/٤) .

(٤) التفح (٤٨٧/٤) .

(٥) انظر : النووي شرح مسلم (٢٦٠/١١) ، الفتح (٤٧٨/٤) .

(٦) انظر : النووي : شرح مسلم (٦٠/١١) ، التفح (٤٧٨/٤) .

(٧) سورة البقرة ، بعض الآية (١٨٣) .

(٨) انظر : ابن حجر : التفح (٤٧٨/٤) . نقله عن ابن بطال ، مقتضى هذا الكلام أنه ليس خصوصية له –صلى الله عليه وسلم – وإنما هوتشريع .

(٩) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٦٠،٦١/١١) .

ويتضح من هذا أنه خصوصية من خصائصه - صلى الله عليه وسلم - .

الرابعة والعشرون : تحريم الصدقة والزكاة عليه :

ذهـب السـيوطي إلى اختصاصه - صلى الله عليه وسلم - بتحريم الزكاة والصدقة عليه وعلى آله وعلى مواليه وموالـي آلـه[١] . وذلـك لما روى مسلم عن المطلب بن ربيعة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس ، وإنها تحل لمحمد ولا لآل محمد "[٢] .

وعـن ابـن عـباس - رضي الله عنهما - قال : استعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - الأرقم الزهري على السعاية[٣] ، فاستتبع أبا رافع[٤] مولى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : " يا أبا رافع إن الصدقة حرام على محمد وعلى آل محمد "[٥]

وعن المطلب بن ربيعة بن الحارث قال : جئت أنا والفضل ابن العباس فقلنا : يا رسول الله جئنا لتؤمرنا على هذه الصـدقات ، فسـكت ورفـع رأسه إلى سقف البيت حتى أردنا أن نكلمه ، فأشارت إلينا زينب من وراء حجابها تنهانا عن كلامه ، وأقبل فقال : " إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد وإنما هي أوساخ الناس "[٦] .

فـلما كـانت الصدقة أوساخ الناس اختصه الله تعالى بتنزيه منصبه الشريف عن ذلك فحرمها عليه ، وانجر ذلك التحريم إلى آله بسببه ، قال أبو هريرة - رضي الله عنه - : أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة ، فجعلها في فيه ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كَخ كَخ[٧] . ارم بها أما علمت أنا لا نأكل الصدقة[٨] ؟ " ، وفي رواية " لا تحل لنا الصدقة ؟ "[٩] .

وأيضـاً فالصـدقة تعـطى على سبيل الترحم المبني على ذل الآخذ ، فأبدلوا عنها بالغنيمة المأخوذة بطريق العز والشرف المنبئ عن عز الآخذ وذل الماخذ منه . فكان ذلك اختصاصاً به - صلى الله عليه وسلم - وهل شاركه فيه سائر الأنبياء أم اختص به دونهم ؟ وجهان عند علماء السلف : فقال بالأول الحسن البصري - رحمه الله - وبالثاني : سفيان ابن

---

(١) انظر : الخصائص (٣/٣٦٥) .

(٢) مسلم في "صحيحه" (٢/٧٥٤) كتاب الزكاة (١٢) باب (٥١) رقم (١٦٨) وأبو داود في "سننه" كتاب الإمارة (٢٠) ، والنسائي في " سننه " كتاب الزكاة (٩٥) ، وكتاب الفئ (١٥) ، ومالك في "الموطأ" كتاب الصدقة (١٣)، (١٥) ، أحمد في " المسند " (٣/٢٠٢) ، (٤/١٦٦) .

(٣) يعني جمع الصدقات .

(٤) قال في المعارف : " واسمه اسلم أجمعوا على ذلك ، واختلف في قصته فقال بعضهم : كان للعباس بن عبدالمطلب فوهبه للنبي - صلى الله عليه وسـلم - . فلما اسلم العباس بشر أبو رافع النبي - صلى الله عليه وسلم - بإسلامه فأعتقه وزوجه سلمى مولاته فولدت له عبيد الله بن أبي رافع فلم يزل ، كاتباً لعلي بن أبي طالب خلافته كلها ، وقال آخرون كان لسعيد بن العاص إلا سهماً من سهام فأعتقه واشترى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك السهم فأعتقه .

(٥) عزاه السيوطي في الخصائص (٣/٢٦٥) إلى الطبراني من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - .

(٦) مسلم في " صحيحه " (٢/٧٥٣) كتاب الزكاة (١٢) باب (٥١) رقم (١٦٧) .

(٧) "كخ كخ" قال القاضي : يقال : كخ كخ ، بفتح الكاف وتسكين الخاء ويجوز كسرها مع التنوين، وهي كلمة يزجر بها الصبيان عن المستقذرات ، فيقال له : كخ . أي أتركه وارم به.

(٨) " أمـا عـلمت أنا لا نأكل الصدقة " تقال هذه العبارة في الشئ الواضح التحريم ونحوه ، وإن لم يكن المخاطب عالماً به وتقديره : عجب ! كيف خفى عليك هذا مع ظهور تحريمه ، وهذا أبلغ في الزجر عنه من قوله : لا تفعله .

(٩) مسلم في " صحيحه " (٢/٧٥١) كتاب الزكاة (١٢) باب (٥٠) رقم {١٦١-(١٠٦٩)} .

عيينة – رحمه الله[١] – ورجح بعضهم القول الأول لأن الصدقة إذا كانت أوساخ الناس وكانت تقتضي ذل آخذها ، وأن اليد العـــليا خير من اليد السفلى ، فلا شك أنه يجب تنزيه الأنبياء عما يغض من أقدارهم الشريفة ويكون فيه نوع مهانة لهم[٢] . وعـــلى هـــذا القول فلا خصوصية له – صلى الله عليه وسلم – وعلى القول الثاني فالخصوصية ثابتة والزكاة المفروضة وصدقة التطوع بالنسبة إليه – صلى الله عليه وسلم – سواء في التحريم .

وأمـــا آله – صلى الله عليه وسلم – فمذهب الشافعية أنه لا يحرم عليهم سوى الزكاة ، وأما صدقة التطوع فتحل لهم في الأصح .

وفي وجه آخر : عند الشافعية وهو مذهب المالكية أنها تحرم عليهم أيضاً .

وفي وجه ثالث : تحرم عليهم الصدقة الخاصة دون الصدقة العامة كالمساجد ومياه الآبار ونحوها[٣] .

قـــال العلامـــة ابـــن قدامة – رحمه الله – : " لا نعلم خلافاً في أن بني هاشم لا تحل لهم الصدقة المفروضة ... وسواء أعطوا من خُمس الخَمس أو لم يعطوا لعموم النصوص ، ولأن منعهم من الزكاة لشرفهم ، وشرفهم باق فيبقى المنع ، فـــإن أعطوا منها لغزو أو حمالة جاز ذلك ... وإن كان الهاشمي عاملاً أو غارماً لم يجزئه الأخذ في أظهر الوجهين... وحكـــم مواليهم حكمهم عند أحمد – رحمه الله – وقال أكثر أهل العلم : يجوز الدفع إليهم لأنهم ليسوا بقرابة النبي – صلى الله عليه وسلم – فلم يمنعوا الصدقة كسائر الناس "[٤] ثم رجح ابن قدامة القول بتحريم الصدقة على مواليهم واستدل بحديث أبي رافع المتقدم . وقال إن الموالي هم بمنزلة القرابة ، "ويثبت فيهم حكم القرابة من الإرث والعقل والنفقة فلا يمتنع ثبوت حكـــم تحريم الصدقة فيهم "[٥] وقرر ابن قدامة جواز صدقة التطوع على بني هاشم ، ونقل عن الإمام أحمد – رحمه الله – قوله : " إنما لا يعطون من الصدقة المفروضة فأما التطوع فلا "[٦] .

ثـــم قـــال ابـــن قدامة : " فأما النبي – صلى الله عليه وسلم – فالظاهر أن الصدقة جميعها كانت محرمة عليه ، فرضـــها ونفـــلها ، لأن اجتنابها كان من دلائل نبوته ، فلم يكن ليحل له ذلك[٧] ، بدليل أن في حديث[٨] سلمان الفارسي أن الـــذي أخبره عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ووصفه له قال : إنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة[٩] . وقال أبو هريرة : كـــان النبي – صلى الله عليه وسلم – إذا أتى بطعام سال عنه ، فإن قيل : صدقة ، قال لأصحابه " كلوا " ولم يأكل ، وإن

---

(١) انظر : الخصائص (٣/٢٦٧) .

(٢) نفسه ، حاشية المحقق الشيخ محمد خليل هراس (١) .

(٣) انظر : الخصائص (٣/٢٦٧) .

(٤) المغني من الشرح الكبير (٢/٧١٠-٧١١) .

(٥) نفسه (٢/٧١١) .

(٦) نفسه .

(٧) المغني (٢/٧١٢) .

(٨) هكذا العبارة في المغني .

(٩) رواه ابـــن هشام في السيرة النبوية (١/٢١٤) عن محمد بن اسحاق بسنده إلى عبدالله بن عباس عن سلمان – رضي الله عنهم – وموضع الشاهد أنه لا يأكل الصدقة ويأكل الهدية (١/٢١٨) .

قيل هدية ضرب بيديه وأكل معهم[١] .

الخامسة والعشرون : إباحة القتال له بمكة المكرمة :

عد السيوطي من خصائصه - صلى الله عليه وسلم - أن الله تعالى أباح له القتال بمكة والقتل بها[٢] .

قال تعالى : (لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهذا البلد)[٣] فقوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد) قسم من الله - عز وجل - بمكة المكرمة أم القرى[٤] . يقول تعالى ذكره : أقسم يا محمد بهذا البلد الحرام وهو مكة[٥] وقوله تعالى : (وأنت حل بهذا البلد)[٦] يقول جل ثناؤه : لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - وأنت يا محمد حل بهذا البلد يعني بمكة ، يقول : أنت به حلال تصنع فيه مِنْ قتلِ مَنْ أردت قتله ، وأسْرِ من أردت أسره ، مطلق ذلك لك[٧] .

وأورد المفسرون تحت تفسير هذه الآية الكريمة بعض الأحاديث والآثار التي تدل على إباحة القتال للنبي - صلى الله عليه وسلم - بمكة ، فعن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخل مكة عام الفتح وعلى رأسه المغفر ، فلما نزعه جاء رجل فقال : إن ابن خطل[٨] متعلق بأستار الكعبة ، فقال : " اقتلوه "[٩] وعن أبي شريح العدوي قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول يوم الفتح : " إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفكَ بها دماً ، ولا يَعضدَ بها شجرة[١٠] ، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيها فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، ثم عادت

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الهبة (٥١) باب (٧) رقم (٢٥٧٦) الفتح (٢٠٣/٥)، والنسائي في " سننه " كتاب الزكاة (٩٨) ، أحمد في " المسند " (٥/٥) .

(٢) انظر : الخصائص (٢٩٠/٣) .

(٣) سورة البلد ، الآيتان (١،٢) .

(٤) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤٢٤/٨) .

(٥) انظر : ابن جرير : جامع البيان (١٩٣/٣٠) .

(٦) سورة البلد الآية (٢) .

(٧) جامع البيان (١٩٣/٣٠) .

(٨) هو : عبدالعزي بن خطل ، وقيل عبدالله بن خطل ، وقيل هلال بن خطل ، وقيل : غالب بن عبدالله بن خطل ، وقيل : عبدالله بن هلال بن خطل . وقيل : كان اسمه عبدالعزي فلما أسلم سمي عبدالله ، وأما من قال هلال فالتبس عليه بأخ له اسمه هلال ، بين ذلك الكلبي في النسب ، واسم خطل عبدمناف من بني تيم بن فهر بن غالب ، وإنما أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مصدقاً ، وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى يخدمه وكان مسلماً ، فنزل منزلاً ، فأمر المولى أن يذبح تيساً ويصنع طعاماً ، فنام واستيقظ ولم يصنع شيئاً ، فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً ، وكانت له قينتان تغنيان بهجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فكان من الذين أهدر الرسول - صلى الله عليه وسلم - دماءهم يوم الفتح، انظر : فتح الباري (٦٠/٤-٦١).

(٩) البخاري في " صحيحه " كتاب جزاء الصيد (٢٨) باب (١٨) رقم (١٨٤٦) ، الفتح (٥٩/٤) ، كتاب الجهاد (٥٦) باب (١٦٩) رقم (٣٠٤٤) الفتح (١٦٥/٦) ، كتاب الغازي (٦٤) باب (٤٨) رقم (٤٢٨٦) الفتح (١٥/٨) ، كتاب اللباس (٧٧) باب (١٧) رقم (٥٨٠٨) الفتح (٢٧٥/١٠) .

ومسلم في " صحيحه " (٩٨٩/٢) كتاب الحج (١٥) باب (٨٤) رقم (٤٥٠) . وأبو داود في " سننه " كتاب الجهاد (١١٧) ، والترمذي - كتاب الجهاد (١٨) ، والنسائي كتاب المناسك (١٠٧) ابن ماجة كتاب الجهاد (١٨) والدارمي - كتاب المناسك (٨٨) ، وأحمد (١٨٦/٣، ١٨٠، ١٦٤، ١٠٩، ٢٤٠، ٢٣٢، ٢٣١، ٢٢٤) .

(١٠) "يعضد" بكسر الضاد وفتح الدال أي : يقطع بالمعضد وهو آلة كالفاس .

حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، وليبلغ الشاهد الغائب "[١] ففي هذا دليل على خصوصيته – صلى الله عليه وسلم – بجواز القتال في مكة ، وأن الله تعالى أحل له القتال فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها كما كانت .

السادس والعشرون : الكذب عليه السلام كالكذب على غيره[٢] :

ورد وعيـد شـديد لمن يتعمد الكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إمام الأمة المبلغ عن ربه – جل وعلا – لما يترتب عليه من المفاسد العظيمة ، منها اضطراب التشريع وفشو البدع وتعطيل الأحكام ، الزيادة في الدين بما لم يأذن به الله تعالى ، ولخطورة ذلك قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن كذباً عليّ ليس ككذبٍ على أحد فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار "[٣] وفي الحديث ترهيب من الكذب عليه – صلى الله عليه وسلم – هو عام في كل كاذب ، مطلق في كل نوع من الكذب ، قال ابن حجر : " وقد اغتر قوم من الجهلة فوضعوا أحاديث في الترغيب والترهيب ، وقـالوا : نحـن لـم نكذب عليه ، بل فعلنا ذلك لتأييد شريعته ، وما دروا أن تقويله – صلى الله عليه وسلم – ما لم يقل يقتضي الكذب على الله تعالى ، لأنه إثبات حكم من الأحكام الشرعية سواء كان في الإيجاب أو الندب ، وكذا مقابلهما وهو الحرام والمكروه "[٤] فظن هؤلاء أن الكذب لتأييد شريعته هو كذب له وليس كذباً عليه ، وهو جهل باللغة كما قال ابن حجر ، وسـاء كـان الكذب له أم كان عليه فهو كذب داخل في هذا الوعيد ، فالكذب له كالكذب عليه – إن صح التعبير بذلك – يقـول الحـافظ ابن حجر : " ولا يعتد بمن خالف ذلك من الكرامية حيث جوزوا وضع الكذب في الترغيب والترهيب في تثبيت ما ورد في القرآن والسنة واحتج بأنه كذب له لا عليه ، وهو جهل باللغة العربية "[٥] .

وقـد ذكـر السيوطي جملة من الخصائص الأخرى كوجوب محبته – صلى الله عليه وسلم – ومحبة أهل بيته وأصحابه[٦] وأنه – صلى الله عليه وسلم – يوعك كما يوعك الرجلان من أمته[١] ، وأن أمته يبعثون غراً محجلين من آثار

---

(١) البخاري في " صحيحه " كتاب العلم (٣) وباب (٣٧) رقم (١٠٤) ، الفتح (١٩٧/١) ، وكتاب جزاء الصيد (٢٨) باب (٨) رقم (١٨٣٢) الفتح (٤١/٤) ، كتاب المغازي (٦٤) باب (٥١) رقم (٤٢٩٥) الفتح (٣٠/٨) . ومسلم في " صحيحه " (٩٨٧/٢) كتاب الحج (١٥) باب (٨٢) رقم (٤٤٦) ، والترمذي في " سننه " كتاب الحج (١) والنسائي في كتاب المناسك (١١١) وأحمد (٣١،٣٢/٤) .

(٢) انظر : الخصائص (٣٢٦/٣) .

(٣) مـتفق عـليه : رواه الـبخاري فـي " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٣٣) الفتح (١٦٠/٣) ، كتاب العلم (٣) باب (٣٨) رقم (١٠٦،١٠٧،١٠٨،١٠٩،١١٠) الفـتح (١٩٩/١-٢٠٢)، كـتاب أحـاديث الأنبياء (٦٠) باب (٥٠) رقم (٣٤٦١) الفتح (٤٩٦/٦) كتاب أحاديث الأنبياء (٦٠) باب (٥٠) رقم (٣٤٦١) الفتح (٤٩٦/٦) ، كتاب الأدب (٧٨) باب (١٠٩) رقم (٦١٩٧) الفتح (٥٧٧/٦) . ومسـلم في " صحيحه " (٢٢٩٨/٤) كتاب الزهد والرقائق (٥٣) باب (١٦) رقم {٧٢-(٣٠٠٤)} . وأبو داود – كتاب العلم (٤) ، والترمذي – كـتاب الفتن (٧٠) وكتاب العلم (٨،١٣) والتفسير (١) والمناقب (١٩) وابن ماجة – المقدمة (٤) والدارمي – المقدمة (٢٥،٤٦) ، وأحمد (٢/ ٤٧،٨٣،١٢٣،١٥٠،١٥٩،١٧١،٢٠٢،٢١٤،٤١٣،٤٦٩،٥١٩) ، (٣/ ١٣،٣٩،٤٤،٤٦،٥٦،٩٨،١١٣،١١٦،١٦٦،١٦٧،١٧٦،٢٠٣،٢٠٩،٢٢٣،٢٧٨،٢٨٠،٣٠٣،٤٢٢) (٣٦٧/٤،٢٠١،١٥٦،١٠٠،٤٧) ، (٤١٢/٥،٢٩٢،٢٤٥)

(٤) فتح الباري (١٩٩/١-٢٠٠) .

(٥) نفسه (٢٠٠/١) .

(٦) قال تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) التوبة (٢٤) . وأخرج الشيخان عن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين " .
وأخرجا أيضاً من حديث أنس – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار "

الوضـــوء[٢] ، وأنـــه يدخل من أمته سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب[٣] ، وكذلك اختصاصه - صلى الله عليه وسلم - وأمـــته بالصـــلاة في النعال ، وأن الميت يسأل عنه في قبره ، وأن أمته خير الأمم ، وأن الله تعالى قد تجاوز عنها الخطأ والنسيان[٤] . وأن أمته لا تهلك بجوع ولا بفرق[٥] . وأن الطاعون لأمته رحمة[٦] . وأن أمته أقل الأمم عملاً وأكثرها أجراً من سائر الأمم[٧] . وأنه لا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى وهم على ذلك[٨] . وذكر السيوطي كذلك جملة أخرى من الخصائص التي يضعف دليلها عن النهوض بها ، أو بعض الخصـــائص التي في استنباطها بعض التكلف . وعلى كل حال فمصنف السيوطي في الخصائص المحمدية مصنف جيد في بابـــه لولا ما فيه من بعض الحشو والتكلف والروايات الضعيفة ، وقد اقتصرت فيما بينته من خصائصه - صلى الله عليه وســـلم - على ما صح مما نقله السيوطي في مصنفه ، وتركت غيره لأنه لا حاجة بالمسلم لأن يتكلف تصحيح ما لم يصح من النصوص الشرعية ، وفي الصحيح غنية وكفاية والله أعلم .

---

(١) انظر الخصائص (٣٧٩/٣).

(٢) انظر : صحيح البخاري رقم (١٣٦) فتح (٢٣٥/١) .

(٣) انظـــر : الخصـــائص الكبرى (٢٤٩/٣) . وأخرج الشيخان عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : خرج إلينا رسول الله - صلى الله عليه وســـلم - ذات يـــوم فقال : " عرضت عليّ الأمم يمر على النبي معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد ، والنبي معه الرهط فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن تكون هذا أمتي فقيل لي : هذا موسى وقومه ثم قيل : انظر فرأيت سواداً كثيراً قد سد الأفق فقيل لي : انظر هكذا أو هكذا فرأيت سواداً كثيراً فقيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب " .

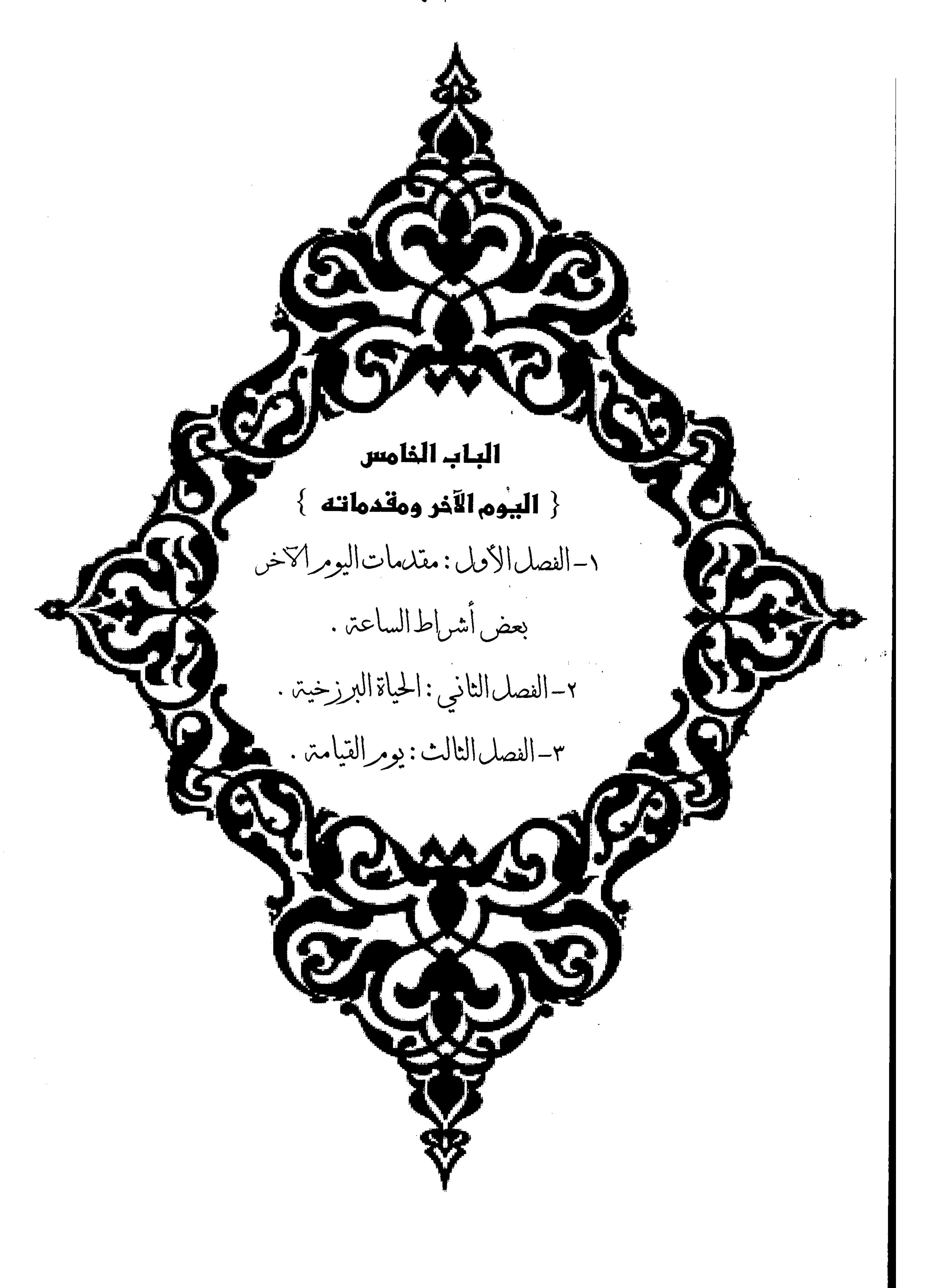
(٤) انظر : الخصائص (٢٠٢/٣) ، و صحيح مسلم (١١٦/١) م رقم (١٢٧).

(٥) انظر : أنظر ا لخصائص (٢٠٩/٣) ،وصحيح مسلم (٢٢١٠/٤) ح رقم (٢٨٨٩).

(٦) انظر : الخصائص (٢١٢/٣) .وصحيح مسلم البخاري (٣٤٧٣) فتح (٥١٣/٦).

(٧) انظر : الخصائص (٢١٧/٣) . وصحح البخاري م رقم (٥٥٧) فتح (٣٨/٢) .

(٨) انظر الخصائص (٢١٣/٣) ،وصحيح البخاري ح رقم (٧٣١١) فتح ٢٩٣/١٣) .



الباب الخامس

{ اليوم الآخر ومقدماته }

الفصل الأول :

مقدمات اليوم الآخر

بعض أشراط الساعة

تمهيد :

الشـــرط : بالـــتحريك ، هـــو العلامة ، جمعه أشراط . وأشراط الشئ : أوائله : ومنه شُرَط السلطان ، وهم نخبة أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من جنده ، ومنه الاشتراط الذي يشترطه الناس بعضهم على بعض . فالشرط علامة على المشروط(١) .

معنى الساعة : في اللغة : هي جزء من أجزاء الليل أو النهار ، جمعها: ساعات وساع .

فـــي الاصطلاح : هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة ، وسميت بالساعة لسرعة الحساب فيها ، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة ، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة (٢) .

فأشـــراط الساعة : هي علامات القيامة التي تسبقها وتدل على قربها ، وقيل هي ما ينكره الناس من صغار أمورها قبل أن تقوم الساعة ، وقيل هي أسبابها التي هي دون معظمها وقيامها(٣) .

والساعة تطلق على ثلاثة معان :

١- الساعة الصغرى : وهي موت الإنسان ، فمن مات فقد حضرت ساعته أو قامت قيامته لانتقاله عن الدار الدنيا .

٢- الســـاعة الوســـطى : وهـــي مـــوت أهل القرن الواحد ، قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنه - الله عنها : كان الأعـــراب إذا قدموا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سألوه عن الساعة ، فنظر إلى أحدث إنسان منهم ، فقال : " إن يعش هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم "(٤) . والمراد منه ساعة المخاطبين(٥) .

٣- الساعة الكبرى : وهي بعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء .

وإذا أطـــلقت الساعة في القرآن الكرم فالمراد بها القيامة الكبرى قال تعالى : (يسألك الناس عن الساعة ...)(٦) أي : القيامة . وقال تعالى : (اقتربت الساعة وانشق القمر)(٧) . أي : اقتربت القيامة .

وقـــد تذكـــر القيامة الصغرى كما في قوله تعالى : (فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تشعرون)(٨) .

---

(١) انظر : النهاية (٤٦٠/٢) ، لسان العرب (٣٢٩/٧-٣٣٠) .

(٢) انظر : النهاية (٤٢٢/٢) واللسان (١٦٩/٨) ، وترتيب القاموس المحيط (٦٤٧/٢) .

(٣) انظر : النهاية (٤٦٠/٢) ، واللسان (٣٢٩/٧-٣٣٠) .

(٤) رواه البخاري في " صحيحه " ح رقم (٦٥١١) الفتح (٣٦١/١١) ، ورواه مسلم في " صحيحه " .

(٥) انظر : الفتح (٣٦٣/١١) .

(٦) سورة الأحزاب ، بعض الآية (٦٣) .

(٧) سورة القمر ، الآية (١) .

(٨) سورة الواقعة ، الآيات (٨٣-٨٥) .

وقوله جل وعلا : (فلولا إذا بلغت التراقي)[١] .

والذي نحن بصدده إن شاء الله تعالى هو القيامة الكبرى التي بينها القرآن الكريم والسنة المطهرة[٢] .

تناول السيوطي الكلام عن بعض أشراط الساعة في مواضع من بعض مصنفاته فذكر أن الناس قد يستخف بعضهم بيوم القيامة ويستبعد وقوعه فعند قوله تعالى : (يسال أيان يوم القيامة)[٣] قال : " أي يسال الإنسان على وجه الاستخفاف والاستهزاء متى يوم القيامة ؟ وهذا لجهله إما على أن من مات فقد قامت قيامته ، وهو يشاهد الموت بغتة ، فكيف يستبعدها ، وليس اخبر كالمعاينة ، لكن الجاهل أعمى ، ولا يقال لهذا جاهل بل هو أحمق "[٤] .

يقول ابن كثير - رحمه الله - : " وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده "[٥] كما قال تعالى : (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون)[٦] .

وقد ذكر الله - جل وعلا - في كتابه ما يبين قدرته - جل وعلا - على إقامة الساعة وكأنه رد على هذا الإنسان الذي سأل سؤال استبعاد لوقوع ذلك اليوم ، قال تعالى : (...وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب...)[٧] يقول السيوطي : " بيان لقدرة الله تعالى على إقامتها ، وأن ذلك يسير عليه "[٨] . كقوله تعالى : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة)[٩] .

ثم يتناول السيوطي الكلام على أشراط الساعة فيذكر عند قوله تعالى : (...فقد جاء أشراطها...)[١٠] يقول : " يعني علامات الساعة ، والذي جاء من ذلك مبعثه - صلى الله عليه وسلم - لقوله : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وقرن بين أصبعيه الوسطى والتي تليها[١١] .

وقد أخبر أن لها دلائل منها : ظهور الفتن ، وكثرة المعاصي والحرص على الدنيا ، والتنافس عليها ، وتوسيد الأمر لغير أهله ، فحينئذ يظهر الدجال ، ويأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها ، وتفصيل هذا كله يحتاج لطول نفس ، لكنهم اختلفوا في أول الآيات ظهوراً ، وذلك يتوقف على صحة نقل ، وظهور المهدي والدجال بعده ، وعيسى بعده ، ويعلم الله ما بعد ، ويعلم الله ما بعد ذلك ، والصحيح أنها كالخرز ، إذا ظهرت واحدة تبعتها أختها "[١٢] .

---

(١) سورة القيامة ، الآية (٢٦) .

(٢) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٢٦٣/٤-٢٦٥) ، فتح الباري (٣٦٤/١١) .

(٣) سورة القيامة ، الآية (٦) .

(٤) معترك الأقران (٤٣٨/٣) .

(٥) تفسير القرآن العظيم (٣٠١/٨) .

(٦) سورة سبأ ، الآيتان (٢٩،٣٠) .

(٧) سورة النحل ، بعض الآية (٧٧) .

(٨) معترك الأقران (٣٥٣/٢) .

(٩) سورة لقمان ، الاية (٢٨) .

(١٠) سورة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بعض الآية (١٨) .

(١١) البخاري في " صحيحه " رقم (٦٥٠٣) ، (٦٥٠٤) ، (٦٥٠٥) الأولى عن سهل بن سعد ، والثاني عن أنس ، والثالث عن أبي هريرة - رضي الله عنهم - الفتح (٣٤٧/١١) .

(١٢) معترك الأقران (١٠١/٣) .

وقد ذكر السيوطي بعض العلامات في أواخر أرجوزته التي سماها " تحفة المهتدين بأسماء المجددين " قال :

" وآخر المئين فيها يأتي — عيسى نبي الله ذو الآيـــات
يجدد الدين لهـــذى الأمة — وفي الصلاة بعضنا قد أمَّه
مقرراً لشرعنا ويحكـــــم — بحكمنا إذ في السماء يعلمُ
وبعده لم يبق من مجدد — ويُرفع القرآن مثل ما بدى
وتكثر الأشرار والإضاعة — من رفعه إلى قيام الساعة "[١]

ومـــن هذه النصوص يمكننا أن نستخرج بعض أشراط الساعة التي ذكرها السيوطي فيها لكي نتناولها – بإذن الله تعالى – بشئ من البيان والتوضيح .

وهـــذه العلامات التي ذكرها السيوطي بعضها يدخل تحت أشراط الساعة الصغرى ، وبعضها الآخر يدخل تحت القسم الثاني ، وهو العلامات الكبرى .

- فالعلامات التي هي ضمن العلامات الصغرى التي ذكرها السيوطي هي :

١- بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – . ٢- ظهور الفتن .
٣- كثرة المعاصي وكثرة الأشرار . ٤- توسيد الأمر إلى غير أهله .
٥- الحرص على الدنيا والتنافس فيها . ٦- رفع القرآن وقبض العلم .

- وأما التي تندرج ضمن العلامات الكبرى فهي :

١- ظهور المهدي المنتظر . ٢- ظهور المسيح الدجال .
٢- نزول المسيح عيسى بن مريم – عليه السلام – . ٤- ظهور يأجوج ومأجوج .٥- طلوع الشمس من مغربها .
٦- ظهور الدابة .

وسأتناول – إن شاء الله تعالى – كل واحدة منها بشئ من التوضيح.

المبحث الأول

العلامات الصغرى

الأولى : بعثة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – :

ذكرها السيوطي عند قوله تعالى : (...فقد جاء أشراطها...)[٢]

فقـــال : " يعني علامات الساعة والذي جاء منها مبعثه – صلى الله عليه وسلم – لأنه قال : " بعثت أنا والساعة كهاتين "[٣] ويشير بإصبعيه فيمدهما ، يعني الوسطى والسبابة كما هو موضح في الأحاديث .

---

(١) التنبئه بمن يبعثه الله على رأس كل مئة " (ص٧٥) ت. عبدالحميد شانوحة – دار الثقة – مكة المكرمة ١٤١٠هـ–١٩٩٠م .
(٢) سورة سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – بعض الآية (١٨) .
(٣) البخاري في " صحيحه " ح رقم (٦٥٠٣) ، وانظر : معترك الأقران (١٠١/٣) .

وكون مبعثه – صلى الله عليه وسلم – أول اشراط الساعة لأنه النبي الأخير الذي ختم به النبيون أجمعون فلا نبي بعـده بينه وبين قيام الساعة ، فقيام الساعة تليه كما يلي السبابة الوسطى وليس بينهما إصبع ، أو كما يفضل أحدهما الآخر فـي الطـول[١] يؤيده قوله – صلى الله عليه وسلم – : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار أبو داود بالسبابة والوسطى فما فضل إحداهما على الأخرى[٢] وورد عن قتادة مثله[٣] .

الثانية : ظهور الفتن :[٤] الفتن جمع فتنة ، وهي الابتلاء والاختبار ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إلى المكروه ، كالإثم والكفر والقتل والتحريق وغير ذلك من الأمور المكروهة[٥] .

وقد أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – أن بين يدي الساعة تظهر الفتن التي تزلزل الإيمان ، ويلتبس فيها الحق بالـباطل ، ويصبح الحليم فيها حيران ، كلما ظهرت فتنة قال المؤمن هذه مهلكتي ، ولا تزال الفتن تظهر وتتتابع في الناس حتى تقوم الساعة .

١- قال – صلى الله عليه وسلم – : " إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمســي مؤمناً ويصبح كافراً ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشي ، والماشي فيها خير من الساعي . فكسّروا قسيكم ، وقطعوا أوتاركم ، واضربوا بسيوفكم الحجارة . فإن دُخل على أحدكم فليكن كخير ابني آدم "[٦] .

٢- وقـال – صلى الله عليه وسلم – : " بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً . يبيع دينه بعرض من الدنيا "[٧] .

وأخبر – صلى الله عليه وسلم – أن اكثر ما تظهر الفتن من قبل المشرق حيث يطلع قرن الشيطان .

٣- فقال – صلى الله عليه وسلم – وهو مستقبل المشرق : " ألا إن الفتنة هاهنا ، ألا إن الفتنة ها هنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان "[٨] . وهذا متفق عليه[٩] .

وفي رواية لمسلم : أنه قال : " رأس الكفر من ها هنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان " يعني المشرق[١٠] .

قـال الحافظ ابن حجر : " وأول الفتن كان منبعها من قبل المشرق فكان ذلك سبباً للفرقة بين المسلمين ، وذلك مما يحبه الشيطان ويفرح به ، وكذلك البدع نشأت من تلك الجهة "[١١] .

---

(١) انظر : القرطبي : التذكرة (ص٦٢٥-٦٢٦) ، وتحفة الأحوذي (٤٦٠/٦) .

(٢) الترمذي في " سننه " (٤٥٩/٦-٤٦٠) وقال : " حيدث حسن صحيح " .

(٣) مسلم في " صحيحه شرح النووي (٨٩/١٨) .

(٤) انظر السيوطي : معترك الأقران (٣ / ١٠١) .

(٥) انظر : لسان العرب (٣١٧/١٣-٣٢١) ، النهاية (٤١٠/٣-٤١١) ، والفتح (٣/١٣) .

(٦) أحمـد في " مسنده " (٤٠٨/٤) بهامشه منتخب كنز العمال ، وعون المعبود (٣٣٧/١١) والحاكم في " المستدرك " (٤٤٠/٤) وقال : " صحيح الاسناد ولم يخرجاه " وسكت عنه الذهبي ، وابن ماجة في " سننه " (١٣١٠/٢) وصححه الألباني في " صحيح الجامع " ح رقم (٢٠٤٥) .

(٧) مسلم في " صحيحه " (١٣٣/٢) مع شرح النووي .

(٨) قرن الشيطان قوته وأتباعه ، وقيل : إن الشيطان يقترن رأسه بالشمس عند طلوعها (الفتح (٤٦/١٣) .

(٩) البخاري في " صحيحه " رقم (٧٠٩٣) الفتح (٤٥/١٣) ، ومسلم في " صحيحه " (٣١/١٨) مع شرح النووي .

(١٠) مسلم في " صحيحه " (٣١/١٨-٣٢) مع شرح النووي .

(١١) فتح الباري (٤٧/١٣) .

والواقع يؤيد هذا ويؤكده ، فمن العراق ظهر الخوارج ، والشيعة ، والروافض ، والباطنية ، والقدرية ، والجهمية ، والمعتزلة ، وكذلك ما ظهر من جهة الفرس المجوس كالزرادشتيه ، والمانوية والمزدكية ، والهندوسية ، والبوذية وغيرها . ولا ننسى قدوم التتار على ديار المسلمين في منتصف القرن السابع وما أحدثوه من القتل والنهب والدمار والشر العظيم المدون في كتب التاريخ الذي لا ينسى .

ولسنا ببعيد عن الشيوعية الملحدة التي تتمركز في روسيا والصين ، وسيكون ظهور الدجال ويأجوج من تلك الجهة نعوذ بالله من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن .

الثالثة : كثرة المعاصي وكثرة الأشرار : من العلامات التي ظهرت في

من العلامات التي ظهرت في هذا الكون فشو المعاصي والمنكرات من ارتكاب الزنا ، وشرب الخمر . وانتشار الربا ، وظهور التفسخ الخلقي وسفور النساء وتعري أجسادهن ، والسب واللعن والغش في المعاملات ، وظهور الفنيات والمعازف ، ووقوع الناس في كثير من الموبقات كالسحر والقتل ، وقذف المحصنات الغافلات ، والشرك ، وشهادة الزور ، حتى عمت المفاسد وطمت الشرور ، وأصبح الصالحون يتوارون حياءً من سطوة أهل الشر والفساد والاغلال .

١- قال – صلى الله عليه وسلم – : " إن من أشراط الساعة ... (فذكر منها) ويظهر الزنا "[١] .

٢- وقال أيضاً : " سيأتي على الناس سنوات خداعات ... (فذكر الحديث وفيه) وتشيع فيها الفاحشة "[٢] .

٣- وقال : " ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير "[٣] .

٤- وذكر – صلى الله عليه وسلم – أنه في آخر الزمان بعد ذهاب المؤمنين يبقى الأشرار ، يتهارجون تهارج الحمر[٤] كما في حديث النواس بن سمعان – ﷺ – : " ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة "[٥] .

٥- وقال – صلى الله عليه وسلم – : " بين يدي الساعة يظهر الربا "[٦] .

٦- وقال : " إن من أشراط الساعة ... (وذكر منها) ويشرب الخمر "[٧] .

٧- وقال : " والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدري القاتل فيم قتل ، ولا المقتول فيم قُتل ؟ " فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : " الهرج ، القاتل والمقتول في النار "[٨] .

الرابعة : توسيد الأمر إلى غير أهله :

---

(١) البخاري في " صحيحه " الفتح (١٧٨/١) ، ومسلم في " صحيحه " شرح النووي (٢٢١/١٦) .

(٢) الحاكم في " المستدرك " (٥١٢/٤) وقال : " حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي .

(٣) البخاري في " صحيحه " الفتح (٥١/١٠) .

(٤) أصل الهرج : الكثرة في الشئ والاتساع ، والمراد به هنا : الجماع والنكاح ، والمعنى : أن يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير . النهاية (٢٥٧/٥) وشرح النووي على مسلم (٧٠/١٨) .

(٥) مسلم في " صحيحه " (٧٠/١٨) من شرح النووي .

(٦) رواه الطبراني كما في " الترغيب والترهيب للمنذري (٩/٣) وقال : رواته رواه الصحيح " .

(٧) صحيح مسلم مع شرح النووي (٢٢١/١٦) .

(٨) نفسه (٣٥/١٨) .

ذكرها السيوطي في ضمن ما ذكره من العلامات[١] وقد صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة " قيل : كيف إضاعتها يا رسول الله ؟ قال : " إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة "[٢]

وبين – صلى الله عليه وسلم – كيف ترفع الأمانة من قلوب الناس فقال حذيفة – رضي الله عنه – : حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر[٣] قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة ، وحديثنا عن رفعها قال : " ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر الوكت[٤] ثم ينام الومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل[٥] ، كجمر دحرجته على رجل فنفط[٦] فتراه منتبراً[٧] ، وليس فيه شئ فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحدهم يؤدي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويقال للرجل ما أعقله ، وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى عليّ زمان وما أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً رده عليّ الإسلام ، وإن كان نصرانياً رده علي ساعين ، فأما اليوم فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً "[٨] .

الخامسة : الحرص على الدنيا والتنافس فيها :

ذكرها السيوطي فيما ذكر من العلامات[٩] وهو من الأخلاق الذميمة التي تحمل صاحبها على الفسق والخداع والشح بما في يده .

ورد عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : " إن من أشراط الساعة أن يظهر الشح "[١٠] .

ويروى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " يتقارب الزمان وينقص العمل ، ويلقى الشح "[١١]

وبهذا الشح يحرص الناس على الدنيا ويتنافسون فيها ويلهيهم لتكاثر منها حتى تشارك النساء الرجال في التجارة .

قال – ﷺ- : " بين يدي الساعة تسليم الخاصة وفشوة التجارة حتى تشارك المرأة زوجها في التجارة "[١٢] .

وقال أيضاً : " والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم "[١٣] .

وهذا التنافس والتكاثر في الدنيا يجر صاحبه إلى ضعف الدين ، فيتنازع الناس ، ويتباغضوا فتتفرق كلمتهم

---

(١) انظر : معترك الأقران (١٠١/٣) .

(٢) البخاري في " صحيحه " الفتح (٣٣٣/١١) .

(٣) الجذر : الأصل من كل شئ . النهاية (٢٥٠/١) .

(٤) الوكت : جمع وكته ، وهي الأثر في الشئ كالنقطة من غير لونه – النهاية (٢١٨/٥) .

(٥) المجل : هو ما يكون في الكف من أثر العمل بالأشياء الصلبة الخشنة كهيئة البثر . النهاية (٣٠٠/٤) .

(٦) نفط : بفتح ثم كسر : بثرة تخرج في اليد من العمل ملأى ماء . اللسان (٤١٦/٧) .

(٧) المنتبر : المرتفع ، يقال : انتبر الجرح إذا انتفخ وامتلأ ماء . النهاية (٥/٧-٨) .

(٨) البخاري في " صحيحه " الفتح (٣٣٣/١١) .

(٩) انظر : معترك الأقران (١٠١/٣) .

(١٠) الطبراني في الأوسط ، وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٣٢٧/٧) " رجاله رجال الصحيح غير محمد بن الحارث بن سفيان ، وهو ثقة " .

(١١) البخاري في " صحيحه " الفتح (١٣/١٣) .

(١٢) أحمد في " المسند " (٣٣٣/٥) مع شرح أحمد شاكر وقال : " إسناده صحيح " . والحاكم في " المستدرك " (٤/٤٤٥-٤٤٦) .

(١٣) البخاري في " صحيحه " الفتح (٢٥٧/٦-٢٥٨) ، ومسلم في " صحيحه " شرح النووي (٩٥/١٨) .

وتذهب شوكتهم .

السادسة : رفع القرآن وقبض العلم :

ذكرها الجلال السيوطي في معرض كلامه عن بعض أشراط الساعة[١] .

ورد عـن عـبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : " لينزعن القرآن من بين أظهركم ، يُسرى عليه ليلاً ، فيذهب من أجواف الرجال ، فلا يبقى في الأرض منه شئ "[٢] .

قـال شـيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : " يُسرى به في آخر الزمان من المصاحف والصدور ، فلا يبقى في الصدور منه كلمة ، ولا في المصاحف منه حرف "[٣] .

وأعظـم من هذا أن لا يذكر رب العالمين ، ولا ينطق أحد باسمه جل وعلا كما صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله . الله "[٤]

وفي معناه قولان :

١- أن لا يـنكر مـنكر ، ولا يزجر أحد إذا تعاطاه كما ورد في الحديث : " ...فيبقى فيها عجاجة لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً "[٥] .

٢- أن لا يذكـر رب العالمين في الأرض ، ولا يعرف اسمه – عز وجل – وذلك عند فساد الزمان ، وضلال الانسان ، وكثرة الكفر والفسوق والعصيان[٦] .

أمـا قـبض العلم ، فقد صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويثبت الجهل "[٧] .

وصح عنه – ﷺ – أيضاً أنه قال : " إن بين يدي اساعة لأياماً يُنزل فيها الجهل ، ويرفع العلم "[٨] .

وفي رواية لمسلم : " يتقارب الزمان ، ويقبض العلم ، وتظهر الفتن ، ويلقى الشح ، ويكثر الهرج "[٩] .

ويثـبت عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغي علم فضلوا وأضلوا "[١٠] .

والمـراد بالعلم في هذه الأحاديث علم الشريعة ، والعلم بالكتاب والسنة فهو العلم الموروث عن النبي – صلى الله

---

(١) انظر : معترك الأقران (١٠١/٣) .
(٢) رواه الطبراني ، قال في " مجمع الزوائد " : " رجاله رجال الصحيح غير شداد بن معقل وهو ثقة " المجمع (٣٢٩/٧-٣٣٠) .
(٣) مجموع الفتاوى (١٩٨/٣-١٩٩) .
(٤) مسلم في " صحيحه " مع شرح النووي (١٧٨/٢) .
(٥) مسند الإمام أحمد بشرح أحمد شاكر (١٨١/١١-١٨٢) وقال " إسناده صحيح " .
(٦) انظر : ابن كثير : النهاية (١٨٦/١) .
(٧) صحيح البخاري مع الفتح (١٧٨/١) ، ومسلم مع شرح النووي (٢٢٢/١٦) .
(٨) صحيح البخاري مع الفتح (١٣/١٣) .
(٩) صحيح مسلم مع شرح النووي (٢٢٢/١٦-٢٢٣) .
(١٠) صحيح البخاري مع الفتح (١٩٤/١) ، وسلم مع شرح النووي (٢٢٣/١٦-٢٢٤) .

عليه وسلم - والعلماء ورثته ، وبذهابهم يذهب العلم ، وتموت السنة وتكثر البدع ويعم الجهل .

ويدل على أن علم الشرع قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ...فسئلوا فأفتوا بغير علم " والفتوى والاستفتاء لا يكون إلا للشرع ، أما علم الدنيا فهو في نماء وازدياد واضطراد وليس هو المراد من هذه الأحاديث .

المبحث الثاني

ما ذكره السيوطي من العلامات الكبرى

الأولى : ظهور المهدي المنتظر - عليه السلام - .

ذكره السيوطي ضمن فتوى من فتاويه التي تضمنها " الحاوي " وقد ذكره أيضاً في أرجوزته المسماة " تحفة المهتدين بأسماء المجددين " ضمن رسالة " التنبئة بمن يبعثه الله تعالى على رأس كل مئة " . وكلامه في الفتوى أعم من كلامه في التحفة وسيكون المعول عليه إن شاء الله تعالى .

قال السيوطي : " الأحاديث في المهدي مختلفة ، وكذلك العلماء ففي بعضها : " لا مهدي إلا عيسى بن مريم " وأكثر الأحاديث على أن غيره ، وأنه من أهل البيت ثم في بعضها أنه من ولد فاطمة . وفي بعضها أنه من ولد العباس ، وبعض العلماء حمله على المهدي ثالث خلفاء بني العباس الذي تولى الخلافة في القرن الثاني ، والذي ترجح عندي من أكثر الأحاديث أنه غيره ، وأنه خليفة يقوم في آخر الزمان ، وأنه من ولد فاطمة ، وقد ثبت في أحاديث أنه يخرج من قبل المشرق ، وأنه يبايع له بمكة بين الركن والمقام ، وأنه يدخل بيت المقدس ، وأنه يمكث سبع سنين ، وأنه يملأ الأرض عدلاً "[(١)] هذا الجزء من الفتوى المتعلق بالمهدي من كلام السيوطي ، وهو يحتاج إلى شئ من البيان ليعرف ما صح منه .

١- اسمه : محمد ، أو أحمد بن عبدالله ، من ذرية فاطمة - رضي الله عنها - بنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم من ولد الحسن بن علي - رضي الله عنهم قال ابن كثير : " هو محمد بن عبدالله العلوي الفاطمي الحسني - ﷺ - "[(٢)] .

٢- يكون ظهوره من قبل المشرق كما قال السيوطي ، يؤيده ما ورد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم لا يصير إلى واحد منهم ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يُقتله قوم ... فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبوا على الثلج فإنه خليفة الله المهدي "[(٣)] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : المراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة ... والمقصود أن المهدي الممدوح الموعود بوجوده في آخر الزمان يكون أصل ظهوره وخروجه من ناحية المشرق ، ويبايع له عند البيت "[(٤)] .

الأدلة من السنة النبوية على ظهوره :

١- عن أبي سعيد الخذري - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " يخرج في آخر أمتي

---

(١) الحاوي للفتاوى (٣٧٩/١) .

(٢) النهاية (٢٩/١) .

(٣) سنن ابن ماجة (١٣٦٧/٢) . ومستدرك الحاكم (٤٦٣/٤-٤٦٤) وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين " ووافقه الذهبي .
وقال ابن كثير : النهاية (٢٩/١) : " هذا إسناد قوي صحيح " .
وصححه الألباني في " سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة " (١١٩/١) ح رقم (٨٥) .

(٤) النهاية (٢٩/١-٣٠) .

المهـدي . يسقيه الله الغيث ، وتخرج الأرض نباتها ، ويعطى المال صحاحاً ، وتكثر الماشية ، وتعظم الأمة يعيش سبعاً أو ثمانيا ، (يعني : حججاً) "[١] .

٢- وعـنه - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " أبشركم بالمهدي ، يبعث على اختلاف مـن الناس وزلازل ، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً ، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض يقسم المـال صحاحاً ، فقال له رجل : ما صحاحاً ؟ قال : " بالسوية بين الناس " . قال : " ويملأ الله قلوب أمة محمد - صلى الله عـليه وسلم - غنى ، ويسعهم عدله ، حتى يأمر منادياً ، فينادي فيقول : من له في ما حاجة ؟ فما يقوم من الناس إلا رجـل ، فيقول : إئت السدان - يعني الخازن - فقل له : إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً ، فيقول له : احث ، حتى إذا حجـره وأبـرزه ، ندم ، فيقول كنت أجشع أمة محمد نفساً ، أو عجز عني ما وسعهم ؟ " قال : " فيرده ، فلا يقبل منه ، فيقال : إنا لا نأخذ شيئاً أعطيناه ، فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان سنين أو تسع سنين ، ثم لا خير في العيش بعده " أو قال : " ثم لا خير في الحياة بعده "[٢] .

٣- وعـن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " المهدي منا أهل البيت ، يصلحه الله في ليلة "[٣] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : " أي يتوب عليه ، ويوفقه ، ويلهمه ، ويرشده ، بعد أن لم يكن كذلك "[٤] .

٤- وعـن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " المهدي مني ، أجلى الجبهة[٥] أقنى الأنف[٦] ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين "[٧] .

٥- وعـن أم سـلمة - رضي الله عنها - قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " المهدي من عترتي[٨] ، من ولد فاطمة "[٩] .

---

(١) مستدرك الحاكم (٤/٥٥٧-٥٥٨) وقال : " هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/٣٣٦) ح رقم (٧١١) .

(٢) مسند أحمد (٣/٣٧) مع منتخب كنز العمال ، وقال الهيثمي : " رواه الترمذي وغيره باختصار كثير ، ورواه أحمد بأسانيد ، وابو يعلي باختصار كثير ، ورجالهما ثقات " مجمع الزوائد (٧/٣١٣) . وانظر : عبدالمحسن العباد : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر (ص١٧٧) .

(٣) مسند أحمد (٢/٥٨) ت. أحمد شاكر ، وقال : " إسناده صحيح " وسنن ابن ماجة (٢/١٣٦٧) . وصححه الألباني : صحيح الجامع الصغير (٦/٢٢) ح رقم (٦٦١١) .

(٤) النهاية (١/٢٩) .

(٥) الأجلي : الذي انحسر الشعر عن جبهته . النهاية لابن الأثير (١/٢٩٠) .

(٦) القنا في الأنف : طول ورقة أرنبته مع جدب في وسطه . النهاية (٤/١١٦) .

(٧) سـنن أبـي داود (١١/٣٧٥) ح رقـم (٤٢٦٥) وقال ابن القيم : " سنده جيد " المنار المنيف (ص١٤٤) ت. عبدالفتاح أبو غدة ، ورواه الحاكم في " المسـتدرك " (٤/٥٥٧) وقـال : " هـذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه " ، وقال الذهبي : " عمران ضعيف لم يخرج له مسلم " وقال المنذري : " عمران ...استشهد به البخاري ، ووثقه عفان بن مسلم ، وأحسن عليه الثناء يحيى بن سعيد القطان ، وضعفه يحيي بن معين والنسائي " عون المعبود (١١/٣٧٥) وقال الذهبي في " الميزان " (٣/٢٣٦) : " قال أحمد : أرجو أن يكون صالح الحديث ، وقال ابو داود : ضعيف " وقال ابن حجر في " تقريب التهذيب " (٢/٨٣) : " صدوق يهم ، ورمى برأي الخوارج " . وحسن الحديث الألباني في " صحيح الجامع " (٦/٢٢-٢٣) ح رقم (٦٦١٢) .

(٨) عترة الرجل : نسله ورهطه .

(٩) سنن أبي داود (١١/٣٧٣) ، وسنن ابن ماجة (٢/١٣٦٨) ، وصححه الألباني في " صحيح الجامع " (٦/٢٢) ح رقم (٦٦١٠) .

٦- وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " منا الذي يصلي عيسى بن مريم خلفه "[1] .

٧- وعن جابر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ينزل عيسى بن مريم ، فيقول أميرهم المهدي : تعالى صل بنا ، فيقول : لا ، إن بعضهم أمير بعض تكرمة الله هذه الأمة "[2] .

٨- وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لا تذهب ، أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي "[3] وفي رواية : " يواطئ اسمه اسمي واسم ابن اسم أبي "[4] .

٩- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم "[5] .

١٠- وعن جابر - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة قال : " فينزل عيسى بن مريم - صلى الله عليه وسلم - فيقول اميرهم تعالى صل لنا ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء . تكرمة الله لهذه الأمة "[6] .

والأحاديث الواردة في هذا الموضوع كثيرة جداً بلغت مبلغ التواتر المعنوي ، وقد نص على ذلك بعض العلماء[7]

الثانية : ظهور المسيح الدجال :

كلمة " المسيح تطلق على شخصين : أحدهما صديق ، والثاني ضليل كذاب زنديق .

فالمسيح الصديق هو : عبدالله ورسوله : عيسى بن مريم - عليه السلام - مسيح الهدى الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله تعالى .

---

(١) رواه أبو نعيم في " أخبار المهدي " كما قال السيوطي في الحاوي (٦٤/٢) ورمز له بالضعف ، وكذلك المناوي في " فيض القدير " (١٧/٦) ، وقال الألباني في " صحيح الجامع الصغير " (٢١٩/٥) ح رقم (٥٧٩٦) " صحيح " وقال الشيخ عبدالعليم عبدالعظيم في رسالة علمية لنيل درجة الماجستير من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (ص٢٤١) قال : " إسناده حسن لشواهده " .

(٢) رواه الحارث بن أبي اسامة في " مسنده " كما قال ابن القيم في " المنار المنيف " (ص١٤٧-١٤٨) ، وكذا في " الحاوي " للسيوطي (٦٤/٢) ، وقال ابن القيم : " هذا إسناد جيد " ، وصححه الشيخ عبدالعليم عبدالعظيم في رسالته " الكلام على أحاديث المهدي " (ص١٤٤) .

(٣) مسند أحمد (١٩٩/٥) ح (٣٥٧٣) ، ت. أحمد شاكر ، وقال : " إسناده صحيح " ، والترمذي ، وسنن أبي داود (٣٧١/١١) .

(٤) سنن ابي داود (٣٧٠/١١) ، قال الألباني : " صحيح " - صحيح الجامع الصغير (٧٠/٥-٧١) ح رقم (٥١٨٠) ، وانظر : رسالة الشيخ عبدالعليم عبدالعظيم (ص٢٠٢) .

(٥) صحيح البخاري - مع الفتح (٤٩١/٦) ، وصحيح مسلم - مع شرح النووي (١٩٣/٢) .

(٦) صحيح مسلم - مع شرح النووي (١٩٣/٢-١٩٤) .

(٧) منهم : ابن القيم : " المنار المنيف " (ص١٤٢) ، ابن حجر : فتح الباري (٤٩٣/٦-٤٩٤) السيوطي : الحاوي (٨٥/٢-٨٦) ، السفاريني : لوامع الأنوار ((٨٤/٢) . والبرزنجي : الإشاعة في اشراط الساعة (ص٨٧) ، (ص١١٢) ، عبدالمحسن العباد : عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر (ص١٧١-١٧٢) ، الشيخ عبدالعليم عبدالعظيم : الأحاديث الواردة في المهدي في ميزان الجرح والتعديل ، رسالة ماجستير من الجامعة الإسلامية ، استقصى فيها ما ورد عن المهدي من أخبار ، وجملة ما ذكره في هذه الرسالة من الأحاديث المرفوعة وآثار الصحابة وغيرهم ست وثلاثون وثلاثمائة رواية (٣٣٦) منها اثنان وثلاثون (٣٢) حديثاً ، وأحد عشر (١١) أثراً ، ما بين صحيح وحسن ، الصريح منها في ذكر المهدي تسعة أحاديث ، وستة آثار ، والباقي فيها أوصاف وقرائن تدل على أنها في المهدي . وقد صحح أحاديث المهدي ابن تيمية : منهاج السنة النبوية (٢١١/٤) وابن القيم : المنار المنيف في الصحيح والضعيف (١٤٢) ، ابن كثير : النهاية (١٢٤-٣٢) وغيرهم .

والمسيح الضليل الكذاب : هو مسيح الضلالة الذي يفتن الناس في آخر الزمان بما يعطاه من الخوارق وهو المسيح الدجال .

وسمي الكذاب مسيحاً ، لأن إحدى عينيه ممسوحة ، أو لأنه يمسح الأرض في أربعين يوماً . والراجح الأول[١] .

و " الدجال " معناه الكذاب المموه ، وأصل " الدجل " : الخلط ، يقال : دجل إذا لبَّس وموه . والدجال مبالغة لأنه يكثر منه الكذب والتلبيس[٢] ، وجمعه دجالون ، أو دجاجلة[٣]

فالمسيح الدجال : هو الأعور الكذاب ، وهو رجل من بني آدم ، أخبر النبي – صلى الله عليه وسلم – في أحاديث كثيرة أنه خارج في آخر الزمان لا محالة ، يلبسْ على الناس كفره بكذبه وتمويهه وتلبيسه ، ليضلهم ويفتنهم فيتبعه بعض الجهال ، ضعيفوا الإيمان ، وقد حذر منه جميع الأنبياء أممهم ، وأكثر نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – من وصفه حتى يعرفه المؤمنون إذا ظهر فيهم فيحذروه ويجتنبوه .

ذكره السيوطي في بعض مصنفاته[٤] ولم يذكر عليه أدلة ، وأنا ذاكرها – إن شاء الله تعالى – أو طرفاً منها .

١- عن عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " بينا أنا نائم أطوف بالكعبة[٥] فإذا رجل آدم سبط الشعر ، ينطف – أو يهراق – رأسه ماءً ، قلت : من هذا ؟ قالوا : ابن مريم ، ثم ذهبت ألتفت فإذا رجل جسيم أحمر جعد الرأس أعور العين كأن عينه عنبة طافية ، قالوا : هذا الدجال ، أقرب الناس به شبهاً ابن قطن[٦] ، رجل من خزاعة[٧] .

٢- وعنه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال : " إن الله تعالى ليس بأعور ألا وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية "[٨] .

٣- وفي حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال – صلى الله عليه وسلم – : " ...وأما مسيح الضلالة فإنه أعور العين أجلى الجبهة ، عريض النحر وفيه دفأ[٩] "[١٠] .

٥- وفي حديث أنس – رضي الله عنه – قال – صلى الله عليه وسلم – : " ...وإن بين عينيه مكتوب كافر "[١١] ، وفي رواية

---

(١) انظر : القرطبي : التذكرة (ص٦٧٩) ، ترتيب القاموس المحيط (٢٣٩/٤) ، النهاية في غريب الحديث (٣٢٦/٤-٣٢٧) ، لسان العرب (٥٩٤/٢) .

(٢) النهاية (١٠٢/٢) .

(٣) لسان العرب (٢٣٦/١١) .

(٤) انظر : علم التوحيد – مخ – لوحة رقم (١٨،١٧) ، معترك الأقران (١٠١/٣) ، الحاوي (٢٩/١-٣١) .

(٥) هذه رؤيا منام ، فقد رأى النبي – صلى الله عليه وسلم – نفسه في المنام وهو يطوف بالكعبة ، ورؤيا الأنبياء وحي .

(٦) اسمه : عبدالعزي بن قطن بن عمرو الخزاعي ، وقيل من بني المصطلق من خزاعة ، وأمه هالة بنت خويلد ، وليس له صحبة ، فقد هلك في الجاهلية ، وما ورد أنه قال للنبي – صلى الله عليه وسلم – : أيضرني شبهه ؟ قال : لا أنت مسلم وهو كافر ، فهي زيادة ضعيفة من رواية المسعودي عند أحمد ، وقد اختلط عليه بحديث آخر . انظر تعليق أحمد شاكر على مسند أحمد (٣١/١٥،٣٠) ، الإصابة (٢٣٩/٤) ، فتح الباري (٤٨٨/٦) ، (١٠٨/١٣) .

(٧) صحيح البخاري – مع الفتح (٩٠/١٣) ، وصحيح مسلم – مع شرح النووي (٢٣٧/٢) .

(٨) صحيح البخاري – مع الفتح (٩٠/١٣) ، وصحيح مسلم – مع شرح النووي (٥٩/١٨) .

(٩) الدفى : مقصود : الانحناء ، ورجل أدفى – بغير همز – فيه انحناء . النهاية (١٢٦/٢) ولسان العرب (٧٧/١) ، (٢٦٣/١٤-٢٦٤) .

(١٠) مسند أحمد – بتحقيق أحمد شاكر (٢٨/١٥-٣٠) وقال المحقق : " إسناده صحيح " ، وحسنه ابن كثير : النهاية (١٣٠/١) .

(١١) صحيح البخاري – مع الفتح (٩١/١٣) ، وصحيح مسلم – مع شرح النووي (٥٩/١٨) .

" ثم تهجاها (ك.ف.ر) يقرؤه كل مسلم "[١] وفي رواية : " يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب "[٢].

٦ ــ وفي حديث حذيفة ﷺ قال رسول الله ﷺ : " الدجال أعور العين اليسرى ..." [٣]

ويلاحــظ مــن هذه الأحاديث أن في بعضها وصف عينه اليمنى بالعور وفي بعضها الأخر وصف عينه اليسرى أيضاً بالعور وكلاً الروايتين صحيحة . وينشأ من هذا اشكال حله الحافظ ابن حجر بترجيح رواية ابن عمر التي تذكر عور العين اليمنى ، لأنها متفق عليها في الصحيحين ، وهي أقوى – بهذه المثابة – من رواية مسلم وحدها ، لأن الحديث المتفق عليه عند الشيخين أقوى في الصحة من الذي روى في أحد الصحيحين دون الآخر .

أمــا القاضــي عياض – رحمه الله تعالى – فقد ذهب مذهباً آخر في الجمع وهو أن عيني الدجال كلتيهما عوراء معيبة ، لأن الروايات كلها صحيحة ، وتكون العين المطموسة والممسوحة هي العوراء الطافئة – بالهمز – أي مطفأة ، قد ذهب ضوؤها ، وهي العين اليمنى – كما في حديث ابن عمر – رضي الله عنهما وتكون العين اليسرى التي عليها ظفرة غـليظة ، وهي الطافية – بلا همز – معيبة أيضاً فهو أعور العين اليمنى واليسرى معاً ، فكل واحدة منهما عوراء ، أي : معيــبة ، فــإن الأعور من كل شئ : المعيب لا سيما ما يختص بالعين ، فكلا عيني الدجال معيبة عوراء إحداهما عوراء بذهابها ، والأخرى عوراء بعيبها .قال النووي في هذا الجمع ، " وهو في نهاية من الحسن "[٤] ورجحه القرطبي[٥] .

<u>مكان خروجه :</u> ورد في حديث فاطمة بنت قيس الطويل الذي يسميه العلماء بحيدث الجساسة ، يقول النبي – صلى الله عليه وســلم – : " ...ألا إنــه في بحر الشام ، أو بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق ما هو ، من قبل المشرق ما هو (وأومأ بيده إلى المشرق) "[٦] .

وعــن أبــي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال : حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " الدجال يخرج من أرض بالمشرق ، يقال لها : خراسان "[٧] " .

– وعن أنس – رضي الله عنه – قال : قال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " يخرج الدجال من يهودية أصبهان ، معه سبعون ألفاً من اليهود "[٨] .

قال الحافظ ابن حجر – رحمه الله تعالى – : " وأما أين يخرج ؟ فمن قبل المشرق جزماً "[٩] .

وقال ابن كثير – رحمه الله تعالى – : " فيكون بدء ظهوره من أصبهان ، من حارة يقال لها : اليهودية "[١٠] .

---

(١) صحيح مسلم – مع شرح النووي (٥٩/١٨) .
(٢) نفسه (٦١/١٨) .
(٣) صحيح مسلم (٦٠/١٨) مع شرح النووي .
(٤) شرح صحيح مسلم (٢٣٥/٢) .
(٥) التذكرة (ص٦٦٣) .
(٦) صحيح مسلم – مع شرح النووي (٨٣/١٨) .
(٧) سنن الترمذي (٤٩٥/٦) مع تحفة الأحوذي ، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٥٠/٣) ح رقم (٣٣٩٨) .
(٨) الفتح الرباني ترتيب مسند أحمد (٧٣/٢٤) وصححه ابن حجر في فتح الباري (٣٢٨/١٣) .
(٩) فتح الباري (٩١/١٣) .
(١٠) النهاية (١٢٨/١) .

الدجال لا يدخل مكة ولا المدينة : ورد في الأحاديث الصحيحة أن الدجال عندما يظهر يسير في الأرض فلا يدع قرية إلا هبطها عدا مكة والمدينة .

- في حديث فاطمة بنت قيس - رضي الله عنها - ورد في كلام الدجال قال : " ...فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليّ كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة - أو واحداً - منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتا يصدني عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها "(١) .

- وفي مسند أحمد : " ...وإنه يمكث في الأرض أربعين صباحاً ، يبلغ فيها كل منهل ، ولا يقرب أربعة مساجد : مسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، ومسجد الطور ، ومسجد الأقصى "(٢) .

أتباع الدجال :

أكثر أتباع الدجال من اليهود كما ذكر في حديث أنس - رضي الله عنه - السابق ، وكذلك يتبعه كثير من العجم والترك ، وأخلاط من الناس غالبهم الأعراب والنسا .

- عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة "(٣) .

- وقال - صلى الله عليه وسلم - : " يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرقة "(٤) قال ابن كثير : " والظاهر - والله أعلم - أن المراد هؤلاء الترك أنصال الدجال "(٥) .

- وفي حديث طويل لأبي أمامة ، يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " وإن من فتنته (يعني الدجال) أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان : يا بني : اتبعه فإنه ربك "(٦) .

وهذا من غلبة الجهل على الأعراب ، والنساء أسوأ حالاً من الأعراب في الجهل وسرعة التأثر بالفتن يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " ينزل الدجال في هذه السبخة بمرقناة(٧) فيكون أكثر من يخرج إليه النساء حتى إن الرجل ليرجع إلى حميه وإلى أمه وابنته واخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه "(٨) .

أما فتنته : ففتنته عظيمة بسبب يدعو إليه من الكفر والشرك ،ويأتي على ذلك بأمور خارقة ليصدقه الناس في دعواه .

- قال النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يحذر الناس من فتنته : " معه جنة ونار ، فناره جنة ، وجنته نار "(٩) .

---

(١) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٨٣/١٨) .
(٢) التفح الرباني (٧٦/٢٤) وقال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٣٤٣/٧) " ورجاله رجال الصحيح " .
(٣) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٨٥/١٨-٨٦) .
(٤) تحفة الأحوذي (٤٩٥/٦) من حديث أبي بكر الصديق ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٠/٣) .
(٥) النهاية (١١٧/١) .
(٦) سنن ابن ماجة (١٣٥٩/٢-١٣٦٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٣/٦-٢٧٧) .
(٧) (مرقناة) : واد بالمدينة يأتي من الطائف ويمر بطرق القدوم في أصل قبور الشهداء بأحد - معجم البلدان (٤٠١/٤) .
(٨) مسند أحمد - ت . أحمد شاكر (١٩٠/٧) رقم (٥٣٥٣) وقال المحقق : " إسناده صحيح " .
(٩) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٦٠/١٨-٦١) .

- وقال أيضاً : " لأنا أعلم بما مع الدجال منه ، معه نهران يجريان ، أحدهما رأي العين ماء أبيض ، والآخر راي العين نار تأجج ، فإما أدركن أحد ، فليات النهر الذي يراه ناراً ، وليغمض ، ثم ليطأطئ رأسه ، فيشرب منه فإنه ماء بارد "[١] .

- وقال - صلى الله عليه وسلم - عن لبث الدجال في الأرض : " أربعون يوماً ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم " قالوا وما إسراعه في الأرض ؟ قال : " كالغيث إذا استدبرته الريح ، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتهم[٢] أطول ما كانت ذُرا[٣] ، وأسبغه ضروعاً[٤] وأمده خواصير ، ثم يأتي القوم فيدعوهم ، فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس معهم شئ من أموالهم ، ويمر بالجربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل[٥] ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك "[٦] .

- وجاء في رواية : أن هذا الرجل الذي يقتله الدجال من خيار الناس ، أو خير الناس . يخرج إلى الدجال من مدينة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول للدجال : " أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديثه ، فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون : لا ، فيقتله ثم يحييه ، فيقول : (أي الرجل) : والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم ، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه "[٧] .

وقد سبق معنا من حديث أبي أمامة الباهلي - رضي الله عنه - أن هذا الدجال : " من فتنته أن يقول للأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك ، أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه ، فيقولان : يا بني اتبعه فإنه ربك "[٨] .

فهذا طرف من فتنته - نعوذ بالله من فتنته ومن جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ونسأل الله السلامة والعافية .

الوقاية من فتنة الدجال :

أرشدنا النبي - ﷺ - إلى ما يعصمنا من هذه الفتنة العظيمة ، فتنة المسيح الدجال ، فهو الرؤوف الرحيم الذي ما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ، ولا شراً إلا حذرها منه ، ومن هذه الشرور التي حذر أمته منها فتن الدجال .

ومن هذه التوجيهات :

١- معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وأنه تعالى موصوف بكل كمال منزه عن كل نقص ، وأنه تعالى له الأسماء الحسنى والصفات العلى التي لا يشاركه فيها أحد من الخلق ، فإذا علم المؤمن ذلك عرف أن المسيح الدجال بشر يأكل

---

(١) نفسه (٦١/١٨) .

(٢) السارحة : هي الماشية .

(٣) ذرا : بضم الذال المعجمة وهي الأعمال والأسنمة .

(٤) أسبغه : بالسين المهملة والغين المعجمة أي " أطوله لكثرة اللبن ، وكذا أمده خواصر لكثرة امتلائها من الشبع - شرح النووي على صحيح مسلم (٦٦/١٨) .

(٥) يعاسب النحل : جمع يعسوب ،وهو ذكر النحل ، ويسمى كل سيد يعسوباً وإذا طار أمير النحل اتبعته جماعاتها - انظر مشارق الأنوار للقاضي عياض (٣٠٥/٢) ، وانظر شرح النووي على صحيح مسلم (٦٧/١٨) .

(٦) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٦٥/١٨-٦٦) .

(٧) صحيح البخاري (١٠١/١٣) - مع الفتح .

(٨) سبق تخريجه ، وهو عند ابن ماجة في سننه (١٣٥٩/٢-١٣٦٣) وصححه الألباني في " صحيح الجامع الصغير " (٢٧٣/٦-٢٧٧) ح رقم (٧٧٥٢) .

ويشــرب ، والله تعــالى منزه عن ذلك ، وأنه تعالى منزه عن العور والعيوب ، في حين أن الدجال أعور معيب والله عز وجل ليس كذلك - كما أن الله تعالى لا يمكن لأحد رؤيته في الدنيا لكن الدجال يراه الناس عند خروجه ، فيتبين من ذلك أنه كذاب في دعواه وأفعاله فلا يصدق ولا يتابع فيما يقوله ويدعيه .

٢- الــتعوذ بــالله تعالى من فتنته ، خاصة في الصلاة ، فقد قال : - صلى الله عليه وسلم - : " إذا تشهد أحدكم ، فليستعذ بالله من أربع يقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال "(١) .

- وكان طاووس يأمر ابنه بإعادة الصلاة إذا لم يقرأ بهذا الدعاء فيها(٢) .

٣- حفظ آيات من سورة الكهف ، فقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - بقراءة فواتح سورة الكهف على الدجال ، وفي بعض الروايات خواتيمها .

- ففــي حديــث النواس بن سمعان ، يقول - صلى الله عليه وسلم - : " ... من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف "(٣) .

- وفي حديث أبي الدرداء - رضي الله عنه - : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال " .

قال مسلم : قال " شعبة : من آخر سورة الكهف ، وقال همام : من أول الكهف "(٤) .

٤- الفــرار من الدجال والابتعاد عنه ، قال - صلى الله عليه وسلم - : " من سمع بالدجال فلينأ عنه . فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه مما يبعث به من الشبهات ، أو لما يبعث به من الشبهات "(٥) .

إذاً فــالذي ينبغي على المؤمن حين يسمع بهذا الدجال أن يبتعد عنه ، ولا يقترب منه ، ولا يقول أذهب لأرى ، ولا يقول أذهب لأقتله ، لأن الذي سيتولى قتله هو المسيح ابن مريم - عليه السلام - فقد قال - صلى الله عليه وسلم - : " يخرج الدجال في أمتي ... (فذكر الحديث وفيه) فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه"(٦) .

- وفــي حديــث النواس بن سمعان ، ذكر النبي - صلى الله عليه وسلم - نزو ل عيسى - عليه السلام - وقتله الدجال ، وفيــه يقــول : " فــلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله"(٧) وبقتله تنتهي فتنته ، وقانا الله والمسلمين شر كل فتنة .

<u>الثالثة :</u> نزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - :

ذكر السيوطي هذه العلامة ولم يفصل القول فيها فقال :

---

(١) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٥/٨٧) .

(٢) نفسه (٥/٨٩) . كأن طاوساً - رحمه الله - كان يرى وجوب قراءة هذا الدعاء في الصلاة بعد التشهد ، ولذا أمر ابنه بالإعادة .

(٣) صحيح مسلم - مع شرح النووي (١٨/٦٥) .

(٤) نفسه (٦/٩٢) .

(٥) الفتح الرباني (٢٤/٧٤) ، وسنن أبي داود (١١/٢٤٢) مع عون المعبود ، ومستدرك الحاكم (٤/٥٣١) وقال الحاكم : " هذا حديث صحيح الاسناد على شرط مسلم ، ولم يخرجاه " وسكت عنه الذهبي ، وصححه الألباني في " صحيح الجامع الصغير (٥/٣٠٣) ح رقم (٦١٧٧) .

(٦) صحيح مسلم - مع شرح النووي (١٨/٧٥-٧٦) .

(٧) نفسه (١٨/٦٧-٦٨) .

" وآخر المئين فيها يأتي | عيسى نبي الله ذو الآيـات
يجدد الدين لهـذي الأمة | وفي الصلاة بعضنا قد أمَّه
مقرراً لشرعنا ويحكـم | بحكمنا إذ في السماء يعلمُ "[١]

وهذا تصريح منه بنزول عيسى – عليه السلام – في آخر الزمان يجدد الدين لأمة الإسلام ، بمعنى أنه يبين السنن وينشـرها ويذكر الناس بها ويدعوهم إليها ، ويبين البدع ويردها ويحذرهم منها ، وينشر العلم بين الناس ، وينصر أهله ويبعث فيهم الهمم القوية لطلب العلم ، والخروج من الجهل ، فإنه مع تقادم العهد بالناس فإن كثيراً منهم يغفل عن كثير من أمور الدين ، فينتشر الجهل وتكثر المخالفات الشرعية ، ويستخف الناس بارتكاب المعاصي والمنكرات ، وقول السيوطي : " وفـي الصلاة بعضنا قد أمه " إشارة إلى ظهور المهدي محمد بن عبدالله الفاطمي العلوي – رضي الله عنه – وقد مضى الكلام عنه مفصلاً .

والكلام هنا عن عيسى ابن مريم – عليه السلام – يقول السيوطي : " ونؤمن بنزوله في آخر الزمان ، ويقتل الدجال "[٢] .

فإنه إذا ظهر خليفة آخر الزمان المهدي المنتظر ، فيقود المؤمنين إلى الدعوة والجهاد ، عند ذلك يظهر الدجال فيتوجه المهدي بالمؤمنين لقتاله ، فينزل عيسى – عليه السلام – ويلتقي بالمهدي ويسيرون معاً للقاء الدجال فيدركه عيسى – عليه السلام – فيقتله عند باب لد[٣] بفلسطين .

– أمـا موضع نزوله – عليه السلام – فهو عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشام . قال ابن كثير : " هذا هو الأشهر في موضـع نزوله أنه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق ، وقد رأيت في بعض الكتب أنه ينزل على المنارة البيضاء شرقي جامع دمشق فلعل هذا هو المحفوظ... وليس بدمشق منارة تعرف بالشرقية سوى التي إلى جانب الجامع الأموي بدمشق من شرقيه ، وهذا هو الأنسب والأليق "[٤] .

وذكر ابن كثير أنه في زمنه سنة إحدى وأربعين وسبع مئة جدد المسلمون منارة من حجارة بيض ، وكان بناؤها من أموال النصارى الذين حرقوا المنارة التي كانت مكانها ، ولعل هذا يكون من دلائل النبوة الظاهرة ، حيث قيض الله بناء هـذه المنارة من أموال النصارى لينزل عيسى بن مريم عليها ، فيقتل الخنزير ، ويكسر الصليب ، ولا يقبل منهم الجزية ، ولكن من أسلم وإلا قتل ، وكذلك غيرهم من الكفار[٥] .

وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم – في صفة نزول عيسى ابن مريم – عليه السلام – : " إذا بعث الله المسيح ابـن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ، بين مهرودتين[٦] ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ راسه

---

(١) التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة (ص٧٥) ، وانظر : معترك الأقران (١٠١/٣) ، (٦١٧/٢) .
(٢) معترك الأقران (٦١٧/٢) .
(٣) (اللد) بلدة بفلسطين قرب بيت المقدس . معجم البلدان (١٥/٥) .
(٤) النهاية – الفتن والملاحم (١٤٤/١–١٤٥) .
(٥) السابق نفسه (١٤٥/١) .
(٦) روى بالدال المهملة والذال المعجمة ، والمهملة أكثر ، والمعنى : لا بس مهرودتين ، أي ثوبين مصبوغين بورس ثم زعفران – شرح النووي (٦٧/٨) وانظر : لسان العرب (٤٣٥/٣) ، النهاية (٢٥٨/٥) .

قطـر ، وإذا رفـع تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلـبه – أي يطـلب الدجـال – حتى يدركه بباب لد فيقتله ، ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح وجوههم ، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة "[١] .

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على نزول عيسى – عليه السلام – قال تعالى : (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومـك مـنه يصدون) إلى قوله تعالى : (وإنه لعلم للساعة...)[٢] أي : نزول عيسى – عليه السلام – علامة على قرب الساعة وقرئ : (وإنه لعَلَمٌ للساعة) بفتح العين واللام أي " علامة وأمارة على قيام الساعة "[٣] .

– وقـال جل وعلا : (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً)[٤] فهذه الآية الكريمة تـدل على أن فريقاً من أهل الكتاب سيؤمن بعيسى – عليه السلام – بعد نزوله ، وقبل موته ، لأنه رفع إلى السماء حياً ، ولم يزل كذلك حتى ينزل آخر الزمان فيؤمنون به الإيمان الحق الذي قرره دين الإسلام . وهذا أحد القولين في معنى الآية[٥] وهو اختيار ابن جرير حيث قال : " وأولى الأقوال بالصحة قول من قال : وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى "[٦] وروى بسنده عن الحسن البصري أنه قال : " قبل موت عيسى ، والله إنه الآن حي عند الله ، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون "[٧] وصححه ابن كثير – رحمه الله تعالى –[٨] .

وهذا يؤيد ما قاله السيوطي من أن عيسى بن مريم – عليه السلام – سينزل آخر الزمان ويقتل الدجال ، وهو ما اتفق عليه علماء المسلمين .

يظهر بجلاء صحة حصول هذه الآية ، وهي نزول المسيح عيسى ابن مريم – عليه السلام – آخر الزمان ، وهي من عقائد أهل السنة والجماعة الثابتة – كما تقدم – وبه يظهر صحة ما قاله جلال الدين السيوطي .

الرابعة : يأجوج ومأجوج :

ذكـرها السيوطي ولم يفصل فيها القول[٩] . ومما ذكره السيوطي فيهم أنه قال : " ونزوله (يعني المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام) قبل يأجوج ومأجوج ، فإنهم يخرجون في أواخر أيامه ، وأما طول يأجوج ومأجوج ففي أثر أخرجه ابـن المـنذر عـن ابن عباس موقوفاً أنهم شبر وشبران وثلاثة أشبار ، وفي حديث ضعيف مرفوع أخرجه الطبراني أنهم أصـناف صنف منهم طول الأرز [١٠] وصنف منهم يفترش بإذنه ويلتحف بالأخرى ، وأما خروجهم فمن خلف السد أقصى

---

(١) صحيح مسلم – مع شرح النووي (١٨/٦٧-٦٨) .
(٢) سورة الزخرف ، الآيات (٥٧-٦١) .
(٣) ابن جرير (٢٥/٩٠-٩١) ، القرطبي (١٦/١٠٥) وهي قراءة ابن عباس ومجاهد وغيرهما
(٤) سورة النساء ، الآية (١٥٩) .
(٥) انظر : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٢/٤٠٤-٤٠٥) .
(٦) جامع البيان (٦/٢١) .
(٧) نفسه (١/١٨) .
(٨) انظر : تفسير القرآن العظم (٢/٤١٥) .
(٩) انظر : معترك الأقران (٣/١٠١) ، الحاوي (١/٣٧٩) .
(١٠) الأرز : بسكون الراء وفتحها : شجر الصنوبر .

بلاد الترك ، وفي الحديث أن مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان ، وأما مدة إقامتهم فيسيرة فإنهم يخرجون في زمن عيسى ، ويهلكون في زمنه "[١] .

هذا ما ذكره السيوطي وهو يتضمن عدة أمور :

١- الاعتقاد بخروجهم . ٢- مكان خروجهم .

٣- صفتهم وأصنافهم . ٤- مدة لبثهم في الأرض .

وهذه النقاط الأربع تحتاج إلى شئ من التحقيق فأقول وبالله تعالى التوفيق والاستعانة .

أولاً : اعتقاد خروجهم :

خروج يأجوج ومأجوج علامة من علامات الساعة الكبرى ، وقد دل على خروجهم الكتاب ، والسنة .

١- قـال تعـالى : (حـتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين)[٢] .

يقـول ابن كثير : " قد قدمنا أنهم (يعني يأجوج ومأجوج) من سلالة آدم - عليه السلام - بل هم من نسل نوح أيضاً من أولاد يافث أب الترك ، والترك شرذمة منهم ... وقد ورد ذكر خروجهم في أحاديث متعددة من السنة النبوية "[٣] ثم ساق بعض الأحاديث .

٢- وقال تعالى : (ثم اتبع سبباً . حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً . قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً . آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً . قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا . وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً)[٤] .

يقـول ابـن كثير عن السدين : " هما جبلان متناوحان[٥] بينهما ثغرة يخرج مها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيثون فيهم فساداً ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم - عليه السلام - كما ثبت في الصحيحين : " إن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك . فيقول ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة . فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فيقال : إن فيكم أمتين ، ما كانتا في شئ إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج "[٦] "[٧] .

---

(١) الحاوي (٣٧٩/١) .
(٢) سورة الأنبياء ، الأيتان (٩٦-٩٧) .
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٦٧/٥) .
(٤) سورة الكهف ، الآيات (٩٢-٩٩) .
(٥) أي متقابلان .
(٦) صحيح البخاري (١٢٢،١٢٣/٦) كتاب التفسير ، تفسير سورة الحج ، كتاب الرقاق (١٣٧،١٣٨/٨) ، صحيح مسلم (١٣٩،١٤٠/١) كتاب الإيمان .
(٧) تفسير القرآن العظيم (١٩١/٥) .

ومن الأحاديث النبوية التي تكلمت عن خروج يأجوج ومأجوج :

١- عـن أم حبيـبة ، بنت أبي سفيان - رضي الله عنهما - عن زينب بنت جحش - رضي الله عنها - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخل عليها يوماً فزعاً يقول : " لا إله إلا اله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يـأجوج ومأجوج مثل هذه (وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها) " قالت زينب بنت جحش : فقلت : يا رسول الله ، أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : " نعم ، إذا كثر الخبث "(١) .

٢- وفي حديث النواس بن سمعان - رضي الله عنه - قوله - صلى الله عليه وسلم - : " ...إذا أوحى الله إلى عيسى أني قـد أخـرجت عـباداً لي لا يُدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج . وهم من كل حدب ينسـلون ، فيمر أولئك على بحيرة طبرية فيشرون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماءً ، ويحصر نبي الله عيسـى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب إلى الله عيسى وأصحابه فيرسـل الله عـليهم الـنغف(٢) في رقابهم ، فيصبحون فرسى(٣) ، كموت نفس واحدة ، ثم يُهبط بنبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله ، فيرسل الله طيـراً ، كأعـناق الـبخت(٤) فتحمـلهم ، فتطرحهم حيث شاء الله "(٥) وفي رواية بعد قوله : " لقد كان بهذه مرة ماء ، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخَمَر(٦) ، وهو جبل ببيت المقدس . فيقولون : لقد قتلنا من في الأرض ، هلم فلنقتل من في السماء ، فيرمون بنشابهم(٧) إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماء "(٨) .

٣- وفي حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقى ابراهيم وموسى وعيسى -عليهم السلام - فتذاكروا الساعة... إلى أن قال : " فردوا الحديث إلى عيسى فذكر قتل الدجال ، ثم قال :) ثم يرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، لا يمرون بماء إلا شربوه ، ولا بشئ إلا أفسدوه ، يجأرون إليّ فأدعو الله ، فيرسل السماء بالماء فيحملهم فيقذف بأجسامهم في البحر "(٩) .

وفي الباب أحاديث أخر كثيرة في معنى الذي أوردته منها .

٢- أمـا مكـان خـروجهم : فقد مضى كلام ابن كثير أنهم يخرجون من بين السدين اللذين ذكروا في القرآن وهما جبلان متقابلان يخرجون من ثغرة بينهما على بلاد الترك .

٣- وعـن صفتهم وأصنافهم : فقد ذكر السيوطي أنهم شبر وشبران وثلاثة أشبار ، وأن منهم صنف طول شجرالأرز مائة

---

(١) صحيح البخاري - مع الفتح (٣٨١/٦) ، (١٠٦/١٣) ، صحيح مسلم - مع شرح النووي (٢/١٨) .

(٢) (النَغَفُ) بالتحريك ، دود يكون في أنوف الإبل والغنم ، واحدتها نغفة النهاية (٨٧/٥) .

(٣) (فرسى) بفتح الفاء ، أي قتلى ، الواحد فريس من فرس الذئب الشاة ، وافترسها إذا قتلها، النهاية (٢٢٨/٣) .

(٤) (البُخت) بضم الباء ، جمال طوال الأعناق ، وهي لفظة معربة ، مفردها بختية للأنثى ، وبختي للذكر ، النهاية (١٠١/١) .

(٥) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٦٨/١٨-٦٩) .

(٦) الخمر ، بفتح الخاء والميم ، هو الشجر الملتف الذي يستتر من فيه ، وقد جاء تفسيره في الحديث بأنه جبل ببيت المقدس .

(٧) النشاب : يطلق على النبل والسهام ، واحدته نشابة . لسان العرب (٧٥٧/١) .

(٨) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٧٠/١٨-٧١) .

(٩) مستدرك الحاكم (٤٨٨/٤) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه أحمد شاكر مسند أحمد (١٨٩/٤) وضعفه الألباني ، في ضعيف الجامع (٢٠/٥) رقم (٤٧١٢) .

وعشرون ذراعاً ، وصنف منهم يفترش بأذن ويلتحف بالأخرى "[١] .

وقد ذكر ابن حجر بعض الآثار ولكنها روايات ضعيفة تدل على أنهم ثلاثة أصناف :

١- صنف أجسادهم كالأرز .

٢- وصنف أربعة أذرع في أربعة أذرع .

٣- وصنف يفترشون آذانهم[٢] .

كما ذكر السيوطي ، ولكن ابن كثير انكر هذه الروايات وقال : " إن من زعم أن هذه صفاتهم فقد تكلف ما لا علم له بـه ، وقال ما لا دليل عليه "[٣] مما يدل على أن هذه الأوصاف لا تصح لأنها وردت بروايات ضعيفة لا تنهض للاحتجاج ، وهي أشبه ما تكون بالخرافات .

والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء وأشداء لا طاقة لأحد بقتالهم ، ويبعد مع هذا أن يكون طول الواحد منهم شبر أو شبران أو ثلاثة .

٤- وعـن مدة لبثهم في الأرض : فهي مدة يسيرة كما قال السيوطي فإنهم يخرجون في زمن عيسى ويهلكون في زمنه[٤] وهذا هو الذي دلت عليه الأحاديث المتقدمة .

<u>الخامسة :</u> طلوع الشمس من مغربها :

ذكرها السيوطي في تعديده لبعض أشراط الساعة[٥] .

ويدل على هذه العلامة - وهي طلوع الشمس من المغرب الكتاب والسنة .

قال تعالى : (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)[٦]

قـال ابـن جرير - رحمه الله - : " وأولى الأقوال بالصواب في ذلك ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: ذلك حين تطلع الشمس من مغربها "[٧] .

وقال الشوكاني : " فإذا ثبت رفع هذا التفسير النبوي من وجه صحيح لا قادح فيه ، فهو واجب التقديم ، محتم الأخذبه "[٨] .

ومن السنة النبوية أدلة صحيحة على هذه الآية أو العلامة :

١- فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس

---

(١) الحاوي (٣٧٩/١) .
(٢) انظر : فتح الباري (١٠٧/١٣) .
(٣) النهاية (١٥٣/١) ، وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٨) حديثاً رواه حذيفة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في وصف يأجوج ومأجوج ببعض هذه الصفات ، وعزاه للطبراني في الأوسط ، وفي اسناده يحيى بن سعيد العطار ، وهو ضعيف ، وقال فيه ابن حجر : "ضعيف جداً " انظر : فتح الباري (١٠٦/١٣) .
(٤) انظر : الحاوي (٣٩٧/١) ، والمقصود مدة خروجهم وشرهم المنتشر على الناس ، أما وجودهم فهم موجودون من زمن ذي القرنين .
(٥) انظر : السابق نفسه .
(٦) سورة الأنعام ، الآية (١٥٨) .
(٧) جامع البيان (١٠٣/٨) .
(٨) فتح القدير (١٨٢/٢) .

مـــن مغـــربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً "[١] .

٢- وعنه - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان ... (نذكر الحديـث وفيه :) وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً "[٢] .

٣- وعـــنه - رضــي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " بادروا بالأعمال ستاً : طلوع الشمس من مغربها... " الحديث[٣] .

٤- وفي حديث حذيفة بن أسيد - رضي الله عنه - في ذكر أشراط الساعة فذكر منها : " طلوع الشمس من مغربها "[٤] .

٥- وعن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : حفظت من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : " إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها "[٥] .

٥- وعن أبي ذر - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال يوماً : " أتدرون أين تذهب هذه الشمس ؟ " قـــالوا : الله ورسوله أعلم ، قال " إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش ، فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتى يقـــال لها : ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة ، ولا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي ، ارجعي من حيث جئت ، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً ، حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش ، فيقال لها : ارتفعي ، أصبحي طالعة من مغربك ، فتصبح طالعة من مغربها " فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الله عليه وسلم : " أتدرون متى ذاكم ؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً "[٦] .

وإذا طـــلعت الشمس من مغربها ، أغلق باب الإيمان والتوبة ممن لم يكن قبل ذلك مؤمناً ، فإنها آية عظيمة يراها كـــل مـــن كـــان في ذلك حياً في زمان ذلك التحول الخطير لمسيرها المعتاد ، وحينئذ تتكشف لهم الحقائق ، ويشاهدون من الأهـــوال ما يلوي أعناقهم إلى الإقرار والتصديق بالله وآياته وما أخبر الناس به ، وهذا الاقرار والتصديق لا ينفعهم حينئذ لأن حكمهم آنذاك حكم من عاين بأس الله تعالى . كما قال جل وعلا : (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون)[٧] .

قال ابن كثير - رحمه الله - : " إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان

---

(١) صحيح البخاري - مع الفتح (٣٥٢/١١) ، وصحيح مسلم - مع شرح النووي (١٩٤/٢) .
(٢) صحيح البخاري - مع الفتح (٨١/١٣-٨٢) .
(٣) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٨٧/١٨) .
(٤) نفسه (٢٧/١٨-٢٨) .
(٥) صحيح مسلم - مع شرح النووي (٧٧/١٨-٧٨) ، وأحمد في المسند (١١/١١٠-١١١) ت أحمد شاكر .
(٦) صحيح مسلم (١٩٥/٢-١٩٦) مع شرح النووي ، ورواه البخاري مختصراً في صحيحه (٥٤١/٨) مع الفتح .
(٧) سورة غافر ، الآية (٨٥) .

مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، وإن كان مخلطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبة "[١] .

يؤكد هذا المعنى قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : " لا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة ، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب ، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه ، وكفى الناس العمل "[٢] .

وقوله – عليه الصلاة والسلام – : " إن الله عز وجل جعل بالمغرب باباً عرض مسيرة سبعين عاماً للتوبة ، لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله وذلك قول الله تبارك وتعالى : (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت...) الآية[٣] "[٤] .

وقوله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسئ النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها "[٥] .

<u>السادسة :</u> ظهور الدابة :

اشار السيوطي إلى هذه العلامة في معرض كلامه عن أشراط الساعة[٦] .

وقد وردت أدلة على ظهور هذه الدابة في آخر الزمان تسم الناس على وجوههم بالكفر والإيمان ، فتجلو وجه المؤمن ، وتخم أنف الكافر . من هذه الأدلة :

١- قوله تعالى : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون)[٧] .

فإذا وقع القول عليهم أي : وجب الوعيد عليهم ، لتماديهم في العصيان والفسوق والطغيان ، وإعراضهم عن آيات الله ، وتركهم تدبرها والنزول على حكمها ، وانتهائهم في المعاصي إلى ما لا ينجح معه فيهم موعظة ، ولا يصرفهم عن غيهم تذكرة ، يقول عز من قائل : فإذا صاروا كذلك أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أي دابة تعقل وتنطق ، والدواب في العادة لا كلام لها ولا عقل ، ليعلم الناس أن ذلك آية من عند الله تعالى "[٨] .

وقد وردت أدلة في السنة النبوية على ظهور الدابة منها :

١- عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : حفظت من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حديثاً لم أنسه بعد ، سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : " إن أول الآيات خروجاً : طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على إثرها قريباً "[٩] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٧١) .

(٢) مسند أحمد ت. أحمد شاكر (٣/١٣٣-١٣٤) وقال المحقق : " اسناده صحيح " وقال ابن كثير : " هذا إسناد جيد قوي " النهاية (١/١٧٠) ، وقال الهيثمي : " رجال أحمد ثقات " مجمع الزوائد (٥/٢٥١) .

(٣) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٥٨) .

(٤) الترمذي في سننه مع تحفة الأحوذي (٩/٥١٧-٥١٨) وقال الترمذي : " هذا حديث حسن صحيح " وقال ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦٩) : " صححه النسائي " .

(٥) صحيح مسلم – مع شرح النووي (١٧/٧٦) .

(٦) انظر : الحاوي (١/٣٩٧) ، معترك الأقران (٣/١٠١) .

(٧) سورة النمل الآية (٨٢) .

(٨) انظر : القرطبي : التذكرة (ص٦٩٧) .

(٩) نفسه (١٨/٧٧-٧٨) .

٢- وفي حديث حذيفة بن أسيد في ذكر أشراط الساعة ، فذكر منها الدابة ، وفي رواية " دابة الأرض "(١) .

٣- وفـــي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " بادروا بالأعمال ستاً : (وذكر منها) : دابة الأرض "(٢) .

٤- ومن حديث أبي هريرة - أيضاً - رضي الله عنه - قال النبي - صلى الله عليه وسلم - تخرج الدابة ومعها عصا موســـى - عليه السلام - وخاتم سليمان - عليه السلام - فتخطم الكافر(٣) - قال عفان أحد رواة الحديث - : أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا(٤) حتى إن أهل الخوان(٥) ليجتمعون على خوانهم ، فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر "(٦) .

- **<u>مكان خروج الدابة :</u>** في مكان خروجها خلاف بين العلماء على أقوال منها :

١- أنها تخرج من مكة المكرمة من أعظم المساجد .

٢- أن لهـــا ثلاث خرجات ، فمرة تخرج في بعض البوادي ثم تختفي ، ثم تخرج في بعض القرى ، ثم تظهر في المسجد الحرام(٧) .

وهـــناك أقوال أخرى غير ما ذكر ، غاليها يدور على أن خروجها يكون من الحرم المكي . وليس على هذا دليل صريح قاطع ، فالله تعالى أجل وأعلم (٨) .

---

(١) نفسه (١٨/٢٧-٢٨) .

(٢) نفسه (١٨/٧٨١) .

(٣) (تخطـــم الكافر) : أي تسمه ، من خطمت البعير إذا كويته خطماً من الأنف إلى أحد خديه وتسمى تلك السمة الخطام ، ومعناه أن تؤثر في أنفه سمة يعرف بها . لسان العرب (١٢/١٨٨) ، وترتيب القاموس المحيط (٢/٨٩-٨٠) ، والنهاية (٢/٥٠) .

(٤) (تجلو وجه المؤمن) ، الجلي : انحسار مقدم الشعر ، والمعنى : تصقل وجهه وتبيضه . تحفة الأحوذي (٩/٤٤) .

(٥) (الخوان) : ما يوضع عليه الطعام عند الأكل . النهاية (٢/٨٩-٩٠) .

(٦) مسند أحمد - ت. أحمد شاكر (١٥/٧٩-٨٢) وقال المحقق : " إسناده صحيح " ، وسنن الترمذي (٩/٤٤) ، وقال : " حديث حسن " ومستدرك الحاكم (٤/٤٨٥-٤٨٦) ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٣/٢٦) ح رقم (٣٤١٢) بسبب علي بن زيد بن جدعان ، ضعفه الألباني ، ووثقه أحمد شاكر فقال في تعليقه على المسند (٢/١٢٢) ح رقم (٧٨٣) " علي بن زيد بن جدعان قد سبق أننا وثقناه وهو مختلف فيه ، والراجح عندنا توثيقه وقد صحح له الترمذي أحاديث " .

(٧) جـــاء في حديث حذيفة بن أسيد عند الحاكم : أن لها : " ثلاث خرجات " وذكر الحديث بطوله ، ثم قال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي في تلخيص المستدرك (٤/٤٨٤-٤٨٥) ، ورواه الطبراني والحاكم بسند فيه عمرو الحضرمي ، وهو ضعيف .

(٨) انظر : القرطبي : التذكرة (٦٩٧-٦٩٨) ، الإشاعة (ص١٧٦-١٧٧) ، لوامع الأنوار (٢/١٤٤-١٤٦) .

الفصل الثاني

الحيــــــــاة البرزخيـــــــــة

المبحث الأول : معنى الحياة البرزخية وسؤال القبر ومن لا يسأل في قبره

الحيـــاة البرزخية أي المنسوبة إلى البرزخ ، والبرزخ في كلام العرب : الحاجز بين الشيئين[١] . قال تعالى : (...وجعل بينهما برزخاً...)[٢] أي حاجزاً[٣] .

والـــبرزخ فـــي الاصـــطلاح : الدار التي تعقب الموت إلى البعث قال تعالى : (... ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعـــثون)[٤] أي حاجز بين الموت والبعث ، فمن مات فقد دخل في البرزخ[٥] ، وقال رجل في حضرة الشعبي : رحم الله فلاناً فقد صار من أهل الآخرة ، فقال الشعبي : لم يصر من أهل الآخرة ولكنه صار من أهل البرزخ وليس من الدنيا ولا مـــن الآخـــرة[٥] . فالمقصود بالحياة البرزخية المدة بين الحياة الدنيا ، الحياة المادية الأولى ، والحياة الثانية التي تبدأ بقيام الـــناس من قبورهم وفي هذه الحياة البرزخية مرحلة من مراحل الجزاء الرباني بالثواب أو بالعقاب ، وقد يعبر عنها بعذاب القبر ونعيمه ، ويسبق هذا النعيم أو العذاب سؤال القبر من قبل الملكين .

كلام السيوطي عن عذاب القبر:

تعرض السيوطي لهذه الحياة البرزخية وما يدور فيها من سؤال وعقاب أو ثواب ، وصنف فيها مصنفاً كبيراً سماه " شـــرح الصـــدور بشرح حال الموتى والقبور " يقول السيوطي : " وإن سؤال الملكين منكر ونكير للمقبور حق "[٦] وكلام الســـيوطي هـــذا صـــحيح قد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الإنسان المكلف إذا مات جاءه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما منكر ، ويقال للآخر النكير فيسألانه الأسئلة التالية :

١ - من ربك ؟ ٢ - ما دينك ؟

٣ - ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ أي سيدنا وحبيبنا محمد - صلى الله عليه وسلم - .

أمـــا المؤمن فيجيب عليها بما آمن به في الدنيا من حق ، ثم يعرض عليه مقعده من الجنة ، بعد أن يعرض عليه مقعده من النار - لو لم يكن قد مات مؤمناً - وذلك تطميناً لقلبه ، ثم يفسح له في قبره مد بصره .

أمـــا المنافق والكافر فعندما يسأله الملكان في قبره تلك الأسئلة الثلاث فيقول : لا أدري ، فيقال له : لا دريت ولا تليت[٧] ثم يضرب بمطارق من حديد يصيح منها صيحة يسمعها من يليه من الملائكة والموتى غير الثقلين (الأنس والجن)

---

(١) القاموس المحيط مادة (برز) وانظر ترتيب القاموس المحيط (٢٤٨/١) ومختار الصحاح (ص ٤٢) .

(٢) سورة الفرقان بعض الآية (٥٣) .

(٣) انظر : الطبري : جامع البيان (٢٤/١٩ - ٢٥) ، وابن كثير في تفسيره (١٢٦/٦) تفسير الجلالين (٤٣٩) ، والسفاريني : لوامع الأنوار (٤/٢) .

(٤) سورة المؤمنون ، بعض الآية (١٠٠) .

(٥) انظر : القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (١٠٠/١٢) .

(٦) علم التوحيد في لوحة رقم (٧) .

(٧) أي : لا دريت بنفسك ولا اتبعت من يدري ويعلم ، انظر : ابن حجر : فتح الباري (٢٣٩/٣) .

ثم يضيق عليه قبره تعذيباً له .

ثم استشهد السيوطي على ما ذكره من سؤال الملكين فقال : " قال – صلى الله عليه وسلم – : " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عن أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ لمحمد – صلى الله عليه وسلم – فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبدالله ورسوله : فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً ، وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ، كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت . ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين " رواه الشيخان[١] وفي رواية لأبي داود : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : ربي الله : وديني الإسلام ، والرجل المبعوث رسول الله "[٢] ويقول الكافر في الثلاثة : لا أدري وفي رواية الترمذي : " يقال لأحدهما المنكر ، والآخر النكير "[٣] ا . هـ كلام السيوطي[٤] .

وقد جمع الحافظ ابن حجر بين روايات الحديث المتعددة أثناء شرحه للحديث في " فتح الباري " فكان مما ذكره – رحمه الله – أن الملكين أسودان أزرقان[٥] يقال لأحدهما : المنكر وللآخر النكير بالتعريف[٦] ، أو منكر ونكير بدون أداة التعريف (أل)[٧] . وذكر أيضاً عن بعض الفقهاء أن اسم اللذين يسألان المذنب منكر ونكير ، وأن اسم اللذين يسألان المطيع مبشر وبشير[٨] . ولم يستدل لهذا القول بدليل ، وقد صرح السيوطي بذلك فقال : " وذكر ابن يونس من أصحابنا أن ملكي المؤمن يقال لهما : مبشر وبشير "[٩] ولم يأت هو الآخر على ذلك بدليل ، مما يجعل هذا الكلام من ابن يونس لا يلتفت إليه[١٠] .

وبناء على هذه الأدلة من السنة الصحيحة يجب اعتقاد سؤال الملكين واعتقاد عذاب القبر ونعيمه ، فقد ذهب إلى موجب هذه الأدلة جميع أهل السنة والحديث يقول شارح الطحاوية : " وقد تواترت الأخبار عن رسول الله – صلى الله عليه

---

(١) البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٦٧) رقم (١٣٣٨) الفتح (٢٠٥/٣) ، باب (٨٦) رقم (١٣٧٤) الفتح (٢٣٢/٣) .
ومسلم في " صحيحه " (٢٢٠٠/٤) تاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٥١) ، باب (١٧) رقم {٧٠-(٢٨٧٠)} .

(٢) الحديث رواه أبو داود في " سننه " رقم (٤٨٢٧) وأحمد في " المسند " (٢٨٦/٤-٢٦٩) ، وأبو داود الطيالسي في " مسنده " رقم (٧٥٣) ، وعبدالرزاق في " مصنفه " رقم (٦٧٣٧) ، والآجري في " الشريعة " رقم (٨٥٩) والبيهقي في " الاعتقاد " (ص ١٣٣) وصححه العلامة ابن القيم في شرحه على سنن أبي داود وناقش علل أبي حاتم البستي وابن حزم على الحديث (٩٠/١٣) من عون المعبود .

(٣) إسناده حسن ، رواه الترمذي في " سننه " كتاب الجنائز (٣٧٤/٣) ح رقم (١٠٧١) وقال : " حديث حسن غريب " ، وابن أبي عاصم في " السنة " (٢/ ٤١٦-٤١٧) ح رقم (٨٦٤) ، وابن حبان في " صحيحه " انظر : " الموارد " (ص ١٧٩) ح رقم (٧٧٩) جميعهم من طريق عبدالرحمن بن إسحاق ... به ، وحسن الألباني إسناده في هامش كتاب السنة لابن أبي عاصم ، وانظر : السلسلة الصحيحة له ، ح رقم (١٣٩١) .

(٤) علم التوحيد – لوحة رقم (٧) .

(٥) انظر : الفتح (٢٣٧/٣) وهو في حديث الترمذي السابق في الحاشية (٢) .

(٦) انظر : الفتح (٢٣٧/٣) وهو في حديث الترمذي المتقدم .

(٧) انظر : الفتح (٢٣٧/٣) وهو في رواية ضعيفة عن أبي الدرداء موقوفة رواها ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٨/٣) من طريق شعبة عن يعلي بن عطاء عن تميم عن غيلان أن رجلاً جاء إلى أبي الدرداء فقال : علمني خيراً ينفعني الله به فذكره .

(٨) انظر : الفتح (٢٣٧/٣) .

(٩) علم التوحيد – لوحة رقم (٧) .

(١٠) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار البهية (٨/٢) .

وسـلم - فـي ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا نتكلم في كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ، ولكن قد يأتي بما تحار فيه العقول "(١) .

ويـتحدث السفاريني عن الأمور التي تحدث بعد الموت فيقول : " منها سؤال الملكين منكر ونكير ، فالإيمان بذلـك واجب شرعاً لثبوته عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في عدة أخبار يبلغ مجموعها مبلغ التواتر وقد استنبط ذلك واستدل عليه بقوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء)(٢) " ثم أورد الأدلة من السنة النبوية(٣) .

قال الإمام أحمد - رحمه الله - : " عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل "(٤) وقال الإمام أبو الحسن الأشعري - رحمـه الله - بعـد أن عـدد أصول أهل السنة والجماعة التي أجمعوا عليها : " وأجمعوا على أن عذاب القبر حق وأن الناس يفتنون في قبورهم بعد أن يحيون ويُسألون فيثبت الله من أحب تثبيته "(٥) .

وقال الإمام محمد بن حسين الآجري بعد أن سرد الأحاديث والآثار التي تدل على ثبوت عذاب القبر ونعيمه : " ما أسـوأ حـال من كذب بهذه الأحاديث ، لقد ضل ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً "(٦) وقال ابن عبدالبر بعد أن ذكر حديث الخسوف : " وأما قوله أوحى إليّ أنكم تفتنون في قبوركم ، فإنه أراد فتنة الملكين منكر ونكير حين يسألان العبد من ربك ؟ ومـا دينك ؟ ومن نبيك ؟ والآثار في هذا متواترة ، وأهل السنة والجماعة كلهم على الإيمان بذلك ولا ينكره إلا أهل البدع "(٧) وعقـد الشـيخ الأصبهاني في كتابه " الحجة في بيان المحجة " فصلاً بعنوان : " الرد على من أنكر عذاب القبر " ثم ساق فيه بعض الأحاديث لاثبات عذاب القبر(٨) .

وصـنف العلامة ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - كتاباً بعنوان " أهوال القبور " تحدث فيه في الباب السادس عن عذاب القبر ونعيمه فقال : " وقد دل القرآن على عذاب القبر في مواضع كثيرة " ثم ساق بعض الآيات الكريمة وأقوال المفسرين فيها ، كما ذكر كثيراً من الأحاديث الدالة على عذاب القبر ونعيمه(٩) .

والسـيوطي على عقيدة أهل السنة في وجوب الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين ولذلك قال : " باب فتنة

---

(١) (ص ٤٥٠ - ٤٥١) .

(٢) سـورة سـيدنا إبـراهيم - عليه السلام - الآية (٢٧) وورد الاستدلال بهذه الآية الكريمة على سؤال القبر عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - موقوفـاً بسند صحيح ، عند ابن أبي شيبة في " المصنف " وروى مرفوعاً إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن البراء نفسه بألفاظ متقاربة ، رواه البـخاري في " صحيحه " كتاب التفسير (٦٥) سورة ابراهيم - عليه السلام - باب (٢) ح رقم (٤٦٩٩) انظر الفتح (٣٧٨/٨) ومسلم في " صحيحه " (٤/ ٢٢٠١) ح رقم (٢٨٧١) .

(٣) انظر : لوامع الأنوار البهية (٥/٢) .

(٤) طبقات الحنابلة (٦٢/١) ، السفاريني : لوامع الأنوار (٢٣/٢) .

(٥) رسالة إلى أهل الثغر (ص ٢٧٩) .

(٦) الشريعة (١٢٨٧/٣) .

(٧) التمهيد : (١٨٦/١٢) .

(٨) (٤٤٩/١) .

(٩) انظر : (ص ٣٩ - ٨١) .

القبر ، وهي سؤال الملكين ، قد تواترت الأحاديث بذلك مؤكدة من رواية أنس والبراء ... "[١] ثم ذكر عدة الصحابة الذين رووا هذا فبلغوا ستة وعشرين صحابياً – رضي الله عنهم جميعاً[٢] – وبعد ذلك أردفهم برواياتهم جميعاً[٣] .

عذاب القبر لا يختص بمن يقبر :

نقل السيوطي عن القاضي قوله : " إن من لم يدفن ممن بقى على وجه الأرض يقع لهم السؤال والعذاب ، ويحجب الله أبصار المكلفين عن رؤية ذلك[٤] ، كما حجبها عن رؤية الملائكة والشياطين ، قال بعضهم : " وترد الحياة إلى المصلوب ونحن لا نشعر به ، كما أن نحسب المغمى عليه ميتاً ، وكذلك يضيق عليه الجو كضمة القبر ، ولا يستنكر شيئاً من ذلك من خالط الإيمان قلبه ، وكذلك من تفرقت أجزاؤه يخلق الله الحياة في بعضها أو كلها ويوجه السؤال عليها "[٥] وهذا ما قرره شارح الطحاوية فقال : " واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر[٦] ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء ، أو صلب أو غرق في البحر – وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور ، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – مراده من غير غلو ، ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدي والبيان "[٧] .

من لا يُسأل في القبر :

فتنة القبر عامة لجميع المكلفين إلا النبيين فقد اختلف فيهم[٨] ، وإلا الشهداء والمرابطين ونحوهم ممن جاءت النصوص دالة على نجاتهم من الفتنة . أما غير المكلفين من الصبيان والمجانين فقد اختلف فيهم ، فذهب جمع من أهل العلم إلى أنهم لا يفتنون ، منهم القاضي أبو يعلي ، وابن عقيل ، ووجهتهم أن المحنة تكون لمن كلف ، أما من رفع عنه القلم فلا يدخل في المحنة ، إذ لا معنى لسؤاله عن شيء لم يكلف به .

وذهب آخرون إلى أنهم يفتنون [٩]، وقد روى مالك وغيره عن أبي هريرة – رضي الله تعالى عنه أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – صلى على طفل صلاة الجنازة فقال : " اللهم قه عذاب القبر وفتنة القبر " وهذا القول موافق لقول من قال : إنهم يمتحنون في الآخرة ، وأنهم مكلفون يوم القيامة كما هو قول أكثر أهل العلم وأهل السنة من أهل الحديث والكلام ، وهو الذي ذكره أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة واختاره ، وهو مقتضى نصوص الإمام أحمد – رحمه الله

---

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص ١٧٠) ت . وتعليق يوسف بدوي .
(٢) انظر : نفسه .
(٣) انظر : نفسه (ص ١٧٠ – ١٩٧) .
(٤) ويحجب الله سمعهم كذلك عن سماع ذلك .
(٥) شرح الصدور (ص ١٩٨ – ١٩٩) .
(٦) وكذلك من استحق النعيم ناله ذلك ولو كانت حالته كحالة من ذكر .
(٧) ص (٤٥١ – ٤٥٢) .
(٨) انظر : ابن تيمية : مجموع الفتاوي (٤/٢٥٧) .
(٩) وهو قول أبي الكيم الهمداني ، وأبي الحسن بن عبروس ، ونقله عن أصحاب الشافعي ـ رحمه الله ـ

تعالى -[١] .

وتحـدث السيوطي عمن لاتنالهم فتنة القبر فقال : " ورد في الأخبار الصحاح أن بعض الموتى لا ينالهم فتنة القبر ولا يأتيهم الفتانان ، وذلك على ثلاثة أوجه :

- مضاف إلى عمل .   - ومضاف إلى حال بلاء نزل بالميت .

- ومضاف إلى زمان "[٢] . وكذا قال السفاريني [٣]

ثم روى السيوطي الأحاديث التي وردت في هذه المسألة :

أما ما ورد منها مضافاً إلى عمل : فالأحاديث التي تبين أن الشهداء والمرابطين في سبيل الله لا يفتنون في قبورهم من ذلك أن رجلاً قال : يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد ؟ قال :" كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة"[٤]

- وعن أبي أيوب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " من لقي العدو فصبر حتى يقتل أو يغلب ، لم يفتن في قبره "[٥] .

- وعـن سلمان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ- يقول : " رباط يوم وليلة ، خير من صيام شـهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن من الفتان "[٦] فهذه الأحاديث تدل عـلى أن من مات مقتولاً وهو يجاهد في سبيل الله وكذلك من كان مرابطاً أنه لا يفتن في قبره لأنه مات على عمل عظيم ينصر به دين الله جل وعلا فكان جزاؤه أن يؤمنه الله تعالى من فتنة القبر جزاء ما قام به صابراً محتسباً .

- وعن المقدام بن معدي كرب الكندي قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إن للشهيد عند الله عز وجـل (قال الحكم : ست خصال) أن يغفر له في أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ، ويأمن الفزع الأكبر ، ويحلى حليه الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه "[٧] .

---

(١) انظر السابق نفسه (٢٥٧/٤ - ٢٧٧) .

(٢) شرح الصدور (ص ٢٠٤) .

(٣) انظر : لوامع الأنوار (١١/٢ ، ١٢) ، التذكرة (٢٣٠/١) .

(٤) سنده صحيح ، رواه النسائي في " سننه " (٩٩/٤) وسنده كما يلي :

- ابراهيم بن الحسن ، ثقة ثبت - كما في الكاشف للذهبي (٣٥/١) .

- حجاج بن محمد المصيص الأعور ، أحد الثقات ، قال أحمد : " كان أحفظ وأصح حديثاً " كما في ميزان الاعتدال (٤٦٤/١) .

- ليث بن سعد ، ثبت - كما في الكاشف للذهبي (١٢/٣) .   - معاون بن صالح الحضرمي الحمصي ، صدوق إمام - كما في الكاشف (١٣٩/٣) .

- صفوان بن عمرو ، وثقوه ، قال عمرو بن علي : " ثبت في الحديث " ، ثم قال : " سمعت أبي يقول : ثقة ، وسئل أبي عن صفوان فقال : لا بأس به " - كما في الجرح والتعديل (٤٢٢/٢) .- راشف بن سعد الحمصي ، ثقة - كما في الكاشف (٢٣١/١) . - وجهالة الصحابي لا تضر مع صحة السند .

(٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٢٧/٥) : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه مصفى بن بهلول والد محمد ، ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات .
ورواه الحاكم في " المستدرك " (١١٩/٢) وقال : " صحيح الاسناد ولم يخرجاه " وتعقبه الذهبي بأن معاوية ضعيف .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " كتاب الامارة ، باب فضل الرباط في سبيل الله ع وجل ح رقم (١٩١٣) ، والنسائي في " سننه " (٣٩/٦) ، والترمذي في " سننه " رقم (١٦٦٥) ، وأحمد في " المسند " (٤٤/٥-٤٤١) ، وابن حبان (٦٩/٧) ، الطبراني في " الكبير " (٦٠٧٧) ، البيهقي (٣٨/٩-٣٩) ، وابو نعيم (١٩٠/٥) ، وسعيد بن منصور (٢٤٠٩) .

(٧) رواه الترمذي في " سننه " (١٧/٣) وصححه ، وابن ماجه في " سننه " (١٨٤/٢) وأحمد (١٣١/٤) وإسناده صحيح ، ثم أخرجه أحمد (٢٠٠/٤) من حديـث عـبادة بن الصامت ومن حديث قيس الجذامي (٢٠٠/٤) واسناده صحيح أيضاً . انظر : الألباني : أحكام الجنائز وبدعها (ص ٣٥ - ٣٦) ، وانظر : صحيح ابن ماجه (٢٢٥٧) .

والشـــهيد قـــتل وهـــو يقاتل في سبيل الله ، فهو ميت على عمل بل هو من أجل الأعمال . وفي لفظ الترمذي : " يوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة من خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين "[١] .

وأما ما ورد منها مضافاً إلى بلاء نزل بالميت : أورد السيوطي في ذلك حديثاً عن جامع بن شداد قال : سمعت عبدالله بن يســار يقول : كنت جالساً عند سليمان بن صرد ، وخالد بن عرفطة فذكر أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يشهدا جــنازته ، فقال أحدهما للآخر : ألم يقل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من يقتله بطنه لم يعذب في قبره "[٢] فهذا حديث إسناده صحيح يصح الأستشهاد به ، أما ما أورده السيوطي منسوباً إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو قوله : " مـــن مات مريضاً مات شهيداً ، ووقى فتنة القبر ، وغدى وريح عليه برزقه من الجنة "[٣] فهو حديث اسناده واه أورده ابن الجوزي في الموضوعات[٤] .

أمـــا ما ورد منها مضافاً إلى زمان : أورد السيوطي في ذلك حديثاً عن عبدالله بن عمرو – رضي الله عنه – قال : قال : رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر "[٥] .

وأورده الألباني في " أحكام الجنائز " كعلامة من علامات حسن الخاتمة[٦] .

هل يسأل الأطفال في قبورهم ؟ :

تعـــرض السيوطي لهذه المسألة وأحال الكلام فيها على ابن القيم – رحمه الله – في كتابه " الروح " والذي حكى فيـــه عن الحنابلة في هذه المسألة قولين ذكرهما بقوله : " ومما كثر عليه السؤال عنه الأطفال ، هل يسألون ؟ وهذه المسألة ذكرها ابن القيم في كتاب " الروح " وحكى فيها قولين للحنابلة :

أحدهما : نعم ، لحديث أنه – صلى الله عليه وسلم – صلى على صبي فقال : " اللهم قه عذاب القبر "[٧] وهذا الذي جزم به القرطبي وقال : إن العقل يكمل لهم ليعرفوا بذلك منزلتهم وسعادتهم ، ويلهمون الجواب عما يسألون عنه[٨] .

---

(١) سنن الترمذي (١٧/٣) ، وانظر القرطبي : التذكرة (٢٣٣/١ – ٢٣٤) .

(٢) رواه النسائي في " سننه " (٩٨/٤) والترمذي في " سننه " رقم (١٠٦٤) ، وأحمد في " المسند " (٢٦٢/٤) وأبو داود الطيالسي رقم (١٢٨٨) وابن حبان (٢٥٨/٤) ، والطبراني في الصغير (١٠٨/١) وذكره الألباني في تخريج المشكاة رقم (١٥٧٣) وقال : " اسناد أحمد والطيالسي صحيح " .

(٣) اســـناده واه جداً ، رواه ابن ماجة في " سننه " رقم (١٦١٥) والبيهقي في اثبات عذاب القبر رقم (١٧١) وابو نعيم في الحلية (٢٠١/٨ – ٢٠٢) وهو فـــي تنزيه الشريعة (٣٦٣/٢) ، والقرطبي في التذكرة (٢٣٥/١) وانظر اللآلئ المصنوعة (٢٢١/٢) وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (٢١٦/٣ – ٢١٧) وقـــال ابـــن ابي حاتم في علل الحديث (٣٥٨/١) قال أبي : هذا خطأ إنما هو : " من مات مرابطاً " غير أن ابن جريج رواه هكذا واسناده فيه ابراهيم بن محمد بن ابي يحيى الاسلمي ، كذبه مالك ويحي القطان وابن معين وقال أحمد قدري معتزلي جهمي كل بلاء فيه ، وقال البخاري : جهمي تركه ابن المبارك .

(٤) انظر : (٢١٦/٣ – ٢١٧) .

(٥) رواه الترمذي في " سننه " رقم (١٠٧٤) وقال : " هذا حديث غريب " والبيهقي في " إثبات عذاب القبر " رقم (١٧٣) وقال المباركفوري في " تحفة الاحوذي " (١٨٨/٤) : " فـــالحديث ضعيف لانقطاعه لكن له شواهد " وقال الحافظ في " فتح الباري " بعد ذكر هذا الحديث في اسناده ضعف ، وأخرجه ابو يعلي مـــن حديث انس نحوه واسناده اضعف " وقال الالباني في " احكام الجنائز " (ص ٣٥) اخرجه أحمد (٦٥٨٢ – ٦٦٤٦) من طريقين عن عبدالله بن عمرو ، والترمذي من احد الوجهين وله شواهد عن انس وجابر بن عبدالله وغيرهما فالحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح " .

(٦) انظر (ص ٣٥) .

(٧) لم أجد فيما تحت يدي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – صلى على صبي فقال : " اللهم قه عذاب القبر " إنما الذي وجدته من كتب الحديث عند أحمد في المسند (٤٩١/٣)(٢٣/٦) أن النبي – صلى الله عليه وسلم – صلى على الميت ، ولم يذكر فيه صبي ، وعند النسائي جنائز (٧٧) انه صلى على جنازة ، وكذلك عند ابي داود جنائز (٥٦) .

(٨) شرح الصدور (ص ٢١٠) .

قلت (السيوطي) : وقد قال به الضحاك فأخرج ابن جرير عن جويبر قال : مات للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام فقال : (يا جابر) إذا أنت وضعت ابني في لحده فأبرز وجهه وحل عقده ، فإن إبني يُجلس للسؤال[١] ، فقلت : عم يُسأل ؟ قال : عن الميثاق الذي أقربه في صلب آدم (عليه السلام)[٢] .

الثاني: لا ، لأن السؤال إنما يكون لمن عقل الرسول والمرسل ، فيسأل هل آمن بالرسول وأطاعه أم لا ؟ والجواب عن الحديث أنه ليس المراد فيه بعذاب القبر عقوبته ، ولا السؤال ، بل مجرد الألم بالهم والغم والحسرة والوحشة والضغطة التي تعم الأطفال وغيرهم ، وهذا القول هو الصحيح بل الصواب "[٣] وبهذا يبين السيوطي أن الأطفال والأنبياء ليس عليهم حساب ولا عذاب القبر ولا سؤال منكر ونكير ثم قال : " وقد جزم أصحابنا الشافعية بأن الطفل لا يلقن بعد الدفن وأن التلقين يختص بالبالغ هكذا ذكره النووي في " الروضة " وغيرها وهو دليل على أن الأطفال لا يسألون ، وقد أفتى به الحافظ ابن حجر "[٤] أما ما ذكره السيوطي من تلقين الميت بعد دفنه فلم يثبت في حديث صحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – يقول ابن القيم – رحمه الله – في بيان هديه – صلى الله عليه وسلم – في دفن الميت : " ولم يكن يجلس يقرأ عند القبر ولا يلقن الميت كما يفعله الناس اليوم ، وأما الحديث الذي رواه الطبراني في " معجمه " من حديث أبي أمامة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – " إذا مات أحد من إخوانكم فسويتم التراب على قبره ، فليقم أحدكم على رأس قبره ثم ليقل : يا فلان فإنه يسمعه ولا يجيب ثم يقول : يا فلان بن فلانة، فإنه يستوي قاعداً ، ثم يقول : يا فلان بن فلانة ، فإنه يقول : أرشدنا يرحمك الله ، ولكن لا تشعرون ثم يقول : اذكر ما خرجت عليه من الدنيا: شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنك رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً وبالقرآن إماماً ، فإن منكراً ونكيراً يأخذ كل واحد منهما بيد صاحبه ويقول : انطلق بنا ما نقعد عند من لقن حجته ، فيكون الله حجيجه دونهما ، فقال رجل : يا رسول الله ! فإن لم يعرف أمه ؟ قال : فينسبه إلى حواء : يا فلان بن حواء "[٥] فهذا حديث لا يصح رفعه "[٦] وذكر عن الإمام أحمد – رحمه الله تعالى – أنه قال : " ما رأيت أحداً فعل هذا إلا أهل الشام ... "[٧] ، وقال الإمام الأمير الصنعاني : " ...ويتحصل من كلام أئمة

---

(١) في جامع البيان (١١٢/٩) مُجلس ومسئول .

(٢) جامع البيان (١١٢/٩) ، وانظر الدر المنثور (٦٠٢/٩) .

(٣) شرح الصدور (٢١٠) ، وانظر الروح لابن القيم .

(٤) شرح الصدور (ص ٢١٠) .

(٥) هذا حديث منكر ، اخرجه القاضي الخلعي في الفوائد (٥٥/٢) عن ابي الدرداء هاشم بن محمد الأنصاري : ثنا عتبة بن السكن عن أبي زكريا عن جابر بن سعيد الأزدي قال : " دخلت على ابي أمامة الباهلي وهو في النزع فقال لي : يا أبا سعيد إذا أنا مت فاصنعوا بي كما امر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن نصنع بموتانا ، فإنه قال : " إذا مات الرجل منكم ... " فذكره ، قال الألباني في " الضعيفة " (٦٤/٢) رقم (٥٩٩) : " وهذا اسناد ضعيف جداً لم أعرف أحداً منهم غير عتبة بن السكن ، قال الدارقطني : " متروك الحديث " وقال البيهقي : " واه منسوب إلى الوضع " وذكره الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٤٥/٣) وقال : " رواه الطبراني في " الكبير " وفي اسناده جماعة لم اعرفهم " وقال الحافظ ابن حجر في " أمالي الأذكار " بعد تخريجه : فيما ذكره ابن علان في " الفتوحات الربانية " (١٩٦/٤) " حديث غريب وسند الحديث من الطريقين ضعيف جداً " وقال النووي في " المجموع " (٣٠٤/٥) بعد أن عزاه الطبراني : " واسناده ضعيف ، وقال ابن الصلاح : ليس اسناده بالقائم " . وكذلك ضعفه الحافظ العراقي في تخريج " الأحياء " (٤٢٠/٤) ، ويقول الألباني في " الضعيفة " (٦٥/٢) : " وجملة القول أن الحديث منكر عندي إن لم يكن موضوعاً " .

(٦) زاد المعاد في هدي خير العباد (٥٠٤/١) .

(٧) نفسه .

التحقيق أنه حديث ضعيف والعمل به بدعة ولا يغتر بكثرة من يفعله "[1] وعلى ذلك فتلقين الميت بعد دفنه كلام ساقط لا يعتد به

هل الموتى يصلون في قبورهم ويقرأون ؟ :

ذكر السيوطي هذه المسألة وأورد فيها عدة أحاديث منها :

- عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون "[2] .

- وعنه أيضاً أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ليلة أسرى به مر بموسى - صلوات الله عليه - وهو قائم يصلي في قبره "[3] وفي قراءة الميت في قبره أورد السيوطي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : ضرب بعض أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خباءه على قبر[4] ، وهو لا يحسب أنه قبر وإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبره ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " هي المنجية ، هي المانعة تنجيه من عذاب القبر "[5] .

- وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " نمت فرأيت في الجنة " ولفظ النسائي : " دخلت الجنة فسمعت صوت قارئ يقرأ ، فقلت : من هذا ؟ قالوا حارثة بن النعمان فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " كذاك البر ، كذاك البر ، كذاك البر " وكان أبر الناس بأمه[6] .

يقول ابن رجب - رحمه الله - : " قد يكرم الله بعض أهل البرزخ بأعماله الصالحة في البرزخ وإن لم يحصل له بذلك ثواب ، لانقطاع عمله بالموت لكن إنما يبقى عمله عليه ليتنعم بذكر الله وطاعته ، كما تتنعم بذلك الملائكة وأهل الجنة في الجنة ، وإن لم يكن على ذلك ثواب ، لأن نفس الذكر والطاعة أعظم نعيم عند أهلها من جميع نعيم أهل الدنيا ولذتها ، فما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله وطاعته "[7] .

المبحث الثاني : الكلام على مستقر الأرواح وتلاقيها وشئ مما يتعلق بها مستقر الأرواح :

عقد السيوطي لهذه المسألة باباً في كتابه " شرح الصدور " فقال : " باب مقر الأرواح ، قال الله تعالى : (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع)[8] وقال تعالى : (... ويعلم مستقرها ومستودعها ...)[1] أحدهما :

---

(١) سبل السلام (١٦١/٢) .

(٢) قال الهيثمي في " مجمع الزوائد " (٢١١/٨) رواه ابو يعلي والبزار ورجال ابي يعلي ثقات ، وانظر : المطالب العالية لابن حجر (٢٦٩/٢) وعزاه السيوطي في " شرح الصدور " (ص ٢٥٥) للبيهقي وابن منده .

(٣) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٤٥/٤) كتاب الفضائل (٤٣) باب (٤٢) ح رقم {١٦٤ - (٢٣٧٥)} .

(٤) الخباء بيت من وبر أو صوف .

(٥) رواه الترمذي في " سننه " رقم (٢٨٩٠) وقال : " حديث حسن " والحاكم في " المستدرك " (٤٩٨/٢) وقال : " هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ورواه البيهقي في " اثبات عذاب القبر " رقم (١٦٥) وعزاه السيوطي في " الدر المنثور " (٢٤٧/٦) الى ابن الضريس ، والطبراني ، والبيهقي في شعب الايمان .

(٦) رواه الحاكم في " المستدرك " (١٥١/٤) وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة " وقال الذهبي : " أخرجاه مختصراً " وأحمد في المسند (١٥٢،١٦٧/٦) ، وعزاه السيوطي في " شرح الصدور " الى النسائي والبيهقي في " الشعب " انظر (ص٢٥٩) .

(٧) أهوال القبور (ص ٣٩) وانظر : شرح الصدور (ص ٢٥٧-٢٥٨) ، وهذا الذي ذكره ابن الجوزي أحوال برزخية ليس للإنسان أن يقول فيها إلا بالكيفية التي وردت في النصوص الشرعية ، وليس في هذا مستند لأهل الخرافة الذين ينادون الموتى أو يدعونهم أو يلجأون إليهم ، فيرتكبون بذلك الشرك الأكبر .

(٨) سورة الانعام ، بعض الآية (٩٨) .

فـي الصـلب والآخـر بعد الموت "[٢] وهذا الذي ذكره السيوطي من تفسير الآية بأن أحدهما : في الصلب والآخر : بعد الموت، رواه ابن جرير في تفسيره[٣] ، ونقله عن ابن كثير في تفسيره[٤] .

وهـذه المسألة – أعني مسألة مستقر الأرواح بعد الموت – مسألة عظيمة لا تتلقى إلا من السمع ، وليس للعقل فيها مجال ولا يقع في شأنها الإجتهاد بحال . وبناء على ما ورد بشأنها من الأحاديث الشريفة عن المعصوم – صلى الله عليه وسلم – اختلفت أقوال أهل العلم في تحديد مستقر الأرواح وأين تكون بعد الموت ، وحاصل كلامهم أنهم قسموها إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أرواح الأنـبياء والمرسـلين – عليهم جميعاً الصلاة والسلام – فهذه لا شك وبلا خلاف أنها في أعلى عليين[٥] . يقـول ابن القيم – رحمه الله – : " ... فمنها أرواح في أعلى عليين ، في الملأ الأعلى ، وهم الأنبياء ، وهم متفاوتون في منازلهم كما رآهم النبي – صلى الله عليه وسلم – ليلة الإسراء "[٦] ويقول ابن رجب – رحمه الله – : " ... أما الأنبياء – عـليهم السـلام – فليس فيهم شك أن أرواحهم عند الله في أعلى عليين "[٧] ويدل على ذلك ما صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – من حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول وهو صحيح : " إنـه لم يقبض نبيٌ قط حتى يرى مقعده من الجنة ، ثم يخير " ، فلما نُزِل به ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص ببصره إلى السقف ثم قال : " اللهم الرفيق الأعلى " قلت : إذاً لا يختارنا ، وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا به ، قالت : فكانت تلك آخر كلمة تكلم بها النبي – صلى الله عليه وسلم – قوله : " اللهم الرفيق الأعلى "[٨] .

الثاني : أرواح الشهداء الذين صرحت الأدلة بأن أرواحهم في أجواف طير خضر معلقة بالعرش[٩] ، منها ما رواه مسروق قال : سألنا عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهـم يرزقون)[١٠] قال : " أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال[١١] : " أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا "[١٢] .

---

(١) سورة هود ، بعض الآية (٦) .

(٢) شرح الصدور (ص ٣٠٤) .

(٣) انظر : جامع البيان (٢٨٧/٧) ، (٢/١٢) .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم (٢٩٩/٣) ، (٢٣٩/٤) .

(٥) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٢٥-٣٢٦) .

(٦) الروح (ص ٢٦٢) ، ونقله عنه السفاريني في " لوامع الأنوار " (٥٤/٢) .

(٧) أهوال القبور (ص ٩٤) ، وانظر : شرح الطحاوية (ص ٤٥٤) .

(٨) البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٨٤) رقم (٤٤٦٣) انظر : الفتح (١٥٠/٨) . ومسلم في " صحيحه " كتاب فضائل الصحبة (٤٤) باب (١٣) ح رقم (٨٧) – انظر صحيح مسلم (١٨٩٤/٤) .

(٩) انظر : شرح الطحاوية (ص ٤٥٤) والسفاريني لوامع الأنوار (٥٤/٢) .

(١٠) سورة آل عمران الآية (١٦٩) .

(١١) قـال الإمـام النووي : " وهذا الحديث مرفوع لقوله : إنا قد سألنا عن ذلك ، فقال يعني النبي – صلى الله عليه وسلم – انظر : شرح صحيح مسلم للنووي (٣٤/١٣) .

(١٢) رواه مسلم في " صحيحه " (١٥٠٢/٣) كتاب الإمارة (٣٣) باب (٣٣) ح رقم {١٢١-(١٨٨٧)} .

وهـذا فـي حق بعض الشهداء لا كلهم فمن الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة من أجل ما عليه من الدين[١] ، فقد ورد عن عبدالله بن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله ماذا لي إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل ؟ قال : " الجنة " قال : فلما ولى قال رسول لله - ﷺ - : " إلا الدين ، سارني به جبريل - عليه السلام - آنفاً "[٢] .

<u>الـثالث :</u> أرواح المكـلفين من المؤمنين وغيرهم ، فهؤلاء قد تباينت أقوال العلماء حولهم ، وأرجح الأقوال في ذلك : أن أروح المؤمـنين في الجنة ، وأرواح الكافرين في النار ، وهو قول الإمام أحمد - رحمه الله - فقد روى عنه ابنه عبدالله قوله : أرواح الكفار في النار وأرواح المؤمنين في الجنة[٣] .

وهـذا مـا رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حيث يقول : " وأرواح المؤمنين في الجنة ، وأرواح الكافرين في النار ، تنعم أرواح المؤمنين ، وتعذب أرواح الكافرين إلى أن تعاد إلى الأبدان "[٤] .

أما الفرق بين حياة الشهداء البرزخية في الجنة وحياة من عداهم من المؤمنين ، أشار إليه الحافظ ابن رجب بقوله : " والفرق بين حياة الشهداء وغيرهم من المؤمنين الذين أرواحهم في الجنة من وجهين :

<u>أحدهمـا :</u> أن أرواح الشهداء يخلق لها أجساد وهي الطير التي تكون في حواصلها ، ليكمل بذلك نعيمها ، ويكون أكمل من نعيم الأرواح المجردة عن الأجساد ، فإن الشهداء بذلوا أجسادهم في سبيل الله فعوضوا عنها بهذه الأجساد في البرزخ .

<u>الثاني :</u> أنهم يرزقون من الجنة ، وغيرهم لم يثبت له في حقه مثل ذلك[٥] قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ [٦]

<u>عرض المقعد على الميت كل يوم[٧] :</u> اسـتدل السـيوطي على هذه المسألة بقوله تعالى : (... النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ...)[٨] قال ابن جرير في تفسيره : " عني بذلك : أنهم يعرضون على منازلهم في النار تعذيباً لهم غدواً وعشياً "[٩] ويقول ابن كثير : " وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ "[١٠] .

واسـتدل السيوطي كذلك بحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهـل الـنار ، فيقـال هـذا مقعـدك حـتى يبعـثك الله يـوم القيامـة "[١١] ، وأورد فـي هـذا الـباب أحاديث أخر .

---

(١) انظر : ابن القيم : الروح (٢٦٢) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٥٤) ، السفاريني لوامع الأنوار (٥٤/٢) ، والسيوطي : شرح الصدور (٣٠٤) .
(٢) صحيح مسلم (١٥٠١/٣) ح رقم (١٨٨٥) ، رقم (١٨٨٦) .
(٣) انظر : طبقات الحنابلة (١٨١/١) . وانظر : السيوطي : شرح الصدور (٣٢٠) .
(٤) مجموع الفتاوي (٣١١/٤) .
(٥) أهوال القبور (ص ١٢٣) .
(٦) سورة آل عمران ، بعض الآية (١٦٩) .
(٧) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٤٠) .
(٨) سورة غافر ، بعض الآية (٤٦) .
(٩) جامع البيان (٧٢/٢٤) .
(١٠) تفسير القرآن العظيم (١٣٦/٧) .
(١١) رواه الـبخاري فـي " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٨٩) ح رقم (١٣٧٩) الفتح (٣٤٣/٣) ، ومسلم في " صحيحه " (٢١٩٩/٤) كتاب الجنة (٥١) باب (١٧) ح رقم {٦٥ - (٢٨٦٦)} ، ولفظه " ... حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة " .

ما يحبس الروح عن مقامها الكريم[١] :

قد سبق معنا في مسألة " مستقر الأرواح " حديث عبدالله ابن جحش أن رجلاً جاء إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ، ماذا لي إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل ؟ قال : " الجنة " قال : فلما ولى قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إلا الدين " سارني به جبريل – عليه السلام – آنفاً "[٢] وهو دال على أن روح الميت تحبس عن دخول الجنة إذا كان عليه دين ، حتى ولو كانت روح شهيد . وقد أورد السيوطي حديث أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه "[٣] . قال العلماء : معلقة : أي محبوسة عن مقامها الكريم[٤] .

وأورد السيوطي أيضاً من حديث جابر – رضي الله عنه – أن رجلاً مات وعليه دين ، ديناران ، فلم يصل عليه النبي – صلى الله عليه وسلم – فتحملهما أبو قتادة فصلى عليه ، ثم قال له بعد ذلك بيوم : " ما فعل الديناران ؟ " قال إنما مات أمس ، فعاد عليه من الغد فقال : قد قضيتهما ، فقال : " الآن بردت عليه جلدته "[٥] .

وأورد السيوطي في ذلك أيضاً أحاديث غير ما ذكر للإستشهاد وقد رأيت أن ما ذكرته يغني عما أورده مختلفاً فيه

تلاقي أرواح الموتى وأرواح الأحياء في النوم[٦] :

ذكر السيوطي تحت هذا الباب بعض الشواهد على تلاقي أرواح الموتى مع أرواح الأحياء حالة نومهم فذكر في الاستدلال على ذلك قوله تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)[٧] وكلام المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة يدل لما ساقه إليه السيوطي من تلاقي الأرواح ، أما الإمام ابن جرير – رحمه الله – فقد قال : " يقول تعالى ذكره : ومن الدلائل على أن الألوهية لله الواحد القهار خالصة دون كل ما سواه أنه يميت ويحيي ويفعل ما يشاء ولا يقدر على ذلك شيء سواه ، فجعل ذلك خبراً نبههم به على عظيم قدرته ، فقال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها ...) فيقبضها عند فناء أجلها ، ولانقضاء مدة حياتها ، ويتوفى أيضاً التي لم تمت في منامها ، كما التي ماتت عند مماتها (فيمسك التي قضى عليها الموت) ذكر أن أرواح الأحياء والأموات تلتقي في المنام ، فيتعارف ما شاء الله منها ، فإذا أراد جميعها الرجوع إلى أجسادها ، أمسك الله أرواح الأموات عنده وحبسها وأرسل أرواح الأحياء حتى ترجع إلى أجسادها إلى أجل مسمى وذلك

---

(١) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٤٦) .

(٢) حديث صحيح سبق تخريجه .

(٣) رواه الترمذي ، برقم (١٠٧٨) ، (١٠٧٩) كتاب الجنائز ، وقال : " هذا حديث حسن " ورواه ابن ماجة ، برقم (٢٤١٣) ، والبيهقي في عذاب القبر رقم (١٥٠) و (١٥١) وأحمد في " المسند " (٥٠٨/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٧٦/٦) والدارمي (٤٩/٦) وأبو نعيم في " الحلية " (١٥/٩) .

(٤) انظر : شرح الصدور (ص ٣٤٦) .

(٥) رواه أحمد في " المسند " (٣٣٠/٣) ، والبيهقي في السنن (٧٤/٦ ، ٧٥) وفي " اثبات عذاب القبر " رقم (١٥٣) ، والحاكم في " المستدرك " (٥٨/٢) ، وقال في " مجمع الزوائد " (٣٩/٣) : " رواه أحمد والبزار ، وإسناده حسن " .

(٦) انظر : شرح الصدور (ص ٣٥١) .

(٧) سورة الزمر ، الآية (٤٢) .

عـــند انقضـــاء مدة حياتها "[١] ومعنى كلام الإمام ابن جرير أن الله تعالى ذكر قبضاً للأرواح التي توفاها بالموت ، وقبضاً مـــثله كذلك للأرواح التي نام أصحابها الأحياء ، فتلتقي هذه بتلك ، فإذا أرادت الأرواح أن تعود إلى أجسادها ، أذن تعالى لـــلأرواح التي لم يقض الموت على أصحابها وأمسك التي مات أصحابها وكذلك أمسك عنده التي حكم عليها بالموت أثناء نومها . وفي هذا إشارة إلى تلاقي الأرواح وتعارفها الذي ذكره السيوطي .

وأما العلامة ابن كثير - رحمه الله - فقال : " قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما شاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام ، كما قـــال تعـــالى : (وهو الذي يتوفاكم بالليل[٢] ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبـــئكم بمـــا كنـــتم تعملون . وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفـــرطون)[٣] فذكـــر الوفاتين : الصغرى ثم الكبرى وفي هذه الآية[٤] ذكر الكبرى ثم الصغرى ، ولهذا قال : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى[٥] .

ويذكر العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - قولين في تفسير هذه الآية الكريمة فأورد عن السدى في قوله تعالى : (... والتي لم تمت في منامها ...) قال : يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت فيتذاكران ويتعارفان ، قال : فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها ، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس ، وهذا أحد القولين في الآية ، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً والمرسلة من توفيت وفاة النوم ، والمعنى على هذا القول أنه يتوفى نفـــس الميـــت فيمســـكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة ، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها فيتوفاها الوفاة الأخرى .

ولعل هذا الرأي مستند منيرى أن الأرواح مطلقة بعد الموت تذهب حيث شاءت ، وهو والله أعلم قول ضعيف ، لأنه خلاف ماذكر في مستقر الارواح ٠

كماأنه يؤدي إلى أن أرواح الشهداء تخرج من الحبشة ، أو تدخل إلى الجنة ، أرواح الأحياء ، ولذلك كان القول الآخر هو الأظهر في الآية وهو القول الآتي ٠

<u>والقـــول الـــثاني في الآية :</u> أن الممسكة والمرسلة في الآية كلتاهما توفيت وفاة النوم فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلى جسدها ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله .

واخـــتار شـــيخ الإسلام[٦] هذا القول ، وقال : عليه يدل القرآن والسنة قال : فإنه سبحانه ذكر إمساك التي قضى عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة نوم ، وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال بل هي

---

(١) جامع البيان (٢٤/٨ - ٩) .

(٢) وهذا ظاهر في أنه النوم - كما ورد عن السدى ومجاهد ، انظر : جامع البيان (٢١٤/٧) ، وتفسير القرآن العظيم (٢٦١/٣) .

(٣) سورة الأنعام ، الآيتان (٦٠ ، ٦١) .

(٤) أي : آية سورة الزمر رقم (٤٢) .

(٥) سورة الزمر ٤٢) وانظر : تفسير القرآن العظيم (٩٢/٧) .

(٦) يعني : ابن تيمية - رحمه الله تعالى - .

قسم ثالث "[١] وهذا الذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية يدل على أن الأرواح ثلاثة أقسام :

١- الأرواح التي توفاها حين موتها . ٢- الأرواح التي أمسكها في نومها فلم يردها إلى أجسادها .

٣- الأرواح التي أرسلها بعد نومها فعادت إلى أجسادها لتستكمل رزقها وأجلها .

ذلك لأن التي توفاها حين موتها وانقضاء أجلها هي ممسكة عنده جل وعلا ، وأما الثانية التي أمسكها أثناء النوم ، فلو كان المقصود بالإمساك هي القسم الأول لكان في الكلام تكرار ، كأنه قال : فيمسك التي هي ممسكة عنده من قبل ، وفي هذا ما فيه من ركاكة المعنى وعدم استقامته .

ولكن ابن القيم لم يتابع شيخه في هذا الترجيح بل رجح القول الأول ، إلا ان القول الثاني هو الأظهر في معنى الآية ونصها ، أما تلاقي الأرواح فدليله لايمكن أن يعتمد عليه في القطع بذلك ،ولكن يستأنس بماذكر فقط ، ولا يمكن اعتماد ذلك دليلاً مؤكداً عليه .

ثم هنا أمر آخر ،وهو أن الله تعالى ذكر قبضاً عاماً يشمل المؤمنين والكافرين ، فهل أرواح الكفار تلتقي أيضاً مع إخوانهم من الكفار الأحياء ؟ مع أن أرواح الكفار معذبة ؟

ولهذا قلنا إن القول الأول لايدل عليه دليل قوي .

والله ـ جل ذكره ـ أجل وأعلى .

تأذي الميت بالنياحة عليه[٢]

أورد السيوطي بخصوص هذه المسألة خمسة أحاديث صالحة ، وخمسة أخرى لا تصلح للإستشهاد ، كما أورد أقوال العلماء في حكم تعذيب الميت بما نيح عليه .

والأصل في هذا الباب حديث عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وابنه عبدالله – رضي الله عنه – .

– أما حديث عمر – رضي الله عنه – فهو أنه لما أصيب دخل عليه صهيب – رضي الله عنه – يبكي يقول : وا أخاه وا صاحباه فقال عمر – رضي الله عنه – : يا صهيب أتبكي عليّ وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الميت يعذب ببعض بكاء أهله عليه "[٣] وكذلك قال لابنته حفصة – رضي الله عنها –[٤] .

– وأما حديث ابنه – رضي الله عنهما – فعن عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة قال : " توفيت إبنة لعثمان بن عفان – رضي الله عنه – بمكة وجئنا لنشهدها وحضرها ابن عمر وابن عباس – رضي الله عنهم – وإني لجالس بينهما – أو قال : جلست إلى أحدهما ثم جاء الآخر فجلس إلى جنبي ، فقال عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – لعمرو بن عثمان :

---

(١) الروح (ص ٥٧ – ٥٨) .

(٢) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٤) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٣٢) ح رقم (١٢٨٧) الفتح (١٥١/٣) ، ومسلم في " صحيحه " (٦٤١/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم (٩٢٧) .

(٤) رواه مسلم في " صحيحه " (٦٣٨/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم {١٦ – (٩٢٧)} .

ألا تنهى عن البكاء ؟ فإن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه "[١] ولكن أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – اعترضت على ما قاله عمر وابنه – رضي الله عنهما – قال ابن عباس – رضي الله عنهما – بعد ما روى حديث عمر السابق – قال : " فلما مات عمر – رضي الله عنه – ذكرت ذلك لعائشة – رضي الله عنها – فقالت : رحم الله عمر ، والله ما حدث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه ، ولكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه ، وقالت : حسبكم القرآن (ولا تزر وازرة وزر أخرى)[٢] قال ابن عباس – رضي الله عنهما – عند ذلك : والله (هو أضحك وأبكى)[٣] قال ابن أبي مُليكة : والله ما قال ابن عمر – رضي الله عنهما – شيئاً[٤] .

وكذلك ورد اعتراضها على عبدالله بن عمر – رضي الله عنهما – عندما ذكر لها أنه يقول : الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، فقالت : رحم الله أبا عبدالرحمن ، سمع شيئاً فلم يحفظه ، إنما مرت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جنازة يهودي ، وهم يبكون عليه فقال : " أنتم تبكون وإنه ليعذب "[٥] .

وقالت مرة عن ابن عمر : " وَهِلَ[٦] ، إنما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إنه ليعذب بخطيئته أو بذنبه . وإن أهله ليبكون عليه الآن "[٧] وقالت في رواية : " يغفر الله لأبي عبدالرحمن . أما إنه لم يكذب . ولكنه نسي أو أخطأ . إنما مر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على يهودية يبكى عليها فقال : " إنهم ليبكون عليها . وإنها لتعذب في قبرها "[٨] وإزاء هذه الأحاديث المثبتة لعذاب الميت ببكاء أهله عليه ، وما قابلها من اعتراض أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – تعددت أقوال العلماء في هذه المسألة على النحو التالي :

<u>أول الأقوال :</u> أن الأحاديث الواردة بإثبات تعذيب الميت بالنياحة عليه هي على ظاهرها مطلقاً ، وهو رأي عمر بن الخطاب وأبنه عبدالله – رضي الله عنهما – على ما ورد عنهما في الصحيحين وغيرهما[٩] ويحتمل أن يكون عمر – رضي الله عنه – كان يرى أن المؤاخذة تقع على الميت إذا كان قادراً على النهي ولم يقع منه . فلذلك بادر إلى نهي صهيب ، وحفصة – رضي الله عنهما –[١٠] .

---

(١) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٣٢) ح رقم (١٢٨٦) انظر : الفتح (١٥١/٣) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (٦٤١/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم {٢٣ – (٩٢٨)} .

(٢) هذه بعض آية وردت في عدة مواضع من كتاب الله تعالى ، في سورة الأنعام (١٦٤) وفي سورة الاسراء (١٥) وفاطر (١٨) والزمر (٧) والنجم (٣٨) .

(٣) سورة النجم ، بعض الآية (٤٣) .

(٤) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٣٢) ح رقم (١٢٨٨) أنظر : الفتح (١٥١/٣) ، ومسلم في " صحيحه " (٦٤٢/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم (٩٢٩) .

(٥) رواه مسلم في " صحيحه " (٦٤٢/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم {٢٥–(٩٣١)} من طريق حماد بن زيد عن هشام بن عروة عن أبيه .

(٦) بفتح الواو ، وفتح الهاء وكسرها ، أي : غلط ونسي .

(٧) رواه مسلم في " صحيحه " (٦٤٣/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم {٢٦ – (٩٣٢)} من طريق أبي أسامة عن هشام عن ابيه .

(٨) السابق نفسه رقم (٢٧) من طريق عبدالله بن أبي بكر ، عن أبيه ، عن عمرة بنت عبدالرحمن ، أنها سمعت عائشة . فذكرته .

(٩) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٨٥) ، وابن حجر : الفتح (١٥٣/٣) .

(١٠) انظر : فتح الباري (١٥٣/٣) .

<u>الثاني :</u> لا مطلقاً[١] ، وهذا يقابل القول الأول ، وذهب أصحابه إلى أنه يتعارض مع بعض أصول الشريعة المقررة في مثل قول الله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى)[٢] ، وقد سبق معنا أنه قول أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وحكاه الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - عن أبي هريرة - رضي الله عنه -[٣] .

<u>الثالث :</u> أن الباء للحال[٤] ، بمعنى أنه يعذب حال بكائهم عليه ، والتعذيب بما له من ذنب ، لا بسبب بكائهم عليه . حكاه الخطابي وقال ابن حجر : " ولا يخفى ما فيه من التكلف "[٥] ولكن ربما يستدل من قال هذا القول بحديث أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - الذي سبق نقله عنها . وهو عند مسلم من طريق هشام بن عروة عن أبيه عنها . وعلى هذا يكون التعذيب خاصاً ببعض الموتى لا كل من بُكي عليه .

<u>الرابع :</u> أنه خاص بالكافر ، وهذا القول والذي قبله هو رأي أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -[٦] وعليه فتكون الألف واللام في قوله " الميت " لميت معهود معين كما مر معنا أنها جنازة يهودي أو يهودية وقد جزم بهذا القول القاضي الباقلاني وغيره[٧] .

<u>الخامس :</u> أنه خاص بمن كان النوح من سنته وعادته[٨] ، وهو قول الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - فقد ترجم لأحاديث الباب قائلاً : " باب قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : " يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته "[٩] .

<u>السادس :</u> أنه فيمن أوصى[١٠] به . كما قال القائل :

فإن مُت فانعيني بما أنا أهله وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد[١١]

وهذا قول المزني وإبراهيم الحربي وآخرون من الشافعية وغيرهم . حتى قال أبو الليث السمرقندي : إنه قول عامة أهل العلم . وكذا نقله النووي عن الجمهور ، قالوا : وكان معروفاً للقدماء حتى قال : طرفة بن العبد ما قال في البيت السابق[١٢]

وأورد الحافظ ابن حجر على هذا اعتراضاً بأن التعذيب بسبب الوصية يستحق بمجرد صدور الوصية ، والحديث دال على أنه إنما يقع عند وقوع الإمتثال .

---

(١) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .
(٢) سورة الأنعام بعض الآية (١٦٤) .
(٣) انظر : الفتح (١٥٤/٣) .
(٤) انظر : شرح الصدور (ص٣٨٥) .
(٥) الفتح (١٥٤/٣) .
(٦) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .
(٧) انظر : الفتح (١٥٤/٣) .
(٨) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .
(٩) فتح الباري (١٥٠/٣) .
(١٠) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .
(١١) البيت من معلقة طرفة بن العبد البكري ، انظر معلقته ضمن " مجموع مهمات المتون " (ص ٧٩٥) .
(١٢) انظر : الفتح (١٥٤/٣) .

وأجاب عنه بأنه : ليس في سياق الحديث حصر ، فلا يلزم من وقوعه عند الإمتثال أن لا يقع إذا لم يمتثلوا[١] .

السابع : أنه فيمن لم يوصي بتركه ، فتكون الوصية بذلك واجبة إذا علم أن من شأن أهله أن يفعلوا ذلك[٢] .

وهو قول داود الظاهري وطائفة ، ولا يخفى أن محله ما إذا لم يتحقق أنه ليست لهم بذلك عادة[٣] .

الثامن : أن التعذيب بالصفات التي يبكون بها عليه ، وهي مذمومة شرعاً[٣] . أي بنظير ما يبكيه أهله به ، وذلك أن الأفعال التي يعددون بها عليه غالباً تكون من الأمور المنهي عنها فهم يمدحونه بها وهو يعذب بصنيعه ذلك وهو عين ما يمدحونه به ، وهذا قول الإمام ابن حزم - رحمه الله - وطائفة معه ، واستدل عليه بحديث ابن عمر - رضي الله عنهما - في قصة عيادة النبي - صلى الله عليه وسلم - سعد بن عبادة - رضي الله عنه - فلما دخل عليه فوجده في غاشية أهله . فقال : قد قضى ؟ قالوا : لا يا رسول الله . فبكى النبي - صلى الله عليه وسلم - فلما رأى القوم بكاء النبي - صلى الله عليه وسلم - بكوا " فقال : ألا تسمعون ؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم ... " الحديث[٤] .

قال ابن حزم : " فصح أن البكاء الذي يعذب به الإنسان ما كان منه باللسان إذ يندبونه برياسته التي جار فيها ، وشجاعته التي صرفها في غير طاعة الله ، وجوده الذي لم يضعه في الحق ، فأهله يبكون عليه بهذه المفاخر وهو يعذب بذلك "[٥] ، ومن هذا ما كان يفعله أهل الجاهلية من إغارة بعضهم على البعض الآخر فيسرقون وينهبون ويقتلون ويسبون وكان أحدهم إذا مات بكته باكيته بتلك الأفعال المحرمة ، فمعنى الحديث أن الميت يعذب بذلك الذي يبكي عليه أهله به ، لأن الميت يندب بأحسن أفعاله وكانت محاسن أفعالهم ما ذكر وهي زيادة ذنب في ذنوبه يستحق العذاب عليها[٦] .

التاسع : أن المراد بالتعذيب توبيخ الملائكة له بما يندبه به أهله[٧] ، وذلك لما روى مرفوعاً : " ما من ميت يموت فتقوم نادبته تقول : واجبلاه وا سنداه أو شبه ذلك من القول إلا وكل به ملكان يلهزانه : أهكذا كنت "[٨] . وقد " أغمي على عبدالله بن رواحة ، فجعلت أخته عَمرة تبكي : واجبلاه واكذا واكذا تعدد عليه ، فقال حين أفاق : ما قلت شيئاً إلا قيل لي : أنت كذلك ؟ "[٩] .

العاشر : أن المراد بالتعذيب تألم الميت بما يقع من أهله من النياحة والبكاء والحزن وغيرها[١٠] ، وهذا اختيار الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري - رحمه الله - ورجحه القاضي عياض ومن تبعه ، ونصره شيخ الإسلام ابن تيمية وجماعة

---

(١) انظر : نفسه .
(٢) انظر : شرح الصدور (ص ٣٨٥) .
(٣) انظر : الفتح (١٥٤/٣) .
(٤) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الجنائز (٢٣) باب (٤٤) ح رقم (١٣٠٤) ، انظر الفتح (١٧٥/٣) .
(٥) الفتح (١٥٥/٣) .
(٦) انظر : السابق نفسه .
(٧) انظر : السيوطي : شرح الصدور (ص ٣٨٥) ، وفتح الباري (١٥٥/٣) .
(٨) رواه الترمذي في " سننه " رقم (١٠٠٣) وقال : " هذا حديث حسن غريب " ، وابن ماجة رقم (١٥٩٤) .
(٩) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب المغازي (٦٤) باب (٤٤) رقم (٤٢٦٨،٤٢٦٧) انظر : الفتح (٥١٦/٧) .
(١٠) انظر : شرح الصدور (٣٨٦) .

من المتأخرين – رحم الله الجميع –[١] واستشهدوا لهذا القول بحديث قَيلة بنت مخرمة قالت : قلت يا رسول الله قد ولدته فقاتل معك يوم الربذة ثم أصابته الحمى فمات ونزل عليّ البكاء ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أيغلب أحدكم أن يصاحب صويحبه في الدنيا معروفاً وإذا مات استرجع ، فوالذي نفس محمد بيده إن أحدكم ليبكي فيستعبر إليه صويحبه . فيا عباد الله لا تعذبوا موتاكم "[٢] .

هذه جملة الأقوال في تفسير معنى التعذيب الذي ينال الميت ببكاء أهله عليه ، وكلها اجتهادات في محاولة فهم كلام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لمعرفة كيفية تلافي أهل الميت هذا التعذيب لئلا يلحقه شيء منه في قبره أو يوم القيامة . وبعد تأمل هذه الأقوال رأيت أن أقرب الأقوال للصواب قولان :

أحدهما : القول بأن الحديث محمول على من أوصى بالنوح عليه ، أو لم يوصى بتركه مع علمه بأن الناس يفعلونه عادة ، ولهذا قال : عبدالله بن المبارك : " إذا كان ينهاهم في حياته ففعلوا شيئاً من ذلك بعد وفاته لم يكن عليه شيء "[٣] . وهذا هو قول الجمهور كما حكاه النووي وأبو الليث السمرقندي[٤] .

والثاني : أن معنى " يعذب " أي يتألم بسماعه بكاء أهله ، ويرق لهم ويحزن ، وذلك في البرزخ ، وليس يوم القيامة ، وقد ذكرنا أنه اختيار الإمام ابن جرير الطبري ، ورجحه كل من ابن المرابط ، والقاضي عياض ، وطائفة معهما ، ونصره الإمام ابن تيمية والعلامة ابن القيم وغيرهما ، قالوا : " وليس المراد أن الله يعاقبه ببكاء الحي عليه ، والعذاب أعم من العقاب ، كما في قوله – صلى الله عليه وسلم – : " السفر قطعة من العذاب "[٥] وليس هذا عقاباً على ذنب ، وإنما هو مقاساة ومعاناة وتألم . وقد يؤيد هذا قوله – صلى الله عليه وسلم – : " الميت يعذب في قبره بما نيح عليه "[٦] ، وكذلك قول عمر – رضي الله عنه – : " إن الميت ليعذب في قبره بما نيح عليه "[٧] ولكن مع هذين الحديثين اللذين يقرران أن الميت يعذب في قبره بسبب النياحة عليه ، ورد أيضاً أنه يعذب بسبب ذلك يوم القيامة ، فقد صح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " من يُنح عليه يعذب بما نيح عليه يوم القيامة "[٨] وهذا لا يمكن تأويله بأنه تألم وتأذى بما يفعله أهله عليه ، وإنما هو عذاب بمعنى العقاب يوم القيامة ، ولهذا فقد رأيت أن أرجح الأقوال جميعاً هو قول الجمهور ، ولا

---

(١) انظر : فتح الباري (١٥٥/٣) .

(٢) ذكره القرطبي في " التذكرة " (١٦٨/١) وقال : " إسناده لا بأس به " وأورده الحافظ ابن حجر في " الإصابة " (٣٩٣/٤) ، وأورده كذلك في فتح الباري (١٥٥/٣) وقال : " هذا حديث حسن الإسناد " .

(٣) الإمام العيني : عمدة القاري في شرح صحيح البخاري (٧٩/٤) .

(٤) انظر : فتح الباري (١٥٤/٣) .

(٥) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب العمرة (٢٦) باب (١٩) ح رقم (١٨٠٤) انظر الفتح (٦٢٢/٣) ، وانظر : ح رقم (٣٠٠١) ، (٥٤٢٩) ، ورواه مسلم في " صحيحه " (١٥٢٦/٣) كتاب الإمارة (٣٣) باب (٥٥) ح رقم {١٧٩-(١٩٢٧)} .

(٦) رواه مسلم في " صحيحه " (٦٣٩/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) رقم (١٧) وابن حبان في " صحيحه " (٧٤٢) من حديث عمران بن حصين – رضي الله عنه – .

(٧) البيهقي (٧٢/٤-٧٣) وأحمد في "المسند" رقم (٣٨٦،٣٥٤،٣٣٤،٣١٥،٢٩٠،٢٨٩،٢٨٨،٢٦٨) من طرق عن عمر مطولاً ومختصراً ، وروى ابن حبان في " صحيحه " (٧٤١) قصة حفصة فقط .

(٨) مسلم في " صحيحه " (٦٤٤/٢) كتاب الجنائز (١١) باب (٩) ح رقم (٢٨) من حديث المغيرة بن شعبة – رضي الله عنه – والبيهقي (٧٢/٤) ، وأحمد في "المسند" (٢٤٥،٢٥٢،٢٥٥/٤) .

منافاة بين هذا وبين القيد الآخر ، وهو قوله : (في قبره) بل يضم أحدهما إلى الآخر ، ويكون عذابه في قبره كالمقدمة لعذابه يوم القيامة ، وعلى هذا فالمعنى : أن الميت يعذب في قبره ، ويعذب كذلك يوم القيامة ، وبهذا يتم الجمع بين الأحاديث الواردة في ذلك .

وقد رأيت للحافظ ابن حجر – رحمه الله – جمعاً وجيهاً جداً قريباً مما قلته في توجيه قول الجمهور فقال : " ويحتمل أن يجمع بين هذه التوجيهات فينزل على اختلاف الأشخاص بأن يقال مثلاً : من كانت طريقته النوح فمشى أهله على طريقته ، أو بالغ فأوصاهم بذلك عذب بصنعه ، ومن كان ظالماً فندب بأفعاله الجائرة عذب بما ندب به ، ومن كان يعرف من أهله النياحة فأهمل نهيهم عنها فإن كان راضياً بذلك التحق بالأول وإن كان غير راض عذب بالتوبيخ كيف أهمل النهي ، ومن سلم من ذلك كله واحتاط فنهى أهله عن المعصية ثم خالفوه وفعلوا ذلك كان تعذيبه تألمه بما يراه منهم من مخالفة أمره وإقدامهم على معصية ربهم والله أعلم بالصواب "[1] . وهذا في غاية الوجاهة إلا أن الظالم يعذب بأفعاله الجائرة ندب أو لم يندب ، وسواء نيح عليه أم لم ينح عليه بذلك .

<u>ما ينفع الميت في قبره[2]:</u>

ذكر السيوطي تحت هذا العنوان مجموعة من الأحاديث منها:

١- عن أنس – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " يتبع الميت ثلاثة : فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله "[3] .

٢- وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له "[4] .

<u>بعض فوائد تتعلق بالروح[5]:</u>

ذكر السيوطي تحت هذا العنوان بعض المباحث التي تتعلق بالروح والتي لخص أكثرها من كتاب " الروح " لابن القيم . وجعل السيوطي الأصل في هذا الباب حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : بينما أنا أمشي مع النبي – صلى الله عليه وسلم – في خرَب[6] المدينة : وهو يتوكأ[7] على عسيب[8] معه ، فمر بنفر من اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، لا يجيء فيه بشيء تكرهونه . فقال بعضهم لنسألنه ، فقام رجل منهم فقال : يا أبا

---

(١) فتح الباري (٣/١٥٥ – ١٥٦) .

(٢) انظر : شرح الصدور (ص ٣٩١) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الرقاق (٨١) باب (٤٢) ح رقم (٦٥١٤) انظر : الفتح (١١/٣٦٢) . ومسلم في " صحيحه " (٤/٢٢٧٣) كتاب الزهد والرقائق (٥٣) باب (٥٣) ح رقم {٥ – (٢٩٦٠)} واللفظ له .

(٤) رواه البخاري في " الأدب المفرد " رقم (٣٨) ومسلم في " صحيحه " (٣/١٥٥٥) ح رقم {١٤ – (١٦٣١)} كتاب الوصية (٢٥) باب (٣) . واللفظ له

(٥) انظر : شرح الصدور (ص٤١٤) .

(٦) بكسر الخاء وفتح الراء جمع خَرِب ضد العامر ، انظر : فتح الباري (١/٢٢٤) وهذا لفظ البخاري في " صحيحه " كتاب العلم (٣) باب (٤٧) ح رقم (١٢٥) ووقع عنده كذلك في كتاب التفسير (٦٥) تفسير سورة الاسراء (١٧) باب (١٣) ح رقم (٤٧٢١) – حَرْث – بدل خرب ، وهو بمعنى الزرع أو النخل كما في صحيح مسلم (٤/٢١٥٣) ح رقم (٣٤) .

(٧) هكذا (يتوكأ) في كتاب العلم (٣) باب (٤٧) ح رقم (١٢٥) وفي كتاب التفسير ح رقم (٤٧٢١) (وهو متكيء) واللفظان عند مسلم أيضاً ح رقم (٣٢ – ٣٤) .

(٨) العسيب : بوزن عظيم ، هي الجريدة التي لا خوص فيها ، الفتح (٨/٤٠١) وفي رواية ابن حبان " ومعه جريدة " .

القاسم ، ما الروح ؟ فسكت ، فقلت : إنه يوحى إليه ، فقمت ، فلما انجلى عنه فقال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم[١] من العلم إلا قليلاً)[٢] ثم قال السيوطي : " اختلف الناس في الروح على فرقتين :

* فرقة أمسكت عن الكلام فيها لأنها سر من أسرار الله تعالى لم يؤت علمه البشر ، وهذه الطريقة هي المختارة "[٣] ولو أن السيوطي كان سكت عند هذا وأمسك كما أمسكوا عن البحث فيها لأراح نفسه وأراحنا معه ، لكنه عاد فقال : " وفرقة تكلمت فيها وبحثت عن حقيقتها قال النووي : وأصح ما قيل في ذلك قول إمام الحرمين : إنها جسم لطيف مشتبك بالأجسام الكثيفة اشتباك الماء بالعود الأخضر "[٤] .

أما أصحاب القول الأول الذين أمسكوا عن الكلام في الروح ، فقالوا : إن الحكمة في إبهام حقيقة الروح اختبار الخلق ليعرفهم عجزهم عن علم ما لا يدركون حتى يضطرهم إلى رد العلم إليه جل وعلا . لأن المرء إذا لم يعرف حقيقة نفسه مع القطع بوجوده كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق من باب أولى[٥] . قال أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري استاذ الطائفة ، كما يلقبه ابن حجر : " الروح شيء استأثر الله تعالى بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، فلا تجوز العبارة عنه بأكثر من أنه موجود "[٦] .

وعلى هذا ابن عباس – رضي الله عنهما – وأكثر السلف[٧] ، وجرى عليه أيضاً ابن عطية وجمع من أهل التفسير[٨] .

ثم اختلفت هذه الفرقة ، إذا كان الله تعالى قد أخفى علم حقيقة الروح عن خلقه ، فهل علمها النبي – صلى الله عليه وسلم – ؟ على قولين :

- فقيل : قبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وما يعلم الروح .

- وقيل : بل علمها ، وأطلعه الله عليها ، ولم يأمره أن يطلع عليها أمته وهو نظير الخلاف في علم الساعة[٩] .

* وأما الفريق الذي تكلم في الروح وبحث عن حقيقتها ، فقد اختلفت أقوالهم وتباينت آراؤهم فيها جمع هذه الأقوال ابن القيم وزيف بعضها ثم قال : " والسادس : أنه جسم لطيف مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون والنار في

---

(١) هذا اللفظ هكذا عند البخاري في " صحيحه " كتاب العلم (٣) باب (٤٧) ح رقم (١٢٥) الفتح (٢٢٤/١) ثم أردفها البخاري – رحمه الله – قال : " قال الأعمش : هكذا في قراءتنا " قال ابن حجر – رحمه الله – : " أي قراءة الأعمش ، وليست هذه القراءة في السبعة بل ولا في المشهور من غيرها ، وقد اغفلها ابو عبيدة في كتاب القراءات له من قراءة الأعمش " ا.هـ . أما في كتاب التفسير من صحيح البخاري فأورد لفظ القراءة السبعية (وما أوتيتم) ح رقم (٤٧٢١) وكذلك في كتاب " التوحيد " من نفس الصحيح ح رقم (٧٤٥٦) الفتح (٤٤٠/١٣) .

(٢) سورة الاسراء ، الآية (٨٥) .

(٣) شرح الصدور (ص ٤١٤) .

(٤) نفسه (ص ٤١٥) وانظره عند النووي في شرح صحيح مسلم (١٣٨/١٧) وعبارة إمام الحرمين : " الأظهر عندنا أن الروح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة أجرى الله تعالى العادة باستمرار حياة الاجسام ما استمرت مشابكتها لها فإذا فارقتها يعقب الموت الحياة في استمرار العادة " الارشاد (ص ٣٧٧) .

(٥) انظر : شرح الصدور (ص ٤١٥) ، فتح الباري (٤٠٣/٨) .

(٦) فتح الباري (٤٠٣/٨ – ٤٠٤) ، وانظر : السيوطي : شرح الصدور (٤١٤) .

(٧) انظر : شرح الصدور (ص ٤١٤) .

(٨) انظر : فتح الباري (٤٠٤/٨) .

(٩) انظر : السابق (٤٠٣/٨) ، شرح الصدور (ص ٤١٥) .

الفحـــم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف مشابكاً لهـذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإدارية . وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار ، فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح . وهذا القول هو الصواب في المسألة ، وهــو الــذي لا يصـــح غيره ، وكل الأقوال سواه باطلة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل والفطرة ونحن نسوق الأدلة عليه على نسق واحد "[١] ثم ساق أكثر من مائة دليل على هذا التعريف بحقيقة الروح . يقول السفاريني : " وذكر له مائة دليل وخمسة عشر دليلاً وأجاد وأفاد وزيف كلام ابن سينا ، وابن حزم وأمثالهما "[٢] .

وهذا قريب جداً مما نقلته آنفاً عن إمام الحرمين الجويني ورأيته في الإرشاد . وإليه ذهب السيوطي حيث قال : " أكـــثر المســـلمين على أن الروح جسم وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة لوصفها في الآيات والأحاديث بالتوفي ، والقبض ، والإمساك ، والإرسال ، والتناول ، والإخراج ، والخروج ، والتنعيم والتعذيب ، والرجوع والدخول ، والرضـــا والإنتقال ، والتردد في البرزخ ، وأنها تأكل وتشرب وتسرح وتأوي ، وتعلق ، وتنطق ، وتعرف ، وتنكر ، إلى غيـــر ذلك مما هو من صفات الأجسام ، والعرض لا يتصف بهذه الصفات أيضاً فلا شك أنها تعرف نفسها وخالقها وتدرك المعقولات وهذه علوم ، والعلوم أعراض ، فلو كانت عرضاً والعلم قائم به ، لزم قيام العرض بالعرض وهو فاسد "[٣] .

الروح محدثة مخلوقة :

حـــكى السيوطي إجماع أهل السنة على ذلك فقال : " أجمع أهل السنة على أن الروح محدثة مخلوقة ولم يخالف في ذلك إلا الزنادقة ، وممن نقل الإجماع على حدوثها محمد بن نصر المروزي وابن قتيبة "[٤] ، ولمثل هذا ذهب السفاريني " في لوامع الأنـــوار " حيـــث قـــال : " أجمعت الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – على أن روح الإنسان محدثة مخلوقة مصنوعة مدبـــرة ، وهـــذا معلوم بالإضطرار من دين الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – كما يعلم بالإضطرار من ديـــنهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله تعالى وحده الخالق وكل ما سواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصـــحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون المفضلة على ذلك من غير اختلاف بينهم في حدوثها وأنها مخلوقة "[٥] وقال ابن تيميـــة : " روح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخـــلوقة غيـــر واحـــد مـــن أئمـــة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزي الإمام المشهور الذي هو أعلم زمانه بالإجماع والإختلاف أو من أعلمهم "[٦] .

وبعـــد التأكد من حصول الإجماع على أن الروح مخلوقة محدثة فليس لأحد أن يرفع عقيدته بمخالفة هذا الإجماع ، لأنه من المشاقة للرسول – صلى الله عليه وسلم – واتباع غير سبيل المؤمنين بل هو كفر وشرك وزندقة .

---

(١) الروح (ص ٣٩٢) .
(٢) لوامع الأنوار (٢/٢٩) .
(٣) شرح الصدور (ص ٤١٥-٤١٦) .
(٤) السابق نفسه (ص ٤١٩) .
(٥) لوامع الأنوار (٢/٣٣) .
(٦) مجموع الفتاوي (٤/٢١٦) .

الفصل الثالث : يوم القيامة

المبحث الأول : البعث

تعريف البعث :

البعث بعد الموت ركن من أركان الإيمان دلت عليها أدلة صريحة من الكتاب والسنة ، بل هو حقيقة اتفقت عليها كلمة أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى[1] ، وقد أخبرت به جميع الأنبياء والرسل أممهم ، والإيمان به أحد أركان الإيمان الستة التي لا يصح إيمان العبد إلا بتحقيقها .

البعث في اللغة : يأتي ويراد به ثلاثة معان :

١- الإرسال : يقال بعثت فلاناً وابتعثته أي أرسلته[٢] .

٢- البعث من النوم : يقال بعثته من منامه إذا أيقظته[٣] .

٣- الإثارة : وهو أصل البعث ومنه قيل للناقة : بعثتها إذا أثرتها وكانت باركة[٤] .

البعث في الشرع : هو إحياء الله الموتى وإخراجهم من قبورهم أحياء للحساب والجزاء[٥] .

يقول ابن كثير - رحمه الله - : " البعث : وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة "[٦] .

ويقول أبو عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي : " يعيد الله الرفات من أبدان الأموات ، ويجمع ما تفرق منها في البحار وبطون السباع وغيرها حتى تصير بهيئتها الأولى ، ثم يجعلها حية فيقوم الناس كلهم بأمر الله جل ثناؤه أحياء ، صغيرهم وكبيرهم "[٧] .

ويقول البيجوري : " البعث عبارة عن إحياء الموتى وإخراجهم من قبورهم "[٨] ويقول د . الأشقر : " المراد بالبعث المعاد الجسماني وإحياء العباد في يوم المعاد ، والنشور مرادف للبعث في المعنى ، يقال نشر الميت نشوراً إذا عاش بعد الموت ، وأنشره الله أحياه فإذا شاء الحق تبارك وتعالى إعادة العباد وإحياءهم أمر إسرافيل فنفخ في الصور فتعود الأرواح إلى الأجساد ويقوم الناس لرب العالمين "[٩] وهذا المعنى قد دلت عليه آيات كثيرة وأحاديث شريفة من ذلك قول الله تعالى في محكم التنزيل : (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور)[١٠] وبالنظر في المعنى اللغوي لكلمة البعث والمعنى الشرعي لها : نجد أن هناك ترابطاً

---

(١) انظر مجموع الفتاوي (٤/٢٨٤) .

(٢) انظر : تهذيب اللغة (٢/٣٣٤-٣٣٥) ، القاموس المحيط (١/١٦٨) .

(٣) انظر : القاموس المحيط (١/١٦٨) .

(٤) انظر : نفسه ، الراغب الاصبهاني : المفردات (ص٥٢،٥٣)

(٥) انظر : شرح الطحاوية (ص٤٥٦) ، والسفاريني : لوامع الأنوار (٢/١٥٧) .

(٦) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٠٦) .

(٧) المنهاج في شعب الإيمان (١/٣٤٥) .

(٨) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد (ص١٧٠) .

(٩) اليوم الآخر - القيامة الكبرى (ص٥١) .

(١٠) سورة الحج ، الآيتان (٦،٧) .

ظاهـراً وذلك أن معاني البعث في اللغة الإثارة والإرسال هو نفس المعنى المراد بالإصطلاح الشرعي الذي يظهر من أن البعث هو إرسال الحياة أو إرسال الأرواح إلى الأموات وإثارتها من مرقدها فتقوم وتنبعث من جديد لتتهيأ لما يراد منها من الإنطلاق إلى الموقف العظيم للحساب ونيل الجزاء .قال تعالى : (ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون)[١] .

ففـي هـذه الآيات الأربع الكريمة إثبات البعث من المرقد ، وخروج الأموات من الأجداث ، وحضورها بين يدي الرب جل وعلا ثم يكون الحساب والجزاء لكل نفس بما كسبت .

تكـلم السـيوطي عن البعث وقرر أن البعث حق وأن الإيمان به واجب فقال – رحمه الله – : " ... وأن الحشر للخـلق أجمـع بـأن يحييهـم الله بعـد فنائهم ، ويجمعهم للعرض والحساب للمعاد ، أي عود الجسم بعد الإعدام بأجزائه وعوارضـه كما كان ، حق ، قال تعالى : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً)[٢] (وإذا الوحوش حشرت)[٣] (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده)[٤] (كما بدأنا أول خلق نعيده)[٥] "[٦] .

وفـي قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور)[٧] يقول السيوطي : " عبارة عن البعث ، وجمع ما في الصحف ، وأُظهر محصلاً ، ومُيِّز خيره من شره "[٨] وهكذا يستمر السيوطي في بيان أدلة البعث من خلال كلامه على إعجاز القرآن فعند قوله تعالى : (نحن خلقناكم فلولا تصدقون)[٩] يقول السيوطي : " تحضيض على التصديق : إما بالخالق تعالى ، وإما بالبعث لأن الخلقة الأولى دليل عليها "[١٠] . وفي قوله تعالى : (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون)[١١] يقول السيوطي : " تحضيض على الذكر والإستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة "[٤] .

وفـي تقريـر مذهب أهل السنة والجماعة يقول السيوطي : " ومذهب أهل السنة أن الإعادة ممكنة عقلاً ، واقعة سـمعاً ، وهـل تعـاد الأجسـاد أم لا ؟ مذهب أهل السنة أنها تعاد ، لأن الوجود قسمان : إما متحيز ، أو قائم بالمتحيز ، فـالأرواح أن كـانت متحيزة فهي أجسام ، وإن لم تكن متحيزة فلا تستقل بنفسها ولا بد لها من أجسام تحل فيها فلا بد من إعادة الأجسام خلافاً للحكماء [١٢]وغيرهم "[١] .

---

(١) سورة يس ، الآيات (٥١،٥٢،٥٣،٥٤) .
(٢) سورة الكهف ، بعض الآية (٤٧) .
(٣) سورة التكوير ، الآية (٥) .
(٤) سورة الروم ، بعض الآية (٢٧) .
(٥) سورة الأنبياء ، بعض الآية (١٠٤) .
(٦) علم التوحيد –مخطوط– لوحة رقم (٨) .
(٧) سورة العاديات ، الآيتان (٩ ، ١٠) .
(٨) معترك الأقران (٤٦٩/٢) .
(٩) سورة الواقعة ، الآية (٥٧) .
(١٠) معترك الأقران (١٠٨/٣) .
(١١) سورة الواقعة ، الآية (٦٢) .
(١٢) أي : الفلاسفة .

منكر البعث كافر : يقرر السيوطي أن منكر البعث كافر ، وذلك من خلال استدلاله بقوله تعالى : (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)[٢] يقول السيوطي : " في الآية دليل على أن منكر البعث كافر "[٣] وهو واضح من صريح قوله تعالى : (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ولا يخلد في النار إلا الكافرون .

المبحث الثاني : الشفاعة

الشفاعة لغة : هي الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه ، وأكثر ما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى [٤].

واصطلاحاً : سؤال التجاوز عن الذنوب والآثام [٥]من الذي وقع الجناية في حقه [٦].

أثبت السيوطي شفاعة النبي – صلى الله عليه وسلم – يوم القيامة فقال : " ... وأن الشفاعة حق وهي أنواع : أولاها وأعظمها : الشفاعة في فصل القضاء والإراحة من طول الموقف وهي مختصة بالنبي – صلى الله عليه وسلم – بعد تردد الخلق من نبي إلى نبي "[٧] وقال السفاريني : " والشفاعات المختصة به – صلى الله عليه وسلم – عدة : أولها وأعظمها وأعمها شفاعته – صلى الله عليه وسلم – لفصل القضاء بين الورى "[٨] وهذه الشفاعة العظمى تحصل في الموقف العظيم بأرض المحشر عندما ينتاب الناس التعب والكرب وتبلغ المعاناة منهم منتهاها فيلهم الله تعالى بعض عباده طلب الشفاعة من الرسل إلى الله تعالى لفصل القضاء وإراحة الناس ، فيتقدم هؤلاء لطلب الشفاعة أول ما يتقدمون إلى آدم – عليه السلام – فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح . فيذهبون إلى نوح – عليه السلام – ثم إلى إبراهيم ، ثم إلى موسى ، ثم إلى عيسى – عليهم جميعاً الصلاة والسلام – كلهم يقول نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري ، حتى يقول لهم عيسى – عليه السلام – اذهبوا إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – فيأتون رسول الله محمد – صلى الله عليه وسلم – فيطلبون منه مثلما طلبوا من الأنبياء قبله ، فينطلق – صلى الله عليه وسلم – فيأتي تحت العرش فيقع ساجداً لله تعالى ، فيقال له : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فيرفع رأسه – صلى الله عليه وسلم – فيقول : أمتي يارب – ورد هذا في حديث طويل في الصحيحين[٩] .

---

(١) معترك الاقران (٢٩٨/٣) .
(٢) سورة الرعد ، الآية (٥) .
(٣) معترك الاقران (٥٢/٣) .
(٤) الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن (ص٢٦٣) .
(٥) ابن الأثير : النهاية في غريب الحديث (٤٥٨/٢) .
(٦) الجرجاني : التعريفات (ص١٢٧) .
(٧) علم التوحيد –مخطوط– لوحة رقم (١١) .
(٨) لوامع الأنوار (٢١١/٢) .
(٩) البخاري في "صحيحه" كتاب التفسير (٦٥) باب (٥) ح رقم (٤٧١٢) ، الفتح (٣٩٥/٨) ومسلم في "صحيحه" (٤٦٩/١) .

الثانية : الشفاعة لقوم ليدخلوا الجنة بغير حساب :

يقول السيوطي : " الثانية : الشفاعة في ادخال قوم الجنة بغير حساب "[١] وذلك لما امتازوا به من صفات إيمانية جعلتهم أهلاً لهذا الإكرام ، فعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " عرضت عليّ الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر والنبي يمر معه العشرة والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمر وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير قلت : يا جبريل : هؤلاء أمتي ؟ قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمتك ، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب ، قلت : ولم ، قال : كانوا لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : اللهم اجعله منهم ، ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، قال : سبقك بها عكاشة "[٢] ومحل الشاهد من هذا الحديث هو دعاؤه – صلى الله عليه وسلم – لعكاشة بن محصن – رضي الله عنه – أن يجعله الله منهم ، فإن هذا الدعاء هو الشفاعة منه – صلى الله عليه وسلم – لعكاشة – رضي الله تعالى عنه –[٣]

الثالثة : الشفاعة لقوم استحقوا دخول النار ألا يدخلوها :

قال السيوطي : " الثالثة : الشفاعة فيمن استحق النار ألا يدخلها "[٤] ذكر بعض العلماء هذا النوع الذي ذكره السيوطي ولكني لم أجد عندهم دليلاً يدل لهذا النوع من الشفاعة .

قال الإمام النووي – رحمه الله – : " الثالثة : الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – ومن شاء الله تعالى "[٥] .

وقال القرطبي نقلاً عن القاضي عياض : " الثالثة : في قوم من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا – صلى الله عليه وسلم – ومن شاء أن يشفع ويدخلون الجنة "[٦] ويظهر أن نقل القرطبي عن القاضي عياض ، هو نفسه ما ذكره الإمام النووي لأنه كثيراً ما ينقل في شرحه صحيح مسلم عن القاضي عياض وقال السفاريني : " ثالثها : شفاعته – صلى الله عليه وسلم – في قوم استوجبوا النار بأعمالهم فيشفع فيهم فلا يدخلونها "[٧] .

ويقول شارح الطحاوية : " النوع الثاني والثالث من الشفاعة : شفاعته – صلى الله عليه وسلم – في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة ، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار ألا يدخلوها "[٨] هكذا أقوالهم عارية عن الدليل تماماً ولم أر واحداً منهم قد أورد نصاً يدل عليه . ولذلك قال العلامة ابن القيم – رحمه الله – : "

---

(١) علم التوحيد .
(٢) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الرقاق (٨١) باب (٥٠) ح رقم (٦٥٤١) فتح الباري (١١/٤٠٥) ، ومسلم في "صحيحه" كتاب الإيمان (١) باب (٩٤) ح رقم [٣٧٤-(٢٢٠)] انظر صحيح مسلم (١/١٩٩) .
(٣) انظر : النهاية : لابن كثير (٢/٢٧٥) ، القرطبي : التذكرة (ص٣٠١) ، السفاريني : لوامع الأنوار (٢/٢٠٨) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص٢٥٧) .
(٤) السيوطي : علم التوحيد –مخطوط– لوحة رقم (١١) .
(٥) شرح صحيح مسلم (١/٤٤٣) .
(٦) التذكرة (٣٠١) .
(٧) لوامع الأنوار (٢/٢١١) .
(٨) شرح الطحاوية (ص٢٥٧) .

ويبقى نوعان يذكرهما كثير من الناس

أحدهما : في قوم استوجبوا النار فيشفع فيهم أن لا يدخلوها وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه ، وأكثر الأحاديث صريحة في أن الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول فلا يدخلون فلم أظفر بنص "[١] . ومن هنا يتبين أن هذا النوع لا دليل عليه .

الرابعة : الشفاعة لأهل الكبائر من الموحدين

يقول السيوطي : " الرابعة : الشفاعة في اخراج من أدخل النار من الموحدين "[٢] وهم أهل الكبائر من الأمة ، ومذهب أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة أن أهل الكبائر هم تحت مشيئة الله جل وعلا ، إن شاء عذبهم بمقتضى عدله ، وإن شاء غفر لهم برحمته وفضله ، وأن من دخل النار من أهل التوحيد فإنه يخرج منها بعد أن يعذب فيها المدة التي يشاؤها الله عز وجل تطهيراً له ، ثم يرحمه ويحسن إليه ويدخله الجنة وأن لا يخلد في النار مثل خلود أهل الكفر والشرك بالله تعالى .

وقد كانت هذه المسألة مسلمة بين الصحابة – رضوان الله عليهم – يثبتونها على ضوء ما جاء في كلام الله تعالى وكلام رسوله – صلى الله عليه وسلم – وهذه بعض أقوال الأئمة التي تؤيد هذا :

١- قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : " ما يزال الله يرحم المؤمنين ويخرجهم من النار ويدخلهم الجنة بشفاعة الأنبياء والملائكة حتى إنه تعالى في آخر الأمر يقول : من كان من المسلمين فليدخل الجنة قال فهنالك يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين "[٣]

٢- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : " إن أحاديث الشفاعة في أهل الكبائر ثابتة ومتواترة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد اتفق عليها السلف من الصحابة وتابعيهم بإحسان وأئمة المسلمين ، وإنما نازع في ذلك أهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم ولا يبقى في النار أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان بل كلهم يخرجون من النار ويدخلون الجنة "[٤]

٣- وقال السفاريني : " اتفق أهل السنة والجماعة على أن النار لا يخلد فيها أحد من اهل الإيمان والتوحيد كما ثبت ذلك في الأحاديث أنه يخرج من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان ونحوه لكن لا بد أن يدخل النار من أهل التوحيد طائفة بذنبهم ، ويعاقبون على مقدار ذنبهم ثم يخرجون بشفاعة النبي – ﷺ- أو غيره ، أو برحمة أرحم الراحمين "[٥] .

وهذه الأقوال من العلماء مبنية على ما ورد عن النبي – صلى الله عليه وسلم – فعن جابر – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله– صلى الله عليه وسلم – : " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي "[٦] وهو يدل على الشفاعة الخاصة بأهل

---

(١) عون المعبود (١٣/٧٧) .

(٢) علم التوحيد – مخطوط – لوحة رقم (١١) .

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٤/٤٤٢) ، والرازي : التفسير الكبير (١٩/١٥٤) .

(٤) مجموع الفتاوي (٤/٣٠٩) .

(٥) لوامع الأنوار (٢/٧٧٣) .

(٦) رواه ابو داود الطيالسي في "مسنده" (ص ٢٣٣) ح رقم (١٦٧) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص ٢٧١) ، والترمذي في "سننه" (٤/٦٢٥) ح رقم (٢٤٣٦) وقال : "حسن غريب من هذا الوجه ، مستغرب من حديث جعفر بن محمد " ، ورواه الحاكم في "المستدرك" (١/٦) وقال : "صحيح على شرط مسلم" ورواه ابو نعيم في "الحلية" (٣/٢٠٠-٢٠١) جميعهم من طريق محمد بن ثابت عن جعفر بن محمد عن أبيه . ورواه ابن ماجة في "الزهد" (٢/١٤٤١) ح رقم (٤٣١٠) ، والحاكم في "المستدرك" (١/٦٩) و (٢/٣٨٢) ، والبيهقي في "البعث والنشور" ح رقم (١) (ص ٥٥) ،

الكبائر التي يخرجون بها من النار بعد دخولهم فيها .

وعـــن جابر أيضاً قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله – عز وجل – يخرج من النار قوماً بالشفاعة "(١) .

وعـــن عمـــران بن حصين – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : " يخرج الله من النار قوماً بشفاعة محمد – صلى الله عليه وسلم – فيدخلون الجنة ، فيسميهم أهل الجنة الجهنميين "(٢) .

وعـــن ابـــي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " أما أهل النار الذيـــن هم أهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون . ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال : بخطاياهم) فأماتهم إماتة حـــتى إذا كانوا فحماً ، أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر(*) . فبثوا على أنهار الجنة . ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم . فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل "(٣) . وغيرها من الأحاديث .

ويـــبين الســـيوطي أن أصحاب الذنوب من أهل التوحيد إنما يجاوزون بذنوبهم بستة شروط فيقول في قوله تعالى : (ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)(٤) " هذا على عمومه في حق الكفار ، وأما المؤمنون فلا يجزون بذنوبهم إلا بستة شروط وهي

١- أن تكون ذنوبهم كباراً ٢- أن يموتوا قبل التوبة منها

٣- أن لا تكون لهم حسنات أرجح في الميزان منها ٤- أن لا يُشفع فيهم

٥- أن لا يكونوا ممن استحق المغفرة بعمل كأهل بدر ، للحديث : " لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "(٥)

جميعهـــم من طريق الوليد بن مسلم ، عن زهير بن محمد ، عن جعفر بن محمد عن أبيه ، وقال الحاكم : "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" وقـــال الذهـــبي : "على شرط مسلم" ، وقال البيهقي : "حديث صحيح" ، ورواه الآجري في "الشريعة" (١٢١٢/٣) ح رقم (٧٧٨) وقال محققه : " هذا حديث إسناده حسن " .

(١) رواه البخاري في "صحيحه" كتاب الرقاق (٨١) باب (٥١) ح رقم (٦٥٥٨) أنظر : الفتح (٤١٦/١١) ، ورواه مسلم في "صحيحه" (١٧٨/١) ح رقم (١٩١) ، وابـــن خـــزيمة في "التوحيد" (ص ٢٧٧) وابن ابي عاصم في "السنة" (٤٠٤/٢) جميعهم من طريق حماد بن زيد ، عن عمرو بن دينار ، وكذا الآجري في "الشريعة" (١٢٣٠/٣) رقم (٧٩٨) .

ورواه مسلم في "صحيحه" (١٧٨/١) ح رقم (١٩١) ، وابن ابي عاصم في "السنة" (٤٠٤/٢) ح رقم (٨٤٠) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص ٢٧٧) والبيهقي في "الاعتقاد" (ص٩٠) ، والأجري في "الشريعة" (١٢٣١/٣) ح رقم (٧٩٩) جميعهم من طريق سفيان ، عن عمرو بن دينار ، ورواه احمد في "المسند" من طريق آخر عن جابر .

(٢) البخاري في "صحيحه" كتاب الرقاق (٨١) باب (٥١) رقم (٦٥٦٦) انظر : الفتح (٤١٨/١١) .

وابـــو داود في "سننه" كتاب الشفاعة (عون المعبود ٧٢/١٣-٧٣) والترمذي في "سننه" في صفة جهنم (٧١٥/٤) ح رقم (٢٦٠٠) ، وابن ماجة في "سننه" كتاب الزهد (١٤٤٣/٢) ح رقم (٤٣١٥) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص٢٧٦) والبيهقي في "الاعتقاد" (ص٩١) ، والبغوي في "شرح السنة" (١٥/ ١٨٣) جميعهم من طريق الحسن بن ذكوان ، وهو ابو سلمة البصري صدوق يخطيء ، ورمي بالقدر ، وكان يدلسي ، من السادسة : انظر : تقريب التهذيب (١٦٦/١) والتهذيب (٢٧٦/٢) .

(*) الضبائر : هم الجماعات في تفرقة ، واحدتها : ضِبارة ، مثل عِمارة وعمائر .

(٣) رواه مسلم في "صحيحه" (١٧٢/١) رقم (١٨٥) ، وابن ماجة في "سننه" كتاب الزهد (١٤٤١/٢) ح رقم (٤٣٠٩) ، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢، ٢٨٣ ، ٢٨٦) ، والبيهقي في "الاعتقاد" (ص٩٢) جميعهم من طريق ابي نضرة عن ابي سعيد وكذلك الأجري في "الشريعة" (١٢٣٢/٣) ح رقم (٨٠١) .

(٤) سورة الزلزلة ، الآية (٨) .

(٥) رواه البخاري في "صحيحه" رقم (٣٠٠٧) الفتح (١٤٣/٦) ، رقم (٤٢٧٤) الفتح (٥١٩/٧) ، رقم (٤٨٩٠) الفتح (٦٣٣/٨) ، ومسلم في "صحيحه" (١٩٤١/٤) ح رقم [١٦١-(٢٤٩٤)] .

٦- وأن لا يعفو الله عنهم . فإن المؤمن العاصي في مشيئة الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له "[١] .

الخامسة : الشفاعة لرفع درجات أهل الجنة

قال السيوطي : " الخامسة : الشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها "[٢] ودليل هذا النوع من الشفاعة ما صح عـن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " اللهم اغفر لعبيد أبي عامر " ثم قال : " اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير مـن خـلقك من الناس ... " الحديث[٣] وكذا حديث أم سلمة - رضي الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - دخل على أبي سلمة ، وقد شق بصره ، فأغمضه ، ثم قال : " إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، فضج ناس من أهله فقال : " لا تدعـوا عـلى أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون " ثم قال : " اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفرلنا وله يارب العالمين ... " الحديث[٤] .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - : " النوع الثاني : شفاعته - صلى الله عليه وسلم - لقوم من المؤمنين في زيادة الثواب ورفعة الدرجات " ثم استدل لذلك بحديث أم سلمة المتقدم[٥] . ويقول الإمام النووي - رحمه الله تعالى - : " الخامسة : في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها "[٦] .

وقـال شارح الطحاوية : " النوع الرابع : شفاعته - صلى الله عليه وسلم - في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فـوق مـا كان يقتضيه ثواب أعمالهم "[٧] . وقد ورد في كتاب الله تعالى ما يدل على رفع الدرجات في الجنة كما في قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء)[٨] ولكن هذا لا يدخل في الشـفاعة إنما هو تفضل من الله تعالى وإحسان منه إلى عباده حيث رفع ناقص العمل بكامل العمل من غير أن ينقص من أجر الكامل شيء ولكن يدل على جواز رفع درجة بعض المؤمنين في الجنة . والحمد لله على فضله وإحسانه .

السادسة : شفاعته - صلى الله عليه وسلم - في تخفيف العذاب عن عمه أبي طالب

قال السيوطي : " السادسة : الشفاعة في تخفيف العذاب عمن استحق الخلود في النار ، كما في حق أبي طالب "[٩] وهـذه خاصة في حق أبي طالب بن عبد المطلب عم النبي - صلى الله عليه وسلم - نظراً لمواقفه مع رسول الله - صلى الله عـليه وسـلم - من مساندته له في دعوته ، ومناصرته ، وحمايته والدفاع عنه ضد أذى قريش رغم أنه لم يسلم ومات عـلى الكفـر ، ويدل لذلك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما سئل : هل نفعت أبا طالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك

---

(١) معترك الأقران (٤٦٨/٢) .
(٢) علم التوحيد -مخ- لوحة رقم (١١) .
(٣) رواه البخاري في "صحيحه" . انظر : الفتح (٤١/٨-٤٢) . واللفظ له ، ورواه مسلم في "صحيحه" (١٩٤٤/٤) ح رقم [١٦٥-(٢٤٩٨)] .
(٤) رواه مسلم في "صحيحه" (٦٣٤/٢) ح رقم [٧-(٩٢٠)] .
(٥) عون المعبود (٧٨/١٣) .
(٦) شرح صحيح مسلم (٤٤٣/١) .
(٧) (ص٢٥٧) وانظر : النهاية لابن كثير (٢٧٤/٢) ، لوامع الأنوار (٢١١/٢) .
(٨) سورة الطور ، الآية (٢١) .
(٩) علم التوحيد -مخ- لوحة رقم (١١) .

ويغضب لك قال : " نعم هو في ضحضاح[١] من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار "[٢] .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " أهون أهل النار عذاباً أبو طـالب – وهـو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه "[٣] وهذه الأحاديث تدل على أن أبا طالب مات على الكفر وأنه في النار ويخفـف عـنه من عذابها بشفاعة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – كما ثبت فيما سبق ، وذلك خلافاً للمغيرية من الشيعة الذين يزعمون أن أبا طالب في الجنة[٤] ، وهو ضلال وانحراف نعوذ بالله تعالى من الهلاك والخذلان .

المبحث الثالث : الحساب

الحسـاب فـي الـلغة : الإحصاء بالدقة التامة دون زيادة ولا نقصان قال الأزهري : " وإنما سمي الحساب في المعاملات حساباً لأنه يعلم به ما فيه كفاية ليس فيه زيادة ولا نقصان "[٥] والحساب والحسابة عدل الشيء ويأتي الحساب بمعنى الكثرة ومـنه " أحسبت الرجل أي أعطيته ما يرضي وقيل : معناه أعطيته حتى قال حسبي ، قال الله عز وجل : (...عطاءً حساباً)[٦] أي كثيراً[٧] .

وقال الراغب : " الحساب استعمال العدد ... والحسبان : ما يحاسب عليه فيجازي بحسبه ... والحسيب والمحاسب : من يحاسبك ثم يعبر عن المكافيء بالحساب "[٨]

الحساب في الشرع : قال السفاريني عن الحساب أنه يراد به " توقيف الله عباده قبل الإنصراف من المحشر على أعمالهم ، خيـراً كانت أو شراً تفصيلاً لا بالوزن ، إلا من استثنى منهم "[٩] والمقصود بقوله : " لا بالوزن " أي : لا يكتفي بالمعرفة الإجمالية التي تحصل عن طريق الوزن فقط ، دون إيقافهم على تفصيل أعمالهم تفصيلاً دقيقاً .

ونقـل السـفاريني عـن بعض العلماء قوله : " الحساب تعريف الله – عز وجل – الخلائق مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم ما قد نسوه من ذلك ، يدل على هذا قوله تعالى : (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه)[١٠] "[١١] . ومن هذه الأقوال يمكن أن يقال : إن المراد بالحساب : " أن يوقف الحق تبارك وتعالى عباده بين يديه ، ويعـرفهم بأعمـالهم الـتي عمـلوها ، وأقوالهم التي قالوها ، وما كانوا عليه في حياتهم الدنيا من إيمان وكفر ، واستقامة وانحـراف ، وطاعـة وعصـيان ، ومـا يستحقون على ما قدموه من إثابة وعقوبة ، وإيتاء العباد كتبهم بأيمانهم إن كانوا صـالحين ، وبشمائلهم إن كانوا طالحين ، ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده ، وما يقولونه له ، وما يقيمه عليهم من حجج

---

(١) الضحضاح : مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين ، واستعير للنار .

(٢) رواه البخاري في "صحيحه" رقم (٦٥٦٤) الفتح (١١/٤١٧) ، ومسلم في "صحيحه" (١/١٩٤) رقم [٣٥٧-(٢٠٩)] .

(٣) رواه مسلم في "صحيحه" (١/١٩٦) ح رقم [٣٦٣-(٢١٣)] .

(٤) انظر : ابن حجر : فتح الباري (١١/٤٣١) ، والتنبيه والرد للملطي (ص١٥٢) .

(٥) تهذيب اللغة (٤/٣٣٣،٣٣١) ، وانظر : القاموس المحيط (١/٥٦) .

(٦) سورة النبأ ، بعض الآية (٣٦) .

(٧) تهذيب اللغة (٤/٣٣٣) ، وانظر : تاج العروس (١/٢١٠-٢١٣) .

(٨) المفردات (ص١١٦-١١٧) .

(٩) لوامع الأنوار (٢/١٦٥) ، وانظر : الكواشف الجلية (ص٣٤٣) .

(١٠) سورة المجادلة ، بعض الآية (٦) .

(١١) لوامع الأنوار (٢/١٦٥) .

وبراهين ، وشهادة الشهود ووزن للأعمال . والحساب منه العسير ، ومنه اليسير ، ومنه التكريم ، ومنه التوبيخ والتبكيت ، ومنه الفضل والصفح ومتولي ذلك أكرم الأكرمين "[١] .

والأدلة على وقوع الحساب من القرآن الكريم والسنة النبوية كثيرة جداً لا يتسع المقام لحصرها لكن نكتفي ببعضها هنا دلالة على المقصود يقول الله تعالى : (... واتقوا الله إن الله سريع الحساب)[٢] وفي بيان سرعة الحساب مع تمام العدل يقول تعالى : (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب)[٣] (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[٤] ومن الآيات التي استدل بها السيوطي على وقوع الحساب وقيام العباد بين يدي الله جل وعلا قوله تعالى : (ولمن خاف مقام ربه جنتان)[٥] قال السيوطي : " أي القيام بين يديه للحساب "[٦] وكذلك قال ابن جرير[٧] - رحمه الله - ، وابن كثير - رحمه الله -[٨] وقال القرطبي : " خاف مقامه بين يدي ربه للحساب فترك المعصية "[٩] وهو أحد الأقوال التي ذكرها في الآية الكريمة .

وقال الإمام الشوكاني : " مقامه سبحانه هو الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب ، كما في قوله تعالى : (يوم يقوم الناس لرب العالمين)[١٠] . "[١١] .

وللإستدلال على وقوع الحساب من قوله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره)[١٢] يقول السيوطي : " المثقال هو الوزن ، والذرة النملة الصغيرة ، والرؤية هنا ليست برؤية بصر وإنما هي عبارة عن الجزاء ، وذكر الله مثقال الذرة تنبيهاً على ما هو أكثر منه من طريق الأولى ، كأنه قال : من يعمل قليلاً أو كثيراً . وهذه الآية هي في المؤمنين لأن الكافر لا يجازى في الآخرة على حسناته ، إذ لم تقبل منه واستدل أهل السنة بهذه الآية على أنه لا يخلد مؤمن في النار لأنه لو خلد لم ير ثواباً على إيمانه وعلى ما عمل من الحسنات .

(ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[١٣] هذا على عمومه في حق الكفار ، وأما المؤمنون فلا يجزون بذنوبهم إلا بستة شروط وهي التي ذكرتها آنفاً عن السيوطي ٠

فإن المؤمن العاصي في مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له "[١٤] .

---

(١) الأشقر : اليوم الآخر - القيامة الكبرى (ص١٩٣) .
(٢) سورة المائدة ، بعض الآية (٤) .
(٣) سورة غافر ، الآية (١٧) .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية (٤٧) .
(٥) سورة الرحمن ، الآية (٤٦) .
(٦) معترك الأقران (٣/٣٥٠) .
(٧) انظر : جامع البيان (٢٧/١٤٥) .
(٨) انظر : تفسير القرآن العظيم (٧/٤٧٦) .
(٩) انظر : الجامع لأحكام القرآن (١٧/١١٥) .
(١٠) سورة المطففين ، الآية (٦) .
(١١) فتح القدير (٥/١٤٠) .
(١٢) سورة الزلزلة ، الآيو (٧) .
(١٣) سورة الزلزلة ، الآية (٨) .
(١٤) معترك الأقران (٢/٤٦٨) .

المبحث الرابع : الميزان

الميزان في اللغة : اسم للآلة التي تزن بها الأشياء والوزن هو معرفة قدر الشيء[١] .

وفي الشرع : هو ميزان حقيقي له لسان وكفتان توزن به السيئات والحسنات[٢] .

وقد أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان ، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة ، وأنه يميل بالأعمال ، وذكر الميزان عند الحسن فقال : له لسان وكفتان[٣] .

ويذكر السيوطي أن الميزان حق ، وأن الإيمان به واجب فيقول : " وأن الميزان حق ، وله لسان وكفتان لتعرف بها مقادير الأعمال بأن توزن صحفها به ، قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[٤] "[٥] .

ويؤكد السيوطي هذا المعنى في موضع آخر ، وذلك عند قوله تعالى : (فأما من ثقلت موازينه)[٦] فيقول : " هو جمع ميزان ، أو جمع موزون . وميزان الأعمال يوم القيامة له لسان وكفتان وعمود ، وتوزن فيه الأعمال ، والخفة والثقل متعلقة بأجسام إما صحف الأعمال أو ما شاء الله "[٧] .

ويذكر السيوطي أن المعتزلة خالفت أهل السنة في هذا فقالت عن الميزان إنه " عبارة عن العدل في الجزاء "[٦] ولكنه لم يرد هذا القول أو يبين بطلانه ، وقد حكى الإيجي في المواقف أن المعتزلة ينكرون الميزان لأن الأعمال أعراض لا يمكن وزنها[٨] ولكن ما ذكره القاضي عبدالجبار بن احمد في " أصوله الخمسة " يرد ما ذكره الإيجي فقد قال : " ولم يُرد الله تعالى بالميزان إلا المعقول منه المتعارف عليه بيننا دون العدل وغيره على ما يقول بعض الناس ، وكلام الله تعالى مهما أمكن حمله على الحقيقة لا يجوز أن يعدل به عنه إلى المجاز ، يبين ذلك ويوضحه أنه لو كان الميزان إنما هو العدل لكان لا يثبت للثقل والخفة فيه معنى فدل على أن المراد به الميزان المعروف الذي يشتمل على ما تشمل عليه الموازين "[٩]

وهذا الكلام من القاضي عبدالجبار واضح في أنه يثبت الميزان الذي يثبته أهل السنة وهو شيخ المعتزلة في وقته ، مما يتبين منه أحد الأمرين :

الأول : إما أن يكون قد وقع خطأ في نقل مذهب المعتزلة عنهم ، فهذا تصحيح لهذا الخطأ ، لأن أهل السنة أهل العدل الوسط الذين ينقلون ما لهم وما عليهم ، وبهذا يكون المعتزلة قد أصابوا في هذه المسألة وجه الحق .

---

(١) انظر : المفردات (ص٥٢٢) .
(٢) انظر : لوامع الأنوار (١٨٤/٢) .
(٣) فتح الباري (٥٣٨/١٣) .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية (٤٧) .
(٥) علم التوحيد -مخ- لوحة رقم (١٠) .
(٦) سورة القارعة ، الآية (٦) .
(٧) معترك الأقران (٤٦٩/٢) .
(٨) انظر : (ص٣٨٤) .
(٩) شرح الأصول الخمسة (ص٧٣٥) .

الثاني : أن يكون القائل بأن الميزان هو العدل بعض المعتزلة لا جميعهم .

وقد مضى معنا بعض الآيات الكريمة في إثبات الموازين الموضوعة يوم القيامة لوزن الأعمال . وقد وردت السنة أيضاً بإثبات ذلك ، فعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ يقول : لا يارب . فيقول : أفلك عذر ؟ فيقول : لا يارب . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول أحضر وزنك . فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول : فإنك لا تظلم . قال : فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة ، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء "[١] .

وقد رجح القرطبي أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة وبها تخف[٢] ، ورجحه أيضاً السفاريني فقال : " والحق أن الموزون صحائف الأعمال ، وصححه ابن عبد البر وغيره ، وذهب إليه جمهور من المفسرين "[٣] .

المبحث الخامس : الصراط

الصراط في اللغة : الطريق الواضح[٤] .

وفي الشرع : جسر منصوب على متن جهنم بين الجنة وأرض المحشر عليه يمر الناس على قدر أعمالهم[٥] .

وقد أكد السيوطي على وجوب الإيمان بالصراط ، وأنه حق فيقول : " ... وأن الصراط ، وهو – كما في حديث مسلم – جسر يمر على ظهر جهنم أدق من الشعر وأحد من السيف ، حق "[٦] . واستشهد السيوطي على ثبوت الصراط بحديث أبي هريرة – رضي الله عنه – وفيه : " ويضرب جسر بين ظهراني جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم في ذلك اليوم إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم . وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان[٧] . هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله – عز وجل – تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم من يوبق[٨] بعمله . ومنهم من يخردل[٩] ثم ينجو ، ... " الحديث[١٠] .

ومن الأدلة أيضاً حديث أبي سعيد الخدري الطويل وفيه : " ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل

---

(١) رواه الإمام احمد في "المسند" (٢٧٣/٣) بلفظ قريب من هذا ، ورواه الترمذي في "سننه" ح رقم (٢٧٨٩) ، وابن ماجة ح رقم (٤٣٠٠) وقال عنه الشيخ الألباني -رحمه الله- بأنه حديث صحيح ، وله سند آخر بمعناه ، انظر : صحيح الترمذي للألباني (٣٣٣/٢) . واستشهد به السيوطي في "علم التوحيد" (١٠) وعزاه الترمذي وذكر أنه حسنه ، وكذا في "معترك الأقران" (٤٦٩/٢) .

(٢) انظر : التذكرة (٣١٣) .

(٣) لوامع الأنوار (١٨٧/٢) .

(٤) انظر : لسان العرب (٣٤٠/٧) ، مختار الصحاح (ص١٥١) .

(٥) انظر : لوامع الأنوار (١٨٩/٢) .

(٦) علم التوحيد -مخ- لوحة رقم (١٠) .

(٧) نبت ذو شوك ، وهو من جيد مراعي الإبل تسمن عليه . النهاية (٣٦٧/٢) .

(٨) من يهلك بعمله .

(٩) قيل معناه : يقطع ، أي تقطعه الكلاليب فيهوي في النار ، وقيل : المخردل المصروع .

(١٠) رواه البخاري في "صحيحه" ح رقم (٦٥٧٣) الفتح (٤٤٤/١١) ، ومسلم في "صحيحه" (١٦٣/١) ح رقم [٩٩٢-(١٨٢)] .

الشـفاعة فيقولون : اللهم سلم سلم . قيل يا رسول الله : وما الجسر ؟ قال دحض مزلة[١] فيه خطاطيف وكلاليب وحسك[٢] تكـون بـنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمن كطرف العين ، وكالبرق وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل ، والركاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكدوس على وجهه في النار "[٣] .

– ومنها حديث حذيفة بن اليمان – رضي الله عنه – الطويل فيه :

" فيـأتون محمداً – صلى الله عليه وسلم – فيقوم ويؤذن له ، وترسل الأمانة والرحم فيقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً فيمـرأو لكـم كالـبرق ، قال : قلت : بأبي أنت وأمي أي شئ كمر البرق ؟ قال : الم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين ، ثم كمر الريح ، ثم كمر الطير ، وشد الرجال[٤] تجري بهم أعمالهم ، ونبيكم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم . حتى تعجز أعمال العباد ، حتى يجئ الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً ، قال : وفي حافتي الصراط كلاليب[٥] معلقة مـأمورة بـأخذ مـن أمرت بأخذه ، فمخدوش ناج ، ومكدوس[٦] في النار "[٧] وما ذهب إليه السيوطي من وجوب الإيمان بالصراط ، وأنه حق هو مذهب أهل السنة والجماعة ، السلف وأئمة أهل السنة وهذا طرف من بعض أقوالهم :

١– قـال سلمان – رضي الله عنه – : يوضع الصراط يوم القيامة وله حد كحد الموس ، فتقول الملائكة : يا رب من يمر على هذا ؟ فيقول : من شئت من خلقي . فيقولون : يا ربنا ما عبدناك حق عبادتك[٨] .

٢– وقال الإمام أحمد – رحمه الله – : والصراط حق ، يوضع على شفير جهنم ويمر الناس عليه ، والجنة من وراء ذلك ، نسأل الله عز وجل السلامة في الجواز[٩] .

٣– وقـال الإمام ابن بطة العكبري : ثم الإيمان بالبعث والصراط وشعار المؤمنين يومئذ سلم سلم ، والصراط كما جاء في الحديث إنه أحد من السيف ، وأدق من الشعرة[١٠] .

وقد اتضح من الأدلة السابقة ، ومن أقوال الأئمة أمور منها :

أولاً : أن الإيمان بالصراط واجب . وأنه جسر منصوب على متن جهنم بين الجنة وأرض المحشر .

ثانياً : أنه ممر رهيب جداً ، يقف الرسل على جانبيه يدعون الله تعالى يقولون : يا رب سلم سلم . ولا يتكلم غيرهم .

ثالثاً : أن عليه كلاليب وخطاطيف وحسك مثل شوك السعدان معلقة به مأمورة بخطف من أمرت بخطفه من المارين عليه .

رابعاً : أنه مدحضة مزلة ، فهو على دقته وحدته منزلق شديد لا تثبت عليه الأقدام . إلا من كتب الله تعالى له الثبات وكان

---

(١) الدحض : الزلق . النهاية (١٠٤/٢) والدحض المزلة بمعنى واحد ، وهو الموضع الذي نزل فيه الأقدام ولا تستقر .

(٢) الحسك : جمع حسكة وهي شوكة صلبة من حديد ، النهاية (٣٨٦/١) .

(٣) رواه مسلم في "صحيحه" (١٦٧/١) ح رقم (١٨٣) .

(٤) (وشد الرجال) الشد : هو العدو البالغ والجري .

(٥) كلاليب : جمع كلوب ، وهو حديدة معوجة الرأس ، النهاية (١٩٥/٤) ،

(٦) مكدوس : أي مدفوع ، وتكدس الانسان إذا دُفع من ورائه فسقط .

(٧) رواه مسلم في " صحيحه " (١٨٦/١) ح رقم (١٩٥) .

(٨) اللالكائي : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، رقم (٢٢٢١) .

(٩) طبقات الحنابلة (٢٧/١) .

(١٠) الشرح والإبانة (ص٢٢١) ، صحيح مسلم (١٦٧/١) ح رقم (٣٠٢) من كتاب الايمان في آخر الحديث .

من أهل السعادة .

خامســاً : أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف كما قال أبو سعيد - رضي الله عنه - : " بلغني أن الجسر أدق من الشعرة وأحد من السيف "[١] وهذا لا يقال بالرأي بل لا بد أنه قد بلغه من قول النبي - صلى الله عليه وسلم - .

المبحث السادس : الجنة والنار

الجــنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين ، الخاضعين لشريعته ، المتبعين لرسله ، وهي دار النعيم والــثواب المقيــم أعد الله تعالى فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من دخلها فقد فاز الفوز العظيم ، وربح الربح الذي لا خسارة بعده .

والنار - أعاذنا الله منها - هي الدار التي أعدها الله تعالى للكافرين به المكذبين لرسله ، والمتمردين على شريعته ، فهي دار الخزي الأكبر والخسران العظيم .

والإيمان بالجنة والنار من أهم قضايا الإيمان باليوم الآخر الذي هو أحد أركان الإيمان مما لا يتم الإيمان إلا بها .

تحــدث الســيوطي عن الجنة والنار فقال : " ونعتقد أن الجنة والنار مخلوقتان اليوم قبل يوم الجزاء ، للنصوص الدالــة على ذلك "[٢] وما ذكره السيوطي من أن الجنة والنار موجودتان الآن هو معتقد أهل السنة والجماعة ، وهذه بعض أقوال أئمتهم :

١- قــال شارح الطحاوية : اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل على ذلك أهل السنة حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك ، وقالت : بل ينشئهما الله يوم القيامة ، وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله ، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولا ينبغي له أن يفعل كذا ، وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فهم مشبهة في الأفعال ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة "[٣] .

٢- وقــال الإمام أحمد - رحمه الله - : " وأن الله خلق الجنة قبل الخلق وخلق لها أهلاً ونعيمها دائم ، ومن زعم أنه يبيد من الجنة شئ فهو كافر ، وخلق النار قبل خلق الخلق ، وخلق لها أهلاً وعذابها دائم "[٤] .

٢- وقال الإمام أبو الحسن الأشعري عن عقيدة أصحاب الحديث : " ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان "[٥] .

٣- وعقــد الآجــري في مصنفه القيم " الشريعة " كتاباً مطولاً عن الإيمان والتصديق بأن الجنة والنار مخلوقتان وقال : " اعلموا رحمنا الله وإياكم أن القرآن شاهد على أن الله عز وجل خلق الجنة والنار قبل أن يخلق آدم - عليه السلام - وخلق للجــنة أهلاً وللنار أهلاً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا لا يختلف في هذا من شمله الإسلام ، وذاق حلاوة طعم الإيمان دل على

---

(١) مسلم في " صحيحه " (١٦٧/١) ح رقم (١٨٣) ، وموضع الشاهد (ص١٧١) .

(٢) علم التوحيد - مخ - لوحة رقم (١٩) .

(٣) شــرح العقيــدة الطحاوية (٦١٤/٢-٦١٥) ، وانظر : مقالات الاسلاميين (١٦٨/٢) والابانة (ص٦٣) والبعث والنشور (ص١١٢) وما بعدها وحادي الأرواح (ص٣٥) وما بعدها ، لوامع الأنوار (٢٣٥/٢) وما بعدها .

(٤) طبقات الحنابلة (٣٤٤/١) .

(٥) مقالات الاسلاميين (٢٩٦/١) .

ذلــك القرآن والسنة فنعوذ بالله ممن كذب بهذا "[١] ثم أورد كثيراً من نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة يثبت بها ما ذكره .

٤- وقـــال الإمـــام ابن عبدالبر : " وفي الحديث أيضاً من ذكر الجنة والنار دليل على أنهما مخلوقتان ، وعلى ذلك جماعة أهل العلم وأنهما لا يبيدان من سائر المخلوقات وأهل البدع ينكرون ذلك "[٢] ومن الأدلة التي استدل بها أهل السنة على هذا المعتقد : أولاً : الأدلة من القرآن :

١- قوله تعالى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين)[٣] .

٢- وقال تعالى : (إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون)[٤] .

٣- وقـــال تعـــالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى...)[٥] .

٤- وقال تعالى : (واتقوا النار التي أعدت للكافرين)[٦] .

٥- وقـــال جـــل وعلا : (...وكفى بجهنم سعيراً . إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً)[٧] .

٦- وقال تعالى : (...وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً)[٨] .

ثانياً : الأدلة من السنة :

١- حديـــث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قيل يا رسول الله إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهم مثل حرها "[٩] .

٢- وحديث عمران بن حصين - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - - قال : " اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء "[١٠] .

ومن هذه النصوص يتبين لنا أن الله تعالى قد أخبرنا أنه أعد الجنة وما فيها من النعيم المقيم لأهل التقى والصلاح ، وأعـــد النـــار وما فيها من العذاب لأهل الكفر والشرك والنفاق وإعداد الشئ تصريح بثبوته وتحققه ، وأنه مخلوق وموجود الآن ، كمـــا أخبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه رأى الجنة والنار واطلع عليهما ، وعلى أهلهما ، وهذا ليس معناه

---

(١) (ص٣٨٧) .
(٢) التمهيد (٣/٣٢٠) .
(٣) سورة آل عمران الآية (١٣٣) .
(٤) سورة الدخان الآيتان (٥١-٥٢) .
(٥) سورة سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بعض الآية (١٥) .
(٦) سورة آل عمران ، بعض الآية (١٣١) .
(٧) سورة النساء ، بعض الآية (٥٥) والآية (٥٦) .
(٨) سورة الفتح ، بعض الآية (٦) .
(٩) رواه البخاري في " صحيحه " ح رقم (٣٢٦٥) واللفظ له ، ومسلم في " صحيحه " (٤/٢١٨٤) ح رقم (٢٨٤٣) .
(١٠) رواه البخاري في " صحيحه " ح رقم (٦٥٤٦) ومسلم في " صحيحه " رقم (٢٧٣٧) .

إلا أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن كمعتقد أهل السنة وهو ما صرح به الجلال السيوطي .

تكميل في دوام الجنة والنار وأبديتهما :

لم يذكر السيوطي مسالة دوام الجنة والنار وأنهما أبديتان لا تفنيان ولا يلحقهما عدم ، ورأيت أن اذكر هذه المسألة لتكتمل عقيدة أهل السنة في هذا الحديث . وأقول في ذلك مستعيناً بالله تعالى : إن مقتضى النصوص أن الجنة تخلق خلقاً غير قابل للفناء وكذلك أهلها . فالجنة " خالدة لا تفنى ولا تبيد ، وأهلها فيها خالدون ، لا يرحلون عنها ولا يظعنون ، ولا يبيدون ولا يموتون "[١] وكذلك النار خالدة لا تفنى ولا تبيد[٢] ، وقد نقل ابن حزم – رحمه الله – اتفاق الأمة على ذلك ، فقال : " اتفقت فرق الأمة كلها عن أن لا فناء للجنة ولا لنعيمها ، ولا للنار ولا لعذابها ، إلا الجهم بن صفوان "[٣] وقال : " ... وأن النار حق ، وأنها دار عذاب لا تفنى ولا يفنى أهلها بلا نهاية "[٤] ، والنصوص في هذا المعنى كثيرة وقد سماها الله تعالى دار الخلد . قال تعالى : (فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعلمون . ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون)[٥] . فمذهب أهل السنة والجماعة " أن النار خالدة لا تبيد ، وأهلها فيها خالدون ، ولا يخرج منها إلا عصاة الموحدين ، أما الكفرة والمشركون فهم فيها خالدون "[٦] ومما يدل على دوام الجنة والنار وأبديتهما من القرآن :

١- قوله تعالى : (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار)[٧] .

٢- وقوله تعالى : (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقا ومن أصدق من الله قيلا)[٨] .

٣- وقوله تعالى : (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولم عذاب مقيم)[٩] .

٤- وقوله تعالى : (يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم)[١٠] .

٥- وقوله تعالى : (مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار)[١١] والآيات الكريمة في إثبات هذا المعنى كثيرة جداً وأما أدلة السنة – وهي أيضاً كثيرة :

---

(١) الاشقر : القيامة الكبرى – الجنة والنار (ص١٤١) .
(٢) انظر : شرح الطحاوية (ص٤٧٦) .
(٣) الملل والنحل (٨٣/٤) .
(٤) مراتب الإجماع (ص١٧٣) .
(٥) سورة فصلت ، الآيتان (٢٧،٢٨) .
(٦) الأشقر : القيامة الكبرى الجنة والنار (ص٤١) .
(٧) سورة البقرة الآية (١٦٧) .
(٨) سورة النساء الآية (١٢٢) .
(٩) سورة المائدة الآية (٣٧) .
(١٠) سورة التوبة ، الآيتان (٢١،٢٢) .
(١١) سورة الرعد ، الآية (٣٥) .

١- قولــه - صلى الله عليه وسلم - : " إذا صار أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار ، جئ بالموت حتى يجعل بين الجـنة والـنار ثم يذبح ، ثم ينادى مناد : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم "[١] .

٢- وقولــه - صلى الله عليه وسلم - : " يدخل أهل الجنة الجنة ، ويدخل أهل النار النار : ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول : يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت ، كل خالد فيما هو فيه "[٢] .

٣- وقوله - صلى الله عليه وسلم - : " ينادي مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكـم أن تشـبوا فـلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً ، فذلك قوله عز وجل (ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)[٣] "[٤] .

٤- وقوله - صلى الله عليه وسلم - في حديث الشفاعة الطويل : " ثم اشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة " قال الراوي : فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال : " فأقول : يارب ما بقى في النار إلا من حبسه القرآن " أي وجب عليه الخلود "[٥] .

قال البخاري - رحمه الله - " إلا من حبسه القرآن يعني قول الله تعالى : (...خالدين فيها...) "[٦] .

ومن كلام أئمة أهل السنة في هذا :

١- قال الإمام أحمد - رحمه الله - : " وقد خلقت النار وما فيها ، وخلقت الجنة وما فيها ، خلقهما الله عز وجل ، ثم خلق الخـلق لهما ، لا يفنيان ولا يغني ما فيهما أبداً فإن احتج مبتدع بقوله : (كل شئ هالك إلا وجهه)[٧] ونحو هذا من متشابه القـرآن قيـل له : كل شئ مما كتب اله عز وجل عليه الفناء والهلاك هالك ، والجنة والنار خلقهما الله عز وجل للبقاء لا للفناء ولا للهلاك ، وهما من الآخرة لا من الدنيا "[٨] .

وقال أبو جعفر الطحاوي : " والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان "[٩] .

٢- وقال ابن ابي زمنين : " وأهل السنة يؤمنون بأن الجنة والنار لا يفنيان ولا يموت أهلوهما "[١٠]

---

(١) الـبخاري فـي " صـحيحه " رقـم (٦٥٤٨) الفـتح (٤١٥/١١) . ومسـلم فـي " صحيحه " (٢١٨٩/٤) ح رقم (٤٣) ، وأحمد في " المسند " (٢/ ١٢١،١٢٠،١١٨) كلهم من حديث عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - .

(٢) الـبخاري فـي " صـحيحه " ح رقم (٦٥٤٤) الفتح (٤٠٦/١١) ، ومسلم في " صحيحه " واللفظ له (٢١٨٩/٤) ح رقم (٤٢) عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنها - .

(٣) سورة الأعراف ، بعض الآية (٤٣) .

(٤) رواه مسلم في " صحيحه " (٢١٨٢/٤) ح رقم (٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - والنسائي في " سننه الكبرى " (٣٤٥/٦) ح رقم (١١١٨٤) ، والترمذي في " سننه " (٣٧٤/٥) ح رقم (٣٢٤٦) ، وأحمد في " المسند " (٣١٩/٢) ، (٣٨،٩٥/٣) .

(٥) البخاري في " صحيحه " كتاب التفسير - سورة البقرة ح رقم (٤٤٧٦) الفتح (١٦٠/٨) ، ورقم (٦٥٦٥) ، رقم (٧٤١٠،٧٤٤٠) ومسلم في " صحيحه " (واللفظ له) (١٨٠/١-١٨١) ح رقم (٣٢٢) وابن ماجة في " سننه " رقم (٤٣١٢) وأحمد في " المسند " (٢٤٤/٣-٢٤٥) .

(٦) التفح (١٦٠/٨) .

(٧) سورة القصص ، بعض الآية (٨٨) .

(٨) كتاب السنة (ص٤٧) .

(٩) شرح العقيدة الطحاوية (٦١٤/٢) .

(١٠) أصول السنة (٤٥٣/٢) .

٣- وقال ابو عثمان الصابوني : " ويشهد أهل السنة ويعتقدون أن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما باقيتان لا تفنيان أبداً ، وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبداً ، وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها لا يخرجون أبداً "(١) .

٤- وقال ابن تيمية - رحمه الله - : " وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لايعـدم ولا يفـنى بالكـلية كالجـنة والنار والعرش وغير ذلك ، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبـتدعين ، كـالجهم بن صفوان ومن افقه من المعتزلة ونحوهم ، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع سلف الأمة وأئمتها "(٢) .

٥- وقـال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : " ولما كان الناس على ثلاث طبقات : طيب لا يشينه خبث ، وخبث لا طيب فيـه ، وآخـرون فيهم خبث وطيب كانت دورهم ثلاثة : دار الطيب المحصن ، ودار الخبيث المحض ، وهاتان الداران لا تفنيان ، ودار لمن معه خبث وطيب ، وهي الدار التي تفني وهي دار العصاة ، فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد ، فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة ، ولا يبقى إلا دار الطيب المحض ودار الخبث المحض "(٣)

٦- ويقـول شـارح الطحاويـة : " وقال بفناء الجنة والنار والجهم بن صفوان إما المعطلة ، وليس له سلف قط ، لا من الصـحابة ولا مـن التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ، ولا من أهل السنة ، وانكره عليه عامة أهل السنة ، وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده وهو وجود ما لا يتناهى من الحوادث ... وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار ... وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما بل بإبقاء الله لهما "(٤) .

المبحث السابع : رؤية الله سبحانه وتعالى في الجنة

أعظم نعيم يناله المؤمن في الجنة هو رؤية الله جل وعلا ببصره وهي ثابتة بالكتاب والسنة المتواترة ، واتفق على القـول بحصولها جميع الصحابة والتابعين ، وجميع أئمة الإسلام المعروفين بالإمامة والديانة ، وكذلك أهل الحديث وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبين إلى أهل السنة والجماعة "(٥) .

وقد قرر السيوطي هذه المسألة في أكثر من موضع في مصنفاته واستدل لها بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وآثار الصـحابة ، وأنكـر على أهل البدع النفاة للرؤية . ومما قال في ذلك : " ...وأن رؤية المؤمنين له تعالى قبل دخول الجنة وبعده حق "(٦) .

---

(١) عقيدة السلف (ص٦٦) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/٣٠٧) .

(٣) الوابل الصيب (ص٢٥) .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية (٢/٦٢٩،٦١٢) ، وانظر : كتاب السنة لعبد الله ابن أحمد بن حنبل (١/١٣٠-١٣١) ، ومقالات الاسلاميين (١/٢٤٤) ، مراتب الاجماع (ص٤٢٦) ، حادي الأرواح (ص٤٢٦) ، لوامع الأنوار (٢/٢٣٢) .

(٥) انظـر في ذلك : التوحيد لابن خزيمة (٢/٥٤٨) ، ابن تيمية : مجموع الفتاوى (٢/٣٣٧) ابن القيم : حادي الأرواح (ص٤٠٢) ، ابن أبي العز في " شـرح العقيدة الطحاوية " (ص٢٠٤) ، وأبو محمد عبدالرحمن إسماعيل بن إبراهيم الشافعي المعروف بأبي شامة : ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري .

(٦) علم التوحيد - مخ - لوحة رقم (١٣) .

وقال السيوطي في موضع آخر : " يجب الإيمان برؤية المؤمنين له تعالى يوم القيامة ، كما هو مذهب أهل السنة "(١) .

ومما ذكره السيوطي من الأدلة التي استدل بها أهل السنة والجماعة على ثبوت الرؤية : وهي أدلة قرآنية فسرتها الأحاديث النبوية فمن ذلك :

١- قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)(٢) والنظر هنا بمعنى الرؤية والإبصار لاسيما مع اقترانه بالوجوه ، وهكذا قال جمهور أهل العلم ، والمراد به ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة ، كما ينظرون إلى القمر ليلة البدر ، يقول ابن كثير - رحمه الله - : " وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام وهداة الأنام "(٣) .

ويذهب إمام الحرمين - رحمه الله - : إلى أنه إنما يتوقع تردد النظر بين جهات المعاني إذا لم يقيد " بإلى " فإذا قيد به ، وعدى لم يفهم منه إلا الرؤية الحقيقة فتعين حمل الآية على الرؤية والإبصار (٤) .

ولا يجوز حمل النظر في الآية على نظر الاعتبار ، لأن الآخرة ليست بدار استدلال واعتبار ، وإنما هي دار اضطرار(٥) ، ولا يجوز نظر التعطف والرحمة ، لأن الخلق لا يجوز أن يتعطفوا على خالقهم ، ولا يجوز نظر الانتظار ، لأنه ليس في شئ من أمر الجنة انتظار ، لأن الانتظار من تنقيص وتكدير ، والآية خرجت مخرج البشارة ، وأهل الجنة فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من العيش السليم ، والنعيم المقيم فهم ممكنون مما أرادوا ، قادرون عليه ، وإذا خطر ببالهم شئ أتوا به مع خطوره ببالهم ، وإذا كان ذلك كذلك لم يجز أن يقال : إن الله تعالى أراد بقوله (إلى ربها ناظرة) نظر الانتظار ، لأن ذلك مناف لما ذكر مما هو وارد في الأحاديث الصحيحة .

٢- ومن الأدلة القرآنية أيضاً :

قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ...)(٦) وقد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وعن الصحابة ... رضي الله عنهم - والتابعين ومن بعدهم تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى في الجنة . يقول ابن كثير - رحمه الله - : " وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن أبي بكر الصديق ، وحذيفة بن اليمان ، وعبدالله بن عباس ، وسعيد بن المسيب ، وعبدالرحمن بن أبي ليلئ وعبدالرحمن بن سابط ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعامر بن سعد ، وعطاء ، والضحاك ، والحسن وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن اسحاق وغيرهم من السلف والخلف ، وقد وردت فيه أحاديث كثيرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - "(٧) .

---

(١) الكوكب الساطع - مخ - لوحة رقم (٤٣١-٤٣٢) .
(٢) سورة القيامة الأيتان (٢٢،٢٣) ، وانظر : علم التوحيد - مخ - لوحة (١٣) .
(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٨٠) ، وانظر : الشوكاني : فتح القدير (٥/٣٣٨) .
(٤) انظر : الإرشاد (ص١٨١،١٨٢) .
(٥) انظر : شهاب الدين أبو محمد عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم الشافعي المعروف بأبي شامة : ضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري (ص٣٤) وشرح العقيدة الطحاوية (٢٠٥) ، وفتح الباري (١٣/٤٢٥) .
(٦) سورة سيدنا يونس - عليه السلام - بعض الآية (٢٦) .
(٧) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٢٩) ، وانظر أقوالهم عند اللالكائي في " شرح أصول اعتقاد أهل السنة " (٣/٤٥٥-٤٦٩) بأسانيدها ، وكذلك عند ابن القيم في " حادي الأرواح " (ص٤٠٦-٤٠٩) ، وابن جرير جامع البيان (١١/١٠٤-١٠٩) ، والسيوطي الدر المنثور (٤/٣٥٦-٣٦١) .

وقد أورد السيوطي عدة أحاديث في هذا منها :

١- حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال الناس يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول - صلى الله عليه وسلم - " هل تضارون في القمر ليلة البدر ؟ " قالوا : لا ، يا رسول الله . قال : " فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟ " قالوا : لا يا رسول الله ، قال : " فإنكم ترونه كذلك "(١) .

٢- حديث صهيب - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول الله - تبارك وتعالى - تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : الم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم - عز وجل - " ثم تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (للذين أحسنوا الحسنى زيادة...)(٢) .

٣- عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : كان النبي - صلى الله عليه وسلم - بارزاً يوماً للناس فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وبلقائه ... "(٣) .

يقول السيوطي : " وقد استدل الخطابي لوجوب اعتقادها بحديث البخاري "(٤) وذكر الحديث السابق وهو متفق عليه كما بينته ، قال : " فقوله : (ولقائه) فيه إثبات رؤية الله في الدار الآخرة "(٥) .

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - بعد ذكر كلام الخطابي : " وتعقبه النووي بأن أحداً لا يقطع بروؤية الله فإنها مختصة بمن مات مؤمناً ، والمرء لا يدري بم يختم له فكيف يكون ذلك من شروط الإيمان؟ وأجيب بأن المراد الإيمان بأن ذلك حق في نفس الأمر ، وهذا من الأدلة القوية لأهل السنة في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة إذ جعلت من قواعد الإيمان "(٦) . وأرى أن ما أجاب به ابن حجر على اعتراض الإمام النووي في غاية الصواب والسداد . - رحمهما الله تعالى - ومن الآثار الواردة عن الصحابة - رضي الله عنه - الله عنهم - وهي مما استدل بها السيوطي على إثبات الرؤية ، ما ورد عن ابي بكر الصديق - رضي الله غنه - أنه فسر الزيادة الواردة في آية(٧) سورة سيدنا يونس - عليه السلام - بأنها رؤية الله جل وعلا ، وكذلك عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - (٨) .

وإذا كنا قد وقفنا على بعض الآيات الكريمات ، وبعض الأحاديث الشريفة التي تثبت رؤية الله تعالى ، وكذلك علمنا شيئاً مما ورد عن الصحابة - رضي الله عنه - من الآثار في ذلك فقد ورد عن التابعين كذلك روايات كثيرة في ذلك . قال الشوكاني - رحمه الله - : " وقد روى عن التابعين ومن بعدهم روايات في الزيادة غالبها أنها النظر إلى وجه الله

---

(١) البخاري في " صحيحه " رقم (٨٤٣٧) الفتح (٤١/١٣) ومسلم في " صحيحه " (١٦٣/١) رقم (١٨٢) .

(٢) سورة سيدنا يونس - عليه السلام - الآية (٢٦) .

(٣) رواه البخاري في " صحيحه " كتاب الإيمان (٢) باب (٣٧) ح رقم (٥٠) الفتح (١١٤/١) وفي كتاب التفسير سورة لقمان (٣١) باب (٢) ح رقم (٤٧٧٧) الفتح (٥١٣/٨) ورواه مسلم في " صحيحه " كتاب ألإيمان (١) باب (١٩ ح رقم (٩) صحيح مسلم (٣٩/١) ، وأحمد في المسند (٤٢٦/٢) .

(٤) الكوكب الساطع - مخ - لوحة رقم (٤٣١) .

(٥) نفسه ، وانظر : ابن حجر : فتح الباري (١١٨/١) ، وانظر كلام الإمام الخطابي في " أعلام الحديث " (١٨٢/١) له .

(٦) الفتح (١١٨/١) .

(٧) هي قوله تعالى : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة...) بعض الآية (٢٦) .

(٨) رواه ابن جرير (١٠٥/١١) ، والقرطبي (٣٣٠/٨) والسيوطي : الدر (٣٥٨/٤) والكوكب (٤٣١) .

سـبحانه وقـد ثـبت التفسير بذلك من قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلم يبق حينئذ لقائل مقال ولا التفات إلى المجادلات الواقعة بين المتمذهبة الذين لا يعرفون من السنة المطهرة ما ينتفعون به فإنهم لو عرفوا ذلك لكفوا عن كثير من هذيانهم . والله المستعان "(١) .

٣- ومن الأدلة القرآنية كذلك التي استدل بها السيوطي على رؤية المؤمنين ربهم – جل وعلا – وهو دليل لأهل السنة قوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يؤمئذ لمحجوبون)(٢) .

ففي هذه الآية دليل على أن الله تعالى يرى في القيامة وذلك بمفهوم المخالفة ، فإذا كان الكفار يحجبون عن رؤية ربهـم ، فالمؤمنون لا يحجبون ، ويظهر هذا المعنى إذا انضمت هذه الآية إلى قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)(٣) ، فهناك وجوه ناظرة وهي وجوه المؤمنين ، ووجوه أخرى محجوبة عن النظر وهي وجوه الكافرين ، وذلـك بإخـبار الله – جل وعلا – فأخبر أن المؤمنين ينظرون ، وأخبر أن الكافرين عنه محجوبون . وقد روى مثل هذا المعنى أو قريب منه عن الإمام الشافعي – رحمه الله قال : " في هذه الآية دلالة على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة "(٤) وهذا كلام حق إذ لو حُجب أولياؤه فأي فضيلة لهم على أعدائه .

قـال السيوطي : " وأما الكفار فلا يرونه لقوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون "(٥) ونقل عن العز بـن عبدالسـلام أنـه قـال : ولا الملائكة يرون الله تعالى ، قال لأن قول : (لا تدركه الأبصار)(٦) عام وقد استثنى منه المؤمـنون فـبقى عـلى عمومه في الملائكة . ثم نقل السيوطي عن صاحب آكام المرجان أنه قال : " والجن أولى بالمنع مـنهم "(٧) واستدلال العز بن عبدالسلام بقوله تعالى : (لاتدركه الأبصار) فيه نظر ، ذلك لأن العلماء والمفسرين قالوا بأن المؤمنين يرون ربهم جل وعلا ولكنها ليست رؤية إحاطة وهذا معنى قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار) أي لا تدركه إدارك إحاطـة ، فهم يرونه ولكن الرؤية لا تحيط به ، كما قال تعالى : (ولا يحيطون به علماً)(٨) فهم يعلمونه ويعرفونه ولكنهم لا يحيطون به علماً(٩) . وليست الآية في حظر الرؤية أومنعها .

٣- ومن الآيات التي يستدل بها على إمكان الرؤية ، ولم يوردها السيوطي :

قولـه تعالى حكاية عن موسى – عليه السلام – : (...قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجـبل فـإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك

---

(١) فتح القدير (٤٤٢/٢) .

(٢) سورة المطففين الآية ١٥) .

(٣) سورة القيامة الآيتان (٢٢،٢٣) .

(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤٦٨/٣) رقم (٨٠٩) .

(٥) الكوكب الساطع – مخ لوحة رقم (٤٣٣) .

(٦) سورة الأنعام الآية (١٠٣) .

(٧) الكوكب الساطع – مخ – لوحة رقم (٤٣٣) وانظر السفاريني : لوامع الأنوار .

(٨) سورة طه ألاية (١١٠) .

(٩) انظر : شرح الطحاوية (ص٢٠٨) وما بعدها .

وأنا أول المؤمنين)[١] .

والاستدلال من هذه الآية الكريمة على الرؤية من وجوه :

الأول : أن موسى – عليه السلام – سأل ربه الرؤية ، ولو كانت ممتنعة لما سالها ، لأنه إن علم امتناعها فالعاقل لا يطلب المحال ، وإن جهلها فالجاهل بما يجوز وما لايجوز في حقه تعالى لا يستحق أن يكون نبياً .

الثاني : أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل ، واستقرار الجبل أمر ممكن عقلاً ، وما علق على الممكن ممكن ، إذ لو كان ممتنعاً لأمكن صدق اللازم بدون الملزوم وهو محال .

الثالث : أن الله تعالى لم ينكر عليه سؤاله ، في حين أنه تعالى أنكر على نوح – عليه السلام – عندما ساله نجاة ابنه وقال : (إني أعظك أن تكون من الجاهلين)[٢] .

الرابع : أنه تعالى قال : (لن تراني) ولم يقل : إني لا أرى ، أو لا تجوز رؤيتي ، أو لست بمرئي ، والفرق بين العبارتين ظاهر ، ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه آخر طعاماً ، فقال : : أطعمنيه فالجواب الصحيح أن يقول : إنه لا يؤكل ، أما إذا كان طعاماً فالصحيح أن يقال : إنك لن تأكله ، فدل ذلك على أنه طعام يمكن أكله ، فكذلك الآية دلت على أنه سبحانه يرى ، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته – جل وعلا – في هذه الدار لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى[٣] .

يوضحه الوجه الخامس : وهو قوله تعالى : (ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني)[٤] فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي الإلهي في هذه الدار فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف ؟

الوجه السادس : قوله تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا...) فإذا جاز أن يتجلى تعالى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته ؟

السابع : أن الله تعالى كلم موسى وناداه وناجاه ومن جاز عليه التكلم والتكليم ، وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز ، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه ، وقد جمع أهل البدع بين إنكارهما جميعاً[٥] .

وأما الأحاديث الدالة على ثبوت الرؤية فقد مضى منها طرف وهي كثيرة يقول شارح الطحاوية : " وقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً ،ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قالها)[٦] .

ولكن السيوطي بعد إثبات الرؤية قال : " وتحصل (أي الرؤية) بأن ينكشف انكشافاً تاماً ، منزهاً عن المقابلة والجهة والمكان ، قال النووي : ولا يشترط في الرؤية تقابل الأشعة ولا مقابلة المرئي ، وإن جرت العادة بذلك فيما بين

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٤٣) .

(٢) سورة سيدنا هود – عليه السلام – الآية (٤٦) .

(٣) انظر : شرح الطحاوية (ص٢٠٧) .

(٤) سورة الأعراف ، بعض الآية (١٤٢) .

(٥) انظر : شرح الطحاوية (ص٢٠٧) .

(٦) نفسه (ص٢١٠) .

المخلوقين "[١] .

وهـــذا الكـــلام لا يوافق مذهب أهل السنة ، بل هو قول الأشاعرة الذين يثبتون الرؤية ، فهم يقولون : يُرى ولكن ليس في جهة ، لأنه تعالى منزه عن المقابلة والجهة .

وهذا يتضمن نفيهم لصفة العلو لله تعالى ، فهم بإثباتهم الرؤية مع نفيهم علوه جل وعلا وقعوا في التناقض الظاهر من جهة ، مع مخالفة مذهب السلف من جهة أخرى وذلك في أمرين :

أحدهما : قولهم إن الله تعالى يرى لا في جهة ، لا أمام الرائي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته ، وقالوا – كما سبق – ليس من شرط الرؤية المقابلة والجهة ، واحتجوا بالمرآة فإن الإنسان يرى نفسه فيها لا في جهة .

الـــثاني : أن بعض الأشاعرة – مع إقرارهم بالرؤية – أنكروا أن يكون المؤمن ينعم بنفس رؤية ربه – جل وعلا – ، لأنه – على زعمهم – لا مناسبة بين المحدث والقديم ، وهذا مخالف لمذهب السلف .

أمـــا الأمر الثاني : وهو إنكارهم التنعم والتلذذ برؤية الخالق جل وعلا فهو مبني علي إنكارهم أن الله تعالى يحب ويحب ، ولا شـــك أن نصوص الرؤية المتواترة دلت على أن المؤمنين يتنعمون ويتلذذون بالنظر إلى ربهم – جل وعلا – في الجنة وأن ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه سبحانه ، والنصوص التي دلت على الرؤية دلت في بعض رواياتها على ذلك ، فكيف يثبتون الرؤية وينكرون هذا ؟

وأما الأمر الأول : وهو قولهم بالرؤية بلا جهة :

فيمكن تلخيص الرد عليهم في هذه النقاط التالية :

١- أن النصـــوص الورادة في الرؤية – وهي كثيرة كما ذكرنا – دالة على أن رؤية المؤمنين ربهم إنما تكون إلى العلو ، وإذا كانت نصوص الرؤية متواترة فكذلك دلالتها على أنها في العلو ، وتشبيه الرؤية برؤية الشمس ليس دونها سحاب ، أو برؤية القمر ليلة البدر صحوا أو أن الله تعالى يكشف الحجاب من فوقهم صريحة بأنهم يرونه تعالى في علوه[٢] .

٢- أن هذا المعنى الذي ذكرناه في النقطة الأولى ثبت بإجماع السلف والأئمة ونصوصهم في ذلك متواترة[٣] .

٣- أن الأشـــاعرة – مـــع كونهـــم أقـــرب إلى الحق من المعتزلة لأنهم أقروا بالرؤية ، وإن كانوا قد نفوا العلو ، بخلاف المعـــتزلة الذيـــن نفوا الأمرين – إلا أنهم بصنيعهم هذا تناقضوا لأن إثباتهم الرؤية يستلزم إثبات العلو ، كما أن نفيهم العلو يقتضي نفيهم الرؤية أيضاً ، فيلزمهم أحد أمرين : إما نفي الرؤية فيلحقوا بالمعتزلة ، وإما إثبات العلو فيلحقوا بأهل السنة ، ويسلموا من التناقص ، وأحد الأمرين لازم لهم .

٤- أن بعض محققي الأشاعرة كالرازي ، والغزالي – في بعض أقواله – رأوا أن الالزام السابق لازم لهم ، ومن ثم صـــرحوا بأن المقصود بالرؤية – التي أثبتوها – زيادة انكشاف بخلق مزيد من الإدراك لهم ، وهو تفسير بنوع من العلم،

---

(١) الكوكب الساطع – مخ – لوحة (٤٣٢) .

(٢) انظر : ابن تيمية : نقض تأسيس الجهمية (٢/٤٠٩-٤١١) ، (ص٤١١-٤١٥) .

(٣) انظر : السابق (٤١٥-٤٢٠) ، كذلك مجموع الفتاوى (١٦/٨٢-٨٩) .

ومن ثم أقروا بأن الخلاف بينهم وبين المعتزلة لفظي أو قريب من اللفظي .

٥- أما دليل المرآة فهو باطل لأن الذي في المرآة الخيال والصورة وليس الذات نفسها .

وقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - ردوداً أخرى عديدة يبين فيها أن قول الأشاعرة بالرؤية مع نفي العلو في غاية التناقض ، وجميع أجوبتهم ومحاولاتهم لإزالة هذا التناقض لم تفلح إلا بأن تفسر الرؤية بما يقربها إلى مذهب المعتزلة ، وهذا ما استقر عليه مذهبهم كما في شرح المواقف[1] .

قال شارح الطحاوية : " وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المرئي بالمرئي ، ولكن فيه دليل على علو الله على خلقه ، وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة ؟ ومن قال : يرى لا في جهة - فليراجع عقله !!فإما أن يكون مكابراً لعقله وفي عقله شئ ، وإلا فإذا قال : يرى لا أمام الرائي ولا خلفه ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولاتحته ، رد عليه كل من سمعه بفطرته السليمة "[2] .

وبهذا يتبين ثبوت الرؤية بالأدلة القاطعة ، ولا وجه مطلقاً لمن انكرها أو نفاها بناء علىشبهات في عقله .

وهذه الرؤية إنما تحصل في الموقف قبل الجواز على الصراط ، وهذا الجواز إنما يحصل قبل دخول الجنة ، وهذا هو الذي قصد إليه السيوطي ، وصرح به شارح الطحاوية . ولذلك فإن الرؤية لأهل المحشر قد وقع فيها خلاف بين العلماء ، أعني فيمن يرى الله تعالى في ذلك الموقف على ثلاثة اقوال :

أحدها : أنه تعالى لا يراه إلا المؤمنون خاصة دون غيرهم .

الثاني : أنه يراه أهل الموقف جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، ثم يحتجب جل وعلا - عن الكفار ، ولا يرونه بعد ذلك .

الثالث : يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار[3] .

هذا الخلاف حاصل بين علماء أهل السنة ، والصحيح أن الله تعالى يتجلى لأهل الموقف أي للخلق عامة ، كما هو سياق حديث ابي هريرة - رضي الله عنه - الذي ذكرته آنفاً[4] .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : وقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة على أن المنافقين يرونه تعالى في عرصات القيامة بل والكفار أيضاً كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة "[5] وهل يراه الملائكة - أم لا ؟ فيه قولان :

أحدهما : لا يرونه ، نقله السيوطي عن العز بن عبدالسلام - رحمه الله - وتابع العز في ذلك صاحب " آكام المرجان في أحكام الجان "[6] .

---

(١) انظر : (٨/١١٥-١١٦) .

(٢) (ص٢١١) .

(٣) انظر : ابن القيم : حادي الأرواح (ص٢٨٠) ، وشرح الطحاوية (ص٢١٢) .

(٤) انظر : السفاريني : لوامع الأنوار (٢/٢٤٩) ، وكذلك : " لوائح الأنوار السنية " ولواقح الأفكار السنية " للسفاريني نفسه (١/٢٧٠-٢٩٨) ، وحديث أبي هريرة - ﷺ - (ص ١٠٥) وهو في الصحيحين .

(٥) حادي الأرواح (ص٢٨٠) .

(٦) هو لمؤلفه : الشيخ الإمام القاضي بدر الدين الشبلي .

قال السيوطي : " قال العز بن عبدالسلام : ولا الملائكة (يعني لا يرونه تعالى) لأن قوله : (لا تدركه الأبصار ...)[١] عـام ، وقـد استثنى منه المؤمنون ، فيبقى على عمومه في الملائكة ، قال صاحب آكام المرجان " : والجن أولى بالمنع منهم "[٢] ، وقال السيوطي ايضاً : " وذكر الشيخ عز الدين بن عبدالسلام ... ما يدل على أن مؤمني الجن إذا دخلوا الجـنة لا يرون الله ، وأن الرؤية مخصوصة لمؤمني البشر فإنه صرح بأن الملائكة لا يرون الله في الجنة ، ومقتضى هذا أن الجن لا يرونه "[٣] . وقال ايضاً : " ذهب الشيخ عز الدين بن عبدالسلام إلى أنهم لا يرون ربهم لأنهم لم يثبت لهم ذلك كما ثبت للمؤمنين من البشر : وقد قال تعالى (لا تدركه الأبصار...)[٤] خرج منه مؤمنوا البشر بالأدلة الثابتة ، فبقى عـلى عمومـه فـي الملائكة ، ولأن للبشر طاعات لم يثبت مثلها للملائكة كالجهاد والصبر على البلايا والمحن الرزايا ، وتحمـل المشاق في العبادات لأجل الله ، وقد ثبت أنهم يرون ربهم ويسلم عليهم ويبشرهم بإحلال رضوانه عليهم ويبشرهم بإحلال رضوانه عليهم أبداً ، ولم يثبت مثل هذا للملائكة . انتهى . وقد نقله عنه جماعة من المتأخرين ولم يتعقبوه بنكيره ، مـنهم : الإمام بدر الدين الشبلي صاحب " آكام المرجان في أحكام الجان " والعلامة عز الدين ابن جماعة في " شرح جمع الجوامع "[٥] .

وقـد خـالف السيوطي كلام كل من العز ، والشبلي ، وعز الدين بن جماعة فقال : " قلت : قد ثبت أن الملائكة يـرون الله " وقـال أيضاً : " ولكن الأقوى أنهم يرونه ، فقد نص على ذلك إمام أهل السنة والجماعة الشيخ أبو الحسن الأشعري قال في كتابه " الإبانة في أصول الديانة " ومنه نقلت ما نصه : " أفضل لذات الجنة رؤية الله تعالى ثم رؤية نبيه - صلى الله عليه وسلم - فلذلك لم يحرم الله أنبياءه المرسلين ، وملائكته المقربين وجماعة المؤمنين والصديقين النظر إلى وجهه - عز وجل - " انتهى .

وقد رد السفاريني - كذلك - قول من أنكر رؤية الملائكة ربهم - جل وعلا - فقال : " وهذا خلاف التحقيق "[٦] .

كمـا ذكر السيوطي أن من القائلين برؤية الملائكة ربهم - جل وعلا - العلامة ابن القيم ، وقاضي القضاة جلال الدين البلقيني ثم رجحه السيوطي قائلاً : " وهو الأرجح بلا شك "[٧] . ثم قال : " ومنهم من قال : إن جبريل - عليه السلام - يـراه دون سـائر الملائكـة ، ومشـى عليه أبو اسحق إسماعيل الصفار البخاري من الحنفية : فإني رأيت في اسئلته المشـهورة ما نصه : سئل عن الملائكة هل يرون ربهم ؟ فأجاب : اعتماد والدي الشهيد أنهم لا يرون ربهم سوى جبريل فإنه يرى ربه مرة واحدة ، ولا يرى أبداً انتهى "[٨] ثم أكد السيوطي ما رجحه قائلاً : " والصواب العموم " .

---

(١) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٠٣) .
(٢) الكوكب الساطع - مخ - لوحة رقم (٤٣٣) .
(٣) لقط المرجان (ص٩٣) .
(٤) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٠٣) .
(٥) الحاوي للفتاوى (١٩٩/٢) .
(٦) لوامع الأنوار (٢٤٧/٢) .
(٧) الحاوي (٢٠٠/٢) .
(٨) نفسه السابق .

والقول الثاني : نعم يرونه ، وقد سبق الكلام عنه .

هل يرى النساء ربهن في الجنة ؟ :

صنف السيوطي في هذه المسألة رسالة سماها : " تحفة الجلساء برؤية الله للنساء " وهي مطبوعة ضمن " الحاوي للفتاوي " جمع فيها راي كل من المثبتين والنافين ، قال السيوطي في مقدمة رسالته : " رؤية الله تعالى يوم القيامة في الموقف حاصلة لكل أحد الرجال والنساء بلا نزاع ، وذهب قوم من أهل السنة إلى أنها تحصل فيه للمنافقين ايضاً ، وذهب آخرون منهم إلى أنها تحصل للكافرين أيضاً ثم يحجبون بعد ذلك ليكون عليهم حسرة ... وأما الرؤية في الجنة فأجمع أهل السنة أنها حصلة للأنبياء والرسل والصديقين من كل أمة ورجال المؤمنين من البشر من هذه الأمة واختلف بعد ذلك في صور إحداها : النساء من هذه الأمة وفيهن ثلاثة مذاهب للعلماء "[١] .

حكى السيوطي هذه المذاهب وحكاها باختصار عن الإمام ابن كثير - رحمه الله - فقال معدداً هذه المذاهب الثلاثة :

أحدها : أنهن لا يرين الله تعالى ، لأنهن مقصورات في الخيام [٢] ، ولأنه لم يرد في أحاديث الرؤية تصريح برؤيتهن " هي زيادة من كلام الجلال السيوطي فقد مال ابن كثير- رحمه الله - : " وقد حكى بعض العلماء خلافاً في النساء هل يرين الله - عز وجل - في الجنة كما يراه الرجال ؟ فقيل لا ، لأنهن مقصورات في الخيام وقيل بلى "[٣] .

والثاني : أنهن يرين الله تعالى أخذاً من عمومات النصوص الواردة في الرؤية[٤] ، وقال ابن كثير : " وقيل : بلى ، لأنه لا مانع من رؤيته تعالى في الخيام وغيرها ، وقد قال الله تعالى : (إن الأبرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون)[٥] وقال تعالى : (هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون)[٦] وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " إنكم سترون ربكم عز وجل كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا علىصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا[٧] " وهذا عام في الرجال والنساء والله أعلم .

والثالث : أنهن يرين ربهن في مثل أيام الأعياد ، فإنه تعالى يتجلى في مثل ايام الأعياد لأهل الجنة تجلياً عاماً فيرينه في مثل هذه الحال دون غيرها . وقال ابن كثير : " وقال بعض العلماء قولاً ثالثاً وهو أنهن يرين الله في مثل أيام الأعياد ، فإنه يتجلى في مثل أيام الأعياد لأهل الجنة تجلياً عاماً فيرينه في مثل هذه الحال دون غيرها . وهذا القول يحتاج إلى دليل خاص عيه والله أعلم "[٨] .

ولم يذكر العلامة ابن كثير - رحمه الله - من قائل هذا القول الثالث ولعله لم يذكره لضعف قوله وأنه يفتقر إلى

---

(١) الحاوي (٢/١٩٨) .
(٢) نفسه (٢/١٩٩) ، وانظر ابن كثير : النهاية (١٢/١٨٤) .
(٣) النهاية (١٢/١٨٤) .
(٤) الحاوي (٢/١٩٩) .
(٥) سورة المطففين الآيتان (٢٢،٢٣) .
(٦) سورة يس الآية (٥٦) .
(٧) صحيح البخاري ح رقم (٧٤٣٤) .
(٨) النهاية (١٢/١٨٤) .

دليل يعضده ، ولكن السيوطي ذكره عن العلامة زين الدين ابن رجب الحنبلي – رحمه الله تعالى – نقلاً عن الطائف المعارف " قال : " كل يوم كان للمسلمين عيداً في الدنيا فإنه عيد لهم في الجنة ، يجتمعون فيه على زيارة ربهم ، ويتجلى لهم فيه ، ويوم الجمعة يدعى في الجنةيوم المزيد ، ويوم الفطر والأضحى يحتمع أهل الجنة فيها للزيارة ، وروى أنه يشارك النساء الرجال فيهما ، كما كن يشهدن العيدين مع الرجال ، دون الجمعة ، فهذا العموم أهل الجنة ، فأما خواصهم فكل يوم لهم عيد يزورون ربهم كل يوم مرتين بكرة وعشياً " . ونقله عنه أيضا السفاريني في " لوامع الأنوار " .

ورجح في " لوائح الأنوار السنية " أن رؤيته تعالى ثابتة لكل من دخل الجنة . فقال : " والتحقيق ثبوت رؤتيه تعالى لكل من دخل الجنة "[١] واستدل له بما أخرجه الآجري – رحمه الله – عن عكرمة – رضي الله عنه – قال : قيل لابن عباس – رضي الله عنهما – كل من يدخل الجنة يرى الله تعالى ؟ قال : " نعم " . ولكن هذا الأثر ضعيف [٢].

وقد تناول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – هذه المسألة بالتفصيل ورجح فيها أن النساء المؤمنات يرين الله تعالى " وأن الدليل على أنهن يرين أن النصوص المخبرة بالرؤية في الآخرة للمؤمنين تشمل النساء لفظاً ومعنى ولم يعارض هذا العموم مايقتضي إخراجهن من ذلك فيجب القول بالدليل السالم عن المعارض المقاوم .[٣]

رؤيته تعالى في الدنيا

أتفقت الأمة على أن الله تعالى لايراه أحد في الدنيا بعينه[٤] ، لقول النبي ـ ﷺ ـ : " تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت "[٥] ولم يتنازعوا في ذلك . ولكن التنازع وقع في رؤية نبينا محمد ـ ﷺ ـ خاصة ، على ثلاثة أقوال :

القول الأول : إثبات رؤيته ـ ﷺ ـ ربه ـ جل وعلا ـ وهو قول الحبر عبد الله بن عباس ـ ﷺ ـ وسائر أصحابه ، وجزم به كعب الأحبار [٦] ،والزهري ، وصاحبه معمر [٧] ، وهو المروي عن الحسن[٨] [٩] .

وجزم به إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة ، عن عروة بن الزبير ، وذكر أنه كان يشق عليه إذا ذكر له إنكار أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وأطنب كثيراً من الاستدلال له بمايطول ذكره [١٠] .

وهو قول الأشعري ، وغالب أتباعه ، وهو ظاهر ما ذهب إليه الإمام أحمد [١١] ،وقال السيوطي : " وهو الصحيح [١٢] وعمدة أصحاب هذا القول هو قول الله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبد ه ماأوحى .

---

(١) (٢٩٧/١) .

(٢) كما قاله محقق كتاب " الشريعة " د. عبد الله بن عمر الدميجي . انظر (٩٩٣/٢) .

(٣) انظر مجموع الفتاوي (٦/ ٤٠١ ــ ٤٦٠) في ستين صفحة من التحقيق والكلام البليغ الرصين .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية (ص٢١٣) ، لوامع الانوار (٢٥١/٢) .

(٥) صحيح مسلم (٢٢٤٥/٤) ح رقم (٢٩٣٠) .

(٦) كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري ، أبو إسحاق ، تابعي ، كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن ، أسلم في زمن أبي بكر رضي الله عنه ــ ت (٣٢هــ) انظر : تذكرة الحفاظ (٤٩/١) ، حلية الأولياء (٣٦٤/٥) ثم (٣/٦) ، الأعلام (٢٢٨/٥) .

(٧) معمر بن راشد بن ابي عمرو الأزدي ، فقيه حافظ للحديث ، من أهل البصرة ت (١٥٣هــ) ، انظر : ميزان الاعتدال (١٨٨/٣) ، تذكرة الحفاظ (١٧٨/١) ، الاعلام (٢٧٢/٧) ، وانظر نسبة القول إليه عند النووي في شرح مسلم (٥/٣).

(٨) هـو البصري ، ابن يسار ، أبو سعيد ، ت (١١٠ هــ) . انظر : ميزان الاعتدال (٢٥٤/١) ، حلية الأولياء (١٣١/٢) ، الأعلام (٢٢٦/٢)

(٩) انظر ابن حجر : فتح الباي (٦٠٨/٨) ، والنووي : شرح صحيح مسلم (٣ / ٤) .

(١٠) انظر : التوحيد وإثبات صفات الرب ــ عزوجل ــ (٤٧٧/٢ ــ ٥٦٣) ، الفتح (٦٠٨/٨) .

(١١) انظر : لوامع الأنوار (٢٥١/٢) .

(١٢) الكوكب الساطع (لوحة ٤٣٢) ، وشرح النووي (٣ / ٤) .

ماكذب الفؤاد مارأى ، أفتمارونه على مايرى ، ولقد رآه نزلة أخرى﴾ [١] وأرجعوا الضمائر في هذه الآيات الكريمة إلى الله — جل وعلا — ، فقالوا : ثم دنا الرب — تعالى من محمد — ﷺ — فتدلى ، فكان محمد ﷺ من ربه عزوجل قاب قوسين ، أو أدنى من ذلك ، فأوحى الله إلى عبده محمد ﷺ وحيه ، ماكذب فؤاد محمد محمداً الذي رأى ،ولكنه صدقه ، وكان الذي رآه محمد — ﷺ هو الله تعالى ، أفتجادلون أيها المشركون محمداً على مايرى ممآراه الله من آياته ، ولقد رأى محمد ﷺ ربه عزوجل مرة أخرى عند سدرة المنتهى [٢] .

واستدلوا كذلك :

٢— بمـاروى عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أنه قال : " أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم ،والكلام لموسى ، والرؤية لمحمد ﷺ [٣] .

٣— وعنه أيضاً قال : " رأى محمد ﷺ ربه " [٤] .

٤— وعنه — أيضاً — في قوله تعالى : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾[٥] قال : " رآه بفؤادة مرتين [٦] .

٥— وعنه — في قوله تعالى : ﴿ وماجعلنا الرؤيا التي أريناك ﴾ [٧] " رؤيا عن اريها النبي — ﷺ — ليلة أسرى به [٨]

ومـن هـنا حمل ابن خزيمة ماورد عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن الرؤيا وقعت مرتين : مرة بعينه ، ومرة بقلبه[٩]

فتحصل مماورد عن ابن عباس — رضي الله عنهما — روايات :

— منها مايثبت رؤيا مطلقة .

— ومنها مايثبتها رؤية عين .

— ومنها مايثبتها رؤية بالفؤاد أو القلب .

ومادامت الروايات منها المطلق ومنها المقيد فيجب حمل مطلقها على مقيدها[١٠]

أما حملها على رؤية البصر بالعين فهو بعيد لأمور منها :

الأول : أن الـرواية الـواردة برؤية العين ، لم تصرح بالمرئي ، بل قد صرحت بعض الروايات بأن المرئي هو مارأى رسول الله ﷺ في طريقه إلى بيت المقدس — كما ذكر ذلك ابن تيمية [١١] ، وابن حجر [١] .

---

[١] سورة النجم الآيات (٨ — ١٣) .

[٢] انظـر : ابن جرير : جامع البيان (٤٤/١٧ — ٥٢) ، ابن كثير (٤٢٣/٧ — ٤٢٥) ، القرطبي : الجامع لأحكام القرآن (٥٩/١٧، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢) ، والرازي : التفسير الكبير (٢٨٦/٢٨) ، ووصف الرازي ذلك التفسير بأنه ضعيف سخيف ، وانظر : أيضاً : الشوكاني : فتح القدري (٥/ ١٠٦) ، ابـن خـزيمة : الـتوحيد (٤٩٢/٢) ، ابـن حجر : فتح الباري (٦٠٨/٨) ، شرح العقيدة الطحاوية (ص٢١٣) ، ت الألباني ، السفاريني : لوامع الأنوار (٢٥٠/٢) ، وشرح النووي على صحيح مسلم (٣ / ٤) .

[٣] رواه عـبدالله بـن أحمـد في السنة (١٤٥) ، الأجرى في " الشريعة " (٤٩١) ، وابن ابي عاصم في السنة " (١٩٢/١) تحقيق الألباني ، وقال الألـباني : " إسناده صحيح على شرط البخاري " والحاكم في مستدركه (٦٥١/١) وصححه ، ووافقه الذهبي ،وذكر ابن حجر أن النسائي أخرجه بسند صحيح (الفتح ٦٠٨/٨) ،وابن خزيمة في " التوحيد (٤٧٩/٢) .

[٤] أخـرجه الآجـري فـي " الشـريعة " (ص ٤٩١) ، وابن أبي عاصم في " السنة " (١٨٩/١) ، وقال الالباني : " إسناده صحيح وهو موقوف " واللالكائي في " شرح اعتقاد أهل السنة " (٥١٥/٣) ،وابن خزيمة في " التوحيد " (٤٨٦/٢) وصحح إسناده المحقق .

[٥] سورة النجم الآية (١٣) .

[٦] مسلم في صحيحه (١٥٨/١) ح رقم (١٧٦) .

[٧] سورة الاسراء الآية (٦٠) .

[٨] رواه الـبخاري فـي " صـحيحه " فـي ثلاثـة مواضـع : كـتاب مـناقب الأنصـار ، ح رقـم (٣٨٨٨) فـتح (٢٠٢/٧) ، وكتاب التفسير — سورة الاسراء — ح رقم (٤٧١٦) فتح (٣٩٨/٨) ، كتاب القدر ، ح رقم (٦٦١٣) فتح (٥٠٤/١١) .

[٩] انظر : فتح الباري (٦٠٨/٨) ، والتوحيد (٥٠٨/٢) .

[١٠] انظر : الفتح (٦٠٨/٨) .

[١١] مجموع الفتاوي (٦ / ٥١٠) .

الـــثاني : أن لفـــظ " رؤيا " بالألف ، إنما يطلق على رؤيا المنام ،وأما التي في اليقظة فيقال : " رؤية " بتاء التأنيث التي تدل على الرؤية البصرية ، وقد أنكر بعض العلماء اطلاق " رؤيا " على رؤية العين منهم الحريري[٢] وغيره[٣]

الثالث : ذكر الإمام ابن حجر أن ابن مردويه أخرج من " طريق عطاء عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ قال : " لم يره رسول الله ــ ﷺ ــ بعينه ، إنما رآه بقلبه " [٤] وهذا صريح في نفس الرؤية البصرية ٠

فلم يبق الإحمل الروايات المطلقة على المقيدة برؤية القلب أو الفؤاد ، يؤيد هذا ماثبت وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " رأى ربه بفؤاده مرتين " [٥] ٠

ولكن يعكر على هذا إنكار عائشة ــ رضي الله عنها ــ فقد ثبت من حديث الشعبي [٦] عن مسروق [٧] قال : سألت عائشـــة : هـــل رأى محمد ﷺ ربه ؟ فقالت " : سبحان الله ! لقد قف[٨] شعري لماقلت " ، ، قال مسروق : قلت لعائشة فـــأين قوله : (ثم دنا فتدلى ٠ فكان قاب قوسين أو أدنى ٠ فأوحى إلى عبده ماأوحى) قالت إنما ذاك جبريل ــ ﷺ ــ ٠٠٠) [٩] ٠

وأجاب الإمام النووي ــ وهو من المثبتين ــ عن ذلك فقال : " ولا يقدح في هذا حديث عائشة ــ رضي الله عنها ــ لأن عائشـــة لـــم تخـــبر أنها سمعت النبي ﷺ يقول : لم أر ربي ، وإنما ذكرت ماذكرت متأولة لقوله تعالى : ﴿ وماكان البشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أويرسل رسولاً ٠٠٠) [١٠] ولقوله تعالى : ﴿ لاتدركه الأبصار ﴾ [١١] والصـــحابي إذا قـــال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة ، وإذا صحت الروايات عن ابن عباس في إثبات الرؤية وجـــب المصير إلى إثباتها ، فإنها ليست مما يدرك بالعقل ، ويؤخذ بالظن وإنما يتلقى بالسماع ، ولايستجيز أحد أن يظن بابن عباس أنه تكلم في هذه المسألة بالظن والاجتهاد ، وقد قال معمر بن راشد ، حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس : ماعائشـــة عندنا بأعلم من ابن عباس وغيره ، وإثبات هذا لايأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا مما لاينبغي أن يتشكك فيه ، ثم إن عائشة ــ رضي الله عنها ــ لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ولو كان معها فيه حديث لذكرته ، وإنما اعتمدت الاستنباط من الآيات ٠٠٠ " [١٢] ٠

وتعقبه الامام ابن حجر فقال : " وهو عجيب ، فقد ثبت ذلك عنها في صحيح مسلم الذي شرحه الشيخ (يعني النووي) فعنده من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق في الطريق المذكورة قال مسروق : وكنت متكئاً فجلست ،

---

[١] الفتح (٨ / ٣٩٨) ٠

[٢] هـــو / أبـــو محمد ، القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري ، البصري ، صاحب مقامات الحريري ، ت : بالبصرة (٥١٦ هـــ) ، انظر : وفيات الأعيان (٤١٩/١) ، مفتاح السعادة (١٧٩/١) ، الاعلان (١٧٨/٥)

[٣] انظر : الفتح (٨/ ٦٠٨) ٠

[٤] انظـــر : فـــتح الـــبارى (٦٠٨/٨) ، ولم أعثر عليه ، ولكن روى ابن خزيمة في كتاب التوحيد عن ابي ذر قال : " رآه بقلبه ،ولم يره بعينه " وقال محققـــة : " إســـناده صحيح ، ورجاله ثقات " (٢/ ٥١٧) ، ورواه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة (٥٧٤/٣) رقم (٩١٤) ، وروى ابن خـــزيمة أيضـــاً بسنده عن إبراهيم التيمي قال : " رآه بقلبه ولم يره ببصره " وقال محقق كتاب التوحيد : إسناده صحيح ، رجاله ثقات وهو مرسل " أنظر : التوحيد(٢/ ٥١٧) ٠

[٥] رواه مسلم في " صحيحه " (١٥٨/١) ح رقم (١٧٦) ٠

[٦] عامـــر بن شراحيل الشعبي ، أبو عمرو تابعي ثقة ، ت (١٠٣ هـــ) انظر : تهذيب التهذيب (٦٥/٥) ،الوفيات (٢٤٤/١) ، حلية الأولياء (٤/ ٣١٠) ، الأعلام (٢٥١/٣) ٠

[٧] مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي ، أبو عائشة ، تابعي ثقة ، ت(٦٣هـــ) أنظر الاصابة (ت٨٤٠٨) ، وتهذيب (١٠٩/١٠) ، الاعلام (٣١٥/٧) ٠

[٨] قولها (سبحان الله) معناه : التعجب من جهل مثل هذا ،وكأنها تقول : كيف يخفى عليك مثل هذا ٠

وقولهـــا : (قف شعري) أي قام شعري من الفزع لكوني سمعت مالاينبغي أن يقال ، والقفه كهيئة القشعريرة ، انظر : شرح النووي (١٠/٣) ، وفتح الباري (٦٠٧/٨) ٠

[٩] صحيح مسلم (١٦٠/١) ح رقم (٢٨٩ ، ٢٩٠) من كتاب الايمان ٠

[١٠] سور الشورى الآية (٥١) ٠

[١١] سورة الأنعام ، الآية (١٠٣) ٠

[١٢] شرح النووي على صحيح مسلم (٣ / ٥) ، وانظر : فتح الباري (٦٠٧/٨) ٠ وابن خزيمة : التوحيد (٥٥٦/٢ ــ ٥٥٧) ٠

فقـلت : يـا أم المؤمـنين أنظريني ولاتعجليني ، ألم يقل الله عزوجل : (ولقد رآه بالأفق المبين) [١] (ولقد رآه نزلة أخرى) [٢] فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : " إنما هو جبريل " [٣] .

وإذا كـانت عائشــة ــ رضي الله عنها ــ قد أنكرت الرؤية البصرية ونفتها ، فإنها في الوقت نفسه لم تنف الرؤية القلـبية ، التي قد صحت بها الروايات عن ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ كما أن كلام الامام النووي ــ رحمه الله ــ يتجه بشدة في كون ابن عباس ــ رضي الله عنهما ــ معه زيادة علم ، وهو مثبت والمثبت مقدم على النافي ، كما انه لايظن بابن عباس أن يقول ذلك من باب الظن ، أو من باب الاجتهاد ، ولابد أن يكون قد أخذ هذا عن النبي ــ ﷺ ــ .

القول الثاني : إنكـار رؤيته ــ ﷺ ــ ربه في الدنيا ، ومنعه ، وهذا القول هو المشهور عن عبدالله بن مسعود ، وأبـي هريـرة ــ رضي الله عنهما ــ وأنكرته عائشة ــ بشدة ،ووصفت القائل بذلك ، بأنه قد أعظم على الله الفرية ، وقال جماعة بقولها ، واختلف عن ابي ذر ــ رضي الله عنه ــ [٤] .

وقـال بإنكـار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين ، بل نقل الإمام الدرامي إجماع الصحابة على ذلك [٥] وفي هذا نظر لوجود مخالف من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ .

كمـا تقدم من القول الأول ، ويؤيد أصحاب هذا القول أنه لم يرد نص بأنه – صلى الله عليه وسلم – رأى ربه بعيني رأسه بل ورد ما يدل على نفي الرؤية ، وهو حديث أبي ذر – رضي الله عنه – قال : سألت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هـل رأيت ربك ؟ فقال : " نور أني أراه " [٦] وفي رواية " رأيت نوراً " [٧]وورد أنه – ﷺ – قال : " حجابه النور " وفـي روايـة : وفـي رواية : " النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه "[٨] ومعنى قوله – صلى الله عليه وسلم – لأبي ذر – رضي الله عنه – " رايت نوراً " أنه رأى الحجاب ، ومعنى قوله : " نور أنى اراه " أي الـنور الـذي هو الحجاب يمنع من رؤيته فأنى اراه ، أي فكيف أراه والنور حجاب بيني وبينه يمنعني من رؤيته ؟ وهذه الروايات صريحة في نفي الرؤية[٩] ، ويؤيده ما ورد عنه – صلى الله عليه وسلم – أنه قال " تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربـه حتى يموت " . وورد عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت : " من حدثك أن محمداً رأي ربه فقد كذب " ، ولما دخل عليها مسروق فقال : يا أمتاه هل رأي محمد – صلى الله عليه وسلم – ربه ؟ قالت : لقد قف شعري مما قلت " يعني قـام شـعر راسـي من الفزع لما حصل عندها من هيبة الله تعالى ، واعتقدته من تنزيهه عز وجل واستحالة وقوع ذلك .

وحكى السيوطي إنكار عائشة قول ابن عباس – رضي الله عنهم – وهو مع ترجيحه القول الأول ، وهو قول ابن عباس – رضـي الله عـنه – لـم يـتعرض للجواب على إنكار أم المؤمنين ، كما أورد حديث ابي ذر – رضي الله عنه – المتقدم برواياته وسكت[١٠] .

---

[١] سورة التكوير ، الآية (٢٣) .

[٢] سور النجم ، الآية (١٣) .

[٣] صحيح مسلم (١٥٩/١) ح رقم (١٧٧) .

[٤] انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٣ / ٤) ، وفتح الباري (٨/ ٦٠٨) ، شرح الطحاوية .(ص٢١٣) ، لوامع الأنوار (٢٥٢/٢) .

[٥] انظر : مجموع الفتاوي (٦/ ٥٠٧) ، وشرح الطحاوية (ص٢١٤) .

(٦) صحيح مسلم (١٦١/١) ح رقم (١٧٨) .

(٧) نفسه .

(٨) نفسه ح رقم (١٧٩) .

(٩) شرح العقدية الطحاوية (ص٢١٤) .

(١٠) الكوكب الساطع – مخ – لوحة رقم (٤٣٢) .

ورجح شيخ الإسلام ابن تيمية رأي أم المؤمنين عائشة ومن وافقها ، وأجاب عن قول الإمام أحمد بإثبات الرؤية فذكر أن ما نقل عن الإمام أحمد - رضي الله عنه - من إثبات رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لربه إنما يعني رؤية المنام ، فإنه سئل عن ذلك فقال : نعم رآه ، فإن رؤيا الأنبياء حق ، ولم يقل رآه بعين راسه " ... وابن عباس - رضي الله عنه - لم يقل إنه - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه بعيني رأسه يقظة ، ومن حكى عنه ذلك فقدوهم ، وهذه نصوصه موجودة ليس فيها شئ من ذلك ، ... ولفظ الإمام أحمد كلفظ ابن عباس[١] وأهل السنة متفقون على أن الله تعالى لا يراه أحد بعينه في الدنيا لا نبي ولا غير نبي ، ولم يقع النزاع إلا في نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - خاصة[٢] ، مع أن الأحاديث المعروفة ليس في شئ منها أنه رآه بعيني رأسه ، وعليه اعتمد احمد في إحدى الروايتين حيث قال : إنه رآه ، ولم يقل بعيني رأسه[٣] .

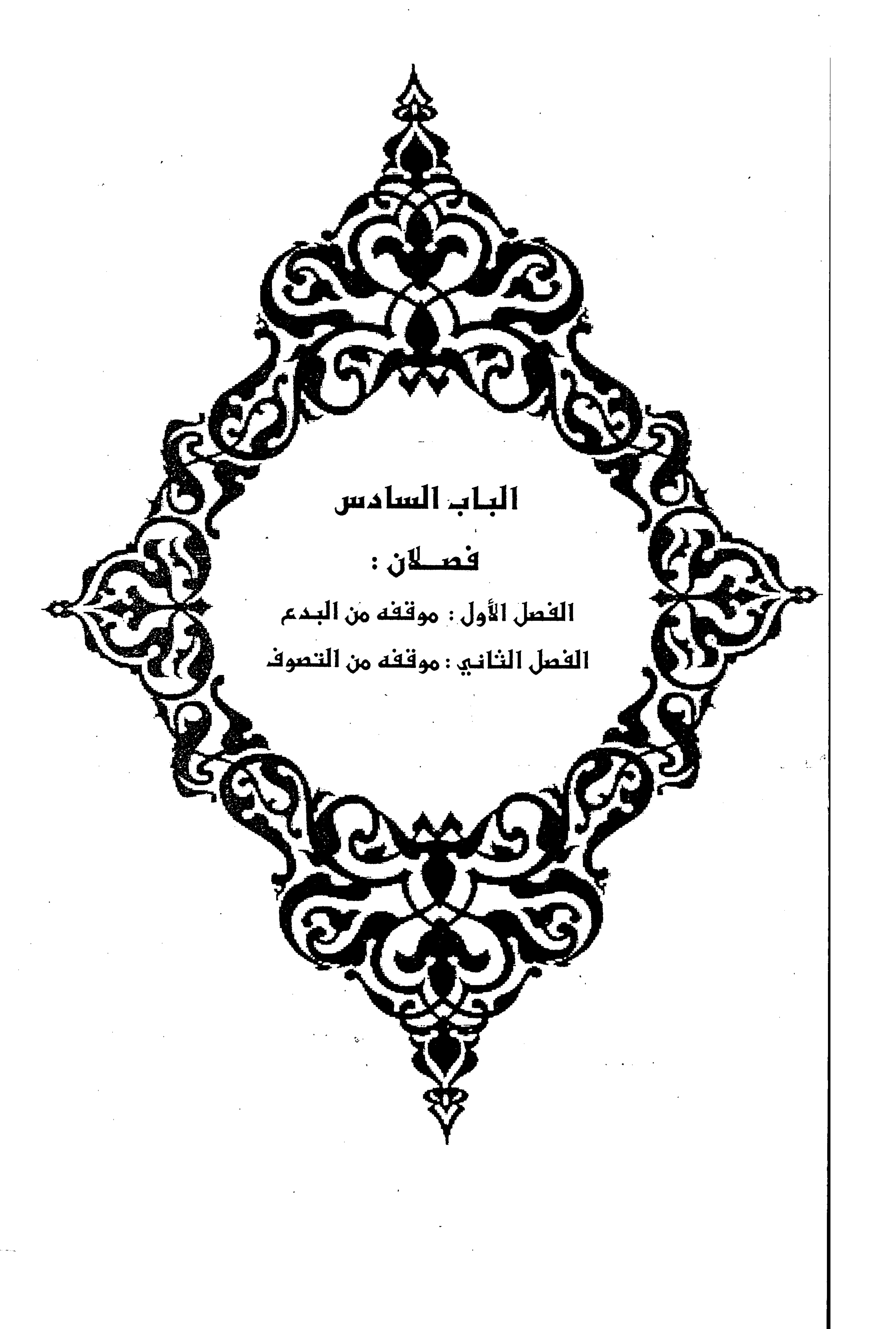
وقد جمع بعض العلماء بين رأى ابن عباس - رضي الله عنه - في الاثبات ، ورأي عائشة بالانكار ، وحمل كل واحد منهما على معنى مخالف للآخر ، قال السفاريني : " ويمكن الجمع بين اثبات ابن عباس ونفي عائشة - رضي الله عنهم - بأن يحمل نفيها على رؤية البصر ، وإثبات على رؤية القلب "[٤] وبهذا يندفع الاشكال بين الفريقين . أو أن يحمل الاثبات على رؤية المنام كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية عن الإمام أحمد .

والقول الثالث : الوقف عن القطع بالنفي أو الإثبات في هذه المسألة ، وقد رجح هذا جماعة منهم القرطبي في المفهم في شرح صحيح مسلم ، فإنه قال : الوقف في هذه المسألة أرجح ، " وعزاه لجماعة من المحققين ، وقواه بأنه ليس في الباب دليل قاطع ، وغاية ما استدل به للطائفتين ظواهر متعارضة قابلة للتأويل ، قال : وليست المسألة من العمليات فيكتفى فيها بالأدلة الظنية ، وإنما هي من المعتقدات فلا يكتفى فيها إلا بالدليل القطعي "[٥] .

وإنني لأرى - في حدود علمي القاصر - أنه لا مسوغ للتوقف في هذه المسألة ما دام أنه يحصل الجمع بين الرأيين المثبت والنافي لأنه من المتفق عليه بين أهل العلم أنه إن أمكن الجمع بين الأدلة المتعارضة فهو المعول عليه إعمالا للنصوص وعدم تعطيل شق منها سيما وأن أدلة الرأي الثاني الذي ينفي الرؤية أدلة صحيحة قوية ، وأن ما ورد من أقوال أصحاب الرأي الأول لا تقوى على معارضتها ، فالأولى إذاً إن لم يرجح القول الثاني لقوة أدلته أن يصار إلى الجمع بينهما ، طلباً للتوفيق والائتلاف ، بدلاً من التفرقة والاختلاف وهو ما سبقني إليه ابن تيمية و الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في " فتحه "[٦] ونقله عنه السفاريني[٧] - رحمه الله - ومن استنار قلبه لاقتفاء الآثار ، وخلع ربقة التقليد التي هي مثار التغبير في وجوه الأخبار علم أن السلامة في التسليم ،وفوق كل ذي علم عليم - والله تعالى أجل وأعلم .

---

(١) انظر : مجموع التفاوى (٥٠٨/٦) .
(٢) نفسه (٤٩٠/٥) ، وانظر : ابن القيم : زاد المعاد (٣٤/٣) .
(٣) انظر : نفسه (٥٠٩/٦،٥٠٨) ، وانظر : السفاريني (٢٥٤/٢) .
(٤) لوامع الأنوار (٢٥٤/٢-٢٥٥) .
(٥) فتح الباري (٦٠٨/٨) ، ونقله في لوامع الأنوار (٢٥٦/٢) .
(٦) انظر : (٦٠٨/٨) .
(٧) انظر : لوامع الأنوار (٢٥٤/٢-٢٥٥) .



الباب السادس

فصلان :

الفصل الأول : موقفه من البدع

الفصل الثاني : موقفه من التصوف

الفصل الأول :موقفه من البدع

المبحث الأول

تعريف البدعة

البدعة في اللغة : البدعة اسم هيئة من الإبتداع ، كالرفعة من الإرتفاع ، وهي : كل شئ احدث على غير مثال سابق سواء كان محمودا اومذموما .

والـــبِدْع: بكسر الباء : الأمر الذي يكون أولا ، ومنه قوله تعالى (قل ماكنت بدعا من الرسل...)[١] أي :لست اول من جـــاء بالوحي من عند الله تعالى وحمل الرسالة إلى الناس ، بل قد ارسل قبلي مبشرون ومنذرون ،فلست مبتدعا(اسم مفعول) لم يتقدمني رسول[٢].

ويجوز ان يكون بمعنى مبتدع (اسم فاعل) فيكون معنى الآية :ماكنت مبتدعا فيما اقوله وادعو إليه من الرسالة ،ولست مخترعا لها ، بل هي من عند الله [٣].

(والـــبديع): من اسماء الله تعالى لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها ، فيكون بمعنى مبدع ، أو من خلق أي : بدأه [٤]. والله تعالى بديـــع السماوات والأرض ، أي خالقها ومبدعها، وهو ايضا الخالق المخترع لا على مثال سابق ، وهو من بدع لا من ابدع ، فعيـــل بمعـــنى فاعل ، مثل قدير بمعنى قادر . وهو صفة من صفاته تعالى ـــ ايضاـــ لأنه بدأ الخلق على غير مثال تقدمه على ما أراد[٥].

والبديع من الحبال : الذي ابتدئ فتله ، ولم يكن حبلا ، فنكث[٦]ثم غزل وأعيد فتله[٧] وركى [٨][٩] بديع : حديثة الحفر.

وابتدع وتبدع: اتى ببدعة ، قال تعالى :(...ورهابنية ابتدعوها ماكتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ...)[١٠]وبدعه تبديعا : نسبة إلى البدعة [١١] .

والملاحـــظ مماسبق أن غالب ماتدور عليه مادة " بدع " معنى الإحداث والاختراع والإنشاء لشيء لم يكن موجوداً قبل إحداثه .

البدعة في الاصطلاح : اختلفت أقوال العلماء في تحديد معنى البدعة في الشرع وتنوعت تعبيراتهم بشأنها ، فمنهم من توسع في عبارته فاتسع عنده مدلول البدعة ومايندرج تحت مفهومها .

ومنهم من ضيق هذا المدلول ومايندرج تحته من الصور والأحكام .

ويمثل الاتجاه الأول :

١ ـــ الإمـــام أبـــو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي ـــ رحمه الله تعالى ـــ فإنه قسم البدعة إلى حسنة وسيئة ، أو محمودة ومذمومة وهي على هذا تشمل كل حادث بعد عصر رسول الله ﷺ ـــ وعصر خلفائه الراشدين :

---

(١) سورة الأحقاف ،بعض الآية (٩)

(٢) انظر : الراغب : المفردات(ص٣٩)

(٣) المصدر السابق .

(٤) انظر : لسان العرب (٦/٨)

(٥) المصدر السابق(٦/٨-٧)، الراغب : المفردات (ص٣٨)

(٦) لسان العرب (٧/٨).

(٧) السابق نفسه ، وترتيب القاموس المحيط(٢٣٠/١).

(٨) ركي بديع : حديثة الحفر

(٩) الركي : البئر

(١٠) سورة الحديد، بعض الآية (٢٧)

(١١) ترتيب القاموس المحيط (٢٣١/١) ، ولسان العرب (٦/٨) .

قال حرملة بن يحيى : سمعت الشافعي رحمه الله تعالى يقول : " البدعة بدعتان : بدعة محمودة وبدعة مذمومة ، فما وافق السنة فهو محمود ، وماخالف السنة فهو مذموم " [١]

وقال الربيع : قال الشافعي — رحمه الله تعالى :

المحدثات من الامور ضربان :

أحدهما : ماأحدث يخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو أثراً ، فهذه البدعة الضلالة.

والثاني : ماأحدث من الخير لا خلاف فيه لواحد من هذا ، فهي محدثة غير مذمومة[٢] ، وقد استند في كلا التعبيرين إلى قول عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — في صلاة التراويح : " نعم البدعة هذه " [٣] .

٢ — وكذلك الغزالي — رحمه الله تعالى — يقول عن الأكل على السفرة : " ومايقال انه أبدع بعد رسول الله — ﷺ — فليس كل ماأبدع منهياً عنه ، بل المنهي عنه بدعة تضاد سنة ثابتة وترفع أمرا من الشرع مع بقاء علته ، بل الابتداع قد يجب في بعض الأحيان إذا تغيرت الأسباب "[٤] .

٣ — ويقول ابن الأثير — رحمه الله تعالى — : " البدعة بدعتان : بدعة هدى — وبدعة ضلال[٥] ... فما كان في خلاف ماأمر الله به ورسوله — ﷺ — فهو في حيز الذم والإنكار ، وماكان واقعاً تحت عموم ماندب الله إليه وحض عليه أو رسوله فهو في حيز المدح ،ومالم يكن له مثال موجود كنوع من السخاء والجود وفعل المعروف فهو من الافعال المحمودة ، ولايجوز أن يكون ذلك في خلاف ماورد الشرع به ، لأن النبي — ﷺ — قد جعل له في ذلك ثواباً فقال : " من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها." وقال في ضده :" من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها "[٦] ... وذلك ما كان في خلاف ماأمر الله به ورسوله — ﷺ — "[٧] . ثم مثل البدعة الحسنة يقول عمر في صلاة التراويح : " نعمت البدعة هذه " ثم قال :" وهي على الحقيقة سنة لقوله — ﷺ — " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين "[٨] ،وقوله : " اقتدوا بالذين من بعدي ابي بكر وعمر " [٩] وعلى هذا التأويل يحمل الحديث الآخر " كل محدثة بدعة " على ماخالف الشريعة و لم يوافق السنة " [١٠] .

٤ — وقال الشيخ عبدالحق الدهلوي في شرح المشكاة" اعلم ان كل ماظهر بعد رسول الله — ﷺ بدعة وكل ماوافق اصول سنته وقواعدها اوقيس عليها فهو بدعة حسنة ، وكل ما خالفها فهو بدعة سيئة وضلالة "[١١] .

---

(١) أبو شامة: الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص١٢) ،وانظر : فتح الباري (١٠/١٧) وقال " أخرجه أ[و نعيم بمعناه من طريق إبراهيم بن الجنيد عنه " انظر الحلية (١١٣/٩) بسند صحيح إلى الشافعي رحمه الله .

(٢) المصدران السابقان ،وذكره السيوطي في " الحاوي " (١٩٢/١) وعزاه للبيهقي في " مناقب الشافعي " وهو فيه (٤٦٨/١— ٤٦٩) بسند صحيح .

(٣) صحيح البخاري رقم (٢٠١٠) الفتح (٢٥٠/٤) ، وموطأ مالك (ص٩١) ، وسنن البيهقي (٤٩٣/٢)

(٤) إحياء علوم الدين (٣/٢) ط عيسى الحلبي .

(٥) النهاية (٢٩/١) ، لسان العرب (٦/٨) .

(٦) صحيح مسلم (٨٠٤/٢ — ٧٠٥) رقم (١٠١٧) ، (٢٠٥٩/٤) بنفس الرقم .

(٧) النهاية (٢٩/١) ، لسان العرب (٦/٨) .

(٨) سنن ابي داود) ٢٠٠/٤) عن أحمد بن حنبل ، وسنن الترمذي (١٥٠/٤) وقال حسن صحيح ، وصححه الحاكم في المستدرك (٩٦/١ ٩)ووافقه الذهبي .

(٩) جاء الحديث بهذا اللفظ ، وفي لفظ آخر :" إني لا ادري ماقدر بقائي فيكم فاقتدوا بالذين من بعدي أي بكر وعمر " وهو من حديث حذيفة بن اليمان — رضي الله عنه — في سنن الترمذي (٢٧١/٥ — ٢٧٢) وقال : حديث حذيفة بن اليمان — رضي الله عنه — في سنن الترمذي (٢٧١/٥ — ٢٧٢) وقال : حديث حسن ، وفي سنن ابن ماجة (٧٣/١) ، ومسند أحمد (٣٨٢/٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٧٢/١) .

(١٠) ابن الأثير : النهاية (٢٩/١) ، لسان العرب (٦/٨) .

(١١) كشاف اصطلاحات الفنون(١٩١/١)بدع.

٥- وإلى هذا الإتجاه مال الشيخ عز الدين بن عبدالسلام والنووي وابوشامة [١]، وصرح به السيوطي في الحاوي [٢] ، ورسالة الإتباع [٣] .ففي جواب له على نص سؤال ورد إليه عن حكم عمل المولد النبوي في شهر ربيع الأول قال : "عندي أن اصل عمل المولد الذي هو اجتماع الناس وقراءة ماتيسر من القرآن ورواية الأخبار الواردة في مبدأ أمر النبي ﷺ وما وقع في مولده من الآيات ثم يمد لهم سماط يأكلون وينصرفون من غير زيادة على ذلك هومن البدع الحسنة التي يثاب عليها صاحبها"[٤]

ثم ذكر ان البدعة "لاتنحصر في الحرام والمكروه بل قد تكون ايضا مباحة ومندوبة وواجبة "[٥] ، ثم ايد كلامه بما نقله عن النووي ، وعز الدين ابن عبدالسلام والذي قد اشرنا إليه قبل ، وعلى ذلك فالبدعة فيما يرى هؤلاء الناس ومن وافقهم هي : "فعل لم يعهد في عهد النبي ــﷺــ ، و لم يكن له اصل يقاس عليه في الشرع فإذا كان له اصل يشار إليه في الشرع فلا بأس عندهم به في الزمان والكيفية والمقدار ولذلك فإن اصحاب هذا الإتجاه لايرون ان الإحتفال بالمولد النبوي بدعة ، والحق عندنا خلاف ذلك .

- **اما الإتجاه الثاني والذي يضيق مفهوم البدعة ومدلولها وما يندرج تحتها من الصوروالأحكام فينقسم إلى قسمن:**

القسم الأول : لاتقيد البدعة فيه بشئ سوى مخالفة السنة.

القسم الثاني : وتتقيد فيه البدعة مع ذلك بنسبتها إلى الدين ،وجعلها من جنس ما يتقرب به إلىالله من الشرع ، ويمثل القسم الأول بعض العلماء الذين تنوعت عباراتهم على مدلول واحد ومنهم :

١- ابــن رجب الحنبلي ، حيث يقول : "والمراد بالبدعة مااحدث مما لااصل له في الشريعة يدل عليه ، اما ماكان له اصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا ، وإن كان بدعة لغة"[٦]

٢- ويقــول الحافظ ابن حجر :" والبدعة :اصلها ما احدث على غير مثال سابق، وتطلق في الشرع في مقابل السنة فــتكون مذمومــة "[٧] ، ويقول ايضا: " والمحدثات جمع محدثة والمراد بها ...ما أحدث وليس له اصل في الشرع ،ويسمى في عرف الشرع بدعة ، وما كان له اصل يدل عليه الشرع فليس ببدعة "[٨].

٣- ويقــول ابن حجر الهيثمي " وهي ــ أي البدعة ــ لغة : ماكان مخترعا .. وشرعا : ما أحدث على خلاف امر الشرع ودليله الخاص والعام"[٩].

٤- وقال الزركشي : "البدعة في الشرع موضوعة للحادث المذموم"[١٠] .

ومــؤدى هــذه الأقوال والعبارات ان البدعة شرعا كل حادث مذموم ،وليست كل حادث على الإطلاق، أو كل حادث مخالف بشرط نسبته إلى الدين.

امــا القســم الثاني : فيتمثل في رأي الإمام ابي اسحاق ابراهيم الشاطبي ــ رحمه الله ــ ومن وافقه ،ويتجه هذا الرأي إلى تعــريف البدعة بالمحدث المخالف للسنة الذي يتخذ دينا قويما وصراطا مستقيما سواء اقتصرنا في تعريف البدعة على ماكان كذلك في العبادات فقط ، أو جعلناه شاملا لما كان كذلك في العبادات والعادات معا.

---

(١) انظر: العز بن عبدالسلام :قواعد الأحكام(٢/٢٠٤)،وشرح النووي على صحيح مسلم (٦/١٥٤-١٥٥) والسيوطي :الحاوي (١/١٩١).

(٢) انظر : (١/١٩١).

(٣) انظر: (ص٢٦)

(٤) الحاوي للفتاوي (١/١٨٩)

(٥) المصدر السابق (١/١٩٢)

(٦) جــامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم (٢/١٢٧) ت: شعيب الأرناؤوط ،ابراهيم باجس ، مؤسسة الرسالةط١/١٤١١ هـــ ـــ ١٩٩١م ، بيروت ــ لبنان .

(٧) فتح الباري (٥/١٥٦)

(٨) المصدر السابق (١٧/٩)

(٩) التبيين بشرح الأبعين (ص٢٢١)

(١٠) انظر :الشيخ على محفوظ :الإبداع في مضار الإبتداع (ص٣١) نقلا عن الزركشي.

قال الشاطبي : "البدعة : طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى".[1].

وقال في موضع آخر :"البدعة : طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية ، يقصد عليها مايقصد بالطريقة الشرعية"[2].

وقد شرح الشاطبي نفسه تعريفيه السابقين بما يبين مراده فبين انه يقصد بقوله : طريقة : مارسم للسلوك عليه ، وقوله : في الدين : قيد لإخراج الطريقة في الدنيا ، كإحداث الصنائع ، والبلدان التي لاعهد بها فيما تقدم ،وقوله :مخترعة :لااصل لها في الشريعة ، ولا تعلق لها بها كعلم النحو والتصريف ، ومفردات اللغة ،واصول الدين والفقه .

وقوله : تضاهي الطريقة الشرعية : أي تشبهها من ان تكون كذلك ، بل هي مضادة لها من جهة وضع الحدود كالإقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف بلا علة أومن جهة التزام الكيفيات والهيئات المعينة ، كالذكر بهيئة الإجتماع على صوت واحد، واتخاذ يوم ولادة النبي صلى الله عليه وسلم عيدا ، او التزام عبادات معينة في اوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة كالتزام صيام يوم النصف من شعبان ، وقيام ليلته ، وسواء في ذلك ألبّس صاحبها على الناس بماابتدعه او التبست البدعة عليه بالسنة ، مادام مصرا عليها مع معرفته ببدعتها أواخباره بهذا الإبتداع.

وقوله : يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى : قيد لإخراج العادات من البدع ، وبيان ان ما ابتدع من الأمور الزائدة عل المشروع والمنسوبة إلى الشرع مقصود بها المبالغة في التعبد ، اوتجديد النشاط إلى العبادة[3].

هذا كلام الشاطبي وقد نقلته ملخصا .

ومن الواضح ان الشاطبي استند إلى ادلة كثيرة لتأييد رأيه ، وقد وردت هذه الأدلة في ذم البدعة والمبتدعة ومن تابعهم وليس فيها استثناء البته ،وليس فيها ان من البدع ماليس سيئا ،وقد ورد في مجمل هذه الأدلة ما يقتضي تخصيص البدعة عن غيرها من المعاصي ، ومن اهم هذه المخصصات ما يلي:

١- ان البدعة لايقبل معها عمل ، فقد روى عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: "لايقبل الله لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولاحجا ولاعمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا يخرج من الإسلام كما تخرج الشعرة من العجين "[4].

وقد حكى الأوزاعي القول بذلك عن بعض اهل العلم ،وقال به اسد بن الفرات ،وايوب السختياني،وهشام ابن حسان[5].

وقد قال ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ في القدرية : والذي يحلف به ابن عمر ، لو أن لأحدهم مثل احد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر"[6].

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الخوارج :"يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية "[7].

وقال فيمن احدث بالمدينة :"لايقبل منه صرف ولا عدل " [8] وإذا ثبت في بعض المبتدعة حكم ما ، ثبت في جميعهم ، او ترجح شمول هذا الحكم للجميع ، وذلك على قدر غلظ كل بدعة ومقدارها في ا لمخالفة والجرم .

٢- ان صاحب البدعة ملعون عل لسان الشرع ، فقد لعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تارك السنة ، وصاحب البدعة قد شاركه ، لأن البدعة ما قامت إلا بترك سنة في مقابلها ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :"ستة لعنتهم ، لعنهم الله ، وكل نبي مجاب : المكذب بقدر الله ،والزائد في كتاب الله ، والمتسلط بالجبروت يذل

---

[1] الإعتصام (٣٧/١) بتقديم العلامة : السيد محمد رشيد رضا .

[2] المصدر السابق نفسه.

[3] انظر الإعتصام (١/٣٧-٤٥)

[4] سنن ابن ماجه (٩١/١)ت: عبد الباقي سرور ،ورجال اسناده ثقات غير محمد بن محصن العكاشي ، كذبوه ،وقال ابن حبان : يكتب حديثه للإعتبار

[5] عزت علي عطية : البدعة وموقف الإسلام منها (ص٦٥)

[6] صحيح مسلم (٢٥٦/١) مع شرح النووي ،وابو داود (٢٧٧٢) ترتيب الساعاتي .

[7] صحيح البخاري (٥٢/٨) صحيح مسلم (٧٤٦/٢)

[8] صحيح البخاري (١٩/٣) صحيح مسلم (١٤٠/٩) مع شرح النووي ، وسنن ابي داود (٣١٨/١)ترتيب الساعاتي .

مـــن اعز الله ،ويعز من اذل الله ،والمستحل لحرم الله ،والمستحل من عترتي ما حرم الله ، والتارك لسنتي "[١] ،
ويؤيـــد ذلك قوله تعالى (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لايهدي القوم الظالمين ، اولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين).[٢]

وقوـــله عـــز وجل : (إن الذين يكتمون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)[٣].

وصـــاحب الـــبدعة يشارك في وقوع اللعن عليه كل من كفر بعد ايمانه ، وكل من كتم ما بينه الله تعالى في كتابه من جهة مضادة الشرع الحكيم فيما شرع .

اما الأول : وهو الكافر بعد ايمانه فقد ضاد الشرع بجحده جحدا تاما.

واما الثاني : وهو كاتم الشريعة عاندها بإخفاء ما يجب ان يظهر ويبين للناس

وكذلك المبتدع شارك كلا الطائفتين وضاد الشريعة بأن وضع من عنده الوسيلة لترك مابينه الشرع وكتم ما أظهره الله تعالى وبينه من السنن والهدى ، ونصيبه من ذلك على قدر جرمه وابتداعه ولن يظلمه ربه مثقال ذرة .

٣- ان البدع مظنة العداوة والبغضاء بين اهل الإسلام لأنها سبب التفرق واساس الإختلاف ،ففي حديث العرباض بن ســارية ـــ ﷺ ـــ قـــال :" وعظنا رسول الله ـــ ﷺ ـــ موعظة بليغة ذرفت [٤] منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يارسول الله كأن هذه موعظة مودع فأوصنا ، أوقال :فماذا تعهد إلينا ؟فقال: " اوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاع ، وإن عبدا حبشيا فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ،تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ[٥] وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة "[٦].

فـــدل الحديث على ان ظهور البدع سبب للتفرق والإختلاف الكثير بين الناس ولا عاصم للأمة من ذلك بعدالله تعالى إلا التمســـك بالسنة ، ولذلك قال ـــ ﷺ ـــ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ..."وما ذلك إلا بترك السنن وإهمالها ، وفعـــل البدع وإحيائها ، ثم اردف ذلك بقوله : "فعليكم بسنتي " فهي المانع والحاجز عن هذا الإختلاف والتفرق والتحزب ،وذهاب كل فرقة وكل حزب من الأحزاب مذهبا يضاد مذاهب غيره ، والواقع شاهد على ذلك.

---

[١] رواه الحاكم في المستدرك (١/٣٦) من حديث عائشة ـــ رضي الله عنها ـــ ، (٤/٩٠) وقال : صحيح لا اعرف له علة ، وتعقبه الذهبي بأنه منكر بمرة .. وقال المناوي في فيض القدير : لكنه ـــ أي الذهبي ـــ خرجه في "الكبائر " من حديث عائشة ، ثم قال :اسناده صحيح ، واورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٧٦) من رواية الطبراني في الكبير عن عائشة ، ولم ينتقد فيه إلا عبدالرحمن بن موهب ، وقال : وثقه ابن حبان ،وقال ابو حاتم : صالح الحديث ،وبقية رجاله رجال الصحيح ، وقال المنذري في "الترغيب" (١/٣٦): رواه الحاكم وابن حبان والطبراني ،وقال الذهبي في "الميزان" (٢/٤٥٤) في ترجمة عبدالله بن عبدالرحمن بن موهب : "روى عن يحيى ـــ أي ابن معين ـــ ضعيف ، وروى عنه ايضا انه قال عنه : ثقة ،وقال ابـــو حاتم : صالح الحديث ، وقال ابن عدي : وهو حسن الحديث يكتب حديثه ، وللحديث شواهد أوردها الهيثمي في المجمع (١/١٧٦) وعلى ذلك فالحديث حسن لغيره ، ورواه الترمذي (٨/٣١٨) انظر : شرح ابي بكر بن العربي .

[٢] سورة آل عمران الآيتان (٨٦ ، ٨٧)

[٣] سورة البقرة ، الآية (١٥٢)

[٤] ذرفت : سالت

[٥] جمع ناجذة :أي الضرس الأخير ،أو السن عموما

[٦] ســـنن أبي داوود (٤/٢٠٠) ، ســـنن الـــترمذي(٤/١٥٠)وقـــال الترمذي : حسن صحيح والحاكم في المستدرك (١/٩٦) وصححه ، ووافقه الذهبي،واحمـــد في المســـند (١/١٨٩) ترتيب الساعاتي ، وابن حبان (١/١٣٩)،والدرامي (١/٤٤-٤٥)،وابن ماجه (١/١٦) وعند زيادة :"فإنما المؤمـــن كالجمل الأنف حيثما قيد انقاد" وقال الحاكم عن هذه الزيادة : إنها زيادة شاذة او منكرة ، وافادت رواية الترمذي وابن ماجه ان الصلاة كانت صلاة الصبح ، فقد وعظهم النبي صلى الله عليه وسلم ـــ بعد اداء الصلاة هذه الموعظة.

قال السيوطي في هذا التفرق والإختلاف :"اهل الفرق الضالة ست ،وقد انقسمت كل فرقة منها اثنتي عشرة فرقة ، فذلك اثنتان وسبعون فرقة هم الذين اخبر النبي — ﷺ — أهم في النار[١].

٤- انها سبب للطرد عن حوض النبي صلى الله عليه وسلم كما يدل على ذلك حديث ابي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال ناس يارسول الله كيف تعرف من يأتي من بعدك من امتك ؟ قال : ارأيتك لو كان لرجل خيل غر محجلة [٢]في خيل دهم [٣]بهم ، ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : فإنهم ياتون يوم القيامة غرا محجلين من الضوء وانا فرطهم على الحوض ، فليذادن [٤] رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم ألا هلم ، ألا هلم ،ألا هلم ، فيقال إنهم قد بدلوا بعدك ،فأقول : فسحقا ، فسحقا ،فسحقا [٥].

فظهور الغرة والتحجيل دليل على انهم من امة الإسلام ولكنهم طردوا عن حوضه — صلى الله عليه وسلم — لبدعتهم وتبديلهم [٦].

قال ابن عبد البر : "كل من احدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض كالخوارج والروافض وسائر اصحاب الأهواء"[٧] .

٥- ان على مبتدعها اثم من عمل بها إلى يوم القيامة ، قال تعالى (.. ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم)[٨].

وللأحاديث الدالة عل ذلك ومنها : قوله — صلى الله عليه وسلم — "مامن نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها لأنه أول من سن القتل "[٩].

وغير ذلك من الأمور التي تجعل البدعة في حيز الأمور المذمومة ، وعلى ذلك يمكن القول بأنه لادليل على قول من قال : إن البدع منها قسم حسن ، فلم ترد لفظة البدعة على لسان الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلا على سبيل الذم، والأحاديث التي سيقت في الإستدلال عليه لا تفيد إلامن ناحية المفهوم ولا تدل دلالة صريحة على استعمال لفظ البدع فيما هو حسن أو فيما يوافق الشرع. — أما كلام عمر — رضي الله عنه — :"نعمت البدعة هذه" فليس فيه أن لفظ البدعة بمجرده يطلق في الشرع على ماهو حسن وكل ما يفيده مثل هذا الكلام هو ان البدعة في نظر الشرع إذا اطلقت عن التقييد بوصف اواضافة او غيرهما لا تدل على ما هو مخالف للشرع ، ولايقصد بها غير ذلك فيه.

امـا اذا قصد بها مايتناوله لفظ " بدعة " من ناحية اللغة ، وهومطلق المحدث حسنا كان او سيئا ، وعبر بها عما هو موافق للشرع فلا بد من وصفها او تقييدها بما يفيد حسنها صراحة أو بالمفهوم ، تميزا لها عن مطلق البدعة .

---

[١] الأمر بالإتباع والنهي عن الإبتداع (ص٢٨)وهذا التفرق والإختلاف بسبب البدع والإبتداع ، والحديث الذي اشار إليه السيوطي رواه ابن ماجه (٤٧٩/٢) وابنابي عاصم في "السنة "(٦٣) واللالكائي في "شرح السنة"(٢٣/١)رقم (١)، من طريقين عن عباد بن يوسف : حدثني صفوان بن عمرو، عن راشد ابن سعد عن عوف بن مالك مرفوعا قال الألباني "وهذا اسناد جيد ، رجاله ثقات معروفون غير عباد بن يوسف ،وهو الكندي الحمصي، وقد ذكره ابن حبان في "الثقات" ووثقه غيره ،وروى عنه جمع ، وللحديث شواهد تقوم ببعضها برقم (٢٠٣)انظر السلسلة الصحيحة (١٢/١)رقم (٢٠٣)،(١٤/١) رقم (٢٠٤)،(٤٨٠/٣)،رقم (١٤٩٢)

[٢] غر محجلة : أي في جباههم وقوائمهم بياض

[٣] خيل دهم : سود لايخالط سوادهم شئ من الألوان

[٤] أي : ليدفعن ويطردن

[٥] الموطأ (ص٤٤)ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣٧ — ١٣٩) واحمد بنحوه (١ / ١٩٥) ساعاتي ، وابن ماجه رقم(٤٣٠٦) والنسائي (٩٤/١— ٩٥)

[٦] انظر : الشاطبي :الإعتصام (٧٦/٢)

[٧] المصدر السابق

[٨] سورة النحل ، الآية (٢٥)

[٩] صحيح البخاري (٤/٩) وصحيح مسلم (١٦٦/١١) مع شرح النووي، والترمذي (٤٣٦/٧) مع تحفة الأحوذي ،ومسند احمد (٣٨٣/٣) ، (٤٣٠/٣)

- كمـــا ان اطلاق القول بأن البدع منها ما هو حسن يمكن ان يكون بابا مفتوحا على مصراعيه لكل مبتدع ليقول هـــذه بدعة حسنة فيلصق بالدين كل ما يريد ابتداعه واختراعه ، فتفشوا البدع وتنطمس معالم الدين بالكلية ،قال الشهاب الخفاجي :"البدعة إذا اطلقت يراد بها السيئة "[١].

وقال ابن الأثير :" واكثر مايستعمل المبتدع عرفا في الذم "[٢]

لكن الإمام النووي ــ رحمه الله تعالى ــ جعل البدعة خمسة اقسام:

واجبة ،ومندوبة ، ومحرمة ، ومكروهة ،ومباحة ثم قال :" فمن الواجبة نظم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين ، وشـــبه ذلك ، ومن المندوبة تصنيف كتب العلم ، وبناء المدارس والربط وغير ذلك ، ومن المباح التبسط في الوان الأطعمة وغير ذلك ، والحرام والمكروه ظاهران ، وقد اوضحت المسألة بأدلتها المبسوطة في تهذيب الأسماء واللغات..."[٣]

وفي تقسيمه هذا ــ رحمه الله تعالى وعفا عنه ــ نظر ، لأنني قد قدمت ان البدعة إذا اطلقت انصرفت إلى المعنى المذموم ، ومجرد تسميتها بدعة تكفي في ذمها وذم فاعلها والداعي إليها والعامل بها ، ولم يرد في النصوص الشرعية ــ كما سبق ــ مـــا يـــدل عـــلى هذا التقسيم ، وهذا هو الرأي الذي انتصرله الإمام الشاطبي وأيده بالأدلة ، واتجه إليه الحافظ ابن حجر العســـقلاني ، وابن حجر الهيثمي المكي ، والزركشي وغيرهم ، وقد استند اصحاب هذا الإتجاه كما سبق ــ إلىنصوص كـــثيةر تخصـــص البدعة باحكام مذمومة دون غيرها من المخالفات مثل كون صاحبها متوعد بأنه لايقبل منه عمل ، وان صـــاحبها مـــتوعد في لسان الشرع ، وانها سبب العداوة والبغضاء والتفرق والإختلاف بين المسلمين وأنهاسبب للطرد عن حوض النبي ــ ﷺ ــ فأهل البدع يذادون عن حوضه ــ ﷺ ــ ويبعدون عنه ، بسبب ما احدثوه من البدع ، وغير ذلك مما تختص به البدعة فلا تكون ابدا إلا سيئة مذمومة لايجوز فعلها ،بل يجب البعد عنها وعن مواطن تحيا فيه البدع ، كما يجب البعد عن اهلها ومجانبتهم وعدم مجالستهم او توقيرهم ، لأنهم معاندون ببدعتهم لسنة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد ورد سؤال على الشيخ عبدالعزيز بن باز ــ يرحمه الله ــ يقول فيه السائل :"فصل الشيخ النووي ــ رحمه الله تعالى ــ في شرحه البدعة إلى خمسة أقسام : الأول : بدعة واجبة ، ومثالها نظم ادلة المتكلمين على الملاحدة ،والثاني :المندوبة: ومثالها تصنيف كتب العلم ، والثالث:المباحة ، ومثالها : البسط في الوان الطعام ، والرابع والخامس : الحرام والمكروه وهما واضحان والسؤال : يقول الرسول ــ ﷺ ــ " كل بدعة ضلالة " أرجو توضيح ذلك مع مايقصده الشيخ النووي ــ رحمه الله ــ"[٤]

فأجاب الشيخ ابن باز ــ رحمه الله ــ :" هذا الذي نقلته عن النووي ــ رحمه الله ــ في تقسيم البدعة إلى خمسة اقسام قد ذكره جماعة اهل العلم ، وقالوا : إن البدعة تنقسم إلى اقسام خمسة : واجبة،ومستحبة ، ومباحة ،ومحرمة،ومكروهة.

وذهب آخرون من اهل العلم إلى ان البدعة كلها ضلالة ،وليس فيها تقسيم ، بل كلها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ــ "ضـــلالة " قـــال عليه الصلاة والسلام :" كل بدعة ضلالة " هكذا جاءت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ منها مارواه مسلم في الصحيح عن جابر بن عبدالله الأنصاري ــ رضي الله عنهما ــقال : كان النبي ــ ﷺ ــ يخطب يوم الجمعة فيقول في خطبته :" أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ــ ﷺ ــ وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ".[٥]

وجاء في هذا المعنى عدة احاديث مثل حديث عائشة ، وحديث العرباض بن سارية ، واحاديث اخرى ، وهذا هو الصواب ، أنهـــا لاتنقســـم إلى هذه الأقسام التي ذكرها النووي وغيرها ، بل كلها ضلالة، والبدع تكون في الدين لافي الأمور المباحة

---

[١] شرح الشفا (٣٣٩/٣)

[٢] النهاية في غريب الحديث ــ مادة (بدع) ، وانظر لسان العرب (٦/٨)

[٣] شرح صحيح مسلم (١٥٤/٦-١٥٥)

[٤] فتاوى نور على الدرب (٣٤١/٢) من اجوبة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ، مفتي عام المملكة العربية السعودية ــ إعداد أ،د عبدالله بن محمد الطيار ، والشيخ محمد بن موسى بن عبدالله الموسى ، ط/١٤١٨هــ ــ١٩٩٧م ــ دار الوطن ــ الرياض.

[٥] صحيح مسلم (٥٩٢/٢)رقم (٨٦٧)

،فتنوع الطعام على وجه جديد لايعرف في الزمن الأول لايسمى بدعة من حيث الشرع ، وإن كان بدعة من حيث اللغة لأن البدعة في اللغة هي الشئ المحدث عل غير مثال سابق ، كما قال عز وجل :(بديع السموات والأرض)[١] يعني انه مبتدعها وموجدها على غير مثال سابق ، لكن لايقال بدعة إلا لما كان في التعبد في الأعمال الشرعية ، فهذا كله فيه ضلالة ، ولا يقال فيه أنها اقسام واجب وسنة إلى آخره ، وهذا هو الحق ، وهذا هو الصواب الذي ارتضاه جماعة من اهل العلم وقرروه وردوا على من خالف ذلك.

وكذلك تأليف الكتب وتنظيم الأدلة للرد على الملحدين والخصوم لايسمى بدعة، بل هذا مما امر الله به ورسوله ، فهو طاعة لله وليس بدعة ، فالكتاب العزيز جاء بالرد على خصوم الإسلام ، واعدائه في آيات عظيمات ، وجاءت السنة بذلك في الرد على خصوم الإسلام ، واعدائه في آيات عظيمات ، وجاءت السنة بذلك في الرد على خصوم الإسلام بماظهر لهم من كتاب الله وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — واوضحوا الأدلة ونوعوها ،وكل هذا لايسمى بدعة في الشرع ، بل هو قيام بالواجب وجهاد في سبيل الله ، وليس ببدعة في حكم الشرع ، وهكذا بناء المدارس والربط والقناطر وغير هذا مما ينفع المسلمين لايسمى بدعة من حيث الشرع ، فهو امر مأمور به ، لأن الشرع امر بالتعليم ، والمدارس تعين على التعليم ، وكذلك ما يتعلق بالربط للفقراء ، فالشرع أمر بالإحسان إلى الفقراء والمساكين فإذا بنى لهم مساكن سميت بالربط فهذا مما امر الله به ، وكذلك القناطر على الأنهار ، كل هذا مما ينفع المسلمين وليس ببدعة بل هو مشروع ، وتسميته بدعة يكون من جنس ما تقدم من حيث اللغة العربية ،كما قال عمر — ﷺ — في التراويح لما جمع الناس على امام واحد ليصلي بهم التراويح كل ليلة ، قال : نعمت البدعة هذه ، يعني من حيث اللغة وإلا فالتراويح سنة مؤكدة فعلها النبي صلى الله عليه وسلم وحث عليها ورغب فيها ، فليست بدعة بل هي سنة مؤكدة ولكن سماها عمر بدعة من حيث اللغة لأنها فعلت على غير مثال سابق لأنهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون اوزاعا في المسجد ، ليسوا على امام واحد هذا يصلى معه اثنان ، وهذا يصلى معه ثلاثة وهذا يصلي معه اكثر وصلى النبي صلى الله عليه وسلم — ثلاث ليال ثم ترك ، وقال :" اني اخشى ان تفرض عليكم صلاة الليل " [٢] فتركها خوفا على امته ان تفرض عليهم .

فالحاصل ان قيام رمضان سنة مؤكدة ، وليست بدعة [٣]من حيث الشرع ، وإن سماها عمر — رضي الله عنه — بدعة من حيث اللغة.

والخلاصة ان الصواب ان كل ما احدثه الناس في الدين مما لم يشرعه الله فإنه يسمى بدعة وهو بدعة ضلالة ولا يجوز فعلها ولا يجوز تقسيم البدع إلى واجب وإلى سنة وإلى مباح ...إلى آخره فهذا خلاف القاعدة التي بينها النبي — صلى الله عليه وسلم — وفي هذا خطر عظيم ، كأن القائل يرد على النبي — صلى الله عليه وسلم — ، فالنبي — صلى الله عليه وسلم — يقول :" كل بدعة ضلالة " وهذا يقول : لا ، بل هي اقسام ، فهذا خطر عظيم وسوء ادب مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — فالواجب على اهل العلم ان يتأدبوا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وان يحذروا الشئ الذي قد يخدش في حق من فعل ما يخالف السنة ، وإن كان العلماء — رحمة الله عليهم — الذين قالوا ذلك لم يقصدوا الرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم — حماهم الله من ذلك — ولكن قد يحتج عليهم بذلك من يظن بهم السوء من اعداء الله ، وقد يظن ذلك بعض الجهلة .

فالحاصل ان التقسيم إلى بدعة مستحبة وواجبة ...إلى آخره ليس هو الصواب بل الصواب خلافه[٤].

---

[١] سورة البقرة بعض الآية (١١٧)

[٢] صحيح البخاري ، رقم (٧٢٩)الفتح (٢١٣/٢) وانظر الأرقام :(٥٨٦,٢٠١٢,٢٠١١,١١٢٩,٩٠٢٤) وصحيح مسلم (٥٢٤/١) رقم (٧٦١)

[٣] الأولى : أن يقال : وليس الإجتماع لصلاتها في جماعة بدعة ، لأن عمر — رضي الله عنه — لم يقصد إلى ان قيام رمضان بدعة من اساسها ، إنما قصد اجتماع الناس على امام واحد

[٤] عبدالعزيز بن باز : فتاوى نور على الدرب (٣٤١/١-٣٤٤)

وقــد ذكــر الإمام الشاطبي ايضا هذا التقسيم ونسبه إلى الإمام القرافي ـــ رحمه الله ـــ ورد على ذلك التقسيم وشنع على قائله[١].

وبين الشاطبي ان هذا التقسيم لايدل عليه عقل ولا نقل ، وهذا نص كلامه ـــ رحمه الله ـــ قال : " ومما يورد في هذا الموضع ان العــلماء قســموا البدع بأقسام احكام الشريعة الخمسة ، ولم يعدوها قسما واحدا مذموما فجعلوا منها ما هو واجب ومندوب ومباح ومكروه ومحرم ، وبسط ذلك القرافي بسطا شافيا ، واصل ما أتى به من ذلك شيخه عز الدين بن عبدالسلام ، وها أنا آتي به على نصه "[٢].

ثم نقل كلام الإمام القرافي ثم قال : " والجواب ان هذا التقسيم امر مخترع لا يدل عليه دليل شرعي بل هو في نفسه متدافع ، لأن مـــن حقيقة البدعة ان لايدل عليها دليل شرعي لا من نصوص الشرع ولا من قواعده ، إذ لو كان هنالك ما يدل من الشـــرع على وجوب او ندب او إباحة لما كان ثم بدعة ولكان العمل داخلا في عموم الأعمال المأمور بها او المخير فيها ، فالجمع بين عد تلك الأشياء بدعا وبين كون الأدلة تدل على وجوبها أو ندبها أو إباحتها جمع بين متنافيين ، أما المكروه منها والمحرم فمسلم من جهة كونها بدعا لا من جهة اخرى ، إذ لو دل دليل على منع أمر او كراهته لم يثبت ذلك كونه بدعة ، لإمكـــان أن يكون معصية ، كالقتل والسرقة وشرب الخمر ونحوها، فلا بدعة يتصور فيها ذلك التقسيم البتة ، إلا الكراهية والتحريم حسبما يذكر في بابه"[٣].

ثم بـــين الشاطبي ان هذا التقسيم غير صحيح ،والتمس للعز بن عبدالسلام عذرا في انه ذكر المصالح المرسلة عل انها بدع من جهة أنها لم تدخل اعيانها تحت النصوص المعينة وإن كانت تلائم قواعد الشرع ، ولكنه سماها بدعا في اللفظ، ثم قال الشاطبي :" امـــا القـــرافي فـــلا عذر له في نقل تلك الأقسام على غير مراد شيخه ، ولا على غير مراد الناس ، لأنه خالف الكل في ذلك التقسيم فصار مخالفا للإجماع "[٤] .

ورأى الإمام الشاطبي ـــ رحمه الله ـــ هو الذي ظهر لي رجحانه فالبدع كلها ضلالة ،وكلها مذمومة ليس فيها ما هو واجب أو مستحب اومندوب ،بل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "كل بدعة ضلالة ".

اما السيوطي ، فقد صنف رسالة بعنوان " الأمر بالإتباع والنهي عن الإبتداع "[٥].

أورد في مقدمـــتها عـــددا من الآيات وبعض الأحاديث والآثار التي تأمر وتحث على لزوم السنة ، وإحياء ما اندرس منها ، والتحذير من البدع والإنجرار إلى شئ منها[٦] .

ثم اردف ذلك بفصل في الحث على لزوم جماعة المسلمين ، وعدم التفرق والإختلاف في الدين ، وبين فيه ان الفرق المبتدعة كلها في النار إلا من كان على مثل ماكان عليه النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأصحابه ـــ رضي الله عنهم ـــ ، بعد ذلك عقد السيوطي فصلا في بيان خطر إتباع الهوى والإبتداع في الدين [٧] فبين فيه ـــ رحمه الله ـــ أن اتباع الهوى سبب للضلال عن طريق الهدى والرشاد كما قال جل وعلا : (ومن اضل من اتبع هواه بغير هدى من الله) [٨] وقال عز وجل : (... ولا

---

[١] انظر : على محفوظ : الإبداع في مضار الإبتداع (ص٣٠)

[٢] الشاطبي : الإعتصام (١٨٨/١)

[٣] الإعتصام : (١٩١/١-١٩٢)

[٤] المصدر السابق (١٩٢/١)

[٥] مطبوع بتحقيق ودراسة مصطفى عبد القادر عطا ،دار الكتب العلمية ـــ بيروت ، عندي الطبعة الأولى ١٤٠٨هـــ ـــ ١٩٨٨هـــ

[٦] انظر : رسالة الأمر بالإتباع (ص٧-١٤)

[٧] انظر : المصدر السابق (١٥-٢٣)

[٨] سورة القصص ، الآية (٥٠)

تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) [١] وقال — صلى الله عليه وسلم — " من أحدث في أمرنا هذا ماليس منه فهو رد " وفي رواية: "من عمل عملا ليس عليه امرنا فهو رد"[٢].

وقال — ﷺ — :" من رغب عن سنتي فليس مني"[٣].

وقال — ﷺ — :"أنا فرطكم على الحوض ،وليختلجن [٤]رجال من دوني ،فأقول : يارب أصحابي ،فيقال : إنك لاتدري ما أحدثوا بعدك [٥].

ثم اورد السيوطي بعد ذلك آثارا كثيرة تدور كلها على هذا المعنى في التحذير من البدعة وأهلها ، والبعد عنهم وعن مجالستهم اوتكليمهم ، مما يبين خطر هذا الأمر على الأمة عموما .

ثم سأل الله تعالى ان يرزقه الإتباع وإحياء السنن ، وأن يجنبه البدع والأهواء في السر والعلن ، ونحن نسال الله تعالى ذلك بمنه وكرمه .

---

[١] سورة ص ، بعض الآية (٢٦)

[٢] صحيح البخاري (٢٤١/٣)رقم (٢٦٩٧) ومسلم في صحيحه رقم (١٧١٨) واحمد في المسند(٦ / ٧٣ ، ٢٤٠ ، ٢٧٠) وأبو داود رقم (٤٦٠٦) وابن ماجة (١٤) وابن حبان (٢٦ ، ٢٧) .

[٣] صحيح البخاري قم (٥٠٦٣) الفتح (٩ /١٠٤) صحيح مسلم (١٠٢٠/٢) رقم (١٤٠١) ، والنسائي في سننه ، كتاب النكاح باب (٤) ، واحمد في المسند (١٥٨/٢)(٣ / ٢٤١، ٢٥٩) ،(٤٠٩/٥) والدرامي في سننه (١٣٣/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٧٧/٧) وابن خزيمه في صحيحه (١٩٧) .

[٤] الخلج : هو المر السريع بحركة مضطربة .

[٥] صحيح البخاري (١٤٨/٨، ١٥٠)،(٥٨/٩) ومسلم في صحيحه كتاب الفضائل ح رقم (٢٦،٢٥ ، ٣٢) ، واحمد في المسند (١ / ٢٥٧ ، ٣٨٤ ، ٤٠٦ ، ٤٢٥ ، ٤٣٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٥) (٢/ ٤٠٨) ، (٤/ ٣١١ ، ٣٥١) ، (٤١/٥) .

المبحث الثاني

الفرق بين السنة والبدعة

يعقد السيوطي فصلا للتفريق بين السنة والبدعة فيقول : " اعلم رحمك الله تعالى أن السنة في اللغة: الطريق ، ولاريب في أن أهل النقل والأثر ،المتبعين آثار رسول الله ــ ﷺ ــ وآثار الصحابة هم أهل السنة لأنهم على تلك الطريق التي لم يحدث فيها حادث ، وإنما وقعت الحوادث والبدع بعد رسول الله ــ ﷺ ــ وأصحابه .

والبدعة : عبارة عن فعلة تصادم الشريعة بالمخالفة ، أو توجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان "[١].

وقــد مضى معنا تعريف البدعة وأقوال العلماء فيها ، والسيوطي في تعريفه البدعة موافق لما نقلناه عن الشافعي ــ رحمه الله تعالى ــ وهو ــ أعني السيوطي ــ قد نقل كلام الشافعي ويتضح من ذلك انه يذهب الى التعريف الأول الموسع في مدلول الــبدعة ، ولذلك رأيته يقسمها إل حسنة ومذمومة ، وقد رجحت فيما سبق رأي الإمام الشاطبي في ان البدعة لم تذكر في كلام النبي ــ ﷺ ــ إلا مذمومة ، ولذلك فإن تقسيمها إلى حسنة وسيئة رأي مرجوح [٢]

امــا السنة فقد ذكر السيوطي تعريفها اللغوي و لم يذكر تعريفها الشرعي ، وإنما أعقب التعريف اللغوي ببيان من هم أهل السنة .

اما تعريف السنة في الشرع:

فهو يختلف باختلاف المباحث التي تناولتها ، والفنون التي اوردت تعريفها :

١- فالأصوليون : يطلقون السنة على ماصدر عن النبي ــ ﷺ ــ من قول أو فعل أو تقرير [٣]،وبعضهم يدخل فيها ما هم به الرسول ــ ﷺ ــ أو اشار إليه [٤] وإن لم يتواتر عند الجمهور [٥] ،ويخصون ذلك بغير القرآن الكريم ، وقد يدخل فيها بعضهم سنة الخلفاء الراشدين ــ رضي الله عنهم ــ ويدخل فيها بعضهم سنة الصحابة .

٢- والمحدثــون : يعرفونها بأنها : ما اضيف إلى النبي ــ ﷺ ــ من قول او فعل اوتقرير او صفة خلقية او خلقية ،وما يتصل بالرسالة من احواله الشريفة قبل البعثة ونحو ذلك [٦].

٣- وللفقهاء عدة تعريفات للسنة ، ارى اشملها واوضحها ما قاله : ابو الحسنات اللكنوي : " مافي فعله ثواب ، وفي تركه عتاب لاعقاب".

وقد احترز بقوله : " في تركه عتاب" عن الفعل الذي فعله ثواب وليس في تركه عتاب ولا عقاب .

وبقوله : "ولاعقاب " عن الفرض الواجب [٧] ، والمراد بالعتاب الملامة ونحوها وبالعقاب النار .

وفي مجال بحثنا هذا ــ تطلق السنة على مايقابل البدعة ، استنادا إلى المقابلة بينهما في عدة احاديث منها حديث العرباض بن سارية ــ رضي الله عنه ــ وفيه " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين " في مقابلة" وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة ..."الحديث [٨].

---

[١] الأمر بالإتباع والنهي عن الإبتداع (٢٤)

[٢] انظر : المبحث السابق

[٣] عــبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري المشهور بحر العلوم : فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٩٧/٢) ،وانظر : د، مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (ص٤٧)

[٤] جمال الدين ابو محمد عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي : نهاية السول شرح منهاج الأصول (٦١٨/٣) ت ، محمد بخيت ،وانظر : فتح الباري (٣/ ١٧).

[٥] انظر : شرح الورقات بهامش تنقيح الفصول (ص١٠٤)

[٦] انظر :الشيخ محمد محمد ابو زهو : الحديث والمحدثون (ص١٠) ، قواعد التحديث (ص٣٥-٣٨) ،السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (ص٤٨).

[٧] ابو الحسنات محمد عبد العلي بن محمد عبد الحليم بن محمد امين اللكنوي تحفة الأخيار في احياء سنة سيد الأبرار (ص٩) ط: المصطفائي ــ الهند.

[٨] سبق تخريجه ، وقد صححه الترمذي (١٥٠/٤)

وحديث :"من احيا سنة من سنتي قد اميتت بعدي، فإن له من الأجر مثل اجر من عمل بها من الناس ، ،لاينقص من اجور الناس شيئا ، ومن ابتدع بدعة ضلالة لايرضاها الله ورسوله فإن عليه مثل اثم من عمل بها من الناس لاينقص من آثام الناس شـيئا[١]والشاهد منه قوله " من احيا سنة " "ومن ابتدع بدعة .." ونحو ذلك من الأحاديث ، فيقال فلان صاحب سنة إذا كـان عملـه دائمـا على وفق ما عمل النبي — ﷺ — سواء كان ذلك مما نص عليه الكتاب العزيز ، او كان مما ورد في الأحـاديث النبوية الصحيحة ، وفلان صاحب بدعة : إن كان على خلاف ذلك ، وعلى ذلك تشمل السنة كل ما تشتمل عليه الشريعة من قرآن وغيره مما ورد عنه — ﷺ — وقد تشمل ما استند إلى الشريعة عن طريق اقرته كاجتهاد صحيح.

يقول الشيخ خضر حسين :" وتطلق — أي السنة — على ما يقابل البدعة ،فيراد بها ماوافق القرآن او حديث النبي — ﷺ — من قول او فعل أو تقرير ،وسواء كانت دلالة القرآن أوالحديث علىطلب الفعل مباشرة أو بوسيلة القواعد المأخوذة منهما ، وينتظم في هذا السلك عمل الخلفاء الراشدين، والصحابة الأكرمين للثقة بأنهم لايعملون إلا على بينة من امر دينهم"[٢]

وعـلى هـذا يمكن ان يقال بما قاله الإمام ابن حزم — رحمه الله : " السنة هي الشريعة نفسها ،واقسامها في الشريعة فرض أوندب أو إباحة أوكراهة أو تحريم ، كل ذلك قد سنه الرسول — ﷺ — عن الله عز وجل"[٣]، وهذا تقسيم عجيب من ابي محمـد بن حزم — رحمه الله — فإنني — على حد علمي القاصر — لم أجد من قال إن هناك سنة مكروهة ، او سنة محرمة ،فـلم يسـتعمل لفـظ السنة على اطلاق إلا فيما هو ممدوح عملا واعتقادا ، فيقال : أهل السنة ، ولا يقال : اهل السنة المفروضة اوالمندوبة ، اوالمباحة ، ويقال ايضا ;هذا رجل صاحب سنة ، إذا كان ممدوح السيرة في القول والعمل والإعتقاد ، فهذا شيئ.

والشيئ الآخر انه على كلام ابن حزم — رحمه الله — يمكننا ان نقول ان الخوارج والشيعة والمعتزلة اهل سنة مكروهة أومحرمة ،وهذا لم يقله احد من الإئمة — على ما أعلم — بل يقال عنهم :اهل البدع والأهواء .

والشيئ الثالث :ان المكروه والمحرم يدخل في باب المعاصي لا في باب السنن ولا في باب البدع .

والذي يظهر لي — والله تعالى اعلم — أن كلام ابن حزم لايستقيم في معنى السنة إلا في المعنى اللغوي العام الذي هو مطلق الطريقة ممدوحة كانت اومذمومة ، ونكون بذلك قد عدنا من حيث بدأنا ، و لم نجن من وراء تعريف ابن حزم ثمرة يستفاد منها .

ولكـنني اقول :أنه على ضوء ماسبق من كلام العلماء والأئمة يمكن استنباط معنى السنة بأنها : قول النبي — ﷺ — وفعله وتقريره وتركه.

وان التمسك بالسنة :هو متابعة النبي — ﷺ — في قوله وفعله وتقريره وتركه مالم يقم دليل على خصوصيته — ﷺ — بشئ من ذلك دون زيادة .

فقولـه — ﷺ— سنة ،سواء كان في الصلوات أو الأذكار أو الأدعية ونحوها ،ومتابعته فيها التمسك بنصها ولفظها من غير تعمد زيادة عليها فتعمد ا لزيادة على الأذكار والأدعية بأوراد يلتزمها العبد صباحا ومساءا يضاهي بها أدعية المصطفى — ﷺ — والمداومة عليها باعتبارها دين يقرب إلى الله تعالى، كما يفعل ذلك اصحاب الطرق الصوفية المختلفة فيؤلف شيخ الطريقة حـزبا او وردا من الأدعية المليئة بالغلو في النبي — صلى الله عليه وسلم — أو الغلو في مشايخهم فهذه هي البدع ، وذلك لأنها زيادة على المشروع بغير دليل .

وفعله — صلى الله عليه وسلم — كذلك ، فصلاته وصيامه، وحجه واعتماره واكله ،وشربه ، وركوبه ومشيه ،ووضوؤه وغسله ، ونحوذلك من الأفعال هي سنته وطريقته ،والتمسك بها من غير زيادة متعمدة هو متابعة السنة ، فمن تعمد الزيادة بقصد القربة على ماهو مشروع فقد اعتدى وابتدع .

---

(١)سنن ابن ماجه (٧٦/١)

(٢)رسائل الإصلاح (٨٣/٣— ٨٤) ط القدس (١٣٥٨هـ — ١٩٩٣ م) .

(٣)الإحكام في اصول الإحكام (٤٣/١).

وكذلـــك تـــركه ــ ﷺ ــ إذا تـــرك امرا فلم يفعله مع توفر الداعي وعدم المانع ، وذلك كتركه الإحتفال بمولده ،وتركه الإحتفال بليلة النصف من شعبان ، وتركه الإحتفال بالإسراء والمعراج في السابع والعشرين من شهر رجب، كل هذا تركه ســنة لأنـــه ـــ ﷺ ـــ تـــركه مع توفر الداعي والمقتضي وهوتحصيل الثواب والقرب من الله عز وجل وزيادة الأجر ورفعة الدرجات ،ولم يوجد سبب مانع يمنع من ذلك ،فكان الترك هو السنة ،والفعل هوالبدعة ، ولا يقال : إنه ـــ ﷺ ـــ لم يفعل ذلك ولا الصحابة ـــ رضي الله عنهم ـــ لأنهم كانوا منشغلين بالدعوة والجهاد ، لايقال ذلك لأنه ـــ ﷺ ـــ واصحابه مع قيامهم بالدعوة والجهاد في سنبيل الله على اتم واكمل وجه ،ومع ذلك كانوا يحتفلون بعيد الفطر ،وعيد الأضحى ويفرحون بمناسبتهما ويتوسعون فيهما بالخير والنفقات وغير ذلك من مظاهر الاحتفال في ذينك اليومين فدل ذلك على سنية الاحتفال بالعيدين ، وسنية ترك الاحتفال بما سواهما مما ذكرنا قبلهما.

أما الفعل والترك اللذين يظهر فيهما دليل على الخصوصية له ـــ ﷺ ـــ فإنهما ليسا بسنة في حق الأمة وذلك كصيام الوصال ، وجمعـــه بين اكثر من أربع زوجات وتركه أكل الضب مع إقراره خالد بن الوليد في أكله،وكذلك امتناعه عن أكل الثوم والبصل ـــ ﷺ ـــ وعلل ذلك بأنه يناجي الملائكة ، ونحو ذلك فهو خصوصية له ـــ ﷺ ـــ .

فإذا فعل العبد فعله ، وقال بقوله ،وترك ماترك ،من غير زيادة يضاهي بها الشرعية فهو المتبع للسنة .

المبحث الثالث

اقسام البدع عند السيوطي

تقدم معنا ان السيوطي يقسم البدعة إلى حسنة وقبيحة وبينا الراجح في هذا التقسيم .

ثم يقسم السيوطي البدع القبيحة إلى قسمين :

الأول: بدع في العقائد تؤدي إلى الضلال والخسران.

الثاني : بدع في الأفعال .

ثم يقول السيوطي :" ولسنا نحن هنا بصدد بيانها — يعني القسم الأول — ولكن من لزم السنة والجماعة — ،واعرض عن اصول هذه البدع وفروعها كان في الفرقة الناجية بفضل الله تعالى "[١].

ثم يقسم السيوطي القسم الثاني إلى قسمين :

١- قسم تعرف العامة والخاصة أنه بدعة محدثة ، إما محرمة وإما مكروهة .

٢- وقسم يظنه معظمهم عبادات ، وقربات ، وطاعات[٢].

ثم يأخذ السيوطي في بيان كلا القسمين الأخيرين.

القسم الأول

ما يعرف العامة والخاصة أنه بدعة محدثة إما محرمة وإما مكروهة

١- النظر إلى النساء الأجانب والخلوة بهن وسماع كلامهن:

وذكر السيوطي ان هذا مما وقع فيه طائفة " من جهال العوام النابذين لشريعة الإسلام ، التاركين الإقتداء بأئمة الدين ، وهوما يفعله طائفة من المنتمين إلى الفقر،الذي حقيقته الافتقار من الإيمان من مؤاخاة النسوان الأجانب والخلوة بهن ، وهذا حرام بإتفاق المسلمين ، ومستحل هذا كافر ،وفاعله على طريق التهاون به عاص ،ضال ، مضل، مارق من الدين ، ومفارق لجماعة المسلمين ، أبعدالله فاعله ،فإن النظر إلى النساء الأجنبيات ،والخلوة بهن ،وسماع كلامهن ، حرام على كل بالغ ماخلا ذي الرحم المحرم بالكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وليس هذا موضع استقصاء الدليل عليه ،وإنما المراد تبيين البدع والتحذير منها ، وليس هذا يخفى على مسلم"[٣].

أما النظر إلى الأجنبيات ، والخلوة بهن فمتفق على تحريمه بين العلماء ، إلا ماكان نظرا من الرجل إلى امرأة بقصد خطبتها فالنظر هو رائد الشهوة ورسولها ، وحفظه أصل حفظ الفرج ، فمن اطلق نظره أورد نفسه موارد الهلاك ، ولا جرم امر ربنا جل وعلا بغض البصر عن النظر إلى النساء الأجنبيات ، قال تعالى(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون) [٤]فغض البصر وسيلة لحفظ الفرج ،كما أن اطلاق النظر وسيلة للوقوع في معصية الزنى.

ورد عن جابر بن عبدالله البجلي — ﷺ — أنه قال :سألت النبي — ﷺ — عن نظرة الفجاءة فأمرني بأن أصرف بصري[٥].
وقال — ﷺ — لعلي بن ابي طالب — ﷺ — "ياعلي لاتتبع النظرة النظرة ،فإنما لك الأولى وليست لك الثانية "[١]وقال — ﷺ — :" النظرة سهم مسموم من سهام ابليس "[٢] ، وقال — ﷺ — "..غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم "[٣]، وقال

---

[١] الأمر بالإتباع (ص٢٨)

[٢] المصدر السابق

[٣] الأمر بالإتباع (ص٢٩)

[٤] سورة النور ، الآية (٣٠)

[٥] صحيح مسلم (٣/١٦٩٩—١٧٠٠)ح رقم (٢١٥٩)

ايضا :" إياكم والجلوس على الطرقات " قالوا : يارسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال رسول الله — ﷺ — " إن أبيـــتم فأعطوا الطريق حقه"، قالوا : وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : "غض البصر ، وكف الأذى ،ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر "[٤].

فالنظر اصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان ، فإن النظرة تولد الخطرة ، والخطرة تولد الفكرة ، والفكرة تولد الشهوة ثم تولـــد الشهوة إرادة ، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة فيقع الفعل ولابد ما لم يمنع مانع ،ولذلك كان الصبر على غض البصر ايسر من الصبر على ألم ما بعده قال القائل :

كل الحوادث مبدؤها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها	كمبلغ السهم بين القوس والوتر
يسر مقلته ماضر مـــــهجته	لامرحبا بسرور عاد بالضــــرر[٥]

والأحاديث والآثار كثيرة في الترهيب من النظر إلى النساء وهي بمجوعها تدل على تحريم النظر إليهن ،وأن فاعله آثم .

وأمـــا الخلوة بالأجنبيات فهو كذلك من الأمور المنهي عنها كما قال السيوطي ، فقد ورد عن النبي — ﷺ— قوله :" إياكم والدخول على النساء " فقال رجل من الأنصار :أفرأيت الحمو[٦] قال :"الحمو الموت"[٧].

وقال — صلى الله عليه وسلم— أيضا :" لايخلون رجل بإمرأة إلا مع ذي محرم"[٨].

فهـــذه الأمور كما قال السيوطي" حرام بإتفاق المسلمين "[٩]، لكنه — رحمه الله تعالى — هول تهويلا شديدا في الحكم على مـــرتكب هذه الأفعال كما ذكرته عنه حيث قال :" وفاعله على طريق التهاون بها عاص ،ضال ، مضل ،مارق من الدين ،مفارق لجماعة المسلمين أبعد الله فاعله..."[١٠].

---

[١] اخرجه الترمذي رقم (٢٧٧٧) وابو داوود (٢١٤٩) واحمد في المسند (٥/٣٥١، ٣٥٣ ، ٣٥٧) والحاكم (٢/١٩٤)وصححه ،ووافقه الذهبي ، مـــن طريق شريك عن أبي ربيعة عن أبي بريدة عن أبيه رفعه ، قال الترمذي " هذا حديث حسن غريب ، لانعرفه إلا من حديث شريك " ، وله شواهد من حديث علي اخرجه الدارمي (٢/٢٩٨) من طريق محمد بن اسحاق عن محمد بن ابراهيم التيمي عن سلم بن أبي الطفيل عن علي .

[٢] اخرجه الحاكم (٤/٣١٤)والقضاعي في مسند الشهاب (١/١٩٥) من طريق محارب بن دثار عن صلة بن زفر عن حذيفة ، قال الحاكم : صحيح وتعقـــبه الذهبي بقوله :اسحاق بن عبدالواحد واه ، وعبدالرحمن الواسطي ضعفوه ، وله شاهد من حديث ابن عمر اخرجه القضاعي (١/١٩٦) وعـــزاه الهيـــثمي في المجمـــع (٨/٦٣) للطبراني ، وقال فيه عبدالله بن اسحاق الواسطي ، وهو ضعيف وله شاهد من حديث ابن مسعود اخرجه الطبراني (١٠٣٦٢) من طريق القاسم بن عبد الرحمن عن ابيه عن ابن مسعود.

[٣] اخرجه احمد في المسند (٥/٣٢٣) ، والحاكم (٤/٣٥٨-٣٥٩) من طريق عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبدالله عن عبادة بن الصامت بلفظ :" اضمنوا لي ستا من أنفسكم اضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ،وأوفوا إذا وعدتم ،وأدوا إذ ا ائتمنـــتم واحفظـــوا فـــروجكم ، وغضوا أبصاركم ،وكفوا أيديكم " قال الحاكم :صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي بقوله : فيه ارسال ، المطلب بن عبدالله لم يسمع من عبادة ، وعزاه الهيثمي في المجمع (٤/٢١٨) للطبراني وقال : ورجاله ثقات إلا ان المطلب لم يسمع من عبادة.

[٤] صـــحيح البخاري رقم (٦٢٢٩) الفتح (١١/٨) وصحيح مسلم (٣/١٦٧٥) ح رقم (٢١٢١) ،(٤/١٧٠٤) واحمد في المسند (٣/٣٦-٦١) من طريق زيد بن اسلم عن عطاء بن يسار عن ابي سعيد الخدري — رضي الله عنه.

[٥] انظـــر : ابن ا لقيم : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي(ص٢٢٣ — ٢٢٤) ت: أبي حذيفة عبيدالله بن عالية — دار الكتاب العربي ط ٤/ ١٤١٥هـ — ١٩٩٢م.

[٦] الحمو : قريب الزوج كأخيه وابن اخيه وابن عمه

[٧] صـــحيح البخاري رقم (٥٢٣٢) الفتح (٩/٣٣٠) ، صحيح مسلم (٤/١٧١١) رقم (٢١٧٢)، والترمذي — كتاب الرضاع — ، باب (١٦) والدارمي — كتاب الإستئذان — ، باب (١٤) ، واحمد في المسند (٤ / ١٤٩ ، ١٥٣) ،(٣/٣٣٩).

[٨] صحيح البخاري رقم (٥٢٣٣) الفتح (٩/٣٣٠) ، صحيح مسلم (٢/٩٧٨) رقم (١٣٤١) ، واحمد (١/٢٢٢) ، (٣/٣٣٩).

[٩] الأمر بالإتباع (ص٢٩)

[١٠] المصدر السابق

فقولــه : ضال،مضــل ، مــارق من الدين ، مفارق لجماعة المسلمين ، ،أحكام شديدة لاتليق إلا بأصحاب البدع الكبار كــالخوارج والمعــتزلة ونحوهم ، أما الذي ينظر إلى النساء فهوبلاشك عاص وكان يكفيه ان يقول : هو عاص لله ، آثم ، مرتكب للحرام ،معرض نفسه للعقوبة إن لم يتب إلى الله ،ونحو ذلك ،وهذا ليس تهوينا من هذه المعصية ، وإنما ينبغي للعالم ان يكون منضبطا بضوابط الأحكام الشرعية ، ولا يلقى الأحكام جزافا.

٢- معاشرة الأحداث:

قــال السيوطي :" ومن ذلك معاشرة الأحداث ،وقد كان السلف يبالغون في الإعراض عن المرد[١] وصحبة الأحداث اقوى حبائل الشيطان"[٢] .

ثم نقل أقوالا عن جمع من السلف في التحذير من ذلك وكل مانقله من هذه الأقوال ذكره ابن الجوزي — رحمه الله تعالى — في كتاب "تلبيس ابليس"[٣]،وفي كتاب " ذم الهوى"..

ثم قال السيوطي :" واعلم ان كل من فاته العلم تخبط ، فإن حصل له العلم وفاته العمل كان أشد تخبطا ، ومن استعمل أدب الشـــرع مــثل قوله تعالى :(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)[٤] فمتى غض بصره في البداية سلم مما يصعب عليه أمره في النهاية ، فقد ورد النهي عن مجالسة المردان ، وأوصى العلماء بذلك ،فلايغتر مغتر فيكون العطب عليه أسرع والهلاك أقرب من حاجبيه إلىعينيه"[٥].

٣- السماع والرقص والوجد:

يقول السيوطي :" وفاعل ذلك ساقط المروءة ،مردود الشهادة ، عاص لله ورسوله"[٦] .

ثم اورد السيوطي مجموعة من الأدلة تدل على ذم الغناء والتحذير منه ، فمن ذلك:

١- قوــله تعالى : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ..)[٧] وفسر ابن مسعود لهو الحديث بأنه الغناء[٨] وحلف على ذلك بقوله :" والله الذي لاإله إلا هو " ثلاث مرات ،وهو قول ابن عباس وعكرمة ، ومجاهد والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ،ومكحول ، وعمرو بن شعيب ،وعلي بن بذيمة[٩].

٢- وقوله تعالى :" أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ،وانتم سامدون) (١٠).

قال ابن عباس :"الغناء "[١١].

---

(١) المــرد : نقــاء الخدين من الشعر ، ونقاء الغصن من الوق ،والأمرد :الشاب الذي بلغ خروج لحيته وطر شاربه و لم تبد لحيته ، والمرد جمع ،لسان العرب (٣/٤٠١)

(٢) الأمر بالإتباع (ص٢٩)

(٣) انظر : (ص ٢٦٤ — ٢٧٧) ، وانظر : ابن القيم : إغاثة اللهفان (٢/١٢٦ ، ١٤٣ ، ١٤٨)

(٤) سورة النور ، بعض الآية (٣٠)

(٥) الأمر بالإتباع (ص٣١)

(٦) الأمر بالإتباع (ص٣٢)

(٧) سورة لقمان ، بعض الآية (٦)

(٨) انظــر: ابن جرير : جامع البيان (١١/٦١) ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم (٦/٣٣٣-٣٣٤) والسيوطي : الدر المنثور (٦/٥٠٤— ٥٠٦) ، وهــذا أحد الأقوال في تفسير الآية ، قال ابن جرير: "وأما الحديث فإن أهل التأويل اختلفوا فيه ، فقال بعضهم ، :هوالغناء والاستماع له .. وقال آخــرون : عــني بالــلهو الطبل.. وقال آخرون:عني بلهوا الحديث : الشرك .. والصواب من القول في ذلك أن يقال : عنى به كل ما كان من الحديــث ملهيا عن سبيل الله ، مما نهى الله عن استماعه أورسوله ، لأن الله تعالى عم بقوله :" لهو الحديث" و لم يخص بعضا دون بعض فذلك على عمومه حتى يأتي مايدل على خصوصه،والغناء والشرك من ذلك".

(٩) انظر :تفسير ابن كثير (٦/٣٣٤).

(١٠) سورة النجم الآيات (٥٩/٦١)

(١١) تفسير ابن جرير (٢٧/٨٢)

وقال مجاهد : " يقول أهل اليمن : سمد فلان إذا غنى"[١].

وقد فسر السمود أيضا باللهو، وفسر السمود في الناس : بالغفلة والسهو ، قال ابن الأعرابي :"السامد : اللاهي ، والسامد :القائم ، والسامد : المتحير بطرا وأشرا ، والسامد :الغبي[٢]وقال ابن الأثير :" السامد : المنتصب إذا كان رافعا رأسه ناصبا صدره .. وسمد سمودا : رفع رأسه تكبرا، وكل رافع رأسه فهو سامد"[٣].

فالسمود يجمع هذه المعاني ، ومن معانيه الغناء ،والغناء يدخل في اللهو واللغو ،والسهو والغفلة .

٣- وقوله تعالى: (واستفزز من استطعت منهم بصوتك ..)[٤].

قال مجاهد :" هوالغناء والمزامير "[٥] وهو قول الحسن البصري ــ رحمه الله ــ[٦]

وهذه الأدلة التي ذكرها السيوطي وغيرها تدل على قبح الغناء وذمه ، والعلماء إزاء هذه الأدلة على ثلاثة أقوال في الغناء.

١- منهم من حرمه .

٢- منهم من أباحه من غير كراهة.

٣- ومنهم من كرهه مع الإباحة .

حكى هذه الأقوال الثلاثة الإمام ابو الفرج ابن الجوزي في "تلبيس ابليس"[٧]

وذهب ابن القيم رحمه الله تعالى إلى تحريمه[٨] ،وصرح السيوطي بتحريمه لكن قيده بأوصاف إذا تحققت فيه كان محرما كما قال ــ رحمه الله ــ فقد قال:" واعلم وفقك الله لطاعته أن الأشعار التي ينشدها المغنون اليوم يصفون فها المستحسنات والخمر ، والقد والعين وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ، ويثير كامنها من حيث اللهو وهو حرام"[٩].

لكن قوله " يصفون فيها المستحسنات " ليس قيدا أو شرطا يكون سببا في التحريم ، بمجرده ، فوصف المستحسنات مما خلقه الله تعالى في الطبيعة من الخضرة والشمس والنسائم العليلة أوقات السحر ، ، والنعم التي امتن الله تعالى بها على عباده من المياه العذبة والفواكه والدواب كالظباء والقطا ونحو ذلك ليس فيه مايدعو إلى التحريم لمجرد كونها من المستحسنات إلا إذا كان قصد السيوطي لهذه المستجسنات ، المستحسنات من أوصاف النساء والفتيات والغانيات ، ووصف أعضائهن ، بما يثير الشهوة ويحرك الغرائز ،ويجريء العامة على الفاحشة.

كقول من قال :

لم تبق زاوية بجسم جميلة إلا وقد مرت به عرباتي

لم يبق نهد أبيض أو احمر إلا وقد زرعت به راياتي

---

[١] انظر لسان العرب :"(٢/٢١٩) ، وابن جرير (٨٢/٢٧) ،وتفسير ابن كثير (٤٤٣/٧) ، والدر المنثور (٦٦٧/٢٧)

[٢] لسان العرب (٢١٩/٣) ،

[٣] لسان العرب (٢١٩/٣)

[٤] سور الإسراء، بعض الآية (٦٤)

[٥] الأمر بالإتباع (٣٢) ، وتفسير ابن جرير (١١٨/١٥) ، وتفسير ابن كثير (٩١/٥) ، وانظر ابن القيم : إغاثة اللهفان (٢٥٥/١ــ ٢٥٦) ،وابن الجوزي "تلبيس إبليس " (ص٢٢٨)، (ص٢٣٢) ، الدر المنثور(٣١٢/١٥) قال ابن جرير :" اختلف أهل التأويل في الصوت الذي عناه جل ثناؤه بقوله : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) فقال بعضهم :عنى به صوت الغناء واللعب .. وقال آخرون : عنى به (واستفزز من استطعت منهم) بدعائك إياه إلى طاعتك ومعصية الله .. وأولى الأقوال بالصواب أن يقال : إن الله تبارك وتعالى قال لإبليس : واستفزز من ذرية آدم من استطعت أن تستفزه بصوتك ، ولم يخصص صوتا دون صوت فكل صوت كان دعاء إليه وإلى عمله وطاعته وخلافا للدعاء إلى طاعة الله فهو داخل في معنى صوته" ، تفسير ابن جرير (١١٨/١٥)

[٦] انظر :ابن القيم :اغاثة اللهفان (٢٥٦/١)

[٧] انظر : (ص٢٢٣).

[٨] انظر : إغاثة اللهفان (٢٢٤/١-٢٦٨)

[٩] الأمر بالإتباع (ص ٣٣)

فصلت من جسد النساء عباءة   وبنيت اهراما من الحلمات [١]

فهذا قول خبيث يوحي للعامة وأشباه العامة — ممن لم يؤته الله تعالى حظا من العلم الشرعي الذي يعضده تقوى الله تعالى والخشـية مـن عقابه — يوحي لهؤلاء بالجرأة على محارم الله تعالى سيما إن كان قائله من الذين نالوا حظا من الشهرة بين أوساط العامة والمثقفين ، واصبح يشار إليه بالبنان وتنشر أشعاره الساقطة في بعض المطبوعات السيارة.

وكقول القائل :

فأشهد عند الله أني أحبها   فهذا لها عندي فما عندها ليا

أعد الليالي ليلة بعد ليلة   وقد عشت دهرا لاأعد اللياليا

أراني إذا صليت يممت نحوها   بوجهي وإن كان المصلي ورائيا[٢]

فهذا في غاية السفه والضلال،وإن وقع مثله في الغناء فهو حرام قطعا لأنه جعل قبلته معشوقته.

ومثله كذلك من جعل مكان محبوبته كعبة يطوف حولها في قوله السمج:

هذه الكعبة كنا طائـفيهـــا   والمصلين صباحا ومساء

كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها   كيف بالله رجعنا غرباء[٣]

فهذا ساجد وعابد لغير الله جل وعلا ، وإن كان يعتذرعنه بأنه لايقصد الإشراك بالله ، ولكنه قبيح المعنى سئ اللفظ.

وكقول القائل:

فلما أن خلا المغني وبتنا   عراة بالعفاف مؤزرين

قضينا الحج ضماواستلاما   ولم نشعر بما في المشعرين[٤]

فانظر إلى جرأته على ارتكاب الحرام وتزيينه لغيره ، واقتراف الإثم في المشاعر المقدسة.

فهذا ونحوه من الأشعار والغناء يشتمل على حكاية الفسق والمجون والخلوة بالمحرمات والفواحش ، مع مايضاف إليه من مدح الخمر والسكر والخلاعة لاشك في تحريمه ،وتشتد حرمته إذا غناه امرأة او مخنث.

أما ذكر المحاسن الخلقية التي تدعوا إلى التعفف والتصون ،والخوف من الله تعالى فليس بمنكر ولا محرم ، فقد أنشد كعب بن زهير قصيدته المشهورة" بانت سعاد"بين يدي النبي — صلى عليه وسلم — وكان مطلعها غزل ووقوف على الأطلال ،ولم يـنكر عـليه رسول الله — ﷺ — وكان في مطلع القصيدة ذكر لمحاسن المحبوبة ووصف لها ولكن بما ليس فيه إسفاف ولا خدش للحياء والعفاف . قال كعب بن زهير — رضي الله عنه — :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

وماسعاد غداة البين إذ رحلوا   إلا أغن غضيض الطرف مكحول

هيفاء مقبلة ، عجزاء مدبرة   لايشتكي قصر منها ولا طول

تجلوا عوارض ذي ظلم إذا   ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

فهذا وصف كعب بن زهير — رضي الله عنه — لمحبوبته ، وقيل زوجته سعاد وابنة عمه ، خصها بالذكر لطول غيبته عنها لهروبه من النبي — ﷺ — بعد ما أهدر النبي — ﷺ — دمه يوم الفتح الأعظم[٥]

ومن ذلك ايضا قول القائل :

---

[١] هو من شعر " نزار قباني" نقلا عن : حقائق وأكاذيب في حياة المرأة المسلمة (ص ٢٦) لمؤلفته : الزهراء فاطمة بنت عبدالله — مكتبة السنة ط٣/ ١٤٠٩هـ — ١٩٨٩م القاهرة

[٢] من قصيدة المؤنسة لقيس بن الملوح :أنظر أبو الفرج الأصفهاني : مجنون بني عامر أخباره وشعره ، مكتبة صادر بيروت ص ١٠٢ — ١٠٣.

[٣] من ديوان ابراهيم ناجي (ص١٣) دا رالعودة — بيروت ١٩٨٨م ٠

[٤] من قصيدة لصفي الدين الحلي ، انظر ديوانه (ص٣٩٣) دار صادر — بيروت.

[٥] خبر كعب بن زهير وقصيدته في سيرة ابن هشام (٢/٢-٥٠٢-٥١٥)وفي زاد المعاد لابن القيم (٣/٤٥٧).

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا   وطاب عن طيب لقيانا تجافينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهمو   حزنا مع الدهر لايبلى ويبلينا

إن الزمان الذي مازال يضحكنا   أنسا بقربهمو قد عاد يبكينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقا إليكم ولاجفت مآقينا

إن كان قد عز في الدنيا اللقاء بكم   في موقف الحشر نلقاكم ويكفينا[١]

فنحو هذا كيف يقال إنه داخل ضمن المحرمات؟

قال ابو الفرج ابن الجوزي — رحمه الله — بعدما حكى مذاهب الناس في الغناء : "وفصل الخطاب أن نقول ينبغي أن ينظر في ماهية الشئ ثم نطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك ،والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات،فإن أقواما من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات أشعارا يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وربما ضربوا مع إنشادهم بطبل فسماع تلك الأشعار مباح وليس إنشادهم إياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال ،وفي معنى هؤلاء الغزاة فإنهم ينشدون أشعارا يحرضون بها على الغزو ، وفي معنى هذا إنشاد المبارزين للقتال .. وفي معنى هذا أشعار الحداة .. وقد روينا عن الشافعي — رحمه الله — أنه قال : أما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلابأس به .. ومن ذلك أشعار ينشدها المتزهدون بتطريب وتلحين تزعج القلوب إلى ذكر الآخرة كقول بعضهم :

ياغاديا في غفلة ورائحا   إلى متى تستحسن القبائحا

وكم إلى كم لاتخاف موقفا   يستنطق الله به الجوارحا

ياعجبا منك وأنت مبصر   كيف تجنبت الطريق الواضحا[٢]

ثم نقل ابن الجوزي بعد ذلك أقوال أئمة المذاهب في الغناء ، و لم اجد فيما نقله رحمه الله من صرح بتحريم الغناء ،وإنما أقوالهم تدور حول الكراهة والنهي عنه ،وزجر فاعله ونحو ذلك .

١- أما أبو حنيفة فكان يكره الغناء[٣]، وكذلك ابراهيم والشعبي وحماد وسفيان الثوري وغيرهم ،ولايعرف بين أهل البصرة خلاف في كراهة ذلك والمنع منه إلا ماروى عن عبيدالله بن الحسن العنبري أنه كان لايرى به بأسا[٤].

٢- وأما مالك فإنه نهى عن الغناء وعن استماعه ، وهومذهب سائر أهل المدينة إلا ابراهيم بن سعد وحده فإنه كان لايرى به بأسا .[٥]

٣- وأما الشافعي : فقال :الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ،ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته[٦].

٤- و احمد : فروى عنه ابنه عبدالله انه قال : الغناء ينبت النفاق في القلب ،لايعجبني ،وسئل عن استماع القصائد فقال : أكرهه ، هوبدعة ، فقيل له إنه يرقق القلب ، فقال هوبدعة ، وقال المروزي :سألت أبا عبدالله عن القصائد ، فقال : بدعة ، فقلت له : إنهم يهجرون ؟ فقال :لايبلغ بهم هذا كله [٧] أي لايصل الأمر إلى حد هجرانهم بسبب ذلك.

ثم يقول ابن الجوزي :" فهذه الروايات كلها دليل كراهية الغناء"[٨].

---

[١] من قصيدة لإبن زيدون الأندلسي ، المتوفي (٤٦٣هـ) انظر ديوانه (ص١١) ت : كرم البستاني ، دار صادر بيروت ١٣٨٠هـ — ١٩٦٠م.

[٢] تلبيس إبليس (ص ٢٢٢-٢٢٦)

[٣] نفسه (ص٢٢٩) ، وانظر الأمر بالإتباع (ص٣٥)

[٤] تلبيس إبليس (ص ٢٢٩)

[٥] نفسه ،وانظر : الأمر بالإتباع (ص٣٥)

[٦] تلبيس إبليس (ص٣٣٠) وانظر : الأمر بالإتباع (ص٣٥)

[٧] تلبيس إبليس (ص٢٢٨)، الأمر بالإتباع (ص٣٤)

[٨] نفسه.

ففي هذه الأقوال كلها من أئمة المذاهب الأربعة الحكم عليه بالكراهة لا بالتحريم ، إلا أن الأمر كما قلت سابقا : إن الغناء إذا كـــان مما يدعو إلى الفاحشة والمجون ، أويزين شرب الخمور والسكر ، فهو حرام ، ويشتد تحريمه إذا كان بصوت امرأة فاتنة الصوت ، أو بصوت مخنث يدعو للفتنة .

٥- التبرك بمواضع مخصوصة والنذر لها ، والدعاء عندها:

قال السيوطي :" ومن البدع ما قد عم الابتلاء به تزيين الشيطان للعامة ، تخليق الحيطان والعمد بالزعفران المجبول بماء الورد ، وإســـراج مواضع مخصوصة في كل بلد بما ليس عليهم فيفعلون ذلك ويظنون أنهم متقربون بذلك ثم يتجاوزون بذلك إلى تعظيم تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ، ويرجون الشفاء وقضاء الحوائج بالنذر لها ، وتلك الأماكن من بين عيون وشجر وحائط ،وطاقة وعامود[١]

" وأقبح من ذلك أن ينذر لتلك البقعة دهنا لتنويرها أو شمعا ويقول : إنها تقبل النذر ـــ كما يقول بعض الضالين ، أوينذر ذلك لقبر أي قبر كان ، فإن هذا نذر معصية باتفاق العلماء لايجوز الوفاء به "[٢]

وهذا الذي ذكره السيوطي من البدع المنكرة التي انتشرت في كثير من بلاد المسلمين ، وكلها بدع محرمة ،وهي ذريعة إلى الشـــرك الأكـــبر بسبب تعلق بعض الناس بغير الله عز وجل ، بالتماس البركة منها والدعاء عندها حتى يصل بهم الحال إلى وقوعهم في الشرك الأكبر بدعاء غير الله والتضرع إليه ، وتقديم الذبائح والقرابين ونحو ذلك من الأعمال الشركية التي تقدح في عقيدة هؤلاء .

قـــال الســـيوطي :" وما أشبه ذلك بذات أنواط"[٣]وصدق ـــ رحمه الله ـــ و"أنواط"جمع نوط وهومصدر سمي به المنوط ، و"ذات أنواط" شجرة خضراء عظيمة لقريش ، وقيل شجرة سدر كانوا يأتونها كل سنة ، فيعلقون عليها أسلحتهم ويعلفون عندها دوابهم ، ويذبحون لها ، فهذا ـــ كما قال السيوطي ـــ شبيه بعبادة الأوثان ،وهوذريعة إليها ، وقد وردت قصة ذات أنواط في حديث أبي واقد الليثي ـــ ﷺ ـــ قال : خرجنا من مكة مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى حنين ، قال :وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، قال فمررنا بسدرة خضراء عظيمة ،قال : فقلنا:يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال :قلتم ،والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى: (اجعل لنا إلها كمـــا لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون)[٤]، إنها السنن لتركبن سنن من كان قبلكم "[٥].

فقـــد اخبر النبي ـــ ﷺ ـــ ان هذا الأمر الذي طلبوه منه وهو اتخاذ شجرة يعلقون بها اسلحتهم تبركا ،كالأمر الذي طلبه بنو إسرائيل من موسى ـــ عليه السلام ـــ حيث قالوا: (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة عليها ، والعكـــوف عندها اتخاذ إله مع الله ـــ جل وعلا ـــ مع انهم لايعبدونها، ولا يسألونها ، فمالظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات ، والإستغاثة بهم والذبح والنذر لهم ،والطواف بقبورهم ،وتقبيلها ،وتقبيل أعتابها وجدرانها والتمسح بها ، والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب لها ؟وأي نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركا؟.

---

[١] الأمر بالإتباع (ص٣٦,٣٧)

[٢] الأمر بالإتباع (ص ٣٦,٣٧)

[٣] السابق

[٤] سورة الأعراف ، بعض الآية(١٣٨) ، الآية (١٣٩)

[٥] حديث صـــحيح رواه ابـــن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (٨٥/٤-٨٤) والشافعي في بدائع المنن (ص٢٣) وعبد الرزاق في المصنف رقم (٢٠٧٦٣) والحميـــدي (٨٤٨) والطيالسي (١٣٤٦) واحمد (٢١٨/٥) والترمذي (٢١٨٠) وقال حسن صحيح ،وابن أبي عاصم في " السنة " (٧٦) وابن جرير (٤٥/٩) ،وابن حبان (١٨٣٥) والطبراني في الكبير (٣٢٩٤،٣٢٩٠) ،والبغوي في تفسيره ـــ هامش الخازن (٢٨٠/٢، ٢٨١) والبيهقي في المعرفة (١٠٨/١) عن أبي واقد الليثي بسند صحيح رجاله رجال الشيخين

قـال الإمـام أبـو بكـر الطرطوشي من أئمة المالكية :" فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أوشجرة يقصدها الناس ،ويعظموها ، ويرجون البرء والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها"[١].

وقـال أبـو شامة ــ من علماء الشافعية ــ :" ومن هذا القسم أيضا ماقد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد ، وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكى له حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه ويظنون أنهم متقربون بذلك".[٢]

وقـد يُحكـى عن هذه الأماكن قصص خيالية وأساطير ، يتخيلها بعض المهوسين أويروجها الشياطين على ألسنة بعض الجاهلين كأن يقال :إن رجلا دعا عندها فاستجيب له ،أونذر لهافقضت حاجته ،أو أنه رأى في منامه أحد الصالحين يقول له هذا مكان به سر، ونحو ذلك وتنسج حولها الأقاويل وتقص الأقاصيص ،ويزاد في الحكايات على ما اخترعها عليه صاحبها ، فيتلقفها غيره فينمقها ويحسنها ويضيف إليها شيئا من العبارات المؤثرة ،أو الأشعار حتى تعظم تلك البقاع في أعين الجهال فيعظموها ويتمسحوا بها ويرتكبوا عندها المنكرات الشركية .

هـذه الأمكنة والبقاع كثيرة موجودة في أكثر البلاد ،وكما يقول السيوطي فهي بقاع لاينبغي أن يعتقد لها خصيصة كائنة ماكانت " فإن تعظيم مكان لم يعظمه الله شر مكان ،وهذه المشاهد الباطلة ، إنما وضعت مضاهاة لبيوت الله ،وتعظيما لما لم يعظمـه الله ،وعكفوا على أشياء لم تنفع و لم تضر ، وصدا للخلق عن سبيل الله ، وهي عبادته وحده لاشريك له بما شرعه على لسان رسول الله ــ ﷺ ــ ، واتخاذه عيدا هو الاجتماع عندها ، واعتياد قصدها ، فإن العيد من المعاودة"[٣].

اما إجابة الدعاء عند هذه الأماكن فقد يكون سببه اضطرار الداعي ، وقد يكون سببه أمرا قضاه الله تعالى لا لأجل الدعاء ، وقـد يكـون سببه مجرد رحمة الله تعالى، وقد يكون له أسباب أخرى ،وإن كانت فتنة في حق الداعي ، وقد كان الكفار يدعون فيستجاب لهم ، فيسقون وينصرون ويعافون مع دعائهم عند اوثانهم ، وتوسلهم بها فتنة لهم ، وقد تنطق الشياطين من داخل هذه الأوثان فترد على عابديها فتنة لهم أيضا.

قال تعالى : (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ،وماكان عطاء ربك محظورا)[٤].

٦- بدع القبور :

ذكـر السيوطي أن كثيرا من الناس قد ارتكبوا مجموعة من البدع والمحدثات المتعلقة بالقبور، منها :الصلاة عندها ،واتخاذها مساجد ،وبناء المساجد عليها.

وقال السيوطي:" وقد تواترت النصوص عن النبي ــ ﷺ ــ بالنهي عن ذلك ،والتغليظ على فاعله"[٥].

ثم أورد السيوطي مجموعة من الأحاديث التي تؤيد ماذهب إليه وهي نفس الأدلة التي يستدل بها علماء أهل السنة على تحذير الأمة من اتخاذ القبورمساجد أوالصلاة إليها أو عليها ، او البناء فوقها،من ذلك:

١- قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :" لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج"[٦]

---

(١) الأمر بالإتباع (ص٣٣) ، وانظر : تيسير العزيز الحميد (ص١٨٣).

(٢) الأمر بالاتباع (٣٦) ، وانظر تيسير العزيز الحميد (ص١٨٣) .

(٣) الأمر بالإتباع (ص٣٩)

(٤) سورة الإسراء ، الآية (٢٠)

(٥) الإمر بالإتباع (ص٤٢)

(٦) اخـرجه الترمذي(٢/١٥٦تحفة) وابن ماجه (١/٤٧٨) ،وابن حبان (٧٨٩) والبيهقي (٤/٧٨) والطيالسي (١/١٧١ترتيبه) واحمد(٢/٣٣٧) وابن عدي في الكامل (٥/١٦٩٨) ، (٦/٢٤٣٥) ، (٧/٢٥٨٦) وقال الترمذي :" حديث حسن صحيح" وإسناد هذا الحديث رجاله ثقات كلهم غير أن في عمـر بـن أبي سلمة كلاما لعل حديثه لايترل به عن مرتبة الحسن ، لكن حديثه صحيح لما له من شواهد ، انظر : الألباني : احكام الجنائز وبدعها(ص١٨٥) وانظر السيوطي : الأمر بالإتباع (ص ٤٢) .

وإذا كان النهي قد ورد عن النبي — ﷺ — عن اتخاذ المساجد على القبور ، فكذلك ورد النهي عن ايقاد المصابيح كالسرج والشمع والقناديل في هذه المشاهد ، بلا خلاف للنهي الوارد في ذلك[١] وقد سبق في الأحاديث الماضية.

والصلاة عند القبور لاتجوز وإن لم ين عليها مسجد فإن كل موضع يصلي فيه فهو مسجد وإن لم يكن هناك بناء.

٢- لقوله — صلى الله عليه وسلم — : "لاتجلسوا على القبور ولاتصلوا عليها"[٢]

٣- ولقوله — صلى الله عليه وسلم — :" اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولاتتخذوها قبورا"[٣] فدل هذا على ان القبور لايصلي فيها.

قال السيوطي:" واعلم من الفقهاء من اعتقد ان سبب الكراهة في الصلاة في المقبرة، ليس إلا لكونها مظنة النجاسة ، ونجاسة الأرض مانع من الصلاة عليها ، سواء كانت مقبرة أو لم تكن، وليس ذلك كل المقصود بالنهي ، وإنما المقصود الأكبر بالنهي إنما هومظنة اتخاذها أوثانا"[٤].

٦ — مشابهة الكفار وموافقتهم في اعيادهم ومواسمهم:

يقول السيوطي :" ومن البدع والمنكرات مشابهة الكفار وموافقتهم في اعيادهم ومواسمهم الملعونة كما يفعل كثير من جهلة المسلمين في مشاركة النصارى وموافقتهم فيما يفعلونه [٥]".

ثم ذكر السيوطي مجموعة من البدع والمنكرات التي يفعلها بعض جهال المسلمين موافقة منهم للنصارى في بدعهم فمن ذلك:

١- طائفة تجعل على أبواب بيوتهم ودورهم صور الحيات والعقارب والصلبان يزعمون أنها تطرد الهوام عنهم ،يقول السيوطي:" وإنما تطرد الملائكة" [٦]فقد صح عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال :" لاتدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولاصورة."[٧] .

٢- ومن ذلك خميس البيض، ويسميه البعض الكبير ، وسمي بخميس البيض لأن الناس فيه يلونون البيض بألوان مختلفة يلعب به الصبيان فترة ثم يأكلونه ،وهم بهذه المثابة يعتبرونه عيدا للفرح والبهجة ، يقول الشيخ على محفوظ — رحمه الله — :" فانظر مايقع من ا لناس اليوم من العناية بأعيادهم وعاداتهم — يقصد اعياد اليهود والنصارى — فهم يتركون أعمالهم من الصناعات والتجارات والإشتغال بالعلم في تلك المواسم ويتخذونها أيام فرح وراحة يوسعون فيها على أهليهم ، ويلبسون أجمل الثياب ،ويصنعون فيها البيض لأولادهم ، كما يصنع أهل الكتاب من اليهود والنصارى "[٨].

---

[١] المصدر السابق

[٢] صحيح مسلم — كتاب الجنائز ح رقم (٩٨,٩٧) وابو داوود في سننه — كتاب الجنائز ، باب : (٧٣) والترمذي — كتاب الجنائز — باب (٥٧) والنسائي في سننه ، باب (١١) عن القبلة.

[٣] صحيح البخاري (١١٨/١, ٤٤١) ، (٧٦/٢) ، وصحيح مسلم ، صلاة المسافرين (٧٧٧) انظر الفتح (٥٢٩/١)

[٤] الأمر بالإتباع (ص٤٥)

[٥] الإمر بالإتباع(ص٤٥)

[٦] الأمر بالإتباع (ص٤٥)

[٧] صحيح البخاري — رقم (٤٠٠٢) الفتح (٣١٥/٧) ، ومسلم في صحيحه ، كتاب اللباس ، باب (٢٦) رقم (٨٧,٨٦,٨٤,٨٣) والنسائي في سننه (١٨٥/٧) ،(٢١٢/٨) واحمد في المسند (٢٨/٤) ،وابن ابي شيبة في مصنفه (٤١٠/٥) ، (٢٩٠/٨) ، والطبراني في الكبير(١٤٤/٤) (٩٥/٥-٩٦).

[٨] الإبداع في مضار الإبتداع (ص٢٧٥) ،وانظر رسالة الأمر بالإتباع (ص٤٩)

وهذا من اتباع المسلمين سنن اليهود والنصارى الذي اخبر به النبي — صلى الله عليه وسلم — بقوله :" لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قلنا :يارسول الله ،اليهود والنصارى؟ قال : فمن ؟"[١].

٣- ومن ذلك " مايفعله النساء من اخذ ورق الزيتون والإغتسال بمائه ، أو قصد الإغتسال في الحمام في يوم السبت الذي يسمونه "سبت النور"، أو الإنغماس في ماء فإن أصل ذلك ماء المعمودية"[٢]يقول السيوطي : "كل ذلك منكر وبدعة وهو شعار النصارى "[٣].

وعلى ا لعموم فكل عادة أو عيد من أعياد النصارى أو اليهود أو غيرهم من ملل الكفر ، او مناسبة تخصهم ، او احتفال يفعلونه يحرم على كل مسلم مشاركتهم فيه ، لأن أديانهم باطلة ، وأعمالهم في ضلال وتباب ، ومشاركة المسلم لهم في باطلهم اقرار منه لهذا الباطل ، ورضي بالمنكر ، ومخالفة لأمر الرسول — ﷺ — بمخالفتهم فمشاركتهم مشابهة لهم في ظاهرأعمالهم ، وهذا التشابه في الظاهر قد يورث محبتهم في الباطن ، ومحب الكافرين والضالين والمغضوب عليهم على خطر عظيم ، فقد قال النبي — صلى الله عليه وسلم — :" المرء مع من أحب"[٤].

لذلك يقول السيوطي :" فموافقتهم في أعيادهم من أسباب سخط الله تعالى لأنه إما محدث ، وإما منسوخ ، والمسلم لايقر على واحد منهما ، وكما لايحل التشبه بهم في أعيادهم فلا يعان المسلم المتشبه بهم في ذلك ، بل ينهى عنه ، كما لايحل بيع العنب لمن يعصرها خمرا...واعلم أن مخالفتهم امر مقصود للشارع ، لأن الكفر بمنزلة مرض القلب وأشد، ومتى كان القلب مريضا لم يصح من الأعضاء شئ ، وإنما الصلاح أن لايشبه القلب في شئ من أمور الكافر لأنها كلها إما فاسدة أو ناقصة"[٥].

ولقد مدح الله تعالى من لم يشهد أعياد هؤلاء الكافرين فقال جل وعلا : (والذين لايشهدون الزور ....) [٦]قال أبو العالية ، وطاوس ومحمد بن سيرين ، والضحاك ،والربيع بن أنس ،ومجاهد : هي أعياد المشركين [٧]

ونقله القرطبي عن ابن عباس —رضي الله عنهما — [٨]

وقال ابن سيرين : هو الشعانين [٩] يؤيد هذا ماثبت عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال "...من تشبه بقوم فهو منهم" [١٠]

---

(١) صحيح البخاري — رقم (٧٣٢٠) ، الفتح (١٣/٣٠٠) ، صحيح مسلم كتاب العلم رقم (٦) ، أحمد في المسند (٣/٩٤،٨٩،٨٤)

(٢) الإمر بالاتباع (ص٤٩) والمعمودية :أحد الطقوس الخاصة بالنصارى

(٣) الأمر بالاتباع (ص٤٩)

(٤) صحيح البخاري — رقم (٦١٦٨) الفتح (١٠/٥٥٧) ، ورقم (٦١٦٩) ،(٦١٧٠) أيضا ومسلم في صحيحه ،كتاب البر ، رقم (١٦٥) والترمذي — كتاب الزهد ، باب (٥٠) ، كتاب الدعوات ، باب (٩٨) والدارمي — كتاب الرقاق ، باب (٧١) ،واحمد (١/٣٩٢) ،(٣/١٠٤،١١٠،١٥٩،١٦٥،١٦٧)

(٥) الأمر بالإتباع (ص٥٢)

(٦) سورة الفرقان ، بعض الآية (٧٢)

(٧) انظر : الأمر بالاتباع (٥٣) تفسر ابن كثير (٦/١٤٠) ، والأثر اخرجه ابو بكر الخلال في "جامعة " وأبو الشيخ في " شروط اهل الذمة " قال ابن تيمية في" منظار اقتضاء الصراط المستقيم) (ص١٨١).

(٨) الجامع لأحكام القرآن (١٣/٥٤) ، والأثر أخرجه ابو بكر الخلال في " جامعة " كما في اقتضاء الصراط المستقيم ص(١٨١)

(٩) انظر :السيوطي : ا لأمر بالاتباع (ص٥٣) والشعانين : أحد أعياد النصارى .

(١٠) اخرجه احمد في المسند (٢/٥٠،٩٢) وسنده حسن ، وجود اسناده ابن تيمية في " اقتضاء الصراط المستقيم " (٣٩) وصححه الحافظ العراقي في تخريج الإحياء ، وحسنه ابن حجر في الفتح (٦/٩٨) وانظر (١٠/٢٧٤) وابو داوود رقم (٤٠٣١) وعلق البخاري طرفا منه في صحيحه (٦/٩٨ الفتح) وله شاهد مرسل حسن الإسناد ، اخرجه ابن ابي شيبة من طريق الأوزاعي ، عن سعيد بن جبلة عن النبي صلى الله عليه وسلم (المصنف ٥ /٢١٣،٣٢٢) واورده الهيثمي في "المجمع " (١٠/٢٧١) وعزاه للطبراني في الأوسط وقال : " فيه علي بن غراب ، وقد وثقه غير واحد ،وضعفه

ففي هذا الحديث دليل تحريم التشبه بالكافرين ، مع ماورد من الأمر بالمخالفة — كما في قوله — ﷺ — "خالفوا المشركين ،ووفروا اللحي، واحفوا الشوارب"[١] وقال — صلى الله عليه وسلم — "خالفوا المجوس"[٢]

ولما علم السلف الصالح هذه النصوص التي تنهي عن مشابهة أحد من جميع أهل ملل الكفر ، أو مشاركتهم في شئ من ذلك ، لم يكن على عهدهم من يفعل هذه المشابهةأو هذه المشاركة.

فعلى المؤمن ان يسلك سبيلهم ، وان يقتفي آثار النبي — ﷺ — ، وأن يتمسك بطريق الهدى ولو قل السالكون ، وان يجتنب طريق الردى ولو كثر الهالكون.

القسم الثاني

مايظنه معظم الناس عبادات

يقول السيوطي " وأما القسم الثاني مايظنه الناس طاعة وقربة ،وهو بخلاف ذلك ،أو تركه أفضل من فعله ،وهوما قد آمر به الشارع في صورة من الصور ، من زمان مخصوص ، أو مكان معين ،كالصوم بالنهار ،والطواف بالكعبة أو أمر به شخصا دون شخص ، كالذي اختص به النبي — ﷺ — في المباحات والتخفيضات ، فيقيس الجاهل نفسه عليه ، فيفعله وهومنهي عن فعله ، أو يقيس الصور بعضها على بعض بسبب الحرص على الإكثار من إيقاع العبادات ،والقرب والطاعات ، فيحملهم الحرص على فعلها في أوقات وأماكن نهاهم الشرع عن اتخاذ تلك الطاعات فيها ، ومنها ماهو محرم ، ومنها ماهو مكروه ،ويورطهم الجهل وتزيين الشيطان بأن يقولوا: هذه طاعات وقرب قد ثبت في غير هذه الأوقات فعلها ، نحن نفعلها أبدا"[٣] ثم أورد السيوطي أمثلة على ماذكر فمن ذلك:

١- الصلاة في الأوقات المنهي عنها :

وهي بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس ،وبعد طلوعها حتى ترتفع قدر رمح ،وعند استوائها حتى تزول ، وبعد العصر حتى تغرب الشمس "[٤].

والأدلة على ماقاله السيوطي مايلي :

أ — عن عقبة بن عامر الجهني — رضي الله عنه — قال :" ثلاث ساعات كان رسول الله — ﷺ — ينهانا أن نصلي فيها،وأن نقبر فيها موتانا : حين تطلع الشمس بازغة حتى ترتفع ،وحين يقوم قائم الظهيرة حتى تسيل ،وحين تضيف الشمس للغروب "[٥] .

ب — عن أبي هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — نهى عن الصلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس ، وعن الصلاة بعد الصبح حتى تطلع الشمس "[١].

بعضهم ، وبقية رجاله ثقات" وانظر تفسير ابن كثير (٨/٥٣) واتحاف السادة المتقين للزبيدي (٦/١٢٨) ، (٩/٣٥٦) والهندي : كنز العمال رقم (٢٤٦٨٠).

[١] صحيح البخاري رقم (٥٨٩٣) الفتح (١٠/٣٤٩) ، وصحيح مسلم (١/٢٢٢) رقم (٥٤) من كتاب الطهارة ،والبيهقي في السنن الكبرى (١/ ١٥٠) ،وكنز العمال (١٧٢٢٤).

[٢] اخرجه احمد في المسند (٢/٣٦٦) ،ومسلم في صحيحه (١/٢٢٢) رقم (٥٥) من كتاب الطهارة

[٣] الإمر بالاتباع (ص ٥٥)

[٤] المصدر السابق ، ذهب مالك إلى أن الأوقات المنهي عنها أربعة : الطلوع والغروب وبعد الصبح وبعد العصر ،أجاز الصلاة عند الزوال ، وذهب الشافعي إلى أن هذه الأوقات الخمسة كلها منهي عنها ، والسيوطي في ذلك تابع لإمامه الشافعي ، إلا الزوال يوم الجمعة ، ،واستثنى قوم من ذلك الصلاة بعد العصر : انظر : بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١/١٩٨)

[٥] صحيح مسلم — كتاب صلاة المسافرين رقم (٢٩٣) وسنن ابي داوود — كتاب الجنائز، باب (٥١) وسنن الترمذي — كتاب الجنائز ،باب (٤١) وسنن النسائي — كتاب المواقيت — باب (٣٤،٣١) ،وفي الجنائز باب ((٨٩) وابن ماجه — كتاب الجنائز باب (٣٠) والدارمي كتاب الصلاة باب (١٤٢) ،واحمد في المسند (٤/١٥٢)

فهـذان الحديـثان جمعا تلك الأوقات الخمسة التي ذكرها السيوطي وقد أجاز بعض الفقهاء الصلاة بعد العصرلما صح عن عائشـة ـــ رضـي الله عنهاـــ قالت :"ماترك رسول الله ـــ ﷺ ـــ صلاتين في بيتي قط سرا ولا علانية ركعتين قبل الفجر ،وركعتين بعد العصر "[٢].

فمن رجح حديث أبي هريرة قال بالمنع ، ومن رجح حديث عائشة او رآه ناسخا لأنه العمل الذي مات عليه ـــ رسول الله ـــ ﷺـــ قـال بـالجواز ، غير انه قد صح من حديث أم سلمة ـــرضي الله عنها ـــ انها رأت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يصلي ركعـتين بعـد العصر فسألته عن ذلك فقال : " إنه اتاني ناس من عبد القيس فشغلوني عن الركعتين اللتين بعد الظهر وهما هاتان " [٣].

والمقصود أن كلام السيوطي ـــ رحمه الله ـــ في على موافق للأدلة الصحيحة ، ومن خالف هذه الأدلة وفعل على خلاف مقتضاها فهومبتدع[٤].

٢- الصوم في الأيام المنهي عنها :

" كـالعيدين وأيام التشريق وكوصالهم في الصيام الذي هو من خصائص النبي ـــ ﷺـــ وقد اشتد نكيره على فعل ذلك ، فهؤلاء وأمثالهم متقربون إلى الله بما لم يشرعه الله بل نهي عنه"[٥]

فليس لمن ألهم شيئا من الخيرات ان يعمل به حتى يسمعه من الأثر ،فإذا سمعه من الأثر عمل به ، وحمد الله تعالى حين وافق مافي قلبه [٦].

أ ـــ قال ـــ ﷺ ـــ :" إني لست كأحدكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني" [٧] وهذا في النهي عن صوم الوصال

ب ـــ وعن كعب بن مالك عن أبيه أنه حدثه أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ بعثه و أوس بن الحدثان أيام التشريق فنادى : " أنه لايدخل الجنة إلا مؤمن ،وايام منى أيام آكل وشرب " [٨] .

ج ـــ وعـن أبي هريـرة ـــ ﷺـــ قال :قال رسول ـــ ﷺ ـــ :" لاتخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولاتخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون صوما يصومه أحدكم "[٩]

---

[١] صـحيح البخاري ـــ كتاب المواقيت ـــ باب (٣١,٣٠) صحيح مسلم ـــ كتاب صلاة المسافرين رقم (٢٨٥-٢٨٦) وابوداود في سننه كتاب التطوع (١٠) وسنن الترمذي ـــ مواقيت (٢٠,١٨).

[٢] صحيح البخاري ـــ كتاب المواقيت ، باب (٣٣)، وسنن النسائي ـــ كتاب المواقيت ،باب(٣٦) ،واحمد في المسند (١٥٩/٦)

[٣] صحيح البخاري ـــ كتاب السهو ، باب (٨) ومسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين رقم (٢٨٦,٢٨٥) وابو داوود في سننه كتاب التطوع باب (١٠) والترمذي في سننه ،كتاب المواقيت ، باب (٢١,٢٠,١٨) .

[٤] اختلف العلماء في الصلاة التي لاتجوز في هذه الأوقات ، فذهب ابوحنيفة واصحابه إلى انها لاتجوز في هذه الأوقات صلاة بإطلاق لافريضة مقضية ، ولا سـنة ولا نافـلة إلا عصـر يومه ، قالوا : فإنه يجوز ان يقضيه عند غروب الشمس إذا نسيه ،واتفق مالك والشافعي انه يقضي الصلوات المفروضة في هذه الأوقات ، وذهب الشافعي إلى ان الصلوات التي لاتجوز في هذه الأوقات هي النوافل فقط التي تفعل لغير سبب ، اما ماكان لها سبب كركعتي المسجد وركعتي الطواف ، فيجوز فعلها ، ولايجيز مالك فعل ذلك ، بداية المجتهد (٢٠٠/١).

[٥] الأمر بالإتباع (ص ٥٦)

[٦] المصدر السابق

[٧] صحيح البخاري ـــ كتاب الصوم ،باب (٥٠,٤٩) والحدود باب (٤٢) والإعتصام ، باب (٥) وصحيح مسلم ،كتاب الصوم ، ح رقم (٥٧-٦١) والترمذي ـــ كتاب الصوم ، باب (٦١) والدارمي ـــ كتاب الصوم ، باب (١٤) واحمد في المسند (٢٣١,٢٣/٢) (١٧٠,١٢٤/٣) ، (٣١٥,٣١٤/٤) ، (٣٦٤/٥) (١٢٦/٦)

[٨] صحيح مسلم (٨٠٠/٢) كتاب اصيام ، باب (٢٣) ح رقم (١٤٥) سنن ابي داوود ـــ كتاب الأضاحي ، باب (١) ،وسنن الترمذي ـــ كتاب الصوم ،باب (٨٥) وسنن النسائي ، كتاب المناسك ، باب (١٩٥) وابن ماجه ـــ كتاب الصيام ، باب (٣٥) واحمد في المسند (١٥٢/٤) ، (٥/ ٢٢٤,٧٦,٧٥) .

[٩] صحيح مسلم(٨٠١/٢) كتاب الصيام ، باب (٢٤) ح رقم (١٤٨) ، والحاكم في المستدرك (٣١١/١) ، وابن خزيمة في صحيحه رقم (١١٧٦)

د — وعنه — ﷺ — أيضا قال : قال رسول الله — ﷺ — "لايتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين ، إلا أن يكون رجل كان يصوم صومه فليصم ذلك اليوم "[١]

٣- بدعة صلاة الرغائب :

هذه الصلاة يصليها المبتدعة في أول ليلة جمعة من شهر رجب ،وتعظيم هذا اليوم وهذه الليلة إنما أحدث في الإسلام بعد المائة الرابعة ، وروى فيها حديث موضوع باتفاق العلماء [٢].

قال الإمام أبو الفرج ابن رجب — رحمه الله —:" فأما الصلاة فلم يصح في شهر رجب صلاة مخصوصة تختص به ، والأحاديث المروية في فضل صلاة الرغائب في أول ليلة جمعة من رجب كذب وباطل لاتصح ، وهذه الصلاة بدعة عند جمهور العلماء ، وممن ذكر ذلك من أعيان العلماء المتاخرين من الحفاظ أبو إسماعيل الأنصاري،وأبو بكر السمعاني ،وأبو الفضل بن ناصر، وأبو الفرج بن الجوزي ،وغيرهم ،وإنما لم يذكرها المتقدمون لأنها أحدثت بعدهم ،أول ماظهرت بعد الأربعمائة فلذلك لم يعرفها المتقدمون و لم يتكلموا فيها "[٣].

وقال السيوطي : " والذي عليه المحققون من أهل العلم : النهي عن إفراد هذا اليوم بالصوم ، وعن قيام هذه الليلة بهذه الصلاة المحدثة ، وعن كل مافيه تعظيم لهذا اليوم من صنع الأطعمة وإظهار الزينة وغير ذلك ، حتى يكون هذا اليوم بمنزلة غيره من الأيام ،وكذلك يوم آخر في وسط رجب تصلي فيه صلاة تسمى "صلاة أم داود " فإن ذلك أيضا لا أصل له "[٤]

وقال أبو عمرو بن الصلاح :" أما الصلاة المعروفة في ليلة الرغائب فهي بدعة ، وحديثها المروي موضوع ،وما حدث إلابعد أربعمائة سنة من الهجرة ، وليست ليلتها تفضل على أشباهها من ليالي الجمع "[٥]

٤- الابتداع في ليلة النصف من شعبان :

يقول السيوطي :" وأما ليلة النصف من شعبان فلها فضل ، وإحياؤها بالعبادة مستحب ، ولكن على الإنفراد ومن غير جماعة ، واتخاذ الناس لها ولليلة الرغائب موسما وشعارا : بدعة مكروهة ،وما يزيد فيها على الحاجة والعادة من الوقيد ونحوه ، فغير موافق للشريعة "[٦].

وقد ورد في فضل ليلة النصف من شعبان قوله — صلى الله عليه وسلم — : "إن الله ليطلع ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه ، إلا لمشرك أومشاحن [٧]".[٨]

وقال — ﷺ — :" إن الله ليطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان ، فيغفر لعباده ، إلااثنين: مشاحن أو قاتل نفس "[٩] .

ومن حديث عثمان بن أبي العاص مرفوعا :" إذا كان ليلة النصف من شعبان نادى منادى :هل من مستغفر فأغفرله ؟ هل من سائل فأعطيه؟ فلا يسأل أحد شيئا إلا أعطيه إلا زانية بفرجها ، أو مشركا"[١].

---

[١] صحيح البخاري رقم (١٩١٤) كتاب الصوم باب (١٤) فتح الباري (١٢٧/٤-١٢٨) واللفظ له ،وصحيح مسلم (٦٧٢/٢) كتاب الصيام باب (٣) فتح الباري رقم (٢١) ،والبيهقي في السنن الكبرى (٢٠٧/٤)

[٢] انظر :السيوطي :الأمر بالإتباع (ص٦٠)

[٣] لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف (ص٢٢٨) ت ياسين محمد السواسي

[٤] الأمر بالإتباع (ص ٦٠-٦١)

[٥] المصدر السابق (ص٦٠-٦١)

[٦] الأمر بالإتباع (ص٦١)

[٧] الشحناء : الحقد ، والشحناء العداوة ، والمشاحن في الحديث المعادي ، قال الأوزاعي : أراد بالمشاحن هاهنا صاحب البدعة والمفارق لجماعة الأمة . لسان العرب (٢٣٤ — ٢٣٥) ، وابن رجب : اللطائف (ص ٢٦٦)

[٨] سنن ابن ماجه رقم (١٣٩٠) في اقامة الصلاة ، باب ماجاء في ليلة النصف من شعبان ، واورده الألباني في صحيح ابن ماجه (٢٢٣/١)

[٩] مسند الإمام احمد (١٧٦/٢) واسناده صحيح ، ذكره الهيثمي في "مجمع الزوائد " (٦٥/٨) وقال :" رواه احمد وفيه ابن لهيعة وهو لين الحديث ، وبقية رجاله وثقوا" واورده المنذري " في " الترغيب والترهيب " (١١٩/٢) ، (٤٦٠/٣)

وهذا يؤيد قول السيوطي بأن لها فضلا ، قال ابن رجب :" وفي الباب أحاديث اخر فيها ضعف "[٢] .

وقـــال ايضا : " فأما صيام يوم النصف منه فغير منهي عنه ،فإنه من جملة أيام البيض الغر ،المندوب إلىصيامها من كل شهر "[٣].

وقال ابن رجب أيضا :" وليلة النصف من شعبان كان التابعون من آهل الشام كخالد بن معدان[٤] ومكحول[٥] ولقمان بن عامر [٦]وغيرهم يعظمونها ويجتهدون فيها في العبادة ،وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها ،وقد قيل : إنه بلغهم في ذلك آثار إســـرائيلية ،فلما اشتهر ذلك عنهم في البلدان اختلف الناس في ذلك ، فمنهم من قبله منهم ووافقهم على تعظيمها ، منهم طائفـــة مـــن عـــباد آهل البصرة وغيرهم ،وأنكر ذلك أكثر العلماء من أهل الحجاز منهم عطاء وابن أبي مليكة ، ونقله عبدالرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة ،وهو قول أصحاب مالك وغيرهم ،وقالوا: ذلك كله بدعة"[٧].

وهكـــذا حصل الخلاف في ليلة النصف من شعبان من زمن التابعين ــ رضي الله عنهم ــ أما كون التابعين من أهل الشام يعتمدون في تعظيمهم لليلة النصف من شعبان على أخبار إسرائيلية ، فليس ذلك بحجة في الدين،وإنما الحجة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجماع الأمة ــ كما هو معلوم ــلدى كافة العلماء والفقهاء،وإنني لأرى ان الصواب ــ إن شاء الله ــ مع جمهـــور العلماء الذين أنكروا ذلك من آهل الحجاز أهل المدينة و أصحاب مالك ــ رحمهم الله جميعا ــ لأنه لادليل على هذه العبادة المختصة بهذه الليلة على ماذكر ، وبناء على ذلك فتخصيصها بعبادة من غير دليل مما يدخل في عداد البدع ، التي ينبغي اجتنابها والتحذير منها ، فإذا وافقها العبد ،وكان من عادته قيام الليل ، فقامها بالصلاة والدعاء كبقية الليالي فلا ضير، وإن حصلت الصلاة جماعة خاصة اتفاقا من غير قصد فهذا أيضا لاينهى عنه ، أما إذا قصد الإجتماع العام كالإجتماع على التراويح في رمضان وتخصيصها بعدد معين من الركعات فهذا هو البدعة ،ولذلك قال ابن رجب ــ رحمه الله ــ :" واختلف علماء أهل الشام في صفة إحيائها على قولين :

أحدهما :انـــه يستحب احياؤها جماعة في المساجد ، كان خالد بن معدان ،ولقمان بن عامر وغيرهما يلبسون فيها احسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون في المسجد ليلتهم تلك ،ووافقهم إسحاق بن راهوية على ذلك وقال قيامها في المسجد جماعة:ليست ببدعة...

والثاني :انـــه يكره الاجتماع فيها في المساجد للصلاة والقصص والدعاء ، ولا يكره أن يصلي الرجل فيها بخاصة نفسه ،وهذا قول الأوزاعي إمام آهل الشام وفقيههم وعالمهم ، وهذا هوالأقرب إن شاء الله تعالى "[٨] .

---

(١)كـــنز العمال رقم (٣٥١٧٨) وعزاه إلى البيهقي في" شعب الإيمان " (٣/٣٨٣) ،من روايه الحسن عن عثمان بن ابي العاص ،وقد اختلف في سماع الحسن منه .

(٢)لطائف المعارف (ص٢٦٢)

(٣)المصدر السابق (ص٢٦١)

(٤)خـــالد بـــن معدان بن ابي كرب الكلاعي، ابو عبدالله ، تابعي ثقة ، ممن اشتهروا بالعبادة ،اصله من اليمن ، واقامته في حمص (بالشام)شيخ اهل الشام ،وهو معدود في ائمة الفقه ،روى له الجماعة ،(ت ١٠٣هـ،وقيل بعد ذلك ــ طبقات ابن سعد (٧/٤٥٥) حلية الأولياء (٥/٢١٠) ، سير اعلام النبلاء (٤/٥٣٦) تهذيب الكمال (٨/١٦٧)

(٥)مكحول بن ابي مسلم ، ابو عبدالله، الهذلي بالولاء ، عالم اهل الشام في عصره ، من حفاظ الحديث ، اصله من كابل ، واستقر بدمشق (ت نحو ١١٢هــ) حلية الأولياء (٥/١٧٧) ، تذكرة الحفاظ(١٠٧)

(٦)لقمان بن عامر الوصابي ، ابوعامر الحمصي ،روى عن ابي الدرداء وابي هريرة وجماعة ، صدوق ،ذكره ابن حبان في الثقات ــ تهذيب التهذيب (٨/٤٥٥)

(٧)لطائف المعارف (ص٢٦٣)

(٨)لطائف المعارف(ص٢٦٣) ، وانظر علي محفوظ : الإبداع (ص٢٨٦)

وقـال ابـن تيميه :" إذا صلى الإنسان ليلة النصف وحده ، أوفي جماعة خاصة ، كما كان يفعله طوائف من السلف فهو أحسن ،و أما الإجتماع في المساجد على صلاة مقدرة ،كالإجتماع مائة ركعة ، بقراءة ألف : (قل هو الله احد) دائما فهذا بدعة ، لم يستحبها احد من الإئمة "[١]

فـإذا اجتمع الناس على صلاة كهذه التي ذكرها ابن تيمية او أي صلاة أخرى مخترعة أو دعاء يحتوي على الغلو أو الشرك فهذا كله بدعة كما قال الأوزاعي وعطاء وابن بي مليكة واهل الحجاز واهل المدينة ،وابن تيمية وابن رجب والسيوطي .

وأصـل هـذه الصلاة المبتدعة التي يفعلها بعض الجهال في ليلة النصف من شعبان ماذكره أبو حامد الغزالي في "الإحياء " وابوطالب المكي " في قوت القلوب"وقد ذكرا فيها حديثا قد صرح الحفاظ بوضعه،قال الحافظ ابن الجزري :" وأما صلاة الرغائب أول خميس من رجب وصلاة ليلة النصف من شعبان وصلاة ليلة القدر من رمضان فلا تصح وسندها موضوع باطل "[٢] وقال الحافظ العراقي :" حديث ليلة النصف موضوع على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكذب عليه :[٣] ، وقـال الإمـام النووي :" الصلاة العروفة بصلاة الرغائب ، وهي اثنتي عشرة ركعة بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة من رجـب وصـلاة ليلة النصف من شعبان مائة ركعة ، هاتان الصلاتان بدعتان منكرتان ،ولايغتر بذكرهما في كتاب قوت القلوب وإحياء علوم الدين ، ولا بالحديث المذكور فيهما فإن كل ذلك باطل ولا يغتر ببعض من اشتبه عليه حكمهما من الائمـة فصـنف ورقـات في استحبابهما فإنه غالط في ذلك ، وقد صنف الشيخ الإمام ابو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي كتابا نفيسا في ابطالهما فأحسن فيه واجاد "[٤] .

وقال العلامة أبو شامة :" ومما أحدثه المبتدعون وخرجوا به عما رسمه الدين، وجروا فيه على سنن المجوس ، واتخذوا دينهم لهوا ولعبا الوقود ليلة النصف من شعبان ،و لم يصح فيه شئ عن رسول الله ــ ﷺ ــ ،ولانطق بالصلاة فيها ، والإيقاد فيها ذو صـدق مـن الـرواة ،وما أحدثة إلا متلاعب بالشريعة المحمدية ،وراغب في دين المجوسية ، لأن النار معبودهم ،وأول ماحدث ذلك في زمن البرامكة فدخلوا في دين الإسلام يموهون به على الطغام وهو جعلهم الإيقاد في ليلة النصف من شعبان كأنه سنة من السنن ومقصودهم عبادة النيران وإقامة دينهم ،وهو أخس الأديان ، حتى إذا صلى المسلمون فركعوا وسجدوا كان ذلك إلىالنار التي أوقدوها ، ومضت علي ذلك السنون والأعصار ،وتبعت فيه بغداد سائر الأمصار"[٥] .

ومن هذا يتبين أن كل مايفعله أهل البدع في تلك الليلة إنما هو بدع محدثة لا تزيد صاحبها من الله إلا بعدا ،ومن الإسلام إلا هدما ،نسال الله لنا وللمسلمين الهداية والتوفيق .

٥- قراءة سورة الأنعام في ركعة من صلاة التراويح :

يقول السيوطي :" ومن البدع قراءة سورة الأنعام في ركعة في صلاة التراويح"[٦].

واهل البدع إنما يفعلون ذلك لإعتقادهم انها قربة إلى الله تعالى ،ويستندون في ذلك إلى حديث لايصح ،وهوماروى أنه ــ ﷺ ــ قال :" أنزلت سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك بالتسبيح والتحميد"[٧].

وهـذا الحديث لوصح لما كان فيه لهؤلاء مستند ولادليل على استحباب قراءتها في ركعة من صلاة التراويح ،ويتبين بدعية هذه القراءة من وجوه :

---

[١] مجموع الفتاوى (١٣١/٢٣)

[٢] نقلا عن الإبداع في مضار الإبتداع للشيخ على محفوظ (ص٢٨٧-٢٨٨)

[٣] المصدر السابق

[٤] نقلا عن الإبداع في مضار الإبتداع للشيخ علىمحفوظ (ص ٢٨٧-٢٨٨)

[٥] الإمر بالإتباع (ص٦٤-٦٥) وانظر على محفوظ :الإبداع (ص ٢٨٩)

[٦] الامر بالاتباع (ص٧١)

[٧] قـال السيوطي في " الأمر بالإتباع " : " هذا الحديث اسناده ضعيف مظلم " واورده في الدر المنثور "(٢٤٣/٧) من حديث ابن عباس وعزاه لابن الضريس ،ومن حديث ابي بن كعب وعزاه لأبي الشيخ (٢٤٤/٧) ، و لم يعلق عليه

١- تخصيص ذلك بسورة الأنعام دون غيرها ، مما يوهم أن ذلك سنة فيه دون غيرها من السور والأمر خلاف ذلك .

٢- تخصيص صلاة التراويح دون غيرها ،وفيه نفس المأخذ الأول على تخصص السورة.

٣- مافيه من التطول على المؤمنين ،ومخالفة أمر النبي — ﷺ— بالتخفيف على الجماعة،وقد يقلق بعض الناس ويضجر ويسخط ويكره العبادة

٤- مافيـــه من مخالفة السنة من تقليل القراءة في الركعة الثانية عن الأولى وقد عكس صاحب هذه البدعة ماجاءت به السنة وخالف المشروع [١]

٦ .التبتل وترك النكاح :

قال السيوطي :"ومن الأمور المبتدعة : الإنفراد ،وترك النكاح رغبة عنه ،وذما له"[٢]

وهو الذي ترجم له الإمام البخاري بقوله :" باب مايكره من التبتل والخصاء"[٣] .

والتبـــتل : هـــو الانقطاع عن النكاح وما يتبعه من الملاذ إلى العبادة وهذا مكروه ، ومعدود في عداد البدع المذمومة ، أما المـــأمور به في قوله تعالى : (وتبتل إليه تبتيلا) [٤] فقد فسره مجاهد وغيره فقال : اخلص له إخلاصا ، وهذا تفسير معنى ،وإلا فأصـــل التبتل الانقطاع إلى الله إنما تقع بإخلاص العبادة له فسرها بذلك ، منه : (صدقة بتله) أي :منقطعة عن الملك ،ومريم البتول لانقطاعها عن التزويج إلىالعبادة ،وقيل لفاطمة : البتول لانقطاعها عن الأزواج غير علي ، أو لانقطاعها عن نظرائها في الحسن والشرف[٥]

ويـــدل عـــلى كراهة التبتل قول سعد بن ابي وقاص : رد رسول الله — ﷺ — على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لاختصينا"[٦]

وقـــول أنـــس — ﷺ — : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي — ﷺ — يسألون عن عبادة النبي — ﷺ — فلما اخبروا كأهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، قال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتـــتزوج أبدا فجاء رسول الله — ﷺ — فقال: " انتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ آما والله إني لأخشاكم لله واتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد ، أتتزوج النساء ،فمن رغب عن سنتي فليس مني "[٧]

ولذلـــك قســـم بعض العلماء النكاح إلى الأحكام الخمسة ، فجعل لكل صنف من الناس مايخصه من حكم في أمر النكاح كالوجوب والتحريم والكراهة والإستحباب والإباحة .

قال المازري :"فالوجوب في حق من لايكف عن الزنا إلآ به .

— والتحريم في حق من يخل بالزوجة في الوطء والإنفاق مع عدم قدرته عليه وتوقانه إليه

— والكـــراهة : في حق مثل هذاحيث لا إضراربالزوجة ،فإن انقطع بذلك عن شئ من أفعال الطاعة من عبادة او اشتغال بالعلم اشتدت الكراهة ، وقيل: الكراهة فيما إذا كان ذلك الرجل في حال العزوبة أجمع منه في حال التزويج.

— والإستحباب : فيما إذا حصل به معنى مقصودا من كسر شهوة وإعفاف نفس ، وتحصين فرج ونحو ذلك .

---

[١] انظر :الأمر بالإتباع (ص ٧١)

[٢] الأمر بالاتباع (٧٨)

[٣] صحيح البخاري — كتاب ا لنكاح ، باب (٨) الفتح (١١٧/٩)

[٤] سورة المزمل ، بعض الآية (٨)

[٥] فتح الباري (١١٨/٩)

[٦] صحيح البخاري رقم (٥٠٧٣) (٥٠٧٤) الفتح (١١٧/٩) واحمد في المسند (٣٧٨/٣، ٣٨٣) ومسلم (١٠٢٠/٢) ح رقم (١٤٠٢)

[٧] صحيح البخاري — رقم (٥٠٦٣) فتح الباري (١٠٤/٩) واللفظ له ،وصحيح مسلم (١٠٢٠/٢) ح رقم (١٤٠١) والنسائي — كتاب النكاح ، باب (٤,١٠,١٦,٢٨,٢٩,٣٧,٤٣) احمد في المسند (٢٤١/٣)

ــ والإباحــة : فيما انتفت الدواعي والموانع ، ومنهم من استمر بدعوى الاستحباب ، فيمن هذه صفته للظواهر الواردة في الترغيب فيه "[١]

وقال عياض : " هو مندوب في حق كل من يرجى منه النسل ولو لم يكن له في الوطء شهوة ،لقوله ــ ﷺ ــ : فإني مكاثر بكم "[٢] ولظواهر الحض على النكاح والأمر به ، وكذا في حق من له رغبة في نوع من الاستمتاع بالنساء غير الوطء ،فأما من لاينسل ولا ارب له في النساء ولافي الاستمتاع فهذا مباح في حقه إذا علمت المرأة بذلك ورضيت "[٣]

وقـــال السيوطي :" اعلم ــ رحمك الله ــ أن النكاح مع خوف العنت واجب ، ومن غير خوف العنت سنة ، عند جمهور العلماء ،ومذهب أبي حنيفة والإمام احمد ــ رضي الله عنهما ــ أنه أفضل من جميع النوافل ، لأنه سبب وجود الولد"[٤].

ثم أورد الســـيوطي مجموعة من الأحاديث والآثار التي تحث على النكاح والترغيب فيه من ذلك مع مامضى من الأحاديث :قوله ــ ﷺ ــ "تناحكوا تناسلوا"[٥].

وقوله ــ ﷺ :" دينار انفقته في سبيل الله ،ودينار انفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار انفقته على اهلك ، أعظمها اجرا الذي انفقته على أهلك "[٦] .

يقول السيوطي :" فإن قيل :النكاح يوجب الميل إلى الدنيا ، قلنا: هذا خلاف الشريعة ،فإن النبي ــ ﷺ ــ إمام الزاهدين ، كان أكثر هذه الأمة نساء .. فأما تركه ليقال : زاهد ، والعوام يعظمون هذا ، فيقولون :ماعرف امرأة قط ، فهذه رهبانية تخالف الشريعة .

وقـــال بعضهم : ينبغي أن لايشغل المرء قلبه بالتزويج ،فإنه يشغله عن الله فيرى هذا أن الأنس الطبعي بالزوجة ينافي انس القـــلوب بطاعـــة الله ، وليس هذا كذلك والله سبحانه وتعالى قد من على الخلق بقوله : (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) [٧]وفي الحديث الصحيح عن جابر ــ رضي الله عنه ــ أن النبي ــ ﷺ ــ قال :" هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك " [٨] أي : هلا تزوجت بكرا، لما اخبره انه تزوج ثيبا ،وماكان يدله على مايقطع أنسه بالله ... لأنه لما كان مراد الله تعالى من إيجاد الخلق اتصال دوامها إلى ان ينقضي اجلها ، حث تعالى الآدمي على ذلك ،تارة من حيث الطـــبع بإيقاد نار الشهوة وتارة من باب الشرع بقوله : (وانكحوا الأيامى منكم) [٩] وقد طلب الأنبياء الأولاد وتسبب الصالحون إلى وجودهم ، ورب جماع حدث منه ولد صالح كالشافعي ،واحمد كان خيرا من عبادة ألف سنة "[١٠]

---

[١] فتح الباري (١١١/٩) وانظر : ابن قدامة :المغني والشرح الكبير (٣٣٤/٧)

[٢] يقول ابن حجر : صح من حديث انس بلفظ "تزوجوا الودود الولود فإن مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" أخرجه ابن حبان وذكره الشافعي بلاغا عـــن ابن عمر بلفظ "تناحكوا تكاثورا فإني اباهي بكم الأمم" والبيهقي من حديث ابي امامة...ومن حديث الصنابحي وابن الأعسر ، ومعقل بن يسار ،وسهل بن حنيف ،وحرملة بن النعمان ، وعائشة وعياض بن غنم ومعاوية بن حيدة وغيرهم " فتح الباري (١١١/٩)

[٣] الفتح (١١١/٩)

[٤] الإمر بالإتباع (ص٧٨)

[٥] سبق تخريجه في حاشية (٢)

[٦] صحيح مسلم ــ كتاب الزكاة ،باب (١٢) برقم (٣٩) واحمد في "المسند" (٤٧٣/٢)

[٧] سورة الروم ،بعض الآية (٢١)

[٨] صــحيح البخاري (٦٣/٤) ، (٥١/٧) ومسلم في صحيحه ــ كتاب الرضاع رقم (٥٤) وسنن الترمذي رقم (١١٠٠) وسنن ابن ماجه رقم (١٨٦٠) واحمد في المسند (٣٠٨،٣١٤/٣)

[٩] سورة النور ، بعض الآية (٣٢)

[١٠] الأمر بالاتباع (ص ٨١-٨٢)

الفصل الثاني : موقفه من التصوف

المبحث الأول .تعريف التصوف

اختــلفت الأقوال في أصل الاشتقاق اللغوي لكلمة التصوف فقيل :إنها مشتقة من الصفاء الروحي ، والشفافية النفســية والبدني مع ابتاع الشرع ، يقول الشيخ عبدالقادر الجيلاني[١] : " الصوفي من صفا باطنه وظاهرة بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله ـــ ﷺ ـــ "[٢] .

ولكــن هــذا الاشتقاق يبدو مردوداً من الناحية اللغوية ، ولذا رده شيخ الإسلام بن تيمية مبيناً : " أن اشتقاق الصوفي من الصفا بعيد من مقتضى اللغة ،وكان حقه أن يقال :صفائية أو صفوية "[٣] .

وقيــل : إن الصـــوفية منسوبة إلى الصُّفَّة ، وهي المكان الذي كان يقيم فيه بعض فقراء المهاجرين في مسجد رســول الله ـــ ﷺ ـــ بالمديــنة المنورة ممن لم يكن لهم أهل ولا دور ينزلون بها ، والذين قد فرغوا أنفسهم لطلب العلم والتعبد .

وهــذا أيضـــاً غــلط ـــ كمـــا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـــ لأنه لوكان كذلك لكانت النسبة إليه : صُفّي[٤]، وأعترض عليه كذلك القشيري[٥] في رسالته حيث قال : " فالنسبة إلى الصفة لاتجيء على نحو صوفي "[٦] .

وقيــل : إنها منسوبة إلى الصف المقدم في الصلاة ، أو الصف المقدم بين يدي الله تعالى في عموم الطاعات والقربات ، وهذا أيضاً غلط لأنه لوكان كذلك لقيل : صَفّي.[٧]

والقشــيري لايســلم أيضـــاً بهذا الاشتقاق رغم تسليمه بصحة المعنى الدال على أنهم كأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة مع الله ، ومع ذلك يقول : " ومن قال نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله قيل له ، كان

---

(١) هــو : عــبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبدالله بن يحيى الزاهد ، الجيلاني ، أو الجيلي نسبة إلى جيلان أو كيــلان ، وهي بلدة وراء طبرستان ، ولد سنة (٤٧٠ هــ) وتوفي (٥٦١هــ) رحل إلى بغداد وعمره ١٨ سنة والتقى فيها بجمع من العلماء الذين أخذ العلم عنهم ، أنظر : ذيل طبقات الحنابلة (٢٩٠/١) ،سير أعلام النبلاء ، (٤٣٩/٢٠) ، الكامل (١١/ ٩٢٣) ، الأعلام (٤٧/٤) .

(٢) الفــتح الرباني ـــ لعبدالقادر الجيلاني (ص ٢٠٧) ، نقلا عن سعيد بن مسفر القحطاني في كتابه : الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية ، والصوفية (٤٧٦) .

(٣) مجموع الفتاوي (٦/١١) .

(٤) نفسه .

(٥) عــبدالكريم بــن هــوازن القشيري الصوفي ، صاحب كتاب الرسالة، المصنف في الكلام عن الصوفية وأحوالهم وأخلاقهم،ولد سنة (٣٧٥هـــ) وكان عديم النظير في السلوك والتذكير ، لطيف العبارة ، طيب الأخلاق ، ويعتبر من شيوخ التصوف في خراسان ت (٤٦٥هـــ) ســير أعــلام النــبلاء (٢٧/١٨) ،نقــلاً عــن د/ ســعيد بــن مســفر القحطــاني : عــبدالقادر الجيلانــي (٤٧٨) .

(٦) الرسالة (٥٥٠/٢) .

(٧) أنظر : مجموع الفتاوي (٦/١١) .

حقه أن يقال : صَفية"[١]

ثم يرجح القشيري أنه كاللقب عليهم ، لأنه لايشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق .[٢]

ويـــرجح شـــيخ الإسلام ابن تيمية أن الصوفية أو الصوفي منسوب إلى لبس الصوف ، فقال :" وكان السلف يســمون أهــل الدين والعلم " القراء " فيدخل فيهم العلماء والنساك ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء ، واسم الصوفية نسبة إلى لباس الصوف هذا هو الصحيح"[٣]

ومـــع ظهـــور الـــرجحان لهذه النسبة إلا أن القشيري يعترض عليها بان الصوفية ليسوا وحدهم الذين يلبسون الصوف بل يشاركهم غيرهم ، فما الداعي لتخصيص الصوفية بهذه النسبة دون غيرهم .[٤]

وأيا ماكان اشتقاق اسم " الصوفية " فقد أستقر أخيراً على أنه لقب لطائفة من الناس ، يميلون إلى العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى : " والاعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه عامة الخلق مـــن لذة في المآكل والمشارب والملابس والمراكب ، وعدم الاستكثار من المال والجاه ، والانفراد للخلوة من أجل العباءة للذكر والفكر والمناجاة .[٥]

والتصوف في الاصطلاح : وردت عن العلماء عبارات مختلفة في تعريف التصوف أو الصوفي منها :

١ـــ قال سهل التستري[٦] يعرف الصوفي : إنه " من صفا من الكدر ، وأمتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر"[٧] .

٢ـــ ويعرف الجنيد[٨] التصوف بأنه : " ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع "[٩]

ويلاحظ من هذا أن أصل التصوف إنماهو تمسك بالكتاب واتباع للسنة ، وعكوف على العبادة بالمحافظة على الفرائض ، والزيادة من النوافل ، وأعراض عن زينة الدنيا، وكثرة ذكر الله والتعلق به وحده دون سواه ،ويظهـــر أيضاً أنه لامؤاخذه شرعية على هذا الطريق بهذا المعنى الذي ذكر ، فالتوبة والورع والزهد والذكر

---

(١) الرسالة للقشيري (٢/٥٥٠) .

(٢) أنظر : السابق نفسه .

(٣) مجموع الفتاوي ، (١١/١٩٥) .

(٤) أنظر الرسالة ــ للقشيري (٢/٥٥٠) .

(٥) أنظر : ابن خلدون ، المقدمة (٣٣٣) .

(٦) هـــو : سهل بن عبدالله التستري ، صوفي زاهد ، له كلمات نافعة ، ومواعظ حسنة منها : " أصولنا ستة : التمسك بالقرآن ، والاقتداء بالســـنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذي والتوبة ، وأداء الحقوق ، ت (٢٨٣هـــ) . أنظر : سير أعلام النبلاء (١٣/٣٣٠) ، شذرات الذهب (٢/١٨٢) ، طبقات الشعر اني (١/٦٦) .

(٧) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي (ص ٩) .

(٨) هو : أبو القاسم ، الجنيد بن محمد بن الجنيد ولد ببغداد ، ودرس بها الفقه والحديث وتوفي ببغداد (٢٩٧هـــ) . سير أعلام النبلاء (١٤/٦٦) ، طبقات الشعراني (١/ ٧٢) .

(٩) الرسالة للقشيري (٢/٥٥٣) ،نقلاً عن د/ سعيد بن مسفر القحطاني في مصنفه الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية (ص ٤٩٠

والصبر والمراقبة كلها امور شرعية أمرنا الله تعالى بها في كتابه ، وحثنا عليها رسوله — ﷺ — في سنته ، وطبقها الصحابة — رضي الله عنهم — .

ولكـن الـذي حدث بعد هؤلاء المتبعين ، أن أصبح المنتسبون إلى هذا الطريق يطلقون عبارات قدتكون مـبهمة فـي بعـض الأحيان وفي غالبها تحمل معاني مبتدعة كالحلول والاتحاد ، وغيرها من عقائد سيئة ، وسلوكيات بدعية لم يكن عليها السلف الصالح ، مما جعل التصوف ووحدة الوجود يتخذ منعطفاً آخر يظهر فيه التصوف كعلم له مناهج وفلسفات لاتمت إلى أصل الإسلام بصلة .

ومن هنا يمكن تعريف التصوف في العصر الحالي بأنه : مذهب أوله البدعة ي الزهد والذكر والعبادة ، والـتدرج مـن ذلك إلى عقائد الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ووقف بعض المنتسبين إليه عند حد الرسوم والشكليات البدعية .

المبحث الثاني : نشأة التصوف

اختلفت آراء الباحثين في نشأة التصوف ، وفي البيئة التي نبتت فيها بذرته الأولى على قولين :

الأول : أن التصـوف إسـلامي النشأة ، وأن أصوله العقدية والسلوكية مستمدة من الكتاب والسنة وفعل السـلف الصـالح ، وهـذا الرأي يتزعمه ابن خلدون الذي يرى أن الزهد والعكوف على العبادة والورع عن الشبهات كان عاماً في الصحابة — رضي الله عنهم — والسلف الصالح ، فلما فشى الاقبال على الدنيا في القرن الثاني ومابعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.[١]

ويمكن ان يصح هذا القول إذا لم يحدث خلط فيما بعد بين الزهد والورع والمراقبة التي هي خلق الأنبياء والصـديقين وعباد الله الصالحين الذي يؤثرون ماعند الله تعالى على التنعم باللذائذ والمباحات ، والتي يخشون أنهـا قد تجرهم إلى الوقوع في المخالفات ، وبين مآل إليه التصوف من الانحراف العقدي والابتداع السلوكي والذي أصبح له مفاهيم وفلسفات وهواتف وأذواق ومواجيد غير منضبطة بضوابط القرآن الكريم والسنة النبوية

الـثاني : أن التصـوف لم يكن ذا أصل اسلامي ، فحين ظهر الإسلام كان التصوف منتشراً في جزيرة العـرب ، باسـم الكهانة ،وفي الهند وبلاد فارس ،ذلك لأن دياناتهم كانت مبنية على أساس الرياضة والرؤى والمكاشـفات وكـانت هـذه الأمور ماينتحله النصارى الذين كانت دياناتهم سائدة في مصر والشام والعراق واليمن ، وكذلك عند اليهود ،كان يطلق على الشيخ اسم الكاهن أو العراف أو ما يرادفها في اللغات الأخرى . ولما جاء الإسلام اختفت هذه النحلة حتى استطاع كهانها أن يجدوالها صيغة مقبولة يظهرونها بها أمام الناس ، وهي صيغة الزهد والتقشف والروحانية التي تتخذ التظاهر بالعبادة والتبتل منطلقاً لها حتى تروج على كثير من الناس .

وقد عرف هذه الحقيقة بعض علماء المتصوفة القدامي مثل شهاب الدين السهرودي[٢] الذي يقول : " ،أما

---

(١) مقدمـة ابن خلدون (ص ٣٣٣) ، وأنظر د/ سعيد بن مسفر القحطاني : الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية ، والصوفية (ص ٤٩١) .

(٢) شـهاب الديـن يحيى بن حسين السهروردي ، فيلسوف ، كان يتوقد ذكاءً إلا أنه قليل الدين ،وكان بارعاً في أصول الفقه ،ولم يناظر

أنـوار السـلوك فـي هـذه الأزمنة القريبة فخميرة الفيثاغوريين ، رفعت إلى أخي أحميم (يعني : ذا النون المصري)(١) ، ومنه نزلت إلى سياد تستر (يعني : سهل التستري) وشيعته ، وأما خميرة الخسروانيين في السـلوك فهـي نازلة إلى سيار بسطام (يعني : أبايزيد البسطامي)(٢) ، ومن بعده إلى فتى بيضاء (يعني : الحلاج(٣)) ومن بعده إلى سيار آمل وخرقان (أبي الحسن الخرقاني) (٤) .

ويظهـر مـن هـذا أن التصوف ليس إسلامي النشأة وإنما هو مزيج من العبادات الفارسية ،واليونانية ، والنصـرانية ، واليهوديـة ، يؤيـد هذا وجود الشبه الكبير بين الصوفية وبين أهل تلك الأديان في اعتقاداتهم وعـباداتهم ، وخاصة في عقائد الرمز والظاهر والباطن والتأويل وغير ذلك ، وهذا ماذهب إليه السرّاج(٥) من أن منشأ التصوف كان في الجاهلية قبل الإسلام (٦) .

والحق أن كلاً الرأيين فيه شيء من الصحة ، مع شيء من المبالغة ، ولذا فإن الأعدل والأوفق أن يقال : إن أول نشـأة للتصوف كان بالبصرة على يد بعض الزهاد الذين كانوا يبالغون في الزهد والعبادة ، وأن غالب ماكان يحكى من المبالغة في العبادة والزهد إنما هو عن عباد البصرة ، ثم تطور على يد بعض المنتسبين إليه ــ كما ذكرنا ــ فلبس عليهم إبليس فأخذوا ينتحلون آراء بعيدة عن الإسلام ، حتى آل الأمر إلى أنه لايذكر اسـم المتصوفة أو التصوف إلا مرتبطاً بعقيدة الحلول والاتحاد ، ووحدة الوجود ، وماأضيف إلى ذلك من بدع السماع والرقص ، والتعلق بطلب مرتبة الولاية،واستدراج الشيطان لهم حتى قالوا بتفضيل الولي على النبي ، واستمرار النبوة بعد رسول الله ﷺ وغير ذلك .

وفـي هـذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : " أول ماظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية أصحاب عبدالواحد بن زيد(٧) ،وعبدالواحد من أصحاب الحسن ، وكان في البصرة من المبالغة في

احـداً إلا أربى عـليه ، قـال عـنه الذهـبي ، وكـان طياشـاً أحمـق مـنحلاً " قـتل سـنة (٥٨٧هـ) .سير اعلام النبلاء (٢٠٧/٢١) .

(١) دو الـنون المصـري : ثوبـان بن إبراهيم ، شيخ الديار المصرية في وقته ، كان لايتقن الحديث ، ولكنه كان واعظاً فصيحاً عالماً حكيماً ،رمي بالزندقة ، مات سنة (٢٤٦هـ) ، سير أعلام النبلاء ، (٥٣٢/١١) .

(٢) طيفور بن عيسى البسطامي ، أبو يزيد ، كان يقول : " لونظرت إلى من أعطى من الكرامات حتى يطير فلاتغتروا به حتى تروا كيف هـو عـند الأمـر والنهي وحفظ حدود الشرع ،ونقل عنه أشياء مشكلة لامساغ لها ، ولكن كما يقول الذهبي : الشأن في ثبوتها عنه فـتطوى ولاتروى إذ ظاهرها إلحاد مثل سبحاني ، ومافي الجبة إلا الله ، وماالمحدثون إن خاطبهم رجل عن رجل فقد خاطبنا القلب عن الرب . ت (٢٦١هـ) ، سير أعلام النبلاء (٨٦/١٣) ، طبقات الشعراني (٦٥/١) .

(٣) هـو : أبـو منصـور الحسـين بن منصور الحلاج الصوفي ، كان جده مجو سياً ، تبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ لسوء سيرته ، ونسـبوه إلى الحلول والزندقة قتل مصلوباً بعد أن قطعت يداه ورجلاً ،وضرب ألف سوط وأحرقت جثته ونثر رمادها في نهر دجلة سنة (٣٠٩) هـ سير أعلام النبلاء (٣١٣/١٤) ، طبقات الشعراني (٩٢/١) .

(٤) ولايـة الله والطـريق إليها لإبراهيم هلال (ص ١٧١) ، نقلاً عن (الشيخ عبدالقادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية لسعيد بن مسفر القحطاني (ص ٤٩٣) .

(٥) أبو نصر السرّاج ، عبدالله بن علي الطوسي ، كان شيخ الصوفية في عصره ، له كتاب اللمع في التصوف ،مات سنة(٣٧٨).

(٦) أنظر : السراج و اللمع . ص ٤٢) .

(٧) عـبدالواحد بـن زيـد الزاهد ، كان ممن غلب عليه العبادة حتى غفل عن الاتقان فكثرت المناكير في حديثه حتى قال عنه النسائي ،

الزهد والعبادة ، ونحو ذلك مالم يكن في سائر الأمصار ، ولهذا كان يقال فقه كوفي ، وعبادة بصرية "

ثم قال رحمه الله :

" ولهذا كان غالب مايحكى من المبالغة في هذا الباب إنماهو عن عباد البصرة"[١] .

فهذا في بيان بداية نشأة التصوف ، أما عن التطور الذي حصل بعد ذلك فيقول أبن الجوزي ــ رحمه الله ــ :

" والتصوف طريقة كان ابتدأوها الزهد الكلي ، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص ، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام لما يظهرون من التزهد ، ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عندهم من الراحة واللعب ... "[٢] ثم قال :

" وهـذا الاسـم ظهر للقوم قبل سنة مائتين ، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كـثيرة حاصـلها أن التصـوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى ... "[٣] ثم قال :

" وعلى هذا كان أوائل القوم فلبس عليهم في أشياء ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم كلما مضى قرن زاد طمعه في القرن الثاني فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن .

وكـان أصـل تلبيسه عليهم أن صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود هو العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا مايصلح أبدانهم ،وشـبهوا المال بالعقارب ،ونسوا أنه خلق للمصالح ،وبالغوا في الحمل على النفوس حتى إنه كان فيهم من لا يضـطجع ، وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير انهم على غير الجادة ، وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لايدري ... "[٤]

وفـي هذا الذي ذكر الشيخ ابن الجوزي إشارة إلى ماحدث من التطور في عقائد المتصوفة التي انحدرت إلى هـوة سحيقة ولم يذكر منها ابن الجوزي ــ رحمه الله ــ إلا إشارة يسيرة ، فإنه في مراحله الأولى اتجه ناحية الانحطاط إلى الجهل والبعد عن مجالس العلم والقعود عن الكسب .[٥]

ثـم انحرف اكثر بعد ذلك عندما ظهر عند اتباعه مايسمى بعلم الظاهر والباطن ، وإعلان سقوط التكاليف

مـتروك الحديـث ، أصيب بالفالج فدعا الله تعالى أن يطلقه وقت الوضوء ، فكان إذا أراد أن يتوضأ انطلق ، فإذا رجع إلى سريره فـلج ، وكان ذا وعظ مؤثر لدرجة أن بعض الجالسين في مواعظه يموتون ، قال عنه الذهبي ، رمى بالقدر وهو من كبار الزهاد ، والكمال عزيز ، ت سنة (١٧٧) هـ ، سير أعلام النبلاء (٣٤٩/٨) .

(١) مجموع الفتاوي ، (١١/ ٦ ــ ٧) .

(٢) تلبيس إبليس (ص ١٦١) .

(٣) نفسه (ص ١٦٣) .

(٤) نفسه (ص ١٦٣ ــ ١٦٤) .

(٥) أنظر: طبقات الصوفية الكبرى للشعراني (٥١/١) .

الشـــرعية عـــن الأوليـــاء بـــزعمهم أنهـــم اطلعوا على علم الحقيقة عن طريق الكشف والالهام .[١] ثم الفناء والمشاهدة [٢] .

واســتمر التصـــوف فـــي خط الإنحراف حيث تأثر بالنصرانية وقولها بالاتحاد والحلول ، وبالمجوسية وتقديســـها للأشـــخاص وبالهـــندية وقولها بالفناء والتناسخ ، وبالفلسفة اليونانية وإلحادها زندقتها والقول بوحدة الوجود .[٣]

ثم إلى دعوى العلم اللدني ، والتلقي عن الله مباشرة كقول البسطامي : أخذتم دينكم ميت عن ميت أما نحن فأخذنا عن الحي الذي لايموت [٤] وكقول ابن عربي : " والله ماكتبت من الفتوحات المكية حرفاً إلا عن إملاء إلهي أو إلقاء رباني اونفث روحاني ، أو روح كياني " [٥] .

ثـــم بعـــد ذلـــك إلى التشيع والتجهم والإرجاء والقدر وذلك كله لبعدهم عن مناهج التلقي الصحيحة وهي الكتاب والسنة .[٦]

هـــذه ملامـــح التصوف وسماته العامة باختصار شديد وأصله ،وكيف نشأ ،وبيان خط انحرافه وبعده عن منابع الإسلام .

المبحث الثالث : التصوف عند السيوطي

مـــن الملاحظ بوضوح ان السيوطي كان يميل إلى الإلتزام ببعض مناهج التصوف المتعددة ، ويلحظ هذا من كلامه في عقيدته ، وفي بعض مصنفاته .

ففي آخر رسالته " علم التوحيد " يقول صراحة : " ونعتقد أن طريق أبي القاسم الجنيد [٧] سيد الصوفية ، عـــلماً وعمـــلاً ، وصحبه ، طريق مقدم ، فإنه خال عن البدع " [٨] وإلى هنا كلام السيوطي مستقيم لامؤاخذة عـــليه فقد شهد أكابر العلماء لصحة طريق الجنيد ،وأنه طريق مستقيم منضبط بضوابط الكتاب والسنة كما قال الجـــنيد نفسه فقد ذكرت قبل ذلك قول الجنيد عن التصوف بأنه:" ذكر مع اجتماع [٩]، ووجد مع استماع[١٠] ،

---

(١) أنظر : بان تيمية / مجموع الفتاوي (١١/٤١٧ــ ٤٣٩) .

(٢) أنظر : إحسان إلهي ظهير : دراسات في ا لتصوف (ص ٢٣٥) .

(٣) أنظـــر : ابن تيمية : درء تعارض العقل ولانقل (٥/ ٨٢) وابن الجوزي : تلبيس إبليس (ص ٣٤٥) ، والبقاعي : تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي (ص ٢٢٤) .

(٤) أنظر : الشعراني : طبقات الصوفية (٥/١) .

(٥) الفتوحات المكية لابن عربي (٤٥٦/٣) .

(٦) أنظر : ابن تيمية :درء تعارض العقل والنقل (٧/٥) .

(٧) سبق ترجمته .

(٨) علم التوحيد ــ مخ ــ لوحة رقم (٣١) .

(٩) إذا قصـــد بالاجتماع : اجتماع الناس على الذكر برفع الأصوات ، والانشاد الجماعي ، فها من البدع المنكرة ،وإن قصد به ، اجتماع القلب وإقباله على ذكر الله فهو ذاك .

(١٠)إذا كان الاستماع للقرآن فنعم ،أما للغناء والرقص والضرب بالطبول والدفوف فهو المنكر الذي لايقره دين ولاعقل .

وعمل مع اتباع "[١] ،وقال أيضاً : " علمنا هذامبنى على الكتاب والسنة فمن لم يقرأ هذا القرآن ويكتب الحديث لايقتدي به في هذا الشأن"[٢]

وكـــان شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ يثنى عليه ويذكره بخير ، وقد نقل كلامه السابق في عدة مواضع .[٣]

ثم يكمل السيوطي كلامه فيقول : " فإنه خال عن البدع ، دائر التفويض والتسليم والتبريء من النفس ، ، مبني على الاتباع للكتاب والسنة "[٤] .

وقولـــه فـــي هـــذا " مبـــني على التفويض " تحتاج إلى وقفة فإن كان السيوطي يقصد بقوله : مبنى على الـــتفويض ، أنه يتعلق بمسائل صفات الله ــ عزوجل ــ وأنه يفوض معاني الصفات الذي نسبه السيوطي إلى السـلف ونقلـته عنه ، فهذا التفويض المنسوب إلى السلف غلط على السلف وغلط على الكتاب والسنة ، فإن السلف لم يفوضوا في باب الصفات ، لكنهم أثبتوها إثباتاً حقيقياً بلاتمثيل ، ونزهوه ــ جل وعلا ــ عن مشابهة الخـلق تـنزيهاً بـلا تعطيل ، وفسروا معانيها على مقتضى اللغة العربية التي نزل بها القرآن ،دون تعرض لكيفيتها في حق الله ــ جل وعلا ــ فالكيف في حقه تعالى مجهول والسؤال عنه بدعة . ، فإن مقتضى القول بالتفويض أن الله تعالى أنزل كلاماً لايفهم له معنى ، وأن الأنبياء والمرسلين لم يعلموا معاني ماأنزل الله تعالى عـليهم مـن هذه النصوص وحينئذ فيكون ماوصف الله تعالى به نفسه في القرآن أو كثير مماوصف به نفسه لايعـلم الانـبياء معناه ، بل يقولون كلاماً لايعقلونه ، ومعلوم أن هذا قدح في القرآن وفي الأنبياء إذ كان الله تعـالى انـزل كتابه الحكيم وأخبر أنه جعله هدى ونوراً للناس ، وأمر الناس بتدبره وعقله ، ومع هذا فأشرف مافيـه وهوماالخـبر بـه الـرب ــ جلا وعلا ــ عن نفسه بذكر أسمائه وصفاته لايعلم أحداً معناه ، فلا يعقل ولايـتدبر ،ولايكون الرسول ــ ﷺ ــ بيّنَ للناس مانزل إليهم ولابلغ البلاغ المبين ، فيبقى هذا الكلام سداً لباب الهـدى والبيان من جهة الانبياء والمرسلين ــ عليهم السلام ــ وفتحاً لباب الزندقة والإلحاد ، وبهذا يتبين ان قول أهل التفويض الذي ينسبونه إلى السلف من أشر أقوال أهل البدع والإلحاد .[٥]

وقد اشبعت هذا الموضوع بحثاً في فصل الصفات " بمايغنى عن إعادته هنا .

وإن كـان مقصود السيوطي بقوله: " دائر على التفويض " أنه التسليم لأمر الله والتوكل عليه، والاستعانة بـه تعـالى والتبريء من الحول والقوة إلا به ــ جلا وعلا ــ فلاشيء ولا محظور بل هو المطلوب ، قال تعالى عن مؤمن آل فرعون ، (فستذكرون ماأقول لكم وأفوض أمري إلى الله . . .) [٦] أي وأتوكل على الله

---

[١] القشيري : الرسالة (٥٥٣/٢) .

[٢] نفسه .

[٣] منها في مجموع الفتاوي : (٢١٠/١١) ، جامع الرسائل (١٢٣/٢ــ ١٢٤، ١٨٦) .

[٤] علم التوحيد ــ مخ ــ لوحة رقم (٣١) .

[٥] أنظـر : الشـيخ فالح بن مهدي آل مهدي ، التحفة المهدية شرح الرسالة التدميرية (ص ١١٥ ــ ١١٦) ، ت وتعليق ــ عبدالرحمن بن صالح المحمود ــ دار الوطن ط/ ١٤١٤هــ .

[٦] سورة غافر ، بعض الآية (٤٤) .

وأستعينه"[١]

ثم يقول السيوطي : " ... بخلاف طريق جماعة من المتصوفة كابن عربي الطائي وأضرابه فإنه زندقة منافية للكتاب والسنة " [٢] .

ولله در السيوطي في هذه العبارة فقد نطق فيها بالحق وأعلن ضلال ابن عربي وزندقته .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (١٣٥/٧) .

(٢) علم التوحيد — مخ — لوحة رقم (٣١) .

المبحث الرابع : الأبدال الاوتاد

{ **الأبـــدال** } : على قول من يثبت وجودهم ــ هم رجال تبدلت عوالمهم ، وتخلصت من الشوائب البشرية جواهرهم [١] وقـد يجعـلونهم أربعيـن رجلاً [٢] أو سبعة [٣] ، كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً آخر [٤] أو أنهم أبدال الأنبياء [٥] ، وأنهم بالشام [٦] .

{ **والأوتــاد** } ــ أيضــاً على قول من يثبت وجودهم ــ : أربعة رجال مقام كل واحد مقام ركن من أركان الأرض ، واحــد بالمشــرق والثاني بالمغرب ، والثالث بالشمال والرابع بالجنوب [٧] ، كما وجد في كلام هؤلاء أيضاً إثبات وجود " النجباء الثلاثمائة " و" الأقطاب السبعة " ، و"الغوث " بمكة .

ورتبوهم على هذا النحو الهرمي :

١ ــ أولهم " الغوث " وهو على رأسهم .

٢ ــ تحته " الأوتاد " الأربعة .

٣ ــ ثم من تحتهم " الأقطاب " السبعة .

٤ ــ ثم من تحت هؤلاء " الأبدال " الأربعون .

٥ ــ ثم من تحتهم " النجباء " الثلاثمائة. [٨] .

٦ ــ ثم قاعدة الهرم العريضة ، وهم بقية الأمة من العلماء والمحدثين والدعاة والأولياء والحفاظ والقراء وغيرهم .

وقالوا في مهمة هؤلاء جمياً : إن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم ، ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة ، والثلاثمائة يرفعونها إلى الأربعين ،والأربعون إلى السبعة إلى الأربعة ، والأربعة إلى الغوث [٩]

والجــلال الســيوطي ــ عفــا الله عنه ــ ممن يثبت وجود النجباء والأبدال ، والأقطاب ،والأوتاد ، ذكر بعضهم في مواضــع وذكرهم جميعاً في رسالة مصنفه ضمن " الحاوي " بعنوان : " الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال [١٠] .

قــال الســيوطي : " ... والســائحون مــن الأصــناف الــثمانية المذكــورة فــي ســورة بــراءة (التوبة ١١٢) [١١] : هم الذين اختاروا الحق على كل شيء ، وثبتوا على ذلك ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وهؤلاء

---

(١) السيوطي : معترك الأقران (٣ / ٢٠٨) .

(٢) انظر : ابن تيمة : مجموع الفتاوي (١١/٤٣٣، ٤٤٢) .

(٣) انظر : معترك الاقران . ٣ / ٢٠٨) .

(٤) انظر : مجموع الفتاوي (١١/ ٤٤٢) .

(٥) نفسه .

(٦) انظر : السيوطي : الحاوي للفتاوي (٢/٢٤٢ ، ٢٤٣) ، ومجموع الفتاوي . ١١/ ٤٣٤) .

(٧) انظر : السيوطي : الحاوي للفتاوي (٢/٢٤٢ ، ٢٤٣) .

(٨) انظر : مجموع الفتاوي (١١/٤٣٣) .

(٩) انظر : السابق نفسه ، (١١/٤٣٧ــ ٤٣٨) .

(١٠) انظر : الحاوي للفتاوي (٢/٢٤١ ــ ٢٥٥) .

(١١) وهــي قوله تعالى : " التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) .

يقــال لهــم (الأبدال) وأرباب الكمال ، وهم سبعة رجال ، قد تبدلت عوالمهم ، وتخلصت من الشوائب البشرية جواهرهم فأخذوا بالسياحة في البلدان لطلب لقاء الرجال إذ هي كبيعة الخير ، وفي الباطن لنيل المقامات والأحوال : الواردة من عين الجود بالجلال ، والكمال والجمال [١] .

فهذا كلام السيوطي في إثبات " الأبدال " وأنهم هم السائحون في الأرض للقاء الرجال ، وفي الباطن لنيل المقامات والأحوال فهم سائحون في الظاهر والباطن ، سائحون في الظاهر لطلب لقاء الرجال ، وسائحون في الباطن لطلب المقامات والأحوال ، هــل هــو لأخــذ العلم عن هؤلاء الرجال فهذا لايظهر لأنهم قد صاروا أبدالاً بمعنى أنهم قد كملوا ، وتبدلت عوالمهم ، وتخلصـــت من الشوائب البشرية جواهرهم ، فهم ليسوا بحاجة بعد ذلك إلى طلب علم جديد خفي عليهم ، أم أنهم طلبوا لقاء الرجال لشيء آخر وهو الذي عبر عنه بقوله :" إذ هي كبيعة الخير " ، والذي يظهر من هذا أنها بيعة الصوفية التي يحصل مــن جنسها بيعة بين الشيخ والمريد ، أو أخذ العهد عليه ، ونحو ذلك ، ولا يعلم في الشرع بيعة إلا بيعة الخلافة العامة ، أوبيعة الإمامة العظمى ، فما مستند هؤلاء الذين يبتدعون بيعة المريد لشيخة أو هذه التي يسميها السيوطي " بيعة الخير "؟

ثم إنه لم يقل أحد من المفسرين بأن السائحين المذكورين في آية التوبة هم " الأبدال " فالوارد في تفسيرها ثلاثة أقوال:

الأول : انهم الصائمون ، وهوقول عامة المفسيرين [٢] .

الثاني : أنهم طلاب العلم ،ولوأن كل طالب بعلم تنقل من بلد إلى آخر لطلبه ، لصار جميع طلاب العلم أبدالاً ، وعلى ذلك فلامسوغ للقول بأنهم أربعون رجلاً أو أنهم في بلد معين بخصوصه وهي بلاد الشام .

الثالث : أنهم السائرون في الأرض للجهاد في سبيل الله .

ذكر هذه الأقوال الثلاثة الإمام الرازي في تفسيره [٣] ، وأشار الإمام القرطبي في تفسيره إلى قولين آخرين :

ـــأحدهما : أن السائحين هم المهاجرون . ـــ الثاني : أنهم المتفكرون تجول عقولهم فيما ذكروا.[٤]

وأيــا ماكان تفسير السائحين في هذه الأقوال الخمسة فلايدل أحدها على ماذهب إليه السيوطي ، على أن العلامة ابن كثير رجح القول الأول . وهو القول بأنهم الصائمون،ولم يذكر الإمام أبو جعفر ابن جرير قولاً غيره.[٥]

قــال ابــن كثير : " فهذه اصح الأقوال وأشهرها "[٦] يقصد الروايات التي اوردها عن النبي ـــ ﷺ ـــ في تفسير السائحين بــأنهم الصــــائمون ،ثــم قال ـــ رحمه الله ـــ : " وليس المراد من السياحة ماقد يفهمه بعض من يتعبد بمجرد السياحة في الأرض ، والتفرد في شواهق الجبال والكهوف والبراري ن فإن هذا ليس بمشروع إلا في أيام الفتن والزلازل في الدين"[٧].

أمـــا عـــن " الأوتـــاد " فقــد قال السيوطي : " وأما الساجدون فهم الذين اقعدت رسومهم ، وفنيت بالمجاهدة نفوسهم وجســومهم ، وهــم أربـــاب الفناء المتجردون عن كل المناقد،تخلصوا من رق البشرية لتحققهم أنه اللطيف الخبير السميع البصير ، عاشوا عيشاً تاماً كاملاً ، فإن ترك التدبير لله عيش ، كما أن التدبير نصف العيش ، ويقال لهذا الوجه : " الاوتاد " وهم أربعة رجال مقام كل واحد مقام ركن من الأركان شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً "[٨] .

---

(١) معترك الاقران (٣ / ٢٠٨) .

(٢) انظر الرازي : التسير الكبير (٢٠٩/١٦).

(٣) نفسه .

(٤) انظر : الجامع لأحكام القرآن (٨/ ١٧١ـــ ١٧٢) .

(٥) انظر جامع البيان (٣٧/١١ ـــ ٣٩) .

(٦) تفسير القرآ ن العظيم (٤ / ١٥٧) .

(٧) نفسه .

(٨) معترك الأقران (٣/ ٢٠٨) .

والسـيوطي هنا يفسر " الساجدين " في سورة التوبة بأنهم هم " الاوتاد" كما هو واضح من سياق قوله ولم أر أحداً من المفسـرين قـال ماقاله السيوطي في تفسيرها بل كلهم مجمعون على أن المراد بقوله تعالى ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ أي المصلون الراكعون في صلاتهم الساجدون فيها .[١]

والسيوطي نفسه في تفسيره " الدر المنثور" أورد الروايات التي تفسر السائحين بأنهم الصائمون ، والراكعين الساجدين أنهم المصلون الصلوات المفروضة [٢] فكيف يورِد هنا مايخالف قوله هناك ؟

وكما قلت : إنه قدصنف رسالة في هذا الموضوع سماها " الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال " [٣] ، وأتى فيـه بتهويل ليس عليه تعويل ، إذ كلهْا لاتنهض للإحتجاج ، وهي تنبع من خيال المتصوفة الذين أصاب بعضهم الهوس وهم يلهثون وراء الولاية التي يلوح بها الشياطين لهم على طريق غير طريق رسول ا لله ﷺ وأصحابه الكرام — رضي الله عنهم جميعاً .

وفصـل المقال في هذه المسألة ما قاله ابن تيمية — رحمه الله — وهو يتكلم عن أهل الصفة وينكر قول من قال إنهم كانوا مستغنين عن رسول الله ﷺ وأنه لم يرسل إليهم ، وأنه تعالى أوحي إلى أهل الصفة ، في الباطن مأوحاه إلى محمد ﷺ ليلة المعراج ، وبعدما رد هذه الترهات والزندقة قال — رحمه الله — : " وقد روى أنه بها (أي الصفة) غلام للمغيرة بن شعبة ، وأن النبي ﷺ قال : " هذا واحد من السبعة " { أي الأقطاب } وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم ، وإن كان قد رواه أبو نعيم في الحلية ن وكذا كل حديث يروي عن النبي — ﷺ — في عدة الأولياء ، والأبدال ، والنقباء ، والنجباء ، والاوتاد ، والاقطاب ، مثل أربعة أو سبعة أو أثنى عشر أو أربعين أوسبعين ، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أو القطب الواحد ، فـليس في ذلك شيء صحيح عن النبي — ﷺ — ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال ، وروي فيهم حديث أنهم أربعون رجلاً ، وأنهم بالشام ، وهو في المسند من حديث علي — ﷺ — وهو حديث منقطع ليس بثابت"[٤] .

وقـد سـئل — رحمه الله — عن الحديث المروي في الأبدال هل هو صحيح أو مقطوع ؟ وهل الابدال مخصوصون بالشام ؟ ... وماقول السادة العلماء في هذه الأسماء التي تسمى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة ، ويقولون : هذا غوث الأغواث ، الكبير ...؟ فأجاب — رحمه الله — قائلاً :" أما الاسماء الدائرة على السنة كثير من النساك والعامة مـثل" الغـوث " الذي بمكة ، و" الأوتاد الأربعة " و" الأقطاب السبعة " و" الأبدال الأربعين " و" النجباء الثلاثمائة " : فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى ؛ ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي ﷺ باسناد صحيح ، ولاضعيف يحمل [عليه] ألفاظ الأبدال.

فقـد روي فيهم حديث شامي منقطع الاسناد عن علي رضي الله عنه مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال : " إن فيهم — يعـني أهل الشام — الأبدال الأربعين رجلاً ، كلما مات رجل ابدل الله تعالى مكانه رجلاً"[٥] ولاتوجد هذه الأسماء في كلام السـلف ، كمـا هـي عـلى هـذا الترتيب : ولاهي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاًعاماً:وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشائخ وقد قالها أما آثرا لها عن غيره أو ذاكراً .

---

(١) انظـر في ذلك : تفسير ابن جرير (١١/ ٣٩) ، تفسير القرطبي (١٧٢/٨) ، تفسير الرازي (٢١٠/١٦) ، تفسير ابن كثير (١٥٦/٤) ، تفسـير السيوطي " الدرالمنثور " (٢٩٦/٤) ، تفسير ابي المظفر السمعاني (٣٥٢٩/٢ ، تفسير الشوكاني (٢ / ٤٠٩) ، أحكام القرآن لابن العـربي (١٠٢٠/٢) ، تفسـير الجلاليـن(ص ٢٦١) ، مختصـر تفسير الطبري (ص ٢٠٥) ، وأخيراً تفسير مخلوف بحاشية المصحف الشريف (ص ١٦٧) .

(٢) الدر المنثور (٤ / ٢٩٦) ، والجلالين (ص ٢٦١) .

(٣) الحاوي للفتاوي (٢٤١/٢) .

(٤) مجموع الفتاوي (١٦٧/١١) .

(٥) مسند الإمام أحمد (١١٢/١) .

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصار فيه من الحق مايوجب قبوله و من الباطل مايوجب رده ، وصار كثير من الناس على طرفي نقيض ٠

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل

وقــوم صــدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق ، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل ، وهذا تحقيق لما اخبر به النبي ﷺ عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة ٠

فــإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل وهذا هو التبديل والتحريف الذي وقع في دينهم، ولهذا يتغيرالدين بالتبديل تارة، وبالنســخ أخرى ، وهذا الدين لاينسخ أبداً لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان مايلبس به الحق بالــباطل ، ولابــد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل ، فينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولوكره المشركون ٠

فالكتب المنزلة من السماء ، والأثارة من العلم الماثورة عن خاتم الأنبياء ، يميز الله بها الحق من الباطل ، ويحكم بين الــناس فيمــا اختلفوا فيه وبذلك يتبين ان هذه ا لأسماء على هذا العدد ، والترتيب والطبقات ليست حقاً في كل زمان ، بل يجب القطع بأن هذا على عمومه واطلاقه باطل ، فإن المؤمنين يقلون تارة ويكثرون أخرى ، ويقل فيهم السابقون المقربون تــارة ، ويكــثرون أخــرى ، وينتقلون في الأمكنة ، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزْمنة ، وليس من شرط أولياء الله اهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين تعيين العدد ٠

وقــد بعث الله رسوله بالحق وآمن معه بمكة نفر قليل كانوا اقل من سبعة ، ثم أقل من أربعين ، ثم أقل من سبعين ثم أقل من ثلاثمائة فيعلم أنه لم يكن فيهم هذه الاعداد ، ومن الممتنع أن يكون ذلك في الكفار ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينة ، وكانت هي دار الهجرة والسنة والنصرة ،ومستقر النبوة وموضع خلافه النبوة ، وبها انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين ، ابي بكــر وعمــر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم أجمعين، وان كان قد خرج منها بعد أن بويع فيها ومن الممتنع أنه قد كان بمكة في زمنهم من يكون افضل منهم ٠

ثم ان الإسلام انتشر في مشارق ا لأرض ومغاربها ، وكان في المؤمنين في كل وقت من اولياء الله المتقين ، بل من الصديقين السابقين المقربين عدد لايحصى عدده إلا رب العالمين ، لا يحصرون بثلاثمائة ولا بثلاثة آلاف ، ولما انقرضت القرون الثلاثة الفاضلة كان في القرون الخالية من أولياء الله المتقين ، بل من السابقين المقربين من لايعرف عدده ، وليسوا بمحصــورين بعــدد ولامحدودين بأمد،وكل من جعل لهم عدداً محصوراً فهو من المبطلين عمداً أو خطأ ، فنساله من كان القطــب والــثلاثة إلى سبعمائة ، في زمن آدم ونوح وإبراهيم ،وقبل محمد عليه الصلاة والسلام في الفترة حين كان عامة الــناس كفــرة ؟ ! قال الله تعالى :﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ٠٠٠ ﴾ [١] أي كان مؤمناً وحده وكان الناس كفاراً جميعاً ، وفي صحيح البخاري " أنه قال لسارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك "[٢] وقال الله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين [٣]

وإن زعموا انهم كانوا بعد رسولنا عليه السلام نسألهم في أي زمان كانوا ؟ ومن أول هؤلاء ؟ وبأية آية ؟ وبأي حديث مشــهور في الكتب الستة ؟ وبأي إجماع متواتر من القرون الثلاثة ثبت وجود هؤلاء بهذه الأعداد حتى نعتقده ؟ لأن العقائد

---

(١) سورة النحل ،ب عض الآية (١٢٠) ٠

(٢) صحيح البخاري ـــ ح رقم (٢٢١٧) الفتح (٤/٤١٠) ، وانظر ح/ رقم (٢٦٣٥) ، (٣٣٥٧) ، (٣٣٥٧) ، (٥٠٨٤) ، ومسند أحمد (٢ / ٤٠٤) ٠

(٣) سورة الجمعة ، الآية (٢) ٠

لاتعتقد إلا من هذه الأدلة الثلاثة ، ومن البرهان العقلي (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين [١]

فإن لم يأتوا بهذه الأدلة الأربعة الشرعية فهم الكاذبون بلاريب فلا نعتقد أكاذيبهم ٠

ويلزم منه أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وبنصرهم على عدوهم بالذات بلا واسطة ، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات ٠

" فأمـــا لفظ الغوث والغياث " فلايستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين ، فلايجوز لأحد الاستغاثة بغيره ، لابملك مقرب ولا نبي مرسل ٠

ومـــن زعـــم ان أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها كشف الضر عنهم ، ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة ، والثلاثمائة إلى السبعين والسبعون إلى الأربعين ، والأربعون إلى السبعة ، والسبعة إلى الأربعة ، والأربعة إلى الغوث فهو كاذب ضال مشرك ، فقد كان المشركون كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ٠٠٠ ﴾ [٢] وقال سبحانه وتعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ٠٠[٣]

فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعده بوسائط من الحجاب ؟ وهو القائل تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فـــإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ [٤] وقال إبراهيم عليه السلام داعياً لأهـــل مكـــة ﴿ ربنا اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم مانخفي مانعلن ومايخفي على الله شيء في الأرض ولا في السماء ٠ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل واسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ [٥]

وقـــال النـــبي ﷺ لأصحابه لما رفعوا أصواتهم بالذكر " أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولاغائباً ،وإنما تدعون سميعاً قريباً ، ان الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته"[٦] وهذا باب واسع ٠

وقـــد عـــلم المســـلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولامشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم ، لاظاهراً ولاباطناً بهذه الوسائط والحجاب ، فتعالى الله عن تشبيهه بالمخلوقين من الملوك وسائر مايقوله الظالمون علواً كبيراً ، وهذه من جنس دعوى الرافضة انه لابد في كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لايتم الإيمان إلا به ، ثم مع هـــذا يقولون أنه كان صبياً دخل السرداب من أكثر من اربعمائة وأربعين سنة ، ولا يعرف له عين ولاأثر ، ولايدرك له حس ولاخبر ٠

وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه ، بل هذا الترتيب والاعداد تشبه من بعض الوجـــوه تـــرتيب الإســـماعيلية ، والنصـــيرية ، ونحوهم في السابق والتالي والناطق ٠ والأساس والجسد ، وغير ذلك من الترتيب ، الذي مانزل الله به من سلطان ٠

(وأمـــا الأوتاد) فقد يوجد في كلام البعض انه يقول : فلان من الأوتاد ، يعنى بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان ، والديـــن في قلوب من يهديهم الله به ، كما يثبت الأرض بأوتادها ، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء

---

(١) سورة البقرة ، بعض الآية (١١١) ، سورة النمل ،بعض الآية (٦٤) ٠

(٢) سورة الأسراء ، بعض الآية (٦٧) ٠

(٣) سورة النمل ، بعض الآية (٦٢) ٠

(٤) سورة البقرة ، الآية (١٨٦) ٠

(٥) سورة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ الآيات (٣٧، ٣٨ ،٣٩) ٠

(٦) صـــحيح البخاري ، ح رقم (٢٩٩٢)الفتح ٠ ٦ / ١٣٥) ، وانظر ح رقم (٤٢٠٥) ، (٦٣٨٤) ، (٦٤٠٩) ، (٦٦١٠) ، (٧٣٨٦) ، وصحيح مسلم (٢٠٧٦/٤) ح رقم (٢٧٠٤) ، ومسند أحمد (٤/ ٣٩٤ ، ٤٠٢،٤٠٣ ، ٤٠٧ ، ٤١٨ ، ٤١٩) ٠

فكـل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة ، والجبال الكبيرة ، ومن كان بدونه كـان بحسـبه ، وليس ذلك محصوراً في أربعة ولا أقل ولا أكثر ، بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين في أوتاد الأرض .

(وأما القطب) فيوجد أيضاً في كلامهم فلان من الأقطاب . أو فلان قطب ، فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا ، باطناً أو ظاهراً ، فهو قطب ذلك الأمر ومداره ، سواء كان الدائر عليه امر داره أو دربه ، أو قريته أو مدينته ، أمـر دينها أو دنياها ، باطناً أوظاهراً ، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولاأكثر : لكن الممدوح من ذلك من كان مداراً لصلاح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا ؛ فهذا هو القطب في عرفهم فقد يتفق في عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة في الفضل عند الله سواء ، ولا يجب ان يكون في كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقاً .

وكذلـك لفـظ " الـبدل " جاء في كلام كثير منهم ، فأما الحديث المرفوع فالأشبه أنه ليس من كلام النبي ﷺ ، فإن الإيمان كان بالحجاز وباليمن قبل فتوح الشام ، وكانت الشام والعراق دار كفر ، ثم لما كان في خلافة علي رضي الله عنه قد ثبت عنه عليه السلام أنه قال : " تمرق مارقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق "[1] فكان علي وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام ، معلوم أن الذين كانوا مع علي رضي الله عنه من الصحابة مثل عمار بن ياسر وسهل بن حـنيف ونحوهما ، كانوا أفضل من الذين كانوا مع معاوية ، وان كان سعد بن أبي وقاص ونحوه من القاعدين افضل ممن كـان معهما ، فكيف يعتقد مع هذا أن الابدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام ؟! هذا باطل قطعاً ، وان كان قد ورد في الشام وأهله فضائل معروفة فقد جعل الله لكل شيء قدراً .

والكـلام يجب أن يكون بالعلم والقسط ، فمن تكلم في ا لدين بغير علم دخل في قوله تعالى : ﴿ ولاتقف ماليس لك به علم ﴾ [2] وفي

قوله تعالى : ﴿ وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾ [3] ومن تكلم بقسط وعدل دخل في قوله تعالى: ﴿ يأيها الذين آمنوا كونـوا قواميـن بالقسط شهداء لله ﴾ [4] وفي قوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ﴾ [5] وفي قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ [6]

والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان : منها أنهم ابدال الأنبياء ومنها أنه كلما مات منهم رجل ابدل الله تعالى مكانه رجـلاً ، ومنها انهم ابدلوا السيئات من اخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات ، وهذه الصفات كلها لاتختص بأربعين ولاباقل ولاباكثر ،ولاتحصر بأهل بقعة من الأرض ؛ وبهذا التحرير يظهر المعنى في اسم " النجباء " .

فالغـرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعان باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، مثل تفسير بعضهم " الغوث " هو الـذي يغيث الله به أهل الأرض في رزقهم ونصرهم فإن هذا معدوم العين والأثر شبيه بحال المنتظر الذي دخل السرداب من نحو أربعمائة وأربعين سنة.

وكذلـك من فسر " الأربعين الابدال " بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل ؛ بل النصر والرزق يحصل بأسباب من آكدها دعاء المؤمنين ، وصلاتهم وأخلاصهم، ولايتقيد ذلك لا بأربعين ولا باقل ولاباكثر ، كما جاء في الحديث المعروف أن سعد بن أبي وقاص قال : يارسول الله : الرجل يكون حامية القوم ، ايسهم له مثل مايسهم لاضعفهم ؟ فقال : "

---

(١) صحيح مسلم (٢ /٧٤٥) ح رقم (١٥٠) من كتاب الزكاة ،رقم (١٥٢) ، ومسند أحمد (٢٢/٣، ٤٨) .

(٢) سورة الاسراء ، بعض الآية (٣٦) .

(٣) سورة الاعراف ، بعض الآية (٣٣) .

(٤) سورة النساء ، بعض الآية (١٣٥) .

(٥) سورة الأنعام ، بعض الآية (١٥٢) .

(٦) سورة الحديد ، بعض الآية (٢٥) .

ياسعد ! وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم واخلاصهم "[١] .

وقد يكون للرزق والنصر أسباب أخر، فإن الفجار والكفار أيضاً يرزقون وينصرون ، وقد يجدب الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوهم لينيبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم ، فيجمع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكروب ، وقد يملى للكفار ويرسل السماء عليهم مدراراً : ويمدهم باموال وبنين ويستدرجهم من حيث لايعلمون ، إما ليأخذهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر وإما ليضعف عليهم العذاب في الآخرة فليس كل انعام كرامة ،ولا كل امتحان عقوبة ، قال الله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا مابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن وإما إذا مابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي اهانن كلا ﴾ [٢]

وليس في أولياء الله المتقين ، ولاعباد الله المخلصين ، الصالحين ولاأنبيائه المرسلين ؛ من كان غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس بل هذا من جنس قول القائلين ان علياً في السحاب، وأن محمد بن الحنفية في جبال رضوى ، وأن محمد بن الحسن بسرداب سامرى وأن الحاكم بجبل مصر ، وأن الابدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان ، فكل هذا ونحوه من قول اهل الأفك والبهتان ، نعم قد تخرق العادة في حق الشخص ، فيغيب تارة عن أبصار الناس أما لدفع عدو عنه . وأما لغير ذلك ، وإما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل نعم ! يكون نور قلبه وهدى فؤاده ومافيه من أسرار الله تعالى وأمانته وأنواره ومعرفته غيباً عن أعين الناس ،ويكون صلاحه وولايته غيباً عن أكثر الناس ، فهذا هو الواقع وأسرار الحق بينه وبين أوليائه ، وأكثر الناس لايعلمون ، وقد بينا بطلان اسم الغوث مطلقاً،وأندرج في ذلك غوث العجم ومكة والغوث السابع"[٣]

فهذا كلام شيخ الإسلام بنصه ، وقد آثرت أن أنقله وإن طال ، وذلك لأهميته في هذا الموضوع ، ولأنه حجة في هذا الباب ، وحتى لايبقى بعده كلام لمتهوك أو لمتهوس يحجب به قرص الشمس ،ورحم الله تعالى السيوطي ماكان أحراه ،وهو الحافظ المحقق ، ألا ينجر وراء هؤلاء المبطلين وإن كثر الخبث وعمت البدع في أيامه ولياليه

المبحث السادس :الخضر — عليه السلام

العبد الصالح الذي سار موسى — عليه السلام — إليه هو الخضر وهو غير مذكور باسمه هذا في كتاب الله تعالى فهو من " مبهمات القرآن " لكنه مبين في الحديث الصحيح ، حيث بين ذلك رسول الله ﷺ وسيأتي حديثه إن شاء الله "[٤].

وفي سبب تسميته بالخضرفقد قال النبي — ﷺ — " إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء"[٥]

والفروة البيضاء قال عنها عبدالرزاق في مصنفه : " الحشيش الأبيض " .

وقال عنها إبراهيم الحربي : " هي القطعة من الأرض عليها حشيش يابس " .

---

(١) صحيح البخاري ، ح رقم (٢٨٩٦) الفتح (٨٨/٦) ولفظه : " هل تنصرون إلا بضعفائكم ؟" وعند أحمد :" وهل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم " المسند " ١٧٣/١) ، وفي المسند أيضاً (١٩٨/٥) : " أبغوني ضعفاءكم ، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم " ، وعند النسائي : " إنما نصر هذه الأمة بضعفهم ، بدعواتهم ، صلاتهم ، إخلاصهم " ، أنظر : ابن حجر : الفتح (٦/ ٨٩) .

(٢) سورة الفجر ، الآيتان (١٥/١٦) .

(٣) مجموع الفتاوي (١١/ ٤٣٣— ٤٤٤) .

(٤) ذكر السيوطي في كتابه : " مفحمات الأقران في مبهمات القرآن ، (ص١٤١ — . إياد خالد الطباع : أن اسمه : ايليا ، وقيل : اليسع و قيل : إلياس ، وعزاه للكرماني في" عجائبه " وذكر ذلك ابن حجر في الفتح " (٤٣٣/٦) وزاد عليه بقوله : وقيل عامر ، وقيل خضرون ، قال : والأول أثبت ، ثم جر نسبه فقال : أبن ملكان بن فالغ ابن عابر بن شالخ بن أرفشخذ بن سام بن نوح ... كنيته أبو العباس . أ . هـ .

(٥) صحيح البخاري — رقم (٣٤٠٢) الفتح (٤٣٣/٦) .

وقال عنها ابن الأعرابي : " هي أرض بيضاء ليس فيها نبات"[١]

والذي يبدو لي من الحديث أن هذه معجزة من معجزات الخضر — عليه السلام — على القول الراجح بنبوته

ويبدوا أيضاً أنه — عليه السلام — جلس على قطعة من الأرض يابسة وعليها حشيش وعشب يابس ،فلما جلس عليها دبت فيها الحياة ، فاهتزت تحته لتصبح خضراء ، أي نبت العشب الأخضر على تلك القطعة ، ولهذا سمى " الخضر " من الخضرة والأخضرار ، وحكي عن مجاهد أنه قيل له الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ماحوله [٢] .

وردت قصـــة الخضر — عليه السلام — مع موسى عليه السلام ، في سورة الكهف من الكتاب العزيز ، وتبدأ القصة بقولـه تعــالى : ﴿ وإذ قــال موسى لفتاه لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر عجباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصـــخرة فإني نسيت الحوت ومأأنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا * قال ذلك ماكنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا أتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا ع[٣]

يقـــول ابـــن كثير : " سبب قول موسى لفتاه — وهو يوشع بن نون — هذا الكلام أنه ذُكر أن عبداً من عباد الله بمجمع الـــبحرين عـــنده من العلم مالم يحط به موسى فأحب الذهاب إليه ، وقال لفتاه ذلك : ﴿ لاأبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ أي لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين ﴾ [٤]

ثم التقى موسى — عليه السلام — بالخضر — عليه السلام — فطلب موسى أن يتبع الخضر حتى يتعلم منه ، ثم كان من امر الخضر أن خرق السفينة ، وقتل الغلام ، فانكر عليه موسى — عليه السلام — ذلك لأنه إتلاف للأموال ، وإزهاق للأرواح البريئة من غير وجه حق في أحكام الشرع .

وروى قصتهما الإمام البخاري في كتاب التفسير من صحيحه كاملة وفيه قال الخضر :" ياموسى إني على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمك الله لاأعلمه ... "[٥].

وفي السبب الذي ذكره العلامة ابن كثير والذي دفع موسى إلى السير لملاقاة الخضر عليه السلام اقتضاب واختصار ، وقد بين النبي — ﷺ — ذلك السبب او ضح بيان وأتمه، ففي حديث سعيد بن جبير يرويه عن ابن عباس عن أبي بن كعب — رضي الله عنهم جميعاً — أن أبياً سمع النبي — ﷺ — يقول " إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل ، أو قال ذكر الناس يوماً حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ، ولّيّ ، فأدركه رجل فقال : أي رسول الله ، هل في الارض احد أعلم منك ؟ قال :لا ، أوأنه — عليه السلام — سئل:أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا ، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه:إن لـــي عـــبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى : يارب كيف لي به؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل [٦] فحيثما فقدت الحوت فهو ثمَّ "[٧] وذكر تمام القصة على سياق القرآن الكريم .

---

(١) انظـــر هذه الأقوال في فتح الباري (٤٣٣/٦) ،قال عبدالله بن الإمام أحمد في كلام عبدالرزاق ، " أظن هذا تفسيراً من عبدالرزاق " بمعنى أنه ليس حديثاً مسنداً إلى النبي — ﷺ — .

(٢) انظر : فتح الباري (٩/ ٤٣٣) .

(٣) سورة الكثف ، الآيات (٦٠ — ٦٥) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (١٧٤/٥) .

(٥) صحيح البخاري — رقم (٤٧٢٥) كتاب التفسير ، سورة الكهف ، باب (٢) .

(٦) المكـــتل عـــلى وزن منـــبر : زنبيل يسع خمسة عشر صاعاً ، ترتيب القاموس (١٤/٤) ،وفي اللسان (٥٨٣/١١) المِكتل والمِكتلة : الزَّ بيل الذي يحمل فيه التمر او العنب إلى الجرين .. وهو بكسر الميم : الزمبيل الكبير كأن فيه كُتلاً من التمر أي قطعاً مجتمعة .

(٧) صـــحيح الـــبخاري ـــرقم (١٢٢) ، . ٤٧٢٥) ، (٤٧٢٦) الفـــتح (٢١٧/١) ، (٤٠٩/٨ — ٤١٢) ، وصـــحيح مســـلم (١٨٤٧/٤) ح رقـــم (٢٣٨٠) ، ســـنن الـــترمذي — كـــتاب التفســـير — ســـورة الكهـــف (١٨) بـــاب(١) ،واحمـــد فـــي المسند

وليس المقصود هنا مجرد سياق القصة ، وإنما مقصودنا أن نبين ماقاله السيوطي عن الخضر اعتقاداً ، وفصل الكلام فيه ، وسأتناول هنا الكلام عنه في مسألتين اثنتين — إن شاء الله — :

أحداهما : هل الخضر نبي أم أنه مجرد ولي ؟

الثانية : هل هو حي الآن أم أنه في عداد الأموات ؟

أولاً : نبـوة الخضر :

اختلف العلماء في حقيقة الخضر هل هو ولي أو نـبي ؟

١— فذهب أبو القاسم القشيري في رسالته ، وأبو علي ابن أبي موسى من الحنابلة ، وأبو بكر بن الأنباري ، وجماعـة من المتصوفة إلى أن الخضر كان ولياً وليس بنبي [١] ، وهذا هو الأساس الذي بنت عليه المتصوفة ضلالها في تفضيل الولي على النبي والرسول ، كما قال قائلهم :

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول ودون الولي [٢]

وعلى هذا القول : الولي في اعلى المقامات ،ويليه النبي ، وأما الرسول فهو في أدنى المنازل ، وهذا رأي باطل والأدلة على خلافه ،

٢— وذهـب ابـن عـبـاس ووهـب بن منبه إلى أنه كان نبياً غير مرسل [٣] وهو قول جمهور العلماء من المفسرين والأصـوليين والمحدثيـن والمؤرخين ، فقد حكي ابن عطية البغوي عن اكثر اهل العلم أنه نبي [٤] ، وقال الفخر الرازي : " قال الأكثرون أن ذلك العبد الصالح كان نبياً "[٥]

وقال القرطبي : " والخضر نبي عند الجمهور ، وقيل هو عبد صالح غير نبي ، والآية تشهد بنبوته ، لأن بواطن أفعاله لاتكون إلا بوحي وأيضاً فإن الإنسان لايتعلم إلا ممن هو فوقه وليس يجوز أن يكون فوق النبي من ليس بنبي"[٦]

وقـال أبو حيان: " والجمهور على أنه نبي "[٧] ، وقال الثعلبي : " هو نبي في جميع الأقوال "[٨] وفي هذا نظر لأن الخلاف مشهور ،

غيـر أنـه لم يرد نص صريح بإثبات نبوته ،ولكن سياق قصته مع موسى — عليه السلام — في القرآن يوحى بنبوته ،ويدل على ذلك أدلة منها :

١ — قوله تعالى : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ﴾ [٩] والله تعالى يصف الأنبياء في أشرف المقامات بالعبودية ، كما

(١١٨/٥، ١١٩) ،

[١] أنظر : ابن حجر : الزهر النضر ضمن مجموعة الرسائل المنبرية (١٩٨/٢ — ١٩٩) ، وابن كثير : تفسيره (١٨٣/٥) ، وفتح الباري (٦ / ٤٣٤)

[٢] ابن تيمة : مجموع الفتاوي (٢٢٦/١١)

[٣] الزهر النضر ، ٢/ ١٩٨) ، وأنظر : الدر المنثور (٤٢٥/١٦) ،

[٤] انظر فتح الباري (٤٣٥/٦) ،

[٥] التفسير الكبير (١٤٩/٢١) ،

[٦] الجامع لأحكام القرآن (١٢/١١) ،

[٧] انظر ابن حجر ، الزهر النضر في نبأ الخضر (١٩٨/٢) ،

[٨] نفسه

[٩] سورة الكهف ، بعض الآية (٦٥) ،

قال تعالى : ﴿ وإن كنتم في ريب ممانزلناعلى عبدنافأتوا بسورة من مثله ﴾ [١] والعبد هنا في هذه الآية هو رسول الله محمد — ﷺ — وقال جل وعلا — أيضا —:﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ... ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿الحمد لله الذي أنــزل عــلى عبده الكتاب ... ﴾ [٣]وقال تعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده .. ﴾ [٤] وقال تعالى : ﴿ فــأوحى إلى عــبده مــاأوحى ﴾ [٥] وقال تعالى : ﴿ هو الذي ينزل علىعبده آيات بينات ... ﴾ [٦] وقال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً .. ﴾ [٧] وقال تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى ، عبداً إذا صلى[٨]

فهذه الآيات كلها في حق رسول الله ونبيه ومصطفاه محمد — ﷺ — .

وقال تعالى في حق رسول الله نوح — عليه السلام — : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ [٩] .

وقال تعالى عن نوح ولوط عليهما السلام : ﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأت نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ... ﴾ [١٠] .

وقال تعالى عن عيسى — عليه السلام — : ﴿ قال اني عبد الله ... ﴾ [١١] وقال تعالى : ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكــون عــبداً لله ... ﴾ [١٢] وقال تعالى : ﴿إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ... ﴾ [١٣] ،وقال تعالى عن داود عليه الســلام :﴿ .. واذكر عبدنا داود ذا الأيد ... ﴾ [١٤] وقال تعالى عن سليمان عليه السلام :﴿ ووهبنا لداود سليمان نعــم العــبد إنــه أواب ﴾ [١٥] وقــال تعــالى عــن أيــوب — عــليه الســلام — : ﴿ واذكــر عــبدنا أيــوب إذ نادي ربه ... ﴾ [١٦] ثم قال تعالى عنه : ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد ... ﴾ [١٧] ،وهكذا حديث ربنا عن الأنبياء ووصفهم بالعبودية لأنهم أفضل من حققوا العبودية التامة الكاملة لله جلا وعلا ،وكذلك قال تعالى عن الخضر : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا ... ﴾ [١٨] فهو من جملة هؤلاء العباد الأنبياء .

٢ — قولــه تعــالى : ﴿ ... آتيناه رحمة من عندنا ... ﴾ [١٩] والرحمة من معانيها النبوة قال ابن عباس —

---

(١) سورة البقرة ، بعض الآية (٢٣) .

(٢) سورة الاسراء بعض الآية (١) .

(٣) سورةالكهف ، بعض الآية (١) .

(٤) سورة الفرقان ، بعض الآية (١) .

(٥) سورة النجم ، الآية (١٠) .

(٦) سورة الحديد بعض الآية (٩)

(٧) سورة الجن ، الآية (١٩) .

(٨) سورة العلق ،الآيتان (٩، ١٠) .

(٩) الاسراء ، الآية (٣) .

(١٠) سورة التحريم ،بعض الآية (١٠)

(١١) سورة مريم ، بعض الآية (٣٠) .

(١٢) سورة ا لنساء ، بعض الآية (١٧٢) .

(١٣) الزخرف ، بعض الآية (٥٩) .

(١٤) سورة ص ، بعض الآية (١٧) .

(١٥) سور ص ، الآية (٣٠) .

(١٦) سورة ص ، بعض الآية (٤١) .

(١٧) سورة ص ، بعض الآية (٤٤) .

(١٨) سورة الكهف ، بعض الآية (٦٥) .

(١٩) سورة الكهف ، بعض الآية (٦٥) .

رضي الله عنهما — أعطيناه الهدى والنبوة .[١] .

يؤيـد هـذا قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، أهم يقسمون رحمة ربك ... ﴾ [٢] .

قـال القرطبي : " يعنى النبوة " [٣] وكذلك قال الشوكاني [٤] وقال أبو المظفر السمعاني : " أي رسالة ربك " [٥] وبنحوه قال ابن كثير [٦] .

وكذلك قوله تعالى في سياق قصة نوح — عليه السلام — :﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ... ﴾ [٧]قال القرطبي : " أي نبوة ورسالة ، عن ابن عباس ، وهي رحمة على الخلق " [٨] .

٣ — قولـه تعالى : ﴿ ... وعلمناه من لدنا علماً ﴾ [٩] فقد أطلعه الله تعالى على علم ببعض الأمور الغيبية ، وهذامـن عـلم النبوة ، يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ... ﴾ [١٠] قال القرطبي : " النبوة والخلافـة في الأرض والزبور " [١١] . وقال ابن كثير :" الملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة"[١٢] وكذل قيـل في قوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ... ﴾ [١٣] أي ورثه في مهمة النبوة ، قال السمعاني : " ليس المراد منه وراثة المال ، وإنما المراد منه إرث الملك والنبوة " [١٤] .

٤ — لو لم يكن الخضر نبياً لكان غير معصوم ، وهذا معناه احتمال الخطأ في بعض أفعاله ، فكيف يتبعه ويتعلم منه نبي معصوم ؟ وإذا أخطأ في فعل من الأفعال فكيف يقتدي به النبي المعصوم ؟ فاتباع موسى — عليه السلام — له دل على عصمة الخضر في أفعاله ، ولا عصمة إلا للأنبياء .

٥ — إقدام الخضر على قتل الغلام دل على نبوته ،لأن قتل النفس المعصومة لايجوز إلا بالحق ،ولو لم يكن نبياً لما علم كفر الغلام ، وبخاصة ان موسى النبي الذي معه لم يعلم كفر الغلام .

ثم تعليل الخضر لموسى — عليهما السلام — بأن قتله لكفره ، يدل على أن الله أخبره بكفره ، وأمره بقتله .

٦ — قـول الخضـر : ﴿ ومافعلته عن أمرى ... ﴾ [١٥] أي لم أقم بهذه الأفعال عن امري الشخصي ، وإنما أمرني بها الله سبحانه وتعالى ، وهذا الأمر الرباني عن طريق الوحي .

---

[١] السيوطي : الدر المنثور (٤٢٥/١٦) .

[٢] سورة الزخرف ،الآية (٣١) وبعض (٣٢) .

[٣] الجامع لأحكام القرآن (٥٦/١٦) .

[٤] انظر فتح القدير (٥٥٤/٤) .

[٥] تفسير السمعاني (٩٩/٥) .

[٦] تفسير القرآن العظيم (٢١٣/٧) .

[٧] سورة هود بعض الآية (٢٨) .

[٨] الجامع لأحكام القرآن (١٩/٩) ، الدر المنثور (١٢/ ٤١٦) عن ابن جريج . وعزاه لابن جرير وأبي الشيخ .

[٩] سورة الكهف ، بعض الآية (٦٥) .

[١٠] سورة النمل ، بعض الآية (١٥) .

[١١] الجامع لأحكام القرآن (١٣ / ١١٠) .

[١٢] تفسير القرآن العظيم (١٩٢/٦) .

[١٣] سورة النمل ، بعض الآية (١٦) .

[١٤] تفسير السمعاني (٨٦/٤) ، والشوكاني (١٢٩/٤) ، والدر المنثور (٣٤٤/١٩) .

[١٥] سورة الكهف ، بعض الآية (٨٢).

قال ابن حجر :" وهذه ظاهرة أنه فعله بأمر من الله والأصل عدم الواسطة ، ويحتمل ان يكون بواسطة نبي آخر لم يذكره وهو بعيد ولاسبيل إلى القول بأنه إلهام لأن ذلك لايكون من غير النبي وحيا حتى يعمل به ماعمل من قتل النفس ،وتعرض الانفس للغرق ، فإن قلنا إنه نبي فلا إنكار في ذلك ٠٠ وكان بعض أكابر العلماء يقول : أول عقدة تحل من الزندقة اعتقاد كون الخضر نبياً ، لأن الزنادقة يتذرعون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي "[١]

٧ ــ عتب الله تعالى على موسى ــ عليه السلام ــ عندما قال : " أنا أعلم الناس " فقال له الله تعالى : " إن عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك " فالخضر أعلم من موسى في تلك المسائل ولايمكن أن يكون من ليس بنبي أعلم من النبي ٠

٨ ــ قول الخضر لموسى : " إني على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمك الله لاأعلمه"[٢].

وبناء على هذه الأدلة فلا مسوغ للقول بأن الخضر ليس بنبي وإنما هو ولي ، فهذا يقتضي تفضيل الولي على النبي ،وهذا أمر خلاف الإجماع ، ولذلك شدد بعض العلماء جداً في الأنكار على من نفى النبوة عنه قال القرطبي : " ولننبه هنا على مغلطتين :

الأولى : وقع لبعض الجهلة ان الخضر أفضل من موسى ٠ تمسكاً بهذه القصة وبما اشتملت عليه ،وهذا إنما يصدر ممن قصر نظره على هذه القصة ولم ينظر فيما خص الله به موسى عليه السلام ــ من الرسالة وسماع كلام الله وإعطائه التوراة فيها علم كل شيء ، وأن أنبياء بني اسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته ، ومخاطبون بحكم نبوته حتى عيسى ، وأدلة ذلك في القرآن كثيرة ٠٠٠ والخضر وإن كان نبياً فليس برسول باتفاق ، والرسول أفضل من نبي ليس برسول ، ولوتنزلنا على انه رسول فرسالة موسى أعظم وأمته أكثر فهو أفضل ، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل وموسى أفضلهم وإن قلنا إن الخضر ليس بنبي بل ولي ، فالنبي أفضل من الولي وهو أمر مقطوع به عقلاً ونقلاً ، الصائر إلى خلافه كافر لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة "[٣] ٠

فقوله : " والصائر إلى خلافه كافر " أي : إن القول الصحيح : أن النبي أفضل من الولي فمن صار إلى خلاف هذا القول كفر ، ذلك لأنه يستلزم تنقص الأنبياء والإزراء بهم ، وإنزالهم منزلة دنيئة لم يردها الله تعالى لهم ، وهذا يؤدي إلى اعتقاد النقص فيهم والجهل وعدم الفطنة ، والبلادة وثقل الفهم ، كما أن مسألة تفضيل النبي على الولي مماعلم من الدين بالضرورة ، لا يحتاج المؤمن معه إلى دليل ، فقد استقر في جميع فطر المؤمنين ان الأنبياء هم صفوة البشر الذين اختارهم الله تعالى سفراء بينه وبين خلقه ، ولايقع اختيارة سبحانه لمن يشغل منصب النبوة إلا على من لايفضله أحد من البشر كائناً من كان ، فإذا كان الولي أفضل ، فكيف يختار الله تعالى لهذا الشأن الخطير الشخص الأدنى دون الأعلى والأفضل وهو الشأن الذي به سعادة البشرية ونورها وحياتها ٠

ومما سبق من الأدلة وأقوال العلماء يتبين بجلاء أن الحق والصواب هو أن الخضر نبي من أنبياء الله تعالى ، وأن القول بولايته دون نبوته باطل ،وهو مدخل كبير للكفر والزندقة والانحلال من أحكام الشرع الشريف ، وليس معنى قولنا إنه نبي أننا ننفي عنه الولاية فكل نبي ولي ولاينعكس بمعنى أنه ليس كل ولي يكون نبياً ، فالأنبياء هم افضل الأولياء بمعنى أنهم تعدوا منزلة الولاية بمراحل بعيدة شاسعة ، فلا مقارنة بين الأنبياء وبين غيرهم ولامجال أن يقترب الولي من النبوة ، فضلاً عن أن يقال أن الولي أفضل من النبي ، فهذا امر مقطوع به عقلاً ونقلاً ــ كما قال القرطبي ــ والصائر الى خلافه كافر ، ومثله من قال إن الولي لا يحتاج إلى النبي ، أو لايحتاج إلى الشرع

---

(١) الزهر النضر (ص ١٩٧ ــ ١٩٨) ٠

(٢) انظر هذه الأدلة في " البداية والنهاية " (٣٢٨/١) ٠

(٣) ابن حجر : فتح الباري (٢٢١/١) ،نقلها عن القرطبي ٠

الذي أتى به النبي — ﷺ — فهذا الكلام ايضاً — كما قال القرطبي — زندقة وكفر ،وقد حكم عليه بالقتل من غير استتابة ،والحق انه فعلاً يستحق هذا الحكم ، ونسأل الله تعالى الهداية للحق والثبات عليه ٠

إما الجلال السيوطي فقد رأيت له رسالة في فهرس مخطوطاته بعنوان " الوجه النضر في ترجيح نبوة الخضر "[1] ولم أرها ، والظاهر من عنوانها أن السيوطي يرجح القول بنبوة الخضر ،وأنه بذلك قد وافق الراي الصحيح ، والقول الذي ذهب إليه جمهور الائمة ، فالحمد لله الذي وفقه لترجيح القول الصحيح ٠

ثانياً : هل هو حي أم ميت ؟

الناس في موت الخضر وحياته على ثلاثة أقوال :

١ — منهم من قطع بموته وعدم وجوده ٠

٢ — ومنهم من ذهب إلى أنه حي ٠

٣ — ومنهم من توقف ولم يقل بواحد من القولين السابقين ٠

أما السيوطي فله في هذه المسألة قولان :

١ — رأي ارتضاه وهو القول بانه حي ٠

٢ — والثاني التوقف ٠

ولاأدري أيهما أرجح عنده ٠ هل قوله بحياة الخضر كان أولاً، ثم رأي أن أدلة هذا القول لاتفيد القطع اليقيني بذلك وإن كانت وردت في حياته آثار وأقوال ، ومن ثم توقف في الحكم بحياته أوموته ٠

أم ان التوقف كان أولاً ثم رجحت لديه الأدلة فكونت عنده ظناً غالباً فارتضى بعد ذلك القول بحياته ،وإن ماتحت يدي الأن لايسعفني في الجواب على هذا التساؤل ،وسأورد الآن كلا رأييه :

أما قوله بحياة الخضر ، فقد قاله جواباً على سؤال سائل ضمن "الحاوي " قال السائل :

ماأشهر القولين يامن علمه ... أربى على الأقران والنظراء
في موت مشهور الحياة أي الخضر ... وحياته يافائزاً بثناء
قولان مشهوران قالهما الرضا ... شيخ الزمان وفائق العلماء
بقوام دين الله لقب وهو من ... ببغداد يشهر بين كل ملاء
وأقام برهاناً على فقدانه ... فأعجب لذا ياكامل الآراء
لازلت معدوداً لكل مبلمة ... وجزيت يوم الحشر خير جزاء

فأجاب السيوطي على السائل بقوله

من بعد حمدي دائماًوثنائي ... ثم الصلاة لسيد النجباء
للناس خلف شاع في خضر وهل ... أودي قديماً أوحي ببقاء
ولكل قول حجة مشهورة ... تسمو على الجوزاء في العلياء
والمرتضى قول الحياة فكم له ... حجج تجل الدهر عن إحصاء
خضر وإلياس بأرض مثل ما ... عيسى وادريس بقوا[2] بسماء

---

(١) دليل مخطوطات السيوطي وأماكن وجودها " تأليف كل من : احمد الخازندار ومحمد إبراهيم الشيباني (ص١٤٩) ط / ١٤٠٣ هـ — ١٩٨٣م ،كشف الظنون (٢٠٠١) ، برلين (٢٥٥٨ / ٩) ، هدية العارفين (١/٥٤٤) ٠

(٢) هكذا في الحاوي (١٣٩/٢) بصيغة الجمع والصحيح أن يعبر بصيغة المثنى ولعله من ضرورة النظم ٠

(٣) الحاوي (١٣٩/٢) ٠

هــــذا جـــــواب ابــــن الســـــيوطي الـــــذي عيســــــى وإدريـــــــس بقـــــــوا[٢] بســــــماء
يــــرجو مــــن الــــرحمن خيـــــر جــــزاء[٣] "

وفي هذا إشارة إلى اختلاف الناس في موت الخضر وحياته ، ثم بين أن القول الذي ارتضاه هو القول بحياته ، وأما قوله

خضر وإلياس بأرض مثل ما عيسى وإدريس بقوا بسماء

فهو إشارة إلى الأثر الذي يقول : " أربعة من الانبياء أحياء : أثنان في السماء عيسى وإدريس وإثنان في الارض ، الخضر وإلياس ، فاما الخضر فإنه في البحر وأماصاحبه فإنه في البر "[١]

وأما توقفه في ذلك فقد رأيته في مقامة من مقاماته بعنوان " طرز العمامة في التفرقة بين المقامة والقمامة"[٢]

وهـــي رد عــــلى أحد خصومه في عصره ، قال السيوطي ، " وأما الخضر بخصوصه فأئمة الحديث لايثبتون له الآن وجـــوداً ، ومايروى في حقه رأوه في ديوان الموضوعات معدوداً ، وأما أنافلا أقول فيه نفياً ولا إثباتاً،ولا أنطق في حقه بثاء ولاباء ولاتاء ، مراعاة لاهل الحديث والصوفية ،ولعدم أدلة بإثباته وفية" [٣]

وكما قلت فليس لدى الآن مايرجح أحد القولين اللذين تردد بينهما السيوطي ٠

أمـــا القائـــلون بحيـــاة الخضر فقد بنوا رأيهم على كثير من الروايات والحكايات والأقاويل ، وحتى بعض الخرافات والاساطير ويزعمون مقابلته لرسول الله ــ ﷺ ــ ومقابلته لأبي بكر وعمر وعلي وعمر بن عبدالعزيز ، ولقاءه مع كثيرمن الــزهاد والعـــباد والمتصـــوفين ، وأنه يجوب الفيافي والقفار والأماكن المهجورة ، ويظهر على عابدين يعلمهم ويطعمهم ويكلمهم وأكثر الناس رواية للاساطير والاقاويل والحكايات المنسوجة حول حياته ولقاءاته هم الصوفيون ٠

وممـــن قـــال بحياة الخضر ــ عليه السلام ــ بعد رسول الله ــ ﷺ ــ من العلماء : الإمام النووي ، وابن الصلاح والسهيلي وغيرهم ٠

قـــال الـــنووي : " قـــال الاكثرون من العلماء :هو حي موجود بيننا ،وذلك متفق عليه عند الصوفية ، وأهل الصلاح والمعـــرفة ، وحكايـــاتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه ، وسؤاله وجوابه ،ووجوده في المواضع الشريفة ، ومواطن الخير أكثر من أن تحصر ،وأشهر من أن تذكر ٠

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاويه : هو جي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة معهم في ذلك ، وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين"[٤] ٠

---

(١) عــزاه الســيوطي في الدر المنثور" إلى ابن شاهين عن خصيف (٤٣٢/١٦) ، والخبر متنه باطل ، لأن المعلوم والمقطوع به من عقدية أهل الســنة والجماعــة ــ أن الله لــم يجعل لبشر الخلد ، وأن كل الانبياء ــ عليهم السلام ــ أموات سوى عيسى ــ عليه السلام ــ بنص القرآن الكــريم ،والســنة الصحيحة المتواترة عن نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان ، أما الأثر الذي ذكره السيوطي ،فإن خصيفاً هذا هو ابن عبد الــرحمن الجزري الحراني ، أبو عون ، ضعفه أحمد ، وقال مرة ليس بالقوي ،وقال ابن معين : صالح ، وقال مرة : ثقة ، وقال أبو حاتم : تكــلم في سوء حفظه ، وقال يحيى القطان : كنا نجتنب خصيفاً ،وفي التقريب (١٧٢٨) صدوق سيء الحفظ خلط بآخره ورمي بالارجاء أ ــ هــ ٠ وفـــي التهذيب (٢٠٢٨) عن أحمد بن حنبل : خصيف شديد الاصطراب في المسند ، وقال أبو حاتم : صالح يخلط ،وتكلم في سوء حفظه ، وقال الآجري عن ابي داود : مضطرب الحديث ٠ أ ــ هــ ٠

(٢) انظر : سمير محمود الدروبي : شرح مقامات السيوطي (٦١٦/٢) ٠

(٣) شرح مقامات السيوطي (٦٩٨/٢ ــ ٦٩٩) ٠

(٤) تهذيب الأسماء واللغات (١٧٦/١ــ١٧٧) ٠

ورغـم أن هـذا الفـريق من العلماء اعتمدوا على أحاديث وأقاويل وروايات إلا أنه لم يصح منها شيء ، فكل هذه الروايات مابين الضعيف والموضوع ،ولم تصل واحدة منها لمرتبة الحسن فضلاً عن الصحيح .

ولذلـك نقـل ابـن حجر عن أبي الخطاب بن دحية في رده على السهيلي ـ والسهيلي ممن يقول بحياة الخضربعد البعثةـ قال " الطرق التي أشار إليها لم يصح منها شيء ،ولاثبت إجتماع الخضر مع أحد من الأنبياء ، إلا مع موسى عليه السلام ـ كما قص الله خبرهما .

وجميـع مـاورد في حياته لايصح منها شيء باتفاق أهل النقل ، وإنما يذكر ذلك من يروى الخبر ولايذكرعلته ، إما لكونـه لايعرفها ، وإما لوضوحها عند أهل الحديث ،وأما ماجاء عن المشايخ فهو ممايتعجب منه ، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شخصاًلايعرفه فيقول له :أنا فلان ، فيصدقه " [١]

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله بعد أن أورد روايات وأقوالاً عن حياته : " وهذه الروايات والحكايات هي عمدة من ذهـب إلى حياتـه إلى اليـوم وكل من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً لايقوم بمثلها حجة ، في الدين ، والحكايات لايخلو أكثرها من ضعف في الإسناد،وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم من صحابي وغيره لأنه يجوز عليه الخطأ "

ثم قال : " وقد تصد الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه" عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر " للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات فبين أنها موضوعات ،ومن الآثار عن الصحابة فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها ، وقد أجاد في ذلك وأحسن الأنتقاد " [٢]

الراجح الصحيح موت الخضر

المحققـون مـن العلماء على أن الخضر ـ عليه السلام ـ عاش حياته كما قدرها له الله تعالى ، ومات قبل بعثه نبينا محمـد ـ ﷺ ـ وهـم يردون أقوال من قالوا بطول حياته واستمرارها حتى قبيل قيام الساعة ، كما قال السيوطي : " لعدم أدلة بإثباته وفيه " [٣]

وممـن ذهب إلى موت الخضر قبل البعثة الإمام البخاري ، والإمام إبراهيم الحربي ، وابن الجوزي وابن كثير[٤] ،و مـال إلى هذا الحافظ ابن حجر في رسالته : " الزهرالنضر في نبأ الخضر " وقد استدل هؤلاء الأئمة على هذاالرأي بأدلة ذكر خلاصتها الإمام ابن كثير ،ومن ذلك :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾[٥]فالآية الكريمة تقرر أنه لايخلد أي بشر عـلى وجه الأرض ، والخضر من جملة البشر ، فدخل ضمن مفهوم هذه الآية ولايوجد حديث صحيح يخصص الخضر ويسـتثنيه من عدم الخلود في الدنيا ، كما صحت بذلك الأخبار عن الدجال ، وتصريح القرآن بحياة عيسى عليه السلام ، فليس ثمة دليل يخصص الخضر مثلهما ، وعليه يجب القطع بموته وعدم وجوده لأن دلالة الآية قاطعة بذلك .

٢ ـ قولـه تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا قال فأشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [٦] .

قـال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في تفسير الآية : " مابعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد

---

(١) الزهر النضر في نبأ الخضر (٢/٢٠٣) ضمن مجموعة الرسائل المنبرية .

(٢) البداية والنهاية (١/٣٣٤) .

(٣) شرح مقامات السيوطي (٢/٦٩٩) .

(٤) انظر المنار المنيف (ص ٦٧ـ ٧٦) .

(٥) سورة الانبياء ، الآية (٣٤) .

(٦) سورة آل عمران ، الآية (٨١) .

وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه "[١]

والخضـــر عليه السلام ــ إما أن يكون نبياً أو ولياً،وعلى كلاً الحالين هو مطالب أن يؤمن بمحمد ــ ﷺ ــ فإن كان نــبياً فظاهر من كلام علي وابن عباس ، وإن كان ولياً فمن باب أولى أن يأتي إليه ويبايعه وينقاد له ، وإذ لم يحصل شيء من ذلك دل على أنه لاوجود له ٠

٣ ــ أن الرسول ــ ﷺ ــ دعاربه في غزوة بدر الكبرى أن ينصر المسلمين قائلاً : " اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعــبد فــي الأرض "[٢] وكــان مع تلك العصابة المؤمنة أبو بكر وعمر وخيار الصحابة كما كان معهم جبريل ومعه خيار الملائكــة ومعــنى ذلك أنه إذا هلكت تلك العصابة فلن يبقى في الارض من يعبد الله تعالى ، لا الخضر ولاغيره ، ممايبين عدم وجوده وأنه لايوجد وقتها مؤمن على وجه الأرض سوى هؤلاء الصحابة الذين كانوا مع النبي ــ ﷺ ــ ٠

٤ ــ قوله ــ ﷺ ــ :" أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لايبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد "[٣] ٠

قال ابن عمر رضي الله عنهما فوهل الناس " أي أخطأوا وغلطوا) في مقالة رسول الله ــ ﷺ ــ تلك فيما يتحدثون من هــذه الأحاديث عن مائة سنة وإنما قال رسول الله ــ ﷺ ــ " لايبقي ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد ، يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن "[٤] ٠

وعن جابر ــ رضي الله عنه ــ قال :" سمعت النبي ــ ﷺ ــ يقول قبل أن يموت بشهر :" تسألوني عن الساعة ؟ وإنما علمها عند الله ، وأقسم بالله ماعلى الأرض من نفس منفوسة تأتي عليها مائة سنة "[٥] ٠

فلو سلمنا بحياة الخضر حتى بعثة رسول الله محمد ــ ﷺ ــ وهذاغير صحيح ــ لزم أن يموت خلال مائة سنة من تاريخ النطق بذلك الحديث ٠

٥ ــ لوكــان الخضــر حياً لكان مطالبا بنشر العلم وتعليم الناس وتبليغهم أحاديث النبي ــ ﷺ ــ وتمييز صحيحها من ضعيفها وطيبها من خبيثها ، وكان مطالباً بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا لم يحصل ٠

٦ ــ ثــم ماهي الحكمة من اختفاء الخضر هل هو خائف أم مستح ٠ فإن قيل بالأول فهذا ليس من خلق الأولياء أن يكونــوا جبناء ، فضلاً عن ان يكون خلقاً للأنبياء وإن قيل بالثاني فهو جبلة الأطفال والنساء وليس بخلق للأولياء فضلاً عن الأنبياء ٠

ثــم كذلــك ماهي الحكمة من ذهابه إلى الجبال والمغاور والكهوف والبراري ؟ ولماذا لايعيش مع الناس يصلي معهم الجمع والجماعات يعلم جاهلهم ،ويواسي فقيرهم ،ويعطي محرومهم ، ويمسح على رأس يتيمهم ؟ وهل يليق هذا بنبي كريم ؟ بل بولى على طريق مستقيم ؟ بل برجل عامي ذو عقل سليم ؟ ٠

وفــي معــرض بيان الأحاديث المكذوبة على النبي ــ ﷺ ــ يقول العلامة ابن القيم " ومنها الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب ،ولايصح في حياته حديث واحد "[٦] ٠

---

(١) ابــن جرير ، جامع البيان (٣٣/٣) وروى ابن جرير أيضاً نحوه عن قتادة ، والسدي ، ونحوه أيضاً عن ابن عباس ،عند ابن كثير ، (٥٦/٢) وعزا السيوطي في الدر المنثور " (٢٥٢/٣) أثر قتادة إلى عبد بن حميد ، وأثر السدي إلى ابن أبي حاتم ٠

(٢) صحيح مسلم (١٣٨٤/٣) ح رقم (١٧٦٣) ، واحمد في المسند(٣٠،٣٢/١) ٠

(٣) صحيح مسلم (١٩٦٥/٤) ح رقم (٢٥٣٧) ٠

(٤) نفسه ٠

(٥) نفسه ، ح رقم (٢٥٣٨) ٠

(٦) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ٠ ص ٦٧) ــ : تحقيق عبدالفتاح أبو غده ، مكتبة المطبوعات الإسلامية حلب ــ سورية " ٢ / ١٤٠٢ هــ ــ ١٩٨٢) ٠

ثـم سـاق بعض الأحاديث المكذوبة ثم قال : " سئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر وأنه باق ؟ فقال /: من أحال على غائب لم ينتصف منه ، وما ألقى هذا بين الناس الإشيطان ، وسئل البخاري عن الخضر وإلياس،هل هما أحياء فقال : " كيـف يكـون هذا ؟ وقد قال النبي — ﷺ — : " لايبقى على رأس مائة سنة ممن هواليوم على ظهر الأرض أحد " ... وسـئل شيخ الإسلام ابن تيمة — رحمه الله — فقال : لوكان الخضر حياً لوجب عليه أن ياتي النبي — ﷺ — ويجاهد بين يديه ويتعلم منه، وقد قال النبي — ﷺ يوم بدر : " اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد في الأرض ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم فأين كان الخضر حينئذ ؟ "[1] .

وأفاض كذلك الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في تقرير الأدلة التي تثبت موت الخضر وعدم حياته ،وهي أربعة أنواع : القرآن ، والسنة ،وإجماع المحققين من العلماء ، والمعقول[2] وهي في معظمها وجملتها لا تخرج عن الأدلة التي قدمناها

وبعـد هذه الأدلة وأقوال الأئمة المحققين نقرر ونؤكد أن الخضر عليه السلام — ليس حياً الآن بل مات قبل البعثة بمدة لايعلمها إلا الله وحده .

لذلك أدعو إلى طرح كل الروايات والأخبار والاقوال التي تنسج حول الخضر من الخرافات والاساطير والأباطيل التي لاحقيقة لها ، والله تعالى الموفق للصواب .

المبحث السادس: تطور الولي

المقصـود بتطور الولي عند السيوطي ، أن الولي من أولياء الله تعالى لديه قدرة على التشكل ببدنه في أشكال متعددة كما يقع ذلك للملائكة والجن .

ويصـح في عقل السيوطي ان يرى الولي في هيئة بدنية ضخمة تفوق الهيئة المعتادة باضعاف كثيرة ، ثم يرى بعدها على هيئة العصفور الصغير .

ويصـح أيضـاً في عقل السيوطي أن يرى الولي في مكانين متباعدين أو أكثر في آن واحد ، إما بضخامة جسمه ، وعظـم حجمـه بحيث يملأ الكون ، أو يكون من باب طي المسافة وزوى الأرض من غير تعدد ، او يكون من باب تعدد الصور والتمثل والتشكل .

ويـزعم السيوطي أن هذا التمثل والتشكل هو عالم المثال ، الذي تثبته الصوفية ، وهو عالم متوسط بين عالم الأجساد وعـالم الأرواح ، فهـو ألطف من عالم الأجساد وأكثف من عالم الأرواح ،وبناء على إثبات هذا العالم يتم تجسد الأرواح وظهورها في صور متعددة مختلفة من عالم المثال" [3].

رحم الله الجلال السيوطي ، ماكان أحرى الأمة أن تستغنى عن هذا الهراء والخرافة ، وماكان أحراه هو — رحمه الله — وهو العالم المفسر لكتاب الله ، الحافظ لأحاديث رسول الله ، الفقيه الأديب الأريب ، ماكان أحراه أن يحارب الخرافة الـتي أتى الإسلام بهدمها ، والقضاء عليها ونقضها ، ولكن لكل جواد كبوة ، ولكل عالم زلة ، ولكنها زلة كبيرة من مثله ، تؤخذ عليه ولاتؤخذ منه .

وهاهو نص كلام السيوطي مع التعقيب عليه : قال السيوطي : " المنجلى في تطور الولي " قال بعد البسملة والحمد لـه : " رفع إلي سؤال في رجل حلف بالطلاق ان ولي الله الشيخ عبدالقادر الطشطوطي بات عنده ليلة كذا ، فحلف أخر بـالطلاق أنه بات عنده في تلك الليلة بعينها فهل يقع الطلاق على أحدهما أم لا؟ فأرسلت — يقول السيوطي — قاصدي إلى

---

(١) نفسه . ص ٦٧— ٦٨) .

(٢) انظر :المنار المنيف (ص ٦٩ — ٧٦)

(٣) انظر الحاوي (٢١٧/١ — ٢١٨) .

الشيخ عبدالقادر فسأله عن ذلك فقال : ولو قال أربعة إني بت عندهم لصدقوا ، فأفتيت بانه لايحنث واحد منهما "[١]

وناهيك عن بدعة الحلف بالطلاق ، فهي أهون من أختها ،إنما الداهية الكبرى في تأييد تلك الخرافة بالأدلة واعتبارها من الدين ،وينطق السيوطي في تثبيت هذا بأن الذي ينازع في وقوعها يتوهم أن وجود الشخص الواحد في مكانين في وقت واحـد غير ممكن بل هو مستحيل ، يقول السيوطي : " وليس كما توهمه هذا المتوهم من الاستحالة فقد نص الأئمة الاعلام على ان ذلك من قسم الجائز الممكن وإذا كان ممكناً فظاهر أنه لاحنث "[٢] يعنى في الطلاق من أحد الحالفين ٠

تعقيـب : هـنا يستدل السيوطي على إمكان وجود الولي في مكانين في آن واحد بقوله :" فقد نص الأئمة الأعلام " ، ونصوص الأئمة الأعلام ليست هي الدليل وأنما هذه النصوص يعوزها الدليل الشرعي ، وهو بهذا قد جعل المدلول عليه دليلاً ، وهذاخطأ ومثله في هذاكمثل من يقول : إن الدليل على وجوب الصلاة هو قول الأئمة إنها واجبة ، وإنما قول الأئمة مدلول يحتاج إلى دليل يدل عليه ٠

وكان الأجدر به أن يقول :إن الدليل على ذلك هو قول الله تعالى ، أو قول رسول الله ﷺ ولكنه لمالم يجد في قول الله تعالى ولافي قول رسوله ــ ﷺ ــ لجأ إلى الاستدلال بأقوال الأئمة ٠

وقـد ذكر السيوطي أسماء هؤلاء الأعلام فإذا هم من أعلام الصوفية وليسوا من اهل السنة كعلاء الدين القونوي [٣] ، وتاج الدين ابن عطاء الله السكندري[٤]، وعفيف الدين عبدالله اليافعي [٥]،ومعهم بعض الفقهاء المائلين إلى التصوف :كالتاج السـبكي [٦] وابن الملقن [٧] ،وغيرهما ٠ وليس من بين هؤلاء الأئمة من عرف بالسنة المحضة الخالية من شائبة التصوف كالأئمةالاربعة ومن على شاكلتهم ، وهذا يدل على تصوف السيوطي الواضح ، إذا يعتبر ابن عطاء الله السكندري إماماً له في ذلك وهو المعروف بمناواته لشيخ الإسلام ابن تيمية [٨] فارس أهل السنة ومن عادي شيخ الإسلام وناوأه وخاصمة كان في قلبه دخن على الحق وأهله ، ودل على انحرافه وزيغه عنه ، فيكف يستشهد به على عقيدة ؟

---

(١) الحاوي (٢١٧/١) ٠

(٢) الحاوي (٢١٧/١) ٠

(٣) هـو عـلي بـن إسماعيل بن يوسف القونوي ، ابو الحسن ، علاء الدين ، فقيه من الشافعية ، ولد بقونية عام (٦٦٨هـ ــ ٢٣٧٠ م) ونزل بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة وتصوف له : شرح الحاوي الصغير ت (٧٢٩هـ ــ ١٣٢٩م) بغية الدعاة (٣٢٩) ، البداية والنهاية (١٤/ ١٤١٠) والدرر الكامنة (٢٤/٣) ، الاعلام (٢٦٤/٤) ٠

(٤) هو :أحمد بن محمد بن عبدالكريم ، أبو الفضل ، تاج الدين ، ابن عطاء الله السكندري أو الاسكندري ، متصوف شاذلي ، كان من أشد خصوم شـيخ الإسـلام ابن تيمية ،له الحكم العطائية في التصوف ، ت بالقاهرة (٧٠٩ ــ١٣٠٩م)، الدرر الكامنة (٢٧٣/١) ، الرحلة العياشية (١/ ٣٥٧) كشف الظنون (٦٧٥) خطط مبارك (٧/ ٦٩) دائرة المعارف الاسلامي (٢٤٠/١) ، الأعلام (٢٢٢/١) ٠

(٥) هـو :عبالله بن اسعد بن علي اليافعي ، عفيف الدين مؤرخ ، باحث ، متصوف من شافعية اليمن ، نسبته إلى يافع من حمير ، مولده في عدن (٧٦٨ هـــ ــ ١٣٦٧م) ٠ من مصنفاته " نشر المحاسن الغالية ، في فضل مشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية ، "وروض الرياحين في مناقب الصالحين ، الدرر الكامنة ٠ ٢٤٧/٢) شذرات الذهب (٦/ ٢١٠ ٩ طبقات الشافعية (١٠٣/٦) ٠ مفتاح السعادة (١٢٧/١) ٠

(٦) هـو عـبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي ، ابو نصر ، قاضي القضاة ، المؤرخ الباحث ، ولد بالقاهرة ٠ ٧٢٧ ــ ١٣٢٧م) وانتقل إلى دمشـق مـع والده ، فسكنها حتى مات بها (٥٥٨ ــ ١٣٧٠م) نسبته إلى (سبك (من أعمال المنوفية بمصر ،عزل من منصب قاضي القضـاة بالشام ، واتهم بالكفر واستحلال شرب الخمر ،وأتوا به مقيداً مغلولاً إلى مصر ثم أفرج عنه وعاد إلى دمشق فتوفي بالطاعون ، من تصـانيفه " طبقات الشافعية الكبرى " ومعيد النعم ومبيد النقم " انظ ر: الدرر الكامنة (٤٢٥/٢) ، حسن المحاضرة (١٨٢/١) ، جلاء العينين (١٦) ، الاعلام (١٨٤/٤) ٠

(٧) هـو : عمـربن عـلي بـن احمد الانصاري الشافعي ، سراج الدين ، أبو حفص ، ابن النحوي المعروف بابن الملقن ، له " طبقات الأولياء " وغيره ، الضوء اللامع (١٠٠/٦) ، خطط مبارك (١٠٥/٤) ، الأعلام (٥٧/٥) ٠

(٨) انظر : مامضى في ترجمة ابن عطاء الله السكندري ٠

قال السيوطي : " وحاصل ماذكروه في توجيه ذلك ثلاثة أمور أحدها : أنه من باب تعدد الصور بالتمثل والتشكل كما يقع ذلك للجان ٠

والثاني : أنه من باب طي المسافة وزوى الأرض من غير تعدد فيراه الرائيان كل في بيته وهي بقعة واحدة إلا أن الله طوى الأرض ورفع الحجب المانعة من الاستطراق فظن أنه في مكانين ، وإنماهو في مكان واحد ٠٠

الثالث : أنه من باب عظم الحبشة للولي بحيث ملأ الكون فشوهد في كل مكان،كما قرر بذلك شأن ملك الموت ، ومنكر ونكير حيث يقبض من مات بالمشرق والمغرب في ساعة واحده ، ويسأل من قبر فيهما في الساعة الواحدة ، فإن ذلك أحسن الأوجه الثلاثة " [١] ٠

تعقيب :

أما قوله " من باب تعدد الصور بالتمثل والتشكل كمايقع ذلك للجان "[٢] فهذا لانسلمه في البشر وإن وقع في الملائكة والجن ، أما عن الملائكة فقد قال الله تعالى في حق جبريل : (فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً)[٣] قال ابن جرير : " فتشبه لها في صورة آدمي سوى الخلق منهم ، يعنى في صورة رجل من بني آدم معتدل الخلق " [٤] ٠

وقد جاءت الملائكة إبراهيم — عليه السلام — في صورة بشر وظن أنهم بشر فقدم لهم الطعام فلما لم يأكلوا علم أنهم ملائكة قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ٠ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ٠ قال سلام قوم منكرون ﴾ [٥] أي مجهولون لانعرفهم قاله في نفسه [٦] ، (فراغ [أي مال] إلى أهله فجاء بعجل سمين ٠ فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم) [٧] فلما بشروه بغلام ،وهو اسحاق[٨] — عليه السلام — علم أنهم رسل الله من الملائكة ، ولذلك قالوا : ﴿ إنا إرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ [٩] وهم قوم لوط — عليه السلام — وقد قال تعالى في آية أخرى : ﴿ فلما راي أيديهم لاتصل إليه نكرهم،وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا إرسلنا إلى قوم لوط ﴾ [١٠]

ثم جاءوا إلى لوط — عليه السلام — في صورة شباب حسان الوجوه ، قال تعالى : ﴿ ولماجاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب﴾[١١]

يقول ابن كثير : " تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان إمتحاناً واختباراً حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر "[١٢] ٠

---

(١) الحاوي للفتاوي (٢١٧/١ — ٢١٨) ٠

(٢) نفسه (٢١٧/١) ٠

(٣) سورة مريم ، عليها السلام — بعض الآية (١٧)

(٤) جامع البيان (٦٠/١٦) ٠

(٥) سورة الذاريات ، الآيتان (٢٤، ٢٥) ٠

(٦) تفسير الجلالين (ص ٦٩٣) ٠

(٧) سورة الذاريان ،الآيات (٢٦ — ٢٨) ٠

(٨) هذا قول جمهور العلماء ، انظر: ابن جرير ، جامع البيان (٢٠٨/٢٦) ،والجلالين (٦٩٤) وكلمات القرآن لحسنين مخلوف بهامش المصحف (ص ٤٤٠) ، وروى ابن جرير (٢٠٨/٢٦) عن مجاهد أنه هذا الغلام هوإسماعيل عليه السلام ولكنه رجح انه اسحاق لان البشارة كانت بالولد من سارة و إسماعيل لهاجر لا لساره — عليهما السلام —

(٩) سورة الذاريات الآية (٣٢) ٠

(١٠) سورة هود — عليه السلام — الآية (٧٠) ٠

(١١) سورة هود — عليه السلام — الآية (٧٧) ٠

(١٢) البداية والنهاية (١/ ٤٣) ٠

وقــد كان جبريل ــ عليه السلام ــ يأتي رسول الله ــ ﷺ ــ في صورة دحية الكلبي [١] وتارة في صورة أعرابي [٢] رآه جمــع من الصحابة وقد وردت أحاديث عدة تثبت تمثل الملائكة في صورة البشر يضيق المقام عن حصرها ، وهذا إنما اثبتناه وصدقناه وآمنا به لأنه قد قطع بثبوته في القرآن الكريم ، وفي صحيح السنة النبوية ، ولولا هذا ماأثبتناه ولا قلنا به ، وإنما أثبتناه وآمنا ، تصديقاً بماورد في الكتاب العزيز ، وإيماناً بما صحت به السنة الشريفة ٠

وكذلــك تشكل الجن بصور الآدميين قد وردت الإشارة إليه من القرآن الكريم ، وصرحت به السنة الشريفة ، قال الله تعالى : ﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ٠٠٠ ﴾ [٣] وهذا الشيطان قد جاء المشركين يوم بدر في صورة سراقة بن مالك ، على ماذكر المفسرون وأصحاب السير [٤] ولكنه لما رأى الملائكة تتنزل من الســماء عــندما التقى الجمعان والتحم الصفان ولي هارباً وتبرأ من المشركين ، قال تعالى : ﴿ ٠٠٠ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى مالاترون إني أخاف الله ٠٠٠ ﴾ [٥]

وفي حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عند ما وكله النبي ــ ﷺ ــ بحراسة أموال الصدقة تصور الشيطان في صــورة سارق يسرق من المال ليلاً ،وزعم أنه يعلم أبا هريرة آية إذا قرأها في فراشه لايقربه شيطان حتى يصبح ، فقال ــ ﷺ ــ صدقك وهو كذوب ، أتعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال ياأباهريرة "؟ قال : لا، قال " ذاك شيطان " [٦] ٠

فهــذا أيضــاً قد وقع وتمثل الشيطان أو الجن بصورة الإنسان أيده الدليل الشرعي في أحاديث النبي ــ ﷺ ــ التي ســبقت وفـــي غيــرها ، أما وقوع هذا التعدد للصور والتمثل في حق البشر فهذا لم يثبت ، ولم يقع لواحد من الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ ولاوقع حتى في حق الرسول ــ ﷺــ ولم ينقل إلينا في حديث صحيح ولاضعيف بل ولاموضوع ــ فيما أعــلم ــ أن الرســول ــ ﷺ ــ قد رآه شخصان فأكثر في مكانين او أماكن متعددة في وقت واحد ، ممايدل على بطلان ماذهب إليه السيوطي من أن الولي يُرى في صور متعددة او في أماكن متعددة في آن واحد ٠

أما هذا الذي يحصل لبعض الناس فلا يؤيده عقل ولاشرع ، إلا إذا كان يتمثل الجن بصورته في أماكن متعددة ، وهذا هــو الصــحيح لاغيره ، ولايضرنا تهويل السيوطي فيم ينقل عن هؤلاء الخرافيين المتعلقين من قلوبهم بغرائب الخرافات وشواذ النوادر من الحكايات التي لايؤيدها عقل ولاشرع ٠

وكل مانقله عن القونوي وابن عطاء الله ، وغيرها ليس بشيء وهو هراء لايؤبه به، ولا يعول عليه ٠

وقد وضح شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الأمر وأرجعه إلى المخاريق السحرية أو إلى أعمال الجن وتشكلهم وتمثلهم ببني آدم

قــال شــيخ الإســلام ــ رحمــه الله ــ : " وفي أصناف المشركين ، من مشركي العرب ،ومشركي الهند والترك واليونان وغيرهم ،من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة ، ولكن ليس بمتبع للرسل ولاموٌمن بماجاءووا به ولايصدقهم فيما أخــبروا به، ولايطيعهم فيما امروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ، ولا أولياء لله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم ، فيكاشفون الناس ببعض الامور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تتنزل عليه

---

(١) دحية بن خليفة الكلبي ، صحابي جليل بعثه الرسول ــ ﷺ ــ برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام ،كان يضرب به المثل في جمال الصورة ت نحو (٤٥هــ ــ ٦٦٥م) ٠ الاصابة (٤٧٣/١) ، والأعلام (٢ / ٣٣٧) وحديثه الذي فيه تمثل جبريل به رواه أحمد في المسند وابن سعد في الطبقات ، بإسناد حسن

(٢) فــي الصــحيحين من حديث عمر قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ٠٠٠ الخ وهو المعروف بحديث جبريل ــ البخاري (٥٠، ٤٧٧٧) ، صحيح مسلم رقم (٨ ، ٩ ، ١٠) ٠

(٣) سورة الأنفال ، بعض الآية (٤٨) ٠

(٤) انظر :ابن جرير : جامع البيان (١٨/١٠ ، وتفسير ابن كثير (١٦/٤) ، سيرة ابن هشام (٦١١/١) ٠

(٥) سورة الأنفال، بعض الآية (٤٨) ٠

(٦) صحيح البخاري رقم (٢٣١١) ، (٣٢٧٥) ، (٥٠١٠) ٠

الشـياطين . قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ﴾ [١] وهؤلاء جميعهم ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل فلابد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم ، ولابـد أن يكون في أعمالهم ماهو إثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش ، أو الغلو أو البدع في العبادة ، ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم ، فصاروا من أولياء الشيطان لامن أولياء الرحمن ﴾ [٢] .

وقال : " لوذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد، وعبده مجتهداً في عبادته ، ولم يكن متبعاً لذكره الذي أنزله ـ وهو القرآن ـ كان من أولياء الشيطان ولوطار في الهواء أو مشى على الماء ، فإن الشيطان يحمله في الهواء "[٣]

وقال أيضاً : فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية ، كالكهان والسحرة وعباد المشركين ، وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص ولياً ، وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله ، فكيف إذا علم منه مايناقض ولاية الله "[٤]

وقـال أيضـاً منبهاً على أن بعض الناس الذين يعتقدون الولاية في شخص ما يعتمدون في ذلك على صدور بعض المكاشـفات عنه في بعض الأمور " أو بعض التصرفات الخارقة للعادة ، مثل ان يشير إلى شخص فيموت ، أو يطير في الهـواء إلى مكة أو غيرها أو يمشى على الماء أحياناً ، أو يملأ إبريقاً من الهواء أو يختفي أحياناً عن أعين الناس أوأن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاءه ، فقضى حاجته ، أو يخبر الناس بما سرق لهم ، أو بحال غائب لهـم أو مـريض أو نحو ذلك من الامور ، وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي الله ، بل قد اتفق أوليـاء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى ينظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه .

وكـرامات أولياء الله تعالى ، أعظم من هذه الأمور ، وهذه الأمور الخارقة للعادة قد يكون صاحبها عدواً لله فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين ، وأهل الكتاب والمنافقين ،وتكون لأهل البدع ،وتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله "[٥] .

وقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هذه المكاشفات " قد توجد في أشخاص ، ويكون أحدهم لايتوضأ ،ولايصلي الصلوات المكـتوبة بـل يكون ملابساً للنجاسات، معاشراً للكلاب يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل ، رائحته خبيثة ، لايـتطهر الطهارة الشرعية ولايتنظف ... فإذاكان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان او يأوي إلى الحمامـات والحشـوش الـتي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزنابير ، وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسـق ، أويشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان ، أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها أويسـجد إلى ناحيـة شيخه ولايخلص الدين لرب العالمين ، أويلابس الكلاب أو الفيران ، أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسـة ، أويأوي إلى المقابر ، ولاسيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أوالمشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عـنه ويقـدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن فهذه علامات أولياء الشيطان " [٦] .

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص ١٨ ـ ١٩) .

(٢) نفسه ، ص١٩) .

(٣) نفسه (ص٣٩) .

(٤) نفسه (ص ٣٩) .

(٥) نفسه (ص ٦١ ـ ٦٢) .

(٦) نفسه (ص ٦٤ ـ ٦٥) .

ويؤيد ابن تيمية كلامه بماحصل له في الواقع فيقول :"وأعرف من هؤلاء عدداً ، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به ، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس او لعطاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك "[١] .

وذكر شيخ الإسلام — أيضاً — عن فجور هؤلاء الشيوخ المشعوذين الممخرقين ماينخلع له القلب ويتفطر له الفؤاد ممن يزعمون أنهم أولياء لله ، يقول ابن تيمية : " وشيخ أخبرني نفسه انه كان يزني بالنساء ويلوط بالصبيان ٠٠٠ وكان يقول : يأتيــني كلب اسود بين عينية نكتتان بيضاوان فيقول لي : فلان ابن فلان نذر لك نذراً وغداً نأتيك به ، وأنا قضيت حاجته لأجلك فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ويكاشفه هذا الشيخ الكافر ٠٠ قال :وكنت أمشي وبين يدي عمود أسودعليه نور فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلي ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود"[٢] .

"وكــثير ممــن يستغيث بالمشايخ فيقول ياسيدي فلان ، أوياشيخ فلان اقض حاجتي فيرى صورة ذلك الشيخ يخاطبه ويقــول له أنــا اقضــي لك حاجتك ، أو طيب قلبك ، فيقضي حاجته أو يدفع عنه عدوه ، ويكون ذلك شيطاناً قد تمثل في صورته لما أشرك بالله فدعا غيره ٠

وأنــا أعرف من هذا وقائع متعددة ، حتى ان طائفة من أصحابي ذكروا أنهم استغاثوا بي في شدائد أصابتهم ، أحدهم كان خائفاً من الأرمن ، والأخر خائف من التتر ، فذكر كل منهم انه لما استغاث بي رآني في الهواء وقد دفعت عنه عدوه ، فأخبرتهم أني لم أشعر بهذا ، ولادفعت عنكم شيئاً ، وإنما هذا شيطان تمثل لأحدهم فأغواه لماشرك بالله تعالى "[٣] .

"فكلما بعدوا عن الله ورسوله — ﷺ — وطريق المؤمنين قربوا من الشيطان ، فيطيرون في الهواء ، والشيطان طار بهــم ، ومنه من يصرع الحاضرين وشياطينه صرعتهم ، ومنهم من يحضر طعاماً وإداماً ، ويملأ الإبريق ماء من الهواء والشــياطين فعلت ذلك فيحسب الجاهلون أن هذه كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هي من جنس أحوال السحرة والكهنة وأمثالهم " [٤] .

وقد بين ابن تيمية بعض طرق الشيطان في أغواء الخلق فقال : " أنا اعرف من تخاطبه النباتات بمافيها من المنافع ، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها ، وأعرف من يخاطبهم الشجر والحجر وتقول هنيئاً لك ياولي الله ، فيقرأ آية الكرسي فيذهــب ذلــك ، وأعــرف من يقصد صيدالطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول : خذني حتى يأكلني الفقراء ، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنسان ويخاطب بذلك ، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس ،وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار ، أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه ، فإذا أقرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله " [٥] .

ومــن هــذه الطرق الشيطانية التي يفعلها الشيطان لإغواء الخلق " أن كثيراً من العباد يرى الكعبة تطوف به ، ويرى عرشــاً عظيمــاً ، وعليه صورة عظيمة ، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويظن ان تلك الصورة هي الله — تعالى وتقدس — ويكون ذلك شيطاناً ٠

وقــد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس ، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه شيطان كالشيخ عبد القادر في حكايته المشــهورة حيــث قال : كنت مرة في العبادة ، فرأيت عرشاً عظيماً وعليه نور ، فقال لي : ياعبد القادر أنا ربك ، وقد حلــلت لــك ماحــرمت على غيرك ، قال فقلت له :أنت الله الذي لاإله إلا هو ؟ إخسأ ياعدو الله ، قال فتمزق ذلك النور ،

---

(١) نفسه (ص ٨٧) ٠

(٢) جامع الرسائل (١/١٩٣ — ١٩٤) ٠

(٣) نفسه (١/١٩٥) ٠

(٤) نفسه (١/١٩٦) ٠

(٥) مجموع الفتاوي (١١/٣٠٠) ٠

وصـــار ظـــلمة ، وقال : ياعبدالقادر نجوت مني بفقهك في دينك ، وعلمك وبمنازلاتك في أحوالك ، لقد فتنت بهذه القصة سـبعين رجـــلاً ، فقيـــل له : كيف علمت انه الشيطان ؟ قال : بقوله لي : حللت لك ماحرمت على غيرك ، وقد علمت أن شريعة محمد ــ ﷺ ــ لاتنسخ ولاتبدل ، ولأنه قال : أنا ربك ، ولم يقدر أن يقول أنا الله الذي لا إله إلا أنا ٠

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئي هو الله ، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى في اليقظة ، ومستندهم ما شاهدوه ،وهم صادقون فيما يخبرون به ، ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان ٠

وهـــذا قـــد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد ، يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا لأن كثيرا منهم رأى ماظن أنه الله ، وإنما هو شيطان ٠

وكـــثير مـــنهم رأى من ظن أنه نبي او رجل صالح أو الخضر ، وكان شيطاناً ٠٠٠ فمن ظن أن المرئي هو الميت فإنما أتى من جهله ، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وبعض من رأى هذا ــ أو صدق من قال إنه رآه ــ اعتقد أن الشخص الواحد يكون بمكانين في حالة واحدة فخالف صريح المعقول٠

ومنهم من يقول هذه رقيقة ذلك المرئي أو هذه روحانيته ، أو هذا معناه تشكل ، ولايعرفون انه جني تصور بصورته " [١]

وهذا والله ــ الذي ذكره ابن تيمية هو عين الصواب ، وأن من قال بتمثل الولي أو بتشكله وظهوره للعيان في أكثر من مكان وفي وقت واحد ، فقد خالف المعقول والمنقول ٠

ــ أمـــا العقل فيحيل وجود شخص واحد في مكانين في وقت واحد ، ومن جعل ذلك واقعاً ، فقد جعل المستحيل ممكناً وهو باطل ٠

ــ وأما النقل ، فلم ينقل عن النبي ــ ﷺ ــ نفسه أنه حصل له ذلك ، ولا الصحابة ولا التابعون لهم بإحسان كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية ٠

والحـــل الوحيـــد لذلك الاشكال هو ماذكره الشيخ ابن تيمة ان الجن يتمثلون بالشخص ويتشكلون بصورته ، فإن كان ساحراً دجالاً فقد يقع ذلك بعلمه وبفعله وإن كان صالحاً تقياً فإنه يقع بدون علمه وعلىذلك فلاتطور للولي ولاتشكل ولاتمثل ، بل هي من خرافات الدجالين ٠

فالحقيقـــة أن هـــؤلاء الـــزاعمين لـــلولاية ويظهرون للناس الخوارق التي يلبسون بها على العامة ويخدعون الطغام يستخدمون الشياطين والجن ، يتقربون إليهم بالشرك فتخدمهم الشياطين يقضون لهم بعض أغراضهم ، ذكر ابن تيمية ، أن كـــثيراً من هؤلاء يكتبون كلام الله بالنجاسة ، وقد يقلبون حروف كلام الله عزوجل ، إما حروف الفاتحة ، وإما حروف قل هـــو الله أحد ، وإما غيرها ، ويذكر أنهم قد يكتبون كلام الله بالدم أوبغيره من النجاسات ، وقد يكتبون غير ذلك ممايرضاه الشيطان ، أو يتكلمون بذلك ، فإذا قالوا أو كتبوا ماترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم[٢] ٠

فهذا الذي ذكره الجلال السيوطي من خرافة " تطور الولي " هي من هذا القبيل ، ومن هذه الأنواع والأعمال السحرية التي يموه بها الزنادقة على الناس ، لايخرج عن ذلك ٠

وأقـــول : يرحم الله السيوطي فهذه إحدى زلاته التي اكتشفناها بعد طول البحث معه في كتبه ورسائله ومصنفاته ، بل هـــي زلـــة عظيمة من مثله ، فالرجال العظام تبدو زلاتهم عظيمة حتى ولوكانت في حق غيرهم صغيرة ، ولعل الله تعالى يغفرها له بسبب ماقدم من خدمة للدين جليلة ، في جانب اللغة والتفسير والحديث وعلومها ، وكذلك الفقه وأصوله والتاريخ والرجال ، ولعل دعاء ناله واستغفارنا له يكون سبباً آخر لمغفرة الله تعالى له والعفو عنه ، إنه جواد كريم ٠

---

(١) مجموع الفتاوي (١/١٧١ــ ١٧٣) ٠

(٢) انظر السابق نفسه (١٩ / ٣٥) ٠

الخاتمة

بعد ان عايش الباحث ،ويعايش ايضا القارئ هذا البحث فإنه يخرج منه بالنتائج التالية :

١- السيوطي مكثر من التأليف ،ولهذا الإكثار من تصنيف الكتب أسباب كثيرة ووجيهة ذكرت خلال البحث .

٢- دعوى السيوطي لنفسه بلوغ مرتبة الإجتهاد ، ليست دعوى مبالغا فيها بل هي حقيقة يدل عليها ذلك الكم الهائل من المصنفات والمؤلفات العلمية والتي اصبح الكثير منها معتمدا لدى العلماء والدارسي والباحثين وطلاب العلم كما انه شهد له بالإمامة في الدين ،وهذا مما يدل على بلوغه تلك الرتبة .

٣- ولكن مع الإ قرار ببلوغ السيوطي تلك المترلة والمكانة العلمية ، فإنه ليس بمعصوم من الزلل والخطأ ،شأنه في ذلك شأن جميع البشر — عدا الأنبياء — والمرسلين وان مأاخطأ عند الإجتهاد فيه فله اجر الإجتهاد ،ولا يمنعنا هذا أن نقول عنه ان قد جانب الصواب في بعض المسائل من غير تعنيف ولا تجريح ،مع ماتكنه له قلوبنا وعقولنا من المحبة في الله تعالى ،ومع دعائنا له بالرحمة والمغفرة ،وان يتجاوز الله تعالى عن زلاته وزلاتنا ، فزلاتنا واخطاؤنا وذنوبنا بجانبها بحار لاسواحل لها .

٤- احسن السيوطي في امور عظيمة منها : انتقاده حركة الترجمة التي استفحل امرها في عهد العباسيين ،وكذلك نقده المنطق والفلسفة وعلم الكلام ، واحسن كذلك في الدعوه إلى التمسك بالسنة ، والتحذير من البدعة ، واحسن في كلامه عن توحيد الألوهية ،وتوحيد الربوبية وفي كلامه عن النبوات وما يتعلق بها ،وفي تقريره عقيدة الإيمان باليوم الآخر ،وترجيحه نبوة سيدنا الخضر — عليه السلام — .

٥- ويتفق السيوطي مع السلف واهل السنة ، في ان دين الإسلام بني على الإتباع ،وانه لامصدر لتلقي المعرفة الدينية إلا من جهة الوحيين الكتاب والسنة ،وان مهمة العقل التلقي والفهم عن الله تعالى وعن رسوله — صلى الله عليه وسلم — والخضوع لسلطان الشرع ،وان العقل لايستقل بالمعرفة عن الوحي ،وفي هذا رد على المعتزلة الذين مجمدوا العقل وقدموا احكامه على النقل ،الذي هو كتاب الله وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم —.

٦- اثبت السيوطي قدم الصانع ، وحدوث العالم ،واثبت حشر الأجساد ،وهذا كالرد على الفلاسفة الذين قالوا بقدم العالم وانكروا حشر الأجساد وما اثبته السيوطي حق لايقول بخلافه مسلم .

٧- يتفق السيوطي مع اهل السنة والجماعة في ان اسماء الله توقيفية لايجوز لأحد من البشر تسميته تعالى بأسماء لم يسم بها نفسه الكريمة ، أو لم يسمه بها رسول — صلى الله عليه وسلم .

٨- السيوطي معتد بنفسه اعتدادا قد يصل احيانا حد ا لمغالاة ،كما يظهر من بعض كلامه ،ولعل هذا كان احد الأسباب التي ادت إلى وقوع الخصوصية بينه وبين اقرانه من العلماء.

٩- ولكن السيوطي مع ماسبق من جوانب محاسنه للعديدة — رحمه الله — اشعري المعتقد ، فقد صرح عن نفسه بذلك بجانب ماتبين من منهج خلال البحث ، كما ظهر ذلك من طريقته في تأويل الصفات ،وقوله بالكلام النفسي ،وإيجابه المعرفة الموجبة للظر.

١٠- وتظهر أشعرية السيوطي بوضوح تام عندما تكلم عن التأويل ،واختياره المعنى الثالث له ،وهو المعنى المحدث الذي لم يكن في القرون الأولى المفضلة ،وجعله هو الأساس الذي بنى عليه دراسة للصفات.

١١- قرر السيوطي ان مذهب السلف في الصفات هو التفويض ، بمعنى ان السلف الصالح — رحمهم الله — آمنوا بالصفات دون ان يعلموا لها معنى مراءا ففوضوا علمها إلى الله ،وتركوا البحث عن معانيها ، وزعم ان التفويض اسلم وهذا خطأ فأحسن ،وجهل بمذهب السلف الذي هو اثبات الصفات ، والإيمان بها ،ومعرفة معانيها وتفسيرها دون الخوض في الكيفية لأنها غيب.

١٢- ذهب السيوطي كبقية الأشاعرة إلى ان مذهب الخلف هو تأويل الصفات حذرا من التشبه — زعم — كما زعم ان هذا المذهب هو أحكم ،ولكن البحث قد بين ان مذهب السلف هو الأسلم ،والأعلم ،والأحكم.

١٣- حكى السيوطي مذاهب العلماء في صحة إيمان المقلب ،و لم يرجح واحدا منها صراحة ،وإن كان المتبادر إلى الذهن أنه لايخرج عن كلام الأشعري.

١٤- لم يـــتطرق السيوطي إلى فطرية المعرفة ، وهذا يدل على قناعته بأنها نظرية ،وهذا خلاف مايقوله السلف من ان المعـــرفة فطرية ،وان الرسل ـــ عليهم السلام ـــ لم يرسلوا لدعوة الناس ان يعرفوا الله ،بل ليعبدوا الله تعالى الذي استقرت معرفته في الفطر البشرية .

١٥- وهو مع تبحره في الحديث وعلومه حتى لقب بأنه حافظ ، أو انه خاتمة الحفاظ ،فإننا نجده إذا صنف في مسألة ما ،جمـــع تحتها جميع ماورد فيها من احاديث وآثار صحيحة وسقيمة وواهية ، من غير تحقيق ولا تمحيص ،حتى لقبه بعض الباحثين بأنه حاطب الليل. .

١٦- السيوطي ينتقد علم الكلام ، ويحرمه ويحاربه ، ويبدع من يشتغل به ،ويجعله مردود الرواية والشهادة ، غير موثوق في علمه وفي نفس الوقت يعتقد عقيدة الأشاعرة ،وهذه ازدواجية عجيبة قد اجبنا عليها خلال البحث.

١٧- وهوايضـــا صوفي ،وتظهر صوفيته من خلال كلامه عن السلوك والأحوال ،فهويتبنى مصطلحات الصوفية وبعض عقائدهم البدعية.

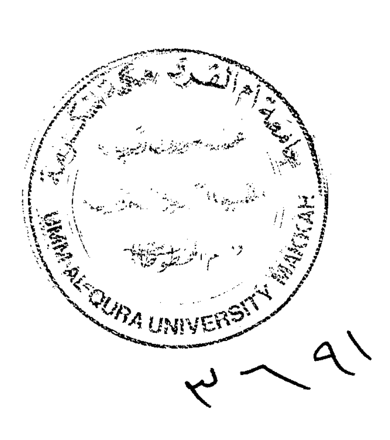
١٨- ومن تصوفه قوله بوجود الأقطاب والأبدال والنجباء والأوتاد ،وهذا كله لادليل عليه إلا أوهام وتخرصات.

١٩- وهـــو مع تبنيه القول بنبوة الخضر ـــ عليه السلام ـــ وهذا صحيح إلا انه صح إلى القول بحياته ووجوده بعد وفاة النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وهذا ايضا لا دليل عليه .

٢٠- وهو بعد ذلك ايضا يذم طريقة الهالك ابن عربي الطائي صاحب الفتوحات والنصوص ،ويصفها بأنها طريقة كلها زندقة وكفر ،وهذا ايضا حق لامرية فيه.

٢١- قول السيوطي بنظور الولي قول باطل بدعي لادليل عليه.

هذا واسأل الله تعالى ان يرزقنا الإخلاص في كل قول وعمل ،وان يمن علينا باتباع كتابه الكريم وسنة نبيه محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ اتباعا سليما صحيحا نقيا خاليا من البدع والأهواء ، كما كان عليه سلفنا الصالح ،وان يجنبنا الزلل، ومزالق الأهواء ، وان يغفر لي ولوالدي ولمشايخي ولجميع المسلمين انه سميع مجيب ،وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.



بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الآيات

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة ابراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة العصر

سورة الكوثر

سورة الإخلاص

سورة الفلق

فهرس الأحاديث الشريفة والآثار

الألف

(الباء)

التاء

الحاء

الخاء

الراء

الشين

العين

الغين

الفاء

الكاف

اللام

الميم

النون

الهاء

الواو

الياء

فهرس محتويات الرسالة